


أو

# إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم


تأليف

القاضي أبي السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي
المتوفى سنة ٩٨٢ هـ

تحقيق

خالد عبد الغني محفوظ


الجزء الأول

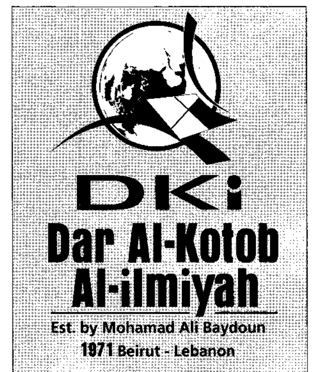
المحتوى :

سورة الفاتحة - سورة البقرة



http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com sales @al-ilmiyah.com baydoun@al-ilmiyah.com


| | | | |
|---|---|---|---|
| **Title** | : **THE EXEGESIS OF THE HOLY QUR'AN** | تفسير أبي السعود : | **الكتاب** |
| **Classification:** | Exegesis of The Qur'an | تفسير قرآن : | **التصنيف** |
| **Author** | : Al-qāḍi Abu al-Su<sup></sup>ʿūd al-ʿImādi | أبو السعودمحمد بن محمد العمادي: | **المؤلف** |
| **Editor** | : Ḫālid Abdul-Ġani Maḥfūẓ | خالد عبد الغني محفوظ : | **المحقق** |
| **Publisher** | : Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah | دار الكتب العلميـــة - بيروت : | **الناشر** |
| **Pages** | : 4160 (8 volumes) | 4160 (8 أجزاء) : | **عدد الصفحات** |
| **Size** | : 17*24 | 17*24 : | **قياس الصفحات** |
| **Year** | : 2010 | 2010 : | **سنة الطباعة** |
| **Printed in** | : Lebanon | لبنـــان : | **بلد الطباعة** |
| **Edition** | : 1st | الأولى (لونان) : | **الطبعة** |

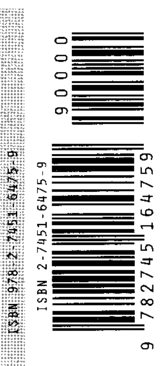




Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون،القبة،مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: +٩٦١ ٥ ٨٠٤٨١٠/١١/١٢
فاكس: +٩٦١ ٥ ٨٠٤٨١٣
ص.ب: ١١-٩٤٢٤ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠



ISBN 978-2-7451-6475-9



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

# مقدمة التحقيق

## حياة أبي السعود

الحمد لله الذي علَّم القرآن والبيان، والصلاة والسلام على أفصح ولد عدنان، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان، وبعد. من المعلوم لدى الخاصة والعامة أن علم التفسير يعد من أرفع العلوم قدرا وأشرفها منزلة إذ هو كما قال ابن عطية رحمه الله: «فلما أردت أن أختار لنفسي وأنظر في علم أُعِدُّ أنواره لظُلَم رمسي سبرتها بالتنويع والتقسيم وعلمت أن شرف العلم على قدر شرف المعلوم فوجدت أمتنها حبالاً وأرسخها جبالاً وأجملها آثاراً وأسطعها أنواراً علم كتاب الله جلت قدرته وتقدست أسماؤه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد الذي استقل بالسنة والفرض ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض هو العلم الذي جعل للشرع قواماً واستعمل سائر المعارف خدامًا»؛ من هنا تأتي المقدمة على نحو هذا الترتيب.

**١- عصره:**

**٢- اسمه ونسبه ومولده.**

**٣- شيوخه، ووظائفه.**

**٤- علمه، وفضله، ومناقبه، وشِعره، ووفاته.**

**٥- تصانيفه.**

**٦- التعريف بالتفسير، والهدف منه، ومنهجه في تأليفه.**

# عصره

عاش العلامة أبو السعود حياته في ظل الدولة العثمانية في الفترة ما بين سنة ثمانمائة وثمان وتسعين للهجرة ٨٩٨ هـ إلى سنة تسعمائة واثنتين وثمانين للهجرة (٩٨٢ هـ) بحيث يمكن القول بأن حياته قد استغرقت جل القرن العاشر الهجري، والسادس عشر الميلادي وكانت الدولة العثمانية تعد من أقوى دول العالم، وكان على رأسها في أولها السلطان بايزيد الثاني ابن السلطان محمد الفاتح، وكان ملكا محبًّا للسلام، فوقفت حدود الدولة في عهده عند فتوح أبيه، وقد خرج عليه ابنه سليم الأول، فانضم إليه جيش الإنكشارية، فترك له الحكم سنة ثمان عشرة وتسعمائة للهجرة (٩١٨ هـ) الموافقة لسنة اثنتي عشرة وخمسمائة وألف ميلادية (١٥١٢م). فقام السلطان سليم الأول بعد أبيه بالحكم، وابتدأه بقتال الطامعين فيه من إخوته وأبنائهم حتى قضى عليهم، ثم توجه إلى قتال الشاه إسماعيل مؤسس الدولة الصفوية ببلاد فارس، فحاربه واستولى على مدينة تبريز قاعدة ملكه وانتزع منه العراق وما إليه من البلاد.

ثم توجه بعد هذا إلى قتال المماليك بمصر، فحاربهم حتى أسقط دولتهم سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة للهجرة (٩٢٣ هـ)، الموافقة لسنة سبع عشرة وخمسمائة وألف ميلادية (١٥١٧م)، وانتزع لنفسه الخلافة الصورية من آخر خلفاء الخلافة العباسية في مصر، وبهذا صار ملوك الدولة العثمانية التركية خلفاء المسلمين بعد أن كانوا ملوكًا لدولتهم فقط، ثم توفي السلطان سليم سنة ست وعشرين وتسعمائة للهجرة (٩٢٦ هـ)، الموافقة لسنة عشرين وخمسمائة وألف ميلادية (١٥٢٠م) فخلفه ابنه السلطان سليم الأول القانوني، وفي عهده وصلت الدولة إلى نهاية عظمتها، فاستولت على بلاد الصرب والمجر، ووصلت فتوحاتها إلى فيينا قاعدة النمسا، واستولت على الجزائر وغيرها من بلاد المغرب، واستولت على اليمن وغيره من بلاد العرب، وكان لهذا السلطان إصلاحات دينية ومدنية، ثم توفي سنة أربع وسبعين وتسعمائة هجرية (٩٧٤ هـ) الموافقة لسنة ست وستين وخمسمائة وألف ميلادية (١٥٦٦م) فخلفه ابنه سليم الثاني، وكان ضعيفًا لا يتحلى بالصفات التي تمكنه من

إدارة هذه المملكة الواسعة، ولهذا اعتمد على وزيره محمد باشا صقلي في تدبير أمور الدولة، وإلى هذا الوزير يرجع الفضل في المحافظة على الدولة في عهد السلطان سليم الثاني وقد تم في عهد هذا السلطان الاستيلاء على مدينة تونس من بلاد المغرب، فانتهت بذلك الدولة الحفصية سنة إحدى وثمانين وتسعمائة للهجرة (٩٨١هـ) الموافقة لسنة ثلاث وسبعين وخمسمائة وألف ميلادية (١٥٧٣م).

وتوثقت في عهد هذا السلطان العلاقة بين الدولة العثمانية وفرنسا، حتى أباح لفرنسا أن ترسل بعوثًا دينية إلى البلاد الإسلامية، وكانت فرنسا تقصد من وراء هذه البعثات تربية الطوائف المسيحية الموجودة بين المسلمين على الولاء لها، وقد كان لذلك العواقب السيئة في القرون التالية، ثم توفي هذا السلطان سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة للهجرة (٩٨٢هـ)، الموافقة لسنة أربع وسبعين وخمسمائة وألف ميلادية (١٥٧٤م)، فخلفه ابنه مراد الثالث.

ومن هذا يتضح أن الفترة التي عاشها الإمام أبو السعود تعد من أقوى الفترات لسلاطين آل عثمان، وهي من أزهى عصور الحركة الفكرية في ذلك الوقت.

وكانت العلوم الدينية تحتل المكان الأول من اهتمام المشتغلين بالعلم في هذه الفترة، وكانت العلوم الشائعة عندهم صنفين: العلوم النقلية، ويراد بها: الفقه، والحديث، والتفسير، ونحوه؛ والعلوم العقلية وهي التي تعرف بالعلوم اللسانية في وقتنا الحاضر، ويراد بها: النحو، والبيان، واللغة، وكانت تحتل المكان الثاني من عنايتهم.

وساعد على نمو الحركة الفكرية في هذا العصر تشجيع السلاطين لها، فقد كان السلطان محمد الفاتح يجمع في شخصه جميع مظاهر عصره الفكرية والثقافية، فناصر العلوم الإسلامية، والأدبية، وكان مولعًا بالشعر، كما كان شديد الاهتمام بالنهضة التي كانت تتفتح في إيطاليا، وطلب من بعض الحكومات الجزية في هيئة مخطوطات علمية تجمع من إيطاليا[١].

كذلك اتجه السلطان بايزيد الثاني إلى سياسة السلم، ورعاية العلم، والعلماء، وكان يجد في رعاية العلوم متعة عقلية كبيرة، واهتم بإنشاء المساجد والمدارس[٢].

وجَدَّ السلطانُ سليم الأول في جذب العلماء والصناع إلى عاصمة الخلافة، واهتم برعاية العلم والعلماء، وأنشأ المدارس والمكتبات؛ حتى غدت القسطنطينية عاصمة

---

(١) الأتراك العثمانيون وحضارتهم (٥٥). (٢) السابق نفسه.

كبرى للعلوم والفنون والصناعات.

ومما يدل على ثراء الحركة العلمية في ذلك العصر كثرة العلماء الذين ذكرتهم كتب السير والأعلام في هذه الحقبة الزمنية مثل: «الشقائق النعمانية من علماء الدولة العثمانية»، و«العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم»، و«خلاصة الأثر»، وغير ذلك مما سطّره المؤرخون في هذا العصر.

وكان العلامة أبو السعود واحدًا من أبناء هذا العصر الذي نشأ في ظله، وعاش مطبوعًا بطابع عصره، مؤثرًا فيه، ومتأثرًا به.

## اسمه ونسبه

هو محمد بن محمد بن مصطفى العماد(١) الأسكليبي(٢).

هذا هو المعتمد عند أكثر علماء السير، لكن ذكر الشيخ عبد القادر العيدروسي في «النور السافر» أن اسمه: محمد بن مصطفى(٣).

وليس ذلك بصحيح؛ فوالده محيي الدين محمد بن مصطفى كما جاء في «الشقائق النعمانية» (٤).

وذكره طاش كبري زاده بكنيته، فقال: هو أبو السعود بن محمد بن مصطفى العمادي، ولم يذكر اسمه(٥).

## مولده

تنازع المؤرخون في تحديد السنة التي ولد فيها العلامة أبو السعود، فذكر العيدروسي في «النور السافر» أنه ولد في أسكليب في التاسع عشر من صفر سنة ست وتسعين وثمانمائة للهجرة (٨٩٦هـ).

وذكر طاش كبري زاده: أنه ولد في سنة ثمان وتسعين وثمانمائة للهجرة (٨٩٨هـ)، بقرية قريبة من القسطنطينية، من خواص أوقاف الزاوية التي بناها السلطان بايزيد خان لوالده.

---

(١) ولهذا يقال: أبو السعود العمادي نسبة إلى لقب أبيه، والعماد الأبنية الرفيعة العالية، والعمادية قلعة شمالي الموصل.
ينظر: حاشية السقا (١/ ١١١)، والشقائق النعمانية (١/ ٢٨٣، ٢٨٥).

(٢) نسبة إلى أسكليب قرية قريبة من القسطنطينية.

(٣) النور السافر (٢٣٩).

(٤) ص (١٣٨).

(٥) العقد المنظوم (٢/ ٢٨٢).

ويتفق الزركلي في قاموس الأعلام مع ما ذكره طاش كبري زاده؛ فيؤرخ لمولد أبي السعود بسنة ثمان وتسعين وثمانمائة (٨٩٨هـ).

وهذا هو الذي نرجحه هاهنا؛ لأن طاش كبري زاده يعد من أوثق الناس بأبي السعود؛ لإحاطته بأخباره؛ فهو أعلم بتاريخ مولده من غيره.

## شيوخه

تلقى أبو السعود العلم على عدد من فقهاء عصره، وكان لهؤلاء الفقهاء أثر كبير في تكوينه العلمي.

وكان أول من تلقى أبو السعود العلم على يديه هو والده؛ الذي تعهده منذ نعومة أظفاره بالتربية والتعليم وأقرأه العديد من الكتب، وفي هذا يقول أبو السعود: «قرأت على والدي الشيخ محيي الدين حاشية التجريد للسيد الشريف الجرجاني من أول الكتاب إلى آخره مع جميع الحواشي المنقولة عنه وقد قرأت عليه شرح المفتاح، وشرح المواقف»[1].

كما أورد أبو السعود عددًا من شيوخه وأساتذته في إجازته للشيخ عبد الرحمن ابن الشيخ جمال الدين الشهير بشيخ زاده[2].

فذكر من هؤلاء الشيوخ: العلامة أبا المعالي عبد الرحمن بن علي المؤيد، تلميذ الجلال محمد بن أسعد الدواني، تلميذ العلامة السيد الشريف الجرجاني.

والعلامة: أبا الفضائل، سيدي محمد بن محمد، تلميذ المولى المشتهر بحصن جلبي، محشي شرح المواقف.

وكان الشيخ - رحمه الله - كثير الثناء على شيوخه مبجلاً لهم.

## وظائفه

تقلَّد العلامة أبو السعود عدة وظائف يمكن إبرازها فيما يلي:

### ١- التعليم والتدريس:

بعد أن تمكن أبو السعود من العلوم والمعارف الدينية توجه نحو التعليم والتدريس، وكان على قدر كبير من العلم والذكاء والفطنة، كما كان إنتاجه العلمي وفيرًا غزيرًا، ولهذا كان اهتمام الناس به أكثر، واستفادة الخلق منه أكبر، وهذا ما

---

(١) العقد المنظوم (٢/ ٢٨٣).

(٢) السابق الصفحة نفسها.

تحكم به العادة وتميل إليه الطبيعة، مع من يمتلك مثل هذه الشخصية العلمية المتميزة، التي كان يتمتع بها أبو السعود.

وقد اشتغل أبو السعود بالتدريس في عدة مدارس لفترة طويلة، ومن المدارس التي عمل بها:

مدرسة داود باشا بمدينة القسطنطينية.

ومدرسة علي باشا بالقسطنطينية أيضًا.

ولما بنى الوزير المصطفى باشا مدرسته التي بقصبة «ككيويزه» نقل إليها.

ثم نقل إلى مدرسة السلطان محمد بمدينة بروسة.

**٢- القضاء:**

يعد تولي أبي السعود القضاء من أهم الأدلة التي تكشف عن منزلة هذا الرجل، وعلو مكانته، وعظيم علمه؛ وذلك لأن القضاء يعد من الوظائف الداخلة تحت الخلافة؛ لأنه منصب قد جعل للفصل بين الناس في الخصومات، إلا أنه بالأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة؛ فكان لذلك من وظائف الخلافة ومندرجًا في عمومها[١]، وقد قرر الفقهاء حكمة مشروعية كل من الخلافة والقضاء بما يؤكد هذه الحقيقة، ويدعم الصلة الوثيقة بين الخلافة والقضاء، فقالوا: إن حكمة إقامة الخلافة في الأرض هي الإنابة عن الشارع في حفظ الدين وسياسة الدنيا، وقالوا عن حكمة مشروعية القضاء: إنها حفظ النظام ودفع الضرر العام[٢].

وقال بعضهم عن حكمة القضاء: إنه وجد لرفع التهارج، ورد التواثب، وقمع الظالم، ونصر المظلوم، وقطع الخصومات، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر[٣].

ويختص القضاة فيما يتم التنازع فيه بين المتخاصمين من الحقوق، كالنظر في الأحباس، والوصايا، وعقود الأنكحة، وإثبات الرشد، والحجر على مستحقيه، وقسمة المواريث، والنظر للأيتام، وأموال الغائبين، والنظر في الجراحات، ونحو ذلك.

فالقضاء من المناصب الجليلة والخطيرة؛ لأنه يحقق العدل في الأمة، وعلى العدل تقوم الدولة الصالحة، وقد أحاطت الشريعة هذا المنصب باحترام شديد

---

(١) ينظر: مقدمة ابن خلدون (١٩٦).

(٢) ينظر: بدائع السلك في طبائع الملك (١/ ٢٥٠).

(٣) ينظر: معين الحكام للطرابلسي (٧)، وبدائع السلك في طبائع الملك (١/ ٢٥٠).

ونظمت أحكامه وقواعده وصفات من يتولاه وأصول التقاضي[(١)] وكل هذا يؤكد علو منزلة من يتولى منصب القضاء، وعظيم فضله؛ وهو ما ينطبق تمام الانطباق على الشيخ أبي السعود.

وكان لسعة علم هذا الشيخ الجليل - رحمه الله - وعظيم فقهه، ونور بصيرته؛ قلده السلطان قضاء «بروسة».

ثم انتقل إلى قضاء القسطنطينية.

ثم انتقل إلى قضاء العسكر في ولاية «روم إيلي» ودام عليها مدة ثماني سنين[(٢)].

وكان قاضي عسكر الروم إيلي مختصًّا بقضاء بلاد البلقان، وبقية الأقاليم العثمانية في أوربا، ويعد من أرفع المناصب القضائية التي وليها الشيخ[(٣)].

وفي أثناء توليه القضاء لم ينقطع عن التدريس مع تنقله مع السلطان سليمان في مغازيه وفتوحاته العظمى بآسيا وأوربا، فقد كان عند منازلة الجيش بقيادة السلطان سليمان القانوني قلعة بلغراد، يدرس لبعض ملازميه من الطلبة سورة الفتح بتفسير الكشاف، ويملي عليهم حاشيته[(٤)].

### ٣- الإفتاء:

مما يدل على غزارة علم أبي السعود، وسعة تبحره في الفقه وعلوم الدين توليه لمنصب الإفتاء، هذا المنصب الذي يعد من يتولاه خليفة عن المصطفى ﷺ في تبيين الحلال والحرام؛ حيث كان المصطفى ﷺ هو أول من قام بهذا المنصب الشريف فكان يفتي عن الله بوحيه المبين، وكان كما قال له أحكم الحاكمين: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [سورة ص: ٨٦]، فكانت فتاويه ﷺ جوامع الأحكام، ومشتملة على فصل الخطاب.

ثم قام بالفتوى من بعده حصن الإسلام، وعصابة الإيمان، وعسكر القرآن، وجند الرحمن، من أصحابه ﷺ. وكما أن هؤلاء الصحابة -رضوان الله عليهم- كانوا سادة الأمة وأئمتها وقادتها؛ فهم أيضًا سادات المفتين والعلماء[(٥)].

---

(١) الأحكام السلطانية - الماوردي (٦٥ - ٧٦)، والأحكام السلطانية - لأبي يعلى (٤٨ - ٥٧)، وتحرير الأحكام (٨٨ - ٩٠) (فقرة ٤٧ - ٤٩).

(٢) العقد المنظوم (٢/ ٣٨٣، ٣٨٦).

(٣) الدولة العثمانية دولة مفترى عليها د. عبد العزيز الشناوي (١/ ٤٢٤)، وما بعدها.

(٤) التفسير ورجاله (١١١).

(٥) إعلام الموقعين (١/ ١١ - ١٣).

ولجسامة أمر الإفتاء وعظيم خطره كان السلف من الصحابة والتابعين يكرهون التسرع في الفتوى، ويود كل واحد منهم أن يكفيه إياها غيره، فإذا رأى أنها قد تعينت عليه بذل اجتهاده في معرفة حكمها من كتاب الله والسنة، أو قول الخلفاء الراشدين، ثم أفتى[١].

وهو ما يؤكد أن منصب الإفتاء منصب عظيم، مهيب، لا تستغني عنه الأمة في أي من عصورها، وأن من يتولى هذا المنصب لا بد أن يتمتع بالعلم الوافر، والفقه الغزير، الذي يؤهله لتولي هذه المهمة الجسيمة؛ وهو ما يدل على فضل شيخنا وغزير علمه الذي أهله لتولي هذا المنصب الجليل.

واختصاص واحد بمنصب الإفتاء، لا يقبل الحاكم الفتوى إلا منه، لم يكن معروفاً في القرون الأولى، وإنما كان الإفتاء موكولاً إلى العلماء الأعلام، واستمر ذلك إلى أن دخل السلطان سليم العثماني دمشق سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة من الهجرة وامتلكها، فرأى كثرة المشاغبات بين المدعين للعلم فخصص إفتاء كل مذهب برجل من علمائه الأفاضل قطعاً للمشاغبات[٢].

ولقد دخل الشيخ أبو السعود رحمه الله -الإفتاء، وهو مليء بزاد دسم من العلوم الشرعية واللغوية، فقام به خير قيام، فقصده الوفود، وسيقت إليه الركائب وسارت أجوبته في الآفاق سير النجوم، وكان يكتب الجواب على منوال ما يكتبه السائل من الخطاب، واقعًا على لسان العرب والعجم والروم من المنثور والمنظوم[٣].

فإن كان السؤال منظومًا كان الجواب منظومًا كذلك، وإن كان السؤال نثرًا كان الجواب مثله، وإن كان السؤال بلغة العرب فالجواب بلغة العرب، وإن كان السؤال بلغة الترك كان الجواب كذلك. . . وهكذا، مما يشهد للرجل بسعة أفقه، وغزارة مادته[٤].

وكان الشيخ -رحمه الله- لا يمل كتابة الأجوبة، وتدبيج الفتاوى.

قال الشيخ قطب الدين المفتي: سمعته يقول: جلست يومًا بعد صلاة الصبح أكتب على الأسئلة المجتمعة، فكتبت إلى صلاة العصر على ألف وأربعمائة واثنتي عشرة فتيا[٥].

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ٢٩).
(٢) المدخل إلى مذهب أحمد (٣٩١).
(٣) العقد المنظوم (٢/ ٢٨٦).
(٤) التفسير والمفسرون (١/ ٣٤٦).
(٥) النور السافر (٢٤٠) وينظر حاشية السقا (١/ ١٠).

وسنذكر هنا نموذجًا من هذه الفتاوى، التي كان يكتبها الشيخ أبو السعود -رحمه الله- لنرى براعته في الفتاوى، وتفننه في صياغتها وتجويد أسلوبها.

## نموذج من فتواه

**صورة السؤال:**

«ما قول مولانا وسيدنا وموضح مشكلاتنا، وفاتق رتق عضلاتنا، كعبة المجد والكمال، وقامع الزيغ والضلال، ونقاب العلماء والأعلام، وشيخ مشايخ الإسلام، لا زالت دعائم الشرع شارعة بعين وجوده، وإسعاد الدين كاثرًا بكتائب سعوده - في قوم اتخذوا قول «لا إله إلا الله» موضوعًا لتحريف النغمات ورعاية لصناعة الأصوات، فطورًا يزيدون، وطورًا ينقصون، على حسب ما يلائم الصناعات الباطلات، والآراء الفاسدات، لا يرجون في ذلك لله وقارًا، بل اتخذوا ذلك لبدعتهم شعارًا؟».

**صورة الجواب:**

«ما ذكر أمر مخترع مكروه، ومكر مبتدع بئس ما مكروه، فتردوا في مهاوي الردى ومصارعه، والتحقوا بالذين يحرفون الكلم عن مواضعه، فيجعلون تلاوة المثاني كترنيمات الأغاني، فوالذي أنزلها بالحق المبين، وجعلها كلمة باقية إلى يوم الدين - لئن لم ينتهوا عما هم فيه من المكر الكريه، ولم يرجعوا كلمة التوحيد إلى نهجها السديد؛ ليمسنهم عذاب شديد، وإنما الذي نُدِبَ إليه، وحرص المؤمنون عليه، تزيين الأصوات بالقرآن الجليل، من غير تغيير فيه ولا تبديل، والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل»[١].

وهكذا يتضح أن السؤال قد ورد مسجوعًا، واحتوى على قدر كبير من الثناء والتعظيم، وهي سمة هذا العصر، والجواب كذلك قد التزم فيه أبو السعود السجع، ومع هذا فكلماته جزلة، ومعانيه واضحة، والإجابة دقيقة.

ومن الجدير بالذكر هنا وقد تعرضنا لفتاوى الشيخ أبي السعود -رحمه الله- أن نرد على ما افتراه عليه المستشرق كارل بروكلمان الذي ذكر أنه في سنة سبعين وخمسمائة وألف ميلادية (١٥٧٠م) استصدر السلطان سليم الثاني من الشيخ أبي السعود المفتي الشهير فتوى تبيح له ما لا يجوز عرفًا من الإخلال بشروط السلم،

(١) العقد المنظوم (٢/ ٢٨٦، ٢٨٧).

والمبادرة إلى العدوان ضد البندقية عند بداءة الحرب القبرصية[١].

وهذا الذي ذكره كارل بروكلمان ما هو إلا اختلاق وافتراء من افتراءات أعداء الإسلام، ودسهم على هذا الدين الحنيف، وعلى علمائه الأفاضل؛ إذ إنه من المسلم به أن قضية الإباحة والحظر والحل والحرمة في الشرع لا تخضع لمسمى العرف والعادة، بل هي مضبوطة بالقواعد المقررة في الشريعة الإسلامية من الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس.

والشيخ أبو السعود عندما أصدر الفتوى التي يشير إليها هذا المستشرق، لم يكن يحابي السلطان أو يجامله؛ كما لم يكن يهابه على حساب الشرع، وإنما أصدر فتواه بناء على ما رآه من غدر أهل قبرص، وتربصهم بالمسلمين؛ فلم يخالف بفتواه حدود الشرع الحنيف ولقد جاء في حاشية السقا ما يدل على هذا الذي ذكرناه حيث يقول:

واتفق أن أهل جزيرة قبرص أخذوا في المكر والخداع وقطعوا الطريق على المسلمين في البحر . . . وصاروا يؤيدون قطاع الطريق النصارى، ويساعدونهم على المسلمين إلى أن كثر أذاهم، وعم ضررهم.

فاستفتى مولانا السلطان سليم مفتي الإسلام أبا السعود العمادي، فأفتاه بأنهم غدروا، ونقضوا العهد، وأن قتالهم جائز؛ بسبب ما ارتكبوه من الغدر والخيانة، فجهز عليهم جيشًا[٢].

وهذا النص صريح في إبطال ما زعمه بروكلمان، وبيانه أنه من مطاعن أعداء الإسلام، كما أنه صريح في أن فتوى أبي السعود قد قيلت من منطق المصلحة الإسلامية؛ لأن أعداء الإسلام في ذلك الوقت كانوا يتربصون بالمسلمين الدوائر، ومن هنا فلا عهد، ولا أمان لهم.

## علمه، وفضله، ومناقبه، ووفاته

أثنى على الشيخ أبي السعود كل من ترجم له، أو ذكره، أو أمعن النظر في سيرته وكتبه ومصنفاته.

فقد ترجم له الشيخ محمد عبد الحي اللكنوي في كتابه «الفوائد البهية» وأثنى عليه ثناءً حسنًا، فقال: «شيخ كبير، عالم نحرير، لا في العجم، ولا في العرب له

---

(١) الأتراك العثمانيون وحضارتهم (١٠٢).

(٢) حاشية السقا (١/ ٢٢).

مثيل، انتهت إليه رياسة الحنفية في زمانه، وبقي مدة العمر في الجلالة وعلو الشأن، وكان يجتهد في بعض المسائل، ويخرِّج، ويرجح بعض الدلائل، وله في الأصول والفروع قوة كاملة، وقدرة شاملة، وفضيلة تامة، وإحاطة عامة»[١].

كما أثنى على الشيخ أبي السعود -أيضًا صاحب «العقد المنظوم»، وبيّن علمه وفضله، فقال: «كان -رحمه الله- من الذين قعدوا من الفضائل والمعارف على سنامها وغاربها، وضربت له نوبة الامتياز من مشارق الأرض ومغاربها، وتفرد في ميدان فضله فلم يجاره أحد، وضاقت عن إحاطته صدور الحصر والعد، وحصل له من المجد والإقبال والشرف والإفضال ما لا يمكن شرحه بالمقال[٢].

ولا غرو في هذا الثناء على الشيخ، وإنما هو ثناء في محله، ولا أدل على ذلك من أن السلطان سليمان - رحمه الله - قد جمع العلماء في مجلس واحد، وأحضر العلامة أبا السعود، وأمرهم بمناظرته - على ما حكى صاحب النور السافر فتناظروا وكانت الغلبة لشيخنا العلامة أبي السعود، فرجح قوله.

## أخلاقه وصفاته

كان الشيخ أبو السعود -رحمه الله - يتمتع بجملة من الأخلاق الحميدة التي لاقت استحسانًا من أبناء عصره؛ شعبًا وساسة.

غير أنه -رحمه الله- كان يميل إلى مداراة الناس، ويتقرب إلى أرباب الرياسة، وهو ما سجله عليه طاش كبري زاده حيث يقول: «كان رحمه الله -طويل القامة، خفيف العارضين، غير متكلف في الطعام واللباس، غير أن فيه نوع مداهنة واكتراث بمداراة الناس، وفيه الميل الزائد والنعومة إلى أرباب الرياسة والحكومة، وكان - رحمه الله- ذا مهابة عظيمة، وتؤدة جسيمة، قلما يقع منه في مجالسة العظام المبادرة بالخطاب والكلام»[٣].

ومما يؤكد ما ذكره العلامة طاش كبري زاده ما ذكره العلامة أبو السعود في مقدمة تفسيره من الثناء والمدح على أرباب السلطنة؛ حيث يقول:

«وأهديها إلى الخزانة العامرة الغامرة للبحار الزاخرة، لجناب من خصه الله تعالى بخلافة الأرض، واصطفاه سلطنتها في الطول والعرض؛ ألا وهو السلطان الأسعد الأعظم، والخاقان الأمجد الأفخم، مالك الإمامة العظمى، والسلطان الباهر، وارث

---

(١) ينظر: الفوائد البهية ص (٨١).
(٢) ينظر: العقد المنظوم (٢/ ٢٨٩).
(٣) السابق (٢/ ٢٩١).

الخلافة الكبرى، كابرًا عن كابر، رافع رايات الدين الأزهر، موضح آيات الشرع الأنور، مرغم أنوف الفراعنة والجبابرة، معفر جباه القياصرة والأكاسرة، فاتح بلاد المشارق والمغارب بنصر الله العزيز، وجنده الغالب الهمام، الذي شرق عزمه المنير، فانتهى إلى المشرق الأسنى، وغرب حتى بلغ مغرب الشمس أو دنا بخميس عرمرم متزاحم الأفواج، وعسكر كخضم متلاطم الأمواج؛ فأصبح ما بين أفقي الطلوع والغروب، وما بين نقطتي الشمال والجنوب منتظمًا في سلك ولاياته الواسعة، ومندرجا تحت ظلال راياته الرائعة، فأصبحت منابر الربع المسكون مشرفة بذكر اسمه الميمون؛ فيا له من ملك استوعب ملكه البر البسيط!!! واستغرق فلكه وجه البحر المحيط!!! فكأنه فضاء ضربت فيه خيامه، أو نصبت عليه ألويته وأعلامه، مالك ممالك العالم، ظل الله الظليل على كافة الأمم، قاصم القياصرة، وقاهر القروم، سلطان العرب، والعجم، والروم، وسلطان المشرقين، وخاقان الخافقين، الإمام المقتدر بالقدرة الربانية، والخليفة المعتز بالعزة السبحانية، المفتخر بخدمة الحرمين الجليلين المعظمين، وحماية المقامين الجميلين المفخمين، ناشر القوانين السلطانية، عاشر الخواقين العثمانية، السلطان ابن السلطان، السلطان سليمان خان ابن السلطان المظفر المنصور، والخاقان الموقر المشهور، صاحب المغازي المشهورة في أقطار الأمصار، والفتوحات المذكورة في صحائف الأسفار، السلطان سليم خان ابن السلطان السعيد، والخاقان المجيد، السلطان بايزيد خان، لا زالت سلسلة سلطنته متسلسلة إلى انتهاء سلسلة الزمان، وأرواح أسلافه العظام متنزهة في روضة الرضوان».

### شعره

كان أبو السعود ينظم القصيدة شديد العناية بها؛ فهو يخرج معانيها من أعماقه، وصدقه خالص لا يشوبه أدنى تَصَنُّع، وقد فاق كثيرًا من شعراء عصره الذين غلب عليهم الضعف والركاكة.

وقد أشاد بشعره طاش كبري زاده فقال: «له من المنظوم ما يستميل الأذواق السليمة بلذائذ جناه الكريمة»[١].

ومن أشهر قصائده ميميته التي عارض بها ميمية أبي العلاء المعري التي مطلعها: [من الطويل]

---

(١) ينظر: العقد المنظوم (٢/ ٢٩٣).

لَقد آن أن يثني الجموحَ لجامُ ... وأن يملكَ الصعبَ الأبيّ زمامُ
أيُوعِدنا بالرّوم ناسٌ وإنّما ... هم النبتُ والبعضُ الرقاقُ سوامُ
كأنْ لم يكُن بينَ المَخاضِ وحارِمٍ ... كتائبُ يشجينَ الفلا وخيامُ

فقال أبو السعود: [من الطويل]

أبعد سليمى مطلب وحرام ... وغير هواها لوعة وغرام
وفوق حماها ملجأ ومثابة ... ودون ذراها موقف ومقام
وهيهات أن يُثْنَى إلى غير بابها ... عنانُ المطايا أو يُشَدَّ حزام
هي الغاية القصوى فإن فات نيلها ... فكل مُنَى الدنيا عليَّ حرام
محوت نقوش الجاه عن لوح خاطري ... فأضحى كأن لم يجر فيه قلام
أنست بلأواء الزمان وذله ... فيا عزة الدنيا عليك سلام
إلى كم أعاني تيهها ودلالها ... ألم يأن عنها سلوة وسآم
وقد أخلق الأيام جلباب حسنها ... فأضحت وديباج البهاء رمام
على حين شيب قد ألم بمفرقي ... وعاد دهام الشعر وهو ثغام
طلائع ضعف قد أغارت على القوى ... وثار بميدان المزاج قتام
فلا هي في برج الجمال مقيمة ... ولا أنا في عهد المجون مدام
تقطعت الأسباب بيني وبينها ... ولم يبق فينا نسبة ولئام
وعادت قلوص العزم عنها كليلة ... وقد جُبَّ منها غارب وسنام
كأني بها والقلب زمت ركابه ... وقُوِّضَ أبيات له وخيام

والقصيدة طويلة تنيف على تسعين بيتًا[(١)].

## وفاته، ورثاؤه

بعد رحلة طويلة مع العلم والدرس والقضاء والإفتاء توفي العلامة أبو السعود في أوائل جمادى الأولى من شهور سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة من الهجرة (٩٨٢هـ).

وذكر صاحب الكواكب السائرة تاريخ وفاته فقال: «أخبرني شيخنا القاضي محب الدين الحنفي أن المفتي أبا السعود -رحمه الله تعالى- توفي بالقسطنطينية

(١) ينظر: الكشكول للعاملي (١٣) والعقد المنظوم (٢/ ٢٩٢).

في الثلث الأخير من ليلة الأحد، خامس جمادى الأولى، سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة[١]».

وذكر الشهاب الخفاجي: أنه توفي في أوائل شعبان سنة خمس وثمانين وتسعمائة من الهجرة (٩٨٥ هـ).

وذلك غير صحيح؛ لأنه توفي في حياة السلطان سليم خان، ومعلوم أن السلطان سليم خان توفي يوم الأربعاء الثامن عشر من رمضان سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة من الهجرة (٩٨٢ هـ).

وذكر صاحب النور السافر: أن وفاة الشيخ أبي السعود كانت في شهر جمادى الآخرة، سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة من الهجرة (٩٥٢هـ).

وهذا غير صحيح - أيضًا - والصحيح ما ذكره صاحبي العقد المنظوم والكواكب السائرة؛ لأنه جاء في كتاب الفوائد البهية أن أبا السعود عاش إلى ما بعد وفاة السلطان سليمان خان، وأن ابنه السلطان سليم أكرمه إكرامًا عظيمًا، فعاش مدة عمره معظمًا إلى أن مات سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة (٩٨٢هـ).

ومن المعلوم أن السلطان سليمان خان قد توفي سنة أربع وسبعين وتسعمائة من الهجرة (٩٧٤هـ).

وبهذا يكون ما ذكره صاحب النور السافر غير سديد[٢].

وقد حضر جنازة الشيخ أبي السعود - رحمه الله - جماعات من العلماء والساسة، وخلق لا يحصون كثرة، وصلى عليه المولى سنان، بجامع السلطان محمد خان، ودفن بجوار مرقد أبي أيوب الأنصاري في مقبرة أعدها لنفسه وأبنائه.

وقال العيدروسي: «أتى نعيه إلى الحرم، فنودي بالصلاة عليه من أعلى زمزم، وصلي عليه صلاة الغائب»[٣].

### رثاؤه

نظم القصائد في رثاء الشيخ أبي السعود كثير من أبناء عصره، فكان ممن رثاه:

السيد مصطفى بن السيد حسن، الذي رثاه بقصيدة مطلعها: [من الكامل]

يا جامع الأموال والأسباب  يا مالكًا للخلق بالإرهاب

---

(١) الكواكب السائرة (٣/ ٣٦).
(٢) ينظر: العقد المنظوم (٢/ ٢٨٨).
(٣) النور السافر (٢/ ٤١).

لا تهلك الدنيا بحسن مثالها ... كل يصير إلى فنا وذهاب

ومنها:

أين الذي يسبي النهى بكلامه ... وقد انتهى في الحسن والإعراب
شمس البلاد وصدرها ورئيسها ... مفتي الأنام وواحد الأقطاب
أعني بذاك أبا السعود الفاضلا ... ورئيس أهل العلم والألباب
قد كنت بحرًا للشريعة لم تزل ... تلقي لنا در الكلام عجاب
ما العلم إلا ما حويت حقيقة ... وعلوم غيرك في الورى كسراب
يا من بفقد حياته ووجوده ... أمست قصور الفضل شر يباب
أمسيت جارًا للكريم وجاره ... في جنة ومكارم وشراب
ويرى له عند الإله بطول ما ... خدم الورى زلفى وحسن مآب
يا ربِّ روِّحْ روحه بسعادة ... وكرامة في جنة وثواب[(١)]

## تصانيفه، والتعريف بتفسيره، والهدف من تأليفه

أثرى العلامة أبو السعود المكتبة الإسلامية والعربية بكثير من المصنفات المفيدة التي ذاعت وشاعت في عصره وفي العصور اللاحقة له.

والمتأمل في تصانيفه يجد أنها عنيت بالدرجة الأولى بالفقه والتفسير، وذلك مما يتلاءم مع طبيعة عمله في القضاء والفتيا، الذي كان شاغلا له عن التصنيف والتأليف.

وفي هذا يقول عنه صاحب العقد المنظوم: «وقد عاقه الدرس والفتوى والاشتغال بما هو أهم وأقوى عن التفرغ للتصنيف»[(٢)].

ومع هذه الأعمال الجسام التي كان يقوم بها، الشيخ أبو السعود -رحمه الله- فإنه استطاع أن يختلس بعض الأوقات للكتابة والتأليف.

وقد ذكرت له كتب التراجم عددًا من الرسائل والمصنفات أهمها ما يلي:

١- «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم» في تفسير القرآن. وهو الكتاب الذي نحن بصدد تحقيقه، وسوف نفرد عنه الحديث بمزيد من التفصيل.

٢- بضاعة القاضي الصكوك (مخطوط)[(٣)].

---

(١) العقد المنظوم (٢/ ٣٠٣، ٣٠٥). (٢) طاش كبري زاده (٢/ ٢٨٩).

(٣) العقد المنظوم (٢/ ٢٩٠)، والتفسير والمفسرون (١/ ٣٤٦).

٣- غمزات المليح (مخطوط).

٤- حسم الخلاف في المسح على الخفاف (مخطوط).

٥- رسالة في وقف النقود وجوازه، وقد شكك في نسبتها إليه بعض المحققين[١].

٦- فتاوى أبي السعود (جمعها المولى محمد بن أحمد الشهير ببون زاده، ودونها في أبواب، ولا زالت مخطوطة حتى الآن).

٧- القصيدة الميمية وهي مطبوعة[٢].

٨- معاقد الطراف في أول تفسير سورة الفتح من الكشاف، ولا زال مخطوطًا حتى الآن.

٩- ثواقب الأنظار في أوائل المنار، ولا زال مخطوطًا حتى الآن.

١٠- موقف العقول في وقف المنقول، ولا زال مخطوطًا حتى الآن.

١١- تعليقة مختصرة على كتاب البيع، ولعلها حاشية على العناية شرح الهداية، ولا زالت مخطوطة حتى الآن.

١٢- تسجيل الأوقاف، ولا زال مخطوطًا حتى الآن.

١٣- رسالة على كتاب الجهاد سماها: تهافت الأمجاد، ولا زالت مخطوطة حتى الآن.

١٤- قصة هاروت وماروت، ولا زال مخطوطًا حتى الآن.

١٥- تحفة الطلاب في المناظرة، ولا زال مخطوطًا حتى الآن.

## التعريف بالتفسير، والهدف منه ومنهجه في تأليفه

### التعريف بالتفسير:

### تأليف أبي السعود لتفسيره:

بعد أن تولى العلامة أبو السعود منصب الإفتاء، شرع في تفسير كتاب الله تعالى، وقد ذكر في مقدمته ما كان فيه من التردد بين الإقدام والإحجام، وكثرة الشواغل التي كانت تحول بينه وبين إتمام مراده بوضع هذا التفسير الجليل، فقال:

«وكنت أتردد في ذلك بين إقدام وإحجام؛ لقصور شأني، وعزة المرام، أين

---

(١) ينظر: رسالة في جواز وقف النقود ص (١٢).

(٢) شذرات الذهب (٨/ ٣٩٨).

الحضيض من الذرى؟ شتان بين الثريا والثرى، وهيهات اصطياد العنقاء بالشباك، واقتياد الجوزاء من بروج الأفلاك، فمضت عليه الدهور والسنون، وتغيرت الأطوار، وتبدلت الشئون، فابتليت بتدبير مصالح العباد برهة في قضاء البلاد، وأخرى في قضاء العساكر والأجناد، فحال بيني وبين ما كنت إخال تراكم المهمات، وتزاحم الأشغال، وجموم العوارض والعلائق، وهجوم الصوارف والعوائق، والتردد إلى المغازي والأسفار، والتنقل من دار إلى دار، وكنت في تضاعيف هاتيك الأمور أقدر في نفسي أن أنتهز نهزة من الدهور، ويتسنى لي القرار، وتطمئن بي الدار، وأظفر حينئذ بوقت خال، أتبتل فيه إلى جناب ذي العظمة والجلال، وأوجه إليه وجهتي، وأسلم له سري وعلانيتي، وأنظر إلى كل شيء بعين الشهود، وأتعرف سر الحق في كل موجود، تلافيًا لما قد فات، واستعدادًا لما هو آت، وأتصدى لتحصيل ما عزمت عليه، وأتولى لتكميل ما توجهت إليه برفاهة واطمئنان، وحضور قلب وفراغ جنان.

فبينما أنا في هذا الخيال، إذ بدا لي ما لم يخطر بالبال، تحولت الأحوال والدهر حول، فوقعت في أمر أشق من الأول، أمرت بحل مشكلات الأنام، فيما شجر بينهم من النزاع والخصام، فلقيت معضلة طويلة الذيول، وصرت كالهارب من المطر إلى السيول، فبلغ السيل الزبى، وغمرني أي غمر، غوارب ما جرى بين زيد وعمرو، فأضحيت في ضيق المجال، وسعة الأشغال أشهر ممن يضرب به الأمثال، فجعلت أتمثل بقول من قال: [من الطويل]

لقد كنت أشكوك الحوادث برهة ... وأستمرض الأيام وهي صحائح

إلى أن تغشتني - وقيتَ - حوادث ... تحقق أن السالفات منائح

فلما انصرمت عرى الآمال عن الفوز بفراغ البال، ورأيت أن الفرصة على جناح الفوات، وشمل الأسباب في شرف الشتات، وقد مسني الكبر، وتضاءلت القوى والقدر، ودنا الأجل من الحلول، وأشرفت شمس الحياة على الأفول، عزمت على إنشاء ما كنت أنويه، وتوجهت إلى إملاء ما ظلت أبتغيه، ناويًا أن أسميه عند تمامه بتوفيق الله تعالى وإنعامه: «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم»، فشرعت فيه مع تفاقم المكاره عليَّ، وتزاحم المشادة بين يدي، متضرعًا إلى رب العظمة والجبروت، خلاق عالم الملك والملكوت، في أن يعصمني عن الزيغ والزلل، ويقيني مصارع السوء في القول والعمل، ويوفقني لتحصيل ما أرومه وأرجوه، ويهديني إلى تكميله على أحسن الوجوه، ويجعله خير عدة وعتاد أتمتع به يوم المعاد».

ومن هذا النص يتضح أن العلامة أبا السعود كان قد عقد العزم على تفسير القرآن الكريم منذ فترة مبكرة في حياته، لكن عاقه القضاء؛ لانشغاله بمهام الناس، ونظر القضايا المعروضة عليه وكثرتها، فتأخر إنجاز هذا التفسير زمنًا طويلًا حتى مسه الكبر، وأحس أن الفرصة قد تفوته، وأن أجله قد دنا.

وقد ذكرت كتب التراجم أن الشيخ أبا السعود - رحمه الله تعالى - لم يؤلف تفسيره مرة واحدة وإنما بلغ تسويده في أول الأمر إلى سورة «ص»، ولما طال به العهد، بيض هذا القدر، وأرسله إلى السلطان سليمان في شعبان سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة من الهجرة (٩٧٣هـ)، فزاد في وظيفته - أي: راتبه - خمسمائة درهم، وبعد ذلك تيسر له إتمام باقي التفسير، وبلغ به رتبة الكمال والتمام، وأرسله إلى السلطان، فزاد في وظيفته مائة أخرى[١].

## الهدف من تأليف أبي السعود لتفسيره

أبان العلامة أبو السعود في مقدمة التفسير عن الغرض من تأليفه له فقال متحدثًا عن القرآن الكريم:

«ولقد تصدى لتفسير غوامض مشكلاته أساطين أئمة التفسير في كل عصر من الأعصار، وتولى لتيسير عويصات معضلاته سلاطين أسرة التقرير والتحرير في كل قطر من الأقطار، فغاصوا في لججه، وخاضوا في ثبجه، فنظموا فرائده في سلك التحرير، وأبرزوا فوائده في معرض التقرير، وصنفوا كتبًا جليلة الأقدار، وألفوا زبرًا جميلة الآثار.

أما المتقدمون المحققون، فاقتصروا على تمهيد المعاني، وتشييد المباني، وتبيين المرام، وترتيب الأحكام، حسبما بلغهم من سيد الأنام، عليه شرائف التحية والسلام.

وأما المتأخرون المدققون، فراموا مع ذلك إظهار مزاياه الرائقة، وإبداء خباياه الفائقة؛ ليعاين الناس دلائل إعجازه، ويشاهدوا شواهد فضله وامتيازه، عن سائر الكتب الكريمة الربانية، والزبر العظيمة السبحانية، فدونوا أسفارًا بارعة جامعة لفنون المحاسن الرائعة، يتضمن كل منها فوائد شريفة، تقر بها عيون الأعيان، وعوائد لطيفة، يتشنف بها آذان الأذهان، لا سيما الكشاف، وأنوار التنزيل، المتفردان

---

(١) كشف الظنون (١/ ٦٧)، والعقد المنظوم (٢/ ٢٨٩، ٢٩٠).

بالشأن الجليل، والنعت الجميل، فإن كلا منهما قد أحرز قصب السبق أي إحراز، كأنه مرآة لاجتلاء وجه الإعجاز، صحائفهما مرايا المزايا الحسان، وسطورهما عقود الجمان، وقلائد العقيان، ولقد كان في سوابق الأيام، وسوالف الدهور والأعوام، أوان اشتغالي بمطالعتهما وممارستهما، وزمان انتصابي لمفاوضتهما ومدارستهما - يدور في خلدي على استمرار آناء الليل وأطراف النهار أن أنظم درر فوائدهما في سمط دقيق، وأرتب غرر فرائدهما على ترتيب أنيق، وأضيف إليها ما ألفيته في تضاعيف الكتب الفاخرة من جواهر الحقائق، وصادفته في أصداف العيالم الزاخرة من زواهر الدقائق، وأسلك خلالها بطريق الترصيع على نسق أنيق، وأسلوب بديع حسبما يقتضيه جلالة شأن التنزيل، ويستدعيه جزالة نظمه الجليل بما سنح للفكر العليل بالعناية الربانية، وسمح به النظر الكليل بالهداية السبحانية من عوارف معارف يمتد إليها أعناق الهمم من كل ماهر لبيب، وغرائب رغائب ترنو إليها أحداق الأمم من كل نحرير أريب، وتحقيقات رصينة تقيل عثرات الأفهام في مداحض الإقدام، وتدقيقات متينة تزيل خطرات الأوهام من خواطر الأنام، في معارك أفكار يشتبه فيها الشئون، ومدارك أنظار يختلط فيها الظنون، وأبرز من وراء أستار الكمون، من دقائق السر المخزون، في خزائن الكتاب المكنون - ما تطمئن إليه النفوس، وتقر به العيون، من خفايا الرموز، وخبايا الكنوز».

ومن هذا النص يتضح جليًّا الدافع الذي دفع الشيخ أبا السعود - رحمه الله تعالى - إلى تفسير القرآن الكريم، حيث أراد - رحمه الله - أن يجمع بين تفسير «الكشاف» للزمخشري، و«أنوار التنزيل» للبيضاوي ويضيف إليهما ما تجود به قريحته من تحقيقات علمية وقضايا فكرية تبرز عظمة القرآن الكريم وتكشف عن إعجازه، وروعة بلاغته.

## منهجه في تأليفه

المنهج -في معناه الاصطلاحي - هو: «الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم، بواسطة طائفة من القواعد العامة التي تُهيمن على سير العقل، وتحدد عملياته؛ حتى يصل إلى نتيجة معلومة»[١].

وأكبر الظن أن علماءنا الأقدمين، لم تكن فكرة المنهج بالمفهوم الحديث واضحة

(١) د. أحمد بدر، أصول البحث العلمي ومناهجه، ص (٣٣).

في أذهانهم، ومن ثم لم يكونوا يرسمون لأنفسهم خطة منهجية محددة، يسيرون عليها في مصنفاتهم، وأظن أن الشيخ أبا السعود - رحمه الله تعالى - لم يفكر في مسألة المنهج الذي سيسير عليه في تفسيره بالطريقة التي يفكر بها العلماء المعاصرون، ولم تشغل باله هذه المسألة كما تشغل بال المعاصرين، لكن لأن الله - تعالى - حبا علماءنا الأقدمين عقولًا صافية، قوية، منظمة، مرتبة - قامت مؤلفاتهم على مناهج قويمة صحيحة، قد لا نجدها في مؤلفاتنا الحديثة التي يزعم أصحابها أنهم بنوها على أساس من مناهج البحث العلمي الدقيق؛ ولذا نجد واحدًا كـ «أبي السعود» في تفسيره يوحي إلينا بأنه يعرف المنهج وخصائصه وسماته.

ويمكن القول بأن ذلك مرده إلى العوامل المكونة لشخصيته، سواء كانت هذه العوامل مذهبية أم فكرية أم ثقافية.

فالعوامل المذهبية تحمل على ترتيب المؤلف أفكاره، وتحديد أدلته، وجمع حججه، وعرضها في أبهى حلة؛ ليتسنى له نصرة مذهبه.

والعوامل الفكرية، مهمة -أيضًا- في اتباع منهج التأليف وبنائه على أسس سليمة، فكلما ارتقى فكر الإنسان، كانت أفكاره أكثر وضوحًا ونضجًا وتسلسلًا ومنطقية، وهذا هو المنهج.

والعوامل الثقافية لها -أيضًا- أثر في بناء المنهج وتصوره.

إن قضية المنهج ذات أهمية كبيرة في أي مجال من مجالات العلوم، وتزداد هذه الأهمية مع الجانب الشرعي؛ وخاصة إذا تعلق الأمر بتفسير كتاب الله -عز وجل- فلكي يكون التفسير منضبطًا، يحقق غاياته وأهدافه، فإنه يجب أن يقوم على منهج صحيح، له أسسه وأركانه.

ويمكن بيان منهج أبي السعود في تفسيره إجمالاً فيما يلي:

### ١- الاهتمام ببيان ترابط النظم القرآني:

اهتم العلامة أبو السعود في تفسيره بذكر المناسبة بين الآيات وبيان شدة ارتباط النظم القرآني بعضه ببعض، فكان يوضح ارتباط الآية بما سبقها وبما بعدها، كما كان يهتم بإبراز الارتباط بين أجزاء الآية الواحدة، وقد أشار في مواضع قليلة من تفسيره إلى مجيء آخر السورة مناسبًا لما سبق من الآيات.

### ٢- الاهتمام بالنواحي البلاغية والعناية بإبراز الأسرار القرآنية:

ملأ أبو السعود تفسيره باللمحات البلاغية، التي تبرز إعجاز القرآن الكريم، ولا

عجب في ذلك؛ فإنه بهذا يسير على نهج الزمخشري في كشافه، الذي أبان أبو السعود عن إعجابه به، ورغبته في أن يضمن تفسيره ما ورد فيه من الروائع؛ ومن ثم جاء تفسير أبي السعود زاخرًا بالنواحي البلاغية، مما دعا الذهبي في كتابه «التفسير والمفسرون» إلى القول: «وهو مولع كل الولوع بالناحية البلاغية للقرآن، فهو يهتم بأن يكشف عن نواحي القرآن البلاغية، وسر إعجازه في نظمه وأسلوبه، ويهتم بإبراز المعاني الدقيقة التي تحملها التراكيب القرآنية بين طياتها، مما لا يكاد يظهر إلا لمن أوتي حظًّا وافرًا من المعرفة بدقائق اللغة العربية، ويكاد يكون أول المفسرين المبرزين في هذه الناحية»[1].

### ٣- الاهتمام بالقراءات القرآنية:

اهتم العلامة أبو السعود في تفسيره بإيراد القراءات القرآنية فاشتمل تفسيره على قراءات كثيرة جدًّا، ولكنه كان في أغلب الأحوال لا يذكر توجيه هذه القراءات، وإنما يعرض لها بقدر ما يوضح المراد.

### ٤- الاهتمام بالمسائل النحوية:

اهتم العلامة أبو السعود في تفسيره بالمسائل النحوية، فكان يذكر إعراب الكلمات والجمل خاصة إذا كانت الجمل تحتمل أكثر من إعراب، وينزل الآية على اختلاف الأعاريب، ويرجح واحدًا منها، ويدلل على ترجيحه بما يدل على تبحره في علم النحو، ووقوفه على دقائقه، وإلمامه بغوامضه[2].

### ٥- الاهتمام بمعاني الكلمات وتوضيحها:

اهتم العلامة أبو السعود بالمعاني الواردة في القرآن الكريم فبين الألفاظ الصعبة والمتصفح لتفسيره يجد هذا باطراد.

### ٦- الاهتمام بتوضيح بعض المسائل الفقهية:

أبان العلامة أبو السعود عن بعض المسائل الفقهية بإيجاز دون دخول في المناقشات والاعتراضات، بل كان يسرد المذاهب في المسألة الفقهية التي تتناولها الآية الكريمة سردًا مختصرًا، ويقدم مذهبه الذي عرف به، وهو المذهب الحنفي.

---

(١) ينظر: التفسير والمفسرون (١/ ٣٤٩، ٣٥٠).

(٢) التفسير والمفسرون (١/ ٣٥٢).

### ٧- الإقلال من ذكر الإسرائيليات:

المتصفح لتفسير العلامة أبي السعود، يجده يقل من ذكر الإسرائيليات، وعندما يوردها، فإنه لا يذكرها على سبيل الجزم والقطع بصحتها، بل يذكرها بقوله: روي، أو قيل؛ مما يشعر بضعفها [١].

### ٨- الاهتمام بآراء غيره من المفسرين:

اهتم العلامة أبو السعود بذكر بعض آراء المفسرين، مثل: الإمام الواحدي، والقرطبي، وأبي حيان، والزمخشري، والراغب الأصفهاني، وقد ناقش كثيرًا من آرائهم، ورجح بعضها.

### ٩- مراعاة تفسيره للمنقول:

الناظر في تفسير الشيخ - رحمه الله - يجد أنه ضمن تفسيره ما أثر عن النبي ﷺ، وعن الصحابة والتابعين، ومن لف لفهم.

### ١٠- الاهتمام بالترجيح بين الآراء:

اهتم العلامة أبو السعود بالترجيح بين الآراء والتدليل على صحة ما رجحه، والمطلع على تفسيره يجد نماذج ذلك كثيرة.

وهذه هي أبرز ملامح المنهج الذي سار عليه العلامة أبو السعود؛ مما جعل تفسيره مرجعًا مهمًّا يقصده كل باحث في علم التفسير وفي هذا يقول صاحب «التفسير والمفسرون»:

«وعلى الجملة، فالكتاب دقيق غاية الدقة، بعيد عن خلط التفسير بما لا يتصل به، غير مسرف فيما يضطر إليه من التكلم عن بعض النواحي العلمية، وهو مرجع مهم يعتمد عليه كثير ممن جاء بعده من المفسرين»[٢].

## المآخذ على هذا التفسير

لا يخلو جواد من كبوة؛ ولا سيف من نبوة، ولا عمل من الهنات، فهذا لا مناص منه للبشرية.

وفي هذا يقول العماد الأصفهاني: «إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يوم إلا قال في غده أو بعد غده: لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا، لكان يستحسن،

---

(١) السابق (١/ ٣٥٠).
(٢) التفسير والمفسرون (١/ ٣٥٢).

ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العِبَر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر».

وعلى هذا فقد أخذ العلامة الشيخ الذهبي على تفسير أبي السعود ما يلي:

١- وقوعه فيما وقع فيه الزمخشري، والبيضاوي من ذكره في آخر كل سورة حديثًا عن النبي ﷺ في فضلها، وما لقارئها من الثواب والأجر عند الله، مع أن هذه الأحاديث موضوعة باتفاق أهل العلم [(١)].

٢- روايته لبعض القصص من طريق الكلبي عن أبي صالح، مع العلم بأن الكلبي متهم بالكذب، فقد قال الجلال السيوطي في خاتمة الدر المنثور: «الكلبي اتهموه بالكذب»، وقد مرض، فقال لأصحابه في مرضه: «كل شيء حدثتكم عن أبي صالح كذب» [(٢)].

وهذا لا ينقص من قيمة تفسير أبي السعود، ولا يبخس من قدره، فقد تابع في هذه الروايات من قبله من المفسرين.

٣- تعقب الشيخ رشيد رضا في تفسيره «المنار» أبا السعود في بعض آرائه، ووصفه بالتكلف تارة، وبالتنطع أخرى، ففي تفسير قول الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٥١] يقول الشيخ رشيد: «فالآية قد نزلت في إنذار المؤمنين الذين يخافون الله ويرجونه، ولكن أبا السعود تنطع في التأويل، فذهب إلى أن الإنذار هنا موجه إلى من يتوقع منهم التأثر في الجملة» [(٣)].

والعجيب أن هذا الرأي الذي لم يرض عنه الشيخ رشيد رضا، ووصفه بالتنطع، قد نال استحسان الألوسي الذي أثنى في «روح المعاني» على رأي أبي السعود، وقال «هو تحقيق لم أره لغيره، ويصغر لديه ما في التفسير الكبير» [(٤)].

وقد نقل الشيخ رشيد رضا في «المنار» هذا الثناء، ثم قال: «قد تدبرنا الكلام، فوجدنا أن هذا الذي سميته تحقيقًا تنطع وتكلف بعيد» [(٥)].

ومن هذا يتضح أن مثل هذه المآخذ التي أخذها الشيخ رشيد رضا، أو غيره على تفسير أبي السعود لا تقلل من مكانة هذا التفسير؛ لأنها مجرد خلاف تنوع في

---

(١) مقدمة في أصول التفسير/ لشيخ الإسلام ابن تيمية (٤٥).
(٢) التفسير والمفسرون (٢٤٩، ٣٥١).
(٣) تفسير المنار (٧/ ٣٦١).
(٤) روح المعاني (٧/ ١٥٨).
(٥) المنار (٧/ ٣٦٢).

وجهات النظر بين أهل العلم، ولكل منهما دليله الذي استند إليه فلا ينقص هذا الخلاف من قدر هذا أو ذاك.

## مكانة تفسير أبي السعود

نال تفسير أبي السعود شهرة واسعة بين كتب التفسير لدى طلاب العلم والمعرفة؛ لدقة مباحثه، وغزارة مادته، وقد أثنى عليه المتقدمون والمتأخرون.

يقول طاش كبري زاده «وقد أتى أبو السعود في تفسيره بما لم تسمح به الأذهان، ولم تقرع به الآذان، فصدق المثل السائر، كم ترك الأول للآخر» (١).

ويقول الشيخ محمد عبد الحي اللكنوي في «الفوائد البهية»: «وقد طالعت تفسير أبي السعود، وانتفعت به، وهو تفسير حسن، ليس بالطويل الممل، ولا بالقصير المخل، ومتضمن لطائف ونكات، ومشتمل على فوائد وإشارات»(٢).

وقال حاجي خليفة في «كشف الظنون» وقد انتشرت نسخه في الأقطار، ووقع له التلقي بالقبول من الفحول والكبار، لحسن سبكه، ولطف تعبيره، فصار يقال له: «خطيب المفسرين» ،ومن المعلوم أن تفسير أحد سواه بعد الكشاف والقاضي لم يبلغ إلى ما بلغ من رتبة الاعتبار والاشتهار، والحق أنه حقيق به، ولا شك أنه مما رواه طالع سعده، كما قال الشهاب المصري في خبايا الزوايا »(٣).

وبين الشيخ محمد بن عاشور في كتابه «التفسير ورجاله» مكانة تفسير أبي السعود وشهرته، فقال: «ولقد تلقفه الناس منذ بروزه بالاعتناء، ونظروا إليه بالإعجاب، فشاعت نسخه الخطية شرقًا وغربًا، ولم يكد يستهل القرن الحادي عشر حتى كانت خزائن الكتب عامرة بنسخ هذا التفسير، ومجالس الدروس به حافلة، وكان العلماء من العرب والعجم قد اعتنوا بتدريسه والتعليق عليه(٤).

وقال الدكتور الذهبي: «والحق أن هذا التفسير غاية في بابه، ونهاية في حسن الصوغ وجمال التعبير، كشف فيه صاحبه عن أسرار البلاغة القرآنية وشهد له كثير من العلماء بأنه خير ما كتب في التفسير»(٥).

---

(١) طاش كبري زاده (٢/ ٢٨). (٢) الفوائد البهية (٨٢).

(٣) كشف الظنون للمولى مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي الشهير بحاجي خليفة (١/ ٦٧).

(٤) التفسير ورجاله (١١٣).

(٥) التفسير والمفسرون (١/ ٣٤٧).

## الحواشي والتعليقات على تفسير أبي السعود

ذكر حاجي خليفة في «كشف الظنون»[١] بعض ما كتب على تفسير أبي السعود من تعليقات، ويمكن إبراز ذلك فيما يلي:

١- تعليقة الشيخ أحمد الرومي، المتوفى سنة إحدى وأربعين وألف من الهجرة، (١٠٤١هـ) وهي من سورة الروم إلى سورة الدخان.

٢- تعليقة الشيخ رضي الدين بن يوسف المقدسي، وهي تعليقة عظيمة، علقها إلى قريب من النصف، وأهداها إلى المولى أسعد بن سعد الدين، حين دخل القدس زائرًا، وكان عمله فيها نقل كلام العلامتين الزمخشري، والبيضاوي بالإضافة إلى كلام أبي السعود، فكان يقول: «قال الكشاف... وقال القاضي... وقال المفتي...» ثم المحاكمة فيما بينهم.

٣- شرح ديباجة تفسير أبي السعود، وقد شرحها محمد بن محمد الحسيني المدعو بزيدك زاده سنة ثلاث وألف من الهجرة (١٠٠٣ هـ).

وفي دار الكتب المصرية رسالة على تفسير المولى أبي السعود لقوله تعالى ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [يونس: ٦١] من تأليف أحمد بن عبد الرحمن بن محمد الصديقي المصري، المعروف بالوارثي، المتوفى سنة خمس وأربعين وألف من الهجرة (١٠٤٥هـ) وهي رسالة تقع في أربع عشرة (١٤) ورقة، تفسير تيمور برقم اثنين وخمسين (٥٢).

٤- حاشية السقا على تفسير أبي السعود[٢]:

توجد منها نسخة بمكتبة الأزهر الشريف، تحت رقم عمومية: ٢٨٤٦٩، وخصوصية ١٣٢٢، وهي حاشية واسعة جامعة على تفسير أبي السعود، ألفها العلامة المرحوم الشيخ إبراهيم السقا، وهي من أول التفسير إلى تفسير قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١].

وهذه الحاشية تقع بمفردها في ستة مجلدات ضخام، وخطها واضح إلا في القليل، وعلى هامشها بعض التعليقات والتصويبات.

---

(١) (٦٧/١).

(٢) مكتبة الأزهر «تفسير».

# النسخ الخطية

اعتمدنا في تحقيق تفسير أبي السعود المسمى: «إرشاد العقل السليم» على النسختين المحفوظتين بدار الكتب المصرية؛ النسخة الأولى ويوجد منها الجزء الأول تحت رقم (٥٣٨) تفسير طلعت، وتبدأ من أول الكتاب إلى نهاية سورة النحل، النسخة الثانية ويوجد منها الجزء الثاني تحت رقم (١٨) تفسير، تبدأ من سورة الإسراء إلى نهاية الكتاب، والنسخة المطبوعة بدار الكتب المصرية.

**عملنا في الكتاب:**

١- المقابلة على النسخة الخطية وإثبات غالب الفروق في هامش الكتاب.

٢- تشكيل الكلمات الغريبة في النص.

٣- ترقيم الآيات القرآنية المستشهد بها في تفسير الآية.

٣- تخريج الأحاديث النبوية.

٤- تراجم الأعلام الواردة في الكتاب.

٥- التعريف بالأماكن والقبائل والبلدان.

٦- شرح المصطلحات الفقهية والأصولية الواردة في الكتاب.

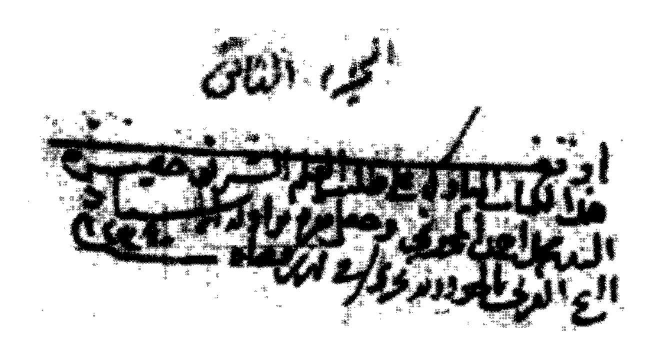
٦- التعليق على بعض القضايا البلاغية في الكتاب.

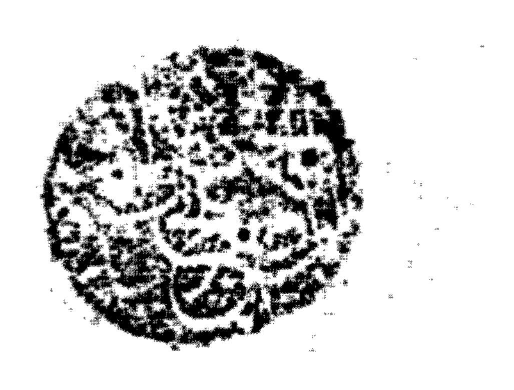
٧- الرجوع إلى كتب القراءات المتواترة والشاذة وتوثيق القراءات الواردة في النص مع ضبطها.

٨- التعليق على بعض المسائل الفقهية.

٩- التعليق على بعض المسائل الأصولية.

من زاوية العرب اولاد رحمه

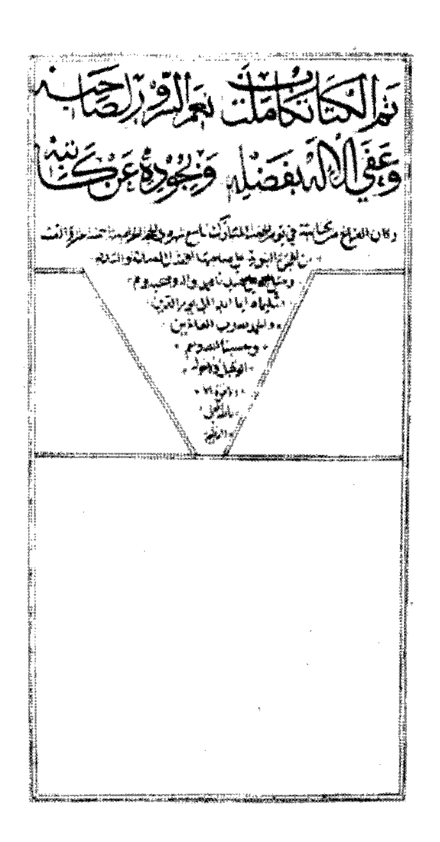


طرة النسخة الثانية من المخطوط



الورقة الأولى من النسخة الثانية وتبدأ بسورة الإسراء



الورقة الأخيرة من النسخة الثانية

# مقدمة المؤلف

سبحان من أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، وبيّن له من شعائر الشرائع كلَّ ما جلَّ ودق، أنزل عليه أظهرَ بيناتٍ وأبهرَ حُجج، قرآنًا عربيًّا غيرَ ذي عوج، مصدقًا لما بين يديه من الكتاب، ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب، ناطقًا بكل أمر رشيد، هاديًا إلى صراط العزيز الحميد، آمرًا بعبادة الصمد المعبود، كتابًا متشابهًا مثانِيَ تقشعرّ منه الجلود، تكاد الرواسي لهيبتِه تمور، ويذوب منه الحديد وتميع الصم الصخور، حقيقًا بأن تسير به الجبال ويتيسر به كل صعب مُحال، معجزًا أفحم كل مِصْقَع من مَهَرة قحطان، وبكّت كل مُفْلق من سَحَرة البيان، بحيث لو اجتمعت الإنس والجن على معارضته ومباراته لعجزوا عن الإتيان بمثل آية من آياته، نزّله عليه على فترة من الرسل ليرشد الأمة إلى أقوم السبل، فهداهم إلى الحق وهم في ضلال مبين، فاضمحل دُجى الباطل وسطع نورُ اليقين، فمن اتبع هداه فقد فاز بمناه، وأما من عانده وعصاه، واتخذ إلهه هواه، فقد هام في مَوامِي الردى، وتردّى في مهاوي الزور، ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور. صلى الله عليه وعلى آله الأخيار، وصحبه الأبرار، ما تناوبت الأنواء، وتعاقبت الظُلَم والأضواء، وعلى من تبعهم بإحسان، مدى الدهور والأزمان. وبعد:

فيقول العبد الفقير إلى رحمة ربه الهادي، أبو السعود بن محمد العمادي: إن الغايةَ القصوى من تحرير نُسخة العالَم وما كان حرف منها مسطورًا، والحكمةَ الكبرى في تخمير طينة آدمَ ولم يكن شيئًا مذكورًا، ليست إلا معرفةَ الصانع المجيد، وعبادةَ البارئ المبدئ المعيد، ولا سبيل إلى ذاك المطلب الجليل، سوى الوقوفِ على مواقف التنزيل فإنه عزّ سلطانُه، وبهَر برهانُه، وإنّ سطر آياتِ قدرته في صحائف الأكوان، ونصْبَ رايات وَحدتِه في صفائح الأعراض والأعيان، وجعَلَ كل ذرة من ذرات العالم، وكل قطرة من قطرات العيلَم[1]، وكلَّ نقطةٍ جرى عليها قلمُ الإبداع

(١) العيلم: كَحَيْدَرٍ البَحْرُ والجمْعُ العَيالِمُ.
ينظر: تاج العروس (٣٣/ ١٣٥).

وكل حرف رُقم في لوح الاختراع مرآة لمشاهدة جمالِه، ومطالعةِ صفاتِ كمالِه، حجة نيّرة واضحة المكنون، وآية بينة لقوم يعقلون، برهانًا جليًّا لا ريب فيه، ومنهاجًا سويًّا لا يضل من ينتحيه، بل ناطقًا يتلو آياتِ ربه فهل من سامع واع، ومجيبًا صادقًا فهل له من داع، يكلّمُ الناسَ على قدرِ عقولهم، ويرد جوابهم بحسب مقولهم، يحاور تارة بأوضح عبارة، ويلوّح أخرى بألطف إشارة.

لكنَّ الاستدلالَ بتلك الآيات والدلائلِ، والاستشهاد بتلك الأَمارات والمخايل، والتنبه لتلك الإشارات السرية، والتفطن لمعاني تلك العبارات العبقرية، وما في تضاعيفها من رموز أسرار القضاء والقدر وكنوزِ آثار التعاجيب والعِبَر مما لا يطيق به عقولُ البشر إلا بتوفيق خلّاق القوى والقدر. فإذن مدارُ المراد ليس إلا كلامَ رب العباد؛ إذ هو المظهرُ لتفاصيل الشعائر الدينية، والمفسِّر لمشكلات الآيات التكوينية، والكاشفُ عن خفايا حظائر القدس، والمطّلع على خبايا سرائرِ الأنس، وبه تُكتسب الملَكاتُ الفاخرة وبه يُتوصل إلى سعادة الدنيا والآخرة، خلا أنه أيضًا من علو الشأن، ونمو المكان، ونهاية الغموض والإعضال، وصعوبة المأخذ وعزة المنال في غاية الغاياتِ القاصية، ونهاية النهايات النائية ـ أعز من بيض الأَنُوق[1]، وأبعد من مناط العيُّوق[2] لا يتسنى العروجُ إلى مبارجه الرفيعة، ولا يتأتى الرقيُّ إلى مدارجه المنيبة، كيف لا وإنه مع كونه متضمنًا لدقائق العلوم النظرية والعملية، ومنطويًا على دقائق الفنون الخفية والجلية، حاويًا لتفاصيل الأحكام الشرعية ومحيطًا بمناط الدلائل الأصلية والفرعية، ومُنبئًا عن أسرار الحقائق والنعوت، مُخبرًا بأطوار الملك والملكوت، عليه يدور فلك الأوامر والنواهي، وإليه تستند معرفةُ الأشياء كما هي، قد نُسِخ على أبدع منوال وأغرب طِراز واحتجبت طلعته بسُبُحات الإعجاز، وطُويت حقائقُه الأبية عن العقول وزويت دقائقه الخفية عن أذهان الفحول، يرد عيونَ العقول سُبْحانُه ويخطف أبصار البصائر بريقُه ولمعانه.

---

(١) الأنوق جمع نوق: العقاب، يقال في المثل دونه بيض الأنوق إذا كان لا يوصل إليه، وكذلك يقال: دونه النجم و دونه العيوق، وقال الكميت: [من الطويل]

ولا تجعلوني في رجائي ودكم    كراج على بيض الأنوق احتبالها

ينظر: غريب الحديث لابن قتيبة (٢/ ٦٤٥)، والمحكم والمحيط الأعظم (١/ ٥٦).

(٢) العيوق: كوكب أحمر مضيء في طرف المجرة الأيمن بحِيال الثريا من ناحية الشمال، يعوق الدبران عن لقاء الثريا.

ينظر: تاج العروس (عوق).

ولقد تصدى لتفسير غوامض مشكلاته أساطينُ أئمة التفسير في كل عصر من الأعصار وتولى تيسيرَ عويصاتِ معضلاته سلاطينُ أسرة التقرير والتحرير في كل قطر من الأقطار، فغاصوا في لججه، وخاضوا في ثَبَجه[١]، فنظموا فرائده في سلك التحرير، وأبرزوا فوائده في معرض التقرير، وصنفوا كتبًا جليلة الأقدار وألّفوا زُبُرًا جميلة الآثار، أما المتقدمون المحققون فاقتصروا على تمهيد المعاني، وتشييد المباني، وتبيين المرامي وترتيب الأحكام، حسبما بلغهم من سيد الأنام، عليه شرائف التحية والسلام، وأما المتأخرون المدققون، فراموا مع ذلك إظهار مزاياه الرائقة، وإبداء خباياه الفائقة، ليعاينَ الناس دلائلَ إعجازه ويشاهدوا شواهدَ فضله وامتيازِه عن سائر الكتبِ الكريمة الربانية، والزُبرِ العظيمةِ السُبحانية، فدوَّنوا أسفارًا بارعة، جامعة لفنون المحاسن الرائعة، يتضمن كلٌّ منها فوائد شريفة تقَرّ بها عيون الأعيان، وعوائدَ لطيفة تتشنف بها آذان الأذهان، لا سيما الكشافِ[٢] وأنوارِ التنزيل[٣]، المتفردان بالشأن الجليل، والنعت الجميل، فإن كلًا منهما قد أحرز قصب السبق أيَّ إحراز، كأنه مرآة لاجتلاء وجوه الإعجاز، صحائفهما مرايا المزايا الحسان، وسطورهما عقود الجُمان وقلائد العِقْيان.

ولقد كان في سوابق الأيام وسوالف الدهر والأعوام، أوان اشتغالي بمطالعتهما وممارستهما، وزمانَ انتصابي لمفاوضتهما ومدارستهما، يدور في خَلَدي على استمرار، آناء الليل وأطراف النهار أن أنظِم درر فوائدهما في نمط دقيق، وأرتب غُرر فرائدهما على ترتيب أنيق، وأضيف إليهما ما ألفَيته في تضاعيف الكتب الفاخرة من جواهر الحقائق، وصادفته في أصداف العيالم الزاخرة من زواهر الدقائق، وأسلك خلالها بطريق الترصيع على نسق أنيق وأسلوب بديع، حسبما يقتضيه جلالةُ شأن التنزيل، ويستدعيه جزالةُ نظمهِ الجليل، بما سنح للفكر العليل بالعناية الربانية، وسمحَ به النظر الكليل بالهداية السبحانية، من عوارفِ معارفَ تمتد إليها أعناقُ الهمم من كل ماهر لبيب، وغرائبِ رغائبَ ترنو إليها أحداق الأمم من كل نِحْرير أريب،

---

(١) الثبج: هو وسط الشيء ومعظمه. قال الحافظ ابن حجر: والثبج -بفتح المثلثة والموحدة ثم جيم- ظهر الشيء، هكذا فسره جماعة. وقال الخطابي: متن البحر وظهره. وقال الأصمعي: ثبج كل شيء وسطه. ينظر: لسان العرب (ثبج) (١/ ٤٦٨)، والنهاية (١/ ٢٠٦) وفتح الباري (١١/ ٧٤).

(٢) هو: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل, تفسير القرآن الكريم، وهو للزمخشري المعتزلي، وستأتي ترجمته.

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للقاضي البيضاوي كما سيأتي ترجمته.

وتحقيقات رصينة تُقيل عثراتِ الأفهام في مداحض الأقدام، وتدقيقات متينة تُزيل خطرات الأوهام، من خواطر الأنام، في معاركِ أفكار تشتبه فيها الشؤون، ومداركِ أنظار تختلط فيها الظنون، وأُبْرِزُ من وراء أستار الكُمون، من دقائق السر المخزون، في خزائن الكتاب المكنون، ما تطمئن إليه النفوس وتقر به العيون من خفايا الرموز، وخبايا الكنوز، وأهديها إلى الخِزانة العامرة الغامرة للبحار الزاخرة، لجناب من خصه الله تعالى بخلافة الأرض، واصطفاه لسلطنتها في الطول والعَرض، ألا وهو السلطان الأسعد الأعظم، والخاقانُ الأمجد الأفخم، مالك الإمامة العظمى، والسلطان الباهر، وارث الخلافة الكبرى كابرًا عن كابر، رافع رايات الدين الأزهر، مَوْضِح آياتِ الشرعِ الأنور، مرغمُ أنوف الفراعنة والجبابرة، معفّر جباه القياصرة والأكاسرة، فاتح بلاد المشارق والمغارب، بنصر الله العزيز وجندِه الغالب، الهمام الذي شرَّق عزمُه المنير فانتهى إلى المشرِق الأسنى، وغرَّب حتى بلغ مغرِبَ الشمس أو أدنى، بخميسٍ عرمرم متزاحم الأفواج، وعسكرٍ كخِضَمّ متلاطم الأمواج، فأصبح ما بين أفقي الطلوع والغروب، وما بين نقطتي الشمال والجنوب، منتظمًا في سلك ولاياته الواسعة، ومندرجًا تحت ظلال راياته الرائقة، فأصبحت منابرُ الربع المسكون مشرَّفةً بذكر اسمه الميمون، فيا له من ملك استوعب ملكه البر البسيط، واستغرق فُلْكُه وجهَ البحر المحيط، فكأنه فَضاءٌ ضُربت فيه خيامُه، أو نُصبت عليه ألويتُه وأعلامه، مالكُ ممالكِ العالم، ظلُّ الله الظليل على كافة الأمم، قاصمُ القياصرة وقاهر القُروم، سلطان العرب والعجم والروم، سلطان المشرقين، وخاقان الخافقين، الإمام المقتدر بالقدرة الربانية، والخليفة المعتز بالعزة السبحانية، المفتخر بخدمة الحرمين الجليلين المعظمين، وحماية المقامين الجميلين المُفَخّمين، ناشرُ القوانين السلطانية، عاشرُ الخواقين العثمانية السلطان ابن السلطان سليمانُ خان ابنُ السلطان المظفر المنصور، والخاقانِ الموقر المشهور، صاحب المغازي المشهورة في أقطار الأمصار، والفتوحات المذكورة في صحائف الأسفار، السلطان سليم خان، ابن السلطان السعيد والخاقانِ المجيد السلطان بايزيدَ خان، لا زالت سلسلةُ سلطنته متسلسلةً إلى انتهاء سلسلة الزمان، وأرواحُ أسلافِه العظامِ متنزّهةً في روضة الرضوان.

وكنتُ أترددُ في ذلك بين إقدام وإحجام، لقصور شأني وعزة المَرام. أين الحضيضُ من الذرى، شتان بين الثُريا والثَرىٰ، وهيهاتَ اصطيادُ العنْقاءِ[1] بالشباك،

---

(١) العنقاء: طائر عظيم متوهَّم لا وجود له، معروف الاسم مجهول الجسم.

واقتياد الجوزاء[١] من بروج الأفلاك، فمضت عليَّ الدهور والسنون، وتغيرت الأطوار، وتبدلت الشؤون. فابْتُلِيتُ بتدبير مصالحِ العباد بُرْهَةً في قضاء البلاد، وأخرى في قضاءِ العساكر والأجناد، فحال بيني وبين ما كنت إخال، تراكمُ المهمات، وتزاحمُ الأشغال، وجُموم العوارض والعلائق، وهجومُ الصوارف والعوائق، والتردد إلى المغازي والأسفار، والتنقل من دار إلى دار.

وكنت في تضاعيف[٢] هاتيك الأمورِ أقدر في نفسي أن أنتهز نُهْزَةً من الدهور، ويتسنى لي القرار، وتطمئنُ بي الدار، وأظفر حينئذ بوقت خال أتبتل فيه إلى جناب ذي العظمةِ والجلال، وأوجهُ إليه وِجهتي، وأُسلم له سري وعلانيتي، وأنظر إلى كل شيء بعين الشهود، وأتعرّف سر الحق في كل موجود تلافيًا لما قد فات، واستعدادًا لما هو آت، وأتصدىٰ لتحصيل ما عزمت عليه، وأتولى لتكميل ما توجهت إليه، برفاهة واطمئنان، وحضور قلبٍ وفراغ جَنان، فبينما أنا في هذا الخيال، إذ بدا لي ما لم يخطر بالبال، تحولت الأحوال والدهرُ حُوَّلٌ، فوقعتُ في أمر أشقَّ من الأوَّل، أُمرت بحل مشكلات الأنام فيما شجَر بينهم من النزاع والخِصام، فلقيت مُعضِلة طويلة الذيول، وصرت كالهارب من المطر إلى السيول، فبلغ السيلُ الزُّبى[٣]، وغمرني أيَّ غمْر، غواربُ ما جرى بين زيد وعمرو، فأضحيت في ضيق المجال، وسعة الأشغال، أشهرَ ممن يُضرب بها الأمثال، فجعلت أتمثل بقول من قال:

لقد كنتُ أشكوكَ الحوادثَ بُرهةً     وأستمرضُ الأيامَ وهي صحائحُ
إلى أنْ تغشَّتْني .وُقِيتَ ـ حوادثٌ     تُحققُ أن السالفاتِ منائحُ

فلما انصرمت عُرى الآمال، عن الفوز بفراغ البال، ورأيت أن الفُرصة على جناح الفوات، وشَمْلَ الأسباب في شُرَفِ الشَتات، وقد مسّني الكِبَر، وتضاءلت القوى

---

(١) (الجوزاء) برج من بروج السماء.

(٢) تضاعيف الشيء ما ضعف منه وتضاعيف الكتاب حواشيه وما بين سطوره.
ينظر: المعجم الوجيز، ص (٣٨٠).

(٣) قال العجاج: قد بلغ الماء الزبى فلا غير، وقد أخذه القالي في المقصور والممدود وزاده، قال: ومن أمثالهم: «قد بلغ السيل الزبى»، يقال ذلك عند شدة الأمر؛ ومنه حديث عثمان: أما بعد فقد بلغ السيل الزبى، ويقال: إن النمل إذا أحست بندى الأرض ترفعت إلى زباها خوفا من السيل فيستدل بذلك من فعلها على كثرة المطر وخصب السنة، وقال مؤرج بن عمرو السدوسي في أمثاله وتقول العرب قد بلغ السيل الزبى، وهو أن يبلغ الأمر منتهاه والزبية غير القترة الزبية تحفر للأسد فيصاد فيها، وهي ركية بعيدة القعر إذا وقع فيها لم يستطع الخروج منها لبعد قعرها.
ينظر: خزانة الأدب (٦/ ٤)، ومجمع الأمثال (١/ ٩١).

والقدر، ودنا الأجل من الحلول، وأشرفت شمس الحياة على الأفول، عزمت على إنشاء ما كنت أنويه، وتوجهت إلى إملاء ما ظَلِلتُ أبتغيه، ناويًا أن أسمّيَه عند تمامه بتوفيق الله تعالى وإنعامه «إرشادَ العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم» فشرعت فيه مع تفاقم المكاره عليّ، وتزاحم المشادة بين يديَّ، متضرعًا إلى رب العظمة والجبروت، خلّاق عالَمِ الملك والملكوت في أن يعصِمَني عن الزيغ والزلل، ويقيَني مصارعَ السوء في القول والعمل، ويوفقَني لتحصيل ما أرومه وأرجوه، ويهديَني إلى تكميله على أحسن الوجوه ويجعلَه خيرَ عدةٍ وعَتاد، أتمتع به يوم المعاد.

فيا من توجّهتْ وجوهُ الذل والابتهال نحوَ بابهِ المَنيع، ورُفعت أيدي الضَّراعة والسؤال إلى جنابه الرفيع، أَفِضْ علينا شوارقَ أنوارِ التوفيق، وأطلِعْنا على دقائقِ أسرارِ التحقيق، وثبتْ أقدامنا على مناهجِ هُداك، وأنطِقْنا بما فيه أمرُك ورضاك، ولا تكِلْنا إلى أنفسنا في لحظةٍ ولا آن، وخذْ بناصيتنا إلى الخير حيث كان، جئناك على جباه الاستكانة ضارعين، ولأبواب فيضك قارعين، أنت الملاذُ في كل أمر مُهم، وأنت المَعاذُ في كل خطب مُلم، لا ربَّ غيرُك ولا خيرَ إلا خيرُك، بيدك مقاليدُ الأمور، لك الخلقُ والأمرُ وإليك النشور.

# سورة الفاتحة

## مكية وقيل مدنية وهي سبع آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

## معنى فاتحة الكتاب وأسمائها

الفاتحة في الأصل: أولُ ما من شأنه أن يُفتح، كالكتاب والثوب، أُطلقت عليه لكونه واسطةً في فتحِ الكل، ثم أُطلقت على أول كلِّ شيء فيه تدريجٌ بوجه من الوجوه كالكلام التدريجي حصولًا، والسطور والأوراق التدريجية قراءةً وعدًا والتاء للنقل من الوصفية إلى الاسمية، أو هي مصدر بمعنى الفتح، أطلقت عليه تسميةً للمفعول باسم المصدر، إشعارًا بأصالته كأنه نفس الفتح، فإن تعلقه به بالذات، وبالباقي بواسطته، لكن لا على معنى أنه واسطة في تعلقه بالباقي ثانيًا، حتى [لا][1] يرد أنه لا يتسنى في الخاتمة، لما أن خَتْم الشيء عبارة عن بلوغ آخره، وذلك إنما يتحقق بعد انقطاع الملابسة عن أجزائه الأُوَل، بل على معنى أن الفتح المتعلق بالأول فتح له أولًا وبالذات، وهو بعينه فتح للمجموع بواسطته، لكونه جزءًا منه، وكذا الكلامُ في الخاتمة فإن بلوغَ آخِرِ الشيء يعرِضُ للآخر أولًا وبالذات، وللكل بواسطته، على الوجه الذي تحقَّقْتَه.

والمراد بالأول ما يعُم الإضافيَّ فلا حاجة إلى الاعتذار بأن إطلاقَ الفاتحة على السورة الكريمة بتمامها باعتبار جزئها الأول.

والمرادُ بالكتاب هو المجموع الشخصي، لا القدر المشترك بينه وبين أجزائه، على ما عليه اصطلاحُ أهل الأصول[2]، ولا ضيرَ في اشتهار السورة الكريمة بهذا

---

(١) سقط في ط.

(٢) عرف علماء الأصول الكتاب على ما ذكر فخر الإسلام البزدوي: أنه: «المنزل على رسول الله ﷺ، =

الاسم في أوائل عهد النبوة، قبل تحصيل المجموع بنزول الكل؛ لما أن التسمية من جهة الله عزَّ اسمه أو من جهة الرسول ﷺ بالإذن؛ فيكفي فيها تحصُّلُهُ باعتبار تحققه في علمه عزَّ وجل أو في اللوح أو باعتبار أنه أُنزل جُملةً إلى السماء الدنيا، وأملاه جبريل - عليه السلام - على السَفَرة، ثم كان يُنزِله على النبي ﷺ نُجومًا في ثلاثٍ وعشرين سنة كما هو المشهور. والإضافة بمعنى اللام كما في جزء الشيء لا بمعنى (مِنْ) كما في «خاتم فضة»، لما عرفت أن المضاف جزء من المضاف إليه، لا جزئي له، ومدار التسمية كونه مبدأً للكتاب على الترتيب المعهود، لا في القراءة في الصلاة، ولا في التعليم ولا في النزول؛ كما قيل.

**أما الأول**؛ فبيِّنٌ؛ إذ ليس المرادُ بالكتاب القدرَ المشترك الصادقَ على ما يقرأ في الصلاة حتى تُعتبرَ في التسمية مبدئيتها له.

**وأما الأخيران** فلأن اعتبار المبدئية من حيث التعليمُ، أو من حيث النزولُ يستدعي مراعاةَ الترتيب في بقية أجزاء الكتاب من تينك الحيثيتين، ولا ريب في أن الترتيب التعليمي والنزولي ليسا على نسق الترتيب المعهود.

ـ وتسمى **أمَّ القرآن** لكونها أصلًا ومنشأً له، إما لمبدئيتها له، وإما لاشتمالها على ما فيه من الثناء على الله عز وجل، والتعبُّدِ بأمره ونهيه، وبيانِ وعدِه ووعيده، أو على جملةِ معانيه من الحِكَم النظرية، والأحكام العملية، التي هي سلوكُ الصراط المستقيم، والاطلاع على معارج السعداء، ومنازلِ الأشقياء، والمرادُ بالقرآن هو المراد بالكتاب.

ـ وتسمى **أمَّ الكتاب** أيضًا كما يسمَّى بها اللوحُ المحفوظ، لكونِهِ أصلًا لكل الكائنات، والآياتُ الواضحةُ الدالة على معانيها ـ لكونها بينةً ـ تُحْمل عليها المتشابهاتُ، ومناطُ التسمية ما ذُكر في أم القرآن، لا ما أورده الإمامُ البخاري[1] في

= المكتوب في المصاحف، المنقول عن النبي ﷺ نقلًا متواترًا بلا شبهة».

وعرفه السرخسي: أنه «المنزل على رسول الله ﷺ، المكتوب في دفات المصاحف، المنقول إلينا على الأحرف السبعة المشهورة نقلًا متواترًا».

ينظر: كشف الأسرار (١/ ٦٧- ٧٠)، وأصول البزدوي، مخطوط بمكتبة الأزهر تحت رقم(١٤٤) ورقة (٢)، والمنار في أصول الفقه بشرحه، لابن نجيم فتح الغفار (١/ ١٠)، والمغني في أصول الفقه، ص (١٨٥)، وحاشية نسمات الأسحار لابن عابدين، ص (١١، ١٢)، والتلويح على التوضيح (١/ ٥٥)، وأصول السرخسي (١/ ٢٧٩).

(١) البخاري صاحب الصحيح هو: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة، الجعفي، أبو عبد الله البخاري الحافظ، أمير المؤمنين في حديث سيد المرسلين، قال أحمد: ما أخرجت خراسان مثل =

صحيحه من أنه يُبدأ بقراءتها في الصلاة[١]، فإنه مما لا تعلق له بالتسمية كما أشير إليه.

وتسمى **سورةَ الكنز**، لقوله عليه السلام: «إنَّها أُنْزِلَتْ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ»[٢] أو لِمَا ذُكِرَ في أُمِّ القُرآن، كما أنه الوجهُ في تسميتها الأساس، والكافية، والوافية.

وتسمى سورةَ الحمد والشكر والدعاء وتعليم المسألة، لاشتمالها عليها، وسورةَ الصلاة لوجوب قراءتها فيها، وسورةَ الشفاء والشافية لقوله عليه السلام: «هي شفاءٌ من كُلِّ داءٍ»[٣]، والسبع المثاني لأنها سبعُ آيات تُثَنَّى في الصلاة، أو لتكرّر نزولِها على ما رُوي أنها نزلت مرة بمكَّة حين فرضت الصلاة وبالمدينة أخرى حين حُوِّلت القبلة، وقد صح أنها مكيةٌ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ [الحجر، الآية ٨٧] وهو مكي بالنص.

## أقوال العلماء في البسملة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

اختلف الأئمة في شأن التسمية في أوائل السور الكريمة.

فقيل: إنها ليست من القرآن أصلًا، وهو قولُ ابنِ مسعودٍ[٤] رضي الله عنه ومذهبُ مالك[٥]، والمشهورُ من مذهب قدماء الحنفية، وعليه قرّاءُ المدينة والبصرة والشام وفقهاؤها.

---

= محمد بن إسماعيل فقيه هذه الأمة، مات سنة ست وخمسين ومائتين ليلة عيد الفطر.
ينظر: خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٢/ ٣٧٩)، تهذيب التهذيب (٩/ ٤٧)، تاريخ بغداد (٢/ ٤).

(١) ذكره البخاري في صحيحه (٩/ ٤) كتاب التفسير، باب: ما جاء في فاتحة الكتاب وليس هو من كلام البخاري إنما هو كلام لأبي عبيدة فى أول «مجاز القرآن» كما في «فتح الباري» (٩/ ٤).

(٢) ذكره أبو شجاع الديلمي في فردوس الأخبار (٤/ ٢٧٧) برقم (٦٨١٦) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الدارمي (٢/ ٥٣٨) كتاب فضائل القرآن، باب فضل فاتحة الكتاب، برقم (٣٣٧٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٤٥٠)، برقم (٢٣٧٠)، من حديث عبد الملك بن عمير مرسلاً.

(٤) هو: عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب بن شمخ بن فار بن مخزوم الهذلي، أبو عبد الرحمن، من أكابر الصحابة ومن أقربهم إلى رسول الله ﷺ، وهو من السابقين إلى الإسلام، كان خادم النبي ﷺ وصاحب سره، ولي بيت المال بالكوفة ثم قدم المدينة في خلافة عثمان رضي الله عنه فتوفي بها سنة اثنتين وثلاثين، ودفن بالبقيع.
ينظر: الإصابة (٤/ ١٢٩)، الاستيعاب (٢/ ٣٧٠)، حلية الأولياء (١/ ١٢٤).

(٥) هو: الإمام مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث الأصبحي أبو عبد الله المدني، أحد أعلام الإسلام، وإمام دار الهجرة. روى عن نافع، والمقبري، ونعيم بن عبد الله، وابن المنكدر، =

وقيل: إنها آية فذة[١] من القرآن أنزلت للفصل والتبرك بها؛ وهو الصحيحُ من مذهب الحنفية.

وقيل: هي آية تامة من كل سورة صُدِّرت بها، وهو قولُ ابن عباس[٢] رضي الله عنهما، وقد نُسب إلى ابن عمر[٣] أيضًا رضي الله عنهم، وعليه يُحمل إطلاقُ عبارة ابن الجوزي[٤] في زاد المسير حيث قال: روي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنها أنزلت مع كل سورة، وهو أيضًا مذهبُ سعيد بنِ جبيرٍ[٥] والزُّهري[٦]

---

= ومحمد بن يحيى بن حبان، وإسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، وأيوب، وزيد بن أسلم وخلق، قال البخاري: أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر وتوفي سنة تسع وسبعين ومائة. ودفن بالبقيع.
ينظر: تهذيب التهذيب (١٠/ ٥)، سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٨)، تقريب التهذيب (٢/ ٢٢٣).

(١) في ط: مفردة.

(٢) هو: عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف الهاشمي، أبو العباس المكي، ثم المدني، ثم الطائفي، ابن عم النبي ﷺ وصاحبه، وحبر الأمة وفقيهها، وترجمان القرآن، روى ألفًا وستمائة حديث، اتفق البخاري ومسلم منها على خمسة وسبعين.
مات بالطائف سنة ثمان وستين هـ، وصلى عليه محمد ابن الحنفية.
ينظر: خلاصة تذهيب تهذيب الكمال(٢/ ٦٩)، وتهذيب التهذيب (٥/ ٢٧٦)، وتقريب التهذيب (١/ ٤٢٥).

(٣) هو: عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي، أبو عبد الرحمن: صحابي جليل، نشأ في الإسلام ، وهاجر إلى المدينة مع أبيه، وشهد فتح مكة، روى علمًا كثيرًا عن النبي ﷺ، وعن أبي بكر وعمر والسابقين، وقالت عنه عائشة - رضي الله عنها-: ما رأيت أحدًا ألزم للأمر الأول من ابن عمر! أفتى الناس في الإسلام ستين سنة، وغزا إفريقية مرتين، وهو آخر من توفي بمكة من الصحابة سنة ثلاث وسبعين هـ، وقيل: توفي سنة ثلاث وستين هـ.
ينظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٤/ ١٤٢)، طبقات الفقهاء للشيرازي ص (١٩)، الاستيعاب، لابن عبد البر، (٢/ ٣٨٠)، تذكرة الحفاظ (١/ ٣١)، أسد الغابة (٣/ ١٩٩)، سير أعلام النبلاء (٣/ ١٣٤).

(٤) هو: عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، أبو الفرج، ولد سنة ثمانٍ وخمسمائة، نسبته إلى محلة «الجوز» بالبصرة، كان بها أحد أجداده، قرشي، يرجع نسبه إلى أبي بكر الصديق، من أهل بغداد، حنبلي، علامة عصره في الفقه والتاريخ والحديث والأدب. اشتهر بوعظه المؤثر، وكان الخليفة يحضر مجالسه، مكثر من التصانيف. من تصانيفه: زاد المسير، المنتظم، والضعفاء والمتروكين، والموضوعات، وآفة أصحاب الحديث توفي سنة سبع وتسعين وخمسمائة.
ينظر: الذيل على طبقات الحنابلة (١/ ٣٩٩ - ٤٢٣)، البداية والنهاية (١٣/ ٢٨)، مرآة الزمان (٨/ ٤٨١).

(٥) هو: سعيد بن جبير بن هشام الأسدي الوالبي، مولاهم، أبو محمد، ويقال: أبو عبد الله الكوفي، كان ابن عباس إذا أتاه أهل الكوفة يستفتونه يقول: أليس فيكم ابن أم الدهماء يعني سعيد بن جبير - وهو ثقة إمام، حجة على المسلمين، قتله الحجاج صبرًا سنة (٩٥).
ينظر: تهذيب الكمال (١٠/ ٣٥٨)، تقريب التهذيب (١/ ٢٩٢)، خلاصة تهذيب الكمال (١/ ٣٧٤).

(٦) هو: محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب، القرشي، الزهري، أبو بكر المدني، من =

وعطاءٍ[(١)] وعبدِ اللّه بن المبارك[(٢)]، وعليه قُرَّاءُ مكّة والكوفةِ وفقهاؤهما، وهو القولُ الجديد للشافعي[(٣)] رحمه الله، ولذلك يُجْهر بها عنده، فلا عبرة بما نُقِلَ عن الجصاص[(٤)] من أن هذا القول من الشافعي لم يسبقه إليه أحد.

وقيل إنها آية من الفاتحة مع كونها قرآنًا في سائر السور أيضًا من غير تعرض لكونها جزءًا منها أَوْ لا، ولا لكونها آية تامَّةً أَوْ لا، وهو أحدُ قولَي الشافعي على ما ذكره القرطبي[(٥)]. ونقل عن الخطابي[(٦)] أنه قول ابن عباس وأبي

---

= صغار التابعين، ولد سنة ثمان وخمسين من الهجرة، وسمع بعض الصحابة، وجمعًا من كبار التابعين وأئمتهم، وروى عنه جمع غفير من كبار التابعين وصغارهم وأتباعهم، وكان فقيهًا، عالمًا، ثقة، كثير الرواية والحديث، توفي - رحمه الله - سنة أربع وعشرين ومائة من الهجرة.
ينظر: حلية الأولياء (٣/ ٣٦٠)، وتهذيب التهذيب (١/ ٤٤٥)، وتهذيب الأسماء (١/ ٩٠)، ووفيات الأعيان (٤/ ١٧٧).

(١) هو: عطاء بن أبي رباح، واسم أبي رباح أَسْلم القرشي الفِهريُّ، أبو محمد المكي مولى آل أبي خُثَيم، من أعلام التابعين، مجمع على توثيقه وإمامته، أخرج حديثه أصحاب الكتب الستة، وقال ابن حجر: «ثقة فقيه فاضل، لكنه كثير الإرسال»، توفي سنة أربع عشرة ومئة، وقيل غير ذلك.
ينظر: تهذيب الكمال (٢٠/ ٦٩)، تهذيب التهذيب (٧/ ١٧٩)، تقريب التهذيب (ص ٣٩١).

(٢) هو: عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي، أبو عبد الرحمن المروزي، أحد الأئمة الأعلام وشيوخ الإسلام ، ولد سنة ثمان عشرة ومائة، روى عن: حميد وإسماعيل بن أبي خالد وحسين المعلم وسليمان التيمي وعاصم الأحول وهشام بن عروة وخلق، وروى عنه: السفيانان من شيوخه، ومعتمر وبقية وابن مهدي وسعيد بن منصور وخلائق، قال ابن عيينة: ابن المبارك عالم المشرق والمغرب وما بينهما، وقال شعبة: ما قدم علينا مثله، وقال أبو إسحاق الفزاري: ابن المبارك إمام، وقال ابن معين: ثقة صحيح الحديث، وقال ابن مهدي: كان نسيج وحده، وقال ابن حجر: ثقة، ثبت فقيه، عالم جواد مجاهد، توفي سنة إحدى وثمانين ومائة.
ينظر: تهذيب الكمال (١٦/ ٥)، وتهذيب التهذيب (٥/ ٣٨٢)، وتقريب التهذيب (١/ ٤٤٥).

(٣) هو: محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب، أبو عبد الله الشافعي المكي، ولد في سنة خمسين ومائة. أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وإليه نسبة الشافعية كافة، أفتى وهو ابن عشرين سنة، قال الميموني سمعت أحمد ابن حنبل يقول: ستة أدعو لهم سَحَرًا أحدهم الشافعي. توفي في آخر يوم من رجب سنة أربع ومائتين.
ينظر: تهذيب الكمال (٢٤/ ٣٥٥)، تقريب التهذيب (٢/ ١٤٣)، الكاشف (٣/ ١٧).

(٤) هو: أحمد بن علي، أبو بكر الرازي المعروف بالجصاص، من أهل الري، من فقهاء الحنفية، سكن بغداد ودرّس بها، تفقه الجصاص على أبي سهل الزجاج وعلى أبي الحسن الكرخي، وتفقه عليه كثيرون، انتهت إليه رئاسة الحنفية في وقته، من تصانيفه: أحكام القرآن، وشرح مختصر شيخه أبي الحسن الكرخي، وشرح مختصر الطحاوي، وشرح الجامع الصغير. توفي سنة سبعين وثلاثمائة.
ينظر: تاريخ بغداد (٤/ ٣١٤)، والجواهر المضية (١/ ٢٢٠).

(٥) هو: محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري الخزرجي الأندلسي، أبو عبد الله، القرطبي: من كبار =

هريرة[(١)] رضي الله عنهم.

وقيل إنها آية تامة في الفاتحة وبعضٌ في البواقي.

وقيل بعضُ آية في الفاتحة وآية تامة في البواقي.

وقيل إنها بعض آية في الكل.

وقيل إنها آياتٌ من القرآن متعددة بعدد السور المُصدّرة بها من غير أن تكون جزءًا منها، وهذا القول غير معزوٍّ في الكتاب إلى أحد.

وهناك قول آخرُ ذكره بعض المتأخرين ولم ينسبْه إلى أحد وهو أنها آية تامة في الفاتحة وليست بقرآن في سائر السور، ولولا اعتبارُ كونها آيةً تامةً لكان ذلك أحدَ محملَيْ ترددِ الشافعي، فإنه قد نقل عنه أنها بعض آية في الفاتحة، وأما في غيرها فقوله فيها متردد.

فقيل: بين أن يكون قرآنًا أَوْ لا.

وقيل: بين أن يكون آيةً تامَّةً أَوْ لا.

قال الإمام الغزالي[(٢)]: والصحيح من الشافعي هو التردد الثاني.

---

= المفسرين، صالح متعبد، من أهل قرطبة. رحل إلى الشرق واستقر بمُنية ابن خصيب في شمالي أسيوط بمصر، وتوفي بها سنة إحدى وسبعين وستمائة. من تصانيفه: الجامع لأحكام القرآن الذي يعرف بتفسير القرطبي، والتذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة.
ينظر: نفح الطيب (١/ ٤٢٨)، الديباج المذهب (٣١٧).

(٦) هو: حمد - بفتح الحاء وسكون الميم، وقيل: اسمه أحمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب، أبو سليمان البستي المعروف بالخطابي، كان رأسًا في علم العربية والفقه والأدب وغير ذلك، من تصانيفه: «معالم السنن» تكلم فيها على سنن أبي داود، و«أعلام البخاري» و«غريب الحديث»، و«شرح أسماء الله الحسني»، و«كتاب الغنية عن الكلام وأهله»، و«كتاب العزلة»؛ وله شعر حسن، نقل عنه النووي في «التهذيب» شيئًا في اللغة، ثم قال: ومحله من العلم مطلقًا ومن اللغة خصوصًا الغاية العليا، توفي بـ«بست» في ربيع الآخر سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة.
تنظر ترجمته في: طبقات ابن قاضي شهبة (١/ ١١٦)، طبقات السبكي (٢/ ٢٨٢).

(١) هو: أبو هريرة الدوسي اليماني، صاحب رسول الله ﷺ، وحافظ الصحابة، واختُلِف في اسمه واسم أبيه اختلافًا كثيرًا، فقيل: اسمه عبد الرحمن بن صخر، وقيل: ابن غنم، روى عن: النبي ﷺ الكثيرَ الطيبَ، وعن أبي بكر، وعمر، وروى عنه: ابنه المحرر، وابن عباس، وابن عمر، وأنس، قال البخاري: روى عنه نحو من ثمانمائة رجل أو أكثر من أهل العلم من الصحابة والتابعين وغيرهم، توفي سنة سبع وخمسين.
ينظر: تهذيب الكمال (٣٤/ ٣٦٦)، تقريب التهذيب (٢/ ٥٨٧).

(٢) هو: محمد بن محمد بن محمد أبو حامد الغزالي، ولد سنة خمسين وأربعمائة هـ، فقيه شافعي أصولي، متكلم، متصوف، رحل إلى بغداد، فالحجاز، فالشام، فمصر، وعاد إلى طوس. من تصانيفه: =

وعن أحمد بنِ حنبلٍ[١] في كونها آيةً كاملة وفي كونها من الفاتحة روايتان ذكرهما ابن الجوزي، ونقل أنه مع مالك، وغيره ممن يقول إنها ليست من القرآن.

هذا والمشهور من هذه الأقاويل هي الثلاث الأُول، والاتفاقُ على إثباتها في المصاحف مع الإجماع على أن ما بين الدفتين كلام الله - عز وجل - يقضي بنفي القول الأول، وثبوت القدر المشترك بين الأخيرين من غير دلالة على خصوصية أحدهما، فإن كونها جزءًا من القرآن لا يستدعي كونها جزءًا من كل سورة منه، كما لا يستدعي كونها آية منفردة منه.

وأما ما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما «من أن مَنْ تركها فقد ترك مائة وأربعَ عشرةَ آيةً من كتاب الله تعالى»[٢] وما روي عن أبي هريرة من أنه عليه السلام قال: «فاتحةُ الكتاب سبعُ آياتٍ أولاهن بسم الله الرحمٰن الرحيم»[٣]، وما روي عن أم سلمة من أنه عليه السلام قرأ سورة الفاتحة وعدَّ بسم الله الرحمٰن الرحيم الحمد لله رب العالمين آية[٤]، وإن دل كلُ واحد منها على نفي القول الثاني فليس بشيء منها نصا في إثبات القولِ الثالث، أما الأول فلأنه لا يدل إلا على كونها آياتٍ من كتاب الله تعالى، متعددةً بعدد السور المصدرة بها، لا على ما هو المطلوبُ من كونها آية تامة من كل واحدة منها، إلا أن يُلْتجأ إلى أن يقال: إن كونها آيةً متعددةً بعدد السور المصدّرةِ بها، من غير أن تكون جزءًا منها - قولٌ لم يقل به أحد، وأما الثاني فساكت عن التعرض لحالها في بقية السور، وأما الثالثُ فناطقٌ بخلافه مع مشاركته للثاني في السكوت المذكور.

---

= البسيط، والوسيط، والوجيز، والخلاصة، وكلها في الفقه، وتهافت الفلاسفة، وإحياء علوم الدين. توفي سنة خمس وخمسمائة هـ.
ينظر: طبقات الشافعية (٤/ ١٠١-١٨٠)، والوافي بالوفيات (١/ ٢٧٧).

(١) هو: أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، أبو عبد الله المروزي ثم البغدادي، مولده سنة أربع وستين ومائة، أحد أئمة الإسلام ، والهداة الأعلام، وأحد الأربعة الذين تدور عليهم الفتاوي والأحكام في بيان الحلال والحرام، أخذ الفقه عن جماعة أجلهم الإمام الشافعي، وقال: كل مسألة ليس عندي فيها دليل، فأنا أقول فيها بقول الشافعي. توفي ببغداد في ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين ومائتين.
تنظر ترجمته في: طبقات ابن قاضي شهبة (١/ ٥٦)، طبقات ابن السبكي (٢/ ٢٧).

(٢) أخرجه أبو عمرو الداني في البيان في عد آي القرآن، ص (٥٠).

(٣) أخرجه ابن مردويه في تفسيره كما في تفسير ابن كثير (١/ ١٠) من طريق المعافى بن عمران، عن عبد الحميد بن جعفر، عن نوح بن أبي بلال، عن المقبري، عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

(٤) أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ١٩٩) برقم (١٠٨٧) من حديث أم سلمة - رضي الله عنها - أن النبي ﷺ كان يصلي في بيتها فيقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ... الحديث.

والباء فيها متعلقةٌ بمضمرٍ يُنبئ عنه الفعلُ المصدَّرُ بها، كما أنها كذلك في تسمية المسافر عند الحلول والارتحال، وتسمية كل فاعل عند مباشرة الأفعال.

## [تفسير البسملة]

ومعناها: الاستعانةُ أو الملابسةُ تبركًا، أي باسم الله أقرأ، أو أتلو، وتقديم المعمول للاعتناء به، والقصد إلى التخصيص، كما في ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، وتقديرُ: (أبدأ)؛ لاقتضائه اقتصارَ التبرك على البداية: مُخلّ بما هو المقصودُ، أعني شمولَ البركة للكل، وادعاءُ أن فيه امتثالًا للحديث الشريف من جهة اللفظ والمعنى معًا، وفي تقدير (أقرأُ) من جهة المعنى فقط ليس بشيء، فإن مدارَ الامتثالِ هو البدءُ بالتسمية لا تقديرُ فعله، إذ لم يقل في الحديث الكريم: «كلُّ أمرٍ ذي بال»[1] لم يُقل فيه أو لم يُضْمَر فيه (أَبدأُ).

وهذا إلى آخر السورة الكريمة مقولٌ على ألسنة العباد تلقينًا لهم، وإرشادًا إلى كيفية التبرك باسمه تعالى، وهدايةً إلى منهاج الحمد وسؤالِ الفضل، ولذلك سُميت السورةُ الكريمة بما ذكر من تعليم المسألة.

وإنما كُسرت، ومن حق الحروف المفردة أن تُفتَحَ؛ لاختصاصها بلزوم الحرفية والجر، كما كسرت لامُ الأمر، ولامُ الإضافة داخلةً على المُظْهَر للفصل بينهما وبين لام الابتداء.

والاسم عند البصريين من الأسماء المحذوفة الأعْجَاز، المبنية الأوائل على السكون قد أُدخلت عليها عند الابتداء همزة، لأن مِنْ دأبهم البدءَ بالمتحرِّك والوقفَ على الساكن، ويشهد له تصريفُهم على (أسماء) و(سُميٌّ) و(سمَّيتُ)، و(سُمى) كـ (هُدًى) لغة فيه قال: [الرجز]

والـلَّـه أسـمـاكَ سُـمـي مـبـاركـا     آثـرك الـلَّـهُ بـه إيـثـاركـا[2]

---

(١) أخرجه أبو داود (٤/ ٢٦١) كتاب الأدب، باب: الهدي في الكلام، حديث (٤٨٤٠)، وابن ماجه (١/ ٦١٠) كتاب النكاح، باب: خطبة النكاح، حديث (١٨٩٤)، وأحمد (٢/ ٣٥٩)، والنسائي (٤٩٤)، والدارقطني (١/ ٢٢٩) رقم (١)، وابن حبان (٥٧٨) برقم (١، ٢ - الإحسان)، والبيهقي (٣/ ٢٠٨، ٢٠٩) كتاب الجمعة، باب: ما يستدل به عن أبي سلمة عن أبي هريرة به.

قال أبو داود: رواه يونس وعقيل وشعيب وسعيد بن عبد العزيز عن النبي ﷺ مرسلا .ا هـ.

وقال الدارقطني: تفرد به قرة عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة، وأرسله غيره عن الزهري عن النبي ﷺ وقرة ليس بقوي في الحديث، والمرسل هو الصواب.

ورجح المرسل أيضا الدارقطني في العلل (٨/ ٢٩، ٣٠).

(٢) الرجز لأبي خالد القناني في إصلاح المنطق، ص (١٣٤)، والمقاصد النحوية (١/ ١٥٤)، وبلا نسبة =

والقلبُ بعيدٌ غير مطرد، واشتقاقه من السُمو لأنه رفعٌ للمُسمَّى وتنويهٌ له، وعند الكوفيين من السِّمة، وأصله وَسَمَ، حذفت الواو وعُوِّضت عنها همزةُ الوصل ليقِلَّ إعلالُها، ورُدَّ عليه بأن الهمزة لم تُعهَدْ داخلةً على ما حُذف صدرُه في كلامهم، ومن لغاتهم سِمٌ وسُمٌ قال: [الرجز]

باسم الذي في كلِّ سورةٍ سِمُهْ[1]

وإنما لم يقل باللَّهِ للفرق بين اليمين والتيمُّن، أو لتحقيق ما هو المقصودُ بالاستعانة هٰهنا، فإنها تكون تارة بذاته تعالى. وحقيقتها طلبُ المعونة على إيقاع الفعل وإحداثه، أي إفاضةُ القدرةِ المفسرةِ عند الأصوليين من أصحابنا بما يتمكن به العبدُ من أداء ما لزِمه، المنقسمةِ إلى ممكِنة وميسِّرة، وهي المطلوبة بإياك نستعين، وتارة أخرى باسمه عز وجل وعلا. وحقيقتها طلبُ المعونة في كون الفعل معتدًا به شرعًا فإنه ما لم يُصَدَّر باسمهِ تعالى يكون بمنزلةِ المعدوم. ولما كانت كل واحدة من الاستعانتين واقعةً وجب تعيينُ المراد بذكر الاسم، وإلا فالمتبادَرُ من قولنا بالله عند الإطلاق لا سيما عند الوصف بالرحمٰن الرحيم هي الاستعانة الأولى.

إن قيل: فليُحمل الباء على التبرك وليستَغْنَ عن ذكر الاسم، لما أن التبرك لا يكون إلا به، قلنا: ذاك فرعُ كون المراد بالله هو الاسم، وهل التشاجرُ إلا فيه، فلا بد من ذكر الاسم لينقطعَ احتمالُ إرادة المسمَّى. ويتَعَينُ حمل الباء على الاستعانة الثانية أو التبرك. وإنما لم يكتب الألف لكثرة الاستعمال قالوا: وطُوِّلتِ الباءُ عوضًا عنها.

**والله أصله الإله**، فحذفت همزته على غير قياس كما يُنْبِئ عنه وجوب الإدغام، وتعويض الألف واللام عنها، حيث لزماه وجُرِّدا من معنى التعريف، ولذلك قيل: يا ألله بالقطع، فإن المحذوف القياسيَّ في حكم الثابت، فلا يحتاج إلى التدارك بما ذُكِرَ من الإدغام والتعويض. وقيل: على قياس تخفيف الهمزة، فيكون الإدغام والتعويض من خواص الاسم الجليل، ليمتاز بذلك عما عداه امتياز مسمّاه عما سواه بما لا يوجد فيه من نعوت الكمال. والإله في الأصل اسمُ جنسٍ يقع على كل معبود بحقٍ أو

---

= في أوضح المسالك (١/ ٣٤)، وشرح المفصَّل (١/ ٢٤)، ولسان العرب (١٤/ ٤٠١، ٤٠٢ (سما)، وتاج العروس (سمو)).

(١) الرجز بلا نسبة في أسرار العربية، ص (٨)، وشرح المفصَّل (١/ ٢٤)، ولسان العرب (١٤/ ٤٠١، ٤٠٢) (سما)، والإنصاف، ص (١٦)، وشرح شافية ابن الحاجب (٢/ ٢٥٨)، والمقتضب (١/ ٢٢٩).

باطل، أي مع قطع النظرِ عن وصف الحقية والبطلان، لا مع اعتبارِ أحدهما بعينه، ثم غلب على المعبود بالحق كالنجم والصَّعِقْ. وأما الله بحذف الهمزة فعلمٌ مختصٌّ بالمعبود الحقِّ لم يطلق على غيره أصلًا، واشتقاقه من الإلاهة والأُلوهَة، والأُلوهِية بمعنى العبادة حسبما نص عليه الجوهري، على أنه اسمٌ منها بمعنى المألوه، كالكتاب بمعنى المكتوب، لا على أنه صفة منها، بدليل أنه يوصف ولا يوصف به، حيث يُقال إله واحد، ولا يُقال شيء إلهٌ، كما يُقال كتاب مرقوم، ولا يقال شيء كتاب. والفرق بينهما أن الموضوع له في الصفة هو الذاتُ المبهمةُ باعتبار اتصافِها بمعنىً معيّنٍ وقيامِهِ بها. فمدلولها مركبٌ من ذاتٍ مُبهمةٍ لم يُلاحظ معها خصوصية أصلًا، ومِن معنىً معينٍ قائم بها على أن مَلاك الأمرِ تلك الخصوصية، فبأيِّ ذاتٍ يقومُ ذلك المعنى يصحّ إطلاقُ الصفة عليها، كما في الأفعال. ولذلك تَعْمَلُ عملها كاسمي الفاعلِ والمفعول. والموضوع له في الاسم المذكور هو الذاتُ المعينة والمعنى الخاص، فمدلوله مركب من ذَيْنِكَ المعنيين من غيرِ رجحانٍ للمعنى على الذات كما في الصفة، ولذلك لم يعمل عملها.

**وقيل**: اشتقاقه من أَلِهَ بمعنى تحير، لأنه سبحانه تَحارُ في شأنه العقول والأفهام. وأما أَلَهَ كعَبَدَ وزنًا ومعنىً فمشتق من الألَه المشتق من أَلِهَ بالكسر، وكذا تألَّه واستَأْلَه اشتقاق: استنوق واستحجر من الناقة والحَجَر. **وقيل**: من أَلِهَ إلى فلان أي سكن إليه، لاطمئنان القلوب بذكره تعالى وسكون الأرواح إلى معرفته. وقيل: من أَلِهَ إذا فزِع من أمرٍ نزل به، وآلَهَهُ غيرُه إذا أجاره، إذ العائذُ به تعالى يفزَع إليه وهو يُجيره حقيقة أو في زعمه. **وقيل**: أصله لاهٌ على أنه مصدر من لاهَ يَلِيهُ بمعنى احتجب وارتفع، أطلق على الفاعل مبالغة. وقيل: هو اسمُ علمٍ للذات الجليل ابتداء وعليه مدار أمر التوحيد في قولنا «لا إله إلاَّ الله».

ولا يخفى أن اختصاصَ الاسم الجليل بذاته سبحانه بحيث لا يمكن إطلاقُه على غيره أصلًا كافٍ في ذلك، ولا يقدَح فيه كونُ ذلك الاختصاصِ بطريق الغَلَبة بعد أن كان اسمَ جنسٍ في الأصل، وقيل: هو وصفٌ في الأصل لكنه لما غلب عليه بحيث لا يُطلق على غيره أصلًا صار كالعلم، ويردّه امتناعُ الوصف به.

واعلم أن المراد بالمنَكَّر في كلمة التوحيد هو المعبودُ بالحق، فمعناها: لا فردَ من أفراد المعبود بالحق إلا ذلك المعبودُ بالحق. **وقيل**: أصلُه لاَهَا بالسريانية فعُرِّب بحذف الألف الثانية، وإدخال الألف واللام عليه وتفخيم لامه إذا لم ينكسر ما قبله سنة، **وقيل**: مطلقًا، وحذفُ ألفِه لحنٌ تفسد به الصلاة، ولا ينعقد به صريحُ اليمين،

وقد جاء لضرورة الشعر في قوله: [الوافر]

ألا لا بـارك الـلَّـهُ فـي سُـهـيـلٍ إذا مـا الـلَّـهُ بـاركَ فـي الـرجـالِ[(١)]

## [تفسير الرحمٰن الرَّحيم]

و﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ صفتان مبنيتان من رَحِمَ «بعد جعله لازمًا» بمنزلة الغرائز، بنقله إلى رَحُمَ بالضم كما هو المشهور. وقد قيل: إن الرحيم ليس بصفة مشبَّهة، بل هي صيغة مبالغة، نص عليه سِيبَوَيه في قولهم: هو رحيمٌ فلانًا. **والرحمة** في اللغة رقة القلب والانعطاف، ومنه الرَّحِمُ لانعطافها على ما فيها. والمراد هٰهنا التفضل والإحسان، وإرادتهما بطريق إطلاق اسم السبب بالنسبة إلينا على مسَبّبِهِ البعيد أو القريب، فإنَّ أسماء الله تعالى تؤخذ باعتبار الغايات التي هي أفعال؛ دون المبادئ التي هي انفعالات. **والأولُ** من الصفات الغالبة حيث لم يطلق على غيره تعالى، وإنما امتنع صرفُه إلحاقًا له بالأغلب في بابه من غير نظر إلى الاختصاص العارض، فإنه كما حظِر وجود فعلىٰ حُظِر وجود فعلانة، فاعتبارُه يوجب اجتماعَ الصرف وعدمَه، فلزم الرجوع إلى أصل هذه الكلمة قبل الاختصاص، بأن تقاس إلى نظائرها من باب (فَعِلَ) (يَفْعَلُ)، فإذا كانت كلها ممنوعة من الصرف لتحقق وجود (فَعْلى) فيها، علم أن هذه الكلمة أيضًا في أصلها مما تحقق فيها وجود «فعلى»، فتُمنع من الصرف.

وفيه من المبالغة ما ليس في الرحيم؛ ولذلك قيل: «يا رحمٰن الدنيا والآخرة»، ورحيم الدنيا **وتقديمه** مع كون القياسِ تأخيرَه رعايةً لأسلوب الترقي إلى الأعلى، كما في قولهم: فلان عالمٌ نِحْرير[(٢)]، وشجاعٌ باسل، وجَوَادٌ فيَّاض، لأنه باختصاصه به عز وجل صار حقيقًا بأن يكون قرينًا للاسم الجليل الخاص به تعالى، ولأن ما يدل على جلائل النعم وعظائمها وأصولها أحقُّ بالتقديم مما يدل على دقائقها وفروعها.

وإفراد الوصفين الشريفين بالذكر لتحريك سلسلة الرحمة.

## [تفسير الحمد لله]

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ الحمد هو: «النعتُ بالجميل على الجميل، اختياريًا كان أو مبدأً له، على وجه يُشْعِرُ بتوجيهه إلى المنعوت» وبهذه الحيثية يمتازُ عن المدحِ، فإنَّهُ خالٍ

---

(١) البيت بلا نسبة في خزانة الأدب (١٠/ ٣٤١، ٣٥٥، ٣٥٦)، ولسان العرب (١٣/ ٤٧١).

(٢) النحرير: المتقن، الفطِن، البصير في كل شيء لأنه ينحر العلم نحرًا.

عنها، يرشدك إلى ذلك ما ترى بينهما من الاختلاف في كيفية التعلق بالمفعول في قولك: «حمدته» و«مدحته»، فإن تعلق الثاني بمفعوله على منهاج تعلق عامة الأفعال بمفعولاتها.

وأما الأولُ فتعلقه بمفعوله مُنْبئ عن معنى الإنهاء، كما في قولك: كَلَّمْتُه، فإنه مُعْربٌ عما تفيده لام التبليغ في قولك: قلتُ له.

ونظيرُه شَكَرْتُه وعبدتُه وخدمتُه، فإن تعلّق كلٍّ منها منبىء عن المعنى المذكور، وتحقيقُه: أن مفعول كلِّ فعلٍ في الحقيقة هو الحدث الصادرُ عن فاعله ولا يُتصور في كيفية تعلق الفعل به ـ أيَّ فعلٍ كان ـ اختلافٌ أصلًا.

وأما المفعولُ به الذي هو محلُّه وموقِعُه، فلما كان تعلقه به ووقوعُه عليه على أنحاءَ مختلفةٍ حسبما تقتضيه خصوصياتُ الأفعال بحسب معانيها المختلفة، فإن بعضها يقتضي أن يلابسه ملابسةً تامَّةً مؤثرة فيه كعامة الأفعال، وبعضها يستدعي أن يلابسَه أدنى ملابسة.

إما بالانتهاء إليه كالإعانة مثلًا، أو بالابتداءِ منه كالاستعانة مثلًا، اعتبر في كل نحو من أنحاءِ تعلّقِه به كيفية لائقةٌ بذلك النحو، مغايرةٌ لما اعتبر في النحْوَيْنِ الأخيرين.

فنظمُ القسمِ الأول من التعلق في سلك التعلقِ بالمفعولِ الحقيقي مراعاةً لقوة الملابسة، وجَعْلُ كلِّ واحدٍ من القسمين الأخيرين من قبيل التعلق بواسطة الجارّ المناسب له، فإن قولَكَ: «أعنتُه» مشعرٌ بانتهاء الإعانةِ إليه، وقولك: «استعنتُه» بابتدائها منه، وقد يكون لفعلٍ واحدٍ مفعولان يتعلق بأحدهما على الكيفية الأولى، وبالآخَرِ على الثانية أو الثالثة، كما في قولك: «حدثني الحديث»، و«سألني المالَ»، فإن التحديثَ مع كونه فعلًا واحدًا قد تعلّقَ بك على الكيفية الثانية، وبالحديث على الأولى، وكذا السؤال فإنه فعل واحد، وقد تعلّق بك على الكيفية الثانية وبالمال على الأولى.

ولا ريب في أن اختلافَ هذه الكيفيات الثلاثِ وتبايُنَها واختصاصَ كلٍّ من المفاعيلِ المذكورةِ بما نُسِبَ إليه منها مما لا يُتصور فيه تردُّدٌ ولا نَكيرٌ وإن كان لا يتضحُ حقَّ الاتضاح إلا عند الترجمة والتفسير، وأن مدارَ ذلك الاختلاف ليس إلا اختلافَ الفعل أو اختلاف المفعول، وإذ لا اختلاف في مفعول الحمد والمدح تَعَيَّنَ أن اختلافهما في كيفيةِ التعلق، لاختلافهما في المعنى قطعًا.

هذا وقد قيلَ: المدحُ مطلقٌ عن قيدِ الاختيار، يُقال: مدحتُ زيدًا على حُسْنِهِ

ورشاقة قَدِّهِ، وأيًّا ما كان فليس بينهما ترادفٌ، بل أُخوَّةٌ من جهةِ الاشتقاق الكبير، وتناسبٌ تام في المعنى كالنصر والتأييد فإنهما يتناسبان معنىً من غير ترادفٍ لما ترى بينهما من الاختلاف في كيفية التعلق بالمفعول، وإنما مرادفُ النصر الإعانة، ومرادف التأييد التقوية، فتدبر.

ثم إن ما ذُكِرَ من التفسير هو المشهورُ من معنى الحمد، واللائقُ بالإرادة في مقام التعظيم.

وأما ما ذُكِرَ في كُتُبِ اللغةِ من معنى الرضىٰ مطلقًا كما في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ [الإسراء، الآية: ٧٩] وفي قولهم: «لهذا الأمر عاقبةٌ حميدةٌ»، وفي قول الأطباء: «بُحْرَانٌ محمود»[١]، مما لا يختص بالفاعل فضلًا عن الاختيار فبمعزل عن استحقاق الإرادة هٰهنا استقلالًا، أو استتباعًا بحملِ الحمدِ على ما يعم المعنيين؛ إذ ليس في إثباته له عز وجل فائدةٌ يُعْتَدُ بها.

وأما الشكْرُ فهو مقابلة النعمة بالثناء وآداب الجوارح، وعقدُ القلبِ على وصفِ المنعم بنعت الكمال كما قال من قال: [الطويل]

أفادتكم النَّعْمَاءُ مني ثلاثةً    يدي ولساني والضميرَ المُحجبا[٢]

فإذن هو أعمُّ منهما من جهة، وأخص من أخرى. ونقيضُهُ الكفران، ولما كان الحمد من بين شُعَبِ الشكر أَدْخَلَ في إشاعةِ النعمةِ والاعتدادِ بشأنِها، وأدلَّ على مكانها؛ لِما في عمل القلب من الخفاء، وفي أعمال الجوارحِ من الاحتمال، جُعِلَ الحمدُ رأسَ الشكر، ومِلاكًا لأمره في قوله عليه السلام: «الحمدُ رأسُ الشُّكرِ، ما شكرَ الله عبد لم يحمدْهُ»[٣] وارتفاعُهُ بالابتداء، وخبرُه الظرف، وأصلُه النَصْبُ كما

---

(١) ينظر: الحاوي في الطب (٥/ ١١٠).

(٢) ينظر: تفسير الكشاف (١/ ٨) وتفسير ابن كثير (١/ ٢٢)، وغرائب الفرقان (١/ ٩٢)، والدر المصون (١/ ٦٣)، واللباب في علوم الكتاب (١/ ١٦٨).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١٠/ ٤٢٤) رقم (١٩٥٧٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٩٦) حديث رقم (٤٣٩٥)، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» في الأصل الرابع والخمسين والمائة؛ كلهم من طريق قتادة عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا.
قلت: وهذا سند ضعيف لانقطاعه؛ فإن قتادة لم يدرك عبد الله بن عمرو.
والحديث ذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ٣٣٠ ٣٤)، وعزاه إلى عبد الرزاق في المصنف، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول»، والخطابي في الغريب، والبيهقي في الأدب، والديلمي في مسند الفردوس والثعلبي.
وأخرجه البغوي في معالم التنزيل (٣/ ١٤٣) في آخر سورة بني إسرائيل.

هو شأن المصادر المنصوبة بأفعالها المُضمرة التي لا تكاد تُستعمل معها، نحو «شُكرًا» «وعجبًا»، كأنه قيل: نحمد الله حمدًا بنون الحكاية، ليوافق ما في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة، الآية: ٥] لاتحاد الفاعل في الكل.

وأما ما قيل من أنه بيانٌ لحمدِهم له تعالى، كأنَّهُ قيل: كيف تحمَدون؟ فقيل: إياكَ نعبد فمع أنه لا حاجةَ إليه مما لا صحةَ له في نفسِهِ، فإنَّ السؤالَ المقدرَ لا بدَّ أنْ يكون بحيثُ يقتضيهِ انتظامُ الكلامِ وتنساقُ إليه الأذهانُ والأفهامُ، ولا ريبَ في أن الحامد بعد ما ساق حمده تعالى على تلك الكيفيةِ اللائقةِ لا يَخْطُرُ ببالِ أحدٍ أن يسألَ عن كيفيتهِ على أنَّ ما قُدِرَ من السؤال غيرُ مطابقٍ للجواب، فإنه مسوقٌ لتعيين المعبود، لا لبيان العبادة، حتى يُتَوَهم كونُه بيانًا لحمدهم والاعتذارُ بأن المعنى نخصك بالعبادة وبه يتبين كيفيةُ الحمد تعكيسٌ للأمرِ، وتَمَحّلٌ لتوفيق المُنَزَّل المقرَّرِ بالموهوم المُقدّر.

وبعدَ اللُّتَيا والتي إنْ فُرِضَ السؤال من جهتِهِ عز وجل فاتَتْ نُكْتَةُ الالتفاتِ التي أجمع عليها السلف والخلف، وإن فُرِضَ من جهةِ الغيرِ يختلُ النظام لابتناءِ الجوابِ على خطابِهِ تعالى، وبهذا يتضحُ فساد ما قيل: إنه استئنافٌ جوابًا لسؤال يقتضيه إجراءُ تلك الصفات العظامِ على الموصوف بها، فكأنه قيل: ما شأنُكم معه وكيف توجُّهكم إليه؟ فأجيب بحصْرِ العبادة والاستعانة فيه، فإن تناسِيَ جانبِ السائل بالكلية وبناءَ الجواب على خِطابه - عز وعلا - مما يجب تنزيهُ ساحةِ التنزيل عن أمثاله.

والحقُّ الذي لا محيدَ عنه أنَّهُ استئنافٌ صدرَ عن الحامد بمحضِ ملاحظةِ اتصافِهِ تعالى بما ذُكِرَ من النعوت الجليلةِ الموجبة للإقبال الكليّ عليه، من غير أن يتوسط هناك شيء آخرُ كما ستحيط به خُبرا.

وإيثارُ الرفعِ على النصب الذي هو الأصلُ للإيذان بأن ثبوتَ الحمد له تعالى لذاته لا لإثبات مُثبت، وأن ذلك أمرٌ دائمٌ مستمرٌ لا حادثٌ متجددٌ كما تفيده قراءةُ النصب، وهو السر في كون تحية الخليل للملائكة عليهم التحيةُ والسلام أحسنَ من تحيتهم له في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌۖ﴾ [هود، الآية ٦٩].

وتعريفُه للجنس، ومعناه: الإشارةُ إلى الحقيقة من حيث هي حاضرةٌ في ذهن السامع، والمراد تخصيصُ حقيقةِ الحمدِ به تعالى المستدعي لتخصيص جميعِ أفرادِها به سبحانه على الطريق البرهاني، لكن لا بناءً على أن أفعال العبادِ مخلوقةٌ له تعالى، فتكون الأفرادُ الواقعة بمقابلة ما صدر عنهم من الأفعال الجميلة راجعةً إليه تعالى، بل

بناءً على تنزيل تلك الأفراد ودواعيها في المقام الخطابيّ منزلةَ العدم كيفًا وكمًّا.

وقد قيل: للاستغراق الحاصل بالقصد إلى الحقيقة من حيث تحققُها في ضمن جميع أفرادها، حسبما يقتضيه المقام.

وقرئ[١]: الحمدِ لِلَّهِ (بكسر الدال) إتباعًا لها باللام، (وبضم اللام) إتباعًا لها بالدال، بناء على تنزيل الكلمتين لكثرة استعمالهما مقترنتين منزلة كلمةٍ واحدة، مثل «المِغِيرة» و«مُنْحَدُرُ الجبل».

## [تفسير رب العالمين]

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بالجر[٢] على أنه صفة لله، فإن إضافته حقيقيةً مفيدةٌ للتعريف على كل حال، ضرورةَ تعيُّن إرادة الاستمرار، وقرئ[٣] منصوبًا على المدح، أو بما دلت عليه الجملةُ السابقة، كأنه قيل: «نحمد الله ربَّ العالمين» ولا مساغَ لنصبه بـ «الحمد» لقلة إعمال المصدر المُحلى باللام، وللزوم الفصل بين العامل والمعمول بالخبر، .

والرب: في الأصل مصدرٌ بمعنى التربية وهي تبليغُ الشيءِ إلى كماله شيئًا فشيئًا، وُصف به الفاعل مبالغةً كالعدل.

---

(١) وهي قراءة شاذة وفي تخريجها وجهان:
أظهرهما: أنه منصوب على المصدرية، ثم حذف العامل، وناب المصدر منابه؛ كقولهم في الأخبار: «حمدا، وشكرا لا كفرا» والتقدير: «أحمد الله حمدا »، فهو مصدر ناب عن جملة خبرية».
وقال الطبري -رحمه الله تعالى-: «إن في ضمنه أمر عباده أن يثنوا به عليه»، فكأنه قال: «قولوا: الحمد لله» وعلى هذا يجيء قولوا: «إياك».
فعلى هذه العبارة يكون من المصادر النائبة عن الطلب لا الخبر، وهو محتمل للوجهين، ولكن كونه خبريا أولى من كونه طلبيا، ولا يجوز إظهار الناصب، لئلا يجمع بين البدل والمبدل منه.
والثاني: أنه منصوب على المفعول به، أي: اجمع ضبعا، والأول أحسن؛ للدلالة اللفظية. وقراءة الرفع أمكن، وأبلغ من قراءة النصب، لأن الرفع في باب المصادر التي أصلها النيابة عن أفعالها يدل على الثبوت والاستقرار، بخلاف النصب، فإنه يدل على التجدد والحدوث، ولذلك قال العلماء -رحمهم الله-: إن جواب إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- في قوله تعالى حكاية عنه: ﴿قال سلام﴾ [هود: ٦٩] أحسن من قول الملائكة: ﴿قالوا سلاما﴾ [هود: ٦٩] امتثالا لقوله تعالى: ﴿فحيوا بأحسن منها﴾ [النساء: ٨٦].
ينظر: البحر المحيط (١/ ١٣١)، والمحرر الوجيز (١/ ٦٦) واللباب (١/ ١٧١) والشواذ لابن خالويه، ص (٩)، والكشاف (١/ ١٠).

(٢) وهي قراءة الجمهور.

(٣) وهي قراءة زيد بن علي.
ينظر: البحر المحيط (١/ ١٣١)، واللباب (١/ ١٨٠).

**وقيل**: صفة مشبهة، من ربَّه يربُّه، مثل نمَّه يُنمُّه، بعد جعله لازمًا بنقله إلى فعُل بالضم، كما هو المشهور، سُمّي به المالكُ لأنه يحفظ ما يملِكه ويربيه، ولا يطلق على غيره تعالى إلا مقيدًا كربُّ الدار وربُّ الدابة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾[يوسف، الآية ٤١] وقوله تعالى: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [يوسف، الآية ٥٠] وما في «الصحيحين» من أنه ﷺ قال: «لا يَقُل أحدُكم أطعِمْ ربك، وضئ ربَّك، ولا يَقُلْ أحدُكم ربِّي، ولْيَقُل سَيّدي ومولاي»[(١)].

فقد قيل: إن النهيَ فيه للتنزيه، وأما الأربابُ فحيث لم يمكن إطلاقُه على الله سبحانه جاز في إطلاقه الإطلاق والتقييد، كما في قوله تعالى: ﴿أأربابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ﴾ [يوسف، الآية ٣٩]. و(العالم) اسمٌ لما يُعْلَم به، كالخاتَم والقالَب، غلب فيما يُعْلَم به الصانعُ تعالى من المصنوعات أي في القَدْرِ المشترك بين أجناسها وبين مجموعِها، فإنه كما يُطلق على كل جنسٍ جنسٌ منها في قولهم «عالم الأفلاك»، و«عالمُ العناصر»، و«عالمُ النبات»، و«عالم الحيوان»، إلى غير ذلك، يطلق على المجموع أيضًا، كما في قولنا العالم «بجميع أجزائه مُحْدَث»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري (٥/ ٤٨٥) كتاب العتق، باب: كراهية التطاول على الرقيق،وقوله: عبدي أو أمتي، برقم (٢٥٥٢)، ومسلم (٤/ ١٧٦٤) كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب: حكم إطلاق لفظة العبد والأمة والمولى والسيد برقم (١٣/ ٢٢٤٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ذكر الباجوري أن للحدوث معنيين:
أحدهما -وهو الحقيقي-: الوجود بعد العدم.
وثانيهما -وهو المجازي-: مطلق التحقق بعد ذلك.
وذكر الرّاغب الأصفهاني أنّ العالم في الأصل: اسم لما يُعلم به، كالطابع والخاتم لما يُطبع به ويُختم به.
قال التهانوي: «ثمّ غلب في الاستعمال فيما يُعلم به الصّانع، وهو ما سوى الله تعالى من الموجودات أي المخلوقات...».
وإطلاق لفظ العالَم على ما سوى الله تعالى من الموجودات فقط، جار على مذهب من ينفي الأحوال.
أمّا على مذهب من يثبتها، فلفظ العالم يُطلق على: ما سوى الله تعالى من الموجودات والأحوال.
وعلى كلٍّ، فالمعدومات ليست من العالم سواء أكانت ممكنة كولدٍ لزيد قبل وجوده، أم مستحيلة كالشريك لله تعالى.
ينظر: حاشية تحقيق المقام للباجوري، ص (٢٩)، والمفردات للأصفهاني، ص (٣٤٩)، وكشاف اصطلاحات الفنون (٣/ ١٠٥٣) (باب العين، فصل الميم)، وشرح الصاوي على جوهرة التوحيد، ص (١٢٦، ١٢٧)، وتحفة المريد على جوهرة التوحيد، ص (٢٥).

وقيل: هو اسم لأولي العلم من الملائكة والثقلين وتناولُه لما سواهم بطريق الاستتباع.

**وقيل**: أريد به الناسُ فقط، فإنَّ كلَّ واحدٍ منهم من حيث اشتمالُه على نظائِرِ ما في العالم الكبير من الجواهر والأعراض يُعلم بها الصانع، كما يُعلم بما في كل عالَم على حِيالِه، ولذلك أمر بالنظر في الأنفس كالنظر في الآفاق، فقيل: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات، الآية ٢١] والأول هو الأحق الأظهر، وإيثارُ صيغة الجمع لبيان شمول ربوبيته تعالى لجميع الأجناس.

والتعريفُ لاستغراق أفراد كلٍّ منها بأسرها، إذ لو أفرد لربما تُوهِّم أن المقصود بالتعريف هو الحقيقة من حيث هي، أو استغراقُ أفرادِ جنسٍ واحد على الوجه الذي أشير إليه في تعريف الحمد، وحيث صح ذلك بمساعدة التعريف نُزِّلَ العالم ـ وإن لم يُطلق على آحاد مدلوله ـ منزلة الجمع، حتى قيل: إنه جمعٌ لا واحد له من لفظه، فكما أن الجمعَ المعرَّفَ يستغرق آحادَ مُفرَدِه وإن لم يصدُقْ عليها كما في مثل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران، الآية ١٣٤] أي كلَّ محسن، كذلك العالمُ يشملُ أفرادَ الجنسِ المسمَّى به، وإن لم يُطلق عليها، كأنها آحادُ مفردِه التقديريّ، ومن قضية هذا التنزيلِ تنزيلُ جمعِه منزلةَ جمعِ الجمع، فكما أن الأقاويلَ تتناول كلَّ واحد من آحادِ الأقوال، يتناول لفظُ العالمينَ كلَّ واحد من آحادِ الأجناس التي لا تكاد تُحصىٰ.

روي عن وهْب بن منبه[١] أنه قال: «لله تعالى ثمانيةَ عشرَ ألفَ عالَم، والدنيا عالم منها»[٢] وإنما جُمِع بالواو والنون مع اختصاصِ ذلك بصفاتِ العُقلاء وما في حكمها من الأعلام **لدلالته على معنى العَلَم**، مع اعتبار تغليبِ العقلاء على غيرهم.

واعلم أن عدم إطلاقِ اسم العالَم على كل واحد من تلك الآحادِ ليس إلا باعتبار

---

(١) هو: وهب بن منبه بن كامل بن سيج بن ذي كبار، الإمام العلامة الأخباري القصصي، أبو عبد الله الأبناوي، اليماني الذماري الصنعاني، أخو همام بن منبه، ومعقل بن منبه، وغيلان ابن منبه، مولده في زمن عثمان سنة أربع وثلاثين، ورحل وحج. قال العجلي: تابعي ثقة، كان على قضاء صنعاء. وقال أبو زرعة والنسائي: ثقة. مات سنة عشر ومائة.
ينظر: طبقات ابن سعد (٥/ ٥٤٣)، الزهد لأحمد (٣٧١)، تاريخ البخاري (٨/ ١٦٤)، تذكرة الحفاظ (١/ ٩٥)، تهذيب التهذيب (١١/ ١٦٦).

(٢) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» رقم (٩٤٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٧٠) عن وهب بن منبه، وذكره البغوي في «معالم التنزيل» (١/ ٤٠).

الغلَبة والاصطلاح، وأما باعتبار الأصل فلا ريب في صحة الإطلاقِ قطعًا لتحقّق المصداقِ حتمًا، فإنه كما يُستدل على الله سبحانه بمجموع ما سواه، وبكل جنسٍ من أجناسِه يُستدل عليه تعالى بكل جزءٍ من أجزاءِ ذلك المجموع، وبكل فردٍ من أفراد تلك الأجناس، لتحقّق الحاجةِ إلى المؤثّر الواجب لذاته في الكُلّ، فإنَّ كل ما ظهرَ في المظاهر ـ مما عزَّ وهانَ ـ وحضَرَ في هذه المحاضر كائنًا ما كان دليلٌ لائح على الصانع المجيد، وسبيلٌ واضح إلى عالم التوحيد، وأما شمولُ ربوبيته عز وجل للكل فمما لا حاجة إلى بيانه، إذ لا شيءَ مما أحدق به نطاقُ الإمكان والوجود من العُلويات والسُفليات والمجرّدات والماديات والروحانيات والجسمانيات إلا وهو في حدّ ذاته بحيث لو فُرض انقطاعُ آثارِ التربية عنه آنًا واحدًا لما استقر له القرار، ولا اطمأنت به الدار، إلا في مطمورة العدم ومهاوي البوار، لكن يُفيضُ عليه من الجناب الأقدس، تعالى شأنُه وتقدس، في كل زمانٍ يمضي، وكل آنٍ يمر وينقضي، من فنون الفيوضِ المتعلقةِ بذاته، ووجودِه وصفاتِه وكمالاتِه مما لا يحيطُ به فَلَكُ التعبير ولا يعلمه إلا العليمُ الخبير، ضرورةَ أنه كما لا يستحق شيءٌ من الممكنات بذاتِه الوجودَ ابتداءً لا يستحقه بقاءً، وإنما ذلك من جناب المُبدئ الأول عز وعلا، فكما لا يُتصور وجودُه ابتداءً ما لم ينسدَّ عليه جميعُ أنحاءِ عدمِه الأصلي، لا يتصور بقاؤه على الوجود ـ بعد تحققه بعِلَّته ـ ما لم ينسدَّ عليه جميعُ أنحاءِ عدمِه الطارئ، لما أن الدوام من خصائص الوجودِ الواجبي، وظاهرٌ أن ما يتوقف عليهما وجودُه من الأمور الوجودية التي هي عِلَلُهُ وشرائِطُه وإن كانت متناهيةً لوجوب تناهي ما دخلَ تحتَ الوجود، لكنِ الأمورُ العدميةُ التي لها دخلٌ في وجوده وهي المعبَّر عنها بارتفاع الموانع ليست كذلك، إذْ لا استحالة في أن يكون لشيءٍ واحدٍ موانعُ غيرُ متناهية يتوقف وجودُه أو بقاؤه على ارتفاعها، أو بقائها على العدم مع إمكان وجودها في نفسها، فإبقاءُ تلك الموانِع التي لا تتناهى على العدم تربيةٌ لذلك الشيءِ من وجوهٍ غيرِ متناهية.

وبالجملة فآثارُ تربيتِه عز وجل الفائضةُ على كل فرد من أفراد الموجودات في كل آنٍ من آنات الوجود غيرُ متناهية، فسبحانه ما أعظمَ شأنَه لا تلاحظه العيونُ بأنظارها، ولا تطالعُه العقولُ بأفكارها، شأنُه لا يُضاهى، وإحسانُه لا يتناهىٰ، ونحن في معرفته حائِرون، وفي إقامة مراسمِ شكرِه قاصرون، نسألك اللهم الهدايةَ إلى مناهج معرفتِك، والتوفيقَ لأداء حقوقِ نعمتك، لا نُحصي ثناءً عليك لا إله إلاّ أنت، نستغفرُك ونتوب إليك.

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ صفتان لله.

فإن أريد بما فيهما من الرحمة ما يختص بالعقلاء من العالمين؛ أو ما يَفيضُ على الكل بعد الخروج إلى طوْر الوجودِ من النعم، فوجهُ تأخيرِهما عن وصف الربوبية ظاهر.

وإن أريد ما يعمّ الكلَّ في الأطوار كلِّها حسبما في قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف، الآية ١٥٦] فوجهُ الترتيب أن التربية لا تقتضي المقارنة للرحمة، فإيرادُهما في عقبها للإيذان بأنه تعالى متفضلٌ فيها، فاعلٌ بقضية رحمتِه السابقةِ من غير وجوبٍ عليه، وبأنها واقعةٌ على أحسنِ ما يكون، والاقتصارُ على نعته تعالى بهما في التسمية لما أنه الأنسبُ بحال المتبرِّك المستعين باسمه الجليل، والأوفقُ لمقاصده.

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ صفةٌ رابعة له تعالى، وتأخيرُها عن الصفات الأُوَل مما لا حاجة إلى بيان وجهِه.

وقرأ أهلُ الحرمَيْن[1] المحترمين (مِلِك) من المُلْك الذي هو عبارةٌ عن السلطان القاهر، والاستيلاءِ الباهر، والغلبةِ التامة، والقُدرةِ على التصرف الكليّ في أمور العامة، بالأمر والنهي، وهو الأنسبُ بمقام الإضافة إلى يوم الدين، كما في قوله تعالى: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر، الآية ١٦].

وقرئ (مَلْكِ) بالتخفيف و(مَلَكَ) بلفظ الماضي، (ومَالِكَ) بالنصب على المدح، أو الحال، وبالرفع منونًا ومضافًا على أنه خبرُ مبتدأ محذوف، (ومِلِكُ) مضافًا وبالرفع والنصب.

و«اليومُ» في العرف عبارةٌ عما بين طلوعِ الشمس وغروبها من الزمان.

وفي الشرع: عما بين طلوعِ الفجرِ الثاني وغروبِ الشمس.

والمرادُ هٰهنا مطلقُ الوقت. والدينُ الجزاءُ خيرًا كان أو شرًّا، ومنه الثاني في المثل السائر كما تَدين تُدان[2]، والأول في بيت الحماسة: [الهزج]

---

(١) ينظر: اختلاف القراء حول قراءة «مالك» في السبعة (١٠٤)، والحجة لأبي علي الفارسي (١/ ٥)، وإعراب القراءات السبع وعللها لابن خالويه (١/ ٤٧)، وحجة القراءات لابن زنجلة (٧٧)، والعنوان في القراءات السبع لأبي طاهر إسماعيل بن خلف المقرئ الأنصاري الأندلسي، ص (٦٧)، وإتحاف فضلاء البشر (١/ ٣٦٣)، والبحر المحيط (١/ ١٣٣)، واللباب (١/ ١٨٧)، والدر المصون (١/ ٦٩).

(٢) ينظر: جمهرة الأمثال (٢/ ١٦٨)، ومجمع الأمثال (٢/ ١٦١)، والمثل ليزيد بن الصعق، أخبرنا أبو أحمد عن ابن دريد عن أبي حاتم عن الأصمعي قال: كان ملك من ملوك غسان يعذر النساء لا يبلغه عن امرأة جمال إلا أخذها، فأخذ بنت يزيد بن الصعق الكلابي وكان أبوها غائبا، فلما قدم أخبر فوفد إليه فصادفه منتديا - وكان الملك إذا انتدى لا يحجب عنه أحد - فوقف بين يديه وقال: يا أيها =

ولــم يــبــقَ ســوى الــعُــدوا نِ دِنّــاهــم كــمــا دانــوا[(١)]

وأما الأول في الأول والثاني في الثاني فليس بجزاءٍ حقيقة، وإنما سُمّي به مشاكلة، أو تسميةٌ للشيء باسم مسبَّبِهِ كما سُميت إرادةُ القيام والقراءة باسمهما في قوله عز اسمه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة، الآية ٦] وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [النحل، الآية ٩٨] ولعله هو السرُّ في بناء المفاعلة من الأفعال التي تقوم أسبابُها بمفعولاتها، نحو عاقبتُ اللصَّ ونظائره، فإن قيام السرقة التي هي سببٌ للعقوبة باللص نُزّل منزلةَ قيام المسبَّبِ به، وهي العقوبة، فصار كأنها قامت بالجانبين، وصدَرَت عنهما، فَبُنيت صيغةُ المفاعلةِ الدالَّةِ على المشاركة بين اثنين.

وإضافةُ اليوم إليه لأدنىٰ ملابسةٍ كإضافة سائرِ الظروفِ الزمانية إلى ما وقع فيها من الحوادث، كيوم الأحزابِ وعامِ الفتح، وتخصيصُه من بين سائرِ ما يقع فيه من القيامة والجمعِ والحسابِ لكونه أدخلَ في الترغيب والترهيب، فإن ما ذكر من القيامة وغيرِها من مبادئ الجزاءِ ومقدِّماته، وإضافةُ (مالك) إلى اليوم (من) إضافة اسم الفاعل إلى الظرف، على نهج الاتساعِ المبنيّ على إجرائه مُجرىٰ المفعولِ به، مع بقاء المعنى على حاله، كقولهم: [الرجز]

يــا ســارقَ الــلــيــلــةِ أهــلَ الــدار[(٢)]

أي: مالِكَ أمورِ العالمين كلِّها في يومِ الدين. وخُلوُّ إضافتِه عن إفادة التعريفِ

---

= الملك المقيت! أما ترى ليلا وصبحا كيف يختلفان، هل تستطيع الشمس أن نأتي بها ليلا؟ وهل لك بالمليك يدان؟ فاعلم وأيقن أن ملكك زائل، واعلم أن كما تدين تدان. أي كما تجازي تجازى، يعني كما تعمل تجازى، إن حسنا فحسن وإن سيئا فسيئ، يعني إن عملت عملا حسنا فجزاؤك جزاء حسن، إن عملت عملا سيئا فجزاؤك جزاء سيئ. وقوله «تدين» أراد تصنع فسمي الابتداء جزاء للمطابقة والموافقة، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤] ويجوز أن يجري كلاهما على الجزاء أي كما تجازي أنت الناس على صنيعهم كذلك تجازى على صنيعك، والكاف في «كما» في محل النصب نعتا للمصدر أي تدان دينا مثل دينك.

(١) وهو للفند الزماني (شهل بن شيبان) في أمالي القالي (١/ ٢٦٠)، وحماسة البحتري، ص (٦٥)، وخزانة الأدب (٣/ ٤٣١)، والدرر (٣/ ٩٢)، وسمط اللآلي، ص (٩٤٠)، وشرح شواهد المغني (٢/ ٩٤٥) وبلا نسبة في أوضح المسالك (٢/ ٢٨١).

(٢) الرجز بلا نسبة في خزانة الأدب (٣/١٠٨، ٤/ ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٥١، ٦/ ٥٣٤)، والدرر (٣/ ٩٨)، وشرح ديوان الحماسة، ص (٦٥٥)، وشرح المفصل (٢/ ٤٥)، والكتاب (١/ ١٧٥، ١٧٧، ١٩٣)، والمحتسب (٢/ ٢٩٥)، وهمع الهوامع (١/ ٢٠٣).

المسوّغ لوقوعه صفةً للمعرفة إنما هو إذا أُريد به الحالُ، أو الاستقبالُ، وأما عند إرادة الاستمرارِ الثبوتيّ كما هو اللائقُ بالمقام فلا ريب في كونها إضافةً حقيقية كإضافة الصفة المشبهة إلى غير معمولها في قراءة «ملك يوم الدين».

ويومُ الدين وإن لم يكن مستمرا في جميع الأزمنة إلا أنه لتحقق وقوعِه وبقائه أبدًا أُجْرِيَ مُجرىٰ المتحقّقِ المستمر.

ويجوز أن يُراد به الماضي بهذا الاعتبار، كما تشهد به القراءةُ على صيغة الماضي، وما ذكر من إجراء الظرف مُجرى المفعولِ به إنما هو من حيث المعنى، لا من حيث الإعراب، حتى يلزمَ كونُ الإضافة لفظية، ألا ترى أنك تقول في: (مالكُ عبدِه أمسِ) إنه مضاف إلى المفعول به، على أنه كذلك معنًى، لا أنه منصوب محلا، وتخصيصُه بالإضافة إما لتعظيمه وتهويله، أو لبيان تفرّدِه تعالى بإجراء الأمر فيه، وانقطاعِ العلائق المجازية بين المُلاَّك والأمْلاَك حينئذٍ بالكلية، وإجراءُ هاتيك الصفاتِ الجليلةِ عليه سبحانه **تعليلٌ لما سبق** من اختصاص الحمدِ به تعالى، المستلزمِ لاختصاص استحقاقِه به تعالى، و**تمهيدٌ لما لَحِقَ** من اقتصار العبادةِ والاستعانةِ عليه، فإنَّ كلَّ واحدةٍ منها مفصِحةٌ عن وجوب ثبوتِ كلٍّ واحدٍ منها له تعالى، وامتناعِ ثبوتِها لما سواه.

أما الأولى والرابعةُ فظاهرٌ، لأنهما متعرِّضتان صراحةً لكونه تعالى ربا مالكًا وما سواه مربوبًا مملوكًا له تعالى.

وأما الثانية والثالثة فلأن اتصافَه تعالى بهما ليس إلا بالنسبة إلى ما سواه من العالمين وذلك يستدعي أن يكون الكلُّ منعمًا عليهم، فظهر أن كل واحدةٍ من تلك الصفات كما دلت على وجوب ثبوتِ الأمورِ المذكورةِ له تعالى دلت على امتناع ثبوتِها لما عداه على الإطلاق، وهو المعنى بالاختصاص.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

## (سر تكرار الفاتحة في الصلاة)

التفات من الغَيْبة إلى الخطاب، وتلوينٌ للنظم من باب إلى باب، جارٍ على نهج البلاغة في افتنان الكلام، ومسلَكِ البراعة حسبما يقتضي المقام، لما أن التنقلَ من أسلوب إلى أسلوب، أدخلُ في استجلاب النفوسِ واستمالةِ القلوب يقع من كل واحدٍ من التكلم والخطاب والغَيبة إلى كل واحد من الآخَرَيْن، كما في قوله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [فاطر، الآية ٩] الآية، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ

﴿فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس، الآية ٢٢] إلى غير ذلك من الالتفاتات الواردةِ في التنزيل لأسرارٍ تقتضيها، ومزايا تستدعيها، ومما استَأثر به هذا المقام الجليلِ من النُكت الرائقةِ الدالةِ على أن تخصيصَ العبادةِ والاستعانةِ به تعالى لما أُجريَ عليه من النعوت الجليلة التي أوجبت له تعالى أكملَ تميّز، وأتمَّ ظهورٍ، بحيث تبدّل خفاءُ الغَيبة بجلاءِ الحضور، فاستدعى استعمالَ صيغةِ الخطاب، والإيذانَ بأن حقّ التالي ـ بعد ما تأمل فيما سَلَف من تفرّده تعالى بذاته الأقدس، المستوجبِ للعبودية، وامتيازِه بذاته عما سواه بالكلية، واستبدادِه بجلائل الصفات وأحكام الربوبية المميِّزة له عن جميع أفرادِ العالمين، وافتقارِ الكلِّ إليه في الذات والوجودِ ابتداءً وبقاءً، على التفصيل الذي مرَّت إليه الإشارةُ ـ أن يترقىٰ من رتبة البرهان إلى طبقة العيان، وينتقلَ من عالم الغَيبة إلى معالم الشهود، ويلاحظَ نفسَه في حظائر القدْسِ حاضرًا في محاضر الأنس، كأنه واقفٌ لدىٰ مولاه ماثلٌ بين يديه، وهو يدعو بالخضوع والإخبات، ويقرَعُ بالضَّراعة بابَ المناجاة قائلًا: يا من هذه شئون ذاتهِ وصفاتهِ، نخصُّك بالعبادة والاستعانة، فإن ما سواك كائنًا ما كان بمعزل من استحقاق الوجود، فضلًا عن استحقاق أن يُعبد ويُستعان، ولعل هذا هو السرُّ في اختصاص السورةِ الكريمة بوجوب القراءة في كل ركعةٍ من الصلاة التي هي مناجاةُ العبدِ لمولاه ومِنّتُه للتبتل إليه بالكلية.

و(إيا) ضميرٌ منفصلٌ منصوبٌ، وما يلحَقه من الكاف والياءِ والهاءِ حروفٌ زيدت لتعيين الخطاب، والتكلمُ والغَيبةُ لا محل لها من الإعراب، كالتاء في «أنت» والكاف في «أرأيتَكَ»، وما ادعاه الخليلُ[1] من الإضافة محتجا عليه بما حكاه عن بعض

---

(١) ذهب الخليل إلى أن «إيا» في «إياك» اسم مضمر مضاف إلى الكاف، وحكى عن المازني مثله: أنه مضمر أضيف إلى ما بعده، واعتمد على ما حكاه عن العرب.
قال سيبويه: «حدثني من لا أتهم عن الخليل أنه سمع أعرابيا يقول:
«إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيا الشواب» قال: وقوع الظاهر موقع هذه الحروف بالإضافة يدل على أنها أسماء في محل خفض، وحكى عن أبي عثمان أنه قال: لولا قولهم: «وإيا الشواب» لكانت الكاف للمخاطب»
واحتج الخليل بأن «إيا»: اسم مضمر مضاف لما بعده: أنه لا يفيد معنى بانفراده، ولا يقع معرفة بخلاف غيره من المضمرات، فخص بالإضافة عوضًا عما منعه، ولا يعلم اسم مضمر أضيف غيره».
وقد اختلف النحاة بين مؤيد ومعارض للخليل فرأى بعض النحاة صحة ما ذهب إليه الخليل مثل: الصيمري، وابن جماعة، واعترض عليه كثير من النحاة مثل: ابن الأنباري وابن السراج، وابن جني، والزمخشري وابن يعيش وأبو حيان وغيرهم كما سيأتي:

=

.................................................................

= أولاً: الصيمري: وهو ممن يؤيد ما ذهب إليه الخليل فقال: «وذكر أن ما حكاه الخليل من إضافة «إيا» إلى الظاهر شاذ في القياس، وأجمعوا على استقباح «إيا زيد أكرمت» بإضافة «إيا» إلى زيد. وإجماعهم على هذا لا ينقض عندي مذهب الخليل؛ لأن الخليل لم يعتبر قولهم: «فإياه وإيا الشواب» أصلا يقاس عليه في إضافة «إيا» إلى الأسماء الظاهرة، وإنما استدل بإضافة «إيا» إلى (الشواب) على أن ما بعد «إيا» من المضمرات في موضع جر بإضافة «إيا» إليها.

وهذا استدلال صحيح؛ لأنه استدل على إعراب ما لا يتبين فيه الإعراب بما يتبين فيه الإعراب»

كما أيد قول الخليل ابن جماعة فقال:

وأما «إياها» فالمختار: أنه مضاف إلى ما اتصل به من الضمائر بدليل قولهم:

«فإياه وإيا الشواب».

وقد انتصر ابن مالك لقول الخليل فقال:-

«ومن المضمرات «إيا» خلافا للزجاج، وهو في النصب كـ «أنا» في الرفع، ولكن يليه دليل ما يراد به من متكلم، أو غيره اسمًا مضافًا إليه وفاقًا للخليل، والأخفش، والمازني، لا حرفًا خلافًا لسيبويه، ومن وافقه»

ثم استدل ابن مالك على ذلك، فقال:-

«لكنه وضع بلفظ واحد، فافتقر إلى وصله بما يبين المراد به من الكاف، وأخواتها وهي ضمائر مجرورة بالإضافة، لا حروف. وهذا مذهب الخليل، والأخفش، والمازني.

وهو الصحيح؛ أن فيه سلامة من ستة أوجه مخالفة للأصل:

أحدها: أن الكاف في «إياك» لو كانت حرفا كما هي في «ذلك» لاستعملت على وجهين: مجردة من لام وتالية لها كما استعملت مع «ذا» و «هنا»، ولحاقها مع «إيا» أولى؛ لأنها ترفع توهم الإضافة، فإن ذهاب الوهم إليها مع «إيا» أمكن منه مع «ذا»؛ لأن «إيا» قد يليها غير الكاف، ولذا لم يختلف في حرفية كاف: «ذلك» بخلاف كاف: «إياك».

الثاني: أنها لو كانت حرفا لجاز تجريدها من الميم في الجمع كما جاز تجريدها مع «ذا» كقوله تعالى: ﴿فما جزاء من يفعل ذلك منكم﴾ و﴿ذلك خير لكم وأطهر﴾.

الثالث: أنه لو كانت اللواحق بـ «إيا» حروفًا لم يحتج إلى الياء في (إياي) كما لم يحتج إلى التاء المضمومة في «أنا».

الرابع: أن غير الكاف من لواحق «إيا» مجمع على اسميته مع غير «إيا» مختلف في اسميته معها، فلا يترك ما أجمع عليه لما اختلف فيه، ثم تلحق الكاف بأخواتها ليجري الجميع على سنن واحد.

الخامس: أن الأصل عدم اشتراك اسم وحرف في لفظ واحد، وفي القول باسمية اللواصق سلامة من ذلك، فوجب المصير إليه.

السادس: أن هذه اللواحق لو لم تكن أسماء مجرورة المحل لم يلحقها اسم مجرور بالإضافة فيما رواه الخليل من قول العرب: «إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيا الشواب». وروي: فإياه وإيا السواءات.

وهذا مستند قوي؛ لأنه منقول بنقل العدل بعبارتين صحيحتي المعنى...

وأما المعترضون على ما ذهب إليه الخليل فكثير من علماء العربية أمثال:

الأنباري، وابن السراج، وابن جني، والزمخشري، وابن يعيش، وأبو حيان، والمرادي، والسيوطي. =

العرب: «إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيا الشوابِّ»[١]، فمما لا يعول عليه.

**وقيل:** هي الضمائر، و«إيا» دِعامةٌ لها لتُصيرَها منفصلة.

**وقيل:** الضميرُ هو المجموع.

وقُرِئ (أَيَّاكَ)[٢] بالتخفيف وبفتح الهمزة والتشديد، و(هياك) بقلب الهمزة هاء.

---

= يقول ابن السراج معترضًا على قول الخليل:
«وقد قالوا: إن «إيا» مضاف إلى الهاء، والكاف. والقياس: أن يكون «إيا» مثل الألف، والنون التي في أنت فيكون «إيا» وما بعدها للخطاب، ويقوي ذلك أن الأسماء المبهمة وسائر المكنيات لا تضاف، و «إيا» مع ما يتصل بها كالشيء الواحد نحو: أنت....»
قال الأنباري: «وكذلك لا يجوز أن يقال: إن «إيا» مضاف إلى الكاف، والهاء، والياء، وإذا حصلت الفائدة بهذه الأحرف لا على جهة الإضافة- ولها نظير في كلامهم-كان أولى من جعل الضمير مضافًا إليها، ولا نظير له في كلامهم»
ثم قال أيضًا: وأما ما حكي عن الخليل من قولهم: إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيا الشواب».
فالذي ذكره سيبويه في كتابه: أنه لم يسمع ذلك من الخليل، وإنما قال: وحدثني من لا أتهم عن الخليل أنه سمع أعرابيا يقول: إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيا الشواب».
وهي رواية شاذة لا يعتد بها، وكأنه لما رآه يتغير كتغير المضاف، والمضاف إليه أجراه مجراه».
قال ابن يعيش «وهو قول فاسد، لأنه إذا سلم أنه مضمر لم يكن سبيل إلى إضافته لما ذكرناه من أن الغرض: من الإضافة: التخصيص، والمضمرات أشد المعارف تخصيصًا... إلخ.
ثم قال: والمضمرات لا يتصور تنكيرها بحال، فلا يمكن إضافتها، وأما قولهم:
وإيا الشواب «فمحمول على الشذوذ...»
ينظر: شرح المفصل لابن يعيش (٣/ ١٠٠)، ومشكل إعراب القرآن (١/ ٦٩)، والإنصاف (٢/ ٦٩٥، ٦٩٧)، وأبو عثمان المازني ومذهبه في الصرف والنحو، ص (٢٢٧)، والمدارس النحوية للدكتور شوقي ضيف، ص (٢٠٢)، والتبصرة والتذكرة للصيمري (١/ ٥٠٣)، وشرح الكافية لابن جماعة (٢٣٧)، والمرتجل في شرح الجمل لابن الخشاب، ص (٣٨٤)، والارتشاف (١/ ٤٧٤)، وشرح الألفية للمرادي (١/ ١٣٦)، والأشموني (١/ ١١٥)، والتسهيل، ص (٢٦)، والصبان على الأشموني (١/ ١١٥)، والكتاب (١/ ١٤١)، والخليل بن أحمد الفراهيدي، ص (٢١٤)، وشرح التسهيل (١/ ١٤٤ - ١٤٦)، والتبصرة والتذكرة (١/ ٥٠٣)، والأصول لابن السراج (٢/ ١١٧)، وسر صناعة الإعراب (٣١٥)، والكشاف (١/ ٤٨)، والبحر المحيط (١/ ٢٣)، والجنى الداني، ص (٥٣٦)، والهمع (١/ ٦١)، والمطالع السعيدة للسيوطي، ص (١٣١) وائتلاف النصرة، ص (١٠٥)، والإنصاف (٢/ ٦٩٧).

(١) أورده سيبويه في الكتاب بقوله: «وحدثني من لا أتهم عن الخليل أنه سمع أعرابيًا يقول».
ينظر: الأصول في النحو (٢/ ٢٥٠)، وسر صناعة الإعراب (١/ ٣١٤)، واللباب (٢/ ٢٥١)، وشرح المفصل (٢/ ٣١٣)، وشرح التسهيل (١/ ١٤٦) وأورده بلفظ آخر أيضًا وهو «السَّؤْءَات»، وشرح الرضى على الكافية (١/ ٤٨١)، وأوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، ابن هشام: (٤/ ٧٧)، وشرح ابن عقيل (٢/ ٣٠١)، ولسان العرب (١٤/ ٥٦)، وتاج العروس (٣/ ٩٢)، وساق القول (١/ ٢٧٩).

(٢) وهي قراءة عمرو بن فائد عن أبي وهي قراءة شاذة.
ينظر: الشواذ، ص (١)، والبحر المحيط (١/ ١٤٠)، والقرطبي (١/ ١٤٦)، واللباب (١/ ١٩٧).

## [معنى العبادة والعبودية والاستعانة]

والعبادةُ أقصى غايةِ التذلل والخضوع، ومنه طريقٌ معبّدٌ أي مذَلَّل، والعبوديةُ أدنى منها.

وقيل: العبادةُ فعلُ ما يرضَى به الله، والعبوديةُ الرضى بما فعلَ الله تعالى، والاستعانةُ طلبُ المعونةِ على الوجه الذي مر بيانه، وتقديم المفعول فيهما لما ذُكر من القصر والتخصيص، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البقرة، الآية ٤٠] مع ما فيه من التعظيم والاهتمامِ به، قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: معناه نعبدك ولا نعبد غيرَك[١]، وتكريرُ الضميرِ المنصوبِ للتنصيص على تخصيصه تعالى بكل واحدة من العبادة والاستعانة، ولإبراز الاستلذاذِ بالمناجاة والخطاب، وتقديمُ العبادة لِما أنها من مقتَضَيات مدلولِ الاسم الجليل، وإن ساعدته الصفاتُ المُجْراةُ عليه أيضًا، وأما الاستعانةُ فمن الأحكامِ المبنية على الصفات المذكورة ولأن العبادةَ من حقوق الله تعالى، والاستعانة من حقوق المُستعين، ولأن العبادة واجبة حتمًا، والاستعانةُ تابعةٌ للمستعان فيه في الوجوب وعدمِه.

وقيل: لأن تقديمَ الوسيلة على المسؤول أدعى إلى الإجابة والقبول، هذا على تقدير كونِ إطلاقِ الاستعانةِ على المفعول فيه ليتناول كلَّ مستعانٍ فيه، كما قالوا.

وقد قيل: إنه لما كان المسؤولُ هو المعونةَ في العبادة والتوفيقَ لإقامة مراسِمِهما على ما ينبغي، وهو اللائقُ بشأن التنزيل، والمناسبُ لحال الحامد، فإن استعانتَه مسبوقةٌ بملاحظة فعلٍ من أفعاله، ليستعينَه تعالى في إيقاعه، ومن البيِّن أنه عند استغراقه في ملاحظة شؤونه تعالى، واشتغالِهِ بأداء ما تُوجبه تلك الملاحظةُ من الحمد والثناء، لا يكادُ يخطُر بباله من أفعاله وأحواله إلا الإقبالُ الكليُّ عليه، والتوجهُ التامّ إليه، ولقد فَعل ذلك بتخصيص العبادةِ به تعالى أولًا، وباستدعاء الهدايةِ إلى ما يوصِلُ إليه آخِرًا، فكيف يُتصور أن يَشتغل فيما بينهما بما لا يَعنيه من أمور دنياه أو بما يعمُّها وغيرَها، كأنه قيل: وإياك نستعين في ذلك، فإنّا غيرُ قادرين على أداء حقوقِك من غير إعانةٍ منك، فوجهُ الترتيب حينئذٍ واضح، وفيه من الإشعار بعلوّ رُتبةِ عبادته تعالى

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١/ ١٥٧) برقم (١٧١) من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - بلفظ قال: «قال جبريل لمحمد ﷺ قل يا محمد: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ إياك نُوحِّد ونخاف، ونرجو يا ربَّنا لا غيرك».

وعزّةِ منالِها، وبكونها عند العابدِ أشرفَ المباغي والمقاصدِ وبكونها من مواهبِ تعالى لا من أعمال نفسِه، ومن الملأَمة لما يعقبُه من الدعاء ما لا يخفىٰ.

وقيل: «الواوُ» للحال، أي إياك نعبدُ مستعينين بك، وإيثارُ صيغةِ المتكلم مع الغير في الفعلين للإيذان بقصورِ نفسه، وعدمِ لِياقتِه للوقوف في مواقف الكبرياءِ منفردًا، وعَرْضِ العبادة، واستدعاءِ المعونة والهداية مستقلًّا، وأن ذلك إنما يُتصور من عصابةٍ هو من جُملتهم، وجماعةٍ هو من زُمرتهم، كما هو ديدَنُ الملوك، أو للإشعار باشتراك سائر الموحِّدين له في الحالة العارضة له، بناءً على تعاضُد الأدلةِ المُلْجئة إلى ذلك، وقُرئ (نِسْتعين) بكسر النون على لغة بني تميم[(١)].

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ إفراد ـ لمعظم أفراد المعونة المسؤولة ـ بالذكر، وتعيينٌ لما هو الأهمُ أو بيان لها، كأنه قيل: كيف أُعينكم؟ فقيل: اهدنا.

## [تعريف الهداية وأنواعها]

والهدايةُ دلالةٌ بلطفٍ على ما يوصِلُ إلى البُغية، ولذلك اختصّتْ بالخير، وقوله تعالى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات، الآية ٢٣] وارد على نهج التهكّم، والأصلُ تعديتُها بـ «إلى واللام»، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ [يونس، الآية ٣٥] فعومل معاملةَ اختارٍ في قوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ [الأعراف، الآية ١٥٥] وعليه قولُه تعالى: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت، الآية ٦٩] وهدايةُ الله تعالى مع تنوعها إلى أنواع لا تكاد تُحصر منحصرةٌ في أجناس مترتبة.

(منها): أنفسيةٌ، كإفاضة القُوى الطبيعيةِ والحيوانية التي بها يصدُر عن المرء فاعليته الطبيعية الحيوانية، والقوى المدرِكة، والمشاعرُ الظاهرةُ والباطنة التي بها يتمكن من إقامة مصالِحه المعاشيةِ والمعاديّة.

(ومنها): آفاقيةٌ، **فإما تكوينيةٌ** مُعْرِبة عن الحق بلسان الحال، وهي نصبُ الأدلةِ المُودَعةِ في كل فردٍ من أفراد العالم حسبما لُوِّحَ به فيما سلف، **وإما تنزيليةٌ** مُفْصِحةٌ عن تفاصيل الأحكامِ النظريةِ والعمليةِ بلسان المقالِ، بإرسال الرسل، وإنزال الكتبِ

---

(١) قرأ بها: عبيد بن عمير الليثي، وزر بن حبيش، ويحيى بن وثاب، والنخعي والأعمش، وهي لغة قيس وتميم وأسد وربيعة.
ينظر: البحر المحيط (١/ ١٤١)، وإتحاف فضلاء البشر (١/ ٣٦٤)، والتخريجات النحوية والصرفية لقراءة الأعمش ص (٢٦٨)، والقرطبي (١/ ١٤٦).

المنطويةِ على فنون الهدايات التي من جملتها الإرشادُ إلى مسلك الاستدلالِ بتلك الأدلة التكوينيةِ الآفاقيةِ والأنفسية، والتنبيهُ على مكانها، كما أشير إليه مُجملًا في قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ٢١﴾ [الذاريات، الآية ٢٠، ٢١] وفي قوله عز وعلا: ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس، الآية ٦].

(ومنها): الهدايةُ الخاصة وهي كشفُ الأسرارِ على قلب المُهْدَىٰ بالوحي أو الإلهام.

ولكل مرتبةٍ من هذه المراتب صاحبٌ ينتحيها، وطالبٌ يستدعيها، والمطلوب إما زيادتُها كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: الآية ١٧].

وإما الثباتُ عليها كما روي عن علي[١] وأبي[٢] رضي الله عنهما: إهدنا ثبّتنا.

ولفظ الهداية على الوجه الأخير مَجازٌ قطعًا، وأما على الأول فإن اعتُبر مفهومُ الزيادة داخلًا في المعنى المستعمل فيه كان مجازًا أيضًا، وإن اعتُبر خارجًا عنه مدلولًا عليه بالقرائنِ كان حقيقة، لأن الهداية الزائدةَ هداية، كما أن العبادة الزائدةَ عبادة، فلا يلزم الجمعُ بين الحقيقة والمجاز.

وقُرِئ[٣] «أرشِدْنا».

---

(١) ذكره الزمخشري في تفسيره (١/ ٥٧).
وهو: علي بن أبي طالب بن عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، أبو الحسن الهاشمي: أمير المؤمنين، كناه رسول الله ﷺ أبا تراب، روى عن: النبي ﷺ، وعن أبي بكر، وعمر، وروى عنه: أولاده: الحسن، والحسين، وروي أن النبي ﷺ قال: أنا مدينة العلم وعلي بابها، وقال عمر: علي أقضانا وأُبيّ أقرؤنا، قال ابن عبد البر: بويع لعلي بالخلافة يوم قتل عثمان، وقُتل علي ليلة الجمعة لثلاث عشرة خلت - وقيل: بقيت - من رمضان سنة أربعين. وقيل: في أول ليلة في العشر الأواخر.
ينظر: تهذيب الكمال (٢٠/ ٤٧٢)، تقريب التهذيب (٢/ ٣٨)، التاريخ الكبير، للبخاري (٦/ ٢٥٩).

(٢) هو: أبيّ بن كعب بن قيس بن عبيد، أبو المنذر، من بني النجار، من الخزرج، صحابي أنصاري، كان من أحبار اليهود،سيد القراء، ومن كتاب الوحي، أمره عثمان بجمع القرآن، فشارك في جمعه، له أربع وستون ومائة حديثٍ، شهد بدرًا وما بعدها.
ينظر: تهذيب التهذيب (١/ ١٨٧)، وسير أعلام النبلاء (١/ ٣٨٩)، وتقريب التهذيب (١/ ٤٨).

(٣) وهي قراءة شاذة نسبت لعبد الله بن مسعود كما في الكشاف للزمخشري (١/ ١١).
الإشمام: هو الإشارة إلى الحركة من غير تصويت،أو أن تجعل شفتيك على صورتها إذا لفظت بالضمة. وكلاهما واحد. قال الشاطبي:

والاشمام إطباق الشفاه بعيد ما يسكن لا صوت هناك فيصحلا

فالمقصود ضم الشفتين بعد السكون الخالص من غير تراخ لأواخر الكلم، ولا يكون هناك صوت =

والصراطُ الجادةُ وأصلُه السين، قُلبت صادًا لمكان الطاء كـ «مصيطر» في «مسيطر»، من سَرَط الشيء إذا ابتلعه، سُمّيت به؛ لأنها تسترِطُ السابلةَ إذا سلكوها، كما سميت لَقْمًا لأنها تلتقمهم وقد تُشَمُّ الصاد صوت الزاي تحريًا للقرب من المبدَل منه.

وقد قرئ(١) بهن جميعًا، وفُصحاهن إخلاصُ الصاد، وهي لغة قريش، وهي الثابتةُ في الإمام، وجمعه صُرُط ككتاب وكُتب، وهو كالطريق والسبيل في التذكير والتأنيث.

و«المستقيمُ» المستوي، والمراد به طريقُ الحق وهي الملة الحنيفية السمْحة المتوسطةُ بين الإفراط والتفريط.

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بدلٌ من الأول بدلَ كل، وهو في حكم تكريرِ العامل من حيث إنه المقصودُ بالنسبة.

**وفائدتُه**: التأكيدُ والتنصيصُ على أن طريق الذين أنعم الله عليهم وهم المسلمون هو العَلَمُ في الاستقامة، والمشهودُ له بالاستواء بحيث لا يذهب الوهمُ عند ذكر الطريقِ المستقيم إلا إليه.

وإطلاقُ الإنعامِ لقصد الشمول، فإن نِعمةَ الإسلام عنوانُ النعم كلِّها، فمن فاز بها فقد حازها بحذافيرِها. **وقيل**: المراد بهم الأنبياءُ - عليهم السلام - ولعل الأظهرَ أنهم المذكورون في قوله عز قائلًا: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ

---

= خارج إلى اللفظ، وإنما هو تهيئ للعوض فقط، فيعلم الناظر أن المراد بتلك الهيئة المهيأ له، وهي الحركة لا غير، ولا يدرك معرفة ذلك الأعمى، وإنما يعرفه البصير، لأنه لرؤية العين إذ هو إيماء الشفتين، فهو يدركه بحاسة البصر، ويختص بالمرفوع والمضموم من المعربات والمبنيات، ولا يختص بآخر الكلمة، بل كما يكون في آخرها يكون فى غيره كما فى (تأمنا) فى وجه الإشمام خلافا للداني بتخصيصه بالآخر.

والإشمام فى عرف القراء يطلق أيضا باعتبارات أخرى منها:

خلط حرف بحرف كما في (الصراط)، قال الشاطبي:

بحيث أتى والصاد زايا أشمها ... لدى خلف واشمم لخلاد الأولا

خلط حركة بأخرى كما في (قيل) قال الشاطبي:

وقيل وغيض ثم جئ يشمها ... لدى كسرها ضما رجال لتكملا

ينظر: فتح الوصيد (١/ ٣٣٦)، وإبراز المعاني، ص (٢٦٧)، والنشر (١/ ١٢١)، والإتقان (١/ ٢٥٢)، والحرز (٣٠)، وجامع البيان (٣٨٤).

(١) ينظر: العنوان في القراءات السبع ص (٦٧)، وإعراب القراءات السبع وعللها (١/ ٤٩)، وحجة القراءات لابن زنجلة ص (٨٠)، والبحر المحيط (١/ ١٤٣)، وإتحاف فضلاء البشر (١/ ٢٦٥).

﴿وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء، الآية ٦٩] بشهادة ما قبله من قوله تعالى: ﴿وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء، الآية ٦٨].

**وقيل**: هم أصحابُ موسى وعيسى - عليهما السلام - قبل النسخِ والتحريفِ.

وقرئ «صراطَ مَنْ أنعمتَ عليهم»[١].

والإنعامُ إيصالُ النعمة وهي في الأصل الحالةُ التي يستلِذُّها الإنسان، من النعمة وهي اللينُ، ثم أطلقت على ما تستلذّه النَّفسُ من طيّبات الدنيا.

ونِعَمُ الله تعالى مع استحالة إحصائِها تنحصرُ أصولُها في دنيويٍ وأُخروي.

والأول قسمان: **وهبيّ وكسبيّ**.

**والوهبي** أيضًا قسمان: روحاني كنفخ الروح فيه، وإمدادِه بالعقل، وما يتبعه من القُوى المدرِكة، فإنها مع كونها من قبيل الهدايات نعمٌ جليلة في أنفسها.

وجُسماني كتخليق البدن والقُوى الحالَّةِ فيه، والهيئاتِ العارضةِ له من الصّحة وسلامةِ الأعضاء.

**والكسبيُّ** تخليةُ النفسِ عن الرذائل، وتحليتُها بالأخلاقِ السَّنية، والملَكات البهيَّة، وتزيينُ البدن بالهيئات المطبوعة والحلىٰ المرضية، وحصول الجاه والمال.

**والثاني** مغفرةُ ما فَرط منه، والرضى عنه، وتَبْوئتُه في أعلى علِّيين، مع المقربين، والمطلوبُ هو القسم الأخير، وما هو ذريعةٌ إلى نيلِه من القسم الأول، اللهم ارزُقنا ذلك بفضلك العظيم، ورحمتِك الواسعة.

﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ صفةٌ للموصول على أنه عبارةٌ عن إحدى الطوائفِ المذكورةِ المشهورةِ بالإنعام عليهم، وباستقامة المسْلك، ومن ضرورة هذه الشهرةِ شهرتُهم بالمغايَرَة لما أضيف إليه كلمةُ «غير» من المتصفين بضدَّي الوصفين المذكورين، أعني مطلقَ المغضوب عليهم والضالين، فاكتسبت بذلك تَعرُّفًا مصححًا لوقوعها صفةً للمعرفة كما في قولك: عليك بالحركة غيرِ السكون، وُصفوا بذلك تكملةً لما قبله وإيذانًا بأن السلامة مما ابتُلي به أولئك نعمةٌ جليلةٌ في نفسها، أي الذين جمعوا بين النعمة المُطلقة التي هي نعمةُ الإيمان ونعمةُ السلامة من الغضب والضلال.

وقيل: المرادُ بالموصول طائفةٌ من المؤمنين لا بأعيانهم، فيكون بمعنى النكرة كذي اللام إذا أريد به الجنسُ في ضمن بعضِ الأفراد لا بعينه، وهو المسمى

---

(١) وبها قرأ عمر بن الخطاب، وابن مسعود، وابن الزبير، وزيد بن علي.
ينظر: البحر المحيط (١/ ١٤٧)، واللباب (١/ ٢١١).

بالمعهود الذهني، وبـ «المغضوب عليهم» و«الضالين» اليهودُ والنصارى، كما ورد في مسند أحمدَ[١] والترمذي[٢] فيبقى لفظُ (غير) على إبهامه نكرةً مثل موصوفِه، وأنت خبير بأن جعْلَ الموصول عبارةَ عما ذكر من طائفةٍ غيرِ معيَّنة مُخلٌّ ببدليةِ ما أضيف إليه مما قبله؛ فإن مدارَها كونُ صراطِ المؤمنين علَمًا في الاستقامة مشهودًا له بالاستواء على الوجه الذي تحقَّقْتَه فيما سلف.

ومن البيِّن أن ذلك من حيثُ إضافتُه وانتسابُه إلى كلهم لا إلى بعضٍ مُبْهَم منهم، وبهذا تبين ألاَّ سبيلَ إلى جعل: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ بدلًا من الموصول، لما عرفت من أن شأنَ البدلِ أن يُفيدَ متبوعَهُ مزيدَ تأكيدٍ وتقرير، وفضلَ إيضاحٍ وتفسيرٍ، ولا ريب في أن قُصارىٰ أمرِ ما نحن فيه أن يكتسبَ مما أضيف إليه نوعَ تعرُّفٍ مصحِّحٍ لوقوعه صفةً للموصول، وأما استحقاقُ أن يكون مقصودًا بالنسبة مفيدًا لما ذكر من الفوائد فكلاّ.

وقُرئ بالنصب على الحال[٣]، والعاملُ أنعمتَ، أو على المدح، أو على الاستثناء إنْ فُسّر النعمةُ بما يعمُّ القليل.

و**الغضبُ** هيجانُ النفس لإرادة الانتقام، وعند إسنادِه إلى الله سبحانه يُراد به غايتُه بطريق إطلاقِ اسمِ السبب بالنسبة إلينا على مسبَّبِهِ القريبِ إنْ أريد به إرادةُ الانتقام، وعلى مسبَّبِهِ البعيدِ إن أريد به نفسُ الانتقام.

ويجوز حملُ الكلام على التمثيل، بأنْ تُشبَّه الهيئةُ المنتزَعةُ من سَخَطه تعالى للعصاة وإرادةُ الانتقام منهم لمعاصيهم بما يُنتَزَعُ من حال الملِك إذا غضِب على الذين عصَوْه، وأراد أن ينتقم منهم ويعاقِبَهم، و«عليهم» مرتفِعٌ بـ «المغضوب»، قائم مَقامَ

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٧٨)، والترمذي (٥/ ٦٩، ٧٠) كتاب التفسير، باب: ومن سورة فاتحة الكتاب حديث (٢٩٥٣، ٢٩٥٤)، وابن حبان (١٦/ ١٨٣) برقم (٧٢٠٦)، والطبراني في المعجم الكبير (١٧/ ٩٩) برقم (٢٣٦، ٢٣٧)، من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٢) هو: محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك السلمي، أبو عيسى الترمذي الحافظ الضرير، أحد الأئمة الأعلام، وصاحب الجامع والتفسير، قال ابن حبان: كان ممن جمع وصنَّف، قال أبو العباس المستغفري: مات سنة تسع وسبعين ومائتين.
ينظر: خلاصة تهذيب الكمال (٢/ ٤٤٧)، الثقات (٩/ ١٥٣).

(٣) قرأ بها: ابن كثير، والخليل بن أحمد، وعمر، وابن مسعود، وعلي وعبد الله بن الزبير.
ينظر: الشواذ ص (١)، والمحرر الوجيز (١/ ٧٦)، والبحر المحيط، (١/ ١٤٨)، وإتحاف فضلاء البشر (١/ ٣٦٨).

فاعلِه، والعدولُ عن إسناد الغضب إليه تعالى كالإنعام جرَى على منهاج الآداب التنزيلية في نسبة النعم والخير إليه عز وجل، دون أضدادها، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء، الآية ٧٨ ـ ٨٠]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن، الآية ١٠] و«لا» مزيدةٌ لتأكيد ما أفاده «غير» من معنى النفي كأنه قيل: لا المغضوبِ عليهم ولا الضالين، ولذلك جاز أنا زيدًا غيرُ ضاربٍ، جوازَ أنا زيدًا لا ضَارِبٌ وإن امتنع أنا زيدًا مثلُ ضاربٍ.

والضلالُ هو العدول على الصراط السوي، وقُرِئ[١] «وغيرِ الضالين»، وقُرِئ «ولا الضأْلين»[٢]، بالهمزة على لغة مَنْ جدَّ في الهرب عن التقاء الساكنين[٣].

﴿آمين﴾ اسم فعلٍ هو: استجبْ، وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - سألت رسولَ الله ﷺ عن معنى **آمين**، فقال: «افعل»[٤].

بُني على الفتح «كأينَ» لالتقاء الساكنين، وفيه لغتان مدُّ ألفه وقصرُها قال: [البسيط]

..... ..... ..... ويـرحـم الله عـبـدًا قـال آمـيـنـا[٥]

---

(١) تنظر هذه القراءة في البحر المحيط (١/ ١٥١)، والكشاف (١/ ١٧).

(٢) قرأ بها: ابن كثير، والخليل بن أحمد، وعمر، وابن مسعود، وعلي وعبد الله بن الزبير.
ينظر: الشواذ ص (١)، والمحرر الوجيز (١/ ٧٦)، والبحر المحيط، (١/ ١٤٨)، وإتحاف فضلاء البشر (١/ ٣٦٨).

(٣) وقد فعلوا ذلك حتى لا يلتقي سَاكِنَانِ؛ قال الشاعر: [الرجز]
وَخِـنْـدِفٌ هَـامَـةُ هَـذَا الـعَـأْلَـمِ
بهمز «العألم».
وقال آخر: [البسيط]
وَلَّـى نَـعَـامُ بَـنِـي صَـفْـوَانَ زَوْزَأَةً ..... ..... .....
بهمز ألف «زَوْزَأَة»، والظَّاهر أنها لغةٌ مطَّردةٌ؛ فإنهم قالوا في قراءة ابن ذَكْوَان: «مِنْسَأْتَهُ»بهمزة ساكنة: إنَّ أصلها ألف، فقلبت همزة ساكنة.
ينظر: اللباب في علوم الكتاب (١/ ٢٢٤)، وشرح الشافية للرضي (٣/ ٢٠٥)، والمقرب (٢/ ٥١٧)، وسر الصناعة (١/ ١٠٢)، والممتع (١/ ٣٢٥)، والمحتسب (١/ ٣١٠)، والخصائص (٣/ ١٤٥)، والدر المصون (١/ ٨٥).

(٤) أخرجه الثعلبي من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، كما في تخريج الزيلعي (١/ ٢٧).
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٤٤)، وجويبر في تفسيره عن الضحاك عن ابن عباس، كما في «الدر المنثور» (١/ ٤٤).
وذكره ابن كثير (١/ ٢٣٢) من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس به.

(٥) عجز بيت وصدره:

وقال: [الطويل]

..... ..... ..... أمين فزاد الله ما بيننا بعدا[(١)]

عن النبي ﷺ: «لقّنني جبريلُ آمينَ عند فراغي من قراءة فاتحةِ الكتاب، وقال: إنه كالختم على الكتاب»[(٢)].

وليست من القرآن وِفاقًا، ولكن يسن ختمُ السورة الكريمة بها.

والمشهورُ عن أبي حنيفة[(٣)] - رحمه الله - أن المصلّيَ يأتي بها مخافتةً.

وعنه أنه لا يأتي بها الإمامُ لأنه الداعي.

وعن الحسنِ[(٤)] مثلُه.

وروَى الإخفاءَ عبدُ اللَّه بنُ مغفّل[(٥)]، وأنسُ بنُ مالك[(٦)]، عن النبي عليه الصلاة والسلام.

---

يا رب لا تسلبني حبُّها أبدًا ..... ..... .....

والبيت للمجنون في ديوانه، ص (٢١٩)، ولعمر بن أبي ربيعة في لسان العرب (١٣/ ٢٧) (أمن) وليس في ديوانه وبلا نسبة في شرح المفصَّل (٤/ ٣٤)، وشرح شذور الذهب، (١٥١).

(١) عجز بيت وصدره:

تباعد مني فطحلٌ إذ سألته ..... ..... .....

والبيت لجبير بن الاضبط في تهذيب إصلاح المنطق (٢/ ٤٢)، وهو بلا نسبة في إصلاح المنطق، ص (١٧٩)، ولسان العرب (١١/ ٥٢٨) «فطحل»، (١١/ ٥١٨)، «فحطل»، (١٣/ ٢٧) «أمن».

(٢) قال الزيلعي: غريب بهذا اللفظ (١/ ٢٧).

(٣) أبو حنيفة هو: النعمان بن ثابت التيمي بالولاء، الكوفي، إمام الحنفية، الفقيه المجتهد وأحد الأئمة الأربعة. ولد بالكوفة سنة ثمانين على الراجح ونشأ بها وطلب العلم فى صباه، ثم انقطع للتدريس والإفتاء، قال ضرار بن صرد: سئل يزيد بن هارون: أيهما أفقه: الثوري أو أبو حنيفة؟ فقال: أبو حنيفة أفقه، وسفيان أحفظ للحديث. روى عن عطاء بن أبي رباح وعلقمة بن مرثد وحماد بن أبى سليمان، والحكم بن عتبة وغيرهم وروى عنه حماد وحمزة ابن حبيب الزيات وزفر وأبو يوسف وغيرهم. ولقد ضربه يزيد بن عمر بن هبيرة على القضاء فأبى أن يكون قاضيا، وكان موته فى رجب سنة مائة وأربعين للهجرة.

ينظر: تذكرة الحفاظ (١/ ١٩٨، ١٩٩)، وتهذيب التهذيب (١٠/ ٤٠١).

(٤) هو: الحسن بن أبي الحسن البصري، مولى أم سلمة والرُّبيع بنت النضر، أبو سعيد الإمام، أحد أئمة الهدى والسنة، قال ابن سعد: كان عالمًا، جامعًا، رفيعًا، ثقة، مأمونًا، عابدًا، ناسكا، كثير العلم، فصيحًا. وقال ابن حجر: ثقة فقيه فاضل مشهور، وكان يرسل كثيرًا ويدلس. قال ابن عُلَيَّة: مات سنة عشر ومائة، قيل: ولد سنة إحدى وعشرين، لسنتين بقيتا من خلافة عمر.

ينظر: تهذيب الكمال (٦/ ٩٥)، تهذيب التهذيب (٢/ ٢٦٣)، تقريب التهذيب (١/ ١٦٥).

وذكره الزمخشري في الكشاف (١/ ١٢٥).

(٥) هو: عبد الله بن مغفل بن عفيف بن أسحم المزني أبو زياد، بايع تحت الشجرة ونزل البصرة. له =

وعند الشافعيِّ رحمه الله يُجهر بها، لما روىٰ وائلُ بنُ حجر[1] أن النبي ﷺ كان إذا قرأ ولا الضالين قال: «آمين»، ورفع بها صوته[2].

= ثلاثة وأربعون حديثًا، اتفق البخاري ومسلم على أربعة. وقال الحسن: كان من نقباء الصحابة. مات سنة تسع وخمسين، وقيل: سنة ستين.
ينظر: خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٢/ ١٠٣)، تهذيب التهذيب (٦/ ٤٢)، طبقات ابن سعد (٢/ ١٦٥).
وذكره الزيلعي في «تخريج الكشاف» (١/ ٢٧)، وقال: غريب جدا.

(٦) هو: أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام، الأنصاري النجاري، خدم النبي ﷺ عشر سنين. وذكر ابن سعد أنه شهد بدرًا، روى عن طائفة من الصحابة. وروى عنه: بنوه موسى والنضر وأبو بكر، والحسن البصرى وثابت البناني وسليمان التيمي وخلق لا يحصون. مات سنة تسعين أو بعدها وقد جاوز المائة، وهو آخر من مات بالبصرة من الصحابة، رضي الله عنهم.
ينظر: خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (١/ ١٠٥)، تهذيب التهذيب (١/ ٣٧٦)، أسد الغابة (١/ ٢٩٤).
وذكره الزيلعي في «تخريج الكشاف» (١/ ٢٧)، وقال: غريب جدا.

(١) هو: وائل بن حجر، الحضرمي القحطاني، أبو هنيدة، من أقيال. أي ملوك. حضر موت باليمن، وكان أبوه من ملوكهم، وفد على النبي ﷺ فرحب به وبسط له رداءه فأجلسه معه عليه، وقال: اللهم بارك في وائل وولده، واستعمله على أقيال من حضرموت، وأعطاه كتاباً للمهاجر بن أبي أمية، وكتاباً للأقيال والعباهلة. أي الملوك.، وأقطعة أرضاً، وأرسل معه معاوية بن أبي سفيان إلى قومه يعلمهم القرآن و الإسلام ، ثم شارك في الفتوح، ونزل الكوفة، وكان عفيفاً زاهداً، وروى أحاديث.
ينظر: أسد الغابة (٥/ ٨١)، والبداية والنهاية (٥/ ٧٩)، واللباب (١/ ٣٠٣)، والإصابة (٩١٠٢)، والاستيعاب (٣/ ٦٠٥).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٣١٥)، والطيالسي (١٠٢٤)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٣٢)، وابن حبان (٥/ ١٠٩) حديث (١٨٠٥)، والبيهقي في الكبرى (٢/ ٥٧)، والطبراني (٢٢/ ٤٥) (١١٢) من طريق شعبة عن سلمة بن كهيل عن حجر أبي العنبس عن علقمة بن وائل عن أبيه: وفي لفظه: وأخفى بها صوته. وصحح هذا الطريق الحاكم وابن حبان.
قال الدارقطني في سننه (١/ ٣٣٤): كذا قال شعبة: «وأخفى بها صوته»، ويقال: إنه وهم فيه؛ لأن سفيان الثوري ومحمد بن سلمة بن كهيل، وغيرهما رووه عن سلمة، فقالوا: «ورفع صوته بآمين»، وهو الصواب ا هـ.
أما طريق سفيان الذي أشار إليه الدارقطني:
أخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ٤٢٥)، وأحمد (٤/ ٣١٦، ٣١٧)، وأبو داود (١/ ٢٤٦)، كتاب الصلاة، باب: التأمين وراء الإمام، حديث (٩٣٢)، والترمذي، كتاب الصلاة، باب: ما جاء في التأمين (٢/ ٢٧)، حديث برقم (٢٤٨)، والنسائي (٢/ ١٤٥) كتاب الافتتاح، باب: قول المأموم إذا عطس خلف الإمام، وابن ماجه (١/ ٢٧٨) كتاب الصلاة، باب: الجهر بآمين حديث (٨٥٥)، والدارمي (١/ ٢٨٤)، كتاب الصلاة، باب: الجهر بالتأمين، والطبراني (٢٢/ ٤٤)، حديث (١١١)، والدارقطني (١/ ٣٣٤)، كتاب الصلاة، باب: التأمين في الصلاة بعد فاتحة الكتاب والجهر بها، والبيهقي في السنن =

عن رسول الله ﷺ أنه قال لأبيّ بنِ كعب: «ألا أخبرك بسورة لم ينزِلْ في التوراة والإنجيل والقرآن مثلُها؟» قلت: بلى، يا رسول الله قال: «فاتِحةُ الكتاب إنها السبعُ المثاني والقرآنُ العظيم الذي أوتيتُه»[(١)].

---

= الكبرى (٢١/٥٧)، كتاب الصلاة، باب: جهر الإمام بالتأمين، والبغوي (٢/٢٠٨)، كتاب الصلاة، باب: الجهر بالتأمين في صلاة الجهر، حديث (٥٨٧)، من طريق سفيان عن سلمة بن كهيل به.
وأخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ٤٢٥)، وأبو داود (١/ ٢٣٦)، كتاب الصلاة، باب: التأمين وراء الإمام، حديث (٩٣٢)، والترمذي (٢/ ٢٩)، كتاب الصلاة، باب: ما جاء في التأمين، حديث رقم (٢٤٩)، والطبراني في معجمه الكبير (٢٢/ ٤٥)، حديث (١١٤)، من طريق العلاء بن صالح عن سلمة به، وأخرجه من طريق محمد بن كهيل، عن حجر ابن عنبس عن وائل، ولفظ رواية سفيان: «يمد بها صوته»، وعند أبي داود والطبراني: «يرفع بها صوته»، ولفظ العلاء بن صالح: فجهر بآمين، وسلم عن يمينه وعن شماله حتى رأيت بياض خده، وقد صحح إسناده البيهقي في المعرفة، والحافظ في تلخيص الحبير (١/ ٢٣٦).
وقد توسع البيهقي -رحمه الله- في «الخلافيات» في الكلام على هذا الحديث، وترجيح رواية سفيان ومن وافقه.
وانظر تعليقنا هناك على هذا الحديث، ففيه البسط والحمد لله على التوفيق.

(١) أخرجه الترمذي (٤/ ٢٩٧) كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة الحجر، حديث (٣١٢٥)، والنسائي في المجتبى (٢/ ١٣٩)، كتاب الافتتاح، باب: تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾، حديث (٩١٤)، وأحمد في مسنده (٢/ ١١٢)، والدارمي (٢/ ٤٤٦)، كتاب فضائل القرآن، باب: فضل فاتحة الكتاب، وابن خزيمة (١/ ٢٥٢) كتاب الصلاة، باب: فضل قراءة الفاتحة، حديث (٥٠١)، وأبو يعلى الموصلي (١١/ ٣٦٧) حديث (٦٤٨٢)، وابن حبان (٣/ ٥٣)، كتاب الرقائق، باب: قراءة القرآن حديث (٧٧٥)، والحاكم في المستدرك (١/ ٥٥٧)، وعبد بن حميد ص (٨٦) حديث (١٦٥)، والبيهقي في الكبرى (٢/ ٣٧٥)، وأبو عبيد في فضائل القرآن (٢/ ٢٣) باب: فضل فاتحة الكتاب، حديث (٣٩٣)، والطبري في تفسيره (٩/ ١٤٤)، كلهم من طريق العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة.
وقال الترمذي: حسن صحيح.
وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.
وصححه ابن خزيمة، وابن حبان.
والحديث ذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ٢١)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن مردويه، وأبي ذر الهروي في فضائل القرآن.
وللحديث شاهد من حديث أبي سعيد بن المعلى:
أخرجه البخاري (٨/ ٦) كتاب التفسير، باب: ما جاء في فاتحة الكتاب، حديث (٤٤٧٤)، (٨/ ٢٣٢) كتاب التفسير، باب: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ حديث (٤٧٠٣)، و(٨/ ٦٧١)، كتاب فضائل القرآن، باب: فضل فاتحة الكتاب، حديث (٥٠٠٦)، وأبو داود (١/ ٤٦١) كتاب الصلاة، باب: فاتحة الكتاب حديث (١٤٥٨)، والنسائي (٢/ ١٣٩) كتاب الافتتاح، باب: تأويل قول الله -عز وجل-: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾، وابن ماجه (٢/ ١٢٤٤) =

وعن حذيفة بن اليمان[1] رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن القومَ ليبعثُ الله عليهم العذابَ حتمًا مقضيًّا، فيقرأ صبيٌّ من صبيانهم في الكتاب «الحمدُ لله رب العالمين»، فيسمعه الله تعالى فيرفعُ عنهم بذلك العذابَ أربعين سنة»[2].

= كتاب الأدب، باب: ثواب القرآن، حديث (٣٧٨٥)، وأحمد (٤/ ٢١١)، والدارمي (١/ ٣٥٠)، كتاب الصلاة، باب: أم القرآن هي السبع المثاني، (٢/ ٤٤٥) كتاب فضائل القرآن، باب: فضل فاتحة الكتاب، وأبو يعلى (١٢/ ٢٢٥) رقم (٦٨٣٧)، والبيهقي (٢/ ٣٦٨) كتاب الصلاة، كلهم من طريق شعبة عن خبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم عن أبي سعيد بن المعلى، قال: «كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه، قال: قلت له: يا رسول الله إني كنت أصلي، قال: أو لم يقل الله: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾، ثم قال لي: ألا أعلمك سورة هي أعظم سورة في القرآن؟ قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ من السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته».
والحديث ذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ٢١)، وزاد نسبته إلى الطبري وابن حبان وابن مردويه.

(١) هو: حذيفة بن اليمان - واسم اليمان: حِسْل، ويقال: حُسَيل - ابن جابر العبسي اليماني، حليف الأنصار، من نجباء أصحاب النبي ﷺ وصاحب السر في أسماء المنافقين، وندبه الرسول ﷺ ليلة الأحزاب ليجس له خبر العدو، وعلى يده فُتح الدينور عنوة، ومناقبه تطول رضي الله عنه، ولي إمرة المدائن لعمر رضي الله عنه، كانت له فتوحات سنة اثنتين وعشرين في الدينور، وماسبذان، وهمدان، والري، وغيرهم، ومات بعد قتل عثمان بأربعين يومًا سنة ست وثلاثين.
ينظر: تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ١٥٣)، سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٦١)، الإصابة (٢/ ٢٢٣)، تهذيب التهذيب (٢/ ٢١٩)، تهذيب الكمال (٥/ ٤٩٥)، تاريخ البخاري الكبير (٣/ ٩٥).

(٢) قال الزيلعي في تخريج الكشاف (١/ ٣٠): رواه الثعلبي في تفسيره من حديث أبي معاوية الضرير، عن أبي مالك الأشجعي، عن ربعي بن حراش، عن حذيفة، عن النبي ﷺ ... فذكره سواء.

# سورة البقرة

## مدنية وهي مائتان وست وثمانون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

﴿الـم﴾ الألفاظُ التي يعبّر بها عن حروف المعجمِ التي من جملتها المُقطّعاتُ المرقومةُ في فواتح السورِ الكريمة أسماءٌ لها، لاندراجها تحت حدِّ الاسم، ويشهدُ به ما يعتريها من التعريف والتنكيرِ والجمعِ والتصغيرِ وغير ذلك من خصائص الاسم، وقد نص على ذلك أساطينُ أئمة العربية، وما وقع في عبارات المتقدمين من التصريح بحَرْفيتها محمولٌ على المسامحة.

وأما ما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه من أنه عليه السلام قال: «من قرأ حرفًا من كتاب الله فله حسنةٌ والحسنةُ بعشر أمثالها، لا أقول ألم حرفٌ بل ألفٌ حرفٌ ولامٌ حرفٌ وميمٌ حرف»[1] وفي رواية الترمذي والدارمي[2]: «لا أقول ألم حرفٌ وذلك الكتابُ حرف ولكنِ الألفُ حرفٌ واللامُ حرفٌ والميمُ حرفٌ والذالُ

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٣٣) كتاب فضائل القرآن، باب: ما جاء فيمن قرأ حرفًا من القرآن، حديث (٢٩١٠) من طريق محمد بن كعب القرظي عن ابن مسعود.
وقال الترمذي: حسن صحيح غريب.
وأخرجه الحاكم (١/ ٥٥٥)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (١/ ٢٨٥)، من طريق أبي الأحوص عن ابن مسعود.

(٢) هو: عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل التميمي الدارمي، أبو محمد ولد في (١٨١هـ) من أهل سمرقند. مفسر ومحدث وفقيه. استقضي على (سمرقند) فأبى فألح عليه السلطان؛ فقضى بقضية واحدة ثم استعفى؛ فأعفي. من تصانيفه: «السنن»، و«الثلاثيات» وكلاهما في الحديث، و«المسند»، و«التفسير»، وكتاب «الجامع». توفي في (٢٥٥) هـ.
ينظر: تهذيب التهذيب (٥/ ٢٩٤)، وتذكرة الحفاظ (٢/ ١٠٥)، ومعجم المؤلفين (٦/ ٧١).

حرفٌ والكافُ حرفٌ»[1] فلا تعلّقَ له بما نحن فيه قطعًا، فإن إطلاقَ الحرف على ما يقابل الاسمَ والفعلَ عرفٌ جديدٌ اخترعه أئمةُ الصناعة. وإنما الحرفُ عند الأوائل ما يتركب منه الكلمُ من الحروف المبسوطة، وربما يطلق على الكلمة أيضًا تجوزًا، وأريد به في الحديث الشريف دفعُ توهمِ التجوُّز، وزيادةُ تعيينِ إرادةِ المعنى الحقيقي؛ ليتبين بذلك أن الحسنةَ الموعودةَ ليست بعدد الكلماتِ القرآنية، بل بعدد حروفها المكتوبةِ في المصاحف، كما يلوِّح به ذكرُ كتابِ الله دون كلامِ الله أو القرآن، وليس هذا من تسمية الشيء باسم مدلولهِ في شيء كما قيل، كيفَ لا! والمحكومُ عليه بالحرفية واستتباع الحسنةِ إنما هي المسمّياتُ البسيطةُ الواقعةُ في كتاب الله عز وعلا، سواءٌ عُبّر عنها بأسمائها أو بأنفسها كما في قولك: السينُ مهملة والشينُ مثلثة وغير ذلك مما لا يصدُق المحمولُ إلا على ذات الموضوع لا أسماؤها المؤلفة كما إذا قلنا الألف مؤلف من ثلاثة أحرف، فكما أن الحسنات في قراءة قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ بمقابلة حروفِهِ البسيطة، وموافقةٌ لعددها كذلك في قراءة قوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ بمقابلة حروفِهِ الثلاثة المكتوبة وموافقةٌ لعددها، لا بمقابلة أسمائِها الملفوظة والألفاتِ الموافقةِ في العدد، إذِ الحكمُ بأن كلًّا منها حرفٌ واحد مستلزمٌ للحكم بأنه مستتبعٌ لحسنةٍ واحدة، فالعبرةُ في ذلك بالمعبَّر عنه دون المعبَّر به، ولعل السرَّ فيه أن استتباعَ الحسنةِ منوطٌ بإفادة المعنىٰ المرادِ بالكلمات القرآنية. فكما أن سائرَ الكلماتِ الشريفة لا تفيد معانيَها إلا بتلفظ حروفِها بأنفسها، كذلك الفواتحُ المكتوبةُ لا تفيد المعانيَ المقصودةَ بها إلا بالتعبير عنها بأسمائها، فجُعل ذلك تلفظًا بالمسمَّيات كالقسمِ الأول من غير فرقٍ بينهما.

ألا ترى إلى ما في الروايةِ الأخيرةِ من قوله عليه السلام: «والذالُ حرفٌ والكاف حرف»[2] كيف عبّر عن طَرَفي «ذلك» باسميهما، مع كونهما ملفوظين بأنفسهما، ولقد روعيَتْ في هذه التسميةِ نُكتةٌ رائعة حيث جُعِلَ كلُ مسمًّى - لكونه من قبيل الألفاظ - صَدْرًا لاسمه، ليكون هو المفهومَ منه إثرَ ذي أثير، خلا أن الألفَ حيث تعذّر الابتداءُ بها استُعيرت مكانها الهمزة، وهي مُعرَبة؛ إذ لا مناسبةَ بينها وبين مبنيِّ الأصل،

---

(١) هذا وهم من المصنف -رحمه الله- إذ إن هذه الرواية ليست عند الترمذي ولا الدارمي إنما أخرجها البزار (٣/ ٩٤)، والطبراني في الأوسط (١/ ١٠١، ١٠٢) رقم (٣١٤)، وفي الكبير (١٨/ ٧٦، ٧٧) رقم (١٤١، ١٤٢)، من حديث عوف بن مالك الأشجعي.
وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ١٦٨)، وقال: وفيه موسى بن عبيدة الربذي، وهو ضعيف.

(٢) تقدم تخريج هذه الرواية من حديث عوف بن مالك، وهي رواية ضعيفة.

لكنها ما لم تلِها العواملُ ساكنةُ الأعجاز على الوقف كأسماء الأعدادِ وغيرِها، حين خلت عن العوامل، ولذلك قيل: صادْ، وقافْ، مجموعًا فيهما بين الساكنين، ولم تعامَلْ معاملةَ «أين» و«كيف» و«هؤلاءِ»، وإن وَلِيَها عاملٌ مسها الإعرابُ، وقصرُ ما آخِرُه ألفٌ عند التهجي لابتغاء الخِفّةِ لا لأن وِزانَه وزانُ (لا) تقصرُ تارةً فتكونُ حرفًا وتمدّ أخرى فتكون اسمًا لها كما في قولِ حسانَ رضي الله عنه: [البسيط]

ما قال (لا) قطُّ إلا في تشهُّده ... لولا التشهُّدُ لم تُسْمَعْ له لاءُ[1]

هذا وقد تكلموا في شأن هذه الفواتح الكريمةِ وما أريد بها فقيل: إنها من العلوم المستورةِ، والأسرارِ المحجوبة، رُوي عن الصّدّيق[2] أنه قال: «في كل كتاب سرٌّ، وسرُّ القرآن أوائلُ السور»[3]، وعن عليّ رضي الله عنه: «إن لكل كتابٍ صفوةً وصفوةُ هذا الكتابِ حروفُ التهجّي»[4] وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: «عجزتِ العلماءُ عن إدراكها»[5].

وسُئل الشعبي[6] عنها فقال: «سرُّ الله عز وجل فلا تطلُبوه»[7].

وقيل: إنها من أسماء الله تعالى.

---

(١) ينظر: كتاب الكليات (١/ ٩٦٨)، وخزانة الأدب (١١/ ١٧١).

(٢) هو: عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة التيمي، أبو بكر الصديق الأكبر، ابن أبي قحافة، خليفة رسول الله ﷺ، وصاحبه في الغار، وقيل: اسمه عتيق، قال عنه رسول الله ﷺ: أبو بكر عتيق الله من النار، ولي الخلافة بعد النبي ﷺ سنتين وشيئًا، وقيل: عشرين شهرًا، توفي يوم الاثنين في جمادى الأولى سنة (١٣) من الهجرة، وهو ابن (٦٣) سنة، وصلى عليه عمر، ودفن مع رسول الله ﷺ.
ينظر: تهذيب الكمال (١٥/ ٢٧٩)، تقريب التهذيب (١/ ٤٣٢)، خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٢/ ٧٨).

(٣) ذكره المناوي في «الفتح السماوي» (١/ ١٣٠)، وعزاه للثعلبي، وينظر: تفسير اللباب في علوم الكتاب (١/ ٢٥٣).

(٤) ذكره المناوي في «الفتح السماوي» (١/ ١٣٠)، وعزاه للثعالبي.

(٥) ينظر: غرائب الفرقان (١/ ١٣٠) للنيسابوري.

(٦) هو: عامر بن شراحيل الحميري الشعبي، أبو عمرو الكوفي، الإمام العلم، ولد لست سنين خلت من خلافة عمر، روى عنه وعن علي وابن مسعود ولم يسمع منهم، وعن أبي هريرة، وعائشة، وجرير، وابن عباس وخلق، قال العجلي: مرسل الشعبي صحيح، وقال يحيى بن بكير: توفي سنة ثلاث ومائة.
ينظر: الجرح والتعديل (٦/ ١٨٠٢)، والكاشف (٢/ ٥٤)، وتهذيب التهذيب (٥/ ٦٥)، والتقريب (١/ ٣٨٧).

(٧) ذكره الفخر الرازي في التفسير الكبير (٢/ ٤).

وقيل: كلُّ حرفٍ منها إشارة إلى اسمٍ من أسماء الله تعالى، أو صفةٍ من صفاته تعالى.

وقيل: إنها صفاتُ الأفعال، الألفُ آلاؤُه، واللام لُطفه، والميمُ مجدُه ومُلكُه، قاله محمدُ بنُ كعبٍ القُرَظي[١].

وقيل: إنها من قبيل الحساب، وقيل: الألفُ من الله، واللامُ من جبريلَ، والميمُ من محمد، أي: الله أنزل الكتابَ بواسطة جبريلَ على محمدٍ عليهما الصلاة والسلام.

وقيل: هي أقسام من الله تعالى بهذه الحروف المعجمة؛ لشرفها من حيث إنها أصولُ اللغاتِ ومبادئ كتبِه المنزلة، ومباني أسمائِه الكريمة.

وقيل: إشارةٌ إلى انتهاء كلامٍ وابتداءِ كلامٍ آخرَ.

وقيل، وقيل.

ولكن الذي عليه التعويلُ: إما كونُها أسماءً للسور المصدرة بها، وعليه إجماعُ الأكثر، وإليه ذهب الخليلُ[٢] وسيبويه[٣]، قالوا سمِّيت بها إيذانًا بأنها كلماتٌ عربيةٌ معروفةُ التركيب من مسميات هذه الألفاظ، فيكون فيه إيماءٌ إلى الإعجاز والتحدّي على سبيل الإيقاظِ، فلولا أنه وحيٌ من الله عز وجل لما عجزوا عن معارضته، ويقرُب منه ما قاله الكلبيُّ[٤] والسّدي[٥] وقَتادة[٦] من أنها أسماءٌ للقرآن، والتسمية

---

(١) هو: محمد بن كعب القرظي المدني ثم الكوفي، أحد العلماء. روى عن أبي الدرداء مرسلا وعن فضالة وغيرهم. وروى عنه ابن المنكدر، ويزيد بن الهاد وغيرهم. قال ابن سعد: كان ثقة ورعًا كثير الحديث. توفي سنة تسع عشرة ومائة. وقيل: عشرين.
ينظر: خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٢/ ٤٥٢، ٤٥٣).

(٢) الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي اليحمدي، أبو عبد الرحمن، من أئمة اللغة والأدب، وواضع علم العروض. وهو أستاذ سيبويه النحوي. ولد سنة مائة هـ، عاش فقيرًا صابرًا، وكان شعث الرأس، شاحب اللون، قشف الهيئة، متمزق الثياب، متقطع القدمين، مغمورًا في الناس لا يُعرف. من تصانيفه: العين، ومعاني الحروف، وغيرهما. توفي في البصرة سنة سبعين ومائة هـ.
ينظر: وفيات الأعيان (١/ ١٧٢)، وإنباه الرواة (١/ ٣٤١).

(٣) هو: عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه، إمام النحاة، وأول من بسط علم النحو، ولد في إحدى قرى شيراز سنة ١٤٨هـ، صنف كتابه المسمى «كتاب سيبويه» في النحو، لم يصنع قبله ولا بعده مثله، ورحل إلى بغداد، فناظر الكسائي، وأجازه الرشيد بعشرة آلاف درهم، وعاد إلى الأهواز فتوفي بها سنة ١٨٠هـ.
ينظر: طبقات النحويين ص (٦٦-٧٤)، ووفيات الأعيان (١/ ٣٨٥)، وتاريخ بغداد (١٢/ ١٩٥).

(٤) هو: محمّد بن السائب بن بشر بن عمرو بن عبد الحارث بن عبد العزى الكلبيّ أبو النضر الكوفي النسابة المفسّر. قال أبو حاتم: الناس مجمعون على ترك حديثه وهو ذاهب الحديث لا يشتغل به. =

بثلاثة أسماءٍ فصاعدًا إنما تُستنكر في لغة العرب إذا رُكِّبَتْ وجُعلت اسمًا واحدًا، كما في حَضْرَموت، فأما إذا كانت منثورة فلا استنكار فيها، والمسمى هو المجموعةُ لا الفاتحة فقط، حتى يلزمَ اتحادُ الاسمِ والمسمى، غايةُ الأمر دخولُ الاسم في المسمى، ولا محذورَ فيه، كما لا محذورَ في عكسه حسبما تحققْتَه آنفًا، وإنما كُتبت في المصاحف صورُ المسميات دون صور الأسماءِ لأنه أدلَّ على كيفية التلفّظ بها، وهي [إمَّا] أن يكون على نهْج التهجّي دون التركيب ولأن فيه سلامةً من التطويل لا سيما في الفواتحِ الخُماسية، على أن خطَّ المُصحف مما لا يناقَشُ فيه بمخالفة القياسِ، وإما كونها مسرودةً على نمط التعديد، وإليه جنَح أهلُ التحقيق.

قالوا إنما وردت هكذا ليكون إيقاظًا لمن تُحِدِّيَ بالقرآن، وتنبيهًا لهم على أنه منتظمٌ من عين ما ينظِمون منه كلامَهم، فلولا أنه خارجٌ عن طوْق البشر، نازلٌ من عند خلَّاق القُوى والقَدَر، لما تضاءلت قوتُهم، ولا تساقطت قدرتُهم.

وهم فرسانُ حَلْبةِ الحِوار، وأُمراءُ الكلام في نادي الفخار، دون الإتيانِ بما يُدانيه، فضلًا عن المعارَضة بما يُساويه، مع تظاهرهم في المضادّة والمضارّة، وتهالُكِهم على المعَازة والمعارّة.

أو ليكونَ مطلَعُ ما يُتلى عليهم مستقلًا بضربٍ من الغرابة، أُنموذجًا لما في الباقي من فنون الإعجاز، فإن النطقَ بأنفُس الحروفِ في تضاعيف الكلام، وإن كان على

---

= قال النسائي: ليس بثقة ولا يكتب حديثه. قال الدارقطني: متروك. قال ابن عدي: له غير ما ذكرت أحاديث صالحة وخاصة عن أبي صالح وهو معروف بالتفسير وليس لأحد أطول من تفسيره، وحدّث عنه ثقات من الناس ورضوه في التفسير. وأما في الحديث ففيه مناكير ولشهرته فيما بين الضعفاء يكتب حديثه. مات بالكوفة سنة ستّ وأربعين ومائة.
ينظر: تهذيب التهذيب (٥/١٠٨-١٠٩).

(٥) هو: إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة السدي، أبو محمّد القرشي مولاهم الكوفي الأعور، وهو السدّي الكبير. كان يقعد في سدة باب الجامع فسمّي السدّي. وهو تابعي. سمع أنساً وروى عن غيره من الصحابة وعن كثير من التابعين. قال العجلي: ثقة، عالم بالتفسير راوية له، وذكره ابن حبان في الثقات، وروى البخاري في تاريخه عن ابن المديني عن يحيى، وهو القطان، قال: ما رأيت أحداً يذكر السدّي إلا بخير، وما تركه أحد. توفي سنة ١٢٧ هـ تهذيب التهذيب (١/٢٥٧).

(٦) هو: قتادة بن دعامة السدوسي أبو الخطاب البصري الأكمه، أحد الأئمة الأعلام حافظ ثقة. قال ابن المسيب: ما أتانا عراقي أحفظ من قتادة. وقال ابن سيرين: قتادة أحفظ الناس. وقال ابن مهدي: قتادة أحفظ من خمسين مثل حميد. قال حماد بن زيد: توفي سنة سبع عشرة ومائة، وقد احتج به أرباب الصحاح.
ينظر: خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٢/ ٣٥٠).

طرَف التمام، يتناولُه الخواصُّ والعوامُّ، من الأعراب والأعجام، لكن التلفظَ بأسمائها إنما يتأتّى ممن درَس وخطَّ.

وأما ممن لم يحُمْ حولَ ذلك قطّ، فأعزُّ من بَيْض الأَنُوق، وأبعدُ من مَناط العَيُّوق، لا سيما إذا كان على نمط عجيب، وأسلوبٍ غريب، مُنْبئٍ عن سرٍّ سِرِّيٍّ، مبنيٍّ على نهجٍ عبقري، بحيث يَحارُ في فهمه أربابُ العقول، ويعجِزُ عن إدراكه ألبابُ الفحول.

كيف لا وقد وردت تلك الفواتحُ في تسعٍ وعشرين سورةً على عدد حروف المُعجم، مشتملةً على نصفها تقريبًا، بحيث ينطوي على أنصاف أصنافِها تحقيقًا أو تقريبًا، كما يتّضحُ عند الفحص والتنقير، حسبما فصّله بعضُ أفاضِلِ أئمةِ التفسير.

فسبحان من دقّتْ حكمتُه من أن تطالعَها الأنظارُ، وجلّت قُدرتُه عن أن تنالَها أيدي الأفكار.

وإيرادُ بعضِها فرادىٰ وبعضِها ثنائيةً إلى الخماسية جرَى على عادة الافتنان، مع مراعاة أبنيةِ الكَلِم وتفريقِها على السور، دون إيرادِ كلِّها مرةً لذلك ولِما في التكرير والإعادة من زيادة إفادةٍ، وتخصيصُ كلٍّ منها بسُورتها مما لا سبيلَ إلى المطالبة بوجهه، وعدُّ بعضِها آيةً دون بعضٍ مبنيٌّ على التوقيف البحت.

أما ﴿الٓمٓ﴾ فآيةٌ حيثما وقعت.

وقيل في آل عمرانَ ليست بآية، و﴿الٓمٓصٓ﴾ آية، و﴿الٓمٓرٰ﴾ لم تُعدَّ آية، و﴿الٓر﴾ ليست بآية في شيءٍ من سورها الخمس، و﴿طسٓمٓ﴾ آية في سورتيها، و﴿طه﴾ و﴿يسٓ﴾ آيتان، و﴿طسٓ﴾ ليست بآية، و﴿حمٓ﴾ آيةٌ في سُوَرِها كلِّها، و﴿كٓهيعٓصٓ﴾ آية، و﴿حمٓ * عٓسٓقٓ﴾ آيتان، و﴿صٓ﴾ و﴿قٓ﴾ و﴿نٓ﴾ لم تُعَدَّ واحدة منها آية. هذا على رأي الكوفيين.

وقد قيل: إن جميعَ الفواتحِ آياتٌ عندهم في السور كلِّها بلا فرقٍ بينها، وأما مَنْ عداهم فلم يعُدّوا شيئًا منها آيةً، ثم إنها على تقدير كونها مسرودةً على نَمطِ التعديدِ لا تُشَمُّ رائحةَ الإعراب، ويوقفُ عليها وقفَ التمام، وعلى تقدير كونِها أسماءً للسور أو للقرآنِ كان لها حظٌّ منه؛ إما الرفعُ على الابتداء أو على الخبرية، وإما النصبُ بفعل مُضمَرٍ، كاذكُرْ، أو بتقدير فعلِ القَسَم على طريقة: الله لأفعلن، وإما الجرُ بتقدير حرفِه حسبما يقتضيه المقام، ويستدعيه النظام، ولا وقف فيما عدا الرفعَ على الخبرية، والتلفظُ بالكل على وجه الحكاية ساكنةَ الأعجاز، إلا أن ما كانت منها مفردةً مثل: ﴿صٓ﴾ و﴿قٓ﴾ و﴿نٓ﴾ يتأتى فيها الإعرابُ اللفظيُ أيضًا، وقد قُرِئت بالنصب على

إضمار فعلٍ، أي ٱذْكُرْ أو ٱقرأْ صادَ وقافَ ونونَ، وإنما لم تنوَّنْ لامتناع الصرف، وكذا ما كانت منها موازنةً لمفردٍ نحو ﴿حمٓ﴾ و﴿يسٓ﴾ و﴿طسٓ﴾ الموازنةَ لقابيلَ وهابيلَ، حيث أجاز سيبويهِ فيها مثلَ ذلك قال في باب أسماء السور من كتابه: وقد قرأ بعضُهم «ياسينَ والقرآنِ»، و«قافَ والقرآنِ»، فكأنه جعله اسمًا أعجميًّا، ثم قال اذكُرْ ياسينَ، انتهى.

وحكى السيرافيُّ أيضًا عن بعضهم قراءةَ **(ياسينَ)** ويجوز أن يكون ذلك في الكل تحريكًا لالتقاء الساكنين، ولا مَساغَ للنصب بإضمار فعلِ القسم؛ لأن ما بعدها من القرآن والقلم محلوفٌ بهما، وقد استكرهوا الجمعَ بين قَسَمين على مُقسَم عليه واحدٍ قبل انقضاءِ الأول، وهو السرُّ في جعل ما عدا الواوِ الأولى في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ [الليل، الآيات: ١ - ٣] عاطفةً، ولا مجال للعطف هٰهنا للمخالفة بين الأولِ والثاني في الإعراب، نعم يجوز ذلك بجعل الأولِ مجرورًا بإضمارِ الباءِ القسَمية، مفتوحًا لكونه غيرَ منصرِف، وقرئ (ص) و(ق) بالكسر على التحريك لالتقاءِ الساكنين، ويجوز في (طاسين ميم) أن تفتح نونُها، وتُجعلَ من قبيل (دارًا بجَرَد) ذكره سيبويه في كتابه. وأما ما عدا ذلك من الفواتح فليس فيها إلا الحكايةُ.

وسيجيء تفاصيلُ سائر أحكامِ كلٍّ منها مشروحةً في مواقعها بإذن الله عزَّ سلطانُه. أما هذه الفاتحةُ الشريفةُ فإن جُعلَت اسمًا للسورة أو للقرآنِ فمحلُها الرفع، **إما** على أنه خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ، والتقديرُ هذا (الم) أي مسمًّى به، وإنما صحت الإشارةُ إلى القرآن بعضًا أو كلًّا مع عدم سبْق ذكرِه لأنه باعتبار كونِه بصدد الذكرِ صار في حكم الحاضِرِ المشاهَد، كما يقال هذا ما اشترى فلان.

**وإما** على أنه مبتدأ، أي المسمَّى به والأولُ هو الأظهر، لأن ما يُجعلُ عنوانَ الموضوع حقُه أن يكون قبل ذلك معلومَ الانتساب إليه عند المخاطَب، وإذ لا عِلْمَ بالتسمية قبلُ فحقُّها الإخبارُ بها، وادعاءُ شهرتها يأباه الترددُ في أن المسمَّى هي السورةُ أو كلُّ القرآن.

﴿ذَٰلِكَ﴾ ذا اسمُ إشارة واللاَّمُ كنايةٌ عما جيء به للدلالة على بُعد المشار إليه، والكافُ للخطاب، والمشارُ إليه هو المسمَّى، فإنه منزَّلٌ منزلةَ المشاهَدِ بالحسِّ البَصَري، وما فيه من معنى البعدِ، مع قُرب العهدِ بالمُشار إليه، للإيذان بعلو شأنه، وكونِه في الغاية القاصيةِ من الفضل والشرف، إثرَ تنويهِه بذكر اسمِه.

وما قيل من أنه باعتبار التقصّي أو باعتبار الوصولِ من المرسِل إلى المرسَل إليه

في حكم المتباعِد، وإن كان مصححًا لإيراده، لكنه بمعزل من ترجيحه على إيراد ما وُضع للإشارة إلى القريب، وتذكيرُه على تقدير كون المسمَّى هي السورة، لأن المشار إليه هو المسمَّى بالاسم المذكورِ من حيث هو مسمًّى به، لا من حيث هو مسمًّى بالسورة.

ولئن ادُّعيَ اعتبارُ الحيثية الثانية في الأول بناءً على أن التسمية لتمييز السور بعضِها من بعض، فذلك لتذكير ما بعده، وهو على الوجه الأول مبتدأٌ على حِدَةٍ، وعلى الوجه الثاني مبتدأ ثانٍ.

وقوله عز وعلا: ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ إما خبرٌ له، أو صفةٌ، أما إذا كان خبرًا له فالجملةُ على الوجه الأولِ مستأنفةٌ مؤكِّدةٌ لما أفادته الجملةُ الأولى من نباهة شأن المسمَّى، لا محلَّ لها من الإعراب، وعلى الوجه الثاني في محل الرفع على أنها خبرٌ للمبتدأ الأول، واسمُ الإشارة مغنٍ عن الضمير الرابط، والكتابُ إما مصدرٌ سُمِّي به المفعولُ مبالغةً كالخَلْق والتصوير للمخلوق والمصوَّر، وإما فعلٌ بني للمفعول كاللِّباس، من الكتاب الذي هو ضمُّ الحروف بعضِها إلى بعض، وأصله الجمعُ والضمُّ في الأمور البادية للحسِّ البصَري، ومنه الكتيبةُ للعسكر، كما أن أصل القراءة الجمعُ والضمُّ في الأشياء الخافية عليه، وإطلاقُ الكتاب على المنظوم عبارةً لِما أن مآله الكتابة، والمرادُ به على تقدير كونِ المسمَّى هي السورة جميع القرآن الكريم وإن لم يتم نزولُه عند نزول السورة، إما باعتبار تحققِه في علم الله عز وجل، أو باعتبار ثبوتِه في اللوح، أو باعتبار نزولِه جملةً إلى السماء الدنيا، حسبما ذُكر في فاتحة الكتاب، واللام للعهد والمعنى أن هذه السورة هو الكتاب أي العمدةُ القصوى منه كأنه في إحراز الفضل كلُّ الكتاب المعهودِ، الغنيُّ عن الوصف بالكمال لاشتهاره به فيما بين الكتب على طريقة قوله ﷺ: «الحجُّ عَرَفة»[١] وعلى تقدير كون المسمَّى كلَّ القرآن، فالمرادُ بالكتاب الجنسُ، واللامُ للحقيقة.

والمعنى أن ذلك هو الكتابُ الكاملُ الحقيقُ بأن يُخصَّ به اسمُ الكتاب، لتفوقه على بقية الأفرادِ في حيازة كمالاتِ الجنس، كأن ما عداه من الكُتُب السماوية خارجٌ منه بالنسبة إليه كما يقال هو الرجل، أي الكاملُ في الرجولية الجامعُ لما يكون في

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٣٥)، وأبو داود (١٩٤٩)، والترمذي (٨٨٩)، والنسائي (٥/ ٢٦٤، ٢٦٥)، وابن ماجه (٣٠١٥)، وابن حبان (١٠٠٩- موارد)، والحاكم (١/ ٤٦٤) من حديث عبد الرحمن بن يعمر الديلي.
وقال الترمذي: حسن صحيح.

الرجال من مراضي الخِصال، وعليه قولُ من قال: [الطويل]

..... ..... ..... ..... هـم الـقـومُ كـلُّ الـقـومِ يـا أمَّ خـالـدِ[١]

فالمدحُ كما ترى من جهة حصر كمالِ الجنس في فرد من أفراده، وفي الصورة الأولى من جهة حصرِ كمالِ الكلِّ في الجزء، ولا مساغَ هناك لحمل الكتاب على الجنس، لما أن فردَه المعهود هو مجموعُ القرآن المقابلُ لسائر أفرادِه من الكتب السماوية، لا بعضُه الذي يُطلق عليه اسمُ الكتاب باعتبار كونِه جزءًا لهذا الفرد، لا باعتبار كونِه جزئيًّا للجنس على حِياله، ولأن حصرَ الكمالِ في السورة مُشعرٌ بنقصان سائرِ السور، وإن لم يكن الحصرُ بالنسبة إليها لتحقق المغايَرَة بينهما، هذا على تقدير كونِ الكتاب خبرًا لـ «ذلك»، وأما إذا كان صفةً له فذلك الكتابُ على تقدير كون (ألم) خبرَ مبتدإٍ محذوفٍ، إما خبرٌ ثانٍ أو بدلٌ من الخبر الأول، أو مبتدأٌ مستقلٌّ خبرُه ما بعده، وعلى تقدير كونِه مبتدأً إما خبرٌ له، أو مبتدأٌ ثانٍ خبرُه ما بعده، والجملةُ خبرٌ للمبتدأ الأول، والمشارُ إليه على كلا التقديرين هو المسمَّى، سواءٌ كان هي السورةَ أو القرآن، ومعنى البعد ما ذُكر من الإشعارِ بعلوِّ شأنِه، والمعنى: ذلك الكتاب العجيبُ الشأنِ، البالغُ أقصىٰ مراتبِ الكمال.

وقيل المشارُ إليه هو الكتابُ الموعودُ، فمعنى البعدِ حينئذٍ ظاهرٌ، خلا أنه إنْ كان المسمَّى هي السورةَ ينبغي أن يُرادَ بالوعد ما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل، الآية ٥] كما قيل، وإن كان هو القرآنَ فهو ما في التوراة والإنجيل، هذا على تقدير كون ﴿الٓمٓ﴾ اسمًا للسورة أو القرآن، وأما على تقدير كونِها مسرودةً على نمَط التعديد فذلك مبتدأ، والكتابُ إما خبرُه أو صفتُه، والخبرُ ما بعده على نحو ما سلف، أو يُقدَّر مبتدأ، أي المؤلَّفُ من هذه الحروف ذلك الكتابُ، وقرئ[٢] (الم تنزيلُ الكتاب).

وقوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ إما في محل الرفعِ على أنه خبرٌ لـ «ذلك الكتابُ»

---

(١) عجز بيت وصدره:

وإنَّ الـذي حـانـت بـفـلـجٍ دمـاؤهـم ..... ..... .....

والبيت للأشهب بن رميلة في خزانة الأدب (٦/ ٧)، (٢٥ – ٢٨)، وشرح شواهد المغني (٢/ ٥١٧)، والكتاب (١/ ٨٧)، والمقتضب (٤/ ١٤٦)، والمحتسب (١/ ١٨٥)، ولسان العرب (٢/ ٣٤٩) (فلج) و (١٥/ ٢٤٦)، وللأشهب أو لحريث بن مخفض في الدرر (١/ ١٤٨)، وبلا نسبة في شرح المفصَّل (٣/ ١٥٥)، ومغني اللبيب (١/ ١٩٤، ٢/ ٥٥٢)، والدرر (٥/ ١٣١).

(٢) وهي قراءة عبد الله بن مسعود كما في تفسير الفخر الرازي (١/ ١٦٤).

على الصور الثلاثِ المذكورة، أو على أنه خبرٌ ثانٍ لألف لام ميم أو لـ «ذلك» على تقدير كونِ الكتابِ خبرَه، أو للمبتدأ المقدرِ آخِرًا على رأي من يجوِّز كونَ الخبرِ الثاني جملةً، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه، الآية ٢٠].

وإما في محل النصب على الحالية من ﴿ذَٰلِكَ﴾، أو من ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾، والعامل معنى الإشارة، وإما جملةٌ مستأنَفة لا محل لها من الإعراب مؤكِّدة لما قبلها.

وكلمةُ (لا) نافية للجنس مفيدةٌ للاستغراق، عاملةٌ عملَ إنَّ بحملها عليها، لكونها نقيضًا لها، ولازمةً للاسم لزومَها، واسمُها مبنيٌّ على الفتح لكونه مفردًا نكرةً لا مضافًا ولا شبيهًا به، وأما ما ذكره الزجاج(١) من أنه معربٌ وإنما حُذف التنوينُ للتخفيف فمما لا تعويلَ عليه، وسببُ بنائه تضمُّنه لمعنى «مِنْ» الاستغراقية؛ لأنه مركب معها تركيبَ خمسةَ عشرَ كما توهم، وخبرُها محذوف، أي لا ريب موجودٌ أو نحوُه، كما في قوله تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [هود، الآية ٤٣] والظرفُ صفةٌ لاسمها، ومعناه نفيُ الكونِ المطلق وسلبُه عن الريب المفروضِ في الكتاب، أو الخبرُ هو الظرف، ومعناه سلبُ الكونِ فيه عن الريب المطلق وقد جُعل الخبرُ المحذوفُ ظرفًا، وجعل المذكور خبرًا لما بعده.

وقرئ(٢) (لا ريبٌ فيه) على أن «لا» بمعنى ليس، والفرق بينه وبين الأول أن ذلك موجبٌ للاستغراق، وهذا مجوِّزٌ له، والريب في الأصل مصدرُ رابني إذا حصل فيك الرِّيبة، وحقيقتُها قلقُ النفس واضطرابُها، ثم استعمل في معنى الشك مطلقًا، أو معَ تُهمة، لأنه يُقلق النفسَ ويزيل الطُّمَأْنينة، وفي الحديث: «دَعْ مَا يَرِيبُكَ إلى ما لا يَرِيبُكَ»(٣). ومعنى نفيه عن الكتاب أنه في علو الشأن وسطوعِ البرهانِ بحيث ليس فيه

---

(١) هو: إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج: عالم بالنحو واللغة. ولد في بغداد سنة إحدى وأربعين ومائتين هـ. كان في فُتُوَّتِه يخرط الزجاج، ومال إلى النحو فعلمه المبرد. وطلب عبيد الله بن سليمان وزير المعتضد العباسي مؤدبًا لابنه القاسم، فدله المبرد على الزجاج، فأدب له ابنه إلى أن ولي الوزارة مكان أبيه، فجعله القاسم من كتابه. وأصاب في أيامه ثروة كبيرة. وكانت للزجاج مناقشات مع ثعلب وغيره. من كتبه: معاني القرآن، والاشتقاق، والأمالي، والمثلث. توفي في بغداد سنة إحدى عشرة وثلاثمائة هـ.
ينظر: الأعلام (١/ ٤٠)، معجم الأدباء (١/ ٤٧)، إنباه الرواة (١/ ١٥٩)، تاريخ بغداد (٦/ ٨٩).

(٢) وهي قراءة أبي الشعثاء وزيد بن علي.
ينظر: البحر المحيط (١/ ١٦٠)، واللباب (١/ ٢٦٩).

(٣) ورد عن جماعة من الصحابة؛ منهم الحسن بن علي، وأنس بن مالك، وعبد الله بن عمر.
أما حديث الحسن:

=

مظنةُ أن يُرتاب في حقّيته، وكونِه وحيًا منزلًا من عند الله تعالى، لا أنه لا يرتاب فيه أحد أصلًا، ألا ترى كيف جُوِّز ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾ [البقرة، الآية ٢٣] الخ. فإنه في قوةِ أن يقال: وإن كان لكم ريبٌ فيما نزلنا، أو إنِ ارتبتم فيما نزلنا، إلخ إلا أنه خُولِفَ في الأسلوب حيث فُرض كونُهم في الريب لا كونُ الريبِ فيه لزيادة تنزيهِ ساحة التنزيل عنه، مع نوع إشعارٍ بأن ذلك من جهتهم، لا من جهته العالية، ولم يُقصَدْ هٰهنا ذلك الإشعارُ، كما لم يقصَدِ الإشعارُ بثبوت الريبِ في سائر الكتب، ليقتضِيَ المقامُ تقديمَ الظرف، كما في قوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصافات، الآية ٤٧].

﴿هُدًى﴾ مصدرٌ من هداه، كالسُّرى والبُكى، وهو الدَّلالةُ بلطفٍ على ما يوصِل إلى البُغية، أي ما مِنْ شأنه ذلك، وقيل: هي الدلالة الموصلةُ إليها، بدليل وقوع الضلالة في مقابلته، في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة، الآية ١٦]، وقوله

---

= فأخرجه النسائي (٨/ ٣٢٧) باب: الحث على ترك الشبهات.

والترمذي (٤/ ٥٧٦، ٥٧٧) كتاب صفة القيامة (٢٥١٨)، وقال: حسن صحيح، وأحمد في المسند (١/ ٢٠٠).

وابن حبان في صحيحه؛ كما أورده الهيثمي في موارد الظمآن ص (١٣٧) كتاب المواقيت، باب: ما جاء في القنوت (٥١٢).

والحاكم في المستدرك (٢/ ١٣)، كتاب البيوع، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، ورواه أيضًا (٤/ ٩٩) وسكت عنه، وقال الذهبي: سنده قوي.

وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٢٦٤)، والبغوي في شرح السنة (٤/ ٢١٠) (٢٠٢٥).

وعبد الرزاق في المصنف (٣/ ١١٧)، برقم (٤٩٨٤). وإسناده صحيح.

أما حديث أنس:

فأخرجه أحمد في المسند (٣/ ١٥٣) من طريق يحيى بن إسحاق، قال: أخبرني أبو عبد الله الأسدي قال: سمعت أنس بن مالك يقول: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافرًا؛ فإنه ليس دونها حجاب»، وقال رسول الله ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك».

أما حديث ابن عمر:

أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٥٢)، والخطيب في تاريخ بغداد (٢/ ٢٢٠)، (٦/ ٣٨٦)، من طريق عبد الله بن أبي رومان عن ابن وهب عن مالك عن نافع عن ابن عمر به.

والخطيب في التاريخ (٢/ ٣٨٧) من رواية قتيبة بن سعيد عن مالك ثم قال: «وهذا الحديث باطل عن قتيبة عن مالك، وإنما يحفظ عن عبد الله بن أبي رومان عن ابن وهب عن مالك. واه، تفرد واشتهر به ابن أبي رومان وكان ضعيفًا».

وقال أبو نعيم في الحلية: «غريب من حديث مالك تفرد به ابن أبي رومان عن ابن وهب»، ورواه القضاعي في «مسند الشهاب» (٦٤٥) من رواية عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ ويراجع فتح الوهاب للغماري (١/ ٤٥٥) رقم (٤٠٨).

تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ، الآية ٢٤] ولا شك في أن عدم الوصولِ معتبرٌ في مفهوم الضلال، فيعتبر الوصولُ في مفهوم مقابلِهِ، ومن ضرورة اعتبارِهِ فيه اعتبارُه في مفهوم الهدى المتعدّي؛ إذ لا فرق بينهما إلا من حيث التأثيرُ والتأثّر، ومحصّلهُ أن الهدى المتعدّي هو التوجيهُ الموصِل؛ لأن اللازم هو التوجُّه الموصِلُ، بدليل أن مقابِلَه الذي هو الضلال توجهٌ غيرُ موصل قطعًا، وهذا كما ترى مبنيٌّ على أمرين: اعتبارِ الوصولِ وجوبًا في مفهوم اللازم، واعتبارِ وجودِ اللازم وجوبًا في مفهوم المتعدّي، وكلا الأمرين بمعزل من الثبوت.

أما الأول فلأن مدارَ التقابل بين الهدى والضلالِ ليس هو الوصولَ وعدمَه على الإطلاق، بل هما معتبَران في مفهوميهما على وجهٍ مخصوصٍ به، ليتحقق التقابلُ بينهما.

وتوضيحُه أن الهدى لا بد فيه من اعتبار توجّهٍ عن علم إلى ما مِنْ شأنه الإيصالُ إلى البُغية، كما أن الضلال لا بد فيه من اعتبار الجَوْرِ عن القَصْد إلى ما ليس من شأنه الإيصالُ قطعًا، وهذه المرتبةُ من الاعتبار مُسلّمةٌ بين الفريقين، ومُحقِّقةٌ للتقابل بينهما، وإنما النِّزاعُ في أن إمكان الوصولِ إلى البغية هل هو كافٍ في تحصيل مفهومِ الهدىٰ، أو لا بد فيه من خروج الوصولِ من القوة إلى الفعل، كما أن عدم الوصولِ بالفعل معتبرٌ في مفهوم الضلال قطعًا؟

إذا تقرر هذا فنقول: إن أريد باعتبار الوصولِ بالفعل في مفهوم الهدىٰ اعتبارُه مقارِنًا له في الوجود زمانًا حسَبَ اعتبارِ عدمِه في مفهوم مقابلِه فذلك بيِّنُ البُطلان، لأن الوصولَ غايةٌ للتوجّه المذكور، فينتهي به قطعًا؛ لاستحالة التوجُّهِ إلى تحصيل الحاصِل، وما يبقىٰ بعد ذلك فهو إما توجّهٌ إلى الثبات عليه، وإما توجّهٌ إلى زيادته، ولأن التوجّهَ إلى المقصدِ تدريجيّ، والوصولَ إليه دفعيّ، فيستحيلُ اجتماعهما في الوجود ضرورة، وأما عدمُ الوصولِ فحيث كان أمرًا مستمرًّا مثلَ ما يقتضيه من الضلال وجبَ مقارنتُه له في جميع أزمنةِ وجوده؛ إذ لو فارقه في آنٍ من آنات تلك الأزمنةِ لقارنه في ذلك الآنِ مقابِلهُ الذي هو الوصول، فما فرضناه ضلالًا لا يكون ضلالًا، وإن أريد اعتبارُه من حيث إنه غايةٌ له واجبةُ الترتُّب عليه لزِم أن يكون التوجُّهُ المقارِنُ لغاية الجِدِّ في السلوك إلى ما من شأنه الوصولُ عند تخلُّفِه عنه لمانعٍ خارجي كاخترام المنيَّةِ مثلًا من غير تقصيرٍ ولا جَوْر من قِبَل المتوجِّه، ولا خللٍ من جهة المسلكِ ضلالًا، إذ لا واسطةَ بينهما، مع أنه لا جَوْر فيه عن القصد أصلًا، فبطَلَ اعتبارُ وجوبِ الوصولِ في مفهومِ اللازم قطعًا، وتبين منه عدمُ اعتبارِه في مفهوم المتعدي حتمًا.

وأما اعتبارُ وجودِ اللازم فيه وجوبًا وهو الأمرُ الثاني، فبيانُه مبنيٌّ على تمهيد أصل، وهو أن فعلَ الفاعل حقيقةً هو الذي يصدُر عنه ويتمُّ من قِبَله، لكن لمّا لم يكن له في تحقُّقه في نفسه بدٌّ من تعلّقه بمفعوله اعتُبر ذلك في مدلول اسمِه قطعًا، ثم لما كان له باعتبار كيفيةِ صدورِه عن فاعله، وكيفيةِ تعلّقِه بمفعوله، وغيرِ ذلك آثارٌ شتّى مترتبةٌ عليه متمايزةٌ في أنفسها، مستقلةٌ بأحكامٍ مقتضيةٍ لإفرادها بأسماءٍ خاصة، وعُرض له بالقياس إلى كل أثرٍ من تلك الآثارِ إضافةٌ خاصة ممتازة عما عداها من الإضافات العارضة له بالقياس إلى سائرها، وكانت الآثارُ تابعةً له في التحقّق غيرَ منفكّةٍ عنه أصلًا؛ إذ لا مؤثِّرَ لها سوى فاعلِه عُدَّت من متمماته، واعتُبرت الإضافةُ العارضةُ له بحسَبها داخلةً في مدلوله، كالاعتماد المتعلِّق بالجسم مثلًا، وُضع له - باعتبار الإضافةِ العارضةِ له من انكسار ذلك الجسم الذي هو أثرٌ خاصٌّ لذلك الاعتماد - اسمُ الكسر، وباعتبار الإضافةِ العارضةِ له - من انقطاعه الذي هو أثرٌ آخَرُ له - اسم القطع، إلى غير ذلك من الإضافات العارضةِ له بالقياس إلى آثاره اللازمةِ له، وهذا أمرٌ مطَّردٌ في آثاره الطبيعية.

وأما الآثارُ التي له مدخَلٌ في وجودها في الجملة من غير إيجابٍ لها تترتب عليه تارة وتفارقه أخرى، بحسب وجودِ أسبابِها الموجبةِ لها وعدمِها - كالآثار الاختياريةِ الصادرةِ عن مؤثراتها بواسطة كونهِ داعيًا إليها - فحيث كانت تلك الآثارُ مستقلَّة في أنفسها مستندةً إلى مؤثراتها غيرَ لازمةٍ له لزومَ الآثارِ الطبيعيةِ التابعةِ له لم تعُدْ من متمماته، ولم تُعتبر الإضافةُ العارضةُ له بحسبها داخلةً في مدلوله كالإضافة العارضةِ للأمر بحسَبِ امتثالِ المأمور، والإضافةِ العارضةِ للدعوة بحسب إجابةِ المدعوّ، فإن الامتثال والإجابة وإن عُدّا من آثار الأمرِ والدعوةِ باعتبار ترتّبهما عليهما غالبًا، لكنهما حيث كانا فِعلين اختياريين للمأمور والمدعوِّ مستقِلَّيْن في أنفسهما غيرَ لازمين للأمر والدعوة، لم يُعَدَّا من متمماتهما، ولم تُعتبر الإضافةُ العارضةُ لهما ـ بحسبهما ـ داخلةً في مدلولِ اسمِ الأمرِ والدعوةِ، بل جُعلا عبارة عن نفس الطلب المتعلّقِ بالمأمورِ والمدعوّ، سواءٌ وجد الامتثالُ والإجابةُ أو لا.

إذا تمهّد هذا فنقول: كما أن الامتثالَ والإجابةَ فعلان مستقلانِ في أنفسهما صادران عن المدعوِّ والمأمورِ باختيارهما غيرُ لازمين للأمر والدعوة لزومَ الآثارِ الطبيعية التابعة للأفعال الموجبة لها، وإن كانا مترتِّبين عليهما في الجملة، كذلك هُدى المَهْديّ أي توجُّهُه إلى ما ذكر من المسلك فعلٌ مستقلٌ له صادرٌ عنه باختياره، غيرُ لازم للهداية، أعني التوجيهَ إليه لزومَ ما ذُكر من الآثار الطبيعية، وإن كان مترتبًا

عليها في الجملة، فلما لم يُعَدّا من متممات الأمر والدعوة، ولم تعتبر الإضافةُ العارضةُ لهما بحسبهما داخلةً في مدلولهما عُلم أنه لم يُعدَّ الهدى اللازمُ من متممات الهداية، ولم تُعتبر الإضافةُ العارضة لها ـ بحسبه ـ داخلةً في مدلولها.

إن قيل: ليس الهُدى بالنسبة إلى الهداية كالامتثال والإجابة بالقياس إلى أصليهما، فإنَّ تعلقَ الأمر والدعوة بالمأمورِ والمدعوِّ لا يقتضي إلا اتصافهما بكونهما مأمورًا ومدعوًّا، وليس من ضرورته اتصافُهما بالامتثال والإجابة، إذ لا تلازمَ بينهما وبين الأوّلَيْن أصلًا، بخلاف الهدى بالنسبة إلى الهداية، فإن تعلقها بالمهديِّ يقتضي اتصافه به؛ لأن تعلقَ الفعل المتعدِّي المبنيِّ للفاعل بمفعوله يدل على اتصافه بمصدره المأخوذِ من المبنيِّ للمفعول قطعًا، وهو مستلزِمٌ لاتصافه بمصدرِ الفعل اللازم، وهل الاعتبار هو وجودُ اللازم في مدلول المتعدي حتمًا؟ قلنا كما أن تعلقَ الأمر والدعوةِ بالمأمور والمدعوِّ لا يستدعي إلا اتصافَهما بما ذكر من غير تعرّضٍ للامتثال والإجابة إيجابًا وسلبًا، كذلك تعلقُ الهدايةِ التي هي عبارةٌ عن الدلالة المذكورة بالمهديّ لا يستدعي إلا اتصافَه بالمدلولية، التي هي عبارةٌ عن المصدر المأخوذ من المبنيّ للمفعول، من غير تعرض لقبول تلك الدلالة، كما هو معنى الهدى اللازم، ولا لعدم قبوله، بل الهدايةُ عينُ الدعوة إلى طريق الحق، والاهتداءُ عينُ الإجابة، فكيف يؤخذ في مدلولها؟ واستلزامُ الاتصافِ بمصدر الفعل المتعدي المبنيِّ للمفعول للاتصاف بمصدر الفعل اللازم مطلقًا إنما هو في الأفعال الطبيعية كالمكسورية والانكسار، والمقطوعية والانقطاع، وأما الأفعال الاختيارية فليست كذلك كما تحققته فيما سلف.

وإن قيل: التعلمُ من قبيل الأفعال الاختياريةِ مع أنه معتبرٌ في مدلول التعليم قطعًا، فليكن الهدى مع الهداية كذلك.

قلنا: ليس ذلك لكونه فعلًا اختياريًّا على الإطلاق، ولا لكون التعليم عبارةً عن تحصيل العلم للمتعلم كما قيل، فإن المعلم ليس بمستقل في ذلك، ففي إسناده إليه ضربُ تجوّز، بل لأن كلاً منهما مفتقر في تحققه وتحصُّله إلى الآخر، فإن التعليمَ عبارةٌ عن إلقاء المبادئِ العلمية على المتعلم وسَوْقِها إلى ذهنه شيئًا فشيئًا على ترتيب يقتضيه الحال، بحيث لا يُساق إليه بعضٌ منها إلا بعد تلقِّيه لبعضٍ آخر، فكلٌّ منهما متمِّمٌ للآخَر؛ معتبرٌ في مدلوله.

وأما الهدى الذي هو عبارةٌ عن التوجُّه المذكور ففعلٌ اختياريٌّ يستقِلُّ به فاعلُه لا دخلَ للهداية فيه سوى كونِها داعيةً إلى إيجاده باختياره، فلم يكن من متمماتها ولا معتبرًا في مدلولها.

إن قيل: التعليمُ نوعٌ من أنواع الهداية، والتعلمُ نوعٌ من أنواع الاهتداء فيكون اعتبارُه في مدلول التعليم اعتبارًا للهدى في مدلول الهداية، قلنا إطلاقُ الهداية على التعليم إنما هو عند وضوحِ المسلك، واستبدادِ المتعلم بسلوكه من غير دخلٍ للتعليم فيه سوى كونه داعيًا إليه، وقد عرفت جليةَ الأمر على ذلك التقدير.

إن قيل: أليس تخلّفُ الهدى عن الهداية كتخلف التعلم عن التعليم، فحيث لم يكن ذلك تعليمًا في الحقيقة فلتكن الهداية أيضًا كذلك، وليُحمَلْ تسميةُ ما لا يستتبعُ الهدى بها على التجوز.

قلنا: شتانَ بين التخلّفَيْن، فإن تخلف التعلم عن التعليم يكون لقصور فيه، كما أن تخلفَ الانكسار عن الضرب الضعيف لذلك.

وأما تخلفُ الهدى عن الهداية فليس لشائبةِ قصورٍ من جهتها، بل إنما هو لفقد سببه الموجبِ له من جهة المهديّ، بعد تكاملِ ما يتم من قبل الهادي.

وبهذا التحريرِ اتَّضحَ طريقُ الهداية، وتبين أنها عبارةٌ عن مطلق الدلالةِ على ما من شأنه الإيصالُ إلى البُغية بتعريف معالمهِ وتبيين مسالكِه، من غير أن يُشترط في مدلولها الوصولُ ولا القبول، وأن الدلالة المقارِنة لهما أو لأحدهما أو المفارِقة عنهما ـ كلُّ ذلك مع قطع النظر عن قيد المقارنة وعدمها ـ أفرادٌ حقيقية لها، وأن ما في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص، الآية ٥٦] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ﴾ [النحل، الآية ٩] ونحوُ ذلك مما اعتُبر فيه الوصولُ من قبيل المجاز، وانكشف أن الدلالاتِ التكوينية المنصوبة في الأنفس والآفاق والبيانات التشريعية الواردة في الكتب السماوية على الإطلاق بالنسبة إلى كافة البرية برِّها وفاجرِها هداياتٌ حقيقيةٌ، فائضة من عند الله سبحانه، والحمدُ لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتديَ لولا أن هدانا الله.

## [معاني التقوى ومراتبها]

﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي المتصفين بالتقوى حالًا أو مآلًا، وتخصيصُ الهدى بهم لما أنهم المقتبسون من أنواره المنتفعون بآثاره، وإن كان ذلك شاملًا لكل ناظر، من مؤمن وكافر، وبذلك الاعتبار قال الله: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة، الآية ١٨٥] والمتقي اسمُ فاعلٍ من باب الافتعال من الوقاية وهي فرْطُ الصيانة.

والتقوى في عُرف الشرع عبارةٌ عن كمال التوقي عما يضُره في الآخرة قال عليه

السلام: «جُماعُ التقوى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ . . .﴾[١] [النحل: ٩٠] الآية»، وعن عمرَ بنِ عبد العزيز[٢] أنه تركُ ما حرّم الله[٣]، وأداءُ ما فرضَ الله، وعن شَهْر بن حَوْشَب[٤]: المتقي من يترك ما لا بأسَ به حذرًا من الوقوع فيما فيه بأسٌ[٥]، وعن أبي يزيد[٦]: أن التقوى هو التورعُ عن كل ما فيه شبهة، وعن محمد بن خفيف[٧]: أنها مجانبةُ كلِّ ما يبعدك عن الله تعالى، وعن سهل[٨]: المتقي

---

(١) ذكره الثعالبي في «تفسيره» (١/ ١٤٢)، والبغوي (١/ ٤٥).

(٢) هو: عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم، قرشي من بني أمية، الخليفة الصالح، ويقال له: «خامس الخلفاء الراشدين» لعدله وحزمه، معدود من كبار التابعين، ولد ونشأ بالمدينة، وولي إمارتها للوليد، ثم استوزره سليمان بن عبد الملك وولي الخلافة بعهد من سليمان سنة تسع وتسعين هـ فبسط العدل، وسكن الفتن، كان ثقة، مأمونا، له فقه وعلم وورع، وروى حديثًا كثيرًا، وكان إمامًا عدلًا. قال أنس: ما رأيت أحدًا أشبه صلاة برسول الله ﷺ من هذا الفتى، ومناقبه وفضائله كثيرة جدًّا، توفي في رجب سنة إحدى ومائة هـ.

ينظر: تهذيب التهذيب (٧/ ٤٧٥)، النجوم الزاهرة (١/ ٢٤٦)، تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ١٩)، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٥٨)، وعزاه لابن أبي الدنيا، وينظر تفسير البغوي (١/ ٤٥).

(٤) هو: شَهْرُ بنُ حَوْشَب الأَشْعَرِي، أبو سَعِيد، ويقال: أبو عَبْدِ اللَّه، ويقال: أبو عَبْدِ الرّحمن، ويقال: أبو الْجَعْد الشَّامِي، مَوْلَى أَسْمَاء بنت يَزِيد بن السَّكَن. روى عن: مولاته أسماء بنت يزيد، وأم سلمة زوج النبي ﷺ، وأبي هريرة، وعائشة، وجماعة. وروى عنه: عبد الحميد بن بهرام، وقتادة، وليث بن أبي سليم، وعاصم بن بهدلة، والْحَكَم بن عُتَيْبَة، وجماعة. قال موسى بن هارون: ضعيف. وقال النَّسَائِي: ليس بالقوي. قال ابن حجر: ثقة مكثر. توفي سنة مائة وعشرة، وقيل: سنة إحدى عشرة ومائة.

ينظر: تهذيب الكمال (١٢/ ٥٧٨)، وتهذيب التهذيب (٤/ ٣٦٩)، والتقريب (١/ ٣٥٥).

(٥) ذكره البغوي في «تفسيره» (١/ ٤٥).

(٦) هو: طيفور بن عيسى البسطامي، أبو يزيد، ويقال بايزيد، ولد سنة ثمان وثمانين ومائة هـ، زاهد مشهور، له أخبار كثيرة، كان ابن عربي يسميه أبا يزيد الأكبر، نسبته إلى بسطام بلدة بين خراسان والعراق، وأصله منها، ووفاته فيها. قال المناوي: وقد أفردت ترجمته بتصانيف حافلة. توفي سنة إحدى وستين ومائتين هـ.

ينظر: وفيات الأعيان (١/ ٢٤٠)، وميزان الاعتدال (١/ ٤٨١)، وحلية الأولياء (١٠/ ٣٣).

(٧) هو: محمد بن خفيف، أبو عبد الله، الضبي الشيرازي، كان شيخ المشايخ في وقته، عالمًا بعلوم الظاهر والحقائق، مفيدًا في كل نوع من العلوم، مقصودًا من الآفاق، مباركًا على كل من يقصده، بلغ في العلم والجاه عند الخاص والعام ما لم يبلغه أحد. وصنف من الكتب ما لم يصنفه أحد، توفي في رمضان سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة.

تنظر ترجمته في: طبقات ابن قاضي شهبة (١/ ١٤٧)، طبقات السبكي (٣/ ١٤٩).

(٨) هو: سهل بن عبد الله بن يونس التستري، أبو محمد، أحد أئمة الصوفية وعلمائهم، والمتكلمين في علوم الإخلاص والرياضات وعيوب الأفعال، له كتاب في تفسير القرآن، وكتاب رقائق المحبين =

من تبرأ عَنْ حَوله وقدرته. وقيل التقوى: ألّا يراك الله حيث نهاك، ولا يفقِدَك حيث أمرك.

وعن ميمونِ بنِ مهران: لا يكون الرجلُ تقيًّا حتى يكون أشدَّ محاسبةً لنفسه من الشريك الشحيحِ والسُلطانِ الجائر[١]، وعن أبي تراب: بين يدي التقوى خمسُ عقباتٍ لا ينالها من لا يجاوِزُهن: إيثارُ الشدة على النعمة، وإيثارُ الضعفِ على القوة، وإيثارُ الذلِّ على العزة، وإيثارُ الجهد على الراحة، وإيثارُ الموتِ على الحياة، وعن بعض الحكماء أنه لا يبلغُ الرجل سَنامَ التقوى إلا أن يكون بحيث لو جُعل ما في قلبه في طبَقٍ فطِيفَ به في السوق لم يستحْيِ ممن ينظُر إليه.

وقيل: التقوى أن تَزين سِرَّك للحق، كما تَزينُ علانيتَك للخلق.

والتحقيق أن للتقوى ثلاثَ مراتبَ:

**(الأولى)**: التوقي عن العذاب المخلَّد بالتبرؤ عن الكفر، وعليه قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [الفتح، الآية ٢٦].

**(والثانية)**: التجنبُ عن كل ما يُؤثِم من فعل أو ترك، حتى الصغائر عند قوم، وهو المتعارَفُ بالتقوى في الشرع، وهو المعنيُّ بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾ [الأعراف، الآية ٩٦].

و**(الثالثة)**: أن يتنزه عن كل ما يشغَلُ سرَّه عن الحق عز وجل، ويتبتّلَ إليه بكلّيته، وهي التقوى الحقيقيةُ المأمورُ بها في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران، الآية ١٠٢] ولهذه المرتبة عَرْضٌ عريض يتفاوت فيه طبقاتُ أصحابها حسَب تفاوتِ درجاتِ استعداداتهم الفائضةِ عليهم بموجَب المشيئةِ الإلهية، المبنيّةِ على الحِكَم الأبية، أقصاها ما انتهى إليه همَمُ الأنبياءِ - عليهم الصلاة والسلام - حيث جمعوا بذلك بين رياسَتي النبوةِ والولاية، وما عاقهم التعلقُ بعالم الأشباحِ عن العروجِ إلى معالم الأرواح، ولم تصُدَّهم الملابسةُ بمصالح الخلقِ عن الاستغراق في شؤون الحق، لكمال استعدادِ نفوسِهم الزكيةِ المؤيدةِ بالقوة القدسية، وهدايةُ الكتابِ المبين شاملةٌ لأرباب هذه المراتب أجمعين، فإن أريد بكونه هدىً للمتقين إرشادُه إياهم إلى تحصيل المرتبة الأولى ونيلِها، فالمرادُ بهم المشارفون

---

= وغير ذلك. توفي سنة ثلاث وثمانين ومائتين هـ.
ينظر: طبقات الصوفية ص (٢٠٦).

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٥٩)، وعزاه لابن أبي شيبة وأبي نعيم.

للتقوى مجازًا، لاستحالة تحصيلِ الحاصل[(١)]، وإيثارُه علــى الـعبارة المعرِبةِ عن

(١) الذي ذكره الشيخ أبو السعود، هو ما يسمى في اصطلاح البلاغيين بالمجاز المرسل، والعلاقة هنا اعتبار ما سيكون، على حد قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرًا﴾. وحدَّه البلاغيون بأنه الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له في اصطلاح أهل التخاطب على وجه يصح مع قرينة عدم إرادته.
وقد عرفه الشيخ عبد القاهر بقوله: هو كل كلمة أريد بها غير ما وضعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثاني والأول، وإن شئت قلت: كل كلمة جزت بها ما وقعت له في وضع الواضع إلى ما لم توضع له من غير أن تستأنف فيها وضعًا لملاحظة بين ما تجوز بها إليه، وبين أصلها الذي وضعت له في وضع واضعها. وانتقده العلوي وممن عده من الاستعارة أبو هلال العسكري، فقد ذكر في باب (الاستعارة) أمثلة للمجاز المرسل، وقال: ومما جاء من الاستعارة في كلام العرب فمنه قولهم هذا رأس الأمر ووجهه، وله عندي يد بيضاء، ويسمون النبات نوءًا.
الفرق بين المجاز المرسل والاستعارة
فيسمى المجاز المرسل مجازًا بالحذف، ويفرق بينه وبين الاستعارة بقوله: المجاز مجازان مجاز استعارة، ومجاز الحذف، كقوله: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾. وقد تجاوزت العرب حذف المضاف إلى حذف مضاف كان بعد حذف المضاف الأول، كقول جرير:

إذا نــزل الــســمــاء بــدار قــوم رعــيــنــاه وإن كــانــوا غــضــابــا

إلا أن مثل هذا - والكلام لابن أبي الأصبع - لا يجوز إلا في ضرورة الشعر؛ لبعده عن الحقيقة. وإنما أبقوا على هذا الضرب اسم المجاز لخلُوِّه عن معنى زائد على تجوز الحقيقة، يليق أن يشتق له منه اسم مجاز كمجاز استعارة.
ويفرق ابن رشيق بين المرسل والاستعارة، فيخص المرسل باسم المجاز فقط، يقول: وما عدا الحقائق من جميع الألفاظ ثم لم يكن محالاً محضًا، فهو مجاز لاحتماله وجوه التأويل، فصار التشبيه والاستعارة وغيرهما من محاسن الكلام داخلة تحت المجاز، إلا أنهم خصوا به - أعني اسم المجاز - بابًا بعينه، وذلك بأن يسمى الشيء باسم ما قاربه أو كان منه بسبب.
وتكلم ابن سنان الخفاجي عن الاستعارة وحسنها، كما تكلم عن الحقيقة، ولم يتعرض للتفريق بين المرسل والاستعارة ويبدو أنه جعل المرسل واسطة بين الاستعارة والحقيقة، يقول: إن هناك ألفاظًا وقعت للشعراء، ووضعت في غير موضعها، ليست على وجه الاستعارة ولا الحقيقة.
وأما ابن الأثير، فقد سمى ألوان المجاز العقلي والمرسل ضربًا من التوسع، وذكر أمثلتها معًا.
وانتقد الإمام الغزالي في كلامه عن العلاقات المجاز، وحاول أن يردها إلى ما ذكره من أقسام المجاز وهي التوسع والتشبيه، فيقول: المجاز ينقسم قسمين: توسع في الكلام وتشبيه، وإذا ذكر المشبه دون المشبه به سمي استعارة، والتوسع يذكر للتصرف في اللغة فقط.
ويجعل التوسع على ضربين: أحدهما أن يرد على وجه الإضافة، وهو قبيح لا يستعمله إلا جاهل بأسرار الفصاحة والبلاغة، ومنه قول أبي نُوَاس:

بُــحَّ صــوت الــمــال مــمــا مــنــك يــشــكــو ويــصــيــح

والضرب الثاني: ما جاء على غير وجه الإضافة، وهو حسن لا عيب فيه. وذكر له أمثلة من القرآن الكريم، منها ما هو من المجاز العقلي، ومنها ما هو من المجاز المرسل. وقد ذكر العلوي المجاز المفرد، وأورد منه خمسة عشر ضربًا منها من الاستعارة والباقي من علاقات المجاز المرسل.
وقد حاول الإمام عبد القاهر إبراز الفرق بين هذين الضربين من المجاز، فرأى أن ما كانت علاقته =

ذلك للإيجاز، وتصديرِ السورة الكريمةِ بذكر أوليائه تعالى وتفخيمِ شأنهم.

= المشابهة كان من الاستعارة، وما كانت علاقته غير المشابهة يطلق عليه المجاز، دون أن يطلق عليه المجاز المرسل، فهذا الإطلاق مصطلحات المتأخرين. ويقول أيضًا: إن المجاز أعم من الاستعارة، وإن الصحيح من القضية في ذلك أن كل استعارة مجاز، وليس كل مجاز استعارة، وذلك أنا نرى كلام العارفين بهذا الشأن-أعني علم الخطابة ونقد الشعر- والذين وضعوا الكتب في أقسام البديع، يجري على أن الاستعارة نقل الاسم عن أصله إلى غيره للتشبيه على المبالغة، وكأنه يشير بذلك إلى أن المجاز المرسل دون الاستعارة في البلاغة إجمالاً؛ لأنك تبني كلامك على إبراز علاقة ما بين اللفظ الذي وقع فيه المجاز وبين حقيقته.

علاقات المجاز المرسل

حاول المتأخرون تحديد هذه العلاقات، وهي في جملتها لا يمكن الاقتناع بها. فالخطيب القزويني يذكر علاقات ثمانية للمجاز المرسل، وابن الأثير ينقل عن أبي حامد الغزالي أنها أربع عشرة علاقة، ويرى ابن الأثير بعد هذا النقل أن أكثرها يدخل بعضها في بعض، ويذكر السيوطي والزركشي غير هذا، وهي عند السبكي تزيد على ثلاثين علاقة.

مولد هذا المصطلح

قال أحد العلماء: لا أعرف أحدًا ذكر هذا الاصطلاح لهذا اللون من التجوز قبل السكاكي، وإن كنت أعرف أن عبد القاهر فرق بين صوره وبين صور الاستعارة، وأطلق اللفظة غير المقيدة على ما كان التجوز فيه مبنيًّا على علاقة التقييد والإطلاق، فإطلاق المشفر على الشفة من غير نظر إلى تشبيه. أما الزمخشري فقد ذكر أنواعًا من العلاقات، وفرق أيضًا بين صوره وصور الاستعارة.

سبب تسميته بالمجاز المرسل

ذكر العلماء سبب تسمية هذا اللون بالمجاز المرسل، فقال ابن يعقوب: سمي مرسلاً لإرساله؛ أي إطلاقه عن التقييد بعلاقة المشابهة، فصح جريانه في عدة من العلاقات. وقد ذكر الغلبوي -صاحب الحاشية الجديدة على شرح عصام الفريدة- أنه سمي بذلك، لعدم تقيده بعلاقة، لأنه لما كان الإرسال في اللغة بمعنى الإطلاق، فيما هو شأنه كذلك، ناسب أن يسمى مرسلاً، وقد يقال: وجه التسمية أن الإرسال في اللغة الإطلاق، والاستعارة مقيدة بادعاء أن المشبه من جنس المشبه به، والمرسل مطلق من هذا القيد.

ينظر: شروح التلخيص (٤/ ٣١)، والمثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير (١/ ٥٧، ٦٣)، والإيضاح مع البغية (٣/ ٩٠) وما بعدها، وأسرار البلاغة (٣١٩) وما بعدها، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٢/ ٣٦) وما بعدها، والصناعتين (١٥) وما بعدها، والإشارة إلى الإيجاز إلى بعض أنواع المجاز للعز ابن عبد السلام (٢٨) وما بعدها، والتصوير البياني (٣٤٢) وما بعدها، والبيان بين عبد القاهر والسكاكي (١٤٢)، والبرهان في علوم القرآن للزركشي (٢/ ٢٩٩)، والإشارات والتنبيهات (٢٠٣) وما بعدها، والمطول (٣٥٣) وما بعدها، ومفتاح العلوم للسكاكي (٥٣) وما بعدها، والخصائص لابن جني (٢/ ٤٤٢-٤٤٦)، والإحكام للآمدي (١/ ٤٦) وما بعدها، والفوائد لابن القيم (١٠) وما بعدها، وبدائع الفوائد (٤/ ٢٠٥) وما بعدها، والطراز للعلوي (١/ ٦٩-٧٣)، وبديع القرآن لابن أبي الأصبع (١٧٨-١٧٩)، والبلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري (٤٤١)، والحاشية الجديدة على شرح عصام الفريدة (١/ ٣٥١).

وإن أريد به إرشادُه إلى تحصيل إحدى المرتبتين الأخيرتين، فإن عنى بالمتقين أصحابَ الطبقةِ الأولى تعيَّنت الحقيقة، وإن عنى بهم أصحاب إحدى الطبقتين الأخيرتين تعيَّن المجاز؛ لأن الوصولَ إليهما إنما يتحقق بهدايته المترقَّبة، وكذا الحال فيما بين المرتبةِ الثانية والثالثة، فإنه إن أريد بالهدى الإرشادُ إلى تحصيل المرتبةِ الثالثة، فإن عنى بالمتقين أصحابَ المرتبة الثانيةِ تعيَّنت الحقيقة، وإن عنى بهم أصحابَ المرتبةِ الثالثةِ تعيَّن المجاز.

ولفظُ الهدايةِ حقيقةٌ في جميع الصور، وأما إن أريد بكونه هدىً لهم تثبيتُهم على ما هم عليه أو إرشادُهم إلى الزيادة فيه على أن يكون مفهومُها داخلًا في المعنى المستعملِ فيه فهو مجازٌ لا محالة، ولفظُ المتقين حقيقةٌ على كل حال، واللامُ متعلقةٌ بهدىً أو بمحذوفٍ وقع صفةً له، أو حالًا منه، ومحلُّ (هدى) الرفعُ على أنه خبرٌ لمبتدأ محذوف، أي هو هدى، أو خبرٌ مع لا ريب فيه لذلك الكتاب، أو مبتدأٌ خبرُه الظرفُ المقدم، كما أشير إليه، أو النصبُ على الحالية من (ذلك) أو من (الكتاب)، والعامل معنى الإشارة، أو من الضمير في (فيه)، والعاملُ ما في الجار والمجرور من معنى الفعل المنفي، كأنه قيل: لم يحصُلْ فيه الريبُ حال كونه هاديًا، على أنه قيدٌ للنفي لا للمنفيّ، وحاصلُه انتفاءُ الريبِ فيه حال كونه هاديًا، وتنكيرُه للتفخيم، وحملُه على الكتاب إما للمبالغة، كأنه نفسُ الهدى، أو لجعل المصدر بمعنى الفاعل.

هذا والذي يستدعيه جزالةُ التنزيلِ في شأن ترتيب هذه الجُمل أن تكون متناسقةً تقرِّرُ اللاحقةُ منها السابقة، ولذلك لم يتخلل بينها عاطف، فـ ﴿الٓمٓ﴾ جملةٌ برأسها على أنها خبرٌ لمبتدأ مضمر، أو طائفةٌ من حروف المُعجم مستقلةٌ بنفسها دالةٌ على أن المتحدَّى به هو المؤلَّفُ من جنس ما يؤلِّفون منه كلامَهم، و﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ جملةٌ ثانيةٌ مقرِّرةٌ لجهة التحدي، لما دلَّت عليه من كونه منعوتًا بالكمال الفائق، ثم سجل على غاية فضلِه بنفي الريبِ فيه، إذ لا فضلَ أعلى مما للحق واليقين، و﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ مع ما يقدَّر له من المبتدأ جملةٌ مؤكدةٌ لكونه حقًّا لا يحوم حوله شائبةُ شكٍّ ما، ودالةٌ على تكميله بعد كمالِه، أو يستتبعُ السابقة منها اللاحقةُ استتباعَ الدليل للمدلول، فإنه لما نبَّه أولًا على إعجاز المتحدَّى به من حيث إنه من جنس كلامِهم، وقد عجَزوا عن معارضته بالمرة، ظهر أنه الكتابُ البالغُ أقصى مراتبِ الكمال، وذلك مستلزمٌ لكونه في غاية النزاهة عن مظنّة الريب، إذ لا أنقصَ مما يعتريه الشك، وما كان كذلك كان لا محالة هدىً للمتقين، وفي كلٍّ منها من النُكت الرائقةِ والمزايا الفائقةِ ما لا يخفى جلالةُ شأنه حسبما تحققته.

﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ إما موصولٌ بالمتقين، ومحلُّه الجرُّ على أنه صفةٌ مقيِّدةٌ له إن فُسّر التقوى بترك المعاصي فقط، مترتبةٌ عليه ترتّبَ التحلية على التَّخْلية، وموضِّحةٌ إن فُسِّر بما هو المتعارَفُ شرعًا والمتبادَرُ عُرفًا، من فعل الطاعات وتركِ السيئات معًا، لأنها حينئذٍ تكون تفصيلًا لما انطوى عليه اسمُ الموصوف إجمالًا، وذلك لأنها مشتملة على ما هو عمادُ الأعمال وأساسُ الحسنات، من الإيمان والصلاة والصدقة، فإنها أمهاتُ الأعمال النفسانية والعباداتِ البدنية والمالية المستتبِعة لسائر القُرَب الداعيةِ إلى التجنب عن المعاصي غالبًا، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت، الآية ٤٥] وقوله عليه السلام: «الصلاةُ عمادُ الدين، والزكاةُ قنطرةُ الإسلام»[1]، أو مادحةً للموصوفين بالتقوى المفسَّرِ بما مر

(١) أما حديث «الصلاة عماد الدين»:
أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٣٩) حديث رقم (٢٨٠٧).
وذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٣١) حديث (١٦٢١).
وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ٢٩٦).
وذكره ابن حجر في تلخيص الحبير (١/ ٣٠٨) كتاب الصلاة، باب: أوقات الصلاة، تحت رقم (٢٤٣).
والحديث له شاهد من حديث علي بن أبي طالب.
وذكره الديلمي في فردوس الأخبار (٢/ ٥٦٣)، حديث (١/ ٣٦١)، والسيوطي في الدر المنثور (١/ ٢٩٦).
وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (١/ ٤٢) حديث (١٩) إلى أبي القاسم الأصبهاني في كتابه الترغيب والترهيب.
وقال ابن حجر في تلخيص الحبير: قال النووي في التنقيح: هو منكر باطل، قلت: وليس كذلك بل رواه أبو نعيم شيخ البخاري في كتابه الصلاة عن حبيب بن سليم، عن بلال بن يحيى، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ وسأله؟ فقال: «الصلاة عمود الدين»، وهو مرسل رجاله ثقات ا هـ.
وأما حديث «الزكاة قنطرة الإسلام»:
أخرجه ابن عدي في الكامل (٤/ ١٤١٧)، والبيهقي في الشعب (٣/ ١٩٥)، حديث (٣٣١٠)، والقضاعي في مسند الشهاب (٢٧٠)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٤٩٣)، حديث (٨١٤)، كلهم من طريق الضحاك بن حمزة عن أبان عن حطان بن عبد الله الرقاشي عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ ... وذكره.
وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، قال يحيى: الضحاك ليس بشيء.
وقال النسائي: ليس بثقة.
وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٦٥)، وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجاله موثقون، إلا أن بقية مدلس وهو ثقة.
وعزاه الزيلعي إلى إسحاق بن راهويه في مسنده تخريج الكشاف (١/ ٤٢).

من فعل الطاعات وتركِ السيئات.

وتخصيصُ ما ذكر من الخِصال الثلاثِ بالذكر لإظهار شرفِها وإنافتها على سائر ما انطوى تحت اسمِ التقوى من الحسنات، أو النصبُ على المدح بتقدير أعني أو الرفعُ عليه بتقدير «هم».

وإما مفصولٌ عنه مرفوعٌ بالابتداء خبرُه الجملةُ المصدّرةُ باسم الإشارة كما سيأتي بيانُه، فالوقفُ على ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ حينئذ وقفٌ تام، لأنه وقف على مستقلٍّ، ما بعده أيضًا مستقلٌّ، وأما على الوجه الأول فحسنٌ لاستقلال الموقوف عليه، غيرُ تامٍّ؛ لتعلق ما بعده به وتبعيّته له، أما على تقدير الجر على الوصفية فظاهر، وأما على تقدير النصبِ أو الرفع على المدح فلما تقرَّر من أن المنصوبَ والمرفوعَ مدحًا وإن خرجا عن التبعية لما قبلهما صورةً حيث لم يتبعاه في الإعراب، وبذلك سُمّيا قطعًا لكنهما تابعان له حقيقة، ألا ترى كيف التزموا حذفَ الفعل والمبتدأ في النصب والرفع رَومًا لتصوير كلٍّ منهما بصورة متعلِّقٍ من متعلقات ما قبله وتنبيهًا على شدة الاتصال بينهما.

قال أبو علي: إذا ذُكرت صفاتٌ للمدح وخولف في بعضها الإعرابُ فقد خولف للافتنان، أي للتفنن الموجب لإيقاظ السامع وتحريكه إلى الجِدّ في الإصغاء، فإن تغيير الكلامِ المَسوقِ لمعنىً من المعاني وصَرْفَه عن سَننه المسلوكِ يُنبئ عن اهتمام جديد بشأنه من المتكلم، ويستجلب مزيدَ رغبةٍ فيه من المخاطب.

إن قيل: لا ريب في أن حال الموصول عند كونه خبرًا لمبتدأ محذوف كحاله عند كونه مبتدأ خبرُه

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى﴾ في أنه ينسبك به جملةً اسميةً مفيدة، لاتصاف المتقين بالصفات الفاضلة، ضرورةَ أن كلا من الضمير المحذوف والموصولِ عبارةٌ عن المتقين، وأن كلاً من اتصافهم بالإيمان وفروعِه، وإحرازهم للهدى والفلاحِ من النعوت الجليلة، فما السرُّ في أنه جُعل ذلك في الصورة الأولى من توابع المتقين، وعُدَّ الوقفُ غيرَ تام، وفي الثانية مقتطعًا عنه، وعُدَّ الوقفُ تامًّا؟

قلنا: السرُّ في ذلك أن المبتدأ في الصورتين وإن كان عبارة عن المتقين، لكن الخبرَ في الأولى لما كان تفصيلًا لما تضمنه المبتدأ إجمالًا حسبما تحققته معلومُ الثبوت له بلا اشتباه، غيرُ مفيد للسامع سوى فائدةِ التفصيلِ والتوضيح، نُظم ذلك في سلك الصفاتِ مراعاةً لجانب المعنى، وإن سمي قطعًا مراعاة لجانب اللفظ، كيف لا وقد اشتهر في الفن أن الخبر إذا كان معلومَ الانتساب إلى المُخبَر عنه فحقُّه أن يكون وصفًا له، كما أن الوصف إذا لم يكن معلومَ الانتساب إلى الموصوف حقُّه أن يكون

خبرًا له، حتى قالوا: إن الصفاتِ قبل العلم بها أخبارٌ، والأخبارُ بعد العلم بها صفات.

وأما الخبرُ في الثانية فحيث لم يكن كذلك بل كان مشتملًا على ما لا ينبئ عنه المبتدأ من المعاني اللائقة كما ستحيط به خبرًا مفيدًا للمخاطب فوائدَ رائقة، جُعل ذلك مقتطعًا عما قبله محافظةً على الصورة والمعنى جميعًا.

والإيمانُ إفعالٌ من الأمن المتعدّي إلى واحد، يقال آمنتُه، وبالنقل تعدى إلى اثنين، يقال آمَنَيه غيري، ثم استُعمل في التصديق، لأن المصَدِّقَ يؤمِنُ المُصَدَّق، أي يجعله أمينًا من التكذيب والمخالفة، واستعماله بالباء لتضمينه معنى الاعتراف، وقد يطلق على الوثوق، فإن الواثقَ يصير ذا أمنٍ وطُمأنينة.

ومنه ما حُكي عن العرب ما آمِنْتُ أن أجد صحابة، أي ما صِرْتُ ذا أمنٍ وسكون، وكلا الوجهين حسنٌ هنا وهو في الشرع لا يتحقق بدون التصديق بما عُلم، ضرورةَ أنه من دين نبينا عليه الصلاة والسلام، كالتوحيد والنبوة والبعث والجزاء ونظائرها، وهل هو كافٍ في ذلك أو لا بد من انضمام الإقرار إليه للتمكن منه؟.

والأول رأيُ الشيخ الأشعري[(١)] ومن شايعه، فإن الإقرارَ[(٢)] عنده منشأٌ لإجراء الأحكام، والثاني مذهبُ أبي حنيفة ومن تابعه وهو الحق، فإنه جعلهما جزأين له، خلا أن الإقرارَ ركنٌ محتمِلٌ للسقوط بعذر، كما عند الإكراه[(٣)]، وهو مجموعُ ثلاثةِ

---

(١) هو: علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل، الشيخ أبو الحسن الأشعري البصري، إمام المتكلمين، وناصر سنة سيد المرسلين، مولده سنة ستين ومائتين، قال الخطيب البغدادي: أبو الحسن الأشعري، المتكلم، صاحب الكتب والتصانيف في الرد على الملحدة وغيرهم من المعتزلة، والرافضة، توفي سنة أربع وعشرين وثلاثمائة، وقيل: عشرين وثلاثمائة، وقيل: ثلاثين وثلاثمائة.
ينظر: تاريخ بغداد (١١/ ٣٤٦)، وفيات الأعيان (٢/ ٤٤٦)، طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (١/ ١١٣).

(٢) الإقرار لغة: إفعال، من قر الشيء، إذا ثبت يقر، من باب ضرب وعلم وثبت وسكن، وأقره في مكانه: بعد أن كان مزلزلًا، وأقر له بحقه: أذعن واعترف، إذًا فالإقرار إثبات لما كان متزلزلًا بين الإقرار والجحود.
ينظر: الصحاح، مادة (قرر) (٢/ ٧٨٨)، لسان العرب، مادة (قرر) (٥/ ٣٥٨٢)، أنيس الفقهاء، ص (٢٤٣).
واصطلاحًا: عرفه الحنفية بأنه: إخبار بحق لآخر، لا إثبات له عليه.
ينظر: الدرر (٢/ ٣٥٧).

(٣) الإكراه لغة: حمل الإنسان على شيء يكرهه يقال: أكرهت فلانا إكراها أى حملته على أمر يكرهه مختار الصحاح ص (٢٣٩) واصطلاحا: اسم لفعل يفعله المرء بغيره فينتفي به رضاه أو يفسد به =

أمور: اعتقادُ الحق، والإقرارُ به، والعملُ بموجبه عند جمهورِ المحدثين والمعتزلة[(١)]

= اختياره من غير أن ينعدم به الأهلية فى حق المكره أو يسقط عنه الخطاب، وهو نوعان:
١- نوع يعدم الرضا ويفسد الاختيار، وذلك بأن يكون بقتل أو قطع عضو وهو الإكراه الملجئ ويسميه البعض الإكراه التام.
٢- ونوع يعدم الرضا ولا يفسد الاختيار وذلك بأن يكون بضرب ويسمى بالإكراه غير الملجئ أو إكراه الناقص.
ينظر: تكملة فتح القدير (٩/ ٢٣٤،٢٣٣)، والمبسوط (٤/ ٣٨، ٣٩)، وبدائع الصنائع (٦/ ٢٥٩)، وحاشية رد المحتار (٦/ ٤٢٠)، وضمان المتلفات فى الفقه الإسلامي، ص (٢٢٢)، ونظرية الضمان، ص (٢٦٥).

(١) سموا معتزلة لأن واصل بن عطاء إمام المعتزلة اختلف مع شيخه الحسن البصري في مسألة مرتكب الكبيرة، حيث ذهب إلى القول بالمنزلة بين المنزلتين، ولذلك قال الحسن البصري: اعتزلنا واصل ثم طرده من حلقته، فاعتزل في سارية من سواري مسجد البصرة يقرر ما ذهب إليه هو وجماعة معه، ومن ذلك الحين سموا معتزلة لاعتزالهم الحسن وقول أهل السنة في مسألة مرتكب الكبيرة، وأما مقالة قتادة بن دعامة السدوسي: «إنما هؤلاء المعتزلة» فتدل على أنه من مرتادي حلقة الحسن البصري، وأنه كان يعرف سبب انفصالهم، وإطلاقه هذا الاسم كان بعد تكون الفرقة. ومن أهم عقائد هؤلاء القدرية التي أرادوا بها إضلال هذه الأمة منها:
نفي الصفات الأزلية عن الله عز وجل وقولهم:
١- إن الله عز وجل ليس له علم، ولا قدرة، ولا حياة، ولا سمع ولا بصر، ولا صفة أزلية، وزادوا على هذا قولهم: إن الله تعالى لم يكن له في الأزل اسم، ولا صفة.
٢- قولهم باستحالة رؤية الله عز وجل بالأبصار، وزعموا أنه لا يرى نفسه، ولا يراه غيرُه، واختلفوا فيه: هل هو راءٍ لغيره أم لا؟ فأجازه قوم منهم، وأباه آخرون منهم.
٣- اتفاقهم على القول بحدوث كلام الله عز وجل، وحدوث أمره ونهيه وخبره، وكلهم يعتقدون أن كلام الله عز وجل حادث، وأكثرهم يسمون كلامه مخلوقًا.
٤- قولهم جميعًا: إن الله تعالى غيرُ خالقٍ لأكساب الناس، كما يعتقدون أن الناس هم الذين يقدرون على أكسابهم، وأنه ليس لله عز وجل في أكسابهم ولا في أعمال سائر الحيوانات صنعٌ وتقدير، ولأجل هذا القول سماهم المسلمون قدرية.
٥- اتفاقهم على دعواهم في الفاسق من أمة الإسلام في منزلة بين المنزلتين، وهي أنه فاسق، لا مؤمن ولا كافر، ولأجل هذا سماهم المسلمون معتزلة؛ لاعتزال شيخهم واصل بن عطاء مجلس الحسن البصري لأجل قوله بالمنزلة بين المنزلتين. ومن هنا جاءت التسمية.
٦- قولهم: إن كل ما لم يأمر الله تعالى به أو نهى عنه من أعمال العباد لم يشأ الله شيئًا منها.
والعلاقة بين القدرية والجبرية: القدرية والجبرية متقابلتان تقابل التضاد؛ فالجبرية تنفي الفعل حقيقة عن العبد وتضيفه إلى الله تعالى. والجبرية أنواع؛ فالجبرية الخالصة: هي التي لا تثبت للعبد فعلًا ولا قدرة على الفعل أصلًا. والجبرية المتوسطة: هي التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة أصلًا. فأما من أثبت للقدرة الحادثة أثرًا ما في الفعل، وسمى ذلك كسبًا فليس بجبري.
ينظر: مقالات الإسلاميين (١/ ١٣٠)، والفرق بين الفرق للبغدادي ص (٣٩، ٤٤، ١٣١) وما =

والخوارج[١]، فمن أخل بالاعتقاد وحده فهو منافق، ومن أخل بالإقرارِ فهو كافر،

---

= بعدها، والملل والنحل للشهرستاني ص (٥٦، ٥٩)، وعقائد الثلاث والسبعين فرقة، لأبي محمد اليمني (١/ ٣٢٥)، ومجموع الفتاوى، لابن تيمية (٧/ ٣٨٤، ٣٨٥) (٨/ ٤٥٠)، وشرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز (١/ ٥٨٩)، والمعتزلة، للمعتق (٢٢، ٢٩، ٥١).

(١) الخوارج جمع، مفرده خارجي.
والخارجي: من الخروج، أو من خرج.
والخروج: في اللغة عكس الدخول.
وخارج الشيء: عكس داخله.
هكذا في كتب اللغة.
والمادة: (خ، ر، ج) كلها تدور على هذا المعنى، وعليه:
يكون الخارجي هو الذي أشرف بنفسه وتميز بذاته، يفوق قرناءه، ويعدو نظائره، من غير أن يمت بسبب في هذا الخروج إلى سلفه.
يقال هذا: في الخارجي من الإنسان، والخارجي في الحيوان، خاصة الخيول.
ويجمع هذا الاسم (الخارجي) على خوارج.
ولقد صارت هذه الكلمة (خوارج) صفة غالبة في التاريخ على طائفة الحرورية، الذين اشتهروا بخروجهم على عامة المسلمين من غير مثال سبق.
والخارجية: طائفة منهم.
وفي التهذيب ما يفيد هذا المعنى: حيث نقل عنه «ابن منظور» قوله: (والخوارج قوم من أهل الأهواء لهم مقالة على حدة).
معنى الخوارج عند أصحاب المقالات وكتاب الفرق:
تطلق كلمة الخوارج على كل من خرج على الإمام الشرعي وأعلن عصيانه، وألب الناس عليه، وكفر المسلمين لأتفه الأسباب واستحل قتلهم، مما أوغر صدور المسلمين عليهم، فلم يملكوا أن وصفوهم بأشد الصفات، وشنعوا عليهم بما يناسب أقوالهم ومعتقداتهم، وسبوهم بأقذع السباب.
يقول الشهرستاني في الملل والنحل: «إن كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجيًّا، سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين، أو كان بعدهم على التابعين بإحسان، والأئمة في كل زمان».
ويقول الإمام الآجري: «والخوارج هم الشراة الأنجاس الأرجاس، ومن كان على مذهبهم من سائر الخوارج، يتوارثون هذا المذهب قديمًا وحديثًا، ويخرجون على الأئمة والأمراء ويستحلون قتل المسلمين...».
ويقول ابن حجر العسقلاني: «... الخوارج: فهم جمع خارجة - أي طائفة - وهم: قوم مبتدعون».
ويستفاد من أقوال أصحاب المقالات والفرق أن كلمة «الخوارج» تطلق عندهم وفي كل زمان على هذه الفرقة المبتدعة، التي خرجت على الإمام، وأعلنت العصيان ضده وكفرته، واتخذت من الأسباب التافهات ذريعة لتكفير المسلمين واستحلال دمائهم.
وهذه الكلمة وإن كانت تطلق على الخارجين على الإمام علي - كرم الله وجهه - باعتبار أنه أول أمير أو خليفة ظهرت في عصره هذه الفرقة المبتدعة، إلا أنها تعمم في كل مكان تظهر فيه فرقة من =

ومن أخل بالعمل فهو فاسق اتفاقًا وكافرٌ عند الخوارج، وخارجٌ عن الإيمان غيرُ

---

= الفرق تنطبق عليهم هذه المواصفات.

فالعبرة ليست بأول أمير ظهرت في عهده هذه البدعة، وإنما العبرة بكل جماعة تنطبق عليها هذه المواصفات.

وصدق علماء أصول الفقه والمفسرون الذين قعدوا هذه القاعدة «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب» وإن كان إطلاق الكلمة على أول طائفة ظهرت في التاريخ أولى بها وأليق.

وللخوارج ألقاب عدة، وكل لقب من هذه الألقاب يعطي معنى يضاف إلى المعنى العام، ومن أهم وأشهر هذه الألقاب التي أطلقت على هذه الطائفة ما يلي:

١- الخوارج: من أشهر الألقاب التي أطلقت على هذه الطائفة وعرفت بها لفظ الخوارج، بل كان هذا اللفظ لفظًا عامًّا ومشتركًا بينهم إذ يصبح هذا اللقب وصفًا لجميع فرقهم على اختلافها؛ وذلك لأن الخوارج كانوا كثيري التشاجر فيما بينهم، والاختلاف على أمرائهم، وذلك لأتفه الأسباب، وكان هذا هو السر في هزيمتهم والقضاء عليهم.

٢- الحرورية: وسموا بهذا الاسم نسبة إلى حروراء، وحروراء قرية من قرى الكوفة انحازوا إليها عندما انشقوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه عند رجوعه من صفين إلى الكوفة، وأظهروا العداء له، وكان بها أول اجتماع لهم بعد مخالفتهم للإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وقد أصبح القوم صاحبي الكلمة العليا في هذا البلد، وأصبحت أخلاقهم مسيطرة عليهم وعلى جميع سكانها، حتى أصبح هذا اللقب (حروري) مصدرًا لقلق المسلمين، ونبذهم لمن يحمله.

٣- المحكمة: هذا اللقب عرفت به الخوارج.

٤- الشكاكية: يقول أبو محمد اليمني - من علماء القرن السادس الهجري - وسموا بذلك لأنهم: «كرهوا الحكم والتحكيم، وقالوا: (لا حكم إلا لله) وخرجوا عن قبضته وحوزته - أي علي بن أبي طالب رضي الله عنه - وقالوا: شككت في أمرك، وحكمت عدوك في نفسك، فسموا أيضًا الشكاكية».

٥- الشراة: الشراة مفردها شارٍ من شرى يشرَى، تقول للرجل إذا تمادى في غيه وفساده: شرى يشري شرًى، واستشرى فلان في الشر إذا لج فيه، وشرى الرجل شرى واستشرى غضب ولج في الأمر.

فالشراة عند الأمة: هم الخوارج وسموا بذلك في المشهور، لأنهم غضبوا ولجوا.

أما الخوارج فيسمون أنفسهم بالشراة، لأنهم يقولون: شرينا أنفسنا في طاعة الله أي بعناها بالجنة حين فارقنا الأئمة الجائرين.

وعليه فقد قيل: سموا أنفسهم شراة، لأنهم باعوا أنفسهم لله، آخذين هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

فالشراة لقب عام لجميع الخوارج، وهو من الألقاب المحببة إليهم، وذلك لجعلهم مفهوم الشراية =

داخلٍ في الكفر عند المعتزلة.

---

= في سبيل الله، غاية يسعى إليها كل فرد من المؤمنين بدعوتهم.
والأشعري يرجع سبب تسميتهم بالشراة، قولهم: «شرينا أنفسنا في طاعة الله - أي بعناها بالجنة».
٦- المارقة: يعتبر المارقة من أبغض الألقاب إلى نفوس الخوارج، وأشدها إيلامًا لقلوبهم، لأنهم ينكرون أن يكونوا مارقين من الدين كما يمرق السهم من الرمية، وينكرون أن يكون هذا اللقب لائقًا لهم، لأنهم كما يرون أنفسهم ليسوا مارقين من الدين، بل هم المؤمنون وغيرهم - من مخالفيهم - هم الكافرون أو المشركون على خلاف بينهم.
وسموا مارقة: لأنهم قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، وقد أخبر عنهم الرسول ﷺ بالمارقة لما جاء في الصحيح أنه ﷺ قال: «... أنه يخرج من ضئضئ هذا قوم يتلون كتاب الله رطبًا لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية».
٧- أصحاب الجباه السود: سماهم بذلك مالك بن الأشتر النخعي.
٨- المخدوعين: عرفوا بهذا اللقب لانخداعهم برفع المصاحف في صفين.
٩- النهراوية: وسموا بذلك؛ لأنهم خرجوا من الكوفة، وقصدوا النهروان بعد تشاور بينهم.
١٠- النواصب: وسموا بذلك لأنهم غالوا في حبهم لأبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - وبغضهم ونصبهم العداوة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه.
١١- الراسبية: وسموا بذلك نسبة إلى عبد الله بن وهب الراسبي.
١٢- أهل الوقوف: وسموا بذلك لوقوفهم عند الشبهة بعد خلافهم مع نافع بن الأزرق، وهي تعد تسمية خاصة وليست عامة فهي لا تشمل جميع الخوارج، بل تشمل كل من خالف نافع بن الأزرق، فوقفوا عند رأيهم فيه.
والخلاصة أن هذه الطائفة قد أطلق عليها المسلمون ألقابًا عدة، على نحو ما رأينا، تختلف فيما بينها في درجات اشتهارهم بها. على أن (لقب) الخوارج هو أشهرها جميعًا.
وكتاب الفرق وأصحاب المقالات يتفقون فيما بينهم أو يكادون يتفقون على أن الخوارج إنما لقبوا بذلك لخروجهم على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولخروجهم عن الدين، أو لخروجهم على الناس.
فالإمام أبو الحسن الأشعري (ت ٣٣٠هـ) يقول: «إن السبب الذي سموا له خوراج خروجهم على عليّ بن أبي طالب».
والإمام البغدادي (ت ٤٢٩هـ) في كتابه الفرق بين الفرق يذهب إلى هذا القول فيقول: «إن الخوارج بعد رجوع عليّ من صفين إلى الكوفة، انحازوا إلى حروراء، وهم يومئذ اثنا عشر ألفًا».
والشهرستاني يذهب إلى ذلك أيضًا فيقول: «الخوارج... أول من خرج على أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه جماعة ممن كان معه في حرب صفين».
والنووي (ت ٦٧٦هـ) يؤكد هذا فيقول: «... وسموا خوارج لخروجهم على الجماعة، وقيل: لخروجهم عن طريق الجماعة، وقيل: لقوله ﷺ: يخرج من ضئضيء هذا».
والحافظ ابن حجر العسقلاني يقول في سبب تسمية الخوارج: «إنما سموا بذلك لخروجهم عن الدين، وخروجهم على خيار المسلمين».
وتوسع صاحب تاج العروس الزبيدي في سبب تسميتهم فيقول: «وسموا بذلك لخروجهم على =

وقرئ[1] (يُومنون) بغير همزة.

و﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ إما مصدرٌ وُصف به الغائبُ مبالغةً كالشهادة في قوله تعالى: ﴿عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الزمر، الآية ٤٦]، أو فعيل خُفّف كقَتْل في قتيل وهيْنٍ في هيّن، وميْتٍ في ميّت، لكن لم يُستعمل فيه الأصلُ كما استعمل في نظائره.

وأيًّا ما كان فهو ما غاب عن الحس والعقلِ غَيْبة كاملةً، بحيث لا يُدرَك بواحد منهما ابتداءً بطريق البَداهة، وهو قسمان:

قسم لا دليل عليه، وهو الذي أريد بقوله سبحانه: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ [الأنعام، الآية ٥٩].

وقسم نُصب عليه دليل كالصانع وصفاتِه، والنبواتِ وما يتعلق بها من الأحكام والشرائع، واليوم الآخر وأحوالِه من البعث والنشورِ والحسابِ والجزاء، وهو المرادُ هٰهنا، فالباءُ صلةٌ للإيمان، إما بتضمينه معنى الاعتراف، أو بجعله مجازًا من الوثوق، وهو واقعٌ موقعَ المفعول به، وإما مصدرٌ على حاله كالغَيبة، فالباءُ متعلِّقةٌ بمحذوفٍ وقع حالًا من الفاعل كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [الأنبياء، الآية ٤٩] وقوله تعالى: ﴿لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [يوسف، الآية ٥٢] أي يؤمنون ملتبسين بالغيبة، **إما** عن المؤمن به، أي غائبين عن النبي ﷺ غيرَ مشاهدين لما فيه من شواهد النبوة، لما رُوي أن أصحابَ ابنِ مسعود رضي الله عنه، ذكروا أصحابَ

---

= الناس أو عن الدين أو عن الإمام علي - كرم الله وجهه - في معركة صفين».
ينظر: لسان العرب، مادة (خ ر ج)، (٢/ ١١٢٥)، والمصباح المنير، ص (١٦٦)، ومقالات الإسلاميين للأشعري (١/ ٨٤)، والفصل لابن حزم (١/ ٣٧٠)، والفرق بين الفرق، لعبد القاهر البغدادي، ص (٩١، ٩٢)، والملل والنحل، للشهرستاني (١/ ١٣٣)، وعقائد الثلاث والسبعين فرقة لأبي محمد اليمني (١/ ١٨، ٢٠)، والخوارج للعقل (٢٨) والخوارج للمسعودي (٢٦)، والخوارج لغالب عواجي (٢٥) وغيرها، والشريعة للإمام أبي بكر محمد بن الحسين الآجري، ص (٢١، ٢٢)، وفتح الباري (١٢/ ٢٩٦)، والكامل في التاريخ، لابن الأثير (٣/ ٢٠٠، ٢٠٢)، والمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (٢/ ٣٥٤)، وتاريخ مصنف مجهول لعله للبلازري، ص (٧٨)، ونقلًا عن الخوارج في العصر الأموي نشأتهم تاريخهم عقائدهم أدبهم، د. نايف معروف، ص (١٩٤)، وشرح النووى على صحيح مسلم للإمام محيى الدين أبى زكريا يحيى بن شرف بن مري الحزامي النووي (٧/ ١٦٤)، وتاج العروس من شرح جواهر القاموس (٢/ ٣).

(١) ورويت هذه القراءات عن عاصم من طريق الشموني محمد بن حبيب، عن الأعمش، وعن أبي بكر، وكذلك رويت عن حمزة في الوقف والوصل، وهي قراءة ورش عن نافع.
ينظر: الحجة (١/ ٢١٤)، وما بعدها، وحجة القراءات ص (٨٤)، وإعراب القراءات (١/ ٥٦)، وإتحاف فضلاء البشر (١/ ٣٧٤).

رسول الله ﷺ وإيمانَهم، فقال رضي الله عنه: «إن أمرَ محمَّدٍ عليه الصَّلاة والسَّلام كان بيِّنًا لمن رآه، والذي لا إله غيرُه ما آمن مؤمنٌ أفضلَ من الإيمان بغيب، ثم تلا هذه الآية»[١]. **وإما** عن الناس، أي غائبين عن المؤمنين، لا كالمنافقين الذين إذا لقُوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا خلَوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم.

وقيل: المرادُ بالغيب القلبُ، لأنه مستور، والمعنى يؤمنون بقلوبهم لا كالذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، فالباءُ حينئذٍ للآلة، وتركُ ذكرِ المؤمَن به على التقادير الثلاثةِ إما للقصد إلى إحداث نفسِ الفعلِ كما في قولهم فلانٌ يُعطي ويمنع، أي يفعلون الإيمان، وإما للاكتفاء بما سيجيء، فإن الكتبَ الإلهية ناطقةٌ بتفاصيل ما يجب الإيمانُ به.

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إقامتُها عبارةٌ عن تعديل أركانها، وحفظِها من أن يقع في شيء من فرائضها وسننها وآدابِها زيغٌ، من إقامة العُودِ إذا قوّمه وعدّله. وقيل عن المواظبة عليها، مأخوذٌ من قامت السُّوق إذا نفَقت، وأقمتُها إذا جعلتُها نافقة، فإنها إذا حوفظ عليها كانت كالنافق الذي يُرغب فيه، وقيل عن التشمُّر لأدائها عن غير فتورٍ ولا تَوانٍ، من قولهم قام بالأمر وأقامه إذا جدَّ فيه واجتهد، وقيل عن أدائها، عبَّر عنه بالإقامة لاشتماله على القيام، كما عبَّر عنه بالقنوت الذي هو القيامُ وبالركوع والسجود والتسبيح، والأولُ هو الأظهر، لأنه أشهرُ، وإلى الحقيقة أقربُ، والصلاةُ فَعْلةٌ، من صلَّى إذا دعا، كالزكاة من زكّى، وإنما كُتبتا بالواو مراعاة للفظِ المفخّم، وإنما سُمِّيَ الفعلُ المخصوصُ بها لاشتماله على الدعاء، وقيل: أصلُ صلَّىٰ حرَّك الصَّلَوَيْنِ، وهما العظمان الناتئان في أعلى الفخِذين، لأن المصليَ يفعله في ركوعه وسجوده، واشتهارُ اللفظ في المعنى الثاني دون الأول لا يقدح في نقله عنه، وإنما سُمِّيَ الداعي مصليًا تشبيهًا له في تخشّعه بالراكع والساجد.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ والرزقُ في اللغة العطاءُ، ويطلق على الحظ المُعْطىٰ، نحو ذِبْحٍ ورِعْيٍ للمذبوح والمَرْعيِّ. وقيل: هو بالفتح مصدر، وبالكسر اسم، وفي

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٦٠) كتاب التفسير، باب: من سورة البقرة.
وأخرجه سعيد بن منصور في سننه (٢/ ٥٤٤) حديث (١٨٠) باب: تفسير سورة البقرة.
وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٣٤) حديث (٦٦)، وذكره البغوي في تفسيره معلقًا (١/ ٤٧).
والسيوطي في الدر المنثور (١/ ٢٦) وعزاه إلى سفيان بن عيينة وسعيد بن منصور وأحمد بن منيع في مسنده وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف والحاكم وابن مردويه.
وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

العُرف ما ينتفِعُ به الحيوان.

والمعتزلةُ لما أحالوا تمكينَ الله تعالى من الحرام لأنه منَعَ من الانتفاع به وأمرَ بالزجر عنه قالوا: الرزقُ لا يتناول الحرام، ألا ترى أنه تعالى أسند الرزقَ إلى ذاته إيذانًا بأنهم يُنفِقون من الحلال الصِّرْف، فإن إنفاقَ الحرام بمعزل من إيجاب المدح، وذمَّ المشركين على تحريم بعض ما رزقهم الله تعالى بقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ [يونس، الآية ٥٩] وأصحابنا جعلوا الإسنادَ المذكورَ للتعظيم والتحريضِ على الإنفاق، والذمَّ لتحريم ما لم يحرّم، واختصاصَ ما رزقناهم بالحلال للقرينة. وتمسكوا لشمول الرزق لهما بما رُوي عنه عليه السلام في حديث عَمْرو بن قرَّة[١] حين أتاه فقال: يا رَسُول الله، إنَّ الله [قد][٢] كَتَبَ عَلَيَّ الشِّقْوَةَ، فلا أرى أُرْزَقُ إلاَّ مِنْ دفِّي بِكَفِّي، فَأْذَنْ لِي فِي الغِنَاءِ، من غيرِ فَاحِشَةٍ، من أنه قال عليه السلام: «لاَ آذَنُ لَكَ وَلاَ كَرامةَ، ولا نُعْمَةَ [عَيْنٍ][٣] كَذَبْتَ أيْ عَدُوَّ الله، والله لَقَدْ رَزَقَكَ الله حَلاَلًا طَيِّبًا، فَٱخْتَرْتَ ما حَرَّمَ الله عَلَيْكَ مِنْ رِزْقِهِ مَكَانَ مَا أَحَلَّ الله لَكَ مِنْ حَلاَلِهِ»[٤].

وبأنه لو لم يكن الحرامُ رزقًا لم يكن المتغذي به طول عمره مرزوقًا، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود، الآية: ٦] والإنفاقُ والإنفادُ أخوانِ، خلا أن في الثاني معنى الإذهاب بالكلية دون الأول، والمرادُ بهذا الإنفاق الصَّرْفُ إلى سبيل الخير، فرضًا كان أو نفلًا، ومن فسَّر[ه][٥] بالزكاة ذكر أفضلَ أنواعه [و][٦] الأصلَ فيه، أو خصصه بها لاقترانه بما هو شقيقُها، والجملة معطوفة

---

(١) هو: عَمْرُو بنُ قُرَّة لقي النبي ﷺ روى عبد الرزاق عن بشر بن نمير عن مكحول عن يزيد بن عبد الله عن صفوان بن أمية قال كنت عند النبي ﷺ فجاءَ عمرو بن قرة فقال يا رسول الله إن الله كتب عليّ الشِّقوة فلا أُراني أَرزق إِلَّا مِنْ دُفِّي بكَفِّي فَأْذَنْ لي في الغِنَاءِ من غير فاحشة فقال رسول الله لا آذن لك ولا كرامة ولا نعمة عين كذبت يا عدوّ الله لقد رزقك الله حلالاً طيباً فاخترت ما حرّم الله عليك لو كنت تقدمتُ إليك لنكبت بك.

ينظر: أسد الغابة (٤/ ٢٧٩)، والإصابة (٤/ ٦٧٢).

(٢) سقط في ط. (٣) سقط في ط.

(٤) أخرجه ابن ماجه (٢/ ٨٧١) كتاب الحدود، باب: المخنثين حديث (٢٦١٣)، وفي إسناده يحيى بن العلاء وشيخه بشر بن نمير، وهما كذابان. فالحديث موضوع.

وأخرجه أيضًا المزي في «تهذيب الكمال» (٤/ ١٥٨، ١٥٩).

(٥) في ط: «فسَّر» واقتضى المعنى إضافة الضمير العائد إلى الرزق.

(٦) سقط في ط.

على ما قبلها من الصلة، وتقديمُ المفعول للاهتمام، والمحافظةِ على رؤوس الآي، وإدخال (من) التبعيضية عليه للكف عن التبذير.

هذا وقد جاز أن يراد به الإنفاقُ من جميع المعاون التي منحهم الله تعالى من النعم الظاهرة والباطنة، ويؤيده قوله عليه السلام: «إن علمًا لا يُنال به ككنز لا يُنفق منه»[١] وإليه ذهب من قال: ومما خَصَصْناهم من أنوار المعرفة يَفيضون.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ معطوفٌ على الموصول الأول، على تقدير وصلِه بما قبله، وفصلُه عنه مندرجٌ معه في زُمرة المتقين من حيث الصورةُ والمعنى معًا، أو من حيث المعنى فقط، اندراجَ خاصَّيْنِ تحت عام؛ إذ المرادُ بالأولين الذين آمنوا بعد الشركِ والغفلةِ عن جميع الشرائعِ كما يُؤذِن به التعبيرُ عن المؤمَن به بالغيب، وبالآخرين الذين آمنوا بالقرآن بعد الإيمان بالكتب المنزلةِ قبله، كعبد اللّه بن سلام[٢] وأضرابِه، أو على المتقين على أن يراد بهم الأولون خاصة، ويكون تخصيصُهم بوصف الاتقاءِ للإيذان بتنزّهِهم عن حالتهم الأولى بالكلية، لما فيها من كمال القباحة والمباينةِ للشرائعِ كلِّها، الموجبةِ للاتقاء عنها، بخلاف الآخرين، فإنهم غيرُ تاركين لما كانوا عليه بالمرة، بل متمسكون بأصول الشرائعِ التي

---

(١) أخرجه أبو خيثمة في «العلم» (١٦٢)، والطبراني في «الأوسط» (٦٩٣)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١/ ١٤٧، ١٤٨)، من طريق ابن لهيعة عن دراج عن ابن حجيرة عن أبي هريرة مرفوعًا بلفظ: «مثل الذي يتعلم العلم ثم لا يحدث به كمثل الذي يكنز الكنز ولا ينفق منه».
وقال الهيثمي في «المجمع» (١/ ١٦٤): رواه الطبراني في الأوسط، وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف.
وله شاهد من حديث ابن عمر:
أخرجه ابن عبد البر (١/ ١٤٨)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦/ ٢٠٧)، بلفظ: «علم لا يقال به ككنز لا ينفق منه».
وشاهد من حديث ابن مسعود: أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (١/ ١٨٠)، رقم (٢٦٣)، وفي إسناده إبراهيم بن مسلم الهجري، وهو ضعيف.
وشاهد عن ابن عباس موقوفًا: أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١/ ١٤٨)، بلفظ: «مثل علم لا يظهره صاحبه كمثل كنز لا ينفق منه صاحبه».
وفي إسناده موسى بن عبيدة الربذي، وهو ضعيف.

(٢) هو: عبد الله بن سَلاَم بن الحارث، الإسرائيلي اليوسفي، أبو يوسف، حليف القواقل الخزرجي: أسلم مقدم النبي ﷺ المدينة، وشهد فتح بيت المقدس مع عمر، وروى خمسة وعشرين حديثًا. اتفقوا على أنه مات سنة ثلاث وأربعين هـ بالمدينة، رضي الله عنه.
ينظر: خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٢/ ٦٤)، وتاريخ البخاري الكبير (٣/ ١٨)، وأسد الغابة (٣/ ٥٦٤).

لا تكاد تختلف باختلاف الأعصار، ويجوز أن يُجعلَ كِلا الموصولين عبارةً عن الكل مندرجًا تحت المتقين، ولا يكون توسيطُ العاطفِ بينهما لاختلاف الذوات، بل لاختلاف الصفات كما في قوله: [المتقارب]

إلى الملكِ القَرْمِ وابنِ الهُمام وليثِ الكتيبةِ في المُزدَحَمْ[١]

وقولِه: [السريع]

يا لَهفَ زيّابةَ للحارثِ الصابحِ فالغانِم فالآيبِ[٢]

للإيذان بأن كلَّ واحدٍ من الإيمان بما أشير إليه من الأمور الغائبةِ، والإيمان بما يشهد بثبوتها من الكتب السماوية نعتٌ جليلٌ على حِياله، له شأنٌ خطير مستتبعٌ لأحكام جمّة، حقيقٌ بأن يُفردَ له موصوفٌ مستقل، ولا يُجعل أحدُهما تتمةً للآخر، وقد شُفِع الأولُ بأداء الصلاة والصدقة اللتين هما من جملة الشرائع المندرجةِ تحت تلك الأمور المؤمَن بها تكملةً له، فإن كمالَ العلم بالعمل، وقُرِنَ الثاني بالإيقان بالآخرة مع كونه منطويًا تحت الأول تنبيهًا على كمال صِحتِه، وتعريضًا بما في اعتقاد أهلِ الكتابين من الخلل كما سيأتي.

هذا على تقدير تعلّقِ الباءِ بالإيمان، وقِسْ عليه الحالَ عند تعلّقِها بالمحذوف، فإن كلًّا من الإيمان الغيبيِّ المشفوعِ بما يصدّقه من العبادتين ـ مع قطع النظر عن المؤمَن به والإيمانِ بالكتب المنزلةِ الشارحة لتفاصيل الأمور التي يجب الإيمانُ بها مقرونًا بما قُرن به ـ فضيلةٌ باهرة، مستدعية لما ذكر، والله تعالى أعلم.

وقد حُمل ذلك على معنى أنهم الجامعون بين الإيمانِ بما يدركه العقلُ جملةً والإتيانِ بما يصدّقه من العبادات البدنية والمالية، وبين الإيمانِ لا طريقَ إليه غيرُ السمع. وتكريرُ الموصول للتنبيه على تغايُر القَبيلَيْن، وتباين السبيلين فلْيُتأمَّلْ، وأن يراد بالموصول الثاني بعد اندراج الكلِّ في الأول فريقٌ خاصٌّ منهم، وهم مؤمنو أهلِ الكتاب، بأن يُخَصّوا بالذكر تخصيصَ جبريلَ ومكائيلَ به إثرَ جَرَيانِ ذكر الملائكة عليهم السلام تعظيمًا لشأنهم وترغيبًا لأمثالهم وأقرانِهم في تحصيل ما لهم من الكمال.

---

(١) البيت بلا نسبة في الإنصاف (٢/ ٤٦٩)، وخزانة الأدب (١/ ٤٥١، ٥/ ١٠٧، ٦/ ٩١)، وشرح قطر الندى ص (٢٩٥).

(٢) البيت لابن زيّابة في خزانة الأدب (٥/ ١٠٧)، والدرر (٦/ ١٦)، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص (١٤٧)، وشرح شواهد المغني، ص (٤٦٥)، ومعجم الشعراء، ص (٢٠٨)، وبلا نسبة في مغني اللبيب (١/ ١٦٣)، وخزانة الأدب (١١/ ٥)، والجنى الداني، ص (٦٥).

## [معنى إنزال الكتاب]

والإنزالُ النقلُ من الأعلى إلى الأسفل، وتعلُّقه بالمعاني إنما هو بتوسّط تعلّقِه بالأعيان المستتبعة لها، فنزولُ ما عدا الصحفَ من الكتب الإلهية إلى الرسل عليهم السلام والله تعالى أعلم بأن يتلقاها الملَكُ من جنابه - عز وجل - تلقيًا روحانيًّا، أو يحفَظَها من اللوحِ المحفوظ، فينزلَ بها إلى الرسل فيُلقِيهَا عليهم - عليهم السلام - والمراد ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ هو القرآنُ بأسره، والشريعةُ عن آخرها. والتعبيرُ عن إنزاله بالماضي مع كون بعضِه مُترقَّبًا حينئذ لتغليب المحقَّقِ على المقدَّر، أو لتنزيل ما في شرَفِ الوقوعِ ـ لتحقُّقه ـ منزلةَ الواقع، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف، الآية ٣٠] مع أن الجنَّ ما كانوا سمعوا الكتابَ جميعًا ولا كان الجميعُ إذ ذاك نازلًا.

«وبما أنزل من قبلك» التوراةُ والإنجيلُ وسائرُ الكتب السالفة، وعدمُ التعرضِ لذكر من أُنزل إليه من الأنبياء عليهم السلام، لقصد الإيجازِ مع عدم تعلُّقِ الغرَض بالتفصيل حسَبَ تعلقِه به في قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ [البقرة، الآية ١٣٦] الآية. والإيمانُ بالكل جملةً فرضٌ، وبالقرآنِ تفصيلًا ـ من حيث إنا متعبَّدون بتفاصيله ـ فرضُ كفاية، فإن في وجوبه على الكل ـ عينًا ـ حَرَجًا بينًا، وإخلالًا بأمر المعاش، وبناءُ الفعلين للمفعول للإيذان بتعيُّن الفاعل، والجَرْي على سَنن الكِبرياء، وقد قُرئا[1] على البناء للفاعل.

﴿وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ الإيقانُ: إتقانُ العلم بالشيء بنفي الشكِّ والشبهةِ عنه، ولذلك لا يُسمَّى علمُه تعالى يقينًا، أي يعلمون علمًا قطعيًّا مُزيحًا لما كان أهلُ الكتاب عليه من الشكوك والأوهام التي من جملتها زعمُهم أن الجنة لا يدخُلها إلا من كان هودًا أو نصارى، وأن النارَ لن تمسَّهم إلا أيامًا معدوداتٍ، واختلافُهم في أن نعيمَ الجنة هل هو من قبيل نعيم الدنيا أو لا؟ وهل هو دائم أو لا؟ وفي تقديم الصلة وبناءِ ﴿يُوقِنُونَ﴾ على الضمير تعريضٌ بمن عداهم من أهل الكتاب، فإن اعتقادَهم في أمور الآخرة بمعزل من الصحة فضلًا عن الوصول إلى مرتبة اليقين.

والآخرةُ تأنيثُ الآخِر، كما أن الدنيا تأنيثُ الأدنى، غَلَبتا على الدارين فجرَتا مَجرىٰ الأسماء، وقرئ[2] بحذف الهمزة وإلقاءِ حركتها على اللام، وقرئ يؤقنون

---

(١) وهي قراءة النخعي، وأبي حيوة ويزيد.
ينظر: البحر المحيط (١/ ١٦٦)، والمحرر الوجيز (١/ ٨٦)، واللباب (١/ ٣٠٠).

(٢) وهي قراءة أبي حية النمري.

=

بقلب الواو همزة، إجراءً لضم ما قبلها مُجرىٰ ضمِّها في «وجوه» «ووقتت»، ونظيره ما في قوله: [الوافر]

لحب المؤقدان إلى مؤسى وجعدة إذ أضاءهما الوقود[1]

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى الذين حُكيت خِصالُهم الحميدةُ من حيث اتصافُهم بها، وفيه دلالةٌ على أنهم متميِّزون بذلك أكمل تميُّز، منتظمون بسببه في سِلك الأمور المشاهدة، وما فيه من معنى البُعد للإشعار بعلوِّ درجتِهم وبُعدِ منزلتهم في الفضل، وهو مبتدأ، وقوله عز وعلا: ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾ خبرُه، وما فيه من الإبهام المفهومِ من التنكير لكمال تفخيمِه، كأنه قيل: على أيِّ هدىً لا يُبلَغ كُنهُه، ولا يُقادَرُ قدرُه. وإيرادُ كلمةِ الاستعلاء بناءً على تمثيل حالهم في ملابستهم بالهدى بحال من يَعْتلي[2] الشيء ويستولي عليه يتصرف فيه كيفما يريد، أو على استعارتها لتمسكهم

---

= ينظر: الشواذ، ص (١٠)، والبحر المحيط (١/ ١٧٦)، واللباب (١/ ٣٠١).

(١) البيت لجرير في ديوانه ص (٢٨٨)، والأشباه والنظائر (٢/ ١٢، ٨/ ٧٤)، والخصائص (٢/ ١٧٥، ٣/ ١٤٦، ١٤٩، ٣١٩)، وشرح شواهد الشافية ص (٤٢٩)، وشرح شواهد المغني (٢/ ٩٦٢)، والمحتسب (١/ ٤٧)، وبلا نسبة في سر صناعة الإعراب (١/ ٧٩)، وشرح شافية ابن الحاجب ص (٢٠٦)، ومغني اللبيب (٢/ ٦٨٤)، والمقرب (٢/ ١٦٣)، والممتع في التصريف (١/ ٩١، ٣٤٢، ٢/ ٥٦٥).

(٢) يشير الشيخ أبو السعود إلى أن في الآية استعارة في الحرف. وللبلاغيين طرائق في إجرائها.

رأي الخطيب:

يعد الخطيب القزويني الاستعارة في الحروف استعارة تبعية تصريحية، فهي تابعة عنده للتشبيه في متعلقاتها من مجروراتها ونحوها، وتعلقها بها بمعنى ارتباطها، وليس هذا هو التعلق النحوي المعروف، فيقال مثلاً في قولنا: زيد في نعمة ورفاهية، شبهت النعمة على زيد بدار مشتملة عليه، ثم استعمل في النعمة لفظ (في) كما يستعمل في الدار ونحوها.

رأي الجمهور:

الجمهور على أن متعلقات الحروف هي معانيها الكلية، فيجري التشبيه فيها أولاً، ثم تبنى عليه الاستعارة فيها. وعلى هذا يقال في قولنا: زيد في نعمة: شبهت ملابسة النعمة لصاحبها بملابسة الظرف للمظروف، ثم استعير للمشبه اللفظ الموضوع للمشبه به، وهو (في). وبعض الجمهور لا يكتفي بإجراء التشبيه في متعلقات الحروف، بل يوجب إجراءه في جزئياتها بعدها، وبهذا يجعل الاستعارة في جزئياتها دونها.

ويرى العلامة ابن يعقوب المغربي أن الاستعارة في الحرف مكنية، وذلك مبني على تشبيه مدخول الحرف بما حقه أن يدخل عليها تشبيهًا مضمرًا في النفس، ثم تستعير المشبه به للمشبه ثم تحذف المشبه به، وترمز إليه بشيء من لوازمه، وهو الحرف. فيقول مثلاً في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾: شبه العداوة والحزن بالمحبة والتبني، ثم استعيرت المحبة والتبني للعداوة والحزن، ثم حذف التبني والمحبة، ورمز إليهما بشيء من لوازمهما، وهو لام =

بالهدى استعارةً تبعية، متفرّعةً على تشبيهه باعتلاء الراكبِ واستوائِه على مركوبه، أو على جعلها قرينةً للاستعارة بالكناية بين الهدى والمركوبِ للإيذان بقوةِ تمكّنِهم منه وكمالِ رسوخهم فيه.

وقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ متعلقٌ بمحذوفٍ وقع صفةً له مبينةً لفخامته الإضافية إثرَ بيانِ فخامته الذاتية، مؤكدةً لها، أي على هدىً كائنٍ من عنده تعالى، وهو شاملٌ لجميع أنواع هدايتِه تعالى، وفنونِ توفيقِه، والتعرّضُ لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم لغاية تفخيم الموصوفِ والمضافِ إليهم وتشريفِهما، ولزيادة تحقيقِ مضمونِ الجملة، وتقريرِه ببيانِ ما يوجبُه ويقتضيه؛ وقد أُدغمت النونُ في الراء بغُنّةٍ أو بغير غنّة، والجملةُ على تقدير كونِ الموصولَين موصولَين بالمتقين، مستقلةٌ لا محل لها من الإعراب، مقرِّرةٌ لمضمون قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ مع زيادة تأكيدٍ له وتحقيق.

كيف لا وكونُ الكتاب هدىً لهم فنٌّ من فنون ما مُنِحوه واستقروا عليه من الهدى، حسبما تحققْتَه، لا سيما مع ملاحظة ما يستتبعه من الفوز والفلاح، وقيل: هي واقعةٌ موقعَ الجواب عن سؤالٍ ربما ينشأ مما سبق، كأنه قيل: ما للمنعوتين بما ذُكر من النعوت اختُصّوا بهداية ذلك الكتابِ العظيم الشأن؟

وهل هم أحقاءُ بتلك الأثَرَة؟ فأجيب بأنهم بسبب اتصافِهم بذلك مالِكُونَ لزِمام أصلِ الهدى الجامعِ لفنونه، المستتبع للفوز والفلاح، فأيُّ ريبٍ في استحقاقهم لما هو فَرعٌ من فروعه؟

ولقد جار عن سَنن الصواب من قال في تقرير الجواب: بأن أولئك الموصوفين غيرُ مستبعَدٍ أن يفوزوا دون الناسِ بالهدى عاجلًا، وبالفلاح آجلًا.

وأما على تقدير كونِهما مفصولَين عنه فهي في محل الرفع على أنها خبرٌ للمبتدأ

---

= التعليل، وإثبات هذا اللازم تخييل، وهو قرينة المكنية، وقد رأى بعض أهل العلم أن هذا الرأي أيسر الآراء وأبعدها عن التكلف.

ينظر: الإيضاح مع البغية (٣/ ١٣٦) وما بعدها، وشروح التلخيص (٤/ ١٢٠) وما بعدها، والبيان بين عبد القاهر والسكاكي (١٧٢) وما بعدها.

وواضح أن الشيخ أبا السعود قد أجرى الاستعارة على هذه الطرق الثلاثة؛ فالإجراء الأول على رأي الخطيب، والإجراء الثاني على رأي الجمهور، والإجراء الثالث على رأي العلامة ابن يعقوب. وربما يدل ترتيب هذه الآراء من الشيخ على إيثاره رأي الخطيب. وهو بعيد؛ لأن الشيخ قد دل في كل إجراء على ما يفيده من البلاغة، فالظاهر أن الطرق الثلاثة في الإجراء عنده تتعانق في إبراز الفائدة البلاغية.

الذي هو الموصولُ الأول، والثاني معطوفٌ عليه، وهذه الجملةُ استئنافٌ وقع جوابًا عن سؤال ينساق إليه الذهنُ من تخصيص ما ذُكر بالمتقين قبل بيانِ مبادئ استحقاقِهم لذلك، كأنه قيل: ما بالُ المتقين مخصوصين به؟ فأجيب بشرح ما انطوى عليه اسمُهم إجمالًا من نعوت الكمال، وبيان ما يستدعيه من النتيجة، أي الذين هذه شؤونُهم أحقّاءُ بما هو أعظمُ من ذلك، كقولك: أُحِبّ الأنصارَ الذين قارعوا دون رسولِ الله ﷺ، وبذلوا مُهجتَهم في سبيل الله، أولئك سوادُ عيني، وسُوَيْدَاءُ قلبي.

واعلم أن هذا المسلكَ يُسلك تارةً بإعادة اسم مَن استُؤنِفَ عنه الحديثُ، كقولك: أحسنتُ إلى زيدٍ، زيدٌ حقيقٌ بالإحسان، وأخرى بإعادةِ صفتِه، كقولك: أحسنتُ إلى زيدٍ صديقِك القديمِ، أهلٌ لذلك، ولا ريب في أن هذا أبلغُ من الأول، لما فيه من بيان الموجِبِ للحكم، وإيرادُ اسم الإشارةِ بمنزلة إعادة الموصوفِ بصفاته المذكورة، مع ما فيه من الإشعار بكمال تميُّزه بها، وانتظامِه بسبب ذلك في سلك الأمورِ المشاهدة، والإيماءِ إلى بُعد منزلتِه كما مر.

هذا وقد جُوِّز أن يكون الموصولُ الأول مُجرًى على المتقين حسبما فُصّل، والثاني مبتدأ، وأولئك إلخ خبرُه، ويُجعل اختصاصُهم بالهدى والفلاح تعريضًا بغير المؤمنين من أهلِ الكتاب حيث كانوا يزعُمون أنهم على الهدى، ويطمعون في نيل الفلاح.

﴿وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ تكريرُ اسم الإشارة لإظهار مزيدِ العنايةِ بشأن المشارِ إليهم، وللتنبيه على أن اتصافَهم بتلك الصفات يقتضي نيلَ كلٍّ واحدة من تينك الأثَرتين، وأن كلًّا منهما كافٍ في تميّزهم بها عمن عداهم، ويؤيده توسيطُ العاطف بين الجملتين، بخلاف ما في قوله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف، الآية ١٧٩] فإن التسجيلَ عليهم بكمال الغفلة عبارةٌ عما يفيده تشبيهُهُم بالبهائم، فتكون الجملةُ الثانية مقررةً للأولى، وأما الإفلاحُ الذي هو عبارةٌ عن الفوز بالمطلوب فلمّا كان مغايرًا للهدىٰ - نتيجةً له - وكان كلٌّ منهما في نفسه أعزَّ مرامٍ يتنافس فيه المتنافسون فُعل ما فُعل.

و(هم) ضميرُ فصلٍ يفصِل الخبرَ عن الصفة ويؤكِّد النسبة، ويفيد اختصاصَ المُسند بالمسند إليه، أو مبتدأ خبرُه المفلحون، والجملةُ خبرٌ لأولئك، وتعريفُ المفلحين للدلالة على أن المتقين هم الناسُ الذين بلغك أنهم المفلحون في الآخرة، أو إشارةً إلى ما يعرِفه كلُّ أحد من حقيقة المفلحين وخصائصِهم.

هذا، وفي بيان اختصاصِ المتقين بنيل هذه المراتبِ الفائقةِ على فنونٍ من الاعتبارات الرائقة اللائقة حسبما أشير إليه في تضاعيف تفسير الآية الكريمة من

الترغيب في اقتفاءِ أثرِهم والإرشاد إلى اقتداءِ سيرِهم ما لا يخفى مكانُه، والله وليُّ الهداية والتوفيق.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٧﴾

## [من أحوال الكفار]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ كلامٌ مستأنف سيق لشرح أحوالِ الكَفَرة الغواة المَرَدة العُتاة، إثرَ بيانِ أحوالِ أضدادِهم المتصفين بنعوت الكمال الفائزين بمباغيهم في الحال والمآل، وإنما تُرك العاطفُ بينهما ولم يُسلك به مسلكَ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾ [الانفطار، الآية ١٣ و١٤] لِمَا بينهما من التنافي في الأسلوب، والتبايُن في الغرض، فإن الأولى مَسوقةٌ لبيان رفعةِ شأنِ الكتاب في باب الهداية والإرشاد، وأما التعرضُ لأحوال المهتدين به فإنما هو بطريق الاستطراد، سواءٌ جُعل الموصولُ موصولًا بما قبله، أو مفصولًا عنه، فإن الاستئنافَ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ من الكلام المتقدم، فهو من مستتبِعاته لا محالة. وأما الثانيةُ فمسوقةٌ لبيان أحوالِ الكفرة أصالةً، وترامي أمرِهم في الغَواية والضلالِ إلى حيث لا يُجديهم الإنذارُ والتبشير، ولا يؤثّر فيهم العِظةُ والتذكير، فهم ناكبون في تيهِ الغيِّ والفساد عن منهاج العقول، وراكبون في مسلك المكابرة والعِناد متنَ كلِّ صَعْبٍ وذَلول، وإنما أوثرتْ هذه الطريقةُ ولم يؤسَّس الكلامُ على بيان أن الكتابَ هادٍ للأولين وغيرُ مُجدٍ للآخَرين لأن العنوانَ الأخيرَ ليس مما يورثُه كمالًا حتى يُتعرَّضَ له في أثناء تعدادِ كمالاتِه.

و(إن) من الحروف التي تشابه الفعلَ في عدد الحروف والبناءِ على الفتح ولزومِ الأسماءِ ودخولِ نون الوقاية عليها، كـ «إنني» و«لعلني» ونظائرهما، وإعطاءِ معانيه، والتعدي خاصةً في الدخول على اسمين، ولذلك أُعملت عملَه الفرْعيَّ، وهو نصبُ الأول ورفعُ الثاني إيذانًا بكونه فرعًا في العمل دخيلًا فيه، وعند الكوفيين لا عملَ لها في الخبر، بل هو باقٍ على حاله بقضية الاستصحاب. وأجيب بأن ارتفاعَ الخبر مشروطٌ بالتجرد عن العوامل، وإلا لما انتصب خبرُ كان وقد زال بدخولها، فتعين إعمالُ الحرف، وأثرُها تأكيدُ النسبة وتحقيقُها، ولذلك يُتلقىٰ بها القسمُ، وتُصدَّر بها الأجوبة، ويؤتىٰ بها في مواقع الشك والإنكارِ لدفعه وردِّه.

قال المبّرِد[1]: قولُك: عبدُ اللّه قائمٌ إخبارٌ عن قيامه، وإن عبدَ اللّه قائمٌ جوابُ

---

(١) هو: محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي البصري، أبو العباس المبرد، إمام العربية ببغداد في زمانه، =

سائلٍ عن قيامه شاك فيه، وإن عبدَ اللَّه لقائمٌ جوابُ منكرٍ لقيامه.

وتعريف الموصول إما للعهد والمرادُ به ناسٌ بأعيانهم كأبي لهبٍ وأبي جهلٍ[١] والوليدِ بن المغيرة[٢] وأضرابِهم وأحبارِ اليهود، أو للجنس، وقد خُص منه غيرُ المُصرِّين بما أسند إليه من قول تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ إلخ، والكُفْرُ في اللغة سترُ النعمة، وأصلُه الكَفْرُ بالفتح أي الستر. ومنه قيل للزارع والليلِ كافرٌ، قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد، الآية: ٢٠] وعليه قول لبيد[٣]: [الكامل]

يعلو طريقةَ متنها متواترٌ    في ليلةٍ كَفَر النجومَ غمامُها[٤]

ومنه المتكفِّرُ بسلاحه وهو الشاكي الذي غطّىٰ السلاحُ بدنه، وفي الشريعة إنكارُ ما عُلم بالضرورة مجيءُ الرسولِ عليه الصلاة والسلام به، وإنما عُدَّ لبسُ الغيار وشد الزنار بغير اضطرار ونظائرُهما كفرًا لدلالته على التكذيب، فإن مَنْ صدق النبي عليه السلام لا يكاد يجترئ على أمثال ذلك، إذ لا داعيَ إليه كالزنى وشربِ الخمر.

---

= ولد سنة عشر ومائتين، وكان فصيحًا بليغًا مفوهًا، ثقة أخباريًّا علامة، صاحب نوادر وظرافة، وكان جميلاً لا سيما في صباه. وله من التصانيف: معاني القرآن، الكامل، المقتضب، الروضة، المقصور والممدود، الاشتقاق، القوافي، إعراب القرآن وغير ذلك. مات سنة خمس وثمانين ومائتين بـ «بغداد» ودفن بمقابر «الكوفة».
ينظر: بغية الوعاة (١/ ٢٦٩، ٢٧١)، ووفيات الأعيان (١/ ٤٩٥)، وتاريخ بغداد (٣/ ٣٨٠)، وطبقات النحويين (١٠٨).

(١) هو: عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي، أشد الناس عداوة للنبيِّ ﷺ في صدر الإسلام، وأحد سادات قريش وأبطالها ودهاتها في الجاهلية. أدرك الإسلام، وكان يقال له: «أبو الحكم» فدعاه المسلمون «أبا جهل»، واستمر على عناده، يثير الناس على رسول الله ﷺ وأصحابه، لا يفتر عن الكيد لهم والعمل على إيذائهم، حتى كانت وقعة بدر الكبرى، فشهدها مع المشركين فكان من قتلاها سنة اثنتين للهجرة.
ينظر: الكامل لابن الأثير (١/ ٢٣)، وعيون الأخبار (١/ ٢٣٠)، وإمتاع الأسماع (١/ ١٨).

(٢) هو: الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، أبو عبد شمس، من قضاة العرب في الجاهلية ومن زعماء قريش ومن زنادقتها. مات بعد الهجرة بثلاثة أشهر، ودفن بالحجون، وهو والد سيف الله خالد بن الوليد.
ينظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير (٢/ ٢٦)، والأعلام للزركلي (٨/ ١٢٢).

(٣) هو: لبيد بن ربيعة بن مالك، أبو عُقيل العامري، أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية من أهل عالية نجد، أدرك الإسلام، ووفد على النبي ﷺ، ويُعد من أصحاب النبي ﷺ ومن المؤلفة قلوبهم، وهو أحد أصحاب المعلقات، توفي سنة إحدى وأربعين هجرية.
ينظر: المحبر (١/ ٧٨)، والمعارف (٣٣٢)، والإصابة في تمييز الصحابة (٥/ ٥٠٠).

(٤) البيت للبيد في ديوانه، ص (٣٠٩)، وجمهرة اللغة، ص (٧٨٧)، وكتاب الجيم (٣/ ١٦٨)، وبلا نسبة في المخصص (١٢/ ٢٣٨).

واحتجت المعتزلة على حدوث القرآن بما جاء فيه بلفظ الماضي على وجه الإخبار، فإنه يستدعي سابقةَ المُخبَرِ عنه لا محالة، وأُجيب بأنه من مقتضيات التعلقِ وحدوثِه لا يستدعي حدوثَ الكلام، كما أن حدوثَ تعلّقِ العلم بالمعلوم لا يستدعي حدوثَ العلم.

﴿سَوَآءٌ﴾ هو اسمٌ بمعنى الاستواء، نُعت به كما يُنعت بالمصادر مبالغةً، قال تعالى: ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران، الآية ٦٤] وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق به، ومعناه عندهم، وارتفاعُه على أنه خبر، لأن قوله تعالى: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ مرتفعٌ به على الفاعلية؛ لأن الهمزةَ وأَمْ مجردتان عن معنى الاستفهام، لتحقيق الاستواء بين مدخوليهما، كما جُرِّد الأمر والنهي لذلك عن معنييهما في قوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [التوبة، الآية ٨٠] وحرفُ النداء في قولك: اللهم اغفرْ لنا أيتها العِصابة عن معنى الطلب لمجرد التخصيص، كأنه قيل: إن الذين كفروا مستوٍ عليهم إنذارُك وعدمُه. كقولك: إن زيدًا مختصمٌ أخوه وابنُ عمه، أو مبتدأ، و﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾ خبرٌ قُدم عليه اعتناء بشأنه، والجملة خبرٌ لإن، والفعل إنما يمتنعُ الإخبار عنه عند بقائه على حقيقته.

وأما لو أريد به اللفظُ أو مطلقُ الحدث المدلولِ عليه ضمنًا على طريقة الاتساع فهو كالاسم في الإضافة والإسناد إليه، كما في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة، الآية ١١٩] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ﴾ [البقرة، الآية ١١] وفي قولهم: (تَسْمَع بالمُعَيْدِيِّ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرَاهُ)[1]، كأنه قيل: إنذارُك وعدمه سيان عليهم، والعدول إلى الفعل لما فيه من إيهام التجدُّد، والتوصّلُ إلى إدخال الهمزة ومُعادلِها عليه لإفادة تقرير معنى الاستواء وتأكيده، كما أشير إليه؛ وقيل:

---

(١) ويروى لأن تسمع بالمعيدي خير ، و أن تسمع، ويروى تسمع بالمعيدي لا أن تراه، والمختار أن تسمع ، يضرب لمن خبره خير من مرآه، ودخل الباء على تقدير تحدث به خير.
قال المفضل: أول من قال ذلك المنذر بن ماء السماء.
قال في الزاهر: المعيدي تصغير المعدي وهو منسوب إلى معدّ و الدال مخففة مكسورة وقوم يثقلون الدال فيقولون بالمُعَيدِّيّ
فمن خفّف الدال حذف الدال الأولى من معدّ تخفيفاً واختصاراً ومَنْ شدّدها أخرج الحرف على أصله.
وهذا يضرب مثلاً عند الرجل يبلغك عنه أمر جميل فإذا رأيته اقتحمته عينك
ينظر: مجمع الأمثال (١/ ١٢٩)، وفصل المقال (١/ ١٣٦)، والزاهر في معرفة كلمات الناس (٢/ ٢٣٥).

(**سواء**) مبتدأ وما بعده خبره وليس بذاك؛ لأن مقتضىٰ المقام بيانُ كونِ الإنذار وعدمِه سواءً، لا بيان كون المستوي الإنذارَ وعدمَه، والإنذارُ إعلامُ المَخوفِ للاحتراز عنه، إفعال من نذر بالشيء إذا علِمه فحذِره، والمراد هٰهنا التخويف من عذاب الله وعقابه على المعاصي، والاقتصارُ عليه لما أنهم ليسوا بأهلٍ للبشارة أصلًا، ولأن الإنذار أوقعُ في القلوب، وأشدُّ تأثيرًا في النفوس، فإن دفع المضارِّ أهم من جلب المنافع، فحيث لم يتأثروا به فلألا يرفعوا للبشارة رأسًا أولى، وقرئ[1] بتوسيط ألفٍ بين الهمزتين مع تحقيقهما، وبتوسيطها والثانية بَيْنَ بين، وبتخفيف الثانية بين بين بلا توسيط، وبحذف حرف الاستفهام، وبحذفه وإلقاء حركته على الساكن قبله، كما قرئ قدَ افلح، وقرئ[2] بقلب الثانية ألفًا، وقد نسب ذلك إلى اللحن.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ جملةٌ مستقلةٌ مؤكدة لما قبلها، مبينة لما فيه من إجمال ما فيه الاستواء، فلا محلَّ لها من الإعراب، أو حال مؤكدةٌ له، أو بدل منه أو خبرٌ لأن، وما قبلها اعتراضٌ بما هو عِلة للحكم، أو خبرٌ ثانٍ على رأي من يجوِّزه عند كونه جملة، والآية الكريمة مما استدل به على جواز التكليف بما لا يطاق، فإنه تعالى قد أخبر عنهم بأنهم لا يؤمنون، فظهر استحالةُ إيمانهم لاستلزامه المستحيلَ الذي هو عدمُ مطابقةِ إخباره تعالى للواقع مع كونهم مأمورين بالإيمان، باقين على التكليف، ولأن من جملة ما كُلفوه الإيمانَ بعدم إيمانهم المستمر، والحق أن التكليفَ بالممتنع لذاته وإن جاز عقلًا من حيث إن الأحكامَ لا تستدعي أغراضًا لا سيما الامتثالُ، لكنه غيرُ واقع للاستقراء، والإخبارُ بوقوعِ الشيء أو بعدمه لا ينفي القُدرة عليه، كإخباره تعالى عما يفعله هو، أو العبدُ باختياره، وليس ما كلفوه الإيمانَ بتفاصيل ما نطق به القرآن حتى يلزم أن يُكلفوا الإيمان بعدم إيمانهم المستمر، بل هو الإيمانُ بجميع ما جاء به النبي عليه السلام إجمالًا، على أن كون الموصولِ عبارةً عنهم ليس معلومًا لهم.

وفائدةُ الإنذار بعد العلم بأنه لا يفيد إلزامَ الحجةِ وإحرازَ الرسول ﷺ فضل الإبلاغ، ولذلك قيل: سواء عليهم، ولم يقل: عليك، كما قيل لعبَدة الأصنام ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ [الأعراف، الآية ١٩٣] وفي الآية الكريمة إخبارٌ بالغيب على ما هو به إن أريد بالموصول أشخاص بأعيانهم فهي من المعجزات الباهرة.

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ استئنافٌ تعليلي لما سبق الحكم، وبيانٌ لما يقتضيه، أو بيان وتأكيد له، والمرادُ بالقلب محلُّ القوة العاقلة من الفؤاد، والختم على الشيء

---

(١) ينظر: حجة القراءات (٨٦)، والبحر المحيط (١/ ١٧٥)، والإتحاف (١/ ٣٧٦).

(٢) ينظر: البحر المحيط (١/ ١٧٥)، والإتحاف (١/ ٣٧٦)، واللباب (١/ ٣١٤).

الاستيثاقُ منه بضرب الخاتم عليه صيانةً له، أو لما فيه من التعرض له كما في البيت الفارغ والكيس المملوء، والأولُ هو الأنسب بالمقام، إذ ليس المراد به صيانةَ ما في قلوبهم، بل إحداثَ حالةٍ تجعلها بسبب تماديهم في الغي وانهماكِهم في التقليد، وإعراضِهم عن منهاج النظر الصحيح، بحيث لا يؤثر فيها الإنذار، ولا ينفُذُ فيها الحقُّ أصلًا، إما على طريقة الاستعارة التبعية، بأن يُشبّه ذلك بضرب الخاتم على نحو أبوابِ المنازل الخالية المبنية للسُكنى تشبيهَ معقولٍ بمحسوس بجامعٍ عقلي هو الاشتمالُ على منع القابل عما من شأنه وحقه أن يقبَلَه، ويستعار له الختمُ ثم يشتق منه صيغةُ الماضي، وإما على طريقة التمثيل بأن يُشبه الهيئةُ المنتزعةُ من قلوبهم وقد فُعل بها ما فعل من إحداث تلك الحالة المانعة من أن يصل إليها ما خلقت هي لأجله من الأمور الدينية النافعة، وحيل بينها وبينه بالمرة بهيئةٍ منتزعةٍ من محالٍّ مُعدةٍ لحلول ما يَحُلُّها حُلولًا مستتبعًا لمصالحَ مُهمة وقد مَنَع من ذلك بالختم عليها وحيل بينها وبين ما أعدت لأجله بالكلية، ثم يُستعار لها ما يدل على الهيئة المشبَّهِ بها فيكون كلٌّ من طرفي التشبيه مركبًا من أمور عدةٍ قد اقتُصر من جانب المشبَّهِ به على ما عليه يدور الأمرُ في تصوير تلك الهيئةِ وانتزاعِها وهو الختم، والباقي منويٌّ مرادٌ قصدًا بألفاظٍ متخيَّلة بها يتحقق التركيب، وتلك الألفاظُ وإن كان لها مدخَلٌ في تحقيق وجهِ الشبه الذي هو أمرٌ عقلي منتزَع منها وهو امتناعُ الانتفاعِ بما أُعِدَّ له بسبب مانعٍ قوي، ليس في شيء منها على الانفراد تجوز باعتبار هذا المَجاز، بل هي باقية على حالها من كونها حقيقةً أو مجازًا أو كنايةً، وإنما التجوُّزُ في المجموع، وحيث كان معنى المجموعِ مجموعَ معاني تلك الألفاظ التي ليس فيها التجوزُ المعهود، ولم تكن الهيئةُ المنتزعةُ منها مدلولًا وضعيا لها ليكون ما دلَّ على الهيئة المشبه بها عند استعمالِه في الهيئة المشبهة مستعملًا في غير ما وضع له، فيندرجَ تحت الاستعارةِ التي هي قسمٌ من المجاز اللغوي، الذي هو عبارةٌ عن الكلمة المستعملة في غير ما وضع له، ذهب قدماء المحققين كالشيخ عبدِ القاهر وأضرابِه إلى جعل التمثيلِ قسمًا برأسه، ومن رام تقليلَ الأقسام عَدَّ تلك الهيئةَ المشبَّهَ بها من قبيل المدلولات الوضعية، وجعل الكلامَ المفيد لها عند استعمالِه فيما يُشبَّه بها من هيئة أخرى منتزعةٍ من أمور أُخَرَ من قبيل الاستعارة، وسماه استعارة تمثيلية[1]، وإسنادُ إحداث تلك الحالة في قلوبهم إلى الله

---

(١) الملحوظ أن الشيخ أبا السعود قد أجرى الاستعارة في الآية على طريقتين: طريقة الاستعارة التبعية، وطريقة الاستعارة التمثيلية، وهي استعارة هيئة لهيئة. ثم ذكر وجهة نظر الشيخ عبد القاهر الجرجاني في المسألة، فوجب تفصيل القول.

=

تعالى لاستناد جميعِ الحوادث عندنا من حيث الخلق إليه سبحانه وتعالى، وورود

---

= أولاً: الاستعارة التبعية:
وهو تقسيم للاستعارة بحسب اللفظ المستعار، ويقابل هذا القسم الاستعارة الأصلية، وهو ما كان اللفظ المستعار فيها اسم جنس أو اسم معنى أو اسم عين. أما اللفظ المستعار في التبعية فقد يكون فعلاً ماضيًا أو مضارعًا أو أمرًا، وقد يكون لفظًا مشتقًّا كاسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة وأفعل التفضيل وأسماء الآلات وأسماء الزمان وأسماء المكان، وقد يكون حرفًا، فإذا كان اللفظ في المستعار واحدًا من هذه الأنواع الثلاثة كانت الاستعارة تصريحية تبعية.
والسر في تبعية الاستعارة في الأفعال والمشتقات أن الاستعارة أساسها التشبيه، والتشبيه يقتضي أن المشبه موصوف بوجه الشبه؛ لأن الوجه وصف جامع بين الطرفين.
والذي يصلح لأن يكون موصوفًا هو الحقائق التي لها تحقق وثبوت في الخارج كالأسد والبحر، أو لها ثبوت وتحقق في الفعل كالعلم والذكاء والكرم، أما الأفعال والمشتقات فلا ثبوت لها لا خارجًا ولا عقلاً لأنها متجددة متغيرة؛ لدخل الزمن المتغير في مفهومها، فلا تصلح لأن تكون موصوفًا، وبالتالي لا تصلح للتشبيه، فلا بد أن يجري التشبيه أولاً في المعنى الثابت القابل للوصفية، وهو المصدر، ثم يستعار المصدر المشبه به للمصدر المشبه الذي يشاركه في وجه الشبه، ويشتق منه الفعل بعد أن يحمل المعنى الجديد لمصدره الذي انتقل إليه بالاستعارة، فيكون الفعل حينئذٍ تابعًا لمصدره في هذا المعنى. فالأفعال والمشتقات لا تنفك معانيها عن معاني أصولها وهي المصادر، فإذا تغير معنى الأصل بالاستعارة، تغير تبعًا لذلك معنى الفرع المشتق منه، فتكون الاستعارة منه تبعية. فإذا قلت مثلاً: نام عقل فلان، فإنك توقع التشبيه بين الغفلة والنوم؛ لأنهما مصدران صالحان للاتصاف بوجه الشبه، وهو عدم الإدراك، ثم تستعير النوم للغفلة، فيصبح النوم بالاستعارة معناه الغفلة، فإذا اشتققت منه فعلاً بعد ذلك، كان الفعل تابعًا لمصدره في معناه الجديد، وهو الغفلة.
ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾، وحقيقة الاستعارة: أطرقوا للمذلة والهوان عند لزوم الحجة، إلا أنه بولغ في العبارة بجعلهم كالواقع على رأسه للحيرة بما نزل به من الآبدة. وقوله تعالى أيضًا: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾، يقول الرماني: هذا مستعار، وحقيقته: ندموا لِمَا رأوا من أسباب الندم، إلا أن الاستعارة أبلغ للإحالة فيه على الإحساس لما يوجب الندم بما سقط في اليد، فكانت حاله أكشف في سوء الاختيار لما يوجب من الوبال. والسكاكي يرد التبعية إلى المكنية، ويجعل التبعية قرينة المكنية، وهو غير جائز لأنه لا يجوز أن يقدرها حقيقة، فما حقيقة نطقت الحال بكذا، ولو قدرها حقيقة لم يكن هنا تخييل وهو عنده من المجاز.
ثانيًا: الاستعارة التمثيلية:
مفهومها: سماها الخطيب القزويني «المجاز المركب».
وحدُّه هو اللفظ المركب المستعمل فيما شبه معناه الأصلي تشبيه التمثيل للمبالغة في التشبيه. أي تشبيه إحدى صورتين منتزعتين من أمرين أو أمور، بالأخرى، ثم تدخل المشبهة في جنس المشبه بها؛ مبالغة في التشبيه، فتذكر بلفظها من غير تغيير بوجه من الوجوه. والمثال الذائع لهذا اللون البياني هو ما كتب به الوليد بن يزيد لمَّا بويع إلى مروان بن محمد، وقد بلغه أنه متوقف في البيعة له: أما بعد، فإني أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، فإذا أتاك كتابي هذا، فاعتمد على أيهما شئت. والسلام. فالملحوظ أنه شبه صورة تردده في المبايعة بصورة تردد من قام ليذهب في أمر، فتارةً يريد =

الآية الكريمة ناعيةً عليهم سوءَ صنيعهم ووخامةَ عاقبتِهم لكون أفعالِهم من حيث

---

= الذهاب فيقدم رجلاً، وتارة لا يريد فيؤخر أخرى، ثم استعير اللفظ الدال على المشبه به للمشبه، على طريق الاستعارة التصريحية التمثيلية، وهكذا يقال في سائر الأمثلة.
وقد أورد الخطيب أمثلة كثيرة من الكتاب والسنة، وذيَّل ذلك بقوله: وكل هذا يسمى التمثيل على سبيل الاستعارة، وقد يسمى التمثيل مطلقًا، ومتى فشا استعماله كذلك سمي مثلاً، ولذلك لا تغير الأمثال. وإنما قال كذلك لأنها تستعمل على سبيل الاستعارة، فيجب أن يبقى لفظها على حاله من غير تغيير، وتجري الاستعارة فيها بأن تشبه صورة مضربها بصورة موردها، ثم يستعار لفظها لها، وعلى هذا يكون كل مثل استعارة، ولا عكس. ومن أمثالهم (أحشفًا وسوء كيلة) يضرب لمن يظلم من جهتين، وتشبه فيه هيئة من يظلم من جهتين بهيئة رجل اشترى من آخر حشفًا بتطفيف في الكيل، فقال له: أحشفًا وسوء كيلة؟ ثم استعير اللفظ الدال على المشبه به للمشبه على طريق الاستعارة التمثيلية.
الاعتراض على السكاكي في جعل التمثيل من المجاز المفرد
قسم السكاكي المجاز إلى الاستعارة وغيرها، وعرف الاستعارة بأنْ تذكر أحد طرفي التشبيه، وتريد به الطرف الآخر، مدعيًا دخول المشبه في جنس المشبه به. وقسم الاستعارة إلى المصرح بها والمكني عنها، وعنى بالمصرح بها أن يكون المذكور من طرفي التشبيه هو المشبه به. وجعلها ثلاثة أضرب: تحقيقية وتخييلية، ومحتملة للتحقيق والتخييل، وقد فسر التحقيقية، وعد التمثيل على سبيل الاستعارة منها، وفيه نظر؛ لأن التمثيل على سبيل الاستعارة لا يكون إلا مركبًا، فكيف يكون قسمًا من المجاز المفرد؟ ولو لم يقيد الاستعارة بالإفراد، وعرفها بالمجاز الذي أريد به ما شبه بمعناه الأصلي مبالغة في التشبيه، دخل كل من التحقيقية والتمثيل في تعريف الاستعارة.
رأي الإمام عبد القاهر:
يجعل الإمام عبد القاهر مثل هذا المثال المشهور في الاستعارة التمثيلية (أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى)، لمن يتردد في أمر -يجعله تمثيلاً، لأن المعنى عنده على إرادة التشبيه، وإن لم يذكر ما يدل عليه صراحة. ومثل هذا التركيب حقه أن يكون استعارة لأنه يجري على طريقتها ويأخذ سمتها، لولا وجود مقتضيات معنوية اقتضت ملاحظة المشبه ومراعاة وجوده في التركيب، وأوجبت أن يكون المشبه به مستعملاً في معناه الحقيقي، فتلك المقتضيات هي التي دعت وأوجبت أن يكون مثل هذا التركيب تشبيهًا لا استعارة؛ لأن علاقة كونه تشبيهًا عند سعد الدين التفتازاني ألا يصلح أن تضع الإيمان والكفر المشبهين موضع البحرين المشبه بهما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ﴾، فلا يتأتى أن يقال: وما يستوي الإيمان والكافر؛ لأن ذكر أوصاف البحرين. ومنافع البحر الأجاج يحول دون ذلك، ويوجب أن يكون البحران مستعملين في المعنى الحقيقي.
ولما كان رأي الشيخ عبد القاهر كذلك، تصدى لأبي أحمد العسكري - خال أبي هلال - لما أطلق على مثل هذا النوع من الكلام اسم «المماثلة»، وكان هذا الإطلاق موهمًا أنه شيء آخر غير التمثيل. تصدى له وذكر أن هذه التسمية لا تعني أن ذلك النوع من الكلام شيء غير المثل والتمثيل؛ لأن المعنى على نية التمثيل وإرادته. يقول الشيخ: وذكر أبو أحمد العسكري أن هذا النحو من الكلام يسمى المماثلة، وهذه التسمية توهم أنه شيء غير المراد بالمثل والتمثيل، وليس الأمر كذلك. كيف؟ وأنت تقول: مثلك مثل من يقدم رجلاً ويؤخر أخرى. ووزان ذلك أنك تقول: زيد الأسد فيكون =

الكسب مستندةً إليهم، فإن خلْقَها منه سبحانه ليس بطريق الجبر بل بطريق الترتيبِ

---

= تشبيهًا على الحقيقة وإن كنت لم تصرح بحرف التشبيه، ومثله أنك تقول: «أنت ترقم في الماء وتضرب في حديد بارد، وتنفخ في غير فحم»، فلا تذكر ما يدل صريحًا على أنك تشبه، ولكنك تعلم أن المعنى على قولك: أنت كمن يرقم في الماء وكمن يضرب في حديد بارد، ولذا يفرق الشيخ عبد القاهر بين التمثيل والتشبيه الظاهر، بأن التشبيه الظاهر تتأتى فيه الاستعارة، ويصار منه إليها حيث يطوى المشبه به وتجري أوصافه على المشبه، أو يطوى المشبه ويطلق اسم المشبه به عليه، وذلك لوضوح وجه الشبه وتحققه في كلا الطرفين، ومثل التشبيه الظاهر في ذلك التمثيل المفرد الذي قرب مأخذه وسهل تناوله، أما التمثيل المركب الذي ينتزع فيه وجه الشبه من جملة من الكلام أو من عدة جمل، فإن الاستعارة لا تدخله لخفاء وجه الشبه فيه وغموضه، ونص كلامه بعد كلام طويل.

فأما إذا كان من الضرب الثاني، لا سبيل إلى معرفة المقصود من الشبه فيه إلا بعد ذكر الجمل التي يعقد بها التمثيل، فإن الاستعارة لا تدخله، لأن وجه الشبه إذا كان غامضًا لم يجز أن تقتسر الاسم وتغصب عليه موضعه، وتنقله إلى غير ما هو أهله، من غير أن يكون معك شاهد ينبئ عن الشبه.

ويقول الشيخ في موضع آخر: وأما التمثيل الذي يكون مجازًا لمجيئك به على حد الاستعارة فمثال قولك للرجل يتردد في الشيء بين فعله وتركه: أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى؛ فالأصل: أراك في ترددك كمن يقدم رجلًا ويؤخر أخرى. ثم اختصر الكلام وجعل كأنه يقدم الرجل، ويؤخرها على الحقيقة، كما كان الأصل في قولك: رأيت أسدًا رأيت رجلا كالأسد ثم جعل الأسد على الحقيقة.

وظاهر هذا الكلام أنه تناقض وليس كذلك ولكن ذلك يرجع إلى مقتضيات في المقام فإن اقتضى المقام مراعاة الحال الممثلة وملاحظتها في التعبير كان الكلام تمثيلًا، وإن اقتضى عدم إرادتها وملاحظتها فيه كان استعارة تمثيلية، وهو ظاهر من الكلام السابق له أنه لا يحسن أن تغصب على الاسم موضعه، فالشيخ يكره ذلك عند التعسف وطلب التكلف ويجيزه فيما لا يرد عليه التكلف والتعسف.

الفرق بين المجاز والمجاز المفرد والمجاز المركب.

ذكر السبكي كلام الخطيب بأن الكلام في نفسه حقيقة كاعتبار مفرداته، ولكنه جعل مثلا لغيره فالاستعارة تقع في مجموعة، فهو يخالف مجاز الإفراد، لأن التجوز فيه يقع في الكلمة المفردة، ويخالف المجاز العقلي المسمى بالمجاز المركب أيضا، فإن التجوز فيه يقع في الإسناد، وأما التمثيل فالمفردات فيه حقائق، وكذلك ما فيها من إسناد بعضها لبعض، والتجوز يقع في مجموعها، فإن قلت: إذا كان التمثيل حقيقة، فقد قصدت مفرداته فكيف يكون مجموعه مجازًا؟ قلت: قد عرفت في الكلام على الكناية فيما سبق وستعرف فيما سيأتي أن الإرادة على قسمين إرادة استعمال وإرادة إفادة، والتمثيل قريب منه، فإن قولك زيد يقدم رجلا ويؤخر أخرى حقيقة لأن قصد مدلوله استعمالا ولم يقصد إفادة بل المقصود بالإفادة ما يماثل معناه التركيبي من التردد إلا أن الفرق بينهما أن الكفاية يكون مدلول لفظها واقعًا، فإذا قلت: زيد كثير رماد القدر، فأنت تقصد الإخبار بكثرة رماده ليفهم لازمه وكثرة رماده واقع والتمثيل لا يشترط فيه وقوع ذلك المخبرية، ثم علق على قول الخطيب بعد ذكر أمثلة الاستعارة التمثيلية وكل هذا يسمى التمثيل على سبيل الاستعارة، وقد يسمى التمثيل مطلقا بقوله أى ولا يسمى استعارة، وكأن ذلك اجتناب للفظ الاستعارة، فإنه يوهم التجوز =

على ما اقترفوه من القبائح كما يُعرِبُ عنه قوله تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء، الآية ١٥٥] ونحو ذلك.

وأما المعتزلةُ فقد سلكوا مسلكَ التأويل، وذكروا في ذلك عدةً من الأقاويل منها أن القومَ لمّا أعرضوا عن الحق وتمكنَ ذلك في قلوبهم حتى صار كالطبيعة لهم شُبّه بالوصف الخَلْقي المجبول عليه، ومنها أن المراد به تمثيلُ قلوبِهم بقلوب البهائم التي خلقها الله تعالى خاليةً عن الفِطَن، أو بقلوب قد ختم الله تعالى عليها كما في: سال به الوادي إذا هلك، وطارت به العنقاءُ إذا طالت غَيْبته، ومنها أن ذلك فعلُ الشيطان أو الكافر، وإسنادُه إليه تعالى باعتبار كونه بإقداره تعالى وتمكينه، ومنها أن أعراقَهم لما رسَخت في الكفر واستحكمت بحيث لم يبق إلى تحصل إيمانهم طريقٌ سوى الإلجاءِ والقسرِ، ثم لم يَفعَلْ ذلك محافظةً على حكمة التكليف عُبّر عن ذلك بالختم، لأنه سدٌّ لطريق إيمانهم بالكلية، وفيه إشعارٌ بترامي أمرهم في الغي والعِناد، وتناهي انهماكِهم في الشر والفساد، ومنها أن ذلك حكايةٌ لما كانت الكفرة يقولونه مثل قولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت، الآية ٥] تهكّمًا بهم، ومنها أن ذلك في الآخرة، وإنما أُخبر عنه بالماضي لتحقق وقوعه، ويعضُده قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا﴾ [الإسراء، الآية ٩٧] ومنها أن المراد بالختم وسْمُ قلوبهم بسِمَةٍ يعرِفها الملائكة فيبغضونهم وينفِرون عنهم.

﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ عطفٌ على ما قبله داخل في حكم الختم لقوله عز وجل: ﴿وَخَتَمَ

---

= في المفردات. ويرى المغربي أن التقيد بقوله: التمثيل على سبيل الاستعارة للاحتراز عن الالتباس بتشبيه التمثيل، والصحيح من القضية أن لفظ التمثيل إذا أطلق انصرف إلى الاستعارة، وإذا أريد التشبيه قيل تشبيه التمثيل ويفسر هذا مطردًا.

قرينة الاستعارة التمثيلية:

الذي ينبغي التنبيه عليه أن قرينة الاستعارة التمثيلية تكون دائمًا حالية تفهم من سياق الكلام، كما أنها إذا شاعت سميت مثلاً، كما نقلنا عن الخطيب. فالمعروف أن المثل قول مشهور شبه مضربه بمورده.

ينظر: شروح التلخيص (٤/ ١٤١) وما بعدها، والإيضاح مع البغية (٣/ ١٤٦) وما بعدها (٣/ ١٦٠)، وثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم، د. حمد خلف الله، د. زغلول سلام، ص (٩٤)، ومجمع الأمثال للميداني، الشيخ/ محمد محيي الدين (١/ ٥)، وأسرار البلاغة (١/ ٢١٢، ٢٢٢، ٢/ ٩٨، ٩٩، ١١١، ١٢١)، ودلائل الإعجاز ص(١٠٧)، والمطول (٣٠٦)، والإفصاح فيما تضمنه الإيضاح من مباحث البيان، ص (١٨٠، ١٨١).

عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الجاثية، الآية ٢٣] وللوفاق على الوقف عليه لا على قلوبهم، ولاشتراكهما في الإدراك من جميع الجوانب، وإعادةُ الجارّ للتأكيد والإشعار بتغايُر الختمَيْن، وتقديمُ ختمِ قلوبهم للإيذان بأنها الأصلُ في عدم الإيمان، وللإشعار بأن ختمَها ليس بطريق التبعيةِ بختم سمعِهم، بناءً على أنه طريقٌ إليها، فالختمُ عليه ختمٌ عليها، بل هي مختومةٌ بختم على حِدَة، لو فُرض عدمُ الختم على سمعهم فهو باقٍ على حاله حسبما يُفصح عنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال، الآية ٢٣] والسمعُ إدراكُ القوة السامعة، وقد يُطلق عليها وعلى العضو الحامل لها وهو المراد هاهنا، إذ هو المختومُ عليه أصالةً، وتقديمُ حاله على حال أبصارِهم للاشتراك بينه وبين قلوبهم في تلك الحال، أو لأن جنايتَهم من حيث السمع الذي به يُتلقىٰ الأحكامُ الشرعية، وبه يَتحققُ الإنذارُ أعظمَ منها من حيث البصر الذي به يشاهد الأحوالُ الدالة على التوحيد، فبيانُها أحقُّ بالتقديم، وأنسبُ بالمقام.

قالوا: السمعُ أفضلُ من البصر، لأنه عز وعلا حيث ذكَرهما قدم السمعَ على البصر، ولأن السمع شرطُ النبوة ولذلك ما بعث الله رسولًا أصم، ولأن السمع وسيلة إلى استكمال العقلِ بالمعارف التي تُتلقف من أصحابها، وتوحيدُه للأمن عن اللَّبْس، واعتبارِ الأصل، أو لتقدير المضاف، أي وعلى حواسِّ سمعهم، والكلامُ في إيقاع الختم على ذلك كما مر من قبل.

﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ الأبصار جمع بصر، والكلام فيه كما سمعته في السمع، والغِشاوةُ فِعالة من التغشية أي التغطية، بُنيت لما يشتمل على الشيء كالعِصابة والعِمامة، وتنكيرُها للتفخيم والتهويل، وهي على رأي سيبويه مبتدأ خبرُه الظرفُ المقدم، والجملةُ معطوفةٌ على ما قبلها، وإيثارُ الاسمية للإيذان بدوام مضمونها، فإن ما يُدرَك بالقوة الباصرة من الآيات المنصوبة في الآفاق والأنفسِ حيث كانت مستمرةً كان تعاميهم من ذلك أيضًا كذلك.

وأما الآياتُ التي تُتلقَّى بالقوة السامعة فلمّا كان وصولُها إليها حينًا فحينًا أوثر ـ في بيان الختم عليها وعلى ما هي أحدُ طريقي معرفتِه، أعني القلبَ ـ الجملةُ الفعلية، وعلى رأي الأخفش[1] مرتفعٌ على الفاعلية مما تعلق به الجار، وقرئ[2] بالنصب على

---

(١) هو: سعيد بن مسعدة المجاشعي بالولاء، البلخي ثم البصري، أبو الحسن، المعروف بالأخفش الأوسط. نحوي، عالم باللغة والأدب. قرأ النحو على سيبويه، وكان أسن منه، وكان معتزليًا. قال المبرد: أحفظ من أخذ عن سيبويه – الأخفش، وقال: وكان الأخفش أعلم الناس بالكلام، وأحذقهم =

تقدير فعلٍ ناصب، أي وجَعَل على أبصارهم غشاوة، وقيل: على حذف الجار وإيصال الختم إليه، والمعنى وختم على أبصارهم بغشاوة، وقرئ بالضم والرفع وبالفتح والنصب، وهما لغتان فيها، و(غشوْة) بالكسر مرفوعةٌ وبالفتح مرفوعة ومنصوبة، وعشاوةٌ بالعين غير المعجمة والرفع. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وعيد وبيان لما يستحقونه في الآخرة والعذاب كالنكال بناءً ومعنى، يقال: أعذب عن الشيء إذا أمسك عنه، ومنه الماءُ العذبُ لما أنه يقمَعُ العطش ويردَعه، ولذلك يسمى نُقاخًا، لأنه ينقَخُ العطشَ ويكسِرُه، وفرُاتًا لأنه يرفتُه على القلب ويكسره، ثم اتسِع فيه فأطلق على كل ألم فادح، وإن لم يكن عقابًا يُراد به ردْعُ الجاني عن المعاودة، وقيل: اشتقاقُه من التعذيب الذي هو إزالة العذاب، كالتقذية والتمريض. والعظيم نقيضُ الحقير، والكبير نقيضُ الصغير، فمن ضرورة كونِ الحقيرِ دونَ الصغير كونُ العظيم فوق الكبير، ويستعملان في الجُثث والأحداث. تقول: رجل عظيم وكبير، تريد جثتَه أو خطرَه، ووصفُ العذاب به لتأكيد ما يفيده التنكيرُ من التفخيم والتهويل والمبالغة في ذلك.

والمعنى: أن على أبصارهم ضربًا من الغِشاوة خارجًا مما يتعارفه الناس، وهي غشاوة التعامي عن الآيات، ولهم من الآلام العظامِ نوعٌ عظيم لا يُبلغ كُنهُه ولا يدرك غايتُه، اللهم إنا نعوذ بك من ذلك كلِّه يا أرحم الراحمين.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ

---

= بالجدل، من تصانيفه: معاني القرآن، المقاييس في النحو، الاشتقاق، الأوساط في النحو، وغيرها. توفي سنة خمس عشرة ومائتين.
ينظر: إنباه الرواة (٢/ ٣٦)، ومعجم الأدباء (١١/ ٢٢٤).

(٢) رواه المفضل الضبي عن عاصم يعني، غشاوة، وبالضم والرفع قرأ الحسن وزيد بن علي، وقرأ أبو جعفر بفتح الغين.
ينظر: الشواذ ص (٢)، والحجة للقراء السبعة، (١/ ٢٩١)، وإعراب القراءات، (١/ ٦١)، والبحر المحيط (١/ ١٧٧)، وإتحاف فضلاء البشر، (١/ ٣٧٧)، والقرطبي (١/ ١٣٤).

يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ۖ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

## [علامات المنافقين]

﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ شروع في بيان أن بعضَ من حُكيتْ أحوالُهم السالفة ليسوا بمقتصِرين على ما ذكر من محض الإصرارِ على الكفر والعناد، بل يضُمّون إليه فنونًا أُخَرَ من الشر والفساد، وتعديدٌ لجناياتهم الشنيعةِ المستتبعة لأحوال هائلةٍ عاجلة وآجلة، وأصلُ ناسٍ أُناسٌ، كما يشهد له إنسانٌ وأناسيُّ وإنسٌ، حُذفت همزته تخفيفًا كما قيل: لوقة في ألوقة، وعُوِّض عنها حرفُ التعريف، ولذلك لا يُكاد يُجمع بينهما، وأما في قوله: [مجزوء الكامل]

إن المنايا يطَّلِعْـ ـنَ على الأُناسِ الآمنينا[1]

فشاذ، سموا بذلك لظهورهم وتعلُّقِ الإيناسِ بهم كما سُمّي الجن جنًا لاجتنانهم. وذهب بعضُهم إلى أن أصلَه النَّوسُ وهو الحركة، انقلبت واوه ألفًا لتحركها وانفتاح ما قبلها، وبعضُهم إلى أنه مأخوذ من نسيَ، نقلت لامه إلى موضع العين فصار نَيَسًا، ثم قلبت ألفًا، سُمّوا بذلك لنسيانهم، ويُروى عن ابن عباس أنه قال: سُمي الإنسانُ إنسانًا لأنه عُهد إليه فنسي، واللام فيه إما للعهد، أو للجنس المقصور على المُصرّين حسبما ذكر في الموصول، كأنه قيل: ومنهم أو من أولئك، والعدولُ إلى الناس للإيذان بكثرتهم، كما ينبئ عنه التبعيضُ، ومحل الظرف الرفعُ على أنه مبتدأ باعتبار مضمونِه، أو نعتٌ لمبتدأ، كما في قوله عز وجل: ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الجن، الآية ١١]

---

(١) وهو لذي جدن الحميري في خزانة الأدب (٢/ ٢٨٠، ٢٨٢، ٢٨٥، ٢٨٨)، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر (١/ ٣١٢)، وجواهر الأدب، ص (٣١٣)، والخصائص (٣/ ١٥١)، وشرح شواهد الشافية، ص (٢٩٦)، وشرح المفصَّل (٢/ ٩، ٥/ ١٢١)، ولسان العرب (أنس).

أي وجمعٌ منا إلخ، و(من) في قوله تعالى: ﴿مَن يَقُولُ﴾ موصولة أو موصوفة، ومحلُها الرفعُ على الخبرية، والمعنى وبعضُ الناس، أو وبعضٌ من الناس الذي يقول، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ [التوبة، الآية ٦١] الآية، أو فريق يقول، كقوله تعالى: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ﴾ [الأحزاب، الآية ٢٣] إلخ، على أن يكون مناطُ الإفادةِ والمقصودُ بالأصالة اتصافُهم بما في حيز الصلة أو الصفة، وما يتعلق به من الصفات جميعًا، لا كونُهم ذواتِ أولئك المذكورين.

وأما جعلُ الظرف خبرًا كما هو الشائعُ في موارد الاستعمال فيأباه جزالةُ المعنى، لأن كونَهم من الناس ظاهرٌ، فالإخبارُ به عارٍ عن الفائدة كما قيل، فإن مبناه توهمُ كونِ المرادِ بالناس الجنسَ مطلقًا، وكذا مدارُ الجواب عنه بأن الفائدةَ هو التنبيهُ على أن الصفاتِ المذكورةَ تنافي الإنسانية، فحقُّ من يتصفُ بها ألا يُعلَمَ كونُه من الناس، فيُخبَرَ به ويُتعجَّبَ منه، وأنت خبير بأن الناسَ عبارة عن المعهودين، أو عن الجنس المقصور على المصرّين، وأيا ما كان فالفائدةُ ظاهرة، بل لأن خبريةَ الظرف تستدعي أن يكون اتصافُ هؤلاء بتلك الصفاتِ القبيحةِ المفصَّلة في ثلاثَ عشْرةَ آية عنوانًا للموضوع مفروغًا عنه، غيرَ مقصودٍ بالذات، ويكونُ مناطَ الإفادة كونُهم من أولئك المذكورين، ولا ريب لأحدٍ في أنه يجب حملُ النظم الجليلِ على أجزلِ المعاني وأكملِها، وتوحيدُ الضمير في (يقول) باعتبار لفظةِ (مَن)، وجمعُه في قوله: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وما بعده باعتبار معناها، والمرادُ باليوم الآخِرِ من وقت الحشرِ إلى ما لا يتناهىٰ، أو إلى أن يدخُلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ وأهلُ النار النارَ، إذ لا حدَّ وراءه، وتخصيصُهم للإيمان بهما بالذكر مع تكرير الباءِ لادعاء أنهم قد حازوا الإيمانَ من قُطريه، وأحاطوا به من طرفيه، وأنهم قد آمنوا بكلٍّ منهما على الأصالة والاستحكام، وقد دسوا تحته ما هم عليه من العقائد الفاسدة حيث لم يكن إيمانُهم بواحد منهما إيمانًا في الحقيقة، إذ كانوا مشركين بالله بقولهم: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة، الآية ٣٠] وجاحدين باليوم الآخر بقولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة، الآية ٨٠] ونحو ذلك، وحكايةُ عبارتهم لبيان كمالِ خبثهم ودعارتِهم، فإن ما قالوا لو صدر عنهم لا على وجه الخِداعِ والنفاقِ وعقيدتُهم عقيدتُهم لم يكن ذلك إيمانًا، فكيف وهم يقولونه تمويهًا على المؤمنين واستهزاءً بهم!

﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ ردٌّ لما ادعَوْه ونفيٌ لما انتحلوه. و(ما) حجازية، فإن جوازَ دخولِ الباء في خبرها لتأكيد النفي اتفاقيٌّ بخلاف التميمية، وإيثارُ الجملة الاسميةِ على الفعلية الموافقةِ لدعواهم المردودةِ للمبالغة في الرد بإفادة انتفاءِ الإيمانِ عنهم في

جميع الأزمنة لا في الماضي فقط كما يفيده الفعلية. ولا يُتوهَمن أن الجملة الاسمية الإيجابية تفيد دوام الثبوت، فعند دخول النفي عليها يتعين الدلالة على نفي الدوام، فإنها بمعونة المقام تدل على دوام النفي قطعًا، كما أن المضارع الخاليَ عن حرف الامتناع يدل على استمرار الوجود وعند دخول حرف الامتناع عليه يدل على استمرار الامتناع، لا على امتناع الاستمرار، كما في قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ [يونس، الآية ١١] فإن عدم قضاءِ الأجل لاستمرار عدم التعجيل لا لعدم استمرارِ التعجيل، وإطلاقُ الإيمان عما قيدوه به للإيذان بأنهم ليسوا من جنس الإيمان في شيء أصلًا، فضلًا عن الإيمان بما ذكروا، وقد جُوِّز أن يكون المراد ذلك، ويكون الإطلاق للظهور، ومدلولُ الآية الكريمة أن من أظهر الإيمان، واعتقادُه بخلافه، لا يكون مؤمنًا، فلا حجة فيها على الكرامية القائلين بأن من تفوّه بكلمتي الشهادة ـ فارغَ القلب عما يوافقه أو ينافيه ـ مؤمنٌ.

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بيانٌ لـ «يقولوا» وتوضيحٌ لما هو غرضُهم مما يقولون، أو استئنافٌ وقع جوابًا عن سؤال ينساق إليه الذهن، كأنه قيل: ما لهم يقولون ذلك وهم غيرُ مؤمنين؟ فقيل: يخادعون الله إلخ، أي يخدعون، وقد قرئ[1] كذلك، وإيثارُ صيغة المفاعلةِ لإفادة المبالغةِ في الكيفية، فإن الفعل متى غولب فيه بولغ فيه قطعًا، أو في الكمية، كما في الممارسة والمزاولة، فإنهم كانوا مداومين على الخَدْع، والخِدْعُ أن يوهم صاحبَه خلاف ما يريد به من المكروه ليوقعَه فيه من حيث لا يحتسب، أو يوهمَه المساعدةَ على ما يريد هو به ليغترّ بذلك فينجُوَ منه بسهولة، من قولهم ضبٌّ خادع وخُدَع وهو الذي إذا أمرّ الحارشُ[2] يده على باب جُحره يوهمه الإقبالَ عليه فيخرج من بابه الآخر، وكلا المعنيين مناسبٌ للمقام، فإنهم كانوا يريدون بما صنعوا أن يطّلعوا على أسرار المؤمنين فيذيعوها إلى المنابذين، وأن يدفعوا عن أنفسهم ما يصيب سائرَ الكفرة.

وأيا ما كان فنسبتُه إلى الله سبحانه إما على طريق الاستعارة والتمثيل[3]، لإفادة

---

(١) وهي قراءة ابن مسعود وأبي حيوة.
ينظر: الدر المصون (١/ ١١٤)، واللباب (١/ ٣٣٨).

(٢) الحرش والتحريش: إغراؤك الإنسان والأسد ليقع بقرنه، وحرَّش بينهم: أفسد وأغرى بعضهم ببعض، وحرش الضبِّ أي صيده وحرش الضبَّ يحرشه حرشًا صَاده فهو حارش للضِّباب.

(٣) الخلاف في هذه المسألة متعلق بقضية كلامية، وكلام الشيخ أبي السعود قد جمع الآراء في هذه المسألة، والصحيح من هذه القضية هو ما رجح ابن المنير -رحمه الله- يقول: فنحن معاشر أهل =

كمال شناعةِ جنايتهم أي يعامِلون معاملة الخادعين، وإما على طريقة المجاز العقلي، بأن يُنسب إليه تعالى ما حقه أن يُنسب إلى الرسول ﷺ إبانةً لمكانته عنده تعالى، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح، الآية ١٠] وقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء، الآية ٨٠] مع إفادة كمال الشناعةِ كما مر، وإما لمجرد التوطئةِ والتمهيد لما بعده من نِسبته إلى الذين آمنوا، والإيذانِ بقوةِ اختصاصِهم به تعالى كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة، الآية ٦٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأحزاب، الآية ٥٧] وإبقاءُ صيغة المخادعةِ على معناها الحقيقي بناءً على زعمهم الفاسد، وترجمةٌ عن اعتقادهم الباطل، كأنه قيل: يزعمون أنهم يخدعون الله والله يخدعهم، أو على جعلها استعارة تَبَعِيّة، أو تمثيلًا لما أن صورةَ صُنعِهم مع الله تعالى والمؤمنين وصنعِه تعالى معهم بإجراء أحكامِ الإسلام عليهم، وهم عنده أخبثُ الكفرة، وأهلُ الدَّرْك الأسفلِ من النار استدراجًا لهم، وامتثالُ الرسولِ عليه الصلاة والسلام والمؤمنين بأمر الله تعالى في ذلك مجازاةٌ لهم بمثل صنيعهم صورةَ صنيعِ المتخادعين

---

= السنة نعتقد أن الله -تعالى- عالم بعلم، ومع ذلك نعتقد استحالة كونه مخدوعًا؛ لأن علمه عندنا عام التعلق، كما وصفنا، ونعتقد أنه لا يصدر كائن في الوجود إلا عن قدرته لا غير، ومع ذلك نمنع أن ينسب الخداع إلى الله -تعالى- لما يوهم ظاهره من أنه إنما يكون عن عجز المكافحة وإظهار المكتوم، هذا هو الموهوم منه في الإطلاق ولكنه حيث أطلقه -تعالى- مقابلاً لما ذكره من خداع المنافقين كمقابلة المكر بمكرهم، علمنا أن المراد منه أنه فعل معهم فعلاً سماه خداعًا مقابلة ومشاكلة.. وكذلك الخداع المنسوب إليهم على سبيل المجاز عن تعاطيهم أفعال المخادع على ظنهم، وأصدق شاهد على أنه مجاز نفيه بعقب إثباته في قوله: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ففي هذه التتمة نفي احتمال الحقيقة حتى يتعين جهة المجاز.

ومما عده البيانيون من أدلة المجاز صدق نفيه، وقال الطيبي: وقد يكون الخداع حسنًا إذا كان الغرض منه استدراج الغير من الضلال إلى الرشد، ومن ذلك استدراجات التنزيل على لسان الرسل في دعوة الأمم.

وقال السيد الشريف: والحاصل أن بينهم من الجانبين معاملة شبيهة بالمخادعة، فقوله: «يخادعون» استعارة تبعية، وليس في هذا الجواب اعتبار هيئة مركبة من الجانبين وما يجري بينهما مشبهة بهيئة أخرى مركبة من الخادع والمخدوع والخدع، ليحمل الكلام على الاستعارة التمثيلية. وهو مقابل لقول الشيخ أبي السعود، وقال السيد الشريف أيضًا: وتلخيصه أن المخادعة مستعارة للمعاملة الجارية فيما بينهم وبين الله -تعالى- والمؤمنين، المشبهة بمعاملة المتخادعين، أو يجعل لفظ الخداع المستعار مجازًا مرسلاً عن ضرره. وقد مضى الحديث عن الاستعارة التبعية والتمثيلية.

ينظر: الكشاف وحاشية السيد الشريف عليه وحاشية ابن المنير عليه (١/ ١٧٢) وما بعدها، والتدرجات الإلهية (١/ ١٦)، والبحر المحيط (١/ ٥٩) وما بعدها.

كما قيل، مما لا يرتضيه الذوق السليم.

أما الأولُ فلأن المنافقين لو اعتقدوا أن الله تعالى يخدعُهم بمقابلة خَدْعِهم له لم يُتصَّور منهم التصدّي للخدْع، وأما الثاني فلأن مقتضىٰ المقام إيرادُ حالهم خاصةً وتصويرُها بما يليق بها من الصورة المستهجَنة، وبيانُ أن غائلَتَها[1] آيلةٌ إليهم من حيث لا يحتسبون، كما يُعرب عنه قوله عز وعلا: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ فالتعرضُ لحال الجانب الآخر مما يُخِل بتوفية المقامِ حقَّه، وهو حالٌ من ضمير (يخادعون)، أي يفعلون [ما يفعلون][2] والحالُ أنهم ما يضرون بذلك إلا أنفسَهم، فإن دائرةَ فعلِهم مقصورةٌ عليهم، أو ما يخدعون حقيقةً إلا أنفسَهم، حيث يُغرونها بالأكاذيب فيُلْقُونها في مهاوي الردىٰ، وقرئ[3] (وما يخادعون) والمعنى هو المعنى، ومن حافظ على الصيغة فيما قبلُ قال: وما يعامِلون تلك المعاملةَ الشبيهةَ بمعاملة المخادِعين إلا أنفسَهم لأن ضررَها لا يحيق إلا بهم، أو ما يخادعون حقيقة إلا أنفسَهم حيث يُمنّوُنها الأباطيل، وهي أيضًا تغرُهم وتمنّيهم الأمانيَّ الفارغةَ، وقرئ[4] (وما يخَدِّعون) من التخديع (وما يخدعون) أي يختدعون، ويُخدَعون ويُخادَعون على البناء للمفعول، ونصبُ (أنفسَهم) بنزع الخافض، والنفسُ ذاتُ الشيء وحقيقتُه وقد يقال للروح لأن نفس الحيِّ به، وللقلب أيضًا لأنه محلُ الروح، أو مُتعلَّقُه، وللدم أيضًا لأن قِوامَها به، وللماء أيضًا لشدة حاجتها إليه والمراد هنا هو المعنى الأول لأن المقصود بيانُ أن ضرر مخادعتهم راجعٌ إليهم لا يتخطاهم إلى غيرهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ حال من ضمير (ما يخدعون)، أي يقتصرون على خدْع أنفسِهم، والحالُ أنهم ما يشعرون أي ما يُحسّون بذلك لتماديهم في الغواية، وحذفُ المفعولِ إما لظهوره أو لعمومه، أي ما يشعرون بشيء أصلًا، جُعل لُحوقُ وبالِ ما صنعوا بهم في الظهور بمنزلة الأمر المحسوسِ الذي لا يخفىٰ إلا على مَؤوفِ[5] الحواس مختلِّ المشاعر.

---

(١) في ط: غائلها. (٢) سقط في ط.

(٣) ينظر: شرح طيبة النشر للنويري (٤/ ٣)، والعنوان في القراءات ص (٦٨)، والحجة للقراء السبعة (١/ ٣١٢)، وإعراب القراءات (١/ ٦٣)، وحجة القراءات ص (٧٨)، وإتحاف فضلاء البشر (١/ ٣٧٧)، وشرح شعلة على الشاطبية ص (٢٥٧).

(٤) ينظر: البحر المحيط (١/ ١٨٥)، والقرطبي (١/ ١٣٨)، والمحرر الوجيز (١/ ٩٠).

(٥) مؤوف من أوَف أي الآفة والعاهة؛ يقال: طعام مؤوف أي أصابته آفة وفي غير المحكم مأووف وإيف الطعام فهو مئيف مثل معيف قال: وعِيَهُ فهو معوه ومَعِيهٌ.

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ المرض عبارة عما يعرِضُ للبدن فيُخرجه عن الاعتدال اللائق به، ويوجب الخللَ في أفاعيله، ويؤدّي إلى الموت، استُعير هاهنا لما في قلوبهم[١] من الجهل وسوءِ العقيدة، وعداوةِ النبي ﷺ وغيرِ ذلك من فنون الكفر المؤدي إلى الهلاك الروحاني، والتنكيرُ للدلالة على كونه نوعًا مُبهمًا غيرَ ما يتعارفه الناس من الأمراض، والجملةُ مقرِّرة لما يفيده قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة، الآية: ٨] من استمرار عدمِ إيمانهم، أو تعليلٌ له كأنه قيل: ما لهم لا يؤمنون؟ فقيل: في قلوبهم مرضٌ يمنعهم.

﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ بأن طُبع على قلوبهم، لعلمه تعالى بأنه لا يؤثر فيها التذكيرُ والإنذار، والجملةُ معطوفة على ما قبلها، والفاءُ للدلالة على ترتّب مضمونِها عليه، وبه اتضح كونُهم من الكفرة المختومِ على قلوبهم مع زيادة بيانِ السبب، وقيل: زادهم كفرًا بزيادة التكاليف الشرعية، لأنهم كانوا كلما ازداد التكاليفُ بنزول الوحي يزدادون كفرًا، ويجوز أن يكون المرض مستعارًا لما تداخلَ قلوبَهم من الضعف والجُبن والخَوَر عند مشاهدتهم لعزة المسلمين، فزيادتُه تعالى إياهم مرضًا ما فعل بهم من إلقاء الرَّوْع وقذف الرعب في قلوبهم عند إعزازِ الدين بإمداد النبي ﷺ بإنزال الملائكة، وتأييدِه بفنون النصر والتمكين، فقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ إلخ حينئذ استئنافٌ تعليلي لقوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ﴾ إلخ، كأنه قيل: ما لهم يخادعون ويداهنون ولم لا يجاهرون بما في قلوبهم من الكفر؟ فقيل: في قلوبهم ضَعفٌ مضاعَف، هذه حالُهم في الدنيا، ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي مؤلم يقال: ألمٌ وهو أليم، كوجعٍ وهو وجيع وُصف به العذابُ للمبالغة كما في قوله: [الوافر]

وخيلٌ قد دَلَفْتُ لها بِخَيْلٍ تحيةُ بينهم ضَرْبٌ وجيعُ[٢]

على طريقة جَدَّ جِدُّه فإن الألم والوجعَ حقيقةٌ للمؤلم والمضروب، كما أن الجِدّ للجادّ، وقيل: هو بمعنى المؤلم كالسميع بمعنى المُسمع وليس ذلك بثبْتٍ كما

---

(١) أي: الآية من قبيل الاستعارة التصريحية، حيث صرح بالمستعار، والآية تحتمل أن تكون من قبيل الحقيقة أو المجاز؛ لأن الشك والنفاق مرض، على حد قوله -تعالى-: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾.
ينظر: المثل السائر (٢/ ٨٣) وما بعدها، ومفتاح العلوم (٣٨٠) وما بعدها، وشروح التلخيص (٤/ ٥٦) وما بعدها.

(٢) البيت لعمرو بن معد يكرب في ديوانه، ص (١٤٩)، وخزانة الأدب (٩/ ٢٥٢، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣)، وشرح أبيات سيبويه (٢/ ٢٠٠)، والكتاب (٣/ ٥٠)، ونوادر أبي زيد، ص (١٥٠)، وبلا نسبة في أمالي ابن الحاجب (١/ ٣٤٥)، والخصائص (١/ ٣٦٨)، وشرح المفصّل (٢/ ٨٠)، والكتاب (٢/ ٣٢٣).

سيجيء في قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة، الآية ١١٧] ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ الباء للسببية أو (ما) مصدرية داخلة في الحقيقة على (يكذبون)، وكلمة (كانوا) مُقحَمةٌ للمقابلة لإفادة دوام كذِبهم وتجدُّدِه أي بسبب كذبهم، أو بمقابلة كذبهم المتجددِ المستمرِّ الذي هو قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة، الآية ٨] وهم غير مؤمنين، فإنه إخبارٌ بإحداثهم الإيمانَ فيما مضىٰ لا إنشاءٌ للإيمان. ولو سلم فهو متضمن للإخبار بصدوره عنهم وليس كذلك لعدم التصديق القلبي بمعنى الإذعان والقبولِ قطعًا، ويجوز أن يكون محمولًا على الظاهر بناءً على رأي من يجوِّز أن يكون لكان الناقصةِ مصدر، كما صُرِّح به في قول الشاعر: [الطويل]

ببذلٍ وحِلْمٍ ساد في قومه الفتى ... وكونُك إياه عليك يسيرُ[1]

أي لهم عذاب أليم بسبب كونهم يكذِبون على الاستمرار، وترتيبُ العذاب عليه من بين سائر موجباته القويةِ، إما لأن المرادَ بيانُ العذاب الخاصّ بالمنافقين بناءً على ظهور شِركتِهم للمجاهرين فيما ذكر من العذاب العظيم حسبَ اشتراكهم فيما يوجبه من الإصرار على الكفر كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة، الآية ٨] الخ.

**وإما** للإيذان بأن لهم بمقابلة سائرِ جناياتِهم العظيمةِ من العذاب ما لا يوصف.

**وإما** للرمز إلى كمال سماجةِ الكذب نظرًا إلى ظاهر العبارةِ المخيّلةِ لانفراده بالسببية، مع إحاطة علم السامعِ بأن لحوقَ العذاب بهم من جهات شتى، وأن الاقتصارَ عليه للإشعار بنهايةِ قُبحه والتنفير عنه.

عن الصدِّيق رضي الله عنه ويروى مرفوعًا أيضًا إلى النبي ﷺ: «إياكم والكذبَ فإنه مجانبٌ للإيمان»[2] وما روي أن إبراهيمَ عليه السلام كذَبَ ثلاثَ

---

(١) البيت بلا نسبة في أوضح المسالك (١/ ٢٣٩)، وتخليص الشواهد، ص (٢٣٣)، والدرر (١/ ٦)، وشرح الأشموني (١/ ١١٢)، وشرح التصريح (١/ ١٨٧)، وشرح ابن عقيل، ص (١٣٨)، والمقاصد النحوية (٢/ ١٥)، وهمع الهوامع (١/ ١١٤).

(٢) روي هذا الحديث مرفوعًا وموقوفًا:
أما المرفوع: فقد عزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (١/ ٤٦) إلى ابن عدي في الكامل.
وأما الموقوف: فقد أخرجه أحمد (١/ ٥)، وأبو بكر بن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٢٣٦) كتاب الأدب، باب: ما جاء في الكذب، حديث برقم (٢٥٦٠٢)، والبيهقي في سننه الكبرى (١٠/ ١٩٦) كتاب الشهادات، باب: من كان منكشف كذبه مظهره لا يستتر به لا تجوز شهادته، وابن المبارك في الزهد، ص (٢٥٥)، باب: من كذب في حديث ليضحك به القوم، حديث (٧٣٦). وقال الدارقطني في كتابه العلل (١/ ٢٥٨) حديث (٥٠)، رواه عن قيس: إسماعيل بن أبي خالد، وبيان بن بشر، وأبو =

كَذَباتٍ[1] فالمرادُ به التعريضُ، وإنما سمِّي به لشَبَهه به صورةً، وقيل: (ما) موصولة والعائدُ محذوف أي بالذي يكذبون والمفعول محذوف، وهو إما النبي ﷺ، أو القرآنِ و(ما) مصدرية، أي بسبب تكذيبهم إياه عليه السلام، أو القرآن أو موصولة أي بالذي يكذبونه على أن العائد محذوف، ويجوز أن يكون صيغةُ التفعيل للمبالغة كما في بيَّن في بان وقلَّص في قلَص، أو للتكثير كما في موَّتت البهائمُ وبرَّكت الإبل، وأن يكون من قولهم: كذب الوحش إذا جرى شوطًا ثم وقف لينظرَ ما وراءه فإن المنافق متوقِّفٌ في أمره متردِّد في رأيه ولذلك قيل له: مُذَبْذب.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ شروع في تعديد بعضٍ من قبائحهم المتفرعةِ على ما حُكي عنهم من الكفر والنفاق، و(إذا) ظرفُ زمنٍ مستقبلٍ، ويلزمها معنى الشرط غالبًا، ولا تدخل إلا في الأمر المحقق أو المرجح وقوعُه، و(اللامُ) متعلّقة بقيل ومعناها الإنهاءُ والتبليغ، والقائمُ مقامَ فاعلِه جملة ﴿لَا تُفْسِدُوا۟﴾ على أن المراد بها اللفظ.

وقيل هو مُضمرٌ يفسِّرُه المذكورُ.

والفسادُ: خروجُ الشيء عن الحالة اللائقة به والصلاحُ: مقابلُه، والفساد في الأرض: هَيْجُ الحروب والفتنِ المستتبعة لزوال الاستقامة عن أحوال العباد واختلالِ أمر المعاش والمعاد.

---

= إسحاق السبيعي، ومجالد بن سعيد، وكلهم وقفه ولم يرفعه إلا إسماعيل، فإنه اختلف عنه فيه، فرفعه عنه يحيى بن عبد الملك بن أبي غنية، وجعفر بن زياد الأحمر وعمرو بن ثابت بن أبي المقدام، ووقفه غيرهم عن إسماعيل، والصحيح منه قول من وقفه، وروي عن أبي أسامة، وعن يزيد بن هارون عن إسماعيل بن أبي خالد مرفوعًا. ولا يثبت رفعه عنهما.

(١) أخرجه البخاري (١٠/ ١٥٨) كتاب النكاح، باب: اتخاذ السراري ومن أعتق جارية ثم تزوجها، حديث برقم (٥٠٨٤)، وأيضًا في (٧/ ٣٦) كتاب أحاديث الأنبياء، باب: قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ وحديث (٣٣٥٧، ٣٣٥٨)، ومسلم في صحيحه (٨/ ١٣٤) كتاب الفضائل، باب: من فضائل إبراهيم الخليل (٢٣٧١)، وأبو داود (٢/ ٢٦٤) كتاب الطلاق، باب: في الرجل يقول لامرأته: يا أختي، حديث (٢٢١٢)، والترمذي (٥/ ٣٢١) كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأنبياء -عليهم السلام- ، حديث (٣١٦٦)، والنسائي في السنن الكبرى (٥/ ٩٨) كتاب المناقب، باب: سارة -رضي الله عنها- حديث (٨٣٧٤- ٨٣٧٥)، وأحمد (٢/ ٤٠٣)، والبيهقي في سننه الكبرى (٧/ ٣٦٦)، كتاب الخلع والطلاق، باب: الرجل يقول لامرأته: يا أختي، يريد الأخوة في الإسلام.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

والمراد بما نهُوا عنه ما يؤدي إلى ذلك من إفشاء أسرار المؤمنين إلى الكفار، وإغرائِهم عليهم، وغيرِ ذلك من فنون الشرور، كما يقال للرجل: لا تقتُلْ نفسَك بيدك، ولا تلقِ نفسك في النار، إذا أقدم على ما تلك عاقبته، وهو **إما** معطوف على (يقول)، فإن جُعلت كلمة (مَنْ) موصولةً، فلا محل له من الإعراب، ولا بأس بتخلل البيان أو الاستئنافِ وما يتعلق بهما بين أجزاء الصلةِ، فإن ذلك ليس توسيطًا بالأجنبيّ، وإن جُعلت موصوفةً فمحلُه الرفع.

والمعنى: ومن الناس من إذا نهوا من جهة المؤمنين عما هم عليه من الإفساد في الأرض ﴿قَالُوٓاْ﴾ إرادةٌ للناهين أن ذلك غيرُ صادر عنهم مع أن مقصودهم الأصليَّ إنكارُ كونِ ذلك إفسادًا وادعاءُ كونِه إصلاحًا محضًا كما سيأتي توضيحه: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾ أي مقصورون على الإصلاح المحض، بحيث لا يتعلق به شائبةُ الإفساد والفساد، مشيرين بكلمة (إنما) إلى أن ذلك من الوضوح بحيث لا ينبغي أن يُرتاب فيه.

**وإما** كلامٌ مستأنَفٌ سيق لتعديد شنائعِهم. وأما عطفهُ على ﴿يَكۡذِبُونَ﴾ بمعنى ولهم عذاب أليم بكذبهم، وبقولهم حين نهوا عن الإفساد: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾ كما قيل، فيأباه أن هذا النحْوَ من التعليل حقه أن يكون بأوصافٍ ظاهرةِ العِلّية مُسلَّمةِ الثبوت للموصوف غنيةٍ عن البيان لشهرة الاتصافِ بها عند السامع أو لسبق ذكرِه صريحًا كما في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ [البقرة، الآية ١٠] فإن مضمونه عبارةٌ عما حُكي عنهم من قولهم: ﴿آمَنَّا بالله وباليومِ الآخِرِ﴾ [البقرة، الآية ٨] أو لذكر ما يستلزمه استلزامًا ظاهرًا كما في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الذينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ الله لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بما نَسُوا يَوْمَ الحِسَابِ﴾ [ص، الآية ٢٦] فإن ما ذكر من الضلال عن سبيل الله مما يوجب حتمًا نسيان جانب الآخرة التي من جملتها يوم الحساب، وما لم يكن كذلك فحقه أن يخبر بعليته قصدًا كما في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ﴾ [آل عمران، الآية ٢٤]، وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الله نَزَّلَ الكِتَابَ بِالحَقِّ﴾ [البقرة، الآية ١٧٦]، إلى غير ذلك، ولا ريب في أن هذه الشرطيةَ وما بعدها من الشرطيتين المعطوفتين عليها ليس مضمونُ شيء منها معلومَ الانتساب إليهم عند السامعين بوجه من الوجوه المذكورة، حتى تستحقَ الانتظامَ في سلك التعليل المذكور، فإذن حقُها أن تكونَ مَسوقةً على سنن تعديدِ قبائحِهم على أحد الوجهين، مفيدةً لاتصافهم بكل واحد من تلك الأوصاف قصدًا واستقلالًا، كيف لا، وقوله عز وجل: ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ المفسدونَ﴾ ينادي بذلك نداء جليا، فإنه ردٌ من جهته تعالى لدعواهم المحكية أبلغَ

رد، وأدلَّه على سَخَط عظيم حيث سُلك فيه مسلك الاستئنافِ المؤدي إلى زيادة تمكّنِ الحكم في ذهن السامع.

وصدرت الجملة بحرفي التأكيد (**ألا**) المنبّهة على تحقق ما بعدها، فإن الهمزة الإنكارية الداخلةَ على النفي تفيد تحقيق الإثبات قطعًا كما في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر، الآية ٣٦] ولذلك لا يكاد يقع ما بعدها من الجملة إلا مصدرةً بما يُتلقىٰ به القسمُ، وأختها التي هي (أمَا) من طلائع القسم.

وقيل: هما حرفان بسيطان موضوعان للتنبيه والاستفتاح و(إن) المقرِّرة للنسبة، وعُرفُ الخبر ووسَطُ ضمير الفصل لردِّ ما في قصر أنفسهم على الإصلاح من التعريض بالمؤمنين. ثم استُدرك بقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ لا يَشْعُرونَ﴾ للإيذان بأن كونهم مفسدين من الأمور المحسوسة، لكن لا حسَّ لهم حتى يُدركوه، وهكذا الكلامُ في الشرطيتين الآتيتين وما بعدهما من ردِّ مضمونهما، ولولا أن المراد تفصيلُ جناياتهم وتعديدُ خبائثهم وهَناتِهم[1] ثم إظهارُ فسادِها وإبانة بُطلانها لما فُتح هذا البابُ والله أعلم بالصواب.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ من قِبَل المؤمنين بطريق الأمر بالمعروف إثرَ نهيِهم عن المنكر إتمامًا للنُصح وإكمالًا للإرشاد: ﴿آمِنُوا﴾ حُذف المؤمَنُ به لظهوره أو أريدَ افعلوا الإيمان: ﴿كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ (الكاف) في محل النصب على أنه نعتٌ لمصدر مؤكدٍ محذوف أي آمنوا إيمانًا مماثلًا لإيمانهم فـ (ما) مصدرية أو كافة، كما في (ربما)، فإنها تكف الحرف عن العمل، وتصحح دخولَها على الجملة، وتكون للتشبيه بين مضموني الجملتين، أي حققوا إيمانَكم كما تحقق إيمانُهم، واللام للجنس، والمراد بالناس: الكاملون في الإنسانية العاملون بقضية العقل، فإن اسمَ الجنس كما يُستعمل في مسماه، يستعمل فيما يكون جامعًا للمعاني الخاصة به المقصودةِ منه، ولذلك يُسلب عما ليس كذلك، فيقال هو ليس بإنسان، وقد جمعهما من قال: [الطويل]

..... ..... ..... إذ النـاسُ نـاسٌ والـزمـانُ زمـان[2]

---

(١) يقال في فلان هنوات أي خصلات شر ولا يقال ذلك في الخير وفي الحديث: ستكون هنات وهنات فمن رأيتموه يمشي في أمة محمد ﷺ ليفرّق جماعتهم فاقتلوه وهنات أي شرور وفساد وواحدتها هَنْتٌ وقد تجمع على هنوات وقيل واحدتها هنة تأثيث هنٍ وفي حديث سطيح: ثم تكون هنات وهنات أي شدائد وأمور عظام.

(٢) عجز بيت وصدره:

بـلادٌ بـهـا كـنـا ونـحـن نـحـبُّـهـا ..... ..... .....

أو للعهد، والمرادُ به الرسولُ ﷺ ومن معه، أو مَنْ آمن مِنْ أهل جِلْدتهم كابن سلام[١] وأضرابِه.

والمعنى: آمنوا إيمانًا مقرونًا بالإخلاص، متمحّضًا عن شوائب النفاق، مماثلًا لإيمانهم ﴿قَالُوا﴾ مقابِلين للأمر بالمعروف بالإنكار المنكر، واصفين للمراجيح الرِّزانِ بضد أوصافِهم الحسانِ: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ مشيرين باللام إلى من أشير إليهم في الناس من الكاملين، أو المعهودين، أو إلى الجنس بأسره، وهم مندرجون فيه على زعمهم الفاسد، والسَّفهُ خِفةٌ وسخافةُ رأيٍ يُورِثهما قصورُ العقل، ويقابله الحِلْم والأناة، وإنما نسبوهم إليه مع أنهم في الغاية القاصية من الرشد والرزانةِ والوقار، لكمال انهماكِ أنفسِهم في السفاهة، وتماديهم في الغواية، وكونِهم ممن زُين له سوءُ عمله فرآه حسنًا، فمن حسِب الضلالَ هدىً يسمِّي الهدى ـ لا محالة ـ ضلالًا، أو لتحقير شأنهم، فإن كثيرًا من المؤمنين كانوا فقراءَ، ومنهم مَوالٍ: كصهيب[٢] وبلال[٣]، أو للتجلد وعدم المبالاة بمن آمن منهم على تقدير كون المرادِ بالناس عبدَ الله بن سلام وأمثالَه.

---

= وهو لرجل من عاد في الأغاني (٢١/ ١٠٥) وبلا نسبة في الخصائص (٣/ ٣٣٧) وشرح شواهد المغني (٢/ ٩٤٧) ولسان العرب (٦/ ١١) (أنس)، ومغني اللبيب (٢/ ٦٥٧) ويروى: «والبلاد بلاد» بدل «والزمان زمان».

(١) هو: سلمة بن سلام: أخو عبد الله بن سلام ذكره ابن منده في الصحابة وقال قال ابن عباس فيه نزلت ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله﴾ الآية.
ينظر: تكملة الإكمال (٣/ ٢٥٨)، وتوضيح المشتبه (٥/ ٢١٧)، والإصابة (٣/ ٢٦٠).

(٢) هو: الصحابي الجليل صهيب بن سنان بن مالك - ويقال خالد بن عمرو بن عقيل. وأمّه من بني مالك بن عمرو بن تميم وهو الرّومي، قيل له ذلك لأنّ الرّوم سبوه صغيراً. نشأ بالرّوم فصار ألكن ثمّ اشتراه رجل من كلب فباعه بمكّة فاشتراه عبد الله بن جدعان التميمي فأعتقه. روى ابن سعد أنّه أسلم هو وعمّار ورسول الله ﷺ في دار الأرقم. وكان من المستضعفين ممّن يعذّب في الله وهاجر إلى المدينة مع علي بن أبي طالب في آخر من هاجر في تلك السنة، فقدم في نصف ربيع الأوّل وشهد بدراً والمشاهد بعدها. مات صهيب في شوال سنة ٣٨ وهو ابن سبعين.
ينظر: الإصابة (٢/ ٢٦١ - ٢٦٣).

(٣) هو: بلال بن رباح المؤذن مولى أبي بكر، له كنى، شهد بدرًا والمشاهد كلها وسكن دمشق. له أربعة وأربعون حديثًا، اتفقا على حديث وانفرد البخاري بحديثين ومسلم بحديث. قال أنس: بلال سابق الحبشة. وقال عمر: أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا. وكان بلال ممن عذب في الله تعالى. توفي سنة عشرين هـ عن بضع وستين سنة.
ينظر: تهذيب التهذيب (١/ ٥٠٢)، وتقريب التهذيب (١/ ١٠٩)، وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال (١/ ١٤٠).

وأيا ما كان فالذي يقتضيه جزالةُ التنزيل ويستدعي فخامةُ شأنِه الجليل أن يكون صدورُ هذا القول عنهم بمحضر من المؤمنين الناصحين لهم جوابًا عن نصيحتهم، وحيث كانوا فحواه تسفيهَ أولئك المشاهيرِ الأعلام، والقدحَ في إيمانهم لزم كونُهم مجاهرين لا منافقين. وذلك مما لا يكاد يساعده السِباق والسِياق، وعن هذا قالوا: ينبغي أن يكون ذلك فيما بينهم لا على وجه المؤمنين.

قال الإمام الواحدي[1]: إنهم كانوا يُظهرون هذا القول فيما بينهم لا عند المؤمنين، فأخبر الله تعالى نبيّه عليه السلام والمؤمنين بذلك عنهم، وأنت خبير بأن إبرازَ ما صدر عن أحد المتحاورَيْن في الخلاء في معرِض ما جرى بينهما في مقام المحاورة مما لا عهدَ به في الكلام فضلًا عما هو في منصِب الإعجاز، فالحق الذي لا محيد عنه أن قولهم هذا وإن صدر عنهم بمحضر من الناصحين لا يقتضي كونَهم مجاهرين، فإنه ضربٌ من الكفر أنيقٌ، وفنٌ في النفاق عريق، مصنوعٌ على شاكلة قولِهم: ﴿وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ [النساء، الآية ٤٦] فكما أنه كلامٌ ذو وجهين مثلَهم، محتملٌ للشر، بأن يُحمل على معنى: اسمعْ منا غيرَ مُسمعٍ كلامًا ترضاه ونحوِه، وللخير بأن يُحمل على معنى: اسمَعْ غيرَ مُسْمَعٍ مكروهًا، كانوا يخاطبون به رسولَ الله ﷺ استهزاءً به، مظهرين إرادةَ المعنى الأخير، وهم مُضمرون في أنفسهم المعنى الأولَ، مطمئنون به، ولذلك نُهوا عنه.

كذلك هذا الكلامُ محتملٌ للشر كما ذكر في تفسيره، وللخير بأن يُحملَ على ادعاء الإيمان كإيمان الناس وإنكارِ ما اتُّهموا به من النفاق، على معنى: أنؤمن كما آمن السفهاءُ والمجانينُ الذين لا اعتداد بإيمانهم لو آمنوا، ولا نؤمنُ كإيمان الناس حتى تأمرونا بذلك، قد خاطبوا به الناصحين استهزاءً بهم مُرائين لإرادة المعنى الأخير، وهم معوّلون على الأول، فرُدّ عليهم ذلك بقوله عز قائلًا: ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ، وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أبلغَ ردٍّ، وجُهِّلوا أشنعَ تجهيل حيث صُدِّرت الجملةُ بحرفي التأكيد حسبما أشير إليه فيما سلف، وجعلت السفاهةُ مقصورةً عليهم وبالغةً إلى حيث لا يدرون أنهم سفهاء، وعن هذا اتضح لك سر ما مر في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّما نحنُ

---

(١) هو: علي بن أحمد بن محمد بن علي الإمام، أبو الحسن الواحدي، إمام مصنف مفسر، نحوي، أستاذ عصره. من تصانيفه: البسيط، والوسيط، والوجيز في التفسير، وأسباب النزول، وشرح ديوان المتنبي، وغير ذلك، مات سنة ثمان وستين وأربعمائة.
ينظر: وفيات الأعيان (٣/ ٣٠٣)، والبداية والنهاية (١٢/ ١١٤)، والنجوم الزاهرة (٥/ ١٠٤)، وبغية الوعاة (٢/ ١٦٨، ١٦٩).

مُصْلِحُون﴾ [البقرة، الآية ١١] فإن حمله على المعنى الأخير كما هو رأيُ الجمهور منافٍ لحالهم ضرورةَ أن مشافهتَهم للناصحين ـ بادعاء كونِ ما نُهوا عنه من الإفساد إصلاحًا كما مر ـ إظهارٌ منهم للشقاق، وبروزٌ بأشخاصهم من نَفَق النفاق. والاعتذارُ بأن المرادَ بما نُهوا عنه مداراتُهم للمشركين كما ذكر في بعض التفاسير، وبالإصلاح الذي يدعونه إصلاحَ ما بينهم وبين المؤمنين، وأن معنى قوله تعالى: ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ المفسدون﴾ [البقرة، الآية ١٢] أنهم في تلك المعاملة مفسدون لمصالح المؤمنين، لإشعارها بإعطاء الدنِيّة، وإنبائِها عن ضعفهم الملجئ إلى توسيط مَنْ يتصدىٰ لإصلاح ذاتِ البين، فضلًا عن كونهم مصلحين مما لا سبيل إليه قطعًا، فإن قوله تعالى: ﴿ولكن لا يشعرون﴾ [البقرة، الآية ١٢] ناطقٌ بفساده كيف لا وهو يقتضي أن يكون المنافقون في تلك الدعوى صادقين قاصدين للإصلاح، ويأتيهم الإفسادُ من حيث لا يشعرون، ولا ريب في أنهم فيها كاذبون لا يعاشرونهم إلا مضارّةً للدين، وخيانةً للمؤمنين، فإذن طريقُ حلِّ الأشكال ليس إلا ما أشير إليه، فإن قولَهم ﴿إنما نحن مصلحون﴾ محتملٌ للحَمْلِ على الكذب، وإنكارِ صدورِ الإفساد المنسوب إليهم عنهم، على معنى إنما نحن مصلحون لا يصدُر عنا ما تنهوننا عنه من الإفساد، وقد خاطبوا به الناصحين استهزاءً بهم وإراءةً لإرادة هذا المعنى، وهم معرِّجون على المعنى الإول، فرُد عليهم بقوله تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّهُم هُمُ المفسدون﴾ [البقرة، الآية ١٢] الآية، والله سبحانه أعلم بما أودعه في تضاعيف كتابِهِ المكنونِ من السر المخزون، نسأله العصمةَ والتوفيق، والهداية إلى سَواءِ الطريق.

وتفصيلُ هذه الآية الكريمةِ بـ «لا يعلمون» لما أنه أكثرُ طِباقًا لذكر السفه الذي هو فنٌّ من فنون الجهل، ولأن الوقوفَ على أن المؤمنين ثابتون على الحق وهم على الباطل، مَنوطٌ بالتمييز بين الحق والباطل، وذلك مما لا يتسنى إلا بالنظر والاستدلال، وأما النفاقُ وما فيه من الفتنةِ والإفسادِ وما يترتب عليه من كون مَنْ يتصفُ به مفسِدًا، فأمرٌ بديهيٌّ يقف عليه من له شعور، ولذلك فُصلت الآية الكريمةُ السابقة بـ (لا يشعرون). ﴿وإذا لَقُوا الَّذينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ بيانٌ لتبايُن أحوالِهم وتناقضِ أقوالهم في أثناء المعاملة والمخاطبةِ، حسَب تباينِ ومَساقِ ما صُدِّرت به قصتُهم لتحرير مذهبهم والترجمةِ عن نفاقهم، ولذلك لم يُتعرَّضْ هاهنا لِمُتَعَلَّق الإيمان، فليس فيه شائبةُ التكرير.

روي أن عبدَ الله بن أبيّ[1] وأصحابَه خرجوا ذاتَ يوم فاستقبلهم نفرٌ من

---

(١) هو: عبد الله بن أُبي بن مالك بن الحارث بن عبيد الخزرجي، أبو الحباب، المشهور بابن سلول، =

الصحابة، فقال ابن أُبيٍّ: انظروا كيف أرد هؤلاءِ السفهاءَ عنكم، فلما دنَوْا منهم أخذ بيد أبي بكرٍ رضي الله عنه فقال: مرحبًا بالصّدّيق سيدِ بني تميم، وشيخِ الإسلام، وثاني رسول الله ﷺ في الغار، الباذلِ نفسَه ومالَه لرسول الله، ثم أخذ بيد عمرَ رضي الله عنه فقال: مرحبًا بسيد بني عديّ، الفاروقِ القويّ في دينه الباذلِ نفسَه ومالَه لرسول الله ﷺ، ثم أخذ بيد علي كرّم الله وجهه فقال: مرحبًا بابن عمِّ رسولِ الله ﷺ وخَتَنِه[1]، وسيدِ بني هاشم ما خلا رسولَ الله ﷺ فنزلت[2]. وقيل: قال له علي رضي الله عنه: يا عبدَ الله اتق الله، ولا تنافقْ، فإن المنافقين شر خلق الله تعالى، فقال له: مهلًا يا أبا الحسن، أفيَّ تقول هذا؟ والله إن إيماننا كإيمانكم، وتصديقَنا كتصديقكم ثم افترقوا، فقال ابن أبيٍّ لأصحابه: كيف رأيتموني فعلت، فإذا رأيتموهم فافعلوا مثل ما فعلت، فأثنَوْا عليه خيرًا، وقالوا: لا نزالُ بخير ما عشتَ فينا. فرجع المسلمون إلى رسول الله ﷺ وأخبروه بذلك فنزلت[3].

واللقاءُ المصادفة، يقال لقِيته ولاقَيْته أي صادفته واستقبلتهُ، وقرئ[4]: (إذا لاقَوْا).

﴿وَإِذَا خَلَوْا﴾ من خلوتُ إلى فلان، أي انفردت معه، وقد يستعمل بالباء، أو من خلا بمعنى مضىٰ، ومنه القرونُ الخالية، وقولُهم: خلاك ذمٌّ أي جاوزك ومضىٰ عنك، وقد جُوّز كونُه من خلوتُ به إذا سخِرْتُ منه، على أن تعديته بـ (إلى) في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾ لتضمُّنه معنى الإنهاء، أي وإذا أنهَوْا إليهم السخرية الخ.

وأنت خبير بأن تقييدَ قولهم المحكيّ بذلك الإنهاءِ مما لا وجهَ له، والمرادُ بشياطينهم: المماثلون منهم للشيطان في التمرد والعناد، المظهرون لكفرهم،

---

= وسلول جدته لأبيه، من خزاعة: رأس المنافقين في الإسلام، من أهل المدينة، كان سيد الخزرج في آخر جاهليتهم. ولما مات تقدم النبي ﷺ فصلى عليه، ولم يكن ذلك من رأي عمر، فنزلت: ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره﴾ الآية. وكان عملاقًا، يركب الفرس فتخط إبهاماه في الأرض.
ينظر: تاريخ الخميس (٢/ ١٤٠)، إمتاع الأسماع (١/ ٩٩).

(١) أي صهره وزوج ابنته والاسم الخُتُونة. في التهذيب: الأحْماء من قبل الزوج والأختان من قبل المرأة والصهر يجمعهما.

(٢) ذكره السمرقندي في تفسيره (١/ ٥٥).

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ٦٩)، وعزاه للواحدي والثعلبي، عن ابن عباس.

(٤) وهي قراءة أبي حنيفة.
ينظر: اللباب (١/ ٣٥٩).

وإضافتُهم إليهم للمشاركة في الكفر، أو كبارُ المنافقين، والقائلون صغارُهم.

وجعل سيبويهِ نونَ الشيطان تارةً أصلية فوزنُه فَيْعالٌ، على أنه من شطَنَ إذا بعُدَ، فإنه بعيدٌ من الخير والرحمة، ويشهد له قولُهم تَشَيْطن، وأخرى زائدة فوزنه فعلان، على أنه من شاط أي هلك أو بطَل، ومن أسمائه الباطل، وقيل معناه هاج واحترق.

﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُم﴾ أي في الدين والاعتقاد، لا نفارقكم في حال من الأحوال، وإنما خاطبوهم بالجملة الاسمية المؤكدة، لأن مُدّعاهم عندهم تحقيقُ الثبات على ما كانوا عليه من الدين، والتأكيدُ للإنباء عن صدق رغبتهم، ووفورِ نشاطِهم، لا لإنكار الشياطين، بخلاف معاملتهم مع المؤمنين، فإنهم إنما يدّعون عندهم إحداثَ الإيمان لجزمهم بعدم رواج ادعاء الكمال فيه أو الثبات عليه.

﴿إِنَّمَا نَحْنُ﴾ أي في إظهار الإيمان عند المؤمنين ﴿مُسْتَهْزِءونَ﴾ بهم من غير أن يخطرُ ببالنا الإيمانُ حقيقةً، وهو استئنافٌ مبني على سؤالٍ ناشئ من ادعاء المعية، كأنه قيل لهم عند قولهم: (إنا معكم) فما بالُكم توافقون المؤمنين في الإتيان بكلمة الإيمان؟ فقالوا: (إنما نحن مستهزئون) بهم فلا يقدح ذلك في كوننا معكم، بل يؤكده. وقد ضمنوا جوابهم أنهم يُهينون المؤمنين، ويُعدّون ذلك نُصرةً لدينهم. أو تأكيدٌ لما قبله، فإن المستهزئ بالشيء مُصرٌّ على خلافه، أو بدلٌ منه، لأن مَنْ حَقّر الإسلامَ فقد عظّم الكفرَ، والاستهزاءُ بالشيء السخرية منه، يقال: هَزَأْتُ واستهزأت بمعنى، وأصله الخِفّة من الهُزء، وهو القتل السريع، وهزأ يهزأ مات على مكانه، وتَهْزأُ به ناقتُه أي تُسرع به وتخِف.

﴿اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أي يجازيهم على استهزائهم، سمِّي جزاؤه باسمه كما سُمي جزاءُ السيئة سيئةً إما للمشاكلة[1] في اللفظ، أو المقارنة في الوجود، أو يرجِعُ وبالُ

---

(١) المشاكلة لون بلاغي من ألوان البديع، وحدُّها عند البلاغيين: ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقًا أو تقديرًا. وما نحن فيه من النوع الأول؛ لأنه قد سبق ذكر الاستهزاء منهم، فهو على حد قول الشاعر:

قالوا اقترح لنا شيئًا نجد لك طبخه ... قلت اطبخوا لي جبة وقميصا

وقد اختلف البلاغيون: هل المشاكلة حقيقة أم مجاز؟

والمتبادر من كلام الخطيب: أن المشاكلة مجاز لغوي؛ لأنها كلمة مستعملة في غير ما وضعت له لعلاقة، بناء على أن اللام في التعريف «لوقوعه في صحبته» تعليلية، وأن الوقوع المذكور من العلاقات المعتبرة لرجوعها للمجاورة، وعليه فقول الخطيب «ذكر الشيء بلفظ غيره» شامل لجميع المجازات والكنايات، وقوله: «لوقوعه في صحبته» مخرج لما سوى المشاكلة. والقوم وإن لم ينصوا على أن الوقوع في الصحبة من العلاقات، فقد نصوا على ما يرجع إليه وهو المجاورة.

=

الاستهزاء عليهم، فيكون كالمستهزئ بهم، أو يُنزل بهم الحقارةَ والهوانَ الذي هو لازمُ الاستهزاءِ أو يعاملهم معاملةَ المستهزئ بهم. أما في الدنيا فبإجراء أحكامِ المسلمين عليهم، واستدراجِهم بالإمهال والزيادة في النعمة على التمادي في الطغيان، وأما في الآخرة فبما يُروىٰ أنه يفتح لهم بابٌ إلى الجنة فيُسرعون نحوه فإذا صاروا إليه سُدَّ عليهم الباب، وذلك قوله تعالى: ﴿فاليومَ الذينَ آمَنُوا مِنَ الكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين، الآية ٣٤].

وإنما استؤنف للإيذان بأنهم قد بلغوا في المبالغة في استهزاء المؤمنين إلى غاية ظهرت شناعاتها عند السامعين، وتعاظَمَ ذلك عليهم حتى اضْطَرَّهم إلى أن يقولوا: ما مصيرُ أمرِ هؤلاء وما عاقبةُ حالهم، وفيه أنه تعالى هو الذي يتولىٰ أمرَهم ولا يُحوجهم إلى المعارضة بالمثل، ويستهزئ بهم الاستهزاءَ الأبلغَ الذي ليس استهزاؤهم عنده من باب الاستهزاء، حيث ينزلُ بهم من النكال ويحِلُّ عليهم من الذل والهوان ما لا يوصف، وإيثارُ صيغةِ الاستقبال للدلالة على التجدد والاستمرار، كما يعرب عنه قوله عز قائلًا: ﴿أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ في كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أو مَرَّتَيْنِ﴾ [التوبة، الآية ١٢٦] وما كانوا خالين في أكثر الأوقات من تهتكِ أستارٍ وتكشفِ أسرارٍ، ونزولِ [آيةٍ] في شأنهم، واستشعارِ حذَرٍ من ذلك، كما أنبأ عنه قوله عز وجل: ﴿يَحْذَرُ المُنَافِقُونَ أن

= وقيل: المشاكلة قسم ثالث لا حقيقة ولا مجاز، أما كونها غير حقيقة فظاهر؛ لأن اللفظ لم يستعمل فيما وضع له.

وأما كونها غير مجاز، فلعدم العلاقة المعتبرة؛ لأن الوقوع في الصحبة ليس من العلاقة ولا يرجع إلى المجاورة المعتبرة علاقة، لأنها المجاورة بين مدلول اللفظ المتجوز به، وبين مدلول اللفظ المتجوز عنه، أي تقارنها في الخيال، والمشاكلة ليست كذلك؛ لأن المشاكلة أن يعدل عن اللفظ الدال على المعنى المراد إلى لفظ غيره، من غير أن يكون هناك مجاورة بين مدلولي اللفظين، وتقارن بينهما في الخيال.

والقول بأن المشاكلة ليست حقيقة ولا مجازًا هو ما ارتضاه العلامة ابن يعقوب وعبد الحكم، حيث قال: أقول: القول بكونها مجازًا ينافي كونها من المحسنات البديعية، وأنه لا بد في المجاز من اللزوم بين المعنيين في الجملة، والمعنيان في المشاكلة، تارة يكون بينهما علاقة من العلاقات المعتبرة في المجاز، وتارة لا يكون بينهما علاقة، وأن في المشاكلة نقل المعنى من لباس إلى لباس، فإن اللفظ بمنزلة اللباس، ففيها إيراد المعنى بصورة عجيبة، فيكون محسنًا معنويًا، وفي المجاز نقل اللفظ من معنى لمعنى آخر، فلا بد من علاقة مصححة للانتقال.

ينظر: شروح التلخيص (٤/ ٣١١، ٣١٢)، وحاشية الدسوقي (٤/ ٣٠٩)، والمصباح لابن مالك (٢١)، والإشارات والتنبيهات لمحمد الجرجاني (٢٦٧)، والمطول (٤٢٣)، والإيضاح مع البغية (٤/ ٢٢)، والمفتاح للسكاكي (٤٢٤)، وشرح عقود الجمان (١١٠).

﴿تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمُ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهزِءوا إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة، الآية ٦٤].

﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ أي يزيدهم ويقويهم مِنْ مدَّ الجيش وأمده إذا زاده، ومنه: مددتُ الدواةَ والسِراج إذا أصلحتهما بالحِبْر والزيت؛ وإيثارُه على يزيدهم، للرمز إلى أن ذلك منوطٌ بسوء اختيارهم لما أنه إنما يتحقق عند الاستمداد وما يجري مَجراه من الحاجة الداعية إليه، كما في الأمثلة المذكورة، وقرئ[1]: (يُمِدُّهم) من الإمداد وهو صريح في أن القراءة المشهورة ليست من المد في العمر، على أنه يستعمل باللام كالإملاء، قال تعالى: ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ [مريم، الآية ٧٩] وحذفُ الجار وإيصالُ الفعل إلى الضمير خلافُ الأصل لا يصار إليه إلا بدليل.

﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ متعلق بـ (يمُدُّهم)، والطغيانُ مجاوزة الحد في كل أمر، والمراد: إفراطُهم في العتو، وغلوُّهم في الكفر، وقرئ[2] بكسر الطاء، وهي لغة فيه كـ (لِقْيانٍ) لغةٌ في (لُقيانٍ)، وفي إضافته إليهم إيذانٌ باختصاصه بهم، وتأييدٌ لما أشير إليه من ترتب المدِّ على سوء اختيارِهم.

﴿يَعْمَهُونَ﴾ حال من الضمير المنصوب أو المجرور، لكون المضاف مصدرًا فهو مرفوع حكمًا، و(العَمَهُ) في البصيرة كالعمىٰ في البصر، وهو التحيرُ والتردد، بحيث لا يدري أين يتوجه، وإسنادُ هذا المد إلى الله تعالى مع إسناده في قوله تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُم يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ﴾ [الأعراف، الآية ٢٠٢] محققٌ لقاعدة أهل الحق من أن جميعَ الأشياء مستندةٌ من حيث الخلقُ إليه سبحانه، وإن كانت أفعالُ العباد من حيث الكسبُ مستندةً إليهم.

والمعتزلةُ لمّا تعذر عليهم إجراءُ النظم الكريم على مسلكه نكَبوا إلى شعاب التأويل، فأجابوا أولًا بأنهم لما أصرّوا على كفرهم، خذلهم الله تعالى ومنعهم ألطافَه، فتزايد الرَّيْنُ في قلوبهم فسُمِّي ذلك مددًا في الطغيان، فأُسند إيلاؤه إليه تعالى، ففي المسند مجازٌ لغوي، وفي الإسناد عقلي، لأنه إسناد للفعل إلى المسبِّب له، وفاعله الحقيقي هم الكفرة.

وثانيًا: بأنه أريد بالمد في الطغيان تركُ القسر والإلجاء إلى الإيمان كما في قوله

---

(١) ينظر: الكشاف (١/ ٦٧) والبحر المحيط (١/ ٢٠٣)، وإتحاف فضلاء البشر (١/ ٣٨٠).

(٢) وهي قراءة زيد بن علي.
ينظر: البحر المحيط (١/ ٢٠٣)، واللباب (١/ ٣٦٦).

تعالى: ﴿وَنَذَرُهُمْ في طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام، الآية ١١٠] فالمجاز في المسند فقط.

وثالثًا بأن المراد به معناه الحقيقي وهو فعل الشيطان، لكنه أُسند إليه سبحانه مجازًا، لأنه بتمكينه تعالى وإقداره.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين باعتبار اتصافهم بما ذكر من الصفات الشنيعة المميِّزة لهم عمن عداهم أكملَ تمييز، بحيث صاروا كأنهم حُضّارٌ مشاهِدون على ما هم عليه، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم في الشر وسوء الحال.

ومحله الرفعُ على الابتداء، خبرُه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بالهُدىٰ﴾ والجملة مَسوقةٌ لتقرير ما قبلها، وبيانٌ لكمال جهالتِهم فيما حُكيَ عنهم من الأقوال والأفعال بإظهار غايةِ سماجتها، وتصويرِها بصورةِ ما لا يكاد يتعاطاه مَنْ له أدنى تمييزٍ فضلًا عن العقلاء.

والضلالةُ: الجَوْرُ عن القصد، والهدىٰ التوجهُ إليه، وقد استعير الأول للعدول عن الصواب في الدين، والثاني للاستقامة عليه، والاشتراء استبدال السلعة بالثمن، أي أخذُها به لا بذلُه لتحصيلها كما قيل، وإن كان مستلزِمًا له، فإن المعتبرَ في عقد الشراء ومفهومِه هو الجلبُ دون السلب الذي هو المعتبرُ في عقد البيع، ثم استعير لأخذ شيءٍ بإعطاء ما في يده عينًا كان كلٌّ منهما أو معنى، لا للإعراض عما في يده محصَّلًا به غيرُه كما قيل، وإن استلزمه لما مر سرُّه، ومنه قوله: [الرجز]

فأخذت بالجُمّة رأسا أزعرا ... وبالثنايا الواضحاتِ الدردرا
وبالطويل العُمْرِ عُمْرا جيدرا ... كما اشترىٰ المسلمُ إذ تنصَّرا[1]

فاشتراءُ الضلالة بالهدى مستعارٌ[2] لأخذها بدلًا منه أخذًا منوطًا بالرغبة فيها والإعراض عنه، ولمّا اقتضىٰ ذلك أن يكون ما يجري مَجرىٰ الثمن حاصلًا للكفرة قبل العقد، وما يجري مَجرىٰ المبيعِ غيرَ حاصلٍ لهم إذ ذاك حسبما هو في البيت، ولا ريب في أنهم بمعزل من الهدى، مستمرون على الضلالة استدعى الحالُ تحقيقَ

---

(١) ينظر: أضواء البيان (٣/ ٤٥)، وتفسير الكشاف (٨/ ١١٢)، وتفسير البيضاوي (١/ ١٨٢)، وتفسير الثعلبي (١/ ١٥٩).

(٢) الآية من شواهد الاستعارة التبعية عند البلاغيين، والاستعارة التبعية هي ما تقع في الأمثال والصفات والحروف، فإنها لا توصف، فلا تحتمل الاستعارة بأنفسها.
ينظر: تلخيص المفتاح ومختصر السعدي، ص (٢٩)، والإكسير في علم التفسير، ص (١٠٩) وما بعدها، والطراز للعلوي (٣/ ٣٣٤) وما بعدها.

ما جرى مَجرى العِوضَيْن، فنقول وبالله التوفيق: ليس المرادُ بما تعلق به الاشتراءُ هاهنا جنسَ الضلالة الشاملةِ لجميع أصناف الكفرة، حتى تكون حاصلةً لهم من قبل، بل هو فردُها الكاملُ الخاصُّ بهؤلاء، على أن اللام للعهد، وهو عَمَهُهم المقرونُ بالمد في الطغيان، المترتبُ على ما حُكي عنهم من القبائح. وذلك إنما يحصُل لهم عند اليأس عن اهتدائهم، والختم على قلوبهم، وكذا ليس المرادُ بما في حيز الثمن نفسَ الهدى، بل هو التمكنُ التام منه بتعاضد الأسباب، وتأخذ المقدماتُ المستتبِعةُ له بطريق الاستعارة كأنه نفس الهدى بجامعِ المشاركة في استتباعِ الجدوى، ولا مرية في أن هذه المرتبة من التمكن كانت حاصلةً لهم بما شاهدوه من الآيات الباهرة والمعجزاتِ القاهرةِ من جهة الرسول ﷺ، وبما سمعوه من نصائحِ المؤمنين التي من جُملتِها ما حكي من النهي عن الإفساد في الأرض، والأمرُ بالإيمان الصحيح، وقد نبذوها وراء ظهورهم، وأخذوا بدلها الضلالة الهائلةَ التي هي العمهُ في تيه الطغيان، وحملُ الهدى على الفطرة الأصلية الحاصلة لكل أحد يأباه أَنَّ إضاعتَها غيرُ مختصة بهؤلاء، ولئن حملت على الإضاعة التامة الواصلة إلى حد الختم على القلوب المختصة بهم، فليس في إضاعتها فقط من الشناعة ما في إضاعتها مع ما يؤيدها من المؤيدات العقليةِ والنقلية، على أن ذلك يُفضي إلى كون ذكر ما فُصّل من أول السورة الكريمة إلى هنا ضائعًا، وأبعدُ منه حملُ اشتراء الضلالة بالهدى على مجرد اختيارها عليه من غير اعتبار كونه في أيديهم، بناءً على أنه يستعمل اتساعًا في إيثار أحدِ الشيئين الكائنين في شرَف الوقوع على الآخر، فإنه مع خلوِّه عن المزايا المذكورة بالمرة مُخِلٌّ برونق الترشيح الآتي، هذا على تقدير جعل الاشتراءِ المذكور عبارةً عن معاملتهم السابقة المحكية وهو الأنسبُ بتجاوب أطرافِ النظم الكريم.

وأما إذا جُعل ترجمةً عن جناية أخرى من جناياتهم فالمراد بالهدى ما كانوا عليه من معرفة صحةِ نبوةِ النبي ﷺ وحقِّيةِ دينه، بما كانوا يشاهدونه من نعوته عليه الصلاة والسلام في التوراة، وقد كانوا على يقين منه حتى كانوا يستفتحون به على المشركين ويقولون اللهم انصرنا بالنبي المبعوثِ في آخر الزمان الذي نجد نعتَه في التوراة[1]، ويقولون لهم قد أظل زمانُ نبيٍّ يخرُجُ بتصديق ما قلنا فنقتلُكم معه قتلَ عاد وإِرَم، فلما جاءهم ما عَرَفوا كفروا به كما سيأتي، ولا مَساغَ لحملِ الهدى على ما كانوا يُظهرونه عند لقاء المؤمنين، فإنها ضلالة مضاعفة.

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف (١/ ١٩٠).

﴿فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾ عطفٌ على الصلة داخلٌ في حيزها، والفاء للدلالة على ترتب مضمونِه عليها، والتجارةُ صناعة التجار، وهو التصدي للبيع والشراءِ لتحصيل الربح، وهو الفضلُ على رأس المال، يقال: ربِحَ فلان في تجارته أي استشفّ فيها وأصاب الربح، وإسناد عدمِه الذي هو عبارةٌ عن الخسران إليها، وهو لأربابها ـ بناءً على التوسع المبني على ما بينهما من الملابسة، وفائدتُه المبالغةُ في تخسيرهم لما فيه من الإشعار بكثرة الخَسار وعمومِه المستتبع لسرايته إلى ما يُلابِسُهم، وإيرادُهما إثرَ الاشتراء المستعار للاستبدال المذكور ترشيحٌ للاستعارة، وتصويرٌ لما فاتهم من فوائدِ الهدى بصورة خسارةِ التجارة الذي يَتحاشىٰ عنه كلُّ أحد للإشباع في التخسير والتحسير، ولا ينافي ذلك أن التجارة في نفسها استعارةٌ لانهماكهم فيما هم عليه من إيثار الضلالة على الهدى؛ وتمرّنُهم عليه معرفةٌ عن كون ذلك صناعةً لهم راسخة، إذ ليس من ضروريات الترشيح أن يكون باقيًا على الحقيقة، تابعًا للاستعارة لا يقصد به إلا تقويتُها، كما في قولك: رأيت أسدًا وافيَ البراثن، فإنك لا تريد به إلا زيادة تصويرٍ للشجاع، وأنه أسد كاملٌ من غير أن تريد بلفظ البراثن معنىً آخرَ، بل قد يكون مستعارًا من ملائم المستعارِ منه لملائم المستعار له، ومع ذلك يكون ترشيحًا لأصل الاستعارة كما في قوله: [الطويل]

فلما رأيتُ النَّسرَ عَزَّ ابنَ دأيةٍ وعشش في وَكْرَيه جاش له صدري[1]

فإن لفظ الوَكرين ـ مع كونه مستعارًا من معناه الحقيقي ـ الذي هو موضعٌ يتخذه الطائر للتفريخ ـ للرأس واللحية أو للفَوْدين أعني جانبي الرأس ـ ترشيحٌ باعتبار معناه الأصلي، لاستعارة لفظِ النسر للشيب، ولفظ ابن دأية للشعر الأسود، وكذا لفظُ التعشيش مع كونه مستعارًا للحلول والنزول المستمِرَّين ترشيحٌ لتينك الاستعارتين بالاعتبار المذكور، وقرئ[2] (تجاراتُهم)، وتعدُّدها لتعدد المضاف إليهم.

﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ أي إلى طرق التجارة، فإن المقصود منها سلامةُ رأس المال مع حصول الربح، ولئن فات الربح في صفقة، فربما يُتدارَك في صفقة أخرى لبقاء الأصل، وأما إتلافُ الكل بالمرة فليس من باب التجارة قطعًا، فهؤلاء الذين كان رأسُ مالهم الهدى قد استبدلوا بها الضلالة فأضاعوا كلتا الطِّلْبتين، فبقُوا خائبين

---

(١) البيت لابن المعتز في ديوانه (٢/ ٤٣)، وشواهد الكشاف (٤/ ٣٩٤)، والدر المصون (١/ ١٢٨)، واللباب (١/ ٣٦٩).

(٢) وهي قراءة ابن أبي عبلة.
ينظر: البحر المحيط (١/ ٧٣)، والكشاف (١/ ٣٧).

خاسرين نائين عن طريق التجارة بألف منزلٍ، فالجملة راجعة إلى الترشيح معطوفةٌ على ما قبلها مشاركةٌ له في الترتب على الاشتراء المذكور، والأَوْلى عطفُها على (اشتروا. . .) الخ.

﴿مَثَلُهُمْ﴾ زيادة كشف لحالهم، وتصويرٌ غِبَّ تصويرِها بصورة ما يؤدي إلى الخسارة بحسب المآل، بصورة ما يفضي إلى الخَسار من حيث النفسُ، تهويلًا لها وإبانةً لفظاعتها، فإن التمثيلَ ألطفُ ذريعةٍ[1] إلى تسخير الوهم للعقل، واستنزالِه من مقام الاستعصاء عليه، وأقوى وسيلةٍ إلى تفهيم الجاهل الغبي، وقمعِ سَوْرةِ الجامح الأبي، كيف لا، وهو رفعُ الحجاب عن وجوه المعقولات الخفية، وإبرازٌ لها في معرض المحسوسات الجلية، وإبداءٌ للمنكر في صورة المعروف، وإظهارٌ للوحشي في هيئة المألوف.

والمَثَل في الأصل بمعنى المِثْل والنظير، يقال مِثْل ومَثَل ومثيل، كشِبْهٍ وشَبَه

---

(١) الشيخ أبو السعود يفرق بين المصطلحات، وقد اختلف البلاغيون في الفرق بين التشبيه والتمثيل؛ فالرأي عند الإمام عبد القاهر أن التمثيل هو ما احتاج منه وجه الشبه إلى تأول دون نظر إلى كونه مركبًا أو مفردًا، والرأي عند السكاكي أن التمثيل هو ما كان وجه الشبه فيه مركبًا وعقليًا، والرأي عند الخطيب والجمهور أن التمثيل هو ما كان وجه الشبه فيه مركبًا، حسيًا كان أم عقليًا. وقد أفاض الإمام عبد القاهر في الأسرار عن بيان فضل التمثيل. ويمكن إجمال أسباب تأثير التمثيل عنده فيما يلي:
١- أنه يُخرِج المعقول في ثوب المحسوس.
٢- أنه يحتاج إلى طول فكر وروية.
٣- أنه يجمع بين المختلف ويؤلف بين المتنافر.
وما ذكره الشيخ أبو السعود هو من فضائل التمثيل وهو تلخيص لما قاله الشيخ عبد القاهر.
وقد ذكر السكاكي أن وجه تشبيه المنافقين بالذين شبهوا بهم في هذه الآية، هو رفع الطمع إلى تسني مطلوب بسبب مباشرة أسبابه القريبة، مع تعقيب الحرمان والخيبة لانقلاب الأسباب، وأنه أمر توهمي كما ترى، وأنه منتزع من أمور جمة، فهو على ذلك تمثيل على كل المذاهب. وقد حظي هذان التمثيلان باهتمام بالغ في الدراسات القرآنية والبلاغية.
ينظر: أسرار البلاغة، ص (١٠٨) وما بعدها هـ. ريتر، والأمثال من الكتاب والسنة للترمذي، ص (٥ - ٩)، مفتاح العلوم، ص (٣٤٧ - ٣٤٩)، والمطول، ص (٣٣٦، ٣٣٧)، والجمان في تشبيهات القرآن لابن ناقيا البغدادي، ص (٦٩)، والأمثال في القرآن لابن القيم، ص (١٢ - ١٨)، والمعجزة الكبرى للشيخ أبي زهرة، ص (٢٥٢ - ٢٥٥)، ومن بلاغة القرآن د/ أحمد بدوي، ص (٢٨ - ٣٧)، والكشاف (١/ ٢١٣)، والبيضاوي (١/ ٢٩)، وجامع البيان للطبري (١/ ١١٦)، والقرطبي (١/ ٢٦٢)، وغرائب القرآن للنيسابوري (١/ ١٦٣)، وحاشية الشيخ زاده على تفسير البيضاوي (١/ ١٦٤،١٦٥)، ونظم الدرر للبقاعي (١/ ١٢٩)، وروح المعاني للألوسي (١/ ١٧١)، والفتوحات الإلهية (١/ ٢٣).

وشبيه، ثم أطلق على القول السائر الذي يُمثّل مضربُه بمورده، وحيث لم يكن ذلك إلا قولًا بديعًا فيه غرابةٌ صيَّرتْه جديرًا بالتسيير في البلاد، وخليقًا بالقبول فيما بين كل حاضرٍ وبادٍ، استعير لكل حال أو صفةٍ أو قصة لها شأن عجيب، وخطرٌ غريب من غير أن يلاحَظ بينها وبين شيءٍ آخرَ تشبيهٌ، ومنه قوله عز وجل: ﴿ولله المثلُ الأعلى﴾ [النحل، الآية ٦٠] أي الوصفُ الذي له شأن عظيم وخطر جليل، وقوله تعالى: ﴿مثلُ الجنة التي وعد المتقون﴾ [الرعد، الآية ٣٥] أي قصتها العجيبةُ الشأن ﴿كَمَثَلِ الذِي﴾ أي الذين كما في قوله تعالى: ﴿وخُضْتُم كالذي خَاضُوا﴾ [التوبة، الآية ٦٩] خلا أنه وُحِّد الضمير في قوله تعالى: ﴿اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ نظرًا إلى الصورة، وإنما جاز ذلك مع عدم جوازِ وضعِ القائمِ مَقام القائمين، لأن المقصود بالوصف هي الجملة الواقعةُ صلةً له دون نفسه، بل إنما هو وصلة لوصف المعارف بها ولأنه حقيق بالتخفيف لاستطالته بصلته، ولذلك بولغ فيه، فحُذف ياؤه ثم كسرتُه، ثم اقتُصر على اللام في أسماء الفاعلين والمفعولين، ولأنه ليس باسم تام بل هو كجزئه، فحقه ألا يُجمع، ويستوي فيه الواحد والمتعدد، كما هو شأن أخواته، وليس **(الذين)** جمعَه المصحح بل النونُ فيه مزيدة للدلالة على زيادة المعنى، ولذلك جاء بالياء أبدًا على اللغة الفصيحة، أو قصد به جنسُ المستوقد أو الفوجُ أو الفريقُ المستوقد، والنارُ جوهرٌ لطيف مُضيء حارٌّ محرق، واشتقاقها من: نار ينورُ إذا نفَر لأن فيها حركة واضطرابًا، واستيقادُها طلبُ وُقودها، أي سطوعها وارتفاع لهبها، وتنكيرها للتفخيم.

﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ الإضاءة: فرطُ الإنارة كما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿هُوَ الذي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً والقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس، الآية ٥] وتجيء متعدية ولازمة، والفاء للدلالة على ترتبها على الاستيقاد أي فلما أضاءت النار ما حول المستوقد، أو فلما أضاء ما حوله، والتأنيث لكونه عبارةً عن الأماكن والأشياء، أو أضاءت النارُ نفسها فيما حوله على أن ذلك ظرف لإشراق النارِ المنزّلِ منزلتَها لا لنفسها، أو(ما) مزيدةٌ و(حوله) ظرف، وتأليفُ الحول للدوران، وقيل: للعام حَوْلٌ لأنه يدور ﴿ذَهَبَ الله بِنُورِهِمْ﴾ النور ضوءُ كل نيِّر، واشتقاقه من النار، والضمير لـ (الذي)، والجمع باعتبار المعنى، أي: أطفأ الله نارهم التي هي مدار نورِهم، وإنما علِق الإذهابُ بالنورِ دون نفس النار، لأنه المقصودُ بالاستيقاد، لا الاستدفاءِ ونحوه كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ﴾ حيث لم يقل فلما شب ضِرامُها أو نحو ذلك، وهو جوابُ (لمّا) أو استئنافٌ أجيب به عن سؤال سائل يقول ما بالُهم أشبَهَتْ حالهم حالَ

مستوقدٍ انطفأت ناره؟ أو بدلٌ من جملة التمثيل على وجه البيان، والضمير على الوجهين للمنافقين، والجواب محذوف كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾ [يوسف، الآية ١٥] للإيجاز والأمن من الإلباس.

كأنه قيل: فلما أضاءت ما حوله خمَدَت، فبقُوا في الظلمات خابطين متحيِّرين خائبين بعد الكدح في إحيائها، وإسنادُ الإذهاب إلى الله تعالى: إما لأن الكل بخلقه تعالى، وإما لأن الانطفاءَ حصل بسبب خفيّ، أو أمر سماوي كريح أو مطر وإما للمبالغة، كما يؤذن به تعديةُ الفعل بالباء دون الهمزة لما فيه من معنى الاستصحاب والإمساك، يقال: ذهب السلطان بماله إذا أخذه، وما أخذه الله عز وجل فأمسكه فلا مرسلَ له من بعده، ولذلك عُدل عن الضوء الذي هو مقتضى الظاهر إلى النور لأن ذهابَ الضوء قد يجامع بقاءَ النور في الجملة، لعدم استلزام عدم القوي لعدم الضعيف، والمراد إزالتُه بالكلية كما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ﴾ فإن الظلمةَ التي هي عدمُ النور وانطماسُه بالمرة، لا سيما إذا كانت متضاعفة متراكمة متراكبًا بعضُها على بعض كما يفيده الجمع والتنكير التفخيمي وما بعدها من قوله تعالى: ﴿لا يُبْصِرُونَ﴾ لا يتحقق إلا بعد ألا يبقىٰ من النور عينٌ ولا أثر، وإما لأن المراد بالنور ما لا يرضىٰ به الله تعالى من النار المجازية التي هي نارُ الفتنة والفساد كما في قوله تعالى: ﴿كلما أوقدوا نارًا للحرب أطفأها الله﴾ [المائدة، الآية ٦٤] ووصفُها بإضاءة ما حول المستوقد من باب الترشيح، أو النار الحقيقية التي يوقدها الغواة، ليتوصلوا بها إلى بعض المعاصي، ويهتدوا بها في طرق العبث والفساد، فأطفأها الله تعالى، وخيب آمالهم، و(ترك) في الأصل بمعنى طرَح وخلّى، وله مفعول واحد، فضُمِّن معنى التصيير فجرى مَجرى أفعال القلوب قال: [الكامل]

فتركتُه جَزَرَ السِّباع ينُشْنَه يقضَمْنَ حُسنَ بنانِه والمِعصَم[1]

والظلمة مأخوذة من قولهم: ما ظلمك أن تفعل كذا، أي ما منعك، لأنها تسد البصرَ، وتمنعه من الرؤية، وقرئ[2] (في ظُلْمات) بسكون اللام، و(في

---

(١) ويروى البيت هكذا:

غادَرْتُهُ جزر السباعَ ينشنَهُ ما بين قمَّة رأسه والمعصم

والبيت لعنترة في ديوانه ص (٢١٠)، وخزانة الأدب (٩/ ١٦٥، ١٦٦)، وشرح شواهد المغني (١/ ٤٨٠)، وبلا نسبة في تخليص الشواهد، ص (٤٤٥)، وسر صناعة الإعراب (٢/ ٦٩٤).

(٢) وهي قراءة الحسن، وأبي السمال، والأعمش.

ينظر: الإتحاف (١٣٠)، والبحر المحيط (٨٠)، والمحتسب لابن جني (١/ ٥٦)، وتفسير القرطبي (١/ ٢١٣)، والكشاف (١/ ٣٩).

ظلمة)[١] بالتوحيد، ومفعول ﴿لا يبصرون﴾ من قبيل المطروح، كأن الفعل غير متعد، والمعنى أن حالهم العجيبة ـ التي هي اشتراؤهم الضلالةَ ـ التي هي عبارة عن ظلمتي الكفرِ والنفاقِ المستتبعتين لظُلمة سخط الله تعالى، وظلمةِ يوم القيامة: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾ [الحديد، الآية ١٢]، وظلمةِ العقاب السرمدي ـ بالهدى، الذي هو النورُ الفطري المؤيد بما شاهدوه من دلائل الحق أو بالهدى الذي كانوا حصّلوه من التوراة حسبما ذكر ـ كحال من استوقد نارًا عظيمة حتى كاد ينتفع بها فأطفأها الله تعالى، وتركه في ظلمات هائلة لا يتسنى فيها الإبصار ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ أخبارٌ لمبتدأ محذوفٍ هو ضمير المنافقين، أو خبر واحد بالتأويل المشهور، كما في قولهم: هذا حلوٌ حامض.

والصممُ آفةٌ مانعة من السماع، وأصلُه الصلابة واكتنازُ الأجزاء، ومنه الحجرُ الأصم، والقناةُ الصماء، وصمام القارورة: سِدادُها، سمي به فقدانُ حاسة السمع لما أن سببه اكتنازُ باطن الصّماخ، وانسدادُ منافذه بحيث لا يكاد يدخله هواءٌ يحصل الصوت بتموجه، والبُكم الخُرس، والعمىٰ عدم البصر عما من شأنه أن يُبصَر، وُصفوا بذلك مع سلامة مشاعرهم المعدودة لما أنهم حيث سدوا مسامعهم عن الإصاخة لما يتلى عليهم من الآيات والذكر الحكيم، وأبَوْا أن يتلقَّوْها بالقبول، ويُنطِقوا بها ألسنتهم، ولم يجتلوا ما شاهدوا من المعجزات الظاهرة على يدي رسول الله ﷺ، ولم ينظروا إلى آيات التوحيد المنصوبة في الآفاق والأنفس بعين التدبر، وأصروا على ذلك بحيث لم يبقَ لهم احتمالُ الارعواء عنه، صاروا كفاقدي تلك المشاعر بالكلية، وهذا عند مُفْلقي سَحَرة البيان من باب التمثيل البليغ، المؤسس على تناسي التشبيه كما في قول من قال: [المتقارب]

ويصعَدُ حتى يظنَّ الجهولُ    بأن له حاجةً في السماءْ[٢]

لما أن المقدر في النظم في حكم الملفوظ، لا من قبيل الاستعارة[٣] التي يُطوىٰ

---

(١) وهي قراءة اليماني.
ينظر: البحر المحيط (١/ ٨١)، والكشاف (١/ ٣٩).

(٢) البيت لأبي تمام في: أسرار البلاغة (١/ ٢٦٣)، والإيضاح في علوم البلاغة (١/ ٢٨٢)، ومعاهد التنصيص (٢/ ١٥٢)، وتفسير البيضاوي (١/ ١٩٥).

(٣) كلمة الشيخ أبي السعود إشارة إلى ما عليه جمهور البلاغيين؛ لأن بعض العلماء يخلطون بين التشبيه البليغ والاستعارة، فيطلقون مصطلح الاستعارة على هذا الأسلوب. فقول الشاعر: =

فيها ذكرُ المستعار له بالكلية، حتى لو لم يكن هناك قرينة تحمل على المعنى الحقيقي، كما في قول زهير[1]: [الطويل]

لدى أسدٍ شاكي السلاحِ مُقذَّفٍ     له لِبَدٌ أظفارُه لم تُقَلَّمِ[2]

﴿فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ الفاء للدلالة على ترتب ما بعدها على ما قبلها، أي هم بسبب اتصافِهم بالصفات المذكورة لا يعودون إلى الهدى الذي تركوه وضيّعوه أو عن الضلالة التي أخذوها، والآيةُ نتيجةٌ للتمثيل، مفيدةٌ لزيادة تهويلٍ وتفظيع، فإن قصارىٰ أمرِ التمثيل بقاؤهم في ظلماتٍ هائلة من غير تعرضٍ لمَشْعَرَيْ السمع والنطق، ولاختلال مَشعَرِ الإبصار، وقيل الضمير المقدر وما بعده للموصول باعتبار المعنى، كالضمائر المتقدمة.

فالآية الكريمة تتمة للتمثيل، وتكميل له بأن ما أصابهم ليس مجردَ انطفاء نارهم وبقائهم في ظلمات كثيفة هائلة، مع بقاء حاسة البصر بحالها، بل اختلت مشاعرُهم

---

= وأسبلت لؤلؤًا من نرجسٍ فسَقَتْ     وردًا وعضَّت على العناب بالبرَدِ

عده أبو هلال العسكري من أتم التشبيه، وهو من الاستعارة، ونراه على النقيض يذكر أبياتًا من الاستعارة وهي من التشبيه كقول البحتري:

صفت مثل ما تصفو المدام خلاله     ورقت كما رق النسيم شمائله

وممن لا يفرق بين التشبيه البليغ والاستعارة كالآمدي والحاتمي والخفاجي وغيرهم، فهم يعدون التشبيه المضمر الأداة استعارة، وحجتهم في ذلك أن الاستعارة ليس لها آلة، وللتشبيه آلة، فإن وجدت الآلة في الأسلوب كان تشبيهًا، وإن لم توجد كان استعارة، وأن المفهوم من قولنا: زيد أسد، مثل المفهوم من قولنا: لقيت الأسد في المبالغة. وقد عارض ذلك الفهمَ القاضي الجرجاني مناقشًا عدهم بيت أبي نواس في الاستعارة:

والحب ظهر أنت راكبه     فإذا صرفت عنانه انصرفا

فقال: وليس هذا وما أشبهه استعارة، وإنما معنى البيت أن الحب مثل ظهر، أو الحب كظهر، تديره كيف شئت إذا ملكت عنانه، فهو إما ضرب مثل أو تشبيه شيء بشيء، وإنما الاستعارة ما اكتفي فيها بالاسم المستعار عن الأصل، ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها.

ينظر: أسرار البلاغة (٢/ ١٩٥)، ودلائل الإعجاز، ص (١٠٧، ١٠٨)، والوساطة بين المتنبي وخصومه، ص (٤١)، والكاشف في إعجاز القرآن، ص (٩)، والصناعتين، ص (٢٥٧).

(١) هو: زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رياح المزني، من مضر، حكيم الشعراء في الجاهلية، وكان أبوه وخاله وأخته والخنساء وابناه كعب وبجير شعراء جميعا، وكان ينظم القصيدة في شهر ويهذبها في سنة، فكانت قصائده تسمى «الحوليات»، وتوفي سنة ثلاثة عشرة ق.هـ.

ينظر: الشعر والشعراء (٤٤)، وطبقات الجمحي (١/ ٦٣)، ومعجم المؤلفين (٤/ ١٨٦).

(٢) البيت لزهير بن أبي سلمى في ديوانه، ص (٢٤)، ولسان العرب (٩/ ٢٧٧) (قذف) (١٣/ ٤١٢) (مكن)، وتاج العروس (٢٤/ ٢٤٤) (قذف)، وتهذيب اللغة (٩/ ٧٦)، وجمهرة اللغة، ص (٩٧٤).

جميعًا، واتصفوا بتلك الصفات على طريقة التشبيه أو الحقيقة فبقوا جامدين في مكاناتهم، لا يرجعون ولا يدْرون أيتقدّمون أم يتأخرون، وكيف يرجِعون إلى ما ابتدأوا منه؟ والعدولُ إلى الجملة الاسمية للدلالة على استمرار تلك الحالة فيهم.

وقرئ[١] (صمًّا بكمًا عميًا)، **إما** على الذي كما في قوله تعالى: ﴿حَمَّالَةَ الحَطَبِ﴾ [المسد، الآية ٤] والمخصوصُ بالذم هم المنافقون، أو المستوقدون **وإما** على الحالية من الضمير المنصوب في (تَركهم)، أو المرفوع في (لا يبصرون) **وإما** على المفعولية لـ (تركهم)، فالضميران للمستوقدين.

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ تمثيلٌ لحالهم إثرَ تمثيل، ليعُم البيانُ منها كل دقيق وجليل، ويوفيَ حقها من التفظيع والتهويل، فإن تفنُّنهم في فنون الكفر والضلال وتنقّلَهم فيها من حال إلى حال حقيقٌ بأن يُضربَ في شأنه الأمثال، ويُرخىٰ في حلبته أعِنّةُ المقال، ويُمدَّ لشرحه أطنابُ الإطناب، ويُعقَدَ لأجله فصولٌ وأبواب، لما أن كل كلام له حظ من البلاغة، وقسط من الجزالة والبراعة، لا بد أن يُوفَّى فيه حقُّ كلٍّ من مقامي الإطناب والإيجاز، فما ظنُّك بما في ذُروة الإعجاز من التنزيل الجليل.

ولقد نُعيَ عليهم في هذا التمثيل تفاصيلُ جناياتهم، وهو عطف على الأول على حذف المضاف لما سيأتي من الضمائر المستدعية لذلك، أي كمثل ذوي صيِّب، وكلمة (أو) للإيذان بتساوي القصتين في الاستقلال بوجه الشبه، وبصحة التمثيل بكل واحدة منهما وبهما معًا.

و(الصيب) فيعل من الصَوْب، وهو النزول الذي له وقع وتأثير، يطلق على المطر وعلى السحاب، قال الشماخ[٢] [الطويل]:

---

(١) وهي قراءة عبد الله بن مسعود وأم المؤمنين حفصة -رضي الله عنها-.
وفي تخريجها ثلاثة أوجه:
أحدها: أنه حالٌ ، وفيه وجهان:
أحدهما: هو حال من الضمير المنصوب في «تركهم».
والثاني: من المرفوع في «لا يُبصِرُون».
الثاني: النَّصْب على الذّم كقوله: ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ [المسد: ٤] وقول الآخر:
سَقَوْنِي الخَمْرَ ثُمَّ تَكَنَّفُونِي ... عُداةَ اللهِ مِنْ كَذِبٍ وزُورِ
أي: أذمُ عُداة الله.
الثالث: أن يكون منصوباً بـ «ترك»، أي: صمًّا بكماً عمياً.
ينظر: المحرر الوجيز (١/ ١٠١)، والبحر المحيط (١/ ٢١٧)، والقرطبي (١/ ١٤٩).

(٢) هو: الشماخ بن ضرار – وقال البغدادي وآخرون: اسمه معقل بن ضرار، والشماخُ لقبُه – ابن =

عفا آيَة نسجُ الجنوب مع الصَّبا وأسحمُ دانٍ صادقُ الوعد صيِّبُ[1]

ولعل الأول هو المراد هاهنا لاستلزامه الثاني، وتنكيره لما أنه أريد به نوع منه شديدٌ هائل كالنار في التمثيل الأول، وأُمِدَّ به ما فيه من المبالغات من جهة مادته الأولى التي هي الصادُ المستعليةُ، والياء المشددة والباء الشديدة، ومادته الثانية أعني الصَّوْب المنبئ عن شدة الانسكاب، ومن جهة بنائه الدال على الثبات، وقرئ[2] أو (كصائب).

﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ متعلق بـ (صيِّب)، أو بمحذوفٍ وقع صفة له، والمرادُ بـ (السماء) هذه المِظلة، وهي في الأصل: كلُّ ما علاك من سقف ونحوه، وعن الحسن أنها موجٌ مكفوف، أي ممنوع بقدرة الله عز وجل من السيلان، وتعريفها للإيذان بأن انبعاث الصيِّب ليس من أفق واحد، فإن كل أفق من آفاقها أي كلَّ ما يحيط به كلُّ أفقٍ منها سماءٌ على حِدَة، قال: [الطويل]

..... ..... ..... ومن بعدِ أرضٍ بيننا وسماءِ[3]

كما أن كل طبقة من طباقها سماء، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت، الآية ١٢] والمعنى: أنه صيِّب عام نازل من غمام مطبِقٍ آخذٍ بالآفاق، وقيل: المراد بـ (السماء) السحاب، واللام لتعريف الماهية.

= حرملة بن سنان المازني الذبياني الغطفاني، شاعر مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، وهو من طبقة لبيد والنابغة، وكان أرجز الناس على البديهة. شهد القادسية، وتوفي في غزوة موقان سنة اثنتين وعشرين هـ.
ينظر: طبقات فحول الشعراء (١/ ١٢٣)، والأغاني (٩/ ١٨٤)، والحماسة المغربية (١/ ٢٠٦)، والإصابة (٣/ ٣٥٣)، والوافي بالوفيات (١٦/ ١٠٣).

(١) ويروى البيت هكذا:
عفا آية صوب الجنوب مع الصبا بأسحم دان مزنه متصوب
وهو للنابغة الذبياني في ديوانه، ص (٧٣)، ولسان العرب (سحم)، وكتاب العين (٣/ ١٥٥)، ومقاييس اللغة (٣/ ١٤١)، ومجمل اللغة (٣/ ١٢٥)، وتاج العروس (سحم)، وأساس البلاغة ص (٢٦١) (صوب).

(٢) ينظر: اللباب (١/ ٣٨٧)، والدر المصون (١/ ١٣٦).

(٣) عجز بيت وصدره
فأوِّ لذكراها إذا ما ذكرتها ..... ..... .....
والبيت بلا نسبة في الخصائص (٢/ ٨٩، ٣/ ٣٩)، والدرر (١/ ١٩٤)، وسر صناعة الإعراب (١/ ٤١٩، ٢/ ٦٥٦)، وشرح المفصل (٤/ ٣٨)، ولسان العرب (أوه)، (أوا)، والمحتسب (١/ ٣٩)، والمنصف (٣/ ١٢٦)، وهمع الهوامع (١/ ٦١).

﴿فِيهِ ظُلُماتٌ﴾ أي أنواع منها، وهي ظُلمةُ تكاثُفِه وانتساجِه بتتابع القطر، وظلمةُ الهلال: ما يلزمه من الغمام الأسحمِ المطبق الآخذ بالآفاق مع ظلمة الليل، وجعلُه محلا لها مع أن بعضها لغيره كظلمتي الغمام والليل، لما أنهما جُعلتا من توابع ظلمتِه مبالغةً في شدته وتهويلًا لأمره، وإيذانًا بأنه من الشدة والهول بحيث تغمر ظلمتُه ظلماتِ الليل والغمام، وهو السر في عدم جعل الظلمات هي الأصلَ المستتبعَ للبواقي، مع ظهور ظرفيتها للكل، إذ لو قيل أو كظلمات فيها صيِّب... إلخ لما أفاد أن للصيِّب ظلمةً خاصة به فضلًا عن كونها غالبة على غيرها.

﴿وَرَعْدٌ﴾ وهو صوت يسمع من السحاب، والمشهور أنه يحدث من اصطكاك أجرام السحاب بعضِها ببعض، أو من انقلاع بعضِها عن بعض عند اضطرابها، بسوق الرياحِ إياه سوقًا عنيفًا ﴿وَبَرْقٌ﴾ وهو ما يلمع من السحاب من بَرَق الشيءُ بريقًا أي لَمع، وكلاهما في الأصل مصدر، ولذلك لم يجمعا، وكونُهما في الصيِّب باعتبار كونِهما في أعلاه ومصبِّه، ووصول أثرِهما إليه، وكونِهما في الظلمات الكائنةِ فيه، والتنوين في الكل للتفخيم والتهويل كأنه قيل: فيه ظلماتٌ شديدة داجية، ورعدٌ قاصفٌ، وبرق خاطف.

وارتفاع الجميع بالظرف على الفاعلية لتحقيق شرط العملِ بالاتفاق، وقيل بالابتداء، والجملةُ: إما صفةٌ لـ (صيب) أو حالٌ منه لتخصصه بالصفة، أو بالعمل فيما بعده من الجار أو من المستكنّ في الظرف الأول على تقدير كونِه صفةً لـ (صيب)، والضمائر في قوله عز وجل: **﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾** للمضاف الذي أقيم مُقامه المضافُ إليه، فإن معناه باقٍ وإن حذف لفظه تعويلًا على الدليل كما في قوله: ﴿وَكَمْ من قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فجاءَهَا بأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُون﴾ [الأعراف، الآية ٤] فإن الضمير للأهل المدلول عليه بما قام مقامه من القرية.

قال حسان[1] رضي الله عنه: [الكامل]

يَسْقُون من وَرَدَ البريصَ عليهمُ ... بَرَدىٰ يُصفقُ بالرحيق السلسلِ[2]

---

(١) هو: حسان بن ثابت بن المنذر، الخزرجي الأنصاري، أبو الوليد، الصحابي: شاعر النبي ﷺ، وأحد المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية و الإسلام، عاش ستين سنة في الجاهلية، ومثلها في الإسلام، وكان من سكان المدينة. قال أبو عبيدة: فضل حسانُ الشعراءَ بثلاثة: كان شاعرَ الأنصار في الجاهلية، وشاعر النبي في النبوة، وشاعر اليمانيين في الإسلام.
ينظر: تهذيب التهذيب (٢/ ٢٤٧)، الإصابة (١/ ٣٢٦)، خزانة الأدب (١/ ١١١)، ذيل المذيل (٢٨)، الأغاني (٤/ ١٣٤).

(٢) البيت في ديوانه ص (١٢٢) وجمهرة اللغة ص (٣١٢)، وخزانة الأدب (٤/ ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٤) =

فإن تذكير الضمير المستكن في (يُصفَّق) لرجوعه إلى الماء المضاف إلى بردى وإلا لأنّث حتمًا، وإيثارُ الجعل المنبئ عن دوام الملابسة، واستمرارِ الاستقرار على الإدخال المفيدِ لمجرد الانتقال من الخارج إلى الداخل للمبالغة في بيان سدِّ المسامع باعتبار الزمان، كما أن إيرادَ الأصابع بدلَ الأنامل للإشباع في بيان سدِّها باعتبار الذات[1]، كأنهم سدُّوها بجملتها، لا بأناملها فحسب، كما هو المعتاد، ويجوز أن يكون هذا إيماءً إلى كمال حَيْرتهم، وفرْطِ دهشتهم، وبلوغهم إلى حيث لا يهتدون إلى استعمال الجوارحِ على الوجه المعهود، وكذا الحال في عدم تعيين الأصبع المعتادة أعني السبابة.

وقيل: ذلك لرعاية الأدب، والجملةُ استئناف، لا محل لها من الإعراب، مبني على سؤال نشأ من الكلام، كأنه قيل عند بيان أحوالهم الهائلة: فماذا يصنعون في تضاعيف تلك الشدة؟ فقيل: يجعلون... إلخ.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ الصَّوَاعِقِ﴾ متعلق بـ (يجعلون) أي من أجل الصواعقِ المقارنةِ للرعد، من قولهم سقاه من الغَيْمة، والصاعقةُ: قصفةُ رعد، تنقضّ معها شعلة نار، لا تمر بشيء إلا أتت عليه. من الصَّعَق وهو شدةُ الصوت، وبناؤها إما أن يكون صفةً لقصفة الرعد أو للرعد، والتاء للمبالغة. كما في الرواية، أو مصدر كالعافية. وقد تطلق على كل هائلٍ مسموعٍ أو مشاهد، يقال: صَعَقَتْه الصاعقة إذا أهلكته بالإحراق، أو بشدة الصوت، وسدُّ الآذان إنما يفيد على التقدير الثاني دون الأول، وقرئ[2] (من الصواقع) وليس ذلك بقلب من الصواعق، لاستواء كلا البناءين في التصرف، يقال: صقَع الديكُ، وخطيب مِصْقَع أي مُجهِرٌ بخطبته.

﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ منصوب بـ (يجعلون) على العلة، وإن كان معرفة بالإضافة كقوله: [الطويل]

---

= (١١/ ١٨٨)، والدرر (٥/ ٣٨)، وشرح المفصّل (٣/ ٢٥)، ولسان العرب (٣/ ٨٨) (برد) و (٦/٧) (برص) (١٠/ ٢٠٢) (صفق) وبلا نسبة في شرح المفصّل (٦/ ١٣٣)، ولسان العرب (١١/ ٣٤٥) (سلسل) (١٤/ ٤٧٨) (ضحا).

(١) هو ما يطلق عليه عند البلاغيين المجاز المرسل، وعلاقته الكلية؛ حيث عبر بالكل عن الجزء، وفي ذلك مبالغة في إحاطة الهول بهم، وقد سبق تفصيل القول في المجاز المرسل.
ينظر: المطول (٣٥٣)، والإيضاح مع البغية (٣/ ٨٧)، والمفتاح (٥٣)، وشروح التلخيص (٤/ ١٦٨).

(٢) وهي قراءة الحسن
ينظر: الدر المصون (١/ ١٣٨)، واللباب (١/ ٣٩٢).

وأغـفِـرُ عـوراءَ الـكـريـم ادِّخـارَه وأصفَحُ عن شتم اللئيم تكرّما[1]

ولا ضير في تعدد المفعول له، فإن الفعل يعلل بعلل شتى، وقيل هو نصب على المصدرية أي يحذرون حذرًا مثل حذر الموت، والحَذر والحذار هو شدة الخوف، وقرئ[2]: (حذارَ الموت)، والموتُ: زوال الحياة، وقيل: عرَض يُضادُّها، لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ المَوْتَ والحياة﴾ [الملك، الآية ٢] ورُدّ بأن الخلق بمعنى التقدير والإعدام مقدرة.

﴿والله مُحِيطٌ بِالكافِرِين﴾ أي لا يفوتونه، كما لا يفوت المحاطُ به المحيطَ، شبه شمولَ قدرته تعالى لهم، وانطواءَ ملكوتِه عليهم، بإحاطة المحيط بما أحاط به في استحالة الفوْت.

أو شَبَّه الهيئةَ المنتزعة من شئونه تعالى معهم بالهيئة المنتزعة من أحوال المحيط مع المحاط، فالاستعارة المبنيةُ على التشبيه الأول استعارة تبعيةٌ في الصفة متفرِّعة على ما في مصدرها من الاستعارة، والمبنية على الثاني تمثيلية[3] قد اقتُصِر من طرف المشبه به على ما هو العُمدة في انتزاعِ الهيئة المشبَّه بها أعني الإحاطة والباقي منويٌّ بألفاظ متخيَّلةٍ بها يحصُل التركيبُ المعتبر في التمثيل كما مر تحريره في قوله عز وجل: ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ [البقرة، الآية ٧] والجملة اعتراضية منبهة على أن ما صنعوا من سد الآذان بالأصابع لا يغني عنهم شيئًا فإن القدَرَ لا يدافعُه الحذر، والحِيَل لا ترد بأس الله عز وجل.

وفائدة وضع الكافرين موضع الضمير الراجع إلى أصحاب الصيب الإيذانُ بأن ما دَهَمهم من الأمور الهائلة المحكية بسبب كفرهم على منهاج قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فيها صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ [آل عمران، الآية ١١٧] فإنَّ

---

(١) البيت لحاتم الطائيّ في ديوانه، ص (٢٢٤)، وخزانة الأدب (٣/ ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤)، وشرح أبيات سيبويه (١/ ٤٥)، وشرح شواهد المغني (٢/ ٩٥٢)، وشرح المفصل (٢/ ٥٤)، والكتاب (١/ ٣٦٨)، ولسان العرب (عور)، واللمع ص(١٤١)، والمقاصد النحوية (٣/ ٧٥)، ونوادر أبي زيد ص(١١٠)، وبلا نسبة في أسرار العربية ص(١٨٧)، وخزانة الأدب (٣/ ١١٥)، وشرح ابن عقيل ص (٢٩٦)، والكتاب (٣/ ١٢٦)، ولسان العرب (خصص)، والمقتضب (٢/ ٣٤٨).

(٢) وهي قراءة قتادة والضحاك بن مزاحم، وابن أبي ليلى.
ينظر: تفسير القرطبي (١/ ٢٢٠)، والكشاف (١/ ٤٢).

(٣) وهي المسماة عند القدماء بالمجاز المركب. وقد سبق تفصيل القول فيها.
ينظر: شروح التلخيص (٤/ ١٤١) وما بعدها، والإيضاح مع البغية (٣/ ١٤٦) وما بعدها، وأسرار البلاغة (١/ ٢١٢) وما بعدها، والمطول، ص (٣٠٦)، ودلائل الإعجاز، ص (١٠٧).

الإهلاك الناشئَ من السُخط أشدُّ، وقيل: هذا الاعتراض من جملة أحوالِ المشبّهِ على أن المراد بالكافرين المنافقون، قد دل به على أنه لا مدفعَ لهم من عذاب الله تعالى في الدنيا والآخرة، وإنما وُسِّط بين أحوال المشبه مع أن القياس تقديمُه أو تأخيره لإظهار كمال العنايةِ وفرطِ الاهتمام بشأن المشبه.

﴿يَكَادُ الْبَرْقُ﴾ استئناف آخرُ وقع جوابًا عن سؤال مقدر، كأنه قيل: فكيف حالُهم مع ذلك البرق؟ فقيل: يكاد ذلك ﴿يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ أي يختلِسُها ويستلبها بسرعة، و(كاد) من أفعال المقاربة وُضعت لمقاربة الخبر من الوجود، لتآخذ أسبابَه وتعاضِدَ مباديَه لكنه لم يوجد بعدُ لفقد شرطٍ أو لعُروض مانع، ولا يكون خبرُها إلا مضارعًا عاريًا عن كلمة (أن)، وشذ مجيئه اسمًا صريحًا كما في قوله: [الطويل]

فـأُبْـتُ إلـى فـهـمٍ ومـا كِـدْتُ آيـبـا[1]

وكذا مجيئه مع (أنْ) حملًا لها على عسى في مثل قول رؤبة[2]: [الرجز]

قـد كـاد مـن طـول الـبِـلـى أن يـمْـحَـصَـا[3]

كما تحمل هي عليها بالحذف لما بينهما من المقارنة في أصل المقاربة، وليس فيها شائبة الإنشائية كما في (عسى).

وقرئ[4] (يخطِف) بكسر الطاء، و(يختطف) و(يَخَطف) بفتح الياء والخاء، بنقل

---

(١) صدر بيت وعجزه:

..... ..... ..... وكم مثلها فارقتها وهي تصفر

البيت لتأبط شرًّا في ديوانه ص (٩١)، والخصائص (١/ ٣٩١)، وخزانة الأدب (٨/ ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٧٦)، والأغاني (٢١/ ١٥٩)، والدرر (٢/ ١٥٠)، وشرح التصريح (١/ ٢٠٣)، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص (٨٣)، وشرح شواهد الإيضاح ص (٦٢٩)، ولسان العرب «كيد»، والمقاصد النحوية (٢/ ١٦٥)، والإنصاف (٢/ ٥٤٤)، وأوضح المسالك (١/ ٣٠٢)، ورصف المباني ص (١٩٠)، وشرح ابن عقيل ص (١٦٤)، وشرح عمدة الحافظ ص (٨٢٢)، وشرح المفصل (٧/ ١٣)، وهمع الهوامع (١/ ١٣٠)، وشواهد الكتاب (١/ ٤٧٨)، والدر المصون (١/ ١٣٩).

(٢) هو: أبو الجحاف رؤبة بن عبد الله العجاج التميمي السعدي، راجز من الفصحاء المشهورين، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، وأخذ عنه أعيان أهل اللغة، وكانوا يحتجون بشعره، وتوفي سنة خمس وأربعين ومائة من الهجرة وكان قد أسن.
ينظر: طبقات الجمحي (٢/ ٧٦١ أ ٧٦٧)، وخزانة الأدب (١/ ٤٣)، ووفيات الأعيان (١/ ١٨٧)، والبداية والنهاية (١٠/ ٩٦).

(٣) البيت في ملحق ديوانه ص (٧٢)، والكتاب (١/ ٤٧٨)، وابن يعيش (٧/ ١٢١)، والخزانة (٤/ ٩٠)، واللسان «مصح».

(٤) وهي قراءة علي بن الحسين ويحيى بن زيد.
قال ابن عطية: ونسب المهدوي هذه القراءة إلى الحسن وأبي رجاء، وذلك وهم. =

فتحة التاء إلى الخاء، وإدغامها في الطاء، و(يِخِطف) بكسرهما على إتباع الياء الخاء، و(يُخَطِّف) من صيغة التفعيل و(يتخطف) من قوله تعالى: ﴿وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت، الآية ٦٧].

﴿كُلَّما أضاءَ لَهُمْ﴾ (كل): ظرف، و(ما) مصدرية، والزمان محذوف، أي كلَّ زمان إضاءةً، وقيل: (ما) نكرة موصوفة، معناها: الوقت، والعائد محذوف، أي كل وقت أضاء لهم فيه، والعامل في (كلما) جوابها، وهو استئناف ثالث، كأنه قيل: ما يفعلون في أثناء ذلك الهول، أيفعلون بأبصارهم ما فعلوا بآذانهم أم لا؟ فقيل: كلما نوّر البرقُ لهم ممشىً ومسلكًا على أن (أضاء) متعدٍ والمفعول محذوف، أو كلما لمع لهم على أنه لازم، ويؤيده قراءة ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ﴾.

﴿مَشَوْا فِيهِ﴾ أي في ذلك المسلك، أو في مطرح نوره خطوات يسيرة مع خوف أن يخطَف أبصارهم، وإيثارُ المشي على ما فوقه من السعي والعدو للإشعار بعدم استطاعتهم لهما.

﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ﴾ أي خفي البرقُ واستتر، والمظلم وإن كان غيرَه، لكن لمّا كان الإظلامُ دائرًا على استتاره أُسند إليه مجازًا تحقيقًا لما أريد من المبالغة في موجبات تخبُّطِهم، وقد جوز أن يكون متعديًا منقولًا من ظلم الليل. ومنه ما جاء في قول أبي تمام: [1][الطويل]

هما أظلما حاليَّ ثُمّتَ أجليا ظلامَيْهما عن وجهِ أمردَ أشيبِ[2]

ويعضُده قراءة[3] (أُظلِم) على البناء للمفعول.

﴿قَامُوا﴾ أي وقفوا في أماكنهم على ما كانوا عليه من الهيئة متحيرين مترصدين لخفقة أخرى، عسى يتسنى لهم الوصول إلى المقصد، أو الالتجاء إلى ملجأ

---

= ينظر: المحرر الوجيز (١/ ١٠٣)، والبحر المحيط، (١/ ٢٢٧)، والدر المصون (١/ ١٤١).

(١) هو: حبيب بن أوس بن الحارث الطائي، أبو تمام، الشاعر، الأديب، أحد أمراء البيان، ولد في قرية «جاسم» بسوريا سنة ثمان وثمانين ومائة هـ، ورحل إلى مصر، واستقدمه المعتصم إلى بغداد، فأجازه وقدمه على شعراء وقته، فأقام في العراق حتى توفي سنة إحدى وثلاثين ومائتين هـ. من تصانيفه: فحول الشعراء، ديوان الحماسة، مختار أشعار القبائل، نقائض جرير والأخطل.
ينظر: وفيات الأعيان (١/ ١٢١)، وطبقات الشعراء (١٣٣- ١٣٥)، وشذرات الذهب (٢/ ٧٢)، والنجوم الزاهرة (٢/ ٢٦١).

(٢) ينظر: البيت في ديوانه، ص (٣١).

(٣) قرأ بها يزيد بن قطيب والضحاك.
ينظر: المحرر الوجيز (١/ ١٠٤)، والبحر المحيط (١/ ٢٢٨)، والكشاف (١/ ٨٦).

يعصِمُهم، وإيرادُ (كلما) مع الإضاءة و(إذا) مع الإظلام للإيذان بأنهم حراصٌ على المشي، مترقبون لما يصححه، فكلما وجدوا فرصة انتهزوها، ولا كذلك الوقوف، وفيه من الدلالة على كمال التحير، وتطاير اللب ما لا يوصف.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ كلمة (لو) لتعليق حصولِ أمرٍ ماض هو الجزاءُ بحصول أمرٍ مفروض فيه هو الشرط لما بينهما من الدوران حقيقة أو ادعاء، ومن قضية مفروضية الشرطِ دلالتُها على انتفائه قطعًا، والمنازِعُ فيه مكابر، وأما دلالتها على انتفاءِ الجزاء فقد قيل وقيل.

والحق الذي لا محيد عنه أنه إن كان ما بينهما من الدوران كليا أو جزئيا قد بُني الحكم على اعتباره فهي دالةٌ عليه بواسطة مدلولها الوضعيّ لا محالة، ضرورة استلزام انتفاء العلة لانتفاء المعلول، أما في مادة الدوران الكلي كما في قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُم أَجْمَعِينَ﴾ [النحل، الآية ٩] وقولك: لو جئتني لأكرمتُك، فظاهرٌ؛ لأن وجودَ المشيئة علةٌ لوجود الهداية حقيقةً، ووجودَ المجيءِ علةٌ لوجود الإكرام ادعاءً، وقد انتفيا بحكم المفروضية فاقتضى معلولاهما حتمًا، ثم إنه قد يساق الكلامُ لتعليل انتفاء الجزاء بانتفاء الشرط كما في المثالين المذكورين، وهو الاستعمال الشائعُ لكلمة لو، ولذلك قيل: هي لامتناع الثاني لامتناع الأول، وقد تساق للاستدلال بانتفاء الثاني لكونه ظاهرًا أو مسلّمًا على انتفاء الأولِ؛ لكونه خفيا أو متنازعا فيه، كما في قوله سبحانه: ﴿لو كان فيهما آلهةٌ إلا الله لفسدتا﴾ [الأنبياء، الآية ٢٢]، وفي قوله تعالى: ﴿لو كان خيرًا ما سبقونا إليه﴾ [الأحقاف، الآية ١١] فإن فسادهما لازمٌ لتعدد الآلهةِ حقيقةً، وعدمُ سبقِ المؤمنين إلى الإيمان لازمٌ لخيريته في زعم الكفرة، ولا ريبَ في انتفاء اللازمين، فتعين انتفاءُ الملزومين حقيقة في الأول وادعاءً باطلًا في الثاني، ضرورةَ استلزامِ انتفاءِ اللازم لانتفاء الملزوم، لكن لا بطريق السببية الخارجية، كما في المثالين الأولين، بل بطريق الدلالةِ العقلية الراجعةِ إلى سببية العلم بانتفاء الثاني للعلم بانتفاء الأول، ومن لم يَتَنَبَّه له زعَم أنه لانتفاء الأولِ لانتفاء الثاني.

وأما في مادة الدوران الجزئي كما في قولك: لو طلعت الشمسُ لوُجد الضوء، فلأن الجزاءَ المنوطَ بالشرط الذي هو طلوعُها ليس وجودَ أي ضوء كان، كضوء القمر المجامعِ لعدم الطلوع مثلًا، بل إنما هو وجودُ الضوءِ الخاصِّ الناشئ عن الطلوع، ولا ريبَ في انتفائه بانتفاءِ الطلوع، هذا إذا بُني الحكمُ على اعتبار الدوران، وأما إذا بني على عدمه؛ فإما أن يعتبرَ هناك تحققُ مدارٍ آخرَ له أو لا، فإن اعتبر، فالدلالةُ

تابعةٌ لحال ذلك المدار، فإن كان بينه وبين انتفاءِ الأول منافاةٌ، تُعيِّن الدلالة كما إذا قلت: لو لم تطلُع الشمسُ لوجد الضوء، فإن وجود الضوء، وإن عُلِّق صورةً بعدم الطلوع، لكنه في الحقيقة معلَّق بسبب آخرَ له، ضرورةَ أن عدم الطلوعِ من حيث هو هو ليس مدارًا لوجود الضوء في الحقيقة.

وإنما وضع موضعَ المدار لكونه كاشفًا عن تحقق مدارٍ آخر له، فكأنه قيل: لو لم تطلعِ الشمسُ لوجد الضوء بسبب آخرَ كالقمر مثلًا. ولا ريب في أن هذا الجزاءَ منتفٍ عند انتفاء الشرط؛ لاستحالة وجودِ الضوء القمَري عند طلوع الشمس، وإن لم يكن بينهما منافاةٌ تعيِّن عدمَ الدلالة، كما في قوله ﷺ في بنت أبي سلمة[1]: «لو لم تكن ربيبتي في حِجْري ما حلَّت لي؛ لأنها ابنة أخي من الرضاعة»[2] فإن المدار المعتبرَ في ضمن الشرط ـ أعني كونها ابنة أخيه عليه السلام من الرضاعة ـ غيرُ منافٍ لانتفائه الذي هو كونُها ربيبتَه عليه السلام، بل مجامعٌ له، ومن ضرورته مجامعةُ أثرَيهما، أعني الحرمة الناشئةَ من كونها ربيبته عليه السلام، والحرمةَ الناشئة من كونها ابنةَ أخيه من الرضاعة. وإن لم يعتبر هناك تحققُ مدارٍ آخرَ، بل بني الحكمُ على اعتبار عدمِه، فلا دلالة لها على ذلك أصلًا.

كيف لا ومساق الكلام حينئذ؛ لبيانِ ثبوتِ الجزاء على كل حال بتعليقه بما ينافيه، ليُعلم ثبوتُه عند وقوعِ ما لا ينافيه بالطريق الأولى، كما في قوله عز وجل: ﴿قل لو أنتم تملِكون خزائنَ رحمةِ ربي إذًا لأمسكتم﴾ [الإسراء، الآية ١٠٠] وقوله عليه السلام: «لو كان الإيمانُ في الثريا لناله رجالٌ من فارس»[3] وقولِ علي رضي الله عنه: «لو كُشفَ الغطاءُ ما ازددتُ يقينًا»[4] فإن الأجزيةَ المذكورة قد نيطت بما ينافيها ويستدعي نقائضَها، إيذانًا بأنها في أنفسها، بحيث يجب ثبوتُها مع فرض انتفاءِ

---

(١) هي: زينب بنت أم سلمة المخزومية: وأبوها أبوسلمة: اسمه عبد الله بن عبد الأسد بن هلال وزينب أخت عمر بن أبي سلمة، أمها أم سلمة زوج النبي ﷺ. روت عن النبي ﷺ وعن أمها أم سلمة وغيرهما، وروى عنها عروة بن الزبير وغيره. وزينب هي ربيبة النبي ﷺ. ماتت سنة ثلاث وسبعين. ينظر: تهذيب الكمال: (٣٥/ ١٨٥ ـ ١٨٦).

(٢) أخرجه البخاري (٧/ ٦٣٥، ٦٣٦) كتاب المغازي، باب: عمرة القضاء، حديث (٤٢٥١) من حديث البراء بن عازب.

(٣) أخرجه البخاري (٨/ ٦٤١) كتاب التفسير، باب: سورة الجمعة، حديث (٤٨٩٧)، ومسلم (٤/ ١٩٧٢، ١٩٧٣)، كتاب فضائل الصحابة، باب: فضل فارس، حديث (٢٣١/ ٢٥٤٦)، من حديث أبي هريرة.

(٤) ذكره الثعالبي في الإعجاز والإيجاز، ص (٢٨).

أسبابها، أو تحققِ انتفاء أسبابها.

فكيف إذا لم يكن كذلك على طريقة (لو) الوصلية، في مثل قوله تعالى: ﴿يكاد زيتُها يضيء ولو لم تمسَسْه نار﴾ [النور، الآية ٣٥] ولها تفاصيلُ وتفاريعُ حررناها في تفسير قوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كنا كارهين﴾ [الأعراف، الآية ٨٨] وقول عمرَ[(١)] رضي الله عنه: «نعم العبدُ صهيبٌ لو لم يخَفِ الله لم يعصِه»[(٢)] إنْ حُمل على تعليق عدم العصيان في ضمن عدمِ الخوف بمدارٍ آخرَ نحوُ الحياء والإجلالِ وغيرهما مما يجامِعُ الخوفَ كان من قبيل حديث ابنةِ أبي سلمة، وإن حُمل بيانُ استحالة عصيانه مبالغةً كان من هذا القبيل.

والآية الكريمة، واردة على الاستعمال الشائعِ مفيدةٌ لكمال فظاعة حالِهم وغايةِ هول ما دهَمهم من المشاقّ، وأنها قد بلغت من الشدة إلى حيث لو تعلقت مشيئةُ الله تعالى بإزالة مشاعرِهم لزالت، لتحقق ما يقتضيه اقتضاءً تامًا.

وقيل: كلمة (لو) فيها لربط جزائها بشرطِها مجردًا عن الدلالة على انتفاء [أحدِهما لانتفاء][(٣)] الآخر بمنزلة كلمة (أن)، ومفعولُ المشيئة محذوفٌ جريًا على القاعدة المستمرة فإنها إذا وقعت شرطًا، وكان مفعولُها مضمونًا للجزاء، فلا يكاد يُذكر، إلا أن يكون شيئًا مستغربًا كما في قوله: [الطويل]

فلو شئتُ أن أبكي دمًا لبَكَيْتُه ... عليه ولكن ساحةُ الصبر أوسعُ[(٤)]

---

(١) هو: عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح، أمير المؤمنين، روى عن: النبي ﷺ، وعن أبي بكر، وأُبيِّ بن كعب - رضي الله عنهما - وخلق كثير، وروى عنه: أولاده: عبد الله، وعاصم، وحفصة، وخلق كثير، ولد بعد الفيل بثلاث عشرة سنة، قال ابن عبد البر: كان إسلامه عزًّا ظهر به الإسلام؛ بدعوة النبي ﷺ، وشهد بدرًا والمشاهد كلها، وولي الخلافة بعد أبي بكر، ومناقبه وفضائله كثيرة جدًّا مشهورة، وقتل يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة - وقيل: لثلاث - سنة ثلاث وعشرين، وهو ابن ثلاث وستين سنة.
ينظر: تقريب التهذيب (٢/ ٥٤)، خلاصة تهذيب الكمال (٢/ ٢٦٨)، الكاشف (٣٠٩).

(٢) قال العجلوني في «كشف الخفاء» (٢/ ٤٤٦): اشتهر في كلام الأصوليين وأصحاب المعاني وأهل العربية من حديث عمر وبعضهم يرفعه إلى النبي ﷺ وذكر البهاء السبكي أنه لم يظفر به بعد البحث، وكذا كثير من أهل اللغة، لكن نقل في المقاصد عن الحافظ ابن حجر أنه ظفر به في «مشكل الحديث» لابن قتيبة من غير إسناد، وقال في «اللآلئ»: منهم من يجعله من كلام عمر وقد كثر السؤال عنه، ولم أقف له على أصل.ا هـ.

(٣) سقط في ط.

(٤) البيت لإسحاق الخزيمي في الكامل (٤/ ٣)، والدلائل ص (١١٦)، وشرح الحماسة (٣/ ١٠٥٣)، والدر المصون (١/ ١٤٣).

أي لو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لفعل، ولكن لم يشأ لما يقتضيه من الحِكَم والمصالح، وقرئ[١] (لأذهب بأسماعهم) على زيادة الباء كما في قوله تعالى: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ [البقرة، الآية ١٩٥] الآية، والإفرادُ في المشهورة، لأن السمع مصدر في الأصل، والجملة الشرطية معطوفة على ما قبلها من الجمل الاستئنافية، وقيل: على (كلما أضاء) الخ.

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ﴾ تعليلٌ للشرطية وتقريرٌ لمضمونها الناطقِ بقدرته تعالى على إزالة مشاعرِهم بالطريق البرهاني، والشيءُ بحسب مفهومِه اللغوي: يقعُ على كل ما يصِحّ أن يُعلم ويُخبَرَ عنه كائنًا ما كان، على أنه في الأصل مصدر (شاء) أُطلِقَ على المفعول، واكتُفي في ذلك باعتبار تعلقِ المشيئةِ به من حيث العلمُ والإخبارُ عنه فقط، وقد خصَّ هاهنا بالممكن موجودًا كان أو معدومًا بقضية اختصاصِ تعلقِ القدرة به، لما أنه عبارةٌ عن التمكين من الإيجاد والإعدام الخاصَّيْن به، وقيل: هي صفةٌ تقتضي ذلك التمكينَ، والقادر: هو الذي إن شاء فعل، وإن لم يشأْ لم يفعل، والقديرُ: هو الفعّال لكل ما يشاء كما يشاء، ولذلك لم يوصَفْ به غيرُ الباري جل جلاله وتقدست أسماؤه.

ومعنى قدرتِه تعالى على الممكن الموجود حالَ وجوده: أنه إن شاء إبقاءَه على الوجود أبقاه عليه، فإن علةَ الوجود هي علةُ البقاء، وقد مر تحقيقه في تفسير قوله تعالى: ﴿رب العالمين﴾ [الفاتحة، الآية ٢] وإن شاء إعدامَه أعدمه، ومعنى قدرته على المعدوم حالَ عدمِه: أنه إن شاء إيجادَه أوجده وإن لم يشأْ لم يوجِدْه، وقيل: قدرةُ الإنسان هيئةٌ بها يتمكن من الفعل والترك، وقدرةُ الله تعالى عبارة عن نفي العجز، واشتقاقُ القدرة؛ من القَدْر لأن القادر يوقع الفعل بقدْر ما تقتضيه إرادته، أو بقدر قوتِه، وفيه دليل على أن مقدورَ العبد مقدورٌ لله تعالى حقيقة، لأنه شيء وكلُّ شيء مقدورٌ له تعالى.

واعلم أن كلَّ واحد من التمثيلين وإن احتمل أن يكون من قبيل التمثيل المفرق كما في قوله: [الطويل]

كأن قلوبَ الطير رَطْبًا ويابسًا ... لدى وَكرها العُنّابُ والحَشَفُ البالي[٢]

---

(١) وهي قراءة ابن أبي عبلة.
ينظر: تفسير القرطبي (١/ ٢٢٤)، والكشاف (١/ ٤٣).

(٢) البيت لامرئ القيس في ديوانه ص (٣٨)، وشرح التصريح (١/ ٣٨٢)، وشرح شواهد المغني (١/ ٣٤٢، ٢/ ٥٩٥، ٨١٩)، والصاحبي في فقه اللغة ص (٢٤٤)، ولسان العرب (أدب)، والمقاصد =

بأن يُشبَّه المنافقون في التمثيل الأول بالمستوقدين، وهُداهم الفطريُّ بالنار، وتأييدُهم إياه بما شاهدوه من الدلائل باستيقادها وتمكنِهم التامِّ من الانتفاع به بإضاءتها ما حولهم، وإزالته بإذهاب النور الناري، وأخذ الضلالة بمقابلته بملابستهم الظلماتِ الكثيفة وبقائهم فيها، ويشبهوا في التمثيل الثاني بالسابلة، والقرآنُ وما فيه من العلوم والمعارفِ التي هي مدارُ الحياة الأبدية بالصيب الذي هو سببُ الحياة الأرضيةِ، وما عَرَض لهم بنزوله من الغموم والأحزان، وانكساف البال بالظلمات، وما فيه من الوعد والوعيد بالرعدِ والبرقِ، وتصامِّهم عما يقرَع أسماعَهم من الوعيد بحال من يَهُولُه الرعدُ والبرق، فيخاف صواعقَه فيسدُّ أذنه عنها، ولا خلاصَ له منها، واهتزازُهم لِمَا يلمع لهم من رَشَدٍ يدركونه، أو رِفد يُحرِزونه بمشيهم في مَطْرَح ضوء البرق، كلما أضاء لهم، وتحيُّرهم في أمرهم حين عنَّ لهم مصيبةٌ بوقوفهم إذا أظلم عليهم.

لكن الحملَ على التمثيل المركب الذي لا يعتبر فيه تشبيهُ كلٍّ واحدٍ من المفردات الواقعة في أحد الجانبين بواحدٍ من المفردات الواقعة في الجانب الآخر على وجه التفصيل، بل يُنتزع فيه من المفردات الواقعة في جانب المشبَّه هيئةٌ، فتُشبَّهُ بهيئةٍ أخرى منتزعةٍ من المفردات الواقعة في جانب المشبَّه به، بأن يُنتزع من المنافقين وأحوالهم المفصلة في كل واحد من التمثيلين هيئةٌ على حدة، وينتزع من كل واحد من المستوقدين،وأصحاب الصيب وأحوالهم المحكية بهيئة بحيالهم فتشبَّه كل واحدةٍ من الأوليين بما يضاهيها من الأُخْرَيين هو الذي يقتضيه جزالةُ التنزيل ويستدعيه فخامةُ شأنه الجليلِ لاشتماله على التشبيه الأولِ إجمالًا مع أمرٍ زائدٍ هو تشبيهُ الهيئة بالهيئة، وإيذانُه بأن اجتماعَ تلك المفردات مستتبعٌ لهيئة عجيبةٍ حقيقةٍ بأن تكون مثلًا في الغرابة.

## [الحث على عبادة الله]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ إثرَ ما ذكر الله تعالى من علو طبقة كتابه الكريم وتحزُّب الناس في شأنه إلى ثلاث فرقٍ: مؤمنةٍ به محافظةٍ على ما فيه من الشرائع والأحكام، وكافرةٍ قد نبذتْه وراءَ ظهرِها بالمجاهرة والشقاق، وأخرى مذبذبةٍ بينهما بالمخادعة والنفاق، ونعْتِ كل فرقةٍ منها بما لَها من النعوت والأحوال وبين ما لهم

---

= النحوية (٣/ ٢١٦)، والمنصف (٢/ ١١٧)، وتاج العروس (بال)، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر (٧/ ٦٤)، وأوضح المسالك (٢/ ٣٢٩)، ومغني اللبيب (١/ ٢١٨، ٢/ ٣٩٢، ٤٣٩).

من المصير والمآل ـ أقبل عليهم بالخطاب على نهج الالتفات هزًّا لهم إلى الإصغاء وتوجيهًا لقلوبهم نحو التلقي، وجبرًا لما في العبادة من الكُلفة بلذة الخطاب، فأمرهم كافةً بعبادته ونهاهم عن الإشراك به.

و(**يا**) حرفٌ وضع لنداء البعيد، وقد ينادىٰ به القريبُ تنزيلًا له منزلةَ البعيد إما إجلالًا كما في قول الداعي: يا ألله ويا ربِّ، وهو أقربُ إليه من حبل الوريد استقصارًا لنفسه واستبعادًا لها من محافل الزُّلفىٰ ومنازلِ المقربين، وإما تنبيهًا على غفلته وسوءِ فهمِه وقد يُقصد به التنبيهُ على أن ما يعقبُه أمرٌ خطير يُعتنىٰ بشأنه.

و(**أيُّ**) اسمٌ مبهمٌ جعل وصلُة إلى نداء المعرف باللام لا على [أنه][1] المنادىٰ أصالةً، بل على أنه صفةٌ موضحة له مُزيلة لإبهامه، والتُزم رفعُه مع انتصاب موصوفه محلًا إشعارًا بأنه المقصود بالنداء. وأُقحمَتْ بينهما كلمةُ التنبيه تأكيدًا لمعنى النداء وتعويضًا عما يستحقه أي من المضاف إليه، ولِما ترى من استقلالِ هذه الطريقة بضروبٍ من أسباب المبالغةِ والتأكيد كثُر سلوكُها في التنزيل المجيد، كيف لا وكلُّ ما ورد في تضاعيفه على العباد من الأحكام والشرائع وغير ذلك خطوبٌ جليلةٌ حقيقةٌ بأن تقشعِرَّ منها الجلودُ وتطمئنَّ بها القلوبُ الأبية، ويتلَقَّوْها بآذانٍ واعية، وأكثرهم عنها غافلون، فاقتضى الحالُ المبالغةَ والتأكيدَ في الإيقاظ والتنبيه.

والمرادُ بـ (الناس) كافةُ المكلفين الموجودين في ذلك العصر، لما أن الجموعَ وأسماءَها المحلاة باللام للعموم بدليل صحة الاستثناءِ منها والتأكيدِ بما يفيد العمومَ كما في قوله تعالى: ﴿فسجد الملائكة كلُهم أجمعون﴾ [الحِجْر، الآية ٣٠] واستدلالِ الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين بعمومها شائعًا ذائعًا، وأما مَنْ عداهم ممن سيوجد منهم فغيرُ داخلين في خطاب المشافهة، وإنما دخولُهم تحت حُكْمِه لما تواتر من دينه ﷺ، ضرورةَ أن مقتضىٰ خطابه وأحكامِه شاملٌ للموجودين من المكلفين ولمن سيوجد منهم إلى قيام الساعة، ولا يَقدح في العموم ما رُوي عن علقمةَ[2] والحسنِ

---

(١) سقط في ط.

(٢) هو: علقمة بن قيس بن عبد الله بن علقمة بن سلامان بن كهيل بن بكر بن عوف ابن النخع النخعي، أبو شبل الكوفي، أحد الأعلام، مخضرم، روى عن: أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود وحذيفة وطائفة، وروى عنه: إبراهيم النخعي والشعبي وسلمة بن كهيل وخلق، قال إبراهيم: كان يقرأ في خمس، وقال ابن المديني: أعلم الناس بابن مسعود علقمةُ والأسود، وقال ابن حجر: ثقة ثبت فقيه عابد، توفي سنة اثنتين وستين.
ينظر: تهذيب الكمال (٢٠/ ٣٠٠)، وتهذيب التهذيب (٧/ ٢٧٦)، وتقريب التهذيب (٢/ ٣١).

البصري من أن كلَّ ما نزل فيه ﴿يا أيها الناس﴾ [البقرة، الآيات: ٢١، ١٦٧] فهو مكي[١]، إذ ليس من ضرورة نزولِه بمكة شرفها الله تعالى اختصاصُ حُكمِه بأهلها ولا من قضية اختصاصِه بهم اختصاصُه بالكفار، إذ لم يكن كلُّ أهلها حينئذٍ كفرةً، ولا ضيرَ في تحقق العبادة في بعض المكلفين قبل ورود هذا الأمر لما أن المأمورَ به القدرُ المشترك الشاملُ لإنشاء العبادةِ والثباتِ عليها والزيادةِ فيها، مع أنها متكررة حسب تكررِ أسبابها ولا في انتفاء شرطها في الآخرين منهم أعني الإيمان لأن الأمرَ بها منتظِمٌ للأمر بما لا تتم إلا به وقد عُلم من الدين ضرورةً اشتراطُها به فإن أمرَ المحْدِث بالصلاة مستتبع للأمرِ بالتوضّي لا محالة.

وقد قيل: المراد بالعبادة ما يعُمّ أفعالَ القلبِ أيضًا لما أنها عبارةٌ عن غاية التذلُّلِ والخضوعِ. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن كل ما ورد في القرآن من العبادات فمعناها التوحيد، وقيل معنى اعبدوا: وحِّدوا وأطيعوا، ولا شك في كون بعضٍ من الفِرْقتين الأخيرتين ممن لا يُجدي فيهم الإنذارُ بموجب النصِّ القاطعِ، لما أن الأمرَ لقطع الأعذار ليس فيه تكليفُهم بما ليس في وُسعهم من الإيمان بعدم إيمانهم أصلًا، إذ لا قطعَ لأحدٍ منهم بدخوله في حكم النص قطعًا، وورد النص بذلك لكونهم في أنفسهم بسوء اختيارهم كذلك لا أن كونَهم كذلك لورود النص بذلك، فلا جبر أصلًا.

نعم لتخصيص الخطاب بالمشركين وجهٌ لطيفٌ ستقف عليه عند قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُم تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة، الآية ٢٢] وإيراده تعالى بعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لتأكيد موجب الأمرِ بالإشعار بعلّيتها للعبادة.

---

(١) هذا الحديث روي مرسلًا ومسندًا:
أما المرسل: فقد أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١٤٠) كتاب فضائل القرآن، باب: ما نزل من القرآن بمكة والمدينة، وأبو عبيد القاسم (٢/ ٢٠٢) باب: منازل القرآن بمكة والمدينة، حديث (٨١٧).
وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ٧٣).
وعزاه إلى أبي عبيد، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن الضريس، وابن المنذر، وأبي الشيخ بن حيان في التفسير عن علقمة.
أما المسند: فقد أخرجه الحاكم (٣/ ١٨) كتاب الهجرة، والبيهقي في دلائل النبوة (٧/ ١٤٤) جماع أبواب نزول الوحي، باب: ذكر السور التي نزلت بمكة، والتي نزلت بالمدينة.
وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ٧٣)، وعزاه إلى البزار والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود.

﴿الذي خَلَقَكُمْ﴾ صفة أُجريت عليه سبحانه للتبجيل والتعليل إثرَ التعليل وقد جُوِّز كونُها للتقييد والتوضيح بناءً على تخصيص الخطاب بالمشركين، وحملِ الربِّ على ما هو أعمُّ من الرب الحقيقي، والآلهة التي يسمونها أربابًا، والخلق إيجاد الشيء على تقديرٍ واستواءٍ، وأصله التقدير، يقال: خلق النعلَ أي قدَّرها وسواها بالمقياس، وقرئ[1] (خلقكم) بإدغام القاف في الكاف.

﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ عطفٌ على الضمير المنصوب ومتممٌ لما قصد من التعظيم والتعليل، فإن خلقَ أصولهم من موجبات العبادة كخلق أنفسهم، و(من) ابتدائية متعلقةٌ بمحذوف أي كانوا من زمان قبلَ زمانكم، وقيل: خلقَهم من قبلِ خلقِكم فحُذف الخلقُ وأقيم الضميرُ مُقامَه، والمرادُ بهم مَنْ تقدّمهم من الأمم السالفة كافة ومن ضرورة عمومِ الخطابِ بيانُ شمولِ خلقِه تعالى للكل، وتخصيصُه بالمشركين يؤدي إلى عدم التعرضِ لخلقِ مَنْ عداهم من معاصريهم، وإخراجُ الجملة مُخرجَ الصلةِ التي حقُّها أن تكون معلومةَ الانتساب إلى الموصول عندهم أيضًا مع أنهم غيرُ معترفين بغاية الخلق، وإن اعترفوا بنفسه كما ينطِق به قوله تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله﴾ [الزخرف، الآية ٨٧] للإيذان بأن خلقهم للتقوى من الظهور بحيث لا يتأتى لأحدٍ إنكارُه، وقرئ (وخلق مَنْ قبلَكم)، وقرئ[2] (والذين مَنْ قبلكم) بإقحام الموصول الثاني بين الأول وصلته توكيدًا كإقحام اللام بين المضافين في (لا أبا لك)، أو بجعله موصوفًا بالظرف خبرًا لمبتدأ محذوف، أي الذين هم أناس كائنون من قبلكم.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون﴾ المعنى الوضعي لكلمة (لعل) هو إنشاءُ توقع أمرٍ مترددٍ بين الوقوع وعدمِه مع رجحان الأول: إما محبوبٍ فيسمَّىٰ ترجياً، أو مكروهٍ فيسمَّى إشفاقًا، وذلك المعنى قد يعتبر تحققُه بالفعل إما من جهة المتكلم كما في قولك: لعل الله يرحمني وهو الأصلُ الشائعُ في الاستعمال. لأن معانيَ الانشاءاتِ قائمةٌ به وإما من جهة المخاطب تنزيلًا له منزلةَ المتكلم في التلبّس التام بالكلام الجاري بينهما، كما في قوله سبحانه: ﴿فقولا له قولا ليِّنا لعله يتذكر أو يخشى﴾ [طه، الآية ٤٤] وقد

---

(١) وهي قراءة أبو عمرو، ويعقوب.
ينظر: الإتحاف (١٣١)، والكشاف (١/ ٤٥)، وتفسير الرازي (٢/ ٩٣)، واللباب (١/ ٤١٥).

(٢) وهي قراءة زيد بن علي.
ينظر: الكشاف (١/ ٤٥)، وتفسير الرازي (٢/ ٩٣)، واللباب (١/ ٤١٥).

يعتبر تحققُه بالقوة بضربٍ من التجوز إيذانًا بأن ذلك الأمرَ في نفسه مَئِنّةٌ[١] للتوقع متصفٌ بحيثية مصححةٍ له من غير أن يعتبر هناك توقعٌ بالفعل من متوقَعٍ أصلًا.

فإن روعِيَتْ في الآية الكريمة جهةُ المتكلم يستحيلُ إرادةُ ذلك المعنى لامتناع التوقعِ من علاّم الغيوب عز وجل فيُصار: إما إلى الاستعارة بأن يُشبَّه طلبُه تعالى من عباده التقوى مع كونهم مئنةً لها لتعاضُد أسبابها برجاء الراجي من المرجوِّ منه أمرًا هيِّنَ الحصول في كون متعلَّقِ كلٍّ منهما مترددًا بين الوقوع وعدمِه مع رجحان الأول، فيستعار له كلمةُ «لعل» استعارةً تبعية حرفيةً للمبالغة في الدلالة على قوة الطلب وقُربِ المطلوب من الوقوع، وإما إلى التمثيل بأن يلاحَظَ خلقُه تعالى إياهم مستعدين للتقوى وطلبُه إياها منهم وهم متمكنون منها جامعون لأسبابها، ويُنتزَعُ من ذلك هيئةٌ فتُشبَّه بهيئةٍ منتزعة من الراجي ورجائه من المرجو منه شيئًا سهلَ المنال، فيستعمل في الهيئة الأولى ما حقه أن يستعمل في الثانية، فيكون هناك استعارةٌ تمثيلية قد صُرِّح من ألفاظها بما هو العُمدة[٢] في انتزاع الهيئةِ المشبَّه بها أعني كلمةَ الترجي، والباقي منويٌّ بألفاظٍ متخيَّلة بها يحصُل التركيبُ المعتبرُ في التمثيل كما مر مرارًا.

وأما جعلُ المشبهِ إرادتَه تعالى في الاستعارة والتمثيل فأمرٌ مؤسَّسٌ على قاعدة الاعتزال القائلة بجواز تخلّفِ المراد عن إرادتِه تعالى، فالجملةُ حالٌ إما من فاعل خلقكم أي طالبًا منكم التقوى أو من مفعوله، وما عُطف عليه بطريق تغليبِ المخاطبين على الغائبين، لأنهم المأمورون بالعبادة أي خلقكم وإياهم مطلوبًا منكم التقوى، أو علةٌ له، فإن خلقَهم على تلك الحال في معنى خلقِهم لأجل التقوى، كأنه قيل: خلقكم لتتقوا، أو كي تتقوا، إما بناءً على تجويز تعليلِ أفعاله تعالى بأغراضٍ راجعةٍ إلى العباد كما ذهب إليه كثيرٌ من أهل السنة، وإما تنزيلًا لترتُّب الغاية على ما هي ثمرةٌ له منزلةَ ترتبِ الغرض على ما هو غرضٌ له.

فإن استتباعَ أفعاله تعالى لغاياتٍ ومصالحَ متقنةٍ جليلة من غير أن تكون هي علةٌ غائيةٌ لها بحيث لولاها لما أَقدَم عليها - مما لا نزاع فيه، وتقييدُ خلقهم بما ذكر من الحال أو العلة لتكميل عِلّيته للمأمورِ به وتأكيدِها، فإن إتيانَهم بما خُلقوا له أدخَلُ في الوجوب، وإيثارُ «تتقون» على «تعبُدون» مع موافقته لقوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن

---

(١) قيل إنه كمِئِنَّة أن يفعل ذلك أي خليق وجدير وقد يجوز أن يكون مَئِنَّة على وزن فَعِلَّة.

(٢) وسبق الحديث بالتفصيل عن الاستعارة التمثيلية وخلاف القوم فيها.
ينظر: المطول (٣٠٦)، والإيضاح مع البغية (١٤٦/٣) وما بعدها، وأسرار البلاغة (١/ ٢١٢) وما بعدها.

والإنس إلا ليعبدون﴾ [الذاريات، الآية ٥٦] للمبالغة في إيجابِ العبادةِ والتشديدِ في إلزامها، لما أن التقوىٰ قُصارى أمرِ العابد ومنتهى جُهده، فإذا لزمتهم التقوى كان ما هو أدنى منها ألزمَ، والإتيانُ به أهونَ.

وإن روعيت جهةُ المخاطبِ فلعل في معناها الحقيقي، والجملة حالٌ من ضمير اعبدوا، كأنه قيل: اعبدوا ربكم راجين للانتظام في زُمرة المتقين الفائزين بالهدى والفلاح.

## [بيان المراد بالتقوى]

على أن المرادَ بالتقوىٰ مرتبتُها الثالثة، التي هي التبتلُ إلى الله عز وجل بالكلية، والتنزُّه عن كل ما يشغل سرَّه عن مراقبته، وهي أقصى غايات العبادة التي يتنافس فيها المتنافسون، وبالانتظام القدر المشترك بين إنشائه والثباتِ عليه ليرتجيَه أربابُ هذه المرتبة وما دونها من مرتبتي التوقي عن العذاب المخلد، والتجنّبِ عن كل ما يُؤثم من فعل أو تركٍ كما مر في تفسير المتقين.

ولعل توسيطَ الحال من الفاعل بين وصْفي المفعول لما في التقديم من فوات الإشعارِ بكون الوصفِ الأول معظمَ أحكام الربوبية، وكونِه عريقًا في إيجاب العبادة وفي التأخير من زيادة طول الكلام، هذا على تقدير اعتبارِ تحققِ التوقعِ بالفعل، فأما إن اعتُبر تحققُه بالقوة فالجملةُ حال من مفعول خلقكم، وما عطف عليه على الطريقة المذكورة أي: خلقكم وإياهم حالَ كونكم جميعًا بحيث يرجو منكم كلُّ راج أن تتقوا، فإنه سبحانه وتعالى لما بَرَأهم مستعدين للتقوى، جامعين لمباديها الآفاقية والأنفسية، كان حالهم بحيث يرجو منهم كلُّ راجٍ أن يتقوا لا محالة، وهذه الحالة مقارنةٌ لخلقهم وإن لم يتحقق الرجاء قطعًا.

واعلم أن الآية الكريمةَ مع كونها بعبارتها ناطقةً بوجوب توحيده تعالى، وتحتّم عبادتِه على كافة الناس، مرشدةٌ لهم بإشارتها إلى أن مطالعةَ الآياتِ التكوينيةِ المنصوبةِ في الأنفس والآفاقِ مما يقضي بذلك قضاءً متقنًا، وقد بين فيها أولًا من تلك الآيات ما يتعلق بأنفسهم من خلقهم وخلقِ أسلافِهم؛ لما أنه أقوى شهادةً وأظهرُ دلالة، ثم عقب بما يتعلق بمعاشهم فقيل:

## [من بواعث التقوى]

﴿الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأرضَ فِرَاشًا﴾ وهو في محل النصب على أنه صفة ثانيةٌ لـ (ربكم)، موضحة أو مادحة، أو على تقدير أخُص أو أمدَح، أو في محل الرفع على

المدح والتعظيم بتقدير المبتدأ، قال ابن مالك[١]: التُزم حذفُ الفعل في المنصوب على المدح إشعارًا بأنه إنشاء كما في المنادىٰ، وحُذف المبتدأ في المرفوع إجراءً للوجهين على سَنَنٍ واحد، وأما كونُه مبتدأً خبرُه ﴿فلا تجعلوا﴾ كما قيل، فيستدعي أن يكونَ مناطُ النهي ما في حين الصلة فقط من غير أن يكون لما سلف من خلقهم وخلقِ مَنْ قبلهم مدخلٌ في ذلك مع كونه أعظمَ شأنًا، وجعل بمعنى صيّر، والمنصوبان بعده مفعولاه، وقيل: هي بمعنى خلق، وانتصابُ الثاني على الحالية، والظرفُ متعلقٌ به على التقديرين، وتقديمُه على المفعول الصريح لتعجيل المسَرَّة ببيان كون ما يعقُبه من منافع المخاطبين، وللتشويق إليه، لأن النفسَ عند تأخيرِ ما حقُّه التقديمُ لا سيما عند الإشعار بمنفعته تبقىٰ مترقبةً له، فيتمكن لديها عند ورودِه عليها فضلُ تمكن، أو لما في المؤخَّر وما عطف عليه من نوع طول. فلو قدُم لفات تجاذب أطرافِ النظم الكريم.

ومعنى جعلها فراشًا جعل بعضَها بارزًا من الماء مع اقتضاء طبعها الرسوبَ، وجعلها متوسطةً بين الصلابة واللين صالحةً للقعود عليها والنوم فيها كالبساط المفروش، وليس من ضرورة ذلك كونُها سطحًا حقيقيًا، فإن كريةَ شكلِها مع عظم جرْمها مصححٌ لافتراشها، وقرئ[٢] (بساطًا) و(مِهادًا).

﴿والسَّماءَ بِنَاءً﴾ عطفٌ على المفعولين السابقين، وتقديمُ حالِ الأرض لما أن احتياجَهم إليها وانتفاعَهم بها أكثرُ وأظهر، أي جعلها قُبة مضروبةً عليكم، والسماءُ: اسم جنسٍ يُطلق على الواحد والمتعدد، أو جمع سماوة أو سماءة، والبناءُ في الأصل مصدرٌ سُمِّي به المبنيُّ بيتًا كان أو قُبةً أو خِباءً، ومنه قولُهم: بَنىٰ على امرأته لما أنهم كانوا إذا تزوجوا امرأةً ضربوا عليها خِباءً جديدًا.

﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً﴾ عطفٌ على (جعل) أي أنزل من جهتها، أو منها إلى السحاب ومن السحاب إلى الأرض، كما رُوي ذلك عنه عليه - الصلاة والسلام - أو

---

(١) هو: محمد بن عبد الله بن عبد الله بن مالك جمال الدين أبو عبد الله الطائي الجياني الشافعي النحوي. ولد سنة ستمائة، أو إحدى وستمائة، وسمع بدمشق من السخاوي والحسن بن الصباح وجماعة. كان إمامًا في القراءات وعللها، وإليه المنتهى في اللغة العربية. من تصانيفه: ألفيته المشهورة، والتسهيل، وغير ذلك، توفي ثاني عشر شعبان سنة اثنتين وسبعين وستمائة.
ينظر: بغية الوعاة (١/ ١٣٠)، والوافي بالوفيات (٣/ ٣٦٠).

(٢) وهي قراءة يزيد الشامي
ينظر: البحر المحيط (١/ ٩٥)، والكشاف (١/ ٤٦)، وتفسير الرازي (٢/ ١٠٣).

المرادُ بـ (السماء) جهةُ العلو كما ينبئ عنه الإظهارُ في موضع الإضمار، وهو على الأولين لزيادة التقرير، و(من) لابتداء الغايةِ متعلقةٌ بـ (أنزل) أو بمحذوفٍ وقع حالًا من المفعول أي كائنًا من السماء، قُدِّم عليه لكونه نكرةً، وأما تقديمُ الظرفِ على الوجه الأول مع أن حقه التأخيرُ عن المفعول الصريح فإما لأن السماءَ أصلُه ومبدؤه، وإما لما مر من التشويق إليه مع ما فيه من مزيد انتظامٍ بينه وبين قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ﴾ أي بسبب الماء ﴿مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾.

وذلك بأن أوْدَعَ في الماء قوةً فاعلة وفي الأرض قوةً منفعلة، فتولَّد من تفاعُلِهما أصنافُ االثمار، أو بأن أجرىٰ عادتَه بإفاضة صورِ الثمار وكيفيتها المخالفة على المادة الممتزجة منها، وإن كان المؤثرَ في الحقيقة قدرتُه تعالى ومشيئتُه، فإنه تعالى قادر على أن يوجِدَ جميعَ الأشياء بلا مباد وموادَّ، كما أبدع نفوسَ المبادئ والأسباب، لكن له عز وجل في إنشائها متقلبةً في الأحوال، ومتبدلةً في الأطوار من بدائعَ حِكَمٌ باهرةٌ تُجَدِّدُ لأولي الأبصار عِبرًا ومزيدَ طُمَأنينة إلى عظيم قدرتِه ولطيفِ حكمتِه ما ليس في إبداعها بغتة.

و(من) للتبعيض لقوله تعالى: ﴿فأخرجنا به ثمرات﴾ [فاطر، الآية ٢٧] ولوقوعها بين مُنكَّرين، أعني ماءً ورزقًا كأنه قيل: وأنزل من السماء بعضَ الماء فأخرج به بعضَ الثمرات ليكون بعضَ رزقكم، وهكذا الواقعُ إذ لم ينزل من السماء كلُّ الماء، ولا أخرج من الأرض كل الثمرات، ولا جعل كلَّ المرزوق ثمارًا، أو للتبيين، و(رزقًا) مفعول بمعنى المرزوق، و(من الثمرات) بيانٌ له، أو حال منه كقولك: أنفقت من الدراهم ألفًا، ويجوز أن يكون (من الثمرات) مفعولًا و(رزقًا) حالًا منه أو مصدرًا من (أخرج)، لأنه بمعنى رزق.

وإنما شاع ورودُ الثمرات دون الثمار، مع أن الموضع موضعُ كثرة لأنه أريد بالثمرات جماعة الثمرة في قولك: أدركتْ ثمرةُ بستانه، ويؤيده القراءة على التوحيد، أو لأن الجموعَ يقعُ بعضها موقعَ بعض، كقوله تعالى: ﴿كم تركوا من جناتٍ وعيون﴾ [الدخان، الآية ٢٥] وقوله تعالى: ﴿ثلاثةَ قروءٍ﴾ [البقرة، الآية ٢٢٨] أو لأنها مُحلاة باللام خارجةٌ عن حد القِلة، واللامُ متعلقة بمحذوفٍ وقع صفةً لـ «رزقا» على تقدير كونه بمعنى المرزوق، أي رزقًا كائنًا لكم، أو دِعامةً لتقوية عمل رزقًا على تقدير كونِه مصدرًا، كأنه قيل: رزقًا إياكم.

﴿فَلاَ تَجْعَلُوا لله أَنْدَادًا﴾ إما متعلقٌ بالأمر السابق مترتِّبٌ عليه، كأنه قيل: إذا أمرتم بعبادة مَنْ هذا شأنه من التفرد بهذه النعوت الجليلة والأفعال الجميلة فلا

تجعلوا له شريكًا، وإنما قيل: أندادًا باعتبار الواقع، لا لأن مدارَ النهي هو الجمعية، وقرئ[1] (نِدًّا)، وإيقاعُ الاسم الجليل موقعَ الضمير لتعيين المعبودِ بالذاتِ إثرَ تعيينه بالصفات، وتعليلِ الحُكمِ بوصف الألوهية التي عليها يدور أمرُ الوحدانية واستحالةُ الشِّركة، والإيذانِ باستتباعها لسائر الصفات، وإما معطوفٌ عليه كما في قوله تعالى: ﴿اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا﴾ [النساء، الآية ٣٦] والفاء للإشعار بعِلّية ما قبلها من الصفات المُجراة عليه تعالى للنهي أو الانتهاء أو لأن مآلَ النهْي هو الأمرُ بتخصيص العبادة به تعالى، المترتبُ على أصلها.

كأنه قيل: اعبدوه فخُصُّوها به، والإظهارُ في موضع الإضمار لما مر آنفًا، وقيل: هو نفيٌ منصوبٌ بإضمار أن جوابًا للأمر، ويأباه أن ذلك فيما يكون الأول سببًا للثاني. ولا ريب في أن العبادة لا تكون سببًا للتوحيد، الذي هو أصلُها ومبناها.

وقيل: هو منصوبٌ بـ «لعل» نصبَ (فَأَطَّلِعَ) في قوله تعالى: ﴿لعلي أبلغُ الأسبابَ أسبابَ السموات فأطلعَ إلى إله موسى﴾ [غافر، الآية ٣٧] أي: خلقكم لتتقوا وتخافوا عقابه فلا تُشبِهوه بخلقه، وحيث كان مدارُ هذا النصب تشبيهَ لعل في بُعْد المرجوِّ بليت كان فيه تنبيهٌ على تقصيرهم بجعلهم المرجوَّ القريبَ بمنزلة المتمنىٰ البعيد، وقيل: هو متعلِّق بقوله تعالى: ﴿الذي جعل﴾ [البقرة، الآية: ٢٢] إلخ، على تقدير رفعِه على المدح، أي هو الذي خصّكم بهذه الآياتِ العظامِ والدلائل النيِّرة، فلا تتخذوا له شركاءَ، وفيه ما مر من لزوم كون خلقهم وخلقِ أسلافِهم بمعزل من مناطية النهي مع عراقتهما فيها.

وقيل: هو خبرٌ للموصول بتأويل مَقولٍ في حقه، وقد عرفت ما فيه مع لزوم المصير إلى مذهب الأخفش في تنزيل الاسم الظاهرِ منزلةَ الضمير كما في قولك: زيدٌ قام أبو عبد الله إذا كان ذلك كنيتَه.

والند المثل المساوي من ندّ نُدُودًا إذا نفر، ونادَدْتُه خالفته، خُص بالمخالف المماثل بالذات كما خص المساوي بالمماثل في المقدار، وتسمية ما يعبده المشركون من دون الله أندادًا والحال أنهم ما زعموا أنها تماثله تعالى في صفاته ولا أنها تخالفه في أفعاله لما أنهم لما تركوا عبادته تعالى إلى عبادتها، وسمَّوْها آلهةً شابهتْ حالُهم حالَ من يعتقد أنها ذواتٌ واجبةُ بالذات، قادرة على أن تدفع عنهم بأسَ الله عز وجل، وتمنحهم ما لم يُرد الله تعالى بهم من خير، فتهكّم بهم، وشنع عليهم أن

---

(١) ينظر: البحر المحيط (١/ ٢٣٩)، ونسبها إلى زيد بن علي بن محمد بن السميفع.

جعلوا أندادًا لمن يستحيل أن يكون له ندٌّ واحد وفي ذلك قال موحِّد الجاهلية زيد بن عمرو بن نفيل[١]:

أربًّا واحدًا أم ألفَ ربٍّ أدينُ إذا تقسَّمت الأمورُ
تركتُ اللاتَ والعزّى جميعًا كذلك يفعل الرجلُ البصير[٢]

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُم تَعْلَمُونَ﴾ حال من ضمير لا تجعلوا بصرف التقييد إلى ما أفاده النهي من قُبح المنهي عنه ووجوبِ الاجتنابِ عنه، ومفعول تعلمون مطروحٌ بالكلية كأنه قيل: لا تجعلوا ذلك فإنه قبيحٌ واجبُ الاجتناب عنه، والحال أنكم من أهل العلم والمعرفة بدقائق الأمورِ وإصابة الرأي، أو مقدرٌ حسبما يقتضيه المقام، نحو وأنتم تعلمون بطلان ذلك، أو تعلمون أنه لا يماثله شيء، أو تعلمون ما بينه وبينها من التفاوت، أو تعلمون أنها لا تفعل مثلَ أفعاله كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ شُركائكُم مَنْ يفعلُ مِنْ ذَلِكُم مِنْ شيءٍ﴾ [الروم، الآية ٤٠] أو غير ذلك.

وحاصلُه تنشيطُ المخاطبين وحثُّهم على الانتهاء عما نُهوا عنه، هذا هو الذي يستدعيه عمومُ الخطاب في النهي بجعل المنهي عنه القدرَ المشتركَ المنتظِمَ لإنشاء الانتهاءِ كما هو المطلوبُ من الكفرة، وللثبات عليه كما هو شأنُ المؤمنين حسبما مر مثلُه في الأمر، وأما صرفُ التقييد إلى نفس النهي فيستدعي تخصيصَ الخطاب بالكفرة لا محالة إذ لا يتسنى ذلك بطريق قصرِ النهي على حالة العلمِ ضرورةَ شمولِ التكليفِ للعالم والجاهلِ المتمكنِ[٣] من العلم بل إنما يتأتى بطريق المبالغة في التوبيخ والتقريع، بناءً على أن تعاطيَ القبائحِ من العالِمين بقُبحها أقبحُ؛ وذلك إنما يُتصور في حق الكفرة، فمَنْ صرَفَ التقييدَ إلى نفس النهي مع تعميم الخطاب للمؤمنين أيضًا فقد نأى عن التحقيق.

إن قلت: أليس في تخصيصه بالكفرة في الأمر والنهي خلاصٌ من أمثال ما مر من التكلفات وحسنُ انتظام بين السباقِ والسياق، إذ لا محيدَ في آية التحدي من تجريد الخطابِ، وتخصيصُه بالكفرة لا محالة مع ما فيه من رِباء محل المؤمنين ورفع شأنهم

---

(١) هو: زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى، القرشي العدوي: نصير المرأة في الجاهلية، وأحد الحكماء. وهو ابن عم عمر بن الخطاب. لم يدرك الإسلام، وكان يكره عبادة الأوثان ولا يأكل مما ذبح عليها.
ينظر: الأعلام للزركلي (٣/ ٦٠).

(٢) ينظر: جمهرة اللغة ص (٨٠)، والأغاني (٣/ ١١٨).

(٣) في ط: والمتمكن.

عن حيز الانتظام في سلك الكفرة والإيذان بأنهم مستمرون على الطاعة والعبادة حسبما مر في صدر السورة الكريمة مستغنون في ذلك عن الأمر والنهي؟ قلت: بلى إنه وجهٌ سَرِيٌّ، ونهج سوي، لا يضِلُّ من ذهب إليه ولا يزِلُّ من ثبَّت قدمَه عليه، فتأمل.

## [دلائل أن القرآن من عند الله]

وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ شروعٌ في تحقيق أن الكتابَ الكريم الذي من جُملته ما تلي من الآيتين الكريمتين، الناطقتين بوجوب العبادةِ والتوحيدِ منزلٌ من عند الله عز وجل على رسوله ﷺ، كما أن ما ذكر فيهما من الآيات التكوينيةِ الدالةِ على ذلك صادرة عنه تعالى لتوضيح اتصافِه بما ذكر في مطلَعِ السورةِ الشريفة من النعوتِ الجليّةِ التي من جملتها نزاهتُه عن أن يعتريَه ريبٌ ما، والتعبيرُ عن اعتقادهم في حقه بالريب مع أنهم جازمون بكونه من كلام البشر كما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة، الآية ٢٣] **إما** للإيذان بأن أقصىٰ ما يمكن صدورُه عنهم وإن كانوا في غاية ما يكونُ من المكابرة والعِناد هو الارتيابُ في شأنه.

وأما الجزمُ المذكورُ فخارجٌ من دائرة الاحتمال، كما أن تنكيرَه وتصديرَه بكلمة الشكِّ للإشعار بأن حقَّه أن يكون ضعيفًا مشكوكَ الوقوع، **وإما** للتنبيه على أن جزمَهم ذلك بمنزلة الريب(١) الضعيف لكمالِ وضوحِ دلائلِ الإعجازِ ونهايةِ قوتِها.

---

(١) في ط: الرتب.

وإنما لم يقل وإن ارتبتم فيما نزلنا. . . إلخ، لما أشير إليه فيما سَلَف من المبالغة في تنزيه ساحةِ التنزيلِ عن شائبة وقوعِ الريب فيه حسْبما نطَق به قولُه تعالى: ﴿لا ريب فيه﴾ [البقرة، الآية ٢] للإشعار بأن ذلك إنْ وقع، فمن جهتهم لا من جهته العاليةِ، واعتبارُ استقرارِهم فيه وإحاطتُه بهم لا ينافي اعتبارَ ضعفِه وقِلته، لما أن ما يقتضيه ذلك هو دوامُ ملابستهم به لا قوتُه وكثرتُه.

و(مِن) في (مما) ابتدائيةٌ متعلقة بمحذوفٍ وقع صفةً لـ (ريب)، وحملُها على السببية ربما يوهمُ كونَه محلًا للريب في الجملة وحاشاه من ذلك، و(ما) موصولةً كانت أو موصوفةً عبارةٌ عن الكتاب الكريم لا عن القدر المشتركِ بينه وبين أبعاضِه، وليس معنى كونِهم في ريب منه ارتيابَهم في استقامة معانيه، وصحةِ أحكامِه، بل في نفس كونِه وحيًا منزلًا من عند الله عز وجل.

وإيثارُ التنزيلِ المنبئ[١] عن التدريج على مطلقِ الإنزالِ لتذكيرِ منشأ ارتيابِهم، وبناءُ التحدي عليه إرخاءٌ للعِنان وتوسيعًا للميدان، فإنهم كانوا اتخذوا نزولَه منجّمًا وسيلةً إلى إنكاره، فجُعل ذلك من مبادي الاعتراف به، كأنه قيل: إن ارتبتم في شأن ما نزلناه على مهل وتدريجٍ؛ فهاتوا أنتم مثلَ نَوْبةٍ فذةٍ من نُوَبه، ونَجْم فَرْدٍ من نجومه، فإنه أيسرُ عليكم من أن يُنزَّلَ جُملةً واحدة، ويُتحدَّى بالكل.

وهذا كما ترى غايةُ ما يكون في التبكيت وإزاحةِ العلل، وفي ذكره ﷺ بعنوان العبودية مع الإضافة إلى ضميرِ الجلالة من التشريفِ والتنويه والتنبيهِ على اختصاصه به عز وجل وانقيادِه لأوامره تعالى ما لا يخفى.

وقرئ[٢] (على عبادنا) والمرادُ هو ﷺ وأمتُه، أو جميعُ الأنبياءِ عليهم السلام، ففيه إيذانٌ بأن الارتيابَ فيه ارتيابٌ فيما أنزل على مَنْ قبلَه لكونه مصدِّقًا له ومهيمِنًا عليه.

والأمرُ في قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾ من باب التعجيز وإلقامِ الحجر، كما في قوله تعالى: ﴿فأتِ بها من المغرب﴾ [البقرة، الآية ٢٥٨] والفاءُ للجواب، وسببيةُ الارتياب للأمر، أو الإتيانِ بالمأمور به؛ لما أشير إليه من أنه عبارةٌ عن جزمهم المذكور، فإنه سببٌ للأول مطلقًا، وللثاني على تقدير الصدقِ، كأنه قيل: إن كان الأمرُ كما زعمتم من كونه كلامَ البشر، فأتوا بمثله، لأنكم تقدِرون على ما يقدِر عليه سائرُ بني نوعِكم.

---

(١) في ط: المبني.

(٢) ينظر: البحر المحيط (١/ ٩٥)، والكشاف (١/ ٤٧)، والدر المصون (١/ ١٥٤)، واللباب (١/ ٤٣٣).

والسُورة الطائفة من القرآن العظيم المترجمة، وأقلها ثلاثُ آيات، وواوُها أصليةٌ منقولةٌ من سُور البلد، لأنها محيطةٌ بطائفةٍ من القرآن مفرَزةٍ مَحُوزةٍ على حِيالها، أو محتويةٍ على فنون رائقةٍ من العلوم، احتواءَ سورِ المدينة على ما فيها، أو من السَّوْرة التي هي الرتبة، قال: [الكامل]

ولــرهــط حــرّابٍ وقــدّ سَــوْرةٌ  في المجد ليس غرابُها بمُطارِ(١)

فإن سور القرآن مع كونها في أنفسها رُتبًا من حيث الفضل والشرف أو من حيث الطولُ والقِصَر، فهي من حيث انتظامها مع أخواتها في المصحف مراتبُ يرتقي إليها القارئ شيئًا فشيئًا. وقيل: واوها مُبدلةٌ من الهمزة، فمعناها البقيةُ من الشيء، ولا يخفى ما فيه. ومن في قوله تعالى: ﴿مِنْ مِثْلِهِ﴾ بيانيةٌ متعلقة بمحذوفٍ وقع صفةً لـ:(سورة)، والضمير لـ (ما نزلنا)، أي بسورة كائنةٍ من مثله في علو الرتبة وسموِّ الطبقة، والنظمِ الرائق والبيانِ البديع، وحيازةِ سائرِ نعوتِ الإعجاز.

وجعلُها تبعيضيةً يوهم أن له مثلًا محققًا قد أريد تعجيزُهم عن الإتيان ببعضه، كأنه قيل: فأتوا ببعضِ ما هو مثلٌ له فلا يُفهم منه كونُ المماثلة من تتمة المعجوز عنه، فضلًا عن كونها مدارًا للعجز مع أنه المراد.

وبناءُ الأمر على المجاراة معهم بحسب حُسبانِهم حيث كانوا يقولون: ﴿لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ [الأنفال، الآية ٣١] أو على التهكم بهم يأباه ما سبق من تنزيله منزلةَ الريب، فإن مبنىٰ التهكم على تسليم ذلك منهم وتسويفِه ولو بغير جِدّ.

وقيل: هي زائدة كما هو رأيُ الأخفش، بدليل قوله تعالى: ﴿فأتوا بسورة مثلِه﴾ [يونس، الآية ٣٨]، ﴿بعشرِ سُورٍ مثلِه﴾ [هود، الآية ١٣] وقيل: هي ابتدائية، فالضميرُ حينئذ للمُنْزل عليه حتمًا، لما أن رجوعَه إلى المنزَلِ يوهم أن له مثلًا محققًا قد ورد الأمرُ التعجيزيُّ بالإتيان بشيء منه، وقد عرفت ما فيه بخلاف رجوعِه إلى المنزل عليه، فإن تحققَ مثلِه - عليه السلام - في البشرية والعربية والأمية يهوِّن - الخطب في الجملة، خلا أن تخصيصَ التحدي بفردٍ يشاركُه عليه السلام فيما ذكرَ من الصفات المنافية للإتيان بالمأمور به - لا يدلُّ على عجز مَنْ ليس كذلك من علمائهم، بل ربما يوهم قدرتَهم على ذلك في الجملة فرادى أو مجتمعين، مع أنه يستدعي عراءَ

---

(١) البيت للنابغة الذبياني في ديوانه ص (٥٥)، ولسان العرب (٣/ ٣٤٥) (قدد) (٤/ ٤٨٥) (سور) (٤/ ٥١٠) (طوير)، وأساس البلاغة (غرب)، وتاج العروس (٩/ ٢٣) (قدد)، (١٢/ ٩٩) (سور)، (١٢/ ٤٥٩) (طير).

المُنْزَل عما فُصِّل من النعوت الموجبةِ لاستحالة وجود مثلِه، فأين هذا من تحدي أمةٍ جمّةٍ وأمرِهم بأن يحتشدوا في حلبة المعارضة بخيلهم ورَجِلِهم حسبما ينطِق به قوله تعالى: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِنْ دُونِ اللهِ﴾، ويتعاونوا على الإتيان بقدْر يسيرٍ مماثلٍ في صفات الكمال لما أتىٰ بجملته واحدٌ من أبناء جنسهم.

والشهداءُ جمع شهيد بمعنى الحاضر أو القائم بالشهادة أو الناصر، ومعنى (دون) أدنى مكانٍ من شيء، يقال: هذا دون ذاك، إذا كان أحطَّ منه قليلًا، ثم استعير للتفاوت في الأحوال والرتبِ فقيل: زيد دون عمرو، أي في الفضل والرتبة، ثم اتَّسع فاستُعمل في كل تجاوز حدٍّ إلى حد، وتخطِّي حُكم إلى حكم من غير ملاحظةِ انحطاطِ أحدهما عن الآخر، فجرى مَجرى أداةِ الاستثناء.

وكلمة (من) إما متعلقةٌ بـ (ادعوا) فتكونُ لابتداءِ الغاية، والظرفُ مستقرٌّ والمعنى ادعوا متجاوزين الله تعالى لاستظهار من حضَركم كائنًا من كان، أو الحاضرين في مشاهدكم ومحاضرِكم من رؤسائكم وأشرافِكم الذين تَفْزَعون إليهم في المُلمّات، وتعوِّلون عليهم في المُهِمّات، أو القائمين بشهاداتكم الجاريةِ فيما بينكم من أمنائكم المتولّين لاستخلاص الحقوقِ بتنفيذ القولِ عند الولاة، أو القائمين بنُصرتكم حقيقةً أو زعمًا من الإنس والجن ليعينوكم.

وإخراجُه - سبحانه وتعالى - من حُكم الدعاء في الأول مع اندراجه في الحضورِ لتأكيد تناولِه لجميع ما عداه، لا لبيان استبدادِه - تعالى - بالقدرة على ما كُلِّفوه، فإن ذلك مما يوهم أنهم لو دَعَوْه تعالى لأجابهم إليه؛ وأما في سائر الوجوه فللتصريح من أول الأمرِ ببراءتهم منه تعالى؛ وكونِهم في عُدْوة المحادّة والمشاقّة له قاصدين[1] استظهارَهم على ما سواه؛ والالتفاتُ لإدخال الرَّوْعة وتربية المهابة؛ وقيل: المعنى ادعوا من دون أولياءِ الله شهداءَكم الذين هم وجوهُ الناس، وفرسانُ المقاولةِ والمناقلةِ ليشهدوا لكم أن ما أتيتم به مثلُه، إيذانًا بأنهم يأبَوْن أن يرضَوْا لأنفسهم الشهادةَ بصحة ما هو بيِّنُ الفسادِ وجَليُّ الاستحالة.

وفيه أنه يؤذِنُ بعدم شمولِ التحدي لأولئك الرؤساءِ، وقيل: المعنى: ادعوا شهداءكم فصححوا بهم دعواكم ولا تستشهدوا بالله تعالى قائلين: الله يشهد أن ما ندعيه حقٌّ، فإن ذلك دَيدَنُ المحجوج، وفيه: أنه إن أريد بما يدّعون حقِّية ما هم عليه من الدين الباطلِ فلا مِساسَ له بمقام التحدي، وإن أريد مثلية ما أتَوْا به للمتحدىٰ به،

---

(١) في ط: قاصرين.

فمعَ عدمِ ملاءمتِه لابتداء التحدي يوهم أنهم قد تصَدَّوا للمعارضة وأتَوْا بشيءٍ مشتبهِ الحال متردِّدين بين المِثلية وعدمِها، وأنهم ادَّعَوْها مستشهدين في ذلك بالله سبحانه، إذ عند ذلك تمَسُّ الحاجةُ إلى الأمر بالاستشهاد بالناس والنهي عن الاستشهاد به تعالى، وأنىٰ لهم ذلك، وما نبَضَ لهم عِرقٌ ولا نَبَسوا ببنتِ شَفَةٍ.

وإما متعلقةٌ بـ (شهداءَكم) والمراد بهم الأصنامُ، ودون بمعنى التجاوزِ على أنها ظرفٌ مستقِرٌ وقع حالًا من ضمير المخاطَبين، والعاملُ ما دل عليه (شهداءكم) أي ادعوا أصنامَكم الذين اتخذتموهم آلهةً متجاوزين الله تعالى في اتخاذها كذلك، وكلمةُ (مِن) ابتدائية فإن الاتخاذَ ابتداءٌ من التجاوز، والتعبيرُ عن الأصنام بالشهداء لتعيين مدارِ الاستظهارِ بها بتذكير ما زعَموا من أنها بمكانٍ من الله تعالى وأنها تنفعُهم بشهادتها لهم أنهم على الحق، فإن ما هذا شأنُه يجب أن يكون مَلاذًا لهم في كل أمرٍ مُهم، وملجأً يأوُون إليه في كل خطب مُلم، كأنه قيل: أولئك عُدّتُكم فادعوهم لهذه الداهية التي دَهَمتكم، فوجهُ الالتفاتِ الإيذانُ بكمال سخافةِ عقولِهم حيث آثرَوُا على عبادة من له الألوهيةُ الجامعةُ لجميع صفاتِ الكمال عبادةَ ما لا أحقرَ منه.

وقيل: لفظةُ (دون) مستعارةٌ من معناها الوضعي الذي هو أدنى مكانٍ من شيء لِقُدّامِه، كما في قول الأعشى[1]: [الطويل]

تُريك القَذى من دونها وهي دونَهُ ..... ..... ..... .....[2]

أي تريك القذى قُدّامها وهي قُدّام القذى، فتكون ظرفًا لغويا معمولًا

---

(١) هو: ميمون بن قيس بن جندل، من بني قيس بن ثعلبة الوائلي، أبو بصير، المعروف بأعشى قيس، ويقال له: أعشى بكر بن وائل، والأعشى الكبير: من شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية، وأحد أصحاب المعلقات، كان كثير الوفود على الملوك من العرب والفرس، غزير الشعر، يسلك فيه كل مسلك، وليس أحد ممن عرف قبله أكثر شعرًا منه. عاش عمرًا طويلاً، وأدرك الإسلام ولم يسلم. توفي سنة سبع هـ.
ينظر: معاهد التنصيص (١/ ١٩٦)، خزانة الأدب (١/ ٨٤، ٨٦)، الأغاني (٩/ ١٠٨)، جمهرة أشعار العرب (٢٩، ٥٦)، الشعر والشعراء ص (٧٩)، رغبة الآمل (٤/ ٧٠).

(٢) صدر بيت وعجزه:
..... ..... ..... تـراه إذا مـا ذاقـه يـتـمـطَّـقُ
والبيت في ديوانه، ص (٢٦٩)، وتهذيب اللغة (٩/ ١٦؛ ١٤/ ١٨٠)، ومقاييس اللغة (٥/ ٣٣٣)، وأساس البلاغة (مطق) وبلا نسبة في لسان العرب (١٠/ ٣٤٦) (مطق) (١٣/ ١٦٥) (دون)، وتاج العروس (دون)، وجمهرة اللغة، ص (٩٢٤).

لـ(شهداءكم)؛ لكفاية رائحةِ الفعل فيه، من غير حاجة إلى اعتماد ولا إلى تقدير يشهدون، أي: ادعوا شهداءَكم الذين يشهدون لكم بين يدَي الله تعالى ليعينوكم في المعارضة، وإيرادُها بهذا العنوان لما مر من الإشعار بمناطِ الاستعانةِ بها، ووجهُ الالتفات تربيةُ المهابة وترشيحُ ذلك المعنى، فإن ما يقوم بهذا الأمر في ذلك المقام الخطيرِ حقه أن يُستعان به في كل مَرام، وفي أمرِهم على الوجهين بأن يستظهروا في معارضة القرآن ـ الذي أخرسَ[1] كلَّ مِنْطيقٍ ـ بالجماد من التهكم بهم ما لا يوصف، وكلمة (من) هاهنا تبعيضية، لما أنهم يقولون: جلس بين يديه وخلفَه بمعنى (في)؛ لأنهما ظرفان للفعل، ومن بينِ يديه، ومن خلفِه؛ لأن الفعل إنما يقع في بعض تَيْنِك الجهتين، كما تقول: جئتُه من الليل، تريد بعضَ الليل.

وقد يقال: كلمةُ (من) الداخلةُ على (دون) في جميع المواقعِ بمعنى (في) كما في سائر الظروف التي لا تنصرف، وتكون منصوبةً على الظرفيةِ أبدًا، ولا تنجرُّ إلا بـ (من) خاصة، وقيل: المرادُ بالشهداء مداره[2] القومِ ووجوهُ المحافل والمحاضِر، و(دون) ظرفٌ مستقر، و(من) ابتدائية أي ادعوا الذين يشهدون لكم أن ما أتيتم به مثلُه، متجاوزين في ذلك أولياءَ الله، ومحصله شهداء مغايرين لهم إيذانًا بأنهم أيضًا لا يشهدون بذلك، وإنما قُدر المضافُ إلى الله تعالى رعايةً للمقابلة، فإن أولياءَ الله تعالى يقابِلون أولياءَ الأصنام، كما أن ذكرَ الله تعالى يقابل ذكرَ الأصنام.

والمقصودُ بهذا الأمر إرخاءُ العِنان، والاستدراجُ إلى غاية التبكيت، كأنه قيل: تركنا إلزامَكم بشهداءَ لا ميلَ لهم إلى أحدِ الجانبين كما هو المعتاد، واكتفينا بشهدائكم المعروفين بالذب عنكم، فإنهم أيضًا لا يشهدون لكم حذرًا من اللائمة وأَنَفةً من الشهادة البيِّنة البُطلان.

كيف لا وأمرُ الإعجاز قد بلَغ من الظهورِ إلى حيث لم يبقَ إلى إنكاره سبيلٌ قطعًا، وفيه ما مرَّ من عدم الملاءمةِ لابتداء التحدّي وعدم تناولِه لأولئك الشهداء، وإيهامِ أنهم تعرّضوا للمعارضة وأتَوْا بشيء احتاجوا في إثبات مِثْلِيَّتِه للمتحدىٰ به إلى الشهادة، وشتانَ بينهم وبين ذلك ﴿إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي في زعمِكم أنه من كلامه عليه السلام. وهو شرطٌ حذفَ جوابُه لدلالة ما سبق عليه، أي إن كنتم صادقين فأتوا بسورة من مثله . . . إلخ، واستلزامُ المقدَّم للتالي من حيث إن صدقَهم في ذلك الزَّعم

---

(١) زاد في ط: بفصاحة.

(٢) المداره: مفرده المِدْرَهْ وهو في القوم السيد الشريف وهو المقدم اللسان واليد عند الخصومة والقتال وقيل: رأس القوم وقال أبو زيد: المِدْره: لسان القوم والمتكلم عنهم.

يستدعي قدرتَهم على الإتيان بمثله، بقضية مشاركتِهم له عليه السلام في البشرية والعربية، مع ما بهم من طول الممارسة للخُطب والأشعارِ، وكثرة المزاولةِ لأساليبِ النظمِ والنثر، والمبالغةِ في حفظ الوقائع والأيام، لا سيما عند المظاهرة والتعاونِ، ولا ريبَ في أن القدرة على الشيء من موجبات الإتيانِ به، ودواعي الأمرِ به.

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ أي ما أمرتم به من الإتيان بالمثل بعد ما بذلتم في السعي غايةَ المجهود، وجاوزتم في الجِد كلَّ حدٍّ معهود، متشبثين بالذيول، راكبين متنَ كل صَعْب وذَلول، وإنما لم يصرَّح به إيذانًا بعدم الحاجة إليه، بناءً على كمال ظهورِ تهالُكِهم على ذلك، وإنما أُورد في حيز الشرطِ مُطلقُ الفعل وجُعل مصدرُ المأمورِ به مفعولًا له للإيجاز البديع المغني عن التطويل والتكرير، مع سِرٍّ سَرِيٍّ استَقلَّ به المقامَ وهو الإيذان بأن المقصودَ بالتكليف هو إيقاعُ نفسِ الفعل المأمور به، لإظهار عجزِهم عنه لا لتحصيل المفعول أي المأتي به ضرورةَ استحالته، وأن مناطَ الجوابِ في الشرطية أعني الأمر باتقاءِ النار هو عجزُهم عن إيقاعه لا فوتُ حصولِ المفعول، فإن مدلولَ لفظٍ هو أنفُسُ الأفعال الخاصة لازمةً كانت أو متعديةً من غير اعتبارِ تعلقاتِها بمفعولاتها الخاصة.

فإذا عُلِّق بفعل خاصٍّ متعدٍّ فإنما يُقصَدُ به إيقاعُ نفس ذلك الفعل وإخراجُه من القوة إلى الفعل، وأما تعلقُه بمفعوله المخصوصِ فهو خارج عن مدلول الفعلِ المطلقِ وإنما يستفاد ذلك من الفعل الخاص، ولذلك تراهم يتوسلون بذلك إلى تجريد الأفعالِ المتعديةِ عن مفعولاتها وتنزيلِها منزلةَ الأفعالِ اللازمة، فيقولون مثلًا: منع فلانٌ يعطي ويمنع يفعل الإعطاء والمنع، يرشدك إلى هذا قوله تعالى: ﴿فإن لم تأتوني به فلا كيلَ لكم عندي ولا تقربون﴾ [يوسف، الآية ٦٠] بعد قوله تعالى: ﴿ائتوني بأخٍ لكم من أبيكم﴾ [يوسف، الآية ٥٩] فإنه لما كان مقصودُ يوسفَ عليه السلام بالأمر ومَرْمَى غرضِه بالتكليف منه استحضارَ بنيامين لم يكتفِ في الشرطية الداعية لهم إلى الجِد في الامتثال، والسعْيِ في تحقيق المأمورِ به بالإشارة الإجماليةِ إلى الفعل الذي ورد به الأمر بأن يقول: فإن لم تفعلوا، بل أعاده بعينه متعلقًا بمفعوله تحقيقًا لمطلبه وإعرابًا عن مقصِده.

هذا وقد قيل: أُطلق الفعلُ وأريد به الإتيانُ مع ما يتعلق به إما على طريقة التعبير عن الأسماء الظاهرةِ بالضمائر الراجعةِ إليها حذرًا من التكرار، أو على طريقة ذكر اللازمِ وإرادةِ الملزوم، لما بينهما من التلازمِ المصححِ للانتقال بمعونة قرائنِ الحال فتدبرْ، وإيثارُ كلمة (إنْ) المفيدةِ للشك على إذا مع تحقق الجزم بعدم فعلِهم مجاراةٌ

معهم بحسَب حُسبانهم قبل التجربة أو التهكمُ بهم.

﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ كلمة (لن) لنفي المستقبلِ كـ (لاَ)، خلا أن في (لن) زيادةَ تأكيدٍ وتشديد، وأصلُها عند الخليل (لا أن)، وعند الفراء[١] (لا) أُبدلت ألفُها نونًا، وعند سيبويه حرفٌ مقتَضَبٌ للمعنى المذكور، وهي إحدى الروايتين عن الخليل.

والجملة اعتراضٌ بين جزأي الشرطية مقرِّر لمضمون مُقدَّمِها، ومؤكِّدٌ لإيجاب العمل بتاليها، وهذه معجزة باهرةٌ، حيث أُخبر بالغيب الخاصِّ علمُه به عز وجل وقد وقع الأمر كذلك، كيف لا، ولو عارضوه بشيءٍ يُدانيه في الجملة لتناقَلَه الرواةُ خلفًا عن سلف.

﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ جوابٌ للشرط على أن اتقاءَ النار كنايةٌ عن الاحتراز من العِناد، إذ بذلك يتحقق تسبُّبه عنه وترتُّبه عليه، كأنه قيل: فإذا عجَزتم عن الإتيان بمثله كما هو المقررُ فاحترزوا من إنكار كونِه منزّلًا من عند الله سبحانه فإنه مستوجِبٌ للعقاب بالنار، لكنْ أوثر عليه الكنايةُ المذكورة المبنيةُ على تصوير العنادِ بصورة النارِ، وجُعل الاتصافُ به عينَ الملابسة بها للمبالغة في تهويل شأنِه، وتفظيعِ أمرِه، وإظهارِ كمال العنايةِ بتحذير المخاطبين منه، وتنفيرِهم عنه، وحثِّهم على الجدِّ في تحقيق المكنِّي عنه، وفيه من الإيجاز البديع ما لا يخفى، حيث كان الأصل، فإن لم تفعلوا فقد صح صِدْقُه عندكم، وإذا صح ذلك كان لزومُكم العنادَ، وتركُكم الإيمانَ به سببًا لاستحقاقكم العقابَ بالنار، فاحترزوا منه واتقوا النار ﴿التي وَقُودُهَا النَّاسُ والحِجَارَةُ﴾ صفةٌ للنار، مُورثةٌ لها زيادةَ هولٍ وفظاعةٍ أعاذنا الله من ذلك، والوَقودُ ما توقد به النارُ، وتُرفع من الحطب.

وقرئ[٢] بضم الواو وهو مصدرٌ، وسمِّي به المفعول مبالغةً، كما يقال: فلان فخرُ

---

(١) هو: يحيى بن زياد بن عبد الله بن منصور الديلمي، المعروف بالفراء، إمام الكوفيين، وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب، ولد بالكوفة سنة أربع وأربعين ومائة هجريا وتوفي في طريق مكة سنة سبع ومائتين هجريا، من كتبه: المقصور والممدود، المعاني، معاني القرآن، المذكر والمؤنث، وغير ذلك، واشتهر بالفراء؛ لأنه كان يفري الكلام، ولما مات وجد كتاب سيبويه تحت رأسه.
ينظر: بغية الوعاة (٢/ ٣٢٩، ٣٣٠)، وكشف الظنون (٦/ ٤٠٠)، والأعلام (٨/ ١٤٥)، والفهرست، ص (١٠٥، ١٠٦).

(٢) وهي قراءة الحسن، ومجاهد، وطلحة بن مصرف، وأبي حيوة، وعيسى بن عمر الهمداني.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ١٥١)، والإملاء للعكبري (١/ ١٥)، والبحر المحيط (١/ ١٠٧)، وتفسير القرطبي (١/ ٢٣٦)، والكشاف (١/ ٥٠)، ومعاني القرآن للأخفش (١/ ٦٣)، وتفسير الفخر الرازي (١/ ٢٢٩).

قومِهِ وزَيْنُ بلدِه، والمعنى: أنها من الشدة بحيث لا تَمَسُّ شيئًا من رَطْبٍ أو يابس إلا أحرقته، لا كنيران الدنيا تفتقِرُ في الالتهاب إلى وَقودٍ من حطب أو حشيش، وإنما جُعل هذا الوصفُ صلةً للموصول مقتضيةً لكون انتسابها إلى ما نسبت هي إليه معلومًا للمخاطَب، بناءً على أنهم سمِعوه من أهل الكتاب قبل ذلك، أو الرسولِ ﷺ، أو سمِعوا قبلَ هذه الآية المدنية قولَه تعالى: ﴿نارا وَقودُها الناسُ والحجارة﴾ [التحريم، الآية ٦] فأُشير هاهنا إلى ما سمعوه أولًا، وكونُ سورةِ التحريم مدنيةً لا يستلزِمُ كونَ جميعِ آياتها كذلك، كما هو المشهورُ.

وأما أن الصفةَ أيضًا يجبُ أن تكون معلومةَ الانتساب إلى الموصوف عند المخاطَبِ، فالخطبُ فيه هيِّن، لما أن المخاطَب هناك المؤمنون، وظاهرٌ أنهم سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ، والمراد بـ (الحجارة): الأصنامُ، وبـ (الناس): أنفسُهم حسبما ورد في قوله تعالى: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصبُ جهنم﴾ [الأنبياء، الآية ٩٨].

﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي هيئت للذين كفروا بما نزلناه، وجعلت عِدةً لعذابهم، والمرادُ: إما جنسُ الكفار، والمخاطَبون داخلون فيهم دُخولًا أوليا، وإما هم خاصةً، ووضعُ الكافرين موضعَ ضميرهم؛ لذمهم، وتعليلِ الحكم بكفرهم.

وقرئ[(١)] (أُعتِدت) من العَتاد بمعنى العِدة، وفيه دلالة على أن النارَ مخلوقةٌ موجودة الآن، والجملة استئنافٌ لا محل لها من الإعراب مقرِّرةٌ لمضمون ما قبلها، ومؤكدةٌ لإيجاب العمل به، ومبيِّنةٌ لمن أريد بالناس واقعة لاحتمال العموم، وقيل: حال بإضمار (قد) من (النار)، لا من ضميرها في وَقودها، لما في ذلك من الفصل بينهما بالخبر، وقيل: صلةٌ بعد صلةٍ، أو عطفٌ على الصلة بترك العاطف.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي بأنه منزلٌ من عند الله عز وجل، وهو معطوف على الجملة السابقة لكن لا على أن المقصودَ عطفُ نفس الأمرِ، حتى يُطلبَ له مَشاكِلٌ يصِحُّ عطفَه عليه، بل على أنه عطفُ قصةِ المؤمنين بالقرآن، ووصفِ ثوابهم، على قصة الكافرين به وكيفيةِ عقابهم، جريًا على السُنة الإلهية من شفْع الترغيب بالترهيب، والوعدِ بالوعيد، وكان تغييرُ السبك لتخييل كمالِ التباين بين حالي الفريقين.

وقرئ[(٢)] وبُشِّرَ على صيغة الفعل مبنيًا للمفعول عطفًا على (أُعِدَّت)، فيكونُ

---

(١) وهي قراءة عبد الله. ينظر: البحر المحيط (١/ ١٠٩).

(٢) وهي قراءة زيد بن علي.
ينظر: البحر المحيط (١/ ١١١)، والكشاف (١/ ٥١)، والفخر الرازي (١/ ٢٣٢).

استئنافًا، وتعليقُ التبشير بالموصول للإشعار بأنه معلل بما في حيز الصلة من الإيمان والعمل الصالح، لكن لا لذاتهما، فإنهما لا يكافِئان النعمَ السابقة فضلًا من أن يقتضِيا ثوابًا فيما يستقبل، بل بجعل الشارعِ، ومقتضىٰ وعدِه وجعل صلتِه فعلًا مفيدًا للحدوث بعد إيرادِ الكفارِ بصيغة الفاعلِ لحثِّ المخاطبين بالاتقاء على إحداث الإيمان، وتحذيرِهم من الاستمرار على الكفر.

والخطابُ للنبي ﷺ، وقيل: لكل من يتأتّى منه التبشير، كما في قوله عليه السلام: «بشر المشّائين إلى المساجد في ظلم الليالي بالنور التام يوم القيامة»[1] فإنه عليه السلام لم يأمُر بذلك واحدًا بعينه، بل كلَّ أحد ممن يتأتى منه ذلك، وفيه رمزٌ إلى أن الأمر لعِظَمه، وفخامة شأنه حقيقٌ بأن يَتولىٰ التبشيرَ به كلُّ من يقدر عليه.

والبِشارة: الخبرُ السار الذي يظهر به أثر السرور في البشرة، وتباشيرُ الصبح أوائلُ ضوئه.

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (الصالحة) كالحسنة في الجريان مَجرى الاسم، وهي كلُّ ما استقام من الأعمال بدليل العقلِ والنقلِ، و(اللام) للجنس، والجمعُ لإفادة أن المرادَ بها جملةٌ من الأعمال الصالحة، التي أشير إلى أمهاتها في مطلع السورةِ الكريمة، وطائفةٌ منها متفاوتةٌ حسبَ تفاوتِ حال المكلفين في مواجب التكليف، وفي عطف العملِ على الإيمان دلالةٌ على تغايرهما، وإشعارٌ بأن مدار استحقاقِ البشارةِ مجموعُ الأمرين، فإن الإيمان أساسٌ، والعملُ الصالح كالبناء عليه، ولا غَناءَ بأساس لا بناءَ به.

﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾ منصوبٌ بنزع الخافض وإفضاءِ الفعل إليه، أو مجرور بإضماره مثل: «الله لأفعلنّ» والجنةُ هي المرة من مصدر (جَنَّه) إذا ستره، تُطلق على النخل والشجر المتكاثف المظلل[2] بالتفاف أغصانِه، قال زهير: [البسيط]

---

(١) أخرجه أبو داود (١/ ٢٠٩) كتاب الصلاة، باب: ما جاء في المشي إلى الصلاة في الظلم، حديث (٥٦١)، والترمذي (١/ ٤٣٥) كتاب أبواب الصلاة، باب: ما جاء في فضل العشاء والفجر في الجماعة، حديث (٢٢٣)، من حديث إسماعيل بن سليمان عن عبد الله بن أوس، عن بريدة بن الحصيب عن النبي ﷺ قال: «بشر المشائين...».
ورواه القضاعي في مسند الشهاب رقم (٧٥٢، ٧٥٥)، والبغوي في شرح السنة (٢/ ١١٨) رقم (٤٧٤).
وله شواهد من حديث: أنس، وسهل بن سعد، وأبي الدرداء، وابن عباس، وابن عمر، وزيد بن حارثة، وأبي موسى الأشعري، وأبي أمامة، وعائشة، وأبي سعيد الخدري، وحارثة بن وهب الخزاعي.

(٢) في ط: المظل.

كـأنّ عـيـنَـيَّ فـي غَـرْبـيٍّ مـقـتـلـةٍ ... من النـواضِـحِ تسقي جنةً سَحَقا[(١)]

أي نخلًا طوالًا كأنها لفرطِ تكاثفِها والتفافِها وتغطيتها لما تحتها بالمرة نفسُ السُترة وعلى الأرض ذاتُ الشجر، قال الفراء: الجنة: ما فيه النخيل، والفِردوسُ: ما فيه الكَرْم، فحقُّ المصدر حينئذ أن يكونَ مأخوذًا من الفعل المبني للمفعول وإنما سميت دارَ الثواب بها مع أن فيها ما لا يوصف من الغُرفات والقصور لما أنها مناطُ نعيمها، ومعظمُ ملاذها، وجمعها مع التنكير لأنها سبعٌ على ما ذكره ابن عباس رضي الله عنهما: جنةُ الفردوس، وجنة عدْن، وجنة النعيم، ودارُ الخلد، وجنةُ المأوى، ودارُ السلام، وعِلِّيُّون. وفي كل واحدة منها مراتبُ ودرجاتٌ متفاوتة، بحسب تفاوت الأعمال وأصحابها[(٢)].

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ في حيز النصب على أنه صفةُ (جنات)؛ فإن أريد بها الأشجارُ فجريانُ الأنهار من تحتها ظاهر، وإن أريد بها الأرضُ المشتملة عليها، فلا بد من تقدير مضافٍ، أي: من تحت أشجارِها وإن أريد بها مجموعُ الأرض والأشجار فاعتبارُ التحتية بالنظر إلى الجزء الظاهِرِ المصحِّح لإطلاق اسم الجنة على الكل.

عن مسروق[(٣)]: أن أنهارَ الجنة تجري في غير أخدود[(٤)]، واللامُ في (الأنهار) للجنس، كما في قولك: لفلان بستانٌ فيه الماءُ الجاري والتينُ والعنب، أو عِوَضٌ عن المضاف إليه كما في قوله تعالى: ﴿واشتعل الرأس شيبًا﴾ [مريم، الآية ٤] أو للعهد، والإشارة إلى ما ذكر في قوله عز وعلا: ﴿أنهارٌ من ماء غيرِ آسنٍ﴾ [محمد، الآية ١٥]. و(النهَرُ) بفتح الهاء وسكونها المجرَى الواسعُ فوق الجَدْول ودون البحر كالنيل

---

(١) البيت في ديوانه، ص (٣٧)، ولسان العرب (سحق)، (قتل)، (جنن)، ومجمل اللغة (١/ ١٠٠)، ومقاييس اللغة (١/ ٤٢١)، وتاج العروس (٢٥/ ٤٣٨) (سحق)، (قتل)، (جنن).

(٢) ذكره المناوي في «الفتح السماوي» (١/ ١٤٨)، وقال: لم أقف عليه.

(٣) هو: مسروق بن الأجدع بن مالك بن أمية بن عبد الله بن مر بن سلامان بن معمر بن الحارث بن سعد بن عبد الله بن وادعة الهمداني الكوفي العابد، أبو عائشة الفقيه، روى عن: أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعائشة، وروى عنه: ابن أخيه محمد بن المنتشر ابن الأجدع، والشعبي. وثقه: مرة، والشعبي، والعجلي، وابن سعد. وقال الشعبي: كان مسروق أعلم بالفتوى من شُريح، وكان شريح أعلم بالقضاء، وقال الحافظ ابن حجر في التقريب: ثقة، مات سنة اثنتين وستين، ويقال غير ذلك. ينظر: تهذيب الكمال (٢٧/ ٤٥١)، وتهذيب التهذيب (١٠/ ١٠٩)، وتقريب التهذيب (٢/ ٢٤٢).

(٤) أخرجه هناد بن السري في «الزهد» (٩٥، ١٠٣)، والطبري في «تفسيره» (١/ ١٧٠)، ويحيى بن صاعد في «زوائد الزهد» ص (٥٤٤)، رقم (١٤٩٠).

والفرات، والتركيبُ للسَّعة، والمرادُ بها ماؤها على الإضمار أو على المجاز اللغوي، أو المجاري أنفسُها، وقد أسند إليها الجريانُ مجازًا عقليا، كما في سال الميزاب.

﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الذي رُزِقْنَا﴾ صفة أخرى لجنات، أخِّرت عن الأولى؛ لأن جريان الأنهار من تحتها وصفٌ لها باعتبار ذاتها، وهذا وصفٌ لها باعتبار أهلِها المتنعِّمين بها، أو خبرُ مبتدأ محذوف، أو جملة مستأنفة، كأنه حين وُصفت الجناتُ بما ذكر من الصفة وقع في ذهن السامع أثمارها، كثمار جناتِ الدنيا أولًا، فبيّن حالُها.

و(كلما) نصبٌ على الظرفية، و(رزقًا) مفعول به، و(من) الأولى والثانية للابتداء واقعتان موقعَ الحال، كأنه قيل: كلَّ وقت رزقوا، مرزوقًا مبتدأً، من الجنات مبتدأً من (ثمرة)، على أن الرزق مقيدٌ بكونه مبتدأ من الجنات، وابتداؤه منها مقيدٌ بكونه مبتدأً من ثمرة، فصاحبُ الحال الأولى (رزقًا)، وصاحبُ الثانية ضميرُه المستكنّ في الحال، ويجوز كونُ **(من ثمرة)** بيانًا قُدّم على المبين كما في قولك: رأيت منك أسدًا، وهذا إشارةٌ إلى ما رزقوا، وإن وقعت على فرد معين منه كقولك مشيرًا إلى نهر جارٍ: هذا الماءُ لا ينقطع، فإنك إنما[1] أشرتَ إلى ما تعاينهُ بحسب الظاهر لكنك إنما تعني بذلك النوعَ المعلومَ المستمر، فالمعنى هذا مثلُ الذي رزقناه ﴿مِنْ قَبْلُ﴾، أي من قبل هذا في الدنيا، ولكن لما استحكم الشبَهُ بينهما جُعل ذاتُه ذاتَه.

وإنما جُعل ثمرُ الجنة كثمار الدنيا لتميل النفسُ إليه حين تراه، فإن الطباعَ مائلة إلى المألوف متنفِّرة عن غير المعروف، وليتبين لها مزّيته وكُنهُ النعمة فيه إذ لو كان جنسًا غيرَ معهود لظُن أنه لا يكون إلا كذلك أو مثلُ الذي رُزقناه من قبل في الجنة لأن طعامَها متشابهُ الصور كما يحكىٰ عن الحسن رضي الله عنه أن أحدَهم يؤتىٰ [الصَّحْفة][2] فيأكلُ منها ثم يؤتىٰ بأخرى، فيراها مثلَ الأولى فيقول ذلك: فيقول الملائكة: كلْ، فاللونُ واحدٌ والطعمُ مختلف[3]، أو كما روي أنه ﷺ قال: «والذي نفسي بيده إن الرجلَ من أهل الجنة ليتناول الثمرةَ ليأكُلَها فما هي واصلةٌ إلى فيه حتى يُبدِّلَ الله تعالى مكانها مثلَها»[4] والأول أنسبُ لمحافظة عمومِ (كلما)، فإنه يدل على

---

(١) في ط: إن..
(٢) سقط في ط.
(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٨٣)، وعزاه لابن جرير وعبد بن حميد.
(٤) أخرجه البزار رقم (٣٥٣٠)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (١/ ٣٨) للطبراني، والحديث رواه الحاكم في قصة طويلة في كتاب الفتن من المستدرك (٤/ ٤٤٩، ٤٥٠)، وقال: «هذا حديث صحيح =

ترديدهم هذه المقالةَ كلَّ مرة رزقوا، لا فيما عدا المرةَ الأولى يُظهرون بذلك التبجح، وفرطَ الاستغراب لما بينهما من التفاوت العظيم من حيث اللذةُ مع اتحادهما في الشكل واللون، كأنهم قالوا: هذا عينُ ما رُزقناه في الدنيا فمن أين له هذه الرتبةُ من اللذة والطيب؟

ولا يقدُح فيه ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما من أنه ليس في الجنة من أطعمة في الدنيا إلا الاسمُ[١]، فإن ذلك لبيان كمالِ التفاوتِ بينهما من حيث اللذةُ والحُسنُ والهيئة، لا لبيانِ ألا تشابُهَ بينهما أصلًا، كيف لا وإطلاقُ الأسماء منوطٌ بالاتحاد النوعيّ قطعًا، هذا وقد فُسّرت الآيةُ الكريمة بأن مستلذاتِ أهلِ الجنة بمقابلة ما رزقوه في الدنيا من المعارف والطاعات متفاوتةُ الحال، فيجوز أن يريدوا هذا ثوابُ الذي رزقناه في الدنيا من الطاعات، ولا يساعده تخصيصُ ذلك بالثمرات، فإن الجنة وما فيها من فنون الكرامات من قبيل الثواب.

﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ اعتراضٌ مقرِّرٌ (لما) قبله، والضميرُ المجرورُ على الأول راجعٌ إلى ما دل عليه فحوى الكلام مما رزقوا في الدارين كما في قوله تعالى: ﴿إن يكن غنيًّا أو فقيرًا فالله أولى بهما﴾ [النساء، الآية ١٣٥] أي بجنسي الغني والفقير، وعلى الثاني إلى الرزق ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ أي مما في نساء الدنيا من الأحوال المستقذرة كالحيْض والدَرن ودنَس الطبع وسوءِ الخلق، فإن التطهرَ يستعمل في الأجسام والأخلاق والأفعال، وقرئ[٢] (مطهَّراتٌ)، وهما لغتان فصيحتان، يقال: النساءُ فعلت وفعلن، وهن فاعلةٌ وفواعل، وقال: [الكامل]

وإذا العذارىٰ بالدُّخان تقنَّعت  واستعجلت نصبَ القدور فمَلَّتِ[٣]

فالجمع على اللفظ، والإفراد على تأويل الجماعة، وقرئ[٤] (مطَّهِرة) بتشديد

= على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذه السياقة» اهـ.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١/ ١٧٤)، وهناد في «الزهد» (٣، ٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢٦٠).
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٨٢) وزاد نسبته لمسدد وابن المنذر والبيهقي في البعث.

(٢) وهي قراءة زيد بن علي.
ينظر: البحر المحيط (١/ ١١٧)، والكشاف (١/ ٥٣)، والفخر الرازي (١/ ٢٣٥).

(٣) البيت لسلمى بن ربيعة في خزانة الأدب (٨/ ٣٦، ٤٤)، والدرر (١/ ١٨٤)، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص(٥٥)، وشرح المفصّل (٥/ ١٠٥)، ونوادر أبي زيد ص (١٢١)، ولعلباء بن أرقم في الأصمعيَّات ص (١٦٢)، وبلا نسبة في شرح اختيارات المفضّل ص (٨١٦)، وهمع الهوامع (١/ ٦٠).

(٤) وهي قراءة عبيد بن عمير.
ينظر: البحر المحيط (١/ ١١٧)، والكشاف (١/ ٥٣).

الطاء وكسر الهاء، بمعنى متطهرة، ومطَّهِرة أبلغُ من طاهرة ومتطهرة، للإشعار بأن مُطَهِّرا طهرهن، وما هو إلا الله سبحانه وتعالى، وأما التطهر فيحتمل أن يكون من قبل أنفسهن كما عند اغتسالهن، والزوجُ يطلق على الذكر والأنثى، وهو في الأصل اسم لما له قرينٌ من جنسه، وليس في مفهومه اعتبارُ التوالد الذي هو مدارُ بقاءِ النوعِ حتى لا يصِحَّ إطلاقُه على أزواج أهلِ الجنة لخلودهم فيها، واستغنائهم عن الأولاد، كما أن المداريةَ لبقاء الفردِ ليست بمعتبرة في مفهومِ اسمِ الرزق حتى يُخِلَّ ذلك بإطلاقه على ثمار الجنة.

﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي دائمون، والخلودُ في الأصل الثباتُ المديد دامَ أو لم يدُمْ، ولذلك قيل للأثافي والأحجارِ: الخوالدُ، وللجُزءِ الذي يبقى من الإنسان على حاله خالد، ولو كان وضعه للدوام لما قُيِّد بالتأبيد في قوله عز وعلا: ﴿خالدين فيها أبدًا﴾ [النساء، الآية ٥٧ و١٢٢ و١٦٩ وغيرها من السور] ولَما استُعمل حيث لا دوام فيه، لكن المرادَ هاهنا الدوامُ قطعًا لما يُفضي به من الآيات والسنن، وما قيل من أن الأبدانَ مؤلفةٌ من الأجزاءِ المتضادة في الكيفية معرَّضة للاستحالات المؤديةِ إلى الانحلال والانفكاكِ مدارُه قياسُ ذلك العالمِ الكاملِ بما يشاهَد في عالم الكوْن والفساد، على أنه يجوز أن يُعيدَها الخالق تعالى بحيث لا يعتورُها الاستحالة، ولا يعتريها الانحلالُ قطعًا، بأن تُجعلَ أجزاؤها متفاوتةً في الكيفيات متعادلةً في القوى، بحيث لا يقْوَى شيءٌ منها عند التفاعُل على إحالةِ الآخر، متعانقةً متلازمةً لا ينفك بعضُها عن بعض، وتبقى هذه النسبةُ متحفظةً فيما بينها أبدًا لا يعتريها التغيرُ بالأكل والشرب والحركات وغيرِ ذلك.

واعلم أن معظمَ اللذاتِ الحسية لما كان مقصورًا على المساكن والمطاعم والمناكِح حسبما يقضي به الاستقراءُ، وكان مَلاكُ جميع ذلك الدوامَ والثباتَ إذ كلُّ نعمة وإن جلت حيث كانت في شرف الزوال ومعرِضِ الاضمحلال فإنها منغِّصةٌ غيرُ صافيةٍ من شوائب الألم بَشَّر المؤمنين بها وبدوامها تكميلًا للبهجة والسرور، اللهم وفقنا لمراضيك، وثبتنا على ما يؤدي إليها من العقْد والعمل.

﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً﴾ شروع في تنزيه ساحةِ التنزيل عن تعلق ريبٍ خاصٍّ اعتراهم من جهة ما وقع فيه من ضرب الأمثال وبيانٌ لحكمته، وتحقيقٌ للحق إثرَ تنزيهها عما اعتراهم من مطلق الريب بالتحدِّي، وإلقامِ الحجر، وإفحامِ كافة البلغاء من أهل المدَر والوبَر.

روى أبو صالح[١] عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن المنافقين طعَنوا في ضرب الأمثال بالنارِ والظلماتِ والرعدِ والبرق، وقالوا: الله أجلُّ وأعلى من ضرب الأمثال[٢]. وروى عطاءٌ رضي الله عنه: أن هٰذا الطعنَ كان من المشركين[٣].

ورُوي عنه أيضًا أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿يا أيها الناسُ ضرب مثل فاستمعوا له﴾ [الحج، الآية ٧٣] الآية، وقوله تعالى: ﴿مثلُ الذين اتخذوا من دون الله أولياء﴾ [العنكبوت، الآية ٤١] الآية، قالت اليهود: أيُّ قدْرٍ للذباب والعنكبوت حتى يضرِب الله تعالى بهما[٤]، وجعلوا ذلك ذريعة إلى إنكار كونِه من عند الله تعالى، مع أنه لا يخفى على أحد ممن له تمييزٌ أنه ليس مما يتصور فيه الترددُ فضلًا عن النكير، بل هو من أوضح أدلةِ كونِه خارجًا عن طَوْق البشر، نازلًا من عند خلّاق القُوى والقدَر، كيف لا وإن التمثيل كما مر[٥] ليس إلا إبرازًا للمعنى المقصودِ في معرض الأمرِ المشهود، وتحلية المعقولِ بحِلْية المحسوس، وتصويرُ أوابد المعاني بهيئة المأنوس، لاستمالة الوهم واستنزالِه عن معارضتِه للعقل، واستعصائه عليه في إدراك الحقائق الخفية، وفهمِ الدقائق الأبية، كي يتابعَه فيما يقتضيه ويشايعُه إلى ما يرتضيه، ولذلك شاعت الأمثَالُ في الكتب الإلهية والكلمات النبويةِ وذاعت في عبارات البلغاء وإشارات الحكماء، ومن قضية وجوبِ التماثل بين الممثَّل والممثَّل به في مناط التمثيل تمثيلُ العظيم بالعظيم، والحقير بالحقير، وقد مُثل في الإنجيل غلُّ الصدر بالنُخالة، ومعارضةُ السفهاء بإثارة الزنابير، وجاء في عبارات البلغاء: أجمعُ مِنْ ذرةٍ،

---

(١) هو: ذكوان المدني أبو صالح السمان، روى عن سعد وأبي الدرداء وعائشة وأبي هريرة وخلق، وروي عنه بنوه سهيل وعبد الله وصالح وعطاء بن أبي رباح، وسمع منه الأعمش ألف حديث. قال أحمد: ثقة ثقة شهد الدار، قال محمد بن عمر الواقدي: توفي سنة إحدى ومائة.
ينظر: خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (١/ ٣١١)، تهذيب التهذيب (٣/ ٢١٩)، الجرح والتعديل (٣/ ٤٥٠)، تقريب التهذيب (١/ ٢٣٨).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١/ ٢١٣) رقم (٥٥٤)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٨٨) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٨٨)، وعزاه لعبد الغني الثقفي في «تفسيره»، والواحدي.

(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٨٨) وعزاه لعبد الغني الثقفي في «تفسيره»، والواحدي.

(٥) سبق الحديث عن فضل التمثيل، وقد استغرق الحديث عن أسباب تأثير التمثيل صفحات عديدة عند الشيخ عبد القاهر في كتابه أسرار البلاغة.
ينظر: أسرار البلاغة، ص (١٠٧) وما بعدها.

وأجرأ من الذباب، وأسمع من قُراد[١]، وأضعفُ من بعوضة، إلى غير ذلك مما لا يكاد يحصر.

والحياء تغيُّر النفس وانقباضُها عما يُعاب به أو يُذم عليه، يقال: حيي الرجل وهو حَيِيٌّ، واشتقاقه من الحياة اشتقاقَ شظِي وحشِي ونسِيَ من الشظي والنسْي والحشي، يقال: شظِي الفرس ونسي وحشي إذا اعتلت منه تلك الأعضاء كأن من يعتريه الحياء تعتل قوتُه الحيوانية وتنتقص، واشتكىٰ بمعناه خلا أنه يتعدى بنفسه وبحرف الجر، يقال: استحييتُه واستحييتُ منه، والأول لا يتعدى إلا بحرف الجر، وقد يحذف منه إحدى الياءين، ومنه قوله: [الطويل]

ألا يستحي منا الملوك ويتقي     محارمَنا لا يبأَءُ الدمُ بالدم[٢]

وقولُه: [الطويل]

إذا ما استحَيْنَ الماءَ يعرِضُ نفسه     كَرَعن بسبْتٍ في إناءٍ من الورد[٣]

فكما أنه إذا أسند إليه سبحانه بطريق الإيجاب في مثل قوله ﷺ: «إن الله يستحْيي من ذي الشيبة المسلم أن يعذبه»[٤]، وقوله عليه السلام: «إن الله حييّ كريمٌ يستحيي إذا رفع إليه العبدُ يديه أن يُردَّهما صِفرًا حتى يضع فيهما خيرًا»[٥]، يراد به الترك

---

(١) القراد: مفردها قردان وهو دويبة تعض الإبل ويسمع أصوات أخفافها من مسيرة يوم فيتحرك لها.

(٢) ويروى الصدر هكذا:

ألا تنتهي عنَّا ملوك وتتقي

والبيت لجابر بن حني التغلبي في شرح اختيارات المفضل، ص (٩٥١)، ولسان العرب (١/ ٣٨) (بوأ)، (١٦/ ٢٢١) (مكس)، وبلا نسبة في الكتاب (٣/ ٩٥).

(٣) ينظر: شرح ديوان المتنبي (١/ ٣٧٥)، وقرى الضيف لابن أبي الدنيا (١/ ٢٤١).

(٤) ذكره عبد الرءوف المناوي في «الفتح السماوي» (١/ ١٥١)، وعزاه للبيهقي في الزهد من حديث أنس بن مالك.

وعزاه أيضًا لابن أبي الدنيا من حديث سلمان.

(٥) أخرجه أبو داود (١/ ٤٦٨) كتاب الصلاة، باب: الدعاء حديث (١٤٨٨)، والترمذي (٥/ ٥٢٠) كتاب الدعوات، حديث (٣٥٥٦)، وابن ماجه (٢/ ١٢٧١) كتاب الدعاء، باب: رفع اليدين في الدعاء. حديث (٣٨٦٥)، وأحمد (٥/ ٤٣٨)، وابن حبان في صحيحه (٣/ ١٦٠) كتاب الرقائق رقم (٨٧٦)، والحاكم (١/ ٤٩٧)، وصححه ووافقه الذهبي.

ورواه الطبراني في الكبير (٦/ ٢٥٦)، والبغوي في شرح السنة (٣/ ١٥٩)، رقم (١٣٧٩)، وله شاهد من حديث أنس، وجابر.

أما حديث أنس:

أخرجه الحاكم (١/ ٤٩٧، ٤٩٨)، من طريق أبي عبد الله الصفار ثنا أبو بكر بن أبي الدنيا، ثنا =

الخاصُّ على طريقة التمثيل حيث مُثل في الحديثين الكريمين تركهُ تعذيبَ ذي الشيبة، وتخييبُ العبد من عطائه بترك مَنْ يتركهما حياءً، كذلك إذا نُفي عنه تعالى في المواد الخاصة كما في هذه الآية الشريفة، وفي قوله تعالى: ﴿والله لا يستحي من الحق﴾ [الأحزاب، الآية ٥٣] يراد به سلبُ ذلك التركِ الخاصِّ المضاهي لترك المستحي عنه، لا سلبُ وصفِ الحياء عنه تعالى رأسًا، كما في قولك: إن الله لا يوصف بالحياء، لأن تخصيصَ السلب ببعض الموادِّ يوهم كونَ الإيجاب من شأنه تعالى في الجملة، فالمراد هاهنا عدمُ ترك ضربِ المثل المماثل لترك من يستحي مِنْ ضَرْبه، وفيه رمز إلى تعاضُد الدواعي إلى ضربه وتآخُذ البواعث إليه، إذ الاستحياءُ إنما يُتصور في الأفعال المقبولة للنفس، المرضية عندها، ويجوز أن يكون ورودُه على طريقة المشاكلة[1]، فإنهم كانوا يقولون: أما يستحي ربُّ محمدٍ أن يضرِب مثلًا بالأشياء المُحَقّرة، كما في قول من قال: [الكامل]

مَنْ مبلغٌ أفناءَ يعرُبَ كلَّها     أني بنيتُ الجارَ قبل المنزل[2]

وضرب المثل: استعمالُه في مضرِبه وتطبيقُه به لا صنعُه وإنشاؤه في نفسه، وإلا لكان إنشاء الأمثال السائرةِ في مواردها ضربًا لها دون استعمالها بعد ذلك في

---

= بشر بن الوليد القاضي ثنا عامر بن يساف عن حفص بن عمر بن عبد الله ابن أبي طلحة الأنصاري، قال: حدثني أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله رحيم كريم يستحيي من عبده أن يرفع إليه يديه، ثم لا يضع فيهما خيرًا». وصحح إسناده وتعقبه الذهبي بأن عامرًا ذو مناكير، ورواه عبد الرزاق (٢/ ٢٥١)، رقم (٣٢٥٠)، عن معمر عن أبان عن أنس مرفوعًا.
وأبو نعيم في الحلية (٨/ ١٣١).
والبغوي في شرح السنة (٣/ ١٥٩)، رقم (١٣٨٠).
وأما حديث جابر:
فرواه أبو يعلى في مسنده (٣/ ٣٩١) قال: حدثنا عبيد الله بن معاذ، قال: ذكر أبي عن يوسف بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى حيي كريم يستحيي من عبده أن يرفع إليه يديه؛ فيردهما صفرًا ليس فيهما شيء».
قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٥٢): رواه أبو يعلى والطبراني في الأوسط، وفيه يوسف بن محمد بن المنكدر، وقد وثق على ضعفه وبقية رجالهما رجال الصحيح.

(١) المحققون من البيانيين على أنها من المشاكلة التقديرية التي لم يسبق فيها ذكر للفظ المشاكلة، وقد مضى الحديث عن بيان حدها وهل هي من الحقيقة أم من المجاز وأنها من الألوان البديعية.
ينظر: الإيضاح (٤/ ٢٢٤)، وشروح التلخيص (٤/ ٣٠٩) وما بعدها، والمصباح (٢١) وما بعدها، والإشارات والتنبيهات (٢٦٧) وما بعدها، والمطول (٤٢٣)، ومفتاح العلوم (٤٢٤)، وأنوار الربيع (٢١٠).

(٢) البيت لأبي تمام في ديوانه، ص (٢٢٣).

مضاربها، لفقدان الإنشاء هناك.

والأمثالُ الواردة في التنزيل وإن كان استعمالُها في مضاربها عينَ إنشائها في أنفسها، لكن التعبيرَ عنه بالضرب ليس بهذا الاعتبار، بل بالاعتبار الأولِ قطعًا، وهو مأخوذ إما من ضرب الخاتم بجامع التطبيق، فكما أن ضربَه تطبيقُه بقالبه، كذلك استعمالُ الأمثال في مضاربها تطبيقُها بها.

كأن المضاربَ قوالبُ تُضرب الأمثالُ على شاكلتها، لكن لا بمعنى أنها تنشأ بحسَبها بعد أن لم تكنْ كذلك، بل بمعنى أنها تورَدُ منطبقة عليها سواءٌ كان إنشاؤها حينئذ كعامة الأمثالِ التنزيلية، فإن مضاربها قوالبُها، أو قبل ذلك كسائر الأمثال السائرة، فإنها وإن كانت مصنوعةً من قبلُ إلا أن تطبيقها أي إيرادَها منطبقةً على مضاربها إنما يحصُل عند الضرب، وإما من ضرب الطين على الجدار ليلتزق به بجامع الإلصاق، كأنه من يستعملها يُلصِقها بمضاربها ويجعلها ضربةَ لازب لا تنفك عنها لشدة تعلّقها بها.

ومحلُّ **(أن يضرب)** على تقدير تعدية يستحي بنفسه النصبُ على المفعولية، وأما على تقدير تعديته بالجار فعند الخليل: الخفضُ بإضمار مِن، وعند سيبويه النصبُ بإفضاء الفعل إليه بعد حذفها، و**(مثلًا)** مفعول لـ (يضرب)، و**(ما)** اسمية إبهامية تزيد ما تقارنه من الاسم المنكر إبهامًا وشياعًا، كما في قولك: أعطني كتابًا ما، كأنه قيل: مثلًا ما من الأمثال، أيَّ مثلٍ كان. فهي صفة لما قبلها، أو حرفية مزيدة لتقوية النسبةِ وتوكيدها، كما في قوله تعالى: ﴿فبما رحمة من الله﴾ [آل عمران، الآية ١٥٩] و(بعوضةً) بدل من (مثلًا) أو عطف بيان عند من يجوِّزه في النكرات، أو مفعول لـ (يضرب) و(مثلًا) حال تقدمت عليها لكونها نكرة، أو هما مفعولاه لتضمنه معنى الجعل والتصيير، وقرئ[١] بالرفع على أنه خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي هو بعوضة.

---

(١) وهي قراءة إبراهيم بن أبي عبلة والضحاك ورؤبة بن العجاج، وقطرب، واتفق المعربون على أنَّها خبرٌ لمبتدأ، ولكنهم اختلفوا في ذلك المبتدأ، فقيل: هو «ما» على أنَّها استفهاميةٌ أي: أيُّ شيء بعوضةٌ، وإليه ذهب الزمخشري ورَجَّحَهُ.

وقيل: المبتدأ مضمر تقديره: هو بعوضةٌ، وفي ذلك وجهان:

أحدهما: أن تجعل هذه الجملة صلة لـ «ما» لكونها بمعنى الذي، ولكنه حذف العائد، وإن لم تَطُل الصلة، وهذا لا يجوز عند البصريين إلا في «أي» خاصة لطولها بالإضافة، وأما غيرها فشاذ، أو ضرورة كقراءة:

﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ [الأنعام: ١٥٤] وقوله: [البسيط]

مَنْ يُعَنْ بِالحَقِّ لاَ يَنْطِقْ بِمَا سَفَهٌ ... وَلاَ يَحِدْ عَنْ سَبِيلِ الحَمْدِ وَالكَرَمِ

والجملة على تقدير كون (ما) موصولةً، صلة لها محذوفة الصدر كما في قوله تعالى: ﴿تمامًا على الذي أحسن﴾ [الأنعام، الآية ١٥٤] على قراءة الرفع، وعلى تقدير كونها موصوفة[1] لها كذلك، ومحل (ما)، على الوجهين النصبُ على أنه بدل من (مثلًا)، أو على أنه مفعول لـ (يضرب)، وعلى تقدير كونِها إبهاميةً صفةٌ لـ (مثَلًا) كذلك، وأما على تقدير كونِها استفهاميةً فهي خبرٌ لها، كأنه لما رُدّ استبعادُهم ضربَ المثل قيل: ما بعوضة، وأيُّ مانع فيها حتى لا يُضرب بها المثل؟ بل له تعالى أن يمثل بما هو أصغر منها وأحقر كجناحها على ما وقع في قوله ﷺ: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناحَ بعوضةٍ ما سقى الكافرَ منها شربة ماء»[2] والبعُوض فعُول من

---

= أي: الذي هو أحسنُ، وبما هو سَفَهٌ، وتكون «ما» على هذا بدلا من «مثلا» كأنه قيل: مثلا الذي هو بعوضة.

قال النحاس: والحذف في «ما» أقبح منه في «الذي» لأن «الذي» إنما له وجه واحد، والاسم معه أطول».

والثاني: أن تجعلَ «ما» زائدة، أو صفة، وتكون «هو بعوضة» جملة كالمفسرة لما انطوى عليه الكلام.

ويقال: إن معنى: «ضربت له مثلا» مَثلت له مثلا، وهذه الأبنية على ضرب واحد، وعلى مثال واحد ونوعٍ واحد.

والضرب: النوع، والبعوضة: واحدة البعوض، وهو معروف، وهو في الأصل وصف على فعول كالقَطُوع، مأخوذ من البَعْض، وهو القطع، وكذلك البضع والعضب؛ قال: [الوافر]

لَنِعْمَ البَيْتُ بَيْتُ أَبِي دِثَارٍ ... إِذَا مَا خَافَ بَعْضُ القَوْمِ بَعْضَا

ينظر: البحر المحيط (١/ ٢٦٧)، والدر المصون (١/ ١٦٤)، واللباب (١/ ٤٦٤).

(١) زاد في ط: صفة.

(٢) وذلك في حديث سهل بن سعد الذي رواه الترمذي (٤/ ٥٦٠) كتاب الزهد، باب: ما جاء في هوان الدنيا على الله -عز وجل- حديث (٢٣٢٠)، قال: حدثنا قتيبة حدثنا عبد الحميد بن سليمان عن أبي حازم عن سهل بن سعد، قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء».

ورواه ابن ماجه (٢/ ١٣٧٦) كتاب الزهد، باب: مثل الدنيا، حديث (٤١١٠).

ورواه الحاكم (٤/ ٣٠٦) مثل حديث ابن ماجه.

وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

وتعقبه الذهبي، فقال: «زكريا بن منظور ضعفوه»، والطبراني في الكبير (٦/ ١٧٨) رقم (٥٩٢١)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٢٥٣)، والبيهقي في الشعب رقم (١٠٤٦٥)، وابن عدي في الكامل (٥/ ١٩٥٦).

وللحديث شواهد من حديث أبي هريرة، وابن عباس، وابن عمر.

أما حديث أبي هريرة:

أخرجه البيهقي في الشعب (٧/ ٣٢٦) رقم (١٠٤٧٠)، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لو =

البعض، وهو القطع كالبَضْع والعَضْب غلب على هذا النوع كالخُموش في لغة هذيل من الخمش وهو الخَدْش.

﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ عطف على (بعوضة) على تقدير نصبها على الوجوه المذكورة، و(ما) موصولة أو موصوفة صلتَها أو صفتُها الظرفُ، وأما على تقدير رفعها فهو عطفٌ على (ما) الأولى على تقدير كونِها موصولةً أو موصوفة، وأما على تقدير كونِها استفهاميةً فهو عطفٌ على خبرها أعني (بعوضة) لا على نفسها كما قيل.

والمعنى ما بعوضة فالذي فوقها أو فشيءٌ فوقها، حتى لا يُضْرَب بها المثل، وكذا على تقدير كونِها صفةً للنكرة أو زائدة، و(بعوضة) خبرٌ للمضمر.

وذكرُ البعوضة فما فوقها من بين أفراد المَثَل إنما هو بطريق التمثيل دون التعيين والتخصيص، فلا يُخل بالشيوع بل يقرّره ويؤكده بطريق الأولوية.

والمراد بالفوقية: إما الزيادةُ في المعنى الذي أريد بالتمثيل أعني الصِّغَر والحقارة، وإما الزيادةُ في الحجم والجُثة، لكن لا بالغًا [ما بلغ](1)، بل في الجملة كالذباب والعنكبوت.

وعلى التقدير الأول يجوز أن تكون (ما) الثانية خاصة استفهاميةً إنكارية والمعنى: إن الله لا يستحي أن يضرب مثلًا ما بعوضةً فأيَّ شيء فوقها في الصغر والحقارة، فإذن له تعالى أن يمثّل بكل ما يريد.

ونظيرُه في احتمال الأمرين ما رُوي أن رجلًا بمِنىً خرَّ على طُنُب فُسطاط، فقالت

---

= عدلت الدنيا عند الله جناح بعوضة ما أعطى مشركًا منها شيئًا».
والبزار في مسنده رقم (٣٦٩٣).
قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٩١): رواه البزار وفيه صالح مولى التوأمة وهو ثقة، ولكنه اختلط، وبقية رجاله ثقات.
أما حديث ابن عباس:
أخرجه أبو نعيم (٧/ ٣٢)، بلفظ المصنف، ولم يذكر الماء.
أما حديث ابن عمر:
أخرجه الخطيب في التاريخ (٤/ ٩٢) من طريق محمد بن أحمد بن عون، حدثنا أبو مصعب عن مالك عن نافع عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء».
ورواه القضاعي في مسند الشهاب رقم (١٤٣٩).

(١) سقط في ط.

عائشة[١] رضي الله عنها حين ذكر لها ذلك: سمعت رسول الله ﷺ قال: «ما من مسلم يُشاك شوْكةً فما فوقها إلا كُتبت له بها درجة ومُحِيَتْ عنه بها خطيئة»[٢] فإنه يحتمل ما يجاوز الشوكة في القِلة كنَخْبة النملة بقوله عليه السلام: «**ما أصاب المؤمن من مكروه فهو كفارةٌ لخطاياه حتى نَخبةُ النملة**»[٣] وما تجاوزها من الألم كأمثال ما حكي من الحَرور.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ شروع في تفصيل ما يترتب على ضرب المثل من الحُكم إثْرَ تحقيق حقية صدوره عنه تعالى. والفاء للدلالة على ترتب ما بعدها على ما يدل عليه ما قبلها، كأنه قيل: فيضرِبه فأما الذين... إلخ، وتقديمُ بيانِ حال المؤمنين على ما

---

(١) هي: عائشة بنت أبي بكر الصديق عبد الله بن عثمان بن عامر القرشي، أفقه نساء المسلمين، وأعلمهن بالدين والأدب، تكنت بأم المؤمنين، وأم عبد الله، تزوجها النبي ﷺ قبل الهجرة، وبنى بها في الثانية بعد الهجرة، وكانت أحب نسائه إليه، وأكثرهن رواية للحديث عنه. قال عروة: ما رأيت أحدًا أعلم بالطب منها، وعن هشام عن أبيه قال: ما رأيت أحدًا أعلم بالقرآن ولا بفريضة ولا بحلال وحرام ولا بشعر ولا بحديث العرب ولا النسب من عائشة، رضي الله عنها. وتوفيت سنة سبع وخمسين، وقيل: ثمانٍ وخمسين من الهجرة.
ينظر: الاستيعاب (٢/ ٧٦٤)، سير أعلام النبلاء (٢/ ٩٨)، طبقات الفقهاء، للشيرازي ص (١١٧)، أسد الغابة (٥/ ٥٠١)، تذكرة الحفاظ (١/ ٢٣)، الإصابة (٨/ ١٣٩).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٢٧٩) ومسلم (٤٨-٢٥٧٢) من طريق هشام بن عروة، عن أبيه عن عائشة ومالك (٢/ ٩٤١) في العين، باب: ما جاء في أجر المريض، ومن طريقه مسلم (٥- ٢٥٧٢) عن يزيد بن خصيفة كلاهما عن عروة به.
وأخرجه مسلم (٥١- ٤٥٧٢) من طريق عمرة عن عائشة.
وأخرجه أحمد (٦/ ٣٩، ٢٦١) من طريق عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة.
وأخرجه (٦/ ٢٥٧) من طريق ابن أبي مليكة عن القاسم بن محمد عن عائشة.
وأخرجه أحمد (٦/ ٤٨، ١٨٥) من طريق عبد الواحد بن حمزة بن عبد الله بن الزبير عن عباد بن عبد الله بن الزبير عن عائشة.
وأخرجه أحمد (٦/ ٢٤٨) من طريق حمزة بن عبد الله بن الزبير عن عائشة.
وفي الباب عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري:
أخرجه البخاري (١٠/ ١٠٧) في الطب، باب: ما جاء في كفارة المرض (٥٦٤١، ٥٦٤٢)، ومسلم (٤/ ١٩٩٢) في البر والصلة والآداب، باب: ثواب المؤمن (٥٢/ ٢٥٧٣)، والترمذي (٣/ ٢٩٨) في الجنائز، باب: ما جاء في ثواب المريض (٩٦٦)، وأحمد (٣/ ٤، ٢٤، ٦٣، ٨١)، وأبو يعلى (١٢٣٧)، والبغوي في شرح السنة (٣/ ١٨٢) (٤١٥) بلفظ: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب، ولا هم، ولا حزن، ولا أذى، ولا غم حتى الشوكة يشاكها، إلا كَفَّر الله بها من خطاياه».
وعند الترمذي وأحمد عن أبي سعيد وحده دون أبي هريرة.

(٣) قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/ ٣٧): «قلت: غريب جدًا».

حكي من الكفرة مما لا يفتقر إلى بيان السبب، وفي تصدير الجُملتين بـ (أما) من إحْماد أمرِ المؤمنين وذمِّ الكفرة ما لا يخفى، وهو حرف متضمنٌ لمعنى الشرط، وفعلُه بمنزلة: مهما يكن من شيء، ولذلك يُجاب بالفاء، وفائدتُه توكيد ما صُدِّر به وتفصيلُ ما في نفس المتكلم من الأقسام، فقد تُذكر جميعًا وقد يُقتصر على واحد منها، كما في قوله عز من قائل: ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ﴾ [آل عمران، الآية ٧] الخ.

قال سيبويه: (أما) زِيد معناه مهما يكن من شيء فهو ذاهب لا محالة، وأنه منه عزيمة، وكان الأصلُ دخولَ الفاء على الجملة لأنها الجزاءُ لكن كرِهوا إيلاءَها حرفَ الشرط، فأدخلوها الخبرَ وعُوِّض المبتدأ عن الشرط لفظًا.

والمراد بالموصول فريقُ المؤمنين المعهودين كما أن المرادَ بالموصول الآتي: فريقُ الكفرة لا مَنْ يؤمِنُ بضرب المثل، ومَنْ يكفرُ به، لاختلال المعنى، أيْ: فأما المؤمنين فيعلمون. . .

﴿فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِهِمْ﴾ كسائر ما ورد منه تعالى، والحقُّ هو الثابت الذي يحِق ثبوتُه لا محالة، بحيث لا سبيل للعقل إلى إنكاره لا الثابتُ مطلقًا، واللامُ للدلالة على أنه مشهود له بالحقية، وأن له حِكَمًا ومصالحَ، و(من) لابتداء الغايةِ المجازية، وعاملُها محذوفٌ وقع حالًا من الضمير المستكنِّ في (الحق)، أو من الضمير العائد إلى (المثَل)، أو إلى ضَرْبه، أي: كائنًا وصادرًا من ربهم.

والتعرضُ لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم لتشريفهم، وللإيذان بأن ضرْبَ المَثَل تربيةٌ لهم.

وإرشادٌ إلى ما يوصلهم إلى كمالهم اللائق بهم، والجملةُ سادّةٌ مسدَّ مفعولَيْ (يعلمون) عند الجمهور، ومسدُّ مفعولِه الأول والثاني محذوفٌ عند الأخفش، أي فيعلمون حقيتَه ثابتةً، ولعل الاكتفاءَ بحكاية علمهم المذكورِ عن حكاية اعترافِهم بموجبه، كما في قوله تعالى: ﴿والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا﴾ [آل عمران، الآية ٧] للإشعار بقوة ما بينهما من التلازم وظهورِه المُغني عن الذكر.

﴿وَأَمَّا الَّذينَ كَفَرُوا﴾ ممن حُكيت أقوالُهم وأحوالُهم ﴿فَيَقُولُونَ مَاذَا أرادَ الله بِهَذَا مَثَلًا﴾ أُوثر (يقولون) على (لا يعلمون) حسبما يقتضيه ظاهرُ قرينِه دلالةً على كمال غلوِّهم في الكفر، وترامي أمرِهم في العتو، فإن مجردَ عدمِ العلم بحقيته ليس بمثابة إنكارِها، والاستهزاءُ به صريحًا وتمهيدًا لتعداد ما نُعيَ عليهم في تضاعيف الجواب

من الضلال والفِسقِ ونقضِ العهد وغيرِ ذلك من شنائعهم المترتبةِ على قولهم المذكور.

على أن عدمَ العلم بحقيّته لا يعمُّ جميعَهم، فإن منهم من يعلم بها، وإنما يقول ما يقول مكابرةً وعنادًا، وحملُه على عدم الإذعان والقبولِ الشاملِ للجهل والعنادِ تعسفٌ ظاهر.

هذا وقد قيل: كان من حقه: وأما الذين كفروا فلا يعلمون، ليطابقَ قرينَه ويقابلَ قسيمَه، لكن لما كان قولُهم هذا دليلًا واضحًا على جهلهم عُدل إليه على سبيل الكنايةِ ليكون كالبرهان عليه، فتأمل وكن على الحق المبين.

و(**ماذا**) إما مؤلفةٌ من كلمة استفهامٍ وقعتْ مبتدأ خبرُه (ذا) بمعنى الذي، وصلتُه ما بعده، والعائدُ محذوف، فالأحسنُ أن يجيء جوابُه مرفوعًا، وإما [مُنَزَّلةٌ][1] منزلةَ اسم واحد بمعنى: أيُّ شيء، فالأحسنُ في جوابه النصبُ، والإرادةُ نزوعُ النفسِ وميلُها إلى الفعل بحيث يحمِلها إليه، أو القوةُ التي هي مبدؤه، والأول مع الفعل، والثاني قبله، وكلاهما مما لا يتصور في حقه تعالى، ولذلك اختلفوا في إرادته عز وجل.

فقيل: إرادتُه تعالى لأفعاله كونُه غيرَ ساه فيها[2] ولا مُكْرهٍ، ولأفعال غيرِه أمرُه بها، فلا تكون المعاصي بإرادته تعالى.

وقيل هي علمُه باشتمال الأمر على النظام الأكمل، والوجه الأصلح، فإنه يدعو القادرَ إلى تحصيله، والحقُّ [أنه][3] عبارةٌ عن ترجيح أحد طرفي المقدورِ على الآخر، وتخصيصُه بوجه دون وجه أو معنى يوجبه، وهي أعمُّ من الاختيار، فإنه ترجيحٌ مع تفضيل، وفي كلمة (هذا) تحقيرٌ للمشار إليه، واسترذال له.

و(مَثَلًا) نُصب على التمييز أو على الحال كما في قوله تعالى: ﴿نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً﴾ [الأعراف، الآية ٧٣. وسورة هود، الآية ٦٤] وليس مرادُهم بهذه العظيمة استفهامَ الحكمةِ في ضرب المثل، ولا القدْحَ في اشتماله على الفائدة مع اعترافهم بصدوره عنه جل وعلا، بل غرضُهم: التنبيهُ بادعاء أنه من الدناءة والحقارةِ بحيث لا يليق بأن يتعلقَ به أمرٌ من الأمور الداخلةِ تحت إرادته تعالى، على استحالة أن يكون ضربُ المثل به من عنده سبحانه.

فقوله عز من قائل: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ جوابٌ عن تلك المقالة

---

(١) سقط في المخطوط.
(٢) في ط: فيه.
(٣) سقط في المخطوط.

الباطلة، وردٌّ لها ببيان أنه مشتملٌ على حكمةٍ جليلة، وغايةٍ جميلة هي كونُه ذريعةً إلى هداية المستعدِّين للهداية، وإضلالِ المنهمكين في الغواية، فوُضِعَ الفعلان موضعَ الفعل الواقع في الاستفهام مبالغةٌ في الدلالة على تحققهما، فإن إرادتَهما دون وقوعِهما بالفعل، وتجافيًا عن نظم الإضلال مع الهداية في سلك الإرادة لإيهامه تساويهما في تعلقهما، وليس كذلك، فإن المرادَ بالذات من ضرب المثل هو التذكرُ والاهتداءُ كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وتلك الأمثالُ نضرِبُها للناس لعلهم يتفكرون﴾ [الحشر، الآية ٢١] ونظائرُه.

وأما الإضلالُ فهو أمر عارضٌ مترتب على سوء اختيارهم، وأوثر صيغةُ الاستقبال إيذانًا بالتجدّد والاستمرار، وقيل: وُضع الفعلان موضعَ مصدرٍ، كأنه قيل: أراد إضلالَ كثيرٍ وهدايةَ كثير، وقُدِّم الإضلالُ على الهداية مع تقدم حال المهتدين على حال الضالين فيما قبله ليكون أولُ ما يقرَعُ أسماعَهم من الجواب أمرًا فظيعًا يسوءُهم ويفُتّ في أعضادهم، وهو السرُّ في تخصيص هذه الفائدة بالذكر وقيل: هو بيانٌ للجملتين المصدّرتين بأما، وتسجيلٌ بأن العلم بكونه حقًا هدى، وأن الجهلَ بوجهِ إيرادِه والإنكارِ لحُسن موردِه ضلالٌ وفسوقٌ، وكثرةُ كل فريقٍ إنما هي بالنظر إلى أنفسها لا بالقياس إلى مقابليهم فلا يقدح في ذلك أقلية أهل الهدى بالنسبة إلى أهل الضلالِ حسبما نطَق به قولُه تعالى: ﴿وقليلٌ من عباديَ الشكورُ﴾ [سبأ، الآية ١٣]، ونحو ذلك.

واعتبار كثرتهم الذاتية دون قلتهم الإضافية؛ لتكميل فائدة ضربِ المثل وتكثيرِها، ويجوز أن يراد في الأولين الكثرةُ من حيث العددُ وفي الآخَرين من حيث الفضلُ والشرفُ كما في قول من قال: [البسيط]

إن الكرامَ كثيرٌ في البلاد وإن ... قَلُّوا كما غيرهم قُلٌّ وإن كثروا[1]

وإسنادُ الإضلال أي خلق الضلال إليه سبحانه مبنيٌّ على أن جميع الأشياء مخلوقةٌ له تعالى، وإن كانت أفعالُ العباد من حيث الكسب مستندةً إليهم، وجعلُه من قبيل إسناد الفعل إلى سببه يأباه التصريحُ بالسبب.

وقرئ[2] **(يُضَلُّ به كثيرٌ ويُهدىٰ به كثير)** على البناء للمفعول، وتكرير (به) مع جواز

(١) البيت لأبي تمام في ديوانه، ص (١٤١)، والمثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير (٢/ ٣٦٦)، ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري التلمساني (٥/ ٢٢٢).

(٢) وهي قراءة زيد بن علي.

=

الاكتفاء بالأول، لزيادة تقريرِ السببية وتأكيدِها.

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ﴾ أي بالمثل أو بضربه ﴿إِلَّا الفَاسِقِينَ﴾ عطف على ما قبله وتكملةٌ للجواب والردِّ وزيادةُ تعيينٍ لمن أريد إضلالُهم ببيان صفاتهم القبيحةِ المستتبعةِ له، وإشارةٌ إلى أن ذلك ليس إضلالًا ابتدائيًا بل هو تثبيتٌ على ما كانوا عليه من فنون الضلال وزيادةٌ فيه.

وقرئ[1] (وما يُضَل به إلا الفاسقون) على البناء للفاعل.

والفِسق في اللغة الخروج، يقال: فَسَقت الرُّطْبة عن قشرها، والفأرةُ من جُحرها أي خرجت، قال رؤبة: [الرجز]

يـذهـبْـن فـي نـجـدٍ وغَـوْرا غـائـرا فـواسـقًـا عـن قـصـدهـا جـوائـرا[2]

وفي الشريعة الخروجُ عن طاعة الله عز وجل بارتكاب الكبيرة التي من جملتها الإصرارُ على الصغيرة.

وله طبقاتٌ ثلاثٌ: الأولى: التغابي وهو ارتكابُها أحيانًا مستقبِحًا لها.

والثانية: الانهماكُ في تعاطيها.

والثالثةُ: المثابرة عليها مع جحود قُبحها، وهذه الطبقةُ من مراتب الكفر، فما لم يبلُغْها الفاسقُ لا يُسلب عنه اسمُ المؤمن لاتصافه بالتصديق الذي عليه يدور الإيمان ولقوله تعالى: ﴿وإنْ طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾ [الحجرات، الآية ٩].

والمعتزلةُ لما ذهبوا إلى أن الإيمانَ عبارةٌ عن مجموعِ التصديقِ والإقرارِ والعملِ، والكفرَ عن تكذيب الحق وجحوده، ولم يتسنَّ لهم إدخالُ الفاسقِ في أحدهما فجعلوه قسمًا بين قسمي المؤمن والكافر؛ لمشاركته كلَّ واحد منهما في بعض أحكامه.

والمرادُ بـ (الفاسقين) هاهنا العاتون الماردون في الكفر، الخارجون عن حدوده ممن حُكي عنهم ما حُكي من إنكار كلامِ الله تعالى والاستهزاءِ به، وتخصيصُ

---

= ينظر: البحر المحيط (١/ ٢٧٠)، والدر المصون (١/ ١٦٧)، واللباب (١/ ٤٧١).

(١) وهي قراءة إبراهيم بن أبي عبلة.
ينظر: المحرر الوجيز (١/ ١١٢)، والبحر المحيط (١/ ٢٧٠)، والدر المصون (١/ ١٦٧)، واللباب (١/ ٤٧١).

(٢) الرجز لرؤبة في ملحق ديوانه ص (١٩٠)، وأساس البلاغة (فسق)، وللعجاج في ملحق ديوانه (٢/ ٢٨٨)، والكتاب (١/ ٩٤)، وبلا نسبة في لسان العرب (فسق)، وتهذيب اللغة (٨/ ٤١٤)، وتاج العروس (فسق)، وجواهر الأدب ص (٣٣)، والخصائص (٢/ ٤٣٢)، وشرح التصريح (١/ ٢٨٨)، وشرح شذور الذهب ص (٤٣١)، والمحتسب (٢/ ٤٣) (يهوين).

الإضلالِ بهم مترتبًا على صفة الفسق وما أجريَ عليهم من القبائح للإيذان بأن ذلك هو الذي أعدَّهم للإضلال وأدىٰ بهم إلى الضلال فإن كفرَهم وعدولَهم عن الحق وإصرارَهم على الباطل صرَف وجوهَ أنظارِهم عن التدبر في حكمة المثَل إلى حقارة الممثَّل به حتى رسَخت به جهالتُهم وازدادت ضلالتُهم فأنكروه وقالوا فيه ما قالوا.

## [من صفات الفاسقين]

﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ﴾ صفةٌ لـ (لفاسقين) للذم وتقريرِ ما هم عليه من الفسق.

والنقضُ: فسخُ التركيب من المركبات الحسية، كالحبْل والغزل ونحوهما، واستعمالُه في إبطال العهد من حيث استعارةُ الحبل له[1]، لما فيه من ارتباط أحدِ كلامي المتعاهدين بالآخر، فإن شُفِعَ بالحبل وأريد به العهدُ كان ترشيحًا للمجاز، وإن قُرن بالعهد كان رمزًا إلى ما هو من روادفه وتنبيهًا على مكانه، وأن المذكور قد استُعير له كما يقال: شجاعٌ يفترس أقرانَه، وعالمٌ يغترف منه الناسُ تنبيهًا على أنه أسدٌ في شجاعته وبحرٌ في إفاضته.

والعهدُ: المَوْثِقُ، يقال: عهِد إليه كذا، إذا وصّاه به ووثّقه عليه والمرادُ هاهنا: إما العهدُ المأخوذُ بالفعل وهو الحجة القائمةُ على عباده الدالةُ على وجوده تعالى ووَحدتِه وصدقِ رسولِه عليه السلام، وبه أُوّل قولُه تعالى: ﴿وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى﴾ [الأعراف، الآية ١٧٢].

أو المعنى الظاهرُ منه أو المأخوذُ من جهة الرسل على الأمم بأنهم إذا بعث إليهم رسولٌ مصدِّقٌ بالمعجزات صدّقوه واتبعوه ولم يكتُموا أمرَه وذِكرُه في الكتب المتقدمة ولم يخالفوا حُكمه كما ينبئ عنه قوله عز وجل: ﴿وإذ أخذ الله ميثاقَ الذين أوتوا الكتاب لتبيِّننه للناس ولا تكتُمونه﴾ [آل عمران، الآية ١٨٧] ونظائرُه.

وقيل: عهودُ الله تعالى ثلاثة.

الأولُ: ما أخذه على جميع ذريةِ آدمَ عليه السلام بأن يُقرّوا به وبربوبيته.

والثاني: ما أخذه على الأنبياء عليهم السلام بأن يُقيموا الدينَ ولا يتفرقوا فيه.

---

(١) إشارة إلى أن الآية من قبيل الاستعارة التبعية المكنية، وذلك أنه استعار الحبل للعهد، ثم حذفه ورمز له بشيء من لوازمه، وهو النقض، على طريق التخييل. والتخييلية هي قرينة المكنية كما هو معلوم عند البيانيين.
ينظر: شروح التلخيص (٤/ ٥٠) وما بعدها، والإيضاح مع البغية (٣/ ١٦٠) وما بعدها، والمطول (٣٢٠) وما بعدها.

والثالث: ما أخذه على العلماء بأن يُبينوا الحقَّ ولا يكتموه.

﴿مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ الميثاقُ: إما اسمٌ لما يقع به الوَثاقة والإحكام، وإما مصدرٌ بمعنى التوثقة كالميعاد بمعنى الوعد.

فعلى الأول: إن رجَع الضمير إلى العهد كان المرادُ بالميثاق ما وثّقوه به من القَبول والالتزام، وإن رجع إلى لفظ الجلالة يُراد به آياتُه وكتبُه وإنذارُ رسلِه عليهم السلام، والمضافُ محذوفٌ على الوجهين، أي من بعد تحقّق ميثاقِه.

وعلى الثاني إن رجَع الضميرُ إلى العهد.

و(الميثاقُ) مصدرٌ من المبني للفاعل، فالمعنى من بعد أن وثّقوه بالقبول والالتزام، أو من بعد أن وثقه الله عز وجل بإنزال الكتب وإنذارِ الرسل، وإن كان مصدرًا من المبني للمفعول فالمعنى من بعد كونه مُوَثقًا إما بتوثيقهم إياه بالقَبول وإما بتوثيقه تعالى إياه بإنزال الكتب وإنذارِ الرسل.

﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ يحتمل كلَّ قطيعة لا يرضى بها الله سبحانه وتعالى كقطع الرحِمِ وعدمِ موالاة المؤمنين والتفرقةِ بين الأنبياء عليهم السلام والكتب في التصديق، وتركِ الجماعات المفروضةِ وسائرِ ما فيه رفضُ خيرٍ أو تعاطي شر، فإنه يقطع ما بين الله تعالى وبين العبد، من الوصلة التي هي المقصودةُ بالذات من كل وصلٍ وفصل.

والأمر هو القولُ الطالبُ للفعل مع العلو، وقيل: بالاستعلاء، وبه سمِّي الأمرُ الذي هو واحدُ الأمور تسميةً للمفعول بالمصدر، فإنه مما يؤمَر به كما يقال: له شأنٌ وهو القصدُ والطلب لما أنه أثَرٌ للشأن، وكذا يقال له شيء وهو مصدرُ شاء لما أنه أثرٌ للمشيئة، ومحلُّ (أن يوصل) إما النصبُ على أنه بدلٌ من الموصول أو من ضميره والثاني أولى لفظًا ومعنى.

﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالمنع عن الإيمان والاستهزاءِ بالحق وقطعِ الوصل التي عليها يدور فلكُ نظام العالم وصلاحُه.

﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى الفاسقين باعتبار اتصافِهم بما فُصل من الصفات القبيحة، وفيه إيذانٌ بأنهم متميزون بها أكملَ تميز ومنتظمون بسبب ذلك في سلك الأمور المحسوسة، وما فيه من معنى البعد للدلالة على بعد منزلتهم في الفساد.

﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الذين خسروا بإهمال العقلِ عن النظر واقتناصِ ما يفيدهم الحياةَ الأبدية واستبدالِ الإنكار والطعنِ في الآيات بالإيمان بها والتأملِ في حقائقها

والاقتباسِ من أنوارها واشتراءِ النقض بالوفاءِ والفسادِ بالصلاح والقطيعةِ بالصلة والعقاب بالثواب.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ﴾ التفات إلى خطاب المذكورين مبنيٌّ على إيراد ما عُدد من قبائحهم السابقة، لتزايد السَخَط الموجب للمشافهة بالتوبيخ والتقريع.

والاستفهامُ إنكاري، لا بمعنى إنكار الوقوع، كما في قوله تعالى: ﴿كيف يكون للمشركين عهدٌ عند الله وعند رسوله﴾ [التوبة، الآية ٧] إلخ، بل المعنى: إنكارُ الواقعِ واستبعادُه والتعجيبُ منه، وفيه من المبالغة ما ليس في توجيه الإنكارِ إلى نفس الكفرِ بأن يقال: أتكفرون، لأن كل موجودٍ يجب أن يكون وجودُه على حال من الأحوال قطعًا فإذا انتفى جميعُ أحوال وجودِه فقد انتفى وجودُه على الطريق البُرهاني.

وقوله عز وجل: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾ إلى آخر الآية، حالٌ من ضمير الخطاب في (تكفرون) مؤكدةٌ للإنكار والاستبعادِ بما عُدِّد فيها من الشؤون العظيمة الداعيةِ إلى الإيمان، الرادعةِ من الكفر، من حيث كونُها نعمةً عامة ومن حيث دلالتها على قدرة تامةٍ كقوله تعالى: ﴿وقد خلقكم أطوارا﴾ [نوح، الآية ١٤].

و(كيف) منصوبةٌ على التشبيه بالظرف عند سيبويه، وبالحال عند الأخفش، أي في أيِّ حال أو على أي حالٍ تكفُرون به تعالى، والحالُ أنكم (كنتم أمواتًا) أيْ أجسامًا لا حياة لها، عناصرَ وأغذيةً ونُطفًا ومُضَغًا مخلّقة وغيرَ مخلّقة.

والأمواتُ: جمع ميت، كأقوال جمع قيل[1]، وإطلاقُها على تلك الأجسام باعتبار عدمِ الحياةِ مطلقًا كما في قوله تعالى: ﴿بلدة ميْتا﴾ [الفرقان، الآية ٤٩] وقوله تعالى: ﴿وآية لهم الأرض الميتة﴾ [يس، الآية ٣٣].

﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾ بنفْخِ الأرواحِ فيكم.

والفاء للدلالة على التعقيب فإنّ الإحياءَ حاصلٌ إثرَ كونِهم أمواتًا وإنْ توارد عليهم في تلك الحالة أطوارٌ مترتبةٌ بعضُها متراخٍ عن بعض كما أشير إليه آنفًا.

﴿ثُمَّ يُميتكم﴾ أي عند انقضاءِ آجالِكم، وكونُ الإماتة من دلائل القدرةِ ظاهر، وأما كونُها من النعم فلكونها وسيلةً إلى الحياة الثانية التي هي الحَيَوان والنعمةُ العظمىٰ، والتراخي المستفادُ من كلمة (ثم) بالنسبة إلى زمان الإحياءِ دون زمان الحياة، فإن زمانَ الإماتةِ غيرُ متراخٍ عنه.

---

(١) في المخطوط: قول.

﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بالنشور يوم يُنفَخُ في الصور أو للسؤال في القبور، وأيا ما كان فهو متراخٍ من زمان الإماتة، وإن كان إثرَ زمانِ الموتِ المستمر.

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بعد الحشرِ لا إلى غيره فيجازيكم بأعمالكم إن خيرًا فخيرٌ وإن شرًا فشر، أو إليه تُنْشرون من قبوركم للحساب، وهذه الأفعالُ وإن كان بعضُها ماضيًا وبعضُها مستقبلًا لا يتسنى مقارنةُ شيءٍ منها لما هو حالٌ منه في الزمان، لكن الحالَ في الحقيقة هو العلم المتعلّقُ بها كأنه قيل: كيف تكفرون بالله وأنتم عالمون بهذه الأحوال المانعةِ منه، ومآلُه التعجيبُ من وقوعه مع تحقق ما ينفيه، وإنما نُظم ما ينكرونه من الإحياء الأخيرِ والرَّجْعِ في سِلك ما يعترفون به من الإحياء الأولِ والإماتةِ تنزيلًا لتمكّنهم من العلم لما عاينوه من الدلائل القاطعةِ منزلةَ العلمِ بذلك بالفعل في إزاحة العللِ والأعذار.

والحياةُ حقيقةٌ في القوة الحساسة أو ما يقتضيها، وبها سُمي الحيوان حيوانًا، مجازٌ في القوة النامية لكونها من طلائعها وكذا فيما يخصُّ الإنسانَ من العقل والعلم والإيمان من حيث إنه كمالُها وغايتُها، والموتُ بإزائها يطلق على ما يقابل كلَّ مرتبة من تلك المراتب؛ قال تعالى: ﴿قل الله يحييكم ثم يميتكم﴾ [الجاثية، الآية ٢٦] وقال تعالى: ﴿اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها﴾ [الحديد، الآية ١٧] وقال تعالى: ﴿أومن كان ميْتًا فأحييناه، وجعلنا له نورا يمشي به في الناس﴾ [الأنعام، الآية ١٢٢] وعند وصفِه تعالى بها يُراد صِحةَ اتصافِه تعالى بالعلم والقدرة اللازمة لهذه القوة فينا، أو معنى قائمٌ بذاته تعالى مقتضٍ لذلك، وقرئ[1] (تَرجِعون) بفتح التاء، والأول هو الأليقُ بالمقام.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم ما في الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ تقريرٌ للإنكار و تأكيدٌ له من الحيثيتين المذكورتين، غُيِّر سبكُه عن سبك ما قبله مع اتحادهما في المقصود إبانةً لما بينهما من التفاوت، فإن ما يتعلق بذواتهم من الإحياءِ والإماتةِ والحشرِ أدخلُ في

(١) والجمهور على قراءة «تُرجعون» مبنيا للمفعول.
وقرأ يحيى بن يعمر: وابن أبي إسحاق، ومُجَاهد، وابن مُحَيصن، وسلام، ويعقوب مبنيا للفاعل حيث جاء.
ووجه القراءتين أن «رجع» يكون قاصرا ومتعديا فقراءة الجُمْهور من المتعدّي، وهو أرجح؛ لأن أصلها «ثُمَّ إِلَيْهِ مرجعكم» لأن الإسناد في الأفعال السَّابقة لله تَعَالَى، فناسب أن يكون هذا كله، ولكنه بني للمفعول لأجل الفواصل والمقاطع.
ينظر: البحر المحيط (١/ ٢٧٨)، والدر المصون (١/ ١٧١)، وشرح الطيبة (٤/ ١٠)، وإتحاف فضلاء البشر (١/ ٣٨٢، ٣٨٣).

الحث على الإيمان والكفِّ عن الكفر مما يتعلق بمعايشهم، وما يجري مَجراها، وفي جعل الضمير مبتدأً والموصولِ خبرًا من الدلالة على الجلالة ما لا يخفىٰ.

وتقديمُ الظرفِ على المفعول الصريح لتعجيل المسَرَّة ببيان كونِه نافعًا للمخاطبين وللتشويق إليه كما سلف، أي خلق لأجلكم جميعَ ما في الأرض من الموجودات لتنتفعوا بها في أمور دنياكم بالذات أو بالواسطة وأمورِ دينكم بالاستدلال بها على شؤون الصانعِ تعالى شأنُه، والاستشهادِ بكل واحدٍ منها على ما يلائمُه من لذّات الآخرة وآلامِها وما يعمُّ جميعَ ما في الأرض لا نَفْسَها إلا أن يُرادَ بها جهةُ السفل كما يراد بالسماء جهةُ العلو، نعم يعمُّ كل جزءٍ من أجزائها، فإنه من جملة ما فيها ضرورةُ وجودِ الجزءِ في الكل.

و(جميعًا) حال من الموصول الثاني مؤكدةٌ لما فيه من العموم، فإن كلَّ فردٍ من أفرادِ ما في الأرض بل كلُّ جزءٍ من أجزاء العالم له مدخَلٌ في استمراره على ما هو عليه من النظام اللائق الذي عليه يدور انتظامُ مصالحِ الناس.

أما من جهة المعاشِ فظاهرٌ، وأما من جهة الدينِ فلما أنه ليس في العالم شيءٌ مما يتعلق به النظرُ وما لا يتعلق به إلا وهو دليلٌ على القادر الحكيم جل جلاله كما مر في تفسير قوله تعالى: ﴿رب العالمين﴾ [الفاتحة، الآية ٢] وإن لم يستدِلَّ به أحد بالفعل.

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إلى السماءِ﴾ أي قصَدَ إليها بإرادته ومشيئته قصدًا سويا بلا صارف يَلويه ولا عاطفٍ يَثنيه من إرادة خلقِ شيءٍ آخَرَ في تضاعيف خلقِها أو غير ذلك، مأخوذ من قولهم: استوى إليه كالسهم المُرْسل، وتخصيصُه بالذكر هاهنا إما لعدم تحققِه في خلق السُفليات، لما رُوي مِنْ تخلّل خلقِ السموات بين خلقِ الأرضِ ودَحْوِها. عن الحسن رضي الله عنه: خلق الله تعالى الأرضَ في موضع بيتِ المقدس كهيئة الفِهْرِ[1] عليها دخان يلتزقُ بها، ثم أصعدَ الدخانَ وخلق منه السمواتِ، وأمسك الفِهْرَ في موضعها، وبسَط منها الأرَضين[2][3].

---

(١) الفهر: هو حجر يملأ الكفّ، قال الفرَّاء: الفهر يذكَّر ويؤنث وفي الحديث: لما نزل «تبَّت يدا أبي لهب» جاءت امرأته وفي يدها فهر قال: هو الحجر ملء الكف وقيل هو الحجر مطلقًا والجمع أفهار وفهور وكان الأصمعي يقول فِهرة وفهر وتصغيرها فُهرة.

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف (١/ ٢٥١)، وبيض له الزيلعي وابن حجر.
وينظر: تفسير النسفي (١/ ٣٥)، وروح المعاني (١/ ٢١٦).

(٣) في المخطوط: الأرض.

وذلك قوله تعالى: ﴿كانتا رتْقا ففتقناهما﴾ [الأنبياء، الآية ٣٠] وإما لإظهار كمالِ العنايةِ بإبداع العُلويات.

وقيل: استوى: استولى وملك، والأولُ هو الظاهر، وكلمةُ (ثم) للإيذان بما فيه من المزية والفضل على خلق السفليات لا للتراخي الزماني، فإن تقدّمَه على خلق ما في الأرض المتأخرِ عن دَحْوها مما لا مِريةَ فيه لقوله تعالى: ﴿والأرضَ بعد ذلك دحاها﴾ [النازعات، الآية ٣٠] ولما رُوي عن الحسن.

والمرادُ بالسماء إما الأجرامُ العلوية فإن القصدَ إليها بالإرادة لا يستدعي سابقةَ الوجود وإما جهاتُ العلو.

﴿فَسَوَّاهُنَّ﴾ أي أتمهنّ وقوّمهن وخلقهنّ ابتداءً مصونةً عن العِوَج والفُطورِ، لا أنه تعالى سواهن بعد أن لم يكن كذلك ولا يخفى ما في مقارنة التسوية والاستواءِ من حُسن الموقع، وفيه إشارة إلى ألا تغيُّرَ فيهن بالنمو والذّبول كما في السُفليات.

والضميرُ على الوجه الأولِ لـ (لسماء) لأنها[1] في معنى الجنس، وقيل: هي جمعُ سماءةٍ أو سماوة، وعلى الوجه الثاني مُبهمٌ يفسّره قولُه تعالى: ﴿سَبْعَ سَمَواتٍ﴾ كما في قولهم: رُبَّه رجلًا، وهو على الوجه الأول: بدلٌ من الضمير، وتأخيرُ ذكرِ هذا الصُنع البديعِ عن ذكر خلقِ ما في الأرض مع كونه أقوى منه في الدلالة على كمال القدرةِ القاهرةِ كما نُبه عليه لما أن المنافعَ المنوطةَ بما في الأرض أكثرُ، وتعلقَ مصالحِ الناسِ بذلك أظهر، وإن كان في إبداع العلوياتِ أيضًا من المنافع الدينيةِ والدنيويةِ ما لا يُحصى.

هذا ما قالوا، وسيأتي في حم السجدة مزيدُ تحقيقٍ وتفصيلٍ بإذن الله تعالى.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لما قبله من خلق السمواتِ والأرضِ وما فيهما[2]، على هذا النمط البديعِ المنطوي على الحِكَم الفائقةِ والمصالحِ اللائقة، فإن علمه عز وجل بجميع الأشياءِ ظاهرِها وباطنِها بارزِها وكامنِها وما يليق بكل واحد منها يستدعي أن يخلُق كلَّ ما يخلُقه على الوجه الرائق.

وقرئ (وهْو)[3] بسكون الهاء تشبيهًا له بعَضْد.

---

(١) في المخطوط: فإنها. (٢) في المخطوط: فيها.

(٣) وهي قراءة نافع، وأبي عمرو والكسائي، وأبو جعفر، والحسن، وقالون، واليزيدي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ١٣٢، والإملاء للعكبري (١/ ١٦)، والتيسير للداني (٧٢)، والحجة لابن خالويه (٧٣)، ولأبي زرعة (٩٣)، والسبعة (١٥٠)، والغيث للصفاقسي (٩٩)، والكشف للقيسي (١/ ٢٣٤)، والنشر (٢/ ٢٠٩).

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾

﴿وَإِذ قَالَ رَبُّكَ﴾ بيان لأمرٍ آخرَ من جنس الأمورِ المتقدمةِ المؤكدةِ للإنكار والاستبعادِ، فإن خلقَ آدمَ عليه السلام وما خصّه به من الكرامات السنية المحْكية من أجل النعم الداعيةِ لذريته إلى الشكر والإيمان الناهيةِ عن الكفرِ والعصيان، وتقريرٌ لمضمون ما قبلَه من قوله تعالى: ﴿خلق لكم ما في الأرض جميعًا﴾ [البقرة، الآية ٢٩] وتوضيحٌ لكيفية التصرفِ والانتفاع بما فيها، وتلوينُ الخطاب بتوجيهه إلى النبي ﷺ خاصةً للإيذان بأن فحوى الكلام ليس مما يُهتدىٰ إليه بأدلة العقلِ كالأمور المشاهدة التي نبه عليها الكفَرَةَ بطريق الخَطاب، بل إنما طريقُه الوحيُ الخاصُّ به عليه السلام.

وفي التعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التبليغ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام من الإنباء عن تشريفه عليه السلام ما لا يخفىٰ، و(إذْ) ظرفٌ موضوعٌ لزمانِ نسبةٍ ماضيةٍ وقعَ فيه نسبةٌ أخرى مثلها، كما أن (إذا) موضوعٌ لزمانِ نسبةٍ مستقبلةٍ يقع[1] فيه أخرى مثلُها، ولذلك يجب إضافتُهما إلى الجمل، وانتصابُه بمضمر صرح بمثله في قوله عز وجل: ﴿واذكروا إذ كنتم قليلًا فكثَّركم﴾ [الأعراف، الآية ٨٦] وقوله تعالى: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد﴾ [الأعراف، الآية ٧٤] وتوجيهُ الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودةُ بالذات للمبالغة في إيجاب ذكرِها، لما أن إيجابَ ذكر الوقتِ إيجابٌ لذكر ما وقع فيه

---

(١) في المخطوط: تقع.

بالطريق البرهاني، ولأن الوقتَ مشتمِلٌ عليها، فإذا استُحضِر كانت حاضرةً بتفاصيلها، كأنها مشاهَدةٌ عِيانًا.

وقيل: ليس انتصابُه على المفعولية، بل على تأويل اذكُرِ الحادث فيه بحذف المظروفِ وإقامةِ الظرفِ مُقامَه.

وأيا ما كان فهو معطوفٌ على مضمر آخرَ ينسحب عليه الكلام كأنه قيل له عليه السلام غِبَّ ما أوحيَ إليه ما خوطب به الكفرةُ من الوحي الناطقِ بتفاصيل الأمورِ السابقةِ الزاجرة عن الكفر به تعالى: ذكِّرهم بذلك واذكُرْ لهم هذه النعمةَ ليتنبهوا بذلك لبُطلان ما هم عليه[1] وينتهوا عنه، وأما ما قيل من أن المقدَّرَ هو اشكُر النعمةَ في خلق السمواتِ والأرض أو تدبَّرْ ذلك فغيرُ سديدٍ ضرورةَ أن مقتضىٰ الكلام[2] تذكيرُ المخاطبين بمواجب الشكرِ وتنبيهُهم على ما يقتضيه، وأين ذاك من مَقامه الجليلِ ﷺ؟

وقيل: انتصابُه بقوله تعالى: (قالوا)، ويأباه أنه يقتضي أن يكون هو المقصودَ بالذات دون سائرِ القصة.

وقيل: بما سبق من قوله تعالى: ﴿وبشر الذين آمنوا﴾ [البقرة، الآية ٢٥]، ولا يخفى بُعدُه، وقيل: بمضمرٍ دل عليه مضمونُ الآية المتقدمة مثل وبدأ خلقَكم إذ قال... إلخ.

ولا ريب في أنه لا فائدةَ في تقييد بدءِ الخلقِ بذلك الوقت.

وقيل: بـ (خلقكم) أو بـ (أحياكم) مضمرًا، وفيه ما فيه.

وقيل: (إذْ) زائدة، ويعزى ذلك إلى أبي عبيد[3] ومَعْمَر[4]، وقيل: إنه بمعنى (قد).

---

(١) في ط: فيه.
(٢) في ط: المقام.

(٣) هو: القاسم بن سلام البغداديّ أبو عبيد لغوي، محدث وفقيه ذو دين وخلق حسن، أخذ عن أبي عبيدة والكسائيّ والفراء وغيرهم، تولى قضاء طرطوس، له مؤلفات كثيرة منها: «الغريب، الأمثال، الأموال»، ولد بهراة سنة خمسين ومائة هـ، على الأصح، توفي بمكة المكرمة وقيل بالمدينة المنورة سنة أربع وعشرين ومائتين هـ على الأرجح.
ينظر: تاريخ بغداد (١٢/ ٤٠٣)، وتذكرة الحفاظ (٢/ ٤١٧)، وطبقات المفسرين للداودي (٢/ ٣٢)، وشذرات الذهب (٢/ ٥٤).

(٤) هو: معمر بن المثنى التيمي بالولاء، البصري، أبو عبيدة النحوي، من أئمة العلم بالأدب واللغة، ولد سنة عشر ومائة هـ بالبصرة. استقدمه هارون الرشيد إلى بغداد سنة ثمان وثمانين ومائة هـ، وقرأ عليه أشياء من كتبه. قال الجاحظ: لم يكن في الأرض أعلم بجميع العلوم منه. وكان إباضيًّا، شعوبيًّا، من حفاظ الحديث. قال ابن قتيبة: كان يبغض العرب وصنف في مثالبهم كتبًا. له نحو مائتي مؤلف، =

واللامُ في قوله عز قائلًا: ﴿لِلْمَلائِكَةِ﴾ للتبليغ، وتقديمُ الجارِّ والمجرور في هذا الباب مطَّرِدٌ لما في المقول من الطول غالبًا مع ما فيه من الاهتمام بما قُدِّم والتشويقِ إلى ما أُخِّر كما مر مرارًا.

و(الملائكةُ) جمعُ (ملك) باعتبار أصلِه الذي هو (مَلأك) على أن الهمزة مزيدة كالشمائل في جمع شمأل، والتاء لتأكيد تأنيثِ الجماعة، واشتقاقُه من (مَلَك) لما فيه من معنى الشدة والقوة.

وقيل: على أنه مقلوبٌ من (مألَكٍ)، من الألوكة وهي الرسالة أي موضعَ الرسالة أو مرسلٌ على أنه مصدرٌ بمعنى المفعول، فإنهم وسائطُ بين الله تعالى وبين الناسِ فهم رسلُه عز وجل، أو بمنزلة رسلِه عليهم السلام.

واختلفت العقلاءُ في حقيقتهم بعد اتفاقِهم على أنها ذواتٌ موجودةٌ قائمةٌ بأنفسها.

فذهب أكثرُ المتكلمين إلى أنها أجسامٌ لطيفةٌ قادرةٌ على التشكل بأشكال مختلفة، مستدلين بأن الرسلَ كانوا يرَوُنهم كذلك عليهم السلام، وذهب الحكماءُ إلى أنها جواهرُ مجردةٌ مخالفةٌ للنفوس الناطقةِ في الحقيقية[1]، وأنها أكملُ منها قوة وأكثرُ علمًا يجري منها مَجرى الشمس من الأضواء، منقسمةٌ إلى قسمين: قِسمٌ شأنُهم الاستغراقُ في معرفة الحقِّ والتنزُّهِ عن الاشتغال بغيره كما نعتَهم الله عز وجل بقوله: ﴿يسبِّحون الليل والنهار لا يفترُون﴾ [الأنبياء، الآية ٢٠] وهم العِلِّيُّون المقرَّبون، وقسمٌ يدبِّرُ الأمرَ من السماء إلى الأرض حسبما جرى عليه قلمُ القضاء والقدرِ، وهم المدبِّراتُ أمرًا، فمنهم سماويةٌ ومنهم أرضية.

وقالت طائفة من النصارى: هي النفوسُ الفاضلةُ البشرية المفارِقةُ للأبدان.

ونُقل في شرح كَثرتِهم أنه عليه السلام قال: «أَطَّتِ[2] السَّمَاءُ وحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ ما فيها مَوضِعُ قدم إلا وفيه مَلَكٌ ساجدٌ أو راكع»[3] وروي أن بني آدمَ عشرُ الجن، وهما

---

= منها: «نقائض جرير والفرزدق»، و«مجاز القرآن»، و«العققة والبررة»، و«المثالب»، و«فتوح أرمينية». توفي بالبصرة سنة تسع ومائتين.
ينظر: الفهرست (٨٣ - ٨٥)، وطبقات الزبيدي (١٧٥- ١٧٨)، والكامل (٦/ ٣٩٠).

(١) في ط: الحقيقة.

(٢) الأطيط: صوت الرحل والإبل من ثقل أحمالها وأطَّتِ السماء أنت لكثرة ما فيها من ملائكة قد أثقلها حتى أطَّت أي أنَّت من ثقل ما تحمل.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ١٧٣)، والترمذي (٢٣١٢)، وابن ماجه (٤١٩٠)، والطحاوي في مشكل الآثار (١١٣٥)، والحاكم (٢/ ٥١٠، ٤/ ٥٤٤)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٣٦)، من حديث أبي ذر وفي إسناده إبراهيم بن المهاجر وهو ضعيف.

عشرُ حيوانات البَرّ، والكلُّ عشرُ الطيور، والكلُّ عشرُ حيوانات البحار، وهؤلاء كلهم عشر ملائكة الأرض الموكلين، وهؤلاءِ كلُّهم عشرُ ملائكةِ السماءِ الدنيا، وكلُّ هؤلاءِ عشرُ ملائكةِ السماء الثانية، وهكذا إلى السماء السابعة، ثم كلُّ أولئك في مقابلة ملائكةِ الكُرسيِّ نَزْرٌ قليل، ثم جميعُ هؤلاءِ عشرُ ملائكةِ سُرادقٍ واحدٍ من سُرادقاتِ العرش التي عددُها ستمائة ألفٍ، طولُ كلِّ سُرادقٍ وعَرضُه وسَمكُه إذا قوبلت به السمواتُ والأرضُ وما فيهما وما بينهما لا يكونُ لها عنده قَدْرٌ محسوسٌ، وما منه من مقدارِ شبرٍ إلا وفيه ملكٌ ساجد أو راكعٌ أو قائم، لهم زجَلٌ[1] بالتسبيح والتقديس[2].

ثم كلُّ هؤلاءِ في مقابلة الملائكةِ الذين يحومون حولَ العرش كالقَطْرةِ في البحر، ثم ملائكةُ اللوحِ الذين هم أشياعُ إسرافيلَ عليه السلام والملائكةُ الذين هم جنودُ جبريلَ عليه السلام لا يُحصي أجناسَهم ولا مُدة أعمارِهم ولا كيفيات عباداتهم إلا بارِئهُم العليمُ الخبير على ما قال تعالى: ﴿وما يعلم جنودَ ربِّك إلا هو﴾ [المدثر، الآية ٣١].

وروي أنه عليه السلام حين عُرج به إلى السماء رأى ملائكةً في موضع بمنزلةِ شرفٍ، يمشي بعضُهم تُجاهَ بعض، فسأل رسول الله ﷺ جبريلَ عليه السلام إلى أين يذهبون؟ فقال جبريلُ: لا أدري إلا أني أراهم منذ خلقتُ ولا أرى واحدًا منهم قد رأيته قبل ذلك، ثم سألا واحدًا منهم منذ كم خلقتَ؟

فقال: لا أدري غير أن الله عز وجل يخلُق في كل أربعمائة ألفِ سنةٍ كوكبًا، وقد خلق منذ خلقني أربعَمائة ألفِ كوكب فسبحانه مِنْ إلهٍ ما أعظمَ قدرَه وما أوسعَ ملكوتَه.

واختُلف في الملائكة الذين قيل لهم ما قيل.

فقيل: هم ملائكةُ الأرضِ.

وروى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنهم المختارون مع إبليسَ حين بعثه الله عز وجل لمحاربة الجنِّ، حيث كانوا سكانَ الأرض فأفسدوا فيها وسفَكوا الدماءَ فقتلوهم إلا قليلًا، قد أخرجوهم من الأرض وألحقوهم بجزائرِ البحار[3]

---

(١) الزَّجل: بالتحريك: اللعب والجلبة ورفع الصوت وفي حديث الملائكة: لهم زجل بالتسبيح أي صوت رفيع عالٍ وسحاب ذو زجل أي ذو رعدٍ وغيث زجِل: لرعده صوت.

(٢) ينظر: تفسير الرازي (١/ ٤٣٧)، واللباب لابن عادل (١/ ٢٠٢).

(٣) ذكره النيسابوري في غرائب القرآن (١/ ٢١٥) عن الضحاك عن ابن عباس والثعالبي (١/ ١٧).

وقُلل[1] الجبالِ وسكنوا الأرض، وخفف الله تعالى عنهم العبادة، وأعطى إبليسَ مُلك الأرض ومُلك السماءِ الدنيا وخِزانةَ الجنة، فكان يعبُد الله تعالى تارةً في الأرض وتارةً في السماء، وأخرى في الجنة، فأخذه العُجب، فكان من أمره ما كان.

وقال أكثر الصحابة والتابعين رضوانُ الله تعالى عليهم: إنهم كلُّ الملائكة لعموم اللفظ، وعدم المُخصِّص.

وقولُه تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ في حيِّز النصب على أنه مقولُ (قال)، وصيغةُ الفاعل بمعنى المستقبل، ولذلك عمِلت عملَه. وفيها ما ليس في صيغة المضارعِ من الدلالة على أنه فاعلٌ ذلك لا محالةَ وهي من الجَعْل بمعنى التصيير المتعدِّي إلى مفعولين.

فقيل: أولُهما خليفةٌ وثانيهما: الظرفُ المتقدم على ما هو مقتضىٰ الصِّناعة، فإن مفعولي التصيير في الحقيقة اسمُ (صارَ) وخبرُه، أولُهما الأول، وثانيهما الثاني، وهما مبتدأٌ وخبرٌ، والأصل: في الأرض خليفةٌ ثم قيل: صارَ في الأرض خليفةٌ ثم مصيرٌ في الأرض خليفةٌ فمعناه بعد اللتيا والتي: إني جاعل خليفةً من الخلائف أو خليفةً بعينه كائنًا في الأرض، فإن خبرَ (صار) في الحقيقة هو الكونُ المقدَّر العامل في الظرف، ولا ريب في أن ذلك ليس مما يقتضيه المقامُ أصلًا، وإنما الذي يقتضيه هو الإخبارُ بجعل آدمَ [عليه السلام] خليفةً فيها كما يعرب عنه جوابُ الملائكة عليهم السلام.

فإذن قولُه تعالى (خليفةً) مفعولٌ ثانٍ، والظرفُ متعلقٌ بجاعل، قدم على المفعول الصريح لما مر من التشويق إلى ما أُخِّر، أو بمحذوفٍ وقع حالًا مما بعده لكونه نكرة، وأما المفعولُ الأولُ فمحذوفٌ تعويلًا على القرينة الدالة عليه كما في قوله تعالى: ﴿ولا تؤتوا السفهاءَ أموالَكم التي جعل الله لكم قيامًا﴾ [النساء، الآية ٥] حُذف فيه المفعولُ الأول وهو ضميرُ الأموالِ لدلالة الحالِ عليه وكذا في قوله تعالى: ﴿ولا يحسبن الذين يبخَلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرًا لهم﴾ [آل عمران، الآية ١٨٠] حيث حُذف فيه المفعولُ الأول لدلالة (يبخلون) عليه. أي لا يحسبنَّ البخلاءُ بخلَهم هو خيرًا لهم، ولا ريب في تحقّق القرينةِ هاهنا، أما إنْ حُمل على الحذف عند وقوعِ المحكيِّ فهي واضحةٌ لوقوعه في أثناء ذِكْرِه عليه السلام على ما سنفصله، كأنه قيل: إني خالق بشرًا من طين وجاعلٌ في الأرض خليفة، وإما إنْ حُمل على أنه

---

(١) قلل: مفردها قُلَّة. وقلة كل شيء رأسه؛ والقُلَّة: أعلى الجبل.

لم يُحذفْ هناك بل قيل مثلًا: وجاعلٌ إياه خليفةً في الأرض لكنه حُذفَ عند الحكاية فالقرينةُ: ما ذُكِرَ من جوابِ الملائكة عليهم السلام.

قال العلامة الزمخشري[1] في تفسير قوله تعالى: ﴿إذ قال ربك للملائكة إني خالقٌ بشرًا من طين﴾ [ص، الآية ٧١]، إن قلت: كيف صح أن يقول لهم (بشرًا) وما عرَفوا ما البشرُ ولا عهِدوا به؟ قلت: وجهُه أن يكون قد قال لهم: إني خالقٌ خلقًا من صفته كيتَ وكيتَ ولكنه حين حكاه اقتصَر على الاسم. انتهى.

فحيث جاز الاكتفاءُ عند الحكاية عن ذلك التفصيلِ بمجرد الاسمِ من غير قرينةٍ تدل عليه فما ظنُك بما نحن فيه ومعه قرينةٌ ظاهرةٌ؟

ويجوز أن يكون من الجعل بمعنى الخَلْق المتعدي إلى مفعولٍ واحد هو (خليفةً)، وحالُ الظرفِ في التعلق والتقديم كما مر، فحينئذ لا يكون ما سيأتي من كلام الملائكةِ مترتبًا عليه بالذات بل بالواسطة، فإنه رُوي أنه تعالى لما قال لهم: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ [البقرة، الآية ٣٠] قالوا: ربنا وما يكون ذلك الخليفة؟ قال تعالى: يكون له ذريةٌ يفسدون في الأرض ويتحاسَدون ويقتُلُ بعضُهم بعضًا، فعند ذلك قالوا ما قالوا[2] والله تعالى أعلم.

والخليفةُ من يخلُفُ غيرَه وينوب مَنابَه، فعيل بمعنى الفاعل و(التاء) للمبالغة، والمراد به **إما** آدمُ عليه السلام وبنوه، وإنما اقتُصر عليه استغناءً بذكره عن ذكرهم كما يستغنىٰ عن ذكر القبيلةِ بذكر أبيها كمُضَرَ وهاشم، ومنه «الخلافةُ في قريش»[3].

**وإما** مَنْ يخلُف أو خلف يخلُف فيعمُّه عليه السلام وغيرَه من خلفاءِ ذريتِه.

والمرادُ بالخلافة: إما الخلافةُ من جهته سبحانه في إجراء أحكامِه وتنفيذِ أوامره بين الناس وسياسةِ الخلقِ لكن لا لحاجةٍ به تعالى إلى ذلك بل لقصور استعدادِ

---

(١) هو: أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري، جار الله، من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والآداب، ولد في زمخشر «من قرى خوارزم» سنة سبع وستين وأربعمائة هـ. وسافر إلى مكة فجاور بها زمنا فلقب بجار الله من كتبه: الكشاف، أساس البلاغة، المفصل، الفائق، المستقصى، المقامات، وغير ذلك. وتوفي بالجرجانية «من قرى خوارزم» سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة هـ.
ينظر: وفيات الأعيان (٢/ ٨١)، والأعلام (٧/ ١٧٨).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٢٠٠).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١٨٥)، والطبراني في المعجم الكبير (١٧/ ١٢١) رقم (٢٩٨)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣/ ٣٧٧) برقم (١٧٨٥) من حديث عتبة بن عبد رضي الله عنه قال الهيثمي في المجمع (٤/ ١٩٢): رواه أحمد والطبراني ورجاله ثقات. ا هـ.

المستخلَف عليهم، وعدمِ لياقتِهم لقبول الفيضِ بالذات فتختصُّ بالخواصِّ من بنيه، **وإما** الخلافةُ ممن كان في الأرض قبل ذلك فتعمُّ حينئذ الجميع.

﴿قَالُوا﴾ استئنافٌ وقعَ جوابًا عما تنساقُ إليه الأذهانُ كأنه قيل: فماذا قالت الملائكة حينئذ؟ فقيل: قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾؟ وهو أيضًا من الجعل المتعدي إلى اثنين، فقيل فيهما ما قيل في الأول.

والظاهرُ أن الأولَ: كلمةُ مَنْ، والثاني محذوفٌ ثقةً بما ذكر في الكلام السابق، كما حُذف الأولُ ثَمةَ تعويلًا على ما ذكر هنا قال قائلهم: [الخفيف]

لا تَخَلْنا على عزائك إنا     طالما قد وشَى بنا الأعداءُ[1]

بحذف المفعول الثاني أي: لا تخَلْنا جازعين على عزائك.

والمعنى أتجعل فيها من يفسد فيها خليفةً؟ والظرفُ الأولُ متعلقٌ بـ (تجعلُ) وتقديمُه لما مر مرارًا والثاني بـ (يُفسِدُ)، وفائدتُه تأكيدُ الاستبعادِ لما أن في استخلاف المفسِدِ في محل إفساده من البعد ما ليس في استخلافه في غيره.

هذا وقد جُوِّز كونُه من الجعل بمعنى الخلق المتعدي إلى مفعول واحدٍ هو كلمةُ مَنْ، وأنت خبير بأن مدارَ تعجُّبِهم ليس خلقَ من يُفسد في الأرض، كيف لا وإن ما يعقُبه من الجملة الحالية الناطقة بدعوى أحقِّيتِهم منه يقضي ببُطلانه حتمًا إذ لا صِحَّة لدعوىٰ الأحقية منه بالخلق وهم مخلوقون، بل مدارُه أن يُستخلف لعمارة الأرض وإصلاحِها بإجراء أحكامِ الله تعالى وأوامرِه أو يُستخلفَ مكان المطبوعين على الطاعة مَنْ مِنْ شأنِ بني نوعِه الإفسادُ وسفكُ الدماء.

وهو عليه السلامُ وإن كان منزهًا عن ذلك إلا أن استخلافَه مستتبِعٌ لاستخلاف ذرّيتِه التي لا تخلو عنه غالبًا، وإنما أظهروا تعجُّبَهم استكشافًا عما خفِيَ عليهم من الحِكَم التي بدت على تلك المفاسد وألغَتْها، واستخبارًا عما يُزيح شبهتَهم ويرشدهم إلى معرفة ما فيه عليه السلام من الفضائل التي جعلتْه أهلًا لذلك، كسؤال المتعلم عما ينقدِحُ في ذهنه لا اعتراضًا على فعل الله سبحانه ولا شكًا في اشتماله على الحِكمة والمصلحة إجمالًا، ولا طعنًا فيه عليه السلام ولا في ذريته على وجه الغَيْبة،

---

(١) البيت للحارث بن حلزة في ديوانه ص(٢٣)، وخزانة الأدب (١/ ٣٢٤)، (٩/ ١٣٨)، وشرح القصائد السبع ص(٤٥٤)، وشرح القصائد العشر ص(٣٨١)، وشرح المعلقات السبع ص(١٢٢)، وشرح المعلقات العشر ص(١٢١)، ولسان العرب (غرا)، والمعاني الكبير (٢/ ٨٧٢)، وبلا نسبة في تذكرة النحاة ص (٥٨٦)، ونوادر أبي زيد ص(١٩٨).

فإن منصِبَهم أجلُّ من أن يُظَنَّ بهم أمثالُ ذلك، قال تعالى: ﴿بل عبادٌ مكرمون * لا يسبِقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾ [الأنبياء، الآية ٢٦ و٢٧] وإنما عَرفوا ما قالوا إما بإخبارٍ من الله تعالى حسبما نُقل من قبلُ، أو بتلقٍ من اللوح، أو باستنباطٍ عما ارتكز في عقولهم من اختصاص العِصْمةِ بهم، أو بقياسٍ لأحد الثقلين على الآخر.

﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ السفكُ والسفحُ والسبكُ والسكْبُ أنواع من الصَّب، والأولان مختصانِ بالدم، بل لا يستعمل أولُهما إلا في الدم المحرّم، أي يقتل النفوسَ المحرمة بغير حق، والتعبيرُ عنه بسفك الدماء لما أنه أقبحُ أنواعِ القتل وأفظعُه.

وقرئ (يَسفُك)[1] بضم الفاء، ويُسفِك ويَسْفِك من أسفك وسَفَك.

وقرئ (يُسفَكُ) على البناء للمفعول وحُذف الراجع إلى (مَنْ) موصولةً أو موصوفة أي يسفك الدماء فيهم.

﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ جملة حاليةٌ مقررة للتعجب السابق ومؤكدةٌ له على طريقة قول من يجِدُّ في خدمة مولاه وهو يأمرُ بها غيرَه أتستخدمُ العُصاةَ وأنا مجتهدٌ فيها! كأنه قيل: أتستخلفُ من شأنُ ذريته الفسادُ مع وجود مَنْ ليس من شأنه ذلك أصلًا؟

والمقصودُ عرضُ أحقيتِهم منهم بالخلافة واستفسارٌ عما رجَّحهم عليهم مع ما هو متوقَّعٌ منهم من الموانع لا العُجبُ والتفاخرُ، فكأنهم شعَروا بما فيهم من القوة الشهوية التي رذيلتُها الإفراطيةُ الفسادُ في الأرض والقوةِ الغضبيةِ التي رذيلتُها الإفراطية سفكُ الدماء فقالوا ما قالوا وذَهِلوا عما إذا سخَّرَتْهما القوةُ العقلية ومرَّنَتْهما على الخير فإنه يحصُل بذلك من علو الدرجةِ ما يقصُر عن بلوغ رُتبةِ القُوةِ العقلية عند انفرادِها في أفاعيلها، كالإحاطة بتفاصيل أحوالِ الجزئيات واستنباطِ الصناعات، واستخراج منافعِ الكائنات من القوة إلى الفعل وغير ذلك مما نيط به أمر الخلافة.

والتسبيح: تنزيهُ الله تعالى وتبعيدُه اعتقادًا وقولًا وعملًا عما لا يليق بجنابه سبحانه، من سبَح في الأرض والماءِ إذا أبعدَ فيهما وأمعن، ومنه فرسٌ سَبُوحٌ أي واسع الجرْي.

وكذلك تقديسُه تعالى من قدَّسَ في الأرض إذا ذَهَب فيها وأبعدَ، ويقال: قدَّسه أي طهَّره، فإن مُطَهِّر الشيءِ مُبعِدُه عن الأقذار.

---

(١) قرأ بها: أبو حيوة وابن أبي عبلة.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ١٧)، والبحر المحيط (١/ ١٤٢)، الكشاف (١/ ٦١).

والباء في (**بحمدك**) متعلقةٌ بمحذوفٍ وقع حالًا من الضمير، أي ننزِّهُك عن كل ما لا يليقُ بشأنك متلبّسين بحمدك على ما أنعمت به علينا من فنون النعم التي من جملتها توفيقُنا لهذه العبادة.

فالتسبيحُ لإظهار صفاتِ الجلالِ، والحمدُ لتذكير صفاتِ الإنعام، واللامُ في (لك) إما مزيدة والمعنى نقدّسك، وإما صلةٌ للفعل كما في سجدت لله، وإما للبيان كما في سُقيًا لك، فتكون متعلقةً بمحذوف، أي نقدّس تقديسًا لك أي نصِفُك بما يليق بك من العلوّ والعزةِ وننزِّهُك عما لا يليق بك.

وقيل: المعنى نطهِّر نفوسَنا عن الذنوب لأجلك، كأنهم قابلوا الفسادَ الذي أعظمُه الإشراكُ بالتسبيحِ وسفكِ الدماء الذي هو تلويثُ النفس بأقبح الجرائمِ بتطهير النفسِ عن الآثام لا تمدُّحًا بذلك ولا إظهارًا للمِنة بل بيانًا للواقع.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ كما سبق ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ ليس المرادُ به بيانَ أنه تعالى يعلم ما لا يعلمون من الأشياء كائنًا ما كان، فإن ذلك مما لا شُبهة لهم فيه حتى يفتقِروا إلى التنبيه عليه لا سيما بطريق التوكيد، بل بيانَ أن فيه عليه الصلاة والسلام معانيَ مستدعيةً لاستخلافه، إذ هو الذي خفيَ عليهم وبنَوا عليه ما بنَوْا من التعجّب والاستبعاد، فـ (ما) موصولةً كانت أم موصوفةً عبارةٌ عن تلك المعاني.

والمعنى: إني أعلم ما لا تعلمونه من دواعي الخلافة فيه.

وإنما لم يقتصِرْ على بيان تحققِها فيه عليه السلام بأن قيل مثلًا: إن فيه ما يقتضيه من غير تعرّضٍ لإحاطته تعالى وغفلتِهم عنه تفخيمًا لشأنه وإيذانًا بابتناء أمرِه تعالى على العلم الرصينِ والحكمةِ المتقنة وصدورِ قولِهم عن الغفلة.

وقيل: معناه إني أعلمُ من المصالحِ في استخلافه ما هو خفيٌّ عليكم، وأنَّ هذا إرشادٌ للملائكة إلى العلم بأن أفعالَه تعالى كلَّها حسنةٌ وحِكمةٌ وإن خفي عليهم وجهُ الحسْنِ والحِكمة.

وأنت خبيرٌ بأنه مُشعِرٌ بكونهم غيرَ عالمين بذلك من قبلُ ويكون تعجبُهم مبنيا على تردّدهم في اشتمال هذا الفعلِ لحكمةٍ ما، وذلك مما لا يليق بشأنهم فإنهم عالمون بأن ذلك متضمِّنٌ لحكمةٍ ما، ولكنهم متردّدون في أنها ماذا؟ هل هو أمرٌ راجعٌ إلى محض حُكم الله عز وجل، أو إلى فضيلةٍ من جهة المستخلَف؟

فبيّن سبحانه وتعالى لهم أولًا على وجه الإجمالِ والإبهامِ أن فيه فضائلَ غائبةً عنهم ليستشرفوا إليها، ثم أبرزَ لهم طرفًا منها ليعاينوه جَهرةً ويظهَرَ لهم بديعُ صنعِه وحكمتِه وينزاحَ شبهتُهم بالكلية.

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأسماءَ كُلَّهَا﴾ شروعٌ في تفصيل ما جَرى بعد الجواب الإجماليِّ تحقيقًا لمضمونه وتفسيرًا لإبهامه، وهو عطفٌ على (قال).

والابتداءُ بحكاية التعليم يدل بظاهره على أن ما مرَّ من المقاولة المحكيةِ إنما جرت بعد خلقِه عليه السلام بمحضَرٍ منه، وهو الأنسبُ بوقوف الملائكة على أحواله عليه السلام، بأن قيل إثْرَ نفخِ الروحِ فيه: إني جاعلٌ إياه خليفةً فقيل ما قيل كما أشير إليه، وإيرادُه عليه السلام باسمه العِلْميِّ لزيادة تعيين المرادِ بالخليفة، ولأن ذكرَه بعنوان الخلافة لا يلائم مقامَ تمهيدِ مباديها، وهو اسمٌ أعجميٌّ والأقربُ أن وزنه فاعلٌ كشالَخ وعاذَرَ وعابَرَ وفالَغ لا أفعل.

والتصدي لاشتقاقه من الأُدْمة أو الأَدَمة بالفتح بمعنى الأسوة، أو من أديم الأرض بناء على ما روي عنه ﷺ: من أنه تعالى قبض قبضةً من جميع الأرض سهلِها وحَزْنها[(١)] فخلق منها آدم[(٢)]، ولذلك اختلفت ألوانُ ذريته أو من الأَدْم والأدمة بمعنى الألفة تعسفٌ كاشتقاق إدريسَ من الدَّرْس، ويعقوبَ من العقِب، وإبليس من الإبلاس.

والاسمُ باعتبار الاشتقاقِ ما يكون علامةً للشيء ودليلًا يرفعُه إلى الذهن من الألفاظ والصفات والأفعال، واستعمالُه عرفًا في اللفظ الموضوع لمعنى مفردًا كان أو مركبًا مُخبَرًا عنه أو خبرًا أو رابطةً بينهما.

واصطلاحًا في المفرد الدال على معنى في نفسه غيرَ مقترنٍ بالزمان، والمراد هاهنا إما الأولُ أو الثاني، وهو مستلزمٌ للأول، إذ العلمُ بالألفاظ من حيث الدلالةُ على المعاني مسبوقٌ بالعلم بها والتعليمُ حقيقةً عبارةٌ عن[(٣)] فعلٍ يترتب عليه العلمُ بلا تخلف عنه ولا يحصُل ذلك بمجرد إفاضةِ المعلم، بل يتوقف على استعداد المتعلم لقبول الفيضِ وتلقّيه من جهته كما مر في تفسير الهدى، وهو السرُّ في إيثاره على الإعلام والإنباء، فإنهما إنما يتوقفان على سماع الخبر الذي يشترك فيه البشرُ

---

(١) الحَزْنُ: المكان الغليظ والحُزَن: الجبال الغِلاظ الوعرة المسلك.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٤٠٠، ٤٠٦)، وأبو داود (٤٦٩٣)، والترمذي (٢٩٥٥)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ٢٦)، وعبد بن حميد في المسند (٥٤٩-المنتخب)، والطبري في تفسيره (٦٤٥)، وابن خزيمة في التوحيد ص (٦٤)، وابن حبان (٦١٦٠، ٦١٨١)، والحاكم (٢/ ٢٦١)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ١٠٤، ٨/ ١٣٥)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٥٩)، والمزي في تهذيب الكمال (٢٣/ ٦٠٣)، من حديث أبي موسى الأشعري وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) سقط في ط.

والمَلك، وبه يظهر أحقيتُه بالخلافة منهم عليهم السلام لما أن جِبلّتَهم غيرُ مستعدةٍ للإحاطة بتفاصيلِ أحوالِ الجزئيات الجُسمانية خُبْرًا.

فمعنى تعليمِه تعالى إياه أن يخلُقَ فيه إذ ذاك بموجب استعداده علمًا ضروريًا تفصيليًا بأسماء جميعِ المسميات وأحوالِها وخواصِّها اللائقةِ بكلٍّ منها، أو يُلقيَ في رُوعه تفصيلًا أن هذا فرس، وشأنُه كيت وكيت، وذاك بعيرٌ وحالُه ذَيْت وذَيْت إلى غير ذلك من أحوال الموجودات، فيتلقاها عليه السلام حسبما يقتضيه استعدادُه ويستدعيه قابليتُه المتفرعةُ على فطرته المنطويةِ على طبائعَ متباينة وقوى متخالفةٍ وعناصرَ متغايرة.

قال ابنُ عباس[(١)] وعكرمةُ[(٢)] وقتادةُ ومجاهدٌ[(٣)] وابنُ جُبيرٍ[(٤)] رضي الله تعالى عنهم: علّمه أسماءَ جميعِ الأشياءِ حتى القصعةَ والقصيعةَ، وحتى الجفنةَ والمِحْلَب وحتى منفعةَ كلِّ شيءٍ إلى جنسِه.

وقيل: أسماءَ ما كان وما سيكونُ إلى يوم القيامة، وقيل: معنى قولَه تعالى: ﴿وعلم آدمَ الأسماءَ﴾ خلقه من أجزاءَ مختلفةٍ وقوىً متباينةٍ مستعدًا لإدراكِ أنواع المُدرَكات من المعقولات والمحسوسات والمتخيَّلات والموهومات، وألهمه معرفةَ

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٤٨٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ١١٥) رقم (٣٤١)، عن ابن عباس.

(٢) هو: عكرمة البربري مولى ابن عباس، أبو عبد الله أحد الأئمة الأعلام، روى عن: مولاه وعائشة وأبي هريرة وأبي قتادة ومعاوية، وخلق، وروى عنه: الشعبي وإبراهيم النخعي، وأبو الشعثاء من أقرانه وعمرو بن دينار، وقتادة وأيوب، وخلق، قال الشعبي: ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة رموه بغير نوع من البدعة، قال العجلي: ثقة بريء مما يرميه الناس به، وثقه: أحمد وابن معين وأبو حاتم والنسائي، ومن القدماء أيوب السختياني، وقال ابن حجر: ثقة ثبت، توفي سنة خمس ومائة.
ينظر: تهذيب الكمال (٢٠/ ٢٦٤)، وتهذيب التهذيب (٧/ ٢٦٣)، وتقريب التهذيب (٢/ ٣٠).
أخرجه عبد بن حميد في تفسيره كما في الدر المنثور (١/ ٣٥).

(٣) هو: مجاهد بن جبر المكي، أبو الحجاج المخزومي المقرئ، مولى السائب بن أبي السائب، أحد أعلام التابعين، قال خصيف: «كان أعلَمَهم بالتفسير مجاهد، وبالحج عطاء». وقال ابن حجر: «ثقه إمام في التفسير والعلم»، توفي سنة مائة.
ينظر: تهذيب الكمال (٢٧/ ٢٢٨) تهذيب التهذيب (١٠/ ٤٢)، تقريب التهذيب، ص (٥٢٠).
وأخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٢٥٢) رقم (٦٤٧، ٦٤٨، ٦٤٩)، وابن أبي حاتم (١/ ٨٠) رقم (٣٣٨)، عن مجاهد، وتفسير مجاهد (١/ ٧٣).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٢٥٢) رقم (٦٥٠)، وذكره ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٨٠)، دون إسناد وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ١٠٠) وزاد نسبته إلى وكيع.

ذواتِ الأشياءِ وأسمائها وخواصِها ومعارفِها وأصولَ العلم وقوانينَ الصناعاتِ وتفاصيلَ آلاتِها وكيفياتِ استعمالاتها، فيكونُ ما مرَّ من المقاولةِ قبل خلقه عليه السلام.

وقيل: التعليمُ على ظاهره ولكنَّ هناك جملًا مطويةً عطف عليها المذكور أي فخلقه فسواه ونفخ فيه الروح وعلمه... الخ.

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلاَئِكَةِ﴾ الضمير للمسميات المدلول عليها بالأسماء كما في قوله تعالى: ﴿واشتعل الرأسُ شيبًا﴾ [مريم، الآية ٤] والتذكيرُ لتغليبِ العقلاءِ على غيرهم.

وقُرئ (عرَضَهن)[1] و(عرضَها)[2] أي عرضَ مسمَّياتِهن أو مسمياتها، في الحديث[3]: أنه تعالى عرضهم أمثالَ الذر، ولعلّه عز وجل عرضَ عليهم من أفراد كلِّ نوعٍ ما يصلحُ أنْ يكونَ أنموذجًا يُتعرفُ منه أحوالَ البقيةِ وأحكامها.

﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ﴾ تبكيتًا لهم وإظهارًا لعجزهم عن إقامة ما علقوا به رجاءَهم من أمرِ الخلافةِ، فإن التصرفَ والتدبيرَ وإقامةَ المعدلةِ بغير وقوفٍ على مراتبِ الاستعداداتِ ومقاديرِ الحقوق مما لا يكاد يمكنُ.

والإنباءُ إخبارٌ فيه إعلامٌ، ولذلك يجري مجرى كل منهما.

والمرادُ هاهنا ما خلا عنه، وإيثاره على الإخبار للإيذان برفعة شأنِ الأسماء وعظمِ خطرها، فإن النبأَ إنَّما يطلق على الخبرِ الخطيرِ والأمرِ العظيم.

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي في زعمكم أنكم أحقاءُ بالخلافة ممن استخلفته كما ينبئ عنه مقالُكم، والتصديق كما يتطرق إلى الكلام باعتبار منطوقه قد يتطرق إليه باعتبارِ ما يلزمُه من الإخبارِ، فإن أدنى مراتبِ الاستحقاق هو الوقوفُ على أسماءِ ما في

---

(١) قرأ بها: عبد الله بن مسعود.
ينظر: البحر المحيط (١/ ١٤٦)، والتبيان للطوسي (١/ ١٤١)، وتفسير الطبري (١/ ٤٨٦)، وتفسير القرطبي (١/ ٢٨٣)، والكشاف للزمخشري (١/ ٦٢)، والمعاني للفراء (١/ ٢٦).

(٢) قرأ بها: أبي.
ينظر: البحر المحيط (١/ ١٤٦)، والتبيان للطوسي (١/ ١٤١)، وتفسير الطبري (١/ ٤٨٦)، وتفسير القرطبي (١/ ٢٨٣)، والكشاف للزمخشري (١/ ٦٢)، والمعاني للفراء (١/ ٢٦).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٩)، والترمذي (٤/ ٦٥٥) كتاب صفة القيامة والرقائق، والورع، برقم (٢٤٩٢)، والبخاري في الأدب المفرد، ص (١٩٦) برقم (٥٥٧) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه، قال الترمذي هذا حديث صحيح.

الأرض، وأما ما قيل من أن المعنى في زعمكم أني أستخلفُ في الأرض مفسدين سفاكين للدماء فليس مما يقتضيه المقامُ، وإن أُوِّلَ بأنْ يقالَ في زعمِكم أنِّي أستخلفُ مَنْ غالبُ أمرِه الإفسادُ وسفكُ الدماءِ منْ غيرِ أنْ يكونَ له مزيةٌ من جهةٍ أخرى، إذ لا تعلق له بأمرهم بالإنباءِ. وجوابُ الشرط محذوفٌ لدلالةِ المذكورِ عليه.

﴿قَالُوا﴾ استئنافٌ واقعٌ موقعَ الجواب كأنه قيل: فماذا قالوا حينئذ، هل خرجوا عن عُهدة ما كُلفوه أو لا؟

فقيل: قالوا ﴿سُبْحَانَكَ﴾ قيل: هو علمٌ للتسبيح، ولا يكاد يستعملُ إلا مضافًا وقد جاءَ غيرَ مضافٍ على الشذوذِ غيرَ منصرفٍ للتعريف والألفِ والنون المزيدتين كما في قوله: [السريع]

..... ..... ..... سُبحانَ مِنْ علقمَةَ الفاخرِ[1]

وأما في قوله: [البسيط]

سبحانه ثم سُبحانًا نعوذ به ..... ..... .....[2]

فقيل: صَرَفه للضرورة، وقيل: إنه مصدر منكرٌ كغفران، لا اسمُ مصدر، ومعناه على الأول: نسبحك عما لا يليق بشأنك الأقدسِ من الأمور التي من جملتها خلوُّ أفعالِك من الحِكَم والمصالحِ وعنَوا بذلك تسبيحًا ناشئًا عن كمال طُمَأنينة النفسِ

(١) عجز بيت للأعشى وصدره:

أقول لمَّا جاءني فخره ..... ..... .....

ينظر: ديوانه ص (١٩٣)، وأساس البلاغة ص(٢٠٠) (سبح)، والأشباه والنظائر (٢/ ١٠٩)، وجمهرة اللغة ص(٢٧٨)، وخزانة الأدب (١/ ١٨٥، ٧/ ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٨)، والخصائص (٢/ ٤٣٥)، والدرر (٣/ ٧٠)، وشرح أبيات سيبويه (١/ ١٥٧)، وشرح شواهد المغني (٢/ ٩٠٥)، وشرح المفصّل (١/ ٣٧، ١٢٠)، والكتاب (١/ ٣٢٤)، ولسان العرب (سبح)، وتاج العروس (٤/ ٥٧٨) (شتت)، وبلا نسبة في خزانة الأدب (٣/ ٣٨٨، ٦/ ٢٨٦)، والخصائص (٢/ ١٩٧، ٣/ ٢٣)، والدرر (٥/ ٤٢)، ومجالس ثعلب (١/ ٢٦١)، والمقتضب (٣/ ٢١٨)، والمقرب (١/ ١٤٩)، وهمع الهوامع (١/ ١٩٠، ٢/ ٥٢).

(٢) صدر بيت وعجزه:

..... ..... ..... وقبلنا سبح الجودي والجُمُدُ

والبيت لورقة بن نوفل في الأغاني (٣/ ١١٥)، وخزانة الأدب (٣/ ٣٨٨، ٧/ ٢٣٤، ٢٣٦، ٢٣٨، ٢٤٣)، والدرر (٣/ ٦٩)، ولأمية بن أبي الصلت في ديوانه ص (٣٠)، والكتاب (١/ ٣٢٦)، ولسان العرب (سبح)، (جمد)، (جود)، ومعجم ما استعجم ص (٣٩١)، ولزيد بن عمرو بن نفيل في شرح أبيات سيبويه (١/ ١٩٤)، وبلا نسبة في شرح المفصل (١/ ٣٧، ١٢٠، ٤/ ٣٦)، والمقتضب (٣/ ٢١٧)، وهمع الهوامع (١/ ١٩٠).

والإيمان باشتمال استخلاف آدمَ عليه السلام على الحِكَم البالغة.

وعلى الثاني: تنزهّتَ عن ذلك ناشئًا عن ذاتِك، وأرادوا به أنهم قالوه عن إذعان لمّا علِموا إجمالًا بأنه عليه السلام يُكلَّف ما كُلِّفوه، وأنه يقدِر على ما قد عجزوا عنه مما يتوقف عليه الخلافة.

وقوله عز وعلا: ﴿لاَ عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ اعتراف منهم بالعجز عما كُلِّفوه، إذ معناه: لا علم لنا إلا ما علمتناه بحسب قابليتِنا من العلوم المناسبة لعالمنا ولا قُدرة بنا على ما هو خارج عن دائرة استعدادِنا حتى لو كنا مستعدّين لذلك لأفَضْتَه علينا.

و(ما) في (ما علمتنا) موصولةٌ حذف من صلتها عائدُها أو مصدرية.

ولقد نفَوْا عنهم العلمَ بالأسماء على وجه المبالغة حيث لم يقتصِروا على بيان عدمِه بأن قالوا مثلًا: لا علم لنا بها، بل جعلوه من جُملة ما لا يعلمونه، وأشعروا بأن كونَه من تلك الجملة غنيٌّ عن البيان.

﴿إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ﴾ الذي لا يخفىٰ عليه خافية، وهذا إشارةٌ إلى تحقيقهم لقوله تعالى: ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾ [البقرة، الآية ٣٠].

﴿الحَكِيمُ﴾ أي المحكِمُ لمصنوعاته الفاعلُ لها حسبما تقتضيه الحِكمةُ والمصلحة وهو خبرٌ بعد خبر، أو صفةٌ للأول.

و(أنت) ضميرُ الفصل لا محل له من الإعراب، أو له محل منه مشارِكٌ لما قبله كما قاله الفرّاء، أو لما بعده كما قاله الكسائي.

وقيل: تأكيد للكاف كما في قولك: مررتُ بك أنت، وقيل: مبتدأ خبرُه ما بعده، والجملة خبر (إن)، وتلك الجملةُ تعليلٌ لما سبق من قصر علمِهم بما علّمهم الله تعالى وما يفهم من ذلك من علم آدمَ عليه السلام بما خفيَ عليهم، فكأنهم قالوا: أنت العالمُ بكل المعلوماتِ التي من جملتها استعدادُ آدمَ عليه السلام لما نحن بمعزلٍ من الاستعداد له من العلوم الخفيةِ المتعلقةِ بما في الأرضِ من أنواع المخلوقات التي عليها يدور فَلَكُ خلافةِ الحكيم الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحِكمةُ ومن جملته تعليمُ آدمَ عليه السلام ما هو قابلٌ له من العلوم الكليةِ والمعارفِ الجزئيةِ المتعلقة بالأحكام الواردةِ على ما في الأرض، وبناءُ أمرِ الخلافةِ عليها.

﴿قَالَ﴾ استئناف كما سلف ﴿يَا آدَمُ أَنْبِئْهُم﴾ أي أعلِمْهم، أُوثرَ على أنبئني كما وقع في أمر الملائكة مع حصول المراد معه أيضًا وهو ظهورُ فضلِ آدمَ عليهم، عليهم السلام، إبانةً لما بين الأمرين من التفاوت الجليّ وإيذانًا بأن عِلْمَه عليه السلام بها

أمرٌ واضحٌ غيرُ محتاجٍ إلى ما يجري مَجرى الامتحان، وأنه عليه السلام حقيقٌ بأن يعلمَها غيرُه.

وقرئ بقلب الهمزة ياءً[١] وبحذفِها[٢] أيضًا والهاء مكسورةٌ فيهما.

﴿بِأَسْمَائِهِمْ﴾ التي عجَزوا عن علمها واعترفوا بتقاصُر همِمِهم عن بلوغِ مرتبتها.

﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ الفاء فصيحةٌ عاطفةٌ للجملة الشرطية على محذوف يقتضيهِ المقامُ وينسحِبُ عليه الكلام، للإيذان بتقرُّره وغِناه عن الذكر، وللإشعارِ بتحقُّقه في أسرع ما يكون كما في قوله عز وجل: ﴿فلما رآه مستقرًا عنده﴾ [النمل، الآية ٤٠] بعد قوله سبحانه: ﴿أنا آتيك به قبل أن يرتدَّ إليك طرفُك﴾ [النمل، الآية ٤٠].

وإظهارُ الأسماءِ في موقع الإضمارِ لإظهار كمالِ العنايةِ بشأنها، والإيذانِ بأنه عليه السلام أنبأهم بها على وجه التفصيلِ دون الإجمالِ.

والمعنى فأنبأهم بأسمائهم مفصّلةً وبيّن لهم أحوالَ كلٍّ منهم وخواصَّه وأحكامَه المتعلقة بالمعاش والمعاد، فعلِموا ذلك لمّا رأَوْا أنه عليه السلام لم يتلعثم في شيء من التفاصيل التي ذكرها مع مساعدة ما بين الأسماءِ والمسميات من المناسبات والمُشكلات وغيرِ ذلك من القرائن الموجبةِ لصدق مقالاتِه عليه السلام.

فلما أنبأهم بذلك ﴿قَالَ﴾ عز وجل تقريرًا لما مر من الجواب الإجماليِّ واستحضارًا له: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ولكن لا لتقرير نفسِه كما في قوله تعالى: ﴿ألم يعدْكم ربُكم وعدًا حسنا﴾ [طه، الآية ٨٦] ونظائرِه بل لتقرير ما يفيده من تحقق دواعي الخلافةِ في آدمَ عليه السلام لظهور مِصْداقه، وإيرادُ (ما لا يعلمون) بعنوان الغيبِ مضافًا إلى السموات والأرض للمبالغة في بيان كمالِ شمولِ علمِه المحيطِ وغايةِ سَعته، مع الإيذان بأن ما ظهر من عجزهم وعلم آدمَ عليه السلام من الأمور المتعلقة بأهل السموات وأهل الأرض، وهذا دليل واضحٌ على أن المراد بـ (ما لا تعلمون) فيما سبق ما أشير إليه هناك كأنه قيل: ألم أقل لكم

---

(١) قرأ بها: ابن عامر، وحمزة، والداجوني، وهشام.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٣٢)، والتبيان للطوسي (١/ ١٤٤)، والحجة لابن خالويه (٧٥)، والسبعة لابن مجاهد (١٥٣)، والكشاف للزمخشري (١/ ٦٢).

(٢) قرأ بها: ابن كثير، والقواس، والحسن، والأعرج.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ١٨)، والبحر المحيط (١/ ١٤٩)، والكشاف للزمخشري (١/ ٦٢)، والمحتسب لابن جني (١/ ٦٦).

إني أعلم فيه من دواعي الخلافةِ ما لا تعلمونه فيه هو هذا الذي عاينتموه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ عطفٌ على جملة (ألم أقل لكم) لا على (أعلم)، إذ هو غيرُ داخلٍ تحت القول، و(ما) في الموضعين موصولةٌ حذف عائدُها أي: أعلم ما تبدونه وما تكتمونه، وتغييرُ الأسلوب للإيذان باستمرار كَتْمِهم، قيل: المراد بما يبدون: قولُهم أتجعل... إلخ، وبما يكتمون: استبطانُهم أنهم أحِقّاءُ بالخلافة وأنه تعالى لا يخلُق خلقًا أفضل منهم.

رُوي أنه تعالى لما خلق آدمَ عليه السلام رأت الملائكةُ فِطرتَه العجيبةَ وقالوا ليكن ما شاء فلن يخلُقَ ربُنا خلقًا إلا كنا أكرمَ عليه منه[1].

وقيل: هو ما أسره إبليسُ في نفسه من الكِبْر وتركِ السجود، فإسنادُ الكِتمان حينئذ إلى الجميع من قبيل قولهم: بنو فلان قتلوا فلانًا والقاتل واحدٌ من بينهم.

قالوا: في الآية الكريمة: دلالةٌ على شرف الإنسان ومزية العلم وفضلِه على العبادة، وأن ذلك هو المناطُ للخلافة، وأن التعليم يصحُّ إطلاقُه على الله تعالى. وإن لم يصح إطلاقُ المعلِّم عليه لاختصاصه عادة بمن يحترفُ به، وأن اللغاتِ توقيفيةٌ إذ الأسماءُ تدل على الألفاظ بخصوص أو بعموم، وتعليمُها ظاهرٌ في إلقائها على المتعلم مبينًا له معانيَها، وذلك يستدعي سابقةَ وضع، وما هو إلا من الله تعالى وأن مفهوم الحِكمة زائدٌ على مفهوم العلم وإلا لزم التكرارُ وأن علومَ الملائكة وكمالاتِهم تقبل الزيادة، والحكماءُ منعوا ذلك في الطبقة العليا منهم وحملوا على ذلك قولَه تعالى: ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾ [الصافات، الآية ١٦٤] وأن آدمَ أفضلُ من هؤلاء الملائكة لأنه عليه السلام أعلمُ منهم وأنه تعالى يعلمُ الأشياءَ قبل حدوثِها.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ عطفٌ على الظرف الأول منصوبٌ بما نصبه من المُضمَر، أو بناصب مستقل، معطوفٍ على ناصبه عطفَ القصة على القصة، أي واذكر وقت قولنا لهم، وقيل: بفعل دل عليه الكلام، أي أطاعوا وقت قولِنا إلخ، وقد عرفت ما في أمثاله.

وتخصيصُ هذا القول بالذكر مع كون مقتضىٰ الظاهرِ إيرادَه على منهاج ما قبله من الأقوال المحكيةِ المتصلةِ به للإيذان بأن ما في حيّزه نعمةٌ جليلةٌ مستقلة حقيقةٌ بالذكر والتذكيرِ على حِيالها، والالتفاتُ إلى التكلم لإظهار الجلالةِ وتربيةِ المهابة مع ما فيه من تأكيد الاستقلال، وكذا إظهارُ الملائكة في موضع الإضمار، والكلام في اللام

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (١/ ٤٣)، ومن طريقه الطبري في تفسيره (١/ ٢٢٣).

وتقديمِها مع مجرورها على المفعول كما مر.

وقرئ[١] بضم تاء الملائكة إتباعًا لضم الجيم في قوله تعالى: ﴿اسْجُدُوا لآدَمَ﴾ كما قرئ بكسر الدال في قوله تعالى: ﴿الحمدِ لله﴾ [الفاتحة، الآية ٢. وفي سور أخرى] إتباعًا لكسر اللام وهي لغة ضعيفة.

والسجودُ في اللغة الخضوعُ والتطامُن، وفي الشرع: وضعُ الجبهة على الأرض على قصد العبادة، فقيل: أُمِروا بالسجود له عليه والسلام على وجه التحية تعظيمًا له واعترافًا بفضله وأداءً لحق التعليم واعتذارًا عما وقع منهم في شأنه، وقيل: أمروا بالسجود له تعالى وإنما كان آدمُ قِبلةً لسجودهم تفخيمًا لشأنه أو سببًا لوجوبه، فكأنه تعالى لما بَرَأه أُنموذَجًا للمُبدَعات كلِّها ونسخةً منطويةً على تعلق العالم الروحاني بالعالم الجُسماني وامتزاجِهما على نمط بديعٍ أمرهم بالسجود له تعالى لما عاينوا من عظيم قدرتِه، فاللام فيه كما في قول حسانَ رضي الله عنه: [البسيط]

أليس أولَ من صلَّى لقِبلتكم وأعرفَ الناسِ بالقرآنِ والسننِ[٢]

أو في قوله تعالى: ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس﴾ [الإسراء، الآية ٧٨] والأولُ هو الأظهر.

وقوله عز وجل: ﴿فَسَجَدُوا﴾ عطف على قلنا، والفاء لإفادة مسارعتِهم إلى الامتثال، وعدمِ تلعثُمِهم في ذلك.

رُوي عن وَهْب أن أولَ من سجد جبريلُ ثم ميكائيلُ ثم إسرافيلُ ثم عزرائيلُ ثم سائرُ الملائكة عليهم السلام[٣].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ استثناءٌ متصل لما أنه كان جنّيا مفرَدًا مغمورًا بألوف من الملائكة متصفًا بصفاتهم فغَلبوا عليه في (فسجدوا)، ثم استثني استثناءَ واحدٍ منهم أو لأن من الملائكة جنسًا يتوالدون يقال لهم الجنُّ كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما[٤] وهو منهم، أو لأن الجن أيضًا كانوا مأمورين بالسجود له لكن استُغني بذكر الملائكة عن ذكرهم.

---

(١) قرأ بها: أبو جعفر يزيد بن القعقاع، وسليمان بن مهران، والشنبوذي، وابن جماز، وعيسى بن وردان. ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٣٤)، والإعراب للنحاس (١/ ١٦١)، والإملاء للعكبري (١/ ١٨)، والبحر المحيط (١/ ١٥٢)، والتبيان للطوسي (١/ ١٤٧)، وتفسير القرطبي (١/ ٢٩١)، والمجمع للطبرسي (١/ ٨٠)، والمحتسب لابن جني (١/ ٧١)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢١٠).

(٢) ينظر: تفسير الفخر الرازي (٢/ ١٩٥)، واللباب في علوم الكتاب (١/ ٥٢٩).

(٣) ينظر: تفسير البغوي (١/ ٤٨)، وغرائب القرآن للنيسابوري (١/ ٢٥٢)، وتفسير الرازي (٢/ ١٦٥).

(٤) ذكره المناوي في الفتح السماوي (١/ ١٥٧)، وقال: لم أقف عليه.

أو منقطعٌ:

وهو اسمٌ أعجميٌ ولذلك لم ينصرِف، ومن جعله مشتقا من الإبلاس وهو إلباس قال: إنه مُشبَّهٌ بالعجمة حيث لم يُسمَّ به أحدٌ فكان كالاسم الأعجميّ.

واعلم أن الذي تقتضيه هذه الآية الكريمةُ والتي في سورة الأعراف من قوله تعالى: ﴿ثم قلنا للملائكة اسجُدوا لآدم فسجَدوا إلا إبليسَ﴾ [الأعراف، الآية ١١]، والتي في سورة بني إسرائيل وسورة الكهف وسورة طه من قوله تعالى: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا﴾ [طه، الآية ١١٦]، أن سجودَ الملائكة إنما ترتب على الأمر التنجيزيّ الوارد بعد خلقِه وتسويته ونفخِ الروحِ فيه ألبتة كما يلوح به حكايةُ امتثالِهم بعبارة السجود دون الوقوعِ الذي به ورد الأمرُ التعليقي، ولكن ما في سورة الحِجْرِ من قوله عز وعلا: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرًا من صلصال من حمأ مسنونٍ فإذا سويتُه ونفخْتُ فيه من روحي فقَعُوا له ساجدين فسجد الملائكةُ كلُّهم أجمعون﴾ [الحجر، الآية ٢٨ و٢٩ و٣٠] وما في سورة ص من قوله تعالى: ﴿إذ قال ربُك للملائكة إني خالق بشرًا من طين﴾ [ص، الآية ٧١] إلى آخر الآية يستدعيان بظاهرهما ترتُّبَه على ما فيهما من الأمر التعليقيِّ من غير أن يتوسط بينهما شيءٌ ما تُفصحَ عنه الفاءُ الفصيحة من الخلق والتسوية ونفخِ الروحِ فيه عليه السلام.

وقد رُوي عن وهْبٍ أنه كان السجود كما نفخ فيه الروح بلا تأخير، وتأويلُ الآيات السابقةِ بحمل ما فيها من الأمر على حكاية الأمرِ التعليقيّ بعد تحققِ المعلَّقِ به إجمالًا، فإنه حينئذ يكون في حكم التنجيز يأباه ما في سورة الأعراف من كلمة (ثم) المناديةِ بتأخر ورودِ الأمرِ عن التصوير المتأخرِ عن الخلق المتأخر عن الأمر التعليقي، والاعتذارُ بحملِ التراخي على الرُتبيّ أو التراخي في الإخبار، أو بأن الأمرَ التعليقي قبل تحققِ المعلَّق به لمّا كان ـ في عدم إيجاب المأمور به ـ بمنزلة العدم جُعل كأنه إنما حدَث بعد تحققه فحُكي على[1] صورة التنجيزِ يؤدي بعد اللتيا والتي إلى أن ما جرى بينه وبينهم عليهم السلام في شأن الخلافة وما قالوا فيه وما سمعوا إنما جرىٰ بعد السجود المسبوقِ بمعرفة جلالة منزلتِه عليه السلام وخروجِ إبليسَ من البَيْن باللعن المؤبد لعِناده، وبعد مشاهدتهم لذلك كله عيانًا وهل هو إلا خرقٌ لقضية العقل والنقل، والالتجاءُ في التفصّي عنه ـ إلى تأويل نفخِ الروحِ بحمله على ما يعُمُّ إفاضةَ ما به حياةُ النفوس التي من جملتها تعليمُ الأسماء ـ تعسّفٌ يُنبِئ عن ضيق المجال.

---

(١) في ط: عن.

فالذي يقتضيه التحقيقُ، ويستدعيه النظمُ[(١)] الأنيقُ بعد التصفح في مستودعات الكتاب المكنونِ والتفحصِ عما فيه من السر المخزون أن سجودَهم له عليه السلام إنما ترتب على الأمر التنجيزيّ المتفرعِ على ظهور فضلِه عليه السلام المبني على المحاورة المسبوقةِ بالإخبار بخلافته المنتظمِ جميعَ ذلك في سلك ما نيط به الأمرُ التعليقيُّ من التسوية ونفخِ الروحِ، إذ ليس من قضيته وجوبُ السجود عقيبَ نفخِ الروحِ فيه، فإن الفاءَ الجزائيةَ ليست بنصٍّ في وجوب وقوعِ مضمونِ الجزاء عقيبَ وجودِ الشرط من غير تراخٍ، للقطع بعدم وجوبِ السعي عقيبَ النداء، لقوله تعالى: ﴿إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعَوْا﴾ [الجمعة، الآية: ٩] الآية، وبعدم وجوب إقامةِ الصلاة غِبَّ الاطمئنانِ لقوله تعالى: ﴿فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة﴾ [النساء، الآية ١٠٣] بل إنما الوجوبُ عند دخول الوقت.

كيف لا والحكمة الداعية إلى ورود ما نحن فيه من الأمر التعليقيِّ إثرَ ذي أثيرٍ إنما هي حملُ الملائكةِ عليهم السلام على التأمُّل في شأنه عليه السلام ليتدبروا في أحواله طرا، ويُحيطوا بما لديه خُبرًا، ويستفهموا ما عسى يستَبْهم عليهم في أمره عليه السلام لابتنائه على حِكَم أبيّة، وأسرارٍ خفية طُويت عن علومهم، ويقفوا على جلية الحال قبل ورود الأمر التنجيزي وتحتُّم الامتثال؛ وقد قالوا بحسب ذلك ما قالوا وعاينوا ما عاينوا؛ وعدمُ نظمِ الأمر التنجيزيّ في سلك الأمور المذكورةِ في السورتين عند الحكاية لا يستلزمُ عدمَ انتظامِه فيه عند وقوعِ المحكيِّ كما أن عدمَ ذكر الأمر التعليقي عند حكايةِ الأمرِ التنجيزيِّ في السورة الكريمة المذكورة لا يوجب عدمَ مسبوقيتِه به، فإن حكاية كلامٍ واحدٍ على أساليبَ مختلفةٍ حسبما يقتضيه المقامُ ويستدعيه حسنُ الانتظامِ ليست بعزيزة في الكتاب العزيز، وناهيك بما نقل في توجيه قولِه تعالى: ﴿بشرًا﴾ [الحجر، الآية ٢٨] مع عدم سبقِ معرفةِ الملائكةِ عليهم السلام بذلك وحيث صِيَر إليه مع أنه لم يرِد به نقلٌ فما ظنك بما قد وقع التصريحُ به في مواضعَ عديدةٍ فلعله قد أُلقي إليهم ابتداءً جميعُ ما يتوقف عليه الأمرُ التنجيزيُّ إجمالًا بأن قيل مثلًا إني خالقٌ بشرًا من كذا وكذا وجاعل إياه خليفةً في الأرض فإذا سويتُه ونفختُ فيه من روحي وتبين لكم شأنُه فقعوا له ساجدين، فخلقه فسواه ونفخ فيه الروح، فقالوا عند ذلك ما قالوا أو ألقي إليهم خبرُ الخلافة بعد تحقق الشرائطِ المعدودة بأن قيل إثرَ نفخِ الروح فيه إني جاعلٌ هذا خليفة في الأرض فهناك ذكروا في حقه عليه السلام ما

---

(١) في ط: النظر.

ذكروا، فأيده الله عز وجل بتعليم الأسماءِ فشاهدوا منه ما شاهدوا، فعند ذلك ورد الأمرُ التنجيزيّ اعتناءً بشأن المأمور به وتعيينًا لوقته، وقد حُكي بعضُ الأمور في بعض المواطنِ وبعضُها في بعضِها اكتفاءً بما ذكر في كل موطنٍ عما تُرك في موطن آخرَ.

والذي يحسم مادةَ الاشتباهِ أن ما في سورة ص من قوله تعالى: ﴿إذ قال ربك للملائكة﴾ [ص، الآية ٧١] إلخ، بدل من قوله تعالى: ﴿إذْ يختصمون﴾ فيما قبله من قوله تعالى: ﴿ما كان ليَ من علمٍ بالملإ الأعلى إذ يختصمون﴾ [ص، الآية ٦٩] أي بكلامهم عند اختصامِهم والمرادُ بالملأ الأعلى الملائكةُ وآدمُ عليهم السلام وإبليسُ حسبما أطبق عليه جمهورُ الأمة، وباختصامهم ما جرى بينهم في شأن خلافةِ آدمَ عليه السلام من التقاول الذي من جملته ما صدر عنه عليه السلام من الإنباء بالأسماء ومن قضية البدلية وقوعُ الاختصامِ المذكورِ في تضاعيف ما ذكر فيه تفصيلًا من الأمر التعليقيّ، وما عُلِّق به من الخلق والتسويةِ ونفخِ الروحِ فيه وما ترتب عليه من سجود الملائكةِ عليهم السلام وعنادِ إبليسَ وما تبِعه من لعنه وإخراجِه من بَيْن الملائكة، وما جرى بعده من الأفعال والأقوال.

وإذ ليس تمامُ الاختصام بعد سجودِ الملائكة ومكابرةِ إبليسَ المستتبعةِ لطرده من بينهم لما عرفتَ من أنه أحَدُ المختصِمين كما أنه ليس قبل الخلق ضرورةَ استحالةِ الإنباءِ بالأسماء حينئذ، فهو إذن بعد نفخِ الروحِ وقبل السجود حتمًا بأحد الطريقين والله سبحانه أعلمُ بحقيقة الأمر.

﴿أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ﴾ استئنافٌ مبين لكيفية عدمِ السجود المفهوم من الاستثناء وأنه لم يكن للتردد أو للتأمل والإباءُ الامتناعُ بالاختيار.

والتكبرُ: أن يرى نفسه أكبرَ من غيره، والاستكبارُ: طلب ذلك بالتشبّع، أي امتنع عما أُمر به واستكبر من أن يعظِّمه أو يتخذه وصلةً في عبادة ربِّه، وتقديمُ الإباءِ على الاستكبار مع كونه مسبَّبًا عنه لظهوره ووضوحِ أثرِه واقتُصر في سورة ص على ذكر الاستكبار اكتفاءً به، وفي سورة الحجر على ذكر الإباءِ حيث قيل: ﴿أبى أن يكون مع الساجدين﴾ [الحجر: ٣٢].

﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي في علم الله تعالى، إذ كان أصلُه من كفرة الجنِّ فلذلك ارتكب ما ارتكبه على ما أفصح عنه قولُه تعالى: ﴿كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾ [الكهف، الآية ٥٠] فالجملةُ اعتراضيةٌ مقرِّرةٌ لما سبق من الإباء والاستكبار، أو صار منهم باستقباح أمرِه تعالى إياه بالسجود لآدمَ عليه السلام زعمًا منه أنه أفضلُ منه،

والأفضلُ لا يحسنُ أن يؤمَرَ بالخضوع للمفضول كما يفصح عنه قوله: ﴿أنا خير منه﴾ [الأعراف، الآية ١٢] حين قيل له: ﴿ما منعك أن تسجد لما خلقتُ بيديَّ أستكبرتَ أم كنت من العالين﴾ [ص، الآية ٧٥] لا بترك الواجب وحده، فالجملةُ معطوفة على ما قبلها، وإيثارُ الواو على الفاء للدلالة على أن محضَ الإباءِ والاستكبارِ كفرٌ لا لأنهما سببان له كما تفيده الفاء.

﴿وَقُلْنَا﴾ شروعٌ في حكاية ما جَرى بينه تعالى وبين آدمَ عليه السلام بعد تمام ما جرى بينه تعالى وبين الملائكة وإبليسَ من الأقوال والأفعالِ.

وقد تُركت حكايةُ توبيخِ إبليسَ وجوابُه ولعنُه واستنظارُه وإنظارُه اجتزاءً بما فُصّل في سائر السور الكريمة.

وهو عطفٌ على قلنا للملائكة، ولا يقدح في ذلك اختلافُ وقتيهما، فإن المراد بالزمان المدلولِ عليه بكلمة (إذْ) زمانٌ ممتدٌ واسعٌ للقولين.

وقيل: هو عطف على إذ قلنا بإضمار (إذ)، وهذا تذكيرٌ لنعمة أخرى موجبةٍ للشكر مانعةٍ من الكفر.

وتصديرُ الكلام بالنداء في قوله تعالى: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ﴾ للتنبيه على الاهتمام بتلقي المأمورِ به، وتخصيصُ أصل الخطاب به عليه السلام للإيذان بأصالته في مباشرة المأمور به.

و(اسكن) من السُكنىٰ وهو اللُّبث والإقامةُ والاستقرارُ دونَ السكونِ الذي هو ضدُّ الحركة، و(أنت) ضميرٌ أكِّد به المستكنُّ ليصحَّ العطف عليه.

واختلف في وقت خلقِ زوجِه. فذكر السدي عن ابن مسعود وابن عباس وناسٍ من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين: أن الله تعالى لما أخرج إبليسَ من الجنة وأسكنها آدمَ بقيَ فيها وحدَه وما كان معه من يستأنسُ به فألقىٰ الله تعالى عليه النومَ ثم أخذ ضِلْعًا من جانبه الأيسرِ ووضع مكانه لحمًا وخلق حواءَ منه فلما استيقظ وجدها عند رأسه قاعدةً، فسألها: ما أنت؟ قالت: امرأة. قال: ولم خلقتِ؟ قالت: لتسكُنَ إلي.

فقالت الملائكةُ تجْربةً لعلمه: من هذه؟ قال: امرأة، قالوا: لم سُمِّيت امرأةً قال: لأنها من المَرءِ أُخِذَت، فقالوا: ما اسمُها؟ قال: حواء، قالوا: لم سميت حواء؟ قال: لأنها خلقت من شيء حيّ[1].

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٢٦٧) رقم (٧١٠)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٨٥) رقم (٣٧٢) =

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بعث الله تعالى جندًا من الملائكة فحملوا آدمَ وحواءَ على سريرٍ من ذهب كما يُحمل الملوك ولباسُهما النور، حتى أدخلوهما الجنة[1].

وهذا كما ترى يدل على خلقها قبل دخول الجنة والمراد بها دارُ الثواب، لأنها المعهودة، وقيل هي جنةٌ بأرض فلسطين، أو بين فارسَ وكَرْمان، خلقها الله تعالى امتحانًا لآدمَ عليه السلام، وحُمل الإهباطُ على النقل منها إلى أرض الهندِ كما في قوله تعالى: ﴿اهبِطوا مصراً﴾ [البقرة، الآية ٦١] لما أن خلقه عليه السلام كان في الأرض بلا خلاف ولم يذكر في هذه القصة رفعُه إلى السماء ولو وقع ذلك لكان أولى بالذكر والتذكير، لما أنه من أعظم النعمِ، ولأنها لو كانت دارَ الخلد لما دخلها إبليسُ.

وقيل: إنها كانت في السماء السابعة، بدليل اهبِطوا، ثم إن الإهباطَ الأولَ كان منها إلى السماء الدنيا، والثاني منها إلى الأرض، وقيل: الكلُّ ممكنٌ، والأدلةُ النقلية متعارضةٌ فوجب التوقفُ وتركُ القطع.

﴿وَكُلاَ مِنْهَا﴾ أي من ثمارها، إنما وجِّه الخطاب إليهما تعميمًا للتشريف والترفيه، ومبالغة في إزالة العِلل والأعذار، وإيذانًا بتساويهما في مباشرة المأمور به، فإن حواءَ أُسوةٌ له عليه السلام في الأكل بخلاف السُكنىٰ، فإنها تابعةٌ له فيه.

﴿رَغَدًا﴾ صفةٌ للمصدر المؤكَّد أي أكلًا واسعًا رافهًا.

﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ أي أيَّ مكان أردتما منها، وهذا كما ترى إطلاقٌ كليٌّ حيث أبيحَ لهما الأكلُ منها على وجه التوسعةِ البالغةِ المزيحةِ للعلل ولم يُحَظَّر عليهما بعضُ الأكل ولا بعضُ المواضع الجامعةِ للمأكولات حتى لا يبقىٰ لهما عذرٌ في تناول ما منعا منه بقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبَا﴾ بفتح الراء من: قرِبْتُ الشيء بالكسر أقربَه بالفتح إذا التبسْتُ به وتعرضتُ له، وقال الجوهري[2]: قَرُبَ بالضم يَقْرُبُ قُرْبًا إذا دنا، وقَرِبْتُه بالكسر قُرْبَانًا: دنوتُ منه.

---

= عن السدي، وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ١٠٥)، وزاد نسبته إلى البيهقي في الأسماء والصفات وابن عساكر.

(١) ينظر: غرائب القرآن للنيسابوري (١/ ٢٥٤)، واللباب في علوم الكتاب (١/ ٥٤٩).

(٢) هو: إسماعيل بن حماد الجوهري صاحب الصحاح الإمام أبو نصر الفارابي، قال ياقوت: كان من أعاجيب الزمان، ذكاءً وفطنة وعلمًا. وأصله من فَارَاب من بلاد الترك، وكان إمامًا في اللغة والأدب، دخل العراق فقرأ العربية على أبي علي الفارسي والسيرافي. وصنف كتابًا في العروض، ومقدمة في =

﴿هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ نصبٌ على أنه بدل من اسم الإشارةِ، أو نعتٌ له بتأويلها بمشتقٍ، أي هذه الحاضرة من الشجرة أي: لا تأكلا منها وإنما عُلّق النهي بالقُربان منها مبالغةً في تحريم الأكلِ ووجوب الاجتناب عنه والمرادُ بها الحنطةُ أو العِنَبَةُ أو التينة وقيل: هي شجرة مَنْ أكلَ منها أحْدَث، والأَوْلى عدمُ تعيينها من غير قاطعٍ.

وقرئ (هذي)[١] بالياء وبكسر شين (الشِّجَرة)[٢] وتاء (تِقربا)[٣].

وقرئ[٤] (الشِيَرَة) بكسر الشين وفتح الياء.

﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَالِمِينَ﴾ مجزوم على أنه معطوف على (تقرَبا) أو منصوبٌ على أنه جواب للنهي وأيًا ما كان فالقُرب أي الأكلُ منها سببٌ لكونهما من الظالمين أي الذين ظلموا أنفسَهم بارتكاب المعصية. أو نقَصوا حظوظَهم بمباشرة ما يُخِلُّ بالكرامة والنعيم، أو تعدَّوا حدود الله تعالى.

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشيطَانُ عَنْهَا﴾ أي أصدر زلَّتَهما أي زلقَهما وحملهما على الزلة بسببها، ونظيرُه عن هذه ما في قوله تعالى: ﴿وما فعلتُه عن أمري﴾ [الكهف، الآية ٨٢] أو أزلهما عن الجنة بمعنى: أذهبَهما وأبعدهما عنها، يقال: زلَّ عني كذا إذا ذهب عنك، ويعضدُه قراءة[٥] (أزالهما) وهما متقاربان في المعنى. فإن الإزلالَ أي

---

= النحو، والصحاح في اللغة، وهو الكتاب الذي بأيدي الناس اليوم، وعليه اعتمادهم، أحسن تصنيفه، وجوّد تأليفه، وفيه يقول إسماعيل بن محمد بن عبدوس النيسابوري: قال ياقوت: وقد بحثت عن مولده ووفاته بحثًا شافيًا، فلم أقف عليهما، وقد رأيت نسخة بالصحاح عند الملك المعظم بخطه، وقد كتبها في سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة.

ينظر: بغية الوعاة (١/ ٤٤٦، ٤٤٧)، ومعجم الأدباء (٦/ ١٥١)، وإنباه الرواة (١/ ١٩٤).

(١) قرأ بها: ابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٣٤)، والبحر المحيط (١/ ١٥٨)، وتفسير القرطبي (١/ ٣٠٤)، والكشاف للزمخشري (١/ ٦٣).

(٢) قرأ بها: هارون الأعور.
ينظر: البحر المحيط (١/ ١٥٨)، وتفسير القرطبي (١/ ٣٠٤)، والكشاف للزمخشري (١/ ٦٣)، المحتسب لابن جني (١/ ٧٣).

(٣) ينظر: البحر المحيط (١/ ١٥٨)، والكشاف للزمخشري (١/ ٦٣).

(٤) ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ١٨)، والبحر المحيط (١/ ٥٨)، وتفسير القرطبي (١/ ٣٠٤)، والكشاف للزمخشري (١/ ٦٣)، والمحتسب لابن جني (١/ ٧٣).

(٥) قرأ بها: حمزة، والأعمش، والحسن، والأعرج، وطلحة، وأبو رجاء.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٣٤)، والإملاء للعكبري (١/ ١٨)، والبحر المحيط (١/ ١٦١)، والتبيان للطوسي (١/ ١٦٠)، والتيسير للداني (٧٣)، وتفسير الطبري (١/ ٥٢٤)، وتفسير القرطبي (١/ ٣١١)، والحجة لابن خالويه (٧٤)، والحجة لأبي زرعة (٩٤)، والسبعة لابن مجاهد (١٥٣)، =

الإزلاق يقتضي زوالَ الزال عن موضعه ألبتة. وإزلالُه قوله لهما: ﴿هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يَبْلى﴾ [طه، الآية ١٢٠] وقوله: ﴿ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين﴾ [الأعراف، الآية ٢٠]، ومقاسَمتُه لهما: ﴿إني لكما لمن الناصحين﴾ [الأعراف، الآية ٢١]، وهذه الآياتُ مشعرةٌ بأنه عليه السلام لم يؤمر بسُكنى الجنةِ على وجه الخلود[1] بل على وجه التكرمةِ والتشريفِ لما قُلِّد من خلافة الأرض إلى حين البعث إليها.

واختُلف في كيفية توصُّله إليهما بعد ما قيل له: ﴿فاخرج منها فإنك رجيم﴾ [الحجر، الآية ٣٤. وسورة ص، الآية ٧٧] فقيل: إنه إنما مُنع من الدخول على وجه التكرمة كما يدخُلها الملائكةُ عليهم السلام ولم يُمنَعْ من الدخول للوسوسة ابتلاءً لآدمَ وحواءَ، وقيل: قام عند الباب فناداهما وقيل: تمثل بصورة دابةٍ فدخل ولم يعرِفْه الخَزَنة، وقيل: دخل في فم الحية فدخَل معها، وقيل: أرسل بعضَ أتباعه فأزلّهما والعلم عند الله سبحانه.

﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ أي من الجنة إن كان ضمير (عنها) للشجرة، والتعبير عنها بذلك للإيذان بفخامتها وجلالتِها وملابستِهما له، أي من المكان العظيم الذي كانا مستقِرَّيْن فيه أو من الكرامة والنعيم إن كان الضميرُ للجنة.

﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا﴾ الخطابُ لآدمَ وحواءَ عليهما السلام بدليل قوله تعالى: ﴿قال اهبِطا منها جميعًا﴾ [طه، الآية ١٢٣] وجُمعَ الضمير لأنهما أصلُ الجنس، فكأنهما الجنسُ كلُّهم، وقيل: لهما وللحية وإبليسَ على أنه أُخرج منها ثانيًا بعدما كان يدخلها للوسوسة أو يدخلها مُسارقة، وأُهبط من السماء.

وقرئ[2] بضم الباء.

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ حال استغني فيها عن الواو بالضمير أي متعادِين يبغي بعضُكم على بعض بتضليله، أو استئنافٌ لا محل له من الإعراب، وإفراد العدوّ إما للنظر إلى لفظ البعض وإما لأن وِزانَه وِزانُ المصدر كالقول.

﴿وَلَكُم في الأَرْضِ﴾ التي هي محلُّ الإهباط، والظرفُ متعلق بما تعلق به الخبرُ

---

= والغيث للصفاقسي (١٠٦)، والكشف للقيسي (١/ ٢٣٦)، وتفسير الفخر الرازي (١/ ٣٠٨)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢١١).

(١) في ط: الخلد.

(٢) قرأ بها: محمد بن مصفى، وأبو حيوة.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ١٨)، والبحر المحيط (١/ ١٦٢)، وتفسير القرطبي (١/ ٣١٩).

أعني لكم من الاستقرار.

﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ أي استقرارٌ أو موضعُ استقرار.

﴿وَمَتَاعٌ﴾ أي تمتّعٌ بالعيش وانتفاعٌ به.

﴿إِلَى حِينٍ﴾ هو حين الموت على أن المُغيَّا تمتُّع كلِّ فردٍ من المخاطبين، أو القيامة، على أنه تمتع الجنس في ضمن بعض الأفراد والجملة كما قبلها في كونها حالًا أي مستحقين للاستقرار والتمتع أو استئنافًا.

﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ أي استقبلها بالأخذ والقبولِ والعملِ بها حين علِمَها ووُفّق لها.

وقرئ[١] بنصب (آدمَ) ورفع (كلماتٌ)، دلالةً على أنها استقبلته بلغته وهي قوله تعالى: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا﴾ [الأعراف، الآية ٢٣]. وقيل: «سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمُك وتعالى جدُّك ولا إله إلا أنت ظلمت نفسي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»[٢] وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: يا رب ألم تخلُقْني بيدك؟ قال: بلى. قال: يا رب ألم تنفُخْ فيَّ من روحك؟ قال: بلى. قال: يا رب ألم تسبِقْ رحمتُك غضبك؟ قال: بلى. قال: ألم تسكنّي جنتَك؟ قال: بلى. قال: يا رب إن تبتُ وأصلحتُ أراجعي أنت إلى الجنة؟ قال: نعم[٣].

والفاء للدلالة على أن التوبة حصلت عَقيب الأمر بالهبوط قبل تحقق المأمور به.

والتعرضُ لعنوان الربوبية مع الإضافة إليه عليه السلام للتشريف والإيذان بعلّيته لإلقاء الكلماتِ المدلولِ عليها بتلقيها.

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، وابن عباس، ومجاهد.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٣٤)، والإملاء للعكبري (١/ ١٩)، والبحر المحيط (١/ ١٦٥)، والتبيان للطوسي (١/ ١٦٦)، والتيسير للداني (٧٣)، وتفسير الطبري (١/ ٥٤٢)، وتفسير القرطبي (١/ ٣٢٦)، والحجة لابن خالويه (٧٥)، والحجة لأبي زرعة (٩٤)، والسبعة لابن مجاهد (١٥٣)، الغيث للصفاقسي (١٠٧)، والكشاف للزمخشري (١/ ٦٣)، والكشف للقيسي (١/ ٢٣٦، ٢٣٧)، والمجمع للطبرسي (١/ ٨٨)، والمعاني للأخفش (١/ ٦٧)، المعاني للفراء (١/ ٢٨)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢١١).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١/ ٢١٠) رقم (٢٤٠٣)، قال: حدثنا أبو بكر قال: نا ابن فضيل وأبو معاوية عن الأعمش عن إبراهيم التيمي عن الحارث بن سويد قال: قال ابن مسعود فذكره.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٥٤٥)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي وابن جرير في التفسير (١/ ٥٤٢) رقم (٧٧٥)، وابن أبي حاتم في التفسير (١/ ١٣٥) رقم (٤١١)، وذكره السيوطي في الدر (١/ ١١٦)، وعزاه للفريابي وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في التوبة وابن المنذر.

﴿فَتَابَ عَلَيهِ﴾ أي رجع عليه بالرحمة وقَبولِ التوبةِ، والفاء للدلالة على ترتبه على تلقي الكلمات المتضمن لمعنى التوبة التي هي عبارة عن الاعتراف بالذنب والندمِ عليه والعزمِ على عدم العود إليه واكتُفي بذكر شأن آدمَ عليه السلام لما أن حواءَ تبَعٌ له في الحُكمِ ولذلك طُوي ذكرُ النساءِ في أكثرِ مواضعِ الكتاب والسنة.

﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ﴾ أي الرجّاع على عباده بالمغفرة أو الذي يُكثر إعانتَهم على التوبة، وأصلُ التوب الرجوع فإذا وصف به العبد كان رجوعًا عن المعصية، وإذا وُصف به الباري عز وعلا أريد به الرجوعُ عن العقاب إلى المغفرة.

﴿الرَّحِيمُ﴾ المبالِغُ في الرحمة وفي الجمع بين الوصفين وعدٌ بليغٌ للتائب بالإحسان مع العفو والغفران، والجملة تعليلٌ لقوله تعالى فتاب عليه.

﴿قُلْنَا﴾ استئناف مبنيٌ على سؤال ينسحِبُ عليه الكلامُ، كأنه قيل: فماذا وقع بعد قَبولِ توبتِه؟ فقيل: قلنا: ﴿اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ كُرِّر الأمرُ بالهبوط إيذانًا بتحتم مقتضاه وتحقُّقه لا محالة. ودفعًا لما عسى يقعُ في أمنيَّتِه عليه السلام من استتباع قبول التوبةِ للعفو عن ذلك، وإظهارًا لنوع رأفةٍ به عليه السلام لما بين الأمرين من الفرق النيّر، كيف لا والأولُ مشوبٌ بضرب سخطٍ مذيلٍ ببيان أن مهبِطهم دارُ بليةٍ وتعادٍ لا يخلدون فيها. والثاني مقرون بوعد إيتاء الهدىٰ المؤدي إلى النجاة والنجاح، وأما ما فيه من وعيد العقاب فليس بمقصود من التكليف قصدًا أوليًا، بل إنما هو دائرٌ على سوء اختيارِ المكلفين.

قيل: وفيه تنبيه على أن الحازم يكفيه في الردْع عن مخالفة حكم الله تعالى مخافةُ الإهباط المقترنِ بأحد هذين الأمرين، فكيف بالمقترن بهما فتأمل.

وقيل: الأول من الجنة إلى السماء الدنيا، والثاني منها إلى الأرض، ويأباه التعرضُ لاستقرارهم في الأرض في الأول، ورجوعُ الضمير إلى الجنة في الثاني، و(جميعًا) حال في اللفظ وتأكيدٌ في المعنى، كأنه قيل: اهبطوا أنتم أجمعون ولذلك لا يستدعي الاجتماعَ على الهبوط في زمان واحد كما في قولك: جاءوا جميعًا، بخلاف قولك: جاءوا معًا.

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكم مِنِّي هُدىً﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على الهبوط المفهوم من الأمر به وإما مركبة من (إن) الشرطية و(ما) المزيدة المؤكدة لمعناها والفعل في محل الجزم بالشرط، لأنه مبنيٌّ لاتصاله بنون التأكيد، وقيل: معرب مطلقًا، وقيل: مبني مطلقًا.

والصحيحُ التفصيل: إن باشرَتْه النونُ بُني وإلا أُعرب، نحو هل يقومانِّ، وتقديمُ الظرفِ على الفاعل لما مر غيرَ مرة، والمعنى إن يأتينكم مني هدى برسول أبعثُه إليكم

وكتابٍ أُنزله عليكم، وجواب الشرط قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ كما في قولك: إن جئتني فإن قدِرْت أحسنتُ إليك.

وإيراد كلمة الشك مع تحقق الإتيان لا محالة للإيذان بأن الإيمانَ بالله والتوحيد لا يشترط فيه بعثةُ الرسل وإنزالُ الكتب، بل يكفي في وجوبه إفاضةُ العقل ونصبُ الأدلة الآفاقية والأنفسية، والتمكينُ من النظر والاستدلال، أو للجري على سَنن العظماء في إيراد (عسى) و(لعل) في مواقعِ القطعِ والجزم.

والمعنى أن من تبع هدايَ منكم فلا خوفٌ عليهم في الدارين من لُحوق مكروه ولا هم يحزنون من فوات مطلوبٍ أي لا يعتريهم ما يوجب ذلك، لا أنه يعتريهم ذلك لكنهم لا يخافون ولا يحزنون ولا أنه لا يعتريهم نفسُ الخوف والحُزن أصلًا بل يستمرون على السرور والنشاط، كيف لا واستشعارُ الخوف والخشيةِ استعظامًا لجلال الله سبحانه وهيبتِه واستقصارًا للجدّ والسعي في إقامة حقوق العبوديةِ من خصائص الخواصِّ والمقرّبين.

والمرادُ بيانُ دوام انتفائهما لا بيانُ انتفاءِ دوامهِما كما يُتوهم من كون الخبر في الجملة الثانية مضارعًا لما تقرر في موضعه أن النفي وإن دخَلَ على نفس المضارع يُفيد الدوامَ والاستمرارَ بحسب المقام، وإظهارُ الهدى مضافًا إلى ضمير الجلالةِ لتعظيمِه وتأكيدِ وجوب اتّباعه أو لأن المراد بالثاني ما هو أعمُّ من الهدايات التشريعية وما ذكر من إفاضة العقلِ ونصبِ الأدلة الآفاقيةِ والأنفسية كما قيل.

وقرئ[1] (هُدَيَّ) على لغة هذيل ولا خوفَ بالفتح.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ عطف على (من تبِعَ) إلخ قسيمٌ له، كأنه قيل: ومن لم يتْبَعْه، وإنما أوثر عليه ما ذكر تفظيعًا لحال الضلالةِ وإظهارًا لكمالِ قُبحِها، وإيراد الموصولِ بصيغة الجمعِ للإشعار بكثرة الكفرة، والجمعُ بين الكفر والتكذيب للإيذان بتنوّع الهُدىٰ إلى ما ذكر من النوعين، وإيراد نونِ العظمةِ لتربية المهابة وإدخالِ الروعةِ، وإضافةُ الآياتِ إليها لإظهار كمالِ قبحِ التكذيبِ بها، أي: والذين كفروا برُسُلنا المرسلةِ إليهم وكذبوا بآياتنا المنزلة عليهم.

وقيل: المعنى كفروا بالله وكذبوا بآياته التي أنزلها على الأنبياء عليهم السلام، أو أظهَرها بأيديهم من المعجزات، وقيل: كفروا بالآيات جَنانًا وكذبوا بها لسانًا فيكون

---

(١) قرأ بها: عاصم الجحدري، وعبد الله بن أبي إسحاق، وعيسى بن عمر، وأبو الطفيل.
ينظر: البحر المحيط (١/ ١٦٩)، وتفسير القرطبي (١/ ٣٢٨)، والمجمع للطبرسي (١/ ٩٠)، والمحتسب لابن جني (١/ ٧٦).

كلا الفعلين متوجهًا إلى الجار والمجرور.

والآية في الأصل العلامة الظاهرة، قال النابغة[(١)]: [الطويل]

توهمْتُ آياتٍ لها فعرَفتُها ... لستة أعوامٍ وذا العامُ سابعُ[(٢)]

ويقال للمصنوعات من حيث دلالتُها على الصانع تعالى وعلمِه وقدرتِه ولكل طائفةٍ من كلمات القرآنِ المتميِّزة عن غيرها بفصل لأنها علامةٌ لانفصال ما قبلها مما بعدها، وقيل: لأنها تجْمَعُ كلماتٌ منه فيكون من قولهم خرج بنو فلان بآيتهم أي بجماعتهم قال: [الطويل]

خرجْنا من البيتينِ لا حيَّ مثلُنا ... بآيتِنا نُزجي النِّعاجَ المَطافِلا[(٣)]

واشتقاقُها من (أَيْ) لأنها تبين أيًا من أيٍّ، أو من أوى إليه أي رجَع وأصلُها أَوْية أو أيّة، فأبدلت عينها ألفًا على غير قياس أو أوَيَة أو أيَيَة كرَمَكَة، فأُعِلَّت أو آئِيَة كقائلة، فحُذفت الهمزة تخفيفًا.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ إشارة إلى الموصوف باعتبار اتصافه بما في حيز الصلةِ من الكفر والتكذيب وفيه إشعارٌ بتميزهم بذلك الوصف تميزًا مصحِّحًا للإشارة الحسية، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم فيه وهو مبتدأ، وقوله عز وجل: ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي ملازموها وملابسوها بحيث لا يفارقونها خبره، والجملة خبرٌ للموصول أو اسمُ الإشارةِ بدل من الموصول، أو عطفُ بيان له، وأصحاب النار خبرٌ له.

وقوله تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ في حيز النصب على الحالية لورود التصريح به في قوله تعالى: ﴿أصحاب النار خالدين فيها﴾ [التغابن، الآية ١٠] وقد جُوِّز كونُه حالًا من النار لاشتماله على ضميرها، والعامل معنى الإضافة أو اللامُ المقدرة أو في

---

(١) هو: أبو أمامة زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني، شاعر جاهلي، من الطبقة الأولى، وكان حظيا عند النعمان بن المنذر، وكان أحسن شعراء العرب ديباجة، وعاش عمرا طويلا وتوفي نحو سنة ثمان عشرة ق.هـ.
ينظر: الشعر والشعراء (٣٨)، وخزانة الأدب (١/ ٢٨٧)، والأعلام (٣/ ٥٤، ٥٥).

(٢) البيت للنابغة الذبياني في ديوانه ص (٣١)، وخزانة الأدب (٢/ ٤٥٣)، وشرح أبيات سيبويه (١/ ٤٤٧)، والصاحبي في فقه اللغة ص (١١٣)، والكتاب (٢/ ٨٦)، ولسان العرب (عشر)، والمقاصد النحوية (٣/ ٤٠٦، ٤/ ٤٨٢)، وبلا نسبة في أوضح المسالك (٤/ ٢٦١)، وشرح التصريح (٢/ ٢٧٦)، وشرح شواهد الشافية ص(١٠٨)، والمقتضب (٤/ ٣٢٢)، والمقرب (١/ ١٤٧)، وتاج العروس (لوم).

(٣) البيت لبرج بن مسهر الطائي في لسان العرب (أيا)، ومقاييس اللغة (١/ ١٦٩)، وتاج العروس (أيي)، وللبرجمي في لسان العرب (قفف)، وتاج العروس (٢٤/ ٢٨١) (قفف).

محل الرفع على أنه خبر آخرُ لـ (أولئك) على رأي من جوّز وقوع الجملة خبرًا ثانيًا، و(فيها) متعلق بـ (خالدون) والخلودُ في الأصل المكثُ الطويلُ وقد انعقد الإجماع على أن المراد به الدوام.

يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٤٩﴾ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٥٩﴾

## [الحديث عن كفر بني إسرائيل]

﴿يا بَنِي إسرائيلَ﴾ تلوينٌ للخطاب وتوجيهٌ له إلى طائفة خاصةٍ من الكَفَرة المعاصِرين للنبي ﷺ لتذكيرهم بفنون النعم الفائضة عليهم بعد توجيهه إلى رسول الله ﷺ، وأمرِه بتذكير كلهم بالنعمة العامة لبني آدم قاطبة بقوله تعالى: ﴿وإذ قال ربك﴾ [البقرة، الآية ٣٠] إلخ ﴿وإذ قلنا للملائكة﴾ [البقرة، الآية ٣٤] إلخ لأن المعنى كما أشير إليه: بلّغهم كلامي واذكر لهم إذ جعلنا أباهم خليفةً في الأرض

ومسجودًا للملائكة عليهم السلام وشرفناه بتعليم الأسماءِ وقبِلْنا توبتَه.

والابنُ من البِناء؛ لأنه مَبْنَى أبيه ولذلك ينسب المصنوع إلى صانعه، فيقال: أبو الحرب وبنتُ فكرٍ.

و(إسرائيلُ) لقبُ (يعقوبَ) عليه السلام ومعناه بالعبرية صفوةُ الله، وقيل: عبد اللَّه.

وقرئ (إسرائِلَ)[١] بحذف الياء، و(إسرالَ)[٢] بحذفهما، و(إسرايل)[٣] بقلب الهمزة ياء، و(إسراءَلَ)[٤] بهمزة مفتوحة، و(إسرئِلَ) بهمزة مكسورة بين الراء واللام، وتخصيصُ هذه الطائفة بالذكر والتذكير لما أنهم أوفرُ الناس نعمةً وأكثرهم كفرًا بها.

﴿اذكُرُوا نِعْمَتِيَ التي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ بالتفكر فيها والقيام بشكرها، وفيه إشعار بأنهم قد نسُوها بالكلية، ولم يُخطروها بالبال لا أنهم أهملوا شكرها فقط، وإضافةُ النعمة إلى ضمير الجلالة لتشريفها وإيجابِ تخصيصِ شكرها به تعالى، وتقييد النعمة بهم لما أن الإنسان مجبولٌ على حب النعمة، فإذا نظرَ إلى ما فاض عليه من النعم حملَه ذلك على الرضىٰ والشُكر.

قيل: أريد بها ما أنعم به على آبائهم من النعم التي سيجيء تفصيلُها وعليهم من فنون النعم التي أجلُّها إدراكُ عصر النبي عليه السلام.

وقرئ (اذَّكِروا) من الافتعال، ونعمتيْ بإسكان الياء وإسقاطها في الدرْج وهو مذهبُ من لا يحرك الياءَ المكسورَ ما قبلها.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ بالإيمان والطاعة.

﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ بحسن الإثابة، والعهد يضاف إلى كل واحد ممن يتولىٰ طرفيه، ولعل الأولَ مضافٌ إلى الفاعل والثاني إلى المفعول، فإنه تعالى عَهِد إليهم بالإيمان

---

(١) قرأ بها: ورش، والأخفش.
ينظر: البحر المحيط (١/ ١٧١)، وتفسير القرطبي (١/ ٣٣١)، والكشاف للزمخشري (١/ ٦٥)، والمجمع للطبرسي (١/ ٩٢).

(٢) قرأ بها: نافع، وخارجة، والأخفش، وقطرب.
ينظر: البحر المحيط (١/ ١٧١، ١٧٢)، والتبيان للطوسي (١/ ١٨٠)، والمجمع للطبرسي (١/ ٩٢).

(٣) قرأ بها: حمزة، وأبو جعفر، وإلياس، والمطوعي، والحسن، والزهري، والأعمش، والأزرق.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٣٥)، والتبيان للطوسي (١/ ١٨١)، وتفسير القرطبي (١/ ٣٣١)، والمجمع للطبرسي (١/ ٩٢).

(٤) ينظر: تفسير القرطبي (١/ ٣٣١).

والعملِ الصالحِ بنصب الدلائلِ وإرسال الرسل وإنزال الكتب ووعدهم بالثواب على حسناتهم.

وللوفاء بهما عَرْضٌ عريض، فأولُ مراتبه منا هو الإتيانُ بكلمتي الشهادة، ومن الله تعالى حقنُ الدماء والأموال، وآخرُها منا الاستغراقُ في بحر التوحيد بحيث نغفُل عن أنفسنا فضلًا عن غيرنا، ومن الله تعالى الفوزُ باللقاء الدائم، وأما ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أوفوا بعهدي في اتباع محمد ﷺ أوفِ بعهدكم في رفع الآصارِ والأغلال[١]. وعن غيره: أوفوا بأداء الفرائض وترك الكبائر أوفِ بالمغفرة والثواب[٢]، أو أوفوا بالاستقامة على الطريق المستقيم أوفِ بالكرامة والنعيم المقيم، فبالنظر إلى الوسائط، وقيل: كلاهما مضافٌ إلى المفعول، والمعنى: أوفوا بما عاهدتموني من الإيمان والتزام الطاعةِ أوفِ بما عاهدتُكم من حُسن الإثابةِ.

وتفصيلُ العهدين قوله تعالى: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل﴾ إلى قوله: ﴿ولأُدخِلَنكم جنات﴾ [آل عمران، الآية ١٩٥] الخ.

وقرئ[٣] (أوَفِّ) بالتشديد للمبالغة والتأكيد.

﴿وإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ فيما تأتون وما تذرون خصوصًا في نقض العهد، وهو آكد في إفادة التخصيصِ من (إياك نعبد)، لما فيه مع التقديم من تكرير المفعول والفاء الجزائية الدالةِ على تضمن الكلام معنى الشرط كأنه قيل: إن كنتم راهبين شيئًا فارهَبوني، والرهبة: خوف معه تحرز.

والآية متضمنة للوعد والوعيد ودالة على وجوب الشكر والوفاء بالعهد، وأن المؤمن ينبغي ألا يخاف إلا الله.

﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ﴾ أفرد الإيمانَ بالقرآن بالأمر به لما أنه العُمدةُ القصوى في شأن الوفاء بالعهود ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ من التوراة، والتعبير عنها بذلك للإيذان بعلمهم بتصديقه لها، فإن المعيةَ مِئنّةٌ لتكرر المراجعة إليها والوقوفِ على ما في تضاعيفها المؤدي إلى العلم بكونه مصدقًا لها ومعنى تصديقِه للتوراة: أنه نازلٌ حسبما نُعت فيها أو من حيث أنه موافقٌ لها في القصص والمواعيدِ والدعوة إلى التوحيد

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٢٥٠)، وفي إسناده محمد بن حميد الرازي وهو ضعيف.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٢٥٠)، عن ابن عباس أيضًا وسنده ضعيف أيضًا.

(٣) قرأ بها: الزهري.

ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ٢٠)، والبحر المحيط (١/ ١٧٥)، وتفسير القرطبي (١/ ٣٣٢)، والكشاف للزمخشري (١/ ٦٥)، والمحتسب لابن جني (١/ ٨١).

والعدلِ بين الناس والنهي عن المعاصي والفواحش:

وأما ما يتراءىٰ من مخالفته لها في بعض جزئياتِ الأحكام المتفاوتةِ بحسَب تفاوتِ الأعصارِ فليست بمخالفةٍ في الحقيقة، بل هي موافِقة لها من حيث إن كلا منها حقٌّ بالإضافة إلى عصره وزمانِه، متضمِّنٌ للحكم التي عليها يدور ذلك التشريع.

وليس في التوراة دلالة على أبدية أحكامِها المنسوخةِ حتى يخالفَها ما ينسخها، وإنما تدلُّ على مشروعيتها مطلقًا من غير تعرُّضٍ لبقائها وزوالها، بل نقول هي ناطقةٌ بنسخ تلك الأحكام، فإن نُطقها بصحة القرآن الناسخِ لها نطقٌ بنسخها، فإذن مناطُ المخالفة في الأحكام المنسوخةِ إنما هو اختلافُ العصر حتى لو تأخَّر نزولُ المتقدّم لنزلَ على وَفْق المتأخِّر ولو تقدم نزولُ المتأخر لوافق المتقدّمَ قطعًا، ولذلك قال عليه السلام: «لو كان موسى حيًا لما وسِعه إلا اتّباعي»[1].

وتقييدُ المُنْزَلِ بكونه مصدقًا لما معهم لتأكيد وجوبِ الامتثالِ بالأمر فإن إيمانهم بما معهم مما يقتضي الإيمانَ بما يصدِّقه قطعًا.

﴿وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ أي لا تسارعوا إلى الكفر به، فإن وظيفتكم أن تكونوا أولَ من آمن به لما أنكم تعرِفون شأنَه وحقِّيتَه بطريق التلقي مما معكم من الكتُب الإلهيةِ كما تعرِفون أبناءكم، وقد كنتم تستفتِحون به وتبشِّرون بزمانه كما سيجيء، فلا تضعوا موضعَ ما يُتوقّع منكم ويجب عليكم ما لا يُتوهم صدورُه عنكم من كونكم أولَ كافر به، ووقوع أول كافر به خبرًا من ضمير الجمع بتأويل أولِ فريق أو فوج، أو بتأويل لا يكنْ كلُّ واحد منكم أولَ كافر به، كقولك: كسانا حُلةً.

ونهيُهم عن التقدم في الكفر به مع أن مشركي العربِ أقدمُ منهم لما أن المرادَ به التعريضُ لا الدلالةُ على ما نَطَق به الظاهر، كقولك: أما أنا فلستُ بجاهل، لأن المراد نهيُهم عن كونهم أولَ كافر [به] من أهل الكتاب، أو ممن كفر بما عنده، فإن مَنْ كفر بالقرآن فقد كفر بما يصدِّقه أو مثلُ من كفر من مشركي مكةَ، و(أول): أفعلُ لا فِعلَ له، وقيل: أصله أوْأَل، من وَأَل إليه إذا نجا وخلُص، فأُبدلت الهمزةُ واوًا تخفيفًا غيرَ قياسي، أو أأْوَل من آلَ فقلبت همزتُه واوًا وأدغمت.

﴿وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتي﴾ أي لا تأخذوا لأنفسكم بدلًا منها ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ من الحظوظ الدنيوية، فإنها وإن جلت قليلةٌ مسترذلة بالنسبة إلى ما فات عنهم من حظوظ الآخرةِ بترك الإيمان.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٨٧)، وابن أبي شيبة (٥/ ٣١٢) من طريق مجالد عن الشعبي عن جابر بن عبدالله.

قيل: كانت لهم رياسةٌ في قومهم ورسومٌ وعطايا فخافوا عليها لو اتبعوا رسول الله ﷺ فاختاروها على الإيمان، وإنما عُبِّر عن المشتري الذي هو العُمدة في عقود المعاوضة والمقصودُ فيها بالثمن الذي شأنه أن يكون وسيلةً فيها، وقُرنت الآياتُ التي حقُّها أن يتنافسَ فيها المتنافسون بالباء التي تصحَبُ الوسائل إيذانًا بتعكيسهم حيث جعلوا ما هو المقصِدُ الأصليُّ وسيلةً، والوسيلةُ مقصدًا.

﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ بالإيمان واتباعِ الحقِ والإعراض عن حطام الدنيا ولما كانت الآية السابقةُ مشتملةً على ما هو كالمَبادئ لما في الآية الثانيةِ فُصِّلت بالرهبة التي هي من مقدِّمات التقوى، أو لأن الخطابَ بها لما عمَّ العالِمَ والمقلِّدَ أُمر فيها بالرهبة المتناولةِ للفريقين، وأما الخطابُ بالثانية فحيث خُصَّ بالعلماء أمر فيها بالتقوى الذي هو المنتهى.

﴿وَلاَ تَلْبِسُوا الحَقَّ بِالبَاطِلِ﴾ عطفٌ على ما قبله واللَّبْسُ الخَلْطُ، وقد يلزمه الاشتباهُ من المختلطين، والمعنى لا تخلِطوا الحقَّ المُنْزَلَ بالباطل الذي تخترعونه وتكتُبونه حتى يشتبِهَ أحدُهما بالآخر، أو لا تجعلوا الحقَّ ملتبسًا بسبب الباطل الذي تكتُبونه في تضاعيفه، أو تذكُرونه في تأويله.

﴿وَتَكْتُمُوا الحَقَّ﴾ مجزوم داخلٌ تحت حكمِ النهي كأنهم أُمروا بالإيمان وتركِ الضلال، ونُهوا عن الإضلال بالتلبيس على من سمع الحقَ والإخفاءِ عمن لم يسمعه.

أو منصوبٌ بإضمار (أن) على أن الواوَ للجمع، أي لاتجمعوا بين لَبْس الحقِّ بالباطل وبين كتمانِه، ويعضُده أنه في مُصحف ابن مسعود و(تكتُمون) أي وأنتم تكتمون أي كاتمين، وفيه إشعارٌ بأن استقباحَ اللَبسِ لما يصحبُه من كتمان الحق.

وتكريرُ الحق إما لأن المرادَ بالأخير ليس عينَ الأول بل هو نعتُ النبي ﷺ الذي كتَموه وكتبوا مكانه غيرَه كما سيجيء في قوله تعالى: ﴿فويل للذين يكتبون الكتابَ بأيديهم﴾ [البقرة، الآية ٧٩] وإما لزيادةِ تقبيحِ المنهيِّ عنه، إذ في التصريح باسمِ الحق ما ليس في ضميره.

﴿وَأَنْتُم تَعْلَمُونَ﴾ أي حال كونِكم عالمين بأنكم لابسون كاتمون، أو أنتم تعلمون أنه حق أو أنتم من أهل العلم.

وليس إيرادُ الحالِ لتقييد النهي به كما في قوله تعالى: ﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ [النساء، الآية ٤٣] بل لزيادة تقبيحِ حالهم، إذ لجاهل عسى يُعذر.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ أي صلاةَ المسلمين وزكاتَهم فإن غيرَهما بمعزلٍ

من كونه صلاةً وزكاةً، أمرهم الله تعالى بفروعِ الإسلام بعد الأمرِ بأصوله.

﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أي في جماعتهم فإن صلاةَ الجماعةِ تفضُل صلاة الفذ[١] بسبعٍ وعشرين درجة، لما فيها من تظاهُر النفوسِ في المناجاة.

وعُبِّر عن الصلاة بالركوع احترازًا عن صلاة اليهود.

وقيل: الركوعُ والخضوعُ والانقيادُ لما يُلزِمُهم الشارعُ.

قال الأضبطُ بنُ قُريع السعدي[٢]: [المنسرح]

لا تحقِرَنّ الضعيفَ عَلَّك أنْ ... تركَعَ يومًا والدهرُ قد رَفَعَهْ[٣]

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ﴾ تجريدٌ للخطاب وتوجيهٌ له إلى بعضهم بعد توجيهِه إلى الكل والهمزةُ فيها تقريرٌ مع توبيخٍ وتعجيبٍ.

والبِرُّ: التوسُّعُ في الخير من البَرّ الذي هو الفضاءُ الواسعُ يتناول جميعَ أصنافِ الخيرات، ولذلك قيل البر ثلاثة: بِرٌّ في عبادة الله تعالى، وبِرٌّ في مراعاة الأقارب، وبِرٌّ في معاملة الأجانب.

﴿وَتَنْسُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي تتركونها من البر كالمَنْسيات عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلتْ في أحبارِ المدينة كانوا يأمُرون سرًا من نصَحُوه باتباع النبي ﷺ ولا

---

(١) الفذُّ هنا بمعنى الفرد والواحد، وقد فذ الرجل عن أصحابه إذا شذ عنهم ويبقى فردا.

(٢) هو: الأضبط بن قريع بن عوف بن كعب السعدي التميمي: شاعر جاهلي قديم، أساء قومه إليه فانتقل عنهم إلى آخرين ففعلوا كالأولين فقال: بكل واد بنو سعد يعني قومه، وهو صاحب الأبيات التي منها:

واقنع من الدهر ما أتاك به ... من قر عينا بعيشه نفعه

وصل حبال البعيد إن وصل الـ ... حبل وأقص القريب إن قطعه

تنظر ترجمته فى: سمط اللآلي (٣٢٦)، والشعر والشعراء (١٤٣) والأعلام (١/ ٣٣٤).

(٣) البيت له في: الأغاني (١٨/ ٦٨)، والحماسة الشجرية (١/ ٤٧٤)، وخزانة الأدب (١١/ ٤٥٠، ٤٥٢)، والدرر (٢/ ١٦٤)، (٥/ ١٧٣)، وشرح التصريح (٢/ ٢٠٨)، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ١١٥١، وشرح شواهد الشافية ص (١٦٠)، وشرح شواهد المغني ص (٤٥٣)، والشعر والشعراء (١/ ٣٩٠)، والمعاني الكبير ص (٤٩٥)، والمقاصد النحوية (٤/ ٣٣٤)، وتاج العروس (٢١/ ١٢٢) (ركع)، وبلا نسبة في الإنصاف (١/ ٢٢١)، وأوضح المسالك (٤/ ١١١)، وجواهر الأدب ص (٥٧)، (١٤٦)، ورصف المباني ص (٢٤٩)، (٣٧٣)، (٣٧٤)، وشرح الأشموني (٢/ ٥٠٤)، وشرح شافية ابن الحاجب (٢/ ٣٢)، وشرح ابن عقيل ص (٥٥٠)، وشرح المفصل (٩/ ٤٣، ٤٤)، ولسان العرب (٦/ ١٨٤) (قنس)، (٨/ ١٣٣) (ركع)، (١٣/ ٤٣٨) (هون)، واللمع ص (٢٧٨)، ومغني اللبيب (١/ ١٥٥)، والمقرب (٢/ ١٨)، وهمع الهوامع (١/ ١٣٤)، (٢/ ٧٩)، وتاج العروس (هون) ويروى «ولا تهين الفقير» بدل «لا تحقرن الضعيف».

يتبعونه طمعًا في الهدايا والصِلاتِ التي كانت تصلُ إليهم من أتباعهم[(١)].

وقيل: كانوا يأمُرون بالصدقة ولا يتصدقون.

وقال السدي: إنهم كانوا يأمرون الناسَ بطاعة الله تعالى وينهَوْنَهم عن معصيته وهم يتركون الطاعة ويُقْدِمون على المعصية[(٢)].

وقال ابن جريج[(٣)]: كانوا يأمرون الناسَ بالصلاة والزكاة، وهم يتركونهما[(٤)].

ومدارُ الإنكارِ والتوبيخِ هي الجملةُ المعطوفة دون ما عُطفت هي عليه.

﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ﴾ تبكيتٌ لهم وتقريعٌ كقوله تعالى: ﴿وأنتم تعلمون﴾ [البقرة، الآية ٤٢] أي والحالُ أنكم تتلون التوراةَ الناطقةَ بنعوته ﷺ الآمرةِ بالإيمان به أو بالوعد بفعل الخيرِ والوعيدِ على الفسادِ والعنادِ وتركِ البِر ومخالفةِ القولِ العملَ.

﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ أي أتتلونه فلا تعقِلون ما فيه، أو قبحَ ما تصنعون حتى ترتدعوا عنه، فالإنكارُ متوجِّهٌ إلى عدم العقل بعد تحققِ ما يوجبه فالمبالغة من حيث الكيفُ، أو: ألا تتأملون فلا تعقلون، فالإنكارُ متوجِّه إلى كلا الأمرين، والمبالغةُ حينئذ من حيث الكم، والعقلُ في الأصل: المنعُ والإمساك، ومنه العِقالُ الذي يُشدُّ به وظيفُ[(٥)] البعير إلى ذراعه لحبسِه عن الحراك. سُمّي به النورُ الروحاني الذي به تُدرِك

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٢٩٦) بنحوه.
وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ١٢٦) بهذا اللفظ.
وعزاه للثعلبي والواحدي.

(٢) أخرجه الطبري في التفسير (١/ ٢٩٦) رقم (٨٤٢).

(٣) هو: عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الأموي مولاهم، أبو الوليد، وأبو خالد، المكي، أصله رومي، قال عبد الله بن أحمد: قلت لأبي: من أول من صنف الكتب؟ قال: ابن جريج، وقال عطاء: سيد شباب أهل الحجاز ابن جريج، وقال سليمان بن النضر عن مخلد بن الحسين: ما رأيت أصدق لهجة من ابن جريج، وقال أحمد عن عبد الرزاق: ما رأيت أحسن صلاة من ابن جريج، قال عمرو بن علي: مات سنة تسع وأربعين ومائة، وقال القطان وغيره: مات سنة خمسين ومائة.
ينظر: تهذيب الكمال (١٨/ ٣٣٨)، تقريب التهذيب (١/ ٥٢٠)، خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٢/ ١٧٨).

(٤) أخرجه الطبري في التفسير (١/ ٢٩٦) رقم (٨٤٤).

(٥) وظيف البعير: أي خفُّه وهو له كالحافر من الفرس والوظيف لكل ذي أربع: ما فوق الرسغ إلى مفصل الساق وقال ابن الأعرابي: الوظيف في رسغي البعير إلى ركبتيه في يديه وأما في رجليه فمن رسغيه إلى عرقوبيه والجمع أوظفة ووظف وقال الجوهري: الوظيف مستدق الذراع والساق من الخيل والإبل ونحوهما.

النفسُ العلومَ الضرورية والنظريةَ لأنه يحبِسُه عن تعاطي ما يقبُح ويعقِله على ما يحسُن.

والآية كما ترى ناعيةٌ على كل من يعِظُ غيرَه ولا يتعظ بسوء صنيعِه وعدمِ تأثره وإن فِعْلَه فعلُ الجاهلِ بالشرع أو الأحمق الخالي عن العقل، والمرادُ بها كما أشير إليه حثُّه على تزكية النفس والإقبالُ عليها بالتكميل لتقوم بالحقِّ فتقيمَ غيرَها، لا منعُ الفاسق عن الوعظ.

يروى أنه كان عالم من العلماء مؤثِّرُ الكلام قويُّ التصرف في القلوب، وكان كثيرًا ما يموتُ من أهل مجلسه واحدٌ أو اثنان من شدة تأثير وعظِه، وكان في بلده عجوزٌ لها ابنٌ صالحٌ رقيقُ القلب سريعُ الانفعال وكانت تحترز عليه وتمنعُه من حضور مجلس الواعظِ فحضَره يومًا على حين غفلةٍ منها فوقع من أمر الله تعالى ما وقع ثم إن العجوز لقِيت الواعظَ يومًا في الطريق فقالت:

لِتهدي الأنام ولا تهتدي ... ألا إنّ ذلك لا ينفعُ
فيا حَجَرَ الشَّحْذ حتى متى ... تسُنُّ الحديدَ ولا تقطع؟[1]

فلما سمعه الواعظ شهَق شهقةً، فخرَّ عن فرسه مغشيا عليه فحمَلوه إلى بيته فتُوفِّي إلى رحمة الله سبحانه.

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ متصلٌ بما قبله كأنهم لما كُلفوا ما فيه من مشقةٌ من ترك الرياسةِ والإعراضِ عن المال عولجوا بذلك.

والمعنى: استعينوا على حوائجكم بانتظار النُّجْحِ والفرَج توكلًا على الله تعالى أو بالصوم الذي هو الصبرُ عن المفطِرات لما فيه من كسر الشهوةِ وتصفيةِ النفس والتوسل بالصلاة والالتجاءِ إليها فإنها جامعةٌ لأنواع العبادات النفسانية والبدنية: من الطهارة[2] وسترِ العورة وصرفِ المال فيهما والتوجهِ إلى الكعبة والعكوفِ على العبادة

---

(١) ينظر: تاريخ الإسلام (٣٦/ ١٢١)، والنجوم الزاهرة (٥/ ٢٥٥)، ووفيات الأعيان (٥/ ٥٤).

(٢) «الطهارة»: هي في اللغة: النزاهة والنظافة عن الأقذار، يقال: طهرت المرأة من الحيض، والرجل من الذنوب، بفتح الهاء وضمها وكسرها.
والطهر نقيض الحيض، والطهر نقيض النجاسة، ويقال: المرأة طاهر من الحيض، وطاهرة من النجاسة. والطهور بالضم التطهُّر، وبالفتح: الماء الذي يُتَطَهّر به، هذا رأي جمهور أهل اللغة، كما قال في السُّحور والسَّحور، والوُضوء والوَضوء، بالضم يطلق على الفعل، وبالفتح يطلق على ما يُتَسَحَّرُ به، وعلى الماء الذي يُتَوَضَّأُ به.
وقال سيبويه: الطهور بالفتح يقع على الماء والمصدر معاً. =

وإظهارِ الخشوعِ بالجوارحِ وإخلاصِ النية بالقلب ومجاهدةِ الشيطان ومناجاة الحقِّ وقراءةِ القرآنِ والتكلمِ بالشهادة وكفِّ النفسِ عن الأطيبَيْنِ[١] حتى تجابوا إلى تحصيل المآرب وجبر المصائب.

روي أنه عليه السلام كان إذا حَزَبَه أمرٌ فزِعَ إلى الصلاة[٢]. ويجوز أن يُرادَ بها الدعاء.

﴿وَإِنَّهَا﴾ أي الاستعانةَ بهما أو الصلاة وتخصيصَها بردِّ الضمير إليها لعِظم شأنِها واشتمالِها على ضروبٍ من الصبر كما في قوله تعالى: ﴿وإذا رأوا تجارة أو لهوًا انفضّوا إليها﴾ [الجمعة، الآية ١١] أو جُملةِ ما أُمروا بها ونُهوا عنها.

﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ لثقيلة شاقةٌ كقوله تعالى: ﴿كبُرَ على المشركين ما تدعوهم إليه﴾ [الشورى، الآية ١٣].

﴿إِلاَّ عَلَى الخَاشِعِينَ﴾ الخشوعُ: الإخباتُ ومنه الخشْعةُ للرملة المتطامنةِ والخضوعُ اللين والانقيادُ ولذلك يقال: الخشوعُ بالجوارح والخضوعُ بالقلب وإنما لم تثقُلْ عليهم لأنهم يتوقعون ما أُعد لهم بمقابلتها فتهونُ عليهم ولأنهم يستغرقون في

---

= والمِطْهرة: الإناء الذي يُتطهرُ منه، والمِطْهَرَةُ: البيت الذي يتطهر فيه. ينظر لسان العرب (٤/ ٢٧١٢)، ترتيب القاموس (٣/ ١٠٣، ١٠٤) المعجم الوسيط: (٢/ ٥٧٤).

واصطلاحاً:

عرفها الحنفية بأنها: النظافة المخصوصة المتنوعة إلى وضوء وغسل وتيمّم، وغسل البدن والثوب ونحوه.

وعند الشافعية: إزالة حدثٍ، أو نجسٍ، أو ما في معناهما، وعلى صورتهما، وقيل أيضاً: فعل ما يترتب عليه إباحة الصلاة، ولو من بعض الوجوه، أو ما فيه ثواب مجرد.

وعند المالكية: صفة حكمية توجب لموصوفها جواز استباحة الصلاة به أو فيه، أو له.

وعند الحنابلة: رفع ما يمنع الصلاة، وما في معناها من حدثٍ، أو نجاسة بالماء، أو رفع حكمه بالتراب.

ينظر: الدرر (١/ ٦)، فتح الوهاب: (١/ ٣)، شرح المهذب: (١/ ١٢٣)، الإقناع بحاشية البيجرمي: (١/ ٥٨- ٥٩)، حاشية الباجوري (١/ ٢٥)، حاشية الدسوقي: (١/ ٣٠- ٣١) الكليات لأبي البقاء ص (٢٣٤).

(١) الأطيبان: الطعام والنكاح وقيل هما الفم والفرج. ويقال: ذهب أطيباه: أي اسمه ونكاحه. وقيل: هما النوم والنكاح.

(٢) أخرجه أبو داود (١/ ٤٢٠) كتاب الصلاة، باب وقت قيام النبي ﷺ من الليل حديث (١٣١٩)، وأحمد (٥/ ٣٨٨)، والبغوي في شرح السنة (٢/ ٥٢٦) رقم (١٠١١)، وابن جرير في التفسير (٢/ ١٢) رقم (٨٥٠)، وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٤٥٣) باب إرسال حذيفة بن اليمان إلى عسكر المشركين.

مناجاة ربِّهم فلا يُدركون ما يجري عليهم من المشاقِّ والمتاعبِ، ولذلك قال عليه السلام: «و[جُعِلَ] قُرَّةُ عيني في الصَّلاة»[١].

والجملةُ حاليةٌ أو اعتراضٌ تذييلي.

﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ أي يتوقعون لقاءَه تعالى ونيلَ ما عنده من المثوبات، والتعرضُ لعنوان الربوبية مع الإضافة إليهم للإيذان بفيضَان إحسانِه إليهم أو يتيقنون أنهم يُحشرون إليه للجزاءِ فيعمَلون على حسب ذلك رغبةً ورهبة، وأما الذين لا يوقنون بالجزاء ولا يرجُون الثوابَ ولا يخافون العقابَ كانت عليهم مشقةً خالصةً فتَثْقُلُ عليهم، كالمنافقين والمرائين، فالتعرُضُ للعنوان المذكور للإشعار بعلِّية الربوبيةِ والمالكيةِ للحُكْم، ويؤيده أن في مصحفِ ابنِ مسعود[٢] رضي الله عنه (يعلمون) وكأن الظنَّ لما شابه العلم في الرُّجحان أطلق عليه لتضمين معنى التوقع قال: [الطويل]

فأرسلْتُه مستيقِنَ الظنِّ إنه مخالطُ ما بين الشراسيفِ جائفُ[٣]

وجعل خبر (إن) في الموضعين اسمًا للدلالة على تحقق اللقاء والرجوعِ وتقرُّرِهما عندهم.

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ التي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ كُرر التذكيرُ للتأكيد ولربط ما بعده من الوعيد الشديدِ به.

﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ﴾ عطفٌ على (نعمتيَ) عطفَ الخاصِّ على العامِّ لكماله أي فضلتُ آباءَكم.

﴿عَلَى العَالَمِينَ﴾ أي عالَمِي زمانِهم بما منحتُهم من العلم والإيمانِ والعملِ الصالحِ وجعلتُهم أنبياءَ وملوكًا مُقسِطين، وهم آباؤهم الذين كانوا في عصر موسى

---

(١) أخرجه النسائي (٧/ ٦١) كتاب عشرة النساء، باب حب النساء: من طريق ثابت عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «حبب إليّ من الدنيا: النساء، والطيب، وجعل قرة عيني في الصلاة...».
وأخرجه النسائي في السنن الكبرى (٥/ ٢٨٠) كتاب عشرة النساء، باب: حب النساء رقم (٨٨٨٧، ٨٨٨٨)، وأحمد (٣/ ١٢٨)، (١٩٩)، (٢٨٥)، والحاكم (٢/ ١٦٠)، وأبو يعلى في مسنده (٦/ ١٩٩) رقم (٣٤٨٢) وقال الحاكم: (صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه)، ووافقه الذهبي.

(٢) قرأ بها: عبد الله بن مسعود.
ينظر: الكشاف للزمخشري (١/ ٦٦).

(٣) البيت لأوس بن حجر في ديوانه، ص (٧٢)، واتفاق المباني وافتراق المعاني لسليمان بن بنين الدقيقي النحوي، ص (٢١٤).

عليه السلام وبعده قبل أن يغيّروا.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ أي حسابَ يومٍ أو عذابَ يوم.

﴿لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ أي لا تقضي عنها شيئًا من الحقوق فانتصابُ (شيئًا) على المفعولية أو شيئًا من الجزاء فيكون نصبُه على المصدرية.

وقرئ (لا تُجزي): أي لا تغني عنها فيتعين النصبُ على المصدرية، وإيرادُه منكرًا مع تنكير النفسِ للتعميم والإقناطِ الكليّ، والجملة صفةُ **(يومًا)** والعائد منها محذوف، أي: لا تَجْزي فيه ومن لم يجوِّز الحذفَ قال: اتُّسع فيه فحُذف الجارُّ وأُجرِيَ المجرورُ مُجرىٰ المفعولِ به ثم حُذِفَ كما حذف في قول من قال: [الوافر]

فما أدري أغَيَّرهم تناءٍ وطولُ العهدِ أم مالٌ أصابوا[1]

أي أصابوه.

﴿وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي من النفس الثانية العاصيةِ أو من الأولى.

و(الشفاعةُ) من الشفْع كأن المشفوعَ له كان فردًا فجعله الشفيعُ شفعًا، و(العدلُ) الفدية، وقيل: البدل، وأصله: التسوية سُمي به الفديةُ لأنها تساوي المَفْدِيَّ وتَجزي مَجزاه.

﴿وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ أي يُمنعون من عذاب الله عز وجل، والضميرُ لما دلت عليه النفسُ الثانية المنَكّرة الواقعةُ في سياق النفي من النفوس الكثيرة، والتذكيرُ لكونها عبارةً عن العبّاد والأَناسيِّ، والنصرةُ هاهنا أخصُّ من المعونة لاختصاصها بدفع الضرر وكأنه أريد بالآية نفيُ أن يَدفعَ العذابَ أحدٌ عن أحد من كل وجهٍ محتمل، فإنه إما أن يكون قهرًا أو لا والأول النُّصرة، والثاني: إما أن يكون مجّانًا أو لا، والأولُ الشفاعة والثاني إما أن يكونَ بأداء عينِ ما كان عليه وهو أن يجزيَ عنه أو بأداء غيرِه وهو أن يُعطيَ عنه عَدْلًا.

وقد تمسكت المعتزلةُ بهذه الآية على نفي الشفاعةِ لأهل الكبائرِ، والجوابُ أنها خاصة بالكفار للآيات الواردة في الشفاعة والأحاديثِ المرويةِ فيها ويؤيده أن الخطابَ معهم ولردهم عما كانوا عليه من اعتقاد أن آباءَهم الأنبياءَ يشفعون لهم.

---

(١) البيت للحارث بن كلدة في الأزهية ص(١٣٧)، وشرح أبيات سيبويه (١/ ٣٦٥)، والكتاب (١/ ٨٨)، ولجرير في المقاصد النحوية (٤/ ٦٠)، وليس في ديوانه. وهو بلا نسبة في الرد على النحاة ص (١٢١)، وشرح ابن عقيل ص (٤٧٦)، وشرح المفصل (٦/ ٨٩) والكتاب (١/ ١٣٠).

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ تذكيرٌ لتفاصيلِ ما أُجمل في قوله تعالى: ﴿نعمتيَ التي أنعمت عليكم﴾ [البقرة، الآية ٤٧] من فنون النعماء وصنوفِ الآلاءِ أي: واذكروا وقت تنجيتِنا إياكم أي آباءَكم فإن تنجيتَهم تنجيةٌ لأعقابهم.

وقرئ: (أنجيتُكم).

وأصلُ (آلٍ) أهْلٌ لأن تصغيره أُهيل وخص بالإضافة إلى أولي الأخطارِ كالأنبياء عليهم السلام والملوك.

و(فرعونُ) لقبٌ لمن ملك العمالقة ككسرى لملِك الفرسِ وقيصرَ لملك الروم وخاقانَ لملك التُرك.

ولعُتُوِّه اشتُق منه تفَرْعَنَ الرجلُ إذا عتا وتمرَّد، وكان فرعونُ موسى عليه السلام مُصعب بن ريانَ وقيل: ابنهُ وليدًا من بقايا عادٍ، وقيل: إنه كان عطّارًا أصفهانيًا ركبتْه الديونُ فأفلس فاضطُر إلى الخروج فلحِقَ بالشام فلم يتسنَّ له المقامُ به فدخل مصْرَ فرأى في ظاهره حِمْلًا من البطيخ بدرهم، وفي نفسه بِطِّيخةٌ بدرهم فقال في نفسه: إن تيسر لي أداءُ الدين[1]، فهذا طريقُه فخرج إلى السواد فاشترى حملًا بدرهم فتوجه به إلى السوق فكل من لقِيه من المكّاسين[2] أخذ منه بِطيخة فدخل البلد وما معه إلا بطيخةٌ فباعها بدرهم ومضىٰ لوجهه ورأى أهلَ البلد متروكين سُدى لا يتعاطىٰ أحدٌ سياستهم، وكان قد وقع بهم وباءٌ عظيمٌ فتوجه نحوَ المقابر فرأىٰ ميْتًا يُدفن فتعرَّض لأوليائه فقال: أنا أمينُ المقابرِ فلا أدعُكم تدفِنونه حتى تعطوني خمسةَ دراهمَ فدفعوها إليه ومضى لآخرَ وآخرَ حتى جمع في مقدار ثلاثة أشهرٍ مالًا عظيمًا ولم يُتعرضْ له أحد قطُّ إلى أن تعرَّض يومًا لأولياء ميتٍ فطلب منهم ما كان يطلب من غيرهم فأبَوْا ذلك فقالوا: من نصَّبك هذا المنصِبَ فذهبوا به إلى فرعون فقال: من أنت ومن أقامك بهذا المَقام؟ قال: لم يُقِمْني أحد وإنما فعلتُ ما فعلتُ ليُحضِرَني أحد إلى مجلسك فأُنبِّهَك على اختلال حال قومِك وقد جمعتُ بهذا الطريق هذا المقدارَ من المال فأحضَره ودفعه إلى فرعون فقال: ولِّني أمورَك ترَني أمينًا كافيًا فولاه إياها فسار بهم سيرةً حسنة فانتظمتْ مصالحُ العسكر واستقامت أحوالُ الرعية ولبث فيهم دهرًا طويلًا وتراميٰ أمرُه في العدل والصلاحِ فلما مات فرعون أقاموه مُقامه فكان من أمره

---

(١) في ط: الديون.

(٢) المكس: الجباية، والمكس أيضًا انتقاص الثمن في البياعة ومنه أخذ المكَّاس لأنه يستنقصه والمماكسة في البيع: انتقاص الثمن واستحطاطه والمنابذة بين المتبايعين.

ما كان وكان فرعونَ يوسفَ عليه السلام ريان وكان بينهما أكثرُ من أربعمائة سنة.

﴿يَسُومُونَكُم﴾ أي يبغونكم من سامه خسفًا إذا أولاه ظلمًا وأصله الذهاب في طلب الشيء.

﴿سُوءَ العَذَابِ﴾ أي أفظعَه وأقبحه بالنسبة إلى سائره و(السُوء) مصدرٌ من ساء يسوءُ ونصبُه على المفعولية لـ (يسومونكم)، والجملةُ حالٌ من الضمير في (نجّيناكم) أو من (آلِ فرعونَ) أو منهما جميعًا؛ لاشتمالها على ضميريهما.

﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ بيانٌ لـ (يسومونكم)؛ ولذلك تُرك العاطفُ بينهما.

وقرئ[1] (يَذْبحون) بالتخفيف، وإنما فعلوا بهم ما فعلوا لما أن فرعونَ رأىٰ في المنام أو أخبره الكهنةُ أنه سيولد منهم من يذهب بمُلكه فلم يردَّ اجتهادُهم من قضاء الله عز وجل شيئًا. قيل: قتلوا بتلك الطريقة تسعمائة ألف مولود وتسعين ألفًا وقد أعطى الله عز وجل نفس موسى عليه السلام من القوة على التصرف ما كان يعطيه أولئك المقتولين لو كانوا أحياء ولذلك كانت معجزاته ظاهرةً باهرة.

﴿وَفي ذَلِكُم﴾ إشارة إلى ما ذكر من التذبيح والاستحياء، أو إلى الإنجاء منه، وجمعُ الضمير للمخاطبين، فعلى الأول معنى قوله تعالى: ﴿بَلَاءٌ﴾ محنةٌ وبلية، وكونُ استحياءِ نسائهم أي استبقائهن على الحياة محنةً مع أنه عفو وتركٌ للعذاب لما أن ذلك كان للاستعمال في الأعمال الشاقة وعلى الثاني نعمةٌ.

وأصلُ البلاء الاختبار، ولكن لما كان ذلك في حقه سبحانه مُحالًا وكان ما يجري مَجرى الاختبارِ لعباده تارةً بالمحنة وأخرى بالمِنْحة أُطلق عليهما، وقيل: يجوز أن يُشارَ بـ (ذلكم) إلى الجملة ويرادَ بالبلاء القدرُ المشترك الشاملُ لهما.

﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ من جهته تعالى بتسليطهم عليكم أو ببعث موسى عليه السلام وبتوفيقه لتخليصكم منهم أو بهما معًا.

﴿عَظِيمٌ﴾ صفةٌ لـ (بلاءٌ) وتنكيرُهما للتفخيم، وفي الآية الكريمة تنبيهٌ على أن ما

---

(١) قرأ بها: الزهري، وابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ١٣٥، والإعراب للنحاس (١/ ١٧٣)، والإملاء للعكبري (١/ ٢١)، والبحر المحيط (١/ ١٩٣)، وتفسير القرطبي (١/ ٣٨٥)، والكشاف للزمخشري (١/ ٦٨)، والمجمع للطبرسي (١/ ١٠٤)، والمحتسب لابن جني (١/ ٨١).

يصيب العبدَ من السرَّاء والضراءِ من قبيل الاختبارِ فعليه الشكرُ في المسار والصبرُ على المضارِّ.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ بيان لسبب التنجيةِ وتصويرٌ لكيفيتها إثرَ تذكيرها وبيانُ عِظَمِها وهولِها، وقد بيّن في تضاعيف ذلك نعمة جليلة أخرى هي الإنجاءُ من الغرق، أي: واذكروا إذ فلقناه بسلوككم[١]، كقوله تعالى: ﴿تنبُت بالدهن﴾ [المؤمنون، الآية ٢٠] أو بسبب إنجائكم وفصَلْنا بين بعضِه وبعضٍ حتى حصلت مسالكُ.

وقرئ[٢] بالتشديد للتكثير لأن المسالك كانت اثني عشَرَ بعدد الأسباط ﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ﴾ أي من الغرق بإخراجكم إلى الساحل، كما يصرِّح[٣] به العدولُ إلى صيغة الأفعال بعد إيرادِ التخليصِ من فرعون بصيغة التفعيل وكذا قولُه تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ أريد فرعونُ وقومُه وإنما اقتُصر على ذكرهم للعلم بأنه أولى به منهم وقيل: شخصُه كما روُي أن الحسن رضي الله عنه كان يقول: اللهم صل على آل محمدٍ أي شخصِه واستُغني بذكره عن ذكر قومه.

﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرونَ﴾ ذلك أو غرقَهم وإطباقَ البحر عليهم أو انفلاقَ البحر عن طرق يابسةٍ مذللة أو جثَثهم التي قذفها البحرُ إلى الساحل أو ينظرُ بعضُكم بعضًا.

روي أنه تعالى أمر موسى عليه السلام أن يسريَ ببني إسرائيلَ فخرج بهم فصبحهم فرعونُ وجنودُه وصادفوهم على شاطئ البحر فأوحى الله تعالى إليه أن (اضرِبْ بعصاك البحر) فضربه بها فظهر فيها اثنا عشر طريقًا يابسًا فسلكوها فقالوا: نخاف أن يغرَقَ بعضُ أصحابنا فلا نعلم ففتح الله تعالى فيها كُوىً فتراءَوْا وتسامعوا حتى عبروا البحرَ فلما وصل إليه فرعونُ فرآه منفلقًا اقتحمه هو وجنودُه فغشِيَهم ما غشيهم. واعلم أن هذه الواقعة كما أنها لموسى معجزةٌ عظيمة تخِرُّ لها أُطُمُ[٤] الجبال ونعمةٌ عظيمة لأوائل بني إسرائيلَ موجبةٌ عليهم شكرَها كذلك اقتصاصُها على ما هي عليه من رسول الله ﷺ معجزةٌ جليلةٌ تطمئن بها القلوبُ الأبية وتنقاد لها النفوس الغبية موجبةً

---

(١) زاد في ط: أو منبابكم.

(٢) قرأ بها: الأخفش، والزهري.
ينظر: الإملاء للعكبري (١٧٣)، والبحر المحيط (١/ ١٩٧)، وتفسير القرطبي (١/ ٣٨٧)، والكشاف للزمخشري (١/ ٦٨)، والمجمع للطبرسي (١/ ١٠٦)، والمحتسب لابن جني (١/ ٨٢)، وتفسير الفخر الرازي (١/ ٣٤٨).

(٣) في ط: يلوح.

(٤) في ط: صم، والأطم: حصن مبني من الحجارة والجمع (القلة) آطام و(الكثير) أطوام وهي حصون لأهل المدينة وفي اليمن حصن يُعرف بأُطم الأضبط كان أنمار على أصل صنعاء وبنى بها أطمًا.
وفي حديث بلال: أنه كان يؤذن على أطم والأُطم بالضم بناء مرتفع وجمعه آطام.

لأعقابهم أن يتلقَّوْها بالإذعان فلا تأثرت أوائلُهم بمشاهدتها ورؤيتها ولا تذكرت أواخرُهم بتذكيرها وروايتها فيا لها من عصابة ما أعصاها وطائفةٍ ما أطغاها.

﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ لما عادوا إلى مصرَ بعد مهلك فرعونَ وعد الله موسى عليه السلام أن يعطيه التوراة وضرب لهم ميقاتًا ذا القَعْدة وعشرَ ذي الحِجة وقيل: وعد عليه السلام بني إسرائيلَ وهو بمصر إن أهلك الله عدوَّهم أتاهم بكتاب من عند الله تعالى فيه بيانُ ما يأتون وما يذرون فلما هلك فرعونُ سأل موسى ربه الكتاب فأمره بصوم ثلاثين وهو شهرُ ذي القعدة ثم زاد عشرًا من ذي الحجة وعبر عنها بالليالي لأنها غُررُ الشهور.

وصيغة المفاعلة بمعنى الثلاثي وقيل: على أصلها تنزيلًا لقبول موسى عليه السلام منزلةَ الوعدِ و(أربعين ليلةً) مفعول ثانٍ لـ (واعدنا) على حذف المضافِ، أي بمقام أربعين ليلةً.

وقرئ[(١)] (وعَدْنا).

﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ بتسويل السامري إلهًا ومعبودًا و(ثم) للتراخي الرتبي.

﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد مشْيِه إلى الميقات على حذف مضاف ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ بإشراككم ووضعِكم للشيء في غير موضعِه وهو حالٌ من ضمير (اتخذتم) أو اعتراضٌ تذييليّ، أي: وأنتم قومٌ عادتُكم الظلم.

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُم﴾ حين تبتم، والعفوُ محوُ الجريمة من عفاه درَسه وقد يجيء لازمًا قال: [الهزج]

عرفتُ المنزلَ الخالي عفا من بعد أحوالِ
عفاه كلُّ هتّانٍ كثيرِ الوَبْل هطّالِ[(٢)]

---

(١) قرأ بها: أبو عمرو، وعاصم الجحدري، وأبو جعفر، والحسن، وشيبة، وعيسى بن عمر، وقتادة، وعبد الله بن أبي إسحاق، وأبو حاتم، وأبو عبيد، ويعقوب، واليزيدي، وابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٣٥)، والإعراب للنحاس (١/ ١٧٣)، والإملاء للعكبري (١/ ٢١)، والبحر المحيط (١/ ١٩٩)، والتبيان للطوسي (١/ ٢١٠)، والتيسير للداني (٧٣)، وتفسير الطبري (٢/ ٥٩)، وتفسير القرطبي (١/ ٣٩٤)، والحجة لابن خالويه (٧٦، ٧٧)، والحجة لأبي زرعة (٩٦)، والسبعة لابن مجاهد (١٥٤)، والغيث للصفاقسي (١١٤)، والكشف للقيسي (١/ ٢٣٩-٢٤٠)، والمجمع للطبرسي (١/ ١٠٨)، وتفسير الفخر الرازي (١/ ٣٥٠)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢١٢).

(٢) البيتان للوليد بن يزيد في: دلائل الإعجاز (١/ ١٨٥)، والأغاني (٧/ ٤٠)، والإيضاح في علوم البلاغة (١/ ١٥٤).

وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي من بعد الاتخاذ الذي هو متناهٍ في القُبح للإيذان بكمال العفو بعد تلك المرتبة من الظلم.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لكي تشكروا نعمةَ العفو وتستمرّوا بعد ذلك على الطاعة.

﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الكِتَابَ وَالفُرْقَانَ﴾ أي التوراةَ الجامعةَ بين كونِها كتابًا وحُجةً تفرق بين الحق والباطلِ وقيل: أريد بـ (الفرقان) معجزاتُه الفارقةُ بين الحق والباطل[1] في الدعوى، أو بين الكفر والإيمان، وقيل: الشرعُ الفارقُ بين الحلالِ والحرام أو النصرُ الذي فرّق بينه وبين عدوِّه، كقوله تعالى: ﴿يوم الفُرقان﴾ [الأنفال، الآية ٤١] يريد به يومَ بدر.

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لكي تهتدوا بالتدبر فيه والعمل بما يحويه.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ بيانٌ لكيفية وقوعِ العفو المذكورِ.

﴿يا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ العِجْلَ﴾ أي معبودًا.

﴿فَتُوبُوا﴾ أي فاعزموا على التوبة.

﴿إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ أي إلى مَنْ خلقَكم بريئًا من العُيوب والنقصان والتفاوت وميّز بعضَكم من بعض بصور وهيئات مختلفة، وأصلُ التركيب الخلوصُ عن الغير إما بطريق التقصي كما في برِئ [المريضُ أو بطريق الإنشاء كما في (بَرَأَ الله آدم من الطين) والتعرض لعنوان البارئية للإشعار بأنهم بلغوا من الجهالة أقصاها][2] ومن الغواية منتهاها حيث تركوا عبادةَ العليمِ الحكيم الذي خلقهم بلطيف حكمتِه بريئًا من التفاوت والتنافرِ إلى عبادة البقر الذي هو مثلٌ في الغباوة، وأن من لم يعرِفْ حقوقَ مُنعِمِه حقيقٌ بأن تُستردّ هي منه ولذلك أُمروا بالقتل وفك التركيب.

﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُم﴾ تمامًا لتوبتكم بالبَخْع أو بقطع الشهوات، وقيل: أُمروا أن يقتُلَ بعضُهم بعضًا وقيل: أُمر من لم يعبد العجل بقتل مَنْ عَبَده.

يروى أن الرجلَ كان يرىٰ قريبَه فلم يقدِرْ على المُضِيِّ لأمر الله تعالى فأرسل الله ضَبابةً وسحابة سوداءَ لا يتباصَرون بها فأخذوا يقتتلون من الغداة إلى العشي حتى دعا موسى وهارونُ عليهما السلام، فكُشفت السحابةُ ونزلت التوبةُ وكانت القتلى سبعين ألفًا.

والفاء الأولى للتسبيب والثانية للتعقيب.

---

(١) في ط: المحق والمبطل.

(٢) سقط في ط.

﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما ذكر من التوب والقتل.

﴿خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بارِئِكُمْ﴾ لما أنه طُهرةٌ عن الشرك ووَصْلةٌ إلى الحياة الأبدية والبهجة السرمدية.

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ عطفٌ على محذوف على أنه خطابٌ منه سبحانه على نهج الالتفاتِ من التكلم الذي يقتضيه سياقُ النظم الكريم وسياقه فإن مبنىٰ الجميع على التكلم إلى الغَيْبة ليكون ذريعة إلى إسناد الفعلِ إلى ضمير بارئِكم المستتبع للإيذان بعلّية عنوانِ البارئية والخلق والإحياءِ لقبول التوبة التي هي عبارةٌ عن العفو عن القتل، تقديرُه فعلتم ما أمرتم به فتابَ عليكم بارئُكم وإنما لم يقل فتابَ عليهم على أن الضميرَ للقوم لما أن ذلك نعمةٌ أريد التذكيرُ بها للمخاطبين لا لأسلافهم.

هذا، وقد جوز أن يكون (فتاب عليكم) متعلقًا بمحذوفٍ على أنه من كلام موسى عليه السلام لقومه تقديرُه إن فعلتم ما أُمِرْتم به فقد تاب عليكم ولا يخفىٰ أنه بمعزلٍ من اللّياقة بجلالة شأنِ التنزيلِ، كيف لا وهو حينئذ حكايةٌ لوعد موسى عليه السلام قومَه بقَبول التوبةِ منه تعالى لا لقبوله تعالى حتمًا، وقد عرفتَ أن الآيَةَ الكريمةَ تفصيلٌ لكيفية القبول المحكيِّ فيما قبل وأن المراد تذكيرُ المخاطبين بتلك النعمة.

﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ تعليل لما قبله أي: الذي يُكثر توفيقَ المذنبين للتوبة ويبالِغُ في قبولها منهم وفي الإنعام عليهم.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ تذكيرٌ لنعمة أخرى عليهم بعد ما صدر عنهم ما صدر من الجناية العظيمةِ التي هي اتخاذُ العجل أي لن نؤمنَ لأجل قولِك ودعوتِك أو لن نُقرَّ لك، والمؤمَنُ به: إعطاءُ الله إياه التوراةَ أو تكليمَه إياه أو أنه نبيٌّ أو أنه تعالى جعل توبتَهم بقتلهم أنفسَهم.

﴿حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾ أي عيانًا وهي في الأصل مصدرُ قولِك جهَرتُ بالقراءة، استُعيرت للمعاينة لما بينهما من الاتحاد في الوضوح والانكشافِ، إلا أن الأولَ في المسموعات والثاني في المُبْصَرات ونصبُها على المصدرية لأنها نوع من الرؤية أو حالٌ من الفاعل أو المفعول.

وقرئ[١] بفتح الهاء على أنها مصدر كالغَلَبة أو جمعٌ كالكَتَبة فيكون حالًا من الفاعل لا غير.

---

(١) قرأ بها: ابن عباس، وسهل بن شعيب، وحميد بن قيس.
ينظر: البحر المحيط (١/ ٢١١)، وتفسير القرطبي (١/ ٤٠٤)، والكشاف للزمخشري (١/ ٧١)، والمحتسب لابن جني (١/ ٨٤).

والقائلون: هم السبعون المختارون لميقات التوبةِ عن عبادة العجل.

روُي أنهم لما ندِموا على ما فعلوا وقالوا: ﴿لئن لم يرحمنا ربنا ويغفرْ لنا لنكونن من الخاسرين﴾، أمر الله موسى عليه السلام أن يجمع سبعين رجلًا ويحضُرَ معهم الطورَ يُظهرون فيه تلك التوبةَ فلما خرجوا إلى الطور وقع عليه عمودٌ من الغمام وتغشاه كله فكلم الله موسى عليه السلام يأمره وينهاه، وكان كلما كلّمه تعالى أوقع على جبهته نورًا ساطعًا لا يستطيع أحدٌ من السبعين النظرَ إليه وسمِعوا كلامَه تعالى مع موسى عليه السلام افعل ولا تفعل فعند ذلك طمِعوا في الرؤية فقالوا ما قالوا كما سيأتي في سورة الأعراف إن شاء الله تعالى.

وقيل: عشرة آلاف من قومه.

﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ لفرط العنادِ والتعنّتِ وطلب المستحيل فإنهم ظنوا أنه سبحانه وتعالى مما يشبه الأجسامَ وتتعلق به الرؤيةُ تعلُّقَها بها على طريق المقابلة في الجهات والأحياز، ولا ريبَ في استحالته إنما الممكنُ في شأنه تعالى: الرؤيةُ المنزهة عن الكيفيات بالكلية وذلك للمؤمنين في الآخرة وللأفرادِ من الأنبياء الذين بلغوا من صفاء الجوهر إلى حيث تراهم كأنهم وهم في جلابيبَ من أبدانهم قد نَضَوْها وتجرّدوا عنها إلى عالم القدس في بعض الأحوال في الدنيا.

قيل: جاءت نارٌ من السماء فأحرقتهم، وقيل: صيحة وقيل: جنودٌ سمعوا بحسيسها فخرّوا صعِقين ميتين يومًا وليلة.

وعن وهْبٍ: أنهم لم يموتوا بل لما رأَوْا تلك الهيئة الهائلةَ أخذتهم الرعدةُ ورَجَفوا حتى كادت تبِينُ مفاصلُهم وتنقضُّ ظهورُهم وأشرفوا على الهلاك فعند ذلك بكىٰ موسى عليه السلام ودعا ربه فكشف الله عز وجل عنهم ذلك فرجعت إليهم عقولُهم ومشاعرُهم[1].

ولم تكن صعقةُ موسى عليه السلام موتًا بل غَشْيةً لقوله تعالى ﴿فلما أفاق﴾.

﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ أي ما أصابكم بنفسه أو بآثاره.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ بتلك الصاعقة، قيدُ البعث به، لما أنه قد يكون من الإغماء، وقد يكون من النوم كما في قوله تعالى: ﴿ثم بعثناهم لنعلم﴾ [الكهف، الآية ١٢] إلخ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي نعمةَ البعث، أو ما كفرتموه بما رأيتم من بأس الله تعالى.

---

(١) ذكره الثعلبي في تفسيره (٤/ ٢٨٩).

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُم الغَمَامَ﴾ أي جعلناها بحيث تُلقي عليكم ظلَّها، وذلك أنه تعالى سخَّر لهم السحابَ يسير بسيرهم وهم في التيه يُظلهم من الشمس وينزل بالليل عمودٌ من نار يسيرون في ضوئه وثيابُهم لا تتسخ ولا تَبْلى.

﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ المَنَّ والسَّلْوىٰ﴾ أي الترنجبين والسمانىٰ. وقيل: كان ينزل عليهم المنُّ مثلَ الثلج من الفجر إلى الطلوع لكل إنسانٍ صاعٌ، وتبعَثُ الجَنوبُ عليهم السمانىٰ فيذبح الرجلُ منه ما يكفيه.

﴿كُلُوا﴾ على إرادة القول أي: قائلين لهم أو قيل لهم: كلوا.

﴿مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ من مستلذاته، و(ما) موصولةً كانت أو موصوفةً عبارة عن المن والسلوى.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ كلامٌ عدَل بهم عن نهج الخطابِ السابقِ للإيذان باقتضاء جناياتِ المخاطبين للإعراض عنهم وتَعدادِ قبائحهم عند غيرهم على طريق المباثة معطوفٌ على مضمر قد حذف للإيجاز والإشعار بأنه أمر محقق غني عن التصريح به، أي: فظلموا بأن كفروا تلك النعمَ الجليلةَ، وما ظلمونا بذلك.

﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالكُفران إذ لا يتخطاهم ضررُه، وتقديمُ المفعول للدلالة على القصر الذي يقتضيه النفيُ السابقُ وفيه ضربُ تهكّم بهم، والجمعُ بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على تماديهم في الظلم واستمرارِهم على الكفر.

﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ تذكير لنعمة أخرى من جَنابه تعالى وكَفْرةٌ أخرى لأسلافهم، أي: واذكروا وقت قولِنا لآبائكم إثرَ ما أنقذناهم من التيه.

﴿ادْخُلُوا هَذِهِ القَرْيَةَ﴾ منصوبةٌ على الظرفية عند سيبويه وعلى المفعولية عند الأخفش، وهي بيتُ المقدِس وقيل: أريحا.

﴿فَكُلُوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُم رَغَدًا﴾ أي واسعًا هنيئًا ونصبُه على المصدرية أو الحالية من ضمير المخاطبين، وفيه دلالة على أن المأمورَ به الدخولُ على وجه الإقامة والسكنى، فيؤول إلى ما في سورة الأعراف من قوله تعالى: ﴿اسكنوا هذه القرية﴾ [الأعراف، الآية ١٦١].

﴿وَادْخُلُوا البَابَ﴾ أي بابَ القرية على ما رُوي من أنهم دخلوا أريحاءَ في زمن موسى عليه السلام كما سيجيء في سورة المائدة أو بابَ القبة التي كانوا يصلّون إليها فإنهم لم يدخلوا بيت المقدس في حياة موسى عليه السلام.

﴿سُجَّدًا﴾ أي متطامنين مُخْبتين أو ساجدين لله شكرًا على إخراجهم من التيه.

﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أي مسألتُنا، أو أمرُك حِطة، وهي فِعلة من الحط كالجِلسة.

وقرئ[١] بالنصب على الأصل بمعنى حُطَّ عنا ذنوبَنا حِطة أو على أنها مفعول (قولوا) أي: قولوا هذه الكلمة وقيل: معناها أمرُنا حِطة أي أن نحُطَّ رحالنا في هذه القرية ونقيمَ بها.

﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ لما تفعلون من السجود والدعاء.

وقرئ بالياء[٢] والتاء[٣] على البناء للمفعول.

وأصلُ (خطايا) خطايئ كخضايع فعند سيبويه أُبدلت الياءُ الزائدة همزة [لوقوعها بعد الألف واجتمعت همزتان وأُبدلت الثانية ياء، ثم قلبت ألفًا وكانت الهمزة][٤] بين ألفين فأُبدلت ياءً. وعند الخليل: قُدمت الهمزة على الياء ثم فُعل بها ما ذكر.

﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ ثوابًا جعل الامتثالَ توبةً للمسيءِ وسببًا لزيادة الثواب للمُحْسِنِ وأُخرج ذلك عن صورة الجواب إلى الوعد إيذانًا بأن المحسنَ بصدد ذلك وإن لم يفعله فكيف إذا فعله وأنه يفعله لا محالة.

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بما أُمروا به من التوبة والاستغفار بأن أعرضوا عنه وأوردوا مكانه.

﴿قَوْلًا﴾ آخرَ مما لا خيرَ فيه.

رُوي[٥] أنهم قالوا مكان حِطة: حِنْطة، وقيل: قالوا بالنَّبْطية: حِطًا سمقاسًا يعنون

---

(١) قرأ بها الأخفش، وابن أبي عبلة، وطاوس اليمني.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ١٧٨)، والإملاء للعكبري (١/ ٢٢)، وتفسير القرطبي (١/ ٤١٤)، والمعاني للأخفش (١/ ٩٦)، والمعاني للفراء (١/ ٣٨)، وتفسير الفخر الرازي (١/ ٣٥٠).

(٢) قرأ بها نافع، وأبو جعفر، والحسن، وقتادة، الجحدري، وأبو حيوة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٣٧)، والبحر المحيط (١/ ٢٢٣)، والتيسير للداني (٧٣)، وتفسير القرطبي (١/ ٤١٤)، والحجة لأبي زرعة (٩٨)، والسبعة لابن مجاهد (١٥٦)، والغيث للصفاقسي (١١٥)، والكشاف للزمخشري (١/ ٧١)، والكشف للقيسي (١/ ٢٤٢، ٣٤٣)، وتفسير الرازي (١/ ٣٦٠)

(٣) قرأ بها: ابن عامر، ومجاهد، والمفضل، وجبلة، والذماري، وشريح.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٣٧)، والإعراب للنحاس (١/ ١٨٠)، والبحر المحيط (١/ ٢٢٣)، والتيسير للداني (٧٣)، وتفسير القرطبي (١/ ٤١٤)، والحجة لأبي زرعة (٩٨)، والسبعة لابن مجاهد (١٥٦)، والغيث للصفاقسي (١١٥)، والكشاف للزمخشري (١/ ٧١)، والكشف للقيسي (١/ ٢٤٢، ٣٤٣)، وتفسير الرازي (١/ ٣٦٠).

(٤) سقط في ط.

(٥) أخرجه أحمد (٢/ ٣١٢)، والنسائي في السنن الكبرى (٦/ ٢٨٦) برقم (٨٠٩٥)، من حديث أبي =

حنطةً حمراءَ استخفافًا بأمر الله عز وجل.

﴿غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ نعتٌ لـ ﴿قولا﴾ وإنما صُرِّح به مع استحالة تحقُّق التبديلِ بلا مغايَرةٍ تحقيقًا لمخالفتهم وتنصيصًا على المغايرة من كلِّ وجه.

﴿فَأَنْزَلْنَا﴾ أي عقيب ذلك.

﴿عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بما ذكر من التبديل وإنما وُضِعَ الموصولُ موضع الضمير العائدِ إلى الموصول الأول للتعليل والمبالغةِ في الذم والتقريع، وللتصريح بأنهم بما فعلوا قد ظلموا أنفسَهم بتعريضها لسخط الله تعالى ﴿رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي عذابًا مقدّرًا منها، والتنوينُ للتهويل والتفخيم.

﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ بسبب فِسقهم المستمرِّ حسبما يفيدُه الجمعُ بين صيغتي الماضي والمستقبل.

وتعليلُ إنزال الرجزِ به بعد الإشعار بتعليله بظلمهم للإيذان بأن ذلك فسقٌ وخروجٌ عن الطاعة وغلوٌّ في الظلم وأن تعذيبَهم بجميع ما ارتكبوه من القبائح لا بعدم توبتهم فقط، كما يُشعِرُ به ترتيبُه على ذلك بالفاء.

و(الرِّجْزُ) في الأصل ما يُعاف عنه وكذلك الرجسُ.

وقرئ[1] بالضم، وهو لغة فيه والمراد به الطاعونُ، روي أنه مات به في ساعة واحدةٍ أربعةٌ وعشرون ألفًا.

﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا

---

= هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله عز وجل: ﴿ادخلوا الباب سجدا﴾ قال: ادخلوا زحفًا وقولوا: حطة قال: «فبدلوا فقالوا حنطة في شعرة».

(١) قرأ بها: ابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٣٧)، والإملاء للعكبري (١/ ٢٣)، والبحر المحيط (١/ ٢٢٥)، وتفسير القرطبي (١/ ٤١٧).

فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ تذكير لنعمةٍ أخرى كفروها وكان ذلك في التيه حين استولى عليهم العطشُ الشديد.

وتغييرُ الترتيب لما أشير إليه مرارًا من قصد إبرازِ كلٍّ من الأمور المعدودة في معرِض أمرٍ مستقلٍّ واجبِ التذكير والتذكرِ ولو رُوعي الترتيبُ الوقوعي لفُهم[1] أن الكلَّ أمرٌ واحد أُمر بذكره، و(اللام) متعلقة بالفعل أي استسقى لأجل قومه.

﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ رُوي أنه كان حَجَرا طوريا مكعبًا حمله معه وكان ينبُع من كل وجه منه ثلاثُ أعين تسيل كلُّ عين في جدول إلى سبط وكانوا ستمائة ألفٍ وسعةَ المعسكر اثنيْ عشَرَ ميلًا أو كان حجَرًا أهبطه الله تعالى مع آدمَ عليه السلام من الجنة ووقع إلى شعيب عليه السلام فأعطاه موسى عليه السلام مع العَصا أو كان هو الحجرَ الذي فرَّ بثوبه حين وضعَه عليه ليغتسل وبرّأه الله تعالى به عما رمَوْه به من الأدرَة فأشار إليه جبريلُ عليه السلام أن يحمِلَه أو كان حَجَرًا من الحجارة وهو الأظهر في الحجة.

---

(١) في ط: لفرض.

قيل: لم يؤمَرْ عليه السلام بضرب حجر بعينه ولكن لما قالوا كيف بنا لو أفضينا إلى أرض لا حجارة بها حَملَ حجَرًا في مخلاتِه وكان يضربه بعصاه إذا نزل فيتفجَّر ويضربُه إذا ارتحل فييبَس فقالوا: إنْ فقَد موسى عصاه مِتْنا عطشًا، فأوحى الله تعالى إليه أن لا تقرَعِ الحجَر وكلِّمْه يُطِعْك لعلهم يعتبرون وقيل: كان الحجر من رُخام حجمُه ذِراعٌ في ذراع والعصا عشرةُ أذرُعٍ على طوله عليه السلام من آسِ الجنة ولها شُعبتان تتقدان في الظلمة.

﴿فَانْفَجَرَتْ﴾ عطف على مقدّر ينسحب عليه الكلام قد حُذف للدلالة على كمال سُرعة تحقُّق الانفجار كأنه حصلَ عَقيبَ الأمرِ بالضرب أي فضُرب فانفجَرَتْ ﴿مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ وأما تعلقُ الفاءِ بمحذوفٍ، أي: فإنْ ضَرَبْتَ فقد انفجرت فغيرُ حقيق بجلالة شأن النظمِ الكريم كما لا يخفى على أحد.

وقرئ[1] (عشِرة) بكسر الشين وفتحها وهما أيضًا لغتان.

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ كل سبط.

﴿مَشْرَبَهُمْ﴾ عينُهم الخاصةُ بهم.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ على إرادة القول.

﴿مِنْ رِزْقِ اللهِ﴾ هو ما رزقهم من المنّ والسلوى والماء وقيل: هو الماءُ وحده؛ لأنه يؤكَلُ ما ينبُت به من الزروع والثمار ويأباه أن المأمورَ به: أكلُ النعمة العتيدة لا ما سيطلُبونه وإضافتُه إليه تعالى مع استناد الكلِّ إليه خلقًا وملكًا إما للتشريف وإما لظهوره بغير سبب عاديّ، وإنما لم يقُلْ من رزقنا كما يقتضيه قوله تعالى: (فقلنا) إلخ؛ إيذانًا بأن الأمرَ بالأكل والشرب لم يكن بطريق الخِطاب، بل بواسطة موسى عليه السلام.

﴿وَلاَ تَعْثَوْا في الأَرْضِ﴾ (العثْيُ) أشدُّ الفساد فقيل لهم: لا تتمادَوْا في الفساد حال كونكم ﴿مُفْسِدِينَ﴾ وقيل: إنما قيد به لأن العَثْيَ في الأصل مطلقُ التعدي وإن غلب في الفساد وقد يكون في غير الفساد كما في مقابلة الظالم المعتدي بفعله وقد يكون فيه صلاحٌ راجح كقتل الخَضِر عليه السلام للغلام وخرقِه للسفينة، ونظيرُه

---

(١) قرأ بها: أبو عمرو، ومجاهد، وطلحة، والأعمش، والمطوعي، وعيسى، ويحيى بن وثاب، ويزيد، وابن أبي ليلى، ونعيم السعدي، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٣٧)، والإعراب للنحاس (١/ ١٨٠)، والإملاء للعكبري (١/ ٢٣)، والبحر المحيط (١/ ٢٢٩)، والتبيان للطوسي (١/ ٢٧٠)، وتفسير القرطبي (١/ ٤٢٠)، والكشاف للزمخشري (١/ ٧١)، وتفسير الفخر الرازي (١/ ٣٦٣).

العيْثُ خلا أنه غالبٌ فيما يدرك حِسا.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ﴾ تذكيرٌ لجناية أخرى لأسلافهم وكُفرانهم لنعمة الله (عز وجل) وإخلادِهم إلى ما كانوا فيه من الدناءة والخساسةِ، وإسنادُ القول المحكي إلى أخلاقهم وتوجيهُ التوبيخ إليهم لما بينهم من الاتحاد ﴿يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ لعلهم لم يريدوا بذلك جمعَ ما طلبوا مع ما كان لهم من النعمة ولا زوالَها وحصولَ ما طلبوا مكانها إذ يأباه التعرضُ للوحدة بل أرادوا أن يكون هذا تارةً وذاك أخرى.

رُوي أنهم كانوا فلاحة فنزعوا إلى عكرهم فأجمعوا ما كانوا فيه من النعمة العتيدة لوحدتها النوعية وإطرادها وتاقت أنفسُهم إلى الشقاء ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ أي سله لأجلنا بدعائك إياه والفاء لسببية عدم الصبر للدعاء، والتعرضُ لعنوان الربوبية لتمهيد مبادي الإجابة ﴿يُخْرِجْ لَنَا﴾ أي يُظهِرْ لنا ويوجِدْ والجزم لجواب الأمر ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ﴾ إسناد مجازيٌّ بإقامَةِ القابلِ مُقامَ الفاعل و«من» تبعيضيةٌ والتي في قوله تعالى: ﴿مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ بيانية واقعةٌ موقعَ الحال أي كائنًا من بقلها الخ.

وقيل: بدلٌ بإعادة الجارِّ.

والبقلُ: ما تنبتُ الأرضُ من الخُضَر والمراد به أطايبُه التي تؤكلُ كالنَّعناع والكُرفس والكُرَّاث وأشباهِها.

والفومُ الحِنطةُ وقيل: الثوم وقرئ[1] (قُثائها) بضم القاف وهو لغة فيه ﴿قَالَ﴾ أي الله تعالى أو موسى (عليه السلام) إنكارًا عليهم وهو استئناف وقع جوابًا عن سؤال مقدر كأنه قيل: فماذا قال لهم فقيل قال: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾ أي أتأخُذون لأنفسِكم وتختارون! ﴿الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ﴾ أي أقربُ منزلةً وأدون قدرًا سهلُ المنال وهينُ الحصول لعدم كونه مرغوبًا فيه وكونه تافهًا مرذولًا قليلَ القيمة، وأصلُ الدنوّ القُرب في المكان فاستعير للخِسة كما استعير البُعدُ للشرف والرفعة، فقيل: بعيدُ المحل وبعيدُ الهمة.

وقرئ[2] (أدنأُ) من الدناءة وقد حملت المشهورة على أن ألفها مبدلة من الهمزة

---

(١) قرأ بها: الأشهب، وطلحة بن مصرف، ويحيى بن وثاب.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ٢٣)، والبحر المحيط (١/ ٢٣٣)، والإعراب للنحاس (١/ ١٨١)، وتفسير القرطبي (١/ ٤٢٤)، والكشاف للزمخشري (١/ ٧٢)، والمحتسب لابن جني (١/ ٨٧).

(٢) قرأ بها: زهير الفرقبي.
ينظر: البحر المحيط (١/ ٢٣٣)، والكشاف للزمخشري (١/ ٧٢)، والمحتسب لابن جني (١/ ٨٨)، والمعاني للفراء (١/ ٤٢).

﴿بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ أي بمقابلة ما هو خيرٌ فإن الباء تصحب الذاهبَ الزائلَ دون الآتي الحاصل كما في التبدل والتبديل في مثل قوله عز وجل: ﴿ومن يتبدل الكفرَ بالإيمان﴾ [البقرة، الآية ١٠٨] وقوله: ﴿وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أُكُلٍ خمط﴾ [سبأ، الآية ١٦] وليس فيه ما يدل قطعًا على أنهم أرادوا زوالَ المنِّ والسلوى بالمرة، وحصولُ ما طلبوا مكانه لتحقق الاستبدال فيما مر من صورة المناوبة.

﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ أُمروا به بيانًا لدناءة مطلَبِهم أو إسعافًا لمرامهم أي انحدروا إليه من التّيه يقال: هبَط الواديَ وقرئ[1] بضم الباء، والمِصرُ البلدُ العظيم وأصله الحدُّ بين الشيئين، وقيل: أريد به العلَم وإنما صُرف لسكون وسَطِه أو لتأويله بالبلد دون المدينة، ويؤيده أنه في مصحف ابن مسعود رضي الله عنه غيرُ منون[2]، وقيل: أصلُه مِصْرايِيم فعرب ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ تعليلٌ للأمر بالهبوط أي فإن لكم فيه ما سألتموه، ولعل التعبيرَ عن الأشياء المسؤولة بما للاستهجان بذكرها كأنه قيل: فإنه كثيرٌ فيه مبتذلٌ يناله كلُّ أحد بغير مشقة.

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ أي جعلتا محيطتين بهم إحاطةَ القُبة بمن ضربت عليه أو ألصِقتا بهم وجعلتا ضربةَ لازبٍ لا تنفكان عنهم مجازاةً لهم على كُفرانهم، مِنْ ضَرْبِ الطينِ على الحائط بطريق الاستعارة بالكناية، واليهودُ في غالب الأمر أذلاءُ مساكينُ إما على الحقيقة، وإما لخوف أن تضاعَفَ جزيتُهم ﴿وَبَاءُوا﴾ أي رجعوا، ﴿بِغَضَبٍ﴾ عظيم وقوله تعالى: ﴿مِنَ اللهِ﴾ متعلق بمحذوف هو صفةٌ لغضبٍ مؤكِّدٌ لما أفاده التنوينُ من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافيةِ أي بغضب كائنٍ من الله تعالى أو صاروا أحقاءَ به، من قولهم باءَ فلانٌ بفلان أي صار حقيقًا بأن يُقتلَ بمقابلته، ومنه قول من قال: بُؤْ بشِسْعِ نعلِ كُلَيبٍ[3]، وأصل البَوْء المساواة ﴿ذَلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما سلف من ضرب الذِلة والمسكنةِ والبَوْءِ بالغضب العظيم ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب

---

(١) ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ٢٣)، والكشاف للزمخشري (١/ ٧٢)، وتفسير الفخر الرازي (١/ ٣٦٦).

(٢) قرأ بها أيضا: الحسن، والأعمش، وأبي، وطلحة، وأبان بن تغلب، وابن عباس.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٣٧)، والبحر المحيط (١/ ٢٣٤)، والتبيان للطوسي (١/ ٢٧٦)، وتفسير الطبري (٢/ ١٣٥)، وتفسير القرطبي (١/ ٤٢٩)، والكشاف للزمخشري (١/ ٧٢)، والمجمع للطبرسي (١/ ١٢٣)، وتفسير الفخر الرازي (١/ ٣٦٦).

(٣) قال الأزهري: معناه كن كُفْئاً لِشِسْع نَعْله لا لِدَمه.
والمثل قاله مهلهل بن ربيعة حين قتل بجير بن الحارث بن عباد بأخيه كليب أي قم مقام شسعه فإنك لست ببواء له يضرب فى فرط اتضاع الشيء عن الشيء حتى لا يعادل كله بعضه.
ينظر: تهذيب اللغة (١٥/ ٤٢٧)، والمستقصى في أمثال العرب (٢/ ١).

أنهم ﴿كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ على الاستمرار ﴿بِآيَاتِ اللهِ﴾ الباهرة التي هي المعجزاتُ الساطعةُ الظاهرة على يدي موسى عليه السلام مما عُد وما لم يُعَدَّ ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الحَقِّ﴾ كشَعْيا وزكريا ويحيىٰ عليهم السلام.

وفائدةُ التقييد مع أن قتل الأنبياءِ يستحيل أن يكون بحق الإيذانُ بأن ذلك عندهم أيضًا بغير الحق إذ لم يكن أحد معتقدًا بحقية قتلِ أحدٍ منهم عليهم السلام وإنما حملهم على ذلك حبُّ الدنيا واتباعُ الهوى والغلوُّ في العصيان والاعتداءُ كما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أي جرَّهم العصيانُ والتمادي في العُدوان إلى ما ذُكر من الكفر وقتلِ الأنبياءِ عليهم السلام فإن صِغارَ الذنوب إذا دُووِمَ عليها أدتْ إلى كبارها كما أن مداومةَ صغارِ الطاعات مؤديةٌ إلى تحرّي كبارِها.

وقيل: كُرِّرت الإشارةُ للدلالة على أن ما لَحِقَهم كما أنه بسبب الكفر والقتلِ فهو بسببِ ارتكابِهم المعاصيَ واعتدائهم حدودَ الله تعالى وقيل: الإشارةُ إلى الكفر والقتل، و(الباء) بمعنى مع ويجوز الإشارة إلى المتعدِّد بالمفرد بتأويل ما ذُكر أو تقدم كما في قول رؤبة بنِ العجاج: [الرجز]

فيها خطوطٌ من سوادٍ وبَلَقْ كأنه في الجِلد توليعُ البَهَقْ[1]

أي كان ما ذُكر والذي حسَّن ذلك في المضْمَرات والمبهمات أن تثنيتها وجمعَها ليسا على الحقيقة ولذلك جاء الذي بمعنى الذين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي بألسنتهم فقط وهم المنافقون بقرينة انتظامِهم في سِلك الكفرة، والتعبيرُ عنهم بذلك دون عُنوانِ النفاقِ للتصريح بأن تلك المرتبةَ وإن عُبِّر عنها بالإيمان لا تُجديهم نفعًا أصلًا ولا تُنقِذُهم من ورطة الكفر قطعًا ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ أي تهوَّدوا من هادَ إذا دخَل في اليهودية، ويهودُ إما عربي من هاد إذا تاب سُموا بذلك حين تابوا من عبادة العجل وخُصوا به لما كانت توبتُهم توبةً هائلة، وإما معرَّبُ (يهوذا) كأنهم سُمّوا باسم أكبرِ أولادِ يعقوبَ عليه الصلاة والسلام ﴿وَالنَّصَارَىٰ﴾ جمع نَصرانٍ كندامَى جمعُ ندمانٍ يقال: رجلٌ نصرانٌ وامرأة نصرانةٌ والياء في نصراني للمبالغة كما في أحمريّ سُموا بذلك لأنهم نَصَروا المسيحَ عليه

---

(١) الرجز في ديوانه، ص (١٠٤)، وأساس البلاغة، ص (٥٠٩) (ولع)، والأشباه والنظائر (٥/ ٦٣)، وخزانة الأدب (١/ ٨٨)، وشرح شواهد المغني (٢/ ٧٦٤)، ولسان العرب (٨/ ٤١١) (ولع)، (١٠/ ٢٩) (بهق)، والمحتسب (٢/ ١٥٤)، ومغني اللبيب (٢/ ٦٧٨)، وتهذيب اللغة (٥/ ٤٠٧)، وكتاب العين (٣/ ٣٧١)، ومجمل اللغة (١/ ٢٩٩)، وبلا نسبة في شرح شواهد المغني (٢/ ٩٥٥)، وجمهرة اللغة، ص (٣٧٦)، والمخصص (٥/ ٨٩).

السلام أو لأنهم كانوا معه في قرية يقال لها (نَصرانُ) فسُمّوا باسمها أو نُسبوا إليها والياء للنسبة، وقال الخليل واحدُ النصارى نَصري كمَهْري ومَهارىٰ ﴿والصَّابِئِينَ﴾ هم قومٌ بين النصارى والمجوس وقيل: أصلُ دينهم دينُ نوح عليه السلام، وقيل: هم عبدةُ الملائكة وقيل: عبدةُ الكواكب فهو إن كان عربيًا فمن صَبأ إذا خرج من دين إلى دين آخرَ.

وقرئ[1] بالياء، إما للتخفيف، وإما لأنه من صَبَا إذا مال لما أنهم مالوا من سائر الأديان إلى ما هم فيه، أو من الحق إلى الباطل ﴿مَنْ آمَنَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ أي من أحدث من هذه الطوائفِ إيمانًا خالصًا بالمبدأ والمَعاد على الوجه اللائق ﴿وَعَمِلَ﴾ عملًا ﴿صَالِحًا﴾ حسبما يقتضيه الإيمانُ بما ذكر ﴿فَلَهُمْ﴾ بمقابلة ذلك ﴿أَجْرُهُمْ﴾ الموعودُ لهم ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي مالك أمرِهم، ومُبلّغُهم إلى كمالهم اللائقِ.

فـ (مَنْ) إما في محل الرفع على الابتداء، خبرُه جملةُ (فلهم أجرُهم) والفاءُ لتضمُّن الموصولِ معنى الشرط كما في قوله تعالى: ﴿إن الذين فتنوا المؤمنين﴾ [البروج، الآية ١٠] الآية، وجُمع الضمائرُ الثلاثة باعتبار معنى الموصول كما أن إفرادَ ما في الصلة باعتبار لفظِه والجملةُ كما هي خبرُ (إن) والعائدُ إلى اسمها محذوفٌ أي من آمن منهم إلخ، وإما في محل النصبِ على البدلية من اسمِ (إن) وما عُطف عليه وخبرُها (فلهم أجرهم) و(عند) متعلّق بما تعلّق به (لهم) من معنى الثبوت، وفي إضافته إلى الرب المضافِ إلى ضميرهم مزيدُ لُطفٍ بهم وإيذانٌ بأن أجرَهم مُتيقَّنُ الثبوت مأمونٌ من الفَوات.

﴿وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ عطف على جملة (فلهم أجرُهم) أي لا خوف عليهم حين يخاف الكفارُ العقاب ﴿وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ حين يحزن المقصِّرون على تضييع العُمر وتفويتِ الثواب، والمرادُ بيانُ دوامِ انتفائهما لا بيانُ انتفاءِ دوامِهما كما يوهمه كونُ الخبرِ في الجملة الثانية مضارعًا لما مر من أن النفيَ، وإن دخلَ على نفس المضارعِ يفيد الدوامَ والاستمرارَ بحسب المقام.

هذا وقد قيل: المرادُ بالذين آمنوا المتديّنون بدين الإسلام المُخلِصون منهم

---

(١) قرأ بها: نافع، وشيبة، والزهري، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٣٨)، والإملاء للعكبري (١/ ٢٤)، والبحر المحيط (١/ ٢٤١)، والتيسير للداني (٧٤)، والحجة لابن خالويه (٨١)، والحجة لأبي زرعة (١٠١)، والسبعة لابن مجاهد (١٥٧)، والغيث للصفاقسي (١١٨)، والكشف للقيسي (١/ ٢٤٥، ٢٤٦)، والمجمع للطبرسي (١/ ١٢٥)، وتفسير الفخر الرازي (١/ ٣٦٨).

والمنافقون، فحينئذ لا بد من تفسير (مَنْ آمن) بمن اتصف منهم بالإيمان الخالصِ بالمبدأ والمَعاد على الإطلاق، سواءٌ كان ذلك بطريق الثبات والدوام عليه كإيمان المُخلصين أو بطريق إحداثه وإنشائه كإيمان مَنْ عداهم من المنافقين وسائر الطوائف، وفائدةُ التعميم للمخلصين مزيدُ ترغيبِ الباقين في الإيمان ببيان أن تأخيرَهم في الاتصاف به غيرُ مُخلٍّ بكونهم أسوةً لأولئك الأقدمين في استحقاق الأجور وما يتبعه من الأمن الدائم، وأما ما قيل في تفسيره من كان منهم في دينه قبل أن ينسخ مصدِّقًا بقلبه بالمبدأ والمعاد عاملًا بمقتضىٰ شرعِه فمما لا سبيل إليه أصلًا لأن مقتضىٰ المقام هو الترغيبُ في دين الإسلام، وأما بيانُ حال من مضىٰ على دين آخرَ قبل انتساخِه فلا ملابسةَ له بالمقام قطعًا بل ربما يُخِلُّ بمقتضاه من حيث دَلالتُه على حقِّيته في زمانه في الجملة، على أن المنافقين والصابئين لا يتسنى في حقهم ما ذكر.

أما المنافقون فإن كانوا من أهل الشرك فالأمرُ بيِّن، وإن كانوا من أهل الكتاب فمن مضىٰ منهم قبل النسخِ ليسوا بمنافقين، وأما الصابئون فليس لهم دينٌ يجوز رعايتُه في وقت من الأوقات ولو سَلِم أنه كان لهم دينٌ سماوي ثم خرجوا عنه فمن مضىٰ من أهل ذلك الدين قبل خروجِهم منه فليسوا من الصابئين فكيف يُمكِنُ إرجاعُ الضمير الرابطِ بين اسمِ (إن) وخبرِها إليهم أو إلى المنافقين، وارتكابُ إرجاعِه إلى مجموع الطوائفِ من حيث هو مجموعٌ لا إلى كل واحدة منها قصدًا إلى درج الفريقِ المذكور فيه ضرورةَ أن من كان من أهل الكتاب عاملًا بمقتضىٰ شرعِه قبل نسخِه من مجموع الطوائفِ بحُكم اشتمالِه على اليهود والنصارى وإن لم يكن من المنافقين والصابئين مما يجبُ تنزيهُ ساحةِ التنزيل عن أمثاله، على أن المخلصين مع اندراجهم في حيز اسم (إنّ) ليس لهم في حيز خبرها عينٌ ولا أثر فتأملْ وكن على الحق المبين.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ تذكيرٌ لجناية أخرى لأسلافهم أي واذكروا وقت أخْذِنا لميثاقكم بالمحافظة على ما في التوراة ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ عطفٌ على قوله ﴿أخذْنا﴾ أو حالٌ أي وقد رفعنا فوقَكم الطورَ كأنه ظُلة.

رُوي أن موسى عليه السلام لمّا جاءهم بالتوراة فرأَوْا ما فيها من التكاليف الشاقةِ كبُرت عليهم فأبَوْا قَبولها فأُمر جبريلُ عليه السلام فقلَعَ الطورَ فظلله عليهم حتى قبِلوا[1].

(١) أخرجه الطبري في التفسير (١/ ٣٦٦) عن السدي بنحوه، وذكره البغوي في معالم التنزيل (١/ ١٨٠) بهذا اللفظ عن ابن عباس.

﴿خُذُوا﴾ على إرادة القول ﴿مَا آتَيْنَاكُم﴾ من الكتاب ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجدٍّ وعزيمة ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ أي احفَظوه ولا تنسَوْه أو تفكروا فيه فإنه ذكرٌ بالقلب أو اعملوا به ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لكي تتقوا المعاصيَ أو لتنجُوا من هلاك الدارين أو رجاءً منكم أن تنتظِموا في سلك المتقين أو طلبًا لذلك وقد مر تحقيقُه ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي أعرضْتم عن الوفاء بالميثاق ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ من بعد أخذِ ذلك الميثاقِ المؤكد ﴿فَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ بتوفيقكم للتوبة أو بمحمدٍ ﷺ حيث يدْعوكم إلى الحق ويهديكم إليه ﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ أي المفتونين[1] بالانهماكِ في المعاصي والخبْطِ في مهاوي الضلال عند الفترة.

وقيل: لولا فضلُه تعالى عليكم بالإمهال وتأخيرِ العذاب لكنتم من الهالكين وهو الأنسبُ بما بعده.

وكلمةُ **(لولا)** إما بسيطةٌ أو مركبة: من (لو) الامتناعية وحرف النفي ومعناها امتناعُ الشيءِ لوجود غيرِه كما أن (لو) لامتناعه لامتناعِ غيرِه والاسم الواقعُ بعدها عند سيبويه مبتدأٌ خبرُه محذوف وجوبًا لدلالة الحال عليه وسدِّ الجواب مسدَّه، والتقديرُ لولا فضلُ الله حاصلٌ، وعند الكوفيين فاعل فعلٍ محذوف أي لولا ثبَتَ فضلُ الله تعالى عليكم ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ أي عرفتم ﴿الَّذِينَ اعْتَدُوْا مِنْكُمْ في السَّبْتِ﴾ رُوي أنهم أُمروا بأن يتمحَّضوا يوم السبت للعبادة ويتجرَّدوا لها ويتركوا الصيدَ فاعتدىٰ فيه أناسٌ منهم في زمن داودَ عليه السلام فاشتغلوا بالصيد وكانوا يسكُنون قريةً بساحل البحر يقال لها (أَيْلة) فإذا كان يومُ السبت لم يبقَ في البحر حوتٌ إلا برزَ وأخرج خُرطومه فإذا مضىٰ تفرقت فحفَروا حِياضًا وشرَعوا إليها الجداولَ وكانت الحيتانُ تدخلُها يوم السبت فيصطادونها يوم الأحد.

فالمعنى وبالله لقد علمتوهم حين فعلوا من قَبيل جناياتكم ما فعلوا فلم نُمهِلْهم ولم نؤخِّرْ عقوبتَهم بل عجلناها ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ أي جامعين بين صورةِ القردةِ والخسُوء، وهو الطرد والصَّغار، على أن (خاسئين) نعتٌ لقِردة وقيل: حال من اسم (كونوا) عند من يُجيز عملَ كان في الظروفِ والحالِ، وقيل: من الضمير المستكنّ في (قِردة) لأنه في معنى ممسوخين، وقال مجاهد: ما مُسخت صورُهم ولكن قلوبُهم[2] فمُثلوا بالقِردة كما مُثِّلوا بالحمار في قوله تعالى: ﴿كمثل

---

(١) في خ: المغبونين.
(٢) ذكره البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٣٧).

الحمارِ يحملُ أسفارًا﴾ [الجمعة، الآية ٥] والمرادُ بالأمر بيانُ سرعةِ التكوين وأنهم صاروا كذلك كما أراده عز وجل.

وقرئ (قَرِدةً) بفتح القاف وكسر الراء و(خاسين) بغير همز[1] ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ أي المَسخةَ والعقوبة ﴿نَكَالًا﴾ عبرةً تُنكّل المعتبِرَ بها أي تمنعُه وتردعُه ومنه النِّكْلُ للقيد ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ لما قبلها وما بعدها من الأمم إذ ذُكِرَتْ حالُهم في زبُر الأولين واشتهرت قصصُهم في الآخِرين أو لمعاصريهم ومَنْ بعدهم، أو لِما بحضرتها من القُرى وما تباعد عنها أو لأهل تلك القرية وما حواليها أو لأجل ما تقدم عليها من ذنوبهم وما تأخَّر منها ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ من قومهم أو لكلِّ مُتقٍ سمِعَها.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ توبيخ آخرُ لإخلاف بني إسرائيلَ بتذكير بعضِ جناياتٍ صدرت عن أسلافهم أي واذكروا وقت قولِ موسى عليه السلام لأجدادكم ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ وسببه أنه كان في بني إسرائيلَ شيخٌ موسر فقتلَه بنو عمِّه طمعًا في ميراثه فطرَحوه على باب المدينة ثم جاءوا يطالبون بديته فأمرهم الله تعالى أن يذبحوا بقرةً ويضربوه ببعضها فيَحْيَا فيُخْبِرَهم بقاتله ﴿قَالُوا﴾ استئنافٌ وقع جوابًا عما ينساق إليه الكلام كأنه قيل: فماذا صنعوا هل سارعوا إلى الامتثال أو لا؟ فقيل: قالوا ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ بضم الزاء وقلب الهمزة واوًا.

وقرئ بالهمزة مع الضم[2] والسكون[3] أي أتجعلنا مكانَ هُزْءٍ أو أهلَ هُزْءٍ أو مهزوءًا بنا أو الهزُؤُ نفسه استبعادًا لما قاله واستخفافًا به ﴿قَالَ﴾ استئناف كما سبق ﴿أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ لأن الهُزْء في أثناء تبليغ أمر الله سبحانه جهلٌ

---

(١) قرأ بها: حمزة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٣٨)، والغيث للصفاقسي (١١٨).

(٢) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، عاصم، وابن عامر، والكسائي، وشعبة.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ١٨٤)، والإملاء للعكبري (١/ ٢٥)، والبحر المحيط (١/ ٢٥٠)، والتبيان للطوسي (١/ ٢٩٣)، والتيسير للداني (٧٤)، والحجة لابن خالويه (٨١، ٨٢)، والحجة لأبي زرعة (١٠١)، والسبعة لابن مجاهد (١٥٧، ١٥٨، ١٥٩)، والغيث للصفاقسي (١١٨)، والكشاف للزمخشري (١/ ٧٤)، والكشف للقيسي (١/ ٢٤٧، ٢٤٨)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢١٥).

(٣) قرأ بها: نافع، وعاصم، وحمزة، وإسماعيل، وخلف، والقزاز، وعبد الوارث.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ١٨٤)، والإملاء للعكبري (١/ ٢٥)، والبحر المحيط (١/ ٢٥٠)، والتبيان للطوسي (١/ ٢٩٣)، والتيسير للداني (٧٤)، والحجة لابن خالويه (٨١، ٨٢)، والحجة لأبي زرعة (١٠١)، والسبعة لابن مجاهد (١٥٨)، والغيث للصفاقسي (١١٨)، والكشاف للزمخشري (١/ ٧٤)، وتفسير الرازي (١/ ٣٧٦).

وسفَهٌ، نفىٰ عنه عليه السلام ما توهموه من قبله على أبلغ وجهٍ وآكَدِه بإخراجه مُخرجَ ما لا مكروهَ وراءَه بالاستعاذة منه استفظاعًا له واستعظامًا لما أقدموا عليه من العظيمة التي شافهوه عليه السلام بها ﴿قَالُوا﴾ استئناف كما مر كأنه قيل: فماذا قالوا بعد ذلك؟ فقيل: توجهوا نحو الامتثال وقالوا ﴿ادْعُ لَنَا﴾ أي لأجلنا ﴿رَبَّكَ يُبَيِّن لَنَا مَا هِيَ﴾ (ما) مبتدأ و(هي) خبرُه والجملةُ في حيز النصب (يبين) أي يبين لنا جوابَ هذا السؤال وقد سألوا عن حالها وصفتها لِما قرَعَ أسماعَهم ما لم يعهدوه من بقرةٍ ميتةٍ يُضرب ببعضها ميتٌ فيحيا، فإن (ما) وإن شاعت في طلب مفهومِ الاسمِ والحقيقة كما في (ما) الشارحةِ والحقيقية، لكنها قد يُطلب بها الصفةُ والحالُ، تقول: ما زيد؟ فيقال: طبيبٌ أو عالم وقيل: كان حقه أن يُستفهَم بأيٍّ لكنهم لما رأوا ما أمروا به على حالة مغايرة لما عليه الجنس أخرجوه عن الحقيقة فجعلوه جنسًا على حياله ﴿قَالَ﴾ أي موسى عليه السلام بعد ما دعا ربَّه عز وجل بالبيان وأتاه الوحْيُ ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿يَقُولُ إِنَّها﴾ أي البقرةُ المأمورُ بذبحها ﴿بَقَرَةٌ لاَ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ﴾ أي لا مُسنة ولا فتية يقال: فرَضَت البقرةُ فروضًا أي أسنت من الفرْض بمعنى القطع كأنها قطعَتْ سنها وبلغت آخرَها[1]، وتركيبُ البكر للأولية ومنه البَكرة والباكورة ﴿عَوَانٌ﴾ أي نصَفٌ لا فحلٌ ولا ضَرْع قال: [الوافر]

طِوالٌ مثلُ أعناقِ الهوادي نواعمُ بين أبكارٍ وعُونِ[2]

﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الفارض والبِكْر ولذلك أضيف إليه (بين) لاختصاصه بالإضافة إلى المتعدد ﴿فَافْعَلُوا﴾ أمرٌ من جهة موسى عليه السلام متفرِّع على ما قبله من بيان صفةِ المأمور به ﴿مَا تُؤْمَرُونَ﴾ أي ما تؤمرونه بمعنى تؤمَرون به كما في قوله: [البسيط]

أمرتُك الخيرَ فافعلْ ما أمِرْتَ بهِ ..... ..... .....[3]

---

(١) في ط: آخوها.

(٢) البيت للطرماح في ديوانه، ص (١٧٧)، وخزانة الأدب (٨/ ٧١).

(٣) صدر بيت وعجزه:

..... ..... ..... فقد تركتك ذا مالٍ وذا نشبِ

وهو لعمرو بن معدي كرب في ديوانه، ص (٦٣)، وخزانة الأدب (٩/ ١٢٤) والدرر (٥/ ١٨٦)، والكتاب (١/ ٣٧)، ومغني اللبيب، ص (٣١٥)، ولخفاف بن ندبة في ديوانه، ص (١٢٦)، وللعباس بن مرداس في ديوانه، ص (١٣١)، ولأعشى طرود في المؤتلف والمختلف، ص (١٧)، وهو لأحد الأربعة السابقين أو لزرعة بن خفاف في خزانة الأدب (١/ ٣٣٩، ٣٤٢، ٣٤٣)، ولخفاف بن ندبة أو لعباس بن مرداس في شرح أبيات سيبويه (١/ ٢٥٠)، وبلا نسبة في الأشباه =

فإن حذفَ الجار قد شاع في هذا الفعل حتى لَحِق بالأفعال المتعدية إلى مفعولين، وهذا الأمرُ منه عليه السلام لحثِّهم على الامتثال وزجرِهم عن المراجعة ومع ذلك لم يقتنعوا به. وقوله تعالى: ﴿قَالُوا﴾ استئنافٌ كما مر كأنه قيل: ماذا صنعوا بعد هذا البيان الشافي والأمرِ المكرَّرِ؟ فقيل: قالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَنَا مَا لَوْنُهَا﴾ حتى يتبين لنا البقرةُ المأمور بها ﴿قَالَ﴾ أي موسى عليه السلام بعد المناجاةِ إلى الله تعالى ومجيءِ البيان ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿يقولُ إِنَّها بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ إسنادُ البيان في كل مرةٍ إلى الله عز وجل لإظهار كمالِ المساعدةِ في إجابة مسؤولهم بقولهم (يبينْ لنا) وصيغةُ الاستقبال لاستحضارِ الصورة، والفُقوعُ نصوعُ الصُّفرةِ وخلوصُها، ولذلك يؤكَّد به ويقال: أصفرُ فاقعٌ كما يقال: أسودُ حالكٌ وأحمرُ قانىء، وفي إسناده إلى اللون مع كونِه من أحوال المُلوَّنِ لملابسته به ما لا يخفى من فضل تأكيدٍ كأنه قيل: صفراءُ شديدُ الصُفرةِ صُفرتها كما في جَدّ جِدّه.

وعن الحسن رضي الله عنه: سوداءُ شديدةُ السواد[1]، وبه فُسّر قوله تعالى: ﴿جُمالَةٌ صُفْرٌ﴾ [سورة المرسلات، الآية ٣٣] قيل: ولعل التعبير عن السواد بالصُّفرة لما أنها من مقدماته وإما لأن سَواد الإبل يعلوه صُفْرةٌ ويأباه وصفُها بقوله تعالى: ﴿تَسُرُّ النَاظِرِينَ﴾ كما يأباه وصفُها بفقوع اللون. والسرورُ لذةٌ في القلب عند حصول نفعٍ أو توقُّعِه من السر، عن علي رضي الله عنه: من لبِسَ نعلًا صفراءَ قل همُّه[2] ﴿قَالُوا﴾ استئنافٌ كنظائره ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَنَا مَا هِيَ﴾ زيادةُ استكشافٍ عن حالها كأنهم سألوا بيانَ حقيقتها بحيث تمتاز عن جميع ما عداها مما تشاركها في الأوصاف

---

= والنظائر (٤/ ١٦، ٨/ ٢٥١)، وشرح شذور الذهب، ص (٤٧٧)، وشرح المفصل (٨/ ٥٠)، والمحتسب (١/ ٥١).

(١) أخرجه الطبري في التفسير (١/ ٣٨٧) رقم (١٢٢٢، ١٢٢٣)، وسعيد بن منصور (١٩٢) وابن أبي حاتم (١/ ٢٢٠، ٢٢١) رقم (٧١٤، ٧٢٠)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ١٥١) وعزاه أيضًا لعبد بن حميد.

(٢) قال الزيلعي (١/ ٦٥): غريب عن علي، ولم أجده إلا عن ابن عباس. اهـ.
وحديث ابن عباس:
أخرجه ابن أبي حاتم (١/ ٢١٩) رقم (٧١٠)، والطبراني في الكبير (١٠/ ٣٢٠) رقم (١٠٦١٢)، والخطيب في الجامع (١/ ٣٩٢) رقم (٩١٥)، والعقيلي في الضعفاء (٣/ ٤٤٦) رقم (١٤٩٦) في ترجمة الفضل بن الربيع، وعزاه السيوطي في الدر (١/ ١٥١) للديلمي أيضًا، وذكره ابن أبي حاتم في العلل (٢/ ٣١٩)، وقال: قال أبي: هذا حديث كذب موضوع. اهـ.
وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ١٤٢): رواه الطبراني وفيه ابن العذراء غير مسمى ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات. اهـ.

المذكورة والأحوالِ المشروحة في أثناء البيان ولذلك علّلوه بقولهم: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ يعنُون أن الأوصافَ المعدودةَ يشترك فيها كثير من البقر ولا نهتدي إلى تشخيص ما هو المأمورُ بها ولذلك لم يقولوا إن البقرَ تشابهت إيذانًا بأن النعوتَ المعدودةَ ليست بمُشخّصة للمأمور بها بل صادقةً على سائر أفرادِ الجنس.

وقرئ[١] (إنَّ الباقِرَ) وهو اسمٌ لجماعة البَقر والأباقر والبواقر، ويتشابه بالياء والتاء وَيشّابه بطرح التاء والإدغام على التذكير والتأنيث وتَشَابهت مخففًا ومشددًا وتَشَبَّهُ بمعنى تتشبه ويشبّه بالتذكير ومتشابِهٌ ومتشابهةٌ ومُتَشَبِّهٌ ومُتَشَبِّهَةٌ وفيه دلالة على أنهم ميَّزوها عن بعض ما عداها في الجملة وإنما بقي اشتباهٌ بشرف الزوال كما ينبئ عنه قولهم: ﴿وِإِنَّا إِنْ شَاءَ الله لَمُهْتَدُونَ﴾ مؤكدًا بوجوه من التوكيد أي لمهتدون بما سألنا من البيان إلى المأمور بذبحها وفي الحديث لو لم يستثنوا لما بُيِّنَتْ لهم آخرَ الأبد.

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الحَرْثَ﴾ أي لم تُذلَّلْ للكِراب[٢] وسقْي الحَرْثَ، و(لا ذلول) صفةٌ لبقرةٌ بمعنى غيرُ ذَلول و(لا) الثانية لتأكيد الأولى والفعلان صفتا ذلول كأنه قيل: لا ذلولٌ مثيرةٌ وساقية.

وقرئ[٣] (لا ذلول) بالفتح أي حيث هي كقولك: مررت برجل لا بخيلٍ ولا جبان أي حيث هو وقرئ[٤] (تُسْقي) من أسقىٰ ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ أي سلَّمها الله (تعالى) من العيوب أو أهّلها من العمل أو خلص لها لونها من سَلِم له كذا إذا خَلَص له، ويؤيده قوله تعالى: ﴿لا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي لا لونَ فيها يخالف لونَ جلدِها حتى قَرْنُها وظِلْفُها وهي في الأصل مصدرُ وشاه وشْيًا وشِيةً إذا خلَط بلونه لونًا آخر.

﴿قَالُوا﴾ عندما سمعوا هذه النعوت ﴿الآنَ جِئْتَ بِالحَقِّ﴾ أي بحقيقة وصفِ البقرةِ

---

(١) قرأ بها: عكرمة، ومحمد ذو الشامة، وابن يعمر.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ٢٥)، والبحر المحيط (١/ ٢٥٣)، وتفسير الطبري (٢/ ٢٠٩)، وتفسير القرطبي (١/ ٤٤٦)، والكشاف للزمخشري (١/ ٧٥).

(٢) يقال كَرَبَ الأرض يكربها كربًا وكِرابًا: قلبها للحرث وأثارها للزرع، التهذيب: الكِراب: كربك الأرض حتى تقلبها، وهي مكروبة ومُثارة وفي المثل: الكراب على البقر لأنها تكرب الأرض أي لا تُكْرَب الأرض إلاّ بالبقر.

(٣) قرأ بها: أبو عبد الرحمن السلمي.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ١٨٦)، والبحر المحيط (١/ ٢٥٦)، والتبيان للطوسي (١/ ٣٠١)، وتفسير القرطبي (١/ ٤٥٢)، والكشاف للزمخشري (١/ ٧٥).

(٤) ينظر: البحر المحيط (١/ ٢٥٧)، والكشاف للزمخشري (١/ ٧٥).

بحيث ميَّزْتها عن جميع ما عداها ولم يبقَ لنا في شأنها اشتباهٌ أصلًا بخلاف المرتين الأوليين فإن ما جئتَ به فيهما لم يكن في التعيين بهذه المرتبة. ولعلهم كانوا قبلَ ذلك قد رأَوْها ووجدوها جامعةً لجميع ما فُصِّل من الأوصاف المشروحةِ في المرات الثلاثِ من غير مشارِكٍ لها فيما عُدَّ في المرة الأخيرة، وإلا فمن أين عرَفوا اختصاصَ النعوت الأخيرةِ بها دون غيرها؟

وقرئ «آلآنَ» بالمد على الاستفهام و«الانَ» بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام[1] ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ الفاء فصيحة كما في فانفجَرت أي فحصّلوا البقرةَ فذبحوها ﴿وَمَا كادُوا يَفْعَلُونَ﴾ كادَ من أفعال المقاربة وُضع لدنوِّ الخبر من الحصول، والجملةُ حال من ضمير ذبحوا أي فذبحوها والحال أنهم كانوا قبل ذلك بمعزل منه، أو اعتراضٌ تذييلي ومآلُه استثقالُ استعصائِهم واستبطاءٌ لهم وأنهم لفَرْط تطويلِهم وكثرةِ مراجعاتِهم ما كاد ينتهي خيطُ استفهامِهم فيها.

قيل: مضىٰ من أول الأمرِ إلى الامتثال أربعون سنةً.

وقيل: كادوا يفعلون ذلك لغلاء ثمنها.

رُوي أنه كان في بني إسرائيلَ شيخٌ صالحٌ له عِجْلة فأتىٰ بها الغَيْضة وقال: اللهم إني استَوْدعتُكها لابني حتى يكبَرَ وكان برًّا بوالدَيه فتُوفِّيَ الشيخُ وشبَّتِ العِجْلة فكانت من أحسن البقرِ وأسمنِها فساوَموها اليتيمَ وأمَّه حتى اشتَرَوْها بملء مَسْكِها ذهبًا لمّا كانت وحيدةً بالصفات المذكورة وكانت البقرةُ إذ ذاك بثلاثة دنانيرَ[2].

واعلم أنه لا خلافَ في أن مدلولَ ظاهرِ النظمِ الكريم بقرةٌ مطلقةٌ مُبْهمة وأن الامتثالَ في آخرِ الأمرِ إنما وقعَ بذبح بقرةٍ معيّنة حتى لو ذبحوا غيرَها ما خَرَجوا عن عُهدة الأمرِ، لكن اختُلفَ في أن المرادَ المأمورُ به ـ إثرَ ذي أثيرٍ ـ هل هي المعينةُ وقد أُخِّر البيانُ عن وقت الخطاب؟ أو المبهمةُ ثم لَحِقها التغييرُ إلى المعيَّنة بسبب تثاقلِهم في الامتثال وتماديهم في التعمق والاستكشاف؟

فذهب بعضُهم إلى الأول تمسكًا بأن الضمائرَ في الأجوبة أعني أنها بقرةٌ إلى آخره للمعيَّنة قطعًا، ومن قضيته أن يكون في السؤال أيضًا كذلك، ولا ريب في أن السؤالَ

---

(١) قرأ بها: نافع.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ١٨٦، ١٨٧)، والبحر المحيط (١/ ٢٥٧).

(٢) قصة فتى بني إسرائيل رواها أبو الشيخ في العظمة (٥/ ١٧٦٥) رقم (١٢٦٤) مختصرًا.
وذكرها السيوطي في الدر (١/ ١٥٤)، وعزاها لعبد بن حميد، وأبي الشيخ في العظمة في قصة طويلة.

إنما هو عن البقرة المأمور بذبحها فتكونُ هي المعينةُ.

وهو مدفوعٌ بأنهم لما تعجّبوا من بقرة ميتةٍ يُضربُ ببعضها ميْتٌ فيحيا ظنُّوها معيّنةً خارجةً عما عليه الجنسُ من الصفات والخواصِّ، فسألوا عنها فرجعت الضمائرُ إلى المعيَّنة في زعمهم واعتقادِهم فعيّنها الله تعالى تشديدًا عليهم، وإن لم يكن المرادُ من أول الأمرِ هي المعينة. والحقُّ أنها كانت في أول الأمر مُبْهمةً بحيث لو ذَبَحوا أيةَ بقرةٍ كانت لحصل الامتثالُ بدِلالة ظاهرِ النظم الكريم وتكرير الأمرِ قبل بيان اللون وما بعدَه من كونها مسلّمةً. .الخ، وقد قال ﷺ: «لو اعترَضوا أدنىٰ بقرةٍ فذبحوها لكفَتْهم»[1] ورُوي مثلُه عن رئيس المفسرين عبد اللَّه بن عباس (رضي الله عنهما)[2]، ثم رجع الحكمُ الأولُ منسوخًا بالثاني، والثاني بالثالث تشديدًا عليهم، لكن لا على وجه ارتفاعِ حكم المُطْلقِ بالكلية وانتقالِه إلى المعيّن، بل على طريقة تقييدِه وتخصيصِه به شيئًا فشيئًا، كيف لا، ولو لم يكن كذلك لما عُدّت مراجعاتُهم المَحْكيةُ من قَبيل الجنايات بل من قبيل العبادة فإن الامتثالَ بالأمر بدون الوقوفِ على المأمور به مما لا يكاد يتسنّى فتكونُ سؤالاتُهم من باب الاهتمام بالامتثال.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ منصوبٌ بمُضْمر كما مرت نظائرُه، والخطابُ لليهود المعاصِرين لرسول الله ﷺ وإسنادُ القتلِ والتدارُؤ إليهم لما مر من نسبة جنايات الأسلاف إلى الأخلاف توبيخًا وتقريعًا، وتخصيصُهما بالإسناد دون ما مر من جناياتهم لظهور قُبْحِ القتلِ وإسناده إلى الغير أي: اذكروا وقت قتلِكم نفسًا محرمة ﴿فَادَّارأتُمْ فِيهَا﴾ أي: تخاصمتم في شأنها إذ كلٌّ واحد من الخصماء يدافع الآخرَ، أو تدافعتم بأن طرَح كلٌّ واحد قتلها إلى آخرَ، وأصلُه تَدارأتم فأُدغمت التاءُ في الدال واجتُلبت لها همزةُ الوصل.

﴿والله مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي مظهر لما تكتمونه لا محالة، والجمعُ بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على الاستمرار، وإنما أُعمِلَ (مُخرجٌ) لأنه حكايةُ

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير (٢/ ٢٠٦) رقم (١٢٤٥)، عن ابن عباس موقوفًا بلفظ: لو اعترضوا بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم، ولكنهم شددوا وتعنتوا موسى فشدد الله عليهم، ولم يذكر فيه «والاستقصاء شؤم»، ورواه أيضًا ابن أبي حاتم (١/ ٢١٥) رقم (٦٩٨)، وذكر السيوطي في الدر (١/ ١٥٠) أن ابن أبي حاتم وابن مردويه أخرجا عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لولا أن بني إسرائيل قالوا: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ ما أعطوا أبدًا، ولو أنهم اعترضوا بقرة من البقر فذبحوها- لأجزأت عنهم، ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم».

وهو عند ابن أبي حاتم (١/ ٢٢٣) رقم (٧٢٧) دون قوله: « ولو أنهم اعترضوا... إلخ».

(٢) ينظر: التخريج السابق.

حالٍ ماضية ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ﴾ عطف على فادارأتم وما بينهما اعتراضٌ، والالتفاتُ لتربية المهابةِ، والضميرُ للنفس، والتذكيرُ باعتبار أنها عبارةٌ عن الرجل أو بتأويل الشخصِ أو القتيل ﴿بِبَعْضِهَا﴾ أيْ ببعض البقرة أيِّ بعضٍ كان وقيل: بأصغَرَيها، وقيل: بلسانها وقيل: بفخِذِها اليُمنى وقيل: بأذُنها وقيل: بعُجبها[1]، وقيل: بالعظم الذي يلي الغُضْروف، وهذا أولُ القصة كما ينبئ عنه الضمير الراجعُ إلى البقرة كأنه قيل: وإذ قتلتم نفسًا فادارأتم فيها فقلنا: اذبحوا بقرةً فاضرِبوه ببعضها، وإنما غُيّر الترتيبُ عند الحكاية لتكرير التوبيخ وتثنيةِ التقريع، فإن كلَّ واحدٍ من قتل النفس المحرَّمة والاستهزاءِ برسولِ الله ﷺ والافتياتِ على أمره وترك المسارعة إلى الامتثال به جنايةٌ عظيمة حقيقة بأن تُنعىٰ عليهم بحيالها، ولو حُكيت القصةُ على ترتيب الوقوعِ لما علم استقلالُ كلٍّ منها بما يُخَصُّ بها من التوبيخ وإنما حُكي الأمر بالذبح عن موسى عليه السلام مع أنه من الله عز وجل كالأمر بالضرب لما أن جناياتِهم كانت بمراجعتهم إليه عليه السلام والافتياتِ على رأيه.

﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللهُ الموتىٰ﴾ على إرادة قولٍ معطوفٍ على مقدَّر ينسحِبُ عليه الكلام أي: فضرَبوه فحَيِيَ وقلنا كذلك يُحيي إلخ فحذفت الفاءُ الفصيحة في «فحَيِيَ» مع ما عطف بها، وما عُطف هو عليه لدلالة «كذلك» على ذلك فالخطابُ في كذلك حينئذ للحاضرين عند حياة القتيل، ويجوزُ أن يكون ذلك للحاضرين عند نزولِ الآيةِ الكريمة فلا حاجة حينئذٍ إلى تقدير القولِ بل تنتهي الحكايةُ عند قوله تعالى: ﴿ببعضها﴾ مع ما قُدّر بعده، فالجملة معترضة أي: مثلَ ذلك الإحياءِ العجيبِ يُحيي الله الموتىٰ يوم القيامة.

﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ ودلائلَه الدالةَ على أنه تعالى على كل شيء قدير، ويجوز أن يُراد بالآياتِ هذا الإحياءُ، والتعبيرُ عنه بالجمع لاشتماله على أمورٍ بديعةٍ من ترتّب الحياة على عضو ميتٍ، وإخبارِه بقاتله وما يلابسه من الأمور الخارقة للعادة ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي لكي تكمُلَ عقولُكم وتعلموا أن من قدَرَ على إحياء نفسٍ قدَر على إحياء الأنفس كلِّها أو تعلموا على قضية عقولِكم، ولعل الحكمة في اشتراط ما اشتُرط في الإحياء مع ظُهور كمالِ قُدرته على إحيائه ابتداءً بلا واسطة أصلًا - اشتمالُه على التقرب إلى الله تعالى وأداءِ الواجب ونفعِ اليتيم والتنبيهُ على برَكة التوكلِ على الله

---

(١) العَجْبُ والعُجْبُ من كل دابة: ما انضمَّ عليه الوركان من أصل الذنب المغروز في مؤخر العَجُزْ قال اللحياني: هو أصل الذنب وعظمه وهو العُصْعُصْ والجمع أعجاب وعجوب وفي الحديث: كل ابن آدم يبلى إلاّ العَجْبُ، بالسكون: العظم الذي في أسفل الصلب عند العَجُزْ وهو العسيب من الدواب.

تعالى والشفقةِ على الأولاد ونفع برِّ الوالدين وأن من حق الطالب أن يقدّم قُربة، ومن حق المتقرِّب أن يتحرَّى الأحسنَ[1] ويغاليَ بثمنه كما يُروى عن عمرَ رضي الله عنه أنه ضحّى بنَجيبةٍ اشتراها بثلثمائة دينار[2]، وأن المؤثر هو الله تعالى، وإنما الأسبابُ أَماراتٌ لا تأثيرَ لها وأن من رام أن يعرف أعدى عدوِّه الساعي في إماتتِه الموتَ الحقيقيَّ فطريقُه أن يذبَحَ بقرةَ نفسِه التي هي قوتُه الشهويةُ حين زال عنها شَرَهُ الصِّبا ولم يلحَقها ضَعف الكِبَر، وكانت معجِبةً رائقةَ المنظرَ غيرَ مذللةٍ في طلب الدنيا مسلَّمةً عن دنسها لا شية بها من قبائحها بحيث يتَّصلُ أثرُه إلى نفسه فيحيا بها حياةً طيبةً ويُعربَ عما به ينكشف الحالُ ويرتفعُ ما بين العقل والوهم من التدارُؤ والجدال.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾ الخطاب لمعاصري النبي ﷺ. والقسوةُ عبارةٌ عن الغِلَظ والجفاء والصَّلابة كما في الحَجَر استُعيرت لنُبوِّ قلوبهم عن التأثر بالعِظات والقوارعِ التي تميعُ منها الجبالُ وتلينُ بها الصخور، وإيرادَ الفعل المفيدِ لحدوث القساوة مع أن قلوبَهم لم تزل قاسيةً لما أن المرادَ بيانُ بلوغِهم إلى مرتبة مخصوصةٍ من مراتبِ القساوة حادثةٍ، وإما لأن الاستمرارَ على شيء بعدَ ورودِ ما يوجب الإقلاعَ عنه أمرٌ جديد وصنعٌ حادث. و(ثم) لاستبعاد القسوةِ بعد مشاهدةِ ما يُزيلها كقوله تعالى: ﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ [الأنعام، الآية ١].

﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذكر من إحياء القتيلِ أو إلى جميع ما عُدِّد من الآيات الموجبة للين القلوبِ وتوجُّهِها نحوَ الحقِّ أيْ من بعد سماعِ ذلك وما فيه من معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلتِه وعلوِّ طبقتِه. وتوحيدُ حرفِ الخطاب مع تعدُّد المخاطبين إما بتأويل الفريقِ أو لأن المرادَ مجردُ الخطاب لا تعيينُ المخاطَب كما هو المشهور، ﴿فَهِيَ كَالحِجَارَةِ﴾ في القساوة، ﴿أَوْ أَشَدُّ﴾ منها، ﴿قَسْوَةً﴾ أي هي في القسوة مثلُ الحجارة أو زائدةٌ عليها فيها أو أنها مثلُها أو مثلُ ما هو أشدُّ منها قسوةً كالحديد، فحُذِف [المضاف] وأقيمَ المضاف إليه مُقامه ويعضُده القراءة بالجر عطفًا على الحجارة. وإيرادُ الجملة اسميةً مع كون ما سبق فعليةً للدلالة على استمرارِ قساوةِ قلوبهم، والفاء [إما لتفريع مشابَهتِها لها على ما ذكر من القساوة تفريعَ التشبيه على بيان وجه الشبه في قولك: احمرَّ خدُّه فهو كالورد و][3] إما للتعليل كما في

---

(١) في ط: الأنفس.

(٢) أخرجه أبو داود (١/ ٥٤٦) كتاب المناسك، باب تبديل الهدي، حديث (١٧٥٦)، وعزاه في الكنز (٥/ ٢٣٣) رقم (١٢٧٢٢) إلى أبي داود.

(٣) سقط في ط.

قولك: اعبُدْ ربك فالعبادةُ حقٌّ له، وإنما لم يقل أو أقسىٰ منها لما في التصريح بالشدة من زيادةِ مبالغةٍ، ودلالةٍ ظاهرة على اشتراك القسوتين في الشدة واشتمالِ المفضَّل على زيادة، وأو للتخيير أو للترديدِ بمعنى أن مَنْ عرَفَ حالَها شبَّهها بالحجارة أو بما هو أقسى، أو من عَرَفها شبهها بالحجارة أو قال هي أقسى من الحجارة، وترْكُ ضميرِ المفضَّل عليه للأمن من الالتباس ﴿وَإِنَّ مِنَ الحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ﴾ بيانٌ لأَشَدِّية قلوبِهم من الحجارة في القساوة وعدمِ التأثر واستحالةِ صدورِ الخيرِ منها، يعني أن الحجارةَ ربما تتأثّرُ حتى كان منها ما يتفجر منه المياهُ العظيمة ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ﴾ أي يتشقق ﴿فَيَخْرُجُ مِنْهُ المَاءُ﴾ أي العيونُ ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ أي يتردَّى من الأعلى إلى الأسفل بقضية ما أودعه الله عز وجل فيها من الثِقل الداعي إلى المرْكز، وهو مجازٌ من الانقياد لأمره تعالى[1]، والمعنى أن الحجارةَ ليس منها فردٌ إلا وهو منقادٌ لأمره عز وعلا آتٍ بما خُلق له من غير استعصاء، وقلوبُهم ليست كذلك فتكونُ أشدَّ منها قسوةً لا محالة، واللام في ﴿لَما﴾ لامُ الابتداء دخلت على اسم إن لتقدُّم الخبر وقرئ[2] (إنْ) على أنها مُخففة من الثقيلة، واللامُ فارقةٌ، وقرئ يهبُط بالضم[3] ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (عن) متعلقةٌ بغافل، و(ما) موصولة والعائدُ محذوف أو مصدرية، وهو وعيدٌ شديد على ما هو عليه من قساوة القلوب وما يترتب عليها من الأعمال السيئة، وقرئ[4] بالياء على الالتفات.

۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ

---

(١) أي من إطلاق اسم الملزوم على اللازم ولكن الراجح أنها حقيقة والله بسر كلامه عليم، فلم نعلم من الله عجزًا عن أن تخشع الحجارة له.
ينظر: الفتوحات الإلهية (١/ ٦٧).

(٢) قرأ بها: قتادة.
ينظر: البحر المحيط (١/ ٢٦٤)، وتفسير القرطبي (١/ ٤٦٥)، والكشاف للزمخشري (١/ ٧٧)، والمحتسب لابن جني (١/ ٩١)، وتفسير الفخر الرازي (١/ ٣٨٤).

(٣) قرأ بها: الأعمش، والمطوعي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٣٩)، والبحر المحيط (١/ ٢٦٦)، والكشاف (١/ ٧٧).

(٤) قرأ بها: ابن كثير، وابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٣٩)، والبحر المحيط (١/ ٢٦٧)، والحجة لأبي زرعة (١٠١)، والسبعة لابن مجاهد (١٦٠)، والغيث للصفاقسي (١٢٠)، والكشاف للزمخشري (١/ ٧٧)، والكشف للقيسي (١/ ٢٤٨)، والمجمع للطبرسي (١/ ١٣٨)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢١٧).

بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ
بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا
يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ
وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ
لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُواْ لَن
تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ
عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ
ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي
ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ
إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا
تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ
وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ
تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا
جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ
وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ
ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا
عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ
فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ
﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ
أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ
فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ
قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ
أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩١﴾

وقوله تعالى: ﴿أَفَتَطۡمَعُونَ﴾ تلوينٌ للخطاب وصرْفٌ له عن اليهود إثر ما عُدَّت سيئاتُهم ونُعِيتْ عليهم جناياتُهم إلى النبي ﷺ ومن معه من المؤمنين، والهمزةُ لإنكار الواقع واستبعادِه كما في قولك: أتضرِبُ أباك؟ لا لإنكار الوقوعِ كما في قولك:

أأضربُ أبي؟ والفاء للعطف على مقدّرٍ يقتضيه المقامُ ويستدعيه نظامُ الكلام، لكن لا على قصد توجيهِ الإنكار إلى المعطوفين معًا كما في (أفلا تبصرون) على تقدير المعطوفِ عليه منفيًّا أي: ألا تنظُرون فلا تبصرون؟.

فالمُنْكَر كلا الأمرين بل إلى ترتب الثاني على الأول مع وجوب أن يترتَّبَ عليه نقيضُه كما إذا قُدِّر الأول مُثْبَتًا، أي أتنظرون فلا تبصرون؟ فالمنْكَر ترتُّبُ الثاني على الأول مع وجوب أن يترتب عليه نقيضُه أي أتسمعون أخبارَهم وتعلمون أحوالَهم فتطمعون؟.

ومآلُ المعنى: أبَعْدَ أنْ علِمتم تفاصيلَ شؤونِهم المُؤْيِسةِ عنهم تطمعون؟ ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ فإنهم متماثلون في شدة الشكيمةِ والأخلاقِ الذميمة، لا يتأتىٰ من أخلافِهم إلا مثلُ ما أتىٰ من أسلافِهم، وأنْ مصدريةٌ حذف عنها الجارُّ، والأصلُ: في ﴿أن يؤمنوا﴾، وهي مع ما في حيِّزها في محل النصبِ أو الجرِّ على الخلاف المعروف. واللام في ﴿لَكُمْ﴾ لتضمين معنى الاستجابة كما في قوله عز وجل: ﴿فآمن له لوط﴾ [العنكبوت، الآية ٢٦] أي: في إيمانهم مستجيبين لكم، أو للتعليل أي في أن يُحدثوا الإيمان لأجل دعوتِكم، وصلةُ الإيمان محذوفةٌ لظهور أن المرادَ به معناه الشرعيُّ، وستقف على ما فيه من المزية بإذن الله تعالى.

﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ الفريقُ اسمُ جمعٍ لا واحد له من لفظه كالرهط والقوم، والجار والمجرور في محل الرفع، أي فريقٌ كائنٌ منهم، وقوله تعالى: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ﴾ خبرُ كان وقرئ[1] «كلِمَ الله»، والجملة حاليةٌ مؤكِّدة للإنكار حاسمةٌ لمادة الطمَع مثلُ أحوالِهم الشنيعةِ المحْكيةِ فيما سلف على منهاج قوله تعالى: ﴿وهم لكم عدو﴾ [الكهف، الآية ٥٠] بعد قوله تعالى: ﴿أفتتخِذونه وذرِّيتَه أولياءَ من دوني﴾ [الكهف، الآية ٥٠] أي والحالُ أن طائفةً منهم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هم قومٌ من السبعين المختارين للميقات كانوا يسمعون كلامَه تعالى حين كلّم موسى عليه السلام بالطور وما أُمِرَ به ونُهِيَ عنه[2].

﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ عن مواضعه لا لقصورِ فهمِهم عن الإحاطة بتفاصيله على ما ينبغي

---

(١) قرأ بها: الأعمش.
ينظر: البحر المحيط (١/ ٢٧٢)، وتفسير القرطبي (٢/ ١)، والكشاف للزمخشري (١/ ٧٧)، والمحتسب لابن جني (١/ ٩٣).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٤١١) رقم (١٣٣٦، ١٣٣٧) عن محمد بن إسحاق بنحوه.

لاستيلاء الدهشةِ والمهابةِ حسبما يقتضيه مقامُ الكبرياء بل ﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أي فهِموه وضبَطوه بعقولهم، ولم تبقَ لهم في مضمونه ولا في كونه كلامَ ربِّ العزةِ رِيبةٌ أصلًا، فلما رجَعوا إلى قومهم أدّاه الصادقون إليهم كما سمعوا. وهؤلاء قالوا: سمعنا الله تعالى يقول في آخر كلامه: إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياءَ فافعلوا، وإن شئتم فلا تفعلوا فلا بأس، فـ «ثُم» للتراخي زمانًا أو رتبةً قال القفال[١]: سمِعوا كلامَ الله وعقَلوا مرادَه تعالى منه فأوّلوه تأويلًا فاسدًا.

وقيل: هم رؤساءُ أسلافِهم الذين تولَّوْا تحريفَ التوراة بعد ما أحاطوا بما فيها علمًا وقيل: هم الذين غيّروا نعتَ النبيِّ ﷺ في عصره وبدّلوا آيةَ الرجْم، ويأباه الجمعُ بين صيغتي الماضي والمستقبل الدالِّ على وقوع السماعِ والتحريفِ فيما سلف إلا أن يُحملَ ذلك على تقدّمه على زمانِ نزولِ الآية الكريمةِ لا على [تقدمه على][٢] عهده عليه الصلاة والسلام.

هذا والأول هو الأنسبُ بالسماع والكلام إذ التوراةُ وإن كانت كلامَ الله عز وعلا لكنها باسم الكتاب أشهرُ وأثرُ التحريفِ فيه أظهر، ووصفُ اليهودِ بتلاوتها أكثر، لا سيما رؤساؤُهم المباشرون للتحريف فإن وظيفتهم التلاوةُ دون السماع فكان الأنسب حينئذ أن يقالَ: يتلون كتابَ الله تعالى فالمعنى أفتطمعون في أن يؤمنَ هؤلاءِ بواسطتكم ويستجيبوا لكم والحالُ أن أسلافَهم الموافقين لهم في خِلال السوءِ كانوا يسمعون كلامَ الله بلا واسطةٍ ثم يحرِّفونه من بعد ما علِموه يقينًا ولا يستجيبون له؟ هيهاتَ. ومن هاهنا ظهر ما في إيثار (لكم) على بالله من الفخامة والجزالة.

---

(١) القفال: علم أطلق على فقهاء عدة من فقهاء المذهب الشافعي، منهم القفال الكبير الشاشي، ومنهم القاسم بن محمد بن علي بن أبي بكر بن القفال الكبير الشاشي صاحب كتاب التقريب، ومنهم القفال الصغير المروزي أبو بكر شيخ الخراسانيين، ولكن إذا أطلق لفظ القفال: فإنه يراد به القفال الكبير وهو: أبو بكر محمد بن علي بن إسماعيل القفال الشاشي ولد بشاش فقيه محدث مفسر أصولي لغوي قال عنه الشيخ أبو إسحاق إن مذهب الشافعي عنه انتشر بما وراء النهر وقال: عنه العبادي: هو أفصح الأصحاب قلما وأمكنهم في دقائق العلوم قدما وأسرعهم بيانا وأثبتهم جنانا وأعلاهم إسنادًا وأرفعهم عمادا من مؤلفاته كتاب في أصول الفقه، وشرح الرسالة للشافعي، وكتاب محاسن الشريعة، والفتاوى. توفي بشاش في ذي الحجة سنة خمس وستين وثلاثمائة هجرية.
ينظر: طبقات ابن هداية الله (١٣٤، ١١٧): طبقات الإسنوي (١/ ٣٠٣)، معجم المؤلفين (١/ ٣٠٨)، طبقات السبكي (٢/ ١٧٦).

(٢) سقط في ط.

وقوله عز وجل: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ جملة حالية من فاعل ﴿يحرّفونه﴾ مفيدةٌ لكمال قباحةِ حالِهم مُؤْذِنةٌ بأن تحريفَهم ذلك لم يكن بناءً على نسيان ما عقَلوه أو على الخطأ في بعض مقدِّماته بل كان ذلك حالَ كونهم عالمين مستحضِرين له أو وهم يعلمون أنهم كاذبون ومُفترون ﴿وَإِذَا لَقُوا﴾ جملةٌ مستأنفة سيقتْ إثرَ بيانِ ما صدر عن أشباهِهم لبيان ما صدرَ عنهم بالذات من الشنائع المُؤْيسةِ عن إيمانهم من نفاق بعضٍ وعتابِ آخَرين عليهم، أو معطوفةٌ على ما سبق من الجملة الحالية، والضميرُ لليهود لما ستقف على سره لا لمنافقيهم خاصةً كما قيل تحرّيًا لاتحاد الفاعل في فعلي الشرط والجزاءِ حقيقةً.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من أصحاب النبي ﷺ ﴿قَالُوا﴾ أي اللاقون لكن لا بطريق تصدّي الكلِّ للقول حقيقةً بل بمباشرة منافقيهم وسكوتِ الباقين، كما يقال: بنو فلان قتلوا فلانًا والقاتلُ واحد منهم، وهذا أدخلُ في تقبيح حال الساكتين أولًا العاتبين ثانيًا لما فيه من الدلالة على نفاقهم واختلافِ أحوالهم وتناقضِ آرائهم من إسناد القول إلى المباشرين خاصةً بتقدير المضافِ أي قال منافقوهم ﴿آمَنَّا﴾ لم يقتصروا على ذلك بل عللوه بأنهم وجدوا نعتَ النبيِّ ﷺ في التوراة وعلموا أنه النبيُّ المبشَّر به، وإنما لم يصرَّحْ به تعويلًا على شهادة التوبيخِ الآتي:

﴿وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ﴾ أي بعض المذكورين وهم الساكتون منهم أي إذا فرَغوا من الاشتغال بالمؤمنين متوجِّهين ومنضمِّين ﴿إِلى بَعْضٍ﴾ آخرَ منهم وهم منافقوهم بحيث لم يبقَ معهم غيرُهم، وهذا نصٌّ على اشتراك الساكتين في لقاء المؤمنين كما أشير إليه آنفًا إذِ الخلوُّ إنما يكون بعد الاشتغال، ولأن عتابَهم معلقٌ بمحض الخلوّ، ولولا أنهم حاضرون عند المقاولة لوجب أن يُجعلَ سماعُهم لها من تمام الشرط، ولأن فيه زيادةَ تشنيعٍ لهم على ما أتَوْا من السكوت ثم العتاب.

﴿قَالُوا﴾ أي الساكتون موبّخين لمنافقيهم على ما صنعوا ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم﴾ يعنون المؤمنين ﴿بِمَا فَتَحَ الله عَلَيْكُمْ﴾ (ما) موصولةٌ والعائدُ محذوفٌ أي بيَّنه لكم خاصةً في التوراة من نعْت النبي ﷺ والتعبيرِ عنه بالفتْح للإيذان بأنه سرٌّ مكنونٌ وباب مغلَقٌ لا يقف عليه أحدٌ.

وتجويزُ كونِ هذا التوبيخ من جهة المنافقين لأعقابهم [إرادةً للتصلُّب][1] في دينهم كما ذهب إليه عصابةٌ ـ مما لا يليق بشأن التنزيل الجليلِ، واللامُ في قوله عز وجل:

---

(١) في ط: إراءة للنصاب.

﴿لِيُحَاجُّوكُم بِهِ﴾ متعلقةٌ بالتحديث دون الفتح، والمرادُ تأكيدُ النكير وتشديدُ التوبيخ، فإن التحديثَ بذلك وإن كان مُنْكرًا في نفسه، لكن التحديثَ به لأجل هذا الغَرَض مما لا يكاد يصدُرُ عن العاقل أي: أتحدِّثونهم بذلك ليحتجّوا عليكم به فيسكتوكم؟ والمحدّثون به وإن لم يحوموا حولَ ذلك الغرضِ لكن فعلَهم ذلك لما كان مستتبِعًا له ألبتة جُعلوا فاعلين للغرض المذكور إظهارًا لكمال سخافةِ عقولِهم وركاكة آرائهم.

﴿عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ أي في حُكمه وكتابه كما يقال: هو عند الله كذا أي في كتابه وشرعه، وقيل: عند ربكم يومَ القيامة، ورُدَّ عليه بأن الإخفاءَ لا يدفعه إذ هم عالمون بأنهم محجوجون يومئذ حدَّثوا به أو لم يحدثوا، والاعتذارُ بأن إلزامَ المؤمنين إياهم وتبكيتَهم بأن يقولوا لهم: ألم تحدِّثونا بما في كتابكم في الدنيا من حقّية دينِنا وصدقِ نبيِّنا - أفحشُ، فيجوز أن يكون المحذورُ عندهم هذا الإلزامَ بإرجاع الضمير في (به) إلى التحديث دون المحدَّث به، ولا ريب في أنه مدفوعٌ بالإخفاء لا تساعده الآيةُ الكريمة الآتيةُ كما ستقف عليه بإذن الله عز وجل.

﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ من تمام التوبيخ والعتابِ، والفاءُ للعطف على مقدَّر ينسحبُ عليه الكلام أي ألا تلاحظون فلا تعقلون هذا الخطأَ الفاحشَ أو شيئًا من الأشياء التي من جملتها هذا؟ فالمنْكرُ عدمُ التعقُّل ابتداءً. أو أتفعلون ذلك فلا تعقلون بُطلانَه مع وضوحه حتى تحتاجوا إلى التنبيه عليه؟ فالمنكرُ حينئذ عدمُ التعقل بعد الفعل، هذا وأما ما قيل من أنه خطابٌ من جهة الله سبحانه للمؤمنين متصلٌ بقوله تعالى: ﴿أفتطمعون﴾ والمعنى أفلا تعقلون حالَهم وألَّا مطْمَعَ[1] لكم في إيمانهم فيأباه قولُه تعالى: ﴿أَوَلاَ يَعْلَمُونَ﴾ فإنه إلى آخره تجهيلٌ لهم من جهته تعالى فيما حكىٰ عنهم فيكون إيرادُ خطاب المؤمنين في أثنائه من قَبيل الفصل بين الشجرِ ولِحائِه.

على أن في تخصيص الخطاب بالمؤمنين من التعسف ـ وفي تعميمِه للنبي أيضًا ﷺ كما في أتطمعون - من سوء الأدب ما لا يخفىٰ، والهمزةُ للإنكار والتوبيخ كما قبلها، والواوُ للعطف على مقدَّر ينساقُ إليه الذهنُ، والضميرُ للموبَّخين أي أيلومونهم على التحديث المذكورِ مخافةَ المُحاجَّةِ ولا يعلمون ﴿أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ أي يُسرُّونه فيما بينهم من المؤمنين أو ما يُضْمرونه في قلوبهم فيثبتُ الحكمُ في ذلك بالطريق الأولى ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي يظهرونه للمؤمنين أو لأصحابهم حسبما سبق فحينئذ يُظهرُ الله تعالى للمؤمنين ما أرادوا إخفاءَه بواسطة الوحْي إلى النبي ﷺ،

(١) في المخطوط: طمع.

فتحصُلُ المحاجَّة ويقعُ التبكيت، كما وقع في آية الرجم وتحريمِ بعضِ المحرماتِ عليهم، فأيُّ فائدةٍ في اللوم والعتاب؟.

ومن هاهنا تبين أن المحظورَ عندهم هو المُحاجّة بما فتحَ الله عليهم - وهي حاصلةٌ في الدارَيْن حدَّثوا به أم لا - لا بالتحديث به حتى يندفعَ بالإخفاء، وقيل: الضميرُ للمنافقين فقط أو لهم وللموبَّخين أو لآبائهم المحرِّفين أي أيفعلون ما يفعلون ولا يعلمون أن الله يعلم جميعَ ما يُسِرُّون وما يعلنون؛ ومن جملته إسرارُهم الكفرَ وإظهارُهم الإيمانَ وإخفاءُ ما فتح الله عليهم وإظهارُ غيرِه وكتمُ أمرِ الله وإظهارُ ما أظهروه افتراءً.

وإنما قُدم الإسرارُ على الإعلان للإيذان بافتضاحهم ووقوعِ ما يحذرونه من أول الأمر، والمبالغةِ في بيان شمولِ علمِه المحيطِ لجميع المعلومات كأن علمَه بما يُسرونه أقدمُ منه بما يعلنونه مع كونهما في الحقيقة على السوية فإن علمَه تعالى بمعلوماته ليس بطريقِ حصولِ صُورِها، بل وجودُ كلِّ شيءٍ في نفسه عِلْمٌ بالنسبة إليه تعالى. وفي هذا المعنى لا يختلف الحالُ بين الأشياء البارزةِ والكامنةِ ونظيره قولُه عز وعلا: ﴿قل إن تُخفوا ما في صدوركم أو تُبْدوه يعلمْه الله﴾ [آل عمران، الآية ٢٩] حيث قُدم فيه الإخفاءُ على الإبداء لما ذُكر من السر على عكس ما وقع في قوله تعالى: ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تُخفوه يحاسبْكم به الله﴾ [البقرة، الآية ٢٨٤] فإن الأصلَ في تعلق المحاسبة به هو الأمورُ الباديةُ دون الخافية، ويجوز أن يكون ذلك باعتبار أن مرتبة السرِّ متقدمةٌ على مرتبة العلنِ إذ ما من شيء يُعلَنُ إلا وهو مَباديه قبل ذلك مُضْمرٌ في القلب يتعلق به الإسرارُ غالبًا فتعلُّقُ علمِه تعالى بحالته الأولى متقدمٌ على تعلقِه بحالته الثانية.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ وقرئ بتخفيف الياء، جمع أُمِّيّ، وهو من لا يقدر على الكتابة والقراءة واختُلف في نسبته فقيل: إلى الأم بمعنى أنه شبيهٌ بها في الجهل بالكتابة والقراءة فإنهما ليستا من شؤون النساء بل من خِلال الرجال أو بمعنى أنه على الحالة التي ولدتْه أمه في الخلوِّ عن العلم والكتابة وقيل: إلى الأُمّة بمعنى أنه باقٍ على سذاجتها خالٍ عن معرفة الأشياء كقولهم: عامّي أي: على عادة العامة.

روي عن عكرمة والضحاك أن المراد بهم نصارىٰ العربِ[1] وقيل: هم قومٌ من أهل الكتاب رُفع كتابُهم لذنوب ارتكبوها فصاروا أمّيين.

---

(١) ذكره ابن عادل في اللباب في علوم الكتاب (٢/ ٢٠٢).

وعن عليّ رضي الله تعالى عنه: هم المجوسُ[(١)].

والحقُّ الذي لا محيد عنه أنهم جَهلةُ اليهودِ والجملةُ مستأنفةٌ مَسوقةٌ لبيان قبائحِهم إثرَ بيانِ شنائعِ الطوائفِ السالفة، وقيل: هي معطوفةٌ على الجملة الحالية فإن مضمونَها منافٍ لرجاء الخير منهم وإن لم يكن فيه ما يحسِمُ مادةَ الطمع عن إيمانهم كما في مضمون الجملة الحالية وما بعدها، فإن الجهل بالكتاب في منافاة الإيمان ليس بمثابة تحريفِ كلامِ الله بعد سماعِه والعلم بمعانيه كما وقع [- من الأولين أو النفاق والنهي عن إظهارِ ما في التوراة كما وقَع -][(٢)] من الفِرقتين الأُخْرَيين، أي ومنهم طائفةٌ جهَلةٌ غيرُ قادرين على الكتابة والتلاوة.

﴿لاَ يَعْلَمُونَ الكِتَابَ﴾ أي لا يعرِفون التوراةَ ليطالعوها ويتحقَّقوا ما في تضاعيفها من دلائل النبوة فيؤمنوا، وحَملُ الكتاب على الكتابة يأباه سباقُ النظم الكريم وسياقُه ﴿إِلَّـا أَمَانِيَّ﴾ بالتشديد وقرئ[(٣)] بالتخفيف جمع أمنية أصلُها أُمنُوية أفعولة من منى بمعنى قدّر أو بمعنى تلا، كَتَمَنَّى في قوله: [الطويل]

تــمـنَّــى كــتــابَ الــلــه أولَ لــيــلــةٍ ..... ..... .....[(٤)]

فأُعلَّت إعلالَ سيِّد وميِّت ومعناها على الأول ما يقدّره الإنسان في نفسه ويتمناه وعلى الثاني ما يتلوه وعلى التقديرين فالاستثناءُ منقطع إذ ليس ما يُتمنَّى وما يُتلى من جنس علم الكتاب أي لا يعلمون الكتابَ لكن يتمنَّوْن أمانيَّ حسبما منَّتْهم أحبارُهم من أن الله سبحانه يعفو عنهم وأن آباءَهم الأنبياءَ يشفعون لهم، وغيرُ ذلك من أمانيهم الفارغةِ المستندة إلى الكتاب على زعم رؤسائِهم. أو لا يعلمون الكتابَ لكن يتلقَّوْنه قدْرَ ما يُتلى عليهم فيقْبَلونه من غير أن يتمكنوا من التدبر فيه.

وأما حملُ الأمانيَّ على الأكاذيبِ المختلفة على الإطلاق من غير أن يكون لها

---

(١) ينظر: المصدر السابق. (٢) سقط في ط.

(٣) قرأ بها: نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر، وشيبة، والأعرج، وابن جماز، وهارون، والحسن، والحكم. ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٣٩)، والإعراب للنحاس (١/ ١٩٠)، والبحر المحيط (١/ ٢٧٦)، والتبيان للطوسي (١/ ٣١٧)، وتفسير الطبري (٢/ ٢٦٤)، وتفسير القرطبي (٢/ ٥)، والمجمع للطبرسي (١/ ١٤٣)، والمحتسب لابن جني (١/ ٩٤)، والمعاني للفراء (١/ ٤٩)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢١٧).

(٤) صدر بيت لحسان بن ثابت وعجزه:

..... ..... ..... وآخــره لاقــى حــمــام الــمــقــادر

والبيت في التفسير لأبي حيان (٦/ ٣٨٢)، وليس في ديوانه، وبلا نسبة في لسان العرب (منى)، ومقاييس اللغة (٥/ ٢٧٧)، وكتاب العين (٨/ ٣٩٠)، وتاج العروس (منى).

ملابسةٌ بالكتاب فلا يساعدُه النظمُ الكريم ﴿وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ ما هم إلا قومٌ قُصارى أمرِهم الظنُّ والتقليدُ من غير أن يصِلوا إلى رتبة العلمِ فأنّى يُرْجىٰ منهم الإيمانُ المؤسَّسُ على قواعد اليقينِ؟

ولما بين حالَ هؤلاء في تمسكهم بحبال الأمانيّ واتباعِ الظن عقَّب ببيان حالِ الذين أوقعوهم في تلك الورطةِ وبكشف كيفية إضلالِهم وتعيين مرجعِ الكلِّ بالآخرة فقيل على وجه الدعاء عليهم: ﴿فَوَيْلٌ﴾ هو وأمثالُه من ويحٍ وويسٍ وويبٍ وويهٍ وويكٍ وعوْلٍ من المصادر المنصوبة بأفعال من غير لفظها لا يجوزُ إظهارُها ألبتة فإن أضيف نُصب نحو ويلَك وويحَك وإذا فُصل عن الإضافة رُفع نحوُ ويلٌ له ومعنى الويلِ - شدةُ الشر، قاله الخليل، وقال الأصمعيُّ[1]: الويلُ التفجُّع والويحُ الترحُّم، وقال سيبويه: ويلٌ: لمن وقع في الهَلَكة وويحٌ: زجرٌ لمن أشرف على الهلاك.

وقيل: الويلُ الحزن، وهل ويح وويب وويس بذلك المعنى أو بينه وبينها فرق.

وقيل: ويل في الدعاء عليه وويح وما بعده في الترحم عليه.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الويلُ: العذاب الأليم[2] وعن سفيان الثوري[3] أنه صديدُ أهلِ جهنم[4].

ورَوى أبو سعيد الخدري[5] رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «الويلُ

---

(١) هو: عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي، أبو سعيد الأصمعي: ولد بالبصرة سنة اثنتين وعشرين ومائة، راوية العرب، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان، نسبته إلى جده أصمع، قال الأخفش: ما رأينا أحدًا أعلم بالشعر من الأصمعي، وكان الأصمعي يقول: أحفظ عشرة آلاف أرجوزة. من تصانيفه: الإبل، والأضداد. توفي سنة ست عشرة ومائتين.
ينظر: تاريخ بغداد (١٠/ ٤١٠)، ووفيات الأعيان (١/ ٢٨٨).

(٢) أخرجه الطبري في التفسير (١/ ٤٢١) رقم (١٣٨٤).

(٣) هو: سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب الثوري، أبو عبد الله الكوفي، أحد الأئمة الأعلام، قال ابن المبارك: ما كتبت عن أفضل من سفيان، قال العجلي: كان لا يسمع شيئًا إلا حفظه. قال ابن حجر: ثقة حافظ فقيه عابد إمام حجة. توفي بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة.
ينظر: تهذيب الكمال (١١/ ١٥٤)، وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال (١/ ٣٩٦)، وتقريب التهذيب (١/ ٣١١).

(٤) أخرجه الطبري في التفسير (١/ ٤٢١-٤٢٢) رقم (١٣٨٨)، وأخرجه (١٣٨٥، ١٣٨٦، ١٣٨٧)، عن أبي عياض مثله.

(٥) سعد بن مالك بن سِنَان بن عبد بن ثعلبة بن عبيد بن خُدْرَة الخدري، أبو سعيد: بايع تحت الشجرة، وشهد ما بعد أُحُد، وكان من علماء الصحابة. قال الواقدي: توفي سنة أربع وسبعين. =

وادٍ في جهنم يهوي فيه الكافرُ أربعين خريفًا قبل أن يبلُغ قَعْرَه»[١] وقال سعيد بن المسيب[٢]: إنه وادٍ في جهنم لو سيرت فيه جبال الدنيا لماعت من شدة حرِّه[٣]، وقال ابن بريدة[٤]: جبلُ قيحٍ ودمٍ وقيل: صهريج في جهنم[٥]. وحكىٰ الزهراوي[٦]: أنه باب من أبواب جهنم.

وعلى كل حالٍ فهو مبتدأ خبرُه قوله عز وعلا: ﴿لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ﴾ أي المحرَّفَ أو ما كتبوه من التأويلات الزائغة ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ تأكيدٌ لدفع توهمِ المجاز كقولك: كتبتُه بيميني ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا﴾ أي جميعًا على الأول، وبخصوصه على الثاني ﴿مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ رُوِي أن أحبارَ اليهود خافوا ذهابَ مآكلِهم وزوالَ رياستهم حين

---

= ينظر: خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (١/ ٣٧١)، تهذيب التهذيب (٣/ ٤٧٩)، التقريب (١/ ٢٨٩)، الكاشف (١/ ٣٥٣)، تاريخ البخاري الكبير (٤/ ٤٤).

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٧٥)، والترمذي (٥/ ٤٠٠٣) كتاب التفسير، باب: ومن سورة الأنبياء (٣١٦٤)، والحاكم (٢/ ٥٠٧).
وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعًا إلا من حديث ابن لهيعة.

(٢) هو: سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب بن عمرو بن عابد بن مخزوم، المخزومي، أبو محمد، المدني الأعور، رأس علماء التابعين وفردهم وفاضلهم وفقيههم. قال قتادة: ما رأيت أعلم بالحلال والحرام منه، وقال أحمد: مرسلات سعيد صحاح. قال أبو نعيم: مات سنة ثلاث وتسعين، وقال الواقدي: سنة أربع وتسعين.
ينظر: خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (١/ ٣٩٠، ٣٩١)، وتهذيب التهذيب (٤/ ٨٤)، والتقريب (١/ ٣٠٥)، والكاشف (١/ ٣٧٢)، والثقات (٤/ ٢٧٣).

(٣) ذكره البغوي في تفسيره (١/ ٨٨، ٨٩)، وابن عادل في اللباب (٢/ ٢٠٨).

(٤) هو: عبد الله بن بريدة بن الحُصَيْب الأسلمي أبو سهل، قاضي مرو، روى عن أبيه، وابن مسعود، وابن عباس، وابن عمر، وروى عنه ابناه سهل، وصخر، وقتادة، ومحارب بن دثار، وخلق، وثقه ابن معين، وأبو حاتم، قال ابن حبان: مات سنة خمس عشرة ومائة.
ينظر: خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٢/ ٤٢)، تهذيب التهذيب (٥/ ١٥٧)، الثقات (٥/ ١٦).

(٥) ذكره ابن عادل في اللباب (٢/ ٢٠٨).

(٦) هو: الإمام العالم الحافظ المجود محدث الأندلس مع ابن عبد البر أبو حفص عمر بن عبيد الله بن يوسف بن حامد الذهلي القرطبي الزهراوي ومدينة الزهراء على بعض نهار عن قرطبة أنشأها الناصر الأموي، ولد سنة إحدى وستين وثلاث مائة. وحدث عن أبي محمد بن أسد وعبد الوارث بن سفيان والقاضي أبي المطرف بن فطيس وأبي عبد الله بن أبي زمنين وغيرهم، وكان معتنيًا بنقل الحديث وجمعه وسماعه، حدث عنه أبو عبد الله بن عتاب وابنه عبد الرحمن وابنه الآخر أبو القاسم وأبو مروان الطبني، وحدث عنه أبو علي الغساني وذكر أنه اختلط في آخر عمره.
توفي في صفر سنة أربع وخمسين وأربع مائة عن اثنتين وتسعين سنة.
ينظر: سير أعلام النبلاء (١٨/ ٢٢٠)، وطبقات الحفاظ للسيوطي (١/ ٤٣١).

قدِم النبي ﷺ المدينةَ فاحتالوا في تعويق أسافلِ اليهودِ عن الإيمان فعمَدوا إلى صفة النبي ﷺ في التوراة وكانت هي فيها: حسنُ الوجهِ حسَنُ الشعرِ أكحلُ العينين رَبْعةٌ، فغيّروها وكتبوا مكانها: طوُالٌ أزرقُ سبَطُ الشعر. فإذا سألَهم سَفَلتُهم عن ذلك قرأوا عليهم ما كتبوا فيجدونه مخالفًا لصفته عليه السلام فيكذّبونه[١].

و﴿ثم﴾ للتراخي الرتبيّ فإن نسبةَ المحرَّفِ والتأويل الزائغ إلى الله سبحانه صريحًا أشدُّ شناعةً من نفس التحريفِ والتأويلِ ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ﴾ أي: يأخذوا لأنفسهم بمقابلته ﴿ثَمَنًا﴾ هو ما أخذوه من الرُّشا بمقابلة ما فعلوا من التحريف والتأويل، وإنما عُبر عن المشترىٰ الذي هو المقصودُ بالذات في عقد المعاوضة بالثمن الذي هو وسيلةٌ فيه إيذانًا بتعكيسهم حيث جعلوا المقصود بالذات وسيلةً والوسيلةَ مقصودًا بالذات ﴿قَلِيلًا﴾ لا يُعبأ به فإن ذلك وإن جل في نفسه فهو أقلُّ قليلًا عندما استوجبوا به من العذاب الخالد ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ﴾ تكريرٌ لما سبق للتأكيد وتصريحٌ بتعليله بما قدمت أيديهم بعد الإشعار به فيما سلف بإيراد بعضِه في حيِّز الصلةِ وبعضِه في معرِضِ الغرض، والفاءُ للإيذان بترتُّبه عليه.

و(مِنْ) في قوله عز وجل: ﴿مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ تعليليةٌ متعلقةٌ بـ ﴿ويل﴾، أو بالاستقرار في الخبر و(ما) موصولةٌ اسميةٌ والعائدُ محذوف أي كتَبَتْه أو مصدرية والأول أدخَلُ في الزجر عن تعاطي المحرَّفِ والثاني في الزجر عن التحريف ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ الكلام فيه كالذي فيما قبله، والتكريرُ لما مر من التأكيد والتشديد، والقصدُ إلى التعليل بكل من الجانبين وعدم التعرض لقولهم: ﴿هذا من عند الله﴾ لما أنه من مبادئ ترويج ما كتبت أيديهم فهو داخل في التعليل به.

﴿وَقَالُوا﴾ بيانٌ لبعضٍ آخرَ من جناياتهم، وفصلُه عما قبله مُشعرٌ بكونه من الأكاذيب التي اختلقوها ولم يكتبوها في الكتاب ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ﴾ في الآخرة ﴿إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ قليلةً محصورةً عددَ أيام عبادتِهم العجلَ أربعين يومًا مُدةَ غَيْبَةِ موسى عليه السلام عنهم. وحَكى الأصمعي عن بعض اليهود أن عددَ أيام عبادتهم العجلَ سبعة. ورُوي عن ابن عباس ومجاهدٍ أن اليهودَ قالوا عُمرُ الدنيا سبعةُ آلاف سنة وإنما نعذَّب بكل ألفِ سنةٍ يومًا واحدًا[٢].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ١٥٤) رقم (٨٠٥)، والواحدي في الوسيط (١/ ١٦٣-١٦٤) من حديث ابن عباس.
وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ١٥٩) وعزاه لابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري في التفسير (١/ ٤٢٦) رقم (١٤١٣)، وابن أبي حاتم (١/ ١٥٦) رقم (٨١٣).

ورَوى الضحاك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن اليهود زعمت أن ما وجدوا في التوراة أن ما بين طرفي جهنمَ مسيرةُ أربعين سنةً إلى أن ينتهوا إلى شجرة الزقوم، وأنهم يقطعون في كل يوم مسيرةَ سنة فيكملونها[١].

﴿قُلْ﴾ تبكيتًا لهم وتوبيخًا ﴿أَتَّخَذْتُمْ﴾ بإسقاط الهمزةِ المجتَلَبة لوقوعها في الدَّرْج وبإظهار الذال وقرئ[٢] بإدغامها في التاء ﴿عِنْدَ اللهِ عَهْدًا﴾ خبَرًا أو وعدًا بما تزعمون، فإن ما تدّعون لا يكون إلا بناءً على وعدٍ قوي ولذلك عَبَّر عنه بالعهد ﴿فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ﴾ الفاءُ فصيحة معربة عن شرط محذوفٍ كما في قول من قال: [البسيط]

قالوا خراسانُ أقصىٰ ما يُراد بنا ... ثم القُفولُ فقد جئنا خُراسانا[٣]

أي أن كان الأمر كذلك فلن يُخلِفَه، والجملةُ اعتراضيةٌ وإظهارُ الاسمِ الجليل للإشعار بعِلّة الحُكم فإن عدم الإخلاف من قضية الألوهية، وإظهارُ العهدِ مضافًا إلى ضميره عز وجل لما ذكر، أو لأنَّ المرادَ به جميعُ عهوده لعمومه بالإضافة فيدخل فيه العهدُ المعهودُ دخولًا أوليًّا، وفيه تجافٍ عن التصريح بتحقق مضمونِ كلامِهم وإن كان معلقًا بـ «ما» لم يكَدْ يشَمُّ رائحةَ الوجود قطعًا أعني اتخاذَ العهد.

﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ مفترين ﴿عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ وقوعَه، وإنما عُلّق التوبيخ بإسنادهم إليه سبحانه ما لا يعلمون وقوعَه ـ مع أن ما أسندوه إليه تعالى من قبيل ما يعلمون عدمَ وقوعِه ـ للمبالغة في التوبيخ والنكير فإن التوبيخَ على الأدنىٰ مستلزِمٌ للتوبيخ على الأعلى بالطريق الأَوْلى.

وقولُهم المحكيُّ وإن لم يكن تصريحًا بالافتراء عليه سبحانه مستلزِمٌ له، لأن ذلك الجزمَ لا يكون إلا بإسناد سببِه إليه تعالى، و«أمْ» إما متصلةٌ والاستفهام للتقرير المؤدي إلى التبكيت لتحقق العلم بالشق الأخيرِ كأنه قيل: أم لم تتخذوه بل تتقوّلون عليه تعالى، وإما منقطعةٌ والاستفهام لإنكار الاتخاذِ ونفيه ومعنى بل فيها الإضرابُ

---

= وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ١٦٣)، وزاد نسبته إلى ابن إسحاق وابن المنذر والطبراني والواحدي.

(١) أخرجه الطبري (١/ ٤٢٥) رقم (١٤٠٧)، وابن أبي حاتم (١/ ١٥٦) رقم (٨١٤).
وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ١٦٣)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر والواحدي.

(٢) قرأ بها: نافع، وابن عامر،وحمزة، والكسائي، وأبو عمرو، وشعبة.
ينظر: التبيان للطوسي (١/ ٣٢٤)، والغيث للصفاقسي (١٢٦).

(٣) البيت للعباس بن الأحنف في الأغاني (٨/ ٣٨٨)، ودلائل الإعجاز للجرجاني، ص (٨٤).

والانتقالُ من التوبيخ بالإنكار على اتخاذ العهدِ إلى ما تفيد همزتُها من التوبيخ على التقوُّل على الله سبحانه، كما في قوله عز وجل: ﴿قل آلله أذِنَ لكم أم على الله تفترون﴾ [يونس: ٥٩].

﴿بَلَىٰ﴾ إلى آخره، جوابٌ عن قولهم المحكيِّ وإبطالٌ له من جهته تعالى وبيانٌ لحقيقة الحالِ تفصيلًا في ضمن تشريعٍ كليٍّ شاملٍ لهم ولسائر الكَفَرة بعد إظهار كذِبهم إجمالًا.

وتفويضُ ذلك إلى النبي ﷺ لما أن المُحاجَّةَ والإلزامَ من وظائفه عليه السلام مع ما فيه من الإشعار بأنه أمرٌ هيِّنٌ لا يتوقف على التوقيف، وبلى حرفُ إيجابٍ مختصٌّ بجواب النفي خبرًا واستفهامًا.

﴿مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ فاحشةً من السيئات أي كبيرةً من الكبائر كدأب هؤلاء الكَفَرة، والكسبُ استجلابُ النفعِ، وتعليقُه بالسيئة على طريقة ﴿فبشِّرْهم بعذاب أليم﴾.

﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ﴾ من جميع جوانبِه بحيث لم يبقَ له جانبٌ من قلبه ولسانه وجوارحِه إلا وقد اشتملت واستولت عليه ﴿خَطِيئَتُهُ﴾ التي كسَبها وصارت خاصةً من خواصّه كما تُنبئ عنه الإضافةُ إليه، وهذا إنما يتحقق في الكافر.

ولذلك فسرها السلفُ بالكفر حسبما أخرجه ابن أبي حاتم[١] عن ابن عباس[٢] وأبي هريرة[٣] رضي الله عنهم وابنُ جرير[٤] عن أبي وائل[٥] ومجاهد[٦] وقَتادة[٧]

---

(١) هو: عبد الرحمن بن محمد أبي حاتم بن إدريس بن المنذر التميمي الحنظلي الرازي، أبو محمد: حافظ للحديث، من كبارهم. ولد سنة أربعين ومائتين، كان منزله في درب حنظلة بالري، وإليهما نسبته. من تصانيفه: الجرح والتعديل، والتفسير، والرد على الجهمية، وعلل الحديث، والمسند، والكنى، والفوائد الكبرى، والمراسيل، وآداب الشافعي ومناقبه. توفي سنة سبع وعشرين وثلاثمائة هـ.
ينظر: تذكرة الحفاظ (٣/ ٤٦)، وفوات الوفيات (١/ ٢٦٠)، وطبقات الحنابلة (٢/ ٥٥).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١/ ١٥٧) رقم (٨٢٣)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ١٦٤)، وعزاه لابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١/ ١٥٨) رقم (٨٢٧).

(٤) هو: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب، أبو جعفر الطبري، الآملي، البغدادي، الإمام العلم، صاحب التصانيف العظيمة والتفسير المشهور، والتاريخ العلم، مولده سنة أربع وعشرين ومائتين، أخذ الفقه عن الزعفراني، والربيع المرادي. توفي في شوال سنة عشر وثلاثمائة.
ينظر: طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (١/ ١٠٠)، طبقات الشافعية لابن السبكي (٣/ ١٢٠).

(٥) هو: شقيق بن سلمة الأسدي، أبو وائل الكوفي، أحد سادة التابعين، مخضرم، تعلم القرآن في سنتين، =

وعطاء[(١)] والربيع[(٢)].

وقيل: السيئةُ الكفرُ والخطيئةُ الكبيرة، وقيل: بالعكس وقيل: الفرق بينهما أن الأُولى قد تطلق على ما يُقصَد بالذات والثانيةُ تغلِبُ على ما يُقصَدُ بالعَرَض لأنها من الخطأ.

وقرئ «خَطِيَّتُه» و«خطِيّاتُه»[(٣)] على القلب والإدغام فيهما و«خطيئاتُه»[(٤)] و«خَطاياه»[(٥)] وفي ذلك إيذانٌ بكثرة فنون كفرهم ﴿فَأُولَئِكَ﴾ مبتدأ ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ خبرُه والجملةُ خبر للمبتدأ، والفاءُ لتضمُّنه معنى الشرط، وإيرادُ اسم الإشارة المنبئ عن استحضار المشارِ إليه بما لَه من الأوصاف للإشعار بعلِّيتها لصاحبيّة النار، وما فيه

=

قال عاصم بن بهدلة: «ما سمعته سب إنسانًا قط». وقال ابن معين: «ثقة لا يسأل عن مثله». قال خليفة: توفي بعد الجماجم، وقال الواقدي: في خلافة عمر بن عبد العزيز، قال ابن حجر: «ثقة مخضرم».
ينظر: تاريخ البخاري الكبير (٤/ ٢٤٥)، والجرح والتعديل (٤/ ٣٧١)، والثقات (٤/ ٣٥٤)، تهذيب الكمال (١٢/ ٥٤٨).
وأخرجه الطبري (١/ ٤٢٨) رقم (١٤٢٤).

(٦) أخرجه الطبري (١/ ٤٢٨) رقم (١٤٢٥، ١٤٢٦)، وابن أبي حاتم (١/ ١٥٨) بدون إسناد.
وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ١٦٤) وزاد نسبته لعبد بن حميد.

(٧) أخرجه الطبري (١/ ٤٢٩) رقم (١٤٢٧، ١٤٢٨)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ١٦٤)، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد.

(١) ذكره ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ١٥٨) بلا إسناد.

(٢) هو: الرَّبيع بن أنس الكندي أو الحنفي البصري. روى عن أنس والحسن، وأرسل عن أم سلمة. وروى عنه سليمان التَّيمي وسليمان الأعمش وابن المبارك. قال أبو حاتم: صدوق. وقيل: توفي سنة تسع وثلاثين ومائة. وقيل: سنة أربعين.
ينظر: خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (١/ ٣١٨).
وأخرجه الطبري (١/ ٤٢٩) رقم (١٤٣١).
وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ١٥٨) وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة وعبد بن حميد.

(٣) قرأ بها: حمزة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٤٠).

(٤) قرأ بها: نافع، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٤٠)، والبحر المحيط (١/ ٢٧٩)، والتبيان للطوسي (١/ ٣٢٤)، والتيسير للداني (٧٤)، وتفسير القرطبي (٢/ ١٢)، والحجة لابن خالويه (٨٣)، والحجة لأبي زرعة (١٠٢)، والسبعة لابن مجاهد (١٦٢)، والغيث للصفاقسي (١٢١)، والكشاف للزمخشري (١/ ٧٨)، والكشف للقيسي (١/ ٢٤٩)، والمجمع للطبرسي (١/ ١٤٧)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢١٨).

(٥) ينظر: البحر المحيط (١/ ٢٧٩)، والكشاف للزمخشري (١/ ٧٨).

من معنى البُعد للتنبيه على بُعد منزلتِهم في الكفر والخطايا، وإنما أشير إليهم بعنوان الجَمْعية مراعاةً لجانب المعنىٰ في كلمة (مَنْ) بعدَ مراعاة جانبِ اللفظ في الضمائر الثلاثةِ لما أن ذلك هو المناسبُ لما أسند إليهم في تَيْنِك الحالتين، فإن كسْبَ السيئة وإحاطة خطيئتِه به في حالة الانفراد، وصاحبيّةَ النارِ في حالة الاجتماع أي أولئك الموصوفون بما ذكر من كسب السيئات وإحاطة خطاياهم بهم أصحابُ النار أي ملازموها في الآخرة حسب ملازمتهم في الدنيا لما يستوجبُها من الأسباب التي جملتها ما هم عليه من تكذيب آياتِ الله تعالى وتحريفِ كلامِه والافتراءِ عليه وغيرِ ذلك، وإنما لم يُخَصَّ الجوابُ بحالهم بأن يقال مثلًا: بلى إنهم أصحابُ النار إلخ لما في التعميم من التهويل وبيانِ حالِهم بالبرهان والدليل، مع ما مر من قصد الإشعار بالتعليل.

﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ دائمًا أبدًا فأنَّى لهم التفَصِّي عنها بعد سبعة أيام أو أربعين كما زعموا فلا حجةَ في الآية الكريمة على خلود صاحبِ الكبيرة لما عرفت من اختصاصها بالكافر، ولا حاجة إلى حمل الخلودِ على اللبْث الطويل على أن فيه تهوينَ الخطب في مقام التهويل.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أولئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ جرت السنةُ الإلهيةُ على شفْع الوعدِ بالوعيد مراعاةً لما تقتضيه الحِكمةُ في إرشاد العبادِ من الترغيب تارةً والترهيبِ أخرى، والتبشيرِ مرةً والإنذارِ أخرى

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيْثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ شروعٌ في تَعداد بعضٍ آخرَ من قبائح أسلافِ اليهودِ مما ينادي بعدم إيمانِ أخلافِهم، وكلمةُ «إذ» نُصب بإضمار فعلٍ خوطب به النبيُّ ﷺ والمؤمنون ليؤدِّيَهم التأملُ في أحوالهم إلى قطع الطمَع عن إيمانهم، أو اليهودُ الموجودون في عهد النبوة توبيخًا لهم بسوء صنيعِ أسلافِهم أي اذكروا إذ أخذنا ميثاقهم ﴿لاَ تَعْبُدونَ إلَّا الله﴾ على إرادة القول أي وقلنا أو قائلين لا تعبدون إلخ وهو إخبارٌ في معنى النهي كقوله تعالى: ﴿ولا يُضارَّ كاتبٌ ولا شهيد﴾ [البقرة: ٢٨٢] وكما تقول: تذهب إلى فلان وتقول كيتَ وكيت وهو أبلغُ من صريح النهي لما فيه من إيهام أن المنهيَّ حقُّه أن يسارعَ إلى الانتهاء عما نُهي عنه فكأنه انتهى عنه فيُخبر به الناهيَ. ويؤيده قراءةُ[١] (لا تعبدوا) وعطفُ ﴿قولوا﴾ عليه وقيل تقديره ألا تعبدوا إلخ

---

(١) قرأ بها أُبي، وابن مسعود.
ينظر: البحر المحيط (١/ ٢٨٢، ٢٨٣)، وتفسير القرطبي (٢/ ١٣)، والكشاف للزمخشري (١/ ٧٩)، والمعاني للفراء (١/ ٤٩).

فحُذِف الناصبُ ورُفع الفعل كما في قوله: [الطويل]

ألا أيُّهذا الزاجري أحضرُ الوغى وأن أشهدَ اللذاتِ، هل أنت مُخْلِدي؟[١]

ويعضُدُه قراءةُ[٢] (ألا تعبُدوا) فيكون بدلًا من الميثاق أو معمولًا له بحذف الجار وقيل: إنه جوابُ قسم دل عليه المعنى كأنه قيل: وحلّفناهم لا تعبدون إلا الله، وقرئ[٣] بالياء لأنهم غُيَّبٌ.

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ متعلق بمضمر أي: وتحسنون أو وأحسنوا ﴿وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾ عطفٌ على الوالدين ويتامىٰ جمع يتيم كندامىٰ جمع نديم، وهو قليل، ومسكين مِفْعيل من السكون كأن الفقرَ أسكنه من الحَراك وأثخنه عن التقلب ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ أي قولًا حسنًا سماه (حُسْنًا) مبالغة وقرئ[٤] كذلك و«حُسُنًا» بضمتين[٥]، وهي لغة أهل الحجاز وحُسْنى كبُشرى والمراد به ما فيه تخلّقٌ وإرشاد ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ هما ما فُرض عليهم في شريعتهم ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم﴾ إن جُعل ناصبُ الظرف خطابًا للنبي ﷺ والمؤمنين فهذا التفاتٌ إلى خطاب بني إسرائيلَ جميعًا بتغليب أخلافِهم على أسلافهم لجَرَيان ذِكرِ كلِّهم حينئذ على نهْج الغَيْبة، فإن

---

(١) البيت لطرفة بن العبد في ديوانه ص (٣٢)، والإنصاف (٢/ ٥٦٠)، وخزانة الأدب (١/ ١١٩، ٨/ ٥٧٩)، والدرر (١/ ٧٤)، وسرّ صناعة الإعراب (١/ ٢٨٥)، وشرح شواهد المغني (٢/ ٨٠٠)، والكتاب (٣/ ٩٩، ١٠٠)، ولسان العرب (أنن)، (دنا)، والمقاصد النحويَّة (٤/ ٤٠٢)، والمقتضب (٢/ ٨٥)، وبلا نسبة في خزانة الأدب (١/ ٤٦٣، ٨/ ٥٠٧، ٥٨٠، ٥٨٥)، والدرر (٣/ ٣٣، ٩/ ٩٤)، ورصف المباني ص (١١٣)، وشرح شذور الذهب ص (١٩٨)، وشرح ابن عقيل ص (٥٩٧)، وشرح المفصل (٢/ ٧، ٤/ ٢٨، ٧/ ٥٢)، ومجالس ثعلب ص (٣٨٣)، ومغني اللبيب (٢/ ٣٨٣، ٦٤١)، وهمع الهوامع (٢/ ١٧).

(٢) قرأ بها: ابن مسعود.
ينظر: الكشاف للزمخشري (١/ ٧٩).

(٣) قرأ بها: أُبي وابن مسعود.
ينظر: البحر المحيط (١/ ٢٨٢)، والكشاف للزمخشري (١/ ٧٩).

(٤) قرأ بها: حمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٤٠)، الإعراب للنحاس (١/ ١٩٢)، والإملاء للعكبري (١/ ٢٨)، والبحر المحيط (١/ ٢٨٤)، والتبيان للطوسي (١/ ٣٢٧)، والتيسير للداني (٧٤)، وتفسير الطبري (٢/ ٢٩٤)، والحجة لأبي زرعة (١٠٣)، والسبعة لابن مجاهد (١٦٢)، والغيث للصفاقسي (١٢١)، والكشف للقيسي (١/ ٢٥٠)، والمجمع للطبرسي (١/ ١٤٩)، والمعاني للأخفش (١/ ١٢٧)، وتفسير الفخر الرازي (١/ ٤٠٧)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢١٨).

(٥) قرأ بها: عيسى بن عمر، وعطاء بن أبي رباح.
ينظر: البحر المحيط (١/ ٢٨٤، ٢٨٥)، وتفسير القرطبي (٢/ ١٦).

الخطاباتِ السابقةَ لأسلافهم محْكيةٌ داخلةٌ في حيز[1] القول المقدّر قبل لا تعبدون كأنهم استُحضِروا عند ذكرِ جناياتِهم فنُعيت هي عليهم، وإنْ جعل خِطابًا لليهود المعاصرين لرسول الله ﷺ فهذا تعميمٌ للخطاب بتنزيل الأسلافِ منزلةَ الأخلاف كما أنه تعميمٌ للتولي بتنزيل الأخلافِ منزلةَ الأسلاف للتشديد في التوبيخ أي أعرضتم عن المُضِيِّ على مقتضىٰ الميثاقِ ورفضتموه.

﴿إلاَّ قليلًا مِنْكُم﴾ وهم من الأسلاف مَنْ أقام اليهوديةَ على وجهها قبل النسخ، ومن الأخلاف مَنْ أسلم كعبد اللّه بنِ سلام وأضرابِه ﴿وَأَنْتُم مُعْرِضُونَ﴾ جملةٌ تذييلية أي وأنتم قومٌ عادَتُكم الإعراضُ عن الطاعة ومراعاةِ حقوقِ الميثاق، وأصلُ الإعراض الذهابُ عن المواجهة والإقبالُ إلى جانب العَرْض.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيْثَاقَكُمْ﴾ منصوب بفعل مُضمرٍ خوطب به اليهودُ قاطبةً على ما ذكر من التغليب ونُعي عليهم إخلالُهم بمواجب الميثاق المأخوذِ منهم في حقوق العبادِ على طريقة النهي إثرَ بيانِ ما فعلوا بالميثاق المأخوذِ منهم في حقوق الله سبحانه وما يجري مَجراه على سبيل الأمرِ فإن المقصودَ الأصليَّ من النهي عن عبادة غيرِ الله تعالى هو الأمرُ بتخصيص العبادةِ به تعالى أي واذكروا وقت أخذِنا ميثاقَكم في التوراة.

وقوله تعالى: ﴿لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُم مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ كما قبله إخبارٌ في معنى النهي غُيِّر السبكُ إليه لما ذُكر من نُكتة المبالغة. والمرادُ به النهيُ الشديدُ عن تعرُّض بعضِ بني إسرائيلَ لبعضٍ بالقتل والإجلاءِ، والتعبيرُ عن ذلك بسفك دماءِ أنفسِهم وإخراجِها من ديارهم بناءً على جَرَيان كلِّ واحدٍ منهم مَجرىٰ أنفسِهم لما بينهم من الاتصال القويِّ نسَبًا ودينًا، للمبالغة في الحمل على مراعاة حقوقِ الميثاق بتصوير المنهيِّ عنه بصورةٍ تكرَهها كلُّ نفس وتنفِرُ عنها كلُّ طبيعةٍ. فضميرُ ﴿أنفسَكم﴾ للمخاطبين حتمًا إذ به يتحقق تنزيلُ المخْرِجين منزلتَهم كما أن ضميرَ (ديارِكم) للمخرَجين قطعًا، إذ المحذورُ إنما هو إخراجُهم من ديارهم لا من ديار المخاطَبين من حيث إنهم مخاطبون كما يفصحُ عنه ما سيأتي من قوله تعالى: ﴿من ديارهم﴾.

وإنما الخطابُ هاهنا باعتبار تنزيلِ ديارِهم منزلةَ ديارِ المخاطَبين بناءً على تنزيل أنفسِهم منزلتَهم لتأكيد المبالغةِ وتشديدِ التشنيع، وأما ضميرُ ﴿دماءَكم﴾ فمحتملٌ

---

(١) في ط: حيزة.

للوجهين: مَفادُ الأول كونُ المسفوكِ دماءً ادعائيةً للمخاطَبين حقيقةً، ومَفادُ الثاني كونُه دماءً حقيقيةً للمخاطبين ادعاءً وهما متقاربان في إفادة المبالغةِ فتدَّبرْ.

وأما ما قيل من أن المعنى لا تباشروا ما يؤديّ إلى قتل أنفسِكم قِصاصًا، أو ما يبيح سفكَ دمائِكم وإخراجَكم من دياركم ويصرِفُكم عن دياركم، أو لا تفعلوا ما يُرديكم ويصرِفُكم عن الحياة الأبدية فإنه القتلُ في الحقيقة ولا تقترفوا ما تُحْرَمون به عن الجنة التي هي دارُكم فإنه الجلاءُ الحقيقيُّ ـ فمما لا يساعده سياقُ النظمِ الكريم بل هو نصٌّ فيما قلناه كما ستقف عليه ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ أي بالميثاق وما يوجب[1] المحافظةَ عليه، ﴿وَأَنْتُم تَشْهَدُونَ﴾ توكيدٌ للإقرار كقولك: أقرَّ فلانٌ شاهدًا على نفسه، وقيل: وأنتم أيها الحاضرون تشهدون اليوم على إقرار أسلافِكم بهذا الميثاق، ﴿ثُمَّ أنتم هَؤُلاَءِ﴾ خطابٌ خاصٌّ بالحاضرين فيه توبيخ شديدٌ واستبعادٌ قويٌّ لما ارتكبوه بعد ما كان من الميثاق والإقرارِ به والشهادةِ عليه، وأنتم مبتدأ و «هؤلاءِ» خبرُه، ومَناطُ الإفادةِ اختلافُ الصفاتِ المنزَّلةِ منزلةَ اختلافِ الذات، والمعنى أنتم بعد ذلك هؤلاءِ المشاهِدون الناقضون المتناقضون حسبما تُعربُ عنه الجملُ الآتية، فإن قوله عز وجل: ﴿تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ إلخ بيانٌ له وتفصيلٌ لأحوالهم المُنْكَرة المندرجةِ تحت الإشارةِ ضمنًا كأنهم قالوا: كيف نحن؟ فقيل: تقتُلون أنفسَكم أي الجارين مَجرى أنفسِكم كما أشير إليه.

وقرئ[2] (تُقتّلون) بالتشديد للتكثير ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ﴾ الضمير إما للمخاطبين والمضافُ محذوفٌ أي من أنفسكم، وإما للمقتولين والخطابُ باعتبار أنهم جُعلوا أنفُسَ المخاطَبين، وإلا فلا يتحقق التكافُؤُ بين المقتولين والمخرجين في ذلك العنوان الذي عليه يدور فلَكُ المبالغة في تأكيد الميثاقِ حسبما نُصَّ عليه، ولا يظهر كمالُ قباحةِ جناياتِهم في نقضه ﴿مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ الضمير للفريق.

وإيثارُ الغَيْبة مع جواز الخِطاب أيضًا ـ بناءً على اعتبار العنوان المذكورِ كما مر في الميثاق ـ للاحتراز عن توهّم كونِ المرادِ إخراجَهم من ديار المخاطَبين من حيث هي ديارُهم لا من حيث هي ديارُ المخرَجين، وقيل: (هؤلاءِ) موصولٌ والجملتان في حيّز الصلةِ، والمجموعُ هو الخبرُ لـ (أنتم) ﴿تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم﴾ بحذف إحدى التاءين،

---

(١) في المخطوط: بوجوب.

(٢) قرأ بها: الحسن، وأبو نهيك، والزهري.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٤٠)، والبحر المحيط (١/ ٢٩١).

وقرئ[١] بإثباتهما وبالإدغام[٢] و(تَظَهَّرون)[٣] بطرح إحدى التاءين من تتظهرون ومعنى الكل تتعاونون وهي حالٌ من فاعل (تَخرجون) أو من مفعوله أو منهما جميعًا، مبينةٌ لكيفية الإخراج دافعةٌ لتوهم اختصاصِ الحُرمة بالإخراج بطريق الأصالةِ والاستقلالِ، دون المظاهرةِ والمعاونة ﴿بِالإِثْمِ﴾ متعلقٌ بـ (تظاهرون) حال من فاعله أي: متلبسين بالإثم وهو الفعلُ الذي يستحق فاعلُه الذمَّ واللومَ، وقيل: هو ما ينفِرُ عنه النفسُ ولا يطمئن إليه القلب﴿وَالعُدْوَانِ﴾ وهو التجاوزُ في الظلم.

﴿وَإِنْ يَأْتُوكُم أُسَارىٰ﴾ جمعُ أسير وهو من يؤخذ قهرًا، فعيل بمعنى مفعول من الأسر أي: الشدّ أو جمعُ أَسْرىٰ وهو جمع أسير كجرحىٰ وجريح، وقد قرئ[٤] (أَسْرى)، ومحله النصبُ على الحالية ﴿تُفَادُوهُمْ﴾ أي تخرجوهم من الأسر، بإعطاء الفداء وقرئ[٥] (تَفْدوهم).

---

(١) ينظر: البحر المحيط (١/ ٢٩١)، والكشاف للزمخشري (١/ ٧٩).

(٢) قرأ بها: ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٤٠)، والإعراب للنحاس (١/ ١٩٤)، والإملاء للعكبري (١/ ٢٩)، والتبيان للطوسي (١/ ٣٣٤)، وتفسير الطبري (٢/ ٣١٨)، وتفسير القرطبي (٢/ ٢٠)، والحجة لابن خالويه (٨٤)، والحجة لأبي زرعة (١٠٤)، والسبعة لابن مجاهد (١٦٢، ١٦٣)، والكشاف للزمخشري (١/ ٧٩)، والكشف للقيسي (١/ ٢٥٠، ٢٥١)، والمجمع للطبرسي (١/ ١٥٢)، والمعاني للأخفش (١/ ١٢٨)، وتفسير الفخر الرازي (١/ ٤١٠)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢١٨).

(٣) قرأ بها: أبو عمرو، ومجاهد، وقتادة.
ينظر: البحر المحيط (١/ ٢٩١)، وتفسير القرطبي (٢/ ٢٠)، والكشاف للزمخشري (١/ ٧٩).

(٤) قرأ بها: حمزة، والحسن، وابن وثاب، وطلحة، وابن أبي إسحاق، وعيسى، والأعمش، والنخعي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٤١)، والبحر المحيط (١/ ٢٩١)، والتبيان للطوسي (١/ ٣٣٤)، والتيسير للداني (٧٤)، وتفسير الطبري (٢/ ٣١١)، وتفسير القرطبي (٢/ ٢١)، والحجة لابن خالويه (٨٤)، والحجة لأبي زرعة (١٠٤)، والسبعة لابن مجاهد (١٦٣)، والغيث للصفاقسي (١٢١)، والكشاف للزمخشري (١/ ٧٩)، والكشف للقيسي (١/ ٧٩)، والمجمع للطبرسي (١/ ١٥٢)، والمعاني للأخفش (١/ ١٢٩)، وتفسير الفخر الرازي (١/ ٤١٠)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢١٨).

(٥) قرأ بها: ابن كثير وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، ومجاهد، وابن محيصن، والأعرج، وشبل، وقتادة، وأبو عبد الرحمن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٤١)، والإملاء للعكبري (١/ ٢٩)، والبحر المحيط (١/ ٢٩١)، والتيسير للداني (٧٤)، وتفسير الطبري (٢/ ٣١١)، وتفسير القرطبي (٢/ ٢١)، الحجة لابن خالويه (٨٤)، والحجة لأبي زرعة (١٠٤)، والسبعة لابن مجاهد (١٦٣)، والغيث للصفاقسي (١٢١)، والكشف للقيسي (١/ ٢٥١، ٢٥٢)، والمجمع للطبرسي (١/ ١٥٢)، والمعاني للأخفش (١/ ١٢٩)، وتفسير الفخر الرازي (١/ ٤١٠)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢١٨).

قال السدي: إن الله تعالى أخذ على بني إسرائيلَ في التوراة الميثاقَ أن لا يقتُلَ بعضُهم بعضًا ولا يُخرجَ بعضُهم بعضًا من ديارهم وأيُّما عبدٍ أو أمةٍ وجدتموه من بني إسرائيلَ فاشترُوه وأعتِقوه، وكانت قريظةُ حلفاءَ الأوسِ والنضيرُ حلفاءَ الخزرج حتى كان بينهما ما كان من العداوة والشَنَآن، فكان كلُّ فريقٍ يقاتل مع حُلفائه فإذا غَلَبوا خرَّبوا ديارَهم وأخرجوهم منها، ثم إذا أُسر رجل من الفريقين جمعوا له مالًا فيَفْدونه، فعيَّرتهم العربُ وقالت: كيف تقاتلونهم ثم تَفْدونهم؟ فيقولون: أُمرنا أن نفديَهم وحُرِّم علينا قتالُهم، ولكن نستحْيي أن نُذِلَّ حلفاءَنا، فذمهم الله تعالى على المناقضة[1] ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ ضميرُ الشأن وقع مبتدأ و(محرمٌ) فيه ضمير قائم مقامَ الفاعلِ وقع خبرًا عن إخراجهم والجملة خبرٌ لضمير الشأن، وقيل: (محرَّمٌ) خبرٌ لضمير الشأن وإخراجُهم مرفوع على أنه مفعولُ ما لم يُسمَّ فاعلُه.

وقيل: الضميرُ مُبهم يفسّره (إخراجهم)، أو راجعٌ إلى ما يدل عليه (تُخرجون) من المصدر، و(إخراجُهم) تأكيدٌ أو بيانٌ، والجملةُ حالٌ من الضمير في (تخرجون) أو من فريقًا أو منهما كما مر بعد اعتبار القيد بالحال السابقة، وتخصيصُ بيان الحرمةِ هلهنا بالإخراج مع كونه قرينًا للقتل عند أخذ الميثاقِ لكونه مِظنّةً للمساهلة في أمره بسبب قِلة خَطَره بالنسبة إلى القتل، ولأن مساقَ الكلام لذمّهم وتوبيخِهم على جناياتهم وتناقض أفعالهم معًا، وذلك مختصٌّ بصورة الإخراجِ حيث لم يُنقلْ عنهم تدارُك القتلى بشيءٍ من دِيَةٍ أو قِصاصٍ ـ هو السر في تخصيص التظاهرِ به فيما سبق.

وأما تأخيرُه من الشرطية المعترضةِ مع أن حقه التقديمُ كما ذكره الواحدي فلأن نظْمَ أفاعيلِهم المتناقضةِ في سَمْطٍ واحدٍ من الذكر أدخَلُ في إظهار بطلانها ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ﴾ أي التوراة التي أُخذ فيها الميثاقُ المذكور، والهمزةُ للإنكار التوبيخيّ والفاءُ للعطف على مقدّر يستدعيه المقامُ أي أتفعلون ذلك فتؤمنون ببعض الكتاب وهو المفاداة، ﴿وَتَكْفُرونَ بِبَعْضٍ﴾ وهو حرمةُ القتالِ والإخراج مع أن مِن قضية الإيمان ببعضه الإيمانُ بالباقي لكون الكلِّ من عند الله تعالى داخلًا في الميثاق، فمناطُ التوبيخ كفرُهم بالبعض مع إيمانهم بالبعض حسبما يفيده ترتيبُ النظمِ الكريم، فإن التقديمَ يستدعي في المقام الخطابي أصالةَ المقدَّم وتقدُّمَه بوجهٍ من الوجوه حتمًا، وإذ ليس ذلك هاهنا باعتبار الإنكارِ والتوبيخ عليه وهو باعتبار الوقوعِ قطعًا لا إيمانُهم

---

(١) أخرجه الطبري (١/ ٤٤٢) رقم (١٤٧٥)، وابن أبي حاتم (١/ ١٦٣) رقم (٨٥٧) عن السدي.
وأخرجه الطبري (١/ ٤٤١) رقم (١٤٧٤)، وابن أبي حاتم (١/ ١٦٦) رقم (٨٧٠) عن ابن عباس.
وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ١٦٦) وزاد نسبته إلى ابن إسحاق.

بالبعض مع كفرهم بالبعض كما هو المفهومُ لو قيل: أفتكفرون ببعض الكتاب وتؤمنون ببعض؟ ولا مجردُ كفرِهم بالبعض، وإيمانِهم بالبعض كما يفيده أن يقال: أفتَجْمعون بين الإيمان ببعض الكتابِ والكفرِ ببعضٍ أو بالعكس!

﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَٰلِكَ﴾ (ما) نافية و(مَنْ) إن جُعلت موصولةً فلا محلَّ لـ (يفعلُ) من الإعراب وإن جعلت موصوفةً فمحله الجر على أنه صفتُها، وذلك إشارةٌ إلى الكفر ببعض الكتاب مع الإيمان ببعضٍ أو إلى ما فعلوا من القتل والإجلاء مع مُفاداةِ الأُساري ﴿مِنْكُمْ﴾ حالٌ من فاعل (يفعل) ﴿إِلَّا خِزْيٌ﴾ استثناءٌ مُفرَّغٌ وقع خبرًا للمبتدأ، و(الخزيُ): الذلُّ والهوانُ مع الفضيحة، والتنكيرُ للتفخيم، وهو قتلُ بني قُرَيظةَ وإجلاءُ بني النَّضير إلى أذْرِعاتَ وأريحاءَ من الشام وقيل: الجزية ﴿فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ في حيز الرفع على أنه صفةُ (خزيٌ) أي خزيٌ كائن في الحياة الدنيا أو في حيز النصب على أنه ظرفُ الخزي.

ولعل بيانَ جزائِهم بطريق القصر على ما ذكر لقطع أطماعِهم الفارغةِ من ثمرات إيمانهم ببعض الكتاب وإظهارِ أنه لا أثرَ له أصلًا مع الكفر ببعض ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ﴾ وقرئ[1] بالتاء، أوثرَ صيغةُ الجمع نظرًا إلى المعنى (مَنْ) بعد ما أوثِرَ الإفرادُ نظرًا إلى لفظها لما أن الردَّ إنما يكون بالاجتماع ﴿إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ لما أن معصيتَهم أشدُّ المعاصي وقيل: أشدُّ العذاب بالنسبة إلى ما لهم في الدنيا من الخزي والصَّغار، وإنما غُيِّر سبكُ النظمِ الكريم حيث لم يقُلْ مثلًا وأشدُّ العذاب يوم القيامة للإيذان بكمال التنافي بين جزاءَي النشأتين وتقديم يوم القيامة على ذكر ما يقع فيه لتهويل الخطبِ وتفظيعِ الحال من أول الأمر، ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من القبائح التي من جملتها هذا المنكرُ. وقرئ[2] بالياء على نهج (يُردّون) وهو تأكيد للوعيد ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من الأوصاف القبيحةِ وهو مبتدأ خبرُه قولُه تعالى: ﴿الَّذِينَ اشْتَرَوُا﴾ أي آثروا ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ واستبدلوها ﴿بِالْآخِرَةِ﴾ وأعرضوا

---

(١) قرأ بها: الحسن، وابن هرمز.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ١٩٥)، والإملاء للعكبري (١/ ٢٩)، والبحر المحيط (١/ ٢٩٤)، وتفسير القرطبي (٢/ ٢٣).

(٢) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وأبو بكر، ويعقوب، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٤١)، والإملاء للعكبري (١/ ٢٩)، والبحر المحيط (١/ ٢٩٤)، والتيسير للداني (٧٤)، وتفسير الطبري (٢/ ٣١٥)، الحجة لأبي زرعة (١٠٥)، الغيث للصفاقسي (١٢٢)، والكشاف للزمخشري ١/ ٨٠، والكشف للقيسي (١/ ٢٥٢، ٢٥٣)، وتفسير الفخر الرازي (١/ ٤١١)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢١٨).

عنها مع تمكنهم من تحصيلها فإن ما ذُكر من الكفر ببعض أحكامِ الكتاب إنما كان لمراعاة جانبِ حلفائِهم لما يعود إليهم منهم من بعض المنافع الدينيةِ والدنيوية ﴿فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذَابُ﴾ دنيويا كان أو أُخرويا ﴿وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ يدفعه عنهم شفاعةً أو جبرًا، والجملةُ معطوفةٌ على ما قبلها عطفَ الاسمية على الفعلية، أو (ينصرون) مفسِّرٌ لمحذوف قبل الضمير، فيكونُ من عطف الفعلية على مثلها ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ﴾ شروعٌ في بيانِ بعضٍ آخرَ من جناياتهم، وتصديرُه بالجملة القَسَمية لإظهار كمالِ الاعتناءِ به، والمرادُ بالكتاب التوراة، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن التوراة لما نزلت جُملةً واحدة أمر الله تعالى موسى عليه السلام بحملها فلم يُطق ذلك فبعث الله بكل حرفٍ منها مَلَكًا فلم يطيقوا حملَها فخففها الله تعالى لموسى فحملها[١] ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ يقال: قفّاه به إذا أتبعه إياه، أي أرسلناهم على أَثَرِه كقوله تعالى: ﴿ثم أرسلنا رُسُلنا تَتْرا﴾ [المؤمنون، الآية ٤٤] وهم يوشَعُ وأشمَويلُ وشمعونُ وداودُ وسليمانُ وشَعْيا وأرميا وعُزيرٌ وحزْقيل وإلياسُ واليسعُ ويونسُ وزكريا ويحيى وغيرُهم عليهم الصلاة والسلام ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابنَ مَرْيَمَ البَيِّنَاتِ﴾ المعجزاتِ الواضحاتِ من إحياء الموتى وإبراءِ الأكمَهِ والأبرصِ والإخبارِ بالمغيّبات، أو الإنجيلَ وعيسى بالسريانية: إيشوُعُ ومعناه المبارك ومريم بمعنى الخادم وهو بالعبرية من النساء كالزير من الرجال وبه فُسر قولُ رؤبة: [الرجز]

قلتُ لزيرٍ لم تصِلْه مَرْيمُهْ ... ضليلِ أهواءِ الصِّبا تندّمُهْ[٢]

ووزنه مِفْعل إذ لم يثبت فعيل ﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾، وقرئ[٣] و(آيدناه).

﴿بِرُوحِ القُدُسِ﴾ بضم الدال، وقرئ[٤] بسكونها أي بالروح المقدسة، وهي روحُ

---

(١) ذكره النيسابوري في غرائب القرآن (١/ ٣٣٠)، وابن عادل في اللباب (٢/ ٢٦١).

(٢) ينظر: الرجز في ديوانه ص(١٤٩)، وتاج العروس (١١/ ٤٦٨) (زور)، (ضلل)، ولسان العرب (زور)، وتهذيب اللغة (١٣/ ٢٤٤، ١٥/ ٣٠٢)، وكتاب العين (٧/ ٩).

(٣) قرأ بها: أبو عمرو، ومجاهد، والأعرج، وحميد، وابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ١٤١، والإعراب للنحاس (١/ ١٩٦)، والإملاء للعكبري (١/ ٢٩)، والبحر المحيط (١/ ٢٩٩)، وتفسير القرطبي (٢/ ٢٤)، والمحتسب لابن جني (١/ ٩٥).

(٤) قرأ بها: ابن كثير، ومجاهد، وابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٤١)، والإعراب للنحاس (١/ ١٩٨)، الإملاء للعكبري (١/ ٢٩)، البحر المحيط (١/ ٢٩٩)، التبيان للطوسي (١/ ٣٣٩)، التيسير للداني (٧٤)، والحجة لابن خالويه (٨٤)، والحجة لأبي زرعة (١٠٥)، والسبعة لابن مجاهد (١٦٣)، والغيث للصفاقسي (١٢٣)، والكشف للقيسي (١/ ٢٥٣)، والمجمع للطبرسي (١/ ١٥٤)، وتفسير الفخر الرازي (١/ ٤١٢).

عيسى عليه السلام كقولك: حاتمُ الجود ورجلُ صدقٍ وإنما وُصِفت بالقدْس لكرامته، أو لأنه عليه السلام لم تضُمَّه الأصلابُ ولا أرحامُ الطوامِث.

وقيل: بجبريلَ عليه السلام وقيل: بالإنجيل كما قيل: في القرآن ﴿رُوحًا من أمرنا﴾ [الشورى: ٥٢] وقيل: باسم الله الأعظم الذي[١] يُحيي الموتى بذكره، وتخصيصُه من بين الرسل عليهم السلام بالذكر ووصفُه بما ذكر من إيتاء البينات والتأييدِ بروح القدسِ لما أن بِعْثتَهم كانت لتنفيذ أحكامِ التوراة وتقريرِها، وأما عيسى عليه السلام فقد نُسخ بشرعه كثيرٌ من أحكامها ولحسم مادةِ اعتقادِهم الباطلِ في حقه عليه السلام ببيان حقّيتِه وإظهارِ كمالِ قُبح ما فعلوا به عليه السلام ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ من أولئك الرسل ﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمُ﴾ من الحق الذي لا محيدَ عنه أي لا تحبُّه، من هويَ كفرح إذا أحب، والتعبيرُ عنه بذلك للإيذان بأن مدارَ الردِّ والقبولِ عندهم هو المخالفةُ لأهواء أنفسِهم والموافقةُ لها لا شيءٍ آخرَ، وتوسيطُ الهمزة بين الفاء وما تعلّقت به من الأفعال السابقةِ لتوبيخهم على تعقيبهم ذلك، أو للتعجب من شأنهم، ويجوز كونُ الفاء للعطف على مقدر يناسب المقام، أي ألم تطيعوهم فكلما جاءكم رسولٌ منهم بما لا تهوىٰ أنفسكم ﴿اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الاتباع له والإيمانِ بما جاء به من عند الله تعالى.

﴿فَفَرِيقًا﴾ منهم ﴿كَذَّبْتُمْ﴾ من غير أن تتعرضوا لهم بشيءٍ آخرَ من المضارِّ، والفاءُ للسببية أو للتعقيب ﴿وَفَرِيقًا﴾ آخرَ منهم ﴿تَقْتُلُونَ﴾ غيرَ مكتفين بتكذيبهم كزكريا ويحيى عليهما السلام، وتقديمُ ﴿فريقًا﴾ في الموضعين للاهتمام وتشويق السامعِ إلى ما فعلوا بهم لا للقصر، وإيثارُ صيغةِ الاستقبالِ في القتل لاستحضار صورتِه الهائلةِ، أو للإيماء إلى أنهم بعْد على تلك النية، حيث همُّوا بما لم ينالوه من جهته عليه السلام وسحَروه وسمُّوا له الشاةَ حتى قال ﷺ: «ما زَالَتْ أَكْلَةُ خَيْبَرَ تعاودني فهذا أَوَانُ قَطَعَتْ أبهري»[٢] ﴿وَقَالُوا﴾ بيانٌ لفن آخرَ من قبائحهم على طريق الالتفاتِ إلى

---

(١) زاد في المخطوط: كان.

(٢) أخرجه البخاري (٧/ ٧٣٧) كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٢٨) معلقًا قال: وقال يونس عن الزهري قال عروة قالت عائشة - رضي الله عنها- كان النبي ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه: يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم. وعزاه في الكنز (٣٢١٨٩) لابن السني في اليوم والليلة، وأبي نعيم في الطب من حديث أبي هريرة. وله شاهد من حديث ابن عباس، أن رسول الله ﷺ مات من اللحم الذي كانت اليهودية سمته فانقطع أبهره من السم على أس السنة كان يقول: ما زلت أجد منه حسًّا.

الغَيْبة إشعارًا بإبعادهم عن رُتبة الخِطاب لِمَا فُصِّل من مخازيهم الموجبةِ للإعراض عنهم وحكايةِ نظائرِها لكل من يفهم بُطلانها وقباحتَها من أهل الحق، والقائلون هم الموجودون في عصر النبي عليه الصلاة والسلام: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ جمعُ أَغْلَفَ، [مستعار من الأغلف][1] الذي لم يُختَنْ أي[2] مُغشّاة بأغشية جِبِلِّيةٍ لا يكاد يصلُ إليها ما جاء به محمد ﷺ ولا تفقَهُه كقولهم: ﴿قلوبُنا في أكِنّة مما تدعونا إليه﴾ [فصلت: ٥] وقيل: هو تخفيفُ غلُفٌ جمع غِلاف، ويؤيده ما رُوي عن أبي عمرو من القراءة بضمتين[3]، يعنون أن قلوبنا أوعيةٌ للعلوم فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره قاله ابن عباس وعطاءٌ. وقال الكلبي: يعنون أن قلوبَنا لا يصل إليها حديثٌ إلا وعَتْه ولو كان في حديثك خيرٌ لوعتْه أيضًا ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ الله بِكُفْرِهِمْ﴾ ردٌّ لما قالوه وتكذيبٌ لهم في ذلك والمعنى على الأول بل أبعدهم الله سبحانه عن رحمته بأن خذلهم وخلاّهم وشأنَهم بسبب كفرهم العارضِ وإبطالِهم لاستعدادهم بسوء اختيارِهم بالمرة وكونِهم بحيث لا ينفعهم الإلطاف أصلًا بعد أن خلقهم على الفطرة والتمكنِ من قبول الحق. وعلى الثاني بل أبعدهم من رحمته فأنى لهم ادعاءُ العلمِ الذي هو أجلُّ آثارِها وعلى الثالث بل أبعدهم من رحمته فلذلك لا يقبلون الحقَ المؤديَ إليها ﴿فَقَلِيْلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾ ما مزيدة للمبالغة أي فإيمانًا قليلًا يؤمنون وهو إيمانُهم ببعض الكتاب وقيل: فزمانًا قليلًا يؤمنون وهو ما قالوا: ﴿آمنوا بالذي أنزِل على الذين آمنوا وجهَ النهار واكفُروا آخره﴾ [آل عمران، الآية ٧٢] وكلاهما ليس بإيمان حقيقةً.

وقيل: أريد بالقِلة العدمُ. والفاءُ لسببية اللعن لعدم الإيمان ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ﴾ هو القرآن، وتنكيرُه للتفخيم ووصفُه بقوله عز وجل ﴿مِنْ عِنْدِ الله﴾ أي كائنٌ من عنده تعالى للتشريف ﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ من التوراة عُبر عنها بذلك لما أن المعيةَ من موجبات الوقوفِ على ما في تضاعيفها المؤدّي إلى العلم بكونه مصدقًا لهما، وقرئ[4] (مصدّقًا) على أنه حال من كتاب لتخصصه بالوصف ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي

=

قال الهيثمي (٩/ ٣٨).
رواه الطبراني وإسناده حسن.

(١) سقط في ط.
(٢) زاد في المخطوط: هي.
(٣) قرأ بها أيضا: ابن عباس، وابن محيصن، والأعرج، وابن هرمز.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٤١)، والإملاء للعكبري (١/ ٢٩)، والبحر المحيط (١/ ٣٠١)، والتبيان للطوسي (١/ ٣٤١)، وتفسير الطبري (٢/ ٣٢٤)، وتفسير القرطبي (٢/ ٢٥)، والسبعة لابن مجاهد (١٦٤)، والمجمع للطبرسي (١/ ١٥٦).
(٤) قرأ بها: أبي، وابن أبي عبلة.

=

من قبل مجيئه ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي وقد كانوا قبل مجيئه يستفتحون به على المشركين ويقولون: اللهم انصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمانِ الذي نجد نعته في التوراة ويقولون لهم: قد أظل زمانُ نبيٍّ يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلُكم معه قتلَ عادٍ وإِرَمَ. قال ابن عباس وقتادة والسدي: نزلت في بني قُرَيظةَ والنضير كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثِه[١].

وقيل: معنى يستفتحون يفتحون عليهم ويُعرِّفونهم بأن نبيًا يُبعث منهم قد قرُب أوانُه والسين للمبالغة كما في استعجب أي يسألون من أنفسهم الفتحَ عليهم أو يسأل بعضُهم بعضًا أن يَفتحَ عليهم. وعلى التقزديرين فالجملة حاليةٌ مفيدةٌ لكمال مكابرتِهم وعنادِهم.

وقولُه عز وعلا: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ تكريرٌ للأول لطول العهد بتوسط الجملةِ الحاليةِ، وقولُه تعالى: ﴿مَا عَرَفُوا﴾ عبارةٌ عما سلف من الكتاب لأن معرفةَ من أنزل عليه هو معرفةٌ له، والاستفتاحُ به استفتاح به، وإيرادُ الموصولِ دون الاكتفاء بالإضمار لبيان كمالِ مكابرتِهم، فإن معرفةَ ما جاءهم من مبادئ الإيمان به ودواعيه لا محالةَ والفاء للدلالة على تعقيب مجيئِه للاستفتاح به من غير أن يتخلل بينهما مدةٌ منسيةٌ له وقوله تعالى: ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ جوابُ (لمّا) الأولى كما هو رأيُ المبرِّد أو جوابُهما معًا كما قاله أبو البقاء[٢]، وقيل: جوابُ الأولى محذوفٌ لدلالة المذكورِ عليه فيكونُ قولُه تعالى: وكانوا إلخ جملةً معطوفةً على الشرطية عطفَ القصة على القصة والمرادُ بـ (ما عرفوا) النبيُّ ﷺ، كما هو المراد بما ﴿كانوا يستفتحون به﴾ فالمعنى ولما جاءهم كتابٌ مصدقٌ لكتابهم كذّبوه وكانوا من قبل مجيئِه يستفتحون بمن أُنزل عليه ذلك الكتابُ فلما جاءهم النبيُّ الذي عرَفوه كفروا به.

---

= ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ٣٠)، والبحر المحيط (١/ ٣٠٣)، وتفسير القرطبي (٢/ ٢٦)، والكشاف للزمخشري (١/ ٨١)، وتفسير الفخر الرازي (١/ ٤١٤).

(١) أخرجه الطبري (١/ ٤٥٥) رقم (١٥٢٣، ١٥٢٤، ١٥٢٥) عن ابن عباس وأخرجه أيضا ابن أبي حاتم (١/ ١٧٢) رقم (٩٠٥)، وأخرجه الطبري (١/ ٤٥٦) رقم (١٥٢٨) عن قتادة، وأخرجه (١/ ٤٥٦) رقم (١٥٣٠) عن السدي.

(٢) هو: عبد الله بن الحسين بن عبد الله بن الحسين، محب الدين أبو البقاء العكبري، ولد في أوائل سنة ثمانٍ وثلاثين وخمسمائة ببغداد. من تصانيفه: إعراب القرآن، إعراب الحديث، إعراب الشواذ، التفسير، التعليق في الخلاف، وغير ذلك. توفي ليلة الأحد ثامن ربيع الآخر سنة ست عشرة وستمائة. ينظر: بغية الوعاة (٢/ ٣٨)، طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى (٢/ ١١٢).

﴿فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ اللامُ للعهد أي عليهم، ووضعُ المظهرِ موضِعَ المُضْمَرِ للإيذان بأن حلولَ اللعنةِ بسبب كفرِهم كما أن الفاءَ للإيذان بترتبها عليه، أو للجنس وهم داخلون في الحُكم دخولًا أوليا إذ الكلامُ فيهم، وأيا ما كان فهو محقِّقٌ لمضمون قوله تعالى: ﴿بل لعنهم الله بكفرهم﴾.

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ (ما) نكرةٌ بمعنى شيء، منصوبةٌ مفسِّرةٌ لفاعلِ (بئس)، و(اشترَوا) صفتُه أي[1] بئس شيئًا باعُوا به أنفسَهم، وقيل: اشترَوْها به في زعمهم حيث يعتقدون أنهم بما فعلوا خلّصوها من العقاب ويأباه أنه لا بد أن يكون المذمومُ ما كان حاصلًا لهم لا ما كان زائلًا عنهم، والمخصوصُ بالذم قولُه تعالى: ﴿أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ﴾ أي الكتابِ المصدّقِ لما معهم بعد الوقوف على حقيقته.

وتبديلُ الإنزال بالمجيء للإيذان بعلوِّ شأنه الموجبِ للإيمان به ﴿بَغْيًا﴾ حسدًا وطلبًا لما ليس لهم، وهو علةٌ (لأن يكفُروا) حتمًا دون (اشتروا) لما قيل من الفصل بما هو أجنبيٌّ بالنسبة إليه وإن لم يكن أجنبيًا بالنسبة إلى فعل الذمِّ وفاعلِه، ولأن البغيَ مما لا تعلقَ له بعُنوان البيعِ قطعًا لا سيما وهو معلَّلٌ بما سيأتي من تنزيل الله تعالى من فضله على من يشاؤه وإنما الذي بينه وبينه علاقةٌ هو كفرُهم بما أنزل الله، والمعنى بئس شيئًا باعُوا به أنفسَهم كفرُهم المعلَّلُ بالبغي الكائنِ لأجل ﴿أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ الذي هو الحي ﴿عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي يشاؤه ويصطفيه ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ المستأهِلين لتحمُّل أعباءِ الرسالةِ، ومآلُه: تعليلُ كفرِهم بالمنزل عليه، وإيثارُ صيغةِ التفعيل هاهنا للإيذان بتجدد بغْيهم حسَب تجدُّدِ الإنزالِ وتكثُّره حسب تكثره ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ أي رجعوا متلبسين بغضبٍ كائن على غضب مستحقين له حسب ما اقترفوا مِنْ كفر على كفر فإنهم كفروا بنبيّ الحقِّ وبغَوْا عليه وقيل كفروا بمحمد عليه الصلاة والسلام بعد عيسى، وقيل: بعد قولِهم: عزيرٌ ابن الله وقولهم: يد الله مغلولة وغير ذلك من فنون كفرهم ﴿وَلِلْكَافِرِيْنَ﴾ أي لهم والإظهار في موقع الإضمارِ للإشعار بعلية كفرهم لما حاق بهم ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ يراد به إهانتُهم وإذلالُهم لما أن كفرَهم بما أنزل الله تعالى كان مبنيًّا على الحسد المبنيّ على طمع المنزولِ عليهم وادعاءِ الفضلِ على الناس والاستهانةِ بمن أنزل عليه عليه السلام.

﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ من جانب المؤمنين ﴿لَهُمْ﴾ أي لليهود، وتقديمُ الجار والمجرور قد مر وجهه لا سيما في لام التبليغ ﴿آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ﴾ من الكتب الإلهية جميعًا

---

(١) في ط: أو.

والمرادُ به الأمرُ بالإيمان بالقرآن لكن سُلك مسلكُ التعميم إيذانًا بتحتُّم الامتثالِ من حيث مشاركتُه لما آمنوا به فيما في حيِّز الصلةِ وموافقتِه له في المضمون وتنبيهًا على أن الإيمانَ بما عداه من غير إيمانٍ به ليس بإيمان بما أنزل الله ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ﴾ أي نستمر على الإيمان ﴿بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ يعنون به التوراةَ وما نزَلَ على أنبياءِ بني إسرائيلَ لتقرير حكمَها، ويدسُّون فيه أن ما عدا ذلك غيرُ منزَّلٍ عليهم، ومرادُهم بضمير المتكلم: إما أنفسُهم فمعنى الإنزالِ عليهم تكليفُهم بما في المنزَّل من الأحكام، وإما أنبياءُ بني إسرائيلَ وهو الظاهرُ لاشتماله على مزيَّة الإيذانِ بأن عدمَ إيمانِهم بالفُرقان لما مرَّ من بغيهم وحَسَدِهم على نزوله على من ليس منهم، ولأن مرادَهم بالموصول وإن كان هو التوراةُ وما في حكمها خاصةً لكنّ إيرادَها بعنوان الإنزالِ عليهم مبنيٌّ على ادعاء أن ما عداها ليس كذلك على وجه التعريضِ كما أشير إليه فلو أريد بالإنزال عليهم ما ذكر من تكليفهم يلزَمُ من مغايرَة القرآنِ لما أُنزل عليهم حسبما يُعرب عنه قوله عز وجل: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ عدمُ كونِهم مكلَّفين بما فيه كما يلزَم عدمَ كونِه نازلًا على واحد من بني إسرائيلَ على الوجه الأخير، وتجريدُ الموصول عن الإضمارِ عما عرَّضوا به تعسُّفٌ لا يخفىٰ.

والوراء في الأصل مصدر جُعل ظرفًا ويضاف إلى الفاعل فيرادُ به ما يتوارىٰ به وهو خلْفُه، وإلى المفعول فيراد به ما يواريه وهو أمامُه، والجملةُ حال من ضمير (قالوا) بتقدير مبتدأ أي قالوا ما قالوا وهم يكفرون بما عداه وليس المرادُ(١) مجردَ بيانِ أن إفرادَ إيمانِهم بما أنزل عليهم بالذكر لنفي إيمانِهم بما وراءه، بل بيانِ أن ما يدّعون من الإيمان ليس بإيمانٍ بما أنزل عليهم حقيقةً فإن قولَه عز اسمُه: ﴿وَهُوَ الحَقُّ﴾ أي المعروفُ بالحقيقة(٢) بأن يُخَصَّ به اسمُ الحقِ على الإطلاق، حال من فاعل (يكفُرون).

وقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا﴾ حالٌ مؤكدة لمضمون الجملةِ صاحبُها إما ضميرُ الحق وعاملَها ما فيه من معنى الفعل قاله أبو البقاء، وإما ضميرٌ دل عليه الكلامُ وعاملها فعلٌ مضمرٌ، أي أُحِقُّه مصدِّقًا ﴿لِمَا مَعَهُمْ﴾ من التوراة والمعنى قالوا نؤمن بما أنزل علينا وهم يكفُرون بالقرآن والحال أنه حقٌّ مصدِّق لما آمنوا به فيلزمهم الكفرُ بما آمنوا به وما لَه أنهم ادَّعَوا الإيمانَ بالتوراة والحال أنهم يكفُرون بما يلزَمُ من الكفر به الكفرُ بها ﴿قُلْ﴾ تبكيتًا لهم من جهة الله عز من قائل ببيان التناقضِ بين أقوالِهم وأفعالِهم

---

(١) زاد في المخطوط: به.
(٢) زاد في المخطوط: الحقيق.

بعد بيانِ التناقضِ في أقوالهم: ﴿فَلِمَ﴾ أصلُه (لِمَا) حُذفت عنه الألفُ فرقًا بين الاستفهامية والخبرية ﴿تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ﴾ الخطابُ للحاضرين من اليهود والماضين على طريق التغليب، وحيث كانوا مشاركين في العقد والعمل كان الاعتراضُ على أسلافهم اعتراضًا على أخلافِهم.

وصيغةُ الاستقبال لحكايةَ الحالِ الماضية، وهو جوابُ شرطٍ محذوفٍ، أي: قل لهم إن كنتم مؤمنين بالتوراة كما تزعُمون فلأيِّ شيء كنتم تقتلون أنبياءَ الله من قبلُ وهو فيها حرامٌ، وقرئ[1] (أنبئاءَ الله) مهموزًا، وقولُه تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ﴾ تكريرٌ للاعتراض لتأكيد الإلزامِ وتشديدِ التهديدِ أي إن كنتم مؤمنين فلمَ تقتلونهم، وقد حُذف من كل واحدة من الشرطيتين ما حُذف ثقةً بما أُثبتَ في الأخرى وقيل: لا حذفَ فيه بل تقديمُ الجواب على الشرط وذلك لا يتأتىٰ إلا على رأي الكوفيين وأبي زيد وقيل: (إن) نافية أي ما كنتم مؤمنين وإلا لما قتلتموهم.

۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ

---

(١) قرأ بها: نافع. ينظر: الغيث للصفاقسي (١٢٣).

بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَمَثُوبَةٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ خَيۡرٞۚ لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿١٠٣﴾

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالبَيِّنَاتِ﴾ من تمام التبكيت والتوبيخ، داخلٌ تحت الأمر، لا تكريرٌ لما قُصَّ في تضاعيف تعدادِ النعم التي من جملتها العفوُ عن عبادة العجلِ، واللامُ للقسم أي: وبالله لقد جاءكم موسى ملتبسًا بالمعجزات الظاهرةِ التي هي العصا واليدُ والسِّنونَ ونقصُ الثمراتِ والدمُ والطوفانُ والجَرادُ والقُمّلُ والضفادعُ وفلْقُ البحرِ وقد عُدَّ منها التوراةُ وليس بواضح، فإن المجيءَ بها بعد قصةِ العجل ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ العِجْلَ﴾ أي إلٰهًا ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد مجيئِه بها، وقيل: من بعد ذهابه إلى الطور فتكونُ التوراةُ حينئذ من جملة البيناتِ، و(ثم) للتراخي في الرُتبة والدلالة على نهايةِ قُبح ما صنعوا ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ حالٌ من ضمير (اتخذتم) بمعنى: اتخذتمُ العجلَ ظالمين بعبادته واضعين لها في غير موضِعِها أو بالإخلال بحقوق آياتِ الله تعالى أو اعتراض أي: وأنتم قوم عادتُكم الظلمُ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيْثَاقَكُمْ﴾ توبيخ من جهة الله تعالى وتكذيبٌ لهم في ادعائهم الإيمانَ بما أُنزلَ عليهم بتذكير جناياتِهم الناطقةِ بكَذِبهم أي: واذكروا حين أخذنا ميثاقكم ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ﴾ قائلين: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ واسمَعُوا﴾ أي خذوا بما أُمرتم به في التوراة واسمعوا ما فيها سمعَ طاعةٍ وقَبول ﴿قَالُوا﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال سائلٍ كأنه قيل: فماذا قالوا؟ فقيل: قالوا: ﴿سَمِعْنَا﴾ قولَك ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمرَك فإذا قابل أسلافُهم مثلَ ذلك الخطابِ المؤكدِ مع مشاهدتهم مثلَ تلك المعجزةِ الباهرةِ بمثل هذه العظيمة الشنعاءِ، وكفروا بما في تضاعيف التوبةِ[1]، فكيف يُتصوّر من أخلافِهم الإيمانُ بما فيها.

﴿وَأُشْرِبُوا في قُلُوبهمُ العِجْلَ﴾ على حذف المضافِ وإقامةِ المضافِ إليه مُقامه، للمبالغة أي: تَداخَلَهم حبُّه ورسَخَ في قلوبهم صورتُه لفَرْط شغَفِهم به وحِرصِهم على عبادته كما يَتداخل الصبغ الثوبَ والشرابُ أعماقَ البدن، و﴿في قلوبهم﴾ بيانٌ لمكان الإشرابِ كما في قوله تعالى: ﴿إنما يأكلون في بطونهم نارًا﴾ والجملة حالٌ من ضمير (قالوا) بتقدير قد.

﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ بسبب كفرهم السابقِ الموجبِ لذلك، قيل: كانوا مجسِّمة أو حلولية،

(١) في المخطوط: التورية.

ولم يرَوا جسمًا أعجبَ منه فتمكّن في قلوبهم ما سوّل لهم السامريُّ ﴿قُلْ﴾ توبيخًا لحاضري اليهود إثرَ ما تبين [من][١] أحوال رؤسائِهم الذين بهم يقتدون في كل ما يأتون وما يذرون ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ﴾ بما أنزل عليكم من التوراة حسبما تدّعون، والمخصوصُ بالذم محذوفٌ أي ما ذكر من قولهم سمعنا وعصينا وعبادتِهم العجلَ.

وفي إسناد الأمرِ إلى الإيمان تهكّمٌ بهم، وإضافةُ الإيمانِ إليهم للإيذان بأنه ليس بإيمانٍ حقيقة كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فإنه قدْحٌ في دعواهم الإيمانَ بما أنزل عليهم من التوراة وإبطالٌ لها، وتقريرُه: إن كنتم مؤمنين بها عاملين فيما ذُكر من القول والعملِ بما فيها فبئسما يأمرُكم به إيمانُكم بها، وإذ لا يسوِّغُ الإيمانَ بها مثلُ تلك القبائحِ فلستم بمؤمنين بها قطعًا.

وجوابُ الشرط كما ترى محذوفٌ لدلالة ما سبق عليه ﴿قُلْ﴾ كرر الأمرَ مع قرب العهد بالأمر السابق لما أنه أمرٌ بتبكيتهم وإظهارِ كذِبهم في فنٍ آخرَ من أباطيلهم لكنه لم يُحْكَ عنهم قبل الأمر بإبطاله بل اكتُفيَ بالإشارة إليه في تضاعيف الكلام حيث قيل: ﴿إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ أي الجنةُ أو نعيمُ الدار الآخرة ﴿عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً﴾ أي سالمة لكم خاصة بكم كما تدّعون أنه لن يدخُلَ الجنةَ إلا من كان هودًا أو نصارىٰ، ونصبُها على الحالية من الدار و(عند) ظرفٌ للاستقرار في الخبر أعني (لكم)، وقوله تعالى: ﴿مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ في محل النصبِ بـ (خالصة) يقال: خلَص لي كذا من كذا، واللامُ: للجنس أي: الناس كافة أو للعهد أي: المسلمين ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾ فإن من أيقن بدخول الجنة اشتاقَ إلى التخلص إليها من دارة البوارِ وقرارة الأكدار، لا سيما إذا كانت خالصة له كما قال علي كرم الله وجهه: «لا أبالي أسقطتُ على الموت أو سقط الموتُ عليّ»[٢]. وقال عمارُ بنُ ياسرٍ[٣] بصِفِّينَ:

الآن ألــقــىٰ الأحــبَّــهْ مــحــمــدًا وحــزبَــهْ[٤]

---

(١) سقط في ط.

(٢) ذكره عبد الرؤوف المناوي في «الفتح السماوي» (١/ ١٧٤) وعزاه لابن عساكر.

(٣) هو: عمار بن ياسر بن عامر بن الحصين بن قيس بن ثعلبة بن عوف بن يام بن عنس العنسي بنون أبو اليقظان مولى بني مخزوم، صحابي جليل شهد بدرًا والمشاهد، وكان أحد السابقين الأولين، له اثنان وستون حديثًا، قتل بصفين مع علي رضي الله عنه.
ينظر: خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٢/ ٢٦١)، تهذيب الكمال (٢١/ ٢١٥).

(٤) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٢٩٦): رواه الطبراني في الأوسط وأحمد باختصار ورجالهما رجال الصحيح، ورواه البزار بنحوه بإسناد ضعيف. اهـ.

وقال حذيفةُ بنُ اليمانِ حين احتُضِرَ وقد كان يتمنى الموت قبلُ: [المتقارب]

[و]جـاءَ حـبـيـبٌ عـلـى فـاقـةٍ فـلا أفـلـح الـيـوم مـن قـد نـدِمْ(١)

أي على التمني.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ تكريرٌ للكلام لتشديد الإلزامِ وللتنبيه على أن ترتبَ الجوابِ ليس على تحقق الشرطِ في نفس الأمر فقط بل في اعتقادهم أيضًا وأنهم قد ادعَوا ذلك، والجوابُ: محذوفٌ ثقةً بدلالة ما سبق عليه أي: إن كنتم صادقين فتمنَّوْه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ كلام مستأنفٌ غيرُ داخل تحت الأمر سيق من جهته سبحانه لبيان ما يكون منهم من الإحجام عما دُعُوا إليه الدالِّ على كذبهم في دعواهم ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بسبب ما عمِلوا من المعاصي الموجبةِ لدخول النار كالكفر بالنبي عليه السلام والقرآنِ وتحريفِ التوراة. ولما كانت اليدُ من بين جوارحِ الإنسان مناطَ عامةِ صنائعِه ومدارَ أكثرِ منافعِه عُبِّر بها تارةً عن النفس وأخرى عن القدرة ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ أي بهم، وإيثارُ الإظهار على الإضمار لذمهم والتسجيلِ عليهم بأنهم ظالمون في جميع الأمورِ التي من جملتها ادعاءُ ما ليس لهم ونفيُه عن غيرهم.

والجملةُ تذييل لما قبلها مقرِّرةٌ لمضمونه أي عليم بهم وبما صدر عنهم من فنون الظلمِ والمعاصي المُفْضيةِ إلى أفانينِ العذاب، وبما سيكون منهم من الاحتراز عما يؤدي إلى ذلك فوقع الأمر كما ذكر فلم يتمنَّ منهم موتَه أحدٌ، إذ لو وقع ذلك لنُقل واشتهر.

وعن النبي ﷺ: «لو تَمَنَّوا الموتَ لغَصَّ كلُّ إنسان بريقه فمات مكانه، وما بقي يهوديٌّ على وجه الأرض»(٢).

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٥٠٢).
وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) قال الزيلعي (١/ ٧٥) رقم (٥٤): «غريب بهذا اللفظ».
وأخرجه ابن جرير (٢/٣٦٣) رقم (١٥٦٧)، وابن أبي حاتم (١/ ٢٨٤) رقم (٩٤١) عن ابن عباس موقوفًا بلفظ: «لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه». اهـ.
وأخرجه البخاري (٨/ ٥٩٥) كتاب التفسير، باب ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ حديث (٤٩٥٨)
قال الحافظ في الفتح: وقد أخرج ابن مردويه بإسناد ضعيف عن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه عن العباس مثله اهـ.

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ﴾ من الوُجدان العقليّ، وهو جار مجرىٰ العلم خلا أنه مختصٌّ بما يقع بعد التجربة ونحوِها، ومفعولاه الضميرُ و(أحرصَ)، والتنكيرُ في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ للإيذان بأن مرادهم نوعٌ خاص منها وهي الحياة المتطاولة، وقرئ[1] بالتعريف ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ عطفٌ على ما قبله بحسب المعنى كأنه قيل: أحرصَ من الناس ومن الذين أشركوا، وإفرادُهم بالذكر مع دخولهم في الناس للإيذان بامتيازهم من بينهم بشدة الحرصِ، للمبالغة في توبيخ اليهودِ، فإن حرصَهم وهم معترفون بالجزاء لمّا كان أشدَّ من حرص المشركين المنكرين له دلّ ذلك على جزمهم بمصيرهم إلى النار.

ويجوز أن يُحملَ على حذف المعطوف ثقةً بإنباء المعطوفِ عليه عنه، أي: وأحرصَ من الذين أشركوا فقوله تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾ بيان لزيادة حرصِهم على طريقة الاستئناف ويجوز أن يكون في حيز الرفعِ صفةً لمبتدإٍ محذوفٍ خبرُه الظرفُ المتقدم على أن يكون المرادُ بـ (المشركين) اليهودَ لقولهم: عزيرٌ ابنُ الله، أي ومنهم طائفة يودُّ أحدُهم: أيّهم كان، أي كلُّ واحد منهم ﴿لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وهو حكاية لودادتهم كأنه قيل: ليتني أُعَمَّرُ، وإنما أُجريَ على الغَيبة لقوله تعالى: ﴿يود﴾ كما تقول: حلف بالله ليفعلَنّ، ومحلُه النصبُ على أنه مفعولُ (يود) إجراءً له مُجرىٰ القول لأنه فعل قلبيٌّ ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ (ما) حجازيةٌ والضميرُ العائد على (أحدُهم) اسمُها و(بمُزَحْزِحِه) خبرُها والباء زائدة و﴿أَنْ يُعَمَّرَ﴾ فاعلُ مزحزحِه أي وما أحدهم بمَنْ يزحزِحُه أي يُبعده وينْجيه من العذاب تعميرُه.

وقيل: الضمير لما دل عليه (يُعمَّر) من المصدر، و﴿أن يعمر﴾ بدلٌ منه وقيل: هو مبهم، و(أن يعمّر) مفسرةٌ والجملةُ حال من (أحدهم) والعامل (يود) لا (يُعمَّر) على أنها حالٌ من ضميره لفساد المعنى، أو اعتراض.

وأصلُ (سنة) (سَنْوَة) لقولهم: سنَوَات وسَنْية وقيل: سَنْهة كجبهة؛ لقولهم سانهتُه وسُنَيهة وتسنّهت النخلة إذا أتت عليها السنون ﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ البصيرُ ـ في كلام العرب ـ العالمُ بكنه الشيء الخبيرُ به، ومنه قولهم فلان بصيرٌ بالفقه، أي عليم بخفيات أعمالهم فهو مجازيهم بها لا محالة، وقرئ[2] بتاء الخطاب التفاتًا وفيه

---

(١) قرأ بها: أبي.
ينظر: الكشاف للزمخشري (١/ ٨٣).
(٢) قرأ بها: قتادة، والأعرج، ويعقوب، والحسن.

تشديد للوعيد.

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ نزل في عبد الله بن صوريا[١] من أحبار فدَك حاجّ رسول الله ﷺ وسأله عمن نزل عليه بالوحي فقال عليه السلام: جبريلُ عليه السلام فقال: هو عدوُّنا لو كان غيرُه لآمنّا بك[٢].

وفي بعض الروايات ورسولُنا ميكائيلُ فلو كان هو الذي يأتيك لآمنا بك، وقد عادانا مِرارًا وأشدُّها أنه أنزل على نبينا أن بيت المقدِس سيُخْرِبُه بُخْتَ نَصَّرُ فبعثنا من يقتلُه فلقِيه ببابل غلامًا مسكينًا فدفع عنه جبريل عليه السلام، وقال: إن كان ربكم آمِرَه بهلاككم فإنه لا يسلِّطكم عليه وإلا فبأيِّ حق تقتلونه[٣] وقيل: أمره الله تعالى أن يجعل النبوة فينا فجعلها في غيرنا، وروي أنه كان لعمرَ رضي الله عنه أرض بأعلى المدينة، وكان ممرُّه على مدارس اليهود فكان يجلس إليهم ويسمع كلامَهم فقالوا: يا عمرُ قد أحببناك وإنا لنطمع فيك فقال: والله ما أجيئكم لحبّكم[٤]، ولا أسألكم لشك في ديني وإنما أدخُلُ عليكم لأزداد بصيرةً في أمر محمد ﷺ، وأرى آثارَه في كتابكم ثم سألهم عن جبريلَ عليه السلام فقالوا: ذاك هو عدوُّنا يُطلِعُ محمدًا على أسرارنا وهو صاحبُ كلِّ خسفٍ وعذاب، وميكائيلُ يجيء بالخِصْب والسلام فقال لهم: وما منزلتُهما عند الله تعالى؟ قالوا: جبريلُ أقربُ منزلةً هو عن يمينه وميكائيلُ عن يساره وهما متعاديان فقال عمر رضي الله عنه: إن كانا كما تقولون فما هما بعدوَّيْن ولأنتم أكفرُ من الحمير، ومن كان عدوا لأحدهما فهو عدوٌّ للآخر، ومن كان عدوا لهما كان عدوا لله سبحانه، ثم رجع عمرُ فوجد جبريلَ عليه السلام قد سبقه بالوحي فقال النبي ﷺ: لقد وافقك ربُّك يا عمرُ فقال عمرُ رضي الله عنه: لقد رأيتُني في ديني بعد ذلك أصلبَ من الحَجَر[٥].

---

= ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٤٤)، والإعراب للنحاس (١/ ٢٠٠)، والبحر المحيط (١/ ٣١٦)، وتفسير القرطبي (٢/ ٣٥)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢١٨).

(١) هو: عبد الله بن صوريا: يهودي من أهل الكتاب وحبر من أحبار فدك، له ذكر في قصة اليهودي واليهودية اللذين زنيا.
ينظر: غوامض الأسماء المبهمة لابن بشكوال (٢/ ٧٨٢).

(٢) قال الحافظ: لم أقف له على سند، وقال الزيلعي (١/ ٧٦) رقم (٥٥): «حديث غريب» اهـ.
وذكره الواحدي (١/ ١٧٩-١٨٠)، والبغوي (١/ ٩٦).

(٣) ينظر التخريج السابق.　　(٤) في ط: لحكم.

(٥) أخرجه ابن جرير في التفسير (٢/ ٣٨٤) رقم (٦١٣)، وذكره البغوي (١/ ٩٦) عن قتادة وعكرمة والسدي، وذكره السيوطي في الدر (١/ ١٧٥) مع اختلاف يسير في اللفظ مختصرًا.

وقرئ (جَبرَئيلَ)[١] كسلسبيل و(جَبْرَئِلَ)[٢] كجَحْمَرِشٍ و(جَبريلَ)[٣] و(جَبْرَئِلّ)[٤] و(جَبرائيل)[٥] كجبراعيلَ و(جبرائِلَ)[٦] كجبراعل، ومَنْعُ الصرفِ فيه للتعريف والعُجمة.

وقيل: معناه عبد اللّٰه ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ﴾ تعليل لجواب الشرط قائم مقامَه، والبارزُ الأولُ لجبريل عليه السلام والثاني للقرآن، أُضمر من غير ذكر إيذانًا بفخامة شأنِه واستغنائه عن الذكر لكمالِ شهرتِه ونباهتِه لا سيما عند ذكر شيءٍ من صفاته ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ زيادةُ تقريرٍ للتنزيل ببيان محلِّ الوحي فإنه القائلُ الأول له، ومدارُ الفهم والحفظ، وإيثارُ الخطاب على التكلم المبنيّ على حكاية كلام الله تعالى بعينه كما في قوله تعالى: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم﴾ [الزمر، الآية ٥٣] لما في النقل بالعبارة من زيادة تقريرٍ لمضمون المقالةِ ﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾ بأمره وتيسيرِه مستعارٌ من تسهيل الحجاب وفيه تلويحٌ بكمال توجُّه جبريلَ عليه السلام إلى تنزيله وصدقِ عزيمتِه عليه

---

(١) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وعاصم، والأعمش، وخلف، وأبو بكر، وحماد بن أبي زياد.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٤٤)، والإعراب للنحاس (١/ ٢٠٠)، والبحر المحيط (١/ ٣١٨)، والتبيان للطوسي (١/ ٣٦١)، والتيسير للداني (٧٥)، وتفسير القرطبي (٢/ ٣٧)، والحجة لابن خالويه (٨٥، ٨٦)، والحجة لأبي زرعة (١٠٧)، والسبعة لابن مجاهد (١٦٧)، الغيث للصفاقسي (١٢٧)، والكشاف للزمخشري (١/ ٨٤)، والمجمع للطبرسي (١/ ١٦٦)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢١٩).

(٢) قرأ بها: عاصم، ويحيى بن آدم، وشعبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٤٤)، والإعراب للنحاس (١/ ٢٠١)، والبحر المحيط (١/ ٣١٨)، والتيسير للداني (٧٥)، وتفسير القرطبي (٢/ ٣٧)، والحجة لابن خالويه (٨٥، ٨٦)، والسبعة لابن مجاهد (١٦٦)، والغيث للصفاقسي (١٢٧)، والكشاف للزمخشري (١/ ٨٤)، وتفسير الفخر الرازي (١/ ٤٢٣)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢١٩).

(٣) قرأ بها: ابن كثير والحسن وابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٤٤)، والإعراب للنحاس (١/ ٢٠٠)، والتيسير للداني (٧٥) والسبعة لابن مجاهد (١٦٦)، والغيث للصفاقسي (١٢٧).

(٤) قرأ بها: عاصم، وأبان، ويحيى بن يعمر، وابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٤٤)، والمحتسب لابن جني (١/ ٩٧)، والحجة لابن خالوية (٨٥)، والبحر المحيط (١/ ٣١٨).

(٥) قرأ بها: ابن عباس وعكرمة وفياض بن غزوان.
ينظر: البحر المحيط (١/ ٣١٨)، والمحتسب لابن جني (١/ ٩٧).

(٦) قرأ بها: الحسن، وعكرمة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٤٤ )، وتفسير القرطبي (٢/ ٣٧)، والكشاف للزمخشري (١/ ٨٤)، وتفسير الرازي (١/ ٤٢٣).

السلام، وهو حال من فاعل (نزّله).

وقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي من الكتب الإلهية التي معظمُها التوراةُ حالٌ من مفعوله وكذا قوله تعالى: ﴿وَهُدىً وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ والعاملُ في الكل (نزّله)، والمعنى من عادى جبريلَ من أهل الكتاب فلا وجهَ لمعاداته بل يجب عليه محبتُه فإنه نزله عليك كتابًا مصدِّقًا لكُتُبهم أو فالسبب في عداوته تنزيلُه لكتاب مصدّقٍ لكتابهم موافقٍ له وهم له كارهون، ولذلك حرفوا كتابهم وجحَدوا موافقتَه له لأن الاعترافَ بها يوجب الإيمانَ به، وذلك يستدعي انتكاسَ أحوالِهم وزوالَ رياستهم وقيل: إن الجواب فقد خلَع رِبْقةَ الإنصافِ، أو فقد كفر بما معه من الكتاب أو فليمُتْ غيظًا أو فهو عدوٌّ لي، وأنا عدوٌّ له.

﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لله﴾ أريد بعداوته تعالى مخالفةُ أمرِه عِنادًا والخروجُ عن طاعته مكابرةً، أو عداوةُ خواصِّه ومقرَّبيه. لكنْ صُدّر الكلامُ بذكره الجليل تفخيمًا لشأنهم وإيذانًا بأن عداوتَهم عداوتُه عز وعلا كما في قوله عز وجل: ﴿والله ورسولُه أحقُّ أن يُرْضوه﴾ [سورة التوبة، الآية ٦٢].

ثم صرح بالمرام فقيل: ﴿وَمَلاَئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيْلَ وَمِيكَالَ﴾ وإنما أفردا بالذكر مع أنهما أولُ من يشمَلُه عنوانُ المَلَكية والرسالة لإظهار فضلِهما كأنهما عليهما السلام من جنسٍ آخَرَ أشرفَ مما ذكر تنزيلًا للتغايُر في الوصف منزلةَ التغايرِ في الجنس، وللتنبيه على أن عداوةَ أحدِهما عداوةٌ للآخر حسمًا لمادة اعتقادِهم الباطلَ في حقهما حيث زعَموا أنهما متعاديان، وللإشارة إلى أن معاداةَ الواحدِ والكلِّ سواءٌ في الكفر واستتباعِ العداوةِ من جهة الله سبحانه، وأن من عادىٰ أحدَهم فكأنما عادى الجميعَ.

وقولُه تعالى: ﴿فَإِنَّ الله عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي (لهم) جوابُ الشرط والمعنى: من عاداهم عاداه الله وعاقبه أشدَّ العقاب وإيثارُ الاسميةِ للدلالة على التحقق والثباتِ، ووضعُ الكافرين موضعَ المضمرِ للإيذان بأن عداوةَ المذكورين كفر، وأن ذلك بيِّنٌ لا يحتاج إلى الإخبار به، وأن مدارَ عداوتِه تعالى لهم وسخطِه المستوجبِ لأشدِّ العقوبة والعذابِ هو كفرُهم المذكور.

وقرئ[1] (ميكائِلَ) كميكاعِلَ، و(ميكائيلَ)[2] كميكاعيلَ، و(ميكئِلَ)[3] كميكعِلَ،

---

(١) قرأ بها: نافع، وأبو جعفر، وقنبل، وابن شنبوذ.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٤٤)، والبحر المحيط (١/ ٣١٨)، والتيسير للداني (٧٥)، والحجة لابن خالويه (٨٦)، والمجمع للطبرسي (١/ ١٦٦)، وتفسير الفخر الرازي (١/ ٤٢٥)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢١٩).

و(ميكَئيلَ)[(١)] كميكَعيل ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ واضحاتِ الدلالة على معانيها، وعلى كونها من عند الله تعالى، ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الفَاسِقُونَ﴾ أي المتمردون في الكفر الخارجون عن حدوده فإن مَنْ ليس على تلك الصفة من الكفَرة لا يجترئ على الكفر بمثل هاتيك البينات. قال الحسنُ: إذا استُعمل الفسقُ في نوعٍ من المعاصي وقع على أعظم أفرادِ ذلك النوع من كفرٍ أو غيره[(٢)]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قال ابنُ صوريا لرسول الله ﷺ ما جئتنا بشيء نعرِفُه وما أُنزل عليك من آية فنتّبعَك لها فنزلت[(٣)]. واللام للعهد أي الفاسقون المعهودون وهم أهلُ الكتاب المحرِّفون لكتابهم الخارجون عن دينهم أو للجنس وهم داخلون فيه دخولًا أوليًا ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا﴾ الهمزةُ للإنكار والواوُ للعطف على مقدرٍ يقتضيه المقامُ أي أكفَروا بها وهي في غاية الوضوحِ وكلما عاهدوا عهدًا ومن جملة ذلك ما أشير إليه في قوله تعالى: ﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا﴾ [البقرة، الآية ٨٩] من قولهم للمشركين: قد أظل زمانُ نبيٍّ يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلُكم معه قتلَ عادٍ وإرَمَ.

وقرئ[(٤)] بسكون الواو على أن تقدير النظم الكريم: وما يكفر بها إلا الذين فسقوا

---

(٢) قرأ بها: ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وابن كثير، وعاصم، وعاصم الجحدري، والبزي، وقنبل، وابن مجاهد، وأبو بكر، وخلف، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٤٤)، والإعراب للنحاس (١/ ٢٠٢)، والبحر المحيط (١/ ٣١٨)، والتبيان للطوسي (١/ ٣٦٢)، والتيسير للداني (٧٥)، وتفسير القرطبي (٢/ ٣٨)، والحجة لابن خالويه (٨٦)، والحجة لأبي زرعة (١٠٨)، والسبعة لابن مجاهد (١٦٦، ١٦٧)، والغيث للصفاقسي (١٢٧)، والكشاف للزمخشري (١/ ٨٤)، والكشف للقيسي (١/ ٢٥٥)، والمجمع للطبرسي (١/ ١٦٦)، وتفسير الرازي (١/ ٤٢٥)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢١٩).

(٣) قرأ بها: نافع، وابن محيصن، وابن هرمز، والأعرج.
ينظر: البحر المحيط (١/ ٣١٨)، والتيسير للداني (٧٥)، والحجة لابن خالويه (٨٦)، والكشاف للزمخشري (١/ ٨٤)، والكشف للقيسي (١/ ٢٥٥)، والمحتسب لابن جني (١/ ٩٧).

(١) قرأ بها: ابن محيصن.
ينظر: التيسير للداني (٧٥)، وتفسير القرطبي (٢/ ٣٨)، والكشاف للزمخشري (١/ ٨٤)، والكشف للقيسي (١/ ٢٥٥)، وتفسير الفخر الرازي (١/ ٤٢٥).

(٢) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (١/ ٣٠٤).

(٣) أخرجه ابن جرير(٢/ ٣٩٨) رقم (١٦٣٧)، وابن أبي حاتم (١/ ٢٩٤) رقم (٩٧٦)، وذكره السيوطي في الدر(١/ ١٨١).

(٤) قرأ بها: ابن مجاهد، وأبو السمال العدوي.

=

أو نقضوا عهودَهم مرارًا كثيرة، وقرئ[١]: (عوُهِدوا) و(عهِدوا)[٢].

وقوله تعالى: عهدًا إما مصدرٌ مؤكد لـ (عاهَدوا) من غير لفظِه أو مفعولٌ له على أنه بمعنى أعطَوُا العهدَ ﴿نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ أي رمَوْا بالزِّمام ورفضوه، وقرئ[٣] (نَقَضَه) وإسنادُ النبذِ إلى فريق منهم لأن منهم من لم ينبِذْه ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ أي بالتوراة وهذا دفعٌ لما يُتوَهَّم من أن النابذين هم الأقلون، وأن من لم ينبِذْ جِهارًا فهم يؤمنون بها سرًا ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ﴾ هو النبي ﷺ، والتنكيرُ للتفخيم ﴿مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ متعلق بـ (جاءَ) أو بمحذوفٍ وقعَ صفةً لـ (رسول) لإفادة مزيدِ تعظيمِه بتأكيد ما أفاده التنكيرُ من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية.

﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ من التوراة من حيث إنه ﷺ قرر صِحتها وحقق حَقّيةَ نبوة موسى عليه الصلاة والسلام بما أُنزل عليه أو من حيث إنه عليه السلام جاء على وَفق ما نُعت فيها ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ﴾ أي التوراةَ، وهم اليهودُ الذين كانوا في عهد النبي ﷺ ممن كانوا يستفتحون به قبل ذلك لا الذين كانوا في عهد سليمانَ عليه السلام كما قيل لأن النبذَ عند مجيءِ النبي ﷺ لا يُتصوَّرُ منهم، وأفرد هذا النبذُ بالذكر مع اندراجِه تحت قوله عز وجل: ﴿أو كلما عاهَدوا عهدًا نبذه فريقٌ منهم﴾ لأنه [معظمُ جناياتِهم][٤] تمهيدٌ لذكر اتّباعهم لما تتلو الشياطينُ وإيثارِهم له عليه.

والمرادُ بإيتائها إما إيتاءُ علمِها بالدراسة والحفظ والوقوفِ على ما فيها، فالموصولُ عبارة عن علمائهم وإما مجردُ إنزالِها عليهم فهو عبارةٌ عن الكل، وعلى التقديرين: فوضعُه موضِع الضمير للإيذان بكمال التنافي بين ما أُثبت لهم في حيز الصلةِ وبين ما صدر عنهم من النبذ ﴿كِتَابَ اللهِ﴾ أي الذي أُوتوه قال السدي: لما

---

= ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ٣٢) والبحر المحيط (١/ ٣٢٣)، وتفسير القرطبي (٢/ ٣٩)، والكشاف للزمخشري (١/ ٨٥)، والمحتسب لابن جني (١/ ٩٩)، وتفسير الفخر الرازي (١/ ٤٢٦).

(١) قرأ بها: الحسن، وأبو رجاء.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٤٤)، والبحر المحيط (١/ ٣٢٤)، والكشاف للزمخشري (١/ ٨٥)، وتفسير الفخر الرازي (١/ ٤٢٦).

(٢) قرأ بها: أبو السمال، وروح، وابن مجاهد.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٤٤)، والكشاف للزمخشري (١/ ٨٥)، والمحتسب لابن جني (١/ ٩٩)، وتفسير الفخر الرازي (١/ ٤٢٦).

(٣) قرأ بها: عبد الله.
ينظر: البحر المحيط (١/ ٣٢٤)، والكشاف للزمخشري (١/ ٨٥).

(٤) زيادة من المخطوط.

جاءهم محمد ﷺ عارضوه بالتوراة والفرقان فاتفقت التوراةُ والفرقانُ فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصَفَ وسحرِ هاروتَ، وماروتَ فلم يوافق القرآنَ فهذا قوله تعالى: ﴿ولما جاءهم رسولٌ من عند الله﴾[1] إلخ، وإنما عَبَّر عنها بكتاب الله تشريفًا لها وتعظيمًا لحقِها عليهم وتهويلًا لما اجترأوا عليه من الكفر بها.

وقيل: (كتابَ الله) القرآنُ نبذوه بعد ما لزمهم تلقِّيه بالقَبول لا سيما بعد ما كانوا يستفتحون به من قبلُ فإن ذلك قَبولٌ له وتمسُّكٌ به، فيكون الكفرُ به عند مجيئه نبذًا له كأنه قيل: كتابَ الله الذي جاء به فإن مجيءَ الرسول مُعربٌ عن مجيء الكتاب ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ مَثَلٌ لتركهم وإعراضِهم عنه بالكلية مثل بما يُرمىٰ به وراء الظهر استغناءً عنه وقلّةَ التفاتٍ إليه ﴿كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ جملةٌ حاليةٌ أي نبذوه وراء ظهورِهم مُشبَّهين بمن لا يعلمه، فإن أريد بهم أحبارُهم فالمعنى: كأنهم لا يعلمونه على وجه الإيقان ولا يعرفون ما فيه من دلائلِ نبوتِه عليه الصلاة والسلام ففيه إيذانٌ بأن علمَهم به رصينٌ لكنهم يتجاهلون أو كأنهم لا يعلمون أنه كتابُ الله أو لا يعلمونه أصلًا كما إذا أريد بهم الكل. وفي هذين الوجهين زيادةُ مبالغةٍ في إعراضهم عما في التوراة من دلائل النبوة.

هذا وإن أريد بما نبذوه من كتاب الله القرآنَ فالمرادُ بالعلم المنفيِّ في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ هو العلمُ بأنه كتابُ الله ففيه ما في الوجه الأول من الإشعار بأنهم مُتيقِّنون في ذلك، وإنما يكفُرون به مكابرةً وعِنادًا.

قيل إن جيل اليهود أربعُ فرقٍ: ففِرقةٌ آمنوا بالتوراة وقاموا بحقوقها كمؤمني أهلِ الكتاب وهم الأقلون المشارُ إليهم بقوله عز وجل: ﴿بل أكثرهم لا يؤمنون﴾ [البقرة، الآية ١٠٠] وفِرقةٌ جاهروا بنبذ العهودِ وتعدّي الحدود تمرُّدًا وفسُوقًا وهم المعنيُّون بقوله تعالى: ﴿نبذه فريق منهم﴾ [البقرة، الآية ١٠٠] وفِرقةٌ لم يجاهروا بنبذها لجهلهم بها وهم الأكثرون، وفِرقةٌ تمسكوا بها ظاهرًا ونبذوها خُفْيةً وهم المتجاهلون.

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ﴾ عطفٌ على جواب (لما) أي نبذوا كتابَ الله واتبعوا كتبَ السَحَرة التي كانت تقرؤها الشياطين وهم المتمرِّدون من الجن، و(تتلو) حكايةُ حالٍ ماضيةٍ والمرادُ بالاتباع التوغلُ والتمحُّض فيه والإقبال عليه بالكلية، وإلا فأصلُ الاتباعِ كان حاصلًا قبل مجيءِ الرسول ﷺ فلا يتسنّى عطفُه على جواب (لما) ولذلك

---

(١) أخرجه الطبري (١/ ٤٨٩) رقم (١٦٤٧)

قيل: هو معطوف على الجملة، وقيل: على (أُشربوا) ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ أي في عهد مُلكِه قيل: كانت الشياطينُ يسترقون السمعَ ويضُمُّون إلى ما سمِعوا أكاذيبَ يُلفِّقونها ويُلْقونها إلى الكهنة وهم يدوِّنونها ويعلّمونها الناسَ وفشا ذلك في عهد سليمانَ عليه السلام حتى قيل: إن الجن تعلم الغيب، وكانوا يقولون هذا عِلمُ سليمان وما تم له مُلكُه إلا بهذا العلم، وبه سَخَّر الإنسَ والجنّ والطيرَ والريحَ التي تجري بأمره.

وقيل: إن سليمانَ عليه السلام كان قد دفنَ كثيرًا من العلوم التي خصّه الله تعالى بها تحت سريرِ مُلكه فلما مضت على ذلك مدةٌ توصَّل إليها قومٌ من المنافقين فكتبوا في خلال ذلك أشياءَ من فنون السحرِ تناسب تلك الأشياءَ المدفونةَ من بعض الوجوه، ثم بعد موته واطلاعِ الناس على تلك الكتبِ أوهموهم أنه من عملِ سُليمانَ عليه السلام وأنه ما بلغ هذا المبلغَ إلا بسبب هذه الأشياء.

﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ تنزيهٌ لساحته عليه السلام عن السحر وتكذيبٌ لمن افترى عليه بأنه كان يعتقده ويعمل به، والتعرُّضُ لكونه كُفرًا للمبالغة في إظهار نزاهتِه عليه السلام وكذِبِ باهِتيهِ بذلك ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ﴾ وقرئ[1] بتخفيف (لكنّ) ورفع الشياطين، والواو عاطفةٌ للجملة الاستدراكية على ما قبلها، وكونُ المخففة عند الجمهور للعطف إنما هو عند عدم الواو وكون ما بعدها مفردًا ﴿كَفَرُوا﴾ باستعمال السحر وتدوينِه ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ إغواءً وإضلالًا، والجملةُ في محل النصبِ على الحالية من ضمير (كفروا) أو من (الشياطين) فإن ما في (لكنّ) من رائحة الفعل كافٍ في العمل في الحال أو في محل الرفع على [أنه][2] خبرٌ ثانٍ لـ (لكنّ) أو بدلٌ من الخبر الأول.

وصيغةُ الاستقبال للدَلالة على استمرار التعليمِ وتجدُّدِه أو جملةٌ مستأنفة. هذا على تقدير كونِ الضميرِ للشياطين وأما على تقدير رجوعِه إلى فاعل اتبعوا فهي إما حالٌ منه وإما استئنافيةَ فحسب.

واعلم أن السحرَ أنواعٌ: منها سحْر الكَلدانيين الذين كانوا في قديم الدهر وهم

---

(١) قرأ بها: ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وخلف، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٤٤)، والبحر المحيط (١/ ٣٢٧)، والتبيان للطوسي (١/ ٣٧٠)، والتيسير للداني (٧٥)، وتفسير القرطبي (٢/ ٤٣)، والحجة لابن خالويه (٨٦)، والحجة لأبي زرعة (١٠٨)، والسبعة لابن مجاهد (١٦٧)، والغيث للصفاقسي (١٢٧)، والكشف للقيسي (١/ ٢٥٦)، وتفسير الفخر الرازي (١/ ٤٣٦)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢١٩).

(٢) سقط في ط.

قوم يعبُدون الكواكبَ ويزعُمون أنها هي المدبِّرةُ لهذا العالم ومنها تصدرُ الخيراتُ والشرورُ والسعادةُ والنحوسةُ، ويستحدثون الخوارقَ بواسطة تمزيج القُوى السماوية بالقوىٰ الأرضية وهم الذين بعث الله تعالى إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام لإبطال مقالتهم وهم ثلاثُ فِرقٍ:

ففِرقةٌ منهم يزعُمون أن الأفلاكَ والنجومَ واجبةُ الوجود لذواتها وهم الصابئة، وفرقةٌ يقولون بإلٰهية الأفلاكِ ويتخذون لكل واحدٍ منها هيكلًا ويشتغلون بخدمتها وهم عبَدَةُ الأوثان، وفرقة أثبتوا للأفلاك وللكواكب فاعلًا مختارًا لكنهم قالوا إنه أعطاها قوةً عالية نافذةً في هذا العالم وفَوَّضَ تدبيرَه إليها.

ومنها سحْرَ أصحابِ الأوهام والنفوسِ القوية فإنهم يزعُمون أن الإنسانَ تبلُغُ روحُه بالتصفية في القوة والتأثير إلى حيث يقدِرُ على الإيجاد والإعدام والإحياءِ والإماتةِ وتغييرِ البنية والشكل.

ومنها سحر من يستعين بالأرواحِ الأرضيةِ وهو المسمّى بالعزائم، وتسخيرِ الجن، ومنها التخييلاتُ الآخذة بالعيون وتسمَّى الشَّعْوذةَ.

ولا خلاف بين الأمة في أن من اعتقد الأول فقد كفر وكذا من اعتقد الثانيَ وهو سحرُ أصحاب الأوهامِ والنفوسِ القويةِ وأما من اعتقد أن الإنسان يبلُغ بالتصفية وقراءةِ العزائم والرُقىٰ إلى حيث يخلق الله سبحانه وتعالى عَقيبَ ذلك على سبيل جَريان العادةِ بعضَ الخوارق فالمعتزلةُ اتفقوا على أنه كافر، لأنه لا يمكنه بهذا الاعتقاد معرفةُ صدقِ الأنبياءِ والرسلِ بخلاف غيرهم.

ولعل التحقيق أن ذلك الإنسانَ إن كان خيِّرًا متشرِّعًا في كل ما يأتي ويذر وكان من يستعين به من الأرواح الخيِّرة وكانت عزائمُه ورُقاه غيرَ مخالفةٍ لأحكام الشريعة الشريفةِ ولم يكن فيما ظهَرَ في يده من الخوارق ضررٌ شرعيٌّ لأحد فليس ذلك من قبيل السحر، وإن كان شرِّيرًا غيرَ متمسِّكٍ بالشريعة الشريفة فظاهرٌ أن من يستعين به من الأرواحِ الخبيثةِ الشريرة لا محالة، ضرورةَ امتناعِ تحقق التضام والتعاون بينهما من غير اشتراك في الخبث والشرارة فيكون كافرًا قطعًا.

وأما الشعوذةُ وما يجري مجراها من إظهار الأمور العجيبةِ بواسطة ترتيبِ الآلات الهندسيةِ وخِفة اليد والاستعانة بخواصِّ الأدوية والأحجارِ فإطلاقُ السحر عليها بطريق التجوزِ أو لما فيها من الدقة لأنه في الأصل عبارةٌ عن كل ما لَطُف مأخذُه وخفيَ سببُه أو من الصرْف عن الجهة المعتادة لما أنه في أصل اللغة الصرفُ على ما

حكاه الأزهري[(١)] عن الفراء ويونس[(٢)].

﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ عطفٌ على (السحر) أي: ويعلمونهم ما أنزل عليهما، والمرادُ بهما واحد، والعطفُ لتغاير الاعتبارِ أو هو نوعٌ أقوى منه، أو على (ما تتلو) وما بينهما اعتراضٌ أي واتَّبعوا ما أنزل إلخ، وهما ملكانِ أنزلا لتعليم السحر؛ ابتلاءً من الله للناس كما ابتليَ قومُ طالوتَ بالنهر أو تمييزًا بينه وبين المعجزة لئلا يغترَّ به الناسُ أو لأن السحرَة كثُرتْ في ذلك الزمان واستنبطتْ أبوابًا غريبةً من السحر وكانوا يدّعون النبوةَ فبعث الله تعالى هذين الملكينِ ليعلّما الناسَ أبوابَ السحر حتى يتمكنوا من معارضة أولئك الكذابين وإظهارِ أمرِهم على الناس.

وأما ما يُحكى من أن الملائكة عليهم السلام لما رأَوْا ما يصعَد من ذنوب بني آدمَ عيّروهم، وقالوا لله سبحانه: هؤلاء الذين اخترتَهم لخلافة الأرضِ يعصونك فيها فقال عز وجل: لو ركّبتُ فيكم ما ركبتُ فيهم لعصيتموني، قالوا: سبحانك ما ينبغي لنا أن نعصيَك قال تعالى: فاختاروا من خياركم ملكين فاختاروا هاروتَ وماروتَ وكانا من أصلحهم وأعبدِهم فأُهبطا إلى الأرض بعد ما ركب فيهما ما ركب في البشر من الشهوة وغيرها من القوة ليقضيا بين الناس نهارًا ويعرُجا إلى السماء مساءً وقد نُهيا عن الإشراك والقتل بغير الحق وشرب الخمر والزنا وكانا يقضيان بينهم نهارًا فإذا أمسيا ذكرا اسم الله الأعظم فصَعِدا إلى السماء فاختصمت إليهما ذاتَ يوم امرأةٌ من أجمل النساءِ تسمّى «زهرةَ» وكانت من لَخْم وقيل: كانت من أهل فارسَ ملكةً في بلدها وكانت خصومتها مع زوجها فلما رأياها افتُتنا بها فراوداها عن نفسها فأبت فألحا عليها فقالت: لا إلا أن تقضيا لي على خصمي، ففعلا، ثم سألاها ما سألا، فقالت: لا إلا أن تقتُلاه ففعلا، ثم سألاها ما سألا فقالت: لا إلا أن تشربا الخمرَ

---

(١) هو: محمد بن أحمد بن الأزهر بن طلحة بن نوح بن الأزهر، أبو منصور الأزهري، الإمام في اللغة، ولد بـ«هراة» سنة اثنتين وثمانين ومائتين، وكان فقيهًا، صالحًا، غلب عليه علم اللغة، وصنف فيه كتابه «التهذيب» الذي جمع فيه فأوعى، من تصانيفه كتاب في التفسير سماه «التقريب»، و«شرح الأسماء الحسني»، و«شرح ألفاظ مختصر المزني»، و«الانتصار للشافعي»، توفي بـ«هراة» سنة سبعين وثلاثمائة في ربيع الآخر منها، وقيل غير ذلك.
تنظر ترجمته في: طبقات ابن قاضي شهبة (١/ ١٤٤)، طبقات السبكي (٣/ ٦٣).

(٢) هو: يونس بن حبيب الضبي الولاء البصري، بارع في النحو، من أصحاب أبي عمرو بن العلاء، وروى عن سيبويه، وله قياس في النحو، ومذاهب يتفرد بها، ولد سنة تسعين هـ ومات سنة ثنتين وثمانين ومائة هـ.
ينظر: الفهرست (٤٢)، وطبقات الزبيدي (٤٨)، وبغية الوعاة (٢/ ٣٥٦).

وتسجدا للصَّنم ففعلا كلًّا من ذلك بعد اللتيا والتي ثم سألاها ما سألا فقالت: لا إلا أن تعلماني ما تصعَدانِ به إلى السماء فعلماها الاسمَ الأعظم فدعَتْ به وصعِدَتْ إلى السماء فمسخها سبحانه كوكبًا فهمّا بالعروج حسب عادتهما فلم تطِعْهما أجنحتُهما فعلما ما حل بهما، وكانا في عهد إدريس عليه السلام فالتجآ إليه ليشفَعَ لهما ففعل فخيّرهما الله تعالى بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا الأول لانقطاعه عما قليل فهما معذبان[١] ببابلَ قيل: معلقان بشعورهما وقيل: منكوسان يُضربان بسياطِ الحديد إلى قيام الساعة فمما لا تعويل عليه لما أن مدارَه روايةُ اليهود مع ما فيه من المخالفة لأدلة العقل والنقلِ، ولعله من مقولة الأمثال والرموز التي قصد بها إرشادُ اللبيب الأريبِ بالترغيب والترهيب وقيل: هما رجلان سُمِّيا ملكين لصلاحهما ويعضُده قراءة (الملِكين)[٢] بالكسر.

﴿بِبَابِلَ﴾ الباء بمعنى في وهي متعلقةٌ بـ (أنزل) أو بمحذوف وقع حالًا من الملكين، أو من الضمير في (أنزل) وهي بابلُ العراق.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: بَابِلُ أرضُ الكوفة وقيل: جبلُ دماوند[٣]. ومَنعَ الصرفَ العجمةُ والعَلَمية أو للتأنيث والعلمية.

﴿هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ عطفُ بيان لـ (الملكين) علمان لهما ومُنِعَ صرفُهما للعجُمة والعلمية، ولو كانا من الهرْت والمرْت بمعنى الكسر لانصرفا، وأما من قرأ[٤] (الملِكين) بكسر اللام أو قال كانا رجلين صالحين فقال: هما اسمان لهما وقيل: هما اسما قبيلتين من الجن هما المرادُ من الملِكين بالكسر. وقرئ[٥] بالرفع على: هما هاروت وماروت ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ﴾ (مِنْ) مزيدة في المفعول به لإفادة تأكيد الاستغراقِ الذي يفيده (أحدٍ) لا لإفادة نفس الاستغراق كما في قولك: ما جاءني من

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١/ ٥٠١) رقم (١٦٨٤) عن ابن عباس.

(٢) قرأ بها: ابن عباس، والضحاك، وابن أبزى، وأبو الأسود الدؤلي، والحسن البصري، وابن مزاحم.
ينظر: الإملاء للعكبري ١/ ٣٢، والبحر المحيط (١/ ٣٢٩)، والتبيان للطوسي (١/ ٣٧٠، ٣٧٣)، وتفسير الطبري (٢/ ٤٣٥)، وتفسير القرطبي (٢/ ٥٢)، والكشاف للزمخشري (١/ ٨٥)، والمجمع للطبرسي (١/ ١٧٠)، والمحتسب لابن جني (١/ ١٠٠)، المعاني للفراء (١/ ٦٤).

(٣) ينظر «اللباب في علوم الكتاب» (٢/ ٣٤٠).

(٤) سبقت القراءة.

(٥) قرأ بها: الحسن، والزهري.
ينظر: البحر المحيط (١/ ٢٣٠)، والكشاف للزمخشري (١/ ٨٦).

رجل، وقرئ[1] (يُعْلِمانِ) من الإعلام.

﴿حَتَّىٰ يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ الفتنةُ الاختبارُ والامتحانُ وإفرادُها مع تعدّدهما لكونها مصدرًا، وحملُها عليهما مواطأةٌ للمبالغة كأنهما نفسُ الفتنة، والقصرُ لبيان أنه ليس لهما فيما يتعاطيَانِه شأنٌ سواها لينصرِفَ الناسُ عن تعلّمه أي: وما يُعلّمان ما أنزل عليهما من السحر أحدًا من طالبيه حتى ينصَحاه قبل التعليم ويقولا له: إنما نحن فتنةٌ وابتلاء من الله عز وجل فمن عمِل بما تعلم منا واعتقد حقّيته كفَر، ومن تَوقَّى عن العمل به أو اتخذه ذريعةً للاتقاءِ عن الاغترار بمثله بقيَ على الإيمان.

﴿فَلاَ تَكْفُرْ﴾ باعتقاد حقّيتهِ وجوازِ العمل به، والظاهرُ أن غاية النفي ليست هذه المقالةَ فقط بل من جملتها التزامُ المخاطب بموجب النهي، لكن لم يُذكَرْ لظهُوره، وكونِ الكلامِ في بيان اعتناءِ الملكين بشأن النُصح والإرشاد، والجملةُ في محل النصب على الحالية من ضمير (يعلمون) لا معطوفةٌ عليه كما قيل أي ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناسَ السحرَ وما أنزل على الملكين ويحمِلونهم على العمل به إغواءً وإضلالًا، والحال أنهما ما يعلمان أحدًا حتى ينهيَاهُ عن العمل به والكفرِ بسببه، وأما ما قيل من أن (ما) في قوله تعالى: ﴿وما أنزل﴾ إلخ نافيةٌ والجملةُ معطوفةٌ على قوله تعالى: ﴿وما كفر سليمانُ﴾ جيء بها لتكذيب اليهودِ في القصة أي لم يُنزَّل على الملكين إباحةُ السحر، وأن هاروتَ وماروتَ بدلٌ من الشياطين على أنهما قبيلتان من الجن خُصتا بالذكر لأصالتهما وكونِ باقي الشياطينِ أتباعًا لهما وأن المعنى ما يعلّمان أحدًا حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفرْ فتكونَ مثلَنا فيأباه أن مقام وصفِ الشياطين بالكفر وإضلال الناس مما لا يلائمه وصفُ رؤسائهم بما ذكر من النهي عن الكفر مع ما فيه من الإخلال بنظام الكلامِ فإن الإبدالَ في حُكم تنحيةِ المبدَل منه.

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا﴾ عطفٌ على الجملة المنفية فإنها في قوة المثبتة كأنه قيل: يعلمانهم بعد قولِهما (إنما نحن) إلخ والضميرُ لـ (أحدٍ) حملا على المعنى كما في قوله تعالى: ﴿فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾ [الحاقة، الآية ٤٧].

﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ﴾ أي بسببه وباستعماله ﴿بَيْنَ الْمَرءِ﴾ وقرئ بضم الميم[2]

---

(١) قرأ بها: طلحة بن مصرف.
ينظر: البحر المحيط (١/ ٣٣٠)، والكشاف للزمخشري (١/ ٨٦).

(٢) قرأ بها: ابن أبي إسحاق.
ينظر: البحر المحيط (١/ ٣٣٢)، والكشاف للزمخشري (١/ ٨٦)، والمحتسب لابن جني (١/ ١٠١).

وكسرِها[١] مع الهمزة وتشديد[٢] الراء بلا همزة ﴿وَزَوْجِهِ﴾ بأن يُحدث الله تعالى بينهما التباغضَ والفركَ[٣] والنشوزَ عندما فعلوا ما فعلوا من السحر على حسب جري العادةِ الإلٰهية من خلق المسبَّبات عقيب حصول الأسباب العاديةِ ابتلاءً لا أن السحرَ هو المؤثرُ في ذلك.

وقيل: فيتعلمون منهما ما يعملون به فيراه الناسُ ويعتقدون أنه حق فيكفرون فتَبِينُ أزواجهم ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ﴾ أي بما تعلّموه واستعملوه من السحر ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ أي أحدًا و(من) مزيدة[٤]، كما ذكر في قوله تعالى: ﴿وما يعلمان مِنْ أَحَدٍ﴾ والمعهود وإن كان زيادتها في معمول فعلٍ منفي إلا أنه حُملت الاسميةُ في ذلك على الفعلية كأنه قيل: وما يضرون به من أحد ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ لأنه وغيرَه من الأسباب بمعزل من التأثير بالذات وإنما هو بأمره تعالى فقد يُحدِث عند استعمالهم السحرَ فعلًا من أفعاله ابتلاءً، وقد لا يُحدِثه.

والاستثناءُ مفرَّغٌ والباء متعلقةٌ بمحذوف وقع حالًا من ضمير (ضارِّين) أو من مفعوله وإن كان نكرةً لاعتمادها على النفي أو الضمير المجرورِ في (به) أي: وما يُضرون به أحدًا إلا مقرونًا بإذن الله تعالى.

وقرئ[٥] (بضارِّي) على الإضافة بجعل الجارِّ جزءًا من المجرور وفصلٍ ما بين المُضافين بالظرف.

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ﴾ لأنهم يقصِدون به العمل أو لأن العلم يجرُّ إلى العَمل غالبًا ﴿وَلاَ يَنْفَعُهُمْ﴾ صرح بذلك إيذانًا بأنه ليس من الأمور المشوبة بالنفع والضرر بل هو شرٌّ بحتٌ وضررٌ محضٌ لأنهم لا يقصدون به التخلّصَ عن الاغترار بأكاذيبِ من

---

(١) قرأ بها: الحس، والأشهب العقيلي.
ينظر: البحر المحيط (١/ ٣٣٢)، والكشاف للزمخشري (١/ ٨٦)، والمحتسب لابن جني (١/ ١٠١).

(٢) قرأ بها: الزهري.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ٣٣)، والبحر المحيط (١/ ٣٣٢)، والكشاف للزمخشري (١/ ٨٦)، والمحتسب لابن جني (١/ ١٠١).

(٣) الفِرْكَ بالكسر! البغضة عامة وقيل الفِرْك بغضة الرجل لامرأته أو بغضة امرأته له وهو الأشهر وقال أبو عبيد: الفَرْك والفِرْك أن تبغض المرأة زوجها وقال هذا حرف مخصوص به المرأة والزوج.

(٤) في ط: زائدة.

(٥) قرأ بها: الأعمش.
ينظر: البحر المحيط (١/ ٣٣٢)، والكشاف للزمخشري (١/ ٨٦).

يدّعي النبوةَ مثلًا من السَحَرة أو تخليصَ الناس منه حتى يكون فيه نفعٌ في الجملة وفيه أن الاجتنابَ عما لا يؤمن غوائلُه خيرٌ كتعلم الفلسفةِ التي لا يؤمن أن تجُرَّ إلى الغواية، وإن قال من قال: [الهزج]

عرفتُ الشرَّ لا للشرِّ لكنْ لتوقِّيهِ ومن لا يعرفِ الشرَّ من الناس يقَعْ فيهِ[١]

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾ أي اليهود الذين حُكِيت جناياتُهم ﴿لِمَنْ اشْتَرَاهُ﴾ أي استبدلَ ما تتلو الشياطينُ بكتاب الله عز وجل، واللامُ الأولى: جوابُ قسمٍ محذوفٍ، والثانيةُ: لامُ ابتداءٍ عُلِّقَ به (علِموا) عن العمل و(مَنْ) موصولة في حيز الرفع بالابتداء و(اشتراه) صلتها.

وقوله تعالى: ﴿مَا لَهُ في الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ﴾ أي من نصيبٍ، جملةٌ من مبتدأٍ وخبرٍ و(مِنْ) مزيدة في المبتدأ، و(في الآخرة) متعلقٌ بمحذوف وقع حالًا منه، ولو أُخِّرَ عنه لكان صفةً له والتقدير: ما له خلاقٌ في الآخرة. وهذه الجملةُ في محلِّ الرفع على أنها خبرٌ للموصول والجملةُ في حيز النصبِ سادَّةٌ مسَدَّ مفعولَيْ (علموا) إن جُعل مُتعَديًا إلى اثنين، أو مفعولِه الواحدِ إن جعل متعديًا إلى واحد، فجملة (ولقد علموا) إلخ مُقْسَمٌ عليها دون جملة (لمن اشتراه) إلخ هذا ما عليه الجمهورُ وهو مذهبُ سيبويه وقال الفرّاءُ وتبعه أبو البقاء: إن اللامَ الأخيرة موطئةٌ للقسم، و(مَنْ) شرطية مرفوعةٌ بالابتداء و(اشتراه) خبرُها، و(ما له في الآخرة من خلاق) جوابُ القسم وجوابُ الشرطِ محذوفٌ اكتفاءً عنه بجواب القسم لأنه إذا اجتمع الشرطُ والقسمُ يُجاب سابقُهما غالبًا، فحينئذ يكون الجملتان مُقْسمًا عليهما.

﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ أي باعوها واللامُ جوابُ قسم محذوفٍ، والمخصوصُ بالذمِّ محذوفٌ، أي: وبالله لبئسما باعوا به أنفسَهم السحرُ أو الكفرُ.

وفيه إيذانٌ بأنهم حيث نبذوا كتابَ الله وراء ظهورِهم فقد عرَّضوا أنفسهم للهَلكة وباعوها بما لا يزيدهم إلا تَبارًا، وتجويزُ كونِ الشراء بمعنى الاشتراء [مما] لا سبيلَ إليه لأن المشترىٰ متعين وهو (ما تتلو الشياطين) ولأن متعلَّق الذمِّ هو المأخوذُ لا المنبوذُ كما أشير إليه في تفسير قوله سبحانه: ﴿بئسما اشتَرَوْا به أنفسَهم أن يكفُروا بما أنزل الله﴾ [البقرة، الآية ٩٠].

﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي يعملون بعلمهم. جُعلوا غيرَ عالمين لعدم عملِهم بموجب

(١) البيت لأبي فراس الحمداني في قرى الضيف لابن أبي الدنيا (١/ ٨٤)، والحماسة المغربية (١/ ٢٠٥).

علمِهم،، أوْ لو كانوا يتفكرون فيه أو يعلمون قبحَه على اليقين، أو حقيقةَ ما يتْبعُه من العذاب عليه، على أن المُثبَتَ لهم أولًا على التوكيد القسميِّ العقلُ الغريزيُّ أو العلمُ الإجماليُّ بقبح الفعل أو ترتبِ العقاب من غير تحقيق.

وجواب (لو) محذوف أي لما فعلوا ما فعلوا ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾ أي بالرسول المومأ إليه في قوله تعالى: ﴿ولما جاءهم رسول من عند الله﴾ [البقرة، الآية ١٠١] إلخ أو بما أنزل إليه من الآيات المذكورة في قوله تعالى: ﴿ولقد أنزلنا إليك آياتٍ بيناتٍ وما يكفُر بها إلا الفاسقون﴾ [البقرة، الآية ٩٩] أو بالتوراةِ التي أريدتْ بقوله تعالى: ﴿نبذَ فريقٌ من الذين أُوتوا الكتابَ كتابَ الله وراءَ ظهورهم﴾ [البقرة، الآية ١٠١] فإن الكفر بالقرآن والرسول عليه السلام كفرٌ بها ﴿وَاتَّقَوْا﴾ المعاصيَ المحكيةَ عنهم ﴿لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ الله خَيْرٌ﴾ جواب لو، وأصلُه لأُثيبوا مَثوبةً من عند الله خيرًا مما شرَوْا به أنفسَهم فحُذفَ الفعلُ وغُيِّر السبكُ إلى ما عليه النظمُ الكريم دلالةً على ثبات المثوبةِ لهم والجزمِ بخيريّتها، وحُذف المفضَّلُ عليه إجلالًا للمفضَّل من أن يُنسبَ إليه، وتنكيرُ المثوبةَ للتقليل[1]، و(من) متعلقة بمحذوفٍ وقع صفةً تشريفيةً لِ (مثوبةٌ) أي لَشيءٌ ما من المثوبة الكائنة[2] من عنده تعالى خير.

وقيل: جواب (لو) محذوفٌ، أي: لأثيبوا، وما بعده جملة مستأنفة فإن وقوعَ الجملةِ الابتدائية جوابًا لِ (لَوْ) غيرُ معهود في كلام العرب وقيل: (لو) للتمني ومعناه أنهم من فظاعة الحال بحيث يتمنىٰ العارفُ إيمانَهم واتقاءهم تلهّفًا عليهم.

وقرئ[3] (لَمَثْوَبَة) وإنما سمي الجزاء ثوابًا ومثوبةً؛ لأن المحسن يثوب إليه ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أن ثواب الله خيرٌ، نُسبوا إلى الجهل لعدم العملِ بموجب العلم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ

---

(١) في المخطوطة: للتعليل.

(٢) في ط: كائنة.

(٣) قرأ بها: قتادة، وأبو السمال، وعبد الله بن بريدة.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ٣٣)، والبحر المحيط (١/ ٣٣٥)، والتبيان للطوسي (١/ ٣٨٦)، والكشاف للزمخشري (١/ ٨٦)، والمحتسب لابن جني (١/ ١٠٣).

أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ خطابٌ للمؤمنين فيه إرشادٌ لهم إلى الخير وإشارةٌ إلى بعض آخر من جنايات اليهود ﴿لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ المراعاةُ المبالغةُ في الرعي وهي حِفظُ الغير وتدبيرُ أموره وتدارُكُ مصالحِه، وكان المسلمون إذا ألقىٰ عليهم رسول الله ﷺ شيئًا من العلم يقولون: راعنا يا رسول الله، أي: راقبْنا وانتظِرْنا وتأنَّ بنا حتى نفهمَ كلامَك ونحفظَه وكانت لليهود كلمةٌ عبرانية أو سريانيةٌ يتسابُّون بها فيما بينهم وهي راعينا قيل: معناها اسمعْ لا سمِعْت فلما سمعوا بقول المؤمنين ذلك افترضوه واتخذوه ذريعةً إلى مقصِدهم فجعلوا يخاطبون به النبيَّ ﷺ يعنون به تلك المسبةَ أو

نسبتَه ﷺ إلى الرَعَن وهو الحمقُ والهوَج.

روي أن سعد بن عبادة[١] رضي الله عنه سمعها منهم فقال: يا أعداءَ الله، عليكم لعنةُ الله [عليكم لعنة الله][٢] والذي نفسي بيده لئن سمعتُها من رجل منكم يقولها لرسول الله ﷺ لأضربن[٣] عُنقَه قالوا: أولستم تقولونها، فنزلت[٤] الآية. ونُهيَ فيها المؤمنون عن ذلك قطعًا لألسنة اليهود عن التدليس، وأُمروا بما في معناها ولا يقبل التلبيس فقيل: ﴿وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾ أي انظر إلينا بالحذف والإيصال أو انتظرنا على أنه من نظرَه إذا انتظروه.

وقرئ[٥] (أنظِرْنا) من الإنظار، أي أمهلنا حتى نحفظ.

وقرئ[٦] (راعونا) على صيغة الجمع، للتوقير، وراعنا على صيغة الفاعل، أي: قولا ذا رَعَنٍ كدارعٍ ولابنٍ لأنه لما أشبه قولَهم راعينا وكان سببًا للسب بالرَعَن اتَّصفَ به.

﴿وَاسْمَعُوا﴾ وأحسنوا سماع ما يكلمكم رسولُ الله ﷺ وما يلقي إليكم من المسائل بآذان واعية وأذهانٍ حاضرةٍ، حتى لا تحتاجوا إلى الاستعادة وطلبِ المراعاة أو واسمعوا ما كُلفتموه من النهي والأمر بجدٍّ واعتناء حتى لا ترجِعوا إلى ما نهيتم عنه

---

(١) هو: سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة الخزرجي سيدهم وصاحب راية الأنصار في المشاهد كلها، وقد شهد بدرًا، وكذا قاله ابن عيينة، وقال ابن سعد: تهيأ للخروج فنهش فأقام، وهو من نقباء العقبة، وكان سيدًا جوادًا يكتب بالعربية ويحسن العوم والرمي ولأجل ذلك سمي الكامل، له أحاديث، روى عنه بنوه قيس وسعيد وإسحاق، وأرسل عنه ابن المسيب، وكان كثير الصدقات جدا، وتخلف عن بيعة أبي بكر رضي الله عنه، وخرج عن المدينة ولم يرجع إليها حتى قتلته الجن بحوران من أعمال دمشق سنة خمس عشرة، وقال الفلاس: سنة ست عشرة، وقال أبو عبيد: سنة أربع عشرة.
ينظر: خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (١/ ٣٦٩)، تهذيب التهذيب (٣/ ٤٧٦)، أسد الغابة (٢/ ٣٥٦)، سير أعلام النبلاء (١/ ٢٧٠).

(٢) زيادة في المخطوطة.

(٣) في ط: لأحتزن.

(٤) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة؛ كما ذكره السيوطي في الدر(١/ ١٩٥)، وهو من طريق محمد بن مروان السدي عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

(٥) قرأ بها: أبي، والأعمش.
ينظر: البحر المحيط (١/ ٣٣٩)، وتفسير الطبري (٢/ ٤٦٨)، وتفسير القرطبي (٢/ ٦١)، والكشاف للزمخشري (١/ ٨٦)، وتفسير الفخر الرازي (١/ ٤٤١).

(٦) قرأ بها: عبد الله بن مسعود، وأبي، والأعمش، وزر بن حبيش.
ينظر: البحر المحيط (١/ ٣٣٨)، وتفسير الطبري (٢/ ٢٦٧)، وتفسير القرطبي (٢/ ٦٠)، والكشاف للزمخشري (١/ ٨٦)، والمعاني للفراء (١/ ٦٩).

أو واسمعوا سماعَ طاعةٍ وقَبول ولا يكن سماعُكم مثل سماعِ اليهود حيث قالوا: سمعنا وعصينا.

﴿وَلِلْكَافِرِيْنَ﴾ أي اليهود الذين توسلوا بقولكم المذكور إلى كفرياتهم وجعلوه سببًا للتهاون برسول الله ﷺ وقالوا له ما قالوا ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لما اجترءوا عليه من العظيمة، وهو تذييلٌ لما سبق فيه وعيدٌ شديد لهم ونوعُ تحذيرٍ للمخاطبين عما نُهُوا عنه.

﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الوُدُّ حبُّ الشيءِ مع تمنِّيه، ولذلك يستعمل في كلٍّ منهما، ونفيُه كنايةٌ عن الكراهة، ووضعُ الموصول موضعَ الضمير للإشعار بعلّية ما في حيز الصلةِ لعدم وُدِّهم، ولعل تعلقَه بما قبله من حيث إن القولَ المنهيَّ عنه كثيرًا ما كان يقع عند تنزيل الوحْي المعبَّرِ عنه في هذه الآية بالخير، فكأنه أُشير إلى أن سببَ تحريفِهم له إلى ما حُكي عنهم لوقوعه في أثناء حصولِ ما يكرهونه من تنزيلِ الخير.

وقيل: كان فريق من اليهود يُظهرون للمؤمنين محبةً ويزعُمون أنهم يَودُّون لهم الخير.

فنزلت تكذيبًا لهم في ذلك، و(من) في قوله تعالى: ﴿مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَلا المُشْرِكِينَ﴾ للتبيين كما في قوله عز وعلا: ﴿لم يكن الذين كفَروا من أهلِ الكتابِ والمشركين﴾ [البينة، الآية ١] و(لا) مزيدةٌ لما ستعرفه ﴿أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ في حيز النصب على أنه مفعولُ (يود)، وبناءُ الفعل للمفعول للثقة بتعيُّن الفاعل، والتصريحُ الآتي في قوله تعالى: ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ هو القائمُ مقامَ فاعلِه و(من) مزيدة للاستغراق، والنفيُ وإن لم يباشرْه ظاهرًا لكنه منسحبٌ عليه معنىً، والخيرُ الوحيُ، وحملُه على ما يعمّه وغيره - من العلم والنُّصرة كما قيل - يأباه وصفُه فيما سيأتي بالاختصاص، وتقديم الظرف عليه مع أن حقه التأخرُ عنه لإظهار كمال العنايةِ به، لأنه المدارُ لعدم ودِّهم، و(من) في قوله تعالى: ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ابتدائية، والتعرُّضُ لعنوان الربوبية للإشعار بعليته لتنزيل الخيرِ والإضافة إلى ضمير المخاطبين لتشريفهم.

وليست كراهتُهم لتنزيله على المخاطبين من حيث تعبُّدُهم بما فيه وتعريضُهم بذلك لسعادة الدارين كيف لا وهم من تلك الحيثية من جملة مَنْ نزَلَ عليهم الخيرُ بل من حيث وقوعُ ذلك التنزيلِ على النبي ﷺ، وصيغةُ الجمعِ للإيذان بأن مدارَ كراهتهم ليس معنى خاصا بالنبي ﷺ بل وصفٌ مشترك بين الكل وهو الخلوُّ عن الدراسة عند اليهود وعن الرياسة عند المشركين، والمعنى أنهم يرَوْن أنفسَهم أحقَّ بأن يُوحىٰ إليهم

ويكرهونكم[١] فيحسُدونكم أن ينْزِل عليكم شيء من الوحي، أما اليهودُ فبناءً على أنهم أهلُ الكتاب وأبناءُ الأنبياءِ الناشئون في مهابط الوحي وأنتم أُميُّون، وأما المشركون فإدلالًا بما كان لهم من الجاه والمال زعمًا منهم أن رياسةَ الرسالةِ كسائر الرياساتِ الدنيويةِ منوطةٌ بالأسباب الظاهرة ولذلك قالوا: ﴿لولا نُزِّلَ هذا القرآنُ على رجلٍ من القَرْيتين عظيم﴾ [الزخرف، الآية ٣١] ولما كانت اليهودُ بهذا الداء أشهرَ لا سيما في أثناء ذكرِ ابتلائِهم به لم يلزَمْ من نفي ودادتِهم لما ذكِرَ نفيُ ودادةِ المشركين له، فزيدت كلمةُ (لا) لتأكيد النفي.

﴿وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ﴾ جملة ابتدائية سيقت لتقرير ما سبق من تنزيل الخيرِ والتنبيه على حكمتِه وإرغامِ الكارهين له، والمرادُ بـ (رحمته): الوحيُ كما في قوله سبحانه: ﴿أهُمْ يقسِمون رَحمةَ ربِّك﴾ [الزخرف، الآية ٣٢] عبّر عنه باعتبار نزولِه على المؤمنين بالخير وباعتبار إضافتِه إليه تعالى بالرحمة.

قال علي رضي الله عنه: بنبوته، خَصَّ بها محمدًا ﷺ.

فالفعلُ متعدٍ وصيغة الافتعال للإنباء عن الاصطفاء، وإيثارُه على التنزيل المناسبِ للسياق الموافقِ لقوله تعالى: ﴿أن يُنَزِّل الله من فضله على مَنْ يشاءُ﴾ [البقرة، الآية ٩٠] لزيادة تشريفه ﷺ وإقناطِهم مما علّقوا به أطماعَهم الفارغةَ، والباءُ داخلةٌ على المقصور، أي: يؤتي رحمته ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده ويجعلها مقصورةً عليه لاستحقاقه الذاتي الفائضِ عليه بحسب إرادتِه عز وعلا تفضّلًا لا تتعداه إلى غيره، وقيل: الفعلُ لازمٌ و(مَنْ) فاعله والضميرُ العائد إلى (مَنْ) محذوفٌ على التقديرين.

وقوله تعالى: ﴿وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيم﴾ تذييلٌ لما سبق مقررٌ لمضمونه، وفيه إيذان بأن إيتاءَ النبوةِ من فضله العظيم[٢] كقوله تعالى: ﴿إنَّ فضلَه كان عَليكَ كبيرًا﴾ [الإسراء، الآية ٨٧] وأن حِرمان من حُرم ذلك ليس لضيق ساحةِ فضلِه بل لمشيئته الجاريةِ على سَننِ الحِكْمةِ البالغةِ، وتصديرُ الجملتين بالاسم الجليل؛ للإيذان بفخامة مضمونَيْهما، وكونِ كلٍّ منهما مستقلةً بشأنها، فإن الإضمارَ في الثانية مُنبِئ عن توقُّفِها على الأولى.

﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيةٍ أَوْ نُنْسِها﴾ كلامٌ مستأنفٌ مَسوقٌ لبيان سرِّ النسخِ الذي هو فردٌ من أفراد تنزيلِ الوحي وإبطالِ مقالةِ الطاعنين فيه إثْرَ تحقيقِ حقيقةِ الوحي، وردٌّ كلامِ الكارهين له رأسًا.

---

(١) في المخطوط: ويكرهون.

(٢) في المخطوط: الكريم.

قيل: نزلت حين قال المشركون أو اليهود: ألا ترون إلى محمد يأمُر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمُر بخلافه[(١)].

والنسخُ في اللغة الإزالةُ والنقلُ يقال: نسخَت الريحُ الأثرَ أي أزالته ونسخْتُ الكتابَ أي نقلتُه ونسخُ الآيةِ: بيانُ انتهاءِ التعبّدِ بقراءتها، أو بالحكم المستفادِ منها أو بهما جميعًا، وإنساؤُها: إذهابُها من القلوب، و(ما) شرطيةٌ جازمة لـ (ننسَخْ) منتصبةٌ به على المفعولية.

وقرئ[(٢)] (نُنْسِخْ) من أنسخ أي نأمُرك أو [نأمر] جبريلَ بنسخها أو تجدها منسوخة، و(نَنْسأها)[(٣)] من النَّسء أي نؤخّرْها، و(نُنَسِّها)[(٤)] بالتشديد، و(تَنْسَها)[(٥)] و(تُنْسها) على خطاب الرسول ﷺ مبنيًّا للفاعل وللمفعول[(٦)].

---

(١) ذكره الثعلبي في تفسيره (١/ ٢٥٣).

(٢) قرأ بها: ابن عامر، وهشام، وشريح، والذماري.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٤٥)، والإملاء للعكبري (١/ ٣٣)، والبحر المحيط (١/ ٢٤٢)، والتبيان للطوسي (١/ ٣٩٢)، والتيسير للداني (٧٦)، وتفسير الطبري (٢/ ٤٧٨)، وتفسير القرطبي (٢/ ٦٧)، والحجة لابن خالويه (٨٦)، والحجة لأبي زرعة (١٠٩)، والسبعة لابن مجاهد (١٦٨)، والغيث للصفاقسي (١٢٨)، والكشاف للزمخشري (١/ ٨٧)، والكشف للقيسي (١/ ٢٥٧)، والمجمع للطبرسي (١/ ١٧٩)، والمعاني للأخفش (١/ ١٤٣)، والمعاني للفراء (١/ ٦٤)، وتفسير الفخر الرازي (١/ ٤٤٢)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢١٩).

(٣) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، وعمر، وابن عباس، وعطاء، ومجاهد، وأبي بن كعب، والنخعي، وعبيد بن عمير، وابن محيصن، وعطاء بن رباح، واليزيدي، وعاصم الجحدري.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٤٥)، والإعراب للنحاس (١/ ٢٠٦)، والبحر المحيط (١/ ٣٤٣)، والتبيان للطوسي (١/ ٣٩٢)، والتيسير للداني (٧٦)، وتفسير الطبري (٢/ ٤٧٨)، وتفسير القرطبي (٢/ ٦٧)، والحجة لابن خالويه (٨٦)، والحجة لأبي زرعة (١٠٩)، والسبعة لابن مجاهد (١٦٨)، والغيث للصفاقسي (١٢٨)، والكشف للقيسي (١/ ٢٥٨، ٢٥٩)، والمجمع للطبرسي (١/ ١٧٩)، والمعاني للأخفش (١/ ١٤٣)، والمعاني للفراء (١/ ٦٤)، تفسير الفخر الرازي (١/ ٤٤٢)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢١٩).

(٤) قرأ بها: الضحاك، وأبو رجاء العطاردي.
ينظر: البحر المحيط (١/ ٣٤٣)، والتبيان للطوسي (١/ ٣٩٩)، والكشاف للزمخشري (١/ ٨٧)، والمحتسب لابن جني (١/ ١٠٣)، وتفسير الفخر الرازي (١/ ٤٤٢).

(٥) قرأ بها: سعد بن أبي وقاص، والحسن، يحيى بن يعمر.
ينظر: تفسير الطبري (٢/ ٤٧٤)، والمحتسب لابن جني (١/ ١٠٣)، والمعاني للأخفش (١/ ١٤٣)، وتفسير الفخر الرازي (١/ ٤٤٢).

(٦) قرأ بها: سعيد بن المسيب، والضحاك. =

وقرئ[١] (ما ننسخ من آية أو نُنْسِكْها) وقرئ (ما نُنْسِكَ[٢] من آية أو نَنْسَخها[٣]) والمعنى: أن كل آيةٍ نذهب بها على ما تقتضيه الحكمةُ والمصلحة من إزالة لفظِها أو حكمِها أو كليهما معًا إلى بدل أو إلى غير بدل ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ أي نوع آخرَ هو خيرٌ للعباد وبحسب الحال في النفع والثوابِ من الذاهبة، وقرئ بقلب الهمزة ألفًا ﴿أَوْ مِثْلِهَا﴾ أي فيما ذكر من النفع والثواب، وهذا الحكمُ غيرُ مختصٍّ بنسخ الآية التامة فما فوقها بل جارٍ فيما دونها أيضًا، وتخصيصُها بالذكر باعتبار الغالب، والنصُّ كما ترى دالٌّ على جواز النسخ كيف لا وتنزيلُ الآيات التي عليها يدور فلَكُ الأحكام الشرعية إنما هو بحسب ما يقتضيه من الحِكَم والمصالح وذلك يختلف باختلاف الأحوال ويتبدّل حسب تبدل الأشخاص والأعصار[٤] كأحوال المعاش، فرب حكم تقتضيه الحكمةُ في حال تقتضي في حالٍ أخرى نقيضَه، فلو لم يُجزِ النسخُ لاختل ماً بين الحِكمة والأحكام من النظام.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ الهمزة للتقرير كما في قوله سبحانه: ﴿أليس الله بكافٍ عَبْدَه﴾ [الزمر، الآية ٣٦] وقوله تعالى: ﴿ألم نشرَحْ لك صدرَك﴾ [الشرح، الآية ١] والخطابُ للنبي عليه الصلاة والسلام.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّ الله عَلَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ﴾ سادٌّ مسَدَّ مفعوليْ (تعلم) عند الجمهور، ومسدَّ مفعولِه الأول، والثاني محذوفٌ عند الأخفش، والمرادُ بهذا التقرير الاستشهادُ بعلمه بما ذكر على قدرته تعالى على النسخ وعلى الإتيان بما هو خيرٌ من المنسوخ وبما هو مثله لأن ذلك من جملة الأشياء المقهورةِ تحت قدرته سبحانه فمِنْ

---

= ينظر: الكشاف للزمخشري (١/ ٨٧)، والكشف للقيسي (١/ ٢٥٨، ٢٥٩)، والمحتسب لابن جني (١/ ١٠٣)، وتفسير الفخر الرازي (١/ ٤٤٢).

(١) قرأ بها: سالم مولى أبي حذيفة، وأبو حذيفة.
ينظر: البحر المحيط (١/ ٣٤)، والكشاف للزمخشري (١/ ٨٧)، والمعاني للفراء (١/ ٦٥)، وتفسير الفخر الرازي (١/ ٤٤٢).

(٢) قرأ بها: الأعمش، وعبد الله بن مسعود.
ينظر: البحر المحيط (١/ ٣٤٣)، والمحتسب لابن جني (١/ ١٠٣)، والمعاني للفراء (١/ ٦٩)، وتفسير الفخر الرازي (١/ ٤٤٢).

(٣) قرأ بها: عبد الله بن مسعود والأعمش.
ينظر: البحر المحيط (١/ ٣٤٣)، وتفسير الطبري (٢/ ٤٧٤)، والكشاف للزمخشري (١/ ٨٧)، والكشف للقيسي (١/ ٢٥٩)، والمحتسب لابن جني (١/ ١٠٣)، والمعاني للفراء (١/ ٦٩)، وتفسير الفخر الرازي (١/ ٤٤٢).

(٤) في ط: والأبصار.

علم شمولِ قدرتِه تعالى لجميع الأشياء علمُ قدرته على ذلك قطعًا، والالتفاتُ بوضع الاسم الجليلِ موضع الضمير لتربية المهابة والإشعارِ بمناط الحكم فإن شمولَ القدرة لجميع الأشياء من أحكامِ الألوهية وكذا الحال في قوله عز سلطانه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٠٧، والمائدة: ٤٠] فإن عنوان الألوهية مدارُ أحكام ملكوتِهما.

والجارُ والمجرورُ خبرٌ مقدم و(ملكُ السموات والأرض) مبتدأ والجملة خبرُ لـ (أن) وإيثارُه على أن يقال: إن لله ملكَ[1] السمواتِ والأرضِ للقصد إلى تقوّي الحُكم بتكرر الإسناد، وهو إما تكريرٌ للتقرير وإعادةٌ للاستشهاد على ما ذُكر وإنما لم يعطَفْ (أن) مع ما في حيزها على ما سبق من مثلها و(ما) لزيادة التأكيد وإشعارًا باستقلال العلم بكلٍّ منهما وكفايتِه في الوقوف على ما هو المقصودُ وإما تقريرٌ مستقل للاستشهاد على قدرته تعالى على جميع الأشياء أي ألم تعلم أن الله له السلطانُ القاهرُ والاستيلاءُ الباهرُ المستلزِمان للقدرة التامة على التصرف الكليِّ فيهما إيجادًا وإعدامًا وأمرًا ونهيًا حسبما تقتضيه مشيئتُه لا مُعارِضَ لأمره ولا معقِّبَ لحكمه! فمن هذا شأنُه كيف يخرُج عن قدرته شيءٌ من الأشياء، وقولُه تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ معطوفةٌ على الجملة الواقعةِ خبرًا لـ (أن) داخلةٌ معها تحت تعلقِ العلم المقرِّرِ، وفيه إشارة إلى تناول الخطابين السابقين للأمة أيضًا، وإنما إفرادُه عليه السلام بهما لما أن علومَهم مستنِدةٌ إلى علمه عليه السلام، ووضعُ الاسم الجليل موضِعَ الضمير الراجع إلى اسم (أن) لتربية المهابة والإيذانِ بمقارنة الولاية والنصرةِ للقوة والعزة، والمرادُ به الاستشهادُ بما تعلق به من العلم على تعلُّق إرادتِه تعالى بما ذكر من الإتيان بما هو خيرٌ من المنسوخ أو بمثله فإن مجرَّد قدرته تعالى على ذلك لا يستدعي حصولَه ألبتة، وإنما الذي يستدعيه كونُه تعالى مع ذلك وليًا ونصيرًا لهم، فمن علم أنه تعالى وليُّه ونصيرُه على الاستقلال يعلم قطعًا أنه لا يفعل به إلا ما هو خير له فيفوِّضُ أمرَه إليه تعالى ولا يخطُر بباله ريبةٌ في أمر النسخ وغيرِه أصلًا، والفرق بين الوليِّ والنصيرِ أن الوليَّ قد يضعُفُ عن النُصرة، والنصيرُ قد يكون أجنبيا من المنصور.

و(ما) إما تميمية، لا عمل لها و(لكم) خبرٌ مقدم و(من وليٍّ) مبتدأ مؤخر زيدت فيه كلمة (من) للاستغراق وإما حجازية و(لكم) خبرها المنصوب عند من يُجيزُ تقديمَه واسمُها (من ولي) و(من) مزيدة لما ذكر و(من دون الله) في حيز النصب على الحالية من اسمها لأنه في الأصل صفة له فلما قدم انتصب حالًا ومعناه: سوى الله.

---

(١) زاد في المخطوط: لله.

والمعنى أن قضية العلم بما ذكر من الأمور الثلاثة هو الجزمُ والإيقانُ بأنه تعالى لا يفعل بهم في أمر من أمور دينهم أو دنياهم إلا ما هو خيرٌ لهم، والعملُ بموجبه من الثقة به والتوكلِ عليه وتفويضِ الأمر إليه من غير إصغاءٍ إلى أقاويل الكفرةِ وتشكيكاتهم التي من جملتها ما قالوا في أمر النسخ.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ تجريدٌ للخطاب عن النبي ﷺ وتخصيصٌ له بالمؤمنين، و(أمْ) منقطعة ومعنى: (بل) فيها: الإضرابُ، والانتقال من حملهم على العمل بموجب علمهم بما ذكر عند ظهور بعض مخايلِ المساهلةِ منهم في ذلك وأمارات التأثر من أقاويل الكفرة إلى التحذير من ذلك.

ومعنى الهمزةِ: إنكارُ وقوعِ الإرادة منهم واستبعادُه لما أن قضية الإيمان وازعةٌ عنها، وتوجيهُ الإنكار إلى الإرادة دون متعلَّقها للمبالغة في إنكاره واستبعادِه ببيان أنه مما لا يصدُر عن العاقل إرادتُه فضلًا عن صدوره نفسِه والمعنى بل أتريدون ﴿أَنْ تَسْأَلُوا﴾ وأنتم مؤمنون ﴿رَسُولَكُمْ﴾ وهو في تلك الرتبة من علو الشأن وتقترحوا عليه ما تشتهون غيرَ واثقين في أموركم بفضل الله تعالى حسبما يوجبه قضيةُ علمِكم بشؤونه سبحانه.

قيل: لعلهم كانوا يطلبون منه عليه الصلاة والسلام بيانَ تفاصيلِ الحكم الداعية إلى النسخ وقيل: سأله عليه السلام قومٌ من المسلمين أن يجعل لهم (ذاتَ أنواط) كما كانت للمشركين[(١)] وهي شجرة كانوا يعبدونها ويعلّقون عليها المأكول والمشروب.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ﴾ مصدرٌ تشبيهيّ، أي نعت لمصدر مؤكدٍ محذوف و(ما) مصدرية أي سؤالًا مُشْبَهًا بسؤال موسى عليه السلام حيث قيل له: ﴿اجعلْ لنا إلٰهًا﴾ [الأعراف: ١٣٨] و﴿أرِنا الله جهرةً﴾ [النساء: ١٥٣] وغيرَ ذلك، ومقتضىٰ الظاهرِ أن يقال: كما سألوا موسى لأن المشبَّه هو المصدرُ من المبني للفاعل أعني سؤالية المخاطبين لا من المبني للمفعول أعني مسؤوليةَ الرسول ﷺ حتى يُشبَّه بمسؤولية موسى عليه السلام فلعله أريد التشبيهُ فيهما معًا ولكنه أوجز النظم فذكر في جانب المشبه السائليةَ وفي جانب المشبَّه به المسؤولية واكتُفي بما ذكر في كل موضع عما تُرِك في الموضع الآخر كما ذكر في قوله تعالى: ﴿وإن يمسسك الله بضرٍ فلا كاشف له إلا

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢١٨) والترمذي (٢١٨٠) وعبد الرزاق (٢٠٧٦٣) وابن أبي شيبة (١٥/ ١٠١) والحميدي (٨٤٨) وأبو يعلى (١٤٤١) وابن حبان (٦٧٠٢) وابن أبي عاصم في «السنة» (٧٦) والطبراني في «الكبير» رقم (٣٢٩٠، ٣٢٩١، ٣٢٩٢، ٣٢٩٣، ٣٢٩٤) من حديث أبي واقد الليثي وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

هو وإن يُرِدْك بخير فلا رادَّ لفضْلِه﴾ [يونس، الآية ١٠٧] وقد جُوِّز أن تكون (ما) موصولةً على أن العائد محذوفٌ، أي: كالسؤال الذي سُئِله موسى عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ متعلِّقٌ بـ (سُئِل) جيءَ به للتأكيد، وقرئ[(١)] (سِيل) بالياء وكسر السين وبتسهيل الهمزة بين بين[(٢)] ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ﴾ أي يخترْه ويأخذْه لنفسه ﴿بِالإِيْمَانِ﴾ بمقابَلتِه بدلًا منه.

وقرئ (ومن يُبْدلْ) من أَبدل وكان مقتضىٰ الظاهر أن يقال: ومن يفعلْ ذلك أي السؤالَ المذكورَ أو إرادتَه وحاصلُه: ومن يترُكِ الثقةَ بالآيات البينةِ المنْزلةِ بحسب المصالحِ التي من جملتها الآياتُ الناسخةُ التي هي خيرٌ محضٌ وحقٌّ بحتٌ واقترح غيرَها ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي عدَلَ وجارَ من حيث لا يدري عن الطريق المستقيم الموصِل إلى معالم الحق والهدى، وتاه في تيه الهوىٰ وتردىٰ في مهاوي الردىٰ.

وإنما أُوثر على ذلك ما عليه النظمُ الكريمُ للتصريح من أول الأمرِ بأنه كفرٌ وارتدادٌ وأن كونَه كذلك أمرٌ واضح غنيٌ عن الإخبار به بأن يقال: ومن يفعلْ ذلك يكفُرْ، حقيقٌ بأن يُعدَّ من المسلّمات ويُجعلَ مقدَّمًا للشرْطية رَوْمًا للمبالغة في الزجر والإفراط في الردع، و(سواءَ السبيل) من باب إضافةِ الوصفِ إلى الموصوف لقصد المبالغة في بيان قوة الاتصافِ كأنه نفسُ السواءِ على منهاج حصولِ الصورة في الصورة الحاصلة، وقيل: الخطابُ لليهود حين سألوا أن يُنزِّل الله عليهم كتابًا من السماء وقيل للمشركين حين قالوا: ﴿لن نُؤمِنَ لك حتى تفجُرَ لنا من الأرض يَنْبوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] إلخ فإضافةُ الرسول ﷺ إليهم على القولين باعتبار أنهم من أمة الدعوةِ.

ومعنى تبدّلِ الكفر بالإيمان وهم بمعزل من الإيمان تركُ صَرْفِ قدرتِهم إليه مع تمكنِّهم من ذلك وإيثارُهم للكفر عليه.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ﴾ هم رهطٌ من أحبار اليهود.

رُوي أن فِنحاصَ بنَ عازوراءَ[(٣)] وزيدَ بنَ قيسٍ ونفرًا من اليهود قالوا لحذيفة بن اليمان وعمارِ بن ياسر رضي الله عنهما بعد وقعة أُحُد: ألم ترَوْا ما أصابكم ولو كنتم

---

(١) قرأ بها: الحسن، وأبو السمال.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٢٠٦)، والإملاء للعكبري (١/ ٣٤)، والبحر المحيط (١/ ٣٤٦)، وتفسير القرطبي (٢/ ٧٠).

(٢) ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٤٥)، والإملاء للعكبري (١/ ٣٤)، والبحر المحيط (١/ ٣٤٦).

(٣) هو: فنحاص بن عازوراء رجل من اليهود، يقال إنه من أحبارهم.

على الحق ما هُزمتم فارجِعوا إلى ديننا فهو خيرٌ لكم وأفضلُ ونحن أهدى منكم سبيلًا، فقال عمارٌ: كيف نقضُ العهد فيكم؟ قالوا: شديد، قال: فإني عاهدتُ أن لا أكفر بمحمد عليه الصلاة والسلام ما عشتُ، فقالت اليهود: أما هذا فقد صَبَأ وقال حذيفةُ: أما أنا فقد رضِيتُ بالله ربا وبمحمد نبيا وبالإسلام دينًا وبالقرآن إمامًا وبالكعبة قِبلةً وبالمؤمنين إخوانًا ثم أتَيَا رسولَ الله ﷺ وأخبراه فقال: أصبتما خيرًا وأفلحتما فنزلت[1] ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾ حكايةٌ لودادتِهم، ولو في معنى التمني وصيغةُ الغَيْبة كما في قوله: حلف ليَفعلَن، وقيل: هي بمنزلة أَن الناصبةِ فلا يكونُ لها جوابٌ وينْسبكُ منها ومما بعدها مصدرٌ يقع مفعولًا لـ (ودّوا) والتقدير: ودُّوا ردَّكم وقيل: هي على حقيقتها وجوابُها محذوف تقديرُه: لو يردّونكم كفارًا لسُرُّوا بذلك و﴿مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ﴾ متعلق بـ (يردّونكم) وقوله تعالى: ﴿كُفَّارًا﴾ مفعول ثانٍ له على تضمين الرد معنى التصيير، أي: يصيِّرونكم كفارًا كما في قوله: [الوافر]

رمىٰ الحدَثانُ نِسوةَ آل سعدٍ بمقدارٍ سَمَدْنَ له سُمودا
فردَّ شعورَهن السودَ بيضًا ورد وجوهَهن البيضَ سودا[2]

وقيل: هو حال من مفعوله، والأول أدخلُ لما فيه من الدلالة صريحًا على كون الكفر المفروضِ بطريق القسر وإيرادُ الظرف مع عدم الحاجة إليه ضرورةَ كونِ المخاطبين مؤمنين واستحالةِ تحققِ الردِّ إلى الكفر بدون سبْق الإيمان مع توسيطِه بين المفعولين لإظهار كمالِ شناعة ما أرادوه وغايةِ بُعدِه من الوقوعِ إما لزيادة قبحِه الصارفِ للعاقل عن مباشرته، وإما لممانعة الإيمانِ له كأنه قيل: من بعد إيمانكم الراسخِ وفيه من تثبيت المؤمنين ما لا يخفىٰ.

﴿حَسَدًا﴾ علةٌ لـ (ودّ) أو حال أريد به نعتُ الجمع، أي: حاسدين لكم، والحسَدُ: الأسفُ على من له خيرٌ بخيره ﴿مِنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ متعلق بـ (ود) أي: ودوا

---

(١) قال الحافظ «لم أجده مسندًا وهو في تفسير الثعلبي بلا سند ولا راو» اهـ.
وقال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/ ٧٩): «غريب وهو في تفسير الثعلبي هكذا من غير سند ولا راوٍ» يبعد الوجه الثاني دخول عند، ويقرب الأول قوله تعالى-: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾.

(٢) البيتان لعبد الله بن الزبير في ملحق ديوانه ص(١٤٣، ١٤٤)، وتخليص الشواهد ص(٤٤٣)، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص(٩٤١)، والمقاصد النحويَّة (٢/ ٤١٧)، ولأيمن بن خريم في ديوانه ص(١٢٦)، ولفضالة بن شريك في عيون الأخبار (٣/ ٧٦)، ومعجم الشعراء ص(٣٠٩)، وللكميت بن معروف في ديوانه ص (١٩١)، وذيل الأمالي ص(١١٥)، وبلا نسبة في شرح الأشموني (١/ ١٥٩) البيت الثاني فقط، وشرح ابن عقيل، ص (٢١٧)، ولسان العرب (سمد) البيت الأول فقط.

ذلك من أجل تشهّيهم وحظوظِ أنفسِهم لا من قِبَل التدين[١] والميل مع الحق ولو على زعمهم أو بـ ﴿حسدًا﴾ أي: حسدًا منبعثًا من أصل نفوسهم بالغًا أقصىٰ مراقِيه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ﴾ بالمعجزات الساطعةِ وبما عاينوا في التوراة من الدلائل وعلموا أنكم متمسّكون به وهم منهمكون في الباطل ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ العفوُ تركُ المؤاخذة والعقوبةِ والصفحُ تركُ التثريب والتأنيب ﴿حَتَّى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ﴾ الذي هو قتلُ بني قُريظةَ وإجلاءُ بني النَّضير وإذلالُهم بضرب الجزية عليهم، أو الإذنُ في القتال.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه منسوخٌ بآية السيف[٢] ولا يقدح في ذلك: ضرب الغاية لأنها لا تُعْلم إلا شرعًا ولا يخرُجُ الواردُ بذلك من أن يكون ناسخًا كأنه قيل: فاعفوا واصفحوا إلى ورود الناسخ ﴿إِنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ﴾ فينتقمُ منهم إذا حان حينُه وآن أوانُه، فهو تعليلٌ لما دل عليه ما قبله ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ عطفٌ على (فاعفوا) أُمروا بالصبر والمداراةِ واللَّجَإ إلى الله تعالى بالعبادة البدنية والمالية ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُم مِنْ خَيْرٍ﴾ كصلاة أو صدقةٍ أو غيرِ ذلك، أيْ: أيُّ شيءٍ من الخيرات تقدّموه لمصلحة أنفسِكم ﴿تَجِدُوهُ عِنْدَ الله﴾ أي تجدوا ثوابه.

وقرئ (تُقْدِموا) من أقدم ﴿إِنَّ الله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فلا يَضيعُ عنده عملٌ، فهو وعدٌ للمؤمنين، وقرئ بالياء فهو وعيدٌ للكافرين.

﴿وَقَالُوا﴾ عطف على ﴿ود﴾ والضميرُ لأهل الكتابين جميعًا ﴿لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ أي: قالت اليهودُ لن يدخُلَ الجنةَ إلا من كان هُودًا، وقالت النصارى: لن يدخُلَ الجنةَ إلا من كان نصارى، فلفّ بين القولين ثقةً أن السامعَ يردُّ كلا منهما إلى قائله، ونحوُه ﴿وقالوا كونوا هودًا أو نصارى تهتدوا﴾ وليس مرادُهم بأولئك مَنْ أقام اليهوديةَ والنصرانيةَ قبل النسخِ والتحريفِ على وجههما بل أنفسَهم على ما هم عليه لأنهم إنما يقولونه لإضلال المؤمنين وردِّهم إلى الكفر.

والهُودُ: جمعُ هائِدٍ كعوذٍ جمعُ عائذ، وبُزْلٍ جمعُ بازل، والإفرادُ في ﴿كان﴾ باعتبار لفظ ﴿مَنْ﴾ والجمع في خبرِه باعتبار معناه.

وقرئ (إلا من كان يهوديًا أو نصرانيا[٣]) ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ الأمانيُّ: جمع أُمنية،

---

(١) في ط: التدبير.

(٢) أخرجه الطبري (١/ ٥٣٦-٥٣٧) رقم (١٧٩٩) والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٢٨٥) عن ابن عباس وأخرجه الطبري(١/ ٥٣٧) رقم (١٨٠٠، ١٨٠١، ١٨٠٢، ١٨٠٣) عن قتادة والربيع والسدي.

(٣) قرأ بها: أبي.

=

وهي ما يُتمنّى كالأُعجوبة والأُضْحوكة، والجملةُ معترِضةٌ مُبينةٌ لبُطلان ما قالوا، و﴿تلك﴾ إشارةٌ إليه، والجمعُ باعتبار صدوره عن الجميع، وقيل: فيه حذفُ مضافٍ، أي أمثالُ تلك الأُمنية: أمانيُّهم، وقيل: ﴿تلك﴾ إشارةٌ إليه وإلى ما قبله مِن ألا ينزلَ على المؤمنين خيرٌ من ربهم وأن يردَّهم كفارًا، ويردُّه قوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فإنهما ليسا مما يُطلب له البرهانُ، ولا مما يَحتملُ الصِّدق والكذِبَ.

قيل: (هاتوا) أصلُه: آتوا، قُلبت الهمزةُ هاءً أي: أَحضِروا حُجتَكم على اختصاصكم بدخول الجنة إن كنتم صادقين في دعواكم.

هذا ما يقتضيه المقامَ بحسب النظرِ الجليلِ والذي يستدعيه إعجازُ التنزيل أن يُحمل الأمرُ[1] التبكيتيُّ[2] على طلب البرهان على أصل الدخولِ الذي يتضمنه دعوى الاختصاص به، فإن قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾ إلخ إثباتٌ من جهته تعالى لما نفَوْه مستلزمٌ لنفْي ما أثبتوه، وإذْ ليس الثابتُ به مجردَ دخولِ غيرِهم [الجنةَ ولو معهم ليكون المنفيُّ مجردَ اختصاصِهم به مع بقاءِ أصلِ الدخولِ على حاله بل هو اختصاصُ غيرِهم][3] بالدخول كما ستعرفه بإذن الله تعالى ظهرَ أن المنفيَّ أصلُ دخولِهم، ومن ضَرورته أن يكون هو الذي كُلِّفوا إقامةَ البُرهانِ عليه لا اختصاصُهم به ليتّحدَ موردُ الإثباتِ والنفي، وإنما عدَلَ عن إبطال صريحِ ما ادَّعَوْه وسَلك هذا المسلكَ إبانةً لغاية حِرمانِهم مما علّقوا به أطماعَهم وإظهارًا لكمال عجزِهم عن إثباتِ مُدَّعاهم لأن حِرمانَهم من الاختصاص بالدخول وعجزَهم عن إقامة البرهانِ عليه لا يقتضيان حرمانَهم من أصل الدخولِ وعجزَهم عن إثباته وأما نفسُ الدخولِ فحيث ثبت حِرمانُهم منه وعجزُهم عن إثباته فهم من الاختصاص به أبعدُ وعن إثباته أعجزُ، وإنما الفائزُ به من انتظمه قوله سبحانه:

﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله﴾ أي أخلص نفسَه له تعالى لا يشرك به شيئًا، عبّر عنها بالوجه [لأنه][4] أشرفُ الأعضاءِ ومجمعُ المشاعرِ وموضعُ السجود، ومظهَرُ آثارِ الخضوعِ الذي هو من أخص خصائِص الإخلاص أو بوجهه وقصده، بحيث لا يلوي عزيمتَه إلى شيءٍ غيره ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ حال من ضمير (أسلم) أي والحالُ أنه مُحسنٌ

---

= ينظر: البحر المحيط (١/ ٣٥٠)، وتفسير الطبري (٢/ ٥٠٨)، والكشاف للزمخشري (١/ ٨٨)، والمعاني للفراء (١/ ٧٣)، وتفسير الرازي (١/ ٤٥٤).

(١) في ط: الأمل.
(٢) في المخطوط: التكيتي.
(٣) زيادة من المخطوط.
(٤) سقط في ط.

في جميع أعمالِه التي من جملتها الإسلامُ المذكورُ، وحقيقةُ الإحسانِ الإتيانُ بالعمل على الوجه اللائق، وهو حُسنُه الوصفيُّ التابعُ لحسنه الذاتيِّ، وقد فسره ﷺ بقوله: «أَنْ تَعْبُدَ الله كأَنَّكَ تَرَاهُ فإنْ لم تَكُنْ تَرَاهُ فإِنَّهُ يَرَاكَ»[١].

﴿فَلَهُ أَجْرُهُ﴾ الذي [أُعد][٢] له على عمله، وهو عبارةٌ عن دخول الجنة أو عما يدخُلُ هو فيه دخولًا أوليا.

وأيا ما كان فتصويرُه بصورة الأجرِ للإيذان بقوة ارتباطِه بالعمل واستحالةِ نيلِه بدونه.

وقوله تعالى: ﴿عِنْدَ رَبِّهِ﴾ حالٌ من (أجره)، والعاملُ فيه معنى الاستقرارِ في الظرف، والعِندِيةُ للتشريف، ووضعُ اسم الربِّ مضافًا إلى ضمير (من أسلم) موضعَ ضميرِ الجلالة لإظهار مزيدِ اللُّطفِ به وتقريرِ مضمونِ الجملة، أي فله أجرُه عند مالكِه ومدبِّرِ أموره ومبلِّغِه إلى كماله.

والجملةُ جوابُ (مَنْ) إن كانت شرطيةً وخبرُها إن كانت موصولة، والفاءُ لتضمنها معنى الشرط فيكون الردُّ بقوله تعالى: (بلى) وحده، ويجوز أن يكون (مَنْ) فاعلًا لفعل مقدرٍ، أي بلى يدخلها من أسلم، وقوله تعالى: ﴿فله أجره﴾ [البقرة، الآية: ١١٢] معطوفٌ على ذلك المقدر، وأيا ما كان فتعليقُ ثبوتِ الأجرِ بما ذكر من الإسلام والإحسانِ المختصَّيْن بأهل الإيمان قاضٍ بأن أولئك المدّعين ـ من دخول الجنة ـ بمعزل، ومن الاختصاص به بألف منزل ﴿وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في الدارين من لُحوق مكروهٍ ﴿وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ من فواتِ مطلوبٍ أي لا يعتريهم ما يوجبُ ذلك، لا أنه يعتريهم لكنهم لا يخافون ولا يحزنون.

والجمع في الضمائر الثلاثة باعتبار معنى (مَنْ) كما أن الإفراد في الضمائر الأُوَلِ باعتبار اللفظ ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ بيانٌ لتضليل كلِّ فريقٍ صاحَبه بخصوصه إثرَ بيانِ تضليله كلَّ من عداه على وجه العموم.

نزلت لما قدِم وفدُ نجرانَ على رسول الله ﷺ وأتاهم أحبارُ اليهود فتناظروا

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ١٤٠) كتاب الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام، حديث (٥٠) ومسلم (١/ ٣٩) كتاب الإيمان، باب: بيان الإيمان والإسلام، حديث (٥/ ٩) من حديث أبي هريرة.
وأخرجه مسلم ( ١/ ٣٦-٣٨) كتاب الإيمان، باب: بيان الإيمان والإسلام، حديث (١- ٤/ ٨) من حديث ابن عمر.

(٢) في ط: وعد.

فارتفعت أصواتُهم فقالوا لهم: لستم على شيء، أي: أمرٍ يُعتدُّ به من الدين أو على شيء ما منه أصلًا، مبالغةً في ذلك كما قالوا: أقلُّ من لا شيء وكفروا بعيسى والإنجيل(١).

﴿وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ على الوجه المذكورِ وكفروا بموسى والتوراةِ لا أنهم قالوا ذلك بناءً للأمر على منسوخية التوراة ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ والواوُ للحال، واللامُ: للجنس، أي قالوا ما قالوا، والحال أن كلَّ فريقٍ منهم من أهلِ العلم والكتاب، أي: كان حقُّ كلٍّ منهم أن يعترِفَ بحقيقة دينِ صاحبه حسبما ينطِقُ به كتابُه، فإن كتبَ الله تعالى متصادقة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثلَ ذلك الذي سمعت به، والكافُ في محل النصب إما على أنها نعتٌ لمصدر محذوف قُدّم على عامله لإفادة القصر أي: قولًا مثلَ ذلك القول بعينه لا قولًا مغايرًا له.

﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من عبَدَة الأصنام والمعطِّلة ونحوِهم من الجهَلة أي قالوا لأهل كل دين ليسوا على شيء وإما على أنها حال من المصدر المضمر المعروف الدال عليه. قال: أي: قال القول الذين لا يعلمون حال كونه مثلَ ذلك القولِ الذي سمعْتَ به ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ إما بدلٌ من محل الكاف وإما مفعولٌ للفعل المنفيِّ قبله، أي: مثلَ ذلك القول قال الجاهلون بمثل مقالةِ اليهودِ والنصارى، وهذا توبيخٌ عظيم لهم حيث نظَموا أنفسهم ـ مع علمهم ـ في سلك مَنْ لا يعلم أصلًا ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي بين اليهود والنصارى، فإن مساقَ النظم لبيان حالِهم، وإنما التعرُّضُ لمقالة غيرِهم لإظهار كمالِ بطلانِ مقالهم ولأن المُحاجَّةَ المُحوِجَةَ إلى الحكم(٢) إنما وقعت بينهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ متعلقٌ بـ (يحكم) وكذا ما قبله وما بعده، ولا ضيرَ فيه لاختلاف المعنى ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بما يقسِمُ لكل فريقٍ ما يليق به من العقاب، وقيل: حكمُه بينهم أن يكذِّبَهم ويُدخِلَهم النارَ، والظرفُ الأخير متعلقٌ بـ (يختلفون)، قُدِّم عليه للمحافظة على رؤوس الآي، لا بـ (كانوا).

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ إنكارٌ واستبعاد لأن يكون أحدٌ أظلمَ ممن فعل ذلك أو مساويًا له وإن لم يكن سبكُ التركيب متعرِّضًا لإنكار المساواة، ونفيُها يشهد به العرفُ الفاشِيْ والاستعمالُ المطّردُ فإذا قيل: مَنْ أكرمُ من فلان؟ أو لا أفضلَ من فلان؟ فالمرادُ به حتمًا أنه أكرمُ من كل كريم وأفضلُ من كل فاضل، وهذا الحكم عامٌّ

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢/ ٥١٣) رقم (١٨١١)، وابن أبي حاتم (١/ ٣٣٨، ٣٣٩) رقم (١١١٠)، وابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام (٢/ ١٩٠) رقم (٦٢٥)، وذكره السيوطي في الدر (١/ ٢٠٣).

(٢) في ط: إلى حكم.

لكل من فعل ذلك في أي مسجد كان وإن كان سببَ النزول فعلُ طائفةٍ معينة في مسجد مخصوص.

رُوي أن النصارى كانوا يطرَحون في بيت المقدس الأذى ويمنعون الناسَ أن يصلوا فيه وأن الرومَ غزَوُا أهلَه فخرَّبوه وأحرقوا التوراة[١] وقتلوا وسبوا.

وقد نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أن طِيطَوسَ الروميَّ[٢] ملكَ النصارى وأصحابَه غزوا بني إسرائيلَ وقتلوا مُقاتِلَتَهم وسبَوا ذرارِيَهم وأحرقوا التوراةَ وخرَّبوا بيتَ المقدس وقذفوا فيه الجيفَ وذبحوا فيه الخنازيرَ ولم يزل خرابًا حتى بناه المسلمون في عهد عمرَ رضي الله عنه[٣]، وإنما أُوقعَ المنعُ على المساجد وإن كان الممنوعُ هو الناسَ لما أن فعلَهم من طرح الأذى والتخريب ونحوِهما متعلقٌ بالمسجد لا بالناس مع كونه على حاله. وتعلقُ الآيةِ الكريمة بما قبلها من حيث إنها مبطلةٌ لدعوى النصارى اختصاصَهم بدخول الجنة، وقيل: هو منعُ المشركين رسول الله ﷺ أن يدخُلَ المسجد الحرام عامَ الحُدَيْبية فتعلُّقها بما تقدمها من جهةِ أن المشركين من جُملة الجاهلين القائلين لكل مَنْ عداهم ليسوا على شيء.

﴿أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ ثاني مفعولي (منع) كقوله تعالى: ﴿وما منع الناسَ أن يؤمنوا﴾ [الإسراء، الآية ٩٤. وسورة الكهف، الآية ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿وما منعنا أن نُرسِلَ بالآيات إلا أن كذَّب بها الأوَّلون﴾ [الإسراء، الآية ٥٩] ويجوز أن يكون ذلك بحذف الجارِّ مع (أن) وأن يكون ذلك مفعولًا له، أي: كراهة أن يُذكر فيها اسمُه ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ بالهدم أو التعطيل بانقطاع الذكر ﴿أُوْلَئِكَ﴾ المانعون الظالمون الساعون في خرابها ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ﴾ أي ما كان

---

(١) أخرجه ابن جرير (١/ ٤٩٨)، وابن أبي حاتم (١/ ٢١٠)، برقم (١١١٢) مختصرًا من قول مجاهد رضي الله عنه.

(٢) هو: طيطوس الرومي: كان محل ملكه مدينة روميا من بلاد الإفرنج، ففي السنة الأولى من ملكه قصد بيت المقدس وأوقع باليهود وقتلهم وأسرهم عن آخرهم إلا من اختفى وخرب بيت المقدس ونهبه وأحرق الهيكل وأحرق كتبهم وأخلى القدس من بني إسرائيل (كأن لم تغن بالأمس) ولم يعد لهم بعد ذلك رياسة ولا حكم وكان ذلك بعد رفع المسيح بنحو أربعين سنة كما تقدم وهي لمضي ثلاثمائة وست وسبعين سنة من غلبة الإسكندر وثلاثمائة وإحدى عشرة سنة مضت لابتداء ملك بخت نصر وهذه المرة التي ذكرها الله تعالى فقال (فإذا جاء وعد الآخرة من إفسادكم)
ينظر الأنس الجليل (١/ ١٦٩).

(٣) ذكره البغوي في معالم التنزيل (١/ ١٠٧) والرازي في «التفسير» (٤/ ٩) وأخرجه الطبري (١/ ٥٤٧) رقم (١٨٢٩، ١٨٣٠، ١٨٣١) عن قتادة والسدي وينظر «اللباب في علوم الكتاب» (٢/ ٤٠٧).

ينبغي لهم أن يدخلوها إلا بخشية وخضوعٍ فضلًا عن الاجتراء على تخريبها أو تعطيلها أو ما كان الحق أن يدخلوها إلا على حالِ التهيُّب وارتعادِ الفرائصِ من جهة المؤمنين أن يبطِشوا بهم فضلًا أن يستولوا عليها ويَلوُها ويمنعوهم منها أو ما كان لهم في علم الله تعالى وقضائه بالآخرة إلا ذلك فيكونُ وعدًا للمؤمنين بالنُصرة واستخلاص ما استولَوْا عليه منهم وقد أُنجز الوعدُ ولله الحمد.

رُوي أنه لا يدخل بيتَ المقدس أحدٌ من النصارى إلا متنكرًا مسارقةً[١].

وقيل: معناه النهيُ عن تمكنهم من الدخول في المسجد واختلف الأئمة في ذلك فجوّزه أبو حنيفة مطلقًا ومنعه مالك مطلقًا وفرَّق الشافعي بين المسجد الحرام وغيره ﴿لَهُمْ﴾ [أي][٢] لأولئك المذكورين ﴿فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أي خزي فظيعٌ لا يوصف بالقتل والسبي والإذلال بضرب الجزية عليهم ﴿وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهو عذابُ النار؛ لما أن سببه أيضًا وهو ما حُكي من ظلمهم كذلك في العِظَم، وتقديمُ الظرف في الموضعين للتشويق إلى ما يذكر بعدَه من الخزي والعذاب لما مر من أن تأخيرَ ما حقه التقديمُ موجبٌ لتوجه النفس إليه فيتمكن فيها عند وروده فضلَ تمكنٍ كما في قوله تعالى: ﴿ألم نشرَحْ لك صدَرك﴾ [سورة الشرح، الآية ١] ﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾ [الزمر، الآية ٣٩] إلى غير ذلك.

﴿وَلله المَشْرِقُ والمَغْرِبُ﴾ أي له كلُّ الأرض التي هي عبارة عن ناحيتي المشرقِ والمغربِ لا يختصّ به ـ من حيث الملكُ والتصرفُ ومن حيث المحلّيةُ لعبادته ـ مكانٌ منها دون مكان، فإن مُنعتم من إقامة العبادةِ في المسجد الأقصى أو المسجد الحرام ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾ أي: ففي أي مكان فعلتم توليةَ وجوهِكم شطرَ القبلة ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ (ثَمَّ) اسمُ إشارة للمكان البعيد خاصة مبنيٌّ على الفتح ولا يتصرَّف سوى الجر بـ (من) وهو خبر مقدمٌ، و(وجهُ الله) مبتدأ والجملة في محل الجزم على أنها جواب الشرط، أي: هناك جهتُه التي أمر بها فإن إمكان التوليةِ غيرُ مختصٍّ بمسجد دون مسجد أو مكان دون آخر، أو (فثَمَّ) ذاتُه بمعنى الحضورِ العلميّ أي فهو عالم بما يُفعل فيه ومثيبٌ لكم على ذلك.

وقرئ[٣] بفتح التاء واللام، أي: فأينما تَوَجَّهوا للقبلة ﴿إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ﴾ بإحاطته

---

(١) أخرجه الطبري (١/ ٥٤٧) عن قتادة والسدي.

(٢) زيادة من المخطوط.

(٣) قرأ بها: الحسن.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٢٠٨)، والإملاء للعكبري (١/ ٣٥)، وتفسير القرطبي (٢/ ٧٩)، والكشاف للزمخشري (١/ ٩٠).

بالأشياء أو برحمته يريد التوسعةَ على عباده ﴿عَلِيمٌ﴾ بمصالحهم وأعمالهم في الأماكن كلِّها والجملة تعليلٌ لمضمون الشرطية.

وعن ابن عمرَ رضي الله عنهما نزلت في صلاة المسافرين على الراحلة، أينما توجّهوا[١].

وقيل في قوم عمِيت عليهم القِبلةُ، فصلُّوا إلى أنحاءَ مختلفةٍ فلما أصبحوا تبينوا خطأهم[٢].

وعلى هذا لو أخطأ المجتهدُ ثم تبين له الخطأ لم يلزمه التدارُك.

وقيل: هي توطئة لنسخ القِبلة وتنزيهٌ للمعبود عن أن يكون في جهة ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا﴾ حكاية لطرفٍ آخرَ من مقالاتهم الباطلةِ المحكية فيما سلف معطوفةٌ على ما قبلها من قوله تعالى: ﴿وقالت﴾ إلخ لا على صلةِ مَنْ لما بينهما من الجمل الكثيرة الأجنبيةِ، والضميرُ لليهود والنصارى ومن شاركهم فيما قالوا من الذين لا يعلمون.

وقرئ[٣] بغير واو على الاستئناف نزلت حين قالت اليهودُ: عزيرٌ ابنُ الله والنصارى: المسيحُ ابنُ الله ومشركو العربِ: الملائكةُ بناتُ الله.

والاتخاذُ إما بمعنى الصُنع والعمل فلا يتعدَّى إلا إلى واحد، وإما بمعنى التصيير، والمفعولُ الأول محذوف، أي: صَيَّر بعضَ مخلوفاته ولدًا ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيهٌ وتبرئةٌ له

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٤٨٦-٤٨٧) كتاب صلاة المسافرين: باب صلاة النافلة على الراحلة، حديث (٣٣، ٣٤/ ٧٠٠) والترمذي (٥/ ٢٠٥) كتاب التفسير: باب ومن سورة البقرة، حديث (٢٩٥٨) وأحمد (٢/ ٢٠، ٤١) وابن أبي شيبة (٢/ ٢٩٤) وأبو يعلى (٥٦٤٧) وابن خزيمة (١٢٦٧، ١٢٦٩) من حديث ابن عمر.
وقال الترمذي: حسن صحيح

(٢) أخرجه الترمذي (١/ ٣٧٤) كتاب الصلاة: باب ما جاء في الرجل يصلي لغير القبلة، حديث (٣٤٥)، وابن ماجه (٢/ ٢٤٦) كتاب الصلاة، باب: من يصلي لغير القبلة، حديث (١٠٢٠) والطيالسي (١١٤٥) وعبد بن حميد (٣١٦) والدارقطني (١/ ٢٧٢) والبيهقي (٢/ ١١) من حديث عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه.
وقال الترمذي هذا حديث ليس إسناده بذاك لا نعرفه إلا من حديث أشعث السمان. اهـ وهو متروك.

(٣) قرأ بها: ابن عامر، وابن عباس، وشريح، والذماري.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٤٦)، والإملاء للعكبري (١/ ٣٥)، والبحر المحيط (١/ ٣٦٢)، والتبيان للطوسي (١/ ٤٢٦)، والتيسير للداني (٧٦)، والحجة لابن خالويه (٨٨)، والحجة لأبي زرعة (١١٠)، والسبعة لابن مجاهد (١٦٨)، والغيث للصفاقسي (١٣٣)، والكشاف للزمخشري (١/ ٩٠)، والكشف للقيسي (١/ ٢٦٠)، والمجمع للطبرسي (١/ ١٩٢)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢٢٠).

تعالى عما قالوا و(سبحانَ) عَلَمٌ للتسبيح كعُثمانَ للرجل، وانتصابُه على المصدرية ولا يكاد يُذكر ناصبُه، أي: أُسبِّحُ سبحانه أي أنزّهُه تنزيهًا لائقًا به وفيه من التنزيه البليغِ **من حيث** الاشتقاقُ من السبْح الذي هو الذهابُ والإبعادُ في الأرض **ومن جهة** النقلِ إلى التفعيل **ومن جهة** العُدول من المصدر إلى الاسم الموضوعِ له خاصةً لا سيما العلمُ المشيرُ إلى الحقيقة الحاضرةِ في الذهن **ومن جهةَ** إقامتِه مُقامَ المصدر مع الفعل ما لا يخفى.

وقيل: هو مصدر كغُفرانٍ بمعنى التنزُّه، أي: تَنَزَّهَ بذاته تنزُّهًا حقيقًا به ففيه مبالغةٌ من حيث إسنادُ البراءةِ إلى الذات المقدسة، وإن كان التنزيهُ اعتقادَ نزاهتِه تعالى عما لا يليق به لا إثباتَها له تعالى.

وقولُه تعالى: ﴿بَل لَّهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ والأَرْضِ﴾ رد لما زعموا وتنبيهٌ على بطلانه وكلمةُ (بل) للإضراب عما تقتضيه مقالتُهم الباطلةُ من مجانسته سبحانه وتعالى لشيء من المخلوقات، ومن سرعة فَنائِه المَحوِجة إلى اتخاذ ما يقوم مَقامه فإن مجرد الإمكان والفَناء لا يوجب ذلك. ألا يُرى أن الأجرامَ الفَلَكيةَ مع إمكانها وفَنائِها بالآخرة مستغنيةٌ بدوامها وطولِ بقائها عما يجري مجرَى الولدِ من الحيوان، أي: ليس الأمرُ كما زعموا بل هو خالقُ جميعَ الموجودات التي من جملتها عزيرٌ والمسيحُ والملائكة ﴿كُلٌّ﴾ التنوين عوضٌ عن المضاف إليه، أي: كلُّ ما فيهما كائنًا ما كان من أولي العلم وغيرِهم ﴿لَهُ قَانِتُونَ﴾ منقادون لا يستعصي شيءٌ منهم على تكوينه وتقديره ومشيئتِه، ومن كان هذا شأنُه لم يُتصوَّرْ مجانستُه لشيء، ومن حق الولدِ أن يكون من جنس الوالد.

وإنما جيءَ بـ (ما) المختصةِ بغير أولي العلم تحقيرًا لشأنهم وإيذانا بكمال بُعدِهم عما نَسَبوا إلى بعضٍ منهم، وصيغةُ جمع العقلاء في (قانتون) للتغليب أو كلُّ مَنْ جعلوه لله تعالى ولدًا له قانتون أي مطيعون عابدون له معترفون بربوبيته تعالى [كقوله تعالى][1] ﴿أولئك الذين يدْعُون يبتغون إلى ربِّهم الوسيلة﴾ [الإسراء، الآية ٥٧].

﴿بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي مُبدِعُهما ومخترِعُهما بلا مثال يَحتذيه ولا قانونٍ ينتحيه فإن البديعَ كما يُطلقُ على المبتدِع يُطلق على المبتدَع نصَّ عليه أساطينُ أهل اللغة وقد جاء: بَدَعَه كمنعه بمعنى أنشأه كابتدعه كما ذُكر في القاموس وغيره، ونظيره: السميع بمعنى المسمِع في قوله: [الوافر]

(١) زيادة من المخطوط.

أَمِنْ رَيْحانَةَ الدَّاعِي السميعُ ..... ..... ....[(١)]

وقيل: هو من إضافة الصفةِ المشبّهةِ إلى فاعلها للتخفيف بعد نصبه على تشبيهها باسم الفاعِلِ، كما هو المشهورُ: أي بديعُ سمواتِه من بَدَع إذا كان على شكل فائقٍ وحُسْنٍ رائق، وهو حجة أخرى لإبطال مقالتِهم الشنعاءِ، تقريرُها: أن الوالدَ عنصرُ الولدِ المنفعلِ بانفصال مادته عنه والله سبحانه مُبدعُ الأشياء كلِّها على الإطلاق منزَّه عن الانفعال فلا يكون والدًا، ورفعُه على أنه خبر لمبتدأٍ محذوف، أي: هو بديعُ إلخ، وقرئ[(٢)] بالنصبَ على المدح، وبالجرِّ على أنه بدل من الضمير في (له) على رأي من يجوز الإبدالَ من الضمير المجرور كما في قوله: [الطويل]

..... ..... ..... على جُوده لضنَّ بالماء حاتم[(٣)]

﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ أي أراد شيئًا كقوله: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئًا﴾ [يس، الآية ٨٦] وأصلُ القضاءِ: الإحكامُ، أُطلق على الإرادة الإلٰهية المتعلقة بوجود الشيء لإيجابها إياه ألبتةَ. وقيل: الأمر، ومنه قولُه تعالى: ﴿وقضى ربك﴾ [الإسراء، الآية ٢٣] إلخ ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ كلاهما من الكون التام أي أحْدَثَ وليس المرادُ به حقيقةَ الأمرِ والامتثال، وإنما هو تمثيلٌ لسهولة تأتّي المقدورات بحسَب تعلّقِ مشيئتِه تعالى، وتصويرٌ لسرعة حُدوثِها بما هو عَلَمٌ في الباب من طاعة المأمورِ المطيعِ للآمر القويِّ المطاع، وفيه تقريرٌ لمعنى الإبداع، وتلويحٌ لحجة أخرى لإبطال ما زعموه بأن اتخاذَ الولدِ شأنُ من يفتقرُ في تحصيل مرادِه إلى مبادئ يستدعي ترتيبُها مرورَ زمانٍ وتبدلَ أطوارٍ، وفعلُه تعالى متعالٍ عن ذلك.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ حكاية لنوعٍ آخرَ من قبائحهم وهو قدحُهم في أمر النبوة

---

(١) صدر بيت وعجزه:

..... ..... ..... يُؤَرِّقُني وأصحابي هجوعُ

والبيت لعمرو بن معد يكرب في ديوانه ص (١٤٠)، والأصمعيات ص (١٧٢)، والأغاني (١٠/ ٤)، وخزانة الأدب (٨/ ١٧٨، ١٧٩، ١٨١، ١٨٢، ١٨٧، ١١/ ١١٩)، وسمط اللآلئ ص (٤٠)، والشعر والشعراء (١/ ٣٧٩)، ولسان العرب (سمع)، وبلا نسبة في لسان العرب (أنق).

(٢) قرأ بها: المنصور.
ينظر: البحر المحيط (١/ ٣٦٤)، والكشاف للزمخشري (١/ ٩١).

(٣) عجز بيت وصدره:

على حالةٍ لو أنَّ في القومِ حاتمًا ..... ..... .....

والبيت للفرزدق في ديوانه (٢/ ٢٩٧)، ولسان العرب (حتم)، والمقاصد النحويّة (٤/ ١٨٦)، وبلا نسبة في شرح شذور الذهب ص (٣١٧)، وشرح المفصل (٣/ ٦٩)، واللمع ص (١٧٤، ٢٦٦).

بعد حكاية قدحِهم في شأن التوحيد بنسبة الولدِ إليه سبحانه وتعالى.

واختُلف في هؤلاء القائلين: فقال ابن عباس رضي الله عنهما: هم اليهودُ[١] وقال مجاهد: هم النصارى[٢]. ووصفُهم بعدم العلم لعدم علمِهم بالتوحيد والنبوة كما ينبغي، أو لعدم علمِهم[٣] بموجب عمَلِهم[٤] أو لأن ما يُحكىٰ عنهم لا يصدرُ عمن له شائبةُ علم أصلًا. وقال قتادةُ: وأكثرُ أهل التفسير هم مشركو العربِ[٥] لقوله تعالى: ﴿فليأتِنا بآيةٍ كما أُرْسِلَ الأوَّلون﴾ [الأنبياء، الآية ٥] وقالوا: ﴿لولا أُنزلَ علينا الملائكةُ أو نرَى ربَّنا﴾ [الفرقان، الآية ٢١].

﴿لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللهُ﴾ أي: هلا يكلمُنا بلا واسطة أمرًا ونهيًا، كما يكلم الملائكةَ، أو هلا يكلمنا تنصيصًا على نُبوَّتِك ﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ حجةٌ تدل على صدقك. بلغوا من العُتوِّ والاستكبار إلى حيث أمّلوا نيلَ مرتبةِ المفاوضة الإلٰهيةِ من غير توسط الرسولِ والملَك، ومن العنادِ والمكابرة إلى حيث لم يعُدّوا ما آتاهم من البينات الباهرة التي تخِرُّ لها صُمُّ الجبال من قَبيل الآيات، قاتلهم الله أنى يؤفكون.

﴿كَذَلِكَ﴾ مثلَ ذلك القولِ الشنيع الصادرِ عن العِناد والفساد ﴿قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم الماضية ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ هذا الباطلِ الشنيعِ فقالوا: ﴿أرِنا الله جهرة﴾ [النساء، الآية ١٥٣] وقالوا: ﴿لن نصْبِرَ على طعام واحد﴾ [سورة البقرة، الآية ٦١] الآية وقالوا: ﴿هل يستطيع ربك﴾ [المائدة، الآية ١١٢] إلخ وقالوا: ﴿اجعل لنا إلٰهًا﴾ [سورة الأعراف، الآية ١٣٨] الخ.

﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي قلوبُ هؤلاءِ وأولئك في العمىٰ والعِناد وإلا لما تشابهت أقاويلُهم الباطلة ﴿قَدْ بَيَّنَّا الآياتِ﴾ أي: نزلناها بينةً، بأن جعلناها كذلك في أنفسِها، كما في قولهم: سُبحان مَنْ صغّر البعوضَ وكبَّر الفيلَ، لا: أنا بيناها بعد أن لم تكن بينةً ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي يطلُبون اليقين ويوقنون بالحقائق لا يعتريهم شُبهةٌ ولا رِيبة، وهذا ردٌّ لطَلبهم الآيةَ.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١/ ٢١٥) رقم (١١٤٠)

(٢) أخرجه الطبري (١/ ٥٦٠) رقم (١٨٦٢، ١٨٦٣) وابن أبي حاتم (١/ ٢١٤) رقم (١١٤٢).

(٣) في المخطوط: عملهم.

(٤) في المخطوط: علمهم.

(٥) أخرجه الطبري (١/ ٥٦٠) رقم (١٨٦٥) عن قتادة، ورقم (١٨٦٦) عن الربيع، ورقم (١٨٦٧) عن السدي.
وأخرجه ابن أبي حاتم (١/ ٢١٥) رقم (١١٤١) عن أبي العالية.

وفي تعريف الآياتِ وجمعِها وإيرادِ النبيين المُفصِح عن كمال التوضيح مكانَ الإتيان الذي طلبوه ما لا يخفىٰ من الجزالة، والمعنى: أنهم اقترحوا آيةً فذَّةً ونحن قد بينا الآياتِ العظامَ لقوم يطلُبون الحقَّ واليقين، وإنما لم يُتعرَّضْ لرد قولِهم: ﴿لولا يكلمُنا الله﴾ [سورة البقرة، الآية ١١٨] إيذانا بأنه من ظهور البطلان، بحيث لا حاجة له إلى الرد والجواب.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالحَقِّ﴾ أي ملتبسًا بالقرآن كما في قوله تعالى: ﴿بل كذّبوا بالحقِّ لما جاءهم﴾ أو بالصدق كما في قوله تعالى: ﴿أحقٌّ هو﴾.

وقولُه تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ حال من المفعول، باعتبار تقييدِه بالحال الأولى، أي: أُرْسلناك ملتبسًا بالقرآن حالَ كونك بشيرًا لمن آمن بما أُنزِل عليك وعمِل به ونذيرًا لمن كفَر به أو أرسلناك صادقًا حال كونِك بشيرًا لمن صدّقك بالثواب ونذيرًا لمن كذّبك بالعذاب ليختاروا لأنفسهم ما أحبّوا لا قاسرَ لهم على الإيمان فلا عليك إنْ أصرُّوا وكابروا.

﴿وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الجَحِيمِ﴾ ما لهم لم يؤمنوا بعدما بلّغْتَ ما أُرسلتَ به.

وقرئ(١) (لن تُسأل)(٢) وقرئ(٣) (لا تَسْأَلْ) على(٤) صيغة النهي، إيذانًا بكمال شدةِ عقوبةِ الكفار وتهويلًا لها كأنها لغاية فظاعتها لا يقدِرُ المخبِرُ على إجرائها على لسانه أو لا يستطيع السامعُ أن يسمع خبرَها، وحملُه على نهي النبي ﷺ عن السؤال عن حال أبويه مما لا يساعدُه النظمُ الكريمُ.

---

(١) قرأ بها: ابن مسعود.
ينظر: البحر المحيط (١/ ٣٦٧)، والتبيان للطوسي (١/ ٤٣٧)، والتيسير للداني (٧٦)، وتفسير الطبري (٢/ ٥٦٠)، وتفسير القرطبي (٢/ ٩٣)، والحجة لابن خالويه (٨٧)، والكشاف للزمخشري (١/ ٩١)، الكشف للقيسي (١/ ٢٦٢)، والمعاني للفراء (١/ ٧٥)، وتفسير الفخر الرازي (١/ ٤٧١).

(٢) زاد في المخطوط: وما تسأل.

(٣) قرأ بها: نافع، ويعقوب، وابن عباس، وأبو جعفر، ومحمد بن علي الباقر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٤٦)، والإعراب للنحاس (١/ ٢٠٩)، والإملاء للعكبري (١/ ٣٦)، والبحر المحيط (١/ ٣٦٨)، والتبيان للطوسي (١/ ٤٣٦)، والتيسير للداني (٧٦)، وتفسير الطبري (٢/ ٥٥٨)، وتفسير القرطبي (٢/ ٩٢)، والحجة لابن خالويه (٨٧)، والحجة لأبي زرعة (١١١)، والسبعة لابن مجاهد (١٦٩)، والغيث للصفاقسي (١٣٤)، والكشاف للزمخشري (١/ ٩١)، والكشف للقيسي (١/ ٢٦٢)، والمجمع للطبرسي (١/ ٤٧١)، والمعاني للأخفش (١/ ١٤٦)، والمعاني للفراء (١/ ٧٥)، وتفسير الفخر الرازي (١/ ٤٧١)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢٢١).

(٤) في المخطوط: عن.

والجحيمُ: المتأججُ من النار، وفي التعبير عنهم بصاحبية الجحيم دون الكفر والتكذيب ونحوهما وعيدٌ شديد لهم وإيذانٌ بأنهم مطبوعٌ عليهم لا يُرجىٰ منهم الإيمانُ قطعًا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَىٰ حَتَّى تَتْبَعَ مِلَّتَهُمْ﴾ بيانٌ لكمال شدةِ شكيمةِ هاتين الطائفتين خاصة إثْرَ بيانِ ما يعُمُّهما والمشركين من الإصرار على ما هم عليه إلى الموت.

وإيرادُ لا النافية بين المعطوفَيْن لتأكيد النفي؛ لما مر من أن تصلُّب اليهودِ في أمثال هذه العظائم أشدُّ من النصارى والإشعارِ بأن رضى كلٍّ منهما مباينٌ لرضى الأخرى، أي: لن ترضىٰ عنك اليهودُ ولو خلَّيتَهم وشأنَهم حتى تتبعَ ملّتهم ولا النصارى ولو تركتهم [ودينَهم][1] حتى تتبع مِلَّتَهم فأُوجزَ النظمُ ثقةً بظهور المراد، وفيه من المبالغة في إقناطه ﷺ من إسلامهم ما لا غايةَ وراءه فإنهم حيث لم يرضَوْا عنه عليه السلام ولو خلاّهم يفعلون ما يفعلون بل أملّوا منه ﷺ ما لا يكاد يدخُل تحت الإمكان من اتباعه عليه السلام لمِلّتهم فكيف يُتوهم اتباعُهم لملته عليه السلام؟ وهذه حالتُهم في أنفسهم ومقالتُهم فيما بينهم، وأما أنهم أظهروها للنبي ﷺ وشافهوه بذلك وقالوا: لن نرضىٰ عنك وإن بالغْتَ في طلب رضانا حتى تتبعَ مِلَّتنا كما قيل فلا يساعده النظمُ الكريم بل فيه ما يدل على خلافه، فإن قوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ صريحٌ في أن ما وقع هذا جوابًا عنه ليس عينَ تلك العبارةِ بل ما يستلزم مضمونَها أو يلزمه من الدعوة إلى اليهودية والنصرانية، وأداءُ[2] أن الاهتداءَ[3] فيهما كقوله عز وجل حكايةً عنهم: ﴿كونوا هُودًا أو نَصارَى تهتَدوا﴾ [البقرة، الآية: ١٣٥] أي قل ردًا عليهم إن هدى الله الذي هو الإسلامُ هو الهدى بالحق والذي يحِقُّ ويصح أن يُسمَّى هُدىً. وهو الهدى كلُّه ليس وراءه هُدىً وما تدْعون إليه ليس بهُدًى، بل هو هوًى كما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم﴾ أي آراءَهم الزائغةَ الصادرةَ عنهم بقضية شهواتِ أنفسِهم وهي التي عُبّر عنها فيما قبلُ بـ (ملتهم) إذ هي التي ينتمون إليها، وأما ما شرعه الله تعالى لهم من الشريعة على لسان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهو المعنىٰ الحقيقيُّ للملة فقد غيّروها تغييرًا ﴿بَعْدَ الذي جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ﴾ أي الوحي أو الدين المعلومِ صحتُه ﴿مَا لَكَ مِنَ اللهِ﴾ من جهته العزيزة ﴿مِنْ

---

(١) زيادة من المخطوط.
(٢) في المخطوط: وادعاء.
(٣) في المخطوط: الابتداء.

وَلِيٍّ﴾ يلي أمرَكَ عمومًا ﴿وَلاَ نَصِيرٍ﴾ يدفعُ عنك عقابَه.

وحيث لم يستلزم نفيُ الوليِّ نفيَ النصيرِ وُسِّط (لا) بين المعطوفين لتأكيد النفي وهذا من باب التهييج والإلهابِ وإلا فأنىٰ يُتوهم إمكانُ اتباعِه عليه السلام لمِلّتهم. وهو جوابٌ للقسم الذي وطّأه اللامُ واكتُفي به عن جواب الشرط.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ﴾ هم مؤمنو أهلِ الكتاب كعبد اللَّه بن سلام وأضرابِه[١] ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ﴾ بمراعاة لفظِه عن التحريف، وبالتدبّر[٢] في معانيه والعمل بما فيه وهو حال مقدرةٌ والخبرُ ما بعده أو خبرٌ وما بعده مقرِّرٌ له ﴿أُوْلَئِكَ﴾ إشارة إلى الموصوفين بإيتاء الكتاب وتلاوتِه كما هو حقُّه، وما فيه من معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلتِهم في الفضل ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي بكتابهم دون المحرِّفين فإنهم بمعزل من الإيمان به فإنه لا يجامِعُ الكفرَ ببعضٍ منه ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾ بالتحريف والكفرِ بما يصدِّقه ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ حيث اشترَوُا الكفر بالإيمان.

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ التي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ ومن جملتها التوراةُ، وذكرُ النعمة إنما يكون بشكرها، وشكرُها: الإيمانُ بجميع ما فيها ومن جملته نعتُ النبيِّ ﷺ، ومن ضرورة الإيمان بها الإيمانُ به عليه الصلاة والسلام ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العَالَمِينَ﴾ أُفردَتْ هذه النعمةُ بالذكر مع كونها مندرجةً تحت النعمة السالفةِ لإنافتها فيما بين فنونِ النعم ﴿وَاتَّقُوا﴾ إن لم تؤمنوا ﴿يَوْمًا لاَ تَجْزِي﴾ في ذلك اليوم ﴿نَفْسٌ﴾ من النفوس ﴿عَنْ نَفْسٍ﴾ أخرى ﴿شَيْئًا﴾ من الأشياء أو شيئًا من الجزاء ﴿وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي فدية ﴿وَلاَ تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ﴾.

وتخصيصُهم بتكرير التذكيرِ وإعادةِ التحذير للمبالغة في النُصحِ، وللإيذان بأن ذلك فذلكةُ القضية والمقصودُ من القصة لِما أن نعمَ الله عز وجل عليهم أعظمُ، وكفرَهم بها أشدُّ وأقبحُ.

۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ

---

(١) ذكره ابن عادل في «اللباب في علوم الكتاب» (٢/ ٤٤١) عن الضحاك.

(٢) في المخطوط: بالتدبير.

وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤١﴾

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ شروع في تحقيق أن هُدى الله هو ما عليه النبي ﷺ من التوحيد والإسلام الذي هو ملةُ إبراهيمَ عليه السلام، وأن ما عليه أهلُ الكتابين أهواءٌ زائغةٌ وأن ما يدّعونه من أنهم على ملة إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام فريةٌ بلا مريةٍ ببيان ما صدر عن إبراهيم وأبنائه الأنبياءِ عليهم السلام من الأقاويل والأفاعيل الناطقة بحقية التوحيدِ والإسلام وبُطلان الشركِ وبصحة نبوةِ النبي ﷺ وبكونه ذلك النبي الذي استدعاه إبراهيمُ وإسماعيلُ عليهما الصلاة والسلام بقولهما: ﴿ربنا وابعثْ فيهم رسولًا منهم﴾ [البقرة، الآية: ١٢٩] فـ (إذْ) منصوب على المفعولية بمضمر مقدرٍ خوطبَ به النبيُّ ﷺ بطريق التلوينِ، أيْ: واذكر لهم وقت ابتلائِه عليه السلام ليتذكروا بما وقع فيه من الأمور الداعية إلى التوحيد، الوازعةِ عن الشرك فيقبلوا الحقَّ ويتركوا ما هم فيه من الباطل، وتوجيهُ الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما

وقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودةُ بالذات قد مر وجهُه في أثناء تفسير قوله عز وجل: ﴿وإذ قال ربُّك للملائكة إني جاعلٌ في الأرضِ خَليفة﴾ [البقرة، الآية: ٣٠] وقيل: على الظرفية بمُضمر مؤخَّرٍ، أي: وإذ ابتلاه كان كيت وكيت، وقيل: بما سيجيء من قوله تعالى: ﴿قال﴾ إلخ، والأول هو اللائق بجزالة التنزيل، ولا يبعُد أن ينتصِبَ بمضمرٍ معطوف على (اذكُروا) خُوطب به بنو إسرائيلَ؛ ليتأملوا فيما يُحْكى عمن ينتمون إلى ملة[١] إبراهيمَ وأبنائه عليهم السلام من الأفعال والأقوال؛ فيقتدوا[٢] بهم ويسيروا سيرتَهم.

والابتلاءُ في الأصل الاختبارُ أي تطلُب الخِبرة بحال المختَبَر بتعريضه لأمر يشُقُّ عليه غالبًا فِعلُه أو تركُه، وذلك إنما يُتصور حقيقة ممن لا وقوفَ له [على][٣] عواقبِ الأمور، وأما من العليم الخبير فلا يكون إلا مَجازًا من تمكينه للعبد من اختيار أحدِ الأمرين قبل أن يُرتِّب عليه شيئًا هو من مباديه العادية، كمن يختبرُ عبدَه ليتعرَّف حاله من الكِياسة فيأمُره بما يليق بحاله من مَصالحه.

وإبراهيمُ: اسمٌ أعجميٌّ. قال السُهيلي[٤]: كثيرًا ما يقع الاتفاقُ أو التقاربُ بين السريانيِّ والعربي، ألا ترى أن إبراهيمَ تفسيره أبْ رَاحِم، ولذلك جُعل هو وزوجتُه سارةُ كافِلَيْن لأطفال المؤمنين الذين يموتون صغارًا يوم القيامة على ما رَوى البُخاريُّ في حديث الرؤيا: أن النبي ﷺ رأى في الروضة إبراهيمَ عليه السلام وحوله أولادُ الناس[٥]، وهو مفعولٌ مقدَّم لإضافة فاعلِه إلى ضميره، والتعرُّضُ لعنوان الربوبية تشريفٌ له عليه السلام وإيذانٌ بأن ذلك الابتلاء تربيةٌ له وترشيحٌ لأمر خطير.

---

(١) في المخطوط: ملته من. (٢) في ط: ليمتدوا.

(٣) سقط في ط.

(٤) هو: عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أصبغ بن حبيش بن سعدون بن رضوان بن فتوح الإمام أبو زيد وأبو القاسم السهيلي الخثعمي الأندلسي المالقي الحافظ، قال ابن الزبير: كان عالمًا بالعربية واللغة والقراءات، بارعًا في ذلك، جامعًا بين الرواية والدراية، نحويًا متقدمًا، أديبًا، عالمًا بالتفسير وصناعة الحديث، حافظًا للرجال والأنساب، عارفًا بعلم الكلام والأصول، حافظًا للتاريخ، واسع المعرفة، غزير العلم، نبيهًا ذكيًا. صنف: الروض الأنف في شرح السيرة، شرح الجمل، التعريف والإعلام بما في القرآن من الأسماء والأعلام، مسألة السر في عور الدجال، مسألة رؤية الله والنبي في المنام. توفي سنة إحدى وثمانين وخمسمائة هـ.
ينظر: بغية الوعاة (٢/ ٨١)، وتذكرة الحفاظ (٤/ ١٣٤٩)، والأعلام (٣/ ٣١٣).

(٥) أخرجه البخاري (١٢/ ٤٥٧-٤٥٨) كتاب تعبير الرؤيا: باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح، حديث (٧٠٤٧) من حديث سمرة بن جندب.

والمعنى عاملَه سبحانه معاملةَ المختبِرَ حيث كلّفه أوامرَ ونواهِيَ تُظهِرُ بحسن قيامِه بحقوقها قُدرتَه على الخروج عن عُهدة الإمامةِ العظمى وتحمّلِ أعباءِ الرسالة، وهذه المقالةُ[١] وتذكيرُها الناسَ لإرشادهم إلى طريق إتقانِ الأمور ببنائها على التجربة وللإيذان بأن بِعثةَ النبيِّ ﷺ أيضًا مبنيةٌ على تلك القاعدة الرصينة واقعةٌ بعد ظهور استحقاقِه عليه السلام للنبوة العامة، كيف لا وهي التي أُجيب بها دعوةُ إبراهيمَ عليه السلام كما سيأتي.

واختُلف في الكلمات فقال مجاهد: هي المذكورة بعدَها[٢]، ورُدَّ بأنه يأباه الفاء في (فأتمهن) ثم الاستئناف، وقال طاوسُ عن ابن عباس رضي الله عنهما: هي عشرُ خصال كانت فرضًا في شرعه وهُن سنةٌ في شرعنا خمسٌ في الرأس: المضمضةُ والاستنشاقُ وفرقُ الرأس وقصُّ الشارب والسواكُ، وخمس في البدن: الخِتانُ وحلقُ العانة ونتفُ الإبْطِ وتقليمُ الأظفار والاستنجاءُ بالماء[٣].

وفي الخبر أن إبراهيمَ عليه السلام أولُ من قص الشاربَ وأولُ من اختَتَن وأولُ من قلم الأظفار[٤]، وقال عكرمة عن ابن عباس: لم يُبْتلَ أحدٌ بهذا الدين فأقامه كلَّه إلا إبراهيم ابتلاه الله بثلاثين خَصلةً من خصال الإسلام، عشرٌ منها في سورة براءة: (التائبون) إلخ، وعشر في الأحزاب: ﴿إن المسلمين والمسلمات﴾ إلخ وعشر في المؤمنون وسأل سائل إلى قوله عز وجل: ﴿والذين هُمْ على صلاتِهم يحافظون﴾[٥] [المعارج، الآية: ٣٤].

وقيل: ابتلاه الله سبحانه بسبعة أشياءَ: بالشمس والقمرِ والنجوم والاختتان[٦] على الكِبَر والنار وذبحِ الولدِ والهِجْرة، فوفّىٰ بالكل.

---

(١) في المخطوط: المعاملة.

(٢) ذكره ابن عادل في اللباب (٢/ ٤٤٧).

(٣) أخرجه الطبري (١/ ٥٧٢) رقم (١٩١٢) وابن أبي حاتم (١/ ٢١٩) رقم (١١٦٥) من طريق طاوس عن ابن عباس.
وأخرجه أيضا الحاكم (٢/ ٢٦٦) وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٤) المعروف أن إبراهيم عليه السلام اختتن وهو ابن ثمانين.
أخرجه البخاري (٧/ ٣٦) كتاب الأنبياء: باب قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ - حديث (٣٣٥٦) من حديث أبي هريرة.
أما هذا الأثر فأخرجه ابن سعد كما في الدر المنثور (١/ ٢١٩) عن سعيد بن المسيب.

(٥) خرجه الطبري(١/ ٥٧٢) رقم (١٩٠٩، ١٩١٠) وابن أبي حاتم(١/ ٢٢٠) رقم (١١٦٦).

(٦) في المخطوط: الختان.

وقيل: هن مُحاجَّتُه قومَه والصلاةُ والزكاةُ والصوم والضيافة والصبرُ عليها[١].

وقيل: هي المناسكُ كالطواف والسعي والرمي والإحرام والتعريف وغيرِهن[٢].

وقيل: هي قوله عليه السلام: ﴿الذي خلقني فهو يهدين﴾ [الشعراء: ٧٨] الآيات.

ثم قيل: إنما وقع هذا الابتلاءُ قبل النبوة وهو الظاهرُ وقيل: بعدها؛ لأنه يقتضي سابقةَ الوحي وأجيب بأن مطلق الوحي لا يستلزمُ البعثةَ إلى الخلق.

وقرئ[٣] برفع (إبراهيمُ) ونصبِ (ربَّه) أي دعاه بكلماتٍ من الدعاء فعل المختبِر هل يُجيبه إليهن أوْ لا؟ ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أي قام بهن حق القيام وأداهن أحسنَ التأديةِ من غير تفريط وتوانٍ كما في قوله تعالى: ﴿وإبراهيمَ الذي وَفّى﴾ [النجم، الآية ٣٧] وعلى القراءة الأخيرة فأعطاه الله تعالى ما سأله من غير نقص ويعضدُه ما رُوي عن مقاتل[٤] أنه فسَّر الكلماتِ بما سأل إبراهيمُ ربه بقوله: ﴿رب اجعلني﴾ الآيات[٥].

وقولُه عز وجل: ﴿قَالَ﴾ على تقدير انتصاب (إذْ) بمضمر جملةٌ مستأنفةٌ وقعت جوابًا عن سؤال نشأ من الكلام فإن الابتلاَ تمهيدٌ لأمر معظَّم وظهورُ فضيلة المبتلىٰ من دواعي الإحسان إليه فبعد حكايتها بتترقب النفسُ إلى ما وقع بعدهما كأنه قيل: فماذا كان بعد ذلك؟ فقيل قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أو بيانٌ لقوله تعالى: ﴿وإذ ابتلي﴾ على رأي من يجعل[٦] الكلماتِ عبارةً عما ذُكر أثرُه من الإمامة وتطهيرِ البيت ورفعِ قواعدِه وغير ذلك وعلى تقدير انتصابِ (إذْ) بـ (قال) فالجملةُ معطوفةٌ على ما قبلها عطفَ القِصة على القصة، والواو في المعنى داخلةٌ على قال، أي: وقال إذ ابتلى إلخ والجعلُ بمعنى التصيير أحدُ مفعوليه الضميرُ والثاني إمامًا واسم الفاعل

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١/ ٢٣١) رقم (١١٧٠) عن الحسن.

(٢) أخرجه الطبري (١/ ٥٧٣) رقم (١٩١٩) من طريق حنش عن ابن عباس.

(٣) قرأ بها: ابن عباس، وأبو الشعثاء، وأبو حنيفة، وجابر بن زيد، وأبو حيوة.
ينظر: البحر المحيط (١/ ٣٧٤)، وتفسير القرطبي (٢/ ٩٧)، والكشاف للزمخشري (١/ ٩٢)، وتفسير الفخر الرازي (١/ ٤٧٥).

(٤) هو: مقاتل بن سليمان الأزدي أبو الحسن الخراساني المفسر. قال الشافعي: الناس عيال عليه في التفسير. قال ابن المبارك: ما أحسن تفسيره لو كان ثقة. قال ابن حبان: كان يأخذ عن اليهود علم الكتاب، وكان مشبِّهًا يكذب. قيل: مات سنة خمسين ومائة.
ينظر: تاريخ بغداد (١٣/ ١٦٠)، وتهذيب التهذيب (١٠/ ٢٧٩)، وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٣/ ٥٣، ٥٤).

(٥) ذكره الزمخشري في الكشاف (١/ ٢١٠).

(٦) في المخطوط: جعل.

بمعنى المضارع وأوكد منه لدلالته على أنه جاعل له ألبتةَ من غير صارفٍ يلويه ولا عاطف يثنيه، و(للناس) متعلقٌ بـ (جاعلك) أي لأجل الناس أو بمحذوف وقع حالًا من ﴿إِمامًا﴾ إذ لو تأخر عنه لكان صفةً له.

والإمام اسم لمن يؤتم به، وكلُّ نبي إمامٌ لأمته، وإمامته عليه السلام عامةٌ مؤبدةٌ، إذ لم يبعث بعده نبي إلا كان من ذريته مأمورًا باتباع ملته.

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيٌّ على سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا قال إبراهيم عليه السلام عنده؟ فقيل: قال: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ عطْفٌ على الكاف و(من) تبعيضيةٌ متعلقة بـ (جاعل) أي وجاعل بعضَ ذريتي؟ كما تقول: وزيدًا لمن يقول سأكرمك، أو بمحذوف أي واجعل فريقًا من ذريتي إمامًا، وتخصيصُ البعض بذلك لبَداهة استحالة إمامةِ الكلِّ وإن كانوا على الحق وقيل: التقدير: وماذا يكون من ذريتي؟ والذرية: نسلُ الرجل، فُعّولة من: ذروت أو ذريت والأصل: ذُرُّوَّة أو ذُرّوْية فاجتمع في الأولى واوان زائدة وأصلية فقلبت الأصلية ياء فصارت كالثانية، فاجتمعت واوٌ وياء وسَبَقَتْ إحداهما بالسكون فقُلبت الواوُ ياء وأدغمت الياء في الياء فصارت ذرية أو فُعيِّلة منهما والأصلُ في الأولى ذُرِّيوة فقلبت الواو ياء لما سبق من اجتماعهما وسَبْقِ إحداهما بالسكون فصارت ذرّيْيَة كالثانية فأدغمت الياء في مثلها فصارت ذرّية أو فُعيلة من الذرْء بمعنى الخلق والأصل ذُريئة فخففت الهمزةُ بإبدالها ياءً كهمزة خطيئة ثم أُدغمت الياء الزائدةُ في المبدلةِ أو فعيلة من الذرّ بمعنى التفريق والأصل ذُرّيرة قلبت الراء الأخيرة ياء لتوالي الأمثال كما في تسري وتقضي وتظني فأدغمت الياء في الياء كما مر أو فعولة منه والأصل ذُرّورة فقلبت الراء الأخيرة ياءً فجاء الإدغام.

وقرئ[1] بكسر الذال وهي لغة فيها وقرأ أبو جعفر المدني[2] بالفتح[3] وهي أيضًا لغة فيها.

---

(١) قرأ بها: المطوعي، وزيد بن ثابت.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٤٧)، وتفسير القرطبي (٢/ ١٠٧).

(٢) هو: يزيد بن القعقاع أبو جعفر، أحد القراء العشرة تابعي مدني مشهور رفيع الذكر، قرأ القرآن على مولاه عبد الله بن عياش المخزومي، وغيره من الصحابة -رضي الله عنهم- وأقرأ الناس قبل وقعة الحرة، أُتي به إلى أم سلمة وهو صغير فمسحت على رأسه ودعت له بالبركة، توفي سنة اثنين وثلاثين ومائة، وقيل غير ذلك.
ينظر: معرفة القراء (١/ ٧٢- ٧٦)، وغاية النهاية (٢/ ٣٨٢- ٣٨٤).

(٣) ينظر: تفسير القرطبي (٢/ ١٠٧).

﴿قَالَ﴾ استئناف مبني على سؤال ينساقُ إليه الذهنُ كما سبق ﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ ليس هذا ردا لدعوته عليهِ السلامُ بلْ إجابةً خفيةً لها وعِدَةً إجماليةً منه تعالى بتشريف بعضِ ذريتِه عليه السلام بنيل عهدِ الإمامةِ حسبما وقع في استدعائه عليه الصلاة والسلام من غير تعيين لهم بوصفٍ مميزٍ لهم عن جميع مَنْ عداهم فإن التنصيصَ على حرمانِ الظالمين منه بمعزلٍ من ذلك التمييزِ إذ ليس معناه أنه ينالُ كلَّ من ليس بظالم منهم ضرورةَ استحالةِ ذلك كما أشير إليه ولعل إيثارَ هذه الطريقةِ على تعيين الجامعين لمبادىء الإمامة من ذريته إجمالًا أو تفصيلًا وإرسالَ الباقين لئلا ينتظمَ المقتدون بالأئمةِ من الأمةِ في سلك المحرومين.

وفي تفصيل كل فِرقةٍ من الإطناب ما لا يخفى مع ما في هذه الطريقة من تخييبِ الكفرةِ الذين كانوا يتمنَّوْن النبوة، وقطعِ أطماعهم الفارغةِ من نيلها.

إنما أوثِرَ النيلُ على الجعلِ إيماءً إلى أن إمامة الأنبياءِ عليهم السلام من ذريته عليه السلام كإسماعيلَ وإسحقَ ويعقوبَ ويوسفَ وموسى وهارونَ وداودَ وسليمانَ وأيوبَ ويونسَ وزكريا ويحيى وعيسى وسيدِنا محمدٍ ﷺ تسليمًا كثيرًا ليست بجعل مستقل بل هي حاصلة في ضمن إمامة إبراهيمَ عليه السلام تنال كلا منهم في وقت قدّره الله عز وجل.

وقرئ[1] (الظالمون) على أن (عهدي) مفعولٌ قُدم على الفاعل اهتمامًا ورعايةً للفواصلِ وفيه دليلٌ على عصمةِ الأنبياءِ عليهم السلام من الكبائر على الإطلاق وعدم صلاحية الظالم لِلإمامة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ﴾ أي الكعبةَ المعظمةَ غلب عليها غلبةَ النجم على الثريا، معطوفٌ على (إذِ ابتلىٰ) على أن العامل فيه هو العاملُ فيه أو مضمرٌ مستقل معطوف على المضمر الأول، والجعلُ إما بمعنى التصيير فقوله عز وجل: ﴿مَثَابَةً﴾ أي مرجعًا يثوب إليه الزّوارُ بعدما تعوقوا عنه أو أمثالُهم أو موضِعَ ثوابٍ يثابون بحجِّه واعتمارِه، مفعولُه الثاني، وإما بمعنى الإبداع فهو حال من مفعوله، واللامُ في قوله تعالى: ﴿لِلنَّاسِ﴾ متعلقةٌ بمحذوف وقعَ صفةً لـ (مثابةً) أي: مثابة كائنة للناس، أو

---

(١) قرأ بها: ابن مسعود، والأعمش، وطلحة بن مصرف، وأبو رجاء، وقتادة.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٢٠٩)، والإملاء للعكبري (١/ ٣٦)، والبحر المحيط (١/ ٣٧٧)، وتفسير الطبري (٣/ ٢٤)، وتفسير القرطبي (٢/ ١٠٨)، والكشاف للزمخشري (١/ ٩٢)، والمعاني للأخفش (١/ ٧٦)، والمعاني للفراء (١/ ٢٨)، وتفسير الفخر الرازي (١/ ٤٧٨).

بـ(جعلنا) أي جعلناه لأجل الناس وقرئ[١] (مثاباتٍ) باعتبار تعدّدِ التائبين ﴿وَأَمْنًا﴾ أي آمِنا كما في قوله تعالى: ﴿حَرَمًا آمنًا﴾ [القصص، الآية ٥٧] على إيقاع المصدرِ موقعَ اسمِ الفاعلِ للمبالغة أو على تقدير المضافِ، أي: ذا أمنٍ أو على الإسنادِ المجازي، أي: آمِنا بحجّهِ من عذابِ الآخرةِ من حيث أن الحجَّ يجُبُّ ما قبله أو مَنْ دخله من التعرُّض له بالعقوبة وإن كان جانيًا حتى يخرجَ على ما هو رأيُ أبي حنيفةَ، ويجوز أن يُعتبر الأمنُ بالقياس إلى كل شيء كائنًا ما كان ويدخل فيه أمنُ الناس دخولًا أوليًا وقد اعتيدَ فيه أمنُ الصيد حتى إن الكلبَ كان يهُمُّ بالصيد خارجَ الحرم فيفِرُّ منه وهو يتبعه فإذا دخل الصيد الحرمَ لم يتبعْه الكلبُ.

﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَام إبراهِيمَ مُصَلًّى﴾ على إرادةِ قولٍ هو عطفٌ على ﴿جعلنا﴾ أو حال من فاعله، أي: وقلنا أو قائلين لهم (اتخذوا) إلخ وقيل: هو بنفسِهِ معطوفٌ على الأمرِ الذي يتضمنه قوله عز وجل: ﴿مثابةً للناس﴾ [البقرة، الآية: ١٢٥] كأنه قيل: توبوا إليه واتخذوا إلخ وقيل: على المضمرِ العاملِ في (إذ) وقيل: هي جملةٌ مستأنفةٌ والخطابُ على الوجوه الأخيرةِ له عليه السلام ولأمتهِ والأولُ هو الأليقُ بجزالةِ النظم الكريم، والأمرُ صريحًا كان أو مفهومًا من الحكاية للاستحباب، و(من) تبعيضية، و(المقام) اسمُ مكانٍ وهو الحجَرُ الذي عليه أثر قدمُه عليه السلام والموضعُ الذي كان عليه حين قام ودعا الناسَ إلى الحجِّ أو حين رفع قواعدَ البيت وهو موضعُه اليوم، والمراد بالمصلىٰ إما موضعُ الصلاة أو موضعُ الدعاء.

رُوي أنه ﷺ أخذ بيد عمرَ رضي الله عنه فقال: «هذا مقامُ إبراهيم» فقال عمر رضي الله عنه: أفلا نتخذهُ مصلًّى فقال: «لم أُومرْ بذلك» فلم تغِبْ الشمسُ حتى نزلتْ[٢]. وقيل: المرادُ به الأمرُ بركعتي الطواف لما رَوىٰ جابر[٣] رضي الله عنه أنه

---

(١) قرأ بها: المطوعي، والأعمش، وطلحة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٤٧)، والبحر المحيط (١/ ٣٨٠)، والكشاف للزمخشري (١/ ٩٣).

(٢) قال الزيلعي (١/ ٨٠).
«غريب بهذا اللفظ». ا هـ.
وعزاه الحافظ في «تخريج الكشاف» إلى أبي نعيم من رواية مجاهد عن ابن عمر: «أن النبي ﷺ أخذ بيد عمر- رضي الله عنه- فمر على المقام فقال له: يا نبي الله، هذا مقام إبراهيم؟ قال: نعم، قال: ألا نتخذه مصلى؟ فأنزل الله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ - الآية.

(٣) هو: جابر بن عبد الله بن عمرو بن حَرام الأنصاري السَّلَمي أبو عبد الرحمن - أو: أبو عبد الله، أو: أبو محمد - المدني: صحابي مشهور، قال جابر: استغفر لي رسول الله ﷺ ليلة البعير خمسًا وعشرين مرة. قال الفلاس: مات سنة ثمان وسبعين بالمدينة، عن أربع وسبعين سنة.

=

عليه السلام لما فرَغ من طوافه عمَد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين وقرأ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إبراهيمَ مُصلًّى﴾[١] وللشافعي في وجوبهما قولان، وقيل: مقامُ إبراهيمَ: الحرمُ كلهُ، وقيل: مواقفُ الحج عرفةُ والمزدَلِفةُ والجِمارُ، واتخاذُها مصلى: أن يُدعىٰ فيها، ويتقرَّبَ إلى الله عز وجل.

وقرئ[٢] (واتخَذوا) على صيغة الماضي عطفًا على (جعلنا) أي: واتخذ الناسُ من مكان إبراهيمَ الذي وُسِمَ به لاهتمامه به وإسكان ذريته عنده قِبلةً يصلّون إليها ﴿وَعَهِدْنَا إلى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَعِيلَ﴾ أي أمرناهما أمرًا مؤكدًا ﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ بأن طهِّراه، على أنّ «أنْ» مصدرية حذف عنها الجارُّ حذفًا مطردًاح لجوازِ كون صلتِها أمرًا ونهيًا كما في قوله عز وجل: ﴿وأنْ أقم وجهك للدين حنيفًا﴾ [يونس، الآية ١٠٥] لأن مدارَ جوازِ كونها فعلًا إنما هو دِلالتُه على المصدر وهي متحققةٌ فيهما، ووجوبُ كونِها خبرية في صلةِ الموصول الاسمي إنما هو للتوصّل إلى وصف المعارفِ بالجمل، وهي لا يوصف بها إلا إذا كانت خبرية، وأما الموصولُ الحرفيُّ فليس كذلك ولما كان الخبر والإنشاء في الدلالة على المصدرِ سواءً ساغَ وقوعُ الأمر والنهي صلةً حسب وقوعِ الفعل فيتجرّد عند ذلك عن معنى الأمر والنهي، نحوُ تجردِ الصلةِ الفعليةِ عن معنى المضيّ والاستقبال، أو أنْ طهراه على أنّ «أنْ» مفسرة لتضمن العهدِ معنى القولِ، وإضافةُ البيت إلى ضمير الجلالة للتشريف، وتوجيهُ الأمر بالتطهيرِ هاهنا إليهما

---

= ينظر: تاريخ البخاري الكبير (٢/ ٢٠٧)، تهذيب التهذيب (٢/ ٤٢)، تقريب التهذيب (١/ ١٢٢)، خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (١/ ١٥٦).

(١) أخرجه مسلم (٢/ ٩٢١) كتاب الحج: باب استحباب الرمل في الطواف والعمرة حديث (٢٣٦/ ١٢٦٣)، (٢/ ٨٨٦-٨٩٢) كتاب الحج: باب حجة النبي ﷺ حديث (١٤٧/ ١٢١٨)، وأبو داود (٢/ ٤٥٥-٤٦٤) كتاب المناسك باب صفة حجة النبي ﷺ حديث (١٩٠٥)، والترمذي (٣/ ٢١٢) كتاب الحج: باب ما جاء من الحجر إلى الحجر حديث (٨٥٧)، والنسائي (٥/ ٢٣٠) كتاب الحج: باب الرمل من الحجر إلى الحجر، وابن ماجه (٢/ ١٠٢٢) كتاب المناسك: باب حجة رسول الله ﷺ حديث (٣٠٧٤).

(٢) قرأ بها: نافع، وابن عامر، والذماري، وشريح.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٤٧)، والإعراب للنحاس (١/ ٢١٠)، والإملاء للعكبري (١/ ٣٦)، والبحر المحيط (١/ ٣٨٤)، والتبيان للطوسي (١/ ٤٥٠، ٤٥٢)، وتفسير الطبري (٣/ ٣٢)، وتفسير القرطبي (٢/ ١١١)، والحجة لأبي زرعة (١١٣)، والسبعة لابن مجاهد (١٦٩)، والغيث للصفاقسي (١٣٥)، والكشاف للزمخشري (١/ ٩٣)، والكشف للقيسي (١/ ٢٦٤)، والمجمع للطبرسي (١/ ٢٠٢)، والمعاني للأخفش (١/ ١٤٧)، والمعاني للفراء (١/ ٧٧)، وتفسير الفخر الرازي (١/ ٤٨٢)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢٢٢).

عليهما السلام لا ينافي ما في سورةِ الحج من تخصيصِه بإبراهيمَ عليه السلامُ فإنَّ ذلك واقعٌ قبلَ بناءِ البيتِ كما يُفصِحُ عنه قولُه تعالى: ﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكانَ البيت﴾ [الحج، الآية ٢٦] وكان إسماعيلُ عليه السلام حينئذ بمعزلٍ من مثابةِ الخطابِ وظاهرٌ أنَّ هذا بعدَ بلوغِه مبلغَ الأمرِ والنهي وتمام البناء [بمباشرته][١] كما ينبئ عنه إيرادُهُ إثرَ حكايةِ جعلِه مثابةً للناسِ إلخ، والمرادُ تطهيرُه من الأوثانِ والأنجاسِ وطواف الجنُب والحائضِ وغيرِ ذلك مما لا يليقُ به ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ حوله ﴿وَالعَاكِفِينَ﴾ المجاورين المقيمين عنده أو المعتكفين أو القائمين [في الصلاة، كما في قوله - عز وعلا (للطائفين والقائمين)][٢] ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ جمع راكع وساجد، أي: للطائفين والمصلين لأنَّ القيامَ والركوعَ والسجودَ من هيئاتِ المصلي ولتقاربِ الأخيرين ذاتًا وزمانًا ترك العاطف بين موصوفيهما. أو أخلِصاه لهؤلاءِ لئلا يغشاهُ غيرُهم وفيه، إيماءٌ إلى أن ملابسةَ غيرِهم به وإن كانت مع مقارنةِ أمرٍ مباحٍ مِن قبيلِ تلويثِه وتدنيسِه ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ عطفٌ على ما قبلَهُ منْ قولِه: (وإذ جعلنا) إلخ إما بالذاتِ أو بعاملِه المضمرِ كما مرَّ ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ ذا أمنٍ كعيشةٍ راضيةٍ أو آمنًا أهلُهُ كليلةٍ نائم، أي: اجعل هذا الواديَ من البلادِ الآمنة وكان ذلك أول ما قَدِمَ عليه السلام مكة كما رَوىٰ سعيدُ بنُ جبير عن ابن عباس رضي الله عنهم أنه عليه الصلاة والسلام لما أسكنَ إسماعيل وهاجَر هناك، وعادَ متوجهًا إلى الشام تَبعتْه هاجرُ فجعلتْ تقول: إلى من تَكِلُنا في هذا البلقَعِ وهو لا يَرُدُّ عليها جوابًا حتى قالت آلله أمرك بهذا فقال: نعمْ قالت: إذنْ لا يُضيِّعُنا فرضِيَتْ ومضى حتى إذا استوى على ثَنِيّةِ كَداءٍ أقبل على الوادي فقال: ﴿ربنا إني أسكنت﴾[٣] [إبراهيم، الآية: ٣٧].

وتعريفُ البلدِ مع جعلِه صفة لـ (هذا) في سورة إبراهيم إن حمل على تعدد السؤال لما أنه عليه السلام سأَلَ أولًا كلا الأمرين البلديةِ والأمنِ فاسْتُجيبَ له في أحدِهما وتأخرَ الآخرُ إلى وقته المقدر له لما تقتضيه الحكمةُ الباهِرَةُ ثمَّ كرَّرَ السؤالَ حسبما هو المعتادُ في الدعاءِ والابتهالِ أو كان المسؤولُ أولًا البلديةَ ومجردَ الأمنِ المصححِ للسُكنى كما في سائرِ البلاد وقد أجيبَ إلى ذلك، وثانيًا الأمنُ المعهودُ أو كان هو المسؤول أولًا أيضًا وقد أجيب إليه لكنَّ السؤالَ الثانيَ لاستدامتِه، والاقتصارُ على سؤالِه مع جعلِ البلدِ صفةً لـ (هذا) لأنهُ المقصِدُ الأصليُّ أو لأنَّ المعتادَ في البلدية

---

(١) زيادة من المخطوط.
(٢) زيادة من المخطوط.
(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٣/ ٣٢٩).

الاستمرارُ بعد التحقق بخلافِ الأمنِ وإن حمل على وحدةِ السؤالِ وتكرُرِ الحكايةِ كما هو المتبادرُ فالظاهرُ أن المسؤولَ كلا الأمرين.

وقد حُكي ذلك هاهنا واقتُصرَ هناك على حكايةِ سؤالِ الأمنِ اكتفاءً عن حكايةِ سؤالِ البلديةِ بحكايةِ سؤال جعل أفئدة الناس تهوي إليه كما سيأتي تفصيلُه هناك بإذنِ الله عز وجل.

﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ من أنواعها بأن تجعلَ بقربٍ منه قُرىً يحصُل فيها ذلك أو يُجبىٰ إليه من الأقطارِ الشاسعةِ وقد حصل كلاهما حتى إنه يجتمعُ فيه الفواكهُ الربيعيةُ والصيفيةُ والخريفية في يومٍ واحدٍ.

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الطائفَ كانت من أرض فِلسطينَ فلما دعا إبراهيمُ عليه الصلاة والسلام بهذه الدعوة رفعها الله تعالى فوضعَها حيث وضعها، رزقًا للحرم[1] وعن الزهري: أنه تعالى نقل قرية من قرى الشام فوضعها بالطائف لدعوةِ إبراهيم عليه الصلاة والسلام[2].

﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ بدلٌ من (أهلِه) بدلَ البعض، خصهم بالدعاء إظهارًا لشرفِ الإيمان وإبانةً لخطره واهتمامًا بشأن أهلِهِ ومراعاةً لحسنِ الأدبِ وفيه ترغيب لقومِه في الإيمان وزجر عن الكفر كما أن في حكايتِه ترغيبًا وترهيبًا لقريش وغيرهم من [أهل][3] الكتاب ﴿قَالَ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على السؤال كما مر مرارًا وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ عطفٌ على مفعولِ فعلٍ محذوف تقديره ارزقْ من آمن ومن كفر.

وقولُه تعالى: ﴿فَأُمَتِّعُهُ﴾ معطوفٌ على ذلك الفعل[4]، أو في محل رفع بالابتداء، وقولُه تعالى: ﴿فأمتعه﴾ خبرُه أي فأنا أمتعُهُ وإنما دخلته الفاءُ تشبيهًا له بالشرط.

والكفرُ وإن لم يكنْ سببًا للتمتيعِ المطلقِ لكنه يصلح سببًا لتقليلِه وكونِه موصولًا بـ(عذابِ النار)، وقيلَ: هو عطفٌ على (من آمن) عطفَ تلقينٍ كأنه قيلَ: قلْ وارزقْ من كفرَ فإنه أيضًا مجابٌ كأنَّهُ عليه السلامُ قاسَ الرزقَ على الإمامة فنبههُ تعالى على أنهُ رحمةٌ دنيويةٌ شاملةٌ للبَرِّ والفاجرِ بخلافِ الإمامةِ الخاصةِ بالخواص.

وقرئ[5] (فأُمْتِعُه) من أمتع، وقرئ[6] (فنمُتِّعُه).

---

(١) ينظر «معالم التنزيل» (١/ ١١٤).

(٢) أخرجه الطبري (١/ ٥٩٣) رقم (٢٠٣٤) عن الزهري.

(٣) زيادة من المخطوط.

(٤) في ط: القول.

(٥) قرأ بها: ابن عامر، والمطوعي، وابن عباس، وشبل، وابن محيصن، والذماري، وشريح.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٤٨)، والبحر المحيط (١/ ٣٨٤)، والتبيان للطوسي (١/ ٤٥٨)، =

﴿قَلِيلًا﴾ تمتيعًا قليلًا أو زمانًا قليلًا ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إلى عَذَابِ النَّارِ﴾ أي أَلُزُّهُ إليه لزَّ المضطرِ لكفرِه وتضييعِه ما متّعتُه به من النعم.

وقرئ[١] (ثمَّ نضطَرُّه) على وفق قراءة (فنُمتِّعه) وقرئ (فأَمتِعْه[٢] قليلًا ثم اضْطَرَّهُ[٣]) بلفظ الأمرِ فيهما على أنهما من دعاء إبراهيم عليه السلامُ.

وفي (قال) ضميره، وإنما فصلُه عما قبله لكونِه دعاءً على الكفرة، وتغيير سبكِهِ للإيذانِ بأنَّ الكُفْرَ سببٌ لاضطرارهم إلى عذابِ النارِ وأما رزقُ من آمن فإنما هو على طريقةِ التفضّلِ والإحسانِ.

وقرئ[٤] بكسر الهمزةِ على لغةِ من يكسرُ حرفَ المضارعةِ، و(أَطَّرُّه)[٥] بإدغام الضادِ في الطاء وهي لغةٌ مرذولةٌ فإنَّ حروفَ (ضم شفر) يُدغمُ فيها ما يجاورُها بلا عكسٍ.

---

= والتيسير للداني (٧٦)، وتفسير القرطبي (٢/ ١١٩)، والحجة لابن خالويه (٢/ ٨٧،٨٨)، والحجة لأبي زرعة (١١٣)، والسبعة لابن مجاهد (١٧٠)، والغيث للصفاقسي (١٣٨)، والكشف للقيسي (١/ ٢٦٥)، والمجمع للطبرسي (١/ ٢٠٥)، والمحتسب لابن جني (١/ ١٠٤)، والمعاني للفراء (١/ ٧٨)، وتفسير الفخر الرازي (١/ ٤٨٧)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢٢٢).

(٦) قرأ بها: أبي.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٢١٢)، والبحر المحيط (١/ ٣٨٤)، وتفسير القرطبي (٢/ ١١٩)، والكشاف للزمخشري (١/ ٩٣)، والمعاني للفراء (١/ ٧٨).

(١) قرأ بها: أبي.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٢١٢)، والبحر المحيط (١/ ٣٨٤)، وتفسير القرطبي (٢/ ١١٩)، والكشاف للزمخشري (١/ ٩٣)، والمعاني للفراء (١/ ٧٨).

(٢) قرأ بها: الحارث بن أبي ربيعة، وابن عباس، ومجاهد، وقتادة.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٢١٢)، والإملاء للعكبري (١/ ٣٧)، والبحر المحيط (١/ ٣٨٤)، والتبيان للطوسي (١/ ٤٥٠، ٤٥٢)، وتفسير القرطبي (٢/ ١١٩)، والكشاف للزمخشري (١/ ٩٣)، والمجمع للطبرسي (١/ ٢٠٥).

(٣) قرأ بها: الحارث بن أبي ربيعة، وابن عباس، ومجاهد، وقتادة.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٢١٢)، والإملاء للعكبري (١/ ٣٧)، والبحر المحيط (١/ ٣٨٤)، وتفسير القرطبي (٢/ ١١٩)، والكشاف للزمخشري (١/ ٩٣)، والمعاني للأخفش (١/ ١٤٧)، والمعاني للفراء (١/ ٧٨).

(٤) قرأ بها: يحيى بن وثاب.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ١٣٧)، والبحر المحيط (١/ ٣٨٤)، والكشاف للزمخشري (١/ ٩٣)، والمعاني للفراء (١/ ٧٨).

(٥) قرأ بها: المطوعي، وابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٤٨)، والإعراب للنحاس (١/ ٢١٢)، والبحر المحيط (١/ ٣٨٤)، والكشاف للزمخشري (١/ ٩٣)، والمجمع للطبرسي (١/ ٢٠٥)، والمحتسب لابن جني (١/ ١٠٤).

﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ المخصوص بالذم محذوفٌ أي بئس المصيرُ النارُ أو عذابُها ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ عطفٌ على ما قبله من قوله عز وعلا: ﴿وإذ قال إبراهيم﴾ على أحد الطريقين المذكورين في (وإذ جعلنا) وصيغةُ الاستقبال لحكايةِ الحالِ الماضيةِ؛ لاستحضار صورتها العجيبةِ المنبثقة[١] عن المعجزةِ الباهرةِ.

والقواعدُ: جمع قاعدة وهي الأساسُ صفةٌ غالبة من القعود بمعنى الثبات، ولعله مجازٌ من مقابل القيام ومنه: قعدك الله.

ورفعُه: البناءُ عليها لأنه ينقُلها من هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع، والمرتفعُ حقيقة وإن كان هو الذي بُني عليها لكنهما لمّا [التأما][٢] صارا شيئًا واحدًا فكأنها نمت وارتفعت، وقيل: المراد بها ساقاتُ البناء فإن كل ساقٍ قاعدةٌ لما يبنىٰ عليها ويرفعها بناء بعضِها على بعض، وقيل: المرادُ برفعها رفعُ مكانةِ البيت وإظهارُ شرفِه ودعاءُ الناس إلى حجِّه، وفي إبهامها أولًا ثم تبيينِها من تفخيم شأنها ما لا يخفىٰ.

وقيل: المعنى: وإذ يرفع إبراهيمُ ما قعد من البيت واستوطأ، يعني يجعل هيئةَ القاعدةِ المستَوطَأةِ مرتفعةً عالية بالبناء، رُوي أن الله عز وجل أنزل البيتَ ياقوتةً من يواقيت الجنة، له بابانِ من زُمُرُّد: شرقي وغربي وقال لآدمَ: أهبطتُ لك ما يُطاف به، كما يطاف حول عرشي، فتوجه آدمُ من أرضِ الهندِ [إلى مكةَ][٣] ماشيًا، وتلقَتْه الملائكةُ فقالوا: بَرَّ حجَّك يا آدمُ لقد حجَجْنا هذا البيتَ قبلك بألفي عام، وحج آدمُ عليه السلام أربعينَ حجةً من أرض الهند إلى مكةَ على رجليه، فكان على ذلك إلى أن رفعه الله أيامَ الطوفان إلى السماءِ الرابعةِ فهو البيتُ المعمور وكان موضعُه خاليًا إلى زمن إبراهيمَ عليه السلام فأمره سبحانه ببنائه وعرَّفه جبريلُ عليه السلام بمكانه وقيل: بعث الله السكينةَ لتدلَّه عليه فتبعها إبراهيم عليه السلام حتى أتى مكة المعظّمة[٤].

---

(١) في المخطوط: المنبثة.

(٢) زيادة من المخطوط.

(٣) في المخطوط: إليه.

(٤) قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف:
«أخرجه الفاكهي في كتاب مكة من رواية الضحاك هو ابن مزاحم. قال: قال حذيفة، وسلمان الفارسي: «سمعنا رسول الله ﷺ يقول: إن الله أنزل البيت من ياقوتة حمراء نزلت به الملائكة مع آدم، فنزلت به في الحرم، وترك آدم في الهند في جبل يقال له: وأشب بأرض الهند، وترك إبليس بالحرم، فحوّل الله إبليس إلى أرض الهند، وحول آدم إلى الحرم... الحديث، وفي إسناده ضعف. وانقطاع ورواه أيضًا من طريق ابن إدريس عن أبيه عن عطاء أن عمر بن الخطاب- رضى الله عنه- سأل كعبًا قال: أخبرني عن بناء هذا البيت ما كان أمره؟ فقال: إن هذا البيت أنزله الله من السماء ياقوتة حمراء مجوفة مع آدم. وفي رواية النهاس بن فهم: سمعت عطاء يقول: قال آدم: يارب أين =

وقيل: بعث الله سَحابةً على قدْرِ البيت وسار إبراهيمُ في ظلها إلى أن وافت مكةَ المعظمةَ فوقفت على موضع البيت، فنُودي: أنِ ابْنِ علىٰ ظلّها ولا تزدْ ولا تنقُصْ. وقيل: بناه من خمسة أجبُل: طورِ سَيْناء، وطورِ زيتا، ولبنانَ، والجُوديِّ وأسّسه من حِراءَ. وجاء جبريلُ عليه السلام بالحجر الأسود من السماء. وقيل: تمخّض أبو قُبَيْس فانشقَّ عنه وقد خُبِّىءَ فيه في أيام الطوفان وكان ياقوتةً بيضاءَ من يواقيتِ الجنة فلما لمسته الحُيَّضُ في الجاهلية اسودّ[١]. وقال الفاسيّ[٢] في (مثير الغرام في تاريخ البلد الحرام): والذي يتحصل من جملة ما قيل في عدد بناء الكعبة أنها بنيت عشرَ مرات منها بناءُ الملائكة عليهم السلام ذكره النووي[٣] في (تهذيب الأسماءِ واللغات) والأزرقيُّ[٤] في تاريخه وذكر أنه كان قبل خلقِ آدمَ عليه السلام.

ومنها: بناءُ آدمَ عليه السلام ذكره البيهقي[٥] في (دلائل النبوة)، وروىٰ فيه عن

---

= توجهني؟ قال: تبني لي بتهامة بيتًا مما يلي البحر يطاف حوله، كما تطوف الملائكة حول عرشي. ويصلى عنده كما تُصلي الملائكة عند عرشي. فأقبل نحو البيت. مما يلي الصفا. فطاف بالبيت وصلى عنده. قال النهاس: وحدَّثني عقيل علي بن سفيان. حدثنا عطاء عن عبد الله بن عمرو بمثله وقال الفاكهي في كتاب مكة أيضًا: حدثنا ابن عمرو، حدثنا سفيان عن ابن أبي لبيد قال «حج آدم فتلقته الملائكة فقالوا: أبر نسكك. فقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام» وهكذا هو في جامع سفيان بن عيينة. انتهى.

(١) ينظر «معالم التنزيل» (١/ ١١٥) و«اللباب في علوم الكتاب» (٢/ ٤٧٨-٤٨٨).

(٢) هو: محمد بن أحمد علي، تقي الدين، أبو الطيب المكي المعروف بالتقي الفاسي. محدث مؤرخ. ولد بمكة سنة خمس وسبعين وسبعمائة. وولي قضاء المالكية بمكة. من تصانيفه: «العقد الثمين في مناقب البلد الأمين» في تاريخ مكة وآثارها ورجالها، على الحروف، و«شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام»، و«ذيل سير النبلاء». توفي سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة.
ينظر: معجم المؤلفين (٨/ ٣٠٠)، والأعلام للزركلي (٦/ ٢٧٧)، وشذرات الذهب (٧/ ١٩٩).

(٣) هو: يحيى بن شرف بن مري بن حسن بن حسين بن محمد بن جمعة بن حزام، الفقيه، الحافظ، الزاهد، أحد الأعلام، شيخ الإسلام ، محيي الدين، أبو زكريا، الحزامي النووي، ولد في المحرم سنة إحدى وثلاثين وستمائة، كان رحمه الله على جانب كبير من العلم والزهد، وكان كثير السهر في العبادة والتصنيف، آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، من تصانيفه: الروضة، والمنهاج، وشرح المهذب، وغير ذلك من المصنفات المشهورة النافعة، توفي في رجب سنة سبع وسبعين وستمائة.
ينظر: طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (٢/ ١٥٣)، طبقات الشافعية لابن السبكي (٨/ ٣٩٥).

(٤) هو: محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن الوليد بن بقية بن الأزرقى أبو الوليد، مؤرخ جغرافي من أهل مكة، يماني الأصل. من تصانيفه: مكة وأخبارها وجبالها وأوديتها.
ينظر: معجم المؤلفين (١٠/ ١٩٨).

(٥) هو: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى، الإمام الحافظ الكبير، أبو بكر البيهقي، الخسروجردي، مولده في شعبان سنة أربع وثمانين وثلاثمائة، كان كثير التحقيق والإنصاف، حسن التصنيف. قال =

عبد اللَّه بن عمرو بن العاص[١] أن رسولَ الله ﷺ قال: «بعث الله عز وجل جبريلَ إلى آدمَ عليهما السلام فقال له ولحواءَ: ابنِيا لي بَيْتًا فخطَّ جبريلُ وجعل آدمُ يحفِرُ وحواءُ تنقُل الترابَ حتى إذا أصاب الماء نودي من تحته حسبُك آدمُ فلما بنياه أوحىٰ إليه أن يطوفَ به فقيل له: أنت أولُ الناس وهذا أولُ بيتٍ»[٢] وهكذا ذكره الأزرقي في تاريخه وعبدُ الرزاق[٣] في مصنفه.

ومنها: بناءُ بني آدم، عندما رُفعت الخيمة التي عزّى الله تعالى بها آدم عليه السلام وكانت ضُربت في موضع البيت فبنى بنوه مكانَها بيتًا من الطين والحجارة فلم يزل معمورًا يعمرُونه هم ومن بعدهم إلى أن مسَّه الغرق في عهد نوح عليه السلام ذكره الأزرقيُّ بسنده إلى وهْب بن منبه.

ومنها بناءُ الخليل عليه السلام وهو منصوصٌ عليه في القرآن مشهور فيما بين قاصٍ ودان.

ومنها: بناءُ العمالقة.

---

= عبد الغافر في «الذيل»: كان على سيرة العلماء، قانعًا من الدنيا باليسير، وقال إمام الحرمين: ما من شافعي إلا وللشافعي عليه منة إلا البيهقي؛ فإن له على الشافعي منة؛ لتصانيفه في نصرة مذهبه. من تصانيفه: السنن الكبير، والسنن الصغير، وغير ذلك من المصنفات الجامعة المفيدة. توفي بنيسابور في جمادى الأولى سنة ثمان وخمسين وأربعمائة.

ينظر: طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (١/ ٢٢٠)، طبقات الشافعية لابن السبكي (٣/ ٨).

(١) هو: عبد الله بن عمرو بن العاص السهمي، أبو محمد، بينه وبين أبيه إحدى عشرة سنة. وروى عنه جبير بن نفير وابن المسيب وعروة وطاوس وخلائق، كان يلوم أباه على القتال في الفتنة بأدب وتؤدة ويقول: ما لي ولصفين؟! وما لي ولقتال المسلمين؟! لوددت أني مت قبلها بعشرين سنة. قال يحيى بن بكير: مات سنة خمس وستين. وقال الليث: سنة ثمان وستين.

ينظر: خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٢/ ٨٣)، تهذيب التهذيب (٥/ ٣٣٧)، التقريب (١/ ٤٣٦)، سير أعلام النبلاء (٣/ ٧٩)، الكاشف (٢/ ١١٣).

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٢٣٩) وعزاه للبيهقي في « دلائل النبوة » عن عبد الله ابن عمرو.

(٣) هو: عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري، أبو بكر الصنعاني، أحد الأئمة الأعلام الحفاظ، روى عن: ابن جريج وهشام بن حسان وثور بن يزيد ومعمر ومالك وخلائق، وروى عنه: أحمد وإسحاق وابن المديني وابن معين ومحمد بن رافع وخلق، قال أحمد: من سمع منه بعدما ذهب بصره فهو ضعيف السماع، وقال ابن عدي: رحل إليه أئمة المسلمين وثقاتهم ولم نر بحديثه بأسًا إلا أنهم نسبوه إلى التشيع، وقال أحمد: لم أسمع منه شيئًا، لكنه رجل يعجبه أخبار الناس، وقال ابن حجر: ثقة حافظ مصنف، توفي سنة إحدى عشرة ومائتين عن خمس وثمانين سنة.

ينظر: تهذيب الكمال (١٨/ ٥٢)، وتهذيب التهذيب (٦/ ٣١٠)، وتقريب التهذيب (١/ ٥٠٥).

ومنها: بناء جُرْهُم ذكرهما الأزرقيُّ بسنده إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ومنها: بناءُ قصيٍّ بنِ كلاب[١] ذكره الزبيرُ بن بكار[٢] في كتاب النَّسَب.

ومنها: بناءُ قريشٍ وهو مشهور.

ومنها: بناءُ عبد اللَّه بن الزبير[٣] رضي الله عنهما.

ومنها: بناءُ الحجاج بنِ يوسُفَ وما كان ذلك بناءً لكلِّها بل لجدار من جدرانها.

وقال الحافظ السهيلي: إن بناءها لم يكن في الدهر إلا خمسَ مرات: الأولى حين بناها شيْثُ عليه السلام انتهى. والله سبحانه أعلم.

﴿وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ عطف على إبراهيمَ ولعل تأخيرَه عن المفعول للإيذان بأن الأصلَ في الرفع هو إبراهيمُ وإسماعيلُ تبعٌ له قيل: إنه كان يناوله الحجارةَ وهو يبنيها. وقيل: كانا يبنيانِه من طرَفيه.

---

(١) هو: قصي بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤيّ: سيد قريش في عصره، ورئيسهم، قيل: هو أول من كان له مُلك من بني كنانة.
ينظر: طبقات ابن سعد، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م، دار صادر، بيروت (١/ ٣٦ - ٤٢)، تاريخ الأمم والملوك، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان، بيروت (٢/ ١٨١)، الكامل في التاريخ، لابن الأثير، ١٣٩٩ هـ، دار صادر، بيروت (٢/ ٧).

(٢) هو: الزبير بن بكار بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام أبو عبد الله قاضي مكة قال الخطيب كان ثقة ثبتا عالما بالنسب عارفا بأخبار المتقدمين ومآثر الماضين وله الكتاب المصنف في نسب قريش وأخبارهم ولي القضاء بمكة وورد بغداد وحدث بها وقال الذهبي: الإمام صاحب النسب قاضي مكة ثقة من أوعية العلم، وقال أبو بكر بن أبى خيثمة: من أهل العلم، سمعت مصعبا غير مرة يقول لى بالمدينة: إن بلغ أحد منا فسيبلغ. يعنى الزبير بن بكار.. ووثقه الدارقطني. و قال أبو القاسم البغوي: كان ثبتا، عالما، ثقة. مات بمكة ليلة الأحد لتسع بقين من ذي القعدة سنة ست وخمسين ومائتين عن أربع وثمانين سنة.
ينظر الجرح والتعديل (٣/ ٥٨٥)، تاريخ بغداد (٨/ ٤٦٧: ٤٧٠)، طبقات الحفاظ ٢٣٤، ٢٣٥، الثقات (٨/ ٢٥٧) ميزان الاعتدال (٣/ ٩٧) تهذيب الكمال (٩/ ٢٩٣) تهذيب التهذيب (٣/ ١٣٧، ١٣٨).

(٣) هو: عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد الأسدي، أبو بكر، هاجرت به أمه إلى المدينة وهي حامل، فولد بعد الهجرة بعشرين شهرا، وقيل: في السنة الأولى، وكان أول مولود ولد في الإسلام بالمدينة من قريش، روى عن: النبي ﷺ وعن أبيه، وحضر وقعة اليرموك، وشهد خطبة عمر بالجابية، وبويع له بالخلافة عقب موت يزيد بن معاوية سنة أربع وستين، وقيل: سنة خمس وستين، وغلب على الحجاز والعراقيين، واليمن، ومصر، وأكثر الشام، وكانت ولايته تسع سنين، وقتله الحجاج بن يوسف في أيام عبد الملك بن مروان سنة ثلاث وسبعين.
ينظر: تهذيب الكمال (١٤/ ٥٠٨)، وتقريب التهذيب (١/ ٤١٥)، وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٢/ ٥٦)، والكاشف (٢/ ٨٦).

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ على إرادة القولِ، أي: يقولان وقد قرئ[١] به على أنه حالٌ منهما عليهما السلام وقيل: على أنه هو العاملُ في (إذْ) والجملةُ معطوفةٌ على ما قبلها، والتقديرُ: ويقولان ربنا تقبلْ منا إذ يرفعان أيْ وقتَ رفعِهما، وقيل: وإسماعيلُ مبتدأٌ خبرُه قولٌ محذوفٌ وهو العامل في (ربنا تقبل منا) فيكون إبراهيمُ هو الرافعَ وإسماعيلُ هو الداعيَ، والجملةُ في محل النصبِ على الحالية، أي: وإذ يرفع إبراهيمُ القواعدَ والحالُ أن إسماعيلَ يقولُ: (ربنا تقبل منا).

والتعرضُ لوصف الربوبية المنبئة عن إفاضة ما فيه صلاحُ المربوبِ مع الإضافة إلى ضميرهما عليهما السلام لتحريك سلسلةِ الإجابةِ، وتركُ مفعول تقبّل مع ذكره في قوله تعالى: ﴿ربنا وتقبل دعاء﴾ [إبراهيم، الآية ٤٠] ليعُم الدعاءُ وغيره من القُرَب والطاعات التي من جملتها ما هما بصدده من الثناء[٢] كما يُعرب عنه جعلُ الجملة الدعائية حالية.

﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ﴾ لجميع المسموعات التي من جملتها دعاؤُنا ﴿الْعَلِيمُ﴾ بكل المعلومات التي من زُمرتها نياتُنا في جميع أعمالِنا، والجملة تعليلٌ لاستدعاء التقبّل لا من حيث إن كونَه تعالى سميعًا لدعائهما عليمًا بنياتهما مصححٌ للتقبل في الجملة بل من حيث إن علمَه تعالى بصحة نياتهما وإخلاصِهما في أعمالهما مستدعٍ له بموجَب الوعدِ تفضُّلًا، وتأكيدُ الجملة لغرض كمالِ قوةِ يقينِهما بمضمونها، وقصرُ نعتي السمع والعلمِ عليه تعالى لإظهار اختصاصِ دعائهما به تعالى وانقطاعِ رجائهما عما سواه بالكلية.

واعلم أن الظاهر أن أولَ ما جرى من الأمور المحكية هو الابتلاءُ وما يتبعه، ثم دعاءُ البلديةِ والأمنِ وما يتعلق به ثم رفعُ قواعدِ البيت وما يتلوه ثم جعلُه مثابةً للناس والأمرُ بتطهيره، ولعل تغيير الترتيب الوقوعيِّ في الحكاية لنظم الشؤون الصادرةِ عن جنابه تعالى في سلك مستقل، ونظم الأمور الواقعةِ من جهة إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السلام من الأفعال والأقوال في سلك آخرَ. وأما قوله تعالى: ﴿ومن كفر﴾ إلخ فإنما وقع في تضاعيف الأحوال المتعلقةِ بإبراهيم عليه السلام لاقتضاءِ المقام، واستيجابِ ما سبق من الكلام ذلك بحيث لم يكن بدٌّ منه أصلًا كما أن وقوعَ قوله عليه السلام:

---

(١) قرأ بها: أبي، وعبد الله بن مسعود.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٢١٣)، والبحر المحيط (١/ ٣٨٨)، وتفسير الطبري (٣/ ٦٤)، وتفسير القرطبي (٢/ ١٢٦)، والمحتسب لابن جني (١/ ١٠٨)، والمعاني للفراء (١/ ٧٨).

(٢) في المخطوط: البناء.

﴿ومن ذريتي﴾ في خلال كلامِه سبحانه لذلك ﴿رَبَّنَا واجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ مخلِصين لك أو مستسلمين من أَسلم إذا استسلم وانقادَ.

وأيا ما كان، فالمطلوبُ: الزيادةُ والثباتُ على ما كانا عليه من الإخلاصِ والإذعانِ.

وقرئ[١] (مسلِمين) على صيغة الجمع بإدخال هاجَرَ معهما في الدعاء أو لأن التثنية من مراتب الجمع.

﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ أي واجعل بعضَ ذريتنا، وإنما خصهم بالدعاء لأنهم أحقُّ بالشفقة ولأنهم إذا صلَحوا صلَح الأتباع وإنما خَصّا به بعضَهم لمّا علما أن منهم ظلمةً وأن الحكمة الإلٰهية لا تقتضي اتفاقَ الكل على الإخلاص والإقبالَ الكلي على الله عز وجل فإن ذلك مما يُخلُّ بأمر المعاش ولذلك قيل: لولا الحمقى لخَربَتِ الدنيا وقيل: أراد بالأمة المسلمة أمةَ محمد ﷺ، وقد جوّز أن يكونَ (من) مبينة قدّمت على المبين وفُصل بها بين العاطف والمعطوف كما في قوله تعالى: ﴿ومن الأرضِ مثلَهن﴾ [الطلاق، الآية ١٢] والأصلُ وأمةً مسلمةً لك من ذريتنا ﴿وَأَرِنَا﴾ من الرؤية بمعنى الإبصارِ أو بمعنى التعريفِ أي بصِّرنا أو عرِّفنا ﴿مَنَاسِكَنَا﴾ أي متعبداتِنا في الحج أو مذابحَنا، والنُسُك في الأصل غايةُ العبادة وشاعَ في الحج لما فيه من الكُلفة والبعد عن العادة.

وقرئ[٢]: (أرنا) قياسًا على فخذ في فخذ.

وفيه إجحاف لأن الكسرة المنقولة من الهمزة الساقطةِ دليل عليها.

وقرئ[٣] بالاختلاس ﴿وَتُبْ عَلَيْنَا﴾ استتابة لذريتهما، وحكايتُها عنهما لترغيب الكفرةِ في التوبة والإيمانِ أو توبةٌ لهما عما فرط منهما سهوًا ولعلهما قالاه هضمًا

---

(١) قرأ بها: الحسن، وابن عباس، وعوف الأعرابي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٤٨)، والبحر المحيط (١/ ٣٨٨)، والكشاف للزمخشري (١/ ٩٤).

(٢) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب، وابن محيصن، وأبو شعيب، ومجاهد، والسوسي، وأبو حاتم، وعمر بن عبد العزيز، وقتادة، والسدي، ورويس، وروح.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٤٨)، والإعراب للنحاس (١/ ٢١٣)، والإملاء للعكبري (١/ ٣٧).

(٣) قرأ بها: أبو عمرو، واليزيدي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٤٨)، والبحر المحيط (١/ ٣٩٠)، والتيسير للداني (٧٦)، وتفسير القرطبي (٢/ ١٢٨)، والحجة لابن خالويه (٧٨)، والحجة لأبي زرعة (١١٤)، والسبعة لابن مجاهد (١٧٠)، والغيث للصفاقسي (١٣٨)، والكشاف للزمخشري (١/ ٩٤)، والمجمع للطبرسي (١/ ٢٠٩)، وتفسير الفخر الرازي (١/ ٤٨٧)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢٢٢).

لأنفسهما وإرشادًا لذريتهما ﴿إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ وهو تعليلٌ للدعاء ومزيدُ استدعاء للإجابة قيل: إذا أراد العبد أن يُستجاب له فليدع الله عز وجل بما يناسبه من أسمائه وصفاتِه.

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ﴾ أي في الأمة المسلمة ﴿رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ أي من أنفسهم فإن البعث فيهم لا يستلزم البعثَ منهم ولم يُبعث من ذريتهما غيرُ النبي ﷺ فهو الذي أُجيب به دعوتُهما عليهما السلام.

رُوي أنه قيل له: قد استُجيب لك وهو في آخر الزمان. قال عليه السلام: «أنا دعوةُ أبي إبراهيمَ وبُشرى عيسى ورُؤيا أمي»[١].

وتخصيصُ إبراهيمَ عليه السلام بالاستجابة له أنه الأصل في الدعاء وإسماعيلُ تبعٌ له عليه السلام.

﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ يقرأ [عليهم][٢] ويبلغهم ما يوحىٰ إليه من البينات ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ﴾ بحسب قوتِهم النظرية ﴿الْكِتَابَ﴾ أي القرآن ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ وما يُكمل به نفوسَهم من أحكام الشريعة والمعارف الحقة ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ بحسب قوتهم العملية، أي: يطهِّرهم عن دنس الشرك وفنون المعاصي ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُقهر ولا يغلب

---

(١) روي من حديث العرباض بن سارية وأبي أمامة.
أما حديث العرباض بن سارية:
قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إني عند الله مكتوب بخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأخبركم بأول ذلك: دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي التي رأت حين وضعتني، أنه خرج منها نور أضاءت لها منه قصور الشام».
أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٤/ ٣١٣) رقم (٦٤٠٤) واللفظ له، ورواه أحمد (٤/ ١٢٧، ١٢٨)، والحاكم (٢/ ٦٠٠)، والطبراني في معجمه (١٨/ ٢٥٢) رقم (٦٢٩)، والبزار (٣/ ١١٣) رقم (٢٣٦٥- كشف)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٨٩)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ١٣٠)، والبغوي في شرح السنة (٧/ ١٠) رقم (٣٥٢٠).
أما حديث أبي أمامة:
فأخرجه أحمد في المسند (٥/ ٢٦٢)، من طريق أبي النضر ثنا الفرج بن فضالة ثنا لقمان بن عامر قال: سمعت أبا أمامة قال: قلت: يا نبي الله، ما كان أول بدء أمرك؟ قال: دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى، ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت منه قصور الشام.
وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/ ٨٣) للطيالسي، والبيهقي في الشعب.
وقال الهيثمي في المجمع(٨/ ٢٢٥).
«رواه أحمد وإسناده حسن، وله شواهد تقويه، ورواه الطبراني». اهـ.

(٢) زيادة من المخطوط.

على ما يريد ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمةُ والمصلحةُ، والجملة تعليلٌ للدعاء وإجابةِ المسؤول فإن وصفَ الحكمةِ مقتضٍ لإفاضة ما تقتضيه الحِكمةُ من الأمور التي من جملتها بعثُ الرسول، ووصفُ العزة مستدعٍ لامتناع وجود المانِع بالمرة.

﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ إنكارٌ واستبعاد لأن يكون في العقلاء من يرغبُ عن ملته التي هي الحقُّ الصريحُ والدين الصحيحُ، أي: لا يرغب عن ملته الواضحةِ الغراء ﴿إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ أي أذلّها واستمهَنها واستخَفّ بها، وقيل: خسِر نفسه وقيل: أوبقَ أو أهلكَ أو جهَّلَ نفسَه. قال المبرِّدُ وثعلبٌ: (سفِه) بالكسر متعدٍّ وبالضم لازم، ويشهد له ما ورد في الخبر: «أنْ تَسْفَه الحَقَّ وتَغْمِطَ النَّاسَ».

وقيل: معناه ضل من قِبَل نفسِه وقيل: أصلُه (سفِه نفسُه) بالرفع فنصب على التمييز نحو غَبِن رأيُه وأَلِمَ رأسُه ونحو قوله: [الوافر]

ونأخُذُ بعده بذِناب عيشٍ أجبِّ الظهرِ ليس له سَنامُ[١]

وقوله: [الوافر]

وما قومي بثعلبةَ بن سعدٍ ولا بفزارةَ الشُّعْرِ الرقابا[٢]

ذلك لأنه إذا رغب عما لا يرغب عنه أحدٌ من العقلاء، فقد بالغ في إذلالِ نفسه وذلتها وإهانتِها حيث خالف بها كلَّ نفس عاقلة.

روي أن عبد اللَّه بن سلام دعا ابني أخيه: سلمةَ ومُهاجِرًا إلى الإسلام فقال لهما: قد علمنا أن الله تعالى قال في التوراة: إني باعثٌ من ولد إسماعيل نبيًا اسمُه أحمدُ فمن آمن به فقد اهتدى ورشَد ومن لم يؤمن فهو ملعون فأسلم سلمةُ وأبي مهاجر فنزلت[٣].

---

(١) البيت للنابغة الذبياني في ديوانه ص (١٠٦)، والأغاني (١١/ ٢٦)، وخزانة الأدب (٧/ ٥١١، ٩/ ٣٦٣)، وشرح أبيات سيبويه (١/ ٢٨)، وشرح المفصل (٦/ ٨٣، ٨٥)، والكتاب (١/ ١٩٦)، والمقاصد النحويّة (٣/ ٥٧٩، ٤/ ٤٣٤)، وبلا نسبة في أسرار العربيَّة ص(٢٠٠)، والأشباه والنظائر (٦/ ١١)، والاشتقاق ص (١٠٥)، وأمالي ابن الحاجب (١/ ٤٥٨)، والإنصاف (١/ ١٣٤)، وشرح الأشموني (٣/ ٥٩١)، وشرح ابن عقيل ص (٥٨٩)، وشرح عمدة الحافظ ص (٣٥٨)، ولسان العرب (جبب)، (ذنب)، والمقتضب (٢/ ١٧٩)

(٢) البيت لحارث بن ظالم في الأغاني (١١/ ١١٩)، والإنصاف ص (١٣٣) وشرح أبيات سيبويه (١/ ٢٥٨)، وشرح اختيارات المفضل (٣/ ١٣٣٥)، والكتاب (١/ ٢٠١)، والمقاصد النحوية (٣/ ٦٠٩)، والمقتضب (٤/ ١٦١)، وبلا نسبة في خزانة الأدب (٧/ ٤٩٢)، وشرح المفصل (٦/ ٨٩).

(٣) قال السيوطي: لم أقف عليه في شيء من كتب الحديث ولا التفاسير المسندة كذا في «الفتح =

﴿وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ في الدُّنْيا﴾ أي اخترناه بالنبوة والحكمة من بين سائر الخلق وأصله اتخاذُ صفوة الشيء كما أن أصلَ الاختيارِ: اتخاذُ خيرِه واللامُ جواب قسم محذوف والواو اعتراضية والجملة مقررة لمضمون ما قبلها أي: وبالله لقد اصطفيناه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ في الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي من المشهود لهم بالثبات على الاستقامة والخير والصلاح، معطوفٌ عليها داخلٌ في حيز القسم مؤكدٌ لمضمونها مقرِّرة لما تقرِّره ولا حاجة إلى جعله اعتراضًا آخرَ أو حالًا مقدرة فإن مَنْ كان صفوةً للعباد في الدنيا مشهودًا له بالصلاح في الآخرة كان حقيقًا بالاتباع لا يَرغبُ عن ملته إلا سفيهٌ أو متسفِّهٌ أذل نفسَه بالجهل والإعراض عن النظر والتأمل، وإيثارُ الاسمية لما أن انتظامه في زُمرة صالحي أهلِ الآخرة أمرٌ مستمرٌ في الدارين لا أنه يحدُث في الآخرة، والتأكيدُ بـ (إن) واللام لما أن الأمورَ الأخروية خفية عند المخاطبين فحاجتُها إلى التأكيد أشدُّ من الأمور التي تُشاهد آثارُها، وكلمة (في) متعلقةٌ بـ (الصالحين) على أن اللام للتعريف وليست بموصولة حتى يلزم تقديمُ بعض الصلة عليها على أنه قد يُغتفر في الظرف ما لا يغتفر في غيره كما في قوله: [الرجز]

ربيتُه حتى إذا تَمَعْدَدا كان جزائي بالعصا أن أُجلَدا[1]

أو بمحذوف من لفظه (أي) وأنه لصالحٌ في الآخرة (لمن الصالحين) أو من غير لفظه أي أعني في الآخرة نحو لك بعدَ رَعْيًا وقيل: هي متعلقةٌ بـ (اصطفيناه) على أن في النظم الكريم تقديمًا وتأخيرًا تقديرُه ولقد اصطفيناه في الدنيا والآخرة وإنه لمن الصالحين ﴿إِذْ قَالَ لَهُ﴾ ظرفٌ لـ (اصطفيناه) لما أن المتوسِّط ليس بأجنبي بل هو مقرِّر له لأن اصطفاءه في الدنيا إنما هو بالنبوة وما يتعلق بصلاح الآخرة أو تعليلٌ له أو منصوب بـ (اذكُرْ) كأنه قيل: اذكر ذلك الوقتَ لتقف على أنه المصطفىٰ الصالحُ المستحِقُّ للإمامة والتقدم، وأنه ما نال ما نال إلا بالمبادرة إلى الإذعان والانقياد لما أُمر به وإخلاصِ سرِّه على أحسنِ ما يكون حين قال له ﴿رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾ أي لربك ﴿قَالَ

---

= السماوي» (١/ ١٨٣).
قلت: ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (١/ ١١٧) لكن دون إسناد.

(١) الرجز للعجاج في ملحق ديوانه (٢/ ٢٨١)، وخزانة الأدب (٨/ ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣٢)، والدرر (١/ ٢٩٢، ٢/ ٥٠)، والمحتسب (٢/ ٣١٠)، وبلا نسبة في تاج العروس (٨/ ٣٥٩) (عدد)، (٩/ ١٨٠) (معد)، وأساس البلاغة (معد)، والأشباه والنظائر (٨/ ١٤٢)، والدرر (٤/ ٥٩)، وشرح شافية ابن الحاجب (٢/ ٣٣٦)، وشرح المفصل (٩/ ١٥١)، واللامات ص(٥٩)، والمنصف (١/ ١٢٩)، وهمع الهوامع (١/ ٨٨، ١١٢)، (٢/ ٣)، ولسان العرب (عدد)، (معد)، وتهذيب اللغة (٢/ ٢٦٠)، وجمهرة اللغة ص (٦٦٥)، والمخصص (١٤/ ١٧٥).

أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وليس الأمرُ على حقيقته بل هو تمثيلٌ، والمعنى: أخطر بباله دلائلَ التوحيد المؤديةَ إلى المعرفة الداعيةَ إلى الإسلام من الكوكب والقمر والشمسِ وقيل: أسلم أي أذعِنْ وأطع وقيل: اثبُتْ على ما أنت عليه من الإسلام والإخلاصِ، أو: استقمْ وفوِّضْ أمورك إلى الله تعالى فالأمرُ على حقيقته، والالتفاتُ مع التعرض لعنوان الربوبيةِ والإضافةِ إليه عليه السلام لإظهارِ مزيدِ اللطفِ به والاعتناءِ بتربيته، وإضافةُ الرب في جوابه عليه الصلاة والسلام إلى (العالمين) للإيذان بكمال قوةِ إسلامِه حيث أيقنَ حين النظر بشمولِ ربوبيتِه للعالمين قاطبةً لا لنفسِه وحده كما هو المأمور به.

﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ﴾ شروعٌ في بيان تكميلِه عليه السلام لغيره إثرَ بيانِ كماله في نفسه وفيه توكيدٌ لوجوب الرغبة في مِلته عليه السلام.

والتوصيةُ: التقدمُ إلى الغير بما فيه خيرٌ وصلاح للمسلمين من فعلٍ أو قولٍ، وأصلُها: الوَصْلة يقال: وصّاه إذا وصَله وفصّاه إذا فَصَله كأن الموصِيَ يصِلُ فعلَه بفعل الوصيّ، والضمير في (بها) للمِلّة أو قولِه: ﴿أسلمتُ لرب العالمين﴾ بتأويل الكلمة كما عبر بها عن قوله تعالى: ﴿إنني براءٌ مما تعبدون إلا الذي فطرني﴾ [الزخرف، الآية ٢٥، ٢٦] في قوله عز وجل: ﴿وجعلَها كلمةً باقيةً في عَقِبه﴾ [الزخرف، الآية ٢٨].

وقرئ[1] (أَوْصىٰ) والأول أبلغ ﴿وَيَعْقُوبُ﴾ عطفٌ على إبراهيمُ، أي: وصَّى بها هو أيضًا بنيه.

وقرئ[2] بالنصب عطفًا على بنيه ﴿يَا بَنِيَّ﴾ على إضمار القولِ عند البصريين ومتعلق بـ (وصَّى) عند الكوفيين لأنه في معنى القول كما في قوله: [الرجز]

رَجْـلانِ مـن ضَـبَّـةَ أخـبـرانـا إنـا رأيْـنـا رَجُـلًا عُـريـانـا[3]

---

(١) قرأ بها: نافع، وابن عامر، وأبو جعفر، والذماري، وشريح.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٤٨)، والإملاء للعكبري (١/ ٣٨)، والبحر المحيط (١/ ٣٩٨)، والتبيان للطوسي (١/ ٤٨٤)، والتيسير للداني (٧٧)، وتفسير الطبري (٣/ ٩٦)، وتفسير القرطبي (٢/ ١٣٥)، والحجة لابن خالويه (٨٩)، والحجة لأبي زرعة (١١٥)، والسبعة لابن مجاهد (١٧١)، والغيث للصفاقسي (١٣٨)، والكشاف للزمخشري (١/ ٩٥)، والمجمع للطبرسي (١/ ٢١٣)، وتفسير الفخر الرازي (١/ ٤٩٧)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢٢٢).

(٢) قرأ بها: إسماعيل بن عبد الله المكي، وعمرو بن فائد الأسواري، والضرير.
ينظر: البحر المحيط (١/ ٣٩٩)، وتفسير القرطبي (٢/ ١٣٥)، والكشاف للزمخشري (١/ ٩٥)، وتفسير الفخر الرازي (١/ ٤٩٨).

(٣) الرجز بلا نسبة في خزانة الأدب (٩/ ١٨٣)، والخصائص (٢/ ٣٣٨)، وشرح شواهد المغني (٢/ =

فهو عند الأولين بتقدير القول وعند الآخرين متعلق بالإخبار الذي هو في معنى القول.

وقرئ[١] (أن يا بني).

وبنو إبراهيمَ عليه السلام كانوا أربعةً: إسماعيلُ وإسحاقُ ومدينُ ومدان وقيل: ثمانية، وقيل: أربعةً وعشرين وكان بنو يعقوبَ اثني عشرَ: روبين وشمعون ولاوي ويهوذا ويشسوخور وزبولون وزوانا وتفتونا وكوذا وأوشير وبنيامين ويوسف عليه السلام.

﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ﴾ دين الإسلام الذي هو صفوةُ الأديان ولا دينَ غيرُه عنده تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ظاهرُه النهيُ عن الموت على خلاف حال الإسلام والمقصودُ الأمرُ بالثبات على الإسلام إلى حين الموتِ أي فاثبُتوا عليه ولا تفارقوه أبدًا كقولك: لا تصلِّ إلا وأنت خاشِعٌ، وتغييرُ العبارة للدلالة على أن موتهم لا على الإسلام موتٌ لا خيرَ فيه وأن حقه ألا يحلَّ بهم وأنه يجب أن يحذَروه غايةَ الحذَر، ونظيرُه: مُتْ وأنت شهيدٌ.

رُوي أن اليهودَ قالوا لرسول الله ﷺ: ألستَ تعلم أن يعقوبَ أوصى باليهودية يوم مات؟ فنزلت[٢] ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ (أم) منقطعةٌ مقدّرة ببل والهمزة، والخطابُ لأهل الكتاب الراغبين عن ملة إبراهيمَ، و(شهداءَ) جمع شهيد أو شاهد بمعنى الحاضِر و(إذ) ظرفٌ لـ (شهداءَ) والمرادُ بحضور الموت: حضورُ أسبابه وتقديمُ يعقوبَ عليه السلام للاهتمام به إذ المرادُ بيانُ كيفية وصيته لبنيه بعد ما بين ذلك إجمالًا ومعنى (بل) الإضرابُ والانتقال عن توبيخهم على رغبتهم عن ملة إبراهيم عليه السلام إلى توبيخهم على افترائهم على يعقوبَ عليه السلام باليهودية حسبما حُكي عنهم وأما تعميمُ الافتراء هاهنا لسائر الأنبياءِ عليهم السلام كما قيل فيأباه تخصيصُ يعقوبَ بالذكر، وما سيأتي من قوله عز وجل: ﴿أم تقولون إن إبراهيم﴾ [البقرة، الآية ١٤٠] إلخ، ومعنى الهمزة: إنكارُ وقوعِ الشهود عند احتضارِه عليه السلام وتبكيتُهم.

---

= ٨٣٣)، والمحتسب (١/ ١٠٩، ٢٥٠)، ومغني اللبيب (٢/ ٤١٣).

(١) قرأ بها: أبي، وابن مسعود، والضحاك.
ينظر: البحر المحيط (١/ ٣٩٩)، وتفسير القرطبي (٢/ ١٣٦)، والكشاف للزمخشري (١/ ٩٥)، والمعاني للفراء (١/ ٨٠)، وتفسير الفخر الرازي (١/ ٤٩٨).

(٢) ذكره المناوي في «الفتح السماوي» (١/ ١٨٣، ١٨٤) وقال: قال السيوطي: لم أقف عليه.

وقولُه تعالى: ﴿إِذْ قَالَ﴾ بدلٌ من (إذ حَضَر)، أي: ما كنتم حاضرين عند احتضارِه عليه السلام وقولِه: ﴿لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾ أي: أيَّ شيءٍ تعبدُونه بعد موتي فمن أين لكم أن تدّعوا عليه عليه السلام ما تدّعون رجمًا بالغيب وعند هذا تم التوبيخُ والإنكار والتبكيتُ، ثم بَيّن أن الأمر قد جُرِّبَ حينئذ على خلاف ما زعموا وأنه عليه السلام أراد بسؤاله ذلك تقريرَ بنيه على التوحيد والإسلام وأخذَ ميثاقِهم على الثبات عليهما إذ به يتِمُّ وصيّتُه بقوله: ﴿فلا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلَمونَ﴾. و(ما) يُسأل به عن كل شيء ما لم يُعرَّفْ فإذا عُرِّف خَصَّ العقلاَ (بمَنْ) إذا سئل عن شيء بعينه وإنْ سُئل عن وصفِه قيل: ما زيدٌ؟ أفقيهٌ أم طبيبٌ؟ فقوله تعالى: ﴿قَالُوا﴾ استئنافٌ وقع جوابًا عن سؤال نشأ عن حكاية سؤال يعقوبَ عليه السلام كأنه قيل: فماذا قالوا عند ذلك؟ فقيل: قالوا: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ حسبما كان مرادُ أبيهم بالسؤال أي: نعبدُ الإلٰهَ المتفَّقَ على وجوده وإلٰهيتِه ووجوبِ عبادته، وعَدُّ إسماعيلَ من آبائه تغليبًا للأب والجد لقوله عليه الصلاة والسلام: «عمُ الرجل صِنْوُ أبيه»[١] وقولِه عليه السلام في العباس[٢]: «هذا بقيةُ آبائي»[٣].

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٦٣-نووي ) كتاب الزكاة، باب في تقديم الزكاة ومنعها حديث (٩٨٣)، وأبو داود (١/ ٥١٠) كتاب الزكاة، باب في تعجيل الزكاة، حديث(١٦٢٣)، وأحمد (٢/ ٣٢٢)، والدارقطني (٢/ ١٢٣) باب تعجيل الصدقة قبل الحول، والبيهقي (٤/ ١١١) كتاب الزكاة، باب تعجيل الصدقة.
كلهم من طريق الأعرج عن أبي هريرة قال: بعث رسول الله ﷺ عمر على الصدقة فقيل: منع ابن جميل وخالد بن الوليد والعباس عمُّ رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «ما ينقم ابن جميل، إلا أنه كان فقيرا فأغناه الله، وأما خالد فإنكم تظلمون خالدًا. قد احتبس أدراعه وأعتاده في سبيل الله، وأما العباس فهي عليَّ ومثلها معها»، ثم قال : «يا عمر أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه».
وله شاهد من حديث علي مرفوعًا بلفظ:
«أما علمت أن عم الرجل صنو أبيه».
أخرجه أحمد في المسند (١/ ٩٤).
وله شاهد آخر من حديث ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «إنَّ عم الرجل صنو أبيه».
أخرجه الطبراني (١٠/ ٨٧) رقم (٩٩٨٥).
قال الهيثمي في المجمع(٣/ ٨٢).
«رواه البزار والطبراني في الكبير والأوسط، وزاد: أن عم الرجل صنو أبيه، وفيه محمد ابن ذكوان وفيه كلام وقد وثق». ا هـ.
وأيضا ما رواه الطبراني في الأوسط من حديث أبي رافع قال: بعث رسول الله ﷺ عمر ابن الخطاب ساعيًا على الصدقة، فأتى العباس بن عبد المطلب فأغلظ له العباس فأتى عمر النبي ﷺ فذكر له ذلك فقال له ﷺ يا عمر: أما علمت أن عم الرجل صنو أبيه، إن العباس كان أسلفنا صدقة العام عام أول».

=

وقرئ[1] (أبيك) على أنه جمع بالواو والنون كما في قوله: [المتقارب]

فلما تَبَيَّنَّ أصواتَنا بكَيْنَ وفَدَّيْننا بالأبينا[2]

وقد سقطت النون بالإضافة، أو مفردٌ وإبراهيمُ عطفُ بيانٍ له وإسماعيلَ وإسحاقَ معطوفان على أبيك ﴿إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ بدل من (إله آبائك) كقوله تعالى: ﴿بالناصيةِ ناصيةٍ كاذبة﴾ [العلق، الآية ١٥، ١٦] وفائدته التصريحُ بالتوحيد ودفعُ التوهم الناشئ من تكرير المضافِ لتعذر العطفِ على المجرور أو نُصب على الاختصاص ﴿وَنَحْنُ لَهُ

---

= قال الهيثمي في المجمع (٣/ ٨٢):
«رواه الطبراني في الأوسط، وفيه إسماعيل المكي وفيه كلام كثير وقد وثق». ا هـ.

(٢) هو: العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي. عم رسول الله ﷺ وصنو أبيه. يكنى: أبا الفضل. أمه نتيلة بنت جناب بن مالك بن عمرو. وهي أول عربية كست البيت الحرير والديباج، شهد مع رسول الله ﷺ بيعة العقبة. كان ذا رأي سديد، وعقل غزير. وقال عنه النبي ﷺ: هذا العباس بن عبد المطلب أجود قريش كفا وأوصلها، وقال: هذا بقية آبائي. أضر العباس آخر عمره، وتوفي بالمدينة يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من رجب، وقيل: بل في رمضان سنة (٣٢)، وقيل: قبل قتل عثمان بسنتين.
ينظر: الإصابة، (٣/ ٥١١)، أسد الغابة (٣/ ١٦٣)، الثقات (٣/ ٢٨٨)، تجريد أسماء الصحابة (١/ ٢٩٥).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٣٨٢) رقم (٣٢٢١٢) من طريق ابن عيينة عن داود بن شابور عن مجاهد قال: قال رسول الله ﷺ: «احفظوني في العباس، فإنه بقية آبائي، وإن عم الرجل صنو أبيه».
ورواه الطبراني في الكبير (١١/ ٨٠) رقم (٧/ ١١١) من طريق مجاهد عن ابن عباس مرفوعًا بلفظ: «استوصوا بعمي العباس خيرًا، فإنه بقية آبائي، وإنما عم الرجل صنو أبيه».
قال الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٧٢):
«رواه الطبراني وفيه عبد الله بن خراش، وهو ضعيف، ووثقه ابن حبان، قال: ربما أخطأ، وبقية رجاله وثقوا». ا هـ.
وروي عن الحسن بن علي نحو حديث ابن عباس.
قال الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٧٢):
«رواه الطبراني في الصغير والأوسط وفيه جماعة لم أعرفهم». ا هـ.

(١) قرأ بها: ابن عباس، والحسن، وابن يعمر، وأبو رجاء، وعاصم الجحدري.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٤٨)، والإعراب للنحاس (١/ ٢١٦)، والإملاء للعكبري (١/ ٣٨)، والبحر المحيط (١/ ٤٠٢)، وتفسير القرطبي (٢/ ١٣٨)، وتفسير الطبري (٣/ ٩٩)، والكشاف للزمخشري (١/ ٩٦)، والمعاني للفراء (١/ ٨٢).

(٢) البيت لزياد بن واصل السلمي في خزانة الأدب (٤/ ٤٧٤- ٤٧٧)، وشرح أبيات سيبويه (٢/ ٢٨٤)، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر (٤/ ٢٨٦)، وخزانة الأدب (٤/ ١٠٨، ٤٦٨)، والخصائص (١/ ٣٥٦)، وشرح المفصل (٣/ ٣٧)، والكتاب (٣/ ٤٠٦)، ولسان العرب (أبي)، والمحتسب (١/ ١١٢)، والمقتضب (٢/ ١٧٤).

﴿مُسْلِمُونَ﴾ حال من فاعل نعبدُ أو من مفعوله أو منهما معًا، ويُحتمل أن يكون اعتراضًا محقّقًا لمضمون ما سبق ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ﴾ مبتدأٌ وخبرٌ، والإشارةُ إلى إبراهيمَ ويعقوبَ وبَنِيهما الموحِّدين، والأمةُ هي الجماعة التي تؤمّها فِرقُ الناس أي يقصِدونها ويقتدون بها ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ صفة للخبر أي مضت بالموت وانفردت عمن عداها، وأصلُه صارت إلى الخلاء وهي الأرضُ التي لا أنيس بها ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ لا محل لها من الإعراب أو صفةٌ أخرى لـ (أمة)، أو حال من الضمير في (خلت) و(ما) موصولةٌ أو موصوفةٌ والعائدُ إليها محذوف، أي: لها ما كسبَتْه من الأعمال الصالحةِ المحكيةِ لا تتخطاها إلى غيرها فإن تقديمَ المُسندِ يوجب قصْرَ المُسند إليه عليه كما هو المشهور.

﴿وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ عطف على نظيرتها على الوجه الأول، وجملةٌ مبتدأة على الوجهين الأخيرين إذ لا رابطَ فيها ولا بد منه في الصفة، ولا مقارنة في الزمان ولا بد منها في الحال أي لكم ما كسبتموه لا ما كسبه غيرُكم فإن تقديمَ المسند قد يُقصد به قصرُه على المسند إليه كما قيل في قوله تعالى: ﴿لكم دينُكم وليَ دين﴾ [الكافرون، الآية ٦] أي: ولي ديني لا دينُكم.

وحملُ الجملة الأولى على هذا القصر على معنى: أن أولئك لا ينفعهم إلا ما اكتسبوا كما قيل مما لا يساعده المقامُ إذ لا يَتوهم متوهِّم انتفاعَهم بكسب هؤلاء حتى يُحتاج إلى بيان امتناعِه وإنما الذي يُتوهم انتفاعُ هؤلاء بكسبهم فبين امتناعَه بأن أعمالَهم الصالحة مخصوصةٌ بهم لا تتخطاهم إلى غيرهم وليس لهؤلاء إلا ما كسبوا فلا ينفعُهم انتسابُهم إليهم وإنما ينفعهم اتباعُهم لهم في الأعمال كما قال عليه السلام: «يا بني هاشم لا يأتيني الناسُ بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم»[1].

﴿وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ إن أجريَ السؤالُ على ظاهره، فالجملةُ مقرِّرة لمضمون ما مرَّ من الجملتين تقريرًا ظاهرًا وأن أريد به سببُه أعني الجزاءَ فهو تتميمٌ لما سبق جارٍ مَجرى النتيجةِ له.

وأيا ما كان فالمرادُ تخييبُ المخاطَبين وقطعُ أطماعِهم الفارغةِ عن الانتفاع بحسناتِ الأمةِ الخاليةِ وإنما أُطلق العملُ لإثبات الحكم بالطريقِ البرهاني في ضمن قاعدة كليةٍ.

---

(١) قال الحافظ: لم أجده.
وقال الزيلعي (١/ ٩١) في تخريج أحاديث الكشاف: «غريب جدًا». انتهى.

هذا وقد جعل السؤال عبارةً عن المؤاخذة والموصول عن السيئات فقيل: أي لا تؤاخَذون بسيئاتهم كما لا تثابون بحسناتهم، ولا ريب في أنه مما لا يليق بشأن التنزيلِ كيف لا وهم منزّهون من كسب السيئاتِ فمن أين يُتصوَّر تحميلُها على غيرهم حتى يُتصَدَّى لبيان انتفاعِه.

﴿وَقَالُوا﴾ شروع في بيان فن آخرَ من فنون كفرِهم وهو إضلالُهم لغيرهم إثرَ بيانِ ضلالِهم في أنفسهم والضمير لأهل الكتابين على طريقة الالتفاتِ المُؤْذن باستيجاب حالِهم لإبعادهم من مقام المخاطبةِ والإعراضِ عنهم وتعديدِ جناياتهم عند غيرهم أي قالوا للمؤمنين: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ ليس هذا القولُ مقولًا لكلّهم أو لأيّ طائفةٍ كانت من الطائفتين بل هو موزَّعٌ عليهما على وجه خاصٍّ يقتضيه حالُهما اقتضاءً مُغنيًا عن التصريح به أي قالت اليهودُ: كونوا هودًا، والنصارى: كونوا نصارى ففَعل بالنظم الكريم ما فَعل بقوله تعالى: ﴿وقالوا لن يدْخُلَ الجنةَ إلا مَنْ كان هُودًا أو نَصارى﴾ [البقرة، الآية ١١١] اعتمادًا على ظهور المراد ﴿تَهْتَدُوا﴾ جواب الأمر أن تكونوا كذلك تهتدوا ﴿قُلْ﴾ خطابٌ للنبي ﷺ أي قل لهم على سبيل الردِّ عليهم وبيانِ ما هو الحقُّ لديهم وإرشادِهم إليه ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي لا نكون كما تقولون بل نكون أهلَ ملتِه عليه السلام وقيل: بل نتبعُ مِلّته عليه السلام، وقد جُوِّز أن يكون المعنىٰ بل اتَّبعوا أنتم ملَّته عليه السلام أو كونوا أهلَ ملّته.

وقرئ[1] بالرفع أي بل ملتُنا أو أمرُنا مِلّته أو نحن مِلَّتُه أي أهلُ ملتِه ﴿حَنِيفًا﴾ أي مائلًا عن الباطل إلى الحق وهو حالٌ من المضاف إليه كما في رأيت وجهَ هندٍ قائمةً أو المضافِ كما في قوله تعالى: ﴿ونزَعْنا ما في صُدورِهم من غلٍ إخوانًا﴾ [الحجر، الآية ٤٧] إلخ ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تعريضٌ بهم وإيذانٌ ببُطلان دعواهم اتباعَه عليه السلام مع إشراكهم بقولهم عزيرٌ ابنُ الله والمسيحُ ابن الله.

﴿قُولُوا﴾ خطابٌ للمؤمنين بعد خِطابه عليه السلام بردِّ مقالتِهم الشنعاءِ على الإجمال وإرشادٌ لهم إلى طريق التوحيد والإيمان على ضربٍ من التفصيل، أي: قولوا لهم بمقابلة ما قالوا تحقيقًا وإرشادًا ضمنيًا لهم إليه ﴿آمَنَّا بِالله وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ يعني القرآن قُدِّم على سائر الكتب الإلٰهية مع تأخرُّه عنها نزولًا لاختصاصِه بنا وكونِه سببًا للإيمان بها ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ والأَسْبَاطِ﴾

---

(١) قرأ بها: ابن هرمز، والأعرج، وابن أبي عبلة.
ينظر: البحر المحيط (١/ ٤٠٦)، وتفسير الطبري (٣/ ١٠٣)، وتفسير القرطبي (٢/ ١٣٩)، والكشاف للزمخشري (١/ ٩٦)، وتفسير الفخر الرازي (١/ ٥٠٢).

[الصُحُف وإن كانت نازلةً إلى إبراهيم عليه السلام لكن من بعده عليه السلام حيث كانوا متعبَّدين بتفاصيلها داخلين تحت أحكامِها جُعلت منزلة إليهم كما جعل القرآنُ منزلًا إلينا][١] والأسباطُ جمعُ سِبْط وهو الحافِدُ والمرادُ بهم حَفَدةُ يعقوبَ عليه السلام أو[٢] أبناؤه الاثنا عشرَ وذراريهم فإنهم حفَدةُ إبراهيمَ وإسحاقَ.

﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ من التوراة والإنجيل وسائر المعجزات الباهرةِ بأيديهما حسبما فُصّل في التنزيل الجليل، وإيرادُ الإيتاء لما أُشير إليه من التعميم، وتخصيصُهما بالذكر لما أن الكلام مع اليهود والنصارى ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ﴾ أي جملةُ المذكورين وغيرُهم ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ من الآيات البيناتِ والمعجزاتِ الباهراتِ ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ كدأب اليهود والنصارى آمنوا ببعض وكفروا ببعض وإنما اعتُبر عدمُ التفريق بينهم مع أن الكلامَ فيما أوتوه لاستلزام عدم التفريق بينهم بالتصديق والتكذيب لعدم التفريقِ بين ما أُوتوه، وهمزةُ (أحد) إما أصليةٌ فهو اسمٌ موضوع لمن يصلُح أن يخاطَب يستوي فيه المفردُ والمثنى والمجموعُ والمذكرُ والمؤنث ولذلك صح دخولُ (بين) عليه كما في: مثل المالِ بين الناس ومنه ما في قوله ﷺ: «ما أُحِلَّتِ الغنائمُ لأحدٍ سُودِ الرُّؤوسِ غيرِكم»[٣] حيثُ وصف بالجمع، وإما مبدلةٌ من الواو فهو بمعنى واحد وعمومُه لوقوعه في حيز النفي، وصحةِ دخول (بين) عليه باعتبار معطوفٍ قد حُذف لظهوره، أي: بين أحد منهم وبين غيره كما في قول النابغة: [الطويل]

فما كان بين الخير ـ لو جاء سالمًا  أبو حَجَرٍ ـ إلا ليالٍ قلائلُ[٤]

أي بين الخير وبيني وفيه من الدلالة صريحًا عليه تحقيقُ عدم التفريقِ بين كلِّ فردٍ فرد منهم وبين من عداه كائنًا من كان ما ليس في أن يقال لا نفرِّق بينهم، والجملة

(١) زيادة من المخطوط.

(٢) في المخطوط: و.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢٥٢) والترمذي (٣٠٨٥) والطيالسي (٢٤٢٩) وسعيد بن منصور (٢٩٠٦) وابن أبي شيبة (١٤/ ٣٨٧، ٣٨٨) والطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٢) وابن الجارود في «المنتقى» (١٠٧١) وابن حبان (٤٨٠٦) والطحاوي في «مشكل الآثار» (٣٣١٠، ٣٣١١، ٣٣١٢) والبيهقي (٦/ ٢٩٠) من حديث أبي هريرة

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٤) البيت للنابغة الذبياني في ديوانه، ص(١٢٠)، وشرح التصريح (٢/ ١٥٣)، وشرح عمدة الحفاظ ص (٦٤٨)، والمقاصد النحوية (٤/ ١٦٧)، وبلا نسبة في أوضح المسالك (٣/ ٣٩٦)، وشرح الأشموني (٢/ ٤٣٠).

حالٌ من الضمير في (آمنا) وقوله عز وجل: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أي مخلصون له ومُذعنون حالٌ أخرى منه أو عطفٌ على (آمنا).

﴿فَإِنْ آمَنُوا﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإن ما تقدم من إيمانِ المخاطَبين على الوجه المحرَّرِ مَظِنَّةٌ لإيمان أهلِ الكتابين لما أنه مشتملٌ على ما هو مقبولٌ عندهم ﴿بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ﴾ أي بما آمنتم به على الوجهِ الذي فُصل على أن المِثْلَ مُقحَمٌ كما في قوله تعالى: ﴿وشهِدَ شاهدٌ من بني إسرائيلَ على مِثْله﴾ [الأحقاف، الآية ١٠] أي عليه، ويعضُده قراءةُ[1] ابنِ مسعود (بما آمنتم به) وقراءة[2] أُبيّ (بالذي آمنتم به).

ويجوزُ **أن تكون** الباء للاستعانة على أن المؤمَنَ به محذوفٌ لظهوره بمروره آنفًا، أو على أن الفعلَ مُجرىً مُجرىٰ اللازم أي فإن آمنوا بما مر مفصلًا، أو: فإنْ فعلوا الإيمانَ بشهادةٍ مثلِ شهادتكم، **وأن تكون** الأولى زائدةً والثانية صلةً لـ (آمنتم) و(ما) مصدرية أي فإن آمنوا إيمانًا مثلَ إيمانِكم بما ذُكر مفصَّلًا **وأن تكون** للملابسة أي فإن آمنوا ملتبسين بمثل ما آمنتم ملتبسين به أو فإن آمنوا إيمانًا ملتبسًا[3] به من الإذعان والإخلاص وعدم التفريق بين الأنبياء عليهم السلام فإن ما وُجد فيهم وصدَر عنهم من الشهادة والإذعان وغير ذلك مثلُ ما للمؤمنين لا عينُه بخلاف المؤمَنِ به فإنه لا يُتصوَّرُ فيه التعدّد ﴿فَقَدِ اهْتَدَوا﴾ إلى الحق وأصابوه كما اهتديتم وحصل بينكم الاتحادُ والاتفاق.

و أما ما قيل من أن المعنى فإن تحرَّوُا الإيمان بطريق يهدي إلى الحق مثلِ طريقِكم فقد اهتدوا فإن وَحدَة المقصِد لا تأبىٰ تعددَ الطريق[4] الحقِّ، وإرشادُهم إليه بعينه لا يلائم تجويزَ أن يكون له طريقٌ آخرُ وراءه ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي أعرضوا عن الإيمان على الوجه المذكور بأن أخلّوا بشيء من ذلك كأن آمنوا ببعضٍ وكفروا ببعض كما هو دينُهم ودَيْدَنُهم ﴿فَإِنَّمَا هُمْ في شِقَاقٍ﴾ المُشاقّة والشِقاقُ من الشِق كالمخالفة

---

(١) قرأ بها أيضا: ابن عباس، وابن مجاهد.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ٣٩)، والبحر المحيط (١/ ٤٠٩)، والكشاف للزمخشري (١/ ٩٧)، والمحتسب لابن جني (١/ ١١٣).

(٢) قرأ بها أيضا: ابن عباس.
ينظر: البحر المحيط (١/ ٤٠٩)، والتبيان للطوسي (١/ ٤٨٤)، وتفسير الطبري (٣/ ١١٤)، وتفسير القرطبي (٢/ ١٤٢)، والكشاف للزمخشري (١/ ٩٧).

(٣) زاد في المخطوط: بمثل ما آمنتم إيمانًا ملتبسا.

(٤) زاد في المخطوط: فيأباه أن مقام تعيين طريق.

والخِلاف من الخُلف والمعاداة والعِداء من العَداوة، أي التجانب[١]، فإن أحدَ المخالِفين يُعرِض عن الآخر صورةً أو معنى ويُولِيه خَلفَه ويأخُذُ في شِقٍ غيرِ شِقّه وعَدْوةٍ غيرِ عَدْوَتِه.

والتنوينُ للتفخيم، أي: هم مستوون في خلاف عظيمٍ بعيدٍ من الحق وهذا لدفع ما يُتوهم من احتمال الوِفاق بسبب إيمانِهم ببعضِ ما آمن به المؤمنونَ.

والجملةُ **إما** جوابُ الشرط كما هي على أن المرادَ مُشاقّتُهم الحادثةُ بعد تولِّيهم عن الإيمان كجواب الشرطية الأولى، وإنما أُوثرت[٢] الجملةُ الاسميةُ للدلالة على ثباتِهم واستقرارِهم في ذلك، **وإما** بتأويل: فاعلَموا إنما هم في شقاق. هذا هو الذي يستدعيه فخامةُ شأنِ التنزيلِ الجليل، وقد قيل: قولُه تعالى: ﴿فإن آمنوا﴾ [البقرة، الآية: ١٣٧] إلخ من باب التعجيز والتبكيتِ على منهاج قولِه تعالى: ﴿فأْتُوا بسورةٍ مثلِه﴾ [البقرة، الآية: ٢٣]، والمعنى فإن حصّلوا دينًا آخرَ مثل دينِكم مماثلًا له في الصِحة والسَّداد فقد اهتَدوا وإذ لا إمكانَ له فلا إمكانَ لاهتدائهم، ولا ريب في أنه مما لا يليق بحمل النظمِ الكريم عليه، ولمّا دل تنكيرُ الشِقاق على امتناعِ الوفاقِ وأن ذلك مما يؤدي إلى الجدال والقتالِ لا محالة عقَّب ذلك بتسلية رسولِ الله ﷺ وتفريحِ المؤمنين بوعد النصر.

والغَلَبة ضمانُ التأييد والإعزاز، وعبّر بالسين الدالةِ على تحقق الوقوعِ ألبتَةَ فقيل: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ﴾ أي سيكفيك شِقاقَهم فإن الكفاية لا تتعلق بالأعيان بل بالأفعال، وقد أنجز عز وعلا وعدَه الكريم بقتل بني [قريظة وسبيهم وإجلاء بني][٣] النضير.

وتلوينُ الخطاب بتجريده للنبي ﷺ مع أن ذلك كفايةٌ منه سبحانه للكلِّ لما أنه الأصلُ والعُمدة في ذلك وللإيذانِ بأن القيامَ بأمورِ الحروب وتحمُّلَ المُؤَن والمشاقِّ ومقاساةَ الشدائد في مناهضة الأعداء من وظائف الرؤساء فنعمته تعالى في الكفاية والنصر في حقه عليه السلام أتم وأكملُ ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ تذييلٌ لما سبق من الوعد وتأكيدٌ له والمعنى أنه تعالى يسمع ما[٤] تدعوه[٥] به، ويعلم ما في نِيَّتك من إظهار الدينِ فيستجيب لك ويوصلك إلى مرادك أو وعيد للكفرة، أي: يسمع ما ينطِقون به ويعلم ما يضمرونه في قلوبهم مما لا خير فيه وهو معاقبهم عليه ولا يخفى ما فيه من تأكيد الوعد السابقِ فإن وعيدَ الكفرة وعد المؤمنين.

---

(١) في المخطوط: الجانب.
(٢) في المخطوط: أوثر.
(٣) زيادة من المخطوط.
(٤) في المخطوط: من.
(٥) في ط: تدعو.

﴿صِبْغَةَ اللهِ﴾ الصِّبغة من الصِّبْغ كالجلسة من الجلوس وهي الحالة التي يقع عليها الصَّبْغُ عبر بها عن الإيمان بما ذكر على الوجه الذي فصل لكونه تطهيرًا للمؤمنين من أوْضارِ الكفر وحليةً تُزَيِّنُهم بآثاره الجميلة ومتداخِلًا في قلوبهم كما أن شأن الصَّبْغ بالنسبة إلى الثوب كذلك وقيل: للمشاكلة التقديرية[1]، فإن النصارى كانوا يغمِسون أولادَهم في ماء أصفرَ يسمونه المعمودية ويزعُمون أنه تطهيرٌ لهم وبه يحِق نصرانيتُهم وإضافتها إلى الله عز وجل مع استناده فيما سلف إلى ضمير المتكلمين للتشريفِ والإيذانِ بأنها عطية منه سبحانه لا يستقِلُّ العبدُ بتحصيلها فهي إذن مصدرٌ مؤكدٌ لقوله تعالى: ﴿آمنا﴾ داخل معه في حيز (قولوا) منتصبٌ عنه انتصابَ وعد الله عما تقدمه لكونه بمثابة فعلِه كأنه قيل: صَبَغنا الله صِبغةً وقيل: هي منصوبة بفعل الإغراء أي الزموا صبغةَ الله وإنما وُسّط بينهما الشرطيتان وما بعدهما اعتناءً ببيان أنه الإيمانُ الحقُّ وبه الاهتداءُ ومسارعةً إلى تسليته عليه الصلاة والسلام ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ﴾ مبتدأ وخبر، الاستفهامُ للإنكار والنفي. وقولُه تعالى: ﴿صِبْغَةً﴾ نصبٌ على التمييز من (أحسنُ) منقولٌ من المبتدأ، والتقديرُ: ومن صبغتُه أحسنُ من صبغته تعالى، فالتفضيلُ جارٍ بين الصِّبغتين لا بين فاعليهما، أي: لا صبغةَ أحسنُ من صبغته تعالى على معنى أنها أحسنُ من كل صبغة على ما أشير إليه في قوله تعالى: ﴿ومن أظلم ممن منع﴾ [البقرة، الآية: ١١٤] إلخ وحيث كان مدارُ التفضيل على تعميم الحسن الحقيقي والفَرَضي المبني على زعم الكفرة لم يلزم منه أن يكون في صبغة غيرِه تعالى حُسْنٌ في الجملة، والجملةُ اعتراضية مقرِّرة لما في صبغة الله من معنى التبجّح والابتهاج ﴿وَنَحْنُ لَهُ﴾ أي لله الذي أولانا تلك النعمةَ الجليلةَ ﴿عَابِدُونَ﴾ شكرًا لها ولسائر نِعمِه، وتقديمُ الظرف للاهتمام ورعايةِ الفواصل، وهو عطفٌ على (آمنا)،

---

(١) نعم، ذكرها البلاغيون شاهدًا للمشاكلة التقديرية، وقد ذكروا أن الأصل فيه أن النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه «المعمودية» ويقولون؛ هو تطهير لهم، فأمر المسلمين بأن يقولوا لهم: قولوا آمنا بالله، وصبغنا الله بالإيمان صبغةً لا مثل صبغتنا، وطهرنا به تطهيرًا لا مثل تطهيرنا، أو يقول المسلمون: صبغنا الله بالإيمان صبغته، ولم يصبغ صبغتكم، وجيء بلفظ الصبغة للمشاكلة، وإن لم يكن قد تقدم لفظ الصبغ؛ لأن قرينة الحال التي هي سبب النزول من غمس النصارى أولادهم في الماء الأصفر دلت على ذلك، كما تقول لمن يغرس الأشجار: اغرس كما يغرس فلان، تريد رجلاً يصطنع الكلام.
ينظر: شروح التلخيص (٤/ ٣٠٩)، والإيضاح (٤/ ٢٤) وما بعدها، والإشارات والتنبيهات للجرجاني (٢٦٧)، والمطول (٤٢٣)، ومفتاح العلوم (٤٢٤)، وأنوار الربيع (٢١٠)، وشرح عقود الجمان (١١٠) وما بعدها.

داخلٌ معه تحت الأمرِ وإيثارُ الاسميةِ للإشعار بدوام العبادةِ أو على فعل الإغراء بتقدير القول أي الزمَوا صِبغة الله وقولوا نحن له عابدون فقوله تعالى: ﴿ومن أحسنُ من الله صبغةً﴾ [البقرة، الآية: ١٣٨] حينئذ يجري مَجرى التعليل للإغراء.

﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا﴾ تجريدُ الخطاب للنبي ﷺ عقِبَ الكلام الداخلِ تحت الأمر الواردِ بالخطاب العام لما أن المأمورَ به من الوظائف الخاصةِ به عليه الصلاة والسلام، وقُرئ[1] بإدغام النونِ و[2] الهمزةُ للإنكار والتوبيخ أي أتجادلوننا ﴿في الله﴾ أي في دينه وتدّعون أن دينَه الحقَّ هو اليهوديةُ والنصرانية وتبنون دخولَ الجنة والاهتداءَ عليهما وتقولون تارة (لن يدخلَ الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى) وتارة (كونوا هودًا أو نصارى تهتدوا).

﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ جملة حالية وكذلك ما عليها، أي: أتجادلوننا والحالُ أنه لا وجه للمجادلة أصلًا لأنه تعالى ربُنا، أي: مالكُ أمرنا وأمرِكم ﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا﴾ الحسنةُ الموافقةُ لأمره ﴿وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ السيئةُ المخالفة لحُكمه ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ في تلك الأعمال لا نبتغي بها إلا وجهَه فأنّى لكم المُحاجّةُ، [وادعاء][3] حقية ما أنتم عليه والطمعِ في دخول الجنة بسببه، ودعوةِ الناس إليه.

وكلمة (أم) في قوله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ **إما** معادلة للهمزة في قوله تعالى: ﴿أتحاجوننا﴾ [البقرة، الآية: ١٣٩] داخلةٌ في حيز الأمر على معنى أيَّ الأمرين تأتون إقامةَ الحجة وتنويرَ البرهان على حقية ما أنتم عليه ـ والحال ما ذكر ـ أم التشبّثَ بذيل التقليد والافتراءِ على الأنبياء وتقولون: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ فنحن بهم مقتدون والمرادُ إنكارُ كِلا الأمرين والتوبيخُ عليهما.

**وإما** منقطعةٌ مقدرةٌ بـ (بل) والهمزة دالةٌ على الإضراب والانتقالِ من التوبيخِ على المُحاجة إلى التوبيخ على الافتراء على الأنبياء عليهم السلام.

وقرئ[4] (أم يقولون) على صيغة الغَيْبة، فهي منقطعةٌ لا غير، غيرُ داخلةٍ تحت

---

(١) قرأ بها: زيد بن ثابت، والحسن، والأعمش، وابن محيصن، والمطوعي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٤٨)، والإعراب للنحاس (١/ ٢١٩)، والبحر المحيط (١/ ٤١٢)، وتفسير القرطبي (٢/ ١٤٥)، والكشاف للزمخشري (١/ ٩٨)، والمعاني للأخفش (١/ ١٥٠).

(٢) في المخطوط: في.

(٣) زيادة من المخطوط.

(٤) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وأبو جعفر، ويعقوب.

=

الأمر واردةٌ من جهته تعالى توبيخًا لهم وإنكارًا عليهم لا من جهته عليه السلام على نهج الالتفات كما قيل.

هذا، وأما ما قيل من أن المعنى أتحاجوننا في شأن الله واصطفائِه نبيًا من العرب دونكم؟ لما رُوي أن أهلَ الكتاب قالوا الأنبياءُ كلُهم منا فلو كنت نبيا لكنت منا فنزلت. ومعنى قوله تعالى: ﴿وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ [البقرة، الآية ١٣٩] أنه لا اختصاصَ له تعالى بقوم دون قومٍ يصيب برحمته من يشاء من عباده فلا يبعدُ أن يكرِمنا كما أكرمَكم بأعمالكم كأنه ألزمهم على كل مذهب ينتحلونه إفحامًا وتبكيتًا، فإن كرامة النبوة إما تفضلٌ من الله تعالى على من يشاء فالكل فيه سواء، وإما إفاضةُ حقٍّ على المستحقين لها بالمواظبة على الطاعة والتخلّي بالإخلاص فكما أن لكم أعمالًا ربما يعتبرها الله تعالى في إعطائها فلنا أيضًا أعمالٌ ونحن له مخلصون، أي: لا أنتم، فمَعَ عدم ملاءمتِه لسياق النظم الكريم، و[لا][1] سيما على تقدير كونِ كلمةِ (أم) معادلةً للهمزة غيرُ صحيح في نفسه لما أن المرادَ بالأعمال من الطرفين ما أشير إليه من الأعمال الصالحة والسيئة، ولا ريب في أن أمرَ الصلاحِ والسوءِ يدورُ على موافقة الدين المبنيِّ على البعثة ومخالفته، فكيف يتصور اعتبارُ تلك الأعمال في استحقاق النبوة واستعدادِها المتقدم على البعثة بمراتِبَ.

﴿قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ﴾ إعادةُ الأمر ليس لمجرد تأكيدِ التوبيخ وتشديدِ الإنكار عليهم بل للإيذان بأن ما بعده ليس متصلًا بما قبله بل بينهما كلامٌ للمخاطبين مترتب على ما سبق، مستتبعٌ لما [أنه][2] الحقُّ[3] قد أُضرب[4] عنه الذكر صفحا لظهوره وهو تصريحُهم بما وُبِّخوا عليه من الافتراء على الأنبياء عليهم السلام كما في قوله عز وجل: ﴿قال ومَنْ يقنَطُ من رحمةِ ربه إلا الضَّالون * قال فما خطبُكم أيُّها المُرْسلون﴾ [سورة الحجر، الآية ٥٦ و٥٧] وقولِه عز قائلًا: ﴿قال أأسجُدُ لمن خلقتَ طينًا * قال أرأيتَك هذا الذي كرَّمْتَ علىَّ﴾ [الإسراء، الآية ٦١ و٦٢] فإن

---

= ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٤٩)، والإعراب للنحاس (١/ ٢١٩)، والإملاء للعكبري (١/ ٣٩)، والبحر المحيط (١/ ٤١٤)، والتبيان للطوسي (١/ ٤٨٨)، والتيسير للداني (٧٧)، وتفسير الطبري (٣/ ١٢٢)، وتفسير القرطبي (٢/ ١٤٦)، والحجة لابن خالويه (٨٩)، والحجة لأبي زرعة (١١٥)، والسبعة لابن مجاهد (١٧١)، والغيث للصفاقسي (١٣٩)، والكشاف للزمخشري (١/ ٩٨)، والكشف للقيسي (١/ ٢٦٦)، والمجمع للطبرسي (١/ ٢٢٠)، وتفسير الفخر الرازي (١/ ٥٠٦)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢٢٣).

(١) سقط في ط.
(٢) زيادة من المخطوط.
(٣) في المخطوط: لحق.
(٤) في المخطوط: ضرب.

تكريرَ (قال) في الموضعين وتوسيطَه بين قولي قائلٍ واحد للإيذان بأن بينهما كلامًا لصاحبه متعلقًا بالأول والثاني بالتبعية والاستتباع كما حُرر في محله أي كذِبُهم في ذلك ونُكثُهم قائلًا: إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون وقد نَفَى عن إبراهيم عليه السلام كلا الأمرين حيث قال: ﴿ما كان إبراهيمُ يهوديًّا ولا نَصْرانيًّا﴾ [آل عمران، الآية ٦٧] واحتُج عليه بقوله تعالى: ﴿وما أنزلت التوراةُ والإنجيلُ إلا من بعده﴾ [آل عمران، الآية: ٦٥] وهؤلاء المعطوفون عليه - عليهم السلام - أتباعُه في الدين وِفاقًا فكيف تقولون ما تقولون سبحان الله عما تصفون ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ إنكارٌ لأن يكون أحدٌ أظلم ﴿مِمَنْ كَتَمَ شَهادَةً﴾ ثابتة ﴿عِنْدَهُ﴾ كائنة ﴿مِنَ اللهِ﴾ وهي شهادتُه تعالى له عليه السلام بالحنيفية والبراءةِ من اليهودية والنصرانية حسبما تلي آنفًا، فـ (عنده) صفةٌ لـ (شهادة) وكذا (من الله) جيء بهما لتعليل الإنكار وتأكيدِه فإن ثبوتَ الشهادةِ عنده وكونَها من جانب الله عز وجل من أقوى الدواعي إلى إقامتها وأشدِّ الزواجر عن كِتمانها.

وتقديمُ الأول مع أنه متأخرٌ في الوجود لمراعاة طريقةِ الترقي من الأدنى إلى الأعلى، والمعنى أنه لا أحدَ أظلمُ من أهل الكتاب حيث كتموا هذه الشهادةَ وأثبتوا نقيضَها بما ذُكر من الافتراء.

وتعليقُ الأظلمية بمُطلق الكِتمان للإيماء إلى أن مرتبةَ مَنْ يردُّها ويشهد بخلافها في الظلم خارجةٌ عن دائرة البيان أو لا أحدَ أظلمُ منا لو كتمناها، فالمرادُ بكتمها عدمُ إقامتها في مقامِ المُحاجة، وفيه تعريضٌ بغاية أظلمية أهلِ الكتابِ على نحو ما أشير إليه، وفي إطلاق الشهادة مع أن المرادَ بها ما ذكر من الشهادة المعينةِ تعريضٌ بكتمانها شهادةَ الله عز وجل للنبي ﷺ في التوراة والإنجيل.

﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من فنون السيئاتِ فيدخُل فيها كتمانُهم لشهادته سبحانه وافتراؤهم على الأنبياء عليهم السلام دُخولًا أوليا، أي: هو محيطٌ بجميع ما تأتون وما تذرون فيعاقبُكم بذلك أشدَّ عقاب، وقرئ (عما يعملون) على صيغة الغَيْبة، فالضميرُ إما لـ (من كَتَم) باعتبار المعنى، وإما لأهلِ الكتاب.

وقولُه تعالى: ﴿ومن أظلم﴾ [البقرة، الآية: ١١٤] إلى آخر الآية، مسوقٌ من جهته تعالى لوصفهم بغاية الظلم وتهديدِهم بالوعيد ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسأَلُونَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تكريرٌ للمبالغة في الزجر عما هم عليه من الافتخارِ بالآباء والاتكالِ على أعمالهم وقيل: الخطابُ السابق لهم وهذا لنا تحذيرٌ عن الاقتداء بهم وقيل: المرادُ بالأُمة الأولى الأنبياءُ عليهم السلام، وبالثانيةِ أسلافُ اليهود.

۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُواْ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾ أي الذين خفّت أحلامُهم واستمهنوها بالتقليد والإعراضِ عن التدبر والنظرِ من قولهم ثوبٌ سفيهٌ إذا كان خفيفَ النسج وقيل: السفيهُ البهّاتُ الكذابُ المتعمدُ خلافَ ما يَعلم، وقيل: الظلومُ الجهولُ والمراد بالسفهاء هم اليهودُ على ما رُوي عن ابن عباس ومجاهدٍ رضي الله عنهم قالوه إنكارًا للنسخ، وكراهةً للتحويل حيث كانوا يأنَسون بموافقته عليه الصلاة والسلام لهم في القِبلة الأولى وبُطلان الثانية، إذ ليس كلُّهم من اليهود وقيل: هم المنافقون، وهو الأنسب بقوله - عز وعلا -: ﴿ألا إنهم هم السفهاء﴾ [البقرة: ١٣]، وإنما قالوه لمجرد الاستهزاء والطعن، لا لاعتقادهم حقيقة وقيل: هم المشركون ولم يقولوه كراهة للتحويل إلى مكةَ بل طعنًا في الدين فإنهم كانوا يقولون رغِبَ عن قِبلة آبائه ثم رجَع إليها ولَيَرْجِعَنّ إلى دينهم أيضًا وقيل: هم القادحون في التحويل منهم جميعًا فيكون قوله تعالى: ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ أي الكفرةِ لبيانِ أن ذلك القول المَحْكيّ لم يصدُر عن

كل فردٍ فردٍ من تلك الطوائف الثلاث بل عن أشقيائهم المعتادين للخوض في فنون الفساد وهو الأظهر، إذ لو أريد بهم طائفة مخصوصة منهم لما كان لبيان كونِهم من الناس مزيدُ فائدة، وتخصيصُ سفهائهم بالذكر لا يقتضي تسليمَ الباقين للتحويل وارتضاءَهم إياه بل عدم التفوه بالقدح مطلقًا أو بالعبارة المحكية.

﴿مَا وَلَّاهُمْ﴾ أي أيُّ شيءٍ صرفهم، والاستفهامُ للإنكار والنفي ﴿عَنْ قِبْلَتِهِمُ﴾ القبلة: فِعلة من المقابلة، كالوِجْهة [من المواجهة][1] وهي الحالة التي يقابِلُ الشيءُ غيرَه عليها كالجِلسة للحالة التي يقع عليها الجلوسُ يقال: لا قِبلة له ولا دِبْرَةَ إذا لم يهتدِ لجهة أمرِه، غلَبت على الجهة التي يستقبلها الإنسانُ في الصلاة، والمراد بها هاهنا بيتُ المقدس، وإضافتُها إلى ضمير المسلمين ووصفُها بقوله تعالى: ﴿الَّتِي كانُوا عَلَيْهَا﴾ أي ثابتين مستمرين على التوجه إليها ومراعاتِها واعتقادِ حقّيتِها لتأكيد الإنكار، فإن الاختصاصَ بالشيء والاستمرارَ عليه باعتقاد حقّيتِه مما ينافي الانصرافَ عنه فإن أريد بالقائلين اليهودُ فمدَارُ الإنكارِ كراهتُهم للتحويل عنها وزعمُهم أنه خطأ وإن أريد بهم المشركون فمدارُه مجردُ القصدِ إلى الطعن في الدين والقدحِ في أحكامه، وإظهارُ أن كلا من التوجه إليها والانصرافِ عنها واقعٌ بغير داعٍ إليه لا لكراهتهم الانصرافَ عنها أو التوجهَ إلى مكةَ وتعليقُ الإنكار بما يولّيهم عنها لا بما يوجههم إلى غيرها، مع تلازمهما في الوجود لما أن تركَ الدين القديم أبعدُ عن العقول وإنكارُ سببه أدخلُ لا للإيذان بأن المنكِرين هم اليهودُ بناءً على أن المنكرَ عندهم هو التحويلُ عن خصوصية بيتِ المقدس الذي هو القِبلة الحقَّةُ عندهم لا التوجهُ إلى خصوصية قبلةٍ أخرى أو هم المشركون بناءً على أن المنكرَ عندهم تركُ القبلة القديمةِ على وجه الطعن والقدحِ لا التوجهُ إلى الكعبة لأنه الحقُّ عندهم فإنه بمعزلٍ عن ذلك كيف لا والمنافقون من أحد الفريقين لا محالة، والإخبارُ بذلك قبل الوقوع مع كونه من دلائل النبوة حيث وقع كما أُخبر لتوطين النفوس وإعدادِ ما يُبَكّتُهم فإن مفاجأةَ المكروهِ على النفس أشقُّ وأشدُّ، والجوابُ العتيد لشغَب الخصمِ الألدِّ أردُّ.

وقولُه عز وجل: ﴿قُلْ لله الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ استئناف مبني على السؤال، كأنه قيل: فماذا أقول عند ذلك؟ فقيل: (قل) إلخ أي: لله تعالى ناحيتا الأرضِ أي الجهاتُ كلُّها مُلْكًا ومِلكًا وتصرفًا فلا اختصاصَ لناحيةٍ منها لذاتها بكونها قبلةً دون ما

(١) زيادة من المخطوط.

عداها بل إنما هو بأمر الله سبحانه ومشيئتِه ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أن يهديَه، مشيئةٌ تابعةٌ للحِكَم الخفية التي لا يعلمها إلا هو ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ موصِلٍ إلى سعادة الدين وقد هدانا إلى ذلك حيث أمرنا بالتوجه إلى بيت المقدس تارة وإلى الكعبة أخرى حسبما تقتضيه مشيئتُه المقارِنة لحِكَم أبيّةٍ ومصالِحَ خفية.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ﴾ توجيه للخطاب إلى المؤمنين بين الخطابين المختصين بالرسول ﷺ لتأييد ما في مضمون الكلام من التشريف وذلك إشارةٌ إلى مصدر (جعلناكم) لا إلى جعل آخرَ مفهوم مما سبق كما قيل، وتوحيدُ الكاف مع القصد إلى المؤمنين لِما أن المرادَ مجردُ الفَرْق بين الحاضر والمنقضي دون تعيين المخاطبين، وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلوِّ درجةِ المشار إليه وبُعدِ منزلتِه في الفضل وكمالِ تميُّزه به وانتظامِه بسببه في سلك الأمور المشاهدة، والكاف: لتأكيد ما أفاده اسمُ الإشارة من الفخامة ومحلُها في الأصل النصبُ على أنه نعتٌ لمصدر محذوفٍ وأصلُ التقدير: جعلناكم أمة وسَطًا جَعْلًا كائنًا مثل ذلك الجعلِ فقُدّم على الفعل لإفادة القصْر، واعتُبرت الكاف مُقحَمَةً للنكتة المذكورةِ فصار نفسَ المصدر المؤكدِ لا نعتًا له أي ذلك الجعلَ البديعَ جعلناكم ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ لا جعلًا آخرَ أدنى منه والوسَطُ في الأصل اسمٌ لما يستوي نِسبةُ الجوانبِ إليه كمركز الدائرة ثم استُعير للخصال المحمودةِ البشرية[1] لكن لا لأن الأطرافَ يتسارع إليها الخللُ والإعوازُ، والأوساطُ محميّةٌ مَحوطَةٌ كما قيل، واستُشهد عليه بقول ابن أوسٍ الطائي: [البسيط]

كانت هي الوسَطَ المَحْمِيَّ فاكتَنَفَتْ بها الحوادثُ حتى أصبحت طَرَفا[2]

فإن تلك العلاقةَ بمعزل من الاعتبار في هذا المقام إذ لا ملابَسةَ بينها وبين أهليةِ الشهادة التي جُعلت غايةً للجعل المذكور لكون تلك الخصالِ أوساطًا للخصال الذميمةِ المكتنفة بها من طرفي الإفراطِ والتفريطِ كالعِفة التي طرفاها الفجورُ والخمودُ، وكالشجاعة التي طرفاها التهوّرُ والجُبن وكالحِكمة التي طرفاها الجريرةُ والبَلادةُ وكالعدالة التي هي كيفية متشابهةٌ حاصلةٌ من اجتماع تلك الأوساط المحفوفة بأطرافها، ثم أطلقَ على المتصِّف بها مبالغةً كأنه نفسُها. وسُوّي فيه بين المفرد والجمعِ والمذكرِ والمؤنث رعايةً لجانب الأصلِ كدأب سائر الأسماءِ التي يوصف بها، وقد روُعيت هاهنا نُكتةٌ رائقةٌ هي أن الجعلَ المشارَ إليه عبارةٌ عما تقدم ذكرُه من

---

(١) وذلك حيث أطلق الملزوم وأراد اللازم، والاستعارة على هذا استعارة تصريحية تبعية.
ينظر في الاستعارة: المفتاح للسكاكي (٣٨٠) وما بعدها، وشروح التلخيص (٤/ ٥٦) وما بعدها.

(٢) ينظر: ديوانه ص (١٩٢)، والكشاف (١/ ٣١٧)، والدر المصون (١/ ٣٩٢).

هدايته تعالى إلى الحق الذي عبَّر عنه بالصراط المستقيم الذي هو الطريقُ السويُّ الواقعُ في وسط الطرُق الجائرةِ عن القصد إلى الجانبين، فإنا إذا فرضنا خطوطًا كثيرةً واصلةً بين نُقطتين متقابلتين فالخطُ المستقيم إنما هو الخطُ الواقعُ في وسط تلك الخطوطِ المنحنية، ومن ضرورة كونِه وسطًا بين الطرُق الجائرةِ كونُ الأمةِ المَهْديّة إليه أمةً وسطًا بين الأمم السالكة إلى تلك الطرق الزائغة أي متصفةً بالخصال الحميدةِ خيارًا وعدُولًا مُزَكَّيْنَ بالعلم والعمل.

﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ بأن الله عز وجل قد أوضح السبُل وأرسل الرُسل فبلّغوا ونصَحوا وذكّروا فهل من مُدَكّرٍ وهي غاية للجعل المذكور مترتبةٌ عليه فإن العدالة كما أشير إليه حيث كانت هي الكيفيةُ المتشابهةُ المتألّفةُ من العفة التي هي فضيلةُ القوة الشَّهْوية البهيمية والشجاعة التي هي فضيلةُ القوةِ الغضبيةِ السَّبُعية، والحكمة التي هي فضيلةُ القوةِ العقلية المَلَكية المشارِ إلى رتبتها بقوله عز وعلا: ﴿ومنْ يؤتَ الحكمةَ فقد أوتيَ خيرًا كثيرًا﴾ [البقرة، الآية ٢٦٩] كان المتّصِفُ بها واقفًا على الحقائقِ المودَعةِ في الكتاب المبين المنطوي على أحكام الدين وأحوالِ الأممِ أجمعين حاويًا بالشرائط الشهادةَ عليهم.

رُوي أن الأممَ يوم القيامة يجحدون تبليغَ الأنبياءِ عليهم السلام فيطالبهم الله تعالى بالبينة وهو أعلم، إقامةً للحجة على المنكرين وزيادةً لخِزْيهم بأن كذَّبهم مَنْ بعدهم من الأمم فيؤتىٰ بأمةِ محمدٍ ﷺ فيشهدون فيقول الأممُ: من أين عرفتم؟ فيقولون: علمنا ذلك بإخبار الله تعالى في كتابه الناطقِ على لسان نبيِّه الصادقِ، فيؤتىٰ عند ذلك بالنبي ﷺ ويُسأل عن حال أمته فيزكِّيهم ويشهَد بعدالتها[1]، وذلك قولُه عز قائلًا: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُم شَهِيدًا﴾ وكلمةُ الاستعلاءِ لما في الشهيد من معنى الرقيب والمهيمِن، وقيل: لتكونوا شهداءَ على الناس في الدنيا فيما لا يُقبل فيه الشهادةُ إلا من العدول الأخيار، وتقديمُ الظرف للدلالة على اختصاص شهادتِه عليه السلام بهم

(١) أخرجه ابن جرير (٣/ ١٥١) رقم (٢١٩٢) عن زيد بن أسلم، أن قوم نوح يقولون يوم القيامة: لم يبلغنا نوح، فيدعى نوح - عليه السلام - فيسأل: هل بلغتهم؟ فيقول: نعم فيقال: من شهودك؟ فيقول: أحمد ﷺ وأمته، فتدعون فتسألون فتقولون: نعم قد بلغهم، فتقول قوم نوح -عليه السلام-: كيف تشهدون علينا ولم تدركونا؟ قالوا: قد جاء نبي الله ﷺ فأخبرنا أنه قد بلغكم، وأنزل عليه أنه قد بلغكم فصدقناه، قال فيصدق نوح - عليه السلام - ويكذبونهم. قال: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾. ورواه ابن جرير (٨/ ٣٦٩) رقم (٩٥١٥)، عن السدي نحوه في تفسير سورة النساء الآية (٤١).

﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ جُرِّد الخطابُ للنبي ﷺ رمزًا إلى أن مضمونَ الكلام من الأسرار الحقيقةِ بأن تُخَصَّ معرفتُه بها عليه السلام وليس الموصولُ صفةً للقِبلة بل هو مفعولٌ ثانٍ للجعل، وما قيل من أن الجعلَ تحويلُ الشيء من حالة إلى أخرى فالملتبسُ بالحالة الثانية هو المفعول الثاني كما في قولك: جعلتُ الطينَ خَزَفًا فينبغي أن يكون المفعولُ الأول هو الموصولَ والثاني هو القِبلةَ فهو كلامٌ صناعي ينساق إليه الذهن بحسب النظرِ الجليلِ، ولكنَّ التأملَ اللائقَ يهدي إلى العكس فإن المقصودَ إفادتُه أنه ليس جعلَ الجهة قبلةً لا غيرُ كما يفيده ما ذُكر بل هو جعلُ القبلةِ المحققةِ الوجود هذه الجهةَ دون غيرِها والمرادُ بالموصولِ هي الكعبةُ فإنه عليه الصلاة والسلام كان يصلي إليها أولًا ثم لما هاجرَ أُمِرَ بالصلاة إلى الصخرة تألّفًا لليهود، أو هي الصخرةُ لِما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما من أن قِبلته عليه السلام بمكة كانت بيتَ المقدس إلا أنه كان يجعلُ الكعبةَ بينه وبينه[1] وعلى هذه الرواية لا يمكن أن يرادَ بالقبلة الأولى الكعبةُ، وأما الصخرةُ فيتأتّىٰ إرادتُها على الروايتين، والمعنى على الأول وما جعلنا القِبلة الجهةَ التي كنت عليها [أتردني إليه، وهي الكعبة، وعلى الثاني: وما جعلناها التي كنت عليها][2] قبل هذا الوقت وهي الصخرة ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ استثناءٌ مفرَّغٌ من أعم العلل أي وما جعلنا ذلك الشيء من الأشياء إلا لنمتحنَ الناسَ أي نعاملهم معاملةَ من يمتحنُهم ونعلم حينئذ ﴿مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾ في التوجّه إلى ما أُمر به من الدين أو القِبلة[3]، والالتفاتِ إلى القبلة مع إيراده عليه السلام بعنوان الرسالة للإشعار بعلة الاتباع ﴿مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ يرتدُّ عن دين الإسلامِ أو لا يتوجه إلى القِبلة الجديدة أو لَنعلمَ الآن من يتبعُ الرسولَ ممن لا يتبعُه وما كان لعارضٍ يزول بزواله، وعلى الأول ما رددناك إلى ما كنت عليه إلا لنعلم الثابتَ على الإسلام والناكصَ على عَقِبيه لقلقه وضعفِ إيمانِه.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٣٢٥)، والبزار في المسند( ١/ ٢١٠، ٢١١) رقم (٤١٨- كشف)، والطبراني في المعجم الكبير (١١/ ٦٧) رقم (٦٦-١١) ، من حديث مجاهد عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ يصلي وهو بمكة نحو بيت المقدس، والكعبة بين يديه، وبعدما هاجر ستة عشر شهرًا، ثم انصرف إلى الكعبة».
واللفظ للطبراني في الكبير.
وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/ ٩٢) لابن راهويه في مسنده، وابن سعد في الطبقات.

(٢) زيادة في المخطوط.

(٣) في المخطوط: الغيبة.

والمرادُ بالعلم: ما يدور عليه فَلَكُ الجزاءِ من العلم الحالي، أي: ليتعلّق علمُنا به موجودًا بالفعلِ، وقيل: المرادُ علمُ الرسولِ عليه السلام والمؤمنين، وإسنادُه إليه سبحانه لما أنعم على خواصه وليتميَّزَ الثابتَ عن المتزلزل، كقوله تعالى: ﴿ليَميزَ الله الخبيثَ من الطيب﴾ [الأنفال، الآية ٣٧] فوضَع العلمَ موضِعَ التمييزِ الذي هو مسبَّبٌ عنه، ويشهد له قراءةُ[١] (ليُعْلَمَ) على بناء المجهول من صيغة الغَيبة، والعلمُ إما بمعنى المعرفة أو متعلقٌ بما في «مَنْ» من معنى الاستفهام، أو مفعوله الثاني (ممن ينقلب) إلخ، أي: لنعلم من يتبعُ الرسولَ متميِّزًا ممن ينقلب على عقبيه.

﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ أي شاقة ثقيلة، و(إنْ) هي المخففةُ من الثقيلة دخَلتْ على ناسخ المبتدأ والخبر، واللامُ هي الفارقةُ بينها وبين النافية كما في قوله تعالى: ﴿إن كان وعدُ ربِّنا لمفعولا﴾ [الإسراء، الآية ١٠٨] وزعم الكوفيون أنها نافية واللام بمعنى إلا، أي: ما كانت إلا كبيرة، والضميرُ الذي هو اسم كان راجعٌ إلى ما دل عليه قوله تعالى: ﴿وما جعلنا القِبلةَ التي كنتَ عليها﴾ [سورة البقرة، الآية ١٤٣] من الجعلة أو التولية أو التحويلة أو الردة أو القِبلة.

وقرئ[٢] (لكبيرةٌ) بالرفع على أن (كان) مزيدة كما في قوله: [الوافر]

..... ..... ..... وإخوانٍ لنا كانوا كرام[٣]

وأصله وإنْ هي لكبيرةٌ كقوله: إن زيدٌ لمنطلقٌ[٤] ﴿إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَىٰ اللهُ﴾ أي إلى سرِّ الأحكام الشرعية المبنيةِ على الحِكَمَ والمصالح إجمالًا وتفصيلًا وهم

---

(١) قرأ بها: الزهري.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢٢٠)، والبحر المحيط (٢/ ٤٢٤)، وتفسير القرطبي (٢/ ١٥٧).

(٢) قرأ بها: اليزيدي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٤٩)، والبحر المحيط (١/ ٤٢٥)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٠٠).

(٣) عجز بيت وصدره:
فكيف إذا رأيت ديار قوم ..... ..... .....
وهو للفرزدق في ديوانه (٢/ ٢٩٠)، والأزهية، ص (١٨٨)، وتخليص الشواهد، ص (٢٥٢)، وخزانة الأدب (٩/ ٢١٧، ٢٢١، ٢٢٢) وشرح التصريح (١/ ١٩٢)، والكتاب (٢/ ١٥٣)، وشرح شواهد المغني (٢/ ٦٩٣)، ولسان العرب (١٣/ ٣٧٠) (كنن)، والمقاصد النحوية (٢/ ٤٢)، والمقتضب (٤/ ١١٦)، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر (١/ ١٦٥)، وأوضح المسالك (١/ ٢٥٨) ولسان العرب (١٣/ ٣٦٧) (كون)، ومغني اللبيب (١/ ٢٨٧)، والصاحبي في فقه اللغة، ص (١٦١).

(٤) زاد في المخطوط: للقبلة.

المهديّون إلى الصراط المستقيم الثابتون على الإيمان واتباع الرسول عليه السلام: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي ما صحَّ وما استقام له أن يُضيعَ ثباتَكم على الإيمان بل شكرَ صنيعَكم وأعدَّ لكم الثوابَ العظيمَ وقيل: إيمانَكم بالقِبلة المنسوخةِ وصلاتَكم إليها لما رُوي أنه عليه السلام لما توجّه إلى الكعبة قالوا: كيف حالُ إخوانِنا الذين مضَوْا وهم يصلون إلي بيت المقدس؟ فنزلت[1]. واللام في (لِيُضيعَ) إما متعلقةٌ بالخبر المقدر لـ (كان) كما هو رأيُ البَصْرية وانتصابُ الفعل بعدها بأن المقدرة، أي: ما كان الله مريدًا أو متصديًا لأن يُضيعَ إلخ ففي توجيه النفي إلى إرادة الفعل تأكيدٌ ومبالغةٌ ليس في توجيهه إلى نفسه، وإما مزيدةٌ للتأكيد ناصبةٌ للفعل بنفسها كما هو رأيُ الكوفية، ولا يقدح في ذلك زيادتُها كما لا يقدح زيادةُ حروفِ الجر في عملها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءوفٌ رَحِيمٌ﴾ تحقيقٌ وتقريرٌ للحُكم وتعليلٌ له، فإن اتصافَه عز وجل بهما يقتضي لا محالة أن لا يُضيعَ أجورَهم ولا يدَعَ ما فيه صلاحُهم، والباءُ متعلقةٌ بـ (رؤوف)، وتقديمُه على (رحيم) مع كونه أبلغَ منه لما مر في وجه تقديمِ (الرحمٰن) على (الرحيم)، وقيل: الرحمة أكثرُ من الرأفة في الكمية والرأفةُ أقوى منها في الكيفية لأنها عبارة عن إيصال النعم الصافية من الآلام، والرحمةُ إيصالُ النعمة مطلقًا وقد يكون مع الألم كقطعِ العضوِ المتأكّل.

وقرئ[2] (رَؤُفٌ) بغير مد كـ (ندس).

---

(١) أخرجه أبو داود (٢/ ٦٣١) كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، حديث (٤٦٨٠)، والترمذي (٥/ ٢٠٨) كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة البقرة حديث (٢٩٦٤)، وابن حبان (٤/ ٦٢١) رقم (١٧١٧)، والحاكم (٢/ ٢٦٩).
والدارمي(١/ ٢٨١) كتاب الصلاة، باب تحويل القبلة، وأحمد في المسند (١/ ٢٩٥، ٣٠٤، ٣٢٢، ٣٤٧).
وقال الحاكم:
«هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». ا هـ.

(٢) قرأ بها: أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وعاصم، وأبو بكر، وخلف، ويعقوب، واليزيدي، والمطوعي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٤٩)، الإعراب للنحاس (١/ ٢٢٠)، والبحر المحيط (١/ ٤٢٧)، والتبيان للطوسي (٢/ ٥)، والتيسير للداني (٧٧)، وتفسير الطبري (٣/ ١٧٢)، وتفسير القرطبي (٢/ ١٥٨)، والحجة لابن خالويه (٨٩، ٩٠)، والحجة لأبي زرعة (١١٦)، والسبعة لابن مجاهد (١٧١)، والغيث للصفاقسي (١٤٢)، والكشف للقيسي (١/ ٢٦٦)، والمجمع للطبرسي (١/ ٢٢٣)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ١٣)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢٢٣).

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ أي تردُّدَه وتصرُّفَ نظرِك في جهتها تطلعًا للوحي وذلك أن رسول الله ﷺ كان يقع في رُوعه ويتوقعُ من ربه عز وجل أن يحوله إلى الكعبة لأنها قِبلةُ إبراهيمَ وأدعىٰ للعرب إلى الإيمان لأنها مفخرتُهم ومزارُهم ومَطافُهم ولمخالفة اليهود، فكان يُراعي نزولَ جبريلَ بالوحي بالتحويل.

﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً﴾ الفاء للدلالة على سببية ما قبلها لما بعدها وهي في الحقيقة داخلةٌ على قسمٍ محذوف يدل عليه اللام أي فوالله لنولِّينَّك أي لنُعطِينَّكها ولنُمَكِّنَنَّك من استقبالها من قولك: ولَّيتُه كذا أي صيّرته واليًا له أو: لنَجْعَلَنك تلي جِهتَها أو لنُحَوِّلنَّك على أن نَصْبَ (قبلةً) بحذف الجار أي إلى قبلة وقيل: هو متعدٍ إلى مفعولين ﴿تَرْضَاهَا﴾ تحبها وتشتاق إليها لمقاصدَ دينيةٍ وافقتْ مشيئتَه تعالى وحِكْمتَه ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ الفاء لتفريع الأمرِ بالتولية على الوعد الكريم، وتخصيصُ التوليةِ بالوجه لما أنه مدارُ التوجه ومعيارُه وقيل: المرادُ به كلُّ البدنِ أي فاصرِفْه ﴿شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي نحوَه وهو نصبٌ على الظرفية من (نولِّي) أو على نزع الخافض أو على أنه مفعول ثانٍ له، وقيل: الشطرُ في الأصل اسمٌ لما انفصل من الشيء، ودارٌ شَطورٌ إذا كانت منفصلةً عن الدور، ثم استعمل لجانبه وإن لم ينفصِلْ كالقطر، والحرامُ المُحرَّم أي محرم فيه القتالُ أو ممنوعٌ من الظَلَمة أن يتعرضوا له، وفي ذكر المسجد الحرامِ دون الكعبة إيذانٌ بكفاية مراعاةِ الجهةِ لأن في[1] مراعاةِ العينِ من البعيد حرجًا عظيمًا بخلاف القريب.

رُوي عن البراء بن عازبٍ[2] أن نبي الله ﷺ قدِم المدينةَ فصلَّى نحوَ بيتِ المقدس ستةَ عشرَ شهرًا ثم وُجِّه إلى الكعبة[3] وقيل: كان ذلك في رجبٍ بعد زوال الشمسِ

---

(١) في المخطوط: فيه.

(٢) هو: البراء بن عازب بن الحارث بن عدي بن مجدعة بن حارثة الأوسي، أبو عمارة الصحابى ابن الصحابي، نزل الكوفة، ذكر ابن قانع في معجم الصحابة أنه غزا مع النبي ﷺ (خمس عشرة) غزوة. وقال ابن عبد البر: هو الذى افتتح الري، وقيل: هو الذي أرسل النبي ﷺ معه السهم إلى قليب الحديبية، فجاش بالري، والمشهور أن ذلك ناجية بن جندب، قال: وأول مشاهده أحد.
ينظر: تهذيب الكمال (٤/ ٣٤)، تقريب التهذيب (١/ ٩٤)، خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (١/ ١٢٠).

(٣) أخرجه البخاري (٢/ ٦٠) كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان. حديث (٣٩٩)، وأطرافه في (٤٠، ٤٤٨٦، ٤٤٩٢، ٧٢٥٢) ومسلم (٣/ ١، ١٣- نووي) كتاب المساجد، باب تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة حديث (٥٢٥)، والترمذي (٢/ ١٦٩) كتاب أبواب الصلاة، باب: ما جاء في ابتداء القبلة، حديث (٣٤٠)، (٥/ ١٩١)، كتاب التفسير حديث (٢٩٦٢)، وابن ماجه (١/ ٣٢٢) كتاب إقامة الصلاة، باب القبلة حديث (٢٩٦٢)، وابن ماجه (١/ ٣٢٢) كتاب إقامة الصلاة، باب =

قبل قتال بدرٍ بشهرين ورسولُ الله ﷺ في مسجد بني سَلَمة وقد صلى بأصحابه ركعتين من صلاة الظهر فتحوَّل في الصلاة واستقبل الميزاب وحوّل الرجالَ مكانَ النساء والنساءَ مكانَ الرجال فسُمِّيَ المسجدُ مسجدَ القِبلتين[(١)].

﴿وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ خُصَّ الرسولُ ﷺ بالخطاب تعظيمًا لجنابه وإيذانًا بإسعاف مرامِه ثم عُمّم الخطابُ للمؤمنين مع التعرُّض لاختلاف أماكنِهم تأكيدًا للحُكم وتصريحًا بعُمومه لكافة العباد من كل حاضِرٍ وبادٍ وحثا للأمة على المتابعة، و(حيثما) شرطية و(كنتم) في محل الجزاء بها.

وقوله تعالى: ﴿فولوا﴾ [البقر، الآيتان: ١٤٤، ١٥٠] جوابُها، وتكون هي منصوبةً على الظرفية بـ (كنتم) نحوُ قوله تعالى: ﴿أيًا ما تدعوا فله الأسماءُ الحسنى﴾ [الإسراء، الآية ١١٠] ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ من فريقي اليهود والنصارى ﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾ أي التحويل أو التوجهَ المفهومَ من التولية ﴿الْحَقُّ﴾ لا غيرُ لعلمهم بأن عادتَه سبحانه وتعالى جاريةٌ على تخصيص كلِّ شريعةٍ بقِبلة ومعاينتِهم لما هو مسطورٌ في كتبهم من أنه عليه الصلاة والسلام يصلِّي إلى القِبلتين كما يُشعر بذلك التعبيرُ عنهم بالاسم الموصول بإيتاء الكتاب، وأن مع اسمها وخبرِها سادٌ مسدَّ مفعولي (يعلمون) أو مسدَّ مفعولِه الواحد على أن العلم بمعنى المعرفة، وقولُه تعالى: ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ متعلقٌ بمحذوفٍ وقع حالًا من الحق أي: كائنًا من ربهم أو صفةً له على رأي من يجوِّز حذفَ الموصول مع بعض صلتِه، أي: الكائنَ من ربهم ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ وعد ووعيد للفريقين، والخطابُ للكل تغليبًا.

وقرئ[(٢)] على صيغة الغَيْبة فهو وعيدٌ لأهل الكتاب.

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ وضْعُ الموصولِ موضِعَ المضمرِ للإيذان بكمال

---

= القبلة حديث (١٠١٠)، وابن حبان في صحيحه (٤/ ٦١٧، ٦١٨) رقم (١٧١٦)، وأحمد في المسند (٤/ ٢٨٣، ٢٨٨، ٢٨٩، ٣٠٤)، والبيهقي في السنن (٢/ ٢) كتاب الصلاة، باب: تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، وابن خزيمة في صحيحه مختصرًا (١/ ٢٢٢) رقم (٤٢٨)، والدارقطني (١/ ٢٧٣)، وابن الجارود في المنتقى رقم (١٦٥)، والبغوي في شرح السنة (٢/ ٩٥) رقم (٤٤٥).

(١) ينظر: الحديث السابق.

(٢) قرأ بصيغة الخطاب: ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو جعفر، وروح والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٥٠)، والبحر المحيط (١/ ٤٣٠)، والتبيان للطوسي (٢/ ١٣)، والتيسير للداني (٧٧)، وتفسير القرطبي (٢/ ١٦١)، والحجة لأبي زرعة (١١٦)، والغيث للصفاقسي (١٤٢)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٠١)، والكشف للقيسي (١/ ٢٦٨)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٢٣)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢٢٣).

سوءِ حالِهم من العناد مع تحقيق ما يُرْغِمُهم منه من الكتاب الناطق بحقِّية ما كابروا في قبوله ﴿بِكُلِّ آيَةٍ﴾ أي حجةٍ قطعيةٍ دالةٍ على حقية التحويل، واللامُ موطئة للقسم، وقولُه تعالى: ﴿مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ جوابٌ للقسم المضمَر سادٌّ مسدَّ جوابِ الشرط، والمعنى: أنهم ما تركوا قبلَتك لشُبهةٍ تُزيلها الحجةُ وإنما خالفوك مكابرةً وعِنادًا، وتجريدُ الخطاب للنبيِّ ﷺ بعد تعميمِه للأمة لما أن المُحاجةَ والإتيانَ بالآية من الوظائف الخاصة به عليه السلام.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتهم﴾ جملةٌ معطوفةٌ على الجملة الشرطية لا على جوابها، مسوقةٌ لقطع أطماعِهم الفارغةِ حيث قالت اليهودُ لو ثبتَّ على قبلتنا لكنا نرجو أن تكون صاحبَنا الذي ننتظرُه تغريرًا له عليه الصلاة والسلام وطمعًا في رجوعه، وإيثارُ الجملة الاسميةِ للدلالة على دوامِ مضمونِها واستمرارِه، وإفراد (قبلتَهم) مع تعدُّدِها باعتبار اتحادِها في البُطلان ومخالَفةِ الحق، ولئلا يُتوَهّم أن مدارَ النفي هو التعدُّدُ.

وقرئ[1] (بتابعِ قبلتِهم) على الإضافة ﴿وما بعضُهم بتابعٍ قبلةَ بعض﴾ فإن اليهودَ تستقبلُ الصخرةَ والنصارى مطلِعَ الشمس، ولا يُرجىٰ توافقُهم كما لا يُرجىٰ موافقتُهم لك لتصلُّب كلِّ فريقٍ فيما هو فيه.

﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾ الزائغةَ المتخالفة ﴿من بعد ما جاءك من العلم﴾ ببطلانها وحقّيةِ ما أنت عليه. وهذه الشرطيةُ الفرَضية واردةٌ على منهاج التهييج والإلهابِ للثبات على الحق أي ولئن اتبعت أهواءَهم فرضًا ﴿إنك إذًا لمن الظالمين﴾ وفيه لطفٌ للسامعين وتحذيرٌ لهم عن متابعة الهوى فإن مَنْ ليس من شأنه ذلك إذا نُهِيَ عنه ورُتِّبَ على فرض وقوعِه ما رُتِّبَ من الانتظام في سِلكِ الراسخين في الظلم فما ظنُّ من ليس كذلك؟ و(إذن) حرفُ جوابٍ وجزاءٍ توسطت بين اسم (إن) وخبرِها لتقرير ما بينهما من النسبة إذ كان حقُها أن تتقدمَ أو تتأخر فلم تتقدمْ لئَلا يُتوَهَّم أنها لتقرير النسبةِ التي بين الشرط وجوابِه المحذوفِ لأن المذكورَ جوابُ القسم ولم تتأخرْ لرعاية الفواصل، ولقد بولغ في التأكيد من وجوهٍ تعظيمًا للحق المعلومِ وتحريضًا على اقتفائه وتحذيرًا عن متابعة الهوىٰ واستعظامًا لصدورِ الذنبِ من الأنبياء عليهم السلام.

﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ أي علماؤُهم إذْ هم العمدةُ في إيتائه، ووضعُ الموصول موضعَ المضمرِ مع قرب العهد للإشعار بعلّية ما في حيز الصلةِ للحكم، والضميرُ

---

(١) ينظر: البحر المحيط (١/ ٤٣٢)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٠١).

المنصوبُ في قوله تعالى: ﴿يعرفونه﴾ للرسول ﷺ والالتفاتُ إلى الغَيبة للإيذان بأن المراد ليس معرفتَهم له عليه السلام من حيث ذاتُه ونسبُه الزاهرُ بل من حيث كونُه مسطورًا في الكتاب منعوتًا فيه بالنعوت التي من جملتها: أنه عليه السلام يصلي إلى القبلتين، كأنه قيل: الذين آتيناهم الكتابَ يعرِفون مَنْ وصفناه فيه. وبهذا يظهر جزالةُ النظم الكريم.

وقيل: هو إضمارٌ قبل الذكر للإشعار بفخامة شأنِه عليه الصلاة والسلام أنه عِلْمٌ معلوم بغير إعلامٍ فتأمل، وقيل: الضميرُ للعلم أو سببِه الذي هو الوحيُ أو القرآنُ أو التحويل، ويؤيدُ الأولَ قولُه عز وجل: ﴿كما يعرفون أبناءهم﴾ أي يعرِفونه عليه الصلاة والسلام بأوصافه الشريفة المكتوبة في كتابهم، ولا يشتبِهُ عليهم كما لا يشتبه أبناؤُهم، وتخصيصُهم بالذكر دون ما يعم البناتِ لكونهم أعرفَ عندهم منهن بسبب كونِهم أحبَّ إليهم.

عن عمرَ رضي الله عنه أنه سأل عبد اللّه بنَ سلام رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ فقال: أنا أعلم به مني بأبني قال: ولِمَ؟ قال: لأني لست أشكُّ فيه أنه نبي، فأما ولدي فلعل والدتَه خانت فقبّل عمرُ رأسه رضي الله عنهما[(١)].

﴿وإن فريقًا منهم ليكتُمون الحقَّ وهم يعلمون﴾ هم الذين كابروا وعاندوا الحقَّ والباقون هم الذين آمنوا منهم فإنهم يُظهرون الحقَّ ولا يكتُمونه، وأما الجهلةُ منهم فليست لهم معرفةٌ بالكتاب ولا بما في تضاعيفه، فما هم بصدد الإظهارِ ولا بصدد الكَتْم وإنما كفرُهم على وجه التقليد.

﴿الحقُّ﴾ بالرفع على أنه مبتدأ، وقولُه تعالى: ﴿من ربك﴾ خبرُه واللامُ للعهد والإشارةِ إلى ما عليه النبي ﷺ أو إلى الحقِّ الذي يكتُمونه أو للجنس، والمعنى: أن الحقَّ ما ثبت أنه من الله تعالى كالذي أنت عليه لا غيرُه كالذي عليه أهلُ الكتاب أو على أنه خبر مبتدإٍ محذوفٍ، أي: هو الحقُّ.

وقولُه تعالى: ﴿من ربك﴾ إما حالٌ أو خبرٌ بعد خبر، وقرئ[(٢)] بالنصب على أنه بدلٌ من الأول، أو مفعولٌ لـ (يعلمون). وفي التعرُّض لوصف الربوبيةِ مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام من إظهار اللطفِ به عليه السلام ما لا يخفى ﴿فلا تكونَنَّ من

---

(١) ذكره المناوي في «الفتح السماوي» (١/ ١٩٥) وقال: أخرجه الثعلبي من حديث ابن عباس.

(٢) قرأ بها: علي بن أبي طالب.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٢٢٢)، والإملاء للعكبري (١/ ٤٠)، والبحر المحيط (١/ ٤٣٦)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٠٢)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٢٧).

الممترين﴾ أي الشاكّين في كتمانهم الحقَّ عالمين به وقيل في أنه من ربك، وليس المرادُ: نهيَ[١] الرسول ﷺ عن الشك لأنه غيرُ متوقعٍ منه عليه الصلاة والسلام وليس بقصد واختيار بل إما تحقيقُ الأمر وأنه بحيث لا يشك فيه ناظر، أو أمرُ الأمةِ باكتساب المعارف المزيحة للشك على الوجه الأبلغ.

﴿ولكلٍ﴾ أي ولكل أمةٍ من الأمم، على أن التنوين عوضٌ من المضاف إليه ﴿وجهةٌ﴾ أي قِبلة، وقد قرئ[٢] كذلك أو لكل قومٍ من المسلمين جانبٌ من جوانب الكعبة ﴿هو مولِّيها﴾ أحدُ المفعولين محذوفٌ أيَ موليها وجهَه أو الله موليها إياه وقرئ[٣] (ولكلٍّ وِجهةٍ) بالإضافة والمعنى ولكلٍّ وجهةٌ الله مولِّيها أهلَها واللام مزيدة للتأكيد وجبرِ ضعفِ العامل، وقرئ[٤] (مولاها) أي مَوْلىٰ تلك الجهةِ قد وَلِيهَا ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ أي تسابقوا إليها بنزع الجار كما في قوله: [الطويل]

ثنائي عليكم آلَ حربٍ ومنْ يمِلْ سواكم فإني مهتدٍ غيرُ مائلِ[٥]

وهو أبلغ من الأمر بالمسارعة لما فيه من الحث على إحراز قصَبِ السبْقِ والمرادُ بالخيرات جميعُ أنواعِها من أمر القِبلة وغيرِه مما يُنال به سعادةُ الدارين أو الفاضلاتُ من الجهات وهي المسامتة للكعبة ﴿أينما تكونُوا يأتِ بكُم الله جَمِيعًا﴾ أي في أيِّ موضعٍ تكونوا من موافِقٍ أو مخالفٍ مجتمعِ الأجزاء أو متفرقِها يحشُرُكم الله تعالى إلى المَحْشَر للجزاء، أو أينما تكونوا من أعماق الأرضِ وقُلل الجبال يقبضُ أرواحَكم، أو أينما تكونوامن الجهات المختلفةِ المتقابلةِ يجعلُ صلواتكم كأنها صلاةٌ إلى جهة

---

(١) في المخطوط: بنهي.

(٢) قرأ بها: أبي.
ينظر: البحر المحيط (١/ ٤٣٧)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٠٢).

(٣) قرأ بها: ابن عامر.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ٤٠)، و البحر المحيط (١/ ٤٣٧)، وتفسير الطبري (٣/ ١٩٥)، الكشاف للزمخشري (١/ ١٠٢)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٢٨).

(٤) قرأ بها: ابن عامر، وابن عباس، وأبو رجاء، عاصم، وأبو بكر، والذماري، وشريح، ومحمد بن علي الباقر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٥٠)، والإملاء للعكبري (١/ ٤٠)، والبحر المحيط (١/ ٤٣٧)، والتبيان للطوسي (٢/ ٢٣)، والتيسير للداني (٧٧)، وتفسير القرطبي (٢/ ١٦٤)، والحجة لابن خالويه (٩٠)، والحجة لأبي زرعة (١١٧)، والسبعة لابن مجاهد (١٧١)، والغيث للصفاقسي (١٤٣)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٠٢)، والكشف للقيسي (١/ ٢٦٧)، والمجمع للطبرسي (١/ ٢٣٠)، والمعاني للفراء (١/ ٨٥)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٢٧)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢٢٣).

(٥) ينظر: البحر المحيط (١/ ٦١٢)، والدر المصون (١/ ٤٠٧)، واللباب في علوم الكتاب (٣/ ٥٩).

واحدة ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ فيقدِر على الإماتة والإحياء والجمعِ، فهو تعليل للحكم السابق.

﴿ومن حيث خرجت﴾ تأكيدٌ لحكم التحويل وتصريحٌ بعدم تفاوت الأمرِ في حالتي السفر والحضَر و(منْ) متعلقة بقوله تعالى: ﴿فولِّ﴾ أو بمحذوفٍ عُطف هو عليه، أي: من أيِّ مكان خرجت إليه للسفر (فولِّ) ﴿وجهك﴾ عند صلاتك ﴿شطرَ المسجد الحرام﴾ أو افعل ما أُمرت به من أي مكانٍ خرجت إليه (فول) إلخ ﴿وإنه﴾ أي هذا الأمرَ ﴿للحقُّ من ربك﴾ أي الثابتُ الموافق للحِكمة ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ فيجازيكم بذلك أحسنَ جزاءٍ فهو وعدٌ للمؤمنين.

وقرئ[1] (يعملون) على صيغة الغيبة فهو وعيد للكافرين ﴿ومن حيث خرجت﴾ إليه في أسفارك ومغازيك من المنازل القريبةِ والبعيدةِ ﴿فولِّ وجهَك شطرَ المسجد الحرام﴾ الكلام فيه كما مر آنفًا.

﴿وحيثما كنتم﴾ من أقطار الأرضِ مقيمين أو مسافرين حسبما يُعربُ عنه إيثارُ (كنتم) على خرجتم فإن الخطابَ عامٌ لكافة المؤمنين المنتشرين في الآفاق من الحاضرين والمسافرين، فلو قيل: وحيثما خرجتم لما تناول الخطابُ المقيمين في الأماكن المختلفة من حيث إقامتُهم فيها.

﴿فولوا وجوهَكم﴾ من مَحالِّكم ﴿شطرَه﴾ والتكريرُ لما أن القِبلةَ لها شأنٌ خطير، والنسخُ من مظانِّ الشبهةِ والفتنة فبالحَريِّ أن يؤكَّد أمرُها مرة بعد أخرى مع أنه قد ذُكر في كل مرة حِكمةٌ مستقلة ﴿لئلا يكونَ للناسِ عليكم حُجةٌ﴾ متعلقٌ بقوله تعالى: ﴿فولُّوا﴾ [البقرة، الآيتان: ١٤٤ - ١٥٠] وقيل: بمحذوفٍ يدل عليه الكلامُ كأنه قيل: فعلنا ذلك لئلا... إلخ والمعنى أن التوليةَ عن الصخرة تدفع احتجاجَ اليهود بأن المنعوتَ في التوراة من أوصافه أنه يحولُ إلى الكعبة، واحتجاجُ المشركين بأنه يدَّعي ملةَ إبراهيمَ ويخالف قِبلتَه ﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾ وهم أهلُ مكةَ، أي لئلا يكونَ لأحد من الناس حجةٌ إلا المعاندين منهم الذين يقولون ما تحوَّلَ إلى الكعبة إلا مَيْلًا إلى دين قومِه وحبًا لبلده أو بَدا لَهُ فرجَع إلى قِبلةِ آبائِه، ويوشك أن يرجِعَ إلى دينهم.

---

(١) قرأ بها: أبو عمرو، واليزيدي، وعاصم الجحدري.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٥٠)، والتيسير للداني (٧٧)، والحجة لأبي زرعة (١١٧)، والغيث للصفاقسي (١٤٣)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٠٣)، والكشف للقيسي (١/ ٢٦٨، ٢٦٩)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢٢٣).

وتسميةُ هذه الكلمةِ الشنعاءِ حجةً مع أنها أفحشُ الأباطيل من قبيل ما في قوله تعالى: ﴿حجتُهم داحضةٌ﴾ [الشورى، الآية ١٦] حيث كانوا يسوقونها مَساقَ الحُجة، وقيل: الحجةُ بمعنى مطلقِ الاحتجاجِ، وقيل: الاستثناءُ للمبالغة في نفي الحُجة رأسًا كالذي في قوله: [الطويل]

ولا عيبَ فيهم غيرَ أن سيوفَهم بهنَّ فُلولٌ من قراعِ الكتائبِ[1]

ضرورةَ أن لا حجةَ للظالم، وقرئ[2] (أَلا الذين) بحرف التنبيه على [أنه][3] استئنافِ ﴿فلا تخشَوْهم﴾ فإن مطاعنَهم لا تضرُكم شيئًا ﴿واخشوني﴾ فلا تخالفوا أمري ﴿ولأُتمَّ نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون﴾ علةُ محذوفٍ يدل عليه النظمُ الكريم أي أمرتُكم بما مرَّ لإتمامي للنعمةِ عليكم لما أنه نعمةٌ جليلة ولإرادتي لما أنه صراطٌ مستقيم مؤدٍّ إلى سعادة الدارين، كما أشير إليه في قوله عز وجل: ﴿يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ [البقرة، الآية ١٤٢، ٢١٣. وسورة يونس، الآية ٢٥. وسورة النور، الآية ٤٦] وفي التعبير عن الإرادة بكلمةِ (لعل) الموضوعةِ للترجّي[4] على طريقة الاستعارةِ التبعية[5] ـ من الدلالة على كمال العنايةِ بالهداية ـ ما لا يخفىٰ، أو عطفٌ على علةٍ مقدرة، أي: واخشوني لأحفظَكم عنهم وأتم إلخ أو على قوله تعالى: (لئلا يكونَ) إلخ وتوسيطُ قوله تعالى: (فلا تخشَوْهم) إلخ بينهما للمسارعة إلى التسلية والتثبيت.

وفي الخبر: «تمامُ النعمةِ دُخولُ الجنة»[6]

---

(١) البيت للنابغة الذبياني في ديوانه ص(٤٤)، والأزهية ص(١٨٠)، وإصلاح المنطق ص(٢٤)، وخزانة الأدب (٣/ ٣٢٧، ٣٣١، ٣٣٤)، والدرر (٣/ ١٧٣)، وشرح شواهد المغني ص(٣٤٩)، والكتاب (٢/ ٣٢٦)، ومعاهد التنصيص (٣/ ١٠٧)، وهمع الهوامع (١/ ٢٣٢)، وبلا نسبة في الصاحبي في فقه اللغة ص(٢٦٧)، ولسان العرب (قرع)، (فلل)، ومغني اللبيب، ص (١١٤).

(٢) قرأ بها: ابن عامر، وزيد بن علي، وابن زيد، وابن عباس.
ينظر: البحر المحيط (١/ ٤٤١)، وتفسير القرطبي (٢/ ١٧٠)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٠٣)، والمحتسب لابن جني (١/ ١١٤).

(٣) زيادة من المخطوط.

(٤) في المخطوط: للتراخي.

(٥) وهو إجراء للاستعارة في الحرف وفي المسألة تفصيل وخلاف سبق بيانه عند الكلام على قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾.
ينظر: الإيضاح مع البغية (٣/ ١٣٦) وما بعدها، وشروح التلخيص (٤/ ١٢٠) وما بعدها.

(٦) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣١، ٢٣٥) والترمذي (٥/ ٥٤١) كتاب الدعوات حديث (٣٥٢٧) والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٢٥) وابن أبي شيبة (١٠/ ٢٦٩) والطبراني في الكبير (٢٠/ رقم ٩٧، ٩٨، ٩٩، =

وعن عليٍّ رضي الله عنه: «تمامُ النعمةِ الموتُ على الإسلام»[1].

﴿كما أرسلنا فيكم رسولًا منكم﴾ متصلٌ بما قبله، والظرفُ الأول متعلقٌ بالفعل قُدِّم على مفعوله الصريح لما في صفاته من الطول، والظرفُ الثاني متعلق بمُضمرٍ وقع صفةً لـ (رسولًا) مبينةً لتمام النعمةِ، أي ولأتمَّ نعمتي عليكم في أمر القِبلة أو في الآخرة إتمامًا كائنًا كإتمامي لها بإرسال رسولٍ كائنٍ منكم، فإن إرسالَ الرسول لا سيما المجانسُ لهم نعمةٌ لا يكافئُها نعمة قطُّ، وقيل: متصلٌ بما بعده أي كما ذُكِّرْتم بالإرسال (فاذكروني) إلخ وإيثارُ صيغةِ المتكلم مع الغير بعد التوجيه فيما قبله افتنانٌ وجَرَيانٌ على سَنن الكبرياء ﴿يتلو عليكم آياتِنا﴾ صفة ثانيةٌ لـ (رسول) كاشفةٌ لكمال النعمة ﴿ويزكيكم﴾ عطفٌ على (يتلو) أي: يحمِلُكم على ما تصيرون به أزكياءَ ﴿ويعلمُكم الكتابَ والحِكْمةَ﴾ صفةٌ أخرى مترتبةٌ في الوجود على التلاوة وإنما وسَّط بينهما التزكية التي هي عبارةٌ عن تكميل النفسِ بحسَبِ القوةِ العملية وتهذيبِها المتفرِّعِ على تكميلها بحسَب القوة النظرية الحاصلِ بالتعليم المترتب على التلاوة للإيذان بأن كلًا من الأمور المترتبة نعمةٌ جليلةٌ على حِيالها مستوجبةٌ للشكر، فلو رُوعيَ ترتيبُ الوجود كما في قوله تعالى: ﴿وابعث فيهم رسولًا منهم يتلو عليهم آياتِك ويعلمُهم الكتابَ والحِكْمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾ [البقرة، الآية ١٢٩] لتبادَر إلى الفهم كونُ الكلِّ نعمةً واحدةً كما مر نظيرُه في قصة البقرة، وهو السرُّ في التعبير عن القرآن تارة بالآيات وأخرى بالكتابِ والحِكمة رمزًا إلى أنه باعتبار كلِّ عنوانٍ نعمةٌ على حِدةٍ، ولا يقدح فيه شمولُ الحكمةِ لما في تضاعيف الأحاديثِ الشريفةِ من الشرائع.

وقولُه عز وجل: ﴿ويعلمُكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ صريحٌ في ذلك فإن الموصولَ مع كونه عبارةً عن الكتاب والحِكمة قطعًا قد عُطف تعليمُه على تعليمها، وما ذلك إلا لتفصيل فنونِ النعم في مقامٍ يقتضيه كما في قوله تعالى: ﴿ونجيناهم من عذاب غليظ﴾ [هود، الآية ٥٨] عقيب قوله تعالى: ﴿نجينا هودًا والذين آمنوا معه برحمةٍ منا﴾

=

١٠٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٠٤) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١/ ٢٢٤) وفي «الدعوات الكبير» (١٩٧) والخطيب في «تاريخ بغداد» (٣/ ١٢٦) من حديث معاذ بن جبل.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

قلت: وفي إسناده أبو الورد، وهو مقبول عند المتابعة، وإلا فلين.

(١) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (١/ ١٢٨) دون إسناد وبيض له المناوي في «الفتح السماوي» (١/ ١٩٦) ولم يتكلم عليه.

[هود، الآية ٥٨] والمراد بعدم علمِهم أنه ليس من شأنهم أن يعلموه بالفكر والنظر وغيرِ ذلك من طرق العلم لانحصار الطريقِ في الوحي ﴿فاذكُروني﴾ الفاءُ للدلالة على ترتب الأمرِ على ما قبله من موجباته، أي: فاذكروني بالطاعة ﴿أذكُرْكم﴾ بالثواب، وهو تحريضٌ على الذكر مع الإشعار بما يوجبُه ﴿واشكروا لي﴾ ما أنعمتُ به عليكم من النعم ﴿ولا تكفرون﴾ بجَحدها وعِصيان ما أمرتُكم به.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ وصفَهم بالإيمان إثرَ تعدادِ ما يوجبه ويقتضيه تنشيطًا لهم وحثًا على مراعاة ما يعقُبه من الأمر ﴿استعينوا﴾ في كل ما تأتون وما تذرون ﴿بالصبر﴾ على الأمور الشاقةِ على النفس التي من جملتها معاداةُ الكَفَرة ومقابلتُهم المؤديةُ إلى مقاتلتهم ﴿والصلوٰة﴾ التي هي أمُّ العبادات ومِعراجُ المؤمنين ومناجاةُ ربِّ العالمين ﴿إن الله مع الصابرين﴾ تعليل للأمر بالاستعانة بالصبر خاصة لما أنه المحتاجُ إلى التعليل، وأما الصلاةُ فحيث كانت عند المؤمنين أجلَّ المطالب كما يُنبئ عنه قولُه عليه الصلاة والسلام: «وجُعلت قُرةُ عيني في الصلاة»[1] لم يفتقر الأمرُ بالاستعانة بها إلى التعليل، ومعنى المعية الولايةُ الدائمةُ المستتبِعة للنُصرة وإجابةِ الدعوة، ودخول (مع) على (الصابرين) لما أنهم المباشِرون للصبر حقيقةً فهم متبوعون من تلك الحيثية ﴿ولا تقولوا﴾ عطف على (استعينوا) إلخ مَسوقٌ لبيان أنْ لا غايةَ للمأمور به وإنما الشهادةُ التي ربما يؤدي إليها الصبرُ حياةٌ أبدية ﴿لمن يُقتلُ في سبيل الله أمواتٌ﴾ أي هم أموات ﴿بل أحياءٌ﴾ أي بل هم أحياءٌ ﴿ولكن لا تشعرون﴾ بحياتهم.

وفيه رمزٌ إلى أنها ليست مما يُشعر به بالمشاعر الظاهرةِ من الحياة الجُسمانية وإنما هي أمرٌ روحاني لا يُدرَكُ بالعقل بل بالوحي، وعن الحسن رحمه الله أن الشهداءَ أحياءٌ عند الله تُعرَضُ أرزاقُهم على أرواحِهم فيصلُ إليهم الرَّوْحُ والفَرَحُ، كما تُعرض النارُ على آل فِرعونَ غدوًّا وعشيًا فيصلُ إليهم الألمُ والوجَع[2].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ذكره صاحب الكشاف (١/ ٣٤٧) والبغوي في «معالم التنزيل» (١/ ١٣٠) ولم يخرجه الزيلعي ولا الحافظ ابن حجر.
وبيض له أيضا عبد الرؤوف المناوي في «الفتح السماوي» (١/ ١٩٦).

قلت: رأيت في المنام سنة تسع وثلاثين وتسعمائة أني أزور قبورَ شهداءِ أُحدٍ رضي الله تعالى عنهم أجمعين وأنا أتلو هذه الآيةَ وما في سورة آلِ عمرانَ وأردّدهما متفكرًا في أمرهم وفي نفسي أن حياتَهم روحانية لا جثمانية، فبينما أنا على ذلك إذ رأيتُ شابًّا منهم قاعدًا في قبره تامَّ الجسدِ كامِلَ الخِلْقة في أحسن ما يكونُ من الهيئة والمنظر، ليس عليه شيءٌ من اللباس قد بدا منه ما فوق السُرةِ والباقي في القبر خلا أني أعلم يقينًا أن ذلك أيضًا كما ظهر وإنما لا يظهر لكونه عورةً فنظرت إلى وجهه فرأيته ينظُر إلي متبسّمًا كأنه ينبِّهُني على أن الأمر بخلاف رأيي فسُبحان من عَلَتْ كلمتُه وجلّت حِكمتُه.

وقيل: الآية نزلت في شهداءِ بدرٍ وكانوا أربعةَ عشرَ، وفيها دلالة على أن الأرواحَ جواهرُ قائمةٌ بأنفسها مغايرةٌ لما يُحَسُّ به من البدن تبقىٰ بعد الموت دراكة، وعليه جمهورُ الصحابة والتابعين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وبه نطقت السنن، وعلى هذا فتخصيصُ الشهداء بذلك لما يستدعيه مقامُ التحريض على مباشرة مبادي الشهادةِ ولاختصاصهم بمزيد القُرب من الله عز وعلا ﴿ولنبلونَّكم﴾ لنُصيبنَّكم إصابةَ من يختبرُ أحوالَكم: أتصبرون على البلاء وتستسلمون للقضاء ﴿بشيءٍ من الخوف والجوع﴾ أي بقليلٍ من ذلك فإن ما وقاهم عنه أكثرُ بالنسبة إلى ما أصابهم بألف مرة وكذا ما يصيبُ به معانديهم، وإنما أَخبرَ به قبل الوقوع، ليُوطِّنوا[1] عليه نفوسَهم ويزدادَ يقينُهم عند مشاهدتهم له حسبما أَخبرَ به وليعلموا أنه شيءٌ يسير له عاقبةٌ حميدة ﴿ونقص من الأموال والأنفس والثمرات﴾ عطفٌ على شيءٍ وقيل: على الخوف، وعن الشافعيِّ رحمه الله: الخوفُ خوفُ الله والجوعُ صومُ رمضانَ، ونقصٌ من الأموال الزكاةُ والصدقاتُ ومن الأنفس: الأمراضُ ومن الثمرات: موتُ الأولاد[2]. وعن النبي ﷺ: «إذا مات ولدُ العبد قال الله تعالى للملائكة: أقبضتم روحَ عبدي؟ فيقولون: نعم فيقول عز وجل: أقبضتم ثمرةَ قلبِه؟ فيقولون: نعم فيقول الله تعالى: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمِدَك واسترجَع فيقولُ الله عز وعلا: ابنُوا لعبدي بيتًا في الجنة وسمُّوه بيتَ الحمد»[3].

---

(١) في المخطوط: ليواطئوا.

(٢) ذكره البغوي في تفسيره (١/ ١٣٠).

(٣) أخرجه الترمذي (٣/ ٣٣٢) كتاب الجنائز، باب فضل المصيبة إذا احتسب، حديث (١٠٢١)، وابن حبان في صحيحه (٧/ ٢١٠) رقم (٢٩٤٨)، وأحمد في مسنده (٤/ ٤١٥)، والبيهقي في الشعب (٧/ ١١٨، ١١٩) رقم (٩٦٩٩، ٩٧٠٠).

﴿وبشِّرِ الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبةٌ قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ الخطابُ للرسول ﷺ أو لكل من يتأتىٰ منه البِشارة، والمصيبةُ ما يصيب الإنسانَ من مكروه لقوله عليه السلام: «كلُّ شيءٍ يؤذي المؤمنَ فهو له مصيبةٌ»[(١)] وليس الصبرُ هو الاسترجاعُ باللسان بل بالقلب بأن يَتصوَّرَ ما خُلق له وأنه راجِعٌ إلى ربه ويتذكرَ نِعمَ الله تعالى عليه ويرى أن ما أبقىٰ عليه أضعافُ ما استردّ منه[(٢)]، فيهونُ ذلك على نفسه ويستسلم، والمبشَّرُ به محذوفٌ دل عليه ما بعده.

﴿أولئك﴾ إشارة إلى الصابرين باعتبار اتصافِهم بما ذكر من النعوت، ومعنى البعد فيه للإيذان بعلوِّ رُتبتِهم ﴿عليهم صلواتٌ من ربهم ورحمةٌ﴾ الصلاةُ من الله سبحانه المغفرةُ والرأفةُ، وجمعُها للتنبيه على كثرتها وتنوُّعِها، والجمعُ بينها وبين الرحمةِ للمبالغة كما في قوله تعالى: ﴿رأفةً ورحمةً﴾ [الحديد، الآية ٢٧] ﴿رءوفٌ رحيم﴾ [البقرة، الآية ١١٧ و١٢٨. وسورة النور، الآية ٢٠. وسورة الحشر، الآية ١٠] والتنوين فيهما للتفخيم، والتعرضُ لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم لإظهارِ مزيدِ العناية بهم أي أولئك الموصوفون بما ذُكر من النعوت الجليلةِ عليهم فنونُ الرأفةِ الفائضةِ من مالك أمورِهم ومبلِّغِهم إلى كمالاتها اللائقةِ بهم. وعن النبي ﷺ: «من استرجعَ عند المصيبةِ جَبر الله مصيبَته وأحسن عُقباه وجعل له خَلَفًا صالحًا يرضاه»[(٣)] ﴿وأولئك﴾ إشارةٌ إليهم إما بالاعتبار السابقِ، والتكريرُ لإظهارِ كمالِ العناية بهم، وإما باعتبار حيازتِهم لما ذُكر من الصلوات والرحمة المترتبِ على الاعتبار الأول، فعلى الأول المرادُ بالاهتداء في قوله عز وجل: ﴿هم المهتدون﴾ هو الاهتداءُ للحق والصواب مطلقًا لا الاهتداءُ لما ذكر من الاسترجاعِ والاستسلامِ خاصة، لما أنه متقدمٌ عليهما فلا بدّ لتأخيره عما هو نتيجةٌ لهما من داعٍ يوجبُه، وليس بظاهر.

والجملة اعتراضٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله كأنه قيل: وأولئك هم المختصون بالاهتداء لكل حقٍّ وصواب ولذلك استرجعوا واستسلموا لقضاء الله تعالى، وعلى

---

(١) أخرجه أبو داود في المراسيل رقم (٤١٢)، حدثنا قتيبة حدثنا يحيى - يعني ابن سليم - عن عمران القصير قال:
طفئ مصباح النبي ﷺ فاسترجع. قالت عائشة: إن هذا مصباح. قال «كل ما ساء المؤمن فهو مصيبة».

(٢) في ط: معه.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٢/ ٢٦)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٢٥٥) رقم (١٣٠٢٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ١١٦) رقم (٩٨٩)، من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس به مرفوعًا.
وعلي عن ابن عباس منقطع، وقد تقدم الكلام على هذا.

الثاني هو الاهتداءُ والفوزُ بالمطالب، والمعنى أولئك هم الفائزون بمباغيهم الدينيةِ والدنيويةِ فإن مَنْ نال رأفةَ الله تعالى ورحمتَه لم يفُتْه مَطلبٌ.

۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى

ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

﴿إن الصفا والمروةَ﴾ علمانِ لجبلين بمكةَ المعظمةِ كالصَّمّان والمُقَطَّم ﴿من شعائر الله﴾ من أعلام مناسكِه جمعُ شعيرةٍ وهي العلامة ﴿فمن حجَّ البيتَ أو اعتمر﴾ الحجُّ في اللغة القصدُ والاعتمارُ الزيارة غلبًا في الشريعة على قصدِ البيت وزيارتِه على الوجهين المعروفين كالبيت والنجم في الأعيان، وحيث أُظهر البيتُ وجب تجريدُه عن التعلق به ﴿فلا جناحَ عليه أن يطّوّفَ بهما﴾ أي في أن يطوفَ بهما أصلُه يتطوف، قلبت التاءُ طاءً فأدغمت الطاءُ في الطاء، وفي إيراد صيغةِ التفعُّل إيذانٌ بأن من حق الطائفِ أن يتكلف في الطواف ويبذُل فيه جُهدَه، وهذا الطواف واجبٌ عندنا.

وعند الشافعي، ومالك رحمهما الله أنه ركنٌ، وإيرادُه بعدم الجُناح المشعرِ بالتخيير لما أنه كان في عهد الجاهلية على الصفا صنمٌ يقال له إساف، وعلى المروة آخرُ اسمُه نائلة وكانوا إذا سعَوْا بينهما مسَحوا بهما، فلما جاء الإسلامُ وكسَّر الأصنامَ تحرَّج المسلمون أن يطوفوا بينهما لذلك، فنزلت.

وقيل: هو تطوُّع، ويعضُده قراءةُ[1] ابنِ مسعود (فلا جُناحَ عليه أن لا يطوفَ بهما).

﴿ومن تطوع خيرًا﴾ أي فعلَ طاعةً فرضًا كان أو نفلًا أو زاد على ما فُرض عليه من حج أو عمرةٍ أو طوافٍ، و(خيرًا) حينئذ نُصب على أنه صفةٌ لمصدر محذوفٍ، أي: تطوعًا خيرًا، أو على حذف الجار وإيصال الفعل إليه، أو على تضمين معنى فَعلَ، وقرئ[2] (يَطوَّع) وأصلُه: يتطوع، مثل يطَّوّف.

وقرئ (ومن يَتَطَوَّع بخيرٍ)[3] ﴿فإن الله شاكر﴾ أي مُجازٍ على الطاعة عُبّر عن ذلك

---

(١) قرأ بها أيضا: ابن عباس، وابن سيرين، وأبي، وشهر، وعطاء، وأنس، وعلي، وميمون.
ينظر: البحر المحيط (١/ ٤٥٦)، وتفسير القرطبي (٢/ ١٨٢)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٠٤)، والمحتسب لابن جني (١/ ١١٥)، والمعاني للفراء (١/ ٩٥)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٤٥).

(٢) قرأ بها: حمزة، والكسائي، ويعقوب، والأعمش، وزيد، ورويس.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٥٠)، والإعراب للنحاس (١/ ٢٢٥)، والإملاء للعكبري (١/ ٤١)، والبحر المحيط (١/ ٤٥٨)، والتبيان للطوسي (٢/ ٤١)، والتيسير للداني (٧٧)، وتفسير الطبري (٣/ ٢٤٧)، وتفسير القرطبي (٢/ ١٨٣)، والحجة لأبي زرعة (١١٨)، والسبعة لابن مجاهد (١٢٧)، والغيث للصفاقسي (١٤٣)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٠٤)، والمعاني للفراء (١/ ٩٥)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٤٥)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢٢٣).

(٣) قرأ بها: عبد الله بن مسعود.

=

بالشكر مبالغةً في الإحسان إلى العباد ﴿عليم﴾ مبالغ في العلم بالأشياء فيعلم مقاديرَ أعمالِهم وكيفياتِها فلا يَنْقُصُ من أجورهم شيئًا، وهو علةٌ لجواب الشرطِ قائم مقامَه، كأنه قيل: ومن تطوعَ خيرًا جازاه الله وأثابه فإن الله شاكرٌ عليم ﴿إن الذين يكتمون﴾ قيل: نزلت في أحبار اليهود الذين كتموا ما في التوراة من نُعوت النبي ﷺ وغير ذلك من الأحكام.

وعن ابن عباس[(١)] ومجاهدٍ[(٢)] وقَتادةَ[(٣)] والحسنِ[(٤)] والسُّدي[(٥)] والربيع[(٦)] والأصمِّ[(٧)] أنها نزلت في أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وقيل: نزلت في كل من كتم شيئًا من أحكام الدين لعموم الحكمِ للكل[(٨)].

والأقربُ هو الأول فإن عمومَ الحُكم لا يأبىٰ خصوصَ السبب والكَتم والكتمان: تركُ إظهارِ الشيء قصدًا مع مساس الحاجة إليه وتحققِ الداعي إلى إظهاره، وذلك قد يكون بمجرد سَترِه وإخفائِه وقد يكون بإزالته ووضْعِ شيءٍ آخرَ في موضعه، وهو الذي فعله هؤلاء.

---

= ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٥٠)، والبحر المحيط (١/ ٤٥٨)، وتفسير الطبري (٣/ ٢٤٧)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٠٤)، والمعاني للفراء (١/ ٩٥).

(١) أخرجه الطبري (٢/ ٥٦) رقم (٢٣٧٦)، وابن أبي حاتم (١/ ٢٦٨) رقم (١٤٣٩) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٢٩٥) وزاد نسبته لابن إسحاق وابن المنذر.

(٢) أخرجه الطبري (٢/ ٥٦، ٥٧) رقم (٢٣٧٧، ٢٣٧٨) عن مجاهد وذكره السيوطي (١/ ٢٩٥) وزاد نسبته لعبد بن حميد.

(٣) أخرجه الطبري (٢/ ٥٧) رقم (٢٣٨٠).

(٤) ذكره ابن عادل في «اللباب في علوم الكتاب» (٣/ ١٠٣)، ولم أجده عند الطبري أو ابن أبي حاتم.

(٥) أخرجه الطبري (١/ ٥٧) رقم (٢٣٨١).

(٦) أخرجه الطبري (١/ ٥٧) رقم (٢٣٧٩).

(٧) ذكره ابن عادل في «اللباب في علوم الكتاب» (٣/ ١٠٣)، والأصم هو: عبد الرحمن بن كيسان، الأصم، ويقال فيه: ابن كيسان، من شيوخ المعتزلة، إلاَّ أنهم أخرجوه من جملة المخلصين من أصحابهم بسبب ميله عن علي رضي الله عنه، قال في طبقات المعتزلة: كان من أفصح الناس وأفقههم وأورعهم، ولأبي الهذيل معه مناظرات، وممن أخذ عنه إبراهيم ابن عُليَّة. من تصانيفه: تفسير القرآن، وخلق القرآن، والحجة والرسل، والأسماء الحسنى، وافتراق الأمة.
ينظر: الفهرست لابن النديم، ص (٣٥٤)، وسير أعلام النبلاء (٩/ ٤٠٢)، وطبقات المعتزلة، ص (٥٦).

(٨) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ١٩٥) وعزاه لابن سعد وعبد بن حميد. وينظر «اللباب» (٣/ ١٠٣).

﴿ما أنزلنا من البيناتِ﴾ من الآيات الواضحة الدالةِ على أمر محمد ﷺ ﴿والهُدى﴾ أي والآياتِ الهاديةِ إلى كُنه أمرِه ووجوب اتباعِه والإيمانِ به، عَبَّر عنها بالمصدر مبالغةً ولم يُجمَعْ مراعاةً للأصل وهي المرادة بالبينات أيضًا والعطفُ لتغايُر العنوان كما في قوله عز وجل: ﴿هدى للناس وبيناتٍ﴾ [البقرة، الآية ١٨٥] إلخ وقيل: المراد بالهدى: الأدلةُ العقلية ويأباه الإنزالُ والكتم ﴿من بعد ما بيناه للناس﴾ متعلق بـ (يكتمون) والمرادُ بالناس: الكلُّ لا الكاتمون فقط واللام متعلقة بـ (بيناه)، وكذا الظرف في قوله تعالى: ﴿في الكتاب﴾ فإن تعلقَ جارَّيْن بفعلٍ واحدٍ عند اختلافِ المعنى مما لا ريب في جوازه أو الأخيرُ متعلقٌ بمحذوفٍ وقع حالًا من مفعوله، أي: كائنًا في الكتاب، وتبيينُها لهم: تلخيصُه وإيضاحُه بحيث يتلقاه كلُّ أحد منهم من غير أن يكون له فيه شُبهةٌ.

وهذا عنوانٌ مغايرٌ لكونه بينًا في نفسه، و(هدىً) مؤكدًا لقبح الكتم، أو تفهيمُه لهم بواسطة موسى عليه السلام والأول أنسبُ بقوله تعالى (في الكتاب)، والمرادُ بكتمه إزالتُه ووضعُ غيرِه في موضعه فإنهم محَوْا نعته عليه الصلاة والسلام وكتبوا مكانه ما يخالفه كما ذكرناه في تفسير قوله عز وعلا: ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب﴾ [البقرة، الآية ٧٩] الخ.

﴿أولئك﴾ إشارةٌ إليهم باعتبار ما وصفوا به للإشعار بعلِّيته لما حاق بهم، وما فيه من معنى البعدُ للإيذان بتَرامي أمرهم وبُعد منزلتِهم في الفساد ﴿يلعنهم الله﴾ أي يطرُدهم ويبعدهم من رحمته، والالتفاتُ إلى الغَيبة بإظهار اسم الذاتِ الجامعِ للصفاتِ لتربية المهابةِ وإدخالِ الروعةِ والإشعارِ بأن مبدأ صدورِ اللَعن عنه سبحانه صفةُ الجلالِ المغايرةِ لما هو مبدأ الإنزال والتبيينِ من وصَفِ الجمالِ والرحمة ﴿ويلعنهم اللاعنون﴾ أي الذين يتأتىٰ منهم اللعنُ أي الدعاءُ عليهم باللعن من الملائكة ومؤمني الثقلين.

والمرادُ بيانُ دوام اللعنِ واستمرارُه، وعليه يدور الاستثناءُ المتصلُ في قوله تعالى: ﴿إلا الذين تابوا﴾ أي عن الكِتمان ﴿وأصلحوا﴾ أي ما أفسدوا بأن أزالوا الكلامَ المحرف، وكتبوا مكانه ما كانوا أزالوه عند التحريف ﴿وبينوا﴾ للناس معانيَه فإنه غير الإصلاح[1] المذكور، أو بينوا لهم ما وقع منهم أولًا وآخرًا، فإنه أدخلُ في إرشاد الناس إلى الحق، وصرفُهم عن طريق الضلال الذي كانوا أوقعوهم فيه أو بيّنوا توبتَهم ليمحُوا به سِمةَ ما كانوا فيه ويقتديَ بهم أضرابُهم، وحيث كانت هذه

(١) في ط: لصلاح.

التوبة المقرونةُ بالإصلاح والتبيين مستلزمةً للتوبة عن الكفر مبنية عليها لم يصرَّحْ بالإيمان.

وقولُه تعالى: ﴿فأولئك﴾ إشارةٌ إلى الموصولِ باعتبار اتصافِه بما في حيز الصلةِ للإشعار بعلّيته للحكم، والفاءُ لتأكيد ذلك ﴿أتوب عليهم﴾ أي بالقَبول وإفاضةِ المغفرة والرحمة.

وقوله تعالى: ﴿وأنا التواب الرحيم﴾ أي المبالغُ في قبول التوْب ونشرِ الرحمةِ، اعتراضٌ تذييليٌّ محققٌ لمضمون ما قبله، والالتفاتُ إلى التكلم للافتنان في النظمِ الكريم مع ما فيه من التلويحِ والرمزِ إلى ما مر من اختلاف المبدأ في فِعليه تعالىٰ السابقِ واللاحِقِ.

﴿إن الذين كفروا﴾ جملةٌ مستأنفة سيقت لتحقيق بقاءِ اللعن فيما وراء الاستثناءِ وتأكيدِ دوامِه واستمرارِه على غير التائبين حسبما يفيده الكلام، والاقتصارُ على ذكر الكفر في الصلة من غير تعرضٍ لعدم التوبة والإصلاحِ والتبيينِ مبنيٌّ على ما أشير إليه فكما أن وجودَ تلك الأمور الثلاثةِ مستلزِمٌ للإيمان الموجبِ لعدم الكفر كذلك وجودُ الكفر مستلزمٌ لعدمها جميعًا أي: إن الذين استمروا على الكفر المستتبع للكتمان وعدمِ التوبة ﴿وماتوا وهم كفار﴾ لا يرعوون عن حالتهم الأولى ﴿أولئك﴾ الكلامُ كما فيما قبله ﴿عليهم﴾ أي مستقِرٌّ عليهم ﴿لعنةُ الله والملائكةِ والناس أجمعين﴾ ممن يُعتَدُّ بلعنهم، وهذا بيانٌ لدوامِها الثبوتي بعد بيان دوامِها التجدّدي، وقيل: الأولُ لعنتَهم أحياءً وهذا لعنتُهم أمواتًا. وقرئ[1] (والملائكةُ والناسُ أجمعون) عطفًا على محلِّ اسم الله لأنه فاعلٌ في المعنى، كقولك: أعجبني ضربُ زيدٍ وعمروٍ، تريد مِنْ أنْ ضَربَ زيدٌ وعمروٌ، كأنه قيل: أولئك عليهم أنْ لعنهم الله والملائكةُ إلخ وقيل: هو فاعل لفعلٍ مقدرٍ أي ويلعنهم الملائكة ﴿خالدين فيها﴾ أي في اللعنة[2]، أو في النار على أنها أُضمرت من غير ذكرٍ تفخيمًا لشأنها وتهويلًا لأمرِها ﴿لا يُخفَّفُ عنهم العذاب﴾ إما مستأنفٌ لبيان كثرة عذابِهم من حيث الكيفُ إثرَ بيانِ كثرتِه من حيث

---

(١) قرأ بها: الحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٥١)، والإعراب للنحاس (١/ ٢٢٦)، والإملاء للعكبري (١/ ٤٢)، والبحر المحيط (١/ ٤٦٠)، والتبيان للطوسي (٢/ ٥٠)، و تفسير الطبري (٣/ ٢٦٣)، وتفسير القرطبي (٢/ ١٩٠)، والغيث للصفاقسي (١٤٦)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٠٥)، والمحتسب لابن جني (١/ ١١٦)، والمعاني للفراء (١/ ٩٦).

(٢) في المخطوط: اللغة.

الكمُّ أو حال من الضمير في (خالدين) على وجه التداخُل أو من الضمير في (عليهم) على طريقة الترادُف ﴿ولا هم يُنظرون﴾ عطفٌ على ما قبله جارٍ فيه، وإيثارُ الجملةِ الاسميةِ لإفادة دوامِ النفي واستمراره أي لا يُمهلون ولا يُؤجّلون أو لا يُنتظرون ليعتذروا أو لا يُنظر إليهم [نَظر][1] رحمة ﴿وإلٰهُكم﴾ خطابٌ عام لكافة الناس، أي: المستحِقُّ منكم للعبادة ﴿إلٰه واحد﴾ أي فردٌ في الإلٰهية لا صحةَ لتسمية غيرِه إلٰهًا أصلًا ﴿لا إلٰه إلا هو﴾ خبرٌ ثانٍ للمبتدأ أو صفةٌ أخرى للخبر أو اعتراضٌ، وأيًا ما كان فهو مقرِّرٌ للوحدانية ومُزيحٌ لما عسى أن يُتوهّم أن في الوجود إلٰهًا لكن لا يستحق العبادة ﴿الرحمٰنُ الرحيم﴾ خبران آخرانِ للمبتدأ أو لمبتدأ محذوفٍ وهو تقريرٌ للتوحيد فإنه تعالى حيث كان مُوليًا لجميع النعم أصولِها وفروعِها جليلِها ودقيقِها وكان ما سواه كائنًا ما كان مفتقرًا إليه في وجوده وما يتفرَّع عليه من كمالاته تحققتْ وحدانيتُه بلا ريب وانحصر استحقاقُ العبادةِ فيه تعالى قطعًا.

قيل: كان للمشركين حول الكعبة المكرمة ثلثُمائة وستون صنمًا فلما سمعوا هذه الآيةَ تعجبوا وقالوا: إن كنت صادقًا فأتِ بآيةٍ نعرِفْ بها صدقك فنزلت[2].

﴿إن في خلق السموات والأرض﴾ أي في إبداعهما على ما هما عليه مع ما فيهما من تعاجيب العِبَر وبدائِع صنائعَ يعجِزُ عن فهمها عقولُ البشر، وجمعُ السموات لما هو المشهورُ من أنها طبقاتٌ متخالفة الحقائقِ دون الأرض ﴿واختلافِ الليل والنهارِ﴾ أي اعتقابِهما وكونِ كلٍّ منهما خلَفًا للآخر كقوله تعالى: ﴿وهو الذي جعل الليلَ والنهارَ خِلفةً﴾ [الفرقان، الآية: ٦٢] أو اختلافُ كل منهما في أنفسهما ازديادًا وانتقاصًا على ما قدّره الله تعالى ﴿والفُلكِ التي تجري في البحر﴾ عطفٌ على ما قبله، وتأنيثُه إما بتأويل السفينة أو بأنه جمعٌ فإن ضمةَ الجمعِ مغايرةٌ لضمة الواحد في التقدير إذ الأُولى كما في حُمُر والثانية كما في قُفْل وقرِئَ[3] بضم اللام ﴿بما ينفعُ الناسَ﴾ أي ملتبسة بالذي ينفعُهم مما يُحمل فيها من أنواع المنافعِ أو بنفعهم ﴿وما أنزل الله من السماء من ماء﴾ عطفٌ على الفلك، وتأخيرُه عن ذكرِها مع كونه أعمَّ

(١) زيادة من المخطوط.
(٢) أخرجه الطبري (٢/ ٦٦) رقم (٢٤١١) عن سعيد بن مسروق.
وأخرجه ابن أبي حاتم (١/ ٢٧٣) رقم (١٤٦٥ ) عن ابن عباس.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٢٩٩) وزاد نسبته لابن مردويه، وعزاه أيضا لعبد بن حميد عن سعيد بن جبير.
(٣) ينظر: الكشاف للزمخشري (١/ ١٠٦).

منها نفعًا لما فيه من مزيد تفصيلٍ وقيل: المقصودُ الاستدلالُ بالبحر وأحوالِه، وتخصيصُ الفلك بالذكر لأنه سببُ الخوض فيه والاطلاع على عجائبه، ولذلك قدِّم على ذكر المطرِ والسحابِ لأن منشأهما البحرُ في غالب الأمر.

و(من) الأولى ابتدائيةٌ والثانية بيانية أو تبعيضية، وأيا ما كان فتأخيرُها لما مرَّ مرارًا من التشويقِ، والمرادُ بالسماء الفَلَكُ أو السحابُ أو جهةُ العلوِّ ﴿فأحيا به الأرضَ﴾ بأنواع النباتِ والأزهارِ وما عليها من الأشجار ﴿بعد موتها﴾ باستيلاء اليُبوسةِ عليها حسبما تقتضيه طبيعتُها كما يوزن به إيرادُ الموت في مقابلة الإحياء.

﴿وبث فيها﴾ أي فرّق ونشر ﴿من كل دابةٍ﴾ من العقلاء وغيرهم، والجملة معطوفةٌ على ﴿أنزل﴾ داخلةٌ تحت حكم الصلةِ.

وقوله تعالى: ﴿فأحيا﴾ إلخ متصلٌ بالمعطوف عليه بحيث كانا في حكم شيءٍ واحد، كأنه قيل: وما أَنزل في الأرض من ماءٍ وبثَّ فيها إلخ أو على (أحيا) بحذف الجارِّ والمجرور العائدِ إلى الموصول، وإن لم تتحقق الشرائِطُ المعهودةُ كما في قوله: [الطويل]

وإن لساني شَهْدةٌ يُشتفىٰ بها ولكنْ على مَنْ صَبَّه الله علقمُ[1]

أي علقمٌ عليه وقولِه: [الطويل]

لعلَّ الذي أصْعَدْتَني أن يرُدَّني إلى الأرضِ إن لم يقدِرِ الخيرَ قادِرُهْ[2]

على معنى فأحيا بالماء الأرضَ وبث فيها من كل دابةٍ فإنهم ينمُون بالخصب ويعيشون بالحَيا ﴿وتصريفِ الرياحِ﴾ عطفٌ على (ما أنزل) أي تقليبِها من مقلبٍ[3] إلى آخرَ أو من حال إلى أخرى، وقرئ[4] على الإفراد ﴿والسحابِ﴾ عطفٌ على تصريفِ

---

(١) البيت لرجل من همدان في شرح التصريح (١/ ١٤٨)، والمقاصد النحوية (١/ ٤٥١)، وبلا نسبة في أوضح المسالك (١/ ١٧٧)، وتخليص الشواهد ص(١٦٥)، والجنى الداني ص(٤٧٤)، وخزانة الأدب (٥/ ٢٦٦)، والدرر (١/ ١٩٣، ٦/ ٢٣٩)، وشرح الأشموني (١/ ٨١)، وشرح شواهد المغني (٢/ ٨٤٢)، وشرح المفصل (٣/ ٩٦)، ولسان العرب (ها)، ومغني اللبيب (٢/ ٤٣٤)، وهمع الهوامع (١/ ٦١، ٢/ ١٥٧).

(٢) البيت للفرزدق في ديوانه ص (١٨٨)، والبحر المحيط (١/ ٦٤١)، والدر المصون (١/ ٤٢٣).

(٣) في المخطوط: مهب.

(٤) قرأ بها: حمزة، الكسائي، الأعمش، خلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (١٥١)، والبحر المحيط (١/ ٤٦٧)، و التبيان للطوسي (٢/ ٥٤)، والتيسير للداني ص (٧٨)، وتفسير القرطبي (٢/ ١٩٨)، والحجة لابن خالويه ص (٩١)، والحجة لأبي زرعة ص (١١٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (١٧٣)، والغيث للصفاقسي ص (١٤٤)، والمجمع للطبرسي (١/ ٢٤٤)، وتفسير الرازي (٢/ ٧٠).

أو الرياحِ، وهو اسمُ جنسٍ واحده سَحابةٌ سمي بذلك لانسحابه في الجو ﴿المسخرِ بين السماءِ والأرضِ﴾ صفةٌ لـ (لسحاب) باعتبار لفظه، وقد يُعتبر معناه فيوصف بالجمع كما في قوله تعالى: ﴿سحابًا ثِقالًا﴾ [سورة الأعراف، الآية ٥٧] وتسخيرُه تقليبُه في الجو بواسطة الرياح حسبما تقتضيه مشيئةُ الله تعالى، ولعل تأخيرَ تصريفِ الرياحِ وتسخيرِ السحاب في الذكر عن جريان الفُلك وإنزال الماء مع انعكاس الترتيب الخارجيّ لما مر في قصة البقرة من الإشعار باستقلال كلٍّ من الأمور المعدودة في كونها آيةً، ولو رُوعيَ الترتيبُ الخارجيُّ لربما تُوهُم كونُ المجموعِ المترتبِ بعضُه على بعضٍ آيةً واحدة ﴿لآياتٍ﴾ اسمُ (إن) دخلته اللامُ لتأخرّه عن خبرها، والتنكيرُ للتفخيم كمًا وكيفًا، أي آياتٍ عظيمةً كثيرةً دالةً على القدرة القاهرة والحِكمة الباهرةِ، والرحمةِ الواسعة المقتضيةِ لاختصاص الألوهية به سبحانه ﴿لقوم يعقلون﴾ أي يتفكرون فيها وينظرون إليها بعيون العقول، وفيه تعريضٌ بجهل المشركين الذين اقترحوا على النبي ﷺ آيةً تصدِّقه في قوله تعالى: ﴿وإلٰهكم إلٰه واحد﴾ [البقرة، الآية ١٦٣] وتسجيلٌ عليهم بسخافة العقولِ وإلا فمن تأمل في تلك الآيات وجدَ كلًا منها ناطقةً بوجوده تعالى ووحدانيته وسائرِ صفاتِه الكماليةِ الموجبةِ لتخصيص العبادةِ به تعالى واستُغني بها عن سائرها فإن كل واحدٍ من الأمور المعدودةِ قد وجد على وجه خاصٍّ من الوجوه الممكنةِ دون ما عداه مستتبعًا لآثار معينةٍ وأحكام مخصوصةٍ من غير أن تقتضي ذاتُه وجودَه فضلًا عن وجوده على نمطٍ معين مستتبعٍ لحكم مستقل، فإذن لا بد له حتمًا من موجدٍ قادر حكيم يوجده حسبما تقتضيه حكمتُه وتستدعيه مشيئتُه متعالٍ عن معارضة الغير، إذ لو كان معه آخرُ يقدِر على ما يقدر عليه لزمَ إما اجتماعُ المؤثِّرَيْن على أثر واحدٍ، أو التمانعُ المؤدي إلى فساد العالم ﴿ومن الناس من يتخذُ من دون الله﴾ بيانٌ لكمال ركاكةِ آراءِ المشركين إثرَ تقريرِ وحدانيتِه سبحانه وتحريرِ الآياتِ الباهرةِ المُلجئةِ للعقلاء إلى الاعتراف بها الفائضةِ[1] باستحالة أن يشاركَه شيءٌ من الموجودات في صفة من صفات الكمالِ فضلًا عن المشاركة في صفات الألوهية، والكلامُ في إعرابه كما فُصّل في قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر﴾ [البقرة، الآية ٨] إلخ و(من دون الله) متعلق بـ (يتخذ) أي: من الناس مَنْ يتخذ من دون ذلك الإلٰهِ الواحدِ الذي ذُكرتْ شؤونُه الجليلةُ، وإيثارُ الاسم الجليل لتعيينه تعالى بالذات غِبَّ تعيينه بالصفات ﴿أندادًا﴾ أي أمثالًا وهم رؤساؤُهم الذين يتبعونهم فيما يأتون وما يذرون، لا سيما في الأوامر والنواهي كما

(١) في المخطوط: القاضية.

يُفصح عنه ما سيأتي من وصفهم بالتبرِّي من المتّبعين، وقيل: هي الأصنام، وإرجاعُ ضميرِ العقلاءِ إليها في قوله عز وعلا: ﴿يحبونهم﴾ مبنيٌّ على آرائهم الباطلةِ في شأنها[١]، وصفَهم بما لا يوصف به إلا العقلاءُ، والمحبةُ ميلُ القلب، من الحب استُعير لحبَّة القلبِ ثم اشتُق منه الحبُ لأنه أصابها ورسخ فيها، والفعل منها حبَّ على حد مَدّ لكن الاستعمالَ المستفيضَ على أحب حبًا ومحبةً فهو مُحِب وذاك محبوبٌ ومُحَبٌ قليل، وحابّ أقلُ منه ومحبةُ العبد لله سبحانه إرادةُ طاعته في أوامره ونواهيه، والاعتناءُ بتحصيل مراضيه، فمعنى يُحبونهم يطيعونهم ويعظمونهم والجملة في حيز النصبِ إما صفةٌ لـ (أندادًا) أو حالٌ من فاعل (يتخذ) وجمعُ الضمير باعتبار معنى (مَنْ) كما أن إفرادَه باعتبار لفظِها.

﴿كحب الله﴾ مصدر تشبيهيٌّ أو[٢] نعتٌ لمصدر مؤكدٍ للفعل السابق ومن قضية كونِه مبنيًا للفاعل كونُه أيضًا كذلك، والظاهرُ اتحادُ فاعلِهما فإنهم كانوا يُقِرّون به تعالى أيضًا ويتقربون إليه فالمعنى حبًا كائنًا كحبهم لله تعالى، أي يسوّون بينه تعالى وبينهم في الطاعة والتعظيم، وقيل: فاعلُ الحبِّ المذكورِ همُ المؤمنون فالمعنى: حبًا كائنًا كحب المؤمنين له تعالى، فلا بد من اعتبار المشابهة بينهما في أصل الحبِّ لا في وصفِه كمًا أو كيفًا لما سيأتي من التفاوت البين وقيل: هو مصدر من المبنيّ للمفعول أي كما يُحب الله تعالى ويعظم، وإنما استُغني عن ذكر مَنْ يحبه لأنه غير ملبس، وأنت خبير بأنه لا مشابهةَ بين محبتِهم لأندادهم وبين محبوبيتِه تعالى، فالمصيرُ حينئذ ما أسلفناه في تفسير قوله عز قائلًا: ﴿كما سئل موسى من قبلُ﴾ [البقرة، الآية ١٠٨] وإظهارُ الاسم الجليلِ في مقام الإضمارِ لتربية المهابة، وتفخيمِ المضاف وإبانةِ كمال قُبحِ ما ارتكبوه.

﴿والذين آمنوا أشدُّ حبًا لله﴾ جملة مبتدأة جيءَ بها توطئةً لما يعقُبها من بيان رخاوةِ حبِّهم وكونِه حسرة عليهم، والمفضلُ عليه محذوفٌ أي المؤمنون أشدُّ حبًا له تعالى منهم لأندادهم، ومآلُه أن حبَّ أولئك له تعالى أشدُّ من حب هؤلاءِ لأندادهم فيه من الدَلالة على كون الحبِّ مصدرًا من المبني للفاعل ما لا يخفى، وإنما لم يُجعل المفضلُ عليه حبَّهم لله تعالى لما أن المقصودَ بيانُ انقطاعِه وانقلابِه بغضًا وذلك إنما يُتصور في حبهم لأندادهم لكونه منوطًا بمبانٍ فاسدةٍ ومبادٍ موهومةٍ يزول بزوالها.

قيل: ولذلك كانوا يعدلون عنها عند الشدائد إلى الله سبحانه وكانوا يعبُدون صنمًا

---

(١) زاد في المخطوط: من.

(٢) في المخطوط: أي.

أيامًا فإذا وجدوا آخَرَ رفضوه إليه. وقد أكلت باهلةُ إلهها عام المجاعةِ وكان من حيس. وأنت خبير بأن مدارَ ذلك اعتبارُ اختلال حبِّهم لها في الدنيا، وليس الكلام فيه بل في انقطاعه في الآخرة عند ظهورِ حقيقةِ الحال ومعاينةِ الأهوال كما سيأتي بل اعتبارُه مخِلٌّ بما يقتضيه مقامُ المبالغة في بيان كمالِ قبحِ ما ارتكبوه وغايةِ عظم ما اقترفوه، وإيثارُ الإظهار في موضع الإضمار لتفخيم الحُبِّ والإشعارِ بعلّته ﴿ولو يرَى الذين ظلموا﴾ أي باتخاذ الأنداد ووضعِها موضعَ المعبود ﴿إذ يرون العذاب﴾ المُعدَّ لهم يومَ القيامة أي لو علِموا إذا عاينوه، وإنما أوثر صيغةُ المستقبل لجريانها مجرىٰ الماضي في الدلالة على التحقيق في أخبار علامِ الغيوب ﴿أن القوة لله جميعًا﴾ سادّ مسدَّ مفعولي (يرى).

﴿وأن الله شديد العذاب﴾ عطفٌ عليه وفائدتُه المبالغةُ في تهويل الخطبِ وتفظيعِ الأمر فإن اختصاصَ القوة به تعالى لا يوجب شدةَ العذاب لجواز تركِه عفوًا مع القدرة عليه، وجوابُ (لو) محذوفٌ للإيذان بخروجه عن دائرة البيانِ، إما لعدم الإحاطةِ بكنهه وإما لضيق العبارةِ عنه وإما لإيجاب ذكرِه ما لا يستطيعه المعبِّر أو المستمِعُ من الضجر والتفجُّع عليه، أي: لو علموا إذ رأَوُا العذابَ قد حل بهم ولم يُنقِذْهم منه أحدٌ من أندادهم أن القوة لله جميعًا، ولا دخل لأحد في شيء أصلًا لوقعوا من الحسرة والندم فيما لا يكاد يوصف.

وقرئ[1] (ولو ترى) بالتاء الفوقانية على أن الخطابَ للرسول ﷺ أو لكل أحد ممن يصلُح للخطاب فالجوابُ حينئذ لرأيتَ أمرًا لا يوصَف من الهول والفظاعة.

وقرئ[2] (إذ يُرَوْن) على البناء للمفعول و(أن الله شديد العذاب) على الاستئناف

---

(١) قرأ بها: نافع، وابن عامر، ويعقوب والذماري، وشريح، وأبو جعفر، والنهرواني، وابن وردان، والحسن، وقتادة، وشيبة، وابن شبيب، والفضل بن شاذان.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٥١)، والإعراب للنحاس (١/ ٢٢٧)، والإملاء للعكبري (١/ ٤٣)، والبحر المحيط (١/ ٤٧١)، والتبيان للطوسي (٢/ ٦١)، وتفسير الطبري (٣/ ٣٨٢)، والحجة لأبي زرعة (١١٩)، والسبعة لابن مجاهد (١٧٣)، والغيث للصفاقسي (١٤٤)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٠٦)، والمجمع للطبرسي (١/ ٢٤٤)، والمعاني للأخفش (١/ ١٥٣)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٧٤).

(٢) قرأ بها: ابن عامر، والذماري، وشريح.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٥١)، والإملاء للعكبري (١/ ٤٣)، والبحر المحيط (١/ ٤٧١)، والتبيان للطوسي (٢/ ٦١)، والتيسير للداني (٧٨)، وتفسير القرطبي (٢/ ٢٠٥)، والسبعة لابن مجاهد (١٧٣)، والغيث للصفاقسي (١٤٤)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٠٦)، والكشف للقيسي (١/ ٢٧٣)، والمجمع للطبرسي (١/ ٢٤٤)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٧٤).

وإضمارِ القول ﴿إذ تبرَّأ الذين اتُّبعوا﴾ بدلٌ من (إذ يرون) أي إذ تبرأ الرؤساء ﴿من الذين اتَّبعوا﴾ من الأتْباع بأن اعترفوا ببطلان ما كانوا يدّعونه في الدنيا ويدْعونهم إليه من فنون الكفر والضلالِ واعتزلوا عن مخالطتهم وقابلوهم باللعن كقول إبليس: ﴿إني كفرتُ بما أشركتمون من قبل﴾ [إبراهيم، الآية ٢٢].

وقرئ[١] بالعكس أي: تبرأ الأتْباعُ من الرؤساء والواو في قوله عز وجل: ﴿ورأوُا العذابَ﴾ حالية وقد مضمرةٌ، وقيل: عاطفةٌ على ﴿تبرأ﴾ والضمير في (رأوا) للموصوفين جميعًا ﴿وتقطعت بهم الأسباب﴾ الوصلُ التي كانت بينهم من التبعية والمتبوعيةِ والاتّفاقِ على الملة الزائغةِ والأغراضِ الداعيةِ إلى ذلك، وأصلُ السبب الحبلُ الذي يُرتقىٰ به الشجرُ ونحوُه.

والجملةُ معطوفةٌ على (تبرأ) وتوسيطُ الحال بينهما للتنبيه على علة التبرّي، وقد جُوّز عطفُها على الجملة الحالية ﴿وقال الذين اتبعوا﴾ حين عاينوا تبرُّؤَ الرؤساءِ منهم وندِموا على ما فعلوا من اتّباعهم لهم في الدنيا ﴿لو أن لنا كرةً﴾ أي ليت لنا رجعةً إلى الدنيا ﴿فنتبرّأَ منهم﴾ هناك ﴿كما تبرّءوا منا﴾ اليوم ﴿كذلك﴾ إشارةٌ إلى مصدر الفعلِ الذي بعده لا إلى شيءٍ آخرَ مفهوم مما سبق، وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو درجةِ المشارِ إليه وبُعد منزلتِه مع كمال تميُّزِه عما عداه وانتظامِه في سلك الأمورِ المشاهدة، والكافُ مُقحَمةٌ لتأكيد ما أفاده اسمُ الإشارةِ من الفخامةِ، ومحلُه النصبُ على المصدرية أي ذلك الإراءَ الفظيعَ ﴿يُريهم الله أعمالَهم حسراتٍ عليهم﴾ أي نداماتٍ شديدةً فإن الحسرةَ شدةُ الندم والكمَدِ، وهي تألمُ القلبِ وانحسارُه عما يُؤْلمه، واشتقاقُه من قولهم بعير حسيرٌ أي منقطعُ القوة وهي ثالثُ مفاعيلِ (يُري) إن كان من رؤية القلبِ وإلا فهي حالٌ، والمعنى: أن أعمالَهم تنقلبُ حسراتٍ عليهم فلا يرَوْن إلا حسراتٍ مكانَ أعمالِهم ﴿وما هم بخارجين من النار﴾ كلامٌ مستأنفٌ لبيان حالِهم بعد دخولِهم النارَ، والأصلُ وما يخرجون، والعدولُ إلى الاسمية لإفادة دوامِ نفي الخروج، والضميرُ للدَلالة على قوةِ أمرِهم فيما أُسند إليهم كما في قوله: [الطويل]

هُمُ يفرُشون اللِّبْدَ كُلَّ طِمِرَّةٍ وأجردَ سبّاقٍ يبزّ المُغالبا[٢]

---

(١) قرأ بها: مجاهد.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٥٢)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٠٦).

(٢) ينظر: ديوان الحماسة (٢/ ٣٥٩)، والإيضاح في علوم البلاغة (١/ ٦٠)، ودلائل الإعجاز (١/ ١١١).

﴿يا أيها الناسُ كلوا مما في الأرض﴾ أي بعضٍ ما فيها من أصناف المأكولات التي من جملتها ما حرّمتموه افتراءً على الله من الحرْثِ والأنعام.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في قوم من ثقيفٍ وبني عامرِ بنِ صَعْصَعةَ[١] وخُزاعةَ وبني مدلج حرَّموا على أنفسهم ما حرّموا من الحرْث[٢] والبحائرِ[٣] والسوائبِ والوصائل والحام[٤].

وقولُه تعالى: ﴿حلالًا﴾ حال من الموصول، أي: كلوه حال كونه حلالًا، أو مفعولٌ لـ (كلوا) على أنّ (مِنْ) ابتدائيةٌ، وقد جُوِّز كونُه صفةً لمصدر مؤكَّدٍ، أي: أكلًا حلالًا، ويؤيد الأولَيْن قولُه تعالى: ﴿طيبًا﴾ فإنه صفةٌ له ووصفُ الأكل به غيرُ معتاد.

وقيل: نزلت في قوم من المؤمنين حرموا على أنفسهم رفيعَ الأطعمة والملابس، ويردّه قوله عز وجل: ﴿ولا تتبعوا خُطُواتِ الشيطان﴾ أي لا تقتدوا بها في اتباع الهوىٰ فإنه صريحٌ في أن الخطابَ للكفرة، كيف لا وتحريمُ الحلال على نفسه تزهيدًا[٥] ليس من باب اتباع خطواتِ الشيطانِ فضلًا عن كونه تقوُّلًا وافتراءً على الله تعالى، وإنما الذي نزل فيهم ما في سورة المائدة من قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرِّموا طيّبات ما أحلَّ الله لكم﴾ [المائدة، الآية ٨٧] الآية.

وقرئ[٦] (خُطْواتِ) بسكون الطاء وهما لغتان في جمع خُطْوة وهي ما بين قدمي

---

(١) هو: عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر، من قيس عيلان، من العدنانية، جد جاهلي، بنوه بطون كثيرة.
ينظر: جمهرة الأنساب (٢٦١- ٢٧٥)، ومعجم قبائل العرب (٧٠٨ - ٧١٠)، واللباب (٢/ ١٠٦).

(٢) الحرث: يقال حَرَث الإبل والخيل وأحرثها أي أهزلها.

(٣) والبحائر: جمع مفردها بحيرة وهي الشاة إذا ولدت خمسة أبطن فكان آخرها ذكرًا بحروا أذنها أي شقوها وتركت فلا يمسها أحد وقال الفرَّاء البحيرة ابنة السائبة.
وأما السوائب جمع مفردها السائبة وهي الناقة التي تسيَّب فلا ينتفع من ظهرها ولا تُرد عن ماء ولا تمنع من كلأ ولا تركب.
وفي الصحاح: أن السائبة هي الناقة التي كانت تسيب في الجاهلية لنذر ونحوه.
الوصائل جمع مفردها وصيلة وهي من الغنم الشاة التي تلد ستة أبطن فإذا كان السابع ذكرًا ذبح وأكل منه الرجال والنساء وإن كانت أنثى تركت في الغنم.

(٤) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (١/ ١٣٨) وابن عادل في «اللباب» (٣/ ١٥٠).

(٥) في المخطوط: تزهدا.

(٦) قرأ بها: نافع، وأبو عمرو، وحمزة، وابن كثير، وعاصم، والبزي، أبو ربيعة، وخلف، وأبو بكر، وعاصم الجحدري.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٥٢)، والإملاء للعكبري (١/ ٤٣)، والبحر المحيط (١/ ٤٧٩)، والتبيان للطوسي (٢/ ٧٠)، والتيسير للداني (٧٨)، والحجة لابن خالويه (٩١، ٩٢)، والحجة لأبي =

الخاطي، وقرئ[(١)] بضمتين وهمزة، جعلت الضمةُ على الطاء كأنها على الواو، وبفتحتين على أنها جمعُ خَطْوة وهي المرة من الخَطْو ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ تعليل للنهي، أي ظاهرُ العداوة عند ذوي البصيرة وإن كان يُظهر الولاية لمن يُغويه، ولذلك سُمِّي وليًا في قوله تعالى: ﴿أولياؤُهم الطاغوتُ﴾ [سورة البقرة، الآية ٢٥٧].

﴿إنما يأمُركم بالسوء والفحشاء﴾ استئنافٌ لبيان كيفيةِ عداوتِه وتفصيلٌ لفنون شرِّه وإفسادِه وانحصارِ معاملتِه معهم في ذلك، والسوءُ في الأصل مصدرُ ساءه يسوؤُه سُوءًا ومَساءةً إذا أحزنه يُطلقُ على جميع المعاصي سواءٌ كانت من أعمال الجوارحِ أو أفعالِ القلوب، لاشتراك كلِّها في أنها تسوءُ صاحبَها، والفحشاءُ أقبحُ أنواعِها وأعظمُها مساءةً ﴿وأنْ تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ عطفٌ على الفحشاء، أي وبأن تفتروا على الله بأنه حرّم هذا وذاك، ومعنى (ما لا تعلمون) أن الله تعالى أمرَ به، وتعليقُ أمرِه بتقوُّلِهم على الله تعالى ما لا يعلمون وقوعَه منه تعالى لا بتقوُّلهم عليه ما يعلمون عدمَ وقوعِه منه تعالى، مع أن حالَهم ذلك للمبالغة في الزجر، فإن التحذيرَ من الأول مع كونه في القُبْحِ والشناعةِ دون الثاني تحذيرٌ عن الثاني على أبلغِ وجهٍ وآكَدِه وللإيذان بأن العاقلَ يجب عليه ألا يقولَ على الله تعالى ما لا يعلم وقوعَه منه [تعالى] مع الاحتمال فضلًا عن أن يقول عليه ما يعلم عدمَ وقوعِه منه [تعالى][(٢)]، قالوا: وفيه دليلٌ على المنع من اتباع الظنِّ رأسًا، وأما اتباعُ المجتهدِ لما أدَّى إليه ظنُّه فمستنِدٌ إلى مَدْرَكٍ شرعيٍّ فوجوبُه قطعيٌّ والظنُّ في طريقه ﴿وإذا قيل لهم اتّبعوا ما أنزلَ الله﴾ التفاتٌ إلى الغَيْبة تسجيلًا بكمال ضلالِهم وإيذانًا بإيجاب تعدادِ ما ذُكر من جناياتهم لصرف العذابِ[(٣)] عنهم وتوجيهِه إلى العقلاء، وتفصيلُ مساوي أحوالِهم لهم على نهج المَبائةِ أي إذا قيل لهم على وجه النصيحةِ والإرشادِ: اتبعوا كتاب الله الذي أنزله ﴿قالوا﴾ لا نتبعه ﴿بل نتبعُ ما ألفَيْنا عليه آباءَنا﴾ أي وجدناهم عليه، إما على أن الظرفَ متعلقٌ بمحذوفٍ وقعَ حالًا من (آباءَنا) و(ألفَيْنا) متعدٍّ إلى واحد، وإما على أنه

---

= زرعة (١٢٠)، والسبعة لابن مجاهد (١٧٤)، والغيث للصفاقسي (١٤٤)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٠٧)، والكشف للقيسي (١/ ٢٧٣، ٢٧٤)، والمجمع للطبرسي (١/ ٢٥١)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٧٧).

(١) قرأ بها: علي، وقتادة، والأعمش، وسلام، والأعرج، وعمرو بن ميمون.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ٤٤)، والبحر المحيط (١/ ٤٧٩)، وتفسير القرطبي (٢/ ٢٠٨)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٠٧)، والمجمع للطبرسي (١/ ٢٥١)، والمجمع للطبرسي (١/ ١١٧).

(٢) زيادة من المخطوط.

(٣) في المخطوط: الخطاب.

مفعولٌ ثانٍ له مقدمٌ على الأول.

نزلت في المشركين أُمروا باتباع القرآنِ وسائرِ ما أنزل الله تعالى من الحجج الظاهرةِ والبينات الباهرةِ فجنحوا للتقليد[١]، والموصولُ إما عبارةٌ عما سبق من اتخاذ الأندادِ وتحريم الطيبات ونحوِ ذلك وإما باقٍ على عمومه، وما ذُكر داخلٌ فيه دخولًا أوليًا وقيل: نزلت في طائفة من اليهود دعاهم رسولُ الله ﷺ إلى الإسلام فقالوا: بل نتبعُ ما وجدْنا عليه آباءَنا لأنهم كانوا خيرًا منا وأعلم[٢]، فعلى هذا يعُمّ ما أنزل الله تعالى التوراةَ لأنها أيضًا تدعو إلى الإسلام.

وقوله عز وجل: ﴿أَوَلَوْ كان آباؤُهم لا يعقِلون شيئًا ولا يهتدون﴾ استئنافٌ مَسوقٌ من جهته تعالى ردا لمقالتهم الحمقاءِ، وإظهارًا لبطلان آرائِهم، والهمزة لإنكار الواقعِ واستقباحِهِ والتعجبِ منه، لا لإنكار الوقوعِ كالتي في قوله تعالى: ﴿أولو كنا كارهين﴾ [الأعراف، الآية ٨٨] وكلمة (لو) في أمثال هذا المقامِ ليست لبيان انتفاءِ الشيءِ في الزمان الماضي لانتفاء غيرِه فيه، فلا يلاحَظُ لها جوابٌ قد حُذف ثقةً بدلالة ما قبلها عليه بل هي لبيان تحققِ ما يفيده الكلامُ السابقُ بالذات أو بالواسطة من الحُكم الموجَبِ أو المنفيّ على كل حالٍ مفروضٍ من الأحوال المقارِنةِ له على الإجمال بإدخالها على أبعدها منه وأشدِّها منافاةً له ليظهرَ بثبوته أو انتفائِه معه ثبوتُه أو انتفاؤه مع ما عداه من الأحوال بطريق الأولية، لما أن الشيءَ متى تحقّق مع المنافي القويِّ فَلأَنْ يتحقَّقَ مع غيره أولى ولذلك لا يُذكر معه شيءٌ من سائر الأحوال، ويُكتفىٰ عنه بذكر الواو العاطفةِ للجملة على نظيرتها المقابلةِ لها المتناولةِ لجميع الأحوالِ المغايرةِ لها، وهذا معنى قولِهم إنها لاستقصاء الأحوالِ على سبيل الإجمال.

وهذا المعنىٰ ظاهرٌ في الخبر الموجَبِ والمنفيِّ والأمرِ والنهي، كما في قولك: فلانٌ جوادٌ يُعطي ولو كان فقيرًا، وبخيلٌ لا يعطي ولو كان غنيا، وقولِك: أحسنْ إليه ولو أساءَ إليك ولا تُهِنْه ولو أهانك، لبقائه على حاله، وأما فيما نحن فيه ففيه نوعُ خفاءٍ ناشئ من ورود الإنكارِ عليه لكن الأصلَ في الكل واحدٌ إلا أن كلمةَ (لو) في الصور المذكورة متعلقةٌ بنفس الفعل المذكورِ قبلها وأن ما يُقصدُ بيانُ تحققِه على كل حالٍ هو نفسُ مدلولِه وأن الجملةَ حالٌ من ضميره أو مما يتعلّق به، وأن ما في حيِّز

(١) ذكره البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٤٧).

(٢) أخرجه الطبري (١/ ٨٣) رقم (٢٤٥٤، ٢٤٥٥) وابن أبي حاتم (١/ ٢٨١).
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٣٠٦) وزاد نسبته إلى ابن إسحاق.

(لو) باقٍ على ما هو عليه من الاستبعاد غالبًا بخلاف ما نحن فيه، لما أن كلمةَ لو متعلقةٌ فيه بفعلٍ مقدرٍ يقتضيه المذكورُ وأن ما يُقصد بيانُ تحققِه على كل حالٍ مدلولُه لا مدلولُ المذكور من حيث هو مدلولُه، وأن الجملةَ حالٌ مما يتعلّق به لا مما يتعلق بالمذكور من حيث هو متعلِّقٌ به وأن المقصودَ الأصليَّ إنكارُ مدلولِه باعتبار مقارنته للحالة المذكورة، وإما تقديرًا لمقارنته لغيرها فلتوسيع الدائرة وأن ما في حيز (لو) لا يُقصد استبعادُه في نفسه بل يقصد الإشعارُ بأنه أَمْرٌ محقَّق إلا أنه أُخرج مُخرَجَ الاستبعادِ معاملةً مع المخاطَبين على معتقدهم لئلا يلبَسوا من التصريح بنسبة آبائهم إلى كمال الجهالةِ والضلالةِ جلدَ النَّمِرِ فيركبوا متنَ العِناد، ومبالغةً في الإنكار من جهة اتباعهم لآبائهم حيث كان منكرًا مستقبحًا عند احتمالِ كونِ آبائهم كما ذُكر احتمالًا بعيدًا فلأَنْ يكونَ مُنْكرًا عند تحققِ ذلك أولى، والتقديرُ أيتبعون ذلك لو لم يكن آباؤهم لا يعقلون شيئًا من الدين ولا يهتدون للصواب، ولو كانوا كذلك فالجملةُ في حيز النصب على الحالية من آبائهم على طريقة قولِه تعالى: ﴿أن اتبع ملةَ إبراهيمَ حنيفًا﴾ [النحل، الآية ١٢٣] كأنه قيل: أيتبعون دين آبائهم حالَ كونِهم غافلين وجاهلين ضالّين إنكارًا لما أفاده كلامُهم من الاتّباع على أيّ حالةٍ كانت من الحالتين غير أنه اكتُفيَ بذكر الحالةِ الثانية تنبيهًا على أنها هي الواقعةُ في نفس الأمرِ وتعويلًا على اقتضائها للحالة الأولى اقتضاءً بيّنًا، فإن اتباعهم الذي تعلق به الإنكارُ حيث تحقق مع كون آبائِهم جاهلين ضالين فلأَنْ يتحقّقَ مع كونهم عاقلين ومُهتدين أَوْلى.

إن قلتَ: الإنكارُ المستفادُ من الاستفهام الإنكاريِّ بمنزلة النفي ولا ريب في أن الأولويةَ في صورة النفي معتبرةٌ بالنسبة إلى النفي ألا يُرىٰ أن الأولى بالتحقق فيما ذكر من مثال النفي عند الحالة المسكوتِ عنها أعني عدمَ الغنى هو عدمُ الإعطاء لا نفسُه فكان ينبغي أن يكون الأولى بالتحقق فيما نحن فيه عند الحالةِ المسكوتِ عنها ـ وهي حالة كونِ آبائهم عاقلين ومهتدين ـ إنكارُ الاتباعِ لا نفسُه إذ هو الذي يدل عليه أيتبعون. . . إلخ، فلم اختلفت الحالُ بينهما؟ قلت: لما أن مناطَ الأولوية هو الحكمُ الذي إريد بيانُ تحققه على كل حال، وذلك في مثال النفي عدمُ الإعطاء المستفادِ من الفعل المنفيِّ المذكور وأما فيما نحن فيه فهو نفسُ الاتباعِ المستفاد من الفعل المقدر إذ هو الذي يقتضيه الكلامُ السابقُ أعني قولَهم: ﴿بل نتبعُ﴾ إلخ وأما الاستفهامُ فخارجٌ عنه واردٌ عليه لإنكار ما يُفيدُه واستقباحِ ما يقتضيه لا أنه من تمامه كما في صورة النفي وكذا الحالُ فيما إذا كانت الهمزةُ لإنكار الوقوعِ ونفْيِه مع كونه بمنزلة صريح النفي كما سيأتي تحقيقُه في قوله تعالى: ﴿أولو كنا كارهين﴾ [الأعراف، الآية ٨٨].

وقيل: الواوُ حالية، ولكن التحقيقَ أن المعنى يدور على معنى العطفِ في سائر اللغات أيضًا ﴿ومثَلُ الذين كفَروا﴾ جملةٌ ابتدائيةٌ واردة لتقرير ما قبلها بطريق التصوير، وفيها مضافٌ قد حُذف لدِلالة مَثَل[١] عليه، ووضعُ الموصول موضعَ [الضمير][٢] الراجع إلى ما ترجِعُ[٣] إليه الضمائر السابقةُ لذمهم بما في حيز الصلة، وللإشعار بعِلّة ما أثبت لهم من الحُكم، والتقديرُ مثلُ ذلك القائلِ وحالِه[٤] الحقيقةِ ـ لغرابتها ـ بأن تسمَّى مَثَلًا وتسير في الآفاق فيما ذُكر من دعوته إياهم إلى اتباع الحقِّ وعدمِ رفعِهم إليه رأسًا لانهماكهم في التقليد وإخلادِهم إلى ما هم عليه من الضلال وعدمِ فهمهم من جهة الداعي إلى الدعاء من غير أن يُلقوا أذهانَهم إلى ما يُلقىٰ عليهم ﴿كمثَل الذي ينعِق بما لا يسمعُ إلّا دُعاءً ونداءً﴾ من البهائم فإنها لا تسمع إلا صوتَ الراعي وهَتفَه بها من غير فهم لكلامه أصلًا، وقيل: إنما حُذف المضافُ من الموصول الثاني لدلالة كلمة (ما) عليه فإنها عبارةٌ عنه مُشعِرَةٌ مع ما في حيز الصلة بما هو مدارُ التمثيل أي مَثَلُ الذين كفروا فيما ذُكر من انهماكهم فيما هم فيه وعدمِ التدبر فيما أُلقيَ إليهم من الآيات كمثل بهائمِ الذي ينعِق بها وهي لا تسمع منه إلا جرسَ النغمة ودويَّ الصوت.

وقيل: المرادُ: تمثيلُهم في اتباع آبائهم على ظاهر حالهم، جاهلين بحقيقتها، بالبهائم التي تسمع الصوت ولا تفهم ما تحته، وقيل: في تمثيلهم في دعائهم الأصنام[٥] بالناعق في نعقه، وهو تصويتُه على البهائم وهذا غنيٌّ عن الإضمار لكن لا

---

(١) في المخطوط: قيل.

(٢) زيادة من المخطوط.

(٣) في المخطوط: يرجع.

(٤) في المخطوط: ومأله.

(٥) اختلف الناس في هذا التشبيه على ثمانية أوجه:

الأول أن المراد: ومثل الذين كفروا كمثل المنعوق به من البهائم.

الثاني أن المراد: مثل الذين كفروا وآلهتهم كمثل الناعق بما لا يسمعه.

الثالث أن المراد: ومثل الذين كفروا في دعائهم آلهتهم كمثل الناعق بغنم.

الرابع أن المراد: ومثل الذين كفروا في قلة فهمهم وعقلهم كمثل الرعاة يكلمون البهم والبهم لا تعقل شيئًا.

الخامس أن المراد: ومثلهم في اتباعهم آباءهم وتقليدهم كمثل البهائم التي لا تسمع إلا ظاهر الصوت.

السادس أن المراد بالذين كفروا: المتبعون لا التابعون، ومعناه: ومثل الذين كفروا في دعائهم أتباعهم، وكون أتباعهم لا يحصل لهم منهم إلا الخيبة والخسران كمثل الناعق بالغنم.

=

يساعدُه قولُه: ﴿إلا دعاءً ونداءً﴾ فإن الأصنام بمعزلٍ من ذلك وقد عرفتَ أن حسنَ التمثيل فيما تشابه أفرادُ الطرفين ﴿صمٌ بُكمٌ عميٌ﴾ بالرفع على الذم أي هم[1] صم إلخ ﴿فهم لا يعقِلون﴾ شيئًا؛ لأن طريقَ التعقل هو التدبّر في مبادي الأمورِ المعقولة والتأمل في ترتيبها وذلك إنما يحصُلُ باستماع آياتِ الله ومشاهدةِ حُججِه الواضحةِ والمفاوضة مع من يؤخَذ منه العُلوم، فإذا كانوا صمًا بكمًا عميًا فقد انسدّ عليهم أبوابُ التعقل وطرُقُ الفهم بالكلية.

﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيباتِ ما رزقناكم﴾ أي مستلَذّاتِه ﴿واشكرُوا لله﴾ الذي رزقَكُموها، والالتفاتُ لتربية المهابة ﴿إن كنتم إياه تعبُدون﴾ فإن عبادتَه تعالى لا تتِمّ إلا بالشكر له.

وعن النبي ﷺ: «يقول الله عز وجل: إني والإنسُ والجنُ في نبأٍ عظيم: أخلُقُ ويُعبد غيري، وأرزُقُ ويُشكَر غيري»[2] ﴿إنما حرَّمَ عليكم المَيْتَةَ﴾ أي: أكلها، والانتفاعَ بها وهي التي ماتت على غير ذَكاةٍ، والسمكُ والجرادُ خارجان عنها بالعُرف

---

= السابع أن المراد: مثل داعيهم كمثل الناعق بالبهائم.
الثامن أن المراد: ومثل الذين كفروا في اتباعهم آباءهم وتقليدهم، كمثل الراعي إذا تكلم مع البهائم.
وأرجح الأقوال ما قاله برهان الدين البقاعي: «ولما كان التقدير: مثلهم حينئذٍ كمن اتبع أعمى في طريق وعر خفيّ في فلوات شاسعة كثيرة الخطر، عطف عليه ما يرشد إلى تقديره من قوله فيها على أنهم صاروا بهذا كالبهائم بل أضل؛ لأنها وإن كانت لا تعقل فهي تسمع وتبصر فتهتدي إلى منافعها، ويبين الوصف الذي حملهم على هذا الجهل يقول: ومثل الذين كفروا...».
ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (٢/ ٣٣١)، والكشاف (١/ ٣٢٨)، والبحر المحيط (١/ ٤٨١، ٤٨٢)، ومفاتيح الغيب (٥/ ٩)، وأنوار التنزيل (١/ ٩٥، ٩٦)، والفتوحات الإلهية (١/ ١٣٧)، وتفسير ابن كثير (١/ ٢٠٤)، والأمثال لابن قيم الجوزية (٤٨-٥٠)، ودرر الفوائد وغرر القلائد للشريف المرتضى (١/ ٢١٥-٢١٩).

(١) في المخطوط: أهم.

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (٤/ ١٣٤)، رقم (٤٥٦٣)، من طريق بقية حدثنا صفوان بن عمرو، حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نفير وشريح بن عبيد الحضرميان عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: قال الله عز ودجل .... فذكره.
وعزاه الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف للطبراني في مسند الشاميين.
وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف للترمذي في «نوادر الأصول» في الأصل التاسع والثمانين بعد المائة، ولم أجده فيه من نسختي من النوادر؛ فلينظر.
وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه الطبراني في مسند الشاميين والبيهقي في الشعب من رواية بقية، حدثنا صفوان بن عمرو، حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نفير. وشريح بن عبيد عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: قال الله عز وجل: «إني والجن والإنس ...» فذكره سواء. انتهى.

أو باستثناء الشرعِ كخروج الطحال من الدم ﴿والدمَ ولحمَ الخنزيرِ﴾ إنما خُصّ لحمُه مع أن سائر أجزائه أيضًا في حكمه لأنه معظمُ ما يؤكل من الحيوان، وسائرُ أجزائِه بمنزلة التابع له ﴿وما أُهِلَّ به لغير الله﴾ أي رُفِعَ به الصوتُ عند ذبحه للصنم، والإهلالُ أصلُه رؤيةُ الهلالِ لكن لما جرت العادةُ برفع الصوتِ بالتكبير عندها سمِّي ذلك إهلالًا ثم قيل: لرفع الصوت وإن كان لغيره ﴿فمن اضطُر غيرَ باغٍ﴾ بالاستئثار على مضطر آخرَ ﴿ولا عادٍ﴾ سدَّ الرمق والجَوْعة وقيل: غير باغ على الوالي ولا عادٍ بقطع الطريق وعلى هذا لا يُباح للعاصي بالسفر وهو ظاهرُ مذهب الشافعي وقولُ أحمدَ رحمهما الله ﴿فلا إثم عليه﴾ في تناوله ﴿إن الله غفور رحيم﴾ [غفور لما فعل، رحيم][١] بالرخصة، إن قيل كلمة (إنما) تفيد قصرَ الحُكم على ما ذُكر وكم من حرام لم يُذكَرْ قلنا: المرادُ قصرُ الحرمة على ما ذُكر مما استحلوه لا مطلقًا، أو قصرُ حرمتِه على حالة الاختيارِ كأنه قيل: إنما حُرِّم عليكم هذه الأشياءُ ما لم تضطروا إليها.

﴿إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب﴾ المشتمل على فنون الأحكام التي من جملتها أحكامُ المحلَّلات والمحرَّمات حسبما ذكر آنفًا. وقال ابنُ عباس رضي الله عنهما: نزلت في رؤساء اليهود حين كتموا نعت النبي ﷺ[٢] ﴿ويشترون به﴾ أي يأخذون بدلَه ﴿ثمنًا قليلًا﴾ عِوَضًا حقيرًا، وقد مر سرُّ التعبير عن ذلك بالثمن الذي هو وسيلة في عود المعاوضة.

وقولُه تعالى: ﴿أولئك﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافِه بما في حيز الصلة من الوصفَين الشنيعين المميِّزين لهم عمن عداهم أكملَ تمييز الجاعلَيْن إياهم بحيث كأنهم حُضّارٌ مشاهِدون على ما هم عليه، وما فيه من معنى البُعد للإيذان بغاية بُعدِ منزلتِهم في الشر والفساد، وهو مبتدأٌ خبرُه قولُه تعالى: ﴿ما يَأكُلون في بُطونهم إلا النارَ﴾ والجملةُ خبرٌ لإن، أو اسمُ الإشارة مبتدأٌ ثانٍ أو بدلٌ من الأول والخبر (ما يأكلون. . .) إلخ ومعنى أكلِهم النارَ أنهم يأكلون في الحال ما يستتبعُ النار ويستلزمُها فكأنه عينُ النار، وأكلُه أكلُها كقوله: [الطويل]

أكلتُ دمًا إن لم أَرُعْكِ بضَرَّةٍ ... بعيدةِ مَهوىٰ القُرط طيّبةِ النشْرِ[٣]

---

(١) زيادة من المخطوط.

(٢) ذكره السيوطي في «الدرالمنثور» (١/ ٣٠٩) وعزاه للثعلبي عن ابن عباس وقال: بسند ضعيف. ينظر: تفسير الرازي (٥/ ٢٣)، ومعالم التنزيل (١/ ١٤١) واللباب (٣/ ١٨٣).

(٣) البيت لعروة الرحال. ينظر الحماسة (٢/ ٤٦٣)، والدر المصون (١/ ٤٤٤)، واللباب (٣/ ١٨٥).

أو يأكلون في المآل يوم القيامة عينَ النار[١] عقوبةً على أكلهم الرِّشا في الدنيا و(في بطونهم) متعلقٌ بـ (يأكلون)، وفائدتُه تأكيدُ الأكلِ وتقريرُه ببيان مقرِّ المأكول، وقيل: معناه: ملءَ بطونهم كما في قولهم: أكل في بطنه وأكل في بعض بطنه ومنه «كُلوا في بعض بطنِكم تعفّوا» فلا بد من الالتجاء إلى تعليقه بمحذوف وقعَ حالًا مقدّرة من النار مع تقديمه على حرف الاستثناء وإلا فتعليقُه بـ (يأكلون) يؤدّي إلى قصْر ما يأكلونه إلى الشبع على النار والمقصود قصرُ ما يأكلونه مطلقًا عليها.

﴿ولا يكلمهم الله يوم القيامة﴾ عبارة عن غضبه العظيم[٢] عليهم وتعريضٌ

---

(١) أي أن الآية من قبيل المجاز المرسل وعلاقته المسببية حيث عبر عن السبب بالمسبب، والأصل يأكلون ما يتسبب في تعذيبهم بالنار.
ينظر: الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز (٢٨)، والمطول (٣٥٣)، والإيضاح مع البغية (٣/ ٨٧)، ومفتاح (٥٣)، وشروح التلخيص (٤/ ١٦٨)، وأسرار البلاغة (٢٨١)، والطراز للعلوي (١/ ٦٦ - ٦٨)، والمثل السائر (١/ ٥٧، ٦٣)، والإحكام للآمدي (٤٦٨).

(٢) يشير إلى أن الآية كناية عن صفة، والكناية: هي إطلاق اللفظ وإرادة لازم معناه مع قرينة غير مانعة من إرادة المعنى الحقيقي.
وقد علم من كلام الخطيب أن الكناية قسم من أقسام الحقيقة، لكونها قسمًا من أقسام الموضوع، وهذا هو الحق، وتعيين اللفظ للدلالة على المعنى بنفسه تارة يكون مع إفادة شيء آخر بقرينة، فيكون حقيقة كناية وتارة لا يكون، فيكون حقيقة فقط.
وقد ذهب جماعة إلى أن الكناية لا حقيقة ولا مجاز، وقد صرح جماعة كثيرة بأن الكناية حقيقة، وأشار إليه السكاكي أيضًا قال: ومن حق الكلمة في الحقيقة التي ليست بكناية، فأفهم ذلك أن الكناية حقيقة، وعليه جرى قول السكاكي وكثير من شارحيه.
الفرق بين الكناية والمجاز
مناط الفرق بين المجاز والكناية كما قال الخطيب من جهة إرادة المعنى مع إرادة لازمه فإن المجاز ينافي ذلك، فلا يصح في نحو قولك في الحمام أسد تريد معنى الأسد من غير تأويل؛ لأن المجاز ملزوم قرينة معاندة لإرادة الحقيقة.
رحلة هذا المصطلح:
سماها قدامة بن جعفر بالإرداف وحده بقوله: وهو أن يريد الشاعر دلالة على معنى من المعاني، فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك، بل بلفظ يدل على معنى هو ردفه وتابع له، فإذا دل التابع أبان عن المتبوع، وقد ذكر أبو هلال تعريف قدامة، ولكنه ساق تحته أمثلة ليست منه، ثم جاء عبد القاهر فسماه بالكناية، واندثر مصطلحها القديم إلا أن ابن أبي الأصبع قد ذكره، والكناية التي شرحها عبد القاهر هي التي تناقلتها كتب المتأخرين، وقد أشار إلى أن العرب كما يتركون التصريح بالصفة إلى التعبير عنها بطريق الكناية والتعريض كذلك يذهبون في إثبات الصفة هذا المذهب، وإذا فعلوا بدت هناك محاسن تملأ الطرف ودقائق تعجز الوصف، ورأيت هناك شعرًا وسحرًا، ثم ساق الأمثلة والصور المتقاربة وشرحها وحدد الفروق بينها، وقد بين أيضًا الصور المتشابهة في الكناية عن إثبات الصفة إلى الموصوف والصور المتشابهة في الكناية عن الصفة نفسها، وقد كان التعريض عنه مرادفًا =

بحرمانهم ما أتيح للمؤمنين من فنون الكرامات السنية والزلفى ﴿ولا يزكيهم﴾ لا يُثني عليهم ﴿ولهم﴾ مع ما ذكر ﴿عذاب أليم﴾ مؤلم.

﴿أولئك﴾ إشارة إلى ما أشير إليه بنظيره بالاعتبار المذكور خاصة لا مع ما يتلوه من أحوالهم الفظيعةِ إذ لا دخل لها في الحكم الذي يراد إثباتُه هاهنا فإن المقصود

---

= لها لا يفرق بينهما كما كان التلويح كذلك، وقد عرفها عبد القاهر بقوله: والمراد بالكناية هنا أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومئ إليه، ويجعله دليلاً عليه، وقد ذكر ابن سنان الخفاجي، وابن رشيق كلام قدامة. قال ابن سنان: ومن نعوت البلاغة والفصاحة أن يراد الدلالة على المعنى، فلا يستعمل اللفظ الخاص الموضوع له في اللغة، بل يؤتى بلفظ يتبع ذلك المعنى ضرورة، فيكون في ذكر التابع دلالة على المتبوع، وهذا يسمى الإرداف والتابع.

ويقول ابن رشيق: ومن أنواع الإشارة التتبيع، وقوم يسمونه التجاوز، وهو أن يريد الشاعر ذكر الشيء فيجاوزه، ويذكر ما يتبعه في الصفة، وينوب عنه في الدلالة عليه، ثم يذكر أمثلة قدامة، وابن رشيق يذكر الكناية مرادفة للتمثيل، وقد ذكر ابن قتيبة مثلاً وشواهد للتعريض من القرآن بعد ما ذكر صورًا للكناية لا تتصل بصورها الاصطلاحية، وإنما تدور حول الكناية اللغوية، وقد ذكرها الزمخشري بمعناها الاصطلاحي، وأشار إلى فائدتها وقيمتها الأدبية، وذكر أقسامها الثلاثة المشهورة، وفرق بينها وبين التعريض، وذكر الكناية في المفرد، ومن أوضح ما يتميز به بحث الكناية في الكشاف أنه أول من أثار موضوع ضرورة إمكان المعنى الحقيقي في طريقة الكناية، وأول من ذكر المجاز عن الكناية، وقد جرى ابن الأثير على طريقته ففرق بين الكناية والتعريض، وكذلك العلوي.

بلاغة الكناية: أطبق البلغاء على أن المجاز والكناية أبلغ من الحقيقة والتصريح، والسبب في ذلك أن الانتقال في الكناية والمجاز: من الملزوم إلى اللازم أي انتقال ذهن السامع، وقد نقل الخطيب عن الشيخ عبد القاهر أن التفاوت بين هذه الرتب ليس لأن الواحد منها يفيد زيادة في المعنى نفسه لا يفيدها خلافه، فليست فضيلة (رأيت أسدًا) على قولنا (هو والأسد سواءٌ في الشجاعة)، أن الأول أفاد زيادة في مساواته للأسد في الشجاعة لم يفدها الثاني، بل الأول أفاد تأكيدًا لإثبات تلك المساواة لم يفده الثاني، وليس فضيلة كثير الرماد على قولنا كثير القرى أن الأول أفاد زيادة لم يفدها الثاني، بل لأن الأول أفاد تأكيدًا لإثبات كثرة القرى لم يفده الثاني، والسبب في ذلك أن الانتقال في الجميع من الملزوم إلى اللازم، فيكون إثبات المعنى به كدعوى الشيء ببينة ولا شك أن دعوى الشيء ببينته أبلغ في إثباته من دعواه بلا بينة، وقد ذكر ابن السبكي أن كلام الشيخ يحمل على أن السبب في كل صورة ليس هو ذلك، لا أن ذلك ليس بسبب في كل شيء من الصور أصلاً، وما ذكره الشيخ مخالف لاتفاقهم على أن المجاز والكناية أبلغ من الحقيقة.

ينظر: البلاغة في تفسير الزمخشري من (٢٢٠-٢٢٨، ٥٤٥-٥٦٣)، والتصوير البياني (٣٦٩) وما بعدها، ونقد الشعر (١٧٨)، والصناعتين (٣٥٠) وما بعدها، ودلائل الإعجاز (٩٩-١٧١،٢٠١-٤٤)، وسر الفصاحة (٢٧١)، والعمدة (١/ ٣١٢) وما بعدها، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (٢٠٩)، والكشاف (١/ ٧٧، ٩١، ٢٩٣، ٥٠٨، ٢/ ١٩٨، ٤،٢٥١، ٤١٥)، والمثل السائر (٣/ ٨٩/ ٤٩، ٥١، ٥٢، ٧٢)، والطراز (١/ ٣٧٢، ٢٧٣)، وشروح التلخيص (٤/ ٢٧٤).

تصويرُ ما باشروه من المعاملة بصورة قبيحة تنفِر منها الطباعُ ولا يتعاطاها عاقلٌ أصلًا ببيان حقيقةِ ما نبذوه وإظهار كُنهِ ما أخذوهُ وإبداءِ فظاعة تِبعاتِه، وهو مبتدأ خبرُه الموصولُ أي أولئك المشترون بكتاب الله عز وجل ثمنًا قليلًا ليسوا بمشترين للثمن وإن قل، بل هم ﴿الذين اشترَوُا﴾ بالنسبة إلى الدنيا ﴿الضلالةَ﴾ التي ليست مما يمكن أن يشترىٰ قطعًا ﴿بالهدى﴾ الذي ليس من قبيل ما يُبذل بمقابلة شيء وإن جل ﴿والعذاب﴾ أي اشتروا بالنظر إلى الآخرة العذاب الذي لا يُتوَهَّم كونُه مما يشترىٰ ﴿بالمغفرة﴾ التي يتنافس فيها المتنافسون.

﴿فما أصبرهم على النار﴾ تعجبٌ[1] من حالهم الهائلة التي هي ملابستُهم بما يوجب النارَ إيجابًا قطعيًا كأنه عينها و(ما) عند سيبويهِ نكرةٌ تامة مفيدة بمعنى[2] التعجيب مرفوعةٌ بالابتداء وتخصصُها[3] كتخصُّص شرٍّ في «شرٌّ أَهَرَّ ذَا نَابٍ» خبرُها ما بعدها أي شيءٌ ما عظيم جعلهم صابرين على النار.

وعند الفراء استفهامية وما بعدها خبرها أي أيُّ شيءٍ أصبرَهم على النار وقيل: هي موصولة وقيل: موصوفة بما بعدها والخبر محذوف أي الذي أصبرهم على النار أو شيءٌ أصبرهم على النار أمرٌ [عجيب][4] فظيع.

﴿ذلك﴾ العذاب ﴿بأن الله نزل الكتاب﴾ أي جنس الكتاب ﴿بالحق﴾ أي ملتبسًا به فلا جرم [أن][5] يكون من يرفضه بالتكذيب والكتمان ويركب متنَ الجهل والغَواية مُبتلىً بمثل هذا من أفانينِ العذاب ﴿وإن الذين اختَلَفُوا في الكتاب﴾ أي: في جنس الكتابِ الإلٰهيِّ بأن آمنوا ببعض كتبِ الله تعالى وكفروا ببعضها [أو اختلفوا][6] في التوراة بأن آمنوا ببعض آياتِها وكفروا ببعضٍ كالآيات المُغيَّرة المشتملةِ على أمر بِعثةِ النبيِّ ﷺ ونعوته الكريمة فمعنى الاختلافِ التخلفُ عن الطريق الحق أو الاختلافُ في تأويلها أو في القرآن بأن قال بعضهم: إنه سحرٌ وبعضُهم: إنه شعرٌ وبعضهم: أساطيرُ [الأولين][7] كما حكى عن المفسرين ﴿لفي شقاق بعيد﴾ عن الحق والصواب مستوجب لأشد العذاب.

﴿ليس البرَّ أن تولوا وجُوهَكم قِبَلَ المشرقِ والمغرب﴾ البرُّ اسمٌ جامع لمراضِي الخصالِ، والخطابُ لأهل الكتابين فإنهم كانوا أكثروا الخوضَ في أمر القِبلة حين

---

(١) في ط: تعجيب.
(٢) في ط: لمعنى.
(٣) في ط: تخصيصها.
(٤) سقط في ط.
(٥) سقط في ط.
(٦) سقط في ط.
(٧) سقط في ط.

حُوِّلت إلى الكعبة وكان كلُّ فريقٍ يدّعي خيريةَ التوجُّه إلى قبلته من القُطرين المذكورين، وتقديمُ المشرق على المغرب مع تأخر زمانِ الملّةِ النصرانية إما لرعاية ما بينهما من الترتيب المتفرِّع على ترتيب الشروق والغروب وإما لأن توجّه اليهودِ إلى المغرب ليس لكونه مَغرِبًا بل لكون بيتِ المقدس من المدينة المنورة واقعًا في جانب [الغرب][1] فقيل لهم: ليس البر ما ذكرتم من التوجه إلى تينك الجهتين، على أن البر خبرُ «ليس» مقدم على اسمها كما في قوله: [الطويل]

سلي إن جهِلتِ الناس عني وعنهمُ فليس سواءً عالمٌ وجَهولُ[2]

وقوله: [الطويل]

أليس عظيمًا أن تُلمَّ مُلِمَّةٌ وليس علينا في الخطوب مقولُ[3]

وإنما أخر ذلك لما أن المصدرَ المؤولَ أعرفُ من المحلَّى باللام لأنه يُشبهُ الضمير من حيث إنه لا يوصف ولا يوصف به والأعرفُ أحق بالاسمية ولأن في الاسم طولًا فلو روعيَ الترتيبُ المعهود لفات تجاوبُ أطرافِ النظم الكريم وقرئ[4] برفع (البر) على أنه اسمها وهو أقوى بحسب المعنى لأن كل فريق يدعي أن البرَّ هذا فيجب أن يكون الردُّ موافقًا لدعواهم وما ذلك إلا بكَوْن البرِّ اسمًا كما يُفصح عنه جعلُه مُخْبَرًا عنه في الاستدراك بقوله عز وجل: ﴿ولكنَّ البرَّ مَنْ آمنَ بالله﴾ وهو تحقيقٌ للحق بعد بيانِ الباطلِ وتفصيلٌ لخِصال البِر مما لا يختلف باختلاف الشرائعِ وما يختلف باختلافها، أي: ولكن البِرَّ المعهود الذي يحِقّ أن يُهتَمَّ بشأنه ويُجَدَّ في

(١) سقط في المطبوع.

(٢) البيت للسموأل في ديوانه ص، (٩٢)، وخزانة الأدب (١٠/ ٣٣١)، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي، ص (١٢٣) وله أو للجلاج الحارثي (عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي) في تخليص الشواهد، ص (٢٣٧)، والمقاصد النحوية (٢/ ٧٦)، وبلا نسبة في شرح الأشموني (١/ ١١٢)، وشرح ابن عقيل، ص (١٤٠)، وشرح عمدة الحافظ، ص (٢٠٤)، وشرح قطر الندى، ص (١٣٠).

(٣) البيت بلا نسبة في تخليص الشواهد،ص (٢٣٧).

(٤) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، والكسائي، وابن مسعود، وأبي، والحسن، والأعرج، وأبو حاتم، شيبة، ومسلم بن جندب، وابن محيصن، وابن أبي إسحاق، وعيسى، وشبل.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٢٣٠)، والإملاء للعكبري (١/ ٤٥)، والبحر المحيط (٢/ ٢)، والتبيان للطوسي (٢/ ٩٤)، والتيسير للداني (٧٩)، وتفسير القرطبي (٢/ ٢٣٨)، والحجة لابن خالويه (٩٢)، والحجة لأبي زرعة (١٢٣)، والسبعة لابن مجاهد (١٧٥)، والغيث للصفاقسي (١٤٦)، والكشف للقيسي (١/ ٢٨١)، والمجمع للطبرسي (١/ ٢٦١)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٩٦)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢٢٦).

تحصيله - بِرُّ مَنْ آمن بالله وحده إيمانًا بريئًا من شائبة الإشراكِ لا كإيمان اليهودِ والنصارى المشركين بقولهم: عزيرٌ ابنُ الله وقولِهم: المسيحُ ابن الله ﴿واليوم الآخِرِ﴾ أي على ما هو عليه لا كما يزعُمون من أن النارَ لن تمسَّهم إلا أيامًا معدودةً[1] وأن آباءَهم الأنبياءَ يشفعون لهم، ففيه تعريضٌ بأن إيمانَ أهلِ الكتابين حيث لم يكن كما ذكر من الوجه الصحيحِ لم يكن إيمانًا.

وفي تعليق البِرِّ بهما من أول الأمر عَقيبَ نفيه عن التوجُّه إلى المشرق والمغرب من الجزالة ما لا يخفى، كأنه قيل: ولكن البِر هو التوجُّه إلى المبدأ والمَعاد اللذيْن هما المشرِقُ والمغرِب في الحقيقة ﴿والملائِكةِ﴾ أي وآمن بهم وبأنهم عبادٌ مُكْرَمون متوسِّطون بينه تعالى وبين أنبيائِه بإلقاء الوحي وإنزالِ الكتب ﴿والكِتابِ﴾ أي بجنس الكتابِ الذي من أفراده الفرقانُ الذي نبذوه وراءَ ظهورِهم، وفيه تعريضٌ بكِتمانهم نعوتَ النبيِّ ﷺ واشترائِهم بما أنزل الله تعالى ثمنًا قليلًا ﴿والنبيّينَ﴾ جميعًا من غير تفرقةٍ بين أحدٍ منهم كما فعل أهلُ الكتابَيْن، ووجهُ توسيط الكتابِ بين حَمَلةِ الوحي وبين النبيين واضحٌ وسيأتي في قوله تعالى: ﴿كلٌّ آمنَ بالله وملائِكتِه وكتُبه ورُسُلِه﴾ [البقرة، الآية: ٢٨٥].

﴿وآتى المالَ على حُبِّه﴾ حالٌ من الضمير في «آتىٰ»، والضميرُ المجرورُ راجعٌ لـ«المال» أي آتاه كائنًا على حب المالِ كما في قوله ﷺ حين سُئِل: أيُّ الصدقةِ أفضلُ؟: «أن تُؤتِيَه وأنت صحيحٌ شحيحٌ»[2] وقولِ ابن مسعود رضي الله عنه: أن تؤتيَه وأنت صحيحٌ شحيحٌ تأمُلُ العيشَ وتخشىٰ الفقرَ ولا تُمهِلَ حتى إذا بلغت الحُلقومَ قلت لفلانٍ كذا ولفلانٍ كذا[3].

---

(١) في ط: معدودات.

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٢٥) كتاب الوصايا، باب: الصدقة عند الموت، حديث (٢٧٤٨)، ورواه في كتاب الزكاة (٤/ ٣٣)، باب: أي الصدقة أفضل وصدقة الشحيح الصحيح حديث (١٤١٩)، ومسلم (٤/ ١٣٣- نووي) كتاب الزكاة، باب: بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح حديث (١٠٣٢)، وأبو داود (٢/ ١٢٦) كتاب الوصايا، باب: ما جاء في كراهية الإضرار في الوصية حديث (٢٨٦٥)، والنسائي (٥/ ٦٨-٦٩) كتاب الزكاة، باب: أي الصدقة أفضل، و(٦/ ٢٣٧)، كتاب الوصايا، باب: الكراهية في تأخير الوصية، وابن ماجه (٢/ ٩٠٣) كتاب الوصايا، باب: النهي عن الإمساك في الحياة والتبذير عند الموت حديث (٢٧٠٦) مطولًا، وأحمد (٢/ ٢٥، ٢٣١، ٤١٥، ٤٤٧)، وابن حبان في صحيحه (٨/ ١٠٥) رقم (٣٣١٢)، وابن خزيمة (٤/ ١٠٣) رقم (٢٤٥٤)، والبيهقي (٤/ ١٨٩).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في المصنف(٩/ ٥٥) رقم (١٦٣٢٤) ومن طريقه أخرجه الطبراني في الكبير (٩/ ٩٣) رقم (٨٥٠٣)، وعزاه الزيلعي(١/ ١٠٠، ١٠١) في تخريج أحاديث الكشاف للحاكم، وأبي نعيم، والبيهقي في الشعب. =

وقيل: الضمير لله تعالى أي آتاه كائنًا على محبته تعالى لا على قصد الشرِّ والفساد، ففيه نوعُ تعريضٍ لباذلي الرِّشا وآخذيها لتغيير التوراة، وقيل: للمصدر أي كائنًا على حب الإيتاء ﴿ذوِي القُربى﴾ مفعولٌ أولُ لـ «آتىٰ» قُدِّم عليه مفعولُه الثاني أعني المالَ للاهتمام به أو لأن في الثاني مع ما عُطف عليه طُولًا لو رُوعي الترتيبُ لفات تجاوبُ الأطرافِ في الكلام وهو الذي اقتضى تقديمَ الحال أيضًا.

وقيل: هو المفعولُ الثاني ﴿واليتامىٰ﴾ أي المحاويجَ منهم على ما يدل عليه الحال وتقديمُ ذوي القربى عليهم لما أن إيتاءَهم صدقةٌ وصِلَة ﴿والمساكينَ﴾ جمعُ مِسكينٍ وهو الدائمُ السُكون لما أن الخلّة أسكنَتْهُ بحيث لا حَراكَ به أو دائمُ السكون إلى الناس ﴿وابنَ السبيلِ﴾ أي المسافرَ سُمي به لملازمته إياه كما سمِّي القاطِعُ ابنَ الطريق.

وقيل: الضيف ﴿والسائلين﴾ الذين أَلْجأتهم الحاجةُ والضرورةُ إلى السؤال قال عليه الصلاة والسلام: «أعطُوا السائلَ ولو جاء على فرَسٍ»[1] ﴿وفي الرقاب﴾ أي

---

= كلهم رووه موقوفًا، دون قوله: «ولا تمهل حتى ...» إلخ.

(١) روي من حديث علي بن أبي طالب، والحسين بن علي، وأبي هريرة، وفاطمة الزهراء، والهرماس بن زياد.

-أما حديث علي:

فأخرجه أبو داود (١/ ٥٢٣) كتاب الزكاة، باب حق السائل حديث (١٦٦٦)، من طريق فاطمة بنت حسين عن أبيها عن علي عن النبي ﷺ قال: «للسائل حق وإن جاء على فرس».

- وأما حديث الحسين:

فرواه أبو داود (١/ ٥٢٢، ٥٢٣) كتاب الزكاة، باب حق السائل حديث (١٦٦٥)، وأحمد في المسند (١/ ٢٠١)، وأبو يعلى (١٢/ ١٥٤) رقم (٦٧٨٤)، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٣٧٩)، والطبراني في الكبير (٣/ ١٤١) رقم (٢٨٩٣)، والقضاعي في مسند الشهاب رقم (٢٨٥).

- وأما حديث فاطمة الزهراء:

عزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/ ١٠٥) لابن راهويه في مسنده مرفوعًا بلفظ: «للسائل حق وإن جاء على ظهر فرس». ا هـ.

- أما حديث أبي هريرة:

فرواه ابن عديّ في الكامل (٤/ ١٥٠٣-١٥٠٤)، من طريق عبد الله بن زيد بن أسلم عن أبيه عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعًا.

ورواه في (٥/ ١٦٨٧) من طريق عمر بن يزيد المدائني عن عطاء عن أبي هريرة مرفوعًا.

- أما حديث الهرماس بن زياد:

فرواه الطبراني في الكبير (٢٢/ ٢٠٣، ٢٠٤) رقم (٥٣٥)، قال الهيثمي في المجمع (٣/ ١٠٤): «رواه الطبراني في الصغير والأوسط، وفيه عثمان بن فايد وهو ضعيف». ا هـ.

وضَعَه في فكِّ الرقابِ بمعاونة المكاتَبين حتى يفُكّوا رِقابَهم.

وقيل: في فك الأُسارى وقيل: في ابتياع الرقابِ وإعتاقِها وأيًا ما كان فالعدولُ عن ذكرهم بعنوان مُصحِحٍ للمالكية كالذين من قبلهم إما للإيذان بعدم قرارِ مِلكِهم فيما أوتوا كما في الوجهَين الأولين أو بعدم ثبوتِه رأسًا كما في الوجه الأخير وإما للإشعار برسوخهم في الاستحقاق والحاجةِ لما أن (في) للظرفية المُنْبئة عن محلِّيتهم لما يؤتىٰ ﴿وأقام الصلاةَ﴾ أي المفروضةَ منها ﴿وآتىٰ الزكاةَ﴾ أي المفروضة على أن المرادَ بما مرَّ من إيتاءِ المالِ التنفّلُ بالصدقات قُدِّم على الفريضة مبالغةً في الحثِّ عليه أو المرادُ بهما المفروضةُ، والأول لبيان المصارفِ والثاني لبيان وجوب الأداءِ.

﴿والمُوفون بعهدهم﴾ عطفٌ على مَنْ آمن فإنه في قوة أن يقال ومَنْ أوفَوْا بعهدهم، وإيثارُ صيغة الفاعل للدلالة على وجوب استمرار الوفاءِ والمرادُ بالعهد ما لا يحرِّم حلالًا ولا يُحلِّل حَرامًا من العهود الجارية فيما بين الناس.

وقولُه تعالى: ﴿إذا عاهدوا﴾ للإيذان بعدم كونِه من ضروريات الدين ﴿والصابرين﴾ نُصب على الاختصاص، غُيِّر سبكُه عما قبله تنبيهًا على فضيلة الصبر ومزيَّتِه وهو في الحقيقة معطوفٌ على ما قبله.

قال أبو علي[(١)]: إذا ذُكرتْ صفاتٌ للمدح أو الذمِّ فخولفَ في بعضها الإعرابُ فقد خولف للافتنان ويسمَّى ذلك قطعًا، لأن تغييرَ المألوفِ يدل على زيادة ترغيبٍ في استماع المذكورِ ومزيدِ اهتمام بشأنه كما مر في صدر السورة، وقد قرئ[(٢)] الصابرون كما قرئ[(٣)] والموفين ﴿في البأساءِ﴾ أي في الفقر والشدة ﴿والضّراءِ﴾ أي المرض والزّمانة[(٤)] ﴿وحينَ البأسِ﴾ أي وقتَ مجاهدةِ العدوِّ في مواطن الحرب، وزيادةُ

---

(١) هو: الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن محمد بن سليمان الإمام، أبو علي الفارسي، واحد زمانه في علم العربية، وأحد أئمة العربية المشهورين، أخذ عن الزجاج وابن السراج قيل: إنه أعلم من المبرد، واتهم بالاعتزال. من تصانيفه: الحجة في علل القراءات، التذكرة، الإيضاح في النحو، تعاليق سيبويه، جواهر النحو، العوامل في النحو، وغيرها. مات سنة سبع وسبعين وثلاثمائة.
ينظر: وفيات الأعيان (١/ ١٣١)، وبغية الوعاة (١/ ٤٩٦-٤٩٨).

(٢) قرأ بها: يعقوب، والأعمش، والحسن.
ينظر: البحر المحيط (٢/ ٧)، وتفسير القرطبي (٢/ ٢٤٠)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٠٩)، تفسير الفخر الرازي (٢/ ٩٧).

(٣) قرأ بها: عبد الله بن مسعود.
ينظر: الإعراب للنحاس ١/ ٢٣٢، والبحر المحيط (٢/ ٧)، وتفسير القرطبي (٢/ ٢٤٠)، والكشاف للزمخشري (١/ ١١٠)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٩٧).

(٤) الزَّمانة: العاهة.

الحينِ للإشعار بوقوعه أحيانًا وسرعةِ انقضائِه.

﴿أولئك﴾ إشارةٌ إلى المذكورين باعتبار اتّصافِهم بالنعوت الجميلةِ المعدودة، وما فيه من معنى البُعد لما مر مرارًا من التنبيه عن علوِّ طبقتِهم وسُموِّ رُتبتِهم ﴿الذين صَدَقوا﴾ أي في الدين واتباعِ الحقِّ وتحرِّي البِرِّ حيث لم تغيِّرْهم الأحوالُ ولم تُزلزلهم الأهوال.

﴿وأولئك هم المتقون﴾ عن الكفر وسائرِ الرذائلِ وتكريرُ الإشارة لزيادة تنويهِ شأنِهم، وتوسيطُ الضمير للإشارة إلى انحصار التقوى فيهم والآيةُ الكريمة كما ترى حاويةٌ لجميع الكمالات البشرية برُمَّتها تصريحًا أو تلويحًا لما أنها ـ مع تكثُّر فنونها وتشعُّب شجونِها ـ منحصرةٌ في خِلالٍ ثلاث: صحةِ الاعتقاد وحسنِ المعاشرة مع العباد وتهذيبِ النفس، وقد أشير إلى الأولى بالإيمان بما فُصِّل وإلى الثانية بإيتاء المالِ وإلى الثالثة بإقامة الصلاة... إلخ ولذلك وُصف الحائزون لها بالصدق نظرًا إلى إيمانهم واعتقادِهم وبالتقوى اعتبارًا بمعاشرتهم مع الخلق ومعاملتهم مع الحق وإليه يشير قولُه ﷺ: «من عمل بهذه الآية فقد استكمل الإيمان»[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ

(١) ذكره المناوي في «الفتح السماوي» (١/ ٢١٣) وعزاه لابن المنذر في «تفسيره».

إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٨﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ شروعٌ في بيان بعض الأحكام الشرعية على وجه التلافي لما فرَط من المُخِلّين بما ذكر من أصول الدين وقواعدِه التي عليها بُنيَ أساسُ المَعاش والمَعاد ﴿كتب عليكم﴾ أي فُرض وأُلزم عند مطالبةِ صاحبِ الحق فلا يقدَحُ فيه قدرةُ الوليِّ على العفو، فإن الوجوبَ إنما اعتُبر بالنسبة إلى الحكّام أو القاتلين ﴿القِصاصُ في القتلى﴾ أي بسببِ قتلِهم كما في قوله ﷺ: «إن امرأةً دخلت النارَ في هِرَّةٍ رَبطَتْها»[1] أي بسبب ربطها إياها.

﴿الحرُّ بالحر والعبدُ بالعبد والأنثى بالأنثى﴾ كان في الجاهلية بين حَيَّيْنِ من أَحياء العربِ دماءٌ وكان لأحدهما طَوْلٌ على الآخر فأقسموا لنقتُلَنَّ الحرَّ منكم بالعبد والذكرَ بالأنثى فلما جاء الإسلامُ تحاكموا إلى رسول الله ﷺ فنزلت. فأمرهم أن يتباوَءوا[2].

وليس فيها دِلالةٌ على عدم قتل الحرِّ بالعبد عند الشافعي أيضًا لأن اعتبارَ المفهوم حيث لم يظهر للتخصيص بالذكر وجهٌ سوى اختصاصِ الحُكم بالمنطوقِ. وقد رأيتَ الوجهَ هاهنا وإنما يتمسك في ذلك هو ومالكٌ رحمهما الله بما روىٰ عليٌّ رضي الله عنه أن رجلًا قتل عبدَه فجلده رسولُ الله ﷺ ونفاه سنةً ولم يُقِدْه[3]، وبما رُوي عنه

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٥١٢) كتاب بدء الخلق: باب إذا وقع الذباب في إناء أحدكم حديث (٣٣١٨) ومسلم (٤/ ١٧٦٠) كتاب السلام: باب تحريم قتل الهرة حديث (١٥١/ ٢٢٤٢) من حديث أبي هريرة.

(٢) ذكره الزيلعي في «تخريج الكشاف» (١/ ١٠٨) وقال غريب جدًا.
وأخرجه ابن أبي حاتم (١/ ٢٩٣، ٢٩٤) رقم (١٥٧٦) عن سعيد بن جبير بنحوه.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٩/ ٣٠٤) وابن ماجه (٢/ ٨٨٨) كتاب الديات باب هل يقتل الحر بالعبد، حديث (٢٦٦٤) والدارقطني(٣/ ١٤٤) وأبو يعلى (٥٣١) والبيهقي (٨/ ٣٦) كلهم من طريق إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة عن إبراهيم بن عبد الله بن حنين عن أبيه عن علي به وإسناده ضعيف جدًا.
وإسحاق بن أبي فروة: متروك، كما قال الحافظ في «التقريب» (١/ ٥٩).

رضي الله عنه أنه قال: من السنة ألا يُقتلَ مسلمٌ بذي عهدٍ ولا حرٌّ بعبد[١]، وبأن أبا بكر وعمرَ رضي الله عنهما كانا لا يقتلان الحر بالعبد[٢] بين أظهر الصحابة من غير نكيرٍ، وبالقياس على الأطراف، وعندنا يُقتل الحرُّ بالعبد لقوله تعالى: ﴿أن النفسَ بالنفس﴾ [المائدة، الآية ٤٥] فإن شريعة مَنْ قبلَنا إذا قُصَّتْ علينا من غير دلالة على نسخها - فالعملُ بها واجبٌ على أنها شريعةٌ لنا ولأن القصاصَ يعتمدُ المساواةُ في العصمة وهي بالدين أو بالدار وهما سِيّانِ فيهما وقرئ كَتب على البناء للفاعل ونصْبِ القصاص.

﴿فمن عُفي له مِنْ أخيه شيءٌ﴾ أي: شيء من العفو لأن عفا لازمٌ وفائدتُه الإشعار بأن بعض العفو بمنزلة كلّه في إسقاط القصاصِ وهو الواقع أيضًا في العادة إذ كثيرًا ما يقعُ العفوُ من بعض الأولياءِ فهو شيءٌ من العفو وقيل: معنى عُفي تُرك وشيء مفعولٌ به وهو ضعيف إذ لم يثبُتْ عفاه بمعنى تركه بل أعفاه، وحُمل العفو على المحو كما في قول من قال: [الطويل]

دِيارٌ عفاها جَوْرُ كلِّ معانِدِ ..... ..... .....[٣]

وقوله: [الهزج]

عفاها كلُّ هتَّانٍ كثيرِ الوبلِ هَطّالِ[٤]

فيكونُ المعنى فمن مُحيَ له من أخيه شيءٌ - صرفًا للعبارة المتداولة في الكتاب والسنةِ عن معناها المشهور المعهودِ إلى ما ليس بمعهود فيهما وفي استعمال الناس؛ فإنهم لا يستعملون العفوَ في باب الجنايات إلا فيما ذكرَ من قبلُ. وعفا يُعدَّى بـ «عن» إلى الجاني والذنب قال تعالى: ﴿عفا الله عنكم﴾ [التوبة، الآية ٤٣] وقال: ﴿عفا الله عنها﴾ [المائدة، الآية ١٠١] فإذا تعدَّى إلى الذنب قيل: عفوْتُ لفلان عما جنىٰ كأنه قيل: فمن عُفي له عن جنايته من جهة أخيه يعني وليَّ الدم، وإيرادُه بعنوان الأخوّة الثابتةِ بينهما بحكم كونِهما من بني آدمَ عليه السلام لتحريك سلسلة الرقةِ والعطف

---

(١) أخرجه الدارقطني (٣/ ١٤٤) ومن طريقه البيهقي في «الكبرى» (٨/ ٣٤) عن علي موقوفًا.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٩/ ٣٠٥) والدارقطني (٣/ ١٣٤) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٨/ ٣٤) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. وهذا يرد على المناوي قوله في «الفتح السماوي» (١/ ٢١٥): لم أقف عليه.

(٣) صدر بيت وعجزة:

..... ..... ..... ولم تعف للأيام والسنوات

ينظر: ديوان دعبل بن علي (١/ ٥)، ومعجم الأدباء (٣/ ٣١٧).

(٤) تقدم.

عليه ﴿فاتّباعٌ بالمعروف﴾ فالأمرُ اتباعٌ أو فليكُن اتباعٌ، والمرادُ وصيةُ العافي بالمسامحة ومطالبتُه بالديَة بالمعروف من غير تعنيفٍ[١]، وقوله عز وجل: ﴿وأداءٌ إليه بإحسانٍ﴾ حثٌّ للمعفوِّ عنه على أن يؤدِّيَها بإحسانٍ من غير مماطلةٍ ولا بخس ﴿ذلك﴾ أي ما ذكر من الحُكم ﴿تخفيفٌ من ربِّكم ورَحمة﴾ لما فيه من التسهيل والنفعِ.

وقيل: كُتب على اليهود القصاصُ وحده وحرِّم عليهم العفوُ والدية، وعلى النصارى العفوُ على الإطلاق وحرِّم عليهم القصاصُ والدية، وخُيِّرت هذه الأمةُ بين الثلاث تيسيرًا عليهم وتنزيلًا للحُكم على حسَب المنازل.

﴿فمن اعتدىٰ بعد ذلك﴾ بأن قتلَ غيرَ القاتل بعد ورود هذا الحُكم أو قتلَ القاتلَ بعد العفو أو أخذِ الدية ﴿فله﴾ باعتدائه ﴿عذابٌ أليم﴾ أما في الدنيا فبالاقتصاص لما قتله بغير حقٍّ وأما في الآخرة فبالنار.

﴿ولكم في القصاصِ حياةٌ﴾ بيانٌ لمحاسِنِ الحُكم المذكور على وجهٍ بديع لا تُنال غايتُه حيث جُعل الشيءُ محلًا لضِدِّه، وعُرِّف القصاص ونُكِّر الحياةُ، ليدلَّ على أن في هذا الجنس نوعًا من الحياة عظيمًا لا يبلُغه الوصفُ وذلك لأن العلمَ به يردَعُ القاتلَ عن القتل فيتسبَّب لحياةِ نفسَيْن، ولأنهم كانوا يقتُلون غيرَ القاتل والجماعةَ بالواحد فتثورُ الفتنةُ بينهم، فإذا اقتُصَّ من القاتل سلِم الباقون فيكون ذلك سببًا لحياتهم، وعلى الأول فيه إضمارٌ وعلى الثاني تخصيصٌ.

وقيل: المرادُ بالحياة هي الأُخروية فإن القاتلَ إذا اقتُصَّ منه في الدنيا لم يؤخَذْ به في الآخرة، والظَّرْفان إما خبرانِ لـ «حياةٌ» أو أحدُهما خبرٌ والآخَرُ صِلةٌ له أو حالٌ من المستكنِّ فيه وقرئ[٢] «في القَصَصِ» أي فيما قُصَّ عليكم من حُكم القتل حياةٌ [أو في القرآن حياة][٣] أو في القرآنِ حياةٌ للقلوب.

﴿يا أُولي الألْبابِ﴾ أي ذوي العقولِ الخالصةِ عن شَوْب الأوهام، خوطبوا بذلك بعد ما خُوطبوا بعنوان الإيمان تنشيطًا لهم إلى التأمل في حِكمة القصاص ﴿لعلكم تتقون﴾ أي تتقون أنفسَكم من المساهلة في أمره والإهمالِ في المحافظة عليه والحُكم به والإذعانِ له، أو من[٤] القصاص فتكُفّوا عن القتل المؤدِّي إليه ﴿كُتِبَ عليكم﴾ بيانٌ

---

(١) في ط: تعسف.

(٢) قرأ بها: أبي، وأبو الجوزاء، وأوس بن عبد الله الربعي.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٢٣٢)، والبحر المحيط (٢/ ١٥)، والكشاف للزمخشري (١/ ١١١)، وتفسير الرازي (٢/ ١٠٧).

(٣) سقط في ط.

(٤) في ط: في.

لحكم آخَرَ من الأحكام المذكورة ﴿إذا حضرَ أحدَكم الموتُ﴾ أي حضر أسبابُه وظهرَ أماراتُه أو دنا نفسُه من الحضور، وتقديمُ المفعول لإفادة كمال تمكنِ الفاعلِ عند النفسِ وقت ورودِه عليها ﴿إنْ ترَكَ خيْرًا﴾ أي مالًا وقيل: مالًا كثيرًا لما رُوي عن علي رضي الله عنه أن مولىً له أراد أن يوصِيَ وله سبعُمائة درهم فمنعه وقال: قال الله تعالى: ﴿إن تركَ خيرًا﴾ [البقرة، الآية: ١٨] وإن هذا لشيء يسيرٌ فاترُكْه لعيالك[١].

وعن عائشة رضي الله عنها أن رجلًا أراد الوصيةَ وله عيالٌ وأربعُمائة دينارٍ فقالت: ما أرى فيه فضلًا. وأراد آخرُ أن يوصِيَ فسألته كم مالُك؟ فقال: ثلاثةُ آلافِ درهم قالت: كم عيالُك؟ قال: أربعة قالت: إنما قال الله تعالى: إنْ ترك خيرًا وإن هذا الشيء[٢] يسيرٌ فاترُكْه لعيالك[٣] ﴿الوصيةُ للوالدَيْن والأقْربين﴾ مرفوعٌ بـ (كُتِبَ)، أُخِّر عما بينهما لما مر مرارًا، وإيثارُ تذكيرِ الفعلِ مع جواز تأنيثِه أيضًا للفصل أو على تأويل أن يوصِيَ، أو الإيصاءُ، ولذلك ذُكِّر الضميرُ في قوله تعالى: ﴿فمنْ بدَّله بعد ما سَمِعه﴾ [البقرة، الآية ١٨١] وإذا ظرفٌ محضٌ والعاملُ فيه «كُتب» لكن لا من حيث صدورُ الكتْب عنه تعالى بل من حيث تعلُّقُه بهم تعلقًا فِعليًا مستتبعًا لوجوب الأداءِ كما يُنبئ عنه البناءُ للمفعول وكلمةُ الإيجاب، ولا مساغَ لجعل العامل هو الوصيةُ لتقدّمه عليها، وقيل: هو مبتدأ خبرُه للوالدين، والجملةُ جوابُ الشرط بإضمار الفاءِ كما في قوله: [البسيط]

مَنْ يفعلِ الحسناتِ الله يشكُرُها ..... ..... ..... .....[٤]

ورد بأنه صحّ فمن ضرورةِ الشعر ومعنى كُتب فُرض، وكان هذا الحكمُ في بدء

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١١/ ٢٠٨) وعبد الرزاق (٩/ ٦٢) والدارمي (٢/ ٤٠٥) والطبري في «التفسير» (٢/ ١٢٦) رقم (٢٦٨٢) والحاكم (٢/ ٢٧٣، ٢٧٤)، والبيهقي (٦/ ٢٧٠) من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن علي، وصححه الحاكم على شرط الشيخين، وتعقبه الذهبي فقال: فيه انقطاع. اهـ.
قلت: وهو قول أبي حاتم الرازي أنه لا سماع لعروة من علي.
وينظر «المراسيل» ص (١٤٩)، «علل الحديث» (١/ ٥٤).
(٢) في ط: لشيءٌ.
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (١١/ ٢٠٨) وعبد الرزاق (٩/ ٦٣) والبيهقي (٩/ ٢٧٠) من طرق عن عائشة.
وذكره السيوطي في «الدرالمنثور» (١/ ٤٢٢) وزاد نسبته لسعيد بن منصور.
(٤) صدر بيت وعجزه:
..... ..... ..... لا يذهب العرف عند الله والناس
وهو للحطيئة في ديوانه ص(١٠٩)، والخصائص (٢/ ٤٨٩)، وشرح الأشموني (٣/ ٥٨٧)، وتاج العروس (الفاء).

الإسلام ثم نسخ عند نزول آيةِ المواريثِ، بقوله عليه السلام: «إنّ الله قد أعطى كلَّ ذي حق حقَّه ألا لا وصيةَ لوارثٍ»(١) فإنه وإن كان من أخبار الآحادِ لكن حيثُ تلقته

(١) أخرجه أبو داود (٣/ ٢٩٠) كتاب الوصايا: باب الوصية للوارث حديث (٢٨٧٠)، والترمذي (٤/ ٤٣٣) كتاب الوصايا: باب لا وصية لوارث، حديث (٢١٢٠) وابن ماجه (٢/ ٩٠٥) كتاب الوصايا: باب لا وصية لوارث، حديث (٢٧١٣) وأحمد (٥/ ٢٦٧)، والطيالسي (٢/ ١١٧- منحة) رقم (٢٤٠٧)، وسعيد بن منصور(٤٢٧)، والدولابي في «الكنى» (١/ ٦٤)، وأبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (١/ ٢٢٧)، والبيهقي (٦/ ٢٤٦) كتاب الوصايا، باب: نسخ الوصية للوالدين، كلهم من طريق إسماعيل بن عياش عن شرحبيل بن مسلم عن أبي أمامة الباهلي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في خطبته عام حجة الوداع: إن الله تبارك وتعالى قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث.

وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وأخرجه ابن الجارود في «المنتقى» رقم (٩٤٩) من طريق الوليد بن مسلم قال: ثنا ابن جابر ثنا سليم بن عامر سمعت أبا أمامة فذكر الحديث.

وفي الباب عن جماعة من الصحابة وهم عمرو بن خارجة وأنس بن مالك وابن عباس وجابر وعلي وعبد الله بن عمرو ومعقل بن يسار وزيد بن أرقم والبراء ومجاهد مرسلًا.

-حديث خارجة:

أخرجه الترمذي (٤/ ٤٣٤) كتاب الوصايا: باب لا وصية لوارث حديث (٢١٢١)، والنسائي (٦/ ٢٤٧) كتاب الوصايا: باب إبطال الوصية للوارث وابن ماجه (٢/ ٩٠٥) كتاب الوصايا: باب لا وصية لوارث وأحمد (٤/ ١٨٦، ١٨٧) والدارمي (٢/ ٤١٩) كتاب الوصايا: باب الوصية للوارث، والطيالسي (١٣١٧) وأبو يعلى (٣/ ٧٨) رقم (١٥٠٨) والبيهقي (٦/ ٢٦٤) كتاب الوصايا: باب نسخ الوصية للوالدين، كلهم من طريق شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم عن عمرو بن خارجة أن النبي ﷺ خطب على ناقته وأنا تحت جرانها، وإن لعابها ليسيل بين كتفي فسمعته يقول: «إن الله عز وجل أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث».

قال الترمذي: حسن صحيح.

وللحديث طريق آخر:

أخرجه الدارقطني (٤/ ١٥٢) كتاب الوصايا حديث (١٠)، والبيهقي (٦/ ٢٦٤) كتاب الوصايا: باب نسخ الوصية للوالدين والأقربين من طريق زياد بن عبد الله عن إسماعيل بن مسلم عن الحسن عن عمرو بن خارجة مرفوعًا بلفظ: «لا وصية لوارث إلا أن يجيز الورثة».

وضعف البيهقي سنده.

وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٤/ ٢٠٢) رقم (٤١٤٠) من طريق عبد الملك بن قدامة الجمحي عن أبيه عن خارجة بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال يوم الفتح وأنا عند ناقته: «ليس لوارث وصية، قد أعطى الله عز وجل كل ذي حق حقه، وللعاهر الحجر».

وقال الهيثمي: رواه الطبراني، وفيه عبد الملك بن قدامة الجمحي، وثقه ابن معين وضعفه الناس. ا هـ.

قلت: ووثقه أيضا يعقوب بن سفيان فقال في «المعرفة والتاريخ» (١/ ٤٣٥): مديني ثقة.

لكن عبد الملك هذا ضعفه الجمهور.

قال البخاري في «الضعفاء» (٢٢٠): يعرف وينكر.

=

........................................................................................................

= وقال أبو زرعة الرازي: منكر الحديث. سؤالات البرذعي، ص (٣٥٦).
وقال أبو حاتم : ضعيف الحديث. «علل الحديث» (٢٤٣٥).
وقال النسائي: مدني ليس بالقوي «الضعفاء والمتروكين» (٤٠٣).
وقال الدارقطني: مدني يترك . سؤالات البرقاني (٣٠١).
- حديث أنس:
أخرجه ابن ماجه (٢/ ٩٠٦) كتاب الوصايا: باب لا وصية لوارث حديث (٢٧١٤)، والدارقطني (٤/ ٧٠) كتاب الفرائض حديث (٨) والبيهقي (٦/ ٢٦٤، ٢٦٥) كتاب الوصايا: باب نسخ الوصية للوالدين والأقربين من طريق عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن سعيد بن أبي سعيد عن أنس به.
قال البوصيري في «الزوائد» (٢/ ٣٦٨): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات.
-حديث ابن عباس:
أخرجه الدارقطني (٤/ ٩٧) كتاب الفرائض: حديث (٨٩)، والبيهقي (٦/ ٢٦٣) كتاب الوصايا: باب نسخ الوصية للوالدين والأقربين من طريق ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال البيهقي: «عطاء هو الخراساني: لم يدرك ابن عباس ولم يره قاله أبو داود وغيره».
وأخرجه البيهقي (٦/ ٢٦٣، ٢٦٤) من طريق يونس بن راشد عن عطاء عن عمرة عن ابن عباس.
قال الحافظ في «التلخيص» (٣/ ٩٢): حديث حسن.
-حديث جابر:
أخرجه الدارقطني (٤/ ٩٧) كتاب الفرائض: حديث (٩٠) من طريق فضل بن سهل ثني إسحاق بن إبراهيم الهروي ثنا سفيان عن عمر عن جابر به.
قال الدارقطني : الصواب مرسل.
قال أبو الطيب آبادي في «التعليق المغني» (٤/ ٩٧): إسحاق بن إبراهيم الهروي ثم البغدادي أبو موسى: وثقه ابن معين وغيره، وقال عبد الله بن علي بن المديني: سمعت أبي يقول: أبو موسى الهروي روى عن سفيان عن عمرو عن جابر: «لا وصية» - الحديث. كأنه سفيان عن عمرو مرسلا. كذا في الميزان. ا هـ.
وللحديث طريق آخر:
أخرجه الدارقطني (٤/ ١٥٢) كتاب الوصايا حديث (١٢) من طريق نوح بن دراج عن أبان بن تغلب عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا وصية لوارث ولا إقرار بدين».
حديث علي:
أخرجه الدارقطني (٤/ ٩٧) كتاب الفرائض حديث (٩١) من طريق يحيي بن أبي أنيسة عن أبي إسحاق الهمداني عن عاصم بن ضمرة عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «الدين قبل الوصية ولا وصية لوارث».
ومن طريق يحيي أخرجه ابن عديّ في «الكامل» (٧/ ١٩٠).
ويحيي بن أبي أنيسة:
قال أحمد: متروك الحديث.
وقال ابن المديني:لا يكتب حديثه. =

الأمةُ بالقَبول انتظم في سلك المتواتِر في صلاحيته للنسخ عند الحنفيةِ[(١)] على أن التحقيقَ أن الناسخَ حقيقةً هي آيةُ المواريث، وإنما الحديثُ مُبيِّنٌ لجهة نسخِها ببيانِ أنه تعالى كان قد كتب عليكم أن تؤدوا إلى الوالدين والأقربين حقوقَهم بحسب استحقاقهم من غير تبيين لمراتب استحقاقِهم ولا تعيين لمقادير أنصبائِهم بل فوض ذلك إلى آرائكم حيث قال: ﴿بالمعروف﴾ أي بالعدْل.

فالآن قد رَفَعَ ذلك الحُكمَ عنكم [وتولى][(٢)] لتبيين طبقاتِ استحقاقِ كلٍّ واحدٍ منهم وتعيينِ مقاديرِ حقوقِهم بالذات وأعطى كلَّ ذي حق منهم حقه الذي يستحقه بحكم القرابة من غير نقصٍ ولا زيادة ولم يدَعْ ثمةَ شيئًا فيه مدخلٌ لرأيكم أصلًا

=

وقال ابن معين: ليس بشيء.

وقال البخاري: لا يتابع في حديثه وليس بذاك.

وقال النسائي: متروك الحديث.

أسند ذلك ابن عديّ في «الكامل» عنهم.

- حديث عبد الله بن عمرو:

أخرجه الدارقطني (٤/ ٩٨) كتاب الفرائض حديث(٩٣) وابن عديّ في «الكامل» (٢/ ٨١٧) من طريقين عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال في خطبته يوم النحر: «لا وصية لوارث إلا أن يجيز الورثة».

- حديث معقل بن يسار:

أخرجه ابن عديّ في « الكامل» (٥/ ٢١١) من طريق علي بن الحسن بن يعمر ثنا المبارك ابن فضالة عن الحسن قال: قال معقل بن يسار: كنا بمنى، وكان رسول الله ﷺ يخطب، ولعاب ناقته بين كتفي، ففهمت من كلامه، قال: «لا وصية لوارث».

قال ابن عديّ: هذا الحديث باطل بهذا الإسناد.

- حديث زيد بن أرقم والبراء:

أخرجه ابن عديّ في «الكامل» (٦/ ٢٣٥٠) من طريق موسى بن عثمان الحضرمي عن أبي إسحاق عن البراء وزيد بن أرقم قالا: كنا مع النبي ﷺ يوم غدير خم ونحن نرفع غصن الشجرة عن رأسه فقال: «إن الصدقة لا تحل لي ولا لأهلي لعن الله من ادعى إلى غير أبيه ولعن الله من تولى غير مواليه الولد للفراش وللعاهر الحجر ليس لوارث وصية».

قال ابن عديّ: موسى بن عثمان حديثه ليس بمحفوظ.

وقال أبو حاتم : متروك.

ينظر اللسان (٦/ ١٢٥) والميزان (٤/ ٢١٤).

-مرسل مجاهد:

أخرجه البيهقي (٦/ ٢٦٤) كتاب الوصايا: باب نسخ الوصية للوالدين والأقربين، من طريق الشافعي عن ابن عيينة عن سليمان الأحول عن مجاهد به.

(١) في المخطوط: أئمتنا.

(٢) سقط من ط.

حسبما تُعرِب عنه الجملةُ المنفيَّةُ بـ «لا» النافية للجنس وتصديرُها بكلمة التنبيه، إذا تحققتَ هذا ظهر لك أن ما قيل مِنْ أن آيةَ المواريثِ لا تعارضُه بل تحقِّقه وتؤكِّدُه من حيث إنها تدلُ على تقديمِ الوصيةِ مطلقًا والحديثُ من الآحاد، وتلقّي الأمةِ إياه بالقَبول لا يُلحِقُه بالمتواتر ولعله احترَز عنه مَنْ فسَّر الوصيةَ بما أوصى به الله عز وجل من توريثِ الوالدَيْن والأقرَبين بقوله تعالى: ﴿يوصيكُم الله. . .﴾ [النساء، الآية ١١] أو بإيصاءِ المُحتَضَرِ لهم بتوفير ما أوصىٰ به الله تعالى عليهم ـ بمعزلٍ من التحقيق وكذا ما قيل من أن الوصيةَ للوارث كانت واجبةً بهذه الآية من غير تعيينٍ لأنصبائهم.

فلما نزلت آيةُ المواريثِ بيانًا للأنصباء بلفظ الإيصاءِ فُهم منها بتنبيه النبي ﷺ أن المرادَ منه هذه الوصيةُ التي كانت واجبة، كأنه قيل: إن الله تعالى أوصىٰ بنفسه تلك الوصيةَ ولم يُفَوِّضْها إليكم فقام الميراثُ مقامَ الوصيةِ فكان هذا معنى النسخ لا أن فيها دلالةً على رفع ذلك الحُكم، فإن مدلولَ آيةِ الوصيةِ حيث كان تفويضًا للأمر إلى آراء المكلَّفين على الإطلاق وتسنّي الخروج عن عُهدة التكليف بأداءِ ما أدَّى إليه آراؤُهم بالمعروف، فتكون آيةُ المواريثِ الناطقةِ بمراتب الاستحقاقِ وتفاصيل مقاديرِ الحقوقِ القاطعةِ بامتناع الزيادةِ والنقصِ بقوله تعالى: ﴿فريضةً من الله﴾ [النساء، الآية ١١. وسورة التوبة، الآية ٦٠] ناسخةً لها رافعةً لحُكمها مما لا يَشتبهُ على أحد، وقولُه تعالى: ﴿حقًا على المتقين﴾ مصدرٌ مؤكد أي حَقَّ ذلك حقًا ﴿فمنْ بدَّله﴾ أي غيَّره من الأوصياء والشهود ﴿بعد ما سمِعَه﴾ أي [بعد][1] ما وصل إليه وتحقّق لديه ﴿فإنما إثمُه﴾ أي إثمُ الإيصاءِ المُغيِّر أو إثمُ التبديل ﴿على الذين يُبدِّلونه﴾ لأنهم خانوا وخالفوا حكمَ الشرعِ، ووضعُ الموصولِ في موضع الضميرِ الراجعِ إلى (مَنْ) لتأكيد الإيذان بعِلّية ما في حيز الصلة الأولى، وإيثارُ الجمعِ للإشعار بتعدُّد المبدّلين أنواعًا أو كثرتِهم أفرادًا والإيذانِ بشمول الإثم لجميع الأفراد.

﴿إن الله سميع عليم﴾ وعيدٌ شديد للمبدلين ﴿فمنْ خافَ من موصٍ﴾ أي توقعَ وعلِم من قولهم: أخاف أن يُرسِلَ السماءَ وقرئ[2] من مُوَصٍّ ﴿جنَفًا﴾ أي ميلًا بالخطأ في الوصية ﴿أو إثمًا﴾ أي تعمدًا للجنف ﴿فأصلحَ بينهم﴾ أي بين المُوصىٰ

---

(١) سقط في ط.

(٢) قرأ بها: حمزة والكسائي وعاصم ويعقوب وخلف والحسن والأعمش وشعبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٥٤)، والإملاء للعكبري (١/ ٤٦)، والتيسير للداني (٧٩)، والسبعة لابن مجاهد (١٧٦)، والإعراب للنحاس (١/ ٢٣٤)، والبحر المحيط (٢/ ٢٤)، والكشاف للزمخشري (١/ ٢٨٢)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ١١٢).

لهم بإجرائهم على منهاج الشريعةِ الشريفةِ ﴿فلا إثمَ عليه﴾ أي في هذا التبديل لأنه تبديلُ باطلٍ إلى حق بخلاف الأول ﴿إن الله غفور رحيم﴾ وعدٌ للمُصْلِح، وذكرُ المغفرة لمطابقة ذكرِ الإثم وكونِ الفعل من جنس ما يُؤثِم.

﴿يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكُم الصيامُ﴾ بيان لحكمٍ آخرَ من الأحكام الشرعية وتكريرُ النداء لإظهارِ مزيدِ الاعتناءِ، والصيامُ والصومُ في اللغة: الإمساك عما تُنازِعُ إليه النفسُ ومنه قوله تعالى: ﴿إني نذرتُ للرَّحْمٰنِ صَوْمًا فلن أُكَلِّمَ﴾ [مريم، الآية: ٢٦]، وقيل: هو الإمساك عن الشيء مطلقًا ومنه صامت الريحُ إذا أمسكت عن الهبوب، والفرسُ إذا أمسكت عن العدْو قال: [البسيط]

خيلٌ صيامٌ وخيلٌ غيرُ صائمةٍ تحت العَجاجِ وأُخرى تعلِكُ اللُّجُما[1]

وفي الشريعة هو الإمساكُ نهارًا - مع النية - عن المفطِرات المعهودة التي هي معظمُ ما تشتهيه الأنفس ﴿كما كُتِبَ﴾ في حيِّز النصبِ على أنه نعتٌ للمصدر المؤكَّد أي كتابًا كائنًا كما كُتب أو على أنه حالٌ من المصدر المعْرِفة أي كتب عليكم الصيامُ الكَتْبَ مُشْبَهًا بما كُتب ف (ما) على الوجهين مصدريةٌ أو على أنه نعتٌ لمصدر من لفظ الصيام أي صومًا مماثلًا للصوم المكتوبِ على مَنْ قبلَكم ف (ما) موصولةٌ أو على أنه حال من الصيام أي حالَ كونِه مماثلًا لما كتِب ﴿على الذين مِنْ قبلِكم﴾ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والأممِ من لدُنْ آدمَ عليه السلام وفيه تأكيدٌ للحكم وترغيبٌ فيه وتطييبٌ لأنفس المخاطبين به فإن الشاقَّ إذا عمّ سهُل عملُه.

والمرادُ بالمماثلة إما المماثلةُ في أصل الوجوب، وإما في الوقت والمقدار كما رُوي أن صومَ رمضانَ كان مكتوبًا على اليهود والنصارى، أما اليهودُ فقد تركتْه وصامَتْ يومًا من السنة زعَموا أنه يومَ غرِقَ فرعونُ وكذبوا في ذلك فإنه كان يومَ عاشورا، وأما النصارى فإنهم صاموا رمضانَ حتى صادفوا حرًّا شديدًا فاجتمعت آراءُ علمائهم على تعيين فصلٍ واحدٍ بين الصيف والشتاء فجعلوه في الربيع وزادوا عليه عشَرةَ أيامٍ كفارةً لما صنعوا فصار أربعين ثم مرِضَ ملكُهم أو وقع فيهم موتٌ فزادوا عشرةَ أيامٍ فصار خمسين.

﴿لعلكم تتقون﴾ أي المعاصيَ فإن الصومَ يكسِرُ الشهوةَ الداعيةَ إليها كما قال عليه

---

(١) البيت للنابغة الذبياني في ملحق ديوانه ص(٢٤٠)، ولسان العرب (علك)، (صوم)، وتهذيب اللغة (١/ ٣١٣، ١٢/ ٢٥٩)، وجمهرة اللغة ص(٨٩٩)، وكتاب العين (١/ ٢٠٢)، ومقاييس اللغة (٣/ ٣٢٣، ٤/ ١٣٢)، ومجمل اللغة (٣/ ٢٥١)، والمخصص (١٣/ ٩٠)، والمعاني الكبير ص(٩١٥)، والكامل ص(٩٩٢)، وتاج العروس (علك)، و(صوم)، وبلا نسبة في المخصص (٦/ ١٨٤).

الصلاة والسلام: «فعليه بالصومِ فإنَّه[١] لَهُ وِجاءٌ»[٢] أو تتقون الإخلالَ بأدائه لأصالته أو تصِلون بذلك إلى رتبة التقوى.

﴿أيَّامًا معدوداتٍ﴾ مؤقتاتٍ بعدد معلوم أو قلائلَ فإن القليلَ من المال يُعدّ عدًا والكثير يُهال هَيْلًا والمرادُ بها إما رمضانُ أوَ ما وجب في بدء الإسلام ثم نُسخ به من صوم عاشوراءَ وثلاثةِ أيامٍ من كل شهر، وانتصابُه ليس بـ (الصيام) كما قيل لوقوع الفصلِ بينهما بأجنبي، بل بمضمرٍ دل هو عليه أعني صوموا إما على الظرفية أو المفعولية اتساعًا وقيل: بقوله تعالى: ﴿كُتب﴾ على أحد الوجهين وفيه أن الأيامَ ليست محلًا له بل للمكتوب فلا تتحققُ الظرفيةُ ولا المفعولية المتفرِّعةُ عليها اتساعًا.

﴿فمن كان مِنكم مَريضًا﴾ أي مرَضًا يضُره الصومُ أو يعسُر معه ﴿أو على سفر﴾ مستمرّين عليه، وفيه تلويحٌ ورمزٌ إلى أن من سافر في أثناء اليوم لم يُفطر ﴿فعِدَّة﴾ أي فعليه صومُ عدةِ أيامِ المرضِ والسفر ﴿من أيام أُخَرَ﴾ إن أفطر، فحُذِفَ الشرطُ

---

(١) في المخطوط: فإن الصوم.

(٢) أخرجه البخاري (٤/ ١٤٢) كتاب الصوم: باب الصوم لمن خاف على نفسه العزوبة حديث (١٩٠٥)، (٩/ ٨) كتاب النكاح: باب قول النبي ﷺ «من استطاع منكم الباءة فليتزوج» حديث (٥٠٦٥) ومسلم (٢/ ١٠١٨) كتاب النكاح باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه... حديث (١/ ١٤٠٠) وأبو داود (١/ ٦٢٤) كتاب النكاح: باب التحريض على النكاح، والنسائي (٤/ ١٧١) كتاب الصوم، باب: فضل الصيام (٦/ ٥٦) كتاب النكاح، باب: الحث على النكاح، وابن ماجه (١/ ٥٩٢) كتاب النكاح: باب ما جاء في فضل النكاح حديث(١٨٤٥)، والدارمي (٢/ ١٣٢) كتاب النكاح: باب الحث على التزويج، وأحمد (١/ ٣٧٨، ٤٤٧)، والطيالسي (١/ ٣٠٣-منحة) رقم (١٥٤٥)، وأبو يعلى (٩/ ٤٦، ٤٧) رقم (٥١١٠)، والبيهقي (٧/ ٧٧) كتاب النكاح: باب الرغبة في النكاح، وفي «شعب الإيمان» (٤/ ٣٨٠) رقم (٥٤٧٦)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٣/ ١٥٦) كلهم من طريق إبراهيم عن علقمة عن ابن مسعود مرفوعًا.

وأخرجه البخاري (٩/ ١٢) كتاب النكاح: باب من لم يستطع الباءة فليصم حديث (٥٠٦٦)، ومسلم (٢/ ١٠١٩) كتاب النكاح: باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه حديث (٣، ٤/ ١٤٠٠)، والترمذي (٣/ ٣٩٢) كتاب النكاح: باب ما جاء في فضل التزويج والحث عليه حديث (١٠٨١)، والنسائي (٤/ ١٦٩-١٧٠) كتاب الصيام: باب فضل الصيام، (٦/ ٥٧-٥٨) كتاب النكاح: باب الحث على النكاح، والدارمي (٢/ ١٣٢) كتاب النكاح: باب الحث على التزويج، وأحمد (١/ ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٣٢)، وعبد الرزاق (٦/ ١٦٩) رقم (١٠٣٨٠)، والحميدي (١/ ٦٣) رقم (١١٥)، وابن حبان (٤٠٣٤)، والبيهقي (٧/ ٧٧) كتاب النكاح: باب الرغبة في النكاح والبغوي في «شرح السنة» (٥/ ٣) كلهم من طريق الأعمش عن عمارة بن عمير عن عبد الرحمن بن يزيد عن ابن مسعود مرفوعًا.

وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

والمضافُ ثقةً بالظهور، وقرئ[١] بالنصب أي فليصُم عِدةً وهذا على سبيل الرخصة[٢] وقيل: على الوجوب وإليه ذهب الظاهرية وبه قال أبو هريرة رضي الله عنه.

﴿وعلى الذين يُطيقونه﴾ أي وعلى المُطيقين للصيام إن أفطروا ﴿فديةٌ﴾ أي إعطاءَ فديةٍ وهي ﴿طعامُ مسكين﴾ وهو نصفُ صاع من بُرٍّ أو صاعٌ من غيره عند أهل العراق، ومُدٌّ عند أهل الحجاز وكان ذلك في بدء الإسلام لما أنه قد فُرض عليهم الصومُ وما كانوا متعوِّدين له فاشتد عليهم فرُخِّص لهم في الإفطار والفِدية.

وقرئ[٣] «يُطَوَّقُونه» أي: يكلَّفونه أو يُقلَّدونه و«يتطوَّقونه» و«يطَّوَقونه»[٤] بإدغام التاء في الطاء و«يَطَّيّقونه» و«يطوقونه»[٥] بمعنى يتطيقونه وأصلهما يطَّيْوَقونه ويتطوَّقونه من فيعل وتفيعل من الطوْق فأُدغمت الياء في الواو بعد قلبها ياء كقولهم: تديّر المكان وما بها ديّار، وفيه وجهان أحدُهما نحوُ معنى يُطيقونه والثاني يكلَّفونه أو يَتَكلفونه على جهدٍ منهم وعُسر وهم الشيوخُ والعجائزُ وحكمُ هؤلاءِ الإفطارُ والفديةُ[٦]

---

(١) قرأ بها: الكسائي.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٢٣٥)، والبحر المحيط (٢/ ٣٢)، والكشاف للزمخشري (١/ ١١٣)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ١١٨).

(٢) الرخصة لغة التسهيل في الأمر والتيسير، يقال: رخص الشرع لنا في كذا ترخيصا وأرخص إرخاصا إذا يسره وسهله، والرخصة في الأمر: خلاف التشديد فيه.
واصطلاحا: ما ثبت على خلاف الدليل لعذر.
فلا بد في الرخصة من وجود عذر، وأن تكون ثابتة بدليل وراء العذر، وأن تكون على خلاف دليل قائم، كنطق المكره بكلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان.
ينظر: مادة «رخص» في المصباح المنير (٨٥)، مختار الصحاح (٢٣٩)، مفتاح الوصول للفاسي (١٢١)، نهاية السول (١/ ٧٠).

(٣) قرأ بها: ابن عباس، وعائشة، ومجاهد، وعكرمة، وطاووس، وسعيد بن جبير، وعطاء، وسعيد بن المسيب، وأيوب السختياني.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٢٣٦)، والإملاء للعكبري (١/ ٤٦)، والبحر المحيط (٢/ ٣٥)، والتبيان للطوسي (٢/ ١١٩)، وتفسير الطبري (٣/ ٤١٨، ٤٣٠)، وتفسير القرطبي (٢/ ٢٨٦)، والكشاف للزمخشري (١/ ١١٣)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٢٧٢)، والمحتسب لابن جني (١/ ١١٨)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ١٢٠).

(٤) قرأ بها: عائشة، ومجاهد، وطاوس، وعمرو بن دينار.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٢٣٦)، والبحر المحيط (٢/ ٣٥)، والمحتسب لابن جني (١/ ١١٨).

(٥) قرأ بها: حميد.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٢٣٦)، والبحر المحيط (٢/ ٣٥).

(٦) الفدية: لغة: فداه وفاداه إذا أعطى فداءه فأنقذه، وفداه بنفسه وفداه إذا قال له: جعلت فداك

=

وهو حينئذ غيرُ منسوخٍ.

ويجوز أن يكون هذا معنى يطيقونه أو يصومونه جهدَهم وطاقتَهم ومبلغَ وسعهم ﴿فمن تطوَّعَ خيرًا﴾ فزاد في الفدية ﴿فهو﴾ أي: التطوُّعُ أو الخيرُ الذي تطوَّعه ﴿خيرٌ له وأنْ تصوموا﴾ أيها المُطيقون أو المُطوِّقون وتحمِلوا على أنفسكم وتجهَدوا طاقتكم أو المرَخَّصون في الإفطار من المرضى والمسافرين ﴿خيرٌ لكم﴾ من الفدية أو من تطوُّعَ الخير أو منهما أو من التأخير إلى أيام أُخَرَ، والالتفاتُ إلى الخطاب للهز والتنشيط ﴿إن كنتم تعلمون﴾ أي ما في صومِكم مع تحقّق المبيحِ للإفطار من الفضيلة، والجوابُ محذوفٌ ثقةً بظهوره أي اخترتموه أو سارعتم إليه.

وقيل: معناه إن كنتم من أهلِ العلمِ والتدبُّر علمتم أن الصومَ خيرٌ من ذلك.

﴿شهرُ رَمَضانَ﴾ مبتدأٌ سيأتي خبرُه أو خبرٌ لمبتدإٍ محذوف، أي ذلك شهرُ رمضانَ أو بدلٌ من الصيام على حذف المضافِ أي صيامُ شهرِ رمضانَ وقرئ[1] بالنصب على إضمار صُوموا أو على أنه مفعولُ تصوموا أو بدلٌ من (أيامًا معدودات) ورمضانُ مصدرُ رمِضَ أي احترق من الرمضاء فأضيفَ إليه الشهرُ وجُعل علمًا.

ومُنع الصرفَ للتعريف والألفِ والنون كما قيل: ابنُ دأْيةَ للغراب فقولُه عليه السلام: «من صام رمضانَ»[2] الحديثُ واردٌ على حذف المضافِ للأمن من الالتباس

---

= والفدية، والفداء، كله بمعنى واحد، وهو: ما يقوم مقام الشيء في تلقي المكروه المتوجه عليه.
ينظر: لسان العرب (١١/ ١٤٣) مادة (فدي) والمصباح المنير (٢٤٧) مادة (فداه).
واصطلاحا: هي ما يقدم لله ـ تعالى ـ جزاء لتقصير في العبادة.
راجع: التقرير والتحبير (٣/ ٦٩) والقاموس الفقهي (٢٨١) والمنثور (٢/ ١٥٢).
قال الزركشي في الفدية بأنها تدخل في الصوم للعاجز عنه بالهرم والمرض والموت، وكذا الإفطار للمرضع خوفا علي الولد.
راجع هذه المسألة في المنثور للزركشي (٢/ ١٥٢) والمجموع (٦/ ٢٥٦).

(١) قرأ بها: أبو عمرو، وعاصم، ومجاهد، وشهر بن حوشب، والحسن، وهارون الأعور، وأبو عمارة، وحفص.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٥٤)، والإملاء للعكبري (١/ ٤٨)، والبحر المحيط (٢/ ٣٨)، وتفسير الطبري (٣/ ٤٤٥)، وتفسير القرطبي (٢/ ٢٩٧)، والكشاف للزمخشري (١/ ١١٣)، والمعاني للفراء (١/ ١١٢)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ١٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (٤/ ٢٥٠): كتاب صلاة التراويح، باب: فضل من قام رمضان، الحديث (٢٠٠٩)، ومسلم (١/ ٥٢٣) كتاب المسافرين، باب: الترغيب في قيام رمضان، الحديث(١٧٣/ ٧٥٩)، ومالك (١/ ١١٣) كتاب الصلاة في رمضان: باب الترغيب في الصلاة في رمضان(٢)، وأبو داود (١/ ٤٣٦) كتاب الصلاة: باب في قيام شهر رمضان (١٣٧١)، والنسائي (٣/ ٢٢) كتاب قيام الليل : باب ثواب من =

وإنما سُمِّي بذلك إما لارتماضِهم فيه من الجوع والعطشِ وإما لارتماض الذنوب بالصيام فيه أو لوقوعه في أيام رَمَضِ الحرِّ عند نَقْل أسماء الشهور عن اللغة القديمة.

﴿الذي أُنزلَ فيه القرآنُ﴾ خبرٌ للمبتدأ على الوجه الأول وصفةٌ لـ «شهر رمضانَ» على الوجوه الباقية، ومعنى إنزالِه فيه أنه ابتُدِئ إنزالُه فيه وكان ذلك ليلةَ القدرِ، أو أنزل فيه جملةً إلى السماء الدنيا ثم نزل مُنَجَّمًا إلى الأرض حسبما تقتضيه المشيئةُ الربانية أو أُنزل في شأنه القرآنُ وهو قولُه عز وجل: ﴿كُتب عليكم﴾ [البقرة، الآيات: ١٧٨، ١٨٠، ١٨٣، ٢١٦، ٢٤٦].

وعن النبي ﷺ: «نزلتْ صحفُ إبراهيمَ أولَ ليلةٍ من رمضانَ وأُنزلت التوراةُ لستٍ مضَيْن منه والإنجيلُ لثلاثَ عشرةَ منه، والقرآنُ لأربع وعشرين»(١).

﴿هدىً للناس وبيناتٍ من الهدى والفُرقان﴾ حالان من القرآن أي أُنزل حال كونه هدايةً للناس بما فيه من الإعجاز وغيرِه وآياتٍ واضحة مرشدة إلى الحق فارقةً بينه وبين الباطل بما فيه من الحُكم والأحكام.

﴿فمن شهِدَ منْكُم الشهرَ﴾ أي حضرَ فيه ولم يكن مسافرًا، ووضعُ الظاهر موضعَ الضمير للتعظيم والمبالغة في البيان، والفاءُ للتفريع والترتيب، أو لتضمُّن المبتدإ معنى الشرط، أو زائدةٌ على تقدير كونِ ﴿شهرُ رمضانَ﴾ مبتدأً والموصولُ صفة له، وهذه الجملةُ خبرٌ له وقيل: هي جزائية كأنه قيل: لما كُتب عليكم الصيامُ في ذلك الشهر

=

قام رمضان إيمانًا واحتسابًا (١٦٠٣)، والترمذي (٣/ ١٧١-١٧٢) كتاب الصوم: باب الترغيب في قيام رمضان وما فيه من الفضل (٨٠٨)، وابن ماجه (١/ ٤٢٠) كتاب إقامة الصلاة: باب ما جاء في قيام شهر رمضان (١٣٢٦) وأحمد (١/ ٢٨١، ٢٨٩، ٤٠٨، ٤٢٣) والدارمي(٢/ ٢٦) كتاب الصوم: باب في فضل قيام شهر رمضان، والبيهقي (٢/ ٤٩٢) وابن خزيمة(٣/ ٣٣٦) رقم (٢٢٠٢) من طرق عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة به.

وقال الترمذي: حسن صحيح.

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٠٧) من حديث أبي سعيد مولى بني هاشم ثنا عمران أبو العوام عن قتادة عن أبي المليح عن واثلة بن الأسقع مرفوعًا، وابن جرير في التفسير (٣/ ٤٤٦) رقم (٢٨١٤)، حدثنا أحمد بن منصور قال حدثنا عبد الله بن رجاء قال حدثنا عمران به والطبراني في الكبير (٢٢/ ٧٥) رقم (١٨٥)، وذكره السيوطي في الدر(١/ ١٨٩)، وعزاه لمحمد بن نصر وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب.

وروى أبو يعلى في مسنده (٤/ ١٣٥) رقم (٢١٩٠)، من حديث أبي المليح عن جابر بن عبد الله موقوفًا.

قال الهيثمي في المجمع (١/ ٢٠٢):

«رواه أبو يعلى، وفيه سفيان بن وكيع وهو ضعيف». ا هـ.

فمنْ حضَرَ فيه ﴿فليصُمْه﴾ أي فليصم فيه بحذف الجار وإيصالِ الفعل إلى المجرور اتساعًا.

وقيل: من شهد منكم هلالَ الشهرِ فليصمْه على أنه مفعولٌ به كقولك: شهِدتُ الجمعةَ أي صلاتها فيكونُ ما بعده مخصِّصًا له كأنه قيل: ﴿ومَنْ كان مريضًا﴾ وإن كان مقيمًا [حاضِرًا فيه][1] ﴿أو على سفرٍ﴾ وإن كان صحيحًا ﴿فعدةٌ من أيام أُخَرَ﴾ أي فعليه صيامُ أيامٍ أخَرَ لأن المريضَ والمسافرَ ممن شهد الشهرَ، ولعل التكريرَ لذلك أو لئلا يُتَوَهم نسخُه كما نُسخ قرينُه.

﴿يريد الله﴾ بهذا الترخيص ﴿بكم اليُسرَ ولا يريد بكم العُسرَ﴾ لغاية [هي][2] رأفتُه وسعةُ رحمتِه ﴿ولتُكمِلوا العِدّة ولتُكَبِّروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون﴾ تعليلٌ[3] لفعلٍ محذوف يدلُّ عليه ما سبق أي ولهذه الأمورِ شُرِعَ ما مرَّ من أمرِ الشاهد بصوْمِ الشهر وأمرِ المرخَّص لهم بمراعاة عدةِ ما أَفطر فيه ومن الترخيص في إباحة الفطر، فقوله تعالى: ﴿لتكملوا﴾ علةُ الأمر بمراعاة العِدة ولتكبروا علةُ ما عَلِمه من كيفية القضاء، ﴿ولعلكم تشكرون﴾ علةُ الترخيص والتيسيرِ، وتعديةُ فعل التكبير بـ (على) لتضمُّنه معنى الحمد كأنه قيل: ولتكبروا الله حامدين على ما هداكم، ويجوز أن تكون معطوفةً على علة مقدرةٍ مثلُ ليُسهل عليكم أو لتعلموا ما تعملون ولتكملوا... الخ.

ويجوز عطفُها على (اليُسرَ) أي يريد بكم لتكملوا... إلخ كقوله تعالى: ﴿يريدون ليطفئوا﴾ [الصف، الآية ٨] إلخ والمعنى بالتكبير تعظيمُه تعالى بالحمد والثناءِ عليه.

وقيل: تكبيرُ يومِ العيد.

وقيل: التكبيرُ عند الإهلال.

و(ما) تحتمل المصدريةَ والموصولة أي: على هدايته إياكم أو على الذي هداكم إليه وقرئ[4] و«لِتُكَمِّلوا» بالتشديد.

---

(١) سقط في ط.
(٢) سقط في ط.
(٣) في المخطوط: علَّل.
(٤) قرأ بها: أبو عمرو، وعاصم، والحسن، وقتادة، والأعرج، وشعبة، وأبو رجاء، وأبو عبد الرحمن، وابن أبي إسحاق، والجحدري، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٥٤)، والإعراب للنحاس (١/ ٢٣٩)، والبحر المحيط (٢/ ٤٥)، والتبيان للطوسي (٢/ ١٢٠)، والتيسير للداني (٧٩)، وتفسير القرطبي (٢/ ٣٠٥)، والحجة لابن خالويه ٩٣، والحجة لأبي زرعة (١٢٦)، والسبعة لابن مجاهد (١٧٦)، والغيث للصفاقسي (١٤٨)، والكشاف للزمخشري (١/ ١١٤)، والكشف للقيسي (١/ ٢٨٣)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٢٧٤)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢٢٦).

﴿وإذا سألكَ عِبادي عني﴾ في تلوينِ الخطابِ وتوجيهِه إلى رسول الله ﷺ ما لا يخفى من تشريفِه ورفعِ محله ﴿فإني قريبٌ﴾ أي: فقل لهم إني قريبٌ وهو تمثيلٌ[1] لكمال علمِه بأفعال العبادِ وأقوالِهم واطلاعِه على أحوالهم بحال من قُربِ مكانُه.

رُوي أن أعرابيًا قال لرسول الله ﷺ: أقريبٌ ربُّنا فنناجيَه أم بعيدٌ فنناديَه؟ فنزلت ﴿أُجيبُ دعوةَ الداعِ إذا دعانِ﴾[2] تقريرٌ للقُرب وتحقيقٌ له ووعدٌ للداعي بالإجابة.

﴿فليستجيبوا لي﴾ إذا دعوتُهم للإيمان والطاعةِ كما أجيبهم إذا دعَوْني لمُهمّاتهم ﴿وليؤمنوا بي﴾ أمرٌ بالثبات على ما هم عليه ﴿لعلهم يرشُدون﴾ راجين إصابةَ الرُشْد أي الحقِّ.

وقرئ بفتح[3] الشين وكسرِها[4]، ولمّا أمرهم الله تعالى بصوم الشهرِ ومراعاةِ العِدةِ وحثَّهم على القيام بوظائفِ التكبير والشكرِ عقّبه بهذه الآيةِ الكريمةِ الدالةِ على أنه تعالى خبيرٌ بأحوالهم سميعٌ لأقوالهم مجيبٌ لدعائهم مجازيهم على أعمالهم تأكيدًا له وحثًا عليه.

ثم شرَع في بيان أحكام الصيام فقال: ﴿أُحِلَّ لكم ليلةَ الصيام الرَّفَثُ إلى نسائِكم﴾ رُوي: «أن المسلمين كانوا إذا أمسَوْا حلَّ لهم الأكلُ والشربُ والجِماعُ إلى أن يُصلّوا العشاءَ الأخيرة أو يرقُدوا، ثم إن عمرَ رضي الله عنه باشر بعد العِشاء فندِم، وأتى النبيَّ ﷺ واعتذر إليه فقام رجالٌ فاعترفوا بما صنعوا بعد العِشاء فنزلت»[5] وليلةُ الصيام الليلةُ التي يصبحُ منها صائمًا والرفثُ: كنايةٌ[6] عن الجماع لأنه لا يكاد يخلو

---

(١) أي أنها استعارة تمثيلية، وقد مضى الحديث عنها.
ينظر: شروح التلخيص (٤/ ٥٦) وما بعدها، ومفتاح العلوم للسكاكي (٣٨٠)، والمثل السائر (٢/ ٨٣) وما بعدها، والصناعتين (٢٩٥) وما بعدها.

(٢) أخرجه الطبري (٢/ ١٥٨)، وابن أبي حاتم (١/ ٣١٤) برقم (١٦٦٧).

(٣) ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ٤٨)، والبحر المحيط (٢/ ٤٧)، والكشاف (١/ ١١٤).

(٤) قرأ بها: أبو حيوة، وإبراهيم بن أبي عبلة.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ٤٨)، والبحر المحيط (٢/ ٤٧)، والكشاف للزمخشري (١/ ١١٤)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ١٣٣).

(٥) رواه ابن جرير (٣/ ٤٩٧، ٤٩٨) رقم (٢٩٤٣) حدثني محمد بن سعد قال: «حدثني أبي حدثني عمي حدثني أبي عن أبيه عن ابن عباس قوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾ إلى ﴿وَعَفَا عَنكُمْ﴾ كان الناس أول ما أسلموا إذا صام أحدهم يصوم يومه حتى إذا أمسى طعم ... في قصة طويلة، فنزلت الآية ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ﴾ الآية ورواه أيضا عن السدي في قصة طويلة (٣/ ٥٠١) رقم (٢٩٤٩).

(٦) أي كناية عن صفة، والكناية لون من ألوان البيان، وقد سبق الحديث عنها بإفاضة عند قوله تعالى: ﴿ولا =

من رفث، وهو الإفصاحُ بما يجب أن يكنَّى عنه، وعُدِّي بـ «إلى» لتضمُّنه معنى الإفضاءِ والإنهاء، وإيثارُه هاهنا لاستقباح ما ارتكبوه ولذلك سمِّي خيانةً.

وقرئ[1] «الرُّفوث»، وتقديمُ الظرف على القائم مقامَ الفاعل لما مرَّ مرارًا من التشويق فإن ما حقُّه التقديمُ إذا أُخِّر تبقى النفسُ مترقبةً إليه فيتمكن وقتَ ورودِه فضلَ تمكن.

﴿هنّ لباسٌ لكم وأنتم لباسٌ لهن﴾ استئنافٌ مبينٌ لسبب الإحلالِ وهو صعوبةُ الصبر عنهنّ مع شِدة المخالطة[2] وكَثرةِ الملابَسة بهن، وجُعل كلٌّ من الرجل والمرأة لِباسًا للآخرَ لاعتناقهما واشتمال كلٍّ منهما على الآخر بالليل قال: [المتقارب]

إذا ما الضجيعُ ثَنَى عِطفَها ... تثنَّتْ فكانت عليه لِباسا[3]

أو لأن كلًا منهما يستُر حالَ صاحبِه ويمنعُه من الفجور.

﴿علِم الله أنكم كنتم تختانون أنفسَكم﴾ استئنافٌ آخرُ مبين لما ذُكر من السبب، والاختيانُ أبلغُ من الخيانة كالاكتساب من الكسْب، ومعنى تختانون تظلِمونها بتعريضها للعقاب وتنقيصِ حظِّها من الثواب ﴿فتابَ عليكم﴾ عطفٌ على «علِم» أي تابَ عليكم لما تُبتم مما اقترفتموه ﴿وعفا عنكم﴾ أي محا أثرَه عنك ﴿فالآنَ﴾ لما نُسخ التحريمُ ﴿باشروهن﴾ المباشرةُ إلزاقُ البَشَرة بالبَشَرة كُنِّي بها عن الجماع الذي يستلزِمُها وفيه دليلٌ على جواز نسخ الكتاب للسنة ﴿وابتغوا ما كتَبَ الله لكم﴾ أي واطلُبوا ما قدّره الله لكم وقرَّره في اللوحِ من الوَلدِ وفيه أن المباشِرَ ينبغي أنْ يكونَ

---

= يكلمهم الله...﴾.
ينظر: شروح التلخيص (٤/ ٢٧٤) وما بعدها، والطراز للعلوي (١/ ٣٧٢، ٢٧٣)، ومفتاح العلوم (١٨٩)، ودلائل الإعجاز (٥١)، وسر الفصاحة (٢٢١) وما بعدها، والإيضاح مع البغية (٣/ ١٧٣).

(١) قرأ بها: عبد الله بن مسعود.
ينظر: البحر المحيط (٢/ ٤٨)، وتفسير الطبري (٣/ ٣٨٧)، والكشاف للزمخشري (١/ ١١٥)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ١٣٥).

(٢) يقصد الشيخ أن الآية من قبيل التشبيه البليغ لحذف الأداة والوجه، وفي مثل هذا الموضع خلاف، أمن التشبيه هو أم من الاستعارة؟ والراجح أنه من التشبيه، وقد سبق الحديث عن الفرق بين التشبيه البليغ وبين الاستعارة.
ينظر: الصناعتين (٢٦١)، وسر الفصاحة (١١٩)، والكشاف (١/ ٣٣٨)، وأنوار التنزيل (١/ ١٠٣)، والفتوحات الإلهية (١/ ١٤٩)، وغرائب القرآن (٢/ ٢٠٧)، والتحرير والتنوير (٢/ ١٨٢).

(٣) البيت للنابغة الجعدي في ديوانه ص(٨١)، ومقاييس اللغة (٥/ ٢٣٠)، وتهذيب اللغة (١٢/ ٤٤٤)، ومجمل اللغة (٤/ ٢٦٢)، وتاج العروس (١٦/ ٤٦٨) (لبس)، ولسان العرب (لبس)، والشعر والشعراء ص(٣٠٢).

غرضُه الولدَ فإنه الحكمةُ في خلق الشهوةِ وتشريعِ[(١)] النكاحِ لا قضاءِ الشهوة.

وقيل: فيه نهيٌ عن العَزْل.

وقيل: عن غير المأتيّ، والتقديرُ وابتغوا المحلَ الذي كُتب لكم ﴿وكلوا واشرَبوا حتى يتبيَّنَ لكم الخيطُ الأبيضُ من الخيط الأسود من الفجر﴾ شبَّه أولَ ما يبدو من الفجر المعترِض في الأفق وما يمتدّ معه من غَلَس الليل بخيطين أبيضَ وأسودَ، واكتفى ببيان الخيط الأبيض بقوله تعالى: ﴿من الفجر﴾ عن بيان الخيطِ الأسودِ لدلالته عليه وبذلك خرجا عن الاستعارة إلى التمثيل[(٢)].

ويجوز أن يكون (من) للتبعيض فإن ما يبدو بعضُ الفجر.

وما رُوي من أنها نزلت ولم ينزلْ من الفجر فعمَد رجالٌ إلى خيطين أبيضَ وأسودَ وطفِقوا يأكلون ويشربون حتى يتبيَّنا لهم، فنزلت[(٣)] فلعل ذلك كان قبل دخولِ رمضانَ وتأخيرُ البيان إلى وقت الحاجة جائز، واكتُفي أولًا باشتهارهما في ذلك ثم صُرِّح بالبيان لما التَبَس على بعضهم، وفي تجويز المباشرةِ إلى الصبح دلالةٌ على جواز تأخيرِ الغُسلِ إليه وصحةِ صومِ من أصبح جُنبًا.

﴿ثم أتمُّوا الصيامَ إلى الليل﴾ بيانٌ لآخرِ وقتِه ﴿ولا تُباشِروهنَّ وأنتم عاكفون في المساجد﴾ أي معتكِفون فيها والمرادُ بالمباشرة الجِماعُ.

وعن قتادةَ: «كان الرجلُ يعتكِفُ فيخرُجُ إلى امرأته فيباشرُها ثم يرجِع فنُهوا عن ذلك» وفيه دليلٌ على أن الاعتكافَ[(٤)] يكون في المسجد غيرَ مختص ببعضٍ دون بعضٍ

---

(١) في المخطوط: وشرع.

(٢) يشير بذلك إلى أن الآية من قبيل التشبيه التمثيلي، وقد مضى الحديث عنه، وهو في الكشاف تشبيه بليغ.
ينظر: الكشاف (١/ ٣٣٩)، والتحرير والتنوير (٢/ ١٨٣).

(٣) أخرجه البخاري (٩/ ٣٨) كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ﴾ حديث (٤٥٠٩)، ورواه في (٤/ ٦٢٩) كتاب الصوم، باب قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ ...﴾ الآية حديث (١٩١٦)، ومسلم (٤/ ٢١٤-نووي) كتاب الصيام، باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر حديث (١٠٩٠)، وأبو داود (٢/ ٧١٧) كتاب الصيام، باب وقت السحور حديث (٢٣٤٩)، والترمذي (٥/ ٢١١) كتاب التفسير، حديث(٢٩٧١)، وابن حبان (٨/ ٢٤٢) رقم (٣٤٦٢)، والبيهقي في الكبرى (٤/ ٢١٥) كتاب الصيام، باب الوقت الذي يحرم فيه الطعام على الصائم، والطحاوي (٢/ ٥٣)، والدارمي (٢/ ٥، ٦) كتاب الصوم، باب متى يمسك المتسحر عن الطعام والشراب، والطبراني في المعجم الكبير (١٧/ ٧٨، ٧٩) رقم (١٧٢-١٧٩)، والطبري في تفسيره (٣/ ٥١٢، ٥١٣) رقم (٢٩٨٧، ٢٩٨٨).

(٤) الاعتكاف في اللغة: الحبس، واللبث، والملازمة للشيء، يقال: عكف يَعْكُف، ويَعْكِف - بضم الكاف =

وأن الوطءَ فيه حرامٌ ومفسدٌ له لأن النهيَ في العبادات يوجبُ الفساد[١].

﴿تلك حدودُ الله﴾ أي الأحكامُ المذكورةُ حدودٌ وضعها الله تعالى لعباده ﴿فلا تقرَبوها﴾ فضلًا عن تجاوُزها، نهْيٌ أن يُقرَبَ الحدُّ الحاجزُ بين الحقِّ والباطل مبالغةً في النهي عن تخطِّيها كما قال ﷺ: «إن لكل ملكٍ حِمىً وحِمى الله محارمُه فمن رتَعَ حولَ الحِمى يُوشك أن يقَعَ فيه»[٢] ويجوز أن يراد بـ «حدود الله» تعالى محارمُه

= وكسرها - عُكُوفًا وعَكْفًا، أي: أقام على الشيء، لا يعدل عنه. وعكفته أعكفه - بكسر الكاف وضمها أيضًا - عَكْفًا، فلفظ «عكف» يكون لازما ومتعديا؛ كرجع ورَجَعْتُهُ، ونقص ونَقَصْتُهُ، ويسمى الاعتكاف جوارًا.

والاعتكاف اصطلاحًا:

عرفه الحنفية بأنه: المقام في مكان مخصوص، وهو المسجد، بأوصاف مخصوصة من النية والصوم وغيرها.

وعرفه الشافعية بأنه: اللبث في المسجد، من شخص مخصوص بنية.

وعرفه المالكية بأنه: لزوم مسلم مميز، مسجدًا مباحًا، بصوم، كافًّا عن الجماع ومقدماته، يومًا وليلة فأكثر، للعبادة بنية.

وعرفه الحنابلة بأنه: لزوم المسجد لطاعة الله على صفة مخصوصة، من مسلم عاقل ولو مميز، طاهر مما يوجب غُسْلاً.

ينظر: الصحاح (٤/ ١٤٠٦)، لسان العرب (٤/ ٣٠٥٨)، ترتيب القاموس (٣/ ٢٨٦)، النهاية في غريب الحديث (٣/ ٢٨٤)، والاختيار ص (١٧٣)، مغني المحتاج (١/ ٤٤٩)، الشرح الكبير بهامش حاشية الدسوقي (١/ ٥٤١)، كشاف القناع (٢/ ٣٤٧)، نهاية المحتاج (٣/ ٢١٣)، أسهل المدارك شرح إرشاد السالك في فقه الإمام مالك لشهاب الدين عبد الرحمن بن حمد بن عسكر المالكي البغدادي، ط(١)، مطبعة عيسى البابي الحلبي (١/ ٤٣٣).

(١) يرى البعض كأبي الحسن البصري والرازي والغزالي وغيرهم أن النهي في الحديث لا يقتضي الفساد إلا في العبادات دون المعاملات ، ويرى الجمهور أن النهي إذا تعلق بالفعل لذاته أو لجزئه ، فإن النهي هنا يقتضي الفساد المرادف للبطلان ، فالمنهي عنه لو لم يفسد للزم من نفيه حكمة يدل عليها النهي ، ومن ثبوته حكمة تدل عليها الصحة ، واستدل الجمهور أيضاً بأن الأمر يقتضي الصحة والنهي يقتضي نقيضه والنقيضان لا يجتمعان ، فيكون النهي مقتضياً الفساد.

ينظر: إرشاد الفحول إلى تحقيق علم الأصول، ص (١١٠) وما بعدها.

(٢) أخرجه البخاري (١/ ١٥٣) كتاب الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه(٥٢)، ورواه في البيوع، باب: الحلال بين والحرام بين (٢٠٥١)، ومسلم (٣/ ١٢١٩) كتاب المساقاة، باب: أخذ الحلال وترك الشبهات (١٥٩٩)، وأبو داود (٢/ ٢٦٣)، كتاب البيوع، باب: في اجتناب الشبهات (٣٣٢٩، ٣٣٣٠)، والترمذي (٣/ ٥٠٢) كتاب البيوع، باب: ما جاء في ترك الشبهات (١٢٠٥)، وابن ماجه (٢/ ١٣١٨، ١٣١٩) كتاب الفتن، باب: الوقوف عند الشبهات (٣٩٨٤)، والنسائي (٧/ ٢٤١) كتاب البيوع، باب: اجتناب الشبهات (٨/ ٣٢٧) كتاب الأشربة، باب: الحث على ترك الشبهات، وأحمد في مسنده (٤/ ٢٦٧، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١) والدارمي (٢/ ٢٤٥)، والبيهقي في السنن (٥/ ٦٤، =

ومناهيه ﴿كذلك﴾ أي مثلَ ذلك التبين البليغ ﴿يبينُ الله آياتِه﴾ الدالةَ على الأحكام التي شرعها ﴿للناس لعلهم يتّقون﴾ مخالفةَ أوامرِه ونواهيه.

﴿ولا تأكلُوا أموالَكم بينكم بالباطل﴾ نهيٌ عن أكل بعضِهم أموالَ بعضٍ على خلاف حُكم الله تعالى بعد النهي عن أكل أموالِ أنفسِهم في نهار رمضانَ أي لا يأكل بعضكم أموال[1] بعض بالوجه الذي لم يُبِحْه الله تعالى و(بيْن) نصب على الظرفية أو الحالية من أموالكم ﴿وتُدلوا بها إلى الحكَّام﴾ عطفٌ على المنهيِّ عنه أو نُصِبَ بإضمار أن، والإدلاءُ: الإلقاءُ أي ولا تُلقوا حكومتَها إلى الحكام ﴿لتأكُلوا﴾ بالتحاكم إليهم ﴿فريقًا من أموالِ الناسِ بالإثم﴾ بما يوجبُ إثمًا كشهادة الزورِ واليمينِ الفاجرةِ أو ملتبسين بالإثم ﴿وأنتم تعلمون﴾ أنكم مُبْطلون فإن ارتكابَ المعاصي مع العلم بها أقبحُ.

رُوي أن عبدانَ الحضْرمي[2] ادَّعى على امرئ القيسِ الكنديِّ[3] قطعةَ أرضٍ ولم يكن له بينةٌ فحَكَم رسول الله ﷺ بأن يحلِفَ امرُؤُ القيسِ فهمّ به فقرأ عليه الصلاة والسلام: ﴿إن الذين يشترون بعهدِ الله وأَيْمانهم ثمنًا قليلًا﴾ [آل عمران، الآية ٧٧] الآية، فارتدَعَ عن اليمين فسلّم الأرضَ إلى عبدان فنزلت[4].

---

= ٢٦٤)، والبغوي في شرح السنة (٤/ ٢٠٧، ٢٠٨) (٢٠٢٤)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٤٩٧) (٧٢١)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٢٧٠، ٣٣٦).
وفي الباب من حديث عمار بن ياسر: رواه أبو يعلى (٣/ ٢١٣)(١٦٥٣).
وقال الهيثمي في «المجمع» (٤/ ٧٦):
«رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه موسى بن عبيدة الربذي. وهو ضعيف». ا هـ.
وفي الباب عن جابر أيضًا عند الخطيب في «تاريخ بغداد» (٩/ ٧٠).

(١) في المخطوط: مال.
(٢) هو: ربيعة بن عبدان وقيل عيدان بفتح العين وياء معجمة باثنتين وهو القائل يذهب بأرضي ينظر: تلقيح فهوم أهل الأثر (١/ ٥٠٥).
(٣) هو: امرؤ القيس بن عابس بن المنذر بن امرئ القيس بن السمط بن عمرو بن معاوية بن الحارث الأكبر الكندي.
وفد إلى النبي ﷺ فأسلم وثبت على إسلامه، ولم يكن فيمن ارتد من كندة، وكان شاعرًا نزل الكوفة، وهو الذي خاصم الحضرمي إلى رسول الله ﷺ.
ينظر: تجريد أسماء الصحابة (١/ ٢٨)، والوافي بالوفيات (٦/ ١)، والإصابة (٢٥٠)، والاستيعاب (٧٢).
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» عن سعيد بن جبير كما في «الفتح السماوي» (١/ ٢٢٩) بهذا اللفظ، وأخرجه أحمد (٤/ ٣١٧) ومسلم (١/ ١٢٣-١٢٤) كتاب الإيمان: باب وعيد من اقتطع حق مسلم، حديث (٢٢٣، ٢٢٤/ ١٣٩) من حديث وائل بن حجر لكن لم يذكر فيه قوله: فارتدع عن اليمين فسلم الأرض إلى عبدان.

ورُوي أنه اختصم إليه خصمان فقال عليه السلام: «إنما أنا بشرٌ مثلُكم وأنتم تختصِمون إلي، ولعل بعضَكم ألحنُ بحجَّته من بعضٍ فأقضِيَ له على نحو ما أسمَع منه، فمن قضَيْتُ له بشيءٍ من حقِّ أخيه فإنما أقضي له قطعة من نار» فبَكَيا فقال كلٌّ واحدٍ منهما: حقي لصاحبي فقال: «اذهبا فتآخَيا[١] ثم ليُحِلَّ كلٌّ واحدٍ منكما صاحبَه»[٢].

---

(١) في المخطوط: فتوخيا.

(٢) أخرجه مالك (٢/ ٧١٩) كتاب الأقضية: باب الترغيب في القضاء حديث (١)، والبخاري (١٢/ ٣٣٩) كتاب الحيل، باب (١٠) حديث (٦٩٦٧)، ومسلم (٣/ ١٣٣٧) كتاب الأقضية: باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة حديث (٤/ ١٧١٣)، وأبو داود (٤/ ١٢) كتاب الأقضية: باب في قضاء القاضي إذا أخطأ حديث (٣٥٨٣)، والترمذي (٣/ ٦٢٤) كتاب الأحكام: باب التشديد على من يقضى له بشيء حديث (١٣٣٩)، والنسائي (٨/ ٢٣٣) كتاب آداب القاضي: باب الحكم بالظاهر، وابن ماجه (٢/ ٧٧٧) كتاب الأحكام: باب أقضية الحاكم لا تحل حرامًا حديث (٢٣١٧)، والشافعي (٢/ ١٧٨) كتاب الأحكام في الأقضية حديث (٦٢٦)، والحميدي (١/ ١٤٢) رقم (٢٩٦)، وابن الجارود في «المنتقى» رقم (٩٩٩)، وأبو يعلى (١٢/ ٣٠٥) رقم (٦٨٨٠)، وابن حبان (٥٠٤٧، ٥٠٤٩- الإحسان)، والدارقطني (٤/ ٢٣٩-٢٤٠) كتاب الأقضية والأحكام حديث (١٢٧)، والبيهقي (١٠/ ١٤٣) كتاب آداب القاضي: باب من قال: ليس للقاضي أن يقضي بعلمه، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ١٥٤) باب الحاكم يحكم بالشيء فيكون في الحقيقة بخلافه في الظاهر، الطبراني في «الكبير» (٢٣/ ٣٤٣) رقم (٧٩٨)، والبغوي في شرح السنة (٥/ ٣٤٧) كلهم من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن زينب بنت أم سلمة عن أم سلمة زوج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذنه فإنما أقطع له قطعة من النار».
وقال الترمذي: حسن صحيح.
وأخرجه البخاري (٥/ ١٠٧) كتاب المظالم: باب إثم من خاصم في باطل وهو يعلمه حديث (٢٤٥٨)، ومسلم (٣/ ١٣٣٨) كتاب الأقضية: باب الحكم بالظاهر، واللحن بالحجة حديث (٤/ ١٤١٣)، وأحمد (٦/ ٣٠٨)، والدارقطني (٤/ ٢٣٩) كتاب الأقضية والأحكام حديث (١٢٦)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ١٥٤)، والبيهقي (١٠/ ١٤٣) كتاب آداب القاضي: باب من قال: ليس للقاضي أن يقضي بعلمه، كلهم من طريق الزهري عن عروة عن زينب عن أم سلمة به.
وللحديث طريق آخر عن أم سلمة.
أخرجه أبو داود (٤/ ١٢) كتاب الأقضية: باب في قضاء القاضي إذا أخطأ حديث (٣٥٨٤، ٣٥٨٥)، وأحمد (٦/ ٣٢٠)، وابن أبي شيبة (٧/ ٢٣٣-٢٣٤) رقم (٣٠١٦)، وابن الجارود رقم (١٠٠٠)، وأبو يعلى (١٢/ ٣٢٤، ٣٢٥) رقم (٦٨٩٧)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ١٥٤-١٥٥)، وفي المشكل (١/ ٢٢٩-٢٣٠)، والدارقطني (٤/ ٢٣٨، ٢٣٩) كتاب الأقضية والأحكام، والحاكم (٤/ ٩٥)، والطبراني في الكبير (٢٣/ ٢٩٨) رقم (٦٦٣)، والبغوي في شرح السنة (٤/ ٣٤٩)- بتحقيقنا: كلهم من طريق أسامة بن زيد عن عبد الله بن رافع عن أم سلمة به.
وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن
ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ
﴿١٨٩﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾
وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ
ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ
ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟
ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ
ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ
حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ
فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا
رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ
شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا
جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ
يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ
أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن
كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ
أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ
خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ
ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ
أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟
ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ
ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ
ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ
جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ
رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ
ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾

﴿يسألونك عن الأهلة﴾ سأله معاذُ بنُ جبلٍ[(١)] وثعلبةُ بنُ غنم[(٢)] فقالا: ما بالُ الهلالِ يبدو رقيقًا كالخيط ثم يزيد حتى يستويَ ثم لا يزال ينقُص حتى يعودَ كما بدأ[(٣)]؟

﴿قل هي مواقيتُ للناسِ والحجِّ﴾ كانوا قد سألوه عليه الصلاة والسلام عن الحِكمة في اختلاف حالِ القمرِ وتبدُّل أمرِه فأمره الله العزيزُ الحكيمُ أن يُجيبهم بأن الحِكمةَ الظاهرةَ في ذلك أن تكون معالِمَ للناس في عبادتهم لا سيما الحجُّ فإن الوقتَ مراعىً فيه أداءً وقضاءً وكذا في معاملاتهم على حسب ما يتّفقون عليه.

والمواقيتُ جمع ميقاتٍ من الوقت، والفرقُ بينه وبين المدة والزمان أن المدةَ المطلقةَ امتدادُ حركةِ الفلك من مبدَئها إلى منتهاها والزمانُ مدةٌ مقسومةٌ إلى الماضي والحالِ والمستقبل، والوقتُ الزمان المفروضُ لأمرٍ.

﴿وليسَ البرُّ بأن تأتوا البيوتَ من ظهورِها﴾ كانت الأنصارُ إذا أحْرَموا لم يدخُلوا دارًا، ولا فُسطاطًا من بابه، وإنما يدخُلون ويخرُجون من نَقْبٍ، أو فُرجةٍ وراءَها، ويعدّون ذلك بِرًّا. فبين لهم أنه ليس ببر فقيل: ﴿ولكنّ البرَّ من اتقى﴾ أي برّ من اتقى المحارمَ والشهواتِ، ووجهُ اتصالِه بما قبله أنهم سألوا عن الأمرين أو أنه لما ذكر أنها مواقيتُ للحج ذكر عَقيبه ما هو من أفعالهم في الحجِّ استطرادًا أو أنهم لمّا سألوا عما لا يَعنيهم ولا يتعلَّق بعِلم النبوة فإنه عليه الصلاة والسلام مبعوثٌ لبيان الشرائعِ لا لبيان حقائِقِ الأشياءِ وتركوا السؤال عما يَعنيهم ويختصُّ بعلم الرسالةِ عقّبَ بذكره

---

(١) هو: معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس، الأنصاري الخزرجي، أبو عبد الرحمن، صحابي جليل، كان أعلم الأئمة بالحلال والحرام، وهو أحد الستة الذين جمعوا القرآن على عهد النبي ﷺ، شهد العقبة مع الأنصار السبعين، قال له النبي ﷺ: «يا معاذ، والله إني لأحبك»، توفي بناحية الأردن سنة ثماني عشرة، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة.
ينظر: الإصابة (٦/ ٨٧٢)، الاستيعاب (١/ ٢٤٥)، تذكرة الحفاظ (١/ ١٦).

(٢) هو: ثعلبة بن غنم بن عدي بن نابي الأنصاري السلمي استشهد بالخندق أو بخيبر، كما حكاه الحافظ ابن حجر في الإصابة وأنه ممن شهد بدرا والعقبة
ينظر: التحفة اللطيفة (١/ ٢٣١).

(٣) قال الحافظ:
«عزاه الواحدي في الأسباب إلى ابن الكلبي مختصرًا، وذكره الثعلبي كما ذكره المصنف».
وقال الزيلعي (١/ ١١٨):
«غريب ونقله الواحدي في أسباب النزول عن الكلبي أنه قال: نزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ في معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم الأنصاري قالا... فذكره.
وهو عند الثعلبي؛ كما ذكره المصنف... ا هـ.

جوابَ ما سألوا عنه تنبيهًا على أن اللائقَ بهم أن يسألوا عن أمثال ذلك ويهتموا بالعلم بها أو أريد به التنبيهُ على تعكيسهم في السؤال وكونِه من قبيل دخولِ البيتِ من ورائه، والمعنى وليس البرُّ بأن تعكسوا في مسائِلكم ولكنّ البرَّ من اتقى ذلك ولم يجترِئ على مثله.

﴿وأْتوا البيوتَ من أبوابها﴾ إذ ليس في العُدول برٌّ أو باشروا الأمورَ من وجوهها ﴿واتقوا الله﴾ في تغيير أحكامِه أو في جميع أموركم. أمرَ بذلك صريحًا بعد بيان أن البِرَّ بر من اتقى إظهارًا لزيادة الاعتناءِ بشأن التقوى وتمهيدًا لقوله تعالى: ﴿لعلكم تفلحون﴾ أي لكي تظفَروا بالبرِّ والهدى.

﴿وقاتِلوا في سبيل الله﴾ أي جاهِدوا لإعزاز دينِه وإعلاءِ كلمتِه، وتقديمُ الظرفِ على المفعول الصريح لإبراز كمالِ العنايةِ بشأن المقدّم ﴿الذين يقاتلونكم﴾ قيل: كان ذلك قبل ما أُمِروا بقتال المشركين كافةَ المقاتلين منهم والمحاجزين.

وقيل: معناه الذين يناصبونكم القتالَ ويُتوقعُ منهم ذلك دون غيرهم من المشايخ والصبيان والرهبان والنساء أو الكفَرَةُ جميعًا، فإن الكلَّ بصدد قتالِ المسلمين.

ويؤيد الأولَ ما رُوي أن المشركين صدُّوا رسول الله ﷺ عامَ الحُديبية وصالحوه على أن يرجِع من قابل فيُخلّوا له مكةَ - شرفها الله تعالى - ثلاثةَ أيام فرجَع لعمُرة القضاء فخاف المسلمون ألا يفوا لهم وأن يقاتلوهم في الحَرم والشهرِ الحرام وكرِهوا ذلك فنزلت[1] ويعضُده إيرادُه في أثناء بيان أحكامِ الحج.

﴿ولا تعتدوا﴾ بابتداء القتالِ أو بقتال المعاهَد والمفاجأة به من غير دعوةٍ أو بالمُثلة وقتلِ من نُهيتم عن قتلِه من النساء والصِّبيان ومن يجري مَجراهم ﴿إن الله لا يحب المعتدين﴾ أي لا يريد بهم الخير وهو تعليل للنهي ﴿واقتُلوهم حيث ثقِفتُموهم﴾ أي حيث وجدتمُوهم من حِلٍّ أو حَرَم وأصلُ الثقَفِ الحذَقُ في إدراك الشيء علمًا أو عملًا وفيه معنى الغلبة ولذلك استعمل فيها قال: [الوافر]

فإما تَثْقَفوني فاقتُلوني فمَنْ أثقَفْ فليس إلى خلود[2]

﴿وأخرِجوهم من حيث أخرَجوكم﴾ أي: من مكةَ وقد فُعل بهم ذلك يوم الفتح

---

(١) أخرجه الطبري (٢/ ٢٠٣) رقم (٣١٣٩) عن قتادة.

(٢) البيت لعمرو ذي الكلب الهذلي في شرح أشعار الهذليين، ص (٥٦٧)، وتاج العروس (٢٣/ ٦١، ٦٣) (ثقف)، وبلا نسبة في لسان العرب (٩/ ٢٠) (ثقف)، وجمهرة اللغة، ص (٤٢٩)، ومقاييس اللغة (١/ ٣٨٣) وورد العجز هكذا:

فإن أثقف فسوف ترَوْنَ بالي

بمن لم يُسلم من كفارها ﴿والفتنةُ أشدُّ من القتل﴾ أي: المحنة التي يُفتتن بها الإنسانُ كالإخراج من الوطن أصعبُ من القتل لدوام تعبها وبقاءِ ألم النفس بها.

وقيل: شركُهم في الحرم وصدُّهم لكم عنه أشدُّ من قتلكم إياهم فيه.

﴿ولا تقاتلوهم عندَ المسجدِ الحرام﴾ أي لا تفاتحوهم بالقتل هناك ولا تهتِكوا حرمةَ المسجد الحرام ﴿حتى يقاتلوكم فيه فإنْ قاتلوكم﴾ ثمَّةَ ﴿فاقتُلوهم﴾ فيه ولا تُبالوا بقتالهم ثمةَ لأنهم الذين هتَكوا حُرمتَه فاستحقُّوا أشدَّ العذاب.

وفي العُدول عن صِيغة المفاعَلة التي بها وردَ النهيُ والشرطُ عِدَةً بالنصر والغلبة وقرئ «ولا تقتُلوهم[١] حتى يقتُلوكم»[٢] فإن قاتلوكم فاقتلوهم والمعنى حتى يقتُلوا بعضَكم كقولهم: قتلتْنا[٣] بنو أسدٍ ﴿كذلك جزاءُ الكافرين﴾ يُفعلُ بهم مثلُ ما فعلوا بغيرهم ﴿فإن انْتَهوا﴾ عن القتال والكفر بعد ما رأَوا قتالَكم ﴿فإن الله غفورٌ رحيم﴾ يغفرُ لهم ما قد سلف.

﴿وقاتلوهم حتى لا تكونَ فتنةٌ﴾ أي شِرْكٌ ﴿ويكونَ الدينُ لله﴾ خالصًا ليس للشيطان فيه نصيب ﴿فإن انْتَهوا﴾ بعد مقاتَلتِكم عن الشِّرك ﴿فلا عُدوانَ إلا على الظالمين﴾ أي فلا تعتَدوا عليهم؛ إذ لا يحسُن الظلمُ إلا لمن ظلَم، فوضعُ العلة موضعَ الحُكم وتسميةُ الجزاءِ بالعُدوان للمشاكلة[٤] كما في قوله عز وجل: ﴿فمن اعتَدى عليكم فاعتَدُوا عليه﴾ [البقرة: ١٩٥] أو إنكم إنْ تعرَّضتم للمنتهين صِرْتم ظالمين وتنعكس الحالُ عليكم، والفاءُ الأولى للتعقيب والثانيةُ للجزاء.

﴿الشهرُ الحرامُ بالشهرِ الحرام﴾ قاتلَهم المشركون عامَ الحُديبية في ذي القَعدة فقيل لهم عند خروجِهم لعُمرة القضَاء في ذي القَعدة أيضًا وكراهتِهم القتالَ فيه: هذا الشهرُ الحرامُ بذلك الشهر الحرام وهتكُه بهتكه فلا تبالوا به.

﴿والحُرماتُ قِصاصٌ﴾ أي كلُّ حرمةٍ وهي ما يجب المحافظةُ عليه يجري فيها

---

(١) قرأ بها: حمزة، والكسائي، والأعمش، وعبد الله.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٥٥)، والسبعة لابن مجاهد (١٧٩)، والتيسير للداني (٨٠).

(٢) قرأ بها: حمزة والكسائي والأعمش وعبد الله.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٥٥)، والتيسير للداني (٨٠)، والسبعة لابن مجاهد (١٧٩).

(٣) في المخطوط: قتَلنا.

(٤) مضى الحديث عن المشاكلة، والآية من المشاكلة التقديرية... .
ينظر: الإيضاح مع البغية (٤/ ٢٢)، وشروح التلخيص (٤/ ٣٠٩) وما بعدها، والمصباح لابن مالك (٢١) وما بعدها، والمطول (٤٢٤)، ومفتاح العلوم (٤٢٤).

القصاصُ فلما هتكوا حُرمة شهرِكم بالصّد فافعلوا بهم مثلَه وادخُلوا عليهم عنوةً فاقتُلوهم إن قاتلوكم كما قال الله تعالى: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدُوا عليه بمثل ما اعتَدى عليكم﴾ وهي فذلَكةٌ مقرِّرة لما قبلها.

﴿واتقوا الله﴾ في شأن الانتصار واحذروا أن تعتدوا إلى ما لم يُرَخَّصْ لكم ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ فيحرُسُهم ويُصلح شؤونهم بالنصر والتمكين.

﴿وأنفِقوا في سبيل الله﴾ أمرٌ بالجهاد بالمال بعد الأمرِ به بالأنفس، أي ولا تُمسِكوا كلَّ الإمساك، ﴿ولا تُلْقوا بأيديكم إلى التَّهلُكة﴾ بالإسراف وتضييع وجهِ المعاش أو بالكفِّ عن الغزو والإنفاق فيه فإن ذلك مما يقوِّي العدوَّ ويُسلِّطُه عليكم. ويؤيدُه ما رُوي عن أبي أيوبَ الأنصاريِّ[1] رضي الله عنه أنه قال: لما أعزَّ الله الإسلامَ وكثُر أهلُه رجعنا إلى أهالينا وأموالنا نُقيمُ فيها ونُصلِحها فنزلت[2]، أو بالإمساك وحبِّ المال فإنه يؤدّي إلى الهلاك المؤبَّد ولذلك سُمي البخلُ هلاكًا وهو في الأصل انتهاءُ الشيء في الفساد.

والإلقاءُ طرحُ الشيء، وتعديتُه بـ (إلى) لتضمُّنه معنى الانتهاء والباءُ مزيدةٌ، والمرادُ بالأيدي. الأنفسُ والتهلُكة مصدر كالتنصُرَة والتستُرة وهي والهلك [والهلاك][3] واحدٌ أي: لا توقِعوا أنفسَكم في الهلاك، وقيل: معناه: لا تجعلوها آخذة بأيديكم،

---

(١) هو: أبو أيوب الأنصاري خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة بن عبد عوف ويقال ابن عمرو بن عبد عوف بن جشم بن غنم بن مالك بن النجار رضي الله عنه:
... شهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ونزل عنده النبي ﷺ حين قدم المدينة شهراً حتى بنى المسجد، روى عن النبي ﷺ وعن أبي بن كعب، وروى عنه البراء بن عازب وجابر بن سمرة وزيد بن خالد الجهني وغيرهم توفي ببلاد الروم غازياً في خلافة معاوية سنة ٥٠ وقيل ٥٢ وقيل ٥٥ رضي الله عنه.
ينظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٠٢) والتاريخ الكبير (٣/ ١٣٦، ١٣٧) والجرح والتعديل (٣/ ٣٣١) والإصابة (٣/ ٥٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٢/ ١٦) كتاب الجهاد، باب في قوله عز وجل: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ حديث (٢٥١٢)، والترمذي (٥/ ٢١٢) كتاب تفسير القرآن حديث (٢٩٧٢)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٨٤، ٢٧٥)، والنسائي في التفسير (١/ ٢٣٦) رقم (٤٨)، والطيالسي رقم (٥٩٩)، والطبري في التفسير رقم (٣١٧٩، ٣١٨٠)، والبيهقي في سننه (٩/ ٤٥) كتاب السير، باب ما جاء في قول الله عز وجل: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية، والطبراني في الكبير (٤/ ١٧٦) رقم (٤٠٦٠).
وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي، وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ٢٠٧)، وزاد نسبته لعبد بن حميد وأبي يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٣) سقط في ط.

ولاتلقوا بأيديكم أنفسكم إليها فحُذِف المفعول ﴿وأحسنوا﴾ أي أعمالَكم وأخلاقَكم أو تفضّلوا على الفقراء ﴿إن الله يحب المحسنين﴾ أي يريد بهم الخيرَ.

وقوله تعالى: ﴿وأتموا الحجَّ والعُمرة لله﴾ بيانٌ لوجوب[1] إتمامِ أفعالهما عند التصدي لأدائهما وإرشاد للناس إلى تدارُك ما عسى يعتريهم من العوارض المُخِلَّة بذلك من الإحصار ونحوه من غير تعرُّضٍ لحالهما في أنفسهما من الوجوب وعدمِه كما في قوله تعالى: ﴿ثم أتمّوا الصيامَ إلى الليل﴾ [البقرة، الآية ١٨٧] فإنه بيانٌ لوجوب مدِّ الصيام إلى الليل من غير تعرُّضٍ لوجوب أصلِه وإنما هو بقوله تعالى: ﴿كُتب عليكم الصيام﴾ [البقرة، الآية ١٨٣] الآية، كما أن وجوبَ الحج بقوله تعالى: ﴿ولله على الناس حِجُّ البيت﴾ [آل عمران، الآية ٩٧] الآية، فإن الأمرَ بإتمام فعلٍ من الأفعال ليس أمرًا بأصله ولا مستلزمًا له أصلًا فليس فيه دليل على وجوب العُمرة قطعًا، وادعاءُ أن الأمرَ بإتمامهما أمرٌ بإنشائهما تامين كاملين حسبما تقتضيه قراءةُ[2] «وأقيموا الحجَّ والعُمرة» وأن الأمرَ للوجوب ما لم يدلَّ على خلافه دليل مما لا سَدادَ له ضرورةَ أنْ ليس البيانُ مقصورًا على أفعال الحجِّ المفروضِ حتى يُتصوَّرَ ذلك، بل الحقُّ أن تلك القراءة أيضًا محمولةٌ على المشهورة ناطقةٌ بوجوب إقامةِ أفعالهما كما ينبغي من غير تعرُّضٍ لحالهما في أنفسهما.

فالمعنى: أكمِلوا أركانَهما وشرائطَهما وسائرَ أفعالِهما المعروفةِ شرعًا لوجه الله تعالى من غير إخلالٍ منكم بشيء منها.

هذا وقد قيل: «إتمامُهما أن تحرِمَ بهما من دُوَيرَة أهلِك». رُوي ذلك عن عليٍّ وابن عباسٍ وابن مسعود رضي الله عنهم[3] وقيل: «أن تُفرِدَ لكل واحدٍ منها سَفَرًا» كما قال محمد: حَجةٌ كوفية وعُمرةٌ كوفية أفضلُ.

وقيل: هو جعلُ نفقتِهما حلالًا.

وقيل: أن تُخلِصوهما للعبادة ولا تشوبوهما بشيء من الأغراض الدنيوية.

---

(١) في المخطوط: لجواب.

(٢) قرأ بها: علقمة، وعبد الله بن مسعود.
ينظر: البحر المحيط (٢/ ٧٢)، وتفسير الطبري (٤/ ٧)، وتفسير القرطبي (٢/ ٣٦٩)، والكشاف للزمخشري (١/ ١١٩)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ١٥٥).

(٣) أخرجه الطبري (٢/ ٢١٣) رقم (٣١٩٨، ٣١٩٩)، والحاكم (٢/ ٢٧٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٣٣٣) رقم (١٧٥٥) عن علي.
وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.
وذكره ابن أبي حاتم مثله عن ابن عباس وطاوس وسعيد بن جبير.

وأيًّا ما كان فلا تعرُّضَ في الآية الكريمة لوجوب العُمرة أصلًا وأما ما رُوي أن ابنَ عباس رضي الله عنهما قال: إن العمرةَ لقرينةُ الحجِّ[(١)]، وقولُ عمرَ رضي الله عنه: هُديتَ لسنة نبيِّك حين قال له رجلٌ وجدتُ الحجَّ والعمرة مكتوبين علي فأهلَلْتُ[(٢)] بهما. وفي رواية فأهللتُ بهما جميعًا[(٣)] فبمعزلٍ من إفادة الوجوب مع كونه معارَضًا بما رُوي عن جابرٍ أنه قال: يا رسولَ الله العمرةُ واجبةٌ مثلَ الحجِّ؟ قال: «لا ولكن أن تعتمِرَ خيرٌ لك»[(٤)]، وبقوله عليه السلام: «الحجُّ جهاد والعُمرةُ تطوُّعٌ فتدبر»[(٥)].

---

(١) أخرجه البيهقي في المعرفة (٣/ ٥٠٣) كتاب المناسك، باب العمرة هل تجب وجوب الحج حديث (٢٧٠٨)، والشافعي في الأم (٢/ ١٣٢).
وذكره البخاري تعليقًا في صحيحه (٤/ ٤٣١) كتاب العمرة، باب العمرة وجوب العمرة وفضلها.

(٢) في المخطوط: أهللت.

(٣) أخرجه أبو داود(١/ ٥٥٩) كتاب المناسك، باب في الإقران حديث(١٧٩٨)، والنسائي (٥/ ١٤٦، ١٤٧) كتاب المناسك، باب القران، وابن ماجه (٢/ ٩٨٩) كتاب المناسك، باب من قرن الحج والعمرة حديث (٢٩٧٠)، وأحمد (١/ ١٤، ٢٤، ٣٧، ٥٣)، وابن حبان في صحيحه (٩/ ٢١٩) رقم (٣٩١٠، ٣٩١١)، وابن خزيمة (٤/ ٣٥٢) رقم (٣٠٦٩)، والبيهقي (٤/ ٣٥٧) كتاب الحج، باب جواز القران.
وفي (٤/ ٣٥٤) كتاب الحج، باب القارن يهريق دمًا.

(٤) أخرجه الترمذي (٣/ ٢٦١) كتاب الحج، باب ما جاء في العمرة أواجبة هي أم لا؟ حديث (٩٣١)، حدثنا محمد بن عبد الأعلى الصنعاني حدثنا عمرو بن علي عن الحجاج، عن محمد بن المنكدر عن جابر أن النبي ﷺ سئل عن العمرة أواجبة هي ؟ قال: «لا، وأن تعتمروا هو أفضل»، والدارقطني (٢/ ٢٨٥) كتاب الحج، باب المواقيت مرفوعًا وموقوفًا.

(٥) روي من حديث طلحة بن عبيد الله ومن حديث ابن عباس ومن حديث ميمونة.
- أما حديث طلحة:
أخرجه ابن ماجه (٢/ ٩٩٥) كتاب المناسك، باب العمرة، حديث (٢٩٨٩) حدثنا هشام ابن عمار ثنا الحسن بن يحيي الخشني ثنا عمر بن قيس أخبرني طلحة بن يحيي عن عمه إسحاق بن طلحة عن طلحة بن عبيد الله، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «الحج جهاد والعمرة تطوع».
قال البوصيري في الزوائد (٣/ ٢٤) رقم (١٠٤٧):
«هذا إسناد ضعيف: عمر بن قيس المعروف بسندل ضعفه أحمد وابن معين والفلاس وأبو زرعة وأبو حاتم والبخاري وأبو داود وغيرهم، والحسن الراوي عنه ضعيف». ا هـ.
أما حديث ابن عباس:
فرواه الطبراني (١١/ ٤٤٢) رقم (١٢٢٥٢) قال: حدثنا أحمد بن الجعد ثنا محمد بن بكار ثنا محمد بن الفضل عن عطية عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «الحج جهاد والعمرة تطوع».
=

﴿فإن أحصِرْتم﴾ أي مُنعتم من الحج يقال: حصَره [العدو وأحصره][١] إذا حبَسه ومنعه من المُضيِّ لوجهه مثلُ صَدَّه وأصدّه والمرادُ منعُ العدو عند مالكٍ والشافعيِّ رضي الله عنهما لقوله تعالى: ﴿فإذا أمِنتم﴾ ولنزوله في الحديبية ولقولِ ابنِ عباسٍ [رضي الله عنه][٢]: «لا حصْرَ إلا حصرُ العدوِّ»[٣].

وكلُّ منعٍ من عدو أو مرضٍ أو غيرهما عند أبي حنيفة رضي الله عنه، لما رُوي عن النبي ﷺ: «من كُسِر أو عَرَج فعليه الحجُّ من قابل[٤] ﴿فما استيسر من الهدْي﴾ أي: فعليكم أو فالواجبُ ما استيسر أو فاهدوا ما استيسر والمعنى أن المُحرِم إذا أُحصر وأراد أن يتحلَّل تحلَّل بذبح هدْي مما تيسر عليه من بدَنة أو بقرةٍ أو شاة حيث أُحصر عند الأكثر.

---

= قال الهيثمي في المجمع (٣/ ٢٠٨):
«رواه الطبراني في الكبير وفيه محمد بن الفضل بن عطية وهو كذاب» أ.هـ.
- وأما حديث ميمونة:
فرواه ابن أبي داود في المصاحف (ص١١٤) حدثنا يعقوب بن عبد الله بن أبي مخلد حدثنا أبو منصور حدثنا عمر بن قيس عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن عمه عن ميمونة عن النبي ﷺ قال: «الحج جهاد والعمرة تطوع».
قال الزيلعي في نصب الراية (٣/ ١٥٠):
«حديث آخر: قال الشيخ في الإمام: روى عبد الباقي بن قانع حدثنا بشر بن موسى ثنا جرير وأبو الأحوص عن معاوية بن إسحاق عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الحج جهاد والعمرة تطوع». انتهى قال الشيخ: «قال ابن حزم: هذا كذب من بلايا عبد الباقي بن قانع التي تفرد بها» انتهى من نصب الراية.

(١) سقط في ط. (٢) سقط في ط.

(٣) أخرجه الطبري (٢/ ٢٢١) رقم (٣٢٤٠، ٣٢٤١، ٣٢٤٢) وابن أبي حاتم (١/ ٣٣٦) رقم (١٧٦٨).

(٤) أخرجه أبو داود (٢/ ٤٣٣): كتاب المناسك «الحج». باب الإحصار، حديث (١٨٦٢)، والترمذي (٣/ ٢٧٧): كتاب الحج. باب ما جاء في الذي يهل بالحج فيكسر أو يعرج، حديث (٩٤٠)، والنسائي (٢/ ١٩٨)، كتاب الحج، باب فيمن أحصر بعدو، وابن ماجه (٢/ ١٠٢٨) كتاب المناسك، باب: المحصر، حديث (٣٠٧٧)، والحاكم (١/ ٤٧٠)، كتاب المناسك، والبيهقي (٥/ ٢٢٠) كتاب الحج: باب من رأى الإحلال بالإحصار بالمرض، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٥٧-٣٥٨) وابن سعد في «الطبقات» (٤/ ٢٣٨) والطبراني في «الكبير» (٣/ ٢٥٣) والدارقطني (٢/ ٢٧٨) كتاب الحج: باب المواقيت من طريق عكرمة عن الحجاج بن عمرو الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ من كسر أو عرج فقد حل وعليه حجة أخرى».
قال عكرمة: فذكرت ذلك لأبي هريرة وابن عباس فقالا: صدق.
قال الترمذي: هذا حديث حسن.
وقال الحاكم: صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

وعندنا يَبعث به إلى الحرَم ويجعلُ للمبعوث بيده يومَ أمارٍ فإذا جاء اليومُ وظن أنه ذبح تحلّل لقوله تعالى: ﴿ولا تحلِقوا رءوسَكم حتى يبلُغَ الهدْيُ مَحِلَّه﴾ أي لا تُحِلوا حتى تعلموا أن الهديَ المبعوثَ إلى الحرم بلغ مكانه الذي يجب أن يُنْحَر فيه، وحمل الأولون بلوغَ الهدْي مَحِلّه على ذبحه [حيث يحل ذبحه][1] فيه حِلاً كان أو حَرَمًا ومرجعُهم في ذلك أن رسول الله ﷺ ذبحَ عامَ الحديبية بها[2] وهي من الحِل.

قلنا: كان مُحْصَرُه عليه الصلاة والسلام طرفَ الحديبية الذي إلى أسفلِ مكةَ وهو من الحَرَم، وعن الزُهري أن رسول الله ﷺ نحرَ هديَه في الحَرَم[3]، وقال الواقديُّ[4]: الحديبيةُ هي طرفُ الحرم على تسعة أميالٍ من مكةَ والمَحِلُّ بالكسر يُطلق على المكان والزمان، والهدْيُ جمع هَدْية كجَدْي وجَدْية وقرئ[5] من الهَدِيّ جمع هَديّة كمَطِيّ ومطية.

﴿فمن كان منكم مريضًا﴾ مرَضًا مُحوجًا إلى الحَلْق ﴿أو به أذى من رأسه﴾ كجراحة أو قُمَّلٍ ﴿ففِديةٌ﴾ أي فعليه فدية إن حلق ﴿من صيامٍ أو صَدَقة أو نسُكٍ﴾ بيانٌ لجنس الفدية.

وأما قدرُها فقد رُوي أنه ﷺ قال لكعب بنِ عُجرةَ[6]: «لعلك آذاك هَوامُّك» قال:

---

(١) سقط في ط.

(٢) أخرجه البخاري (٤/ ٧) كتاب المحصر باب إذا أحصر المعتمر حديث (١٨٠٩) من حديث ابن عباس، وأخرجه (٤/ ١١) كتاب المحصر: باب الإحصار في الحج حديث (١٨١٠) من حديث ابن عمر.

(٣) قال الزيلعي (١/ ١٢٤):
«لم أجده ، لكن روى الطبري في تفسيره: حدثني الفضل بن سهل ثنا مخول بن إبراهيم ثنا إسرائيل عن مجزاة بن زاهر الأسلمي عن أبيه عن ناجية بن جندب الأسلمي قال: أتيت النبي ﷺ حين صد عن الهدي، فقلت : يا رسول الله، ابعث معي بالهدى فلننحره بالحرم. قال: «كيف تصنع به؟» قال : آخذ به أودية، فلا يقدرون عليه، فانطلقت به حتى نحرته بالحرم».

(٤) هو: محمد بن عمر بن واقد الأسلمي، مولاهم، الواقدي، أبو عبد الله المدني، أحد الأعلام وقاضي العراق، قال كاتبه: كان عالمًا بالمغازي والسير والفتوح واختلاف الناس، وقال مصعب الزبيري: ما رأيت مثله، وقال البخاري: متروك، قال الحافظ في التقريب: متروك، مع سعة علمه، قال ابن سعد: مات سنة (٢٠٧) هـ.
ينظر: تهذيب التهذيب (٩/ ٣٦٣)، تقريب التهذيب (٢/ ١٩٤)، خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٢/ ٤٤٢)، ميزان الاعتدال للذهبي، عيسى البابي الحلبي (٣/ ٦٦٢).

(٥) قرأ بها: الزهري، وابن هرمز، ومجاهد.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ٥٠)، والبحر المحيط (٢/ ٧٤)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٢٠).

(٦) هو: كعب بن عجرة بن أمية بن عدي بن عبيد بن الحارث، القضاعي، البلوي، حليف القواقل، أبو =

نعم يا رسولَ الله قال: «احلِقْ وصُم ثلاثةَ أيام أو تصدّقْ بفَرْقٍ على ستةِ مساكينَ أو انسُك شاةً»[١] والفَرْقُ ثلاثة آصُع».

﴿فإذا أَمِنْتُم﴾ أي الإحصار أو كنتم في حال أمن أو سعة ﴿فمن تمتَّعَ بالعُمرة إلى الحج﴾ أي: فمن انتفع بالتقرُّب إلى الله تعالى بالعُمرة قبل الانتفاعِ بتقرّبه بالحج في أشهره، وقيل: من استمتع بعد التحلُّل من عُمرته باستباحة محظوراتِ الإحرام إلى أن يُحرِمَ بالحج ﴿فما استيسَرَ من الهَدْيِ﴾ أي فعليه دمٌ استيسر عليه بسبب التمتع وهو دمُ جُبرانٍ يذبحه إذا أحرَمَ بالحج، ولا يأكلُ منه عند الشافعي وعندنا هو كالأضحية.

﴿فمن لم يجدْ﴾ أي الهديَ ﴿فصيامُ ثلاثةِ أيامٍ في الحج﴾ أي في أشهره بين[٢]

---

= محمد المدني، روى سبعة وأربعين حديثا، قال خليفة: مات سنة إحدى وخمسين.
ينظر: الخلاصة (٢/ ٣٦٥)، وتهذيب الكمال (٢٤/ ١٧٩).

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١٦): كتاب المحصر: باب قول الله تعالى: ﴿أَوْ صَدَقَةٍ﴾، حديث (١٨١٥)، ومسلم (٢/ ٨٦١، ٨٦٢): كتاب الحج: باب جواز حلق الرأس للمحرم إذا كان به أذى، ووجوب الفدية لحلقه، وبيان قدرها، حديث (٨٥/ ١٢٠١)، وأبو داود (٢/ ٤٣٠) كتاب المناسك، باب: في الفدية، حديث (١٨٥٦)، والترمذي (٣/ ٢٨٨): كتاب الحج: باب ما جاء في المحرم يحلق رأسه في إحرامه ما عليه، حديث (٩٥٣)، والنسائي (٥/ ١٩٥): كتاب الحج : باب في المحرم يؤذيه القمل في رأسه، وابن ماجه (٢/ ١٠٢٨، ١٠٢٩): كتاب المناسك : باب فدية المحصر، حديث (٣٠٧٩) والبيهقي (٥/ ٥٥) : كتاب الحج: باب من احتاج إلى حلق رأسه للأذى حلقه وافتدى، ومالك (١/ ٤١٧) : كتاب الحج: باب فدية من حلق قبل أن ينحر، حديث (٢٣٧)، والطيالسي(١/ ٢١٣): كتاب الحج والعمرة: باب جواز الحجامة للمحرم، وما يفعل من اشتكى عينه أو تأذى بكثرة القمل في رأسه، حديث (١٠٢٦)، وأحمد (٤/ ٢٤١)، من حديث كعب بن عجرة، قال: «كان بي أذى من رأسي، فحملت إلى رسول الله ﷺ والقمل يتناثر على وجهي فقال: ما كنت أرى أن الجهد قد بلغ منك ما أرى، أتجد شاة؟ قلت: لا، فنزلت الآية: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾، قال: هو صيام ثلاثة أيام أو إطعام ستة مساكين نصف صاع طعامًا لكل مسكين».
وفي لفظ لمسلم (٢/ ٨٦١): كتاب الحج: باب جواز حلق الرأس للمحرم إذا كان به أذى، ووجوب الفدية لحلقه، وبيان قدرها، حديث(٨٤/ ١٢٠١)، وأبو داود (٢/ ٤٣١): كتاب المناسك (الحج): باب في الفدية، حديث(١٨٥٧)، وأحمد (٤/ ٢٤٢)، عنه قال: «أتى على رسول الله ﷺ زمن الحديبية فقال: «كأن هوام رأسك تؤذيك»؟ فقلت: أجل. قال «فاحلقه واذبح شاة أو صم ثلاثة أيام أو تصدق بثلاثة آصع من تمر بين ستة مساكين». وزاد أبو داود في رواية أخرى: فحلقت رأسي ثم نسكت».
والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٣٨٥) وعزاه إلى وكيع وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه وأبي داود وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان والبيهقي.

(٢) في المخطوط: بعد.

الإحرامين، وقال الشافعيُّ في أيام الاشتغالِ بأعماله بعد الإحرام وقبل التحلل، والأحب أن يصومَ سابعَ ذي الحِجة وثامنَه وتاسعَه فلا يصح يومَ النحرِ وأيامَ التشريق.

﴿وسبعةٍ إذا رجعتم﴾ أي نفَرْتم وفرَغتم من أعماله وفي أحدِ قولي الشافعيِّ إذا رجعتم إلى أهليكم.

وقُرئَ[1] و«سبعةً» بالنصب عطفًا على محل ثلاثةِ أيام ﴿تلك عَشَرةٌ﴾ فذلكةُ الحسابِ وفائدتُها ألا يُتوَهّم أن الواوَ بمعنى أو كما في قولك: جالسِ الحسنَ وابنَ سيرين، وأن يُعلم العددُ جملةً كما عُلم تفصيلًا فإن أكثرَ العرب لا يعرِفُ الحسابَ وأن المرادَ بالسبعة هو العددُ المخصوصُ دون الكثرة كما يراد بها ذلك أيضًا ﴿كاملة﴾ صفةٌ مؤكدةٌ لـ (عشَرة) تفيد المبالغةَ في المحافظة على العدد أو مبيِّنةٌ لكمال العشرة فإنها أولُ عددٍ كاملٍ إذْ بهِ ينتهي الآحادُ ويتم مراتبُها أو مقيِّدة تفيدُ كمالَ بَدَليتها من الهدْي ﴿ذلك﴾ إشارةٌ إلى التمتع عندنا وإلى الحكم المذكورِ عند الشافعي [رحمه الله][2] ﴿لمن لم يكنْ أهلُه حاضِري المسجدِ الحرام﴾ وهو مَنْ كان من الحرَم على مسافة القصْرِ عند الشافعي ومن كان مسكنُه وراءَ الميقاتِ عندنا وأهلُ الحل عند طاوس [وغيرُ][3] أهل مكةَ عند مالك.

﴿واتقوا الله﴾ في المحافظة على أوامره ونواهيه لا سيما في الحج ﴿واعلموا أن الله شديدُ العقاب﴾ لمن لم يَتَّقْهِ كي يصُدَّكم العلمُ به عن العِصيان. وإظهارُ الاسمِ الجليلِ في موضعِ الإضمارِ لتربية المهابةِ وإدخالِ الرَّوْعة.

﴿الحجُّ﴾ أي وقته ﴿أشهرٌ معلوماتٌ﴾ معروفاتٌ بين الناس هي شوَّالٌ وذو القَعدة وعشرُ ذي الحِجة عندنا وتسعةٌ بليلةِ النحر عند الشافعي وكلُّه عند مالكٍ، ومدارُ الخلافِ أن المرادَ بوقته وقتُ إحرامِه أو وقتُ أعماله ومناسِكهُ أو ما لا يحسُن فيه غيرُه من المناسِك مطلقًا فإن مالِكًا كرِه العُمرةَ في بقية ذي الحِجة، وأبو حنيفةَ وإن صحَّح الإحرامَ به قبل شوالٍ فقد استكرهه وإنما سمى شهرين وبعض شهرٍ أشهرًا إقامةً للبعض مُقامَ الكل أو إطلاقًا للجمع على ما فوق الواحدِ، وصيغةُ جمعِ المذكر في غيرِ العقلاء تجيء بالألف والتاء.

---

(١) قرأ بها: زيد بن علي، وابن أبي عبلة.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ٥٠)، والبحر المحيط (٢/ ٧٩)، وتفسير القرطبي (٢/ ٤٠١)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٢١)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ١٦٤).

(٢) سقط في ط.

(٣) سقط في المخطوط.

﴿فمن فرَضَ فيهن الحجَّ﴾ أي أوجبه على نفسه بالإحرام فيهن أو بالتلبية أو بسَوْق الهدْي ﴿فلا رفثَ ولا فُسوقَ﴾ أي لا جِماعَ أو فلا فحشَ من الكلام ولا خروجَ من حدود الشرعِ بارتكاب المحظوراتِ.

وقيل: بالسِّباب والتنابز بالألقاب ﴿ولا جِدالَ﴾ أي: لا مِراءَ مع الخدَم والرفقة ﴿في الحج﴾ أي: في أيامه والإظهارُ في مقام الإضمارِ لإظهار كمالِ الاعتناءِ بشأنه، والإشعارِ بعِلة الحُكم فإن زيارةَ البيت المعظَّم والتقرُّبَ بها إلى الله عز وجل من موجبات تركِ الأمورِ المذكورة، وإيثارُ النفي للمبالغة في النهي والدَلالة على أن ذلك حقيقٌ بألا يكون، فإن ما كان مُنْكرًا مستقبَحًا في نفسه ففي تضاعيفِ الحجِّ أقبحُ كلبُس الحريرِ في الصلاة والتطريبِ بقراءة القرآن لأنه خروجٌ عن مقتضىٰ الطبعِ والعادةِ إلى محض العبادةِ.

وقرئ[1] الأولان بالرفع على معنى لا يكونن رَفثٌ ولا فسوقٌ.

والثالثُ بالفتح على معنى الإخبار بانتفاء الخلافِ في الحج، وذلك أن قريشًا كانت تخالف سائرَ العرب فتقفُ بالمشعَر الحرام فارتفعَ الخلافُ بأن أُمروا بأن يقفوا أيضًا بعَرَفاتٍ.

﴿وما تفعلوا من خيرٍ يَعلمْه الله﴾ فيجزي به خيرَ جزاءٍ وهو حثٌّ على فعل الخيرِ إثرَ النهْي عن الشر ﴿وتزوّدوا فإن خيرَ الزاد التقوى﴾ أي تزوّدوا لمِعَادكم التقوى فإنه خيرُ زادٍ.

وقيل: نزلت في أهل اليمن كانوا يحُجُّون ولا يتزوّدون ويقولون: نحن متوكلون فيكونون كَلاًّ على الناس فأُمروا أن يتزوّدوا[2] ويتقوا الإبرامَ في السؤال والتثقيل على الناس.

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب، وابن محيصن، واليزيدي، ومجاهد.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٣٥)، والإعراب للنحاس (١/ ٢٤٥)، والإملاء للعكبري (١/ ٥٠)، والبحر المحيط (٢/ ٨٨)، والتبيان للطوسي (٢/ ١٦٢)، والتيسير للداني (٨٠)، وتفسير الطبري (٤/ ٣٥)، وتفسير القرطبي (٢/ ٤٠٨)، والحجة لابن خالويه (٩٤)، والحجة لأبي زرعة (١٢٩)، والسبعة لابن مجاهد (١٨٠)، والغيث للصفاقسي (١٥٥)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٢٢)، والكشف للقيسي (١/ ٢٨٥، ٢٨٦)، المجمع للطبرسي (٢/ ٢٩٢)، والمعاني للفراء (١/ ١٢٠)، وتفسير الرازي (٢/ ١٦٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣/ ٤٨٩) كتاب الحج: باب قوله الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾، حديث (١٥٢٣).
قال البخاري: ورواه ابن عيينة عن عمرو عن عكرمة مرسلًا.

﴿واتقونِ يا أُولي الألباب﴾ فإن قضيةَ اللُّبِ استشعارُ خشيةِ الله عز وجل وتقواه، حثهم على التقوى ثم أمرَهم بأن يكون المقصودُ بذلك هو الله تعالى فيتبرّؤا من كل شيءٍ سواه وهو مقتضىٰ العقلِ المعرَّى عن شوائبِ الهوى فلذلك خُصَّ بهذا الخطاب أُولوا الألباب.

﴿ليس عليكم جُناحٌ أن تبتغوا﴾ أي في أن تبتغوا أي تطلُبوا ﴿فضلًا مِنْ ربكم﴾ عطاءً ورزقًا منه أي الربحَ بالتجارة.

وقيل: كان عُكاظُ ومَجنّةُ وذو المَجازِ أسواقَهم في الجاهلية يُقيمونها أيامَ مواسمِ الحج وكانت معايشُهم منها فلما جاء الإسلامُ تأثّموا منه فنزلت ﴿فإذا أفضتم من عَرَفاتٍ﴾[1] أي دفعتم منها بكثرة من أفضتُ الماء إذا صبَبْتُه بكثرة وأصلُه أفضتم أنفسَكم فحُذِفَ المفعولُ حذفَه من دفعتُ من البَصْرة، وعَرَفاتٌ جمعٌ سُمّي به كأذرِعات وإنما نوّن وكُسر وفيه علميةٌ وتأنيثٌ لما أن تنوين الجمعِ تنوينُ المقابلة لا تنوينُ التمكن ولذلك يُجمع مع اللام وذهابُ الكسرة تبعُ ذهابِ التنوين من غير عِوَض لعدم الصرْف وهاهنا ليس كذلك أو لأن التأنيثَ إما بالتاء المذكورة وهي ليست بتاء التأنيث وإنما هي مع الألف التي قبلها علامةُ جمعِ المؤنَّث أو بتاءٍ مقدَّرةٍ كما في سُعادَ ولا سبيل إليه لأن المذكورةَ تأبىٰ تقديرَها لما أنها كالبدل منها لاختصاصِها بالمؤنث كتاءِ بنت.

وإنما سمي الموقفُ عَرَفة لأنه نُعِتَ لإبراهيمَ عليه السلام فلما أبصره عَرَفه، أو لأن جبريلَ عليه السلام كان يدور به في المشاعر فلما رآه قال: «عرَفتُ».

أو لأن آدمَ وحواءَ التقيا فيه فتعارَفا، أو لأن الناسَ يتعارفون فيه وهي من الأسماءِ المُرْتجلة إلا من يجعلها جمعَ عارف.

قيل: وفيه دليلٌ على وجوب الوقوف بها لأن الإفاضةَ لا تكون إلا بعده وهي مأمور بها بقوله تعالى: ﴿ثم أفيضوا﴾ [البقرة، الآية: ١٩٩] وقد قال النبي ﷺ: «الحجُّ عَرَفةُ» فمن أدرك عَرَفةَ فقد أدرك الحجَّ[2]، أو مقدمة للذكر المأمور به وفيه نظرٌ

---

(١) أخرجه البخاري (٣/ ٧٥٧) كتاب الحج: باب التجارة أيام المواسم والبيع في أسواق الجاهلية، حديث (١٧٧٠) عن ابن عباس.

(٢) أخرجه أبو داود (١/ ٥٩٩) كتاب المناسك، باب من لم يدرك عرفة حديث (١٩٤٩)، والترمذي (٣/ ٣٣٨)، كتاب الحج، باب ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج حديث (٨٨٩)، والنسائي (٥/ ٢٦٤-٢٦٥) كتاب المناسك، باب في من لم يدرك صلاة الصبح مع الإمام بالمزدلفة، وابن ماجه (٢/ ١٠٠٣) كتاب المناسك ، باب من أتى عرفة قبل الفجر ليلة جمع حديث (٣٠١٥)، =

إذ الذكرُ غيرُ واجب والأمرُ به غيرُ مطلق.

﴿فاذكُروا اللهَ﴾ بالتلبية والتهليلِ والدعاء وقيل: بصلاة العشاءين ﴿عند المشعَرِ الحرام﴾ هو جبلٌ يقف عليه الإمامُ ويسمى قُزَح.

وقيل: ما بين مأزمي[1] عرفةَ ووادي مُحسِّر ويؤيد الأول ما رَوىٰ جابرٌ أنه عليه الصلاة والسلام لما صلى الفجرَ يعني بالمزدَلِفةِ بغَلَسٍ ركِب ناقتَه حتى أتى المشعَرَ الحرامَ فدعا فيه وكبّر وهلَّل ولم يزَلْ واقفًا حتى أسفر[2].

وإنما سُمِّي مَشعَرًا لأنه مَعْلمُ العبادة ووُصِف بالحرام لحُرمته ومعنى عند المشعر الحرام ما يليه ويقرُب منه فإنه أفضلُ وإلا فالمزدلفةُ كلُها موقفٌ إلا وادِيَ مُحَسِّر.

﴿واذكُروه كما هداكم﴾ أي كما علَّمكم أو اذكُروه ذِكرًا حسنًا كما هداكم هدايةً حسَنةً إلى المناسك وغيرِها وما مصدرية أو كافّة ﴿وإن كنتُم مِنْ قَبلِه﴾ من قبل ما ذُكر من هدايتِه إياكم.

﴿لمن الضالين﴾ غيرِ العاملين بالإيمان والطاعة، وإن المخففةُ واللامُ هي الفارقة وقيل: هي نافية واللامُ بمعنى إلا.

كما في قوله عز وعلا: ﴿وإنْ نظنُّك لمن الكاذبين﴾ [الشعراء، الآية: ١٨٦].

﴿ثم أفيضوا من حيثُ أفاضَ الناسُ﴾ أي من عرَفةَ لا من المزدَلِفة والخطابُ لقريش لمّا كانوا يقفون بجمعٍ وسائرُ الناس بعرَفةَ ويرَوْن ذلك ترفعًا عليهم فأُمروا بأن يُساووهم و(ثم) لتفاوتِ ما بين الإفاضتين كما في قولك: أحسِنْ إلى الناس ثم لا تُحسِنْ إلا إلى كريم.

وقيل: من مزدلفةَ إلى مِنىً بعد الإفاضةِ من عرَفة إليها، والخطابُ عام.

---

= وأحمد (٤/ ٣٣٥) وابن حبان في صحيحه (٩/ ٢٠٣) (٣٨٩٢)، والدارمي (٢/ ٥٩) كتاب المناسك باب بما يتم الحج، وابن الجارود في المنتقى حديث (٤٦٨)، والدارقطني (٢/ ٢٤٠، ٢٤١)، كتاب الحج باب المواقيت، والحاكم في المستدرك (١/ ٤٦٤)، والبيهقي (٥/ ١١٦) كتاب الحج، باب وقت الوقوف.

(١) مفردها مأزم والمأزم هو المضيق والمأزم: كل طريق ضيق بين جبلين، وموضع الحرب أيضًا مأزم ومنه سمي الموضع الذي بين المشعر وعرفة مأزمين.
وفي الحديث: إني حرَّمتُ المدينة حرامًا ما بين مأزميها.

(٢) أخرجه مسلم( ٢/ ٨٨٦-٨٩٢) كتاب الحج: باب حجة النبي ﷺ، حديث (١٤٧/ ١٢١٨) من حديث جابر.

وقرئ[١] الناسِ بكسر السين أي الناسي على أن يراد به آدمُ عليه السلام من قوله تعالى: ﴿فنسِيَ﴾ [طه، الآية: ١١٥]، والمعنى أن الإفاضةَ من عرفه شرعٌ قديم فلا تغيِّروه ﴿واستغفروا الله﴾ من جاهليتكم في تغيير المناسكِ ﴿إن الله غفورٌ رحيم﴾ يغفرُ ذنبَ المستغفِرِ ويُنعِمُ عليه فهو تعليلٌ للاستغفار أو للأمر به ﴿فإذا قضيتُم مناسِكَكم﴾ عبادتكم المتعلّقةَ بالحج وفرَغتم منها ﴿فاذكُروا الله كذكرِكم آباءَكم﴾ أي فاكثِروا ذكرَه تعالى وبالغوا في ذلك كما تفعلون بذكر آبائِكم ومفاخرِهم وأيامِهم[٢]، وكانت العربُ إذا قضَوْا مناسكهم وقفوا بمنىً بين المسجد والجبل فيذكرون مفاخِرَ آبائِهم ومحاسِنَ أيامِهم.

﴿أو أشدَّ ذكرًا﴾ إما مجرورٌ معطوفٌ على الذكر بجعله ذاكرًا على المجاز والمعنى فاذكروا الله ذكرًا كائنًا مثلَ ذكرِكم آباءَكم أو كذكرٍ أشدَّ منه وأبلغَ أو على ما أضيف إليه بمعنى أو كذكر قومٍ أشدَّ منكم ذكرًا أو منصوبٌ بالعطف على ﴿آباءَكم﴾، وذكرًا من فعل المذكور بمعنى أو كذكركم أشدَّ مذكورٍ[٣] من آبائكم أو بمضمر دلَّ عليه المعنى تقديرُه أو كونوا أشدَّ ذكرًا لله منكم لآبائكم.

﴿فمن الناسِ﴾ تفصيلٌ للذاكرين إلى من يطلُب بذكر الله[٤] الدنيا وإلى من يطلُب به خيرَ الدارَيْن والمرادُ به الحثُّ على الإكثار والانتظامِ في سلك الآخَرين.

﴿مَنْ يقولُ﴾ أي في ذكره ﴿ربنا آتنا في الدنيا﴾ أي اجعل إيتاءَنا ومِنحَتَنا في الدنيا خاصة ﴿وما له في الآخِرَة من خَلاق﴾ أي من حظٍّ ونصيبٍ لاقتصار همِّه على الدنيا فهو بيانٌ لحاله في الآخرة أو من طلبِ خَلاقٍ فهو بيانٌ لحاله في الدنيا وتأكيدٌ لقصر دعائه على المطالب الدنيوية.

﴿ومنهم من يقولُ ربنا آتِنا في الدنيا حسنةً﴾ هي الصِّحةُ والكَفاف والتوفيقُ للخير ﴿وفي الآخرة حسنةً﴾ هي الثوابُ والرحمة ﴿وقِنا عذاب النار﴾ بالعفو والمغفرةِ ورُوي عن علي رضي الله عنه أن الحسنةَ في الدنيا المرأةُ الصالحة، وفي الآخرةِ

---

(١) قرأ بها: ابن جبير.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ٥١)، والمحتسب لابن جني (١/ ١١٩)، والبحر المحيط (٢/ ١٠٠، ١٠١)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٢٤)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ١٧٩).

(٢) أي الآية من قبيل التشبيه المرسل لذكر الأداة، والمراد تشبيه ذكر الله بذكر آبائهم في الكثرة والتكرير وتعمير أوقات الفراغ به، وليس فيه ما يؤذن بالجمع بين ذكر الله وذكر الآباء.
ينظر: التحرير والتنوير (٢/ ٢٤٥).

(٣) زاد في المخطوط: به.

(٤) زاد في المخطوط: إلى.

الحورُ، وعذابُ النار امرأةُ السوءِ[١]، وعن الحَسَن أن الحسنةَ في الدنيا العلمُ والعبادة[٢]، وفي الآخرة الجنة. وقنا عذابَ النار معناه احفظنا من الشهوات والذنوب المؤدِّية إلى النار.

﴿أولئك﴾ إشارةٌ إلى الفريق الثاني باعتبار اتصافِهم بما ذُكر من النعوت الجميلةِ، وما فيه من معنى البُعد لما مر مرارًا من الإشارة إلى علوِّ درجتِهم وبُعْدِ منزلتِهم في الفضل [والشرف][٣] وقيل: إليهما معًا فالتنوينُ في قوله تعالى: ﴿لهم نصيبٌ مما كسبوا﴾ على الأول للتفخيم وعلى الثاني للتنويعِ أي لكلِّ نوعٍ منهم نصيبٌ من جنس ما كَسَبوا أو من أجله كقوله تعالى: ﴿مما خطيآتهم أُغرِقوا﴾ [نوح، الآية ٢٥] أو مما دَعَوْا به نعطيهم منه ما قدّرناه، وتسميةُ الدعاء كسْبًا لما أنه من الأعمال ﴿والله سريعُ الحساب﴾ يحاسبُ العبادَ على كثرتهم وكثرةِ أعمالهم في مقدار لمحة فاحذَروا من الإخلال بطاعةِ مَنْ هذا شأنُ قدرتِه أو يوشك أن يُقيمَ القيامةَ ويحاسِبَ الناسَ فبادروا إلى الطاعة واكتساب الحسنات.

﴿واذكُروا الله﴾ أي كبِّروه في أعقاب الصلواتِ وعند ذبحِ القرابينِ ورمي الجمارِ وغيرِها ﴿في أيام معدوداتٍ﴾ هي أيامُ التشريق ﴿فمَنْ تعجّلَ﴾ أي استعجَلَ في النفر أو النفْرَ فإن التفعّل والاستفعال يجيئان لازمين ومتعدّيين يقال: تعجل في الأمر واستعجل فيه وتعجله واستعجله والأول أوفقُ للمتأخر[٤] كما في قوله: [البسيط]

قد يُدرك المتأني بعضَ حاجتِه وقد يكون من المستعجل الزللُ[٥]

﴿في يومين﴾ أي في تمامِ يومين بعد يوم النحر وهو [يوم][٦] القر ويومُ الرءوس واليومُ بعده ينفِر إذا فرَغ من رمي الجمار ﴿فلا إثمَ عليه﴾ بتعجله ﴿ومن تأخّرَ﴾ في

---

(١) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (١/ ٤١٣)، ولم يتعرض له الحافظان الزيلعي وابن حجر، وذكره المناوي في «فيض القدير» (٢/ ١٥١) ولم يعزه لأحد.

(٢) أخرجه الطبري (٢/ ٣١٢) رقم (٣٨٨١، ٣٨٨٢، ٣٨٨٣) وابن أبي حاتم (٢/ ٣٥٨) رقم (١٨٧٩، ١٨٨٠).
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٤١٩) وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والمرهبي في «فضل العلم » والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٣) سقط في ط. (٤) في ط: للتأخر.

(٥) البيت للقطامي في ديوانه ص(٢٥)، وجمهرة أشعار العرب (٢/ ٨٠٥)، وديوان المعاني (١/ ١٢٤)، وللأعشى في تخليص الشواهد ص (١٠٢)، وخزانة الأدب (٥/ ٣٧٧)، وبلا نسبة في لسان العرب (بعض)، ومجالس ثعلب ص(٤٣٧).

(٦) سقط في ط.

النفر حتى رمىٰ في اليوم الثالثِ قبل الزوالِ أو بعده، وعند الشافعيّ بعده فقط.

﴿فلا إثمَ عليه﴾ بما صنعَ من التأخُّرِ، والمرادُ التخييرُ بين التعجل والتأخر، ولا يقدح فيه أفضليةُ الثاني وإنما ورد بنفي الإثم تصريحًا بالرد على أهل الجاهلية حيث كانوا مختلفين فمن مُؤثِّم للمتعجل ومؤثم للمتأخر.

﴿لمن اتقَى﴾ خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ أي: الذي ذُكر من التخيير ونفي الإثم عن المتعجّل والمتأخر، أو من الأحكام لمن اتقى لأنه الحاج على الحقيقة والمنتفع به أو لأجله حتى لا يتضرَّرَ بترك ما يُهمُّه منهما ﴿واتقوا الله﴾ في مَجامِع أمورِكم بفعل الواجبات وترك المحظورات ليعبأَ بكم وتنتظِموا في سلك المغتنمين بالأحكام المذكورة والرُخَص أو احذروا الإخلالَ بما ذُكر من الأحكام، وهو الأنسبُ بقوله عز وجل: ﴿واعلموا أنكم إليه تُحشرون﴾ أي للجزاء على أعمالكم بعد الإحياءِ والبعث، وأصلُ الحشر الجمعُ والضمُّ المفترق[1]، وهو تأكيدٌ للأمر بالتقوى وموجب للامتثال به، فإن من علِم بالحشر والمحاسبة والجزاءِ كان ذلك من أقوى الدواعي إلى ملازمة التقوى.

﴿ومن الناسِ من يُعجِبُك قولُه﴾ تجريدٌ للخطاب وتوجيهٌ له إليه عليه الصلاة والسلام وهو كلامٌ مبتدأ سيق لبيان تحزُّب الناسِ في شأن التقوى إلى حِزبين وتعيينِ مآلِ كلٍّ منهما و(من) موصولة أو موصوفة وإعرابُه كما بينا في قوله تعالى:

﴿ومن الناس مَنْ يقولُ آمنا بالله وباليوم الآخر﴾ [البقرة، الآية ٨] أي ومنهم من يروقُك كلامُه ويعظُم موقعُه في نفسك لما تشاهد فيه من ملاءمة[2] الفحوى ولُطف الأداءِ، والتعجُّب حِيْرةٌ تعرِضُ للإنسان بسبب عدمِ الشعور بسبب ما يتعجّب منه.

﴿في الحياة الدنيا﴾ متعلق بـ «قولُه» أي ما يقوله في حق الحياة الدنيا ومعناها فإنها الذي يريده بما يدّعيه من الإيمان ومحبةِ الرسولِ ﷺ، وفيه إشارةٌ إلى أن له قولًا آخرَ ليس بهذه الصفة أو بـ (يُعجبُك) أي يعجبك قولُه في الدنيا بحلاوته وفصاحتِه لا في الآخرة لما أنه يظهر هناك كذِبُه وقُبحُه.

وقيل: لما يُرهِقه من الحبْسة واللُكنة وأنت خبيرٌ بأنه لا مبالغة حينئذ في سوء حالِه فإن مآلَه بيانُ حسنِ كلامِه في الدنيا وقبُحِه في الآخرة.

وقيل: معنى في الحياة الدنيا أي لا يصدُر منه فيها إلا القولُ الحسن.

﴿ويُشهِدُ الله على ما في قلبِه﴾ أي بحسَب ادِّعائِه حيث يقول: الله يعلم أن ما في

---

(١) في ط: المتفرق.
(٢) في المخطوط: ملازمة.

قلبي موافِقٌ لما في لساني وهو عطفٌ على يُعجبُك، وقرئ[(١)] ويشهدُ الله، فالمرادُ بما في قلبه ما فيه حقيقةً، ويؤيده قراءةُ[(٢)] ابنِ عباس رضي الله عنهما (والله يشهَدُ على ما في قلبه) على أن كلمةَ «على» لكون المشهودِ به مُضِرًّا له، فالجملةُ اعتراضية.

وقرئ[(٣)] ويستشهدُ الله.

﴿وهو ألدُّ الخِصام﴾ أي شديد العداوةِ والخصومةِ للمسلمين على أن الخِصامَ مصدرٌ وإضافة (ألدُّ)[(٤)] إليه بمعنى في كقولهم: ثبْتُ العذرِ، أو أشدُّ الخصوم لهم خصومةً على أنه جمع خَصْم كصَعْب وصِعاب قيل: نزلت في الأخنس بنِ شُرَيقٍ الثقفي وكان حسنَ المنظر حلوَ المنطق يوالي رسولَ الله ﷺ ويدعي الإسلامَ والمحبة[(٥)].

وقيل: في المنافقين والجملةُ حال من الضمير المجرور في قوله أو من المستكن في يُشهد وعطف على ما قبلها على القراءتين المتوسطتين ﴿وإذا تولىٰ﴾ أي من مجلسك وقيل: إذا صار واليًا ﴿سعى في الأرض ليفسدَ فيها ويُهلِكَ الحرْثَ والنَّسل﴾ كما فعله الأخنسُ بثقيفٍ حيث بيتهم وأحرَق زروعَهم وأهلَك مواشيَهم أو كما يفعله ولاةُ السوء بالقتل والإتلاف أو بالظلم حتى يمنع الله تعالى بشؤمه القَطْرَ فيهلِكَ الحرثَ والنسلَ.

وقرئ[(٦)] ويَهلِك الحرثُ والنسلُ على إسناد الهلاك إليهما عطفًا على سعى وقرئ[(٧)] بفتح اللام وهي لغة وقرئ[(٨)] على البناء للمفعول من الإهلاك.

---

(١) قرأ بها: ابن محيصن، والحسن، وأبو حيوة، وابن عباس.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٥٥)، والإعراب للنحاس (١/ ٢٤٩)، والإملاء للعكبري (١/ ٥٢)، وتفسير القرطبي (٣/ ١٥).

(٢) قرأ بها: ابن عباس.
ينظر: تفسير القرطبي (٣/ ١٥).

(٣) قرأ بها: أبي، وابن مسعود.
ينظر: البحر المحيط (٢/ ١١٤)، وتفسير القرطبي (٣/ ١٥)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٢٧).

(٤) في المخطوط: الألد.

(٥) أخرجه الطبري (٢/ ٣٢٤) رقم (٣٩٦٤) وابن أبي حاتم (٢/ ٣٦٤) رقم (١٩١٣) عن السدي.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٣٢٤) وزاد نسبته لابن المنذر.

(٦) قرأ بها: أبو عمرو، وابن كثير، وابن محيصن، والحسن، وابن أبي إسحاق، وأبو حيوة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٥٥، ١٥٦)، والإعراب للنحاس (١/ ٢٥٠)، والإملاء للعكبري (١/ ٥٢).

(٧) قرأ بها: أبو عمرو، والحسن، وأبي بن كعب، وابن أبي إسحاق، وأبو حيوة، وابن محيصن، وعبد الوارث.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ٥٢)، والبحر المحيط (٢/ ١١٦)، وتفسير الطبري (٤/ ٢٤٣)، وتفسير القرطبي (٣/ ١٧)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٢٧)، والمحتسب لابن جني (١/ ١٢١)، والمعاني للفراء (١/ ١٢٤)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ١٩٠).

(٨) قرأ بها: الحسن. ينظر: البحر المحيط (٢/ ١١٦)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ١٩٠).

﴿والله لا يحبُّ الفساد﴾ أي لا يرتضيه [بل][1] يُبغضه ويغضَبُ على من يتعاطاه وهو اعتراضٌ تذييلي.

﴿وإِذَا قِيلَ لَهُ﴾ على نهْج العِظة والنصيحة ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ واترُكْ ما تباشِرُه من الفساد أو النفاق واحذرْ سوءَ مغبَّتِه ﴿أَخَذَتْهُ العزَّةُ بالإِثْم﴾ أي حملتْه الأَنَفةُ وحَمِيةُ الجاهلية على الإثم الذي نُهِيَ عنه لَجاجًا وعِنادًا من قولك أخذتُه بكذا إذا حملتُه عليه أو ألزمْتُه إياه ﴿فحسبُه جهنَّمُ﴾ مبتدأٌ وخبر أي كافِيهِ جهنَّمُ، وقيل جهنمُ فاعلٌ. لـ ﴿حسبُه﴾ سادٌّ مسدَّ خبرِه وهو مصدر بمعنى الفاعل، وقويَ لاعتماده على الفاء الرابطة للجملة بما قبلها وقيل حسبُ اسمُ فعلٍ ماضٍ أي كفتْه جهنَّمُ ﴿ولبئس المِهاد﴾ جوابُ قسم مقدَّرٍ والمخصوصُ بالذم محذوفٌ لظهوره وتعيُّنه والمِهادُ الفِراش وقيل ما يوطأ للْجَنْب والجملةُ اعتراض.

﴿ومن الناس مَنْ يشري نفسَه﴾ مبتدأ وخبرٌ كما مر أي يبيعها ببذْلِها في الجهاد ومشاقِّ الطاعات وتعريضِها للمهالك في الحروب، أو يأمرُ بالمعروف وينهى عن المنكر وإن ترتب عليه القتلُ.

﴿ابتغاءَ مرضاتِ اللَّهِ﴾ أي طلبًا لرضاه وهذا كمالُ التقوى، وإيرادُه قسيمًا للأول من حيث إن ذلك يأنفُ من الأمر بالتقوى وهذا يأمرُ بذلك وإن أدىٰ إلى الهلاك، وقيل: نزلت في صهيبِ بنِ سنانٍ الروميّ، أخذه المشركون وعذبوه ليرتدَّ فقال: إني شيخٌ كبير [لا أنفعُكم إن كنت معكم ولا أضرُّكم إن كنت عليكم][2] فخلُّوني وما أنا عليه وخُذوا مالي فقَبِلوا منه مالَه فأتىٰ المدينة، فيشري حينئذٍ بمعنى يشتري لجريان الحال على صورة الشراء[3].

﴿والله رءوفٌ بالعباد﴾ ولذلك يكلفهم التقوى ويعرِّضهم للثواب، والجملةُ اعتراضٌ تذييلي.

﴿يَا أَيُّها الَّذِين آمَنُوا ادْخُلوا في السِّلْم﴾ أي الاستسلام والطاعةِ، وقيل الإسلام، وقرئ[4] بفتح السين وهو لغة فيه وبفتح اللام أيضًا، وقوله تعالى:

---

(١) سقط في ط.
(٢) في المخطوط: إن كنت معكم لم أنفعكم وإن كنت عليكم لم أضركم.
(٣) أخرجه الطبري (٢/ ٣٣٣) رقم (٤٠٠٤) عن السدي.
(٤) قرأ بها: نافع، وابن كثير، والكسائي، وأبو جعفر، وابن محيصن، والأعرج، وشيبة، وشبل.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٥٦)، والإملاء للعكبري (١/ ٥٢)، والبحر المحيط (٢/ ١٢٢)، والتبيان للطوسي (٢/ ١٨٥)، والتيسير للداني (٨٠)، وتفسير الطبري (٤/ ٢٥٢)، والحجة لابن

﴿كآفة﴾ حال من الضمير في ادخُلوا أو من السِّلم أو منهما معًا [كما][(١)] في قوله: [الطويل]

خـرجـتُ بـهـا تـمـشـي تـجـرُّ وراءَنـا عـلـى أَثَـرَيْـنـا ذيـلَ مِـرْطٍ مُـرَجَّـل[(٢)]

وهي في الأصل اسمُ الجماعة تكفُّ مُخالِفَها ثم استعملت في معنى جميعًا وتاؤُها ليست للتأنيث حتى يُحتاجَ إلى جعل السِّلم مؤنثًا مثلَ الحربِ كما في قوله عزَّ وجل: ﴿وإن جنَحوا للسَّلْم فٱجنَحْ لها﴾ [الأنفال، الآية ٦١] وفي قوله: [البسيط]

السـلـمُ تـأخـذُ مـنـهـا مـا رضِـيـتَ بـه والحربُ يكفيك من أنفاسها جُرَعُ[(٣)]

وإنَّما هي للنقل كما في عامة وخاصة وقاطبة والمعنى: استسلموا لله تعالى وأطيعوه جملةً ظاهرًا وباطنًا، والخطابُ للمنافقين أو ادخُلوا **في الإسلام** بكلّيته ولا تخلِطوا به غيَره، والخطابُ لمؤمني أهلِ الكتاب فإنهم كانوا يراعون بعضَ أحكام دينهم القديم بعد إسلامِهم، أو **في شرائع** الله تعالى كلِّها بالإيمان بالأنبياء [عليهم السلام][(٤)] والكتبِ جميعًا والخطابُ لأهل الكتاب كلِّهم.

ووصفُهم بالإيمان إما على طريقة التغليب وإما بالنظر إلى إيمانهم القديم، **أو في شعب** الإسلام وأحكامِه كلِّها فلا يُخِلوا بشيء منها والخطاب للمسلمين وإنما خوطب أهلُ الكتاب بعنوان الإيمان مع أنه لا يصحّ الإيمانُ إلا بما كلَّفوه الآن إيذانًا بأن ما يدّعونه لا يتمّ بدونه.

﴿ولا تتبعوا خُطُواتِ الشَّيطانِ﴾ بالتفرُّق والتفريقِ أو بمخالفة ما أُمرتم به ﴿إِنَّه لَكُم

---

خالويه (٩٥)، والحجة لأبي زرعة (١٣٠)، والسبعة لابن مجاهد (١٨٠)، والغيث للصفاقسي (١٥٦)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٢٧)، والكشف للقيسي (١/ ٢٨٧)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٠٢)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ١٩٣)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢٢٧).

(١) سقط في ط.

(٢) البيت لامرئ القيس في ديوانه، ص (١٤)، وخزانة الأدب (١١/ ٢٧)، والدرر (٤/ ١٠)، وشرح التصريح (١/ ٣٨٧)، وشرح شواهد الشافية، ص (٢٨٦)، وشرح شواهد المغني (٢/ ٦٥٢)، وشرح عمدة الحافظ، ص (٤٦٢)، ولسان العرب (٥/ ٢٤٦) (نير)، وتاج العروس (رحل)، وبلا نسبة في أوضح المسالك (٢/ ٣٣٩)، ومغني اللبيب (٢/ ٥٦٤)، ورصف المباني، ص (٣٣٠)، وهمع الهوامع (١/ ٢٤٤).

(٣) البيت لعباس بن مرداس في ديوانه ص ٨٦؛ ولسان العرب ٦/ ٣ (أبس) وأساس البلاغة (جرع) وبلا نسبة في المخصص ١٥/ ٧٤.

(٤) سقط في ط.

عدوٌّ مبين﴾ ظاهرُ العداوة أو مُظْهِرٌ لها وهو تعليلٌ للنهي أو الانتهاءِ.

فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾

﴿فإن زَلَلْتُم﴾ أي عن الدخول في السلم وقرئ[1] بكسر اللام وهي لغة فيه ﴿من بعد ما جاءتْكم﴾ الآياتُ ﴿البيّنات﴾ والحججُ القطعية الدالَّةُ على حقيقته المُوجبة للدخول فيه ﴿فاْعلموا أنَّ اللَّهَ عَزيزٌ﴾ غالبٌ على أمره لا يُعجِزُه الانتقامُ منكم ﴿حكيمٌ﴾ لا يترُكُ ما تقتضيه الحِكمةُ من مؤاخذة المجرمين المستعصين على أوامره.

﴿هل ينظُرون﴾ استفهامٌ إنكاري في معنى النفي أي ما ينتظرون بما يفعلون من العِناد والمخالفة في الامتثال، بما أُمِروا به والانتهاء عما نُهوا عنه ﴿إلا أن يأتيهم الله﴾ أي أمرُه وبأسُه أو يأتيَهم اللَّهُ بأمره وبأسِه فحُذف المأتيُّ به لدِلالة الحال عليه، والالتفاتُ إلى الغَيبة للإيذان بأن سوءَ صنيعهم موجبٌ للإعراض عنهم، وحكايةُ جنايتهم لمن عداهم من أهل الإنصاف على طريق المباثة، وإيرادُ الانتظارِ للإشعار بأنهم لانهماكهم فيما هم فيه من موجبات العقوبة كأنهم طالبون لها مترقبون لوقوعها.

---

(١) قرأ بها: أبو السمال العدوي.
ينظر: البحر المحيط (٢/ ١٢٣)، وتفسير القرطبي (٣/ ٢٤)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٢٧)، والمحتسب لابن جني (١/ ١٢٢)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ١٩٥).

﴿فِي ظُلَلٍ﴾ جمع ظُلة كقُلل جمع قُلَّة وهي ما أظلك وقرئ[١] في ظلال كقلال في جمع قلة ﴿مِنَ الغَمَامِ﴾ أي السحاب الأبيض وإنما أتاهم العذابُ فيه لما أنه مظنة الرحمة فإذا أتى منه العذاب كان أفظعَ وأقطعَ للمطامع فإن إتيان الشر من حيث لا يُحتسب صعبٌ فكيف بإتيانه من حيث يرجى منه الخير؟.

﴿وَالمَلَائِكَةُ﴾ عطف على الاسم الجليل أي ويأتيَهم الملائكةُ فإنهم وسائطُ في إتيان أمره تعالى بل هم الآتون ببأسه على الحقيقة وتوسيطُ الظرف بينهما للإيذان بأن الآتي أولًا من جنس ما يلابس الغمام ويترتب عليه عادة، وأما الملائكةُ وإن كان إتيانُهم مقارنًا لما ذكر من الغمام لكن ذلك ليس بطريق الاعتياد.

وقرئ[٢] بالجر عطفًا على ظللٍ أو الغمامِ ﴿وقُضِيَ الأَمْرُ﴾ أي تمَّ أمرُ إهلاكهم وفُرغ منه وهو عطفٌ على (يأتيَهم) داخل في حيز الانتظار، وإنما عُدل إلى صيغة الماضي دَلالة على تحققه فكأنه قد كان، أو جملةٌ مستأنفة جيءَ بها إنباءً عن وقوع مضمونها.

وقرئ[٣] وقضاءُ الأمر عطفًا على الملائكةُ ﴿وإِلَى اللَّهِ﴾ لا إلى غيره ﴿تُرجَعُ الأمور﴾ بالتأنيث على البناء للمفعول من الرَّجْع.

وقرئ[٤] بالتذكير وعلى البناء للفاعل بالتأنيث من الرجوع.

﴿سلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الخطابُ للرسول ﷺ أو لكل أحدٍ من أهل الخطاب، والمرادُ بالسؤال تبكيتُهم وتقريعُهم بذلك، وتقريرٌ لمجيءِ البينات ﴿كم آتيناهُم من آيةٍ

---

(١) قرأ بها: قتادة، وأبي، وعبد الله بن مسعود، والضحاك، وعاصم، وأبو جعفر، ويزيد بن القعقاع.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٢٥١)، والإملاء للعكبري (١/ ٥٣)، والبحر المحيط (٢/ ١٢٥)، وتفسير الطبري (٤/ ٢٦١)، وتفسير القرطبي (٣/ ٢٥)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٢٧)، والمحتسب لابن جني (١/ ١٢٢)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ١٩٩).

(٢) قرأ بها: أبو جعفر، والحسن، وأبو حيوة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٥٦)، والإعراب للنحاس (١/ ٢٥١)، والإملاء للعكبري (١/ ٥٣)، والبحر المحيط (٢/ ١٢٥)، والتبيان للطوسي (٢/ ١٨٨)، وتفسير الطبري (٤/ ٢٦١)، وتفسير القرطبي (٣/ ٢٥)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٢٠٣)، والمعاني للأخفش (١/ ١٧٠)، والمعاني للفراء (١/ ١٢٤)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢٢٧).

(٣) قرأ بها: معاذ بن جبل.
ينظر: البحر المحيط (٢/ ١٢٥)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٢٨)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ١٩٩).

(٤) قرأ بها: يعقوب.
ينظر: البحر المحيط (٢/ ١٢٥)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٢٨).

بينةٍ﴾ مُعجزَةٌ ظاهرة على أيدي الأنبياءِ عليهم السلام وآيةٌ ناطقة بحقّية الإسلامِ المأمورِ بالدخول فيه، و(كم) خبريةٌ أو استفهاميةٌ مقرِّرةٌ ومحلها النصبُ على المفعوليةِ أو الرفع بالابتداء على حذف العائدِ من الخبر، وآيةٍ مميِّزُها.

﴿ومن يُبدِّلْ نِعمةَ اللَّهِ﴾ التي هي آياته الباهرةِ فإنها سببٌ للهُدىٰ الذي هو أجلُّ النعم، وتبديلُها جعلُها سببًا للضلالة وازديادِ الرِّجس، أو تحريفُها وتأويلُها الزائغ ﴿من بعد ما جاءَتْه﴾ ووصلتْ إليه وتمكَّن من معرفتها، والتصريحُ بذلك مع أن التبديلَ لا يُتصوَّرُ قبل المجيءِ للإشعار بأنهم قد بدَّلوها بعد ما وقفوا على تفاصيلها كما في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ يُحرِّفونه من بعدِ ما عقلوه وهم يَعْلمون﴾ [البقرة، الآية ٧٥].

قيل: تقديرِه فبدّلُوها ومن يبدل، وإنما حُذف للإيذان بعدم الحاجةِ إلى التصريح به لظهوره ﴿فإن اللَّهَ شديدُ العِقاب﴾ تعليلٌ للجواب كأنه قيل: ومن يُبدّلْ نعمةَ الله يعاقبْه أشدَّ عقوبةٍ فإنه شديدُ العقاب، وإظهارُ الاسمِ الجليلِ لتربية المهابةِ وإدخالِ الرَّوْعة.

﴿زُيِّن للذين كَفَروا الحياةُ الدُّنيا﴾ أي حسُنت في أعينهم وأُشرِبت محبتُها في قلوبهم حتى تهالكوا عليها وتهافتوا فيها معرِضين عن غيرها، والتزيينُ من حيث الخلقُ والإيجادُ مستنِدٌ إليه سبحانه كما يُعرِبُ عنه القراءةُ[1] على البناء للفاعل إذْ ما مِنْ شيءٍ إلا وهو خالقُه، وكلٌّ من الشيطان والقُوى الحيوانية وما في الدنيا من الأمور البهيَّة والأشياءِ الشهيةِ مُزيِّنٌ بالعَرْض ﴿ويسخَرون من الذين آمنوا﴾ عطفٌ على ﴿زُين﴾ وإيثارُ صيغةِ الاستقبالِ للدلالة على استمرار السُّخريةِ منهم وهم فقراء المؤمنين كبلالٍ وعمارٍ وصهيبٍ رضي الله عنهم كانوا يسترذلونهم ويستهزئون بهم على رفضهم الدُّنيا وإقبالِهم على العُقبىٰ و«من» ابتدائية فكأنهم جعلوا السخرية مبتدأة منهم.

﴿والَّذين اتَّقَوْا﴾ هم الذين آمنوا بعينهم وإنما ذُكروا بعنوان التقوى للإيذان بأن إعراضَهم عن الدنيا للاتقاء عنها لكونها مُخِلَّةً بتبتُّلهم إلى جناب القدسِ شاغلةً عنه ﴿فوقَهم يومَ القِيَامَة﴾ لأنَّهم في أعلى عِلّيين وهم في أسفل سافلين أو لأنهم في أوج الكرامةِ وهم في حضيض الذلِّ والمهانةِ أو لأنهم يتطاولون عليهم في الآخرة فيسخَرون منهم كما سخِروا منهم في الدنيا، والجملةُ معطوفةٌ على ما قبلها، وإيثارُ الاسمية للدلالة على دوام مضمونِها.

---

(١) قرأ بها مجاهد وابن محيصن وحميد بن قيس وأبو حيوة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٥٦)، والإعراب للنحاس (١/ ٢٥٣)، والمعاني للفراء (١/ ١٣١).

﴿واللَّهُ يرزُقُ من يشاءُ﴾ أي في الدارين ﴿بغير حِساب﴾ بغير تقدير، فيوسِّعُ في الدنيا استدراجًا تارةً وابتلاءً أخرى.

﴿كان النَّاسُ أمَّةً واحدةً﴾ متَّفقين على كلمة الحقِّ ودينِ الإسلام، وكان ذلك بين آدمَ وإدريسَ أو نوحٍ عليهم السَّلام أو بعدَ الطوفان ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيين﴾ أي: فاختلفوا فبَعَثَ إلخ، وهي قراءةُ[1] ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه وقد حُذف تعويلًا على ما يُذكر عَقيبه ﴿مبشِّرين ومنْذِرين﴾ عن كعب: الذي علمتُه من عدد الأنبياء عليهم السَّلام مائةٌ وأربعةٌ وعشرون ألفًا، والمرسَلُ منهم ثلثُمائةٍ وثلاثة عشرَ، والمذكورُ في القرآن ثمانيةٌ وعشرون.

وقيل كان الناسُ أمَّةً واحدةً متَّفقةً على الكفر والضلال في فترة إدريسَ أو نوحٍ فبعث اللَّهُ النبيين فاختلفوا عليهم والأولُ هو الأنسبُ بالنظم الكريم.

﴿وأنزلَ معهم الكتابَ﴾ أي جنسَ الكتابِ أو مع كلِّ واحدٍ منهم ممن له كتابٌ كتابُه الخاصُّ به لا مع كل واحد منهم على الإطلاق إذ لم يكنْ لبعضهم كتابٌ وإنما كانوا يأخُذون بكتب مَن قبلَهم.

وعمومُ النبيين لا ينافي خصُوصَ الضمير العائد إليه بمعونة المقام ﴿بالحقِّ﴾ حال من الكتاب أي ملتبسًا بالحق أو متعلق بأنزل كقوله عزَّ وعلاَّ: ﴿وبالحقِّ أنزلناهُ وبالحقِّ نزلَ﴾ [الإسراء، الآية ١٠٥] ﴿لِيَحْكُمَ﴾ أي الكتابُ أو الله سُبحانه وتعالى أو كلُّ واحد من النبيين ﴿بينَ النَّاسِ﴾ أي المذكورين، والإظهارُ في موضع الإضمارِ لزيادة التعيين ﴿فِيما اختلفوا فيه﴾ أي في الحق الذي اختلفوا فيه أو فيما التَبس عليهم.

﴿وما اختَلَفَ فيه﴾ أي في الحق أو في الكتاب المُنْزل ملتبسًا به، والواوُ حالية ﴿إلَّا الَّذين أُوتوه﴾ أي الكتابَ المنزلَ لإزالة الاختلاف وإزاحةِ الشقاق، والتعبيرُ عن الإنزال بالإيتاء للتنبيه من أول الأمرِ على كمال تمكُّنِهم من الوقوف على ما في تضاعيفه من الحق فإن الإنزالَ لا يفيد تلك الفائدةَ أي عكسوا الأمرَ حيث جعلوا ما أُنزل لإزالة الاختلافِ سببًا لاستحكامه ورسوخِه.

﴿من بعدِ ما جاءَتْهُم البيِّناتُ﴾ أي رَسَخَتْ في عقولهم و(مِنْ) متعلِّقة بمحذوف يدل عليه الكلامُ أي فاختلفوا ﴿وما اختلف فيه﴾ إلخ وقيل بالملفوظ بناءً على عدم

---

(١) ينظر: البحر المحيط (٢/ ١٣٥)، وتفسير الطبري (٤/ ٢٧٥، ٢٧٨)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٢٩)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٢٠٥).

منع إلا عنه كما في قولك: ما قام إلا زيدٌ يوم الجمعة.

﴿بغيًا بينهم﴾ متعلِّقٌ بما تعلقتْ به (من) أي اختلفوا بغيًا وتهالُكًا على الدنيا ﴿فهدىٰ اللَّهُ الَّذين آمنوا﴾ بالكتاب ﴿لما اختَلفوا فيه﴾ أي للحق الذي اختَلَف فيه من اختَلَف ﴿مِنَ الحقِّ﴾ بيانٌ لـ (ما)، وفي إبهامه أولًا وتفسيرِه ثانيًا ما لا يخفى من التفخيم ﴿بإذنِهِ﴾ بأمره أو بتيسيره ولطفِهِ ﴿واللَّه يهدي مَنْ يشاءُ إلى صراطٍ مستقيم﴾ موصِلٍ إلى الحقّ وهو اعتراضٌ مقرِّر لمضمون ما سبق.

﴿أم حسبتم﴾ خوطب به رسولُ الله ﷺ ومن معه من المؤمنين حثًّا لهم على الثبات على المصابرة على مخالفة الكفَرَة وتحمُّل المشاقِّ من جهتهم إثر بيانِ اختلافِ الأممِ على الأنبياء عليهم السلام، وقد بُيّن فيه مآلُ اختلافِهم وما لَقِيَ الأنبياءُ ومَنْ معهم من قبلهم من مكابدة الشدائد ومقاساة الهموم وأن عاقبة أمرِهم النصرُ وأم منقطعة والهمزةُ فيها للإنكار والاستبعاد أي بل أحسبتم ﴿أن تدخُلوا الجنَّة ولمَّا يأتِكم مثلُ الَّذين خَلَوا من قبلكم﴾ من الأنبياء ومن معهم من المؤمنين أي والحال أنه لم يأتِكم مثلُهم بعد ولم تبتلوا بما ابتُلوا به من الأحوال الهائلةِ التي هي مَثَلٌ في الفظاعة والشدّة وهو متوقَّعٌ ومنتظَرٌ ﴿مسَّتْهُم﴾ استئنافٌ وقعَ جوابًا عما ينساقُ إليه الذهن كأنه قيل وكيف كان مثلهم فقيل: مسَّتْهم ﴿البأساءُ﴾ أي الشدَّةُ من الخوف والفاقةِ ﴿والضراءُ﴾ أي الآلامُ والأمراضُ ﴿وزُلزِلوا﴾ أي أزْعجوا إزعاجًا شديدًا بما دَهَمهم من الأهوال والأفزاعِ.

﴿حتَّى يقولَ الرسولُ والذين آمنوا معه﴾ أي انتهى أمرُهم من الشدة إلا حيث اضطَرَّهم الضَّجرُ إلى أن يقول الرسولُ وهو أعلمُ الناس بشؤون اللَّهِ تعالى وأوثقُهم بنصره والمؤمنون المقتدون بآثاره المستضيئون بأنواره ﴿متى﴾ أي متى يأتي ﴿نصرُ اللَّهِ﴾ طلبًا وتمنيًا له واسْتطالةً لمدة الشدة والعناءِ، وقرئ[1] «حتى يقولُ» بالرفع على أنه حكايةُ حالٍ ماضيةٍ وهذا كما ترى غايةُ الغاياتِ القاصيةِ ونهايةُ النهايات النائيةِ

---

(١) قرأ بها: نافع، والكسائي، ومجاهد، وابن محيصن، وشيبة، والأعرج.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٥٦)، والإعراب للنحاس (١/ ٢٥٥)، والإملاء للعكبري (١/ ٥٣)، والبحر المحيط (٢/ ١٤٠)، والتبيان للطوسي (٢/ ١٩٨)، والتيسير للداني (٨٠)، وتفسير الطبري (٤/ ٢٩٠)، وتفسير القرطبي (٣/ ٣٤، ٣٥)، والحجة لابن خالويه (٩٥، ٩٦)، والحجة لأبي زرعة (١٣١)، والسبعة لابن مجاهد (١٨١)، والغيث للصفاقسي (١٥٧)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٣٠)، والكشف للقيسي (١/ ٢٨٩، ٢٩١)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٠٧)، والمعاني للفراء (١/ ١٣٢)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٢١٠)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢٢٧).

كيف لا والرسلُ مع علوّ كعبهم في الثبات والاصطبارِ حيث عيلَ صبرُهم وبلغوا هذا المبلغَ من الضجر والضجيج عُلم أن الأمرَ بلغ إلى غاية لا مطمَحَ وراءَها.

﴿ألا إن نصْرَ اللَّهِ قريبٌ﴾ على تقدير القولِ أي فقيل لهم حينئذٍ ذلك إسعافًا لمرامهم، والمرادُ بالقرب القُربُ الزمانيُّ، وفي إيثار الجملة الاسميةِ على الفعلية المناسبة لما قبلها وتصديرها بحرف التنبيه والتأكيد من الدلالة على تحقيق مضمونها [وتقرره][(١)] ما لا يخفى، واختيارُ حكاية الوعد بالنصر لما أنها في حكم إنشاء الوعدِ لرسول الله ﷺ، والاقتصارُ على حكايتها دون حكايةِ نفسِ النصر مع تحققه للإيذان بعدم الحاجة إلى ذلك لاستحالة الخُلْف ويجوز أن يكون هذا واردًا من جهته تعالى عند الحكاية على نهج الاعتراض لا واردًا عند وقوع المحكي، وفيه رمزٌ إلى أن الوصولَ إلى جناب القدسِ لا يتسنَّى إلا برفض اللذاتِ ومكابدةِ المشاقِّ كما يُنبئ عنه قولُه عليه السلام: «حُفّتِ الجنَّةُ بالمكاره وحُفّتِ النَّارُ بالشَّهواتِ»[(٢)].

يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَاۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾

---

(١) سقط في ط.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٣٣، ٣٥٤، ٣٧٣) والبخاري (١١/ ٣٢٠) كتاب الرقاق: باب حجبت النار بالشهوات، حديث (٦٤٨٧)، ومسلم (٤/ ٢١٧٤) كتاب الجنة وصفة نعيمها، حديث (١/ ٢٨٢٣) من حديث أبي هريرة.

وأخرجه مسلم (٤/ ٢١٧٤) حديث (٢٨٢٢) من حديث أنس بن مالك.

﴿يسألونك ماذا يُنفِقُون﴾ أي من أصناف أموالِهم ﴿قل ما أنفقتُم مِنْ خَيرٍ﴾ [ما](١) إما شرطية وإما موصولة حُذف العائدُ إليها أي ما أنفقتموه من خير أي خير كان ففيه تجويزُ الإنفاق من جميع أنواعِ الأموالِ وبيانٌ لما في السؤال، إلا أنه جُعل من جملة ما في حيز الشرطِ أو الصلة وأُبرز في معرِض بيانِ المصرِفِ حيث قيل: ﴿فللوالدَيْن والأقربين﴾ للإيذان بأن الأهمَّ بيانُ المصارفِ المعدودة لأن الاعتدادَ بالإنفاق بحسب وقوعِه في موقعه، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه جاء عمْرُو بنُ الجَموحِ(٢) وهو شيخٌ هِمٌّ(٣) له مالٌ عظيم فقال: يا رسول الله ماذا نُنفق من أموالنا وأين نضعُها؟ فنزلت(٤) ﴿واليتامىٰ﴾ أي المحتاجين منهم ﴿والمساكينِ وابنِ السَّبيل﴾ ولم يتعرضْ للسائلين والرقاب إما اكتفاءً بما ذكر في المواقع الأُخَرِ، وإما بناءً على دخولهم تحت عموم قوله تعالى: ﴿وما تَفْعَلُوا مِنْ خير﴾ فإنه شاملٌ لكل خير واقعٍ في أي مصرِفٍ كان.

﴿فإن اللَّهَ به عليمٌ﴾ فيوفّي ثوابَه، وليس في الآية ما ينافيه فرضُ الزكاة ليُنْسخَ به كما نُقل عن السُدي.

﴿كُتب عليكم القتالُ﴾ ببناء الفعل للمفعول ورفعِ القتال أي: قتالُ الكفرة، وقرئ(٥) ببنائه للفاعل وهو اللَّهُ عز وجل ونصب القتالَ وقرئ(٦) «كُتِب عليكم القَتْلُ» أي قتلُ الكفرة، والواو في قوله تعالى: ﴿وهو كُرْهٌ لكم﴾ حالية أي والحال أنه مكروهٌ لكم طبعًا على أن الكُرهَ مصدرٌ وُصف به المفعولُ مبالغة، أو بمعنى المفعولِ كالخُبز بمعنى المخبوز.

---

(١) سقط في ط.

(٢) هو: عمرو بن الجموح بن زيد بن حرام الأنصاري السلمي رضي الله عنه شهد العقبة ويقال إنه شهد بدرا واستشهد يوم أحد وكان آخر الأنصار إسلاما ولما أراد الخروج إلى أحد استقبل القبلة وقال اللهم ارزقني الشهادة ولا تردني إلى أهلي خائبا فقتل يومئذ فقال رسول الله ﷺ والذي نفسي بيده إن منكم من لو أقسم على الله لأبره منهم عمرو بن الجموح ولقد رأيته يطأ بعرجته في الجنة وعن أبي الزبير عن جابر أنه حدثه قال قال رسول الله ﷺ من سيدكم يا بني سلمة قالوا الجد بن قيس على أنا نبخله فقال بيده هكذا وأي داء أدوأ من البخل بل سيدكم عمرو بن الجموح.
ينظر: تعجيل المنفعة (١/ ٣٠٦، ٣٠٧).

(٣) في المخطوط: مهتم.

(٤) ذكره السيوطي في «الدرالمنثور» (١/ ٤٣٧) وعزاه لابن المنذر عن ابن عباس.

(٥) ينظر: البحر المحيط (٢/ ١٤٣).

(٦) ينظر: تفسير القرطبي (٣/ ٣٨).

وقرئ[١] بالفتح على أنه بمعنى المضموم كالضَّعف والضُّعف، أو على أنه بمعنى الإكراه مَجازًا كأنهم أُكرهوا عليه لشدة كراهتِهم له ومشقتِه عليهم.

﴿وعسى أن تكرَهوا شيئًا وهو خيرٌ لكم﴾ وهو جميعُ ما كُلّفوه من الأمور الشاقةِ التي من جملتها القتالُ فإن النفوسَ تكرَهُه وتنفِرُ عنه والجملة اعتراضية دالَّةٌ على أن في القتال خيرًا لهم ﴿وعسىٰ أَن تُحِبُّوا شيئًا وهو شرٌّ لكُم﴾ وهو جميع ما نُهوا عنه من الأمور المستلَذة وهو معطوفٌ على ما قبله لا محلَّ لهما من الإعراب ﴿واللَّهُ يعلمُ﴾ ما هو خيرٌ لكم فلذلك يأمركم به ﴿وأَنْتُم لا تَعْلَمُونَ﴾ أي لا تعلَمونه، ولذلك تكرَهونه أو واللَّهُ يعلم ما هو خيرٌ وشرٌّ لكم وأنتم لا تعلمونهما فلا تتبعوا في ذلك رأيَكم وامتثلوا بأمره تعالى.

﴿يسألونك عن الشهرِ الحرام﴾ رُوِيَ أن رسول الله ﷺ بعث عبد اللَّه بن جَحْشٍ[٢] على سرية في جمادى الآخِرَة قبلَ قتالِ بدرٍ بشهرين ليترصَّدوا عِيرًا لقُريش فيهم عمرُو بنُ عبدِ اللَّه الحَضْرمي وثلاثةٌ معه فقتلوه وأسروا اثنين واستاقوا العِير بما فيها من تجارة الطائفِ، وكان ذلك أولَ يوم من رجبٍ وهم يظنونه من جُمادىٰ الآخِرة فقالت قريشٌ: قد استحل محمَّدٌ الشهرَ الحرامَ شهرًا يأمنُ فيه الخائفُ ويبذعِرُّ[٣] فيه الناسُ إلى معايشهم، فوقف رسولُ الله ﷺ العِيرَ وعظم ذلك على أصحاب السرية وقالوا: ما نبرح حتى تنزِلَ توبتُنا وردَّ رسول الله ﷺ: «العِيرَ والأُسارى»[٤].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما لما نزلت أخذ رسولُ الله ﷺ الغنيمة[٥]، والمعنى يسألك الكفارُ أو المسلمون عن القتال في الشهر الحرامِ على أن قوله عز وجل:

---

(١) قرأ بها: معاذ بن مسلم، والسلمي.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ٥٤)، والبحر المحيط (٢/ ١٤٣)، وتفسير الطبري (٤/ ٢٩٧)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٢١٤).

(٢) هو: عبد الله بن جحش بن رياب بن يعمر بن صبرة بن أسد بن خزيمة، أبو محمد الأسدي، أسلم قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم، وهاجر الهجرتين إلى أرض الحبشة، وأمَّره رسول الله ﷺ على سرية، وهو أول أمير أمره، شهد بدرًا، وقتل يوم أحد.
ينظر: أسد الغابة (٣/ ١٩٤)، وتهذيب التهذيب (٥/ ١٤٣).

(٣) ابْذَعَرَّ الناس: تفرقوا وفي حديث عائشة ابذعرَّ النفاق أي تفرق وتبدَّد.

(٤) أخرجه ابن إسحاق (٧٠٥- سيرة ابن هشام).
والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ١٨).
وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (١/ ١٣٠) وعزاه للثعلبي، وأخرجه الواحدي في أسباب النزول (ص٤٤).

(٥) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٤٤٩) وعزاه لابن عساكر وابن منده.

﴿قتالٍ فيه﴾ بدلُ اشتمالٍ من الشهر، وتنكيرُه لما أن سؤالهم كان عن مُطلق القتال الواقعِ في الشهر الحرام لا عن القتال المعهودِ، ولذلك لم يقل يسألونك عن القتال في الشهر الحرام.

وقرئ[1] عن قتالٍ فيه ﴿قل﴾ في جوابهم ﴿قتالٌ فيه كبيرٌ﴾ جملة من مبتدأ وخبرٍ محلّها النصبُ بـ (قل) وإنما جاز وقوعُ (قتالٌ) مبتدأً مع كونه نكرةً لتخصُّصه إما بالوصف إنْ تعلق الظرفُ بمحذوفٍ وقع صفةً له أي قتالٌ كائن فيه وإما بالعمل إن تعلق به، وإنما أوثر التنكيرُ احترازًا عن توهم التعيين وإيذانًا بأن المرادَ مطلقُ القتال الواقعِ فيه أيِّ قتالٍ كان.

عن عطاءٍ أنه سُئل عن القتال في الشهر الحرام فحلف بالله ما يحِلّ للناس أن يغزوا في الحَرَم ولا في الشهر الحرام إلا أن يقاتلوا فيه وما نُسخت[2].

وأكثرُ الأقاويل أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿فاقتُلُوا المشركين حيث وجدتمُوهم﴾ [التوبة، الآية ٥] ﴿وصَدٌّ عن سبيلِ اللَّهِ﴾ مبتدأ قد تخصَّصَ بالعمل فيما بعده أي ومَنْعٌ عن الإسلام الموصِلِ للعبد إلى الله تعالى ﴿وكفرٌ به﴾ عطفٌ على «صدٌّ» عاملٌ فيما بعده مثلَه أي وكفرٌ بالله تعالى وحيث كان الصدُ عن سبيل الله [تعالى][3] فردًا من أفراد الكفرِ به تعالى لم يقدَحِ العطفُ المذكورُ في حسن عطفِ قوله تعالى: ﴿والمسجدِ الحرام﴾ على سبيلِ الله، لأنه ليس بأجنبيٍّ محضٍ، وقيل: هو أيضًا معطوف على صدٌ بتقدير المضاف أي وصدُ المسجدِ الحرام ﴿وإخراجُ أهلِه﴾ وهو النبيُّ ﷺ والمؤمنون ﴿منه﴾ أي من المسجد الحرام وهو عطفٌ على (وكفر به).

﴿أكبرُ عندَ الله﴾ خبرٌ للأشياء المعدودةِ، أي كبائرُ السائلين أكبر عند الله مما عُنوا بالسؤال عنه وهو ما فعلته السريةُ خطأً وبناءً على الظن، وأفعلُ يستوي فيه الواحدُ والجمعُ والمذكرُ والمؤنث ﴿والفتنةُ﴾ أي ما ارتكبوه من الإخراج والشركِ وصدِّ الناسِ عن الإسلام ابتداءً وبقاءً ﴿أكبرُ من القتلِ﴾ أي أفظعُ من قتل الحَضْرميّ.

﴿ولا يزالون يُقاتلونكم﴾ بيانٌ لاستحكام عداوتهم وإصرارِهم على الفتنة في الدين ﴿حتى يردُّوكم عن دينكم﴾ الحقِّ إلى دينهم الباطلِ، وإضافةُ الدين إليهم لتذكير تأكُّدِ

---

(١) قرأ بها: عبد الله بن مسعود، والربيع، وابن عباس، والأعمش، وعكرمة.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٢٥٧)، والبحر المحيط (٢/ ١٤٥)، والمعاني للفراء (١/ ١٤١)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٢١٦).

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور»، (١/ ٤٥١) وعزاه لابن أبي داود في «المصاحف».

(٣) سقط في ط.

ما بينهما من العلاقة الموجبةِ لامتناع الافتراق ﴿إنِ استطاعوا﴾ إشارةٌ إلى تصلُّبهم في الدين وثباتِ قدمِهم فيه، كأنه قيل وأنىٰ لهم ذلك.

﴿ومَنْ يرتَدِدْ منكم عن دينه﴾ تحذيرٌ من الارتداد، أي ومن يفعلْ ذلك بإضلالهم وإغوائهم ﴿فيمُتْ وهو كافرٌ﴾ بأن لم يرجِعْ إلى الإسلام، وفيه ترغيبٌ في الرجوعِ إلى الإسلام بعد الارتداد ﴿فأُولٰئِكَ﴾ إشارةٌ إلى الموصول باعتبار اتصافِه بما في حيِّز الصلةِ من الارتداد والموتِ عليه، وما فيه من معنى البُعد للإشعار ببُعْد منزلتِهم في الشر والفساد، والجمعُ للنظر إلى المعنى أي أولئك المُصِرُّون على الارتداد إلى حينِ الموتِ ﴿حَبِطَتْ أعمالُهم﴾ الحسنةُ التي كانوا عمِلوها في حالة الإسلام حُبوطًا لا تلافيَ له قطعًا ﴿في الدُّنيا والآخِرة﴾ بحيث لم يبْقَ لها حكمٌ من الأحكام الدنيوية والأخروية ﴿وأُولٰئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر سابقًا ولاحقًا من القبائح ﴿أصحابُ النَّار﴾ أي مُلابِسوها ومُلازِموها ﴿هم فيها خالدون﴾ كدأب سائرِ الكَفَرة.

﴿إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ نزلت في أصحاب السريةِ لما ظُنَّ بهم أنهم إنْ سلِموا من الإثم فلا أجرَ لهم ﴿والذين هاجروا وجاهَدوا في سبيلِ الله﴾ كرَّر الموصولَ مع أن المرادَ بهما واحدٌ لتفخيم شأنِ الهجرةِ والجهاد فكأنهما مستقلانِ في تحقيق الرجاء ﴿أُولٰئِكَ﴾ المنعوتون بالنُّعوتِ الجليلة المذكورة ﴿يرْجُون﴾ بما لهم من مبادئ الفوزِ ﴿رحمةَ اللَّهِ﴾ أي ثوابه، أثبت لهم الرجاءَ دون الفوز بالمرجوِّ للإيذان بأنهم عالمون بأن العملَ غيرُ موجبٍ للأجر وإنما هو على طريق التفضُّلِ منه سبحانه لا لأن في فوزهم اشتباهًا ﴿والله غفورٌ﴾ مبالِغٌ في مغفرةِ ما فرَط من عباده خطأً ﴿رَحِيمٌ﴾ يُجزِل لهم الأجرَ والثوابَ، والجملةُ اعتراضٌ محقِّقٌ لمضمون ما قبلها.

﴿يسألونك عن الخمرِ والميسِرِ﴾ تواردَتْ في شأن الخمر أربعُ آياتٍ نزلت بمكة: ﴿ومِنْ ثَمَرات النخيلِ والأعنابِ تتّخِذونَ منه سَكَرًا ورِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل، الآية: ٦٧] فطفِق المسلمون يشربونها، ثم إن عمرَ، ومُعاذًا ونفرًا من الصحابة رضوانُ الله تعالى عليهم أجمعين قالوا: أَفْتِنا يا رسولَ الله في الخمر فإنها مُذهبةٌ للعقل؟ فنزلت هذه الآية، فشرِبها قومٌ وتركها آخرون، ثم دعا عبدُ الرحمٰن بنُ عَوْف[1] ناسًا منهم،

---

(١) هو: عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة الزهري، أبو محمد المدني، شهد بدرًا والمشاهد، وهو أحد العشرة، وهاجر الهجرتين، وأحد الستة. روى عنه بنوه إبراهيم وحميد وأبو سلمة ومصعب وغيرهم. قال الزهري: تصدق على عهد النبي ﷺ بأربعة آلاف ثم بأربعين، ثم حمل على خمسمائة فرس، ثم على خمسمائة راحلة. وأوصى لنساء النبي ﷺ بحديقةٍ قُوِّمت بأربعمائة ألف. قال خليفة: مات سنة اثنتين وثلاثين، وقيل: سنة ثلاث وثلاثين، ودفن =

فشرِبوا فسكِروا، فأما أحدُهم فقرأ: (قل يا أيها الكافرون أعبُدُ ما تعبدون) فنزلت ﴿لا تقرَبوا الصلاةَ وأنتم سُكارى﴾ [النساء الآية: ٤٣]، فقلَّ من يشرَبُها ثم دعا عتبانُ بن مالك[١] سعدَ بنَ أبي وقاصٍ[٢] في نفرٍ فلما سكِروا تفاخَروا وتناشدوا حتى أنشد سعدٌ شعرًا فيه هجاءٌ للأنصار فضرَبه أنصاريٌّ بلَحْي بعيرٍ فشجه [شجة][٣] موُضِحَة فشكا إلى رسول الله ﷺ فقال: اللهم بين لنا في الخمر بيانًا شافيًا فنزلت ﴿إنما الخمر والميسر﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فهل أنتم منتهون﴾ [المائدة، الآية: ٩١] فقال عمرُ رضي الله عنه: «انتهينا يا رب»[٤].

وعن علي رضي الله عنه: «لو وقعت قطرةٌ منها في بئر فبُنيت في مكانها مَنارةٌ لم أؤذّنْ عليها ولو وقعت في بحر ثم جَفَّ فنبت فيه الكلأُ لم أَرْعَه»[٥]. وعن ابن عمرَ

= بالبقيع. وزاد بعضهم: وهو ابن خمس وسبعين سنة.
ينظر: الخلاصة (٢/ ١٤٧)، تهذيب التهذيب (٦/ ٢٤٤)، تقريب التهذيب (١/ ٤٩٤)، تاريخ البخاري الكبير (٥/ ٢٣٩).

(١) هو: عتبان بن مالك بن عمرو بن العجلان بن زيد، الأنصاري، الخزرجي، السالمي. صحابي. من البدريين - رضي الله عنهم -، آخى النبي ﷺ بينه وبين عمر - رضي الله عنه - روى عن النبي ﷺ. وعنه أنس ومحمود بن الربيع والحصين بن محمد السالمي وغيرهم. وله عشرة أحاديث.
ينظر: الإصابة (٢/ ٤٥٢)، وتهذيب التهذيب (٧/ ٩٣)، والأعلام (٤/ ٣٥٩).

(٢) هو: سعد بن أبي وقاص - واسمه: مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة - الزهري المدني: شهد بدرًا والمشاهد، وهو أحد العشرة، وآخرهم موتًا، وأول من رمى في سبيل الله، وفارس الإسلام، وأحد ستة الشورى، ومقدم جيوش الإسلام في فتح العراق، وجمع له النبي ﷺ أبويه، وحرس النبي ﷺ وكَوَّفَ الكوفة، وطرد الأعاجم، وافتتح مدائن فارس، وهاجر قبل النبي ﷺ، وروى عنه بنوه إبراهيم وعامر وعمر ومحمد ومصعب وخلق. وكان سابع سبعة في الإسلام. مات في قصره بالعقيق، وحمل إلى البقيع في سنة خمس وخمسين، وقيل: سنة ست وخمسين، وقيل: سنة سبع وخمسين.
ينظر: الخلاصة (١/ ٣٧١، ٣٧٢)، تهذيب التهذيب (٣/ ٤٨٣)، التقريب (١/ ٢٩٠)، الكاشف (١/ ٣٥٤).

(٣) سقط في المخطوط.

(٤) قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (١/ ١٣٢) غريب بهذا اللفظ وذكره الثعلبي هكذا من غير سند ا هـ.
وأخرجه أبو داود (٣/ ٣٢٥): كتاب الأشربة: باب تحريم الخمر، حديث (٣٦٧٠)، والترمذي (٥/ ٢٥٣) كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة المائدة، حديث (٣٠٤٩)، والنسائي (٨/ ٢٨٩)، كتاب الأشربة: باب تحريم الخمر، حديث (٥٥٤٠) وأحمد (١/ ٥٣).
وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ٤٥٢) وعزاه لابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد وأبي داود والترمذي والنسائي وأبي يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس في ناسخه وأبي الشيخ وابن مردويه والحاكم والبيهقي والضياء المقدسي في المختارة عن عمر أنه قال...

(٥) ذكره الزيلعي في «تخريج الكشاف» (١/ ١٣٢) وجعله مرفوعًا للنبي ﷺ وبيض له.

رضي الله عنهما: «لو أدخلتُ أُصبَعي فيها لم تَتْبَعْني»(١).

وهذا هو الإيمانُ والتقىٰ حقًا رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. والخمرُ مصدرُ خمرَه أي ستره سُمّي به من عصير العنب ما غلىٰ واشتد وقذف بالزبد لتغطيتها العقلَ والتمييزَ كأنها نفسُ السَّتر، كما سُميت سكَرًا لأنها تسكُرهما أي: تحجزهما.

والميسِرُ مصدرٌ ميميٌّ من يَسَر كالموعِد والمرجِع يقال: يسَرْته إذا قمَرْته، واشتقاقه إما من اليُسر لأنه أخذُ المال بيُسرٍ من غير كدّ و[لا](٢) تعب، وإما من اليَسار لأنه سلبٌ له، وصفتُه أنه كانت لهم عشرةُ أقداحٍ: هي الأزلامُ والأقلام: الفذُّ والتوأمُ والرقيبُ والحَلْس والنافسُ والمُسبِلُ والمعلّىٰ والمَنيح والسَفيح والوغد لكل منها نصيبٌ معلوم من جَزور ينحرونها ويُجزّئونها عشرةَ أجزاء، وقيل: ثمانيةً وعشرين إلا الثلاثة وهي المنيحُ والسفيحُ والوغدُ للفذ سهمٌ وللتوأم سهمان وللرقيب ثلاثة وللحَلْس أربعة وللنافس خمسة وللمُسبل ستة وللمعلَّى سبعة يجعلونها في الربابة وهي خريطةٌ ويضعونها على يديْ عدلٍ ثم يجلجلها ويُدخِلُ يده فيُخرِج باسم رجلٍ رجلٍ قِدْحًا قدحًا فمن خرج له قِدْحٌ من ذوات الأنصباء أخذ النصيب المعيّنَ لها ومن خرج له من تلك الثلاثة غَرِم ثمنَ الجزور مع حِرمانه وكانوا يبيعون تلك الأنصباءَ إلى الفقراء ولا يأكلون منها ويفتخرون بذلك ويذمّون من لا يدخُل فيه ويسمّونه البرم وفي حكمه جميعُ أنواعِ القمارِ من النرْدِ والشطرنج وغيرهما وعن النبي ﷺ أنه قال: «إياكم وهاتين اللعبتين(٣) المشئومتين فإنهما مياسِرُ العجم»(٤).

وعن علي كرم الله وجهه أن النرد والشطرنج من الميسر(٥)، وعن ابن سيرين كلُّ شيء فيه خطرٌ فهو من الميسر(٦). والمعنى يسألونك عن حُكمهما وعما في تعاطيهما.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٩٧)، حديث (٢٤٠٦٥).

(٢) سقط في المخطوط.

(٣) في المخطوط: الكعبتين.

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ص (٣٦٨)، حديث (١٢٧٥)، وأحمد (١/ ٤٤٦) بلفظ الكعبتان، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٢١٥) كتاب الشهادات باب كراهية اللعب بالنرد...، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ١١٦) وعزاه لأحمد والطبراني وقال: رجال الطبراني رجال الصحيح.

(٥) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٢١٢): كتاب الشهادات، باب: الاختلاف في اللعب بالشطرنج أن عليًا قال الشطرنج ميسر، وابن أبي شيبة (٥/ ٢٨٧)، حديث (٢٦١٥٠) وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (١/ ١٣٣)، حديث (١٣٠) وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم في تفسيره، والثعلبي في تفسيره. وذكره السيوطي في الدرالمنثور (٢/ ٥٦٤) وزاد نسبته لابن المنذر.

(٦) ذكره السيوطي في الدر (٢/ ٥٦٥) وعزاه لابن أبي الدنيا وأبي الشيخ عن ابن سيرين بلفظ: أما كان من لعب فيه قمار أو قيام أو صياح أو شر فهو من الميسر.

﴿قل فيهما إثمٌ كبير﴾ أي في تعاطيهما ذلك لما أن الأولَ مسلبةٌ للعقول التي هي قطبُ الدين والدنيا مع كون كلٍّ منهما مَتلفة للأموال ﴿ومنافعُ للناس﴾ من كسب الطرَب واللذة ومصاحبةِ الفتيان وتشجيعِ الجبان وتقوية الطبيعة.

وقرئ[١] «إثمٌ كثير» بالمثلثة، وفي تقديم بيانِ إثمِه ووصفه بالكِبَر وتأخيرِ ذكر منافعِه مع تخصيصها بالناس من الدِلالة على غلبة الأول ما لا يخفى على ما نطقَ به قوله تعالى: ﴿وإثمُهما أكبرُ من نفعهما﴾ أي المفاسدُ المترتبةُ على تعاطيهما أعظمُ من الفوائد المترتبة عليه وقرئ[٢] أقربُ من نفعهما.

﴿ويسألونك ماذا ينفِقون﴾ عطفٌ على «يسألونك عن الخمر» إلخ عطفَ القصة على القصة، أي أيُّ شيءٍ ينفقونه قيل: هو عمْرو بنُ الجموح أيضًا سأل أولًا من أيِّ جنسٍ ينفق من أجناس الأموال؟ فلما بُيّن جوازُ الإنفاق من جميع الأجناس سأل ثانيًا من أيِّ أصنافها نُنفِقُ أمن خيارها أم من غيرها أو سأل عن مقدار [ما][٣] يُنفقه منه فقيل: ﴿قل العفْوَ﴾ بالنصب أي ينفقون العفوَ أو أنفقوا العفوَ.

وقرئ[٤] بالرفع على أن ما استفهامية وذا موصولةٌ، صلتُها ينفقون أي الذي ينفقونه [العفوُ][٥].

قال الواحدي: أصلُ العفوِ في اللغة الزيادة، وقال القفال: العفوُ ما سُهل وتيسر مما فضَل من الكفاية وهو قول قتادةَ وعَطاءٍ والسدي[٦].

---

(١) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وعبد الله بن مسعود.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٢٦٠) والإملاء للعكبري (١/ ٥٥)، والبحر المحيط (٢/ ١٥٧، ١٥٨)، والتبيان للطوسي (٢/ ٢١٢)، والتيسير للداني (٨٠)، وتفسير الطبري (٤/ ٣٢٨)، وتفسير القرطبي (٣/ ٦٠)، والحجة لابن خالويه (٩٦)، والحجة لأبي زرعة ص (١٣٢)، والسبعة لابن مجاهد ص (١٨٢)، والغيث للصفاقسي ص (١٦١)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٣٣)، والكشف للقيسي (١/ ٢٩١،٢٩٢)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣١٤)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٢٢٥)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢٢٧).

(٢) قرأ بها: أبي.
ينظر: البحر المحيط (٢/ ١٥٨)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٣٣).

(٣) سقط في المخطوط.

(٤) قرأ بها: أبو عمرو، وابن كثير، واليزيدي، والحسن، وقتادة، وعاصم الجحدري، وابن أبي إسحاق.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (١٥٧)، والإعراب للنحاس (١/ ٢٦٠)، والإملاء للعكبري (١/ ٥٥)، والبحر المحيط (٢/ ١٥٩)، وتفسير القرطبي (٣/ ٦١)، والسبعة لابن مجاهد ص (١٨٢).

(٥) سقط في المخطوط.

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٣٧٦) رقم (٤١٥٧) عن قتادة وبرقم (٤١٥٩) عن عطاء، وبرقم (٤١٦٠) عن السدي.

وكانت الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين يكسِبون المالَ ويُمسكون قدرَ النفقة ويتصدقون بالفضل.

ورُوي أن رجلًا أتى النبي ﷺ ببيضة من ذهب أصابها في بعض المغانم فقال: خذها مني صدقة فأعرض عنه فكرر ذلك مرارًا حتى قال عليه السلام مغضبًا: هاتِها فأخذها فحذَفها عليه حَذْفًا لو أصابته لشجته ثم قال: «يأتي أحدُكم بماله كلِّه يتصدق به ويجلِس يتكفّف الناسَ إنما الصدقةُ عن ظهر غنى»[١].

﴿كذلك﴾ إشارةٌ إلى مصدر الفعل الآتي، وما فيه من معنى البُعد للإيذان بعلو درجة المشارِ إليه في الفضل [مع][٢] كمال تميّزِه وانتظامِه بسبب ذلك في سلك الأمور المشاهدة، والكافُ لتأكيد ما أفاده اسمُ الإشارة من الفخامة، وإفرادُ حرف الخطاب مع تعدد المخاطبين باعتبار القَبيل أو الفريق، أو لعدم القصد إلى تعيين المخاطب كما مر، ومحلُه النصبُ على أنه نعتٌ لمصدر محذوفٍ أي: مثل ذلك البيان الواضحِ الذي هو عبارةٌ عما مضىٰ في أجوبة الأسئلة المارّة.

﴿يبينُ الله لكُم الآياتِ﴾ الدالةَ على الأحكام الشرعية المذكورة لا بيانًا أدنى منه، وقد مر تمامُ تحقيقِه في قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمةً وسَطًا﴾ [البقرة، الآية ١٤٣] وتبيين الآياتِ تنزيلُها ظاهرةَ[٣] الفحوى، واضحةَ المدلول لا أنه تعالى يبيّنها بعد أن كانت مشْتبهةً ملتبسةً، وصيغةُ الاستقبال لاستحضار[٤] الصورة ﴿لعلكم تتفكرون﴾ لكي تتفكروا فيها وتقِفوا على مقاصدها وتعملوا[٥] بما في تضاعيفها.

وقولُه تعالى: ﴿في الدنيا والآخِرة﴾ متعلقٌ إما بيُبيْن أي يبين لكم فيما يتعلق بالدنيا والآخرة الآيات وإما بمحذوفٍ وقع حالًا من الآيات أي يبينها لكم كائنةً فيهما

---

(١) أخرجه الدارمي (١/ ٣٩١) كتاب الزكاة، باب: النهي عن الصدقة بجميع ما عند الرجل، وأبو داود (٢/ ٣١٠) كتاب الزكاة، باب: الرجل يخرج من ماله حديث (١٦٧٣)، والحاكم (١/ ٤١٣) كتاب الزكاة، باب: خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، والبيهقي (٤/ ١٥٤)، وابن خزيمة (٤/ ٩٨) رقم (٢٤٤١) ومن طرق عن محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد عن جابر به وقال الحاكم- صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.
وصححه ابن حبان (٨/ ١٦٦) رقم (٣٣٧٢) وأخرجه أبو يعلى في مسنده (٤/ ٦٦)، حديث (٢٠٨٤)، وعبد بن حميد في مسنده ص(٣٣٧)، حديث (١١٢١).

(٢) سقط في المخطوط.

(٣) في المخطوط: مبينة.

(٤) في المخطوط: استحضار.

(٥) في ط: تعملوا.

أي مبيِّنةً لأحوالكم المتعلقةِ بهما، وإنما قدم عليه التعليلُ لمزيد الاعتناءِ بشأن التفكر، وإما بقوله تعالى: ﴿تتفكرون﴾ [البقرة؛ الآية: ٢١٩] أي: تتفكرون في الأمور المتعلقة بالدنيا والآخرة في الأحكام الواردةِ في أجوبة الأسئلةِ المارّة فتختارون منها ما يصلُح لكم فيهما وتجتنبون عن غيره.

وهذا التخصيصُ هو المناسبُ لمقام تعدادِ الأحكام الجزئيةِ ويجوزُ التعميمُ لجميع الأمور المتعلقة بالدنيا والآخرة بذلك حينئذ إشارةً إلى ما مر من البيانات كلًا أو بعضًا لا إلى مصدر ما بعده فإنه حينئذ فعلٌ مستقلٌ ليس بعبارة عن تلك البيانات والمرادُ [بالآيات][1] غيرُ ما ذكر والمعنى: مثل ذلك البيان الوارد في الأجوبة المذكورة يبين الله لكم الآياتِ والدلائلَ لعلكم تتفكرون في أموركم المتعلقة بالدنيا والآخرة وتأخذون بما يصلح لكم وينفعُكم فيهما وتذرون ما يضرُّكم حسبما تقتضيه تلك الآياتُ المبينة.

﴿ويسألونك عن اليتامىٰ﴾ عطفٌ على ما قبله من نظيره رُوي أنه لما نزلت ﴿إن الذين يأكُلون أموالَ اليتامىٰ ظلمًا﴾ [النساء، الآية ١٠] الآية، تحامىٰ الناسُ عن مخالطة اليتامى وتعهُّد أموالهم فشق عليهم ذلك فذكروه للنبي ﷺ فنزلت ﴿قل إصلاحٌ لهم خيرٌ﴾[2] أي: التعرضُ لأحوالهم وأموالهم على طريق الإصلاح خيرٌ من مجانبتهم اتقاءً.

﴿وإنْ تُخالِطوهم﴾ وتعاشِروهم على وجهٍ ينفعهم ﴿فإخوانُكم﴾ أي: فهم إخوانُكم أي في الدين الذي هو أقوى من العلاقة النسبية، ومن حقوق الأخوة ومواجبها المخالطةُ بالإصلاح والنفعِ، وقد حُمل المخالطةُ على المصاهرة.

﴿والله يعلم المفسدَ من المصلح﴾ العلم بمعنى المعرفة المتعدية إلى واحد و(من) لتضمينه معنى التمييز أي يعلم مَنْ يفسد في أمورهم عند المخالطة أو مَنْ يقصِد

---

(١) سقط في المخطوط.

(٢) أخرجه أبو داود (٢/ ١٢٧-١٢٨) كتاب الوصايا: باب مخالطة اليتيم في الطعام، حديث (٢٨٧١)، والنسائي (٦/ ٢٥٦) كتاب الوصايا: باب النهي عن الولاية في مال اليتيم (٣٦٩٩) والحاكم (٢/ ٣٠٣، ٣١٨) والطبري في «التفسير» (٢/ ٣٦٩-٣٧٠) كلهم من طريق عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به وقد رواه عن عطاء هنا جرير وهو ممن سمع من عطاء بعد الاختلاط.
قال أحمد: كان يرفع عن سعيد بن جبير أشياء لم يكن يرفعها.
وأخرجه الحاكم (٢/ ٣٧٩) والطبري (٢/ ٣٦٩) من طريق إسرائيل عن عطاء به وإسرائيل ممن سمع من عطاء أيضا بعد الاختلاط.

بمخالطته الخيانةَ والإفسادَ مُميِّزًا له ممن يُصلح فيها أو يقصد الإصلاح فيجازي كلًا منهما بعمله، ففيه وعدٌ ووعيد خلا أن في تقديم المفسد مزيدَ تهديدٍ وتأكيدًا للوعيد.

﴿ولو شاء الله لأعنتكم﴾ أي لو شاء أن يُعْنِتَكم أو يكلفكم ما يشق عليكم من العنت وهو المشقة لفعل ولم يجوِّزْ لكم مداخلتهم ﴿إن الله عزيزٌ﴾ غالبٌ على أمره لا يعِزُّ عليه أمر من الأمور التي من جملتها إعناتُكم فهو تعليلٌ لمضمون الشرطية، وقولُه عز وجل: ﴿حكيم﴾ أي فاعل لأفعاله حسبما تقتضيه الحكمةُ الداعيةُ إلى بناء التكليف على أساس الطاقة، دليلٌ على ما تفيده كلمة «لو» من انتفاء مقدمها.

وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾

۞ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾

﴿ولا تَنْكِحوا المشركاتِ﴾ أي لا تتزوجوهن وقرئ[1] بضم التاء من الإنكاح أي لا تُزوِّجوهن من المسلمين ﴿حتى يؤمنَّ﴾ والمرادُ بهن إما ما يعم الكتابياتِ أيضًا حسبما يقتضيه عمومُ التعليلين الآتيين لقوله تعالى: ﴿وقالت اليهودُ عزيرٌ ابنُ الله وقالت النصارى المسيحُ ابنُ الله﴾ [التوبة، الآية ٣٠] إلى قوله: ﴿سبحانه عما يشركون﴾ [سورة التوبة، الآية ٣١] فالآية منسوخةٌ بقوله تعالى: ﴿والمحصناتُ من الذين أُوتوا الكتاب من قبلكم﴾ [المائدة: الآية ٥].

وأما غيرُ الكتابيات فهي ثابتة ورُوي أن رسولَ الله ﷺ بعث مَرْثَدَ بنَ أبي مرثد

---

(١) قرأ بها: الأعمش.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٢٦١)، والبحر المحيط (٢/ ١٦٣)، وتفسير الطبري (٤/ ٣٧٠)، وتفسير القرطبي (٣/ ٦٧)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٢٢٨).

الغنوي[١] إلى مكةَ ليُخرج منها ناسًا من المسلمين وكان يهوىٰ امرأةً في الجاهلية اسمُها عَنَاق فأتته فقالت: ألا تخلو؟ فقال: ويحك إن الإسلامَ حال بيننا فقالت: هل لك أن تتزوّجَ بي؟ قال: نعم ولكن أرجِعُ إلى النبي ﷺ فأستأمِرُه فاستأمَره فنزلت ﴿ولأمَةٌ مؤمنة﴾[٢] تعليل للنهي عن مواصلتهن وترغيبٌ في مواصلة المؤمنات، صُدِّر بلام الابتداء الشبيهةِ بلام القسم في إفادة التأكيد مبالغةً في الحمل على الانزجار، وأصلُ أمة أمو حذفت[٣] لامها [على][٤] غير قياس وعوِّض منه تاء التأنيث ودليلُ كون لامِها واوًا رجوعُها في الجمع، قال الكلابي[٥]: [البسيط]

أما الإماءُ فلا يدعونني ولدًا ... إذا تداعىٰ بنو الأمواتِ بالعار[٦]

---

(١) هو: مرثد بن أبي مرثد - واسم أبي مرثد: كناز الغنوي - شهد هو وأبوه - أبو مرثد - بدرًا. قال ابن إسحاق: كان مرثد بن أبي مرثد أمير السرية التي أرسلها رسول الله ﷺ إلى الرجيع، وذلك في صفر سنة ثلاث من الهجرة. وقال غيره: كان الأمير عليها عاصم بن ثابت.
ينظر: خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٣/ ١٧)، تقريب التهذيب (٢/ ٤٧٠)، تهذيب التهذيب (١٠/ ٨٢).

(٢) أخرجه أبو داود (٢/ ٢٢٠): كتاب النكاح: باب في قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ حديث (٢٠٥١)، والترمذي (٥/ ٣٢٨): كتاب تفسير القرآن: باب «ومن سورة النور»، حديث (٣١٧٧) والنسائي (٦/ ٦٦): كتاب النكاح باب تزويج الزانية، حديث (٣٢٢٨)، وأحمد (٢/ ١٥٨)، (٢/ ٢٢٥)، وعبد الله بن أحمد في الزوائد (٢/ ٢٢٥) والحاكم في المستدرك (٢/ ١٩٣، ١٩٤) والبيهقي في سننه الكبرى (٧/ ١٥٣): كتاب النكاح: باب نكاح المحدثين وما جاء في قول الله عز وجل: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ﴾.
وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٣٩، ٤٠) وعزاه لعبد بن حميد وأبي داود والترمذي والنسائي، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم والبيهقي، عن عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده به.

(٣) في المخطوط: حذف.

(٤) سقط في المخطوط.

(٥) هو القتال الكلابي: واسمه عبد الله بن المجيب كما في عمدة القاري (١/ ١٣)، وسماه في الحماسة البصرية (١/ ٧٢) عبيدة بن مجيب بن المضرحي، وكذلك في الأمالي في لغة العرب (٢/ ٢٢٩)، وهو القائل:

أَنَا ابنُ المَضْرَحِيِّ أَبِي شَلِيلٍ ... وهَلْ يَخْفَى علَى النَّاسِ النَّهارُ
عَلَيْنَا سِبْرُه ولكُلِّ فَحْلٍ ... عَلَى أَوْلادِهِ مِنْه نِجَار

(٦) والبيت في ديوان القتَّال الكلابي ملفق من بيتين:

أنا ابن أسماء أعمامي لها وأبي ... إذا ترامى بنو الإموانِ بالعارِ
أما الإماء فما يدعونني ولدًا ... إذا تحدث عن نقضي وإمراري

ينظر: ديوانه ص (٥٤، ٥٥)، وشرح أبيات سيبويه (٢/ ٢٧٣)، والكتاب (٣/ ٤٠٢، ٦٠١)، ولسان العرب (أما)، وبلا نسبة في جمهرة اللغة (٢٤٨/ ١٣٠٢).

وظهورُها في المصدر يقال: هي أَمةٌ بيِّنة الأُموَّة وأقرَّتْ له بالأموّة وقد وقعت مبتدأ لما فيها من لام الابتداء والوصف أي ولأمة مؤمنة مع ما بها من خساسة الرق وقلة الخطر ﴿خيرٌ﴾ بحسب الدين والدنيا ﴿من مشركةٍ﴾ أي امرأة مشركة مع ما لها من شرف الحرية ورفعة الشأن ﴿ولو أعجبتْكم﴾ قد مر أن كلمة (لو) في أمثال هذه المواقع ليست لبيان انتفاءِ الشيء في الماضي لانتفاء غيره فيه فلا يلاحَظ لها جوابٌ قد حذف ثقةً بدلالة ما قبلها عليه مع انصباب المعنى على تقديره بل هي لبيان تحقيقِ ما يفيدُه الكلام السابق من الحكم على كل حال مفروض من الأحوال المقارنة له على الإجمال بإدخالها على أبعدها منه وأشدِّها منافاةً له ليظهرَ بثبوته معه ثبوتُه مع ما عداه من الأحوال بطريق الأولوية لما أن الشيءَ متى تحقق مع المُنافي القويِّ فلأَنْ يتحققَ مع غيره أولى، ولذلك لا يُذكر معه شيء من سائر الأحوال ويُكتفىٰ عنه بذكر الواو العاطفةِ للجملة على نظيرتها المقابلة لها المتناولةِ لجميع الأحوال المغايرة لها.

وهذا معنى قولهم: إنها لاستقصاء الأحوالِ على وجه الإجمال كأنه قيل: لو لم تعجبْكم ولو أعجبتكم والجملةُ في حيِّز النصبِ على الحالية من مشركة إذ المآل ولأمة مؤمنة خيرٌ من امرأة مشركة حال عدمِ إعجابها إياكم بجمالها ومالِها ونسبها وغيرِ[1] ذلك من مبادئ الإعجابِ وموجباتِ الرغبة فيها أي على كل حال، وقد اقتُصر على ذكر ما هو أشدُّ منافاةً للخيرية تنبيهًا على أنها حيث تحققت معه فلأَنْ تتحققَ مع غيره أولى.

وقيل: الواوُ حاليةٌ وليس بواضح.

وقيل: اعتراضيةٌ وليس بسديد، والحقُّ أنها عاطفة مستتبعةٌ لما ذكر من الاعتبار اللطيف. نعم يجوز أن تكونَ الجملةُ الأولى مع عاطف عليها مستأنفةً مقرِّرةً لمضمون ما قبلها فتدبر.

﴿ولا تُنكِحوا المشركين﴾ من الإنكاح والمراد بهم الكفار على الإطلاق، لما مر أي لا تُزوِّجوا منهم المؤمناتِ سواءٌ كن حرائرَ أو إماءً ﴿حتى يؤمنوا﴾ ويتركوا ما هم فيه من الكفر ﴿ولعَبد مؤمنٌ﴾ مع ما به من ذل المملوكية ﴿خيرٌ من مشركٍ﴾ مع ما له من عز المالكية ﴿ولو أعجبَكم﴾ بما فيه من دواعي الرغبة فيه الراجعةِ إلى ذاته وصفاته ﴿أولئك﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لمضمون التعليلين المارَّيْن أي أولئك المذكورون من المشركات والمشركين ﴿يدْعون﴾ من يقارِنُهم ويعاشِرُهم ﴿إلى النار﴾ أي إلى ما يؤدي إليها من الكفر والفسوق فلا بد من الاجتناب عن مقارنتهم ومقاربتِهم.

---

(١) في المخطوط: بغير.

﴿والله يدعو﴾ بواسطة عبادِه المؤمنين مَنْ يقارِنُهم ﴿إلى الجنة والمغفرة﴾ أي إلى الاعتقاد الحق والعملِ الصالحِ الموصلَيْن إليهما، وتقديمُ الجنة على المغفرة مع أن حق التخلية أن تُقدَّم على التحلية لرعاية مقابلة النار ابتداءً ﴿بإذنه﴾ متعلق بـ (يدعو) أي يدعو ملتبسًا بتوفيقه الذي من جملته إرشادُ المؤمنين لمقارِنيهم إلى الخير ونصيحتُهم إياهم فهم أحقاءُ بالمواصلة.

﴿ويبيِّنُ آياتِهِ﴾ المشتملةَ على الأحكام الفائقةِ والحِكَم الرائقة ﴿للناس لعلهم يتذكرون﴾ أي لكي يتذكروا ويعلموا بما فيها فيفوزوا بما دُعوا إليه من الجنة والغفران.

هذا وقد قيل: معنى ﴿والله يدعو﴾ وأولياءُ الله يدْعون وهم المؤمنون على حذف المضاف وإقامةِ المضاف إليه مُقامه تشريفًا لهم. وأنت خبيرٌ بأن الضميرَ في المعطوف على الخبر أعني قوله تعالى: ويبين الله تعالى فيلزم التفكيكُ وقيل: معناه والله يدعو بأحكامه المذكورة إلى الجنة والمغفرة فإنها موصلةٌ لمن عمِل بها إليهما.

وهذا وإن كان مستدعيًا لاتحاد مرجع الضميرين الكائنين في الجملتين المتعاطفتين الواقعتين خبرًا للمبتدأ لكنْ يفوت حينئذ حسن المقابلة بينه وبين قوله تعالى: ﴿أولئك يدعون إلى النار﴾ [البقرة، الآية ١٢١] ولعل الطريق الأسلمَ ما أوضحناه أولًا، وإيرادُ التذكرِ هٰهنا للإشعار بأنه واضحٌ لا يحتاج إلى التفكر كما في الأحكام السابقة.

﴿ويسألونك عن المَحيض﴾ عطفٌ على ما تقدم من مثله ولعل حكايةَ هذه الأسئلة الثلاثةِ بالعطف لوقوع الكلِّ عند السؤال عن الخمر، وحكاية ما عداها بغير عطف لوقوع كلٍّ من ذلك في وقت على حِدَة والمحيض مصدر من حاضت المرأة كالمجيء والمبيت.

روي أن أهل الجاهلية كانوا لا يساكنون الحُيَّضَ ولا يؤاكلونهن كدأب اليهودِ والمجوسِ واستمر الناسُ على ذلك إلى أن سأل عن ذلك أبو الدحداحِ في نفر من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين فنزلت. ﴿قل هو أذىً﴾[1] أي شيء يُستقذرُ منه ويؤذي من يقرَبُه نفرةً منه وكراهةً له ﴿فاعتزلوا النساءَ في المحيض﴾ أي فاجتنبوا مجامعتَهن في حالة المحيض.

قيل: أخذ المسلمون بظاهر الاعتزال فأخرجوهن من بيوتهم[2] فقال ناسٌ من

---

(١) أخرجه الطبري (٢/ ٣٩٣) رقم (٤٢٣٧) عن السدي.
(٢) في المخطوط: بيوتهن.

الأعراب: يا رسولَ الله البردُ شديدٌ والثيابُ قليلة فإن آثرناهن هلك سائرُ أهل البيت وإن استأثرنا بها هلكت الحُيَّض فقال ﷺ: «إنما أُمِرْتم أن تعتزلوا مجامعتهن إذا حِضْنَ ولم يأمركم بإخراجهن من البيوت كفعل الأعاجم»[١].

وقيل: إن النصارى كانوا يجامعونهن ولا يبالون بالحيض، واليهودُ كانوا يفرِّطون في الاعتزال فأُمر المسلمون بالاقتصاد بين الأمرَيْن.

﴿ولا تقرَبوهن حتى يطهُرْن﴾ تأكيدٌ لحكم الاعتزال وتنبيه على أن المراد به عدمُ قربانهن لا عدمُ القربِ منهن وبيانٌ لغايته وهو انقطاعُ الدم عند أبي حنيفة رحمه الله فإن كان كذلك في أكثر المدة حلَّ القُربان كما انقطع وإلا فلا بدَّ من الاغتسال أو من مُضيٍّ وقت صلاة وعند الشافعي[٢] رحمه الله أن يغتسلن بعد الانقطاع كما تُفصح عنه القراءة[٣] بالتشديد وينبئ عنهه قوله عز وجل: ﴿فإذا تطهَّرن﴾ فإن التطهرَ هو الاغتسال ﴿فأتوهن من حيث أمرَكم الله﴾ من المأتىٰ الذي حلله لكم وهو القُبُل ﴿إن الله يحب التوابين﴾ مما عسى يبدُر[٤] منهم من ارتكاب بعض ما نُهوا عنه ومن سائر الذنوب ﴿ويحب المتطهرين﴾ المتنزِّهين عن الفواحش والأقذار، وفي ذكر التوبة

---

(١) ذكره الزيلعي في «تخريج الكشاف» (١/ ١٣٧) وبيض له.

(٢) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن (٢/ ٥٥٨)، والكشاف (١/ ٢٦٥)، والتفسير الكبير (٦/ ٧٣)، والجامع لأحكام القرآن (٣/ ٩١)، وفتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير (١/ ٢٢٦)، وروح المعاني، (٢/ ١٢٢)، والتحرير والتنوير (٢/ ٣٦٧)، وأحكام القرآن للجصاص (١/ ٤٧٥)، وأحكام القرآن للإمام عماد الدين الطبري المعروف بإلكيا الهراسي (١/ ١٣٧)، وأحكام القرآن للقاضي أبي بكر بن العربي (١/ ١٦٥)، وتفسير آيات الأحكام للعلامة السايس (١/ ١٣٥)، وتقويم الأدلة، ص (٢١٧)، وأصول السرخسي (٢/ ٢١)، والمغني فى أصول الفقه ص (٢٢٧)، وكشف الأسرار عن أصول البزدوي (٣/ ٩١)، والتوضيح لمتن التنقيح (٢/ ١٠٦)، وجامع الأسرار فى شرح المنار (٣/ ٧٩٨)، والتلويح على التوضيح (٢/ ١٠٧)، والتقرير والتحبير (٣/ ٧)، ومرآة الأصول فى شرح مرقاة الوصول مع حاشية العلامة الأزميري عليها (٢/ ٣٧٦)، وشرح مختصر المنار المسمى خلاصة الأفكار في شرح مختصر المنار ص (١٤٣)، وشرح المنار للعلامة ابن ملك ص (٢٢٩)، وبهامشه شرح العلامة زين الدين عبدالرحمن بن أبي بكر المعروف بابن العيني ص (٢٢٩)، وتيسير التحرير (٣/ ١٤١)، وشرح نور الأنوار على المنار (٢/ ٩٦)، وفواتح الرحموت (٢/ ١٩٦)، وشرح إفاضة الأنوار على متن أصول المنار مع حاشية نسمات الأسحار عليه ص (١٩٤).

(٣) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وعاصم الجحدري، وخلف، والفضل، وشعبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (١٥٧)، والإملاء للعكبري (١/ ٥٥)، والبحر المحيط (٢/ ١٦٨)، والتبيان للطوسي (٢/ ٢١٩)، والحجة لابن خالويه ص (٩٦)، والغيث للصفاقسي ص (١٦١).

(٤) في المخطوط: يندر.

إشعارٌ بمِساس الحاجة إليها بارتكاب بعضِ الناسِ لما نُهوا عنه، وتكريرُ الفعل لمزيد العناية بأمر التطهر.

﴿نساؤُكم حرثٌ لكم﴾ أي مواضعُ حرثٍ لكم شُبِّهن بها لما بين ما يُلقىٰ في أرحامهن وبين البذورِ من المشابهة[١] من حيث إن كلًّا منهما مادةٌ لما يحصُل منه ﴿فأتوا حرْثَكم﴾ لما عبّر عنهن بالحرث عبّر عن مجامعتهن بالإتيان وهو بيانٌ لقوله تعالى: ﴿فأتوهن من حيثُ أمركم الله﴾ [البقرة، الآية: ٢٢٢].

﴿أنّىٰ شئتم﴾ من أيِّ جهة شئتم.

روي أن اليهود كانوا يزعُمون أن مَنْ أتى امرأتَه في قبُلها من دبرها يأتي ولده أحول فذُكِر ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت ﴿وقدِّموا لأنفسكم﴾[٢] أي ما يُدخَّر لكم من الثواب وقيل: هو طلبُ الولد وقيل: هو التسمية عند المباشرة ﴿واتقوا الله﴾ بالاجتناب عن معاصيه التي من جملتها ما عُدَّ من الأمور ﴿واعلَموا أنكم مُلاقوه﴾ فتعرَّضوا لتحصيل ما تنتفعون به حينئذ واجتنبوا اقترافَ ما تُفتَضَحون به.

﴿وبشر المؤمنين﴾ الذين تلقَّوا ما خوطبوا به من الأوامر والنواهي بحسب القَبول والامتثال بما يقصُر عنه البيان من الكرامة والنعيم المقيم، أو بكل ما يُبشَّر به من الأمور التي تُسرُّ بها القلوب وتَقَرُّ بها العيونُ، وفيه مع ما في تلوين الخطاب وجعلِ

---

(١) الآية من قبيل التشبيه البليغ لحذف الأداة والوجه، وقد شبه النساء بالحرث بجامع الإنبات في كلٍّ، وقد وقع التشبيه مما مضى موقع البيان والتوضيح، وهو المسمى بكمال الاتصال عند البلاغيين، وقد جعل التشبيه فرج المرأة كالأرض، والنطفة كالبذر، والولد كالنبات.
ينظر: الكشاف (١/ ٣٦٢)، وغرائب الفرقان (٢/ ٣٤٧)، والفتوحات الإلهية (١/ ١٨٠)، والتحرير والتنوير (٢/ ٣٧١).

(٢) أخرجه البخاري (٨/ ٣٧): كتاب التفسير: باب نساؤكم حرث لكم...، حديث (٤٥٢٨)، ومسلم (٢/ ١٠٥٨): كتاب النكاح: باب جواز جماعة...، حديث (١١٧/ ١٤٣٥)، وأبو داود (٢/ ٢٤٩): كتاب النكاح باب من جامع النكاح، حديث (٢١٦٣) والترمذي(٥/ ٢١٥): كتاب التفسير: باب ومن سورة البقرة، حديث(٢٩٧٨)، والنسائي(٦/ ٣٠٢) كبرى، كتاب عشرة النساء: باب نساؤكم حرث....، حديث (١١٠٣٨)، وابن ماجه (١/ ٦٢٠) كتاب النكاح: باب النهي عن إتيان النساء في أدبارهن، حديث (١٩٢٥)، والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ١٩٤): كتاب النكاح: باب إتيان النساء في أدبارهن والطحاوي (٣/ ٤٠): كتاب النكاح: باب وطء النساء في أدبارهن، والدارمي (٢/ ١٤٥): كتاب النكاح: باب النهي عن إتيان النساء في أعجازهن. وابن حبان في صحيحه (٩/ ٤٧٤)، حديث (٤١٦٦)، والطبري في تفسيره (٤/ ٤٠٩)، حديث (٤٣٣٩)، وابن أبي شيبة (٣/ ٥١٧)، حديث (١٦٦٦٢)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ٤٦٧، ٤٦٨)، وعزاه للستة ، ووكيع، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد وابن جرير وأبي نعيم في الحلية، والبيهقي في سننه.

المبشِّرِ رسولَ الله ﷺ من المبالغة في تشريف المؤمنين ما لا يخفى.

﴿ولا تجعلوا الله عُرضةً لأَيْمانكم﴾ قيل: نزلت في عبد اللَّه بنِ رَواحةَ[(١)] حين حلَف ألا يكلم خَتَنه بشيرَ بنَ النعمان[(٢)] ولا يُصلِحَ بينه وبين أخته[(٣)]، وقيل: في الصديق رضي الله عنه حين حلف ألا يُنفِقَ على مِسْطَح[(٤)] لخوضه في حديث الإفك[(٥)] والعُرضة فُعلة بمعنى مفعول كالقُبضة والغرفة تطلق على ما يعرض دون الشيء فيصيرُ حاجزًا عنه[(٦)] كما يقال: فلان عُرضة للخير وعلى المَعْرِض للأمر كما في قوله: [الطويل]

...... ...... فلا تجعلوني عُرضة لِلَّوائمِ[(٧)]

فالمعنى على الوجه الأول لا تجعلوا الله مانعًا [من الأمور][(٨)] الحسنة التي تحلِفون على تركها وعبر عنها بالإيمان لملابستها بها كما في قوله عليه السلام لعبد اللَّه بنِ سَمُرةَ: «إذا حَلَفتَ على يمينٍ فرأيتَ غيرَها خيرًا منها فأتِ الذي هو خيرٌ وكفِّر عن يمينك»[(٩)].

---

(١) هو: عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس الأكبر الأنصاري الخزرجي، له كنى، نزل دمشق، وهو عقبي، بدري، نقيب، أمير، شهيد، له أحاديث، انفرد له البخاري بحديث موقوف، وروى عنه أبو هريرة، وابن عباس، وأرسل عنه قيس بن أبي حازم وجماعة، واستشهد بمؤتة، رضي الله عنه.
ينظر: خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٢/ ٥٥، ٥٦)، أسد الغابة (٣/ ٢٣٤)، الاستيعاب (٣/ ٨٩٨)، سير الأعلام (١/ ٢٣٠).

(٢) هو: بشير بن النعمان بن عبيد ويقال له مقرن بن أوس بن مالك الأنصاري الأوسي قال: ابن القداح قتل يوم الحرة وقتل أبوه يوم اليمامة.
ينظر الإصابة (١/ ٣١٦)، واليواقيت والدرر (٢/ ٢٦٠).

(٣) ذكره المناوي في «الفتح السماوي» (١/ ٢٦٨) وقال: لم أقف عليه.

(٤) هو: مِسْطَح بن أُثاثة بن عباد بن المطلب بن عبد مناف بن قُصَي، القرشي، شهد مسطح بدرًا، وكان ممن خاض في الإفك على عائشة - رضي الله عنها - فجلده النبي ﷺ فيمن جلد في ذلك. توفي سنة أربع وثلاثين، وهو ابن ست وخمسين سنة. وقيل: شهد صفين مع علي، ومات سنة سبع وثلاثين.
ينظر: الإصابة (ت:٧٩٥٣)، الاستيعاب (ت:٢٥٧٩)، طبقات ابن سعد (٣/ ١/ ٣٦)، الجرح والتعديل (٨/ ٤٢٥)، مشاهير علماء الأمصار (٣٣)، حلية الأولياء (٢/ ٢٠)، تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٨٩)، العبر (١/ ٣٥).

(٥) أخرجه الطبري (٢/ ٤١٤) رقم (٤٣٧١) عن ابن جريج.

(٦) في المخطوط: منه.

(٧) ينظر: الكشاف (١/ ٢٦٧)، واللباب في علوم الكتاب (٤/ ٨٨).

(٨) في المخطوط: للأمور.

(٩) أخرجه البخاري (١٣/ ١٣٢): كتاب الأحكام: باب من سأل الإمارة وكل إليها، حديث (٧١٤٧)، =

وقوله تعالى: ﴿أن تبَرُّوا وتتقوا وتُصلِحوا بين الناس﴾ عطفُ بيانٍ «لأَيْمانكم» أو بدلٌ منها لما عرفت أنها عبارةٌ عن الأمور المحلوف عليها، واللام في (لأيمانكم) متعلقة بالفعل أو بـ (عُرضةً) لما فيها من معنى الاعتراض أي لا تجعلوا الله لبِرِّكم وتقواكم وإصلاحكم بين الناس عُرضةً أي برزخًا حاجزًا بأن تحلِفوا به تعالى على تركها أو لا تجعلوه تعالى عرضة أي شيئًا يَعترِض الأمورَ المذكورة ويحجُزُها بما ذُكر من الحَلِف به تعالى على تركها.

وقد جُوِّز أن تكون اللامُ للتعليل ويتعلق أن تبروا إلخ بالفعل أو بـ «عرضة» فيكون الأيمانُ بمعناها، وأنت خبير بأنه يؤدي إلى الفصل بين العامل ومعموله بأجنبي وعلى الوجه الثاني لا تجعلوا الله مَعْرِضًا لأيمانكم تبتذلونه بكثرة الحلف به ولذلك ذُمَّ من نزلت فيه ﴿ولا تُطِعْ كل حلاف مهين﴾ [القلم، الآية ١٠] بأشنعِ المذامِّ وجُعل الحلاّفُ مقدمتَها و﴿أن تبرّوا﴾ حينئذ علة للنهي أي إرادةَ أن تبرّوا وتتقوا وتصلحوا، لأن الحلافَ مجترِئ على الله سبحانه غيرُ معظِّم له فلا يكون بَرًّا متقيًا ثقةً بين الناس فيكون بمعزل من التوسط في إصلاح ذاتِ البين ﴿والله سميعٌ﴾ يسمع أَيْمانكم ﴿عليم﴾ يعلم نياتِكم فحافظوا على ما كُلفتموه.

﴿لا يؤاخذُكم الله باللغو في أيْمانكم﴾ اللغوُ: ما سقط من الكلام عن درجة الاعتبارِ والمرادُ به في الأيمان ما لا عقدَ معه ولا قصْدَ كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿ولكنْ يؤاخِذُكم بما عقَّدتُّم الأَيْمان﴾ [المائدة، الآية ٨٩] وهو المعنيُّ بقوله عز وجل: ﴿ولكن يؤاخِذُكم بما كسبت قلوبُكم﴾ وقد اختُلف فيه فعندنا هو أن يحلِف على شيءٍ يظنُّه على ما حلف عليه ثم يظهرُ خلافُه فإنه لا قصْدَ فيه إلى الكذبَ وعند الشافعي رحمه الله هو قولُ العرب لا والله وبلى والله مما يؤكِّدون به كلامَهم من غير إخطار الحلِف بالبال فالمعنى على الأول لا يؤاخذُكم الله أي لا يعاقبُكم بلغو اليمين الذي يحلِفه أحدُكم ظانًا أنه صادقٌ فيه ولكن يعاقبُكم بما اقترفتْه قلوبُكم من إثم

= ومسلم (٣/ ١٢٧٣، ١٢٧٤): كتاب الإيمان: باب ندب من حلف يمينًا...، حديث (١٩/ ١٦٥٢)، وأبو داود (٣/ ١٣٠): كتاب الخراج والإمارة باب ما جاء في طلب الإمارة، حديث (٢٩٢٩) والترمذي (٤/ ١٠٦): كتاب النذور والأيمان: باب ما جاء فيمن حلف ...، حديث (١٥٢٩)، والنسائي (٧/ ١٠): كتاب الأيمان والنذور: باب النهي عن مسألة الإمارة، حديث (٣٧٨٢) وأحمد (٥/ ٦١)، والدارمي(٢/ ١٨٦): كتاب النذور والأيمان: باب من حلف على يمين فرأى غيرها خيرًا منها، وابن الجارود (٣/ ٢٥٤) حديث (٩٩٨) والبيهقي في سننه (١٠/ ٥٣) وابن حبان في صحيحه (١٠/ ١٨٩)، حديث (٤٣٤٨) عن الحسن عن عبد الرحمن بن سمرة... به.

القصْد إلى الكذب في اليمين وذلك في الغَموس[1].

---

(١) اختلف في اليمين الغموس هل هي يمين منعقدة أم لا ؟ فالذي عليه الجمهور أنها يمين مكر وخديعة وكذب فلا تنعقد ولا كفارة فيها وقال الشافعي: هي يمين منعقدة لأنها مكتسبة بالقلب معقودة بخبر مقرونة باسم الله تعالى وفيها الكفارة والصحيح الأول قال ابن المنذر: وهذا قول مالك بن أنس ومن تبعه من أهل المدينة وبه قال الأوزاعي ومن وافقه من أهل الشام وهو قول الثوري وأهل العراق وبه قال أحمد و إسحاق و أبو ثور وأبو عبيد وأصحاب الحديث وأصحاب الرأي من أهل الكوفة. قال أبو بكر: وقول النبي ﷺ: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه» وقوله: «فليكفر عن يمينه ويأتي الذي هو خير يدل على أن الكفارة إنما تجب فيمن حلف على فعل يفعله مما يستقبل فلا يفعله أو على فعل ألا يفعله مما يستقبل فيفعله وفي المسألة قول ثان وهو أن يكفر وإن أثم عمد الحلف بالله كاذبا هذا قول الشافعي قال أبو بكر: ولا نعلم خبرا يدل على هذا القول والكتاب والسنة دالان على القول الأول. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٢٤] قال ابن عباس: هو الرجل يحلف ألا يصل قرابته فجعل الله له مخرجا في التكفير وأمره ألا يعتل بالله وليكفر عن يمينه والأخبار دالة على أن اليمين التي يحلف بها الرجل يقتطع بها مالا حراما هي أعظم من أن يكفرها ما يكفر اليمين. قال ابن العربي: الآية وردت بقسمين: لغو ومنعقدة وخرجت على الغالب في أيمان الناس فدع ما بعدها يكون مائة قسم فإنه لم تعلق عليه كفارة.

قلت: خرج البخاري عن عبد الله بن عمرو قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ما الكبائر ؟ قال: الإشراك بالله قال: ثم ماذا قال: عقوق الوالدين قال: ثم ماذا ؟ قال: اليمين الغموس قلت وما اليمين الغموس قال: التي يقتطع بها مال امرئ مسلم هو فيها كاذب. خرج عن مسلم عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال:

من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة فقال رجل: وإن كان شيئا يسيرا يا رسول الله ؟ قال: وإن كان قضيبا من أراك. ومن حديث عبد الله بن مسعود فقال رسول الله ﷺ: من حلف على يمين صبر يقتطع بها مال امرئ مسلم هو فيها فاجر لقي الله وهو عليه غضبان. فنزلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: ٧٧] إلى آخر الآية ولم يذكر كفارة فلو أوجبنا عليه كفارة لسقط جرمه ولقي الله وهو عنه راض ولم يستحق الوعيد المتوعد عليه وكيف لا يكون ذلك وقد جمع هذا الحالف الكذب: استحلال مال الغير والاستخفاف باليمين بالله تعالى والتهاون بها وتعظيم الدنيا ؟ فأهان ما عظمه الله وعظم ما حقره الله وحسبك ولهذا قيل: إنما سميت اليمين الغموس غموسا لأنها تغمس صاحبها في النار.

ينظر: تفسير القرطبي (٨/ ١٢٧، ١٢٨).

تبين مما سبق أن المفسر لم يذهب إلى مذهب الشافعي. ثم ما حجة الشافعية بقولهم إن يمين الغموس عليها الكفارة؟. قال الشربيني في مغني المحتاج: «وتصح اليمين» على ماض «كوالله ما فعلت كذا أو فعلته بالإجماع لقوله تعالى ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾ ثم إن كان عامدا فهي اليمين الغموس سميت بذلك لأنها تغمس صاحبها في الإثم أو في النار وهي من الكبائر وتتعلق بها الكفارة خلافا للأئمة الثلاثة لقوله تعالى (ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان) وهو يعم الماضي والمستقبل. وتعلق الإثم لا يمنع الكفارة كما أن الظهار منكر من القول وزور وتتعلق به الكفارة بل =

وعلى الثاني لا يلزمُكم الكفارةُ بما لا قصدَ معه إلى اليمين ولكن يلزمُكُموها بما نوَتْ قلوبُكم وقصَدَتْ به اليمينَ ولم يكن كسب اللسان فقط ﴿والله غفور﴾ حيث لم يؤاخذْكم باللغو مع كونه ناشئًا من عدم التثبّت وقلةِ المبالاة ﴿حليم﴾ حيث لم يعجَلْ بالمؤاخذة، والجملةُ اعتراض مقرِّرٌ لمضمون قوله تعالى: ﴿لا يؤاخذكم. . .﴾ إلخ وفيه إيذانٌ بأن المرادَ بالمؤاخذة المعاقبة لا إيجابُ الكفارة إذ هي التي يتعلق بها المغفرةُ والحِلْمُ دونه.

﴿للذين يُؤلون من نسائهم﴾ الإيلاءُ: الحلِفُ وحقُّه أن يستعمل بـ (على) واستعمالُه بـ (من) لتضمينه معنى البُعد أي: للذين يحلِفون متباعدين من نسائهم ويُحتمل أن يراد لهم من نسائهم ﴿تربُّصُ أربعةَ أشهرٍ﴾ كقولك: لي منك كذا.

وقرئ[1] «آلَوْا من نسائهم» وقرئ[2] يُقسمون من نسائهم والإيلاءُ من المرأة أن

---

= وفيه التعزير أيضا كما مر في فصل التعزير أنها مستثنى من قولهم يعزر في كل معصية لا حد فيها ولا كفارة.
ينظر: مغنى المحتاج (٤/ ٣٢٥).
وقال الرازي فى تفسيره: احتج الشافعي رضي الله عنه على وجوب الكفارة في اليمين الغموس، بقوله تعالى ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ وقال في آية المائدة: ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَنَ﴾ وعقد اليمين محتمل لأن يكون المراد منه عقد القلب به، ولأن يكون المراد به العقد الذي يضاد الحل، فلما ذكر ههنا قوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ علمنا أن المراد من ذلك العقد هو عقد القلب، وأيضاً ذكر المؤاخذة ههنا، ولم يبين أن تلك المؤاخذة ما هي، وبينها في آية المائدة بقوله: ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَنَ فَكَفَّرَتُهُ﴾ فبين أن المؤاخذة هي الكفارة، فكل واحدة من هاتين الآيتين مجملة من وجه، مبينة من وجه آخر فصارت كل واحدة منهما مفسرة للأخرى من وجه، وحصل من كل واحدة منهما أن كل يمين ذكر على سبيل الجد وربط القلب، فالكفارة واجبة فيها، واليمين الغموس كذلك فكانت الكفارة واجبة فيها وأما قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. فقد علمت أن: الغفور، مبالغة في ستر الذنوب، وفي إسقاط عقوبتها، وأما: الحليم، فاعلم أن الحلم في كلام العرب الأناة والسكون، يقال: ضع الهودج على أحلم الجمال، أي على أشدها تؤدة في السير، ومنه الحلم لأنه يرى في حال السكون، وحلمة الثدي، ومعنى: الحليم، في صفة الله: الذي لا يعجل بالعقوبة، بل يؤخر عقوبة الكفار والفجار..
ينظر: تفسير الرازي (٦/ ٦٨).

(١) قرأ بها: عبد الله بن مسعود.
ينظر: البحر المحيط (٢/ ١٨٠)، وتفسير القرطبي (٣/ ١٠٢)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٣٦)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٢٤٣).

(٢) قرأ بها: ابن عباس، وأبي.
ينظر: البحر المحيط (٢/ ١٨٠)، وتفسير القرطبي (٣/ ١٠٢)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٣٦)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٢٤٣).

يقول: والله لا أقرَبُك أربعةَ أشهرٍ فصاعدًا على التقييد بالأشهر، أو لا أقربك على الإطلاق، ولا يكون فيما دون ذلك وحكمه[١] أنه إن فاء إليها في المدة بالوطء إن أمكن أو بالقول إن عجز عنه صح الفيءُ وحنِث القادرُ ولزِمَتْه كفارةُ اليمين، ولا كفارةَ على العاجز، وإن مضت [الأشهرُ][٢] الأربعةُ بانت بتطليقة.

والتربُّص الانتظارُ والتوقف أضيف إلى الظرف اتساعًا أي لهم أن ينتظروا في هذه المدة من غير مطالبة بفيء أو طلاق[٣] ﴿فإن فاءوا﴾ أي رَجَعوا عن[٤] اليمين بالحِنْث، والفاء للتفصيل كما إذا قلت أنا نزيلُكم هذا الشهرَ فإن حمِدتُكم أقمتُ عندكم إلى آخره وإلا لم ألبَثْ إلا ريثما أتحوّل ﴿فإن الله غفورٌ رحيم﴾ يغفرُ للمُولي بفيئته التي هي كتَوْبته إثرَ[٥] حنثه عند تكفيره أو ما قصَد بالإيلاء من ضرار المرأة.

﴿وإن عزَموا الطلاقَ﴾ وأجمعوا عليه ﴿فإن الله سميعٌ﴾ بما جرى منهم من الطلاق وما يتعلق به من الدمدمة والمقاولةِ التي لا تخلو عنها الحالُ عادة ﴿عليمٌ﴾ بنياتهم وفيه من الوعيد على الإصرار وترك الفَيئة ما لا يخفى.

﴿والمطلقاتُ﴾ أي: ذواتُ الأقراءِ من الحرائر المدخولِ بهن لما قد بُين أن لا عدةَ على غير المدخولِ بها وأنَّ عدَّةَ من لا تحيضُ ـ لصِغَرٍ أو كِبَرٍ أو حملٍ ـ بالأشهر

---

(١) الإيلاء لغة: بالمد: الحلف، وهو: مصدر. يقال: آلى بمدة بعد الهمزة، يؤلي إيلاءً، وتألّى وأتلى، والألّية، بوزن فعيلة: اليمين، وجمعها ألايا: بوزن خطايا، قال الشاعر: [الطويل]

قليل الألايا حافظ ليمينه وإن سبقت فيه الألية برَّت

والألوة بسكون اللام، وتثليث الهمزة: اليمين أيضاً.

ينظر: الصحاح (٦/ ٢٢٧)، المغرب (٢٨)، لسان العرب (١/ ١١٧)، المصباح المنير (١/ ٣٥).

واصطلاحاً:

عرفه الحنفية هو: عبارة عن اليمين على ترك وطء المنكوحة أربعة أشهر، أو أكثر.

وعرفه الشافعية بأنه: هو حلف زوج يصح طلاقه ليمتنعن من وطئها مطلقاً، أو فوق أربعة أشهر؛ لأن المرأة يعظم ضررها إذا زاد على ذلك؛ لأنها تصبر عن الزوج أربعة أشهر، وبعد ذلك يفنى صبرها أو يقلّ.

وعرفه المالكية بأنه: حلف الزوج المسلم المكلف الممكن وطؤه بما يدل على ترك وطء زوجته أكثر من أربعة أشهر، أو شهرين للعبد تصريحاً، أو احتمالاً قيد، أو أطلق وإن تعليقاً.

وعرفه الحنابلة بأنه: حلف الزوج القادر على الوطء بالله تعالى، أو صفة من صفاته على ترك وطء زوجته في قبلها مدة زائدة على أربعة أشهر.

ينظر: تبيين الحقائق/ شرح كنز الدقائق (٢/ ٢٦١)، مغني المحتاج (٣/ ٣٤٣)، الشرح الصغير (٢/ ٢٧٨، ٢٧٩)، المطلع (٣٤٣)، تحفة المحتاج (٨/ ١٨٨)، شرح المحلى على المنهاج (٢٤).

(٢) سقط في المخطوط.

(٣) في المخطوط: إطلاق.

(٤) في المخطوط: من.

(٥) في المخطوط: اسم.

ووضعِ الحمل وأن عدة الأَمَةِ قُرآنِ أو شهران ﴿يتربصْنَ﴾ خبرٌ في معنى الأمر مفيدٌ للتأكيد بإشعاره بأن المأمور به مما يجب أن يُتلقَّ بالمسارعة إلى الإتيان به فكأنهن امتثلن بالأمر بالتربُّص فتخبر به موجودًا متحققًا، وبناؤه على المبتدأ مفيدٌ لزيادة تأكيد ﴿بأنفسِهن﴾ الباء للتعدية أي يقمَعْنها ويحمِلْنها على ما لا تشتهيه بل يشق عليها من التربص وفيه مزيدُ حثٍّ لهن على ذلك لما فيه من الإنباء عن الاتصاف بما يستنكفْن منه من كون نفوسِهن طوامِحَ إلى الرجال فيحملُهن ذلك على الإقدام على الإتيان بما أمرن به ﴿ثلاثةَ قروءٍ﴾ نُصب على الظرفية أو المفعولية بتقدير مضافٍ أي يتربصن مدةَ ثلاثةِ قروء أو يتربصن مُضِيَّ ثلاثةِ قروءٍ وهو جمع قُرءٍ والمراد به الحيضُ[١] بدليل قوله ﷺ: «دعي الصَّلاةَ أيامَ أقرائِك»[٢] وقوله ﷺ: «طلاقُ الأمَةِ تطليقتانِ وعِدَّتُها حَيْضتان»[٣].

---

(١) ... قال الإمام الشافعي - رضي الله عنه - في «الرسالة» (ص ٥١٢): «قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾. فقالت عائشة: الأقراء الأطهار. وقال بمثل معنى قولها زيد بن ثابت، وابن عمر وغيرهما. رضي الله عنهم.. وقال نفر من أصحاب النبي ﷺ: الأقراء الحيض» اهـ. ثم رجح أنها الأطهار.

وقد نقل الشيخ الموفق في «المغني» (٩/ ٨٢) القول بأن القرء الحيض عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وأبي موسى وعبادة وأبي الدرداء وابن عباس، والثوري والأوزاعي وغيرهم. رضي الله عنهم .. ونقل القول بأنه الطهر عن زيد وابن عمر وعائشة، وسليمان بن يسار والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله وأبان بن عثمان وعمر بن عبد العزيز والزهري وغيرهم. رضي الله عنهم..

وانظر: أحكام القرآن للجصاص (١/ ٥١٤).

(٢) أخرجه الدارقطني في سننه (١/ ٢١٧): كتاب الحيض حديث (٥٦)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ١٠٠، ١٠١).

(٣) أخرجه أبو داود (١/ ٦٦٥) في الطلاق، باب في سنة طلاق العبد (٢١٨٩)، والترمذي (٣/ ٤٨٨) في الطلاق، باب ما جاء أن طلاق الأمة تطليقتان (١١٨٢) وابن ماجه (١/ ٦٧٢) في الطلاق، باب في طلاق الأمة وعددها (٢٠٨٠) والدارقطني (٤/ ٣٩)، والحاكم (٢/ ٢٠٥)، والبيهقي (٧/ ٣٦٩) عن أبي عاصم نا ابن جريج عن مظاهر عن القاسم بن محمد عن عائشة قال رسول الله ﷺ طلاق الأمة تطليقتان، وقرؤها حيضتان. قال أبو عاصم: فلقيت مظاهرًا فحدثني عن القاسم عن عائشة عن النبي ﷺ مثله إلا أنه قال: وعدتها حيضتان.

قال أبو داود: وهو حديث مجهول.

وقال الترمذي: حديث عائشة حديث غريب لا نعرفه مرفوعًا، إلا من حديث مظاهر بن أسلم، ومظاهر: لا نعرف له في العلم غير هذا الحديث.

وقال البيهقي: بإسناده عن ابن حماد يقول. قال البخاري: مظاهر بن أسلم عن القاسم عن عائشة، ضعفه أبو عاصم.

ويشهد له حديث ابن عمر أخرجه ابن ماجه (٢٠٧٩) والدارقطني (٤/ ٣٨)، والبيهقي (٧/ ٣٦٩) عن =

وقوله تعالى: ﴿واللائي يَئِسْنَ من المَحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهُنَّ ثلاثةُ أشهرٍ﴾ [الطلاق، الآية ٤] ولأن المقصودَ الأصليَّ من العدة استبراءُ الرحِم ومدارُه الحيضُ دون الطهر ويقال: أقْرَأت المرأة إذا حاضت وقوله تعالى: ﴿فطلّقوهنَّ لعِدَّتهن﴾ [الطلاق، الآية ١] معناه مستقبلاتٍ لعدتهن وهي الحِيَضُ الثلاثُ، وإيرادُ جمع الكثرة في مقام جمع القِلة بطريق الاتساع فإن إيراد كلٍّ من الجمعين مكانَ الآخر شائع ذائع.

وقرئ[١] «ثلاثة قُرو» بغير همز ﴿ولا يحِلُّ لهن أن يكتُمن ما خلق الله في أرحامهن﴾ من الحَيْض والوَلَدِ استعجالًا للعِدة[٢] وإبطالًا لحقِّ الرَّجْعة وفيه دليل على قبول قولهِن في ذلك نفيًا وإثباتًا.

﴿إن كنَّ يؤمنّ بالله واليومِ الآخِر﴾ جوابُ الشرط محذوفٌ يدل عليه ما قبله دَلالةً

---

= عمر بن شبيب المسلي عن عبد الله بن عيسى عن عطية عن ابن عمر قال رسول الله ﷺ: «طلاق الأمة اثنتان، وعدتها حيضتان».
وقال البيهقي والدارقطني: تفرد به عمر بن شبيب المسلي هكذا مرفوعًا، وكان ضعيفًا. والصحيح ما رواه سالم ونافع عن ابن عمر موقوفًا.
وأخرجه مالك (٢/ ٥٧٤) في الطلاق، باب ما جاء في طلاق العبد (٥٠) ومن طريقه أخرجه البيهقي (٧/ ٣٦٩) عن نافع عن ابن عمر موقوفًا.
وأخرجه الدارقطني(٤/ ٣٨) عن سالم ونافع عن ابن عمر موقوفًا.
وقال الدارقطني: وهذا هو الصواب. وحديث عبد الله بن عيسى عن عطية عن ابن عمر عن النبي ﷺ: منكر غير ثابت من وجهين.
أحدهما: أن عطية ضعيف. وسالم ونافع أثبت منه وأصح رواية.
والوجه الآخر: أن عمر بن شبيب ضعيف الحديث، لا يخبر بروايته.

(١) قرأ بها: نافع، والزهري.
ينظر: البحر المحيط (٢/ ١٨٦)، تفسير القرطبي (٣/ ١١٣)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٣٨).

(٢) في المخطوط: في العدة.
والعدة: لغة مأخوذة من العد والحساب، والعد في اللغة: الإحصاء، وسميت بذلك لاشتمالها على العدد من الأقراء أو الأشهر غالبا، فعدة المرأة المطلقة والمتوفى عنها زوجها هي ما تعده من أيام أقرائها، أو أيام حملها، أو أربعة أشهر وعشر ليال، وقيل: تربصها المدة الواجبة عليها، وجمع العدة: عدد، كسدرة، وسدر.
ينظر: لسان العرب، مادة (عدد)، (٤/ ٢٨٣٢)، المصباح المنير، مادة (عدد)، (١/ ٣٩٥).
والعدة اصطلاحًا عند الحنفية:
اسم لأجل ضرب لانقضاء ما بقي من آثار النكاح.
ينظر: بدائع الصنائع (٣/ ١٩٠)، البحر الرائق (٤/ ١٣٨)، رد المحتار (٣/ ٥٠٣).

واضحة أي: فلا يجترئن على ذلك، فإن قضيةَ الإيمان بالله تعالى واليوم الآخرِ الذي يقع فيه الجزاءُ والعقوبةُ منافيةٌ له قطعًا ﴿وبُعولتُهن﴾ البعولةُ: جمعُ بعلٍ وهو في الأصل السيدُ المالك والتاءُ لتأنيث الجمع كما في الحزونة والسهولة أو مصدرٌ بتقدير مضافٍ أي أهلُ بعولتهن أي أزواجُهن الذين طلقوهن طلاقًا رَجْعيًا كما ينبئ عنه التعبيرُ عنهم بالبعولة، والضميرُ[1] لبعض أفراد المطلقات ﴿أحقُّ بردِّهن﴾ إلى مِلْكهم بالرَّجْعة إليهن ﴿في ذلك﴾ أي في زمانِ التربُّص، وصيغة التفضيلِ لإفادة أن الرجلَ إذا أراد الرجعةَ والمرأةُ تأباها وجبَ إيثارُ قولِه على قولها لا أن لها أيضًا حقًا في الرجعة.

﴿إن أرادوا﴾ أي الأزواجُ بالرجعة ﴿إصلاحًا﴾ لما بينهم وبينهن وإحسانًا إليهن ولم يريدوا مضارَّتَهن، وليس المرادُ به شرطيةَ قصْدِ الإصلاح بصحة الرجعة بل هو الحثُّ عليه والزجرُ عن قصد الضِّرار ﴿ولهن﴾ عليهم من الحقوق ﴿مثلُ الذي﴾ لهم ﴿عليهن بالمعروف﴾ من الحقوق التي يجب مراعاتُها ويتحتم المحافظةُ عليها ﴿وللرجالِ عليهن درجةٌ﴾ أي زيادةٌ في الحق لأن حقوقَهم في أنفسهن وحقوقَهن في المَهْر والكَفاف وتركِ الضِّرار ونحوها، أو مزيةٌ في الفضل لما أنهم قوامون عليهن حُرَّاسٌ لهن ولما في أيديهن يشاركونهن في[2] الغرَض من الزواج ويستبدّون بفضيلة الرعاية والإنفاق ﴿والله عزيزٌ﴾ يقدِرُ على الانتقام ممن يخالفُ أحكامَه ﴿حكيم﴾ تنطوي شرائعهُ على الحِكَم والمصالح.

﴿الطلاقُ﴾ هو بمعنى التطليق كالسلام بمعنى التسليم والمراد به الرجعيُّ لما أن السابقَ الأقربُ حكمُه، ولما رُوي أنه عليه السلام سُئل عن الثالثة فقال عليه السلام: «أو تسريحٌ بإحسان»[3] وهو مبتدأ بتقدير مضافٍ خبرُه ما بعده أي عددُ الطلاق الذي

---

(١) في المخطوط: فالضمير. (٢) في المخطوط: فيما هو.

(٣) أخرجه الدارقطني (٤/ ٣، ٤): كتاب الطلاق، حديث (١، ٢) الأول عن قتادة عن أنس، والثاني عن إسماعيل بن سميع عن أنس وأخرجه أبو داود في المراسيل، ص (١٨٩)، حديث (٢٢٠) وابن أبي شيبة في مصنفه (٤/ ١٩٠)، حديث (١٩٢١٦)، وعبد الرزاق في مصنفه (٦/ ٣٣٧، ٣٣٨)، حديث (٩١-١١) مرسلًا.

والبيهقي في سننه الكبرى (٧/ ٣٤٠): كتاب الخلع والطلاق: باب ما جاء في موضع الطلقة الثالثة من كتاب الله عز وجل، عن أنس وكذلك مرسلًا وذكره السيوطي في الدر المنثور(١/ ٤٩٥) وعزاه لابن مردويه والبيهقي عن أنس ولأحمد ووكيع وعبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وأبي داود في ناسخه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس وابن مردويه والبيهقي، عن أبي رزين الأسدي قال: قال رجل ...

يستحقُّ الزوجُ فيه الردَّ والرجعة حسبما بيّن آنفًا.

﴿مرَّتانِ﴾ أي اثنانِ، وإيثارُ ما ورد به النظمُ الكريم عليه للإيذان بأن حقَّهما أن يقعا مرةً بعد مرة لا دفعةً واحدة وإن كان حكمُ الرد ثابتًا حينئذٍ أيضًا ﴿فإمساك﴾ فالحكمُ بعدهما إمساكٌ لهن بالرجعة ﴿بمعروف﴾ أي بحسن عِشرةٍ ولطفِ معاملة ﴿أو تسريحٌ بإحسان﴾ بالطلقة الثالثة كما رُوي عنه ﷺ[1] أو بعدم الرجعةِ[2] إلى أن تنقضيَ

---

(١) ينظر تخريج الحديث السابق.

(٢) اختلف الفقهاء في هذه المسألة على أربعة مذاهب:

المذهب الأول: أن الطلاق الثلاث يقع طلقة واحدة رجعية. وإلى هذا ذهب ابن تيمية وابن قيم الجوزية، رحمهما الله تعالى.

المذهب الثاني: يرى أصحابه أن طلاق الثلاث يقع ثلاثًا، وتبين به المرأة بينونة كبرى، فلا تحل لزوجها حتى تنكح زوجًا غيره.

وهذا الرأي ينسب إلى الأئمة الأربعة، وجماهير الصحابة والتابعين.

المذهب الثالث: أن الطلاق الثلاث في مجلس واحد، طلاق بدعي باطل، لا يقع به شيء أصلًا.

وينسب هذا الرأي إلى الشيعة الإمامية، وبعض أهل الظاهر.

المذهب الرابع: فرق أصحابه بين المدخول بها وغير المدخول بها.

فإن كانت المرأة المطلقة مدخولًا بها، وقعت الثلاث، وإن لم يكن مدخولًا بها، وقع طلقة واحدة فقط.

وينسب هذا الرأي إلى بعض أصحاب ابن عباس -رضي الله عنهما- وإسحاق بن راهويه، رحمه الله.

أدلة المذاهب:

أولًا: أدلة المفرقين بين المدخول بها وغير المدخول بها:

استدل الذين فرقوا بين المدخول بها وغير المدخول بها بالسنة والمعقول؛ فاستدلوا من السنة:

بما رُوي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: كان الرجل إذا طلق امرأته ثلاثًا قبل أن يدخل بها، جعلوها واحدة على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وصدر من إمارة عمر.

وجه الاستدلال:

تفيد هذه الرواية صراحة أن الطلاق قبل الدخول لا يقع إلا واحدة وتقع بعد الدخول ثلاثًا، وهذا التقييد الوارد في هذه الرواية يقيد ما كان مطلقًا في الروايات الأخرى؛ لأنه من المقرر أصوليًّا حمل المطلق على المقيد، وخاصة إذا اتحد الحكم والسبب في كل منها.

ومن المعقول:

أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول، فإن الطلاق يقع بائنًا، بمجرد وقوع الطلاق، ولا عدة للمرأة قبل الدخول؛ ولهذا لا عبرة للطلاق بعد ذلك، لعدم وجود المحل؛ لأن الزوجية تنتهي بمجرد صدور الطلقة من الرجل؛ لأن الطلاق هو ما صدر من أهله مضافًا إلى محله.

وأما المدخول بها، فإن المطلقة لا تبين من زوجها، بمجرد صدور الطلاق وإنما تعتد المرأة، والمعتدة في حكم الزوجة، فتلحقها الطلقتان الأخريان، ولهذا يقع الطلاق الثلاث ثلاثًا بعد الدخول =

العِدَّةُ فَتَبينُ، وقيل: المرادُ به الطلاقُ الشرعيُّ وبالمرتين مطلقُ التكرير لا التثنيةُ بعينها

---

= ويقع واحدة قبل الدخول.
ثانيًا: أدلة القائلين بأن الطلاق الثلاث في مجلس واحد باطل:
استدل القائلون بأن الطلاق الثلاث في مجلس واحد، طلاق بدعي باطل لا يقع به شيء أصلًا، استدلوا على قولهم بما يلي:
بحديث: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد».
وجه الاستدلال بالحديث: يدل الحديث بوضوح، أن الأمر المخالف لسنة رسول الله ﷺ يكون باطلًا، مردودًا، ومن ذلك الطلاق البدعي، فلا يكون مقبولا، وإنما يكون فاسدًا مردودًا؛ لأنه غير موافق لما جاء في القرآن والسنة لأن جمع الطلاق الثلاث بكلمة واحدة، لم يذكر في القرآن، فهو محدث فلا يكون واقعًا.
وجه الاستدلال: تدل الرواية بوضوح أن الطلاق البدعي لا يقع، ومن ذلك الطلاق الثلاث بكلمة واحدة؛ لأن النبي ﷺ لم يعتد بهذا الطلاق وردها لابن عمر، ولو كان الطلاق واقعًا، لما ردها لابن عمر. وهذا دليل عدم الوقوع.
ثالثًا: أدلة القائلين بأن الطلاق الثلاث في مجلس واحد تبين به المرأة بينونة كبرى:
استدل جمهور الفقهاء القائلون بأن الطلاق الثلاث يقع ثلاثًا وتبين به المرأة بينونة كبرى، فلا تحل لزوجها حتى تنكح زوجًا غيره، استدلوا على قولهم بالكتاب والسنة.
أما الكتاب، فاستدلوا بأدلة كثيرة منها:
قوله - عز وجل-: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾.
قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾.
قوله - تعالى-: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾.
وجه الاستدلال بالآيات الكريمة: أن العموم والإطلاق الوارد في الآيات، والذي يستفاد من قوله «والمطلقات، وطلقتم، وطلقها، وطلقوهن»، يجري على عمومه وإطلاقه، ويشمل الطلاق الرجعي والبائن؛ سواء صدر الطلاق بلفظ واحد أو اثنين أو ثلاث، مفرقًا، أو بلفظ واحد، ولم يقيده بقيد العدة الوارد في النص، أو وقت ابتداء العدة، وبهذا يبقى العام على عمومه، والمطلق على إطلاقه.
أما السنة، فبأدلة كثيرة، منها:عن عائشة - رضي الله عنها- «أن رجلًا طلق امرأته ثلاثًا، فتزوجت، فطُلقت فسأل النبي ﷺ: أتحل للأول؟ قال: لا حتى يذوق عسيلتها كما ذاق الأول».
حديث عويمر العجلاني أنه طلق ثلاث تطليقات عند رسول الله ﷺ فأنفذه رسول الله ﷺ.
جاء رجل إلى ابن عباس، رضي الله عنهما، فقال: إنه طلق امرأته ثلاثًا، فسكت حتى ظننت أنه رادها إليه، ثم قال: ينطلق أحدكم، فيركب الحموقة، ثم يقول: يابن عباس، وإن الله قال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾، وإنك لم تتق الله، فلم أجد لك مخرجا، عصيت ربك، فبانت منك امرأتك، وإن الله تعالى - قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾: في قبل عدتهم.
وجه الاستدلال بهذه الأحاديث: تفيد الأحاديث السابقة أن طلاق الثلاث، يقع ثلاثًا، وأن المرأة تبين من زوجها بينونة كبرى، والأحاديث مجتمعة يفسر بعضها بعضًا، ويؤكد بعضها بعضًا، والنبي ﷺ أنفذه ثلاثًا، فلو كان لا يقع، لأنكره وبين بطلانه.
رابعًا: أدلة القائلين بأن الطلاق الثلاث يقع واحدة رجعية:
=

كما في قوله تعالى: ﴿ثمَّ ارجعِ البصَرَ كرَّتين﴾ [الملك، الآية: ٤] أي كرةً بعد كرة

---

= استدل القائلون بأن الطلاق الثلاث بلفظ واحد أو في مجلس واحد يقع طلقة رجعية بما يلي: بالكتاب والسنة والمعقول.
أما الكتاب:
فمنه قوله -عز وجل-: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾.
وجه الاستدلال بالآية الكريمة: تشير الآية الكريمة إلى بيان الطلاق المشروع، فقد شرع الله - عز وجل- الطلاق تطليقة بعد تطليقة، ولم يشرعه ثلاثًا دفعة واحدة، فإذا فعله الزوج ثلاثًا لا يقع إلا واحدة.
ومن السنة:
عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: «كان الطلاق على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وسنتين من خلافة عمر، طلاق الثلاث واحدة، فقال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: إن الناس قد استعجلوا في أمر قد كانت لهم فيه أناة فلو أمضيناه عليهم، فأمضاه عليهم».
وجه الاستدلال من الحديث الشريف: الحديث ظاهر الدلالة أن الطلاق الثلاث بلفظ واحد، كان يقع واحدة في عهد النبي ﷺ وأبي بكر، ثم إن عمر -رضي الله عنه- رأى الناس استهانوا بأمر الطلاق، وكثر منهم إيقاعه جملة واحدة، فرأى من المصلحة معاقبتهم بإمضائه عليهم؛ ليكون ذلك رادعًا لهم، وأساس العقوبة المصلحة، والمصلحة متغيرة، وقد تغيرت المصلحة فيصار إلى الأصل؛ وهو عدم وقوع الطلاق ثلاث بطلقة واحدة.
عن ابن عباس -رضى الله عنهما- قال: «طلق ركانة زوجه ثلاثًا في مجلس واحد، فحزن عليها حزنًا شديدًا، فسأله رسول الله ﷺ: كيف طلقتها؟ قال طلقتها ثلاثا في مجلس واحد، قال: إنما تلك طلقة واحدة فارتجعها».
وجه الاستدلال بالحديث الشريف: يدل الحديث صراحة على أن طلاق الثلاث في مجلس واحد، يقع طلقة واحدة.
ومن المعقول:
أن الأمر الذي يخالف الشرع يكون باطلًا؛ لأنه إن وجد من الناحية الواقعية، لكنه من حيث الاعتبار الشرعي يكون باطلًا، عملًا بقوله ﷺ: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد»، والطلاق البدعي طلاق محرم، فلا يقع إلا واحدة، حفاظًا على تحقيق المصلحة من تتابع الطلاق.
مناقشة الأدلة:
أولًا: - مناقشة أدلة القائلين بوقوع الطلاق الثلاث بلفظ واحد ثلاثًا:
نوقشت أدلة الجمهور القائلين بوقوع الطلاق الثلاث بلفظ واحد ثلاثًا بما يأتي:
أن ما استدلوا به من القرآن الكريم أدلة عامة ومطلقة، والعام يتطرق إليه التخصيص، والمطلق يتطرق إليه التقييد، وكلها أدلة ظنية يتطرق إليها الاحتمال في محل النزاع، فيسقط الاستدلال بها، كما أن آية ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ ...﴾ تشير إلى عدد الطلاق لا إلى كيفية وقوعه؛ ولهذا لا يصلح الاحتجاج بها في محل النزاع.
حديث عائشة -رضي الله عنها- لا حجة لكم فيه؛ لأنه لم يشر إلى كيفية وقوع الطلاق الثلاث؛ لأنه يحتمل أن يكون الطلاق قد وقع بالتتابع وفي عدة مجالس، ومع قيام هذا الاحتمال يسقط الاستدلال =

والمعنى أن التطليق الشرعيَّ تطليقةٌ بعد تطليقةٍ على التفريق دون الجمع بين الطلقتين أو

---

= بالحديث.

حديث عويمر العجلاني، لا حجة فيه؛ لأن الطلاق وقع منه، في غير محله وبعد أن أصبحت زوجته أجنبية عنه، بسبب اللعان الذي وقع بينه وبين زوجته، الذي أدى إلى المفارقة بينهما بنفس اللعان، وتطليقه لها بعد اللعان، لا أثر له؛ لفوات المحل؛ ولهذا لا يصح الاحتجاج بالحديث؛ لأن الحرمة وقعت باللعان لا بالطلاق، وإن وجد الطلاق منه بعد اللعان، فهو طلاق لا قيمة له في الاعتبار الشرعي، وإن وجد من الناحية المادية؛ لأن الطلاق المعتبر شرعًا، هو ما صدر من أهله، مضافًا إلى محله.

وبالنسبة لفتوى ابن عباس، فإن الأثر لم يشر إلى كيفية وقوع الطلاق، فهو يحتمل أنه كان جملة واحدة أو مفرقًا، ويحتمل أنه كان قبل الدخول، فيتطرق إليه الاحتمال في محل النزاع، فيسقط به الاستدلال.

ثانيًا: مناقشة أدلة القائلين بأن الطلاق الثلاث بلفظ واحد لا يقع به شيء أصلًا.

إن الاستدلال بقوله ﷺ: «كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد»، لا يصح؛ لأنه معناه أن العمل يكون مردودًا إذا كان مخالفًا لركن من أركان الإسلام، أو شرط من شرائطه، وليس كذلك الطلاق؛ لأنه مخالف للسنة، كما أن الحديث يتطرق إليه الاحتمال؛ لأنه يحتمل أن يكون الرد يوم القيامة؛ أي من حيث الديانة عمل محرم، والدليل إذا تطرق إليه الاحتمال - في محل النزاع - سقط الاستدلال به، وهو حديث عام خصص بما ساقه الجمهور من أدلة.

أما حديث ابن عمر -رضي الله عنهما- وفيه «فردها عليه ولم يرها شيئًا» فهو حديث ضعيف منكر من حيث المتن والسند، ويحتمل التأويل بأن الرسول ﷺ لم يرها شيئًا مستقيمًا.

ثالثًا: مناقشة أدلة المفرقين بين المدخول بها وغير المدخول بها في وقوع الطلاق الثلاث:

نوقشت أدلة المفرقين بين المدخول بها وغير المدخول بها بما يأتي:

إن رواية أبي دواد، غاية ما فيها التنصيص على بعض أفراد مدلول الرواية، وهذا لا يقاوم عموم أحاديث ابن عباس، كما أن قوله: «أنت طالق ثلاثًا» هذه الزيادة في المبنى تفيد الزيادة في المعنى، تفسيرًا وتأكيدًا.

والتنصيص على بعض أفراد المدلول والذي دلت عليه الروايات الأخرى عن ابن عباس، لا يوجب الاختصاص بالبعض الذي وقع التنصيص عليه وإنما يفيد التأكيد.

رابعًا: مناقشة أدلة القائلين بوقوع الطلاق الثلاث طلقة واحدة رجعية:

نوقشت أدلة ابن تيمية وابن قيم الجوزية والمعاصرين القائلين بوقوع الطلاق الثلاث طلقة واحدة رجعية بما يلي:

ليس في قوله -عز وجل-: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾ ما يدل على أن الطلاق الثلاث يقع طلقة واحدة رجعية، فيؤخذ الحكم من السنة، وقد وردت الأحاديث التي تدل على أن الطلاق الثلاث يقع ثلاثًا، ومن ذلك حديث عويمر العجلاني.

نوقش قولهم: إن الطلاق لا يكون إلا مرة بعد مرة لأن هذا المقتضى اللغوي لكلمة (مرتان)- بما يلي:

إن الآحاد من المرات على قسمين: منها ما لا يكون في الوجود إلا مرتبًا الواحد بعد الآخر، ومنها ما =

الثلاثِ فإن ذلك بدعةٌ[1] عندنا فقوله تعالى: ﴿فإمساك. . .﴾ [البقرة، الآية: ٢٢٩]

---

= توجد آحاده دفعة واحدة حينًا، وعلى دفعات حينًا آخر، ومن ذلك الطلاق، فيجوز إيقاع آحاده دفعة واحدة، أو على مرات، وقد ثبت ذلك من الوقائع العملية في عهد الرسول ﷺ، وتفسير قوله - تعالى-: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾ يتبين لنا من سبب نزول هذه الآية الكريمة، فقد ذكر القرطبي في تفسيره: «ثبت أن أهل الجاهلية لم يكن عندهم للطلاق عدد، وكانت عندهم العدة معلومة مقدرة، أو كان هذا في أول الإسلام برهة، يطلق الرجل امرأته ما شاء من الطلاق، فإذا كادت تحل عن طلاقه راجعها ما شاء، فقال رجل لامرأته على عهد النبي ﷺ: لا آويك ولا أدعك تحلين. قالت: وكيف؟ قال: أطلقك فإذا دنا مُضيّ عدتك راجعتك. فذكرت المرأة ذلك لعائشة، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فأنزل الله - عز وجل - هذه الآية بيانًا لعدد الطلاق الذي للمرء فيه أن يرتجع دون تجديد مهر وولي، ونُسخ ما كانوا عليه».

وحديث ابن عباس -رضي الله عنهما- «كان الطلاق على عهد رسول الله ﷺ» يتطرق إليه الاحتمال والتأويل؛ فيسقط به الاستدلال في محل النزاع، ومن ذلك أن الطلاق المذكور في الحديث هو الطلاق المكرر: أنت طالق. أنت طالق. أنت طالق. وهذا الذي كان يقع واحدة؛ لأنهم كانوا يقصدون به التأكيد ولما رأى عمر -رضي الله عنه- تغير الأحوال عند الناس أوقعه عليهم ثلاثًا ولم يقبل دعوى التأكيد، فهذا مجال اجتهاد عمر -رضي الله عنه.

حديث طلاق ركانة زوجه ثلاثًا في مجلس واحد، حديث مضطرب؛ لأنه جاء في رواية أخرى أنه طلقها ألبتة لا ثلاثًا، وقد رجح أبو داود هذه الرواية، وبهذا يزول الاضطراب، لكن الحديث يبقى ضعيفًا من حيث المتن؛ويكون خارج محل النزاع.

ينظر: تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير (١/ ٣٥٤)، والطرق الحكمية في السياسة الشرعية للإمام ابن قيم الجوزية، ص (١٧، ١٩)، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار للعلامة محمد بن علي بن محمد الشوكاني (٧/ ١٦)، والفتاوى الكبرى لابن تيمية (٣/ ١٤)، وإعلام الموقعين (٣/ ٢)، وبداية المجتهد لابن رشد (٢/ ٦١).

(١) البدعة لغة: الاختراع على غير أصل سبق ولا مثال ألف من بَدَعَ الشيء يبدعه بدعا وبدعة، أى أنشأه وبدأه فهو«بديع» للفاعل والمفعول.

ومن أسماء الله تعالى «البديع» وفى القرآن الكريم، بديع السموات والأرض.

أى خلقهما وأنشأهما على غير مثال سابق، ومنه قوله تعالى: ﴿قل ما كنت بدعا من الرسل﴾. أى لم أكن أول رسول إلى أهل الأرض.

ويقال: هذا أمر «بديع» أى شيء مستحسن لا مثال له فى الحسن.

البدعة فى الاصطلاح: ما أحدث مما يخالف الكتاب أوالسنة أو أصول الشريعة وقواعدها المستنبطة من القرآن والسنة، أما ما كان مبنيا على قواعد الأصول ومردودا إليها فليس ببدعة ولا ضلالة.

قال الإمام الشافعى:«ما أحدث يخالف كتابا أوسنة أوأثرا أو إجماعا، فهذه البدعة الضلالة».

وقال الإمام أبو محمد بن حزم:«كل ما قيل أو فعل مما ليس له أصل فيما نسب إليه ﷺ، وهو فى الدين كل ما لم يأت فى القرآن ولا عن رسول الله ﷺ».

وقال الليث بن سعد: «ما استحدث بعد النبى ﷺ من الأهواء والأعمال».

ينظر: لسان العرب مادة (ب د ع) (١/ ٣٤١)، والقاموس المحيط مع شرحه، وتاج العروس مادة =

إلخ، حُكمٌ مبتدأٌ وتخييرٌ مستأنف، والفاء فيه للترتيب على التعليم كأنه قيل: إذا علمتم كيفية التطليق فأمرُكم أحدُ الأمرين.

﴿ولا يحِلُّ لكم أن تأخُذوا﴾ منهن بمقابلة الطلاق ﴿ممَّا آتيتُموهنَّ﴾ أي من الصدقات وتخصيصُها بالذكر وإن شاركها في الحكم سائرُ أموالِهن إما لرعاية العادة أو للتنبيه على أنه إذا لم يحِلَّ لهم أن يأخُذوا مما آتَوْهن بمقابلة البُضْع عند خروجه عن ملكهم فلأَنْ لا يحِلَّ أن يأخذوا مما لا تعلُّقَ له بالبُضع أولى وأحرىٰ ﴿شيئًا﴾ أي نزْرًا يسيرًا فضلًا عن الكثير، وتقديمُ الظرفِ عليه لما مر مرارًا، والخطابُ مع الحكام، وإسنادُ الأخذِ والإيتاءِ إليهم لأنهم الآمرون بهما عند المرافعة.

وقيل: مع الأزواج وما بعده مع الحكام وذلك مما يشوش النظمَ الكريمَ على القراءة المشهورة ﴿إلا أن يخافا﴾ أي الزوجان وقرئ «يظنّوا» وهو مؤيد لتفسير الخوف بالظن ﴿ألا يُقيما حدودَ الله﴾ أي ألا يراعِيا مواجبَ أحكام الزوجية وقرئ[1] «يُخافا» على البناء للمفعول وإبدال أن بصلته من الضمير بدلَ الاشتمال.

وقرئ «تخافا» و«تُقيما» بتاء الخطاب ﴿فإن خِفتم﴾ أيها الحكامُ ﴿ألا يقيما﴾ أي الزوجان ﴿حدود الله﴾ بمشاهدة بعض الأماراتِ والمخايل ﴿فَلَا جُنَاحَ عليهما﴾ أي على الزوجين ﴿فيما افتدت به﴾ لا على الزوج في أخذ ما افتدت به ولا عليها في إعطائه إياه.

رُوي أن جميلة بنتَ عبدِ اللَّه ابن أبيٍّ بنِ سَلولٍ كانت تُبغض زوجَها ثابتَ بنَ قيس[2] فأتت رسولَ الله ﷺ فقالت: لا أنا ولا ثابت، لا يجمع رأسي ورأسَه شيء، والله ما أعيبُ عليه في دين ولا خلُق، ولكن أكره الكفرَ بعد[3] الإسلام ما أُطيقه بغضًا

---

= (٥/ ٢٧٠)، ومناقب الشافعي للبيهقي (١/ ٤٦٩)، وتبيين كذب المفتري، ص (٩٨)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (١٠/ ٧٠)، والإحكام في أصول الأحكام (١/ ٤٧).

(١) قرأ بها: حمزة، وأبو جعفر، ويعقوب، والأعمش، وأبو عبيد.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (١٥٨)، والإعراب للنحاس (١/ ٢٦٥)، و التبيان للطوسي (٢/ ٢٤٢)، والسبعة لابن مجاهد ص (١٨٣)، والغيث للصفاقسي ص (١٦٤)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٣٩).

(٢) هو: ثابت بن قيس بن شماس بن مالك بن امرئ القيس الخزرجي، أبو عبد الرحمن، ويقال: أبو محمد المدني، خطيب النبي ﷺ، استشهد باليمامة في خلافة أبي بكر الصديق سنة (اثنتي عشرة).
ينظر: تهذيب الكمال (٤/ ٣٦٨)، تقريب التهذيب (١/ ١١٦، ١١٧)، خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (١/ ١٥٠).

(٣) في المخطوط: في.

إني رفعت جانبَ الخِباء فرأيتُه أقبلَ في عِدَّةٍ فإذا هو أشدُهم سوادًا وأقصرُهم قامة وأقبحُهم وجهًا فنزلت فاختلعَتُ منه بحديقة كان أصْدقَها إياها[١].

﴿تلك﴾ أي الأحكامُ المذكورة ﴿حدودُ الله فلا تعتدوها﴾ بالمخالفة والرفض ﴿ومن يتعدّ حدود الله فأولئك﴾ الظالمون والجمعُ باعتبار معنى الموصول ﴿هم الظالمون﴾ أي لأنفسهم بتعريضها لسخط الله تعالى وعقابه، ووضعُ الاسمِ الجليل في المواقع الثلاثة الأخيرة موقعَ الضمير لتربية المهابةِ وإدخال الروعةِ، وتعقيبُ النهي بالوعيد للمبالغة في التهديد.

﴿فإن طلقها﴾ أي بعد الطلقتين السابقتين ﴿فلا تحِلُّ﴾ هي ﴿له مِنْ بعدُ﴾ أي من بعد هذا الطلاقِ ﴿حتَّى تنكِحَ زوجًا غيرَه﴾ أي حتى تتزوج غيره فإن النكاحَ[٢] أيضًا يُسند إلى كلٍّ منهما. وتعلَّقَ بظاهره من اقتصر على العقد والجمهورُ على اشتراط الإصابة لما رُوي أن امرأة رُفاعةَ[٣] قالت لرسول الله ﷺ: إن رفاعةَ طلقني فبتَّ

---

(١) أخرجه البخاري (٩/ ٣٩٥) كتاب الطلاق: باب الخلع حديث (٥٢٧٣) والنسائي (٦/ ١٦٩) كتاب الطلاق: باب ما جاء في الخلع وابن ماجه (١/ ٦٦٣) كتاب الطلاق : باب المختلعة تأخذ ما أعطاها حديث (٢٠٥٦) والدارقطني (٤/ ٤٦) كتاب الطلاق والخلع والإيلاء (١٣٥) والبيهقي (٧/ ٣١٣) والبغوي في «شرح السنة» (٥/ ١٤١- ١٤٢) من طريق عكرمة عن ابن عباس به.
وأخرجه أبو داود (١/ ٦٧٧) كتاب الطلاق: باب في الخلع حديث (٢٢٢٩) والترمذي (٣/ ٤٩١) كتاب الطلاق: باب ما جاء في الخلع حديث (١١٨٥) مكرر من طريق عكرمة عن ابن عباس بلفظ: أن امرأة ثابت بن قيس اختلعت منه فجعل النبي ﷺ عدتها حيضة.
وقال الترمذي: حسن غريب.
وقال أبو داود: وهذا الحديث رواه عبد الرزاق عن معمر عن عمرو بن مسلم عن عكرمة عن النبي ﷺ مرسلًا.
وأخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٣).

(٢) النكاح: لغة: الضم، والجمع، والميل، والعقد، والوطء، وجاء فى المعنيين الأولين أن يقال: «نكحت الأشجار»، إذا تمايلت، وضمت بعضها بعضا.
راجع: لسان العرب (١٤/ ٣٥٠) مادة (نكح) والمصباح المنير (٣٢٧) مادة (نكح) والقاموس المحيط (٢٢٣) مادة (نكح).
والنكاح اصطلاحا: هو عقد يتضمن إباحة وطء بلفظ النكاح أو ترجمته.
ينظر: حاشية البيجوري (٢/ ١٣٢) ط دار الفكر، ومغنى المحتاج للشربيني (٣/ ١٩٨) وحاشية البجيرمي (٤/ ٨١) وتحفة المحتاج (٣/ ١٦٧) ونهاية المحتاج للرملي (٦/ ١٧٥)، وكفاية الأخيار للحصني (٤٦٠).

(٣) هو: أبو لُبَابة الأنصاري، اسمه بشير - أو رفاعة - ابن عبد المنذر الأوسي، بدري، نقيب جليل، له خمسة عشر حديثًا، اتفق البخاري ومسلم على حديث، مات في خلافة علي. =

طلاقي وإن عبد الرحمٰن بن الزبير تزوجني، وإن ما معه مثلُ هُدْبة الثوب فقال ﷺ: «أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة» قالت: نعم، قال ﷺ: «لا إلا أن تذوقي عُسَيْلَته[1] ويذوقَ عُسَيْلَتَكِ»[2].

---

= ينظر: خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٣/ ٢٤٠)، تقريب التهذيب (١/ ٣٠١)، (٢/ ٤٦٧)، أسد الغابة (١/ ٢٣٣).

(١) العسيلة هي ماء الرجل وقيل النطفة تسمى العسيلة وقال الأزهري العسيلة في هذا الحديث كناية عن حلاوة الجماع الذي يكون بتغييب الحشفة في فرج المرأة ويقال عسل المرأة أي نكحها.

(٢) أخرجه مالك (٢/ ٥٣١) كتاب النكاح: باب نكاح المحلل وما أشبهه حديث (١٧) من طريق المسور بن رفاعة القرظي عن الزبير بن عبد الرحمن بن الزبير أن رفاعة بن سموأل طلق امرأته ... ومن طريق مالك أخرجه الشافعي في «الأم» (٥/ ٢٤٨) باب نكاح المطلقة ثلاثًا وابن حبان (١٣٢٣- موارد) والبيهقي (٧/ ٣٧٥) كتاب الرجعة: باب نكاح المطلقة ثلاثًا.

قال السيوطي في «تنوير الحوالك» (٢/ ٦) قال ابن عبد البر: كذا لأكثر الرواة مرسلًا ووصله ابن وهب عن مالك فقال: عن أبيه. وابن وهب من أجل من روى عن مالك هذا الشأن وأثبتهم فيه. وتابعه أيضا ابن القاسم وعلي بن زياد وإبراهيم بن طهمان وعبيد الله بن عبد المجيد الحنفي كلهم عن مالك وقالوا فيه: عن أبيه وهو صاحب القصة. ا هـ.

ومن طريق ابن وهب أخرجه ابن الجارود (٦٨٢)، والبيهقي (٧/ ٣٧٥) كتاب الرجعة، باب: نكاح المطلقة ثلاثًا.

وأخرجه البزار (٢/ ١٩٤- كشف) رقم (١٥٠٤) من طريق عبيد الله بن عبد المجيد الحنفي ثنا مالك بن أنس عن المسور بن رفاعة عن الزبير عن عبد الرحمن بن الزبير عن أبيه.

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٣٤٣) : رواه البزار والطبراني ورجالهما ثقات وقد رواه مالك في الموطأ مرسلًا وهو هنا متصل. ا هـ.

وقد ورد هذا الحديث موصولا من حديث عائشة:

أخرجه أحمد (٦/ ٢٢٦) والبخاري (٥/ ٢٤٩) كتاب الشهادات: باب شهادة المختبئ حديث (٢٦٣٩)، ومسلم (٢/ ١٠٥٥، ١٠٥٦) كتاب النكاح: باب لا تحل المطلقة ثلاثًا لمطلقها حتى تنكح زوجًا غيره حديث (١١١/ ١٤٣٣)، والترمذي (٢/ ٢٩٣) كتاب النكاح: باب ما جاء فيمن يطلق امرأته ثلاثًا حديث (١١١٨)، والنسائي (٦/ ١٤٨) كتاب الطلاق: باب إحلال المطلقة ثلاثًا، وابن ماجه (١/ ٦٢١، ٦٢٢) كتاب النكاح: باب الرجل يطلق امرأته ثلاثًا حديث (١٩٣٢)، والدارمي (٢/ ١٦١) كتاب الطلاق: باب ما يحل المرأة لزوجها الذي طلقها، والشافعي (٢/ ٣٤، ٣٥) كتاب الطلاق، حديث (١١٠)، والحميدي (١/ ١١١) رقم (٢٢٦)، وعبد الرزاق (٦/ ٣٤٦، ٣٤٧) رقم (١١١٣١)، والطيالسي (١/ ٣١٤، ٣١٥) رقم (١٦١٢، ١٦١٣)، وسعيد بن منصور (٢/ ٧٣، ٧٤) رقم (١٩٨٥)، وأبو يعلى (٧/ ٣٩٧) رقم (٤٤٢٣)، وابن حبان (٤١٩٩- الإحسان)، والبيهقي (٧/ ٣٧٣، ٣٧٤)، والبغوي في شرح السنة (٥/ ١٩٦) من طريق الزهري عن عروة عن عائشة قالت: جاءت امرأة رفاعة القرظي إلى النبي ﷺ فقالت: كنت عند رفاعة فطلقني فبت طلاقي فتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزبير وإنما معه مثل هدبة الثوب فقال: أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ لا حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك... =

بمثله تجوز الزيادةُ على الكتاب وقيل: النكاحُ بمعنى الوطء والعقدُ مستفاد من لفظ الزوج، والحكمةُ من هذا التشريع الردعُ عن المسارعة إلى الطلاق والعودُ إلى المطلقة ثلاثًا والرغبة فيها، والنكاحُ بشرط التحليل مكروهٌ عندنا، ويُروى عدمُ

---

= وقال الترمذي: حسن صحيح.

وللحديث طرق أخرى عن عائشة:

فأخرجه البخاري (٩/ ٢٨٤) كتاب الطلاق: باب من قال لامرأته أنت عليَّ حرام حديث (٥٢٦٥)، ومسلم (٢/ ١٠٥٧) كتاب النكاح: باب لا تحل المطلقة ثلاثًا لمطلقها حتى تنكح زوجًا غيره حديث (١١٤/ ١٤٣٣) وأحمد (٦/ ٢٢٩) والدارمي( ٢/ ١٦٢) من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة به.

وأخرجه مسلم (٢/ ١٠٥٧) كتاب النكاح: باب لا تحل المطلقة ثلاثًا لمطلقها حتى تنكح زوجًا غيره حديث (١١٥/ ١٤٣٣)، وأحمد (٦/ ١٩٣)، وأبو يعلى (٨/ ٣٧٣، ٣٧٤) رقم (٤٩٦٤) من طريق القاسم بن محمد عن عائشة.

وأخرجه أبو داود (١/ ٧٠٥) كتاب الطلاق: باب في المبتوتة لا يرجع إليها زوجها حتى تنكح زوجًا غيره حديث (٢٣٠٩) وأحمد (٦/ ٤٢) من طريق الأسود عن عائشة.

وأخرجه البخاري (١٠/ ٢٩٣) من طريق عبد الوهاب عن أيوب عن عكرمة:

«أن رفاعة طلَّق امرأته، فتزوجها عبد الرحمن بن الزَّبير القرظي، قالت عائشة: وعليها خِمار أخضر، فشكت إليها، وأرتها خُضرة بجلدها. فلما جاء رسول الله ﷺ والنساء ينصر بعضهن بعضًا- قالت عائشة: ما رأيت مثل ما يلقى المؤمنات لجلدها أشد خضرة من ثوبها. قال وسمع أنها قد أتت رسول الله ﷺ، فجاء ومعه ابنان له من غيرها، قالت: والله ما لي إليه من ذنب، إلا أنَّ ما معه ليس بأغنى عني من هذه- وأخذت هدبة من ثوبها- فقال: كذبت والله، يا رسول الله، إني لأنفضها نفض الأديم، ولكنها ناشز تريد رفاعة. فقال: رسول الله ﷺ: فإن كان ذلك لم تحلي له أو تصلحي له حتى يذوق من عسيلتك. قال وأبصر معه ابنين له فقال: بنوك هؤلاء؟ قال: نعم. قال: هذا الذي تزعمين ما تزعمين؟ فوالله لهم أشبه به من الغراب بالغراب».

وفي الباب عن ابن عمر وعبيد الله بن عباس وأنس بن مالك والفضل بن عباس.

- حديث ابن عمر:

أخرجه أحمد (٢/ ٨٥) والنسائي (٦/ ١٤٨-١٤٩) كتاب النكاح: باب إحلال المطلقة ثلاثًا، وابن ماجه (١/ ٦٢٢) كتاب النكاح: باب الرجل يطلق امرأته ثلاثًا فتتزوج فيطلقها- (١٩٣٣) من طريق محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن علقمة بن مرثد سمعت سالم بن رزين يحدث عن سالم بن عبد الله بن عمر عن سعيد بن المسيب عن ابن عمر به.

أخرجه أحمد (٢/ ٦٢)، والنسائي (٦/ ١٤٩)، والبيهقي (٧/ ٣٧٥) من طريق سفيان عن علقمة بن مرثد عن رزين بن سليمان عن ابن عمر.

قال النسائي: هذا أولى بالصواب.

وأخرجه أبو يعلى (٨/ ٣٧٤) رقم (٤٠٦٦) من طريق يحيى بن سعيد عن نافع عن ابن عمر.

قال الهيثمي في «المجمع» (٤/ ٣٤٣): رواه الطبراني وأبو يعلى ورجال أبي يعلى رجال الصحيح.

الكراهة فيما لم يكن الشرطُ مصرَّحًا به وفاسدٌ عند الأكثرين[(١)] لقوله ﷺ: «لعن الله

---

(١) اختلف الفقهاء في صحة النكاح وفساده، إذا شرط على الزوج الثاني في صلب العقد التحليل:
فذهب أبو حنيفة ومحمد رحمهما الله إلى القول بصحة النكاح، وفساد الشرط؛ كسائر الشروط الفاسدة.
وذهب أصحابنا من الشافعية وجمهور أهل العلم: منهم الحسن، والنخعي، ومالك، وقتادة، والليث والثوري، وأحمد، وابن المبارك إلى القول بفساد نكاح المحلل إذا وقع بشرط في صلب العقد.
استدل أبو حنيفة، ومحمد بما روي أن النبي ﷺ قال: «لَعَنَ الله المُحَلِّلَ والمُحَلَّلَ لَهُ».
ووجه الدلالة من هذا الحديث: أن النبي ﷺ سماه محللاً؛ فدل ذلك على أنه يحللها لزوجها الأول، وهذا يدل على صحة النكاح، وإنما لعن مع حصول الحل؛ لأن التماس ذلك، واشتراطه في العقد هتكٌ للمروءة، وإعارة للنفس في الوطء لغرض الغير، فإنه إنما يطؤها ليعرضها لوطء الغير، وهو قلة حمية؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «هُوَ التَّيْسُ الْمُسْتَعَارُ».
ويرد هذا الدليل بأن تسميته محللاً لا يدل على صحة النكاح، وأنه يثبت الحل؛ فإنه إنما سمى بذلك بحسب اعتقادهم: أنه يحل المطلقة ثلاثًا لزوجها، أو سمي بذلك؛ لأنه قصد التحليل، ولم يقصد حقيقة النكاح، لا أنه يثبت الحل، ولو كان كما قلتم لما استحق اللعن الذي هو الطرد والإبعاد من رحمة الله.
وأما الجمهور: فقد استدلوا بالحديث، والأثر، والمعقول:
أما الحديث: فما رواه ابن ماجه عن عقبة بن عامر رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِالتَّيْسِ الْمُسْتَعَارِ؟!» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «هُوَ الْمُحلِّلُ، لَعَنَ الله المُحَلِّلَ والمُحَلَّلَ لَهُ».
ووجه الدلالة من هذا الحديث: أن النبي ﷺ أطلق على المحلل اسم التيس الذي يستعار للضراب، وفيه تنفير وتقبيح من هذا الفعل، وما كان هذا شأنه لا يكون إلا فاسدًا؛ يؤيد ذلك أن النبي ﷺ لعن المحلل والمحلل له، وما ذلك إلا لفساد النكاح، وإلا لما استحقا عليه اللعن.
وأما الأثر: فما رواه ابن أبي شيبة من رواية قبيصة بن جابر عن عمر رضى الله عنه قال: «لا أوتى بمحلل ومحلل له إلا رجمتهما».
ووجه الدلالة من هذا الأثر: أن عمر بن الخطاب أخبر أنه لو أُتِيَ بمحلل ومحلل له، لرجمهما، وما ذلك إلا لفساد النكاح، وإلا لما استحقا عليه الرجم.
وأما المعقول: فقد قالوا: إن هذا عقد وقع عليه وجه محظور، استحق عاقده به اللعن؛ فوجب أن يكون باطلاً؛ أصل ذلك: شراء الخمر.
وقد نوقش الحديث الذي تمسك به الجمهور: بأنه تفرد به ابن ماجه، وفي رواته عثمان بن صالح، وقد قال إبراهيم بن يعقوب: كانوا ينكرون على عثمان في هذا الحديث إنكارًا شديدًا.
ولكن هذه المناقشة ترد: بأن عثمان أحد الثقات، وقد روى عنه البخارى في صحيحه، وروى عنه ابن معين، وأبو حاتم الرازى، وقال: شيخ صالح، سليم الناحية، قيل له: كان يلقن؟ قال: لا. ومن كان بهذه المثابة كان ما يتفرد به حجة، وإنما الشاذ ما خالف به الثقات، لا ما انفرد به عنهم. على أن القول بأنه انفرد به غير صحيح؛ فقد تابعه غيره، فرواه جعفر الفريانى، عن العباس المعروف بابن فريق، عن أبى صالح، عن الليث.
ينظر: كفاية الأخيار (٢/ ١٠٩)، والحاوي الكبير للماوردي (١١/ ٤٥٥)، والمغني لابن قدامة (٦/ ٦٤٦)، والشرح الصغير (٢/ ٤١٥) وما بعدها، وابن عابدين (٢/ ٥٣٧) وما بعدها.

المحلِّل والمحلَّل له»[1] ﴿فإن طلَّقها﴾ أي الزوجُ الثاني ﴿فلا جُناحَ عليهما﴾ أي على

(١) ورد هذا الحديث عن جماعة من الصحابة وهم علي بن أبي طالب وابن مسعود وعقبة بن عامر وجابر بن عبد الله وأبو هريرة وابن عباس.
- حديث علي:
أخرجه أحمد (١/ ٨٧، ١٠٧، ١٢١، ١٣٣، ١٥٠، ١٥٨)، وأبو داود (٢/ ٥٦٢) كتاب النكاح: باب في التحليل حديث (٢٠٧٦)، والترمذي (٣/ ٤٢٧) كتاب النكاح: باب المحل والمحلل له حديث (١١١٩)، وابن ماجه (١/ ٦٢٢) كتاب النكاح: باب المحلل والمحلل له حديث (١٩٣٥)، وأبو يعلى (١/ ٣٢٣-٣٢٤) رقم (٤٠٢)، والبيهقي (٧/ ٢٠٨) كتاب النكاح: باب في نكاح المحلل، كلهم من طريق عامر الشعبي عن الحارث عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: لعن الله المحلل والمحلل له.
- حديث ابن مسعود:
أخرجه أحمد (١/ ٤٤٨)، والترمذي (٣/ ٤٢٨-٤٢٩) كتاب النكاح: باب المحل والمحلل له حديث (١١٢٠)، والنسائي (٦/ ١٤٩) كتاب النكاح: باب إحلال المطلقة ثلاثًا، والدارمي (٢/ ١٥٨) كتاب النكاح: باب في النهي عن التحليل، والبيهقي (٧٠/ ٢٠٨) كتاب النكاح: باب ما جاء في نكاح المحلل من طرق عن سفيان عن أبي قيس عن خزيل بن شرحبيل عن عبد الله بن مسعود قال: لعن رسول الله ﷺ المحلل والمحلل له.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
وأخرجه أحمد (١/ ٤٥٠- ٤٥١)، وأبو يعلى (٨/ ٤٦٨) رقم (٥٠٥٤)، والبغوي في شرح السنة (٥/ ٧٨)، من طريق عبد الكريم الجزري عن أبي واصل عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ لعن المحلل والمحلل له.
- حديث عقبة بن عامر:
أخرجه ابن ماجه (١/ ٦٢٣) كتاب النكاح: باب المحلل والمحلل له حديث (١٩٣٦)، والدارقطني (٣/ ٢٥١) كتاب النكاح حديث (٢٨)، والحاكم (٢/ ١٩٩)، والبيهقي (٧/ ٢٠٨) كتاب النكاح: باب نكاح المحلل وابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٦٤٦) من طريق الليث عن مشرح بن هاعان عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: ألا أخبركم بالتيس المستعار وهو المحلل والمحلل له لعن الله المحلل والمحلل له.
وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وقال: وقد ذكر أبو صالح كاتب الليث عن ليث سماعه من مشرح.
ثم ساقه من طريقه عن الليث قال: سمعت مشرحًا به.
ثم قال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.
وقد أعل أبو زرعة هذا الحديث بعدم سماع الليث من مشرح، فقال ابن أبي حاتم في «العلل» (١/ ٤١١) رقم (١٢٣٢): سمعت أبا زرعة، وذكر حديثًا رواه أبو صالح كاتب الليث وعثمان بن صالح قالا: حدثنا الليث عن مشرح بن هاعان عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ ألا أخبركم بالتيس المستعار؟ قالوا بلى. قال: المحل والمحلل له، فلعن الله المحلل والمحلل له قال أبو زرعة: وذكرت هذا الحديث ليحيى ابن عبد الله بن بكير وأخبرته برواية عبد الله بن صالح وعثمان بن =

الزوج الأول والمرأة ﴿أن يتراجعا﴾ أن يرجِعَ كلٌّ منهما إلى الآخَر بالعقد ﴿إن ظنا أن

=
صالح فأنكر ذلك إنكارًا شديدًا وقال: لم يسمع الليث من مشرح شيئا ولا روى عنه شيئًا، وإنما حدثني الليث بن سعد بهذا الحديث عن سليمان بن عبد الرحمن أن رسول الله ﷺ... قال أبو زرعة: الصواب عندي حديث يحيى يعني ابن عبد الله بن بكير. ا هـ.
وقد أعل الإمام البخاري هذا الحديث بنفس العلة وهي عدم سماع الليث من مشرح بن هاعان، فقال الترمذي في «العلل الكبير» (ص ١٦١- ١٦٢) رقم (٢٧٤): سألت محمدًا- يعني البخاري- عن حديث عبد الله بن صالح حدثني الليث بن سعد عن مشرح بن هاعان عن عقبة بن عامر... فذكره.
فقال : عبد الله بن صالح لم يكن أخرجه في أيامنا، ما أرى الليث سمعه من مشرح بن هاعان لأن حيوة روى عن بكر بن عمرو عن مشرح. ا هـ.
ويرد هذا كله تصريح الليث بسماعه من مشرح عند ابن ماجه، فقال الليث: قال لي أبو مصعب مشرح بن هاعان وعند الحاكم: من طريق أبي صالح عن الليث قال: سمعت مشرحًا وعند البيهقي أيضا. لترتفع بذلك مظنة الانقطاع بين الليث ومشرح. والحديث ذكره البوصيري في الزوائد(٢/ ١٠٢) وقال: هذا إسناد مختلف فيه من أجل أبي مصعب. ا هـ وأبو مصعب هو مشرح بن هاعان.
قال الحافظ في «التقريب» (٢/ ٢٥٠): مقبول: يعني عند المتابعة وإلا فلين الحديث.
- حديث أبي هريرة:
أخرجه أحمد (٢/ ٣٢٣)، وابن الجارود (٦٨٤)، والبزار (٢/ ١٦٧-كشف) رقم (١٤٤٢)، وابن أبن حاتم في العلل (١/ ٤١٣) رقم (١٢٣٧)، والبيهقي (٧/ ٢٠٨) من طريق عبد الله بن جعفر المخرمي عن عثمان بن محمد عن المقبري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ لعن الله المحلل والمحلل له.
وذكره الحافظ في التلخيص (٣/ ١٧٠): وزاد نسبته إلى إسحاق بن راهويه والترمذي في العلل وقال: وحسنه البخاري.
وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ٢٧٠): رواه أحمد والبزار وفيه عثمان بن محمد الأخنسي: وثقه ابن معين وابن حبان، وقال ابن المديني: له عن أبي هريرة مناكير. ا هـ.
وهنا لم يروه عن أبي هريرة ولكن رواه عن المقبري عن أبي هريرة.
- حديث جابر:
أخرجه الترمذي (٣/ ٤٢٧) كتاب النكاح: باب المحلل والمحلل له حديث (١١١٩) ومن طريقه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٢/ ٦٤٧) من طريق مجالد بن سعيد عن الشعبي عن جابر به.
وقال الترمذي: هذا حديث ليس إسناده بالقائم فإن مجالد بن سعيد قد ضعفه بعض أهل العلم منهم أحمد بن حنبل. ا هـ.
وقال ابن الجوزي: قال أحمد: مجالد ليس بشيء وقال يحيى لا يحتج بحديثه.
وقال ابن الجوزي أيضًا: وقد روى هذا المعنى من طرق صحاح عن ابن مسعود وغيره.
- حديث ابن عباس:
أخرجه ابن ماجه (١/ ٦٢٢) كتاب النكاح : باب المحلل والمحلل له حديث (١٩٣٤) حدثنا محمد بن بشار ثنا أبو عامر عن زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال: لعن رسول الله ﷺ المحلل والمحلل له.
=

يُقيما حدودَ الله﴾ التي أوجب مراعاتِها على الزوجين من الحقوق، ولا وجهَ لتفسير الظنِّ بالعلم لما أن العواقبَ غيرُ معلومةٍ ولأن (أن) الناصبة للتوقع المنافي للعلم ولذلك لا يكاد يقال: علمتُ أن يقومَ زيد.

﴿وتلك﴾ إشارة إلى الأحكام المذكورة إلى هنا ﴿حدودُ الله﴾ أي أحكامُه المعيّنة المحمية من التعرض لها بالتغيير والمخالفة ﴿يبيِّنُها﴾ بهذا البيان اللائق أو سيبينها فيما سيأتي بناءً على أن بعضَها يلحقُه زيادةُ كشفٍ وبيانٌ بالكتاب والسنةَ، والجملة خبرٌ ثانٍ عند من يجوِّزُ كونَه جملةً كما في قوله تعالى: ﴿فإذا هي حيةٌ تسعىٰ﴾ [طه، الآية ٢٠] أو حالٌ من حدود الله والعامل معنى الإشارة ﴿لقوم يعلمون﴾ أي يفهمون وتخصيصُهم بالذكر مع عموم الدعوة والتبليغ لما أنهم المنتفعون بالبيان أو لأن ما سيلحق بعضَ النصوص من البيان لا يقف عليه إلا الراسخون في العلم.

﴿وإذا طلَّقتمُ النِّساءَ فبلغْنَ أجلَهن﴾ أي آخِرَ عدَّتِهن فإن الأجل كما ينطلِقُ على المدة ينطلق على منتهاها، والبلوغُ هو الوصولُ إلى الشيء وقد يقال: للدنو منه اتساعًا وهو المراد هاهنا لقوله عز وجلَّ: ﴿فأمسِكُوهن بمعروفٍ أو سرِّحوهن بمعروف﴾ إذ لا إمكان للإمساك بعد تحققِ بلوغِ الأجلِ أي فراجعوهن بغير ضِرارٍ أو خلُّوهن حتى ينقضِيَ أجلُهن بإحسان من غير تطويل.

وهذا كما ترى إعادةٌ للحكم في بعض صورِه اعتناءً بشأنه ومبالغةً في إيجاب المحافظةِ عليه ﴿ولا تُمسِكُوهَنَّ ضِرارًا﴾ تأكيدٌ للأمر بالإمساك بمعروف وتوضيحٌ لمعناه وزجرٌ صريحٌ عما كانوا يتعاطَوْنه أي لا تراجعوهن إرادة الإضرار بهن «كانْ [المطلق][(١)] يترُكَ المعتدةَ حتى إذا شارفت انقضاءَ الأجلِ يراجعها لا لرغبة فيها بل ليطوِّل عليها العدةَ فنُهي عنه» بعدما أُمر بضده لما ذكر، وضِرارًا نُصب على العِلّية أو الحالية أي لا تمسكوهن للمضارة أو مضارّين واللام في قوله [تعالى][(٢)]: ﴿لتعتدوا﴾ متعلقة بـ (ضرارًا) أي لتظلموهن بالإلجاء إلى الافتداء.

﴿ومن يفعلْ ذلك﴾ أي ما ذكر من الإمساك المؤدّي إلى الظلم، وما فيه من معنى البعد للدلالة على بعد منزلته في الشر والفساد ﴿فقد ظلمَ نفسَه﴾ في ضمن ظلمِه لهن

---

= قال البوصيري في «الزوائد» (٢/ ١٠٢): هذا إسناد ضعيف لضعف زمعة بن صالح.
رواه أبو يعلى في مسنده حدثنا أبو هشام حدثنا أبو عامر حدثنا زمعة فذكره بزيادة في آخره.
وقال ابن حجر في «التلخيص» (٣/ ١٧٠): وفي إسناده زمعة بن صالح وهو ضعيف.

(١) سقط في ط.

(٢) سقط في ط.

بتعريضها للعقاب ﴿ولا تتَّخِذوا آياتِ اللَّهِ﴾ المنطويةَ على الأحكام المذكورة أو جميعَ آياتهِ وهي داخلة فيها دخولًا أوليًا ﴿هزُوًا﴾ أي مَهْزوًّا بها بأن تُعرِضوا عنها وتتهاونوا في المحافظة على ما في تضاعيفها من الأحكام والحدود من قولهم لمن لم يجِدَّ في الأمر: أنت هازئ، كأنه نُهي عن الهُزْؤ بها وأريد ما يستلزمه من الأمر بضده أي جِدُّوا في الأخذ بها والعمل بما فيها وارعَوْها حقَّ رعايتها وإلا فقد أخذتموها هُزُؤًا ولعبًا.

ويجوز أن يراد به النهيُ عن الإمساك ضرارًا فإن الرجعةَ بلا رغبة فيها عملٌ بموجب آياتِ اللَّهِ تعالى بحسب الظاهر دون الحقيقة وهو معنى الهُزؤ، وقيل: كان الرجل ينكِحُ ويطلِّقُ ويُعتِقُ ثم يقول: إنما كنت ألعَبُ فنزلت ولذلك قال ﷺ: «ثلاثٌ جِدُّهن جدٌ وهزلُهن جدٌّ النكاحُ والطلاقُ والعِتاق»(١).

---

(١) أخرجه أبو داود (١/ ١٦٦) كتاب الطلاق باب في الطلاق على الهزل (٢١٩٤) والترمذي (٣/ ٤٩٠) كتاب الطلاق باب ما جاء في الجد والهزل في الطلاق (١١٨٤) وابن ماجه (١/ ٦٥٧) كتاب الطلاق باب من طلق أو نكح أو راجع لاعبًا (٢٠٣٩) وسعيد بن منصور في السنن باب الطلاق لا رجوع فيه (١٦٠٣)، والطحاوي في شرح المعاني (٣/ ٩٨)، والدارقطني (٣/ ٢٥٦، ٢٥٧)، باب المهر (٤٥، ٤٧)، (٤/ ١٨، ١٩) كتاب الطلاق (٥٠، ٥١)، والحاكم (٢/ ١٩٨). وقال الحاكم: صحيح الإسناد وعبد الرحمن بن حبيب هذا هو ابن أردك من ثقات المدنيين.

وتعقبه الذهبي بقوله في عبد الرحمن هذا: «فيه لين».

والبغوي في شرح السنة (٥/ ١٦١) (٢٣٤٩).

كلهم من طريق عبد الرحمن بن أردك عن عطاء بن أبي رباح عن يوسف بن ماهك عن أبي هريرة.

وعبد الرحمن بن أردك سبق كلام الحاكم والذهبي فيه.

وقال الحافظ في التقريب (١/ ٤٧٦): «لين الحديث».

وللحديث شواهد ذكرها الزيلعي في «نصب الراية».

- أولًا: ما رواه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» قال حدثنا بشر بن عمر ثنا ابن لهيعة عن عبيد الله بن أبي جعفر عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: لا يجوز اللعب في ثلاث: الطلاق والنكاح والعتاق، فمن قالهن فقد وجبن».

وقد أعل بعلتين:

الأولى: الانقطاع بين عبيد الله بن جعفر وعبادة بن الصامت.

الثانية: ضعف عبد الله ابن لهيعة.

قال الحافظ في «التقريب» (١/ ٤٤٤):

«صدوق، من السابعة، خلط بعد احتراق كتبه ورواية ابن المبارك وابن وهب عنه أعدل من غيرها».

ثانيا: ما رواه ابن أبي شيبة في المصنف وابن أبي حاتم في تفسيره وابن جرير (٢/ ٤٩٦) (٤٩٢٦) عن الحسن مرسلًا: «كان الرجل في الجاهلية يطلق، ثم يراجع، ويقول: كنت لاعبًا ويعتق ثم يراجع ويقول: كنت لاعبًا فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «من طلق أو حرر، أو أنكح فقال: إني كنت لاعبًا فهو جائز».

=

﴿واذكُروا نعمة الله عليكم﴾ حيث هداكم إلى ما فيه سعادتُكم الدينية والدنيوية أي قابلوها بالشكر والقيام بحقوقها، والظرفُ متعلق بمحذوف وقع حالًا من نعمة الله أي كائنةً عليكم أو صفةً لها على رأي من يجوِّز حذفَ الموصول مع بعض صلته أي الكائنة عليكم ويجوز أن يتعلق بنفسها إن أريد بها الإنعام لأنها اسم مصدر كنبات من أنبت ولا يقدح في عمله تاءُ التأنيث لأنه مبنيٌّ عليها كما في قوله: [الطويل]

فلولا رجاءُ النصرِ منك ورهبةٌ    عِقابَك قد كانوا لنا كالموارد[1]

﴿وما أَنْزَلَ عليكم﴾ عطفٌ على ﴿نعمة الله﴾ و«ما» موصولة حذف عائدُها من الصلة و(مِنْ) في قوله عز وجل: ﴿من الكتاب والحِكمَةِ﴾ بيانية أي من القرآن والسنة أو القرآن الجامع للعنوانين على أن العطف لتغايُر الوصفين كما في قوله: [المتقارب]

إلى الملكِ القَرْمِ وابْنِ الهُمام    ......    ......    ......[2]

وفي إبهامه أولًا ثم بيانه من التفخيم ما لا يخفى، وفي إفراده بالذكر مع كونه أولَ ما دخل في النعمة المأمورِ بذكرها إبانةٌ بخطره ومبالغةٌ في الحث على مراعاة ما ذكر قبله من الأحكام ﴿يعظِكُم به﴾ أي بما أنزل، حال من فاعل أَنزل أو من مفعوله أو منهما معًا ﴿واتَّقوا الله﴾ في شأن المحافظة عليه والقيام بحقوقه الواجبة ﴿واعلموا أن اللَّهَ بكل شيء عليم﴾ فلا يخفى عليه شيءٌ مما تأتون وما تذرون فيؤاخذُكم بأفانينِ العقاب.

﴿وإذا طلقتم النساءَ فبلغن أجلَهن فلا تعضُلوهنّ﴾ بيانٌ لحكم ما كانوا يفعلونه عند بلوغِ الأجل حقيقةً بعد بيانِ حُكمِ ما كانوا يفعلونه عند المشارفة إليه، والعضْلُ الحبسُ وللتضييق ومنه عضَلت الدجاجةُ إذا نشِبَ بيضُها ولم يخرج والمراد المنعُ والخطاب **إما للأولياء** لما رُوي أنها نزلت في معقِل بنِ يسارَ[3] حين عضَل أخته

---

= «وهذا مرسل صحيح الإسناد إلى الحسن وهو البصري».

(١) البيت بلا نسبة في شرح أبيات سيبويه (١/ ٣٩٣)، وشرح شواهد الإيضاح، ص (١٢٩)، وشرح المفصَّل (٦/ ٦١)، والكتاب (١/ ١٨٩).

(٢) صدر بيت وعجزه:

.....    .....    .....    وليث الكتيبة في المزدحم

والبيت بلا نسبة في الإنصاف (٢/ ٤٦٩)، وخزانة الأدب (١/ ٤٥١، ٥/ ١٠٧، ٦/ ٩١)، وشرح قطر الندى، ص (٢٩٥).

(٣) هو: معقل بن يسار المزني أبو علي. بايع تحت الشجرة. له أربعة وثلاثون حديثًا، اتفقا على حديث وانفرد البخاري بآخر، ومسلم بحديثين. وروى عنه عمران بن حصين. مات في خلافة معاوية. ينظر: خلاصة تهذيب تهذيب الكمال (٣/ ٤٥).

جميلة أن ترجِع إلى زوجها الأول بالنكاح[١].

وقيل: نزلت في جابرِ بن عبدِ اللَّه حين عضَل ابنةَ عمٍّ له[٢]، وإسنادُ التطليق إليهم لتسبُّبهم فيه كما ينبئ عنه تصدّيهم للعضل ولعل التعرضَ لبلوغ الأجل مع جواز التزوج بالزوج الأول قبله أيضًا لوقوع العضلِ المذكور حينئذ وليس فيه دلالةٌ على أنه ليس للمرأة أن تزوِّج نفسَها وإلا لما احتيج إلى نهي الأولياء عن العضل لما أن النهيَ لدفع الضرر عنهن فإنهن وإن قدَرْن على تزويج أنفسِهن لكنهن يحترزن عن ذلك مخافةً للوم والقطيعة، .

وإما للأزواج حيث كانوا يعضُلون مطلقاتِهم ولا يدَعونهن يتزوجْن ظُلما وقسرًا لحمية الجاهلية، .

وإما للناس كافة فإن إسناد ما فعله واحد منهم إلى الجميع شائعٌ مستفيضٌ والمعنى إذا وجد فيكم طلاق فلا يقعْ فيما بينكم عضلٌ سواء كان ذلك من قبل الأولياء أو من جهة الأزواج أو من غيرهم، وفيه تهويلٌ لأمر العضل وتحذيرٌ منه وإيذانٌ بأن وقوع ذلك بين ظَهرانيهم وهم ساكتون عنه بمنزلة صدوره عن الكل في استتباع اللائمةِ وسِرايةِ الغائلة.

﴿أن ينكِحْن﴾ أي مِنْ أن ينكِحن فمحلُّه النصبُ عند سيبويه والفراء والجرُّ عند الخليل على الخلاف المشهور.

وقيل: هو بدل اشتمال من الضمير المنصوب في تعضُلوهن وفيه دَلالةٌ على صحة النكاح بعبارتهن ﴿أزواجَهن﴾ إن أريد بهم المطلقون فالزوجية إما باعتبار ما كان وإما باعتبار ما يكون وإلا فباعتبار الأخير ﴿إذا تَراضَوا﴾ ظرفٌ لـ (لا تعضُلوا)، وصيغةُ التذكير باعتبار تغليبِ الخطاب على النساء، والتقييدُ به لأنه المعتاد لا لتجويز المنع قبل تمام التراضي وقيل: ظرفٌ لأن ينكحن.

وقوله تعالى: ﴿بينهم﴾ ظرفٌ للتراضي مفيدٌ لرسوخه واستحكامه ﴿بالمعروف﴾

---

(١) أخرجه الطبري (٥/ ١٧-١٨) رقم (٤٩٢٧ - ٤٩٣٧) والدارقطني (٣/ ٢٢٣-٢٢٤) كتاب النكاح حديث (١٥، ١٦).
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٥١١) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد.
وعزاه لابن جرير عن ابن جريج.
وعزاه لابن جرير عن إسحاق الهمداني.

(٢) أخرجه الطبري (٥/ ٢١) رقم (٤٩٣٩) عن السدي وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٥١١) وزاد نسبته إلى ابن المنذر.

الجميلِ عند الشرع المستحسنِ عند الناس، والباءُ إما متعلقةٌ بمحذوف حالٍ[1] من فاعل تراضوا أو نعتٍ[2] لمصدر محذوفٍ أي تراضِيًا كائنًا بالمعروف، وإما بـ(تراضَوا) أي: تراضوا بما يحسُن في الدين والمروءة وفيه إشعارٌ بأن المنعَ من التزوج بغير كفء أو بما دون مَهرِ المثل ليس من باب العضْل.

﴿ذلك﴾ إشارةٌ إلى ما فصل من الأحكام، وما فيه من البُعد لتعظيم المشار إليه، والخطابُ لجميع المكلفين كما فيما بعده والتوحيدُ إما باعتبار كلِّ واحدٍ منهم، وإما بتأويل القَبيل والفريق، وإما لأن الكافَ لمجرد الخطابِ.

والفرقِ بين الحاضِرِ والمنقضي دون تعيينِ المخاطَبين أو للرسول ﷺ كما في قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء﴾ [الطلاق، الآية ١] للدلالة على أن حقيقةَ المشارِ إليه أمرٌ لا يكاد يعرِفه كلُّ واحد.

﴿يوعظُ به من كانَ مِنكم يؤمنُ بالله واليومِ الآخِرِ﴾ فيسارع إلى الامتثال بأوامرِه ونواهيه إجلالًا له وخوفًا من عقابه.

وقوله تعالى: ﴿منكم﴾ إما متعلق بـ (كان) عند من يجوز عملها في الظروف وشبهها، وإما بمحذوف وقع حالًا من فاعل يؤمن أي كائنًا منكم ﴿ذلكم﴾ أي أن الاتعاظ به والعمل بمقتضاه ﴿أزكى لكم﴾ أي أنمى وأنفعُ ﴿وأطهرُ﴾ من أدناس الآثام وأوضارِ الذنوب ﴿والله يعلم﴾ ما فيه من الزكاء والطُهر ﴿وأنتم لا تعلمون﴾ ذلك، أو والله يعلمُ ما فيه صلاحُ أمورِكم من الأحكام والشرائعَ التي من جملتها ما بينه هٰهنا وأنتم لا تعلمونها فدعُوا رأيكم وامتثِلوا أمرَه تعالى ونهيَه في كل ما تأتون وما تذرون.

﴿والوالداتُ يرضِعْن أولادَهن﴾ شروعٌ في بيان الأحكام المتعلقة بأولادهن خصوصًا واشتراكًا وهو أمرٌ أُخرِجَ مُخرجَ الخبر مبالغةً في الحمل على تحقق مضمونِه ومعناه الندبُ أو الوجوبُ إن خص بمادة عدم قَبول الصبيِّ ثديَ الغير أو فقدانِ الظِئْر أو عجزِ الوالدِ عن الاستئجار، والتعبيرُ عنهن بالعنوان المذكور لِهزّ عَطفِهن نحو أولادِهن، والحكمُ عام للمطلقات وغيرهن.

وقيل: خاصٌّ بهن إذ الكلامُ فيهن ﴿حولَيْنِ كاملين﴾ التأكيدُ بصفة الكمال لبيان أن التقديرَ تحقيقيٌّ لا تقريبيٌّ مبني على المسامحة المعتادة ﴿لمن أراد أن يُتمَّ الرَّضاعة﴾ بيانٌ لمن يُتوجّه إليه الحكمُ أي ذلك لمن أراد إتمامَ الرضاعة وفيه دلالةٌ على جواز النقص.

---

(١) في المخطوط: وقع حالاً.

(٢) في المخطوط: نعتًا.

وقيل: اللام متعلقة بـ (يرضعن) فإن الأبَ يجبُ عليه الإرضاعُ كالنفقة، والأمُ ترضع له كما يقال: أرضعت فلانةٌ لفلان ولدَه ﴿وعلى المولود له﴾ أي الوالد فإن الولد يولد له ويُنسَب إليه، وتغييرُ العبارة للإشارة إلى المعنى المقتضي لوجوب الإرضاعِ، ومؤونة المرضعة عليه ﴿رزقُهن وكسوتُهن﴾ أجرةٌ لهن، واختلف في استئجار الأمِّ وهو غيرُ جائز عندنا ما دامت في النكاح أو العدة، جائزٌ عند الشافعي رحمه الله.

﴿بالمعروف﴾ حسبما يراه الحاكم ويفي به وسعَه ﴿لا تكلَّفُ نفسٌ إلا وُسعَها﴾ تعليل لإيجاب المُؤَن بالمعروف أو تفسيرٌ للمعروف وهو نص على أنه تعالى لا يكلف العبدَ ما لا يُطيقُه وذلك لا ينافي إمكانه.

﴿لا تضارَّ والدةٌ بولدها ولا مولودٌ له بولده﴾ تفصيلٌ لما قبله وتقريرٌ له، أي لا يكلِّف كلُّ واحد منهما الآخَرَ ما لا يُطيقه، ولا يُضارُّه بسبب ولده.

وقرئ[1] «لا تضارُّ» بالرفع بدلًا من لا تكلف وأصله على القراءتين «لا تضارِّ» بالكسر على البناء [للفاعل وبالفتح على البناء][2] للمفعول وعلى الوجه الأول يجوز أن يكون بمعنى تضرّ والباء من صلته أي لا يُضَر الوالدان بالولد فيُفَرِّط في تعهده ويُقصِّر فيما ينبغي له.

وقرئ[3] لا تضارْ بالسكون مع التشديد على نية الوقف وبه مع التخفيف على أنه من ضاره يَضيرُه وإضافة الولد إلى كل منهما لاستعطافهما إليه وللتنبيه على أنه جدير بأن ينفِقا على استصلاحه ولا ينبغي أن يُضَرَّا به أو يتضارّا بسببه.

﴿وعلى الوارثِ مثلُ ذلك﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿وعلى المولود له رزقهن...﴾ [البقرة، الآية: ٢٣٣] إلخ وما بينهما تعليل أو تفسيرٌ معترِضٌ، والمرادُ

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، والكسائي، ومجاهد، وقتيبة، وأبان، ويعقوب، وابن محيصن، واليزيدي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (١٥٨)، الإعراب للنحاس (١/ ٢٦٨)، والإملاء للعكبري (١/ ٥٧)، والبحر المحيط (٢/ ٢١٤)، والتبيان للطوسي (٢/ ٢٥٥)، والتيسير للداني ص (٨١)، وتفسير الطبري (٥/ ٤٧)، وتفسير القرطبي (٣/ ١٦٧)، والحجة لابن خالويه ص (٩٧)، والحجة لأبي زرعة ص (١٣٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (١٨٣)، والغيث للصفاقسي ص (١٦٦)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٤١)، والكشف للقيسي (١/ ٢٩٦)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٣٣)، والمعاني للفراء (١/ ٢٠٥)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٢٦٥)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢٢٧).

(٢) سقط في ط.

(٣) قرأ بها: أبو جعفر الصفار، وجعفر بن القعقاع.
ينظر: البحر المحيط (٢/ ٢١٥)، وتفسير القرطبي (٣/ ١٦٨)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٤١).

به وارثُ الصبيِّ ممن كان ذا رحِمٍ محرَمٍ منه.

وقيل: عَصَباتُه وقال الشافعي رحمه الله: هو وارثُ الأب وهو الصبيُّ أي تُمانُ المرضعةُ من ماله عند موت الأب، ولا نزاعَ فيه وإنما الكلام فيما إذا لم يكن للصبيِّ مالٌ وقيل: الباقي من الأبوين من قوله عليه الصلاة والسلام: «واجعله الوارثَ منا»[1] وذلك إشارةٌ إلى ما وجب على الأب من الرزق والكسوةِ ﴿فإن أرادا﴾ أي الوالدان ﴿فِصالًا﴾ أي: فِطامًا عن الرَّضاع قبل تمام الحولين، والتنكيرُ للإيذان بأنه فصال غيرُ معتاد ﴿عن تراضٍ﴾ متعلق بمحذوف ينساق إليه الذهنُ أي صادرًا عن تراض ﴿منهما﴾ أي من الوالدين لا من أحدهما فقط لاحتمال إقدامه على ما يضُرُّ بالولد بأن تمَلَّ المرأةُ الإرضاعَ ويبخَلَ الأبُ بإعطاء الأجرة.

﴿وتشاوُرٍ﴾ في شأن الولد وتفحُّصٍ عن أحواله وإجماعٍ منهما على استحقاقه للفِطام والتشاور من المَشورة وهي استخراجُ الرأي من شرتُ العسلَ إذا استخرجته وتنكيرُهما للتفخيم ﴿فلا جناحَ عليهما﴾ في ذلك لما أن تراضِيَهما إنما يكون بعد استقرار رأيِهما واجتهادِهما على أن صلاحَ الولدِ في الفِطام وقلما يتفقان على الخطأ.

﴿وإن أردتم﴾ بيان لحكم عدم اتفاقِهما على الفطام، والالتفاتُ إلى خطاب الآباءِ لجذبهم إلى الامتثال بما أُمروا به ﴿أن تسترضِعوا أولادَكم﴾ بحذف المفعول الأول استغناءً عنه أي أن تسترضعوا المراضِعَ لأولادكم[2] يقال: أرضعتِ المرأةُ الصبيَّ واسترضعتُها إياه.

وقيل: إنما يتعدَّى إلى الثاني بحرف الجرِّ يقال: استرضعتُ المرأةَ للصبيِّ أي أن تسترضعوا المراضِعَ لأولادكم فحُذف حرفُ الجر أيضًا كما في قوله تعالى: ﴿وإذا كالوهم﴾ [المطففين، الآية ٣] أي كالوا لهم ﴿فلا جُناحَ عليكم﴾ أي: في الاسترضاع وفيه دلالة على أن للأب أن يسترضِعَ للولد ويمنعَ الأمَّ من الإرضاع ﴿إذا سلَّمتم﴾ أي إلى المراضع ﴿ما آتيتم﴾ أي ما أردتم إيتاءَه كما في قوله تعالى: ﴿فإذا قرأتَ القرآنَ فاستعذ بالله﴾ [النحل، الآية ٩٨] وقرئ[3] «ما أَتيتم» من أتى إليه إحسانًا إذا فعله.

---

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٦٥٠) والترمذي (٥/ ٥٢٨) كتاب الدعوات، حديث (٣٦٠٤) والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٤٠٢) والحاكم (١/ ٥٢٣، ٢/ ١٤٢) من طريق محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعًا: اللهم متعني بسمعي وبصري واجعلهما الوارث مني ....».
وقال الترمذي: حسن غريب من هذا الوجه.

(٢) في المخطوط: أولادكم.

(٣) قرأ بها: ابن كثير، ومجاهد.

وقرئ(١) «ما أُوتيتم» أي من جهة الله عز وجل كما في قوله تعالى: ﴿وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾ [الحديد، الآية ٧] وفيه مزيدُ بعثٍ لهم إلى التسليم ﴿بالمعروف﴾ متعلقٌ بـ (سلَّمتم) أي بالوجه المتعارَفِ المستحسَن شرعًا، وجوابُ الشرط محذوفٌ لدلالة المذكور عليه وليس التسليمُ بشرطٍ للصحة والجواز، بل هو ندبٌ إلى ما هو الأليقُ والأولى فإن المراضعَ إذا أُعطين ما قُدّر لهن ناجزًا يدًا بيد كان ذلك أدخلَ في استصلاح شؤون الأطفال.

﴿واتقوا الله﴾ في شأن مراعاةِ الأحكامِ المذكورة ﴿واعلموا أن الله بما تعملون بَصير﴾ فيجازيكم بذلك، وإظهارُ الاسم الجَليلِ في موضع الإضمارِ لتربية المهابة، وفيه من الوعيد والتهديد ما لا يخفى.

﴿والذين﴾ على حذف المضافِ أي وأزواجُ الذين ﴿يُتَوَفَّوْن منكم﴾ أي تُقبض(٢) أرواحُهم بالموت فإن التوفيَ هو القبضُ يقال: توفّيتُ مالي من فلان واستوفيتُه منه أي أخذته وقبضته، والخطاب لكافة الناس بطريق التلوينِ ﴿ويذَرون أزواجًا يتربَّصْن بأنفسهن أربعةَ أشهرٍ وعشرًا﴾ أو على حذف العائد إلى المبتدأ في الخبر أي يتربصن بعدَهم كما في قولهم: السمنُ مَنوانِ بدرهم أي مَنوانِ منه.

وقرئ(٣) «يَتوفون» بفتح الياء أي يستوفون آجالَهم، وتذكيرُ(٤) العشر باعتبار الليالي لأنها غُررُ الشهور والأيام ولذلك تراهم لا يكادون يستعملون التذكير في مثله أصلًا حتى إنهم يقولون: صُمت عشرًا ومن البين في ذلك قولُه تعالى: ﴿إن لبثتم إلا عشرًا﴾ [طه، الآية ١٠٣] ثم ﴿إن لبثتم إلا يومًا﴾ [طه، الآية ١٠٤] ولعل الحكمةَ في

---

= ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٥٨)، والبحر المحيط (٢/ ٢١٨)، والتبيان للطوسي (٢/ ٢٥٥)، والتيسير للداني (٨١)، وتفسير القرطبي (٣/ ١٧٣)، والحجة لابن خالويه ص (٩٧)، والحجة لأبي زرعة ص (١٣٧)، والسبعة لابن مجاهد ص (١٨٣)، والغيث للصفاقسي ص (١٦٦)، والكشف للقيسي (١/ ٢٩٦،٢٩٧)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٢٣٣)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٢٦٧)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢٢٨).

(١) قرأ بها: عاصم، وشيبان.
ينظر: البحر المحيط (٢/ ٢١٩).

(٢) في المخطوط: يقبض.

(٣) قرأ بها: عاصم، والفضل، وعلي رضي الله عنه.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ٥٨)، والبحر المحيط (٢/ ٢٢٠)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٤٣)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٢٣٦)، والمحتسب لابن جني (١/ ١٢٤).

(٤) في المخطوط: تأنيث.

هذا التقديرِ أن الجنينَ إذا كان ذكرًا يتحرك غالبًا لثلاثة أشهر وإن كان أنثى يتحرك لأربعة فاعتُبر أقصىٰ الأجلين وزيد عليه الأيام العشر استظهارًا إذ ربما تضعف الحركة فلا يُحس بها.

وعمومُ اللفظ يقتضي تساوي المسلمة والكتابية والحرة والأمة في هذا الحكم ولكن القياسَ اقتضى التنصيفَ في الأَمَة، وقولُه عز وجل: ﴿وأُولاتُ الأحمال﴾ [الطلاق، الآية ٤] خَصَّ الحاملَ منه.

وعن علي وابنِ عباس رضي الله عنهم أنها تعتدُّ بأبعد الأجلين احتياطًا[1].

﴿فإذا بلغْن أجلَهن﴾ أي انقضت عدتُهن ﴿فلا جُناحَ عليكم﴾ أيها الحكامُ والمسلمون جميعًا ﴿فيما فعلن في أنفسهن﴾ من التزيُّن والتعرُّض للخُطّاب وسائرِ ما حُرِّم على المعتدة ﴿بالمعروف﴾ بالوجه الذي لا ينكره الشرعُ، وفيه إشارةٌ إلى أنهن لو فعلن ما ينكره الشرعُ فعليهم أن يكفّوهن عن ذلك وإلا فعليهم الجُناحُ ﴿والله بما تعملون خبير﴾ فلا تعملوا خلافَ ما أُمرتم به.

﴿ولا جُناحَ عليكم﴾ خطابٌ للكل ﴿فيما عرَّضتم به﴾ التعريضُ والتلويحُ إبهامُ المقصودِ بما لم يوضَعْ له حقيقةً ولا مجازًا كقول السائل: جئتُك لأُسلِّم عليك وأصلُه إمالةُ الكلام عن نهجه إلى عرضٍ منه أي جانب والكناية هي الدِلالةُ على الشيء بذكر لوازمِه وروادِفه كقولك: طويلُ النِّجاد للطويل وكثيرُ الرماد للمِضْياف.

﴿من خِطبة النساءِ﴾ الخِطبة بالكسر كالقِعدة والجِلسة ما يفعلُه الخاطبُ من الطلب والاستلطاف بالقول والفعل فقيل: هي مأخوذةٌ من الخَطْب أي الشأن الذي له خطرٌ لما أنها شأن من الشؤون ونوع من الخُطوب وقيل: من الخطاب لأنها نوعُ مخاطبة تجري بين جانب الرجل وجانب المرأة والمرادُ بالنساء المعتداتُ للوفاة والتعريضُ لخطبتهن أن يقول لها: إنك لجميلةٌ أو صالحةٌ أو نافعة، ومن غرضي أن أتزوَّجَ ونحوُ ذلك مما يوهم أنه يريد نِكاحَها حتى تحبِسَ نفسَها عليه إن رغبت فيه ولا يصرح بالنكاح ﴿أو أكْنَنْتم في أنفسكم﴾ أي أضمرتم في قلوبكم فلم تذكروه تصريحًا ولا تعريضًا ﴿علم الله أنكم ستذكُرونهن﴾ ولا تصبِرون على السكوت عنهن وعن إظهار الرغبة فيهن وفيه نوعُ توبيخٍ لهم على قلة التثبت.

﴿ولكن لا تواعِدوهن سرًّا﴾ استدراكٌ عن محذوفٌ دل عليه ﴿ستذكرونهن﴾ أي

---

(١) ذكره المناوي في «الفتح السماوي» (١/ ٢٩٢) عن علي وعزاه لأبي داود في ناسخه وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٣٧٨) عن ابن عباس.

فاذكُروهن ولكن لا تواعدوهن نِكاحًا بل اكتفوا بما رُخّص لكم من التعريض، والتعبيرُ عن النكاح بالسر لأن مُسبَّبَه[1] الذي هو الوطء مما يُسرّ به وإيثارُه على اسمه للإيذان بأنه مما ينبغي أن يُسرّ به ويكتَم، وحملُه على الوطء ربما يُوهم الرُّخصة في المحظور الذي هو التصريحُ بالنكاح.

وقيل: انتصابُ «سرًّا على» الظرفية أي: لا تواعدوهن في السر على أن المراد بذلك المواعدةُ بما يُستهجن وفيه ما فيه.

﴿إلا أن تقولوا قولًا معروفًا﴾ استثناءٌ مفرَّغ مما يدل عليه النهي أي: لا تواعدوهن مواعدةً ما إلا مواعدةً معروفة غيرَ منْكرةٍ شرعًا وهي ما يكون بطريق التعريض والتلويح أو إلا مواعدةً بقول معروف، أو لا تواعدوهن بشيء من الأشياء إلا بأن تقولوا قولًا معروفًا.

وقيل: هو استثناءٌ منقطعٌ من (سرًّا) وهو ضعيف لأدائه إلى جعل التعريض موعودًا وليس كذلك.

﴿ولا تعزِموا عُقدةَ النكاحِ﴾ من عزم الأمرَ إذا قصده قصدًا جازمًا وحقيقتُه القطع بدليل قوله عليه السلام: «لا صيامَ لمن لم يعزِمِ الصيامَ من الليل» وروي «لمن لم يبيّت الصيام»[2] والنهي عنه للمبالغة في النهي عن مباشرة عقدِ النكاح أي لا تعزِموا

---

(١) في ط: مسبته.

(٢) أخرجه أبو داود (٢/ ٨٢٣، ٨٢٤): كتاب الصوم: باب النية في الصّيام: حديث (٢٤٥٤)، والترمذي (٢/ ١١٦، ١١٧): كتاب الصوم: باب ما جاء لا صيام لمن لم يعزم من الليل حديث (٧٢٦)، والنسائي (٤/ ١٩٦، ١٩٧): كتاب الصيام: باب: ذكر اختلاف الناقلين لخبر حفصة في ذلك، وابن ماجه (١/ ٥٤٢) كتاب الصيام، باب: ما جاء في فرض الصوم من الليل، والخيار في الصوم، حديث (١٧٠٠)، وأحمد (٦/ ٢٨٧)، والدارمي (٢/ ٦، ٧): كتاب الصوم: باب من لم يجمع الصيام من الليل، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٢/ ٥٤): كتاب الصيام: باب الرجل ينوي الصيام بعدما يطلع الفجر. والدارقطني (٢/ ١٧٢): كتاب الصيام: باب تبييت النية من الليل وغيره، حديث (٢، ٣، ٤)، والبيهقي (٤/ ٢٠٢): كتاب الصيام: باب الدخول في الصوم بالنية، والخطيب (٣/ ٩٢، ٩٣) من طريق عبد الله بن عمر عن حفصة أن النبي ﷺ قال: «من لم يبيت الصيام من الليل فلا صيام له» واللفظ للنسائي. ولفظ أبي داود والترمذي: «من لم يجمع الصيام قبل الفجر فلا صيام له».
وقال الترمذي: لا نعرفه مرفوعًا إلا من هذا الوجه. وقد رُوي عن نافع عن ابن عمر قوله، وهو أصح.
قال الحافظ ابن حجر في «تلخيص الحبير» (٢/ ١٨٨).
واختلف الأئمة في رفعه ووقفه فقال ابن أبي حاتم عن أبيه: لا أدري أيهما أصح؟ يعني رواية يحيى بن أيوب عن عبد الله بن أبي بكر عن الزهري عن سالم ورواية إسحاق بن حازم عن عبد الله بن أبي بكر عن سالم بغير وساطة الزهري لكن الوقف أشبه وقال أبو داود: لا يصح رفعه، وقال =

عُقدة النكاح ﴿حتى يبلغَ الكتابُ أجلَه﴾ أي [(تبلُغَ)][١] العدةُ المكتوبة المفروضةُ آخِرَها.

وقيل: معناه لا تقطعوا عقدة النكاحِ أي لا تُبرِموها ولا تلزَموها ولا تَقَدَّموا عليها، فيكونُ نهيًا عن نفس الفعل لا عن قصده.

﴿واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم﴾ من ذواتِ الصُدور التي من جملتها العزمُ على ما نُهيتم عنه ﴿فاحذَروه﴾ بالاجتناب عن العزم ابتداءً أو إقلاعًا عنه بعد تحققِه ﴿واعلموا أن الله غفورٌ﴾ يغفِرُ لمن يُقلعُ عن عزمه خشيةً منه تعالى ﴿حليم﴾ لا يعاجلُكم بالعقوبة فلا تستدلوا بتأخيرها على أن ما نُهيتم عنه من العزم ليس مما يستتبعُ المؤاخذةَ، وإظهارُ الاسم الجليلِ في موضع الإضمارِ لإدخال الروعة.

﴿لا جُناحَ عليكم﴾ أي لا تِبعةَ من مهرٍ وهو الأظهرُ وقيل: من وِزْر، إذ لا بدعةَ في الطلاق قبل المسيس وقيل: كان النبيُّ ﷺ يكثر النهيَ عن الطلاق فظُن أن فيه جُناحًا فنُفيَ ذلك.

﴿إن طلقتُم النساءَ ما لم تمسُّوهن﴾ أي ما لم تجامعوهن، وقرئ[٢] «تُماسُّوهن»

---

= الترمذي: الموقوف أصح، ونقل في «العلل» عن البخاري أنه قال: هو خطأ وهو حديث فيه اضطراب والصحيح عن ابن عمر موقوف، وقال النسائي: الصواب عندي موقوف ولم يصح رفعه. وقال أحمد: ما له عندي ذلك الإسناد. وقال الحاكم في الأربعين: صحيح على شرط الشيخين، وقال في المستدرك: صحيح على شرط البخاري، وقال البيهقي: رواته ثقات إلّا أنه رُوي موقوفًا، وقال الخطابي: أسنده عبد الله بن أبي بكر، وزيادة الثقة مقبولة، وقال ابن حزم: الاختلاف فيه يزيد الخبر قوة، وقال الدارقطني: كلهم ثقات.

وفي الباب عن عائشة:

أخرجه الدارقطني (٢/ ١٧١-١٧٢) كتاب الصيام : باب تبييت النية من الليل والبيهقي (٤/ ٢٠٣) كتاب الصيام: باب الدخول في الصوم بالنية.

قال الحافظ في «التلخيص» (٢/ ١٨٩). وفيه عبد الله بن عباد وهو مجهول وقد ذكره ابن حبان في الضعفاء.

وفي الباب أيضًا عن ميمونة بنت سعد.

أخرجه الدارقطني (٢/ ١٧٣) كتاب الصيام: باب تبييت النية من الليل، بلفظ من أجمع الصوم من الليل فليصم، ومن أصبح ولم يجمعه فلا يصم.

وفيه محمد بن عمر الواقدي وهو متروك.

(١) سقط في المخطوط.

(٢) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وخلف، والأعمش.

ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (١٥٩)، والإملاء للعكبري (١/ ٥٨)، والبحر المحيط (٢/ ٢٣١)، والتبيان للطوسي (٢/ ٢٦٨)، والتيسير للداني (٨١)، وتفسير الطبري (٥/ ١١٨)، وتفسير القرطبي =

بضم التاء في جميع المواقع أي مدة عدمِ مِساسِكم إياهن، على أن ما مصدريةٌ ظرفية بتقدير المضاف، ونقل أبو البقاءِ أنها شَرطية بمعنى «إن» فيكون من باب اعتراض الشرط على الشرط فيكون الثاني قيدًا للأول كما في قولك: إنْ تأتِني إن تُحسِنْ إلي أكرمْك أي: إن تأتني محسِنًا إليَّ والمعنى: إن طلقتموهن غيرَ ماسِّين لهن، وهذا المعنى أقعَدُ من الأول لما أن «ما» الظرفية إنما يحسُن موقعُها فيما إذا كان المظروفُ أمرًا ممتدًا منطبقًا على ما أضيف إليها من المدة أو الزمان كما في قوله تعالى: ﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض﴾ [هود، الآية: ١٠٧] وقوله تعالى: ﴿وكنت عليهم شهيدًا ما دمت فيهم﴾ [المائدة، الآية: ١١٧] ولا يخفى أن التطليقَ ليس كذلك، وتعليقُ الظرف بنفي الجُناحِ ربما يوهم إمكانَ المسيسِ بعد الطلاق، فالوجهُ أن يقدَّرَ الحالُ مكان الزمان والمدة.

﴿أو تفرِضُوا لهن فريضةً﴾ أي: إلا أن تفرِضوا لهن أو حتى تفرضوا لهن عند العقد مَهرًا، على أن فريضة فعيلة بمعنى مفعول، والتاءُ لنقل اللفظ من الوصفية إلى الاسمية، وانتصابُه على المفعولية.

ويجوز أن يكون مصدرًا صيغةً وإعرابًا، والمعنى: أنه لا تِبعَةَ على المطلِّق بمطالبة المَهر أصلًا إذا كان الطلاقُ قبل المسيس على كل حال إلا في حال تسمية المهرِ فإن عليه حينئذٍ نصفَ المسمَّى، وفي حال عدمِ تسميتِه عليه المتعةُ لا نصفُ مَهرِ المثل وأما إذا كان بعد المسيسِ[1] فعليه في صورة التسمية تمامُ المسمَّى، وفي صورة عدمها تمامُ مَهر المثل وقيل: كلمةُ «أو» عاطفةٌ لمدخولها على ما قبلها من الفعل المجزومِ على معنى ما لم يكن منكم مسيسٌ ولا فرضُ مَهرٍ.

﴿ومتِّعوهن﴾ عطفٌ على مقدّر ينسحبُ عليه الكلام أي فطلِّقوهن ومتِّعوهن، والحكمةُ في إيجاب المتعة جبرُ إيحاش الطلاقِ وهي دِرعٌ ومِلْحفة وخِمار على حسب الحال كما يُفصِحُ عنه قوله تعالى: ﴿على الموسِع قدَرُه وعلى المقترِ قَدَرُه﴾ أي ما يليق بحال كلٍّ منهما وقرئ[2] بسكون الدال وهي جملةٌ مستأنفةٌ لا محلَّ لها من

---

= (٣/ ١٩٩)، والحجة لابن خالويه ص (٩٨)، والسبعة لابن مجاهد (١٨٣، ١٨٤)، والغيث للصفاقسي (١٦٦)، والكشف للقيسي (١/ ٢٩٧،٢٩٨)، و المجمع للطبرسي (٢/ ٣٣٩)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢٢٨).

(١) في المخطوط: المساس.

(٢) قرأ بها: ابن كثير، ونافع، أبو عمرو، وعاصم، وأبو بكر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (١٥٩)، والبحر المحيط (٢/ ٢٣٣)، والتبيان للطوسي ص (٢/ =

الإعراب مبينةٌ لمقدار المتعة بالنظر إلى حال المطلّق إيسارًا وإقتارًا، أو حالٌ من فاعل متّعوهن بحذف الرابط أي على الموسع منكم . . . إلخ أو على جعل الألف واللام عوضًا من المضاف إليه عند من يجوّزه أي على موسعكم . . . الخ.

وهذا إذا لم يكن مهرُ مثلِها أقل من ذلك فإن كان أقل فلها الأقلُ من نصف مهر المثل ومن المتعة ولا يُنقص عن[1] خمسة دراهم.

﴿متاعًا﴾ أي تمتيعًا ﴿بالمعروف﴾ أي بالوجه الذي تستحسنه الشريعةُ والمروءة ﴿حقًا﴾ صفةٌ لـ (متاعًا) أو مصدرٌ مؤكد أي حُقَّ ذلك حقًا ﴿على المحسنين﴾ أي الذين يُحسنون إلى أنفسهم بالمسارعة إلى الامتثال، أو إلى المطلقات بالتمتيع بالمعروف وإنما سموا محسنين اعتبارًا للمشارفة وترغيبًا وتحريضًا.

﴿وإنْ طلقتُموهن من قبلِ أنْ تمسُّوهن وقد فرَضْتُم لهن﴾ قبل ذلك ﴿فريضةً﴾ أي: وإن طلقتموهن من قبل المسيسِ حال كونِكم مُسمِّين لهن فيما سبق أي عند النكاحِ مَهرًا على أن الجملةَ حالٌ من فاعل «طلقتُموهن» ويجوزُ أن تكون حالًا من مفعوله لتحقق الرابطِ بالنسبة إليهما.

ونفس الفرض من المبني للفاعل أو للمفعول وإن لم يقارِنْ حالةَ التطليق لكن اتصاف المطلقِ بالفارضية فيما سبق مما لا ريب في مقارنته لها وكذا الحال في اتصاف المطلقة بكونها مفروضًا لها فيما سبق.

﴿فنصفُ ما فرضتم﴾ أي فلهن نصفُ ما سمّيتم لهن من المَهر، فالواجبُ عليكم ذلك، وهذا صريحٌ في أن المنفي في الصورة السابقة إنما هو تبِعةُ المهر وقرئ[2] بالنصب أي فأدوا نصفَ ما فرَضتم ولعل تأخيرَ حكمِ التسمية مع أنها الأصلُ في العقد والأكثرُ في الوقوع لما أن الآية الكريمة نزلت في أنصاريٍّ تزوج امرأةً من بني حنيفةَ وكانت مفوضةً[3] فطلقها قبل الدخول بها فتخاصما إلى رسول الله ﷺ فقال له

---

= ٢٦٩)، والتيسير للداني (٨١)، وتفسير الطبري (٥/ ١٣٦)، وتفسير القرطبي (٣/ ٢٠٣)، والحجة لابن خالويه، ص (٩٨)، والحجة لأبي زرعة ص (١٣٧)، والسبعة لابن مجاهد ص (١٨٤)، والغيث للصفاقسي ص (١٦٧)، والكشف للقيسي (١/ ٢٩٨، ٢٩٩)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٣٩)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢٢٨).

(١) في المخطوط: من.

(٢) ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٢٧١)، وتفسير القرطبي (٣/ ٢٠٤).

(٣) التفويض في النكاح التزويج بلا مهر.
المفوضة بكسر الواو وفتحها، من التفويض وهو الرد أو التصيير إليه، وهو نوعان عند الحنابلة: تفويض البضع: وهو أن يزوج الأب ابنته المجبرة بغير صداق، أو تأذن المرأة لوليها أن يزوجها بغير =

عليه الصلاة والسلام عند إظهار أن لا شيءَ له: «متِّعْها بقَلَنْسُوتك»[١] ﴿إلا أن يعفونَ﴾ استثناءٌ مفرغٌ من أعم الأحوال أي فلهن نصفُ المفروض معينًا في كل حال إلا حالَ عفوِهن فإنه يسقُط ذلك حينئذ بعد وجوبه، وظاهرُ الصيغة في نفسها يحتمل التذكيرَ والتأنيث وإنما الفرقُ في الاعتبار والتحقيق فإن الواوَ في الأولى ضميرٌ والنون علامة الرفع، وفي الثانية لامُ الفعل والنون ضمير والفعل مبنيّ ولذلك لم يؤثرْ فيه إنما تأثيرُه فيما عُطِفَ على محله من قوله تعالى: ﴿أو يعفوَ﴾ بالنصب.

وقرئ[٢] بسكون الواو.

﴿الذي بيده عُقدةُ النكاحِ﴾ أي يتركُ الزوجُ المالك لعقده وحَلّه ما يعود إليه من نصفِ المَهر الذي ساقه إليها كاملًا على ما هو المعتاد تكرمًا فإن تركَ حقَّه عليها عفوًا بلا شُبهة، أو سمي ذلك عفوًا في صورة عدم السَوْق مشاكلةً أو تغليبًا لحال السَوْق على حال عدمِه فمرجِعُ الاستثناء حينئذ إلى منع الزيادةِ في المستثنىٰ منه كما أنه في الصورة الأولى إلى منع النقصانِ فيه أي فلهن هذا القدرُ بلا زيادة ولا نقصان في جميع الأحوال إلا في حال عفوهن فإنه حينئذ لا يكون لهن القدرُ المذكور بل ينتفي ذلك أو ينحطّ، أو في حال عفو الزوج فإنه حينئذ يكون لهن الزيادة على ذلك القدر هذا على التفسير الأول:

وأما على التفسير الثاني فلا بد من المصير إلى جعل الاستثناء منقطعًا لأن في صورة عفوِ الزوجِ لا يُتصور الوجوبُ عليه هذا عندنا، وفي القول القديم للشافعي[٣]

---

= صداق. وتفويض المهر: وهو أن يتزوجها الرجل على ما شاءت أو على ما شاء الزوج أو الولي أو على ما شاء أجنبي غير الزوجين.
ينظر: كشاف القناع: (٥/ ١٧٤) وما بعدها.

(١) ذكره الزيلعي في «تخريج الكشاف» (١/ ١٥١) وبيض له.

(٢) قرأ بها: الحسن، والشعبي، وأبو نهيك.
ينظر: البحر المحيط (٢/ ٢٣٦، ٢٣٧)، وتفسير القرطبي (٣/ ٢٠٨)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٤٦)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٢٤١)، والمحتسب لابن جني (١/ ١٢٥).

(٣) وفي الذي بيده عقدة النكاح قولان:
قال في القديم: المراد به ولى المرأة، وبه قال ابن عباس والحسن البصرى، والزهرى، وطاوس، وربيعة، ومالك، وأحمد؛ فيكون تقدير الآية على هذا ﴿إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٧] يعنى: الزوجات عن النصف الذي وجب لهن فيكون جميع الصداق للزوج، أو يعفو الولى عن نصيب الزوجة؛ فيكون الجميع للزوج.
﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، يعنى: الأزواج؛ فيكون الجميع للزوجة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ﴾ [البقرة: ٢٣٧] وهذا ورد فيما بعد الطلاق، والذى بيده =

رحمه الله أن المراد عفوُ الولي الذي بيده عقدةُ نكاحِ الصغيرة وهو ظاهرُ المأخذ خلا أن الأول أنسبُ بقوله تعالى: ﴿وأن تعفوا أقرب للتقوى﴾ . . . إلى آخره فإن إسقاط حقِّ الصغيرة ليس في شيء من التقوى.

وعن جُبير بن مُطعِم[1] أنه تزوج امرأةً وطلقها قبل الدخول وأكمل لها الصَّداقَ وقال: أنا أحق بالعفو[2].

وقرئ[3] بالياء.

﴿ولا تنسَوُا الفضلَ بينكم﴾ أي لا تتركوا أن يتفضل بعضُكم على بعض كالشيء المنسيِّ وقرئ بكسر الواو، والخطاب في الفعلين للرجال والنساء جميعًا بطريق التغليب ﴿إن الله بما تعملون بصير﴾ فلا يكاد يُضيع ما عمِلتم من التفضل والإحسان.

---

= عقدة النكاح عليها هو الولي دون الزوج. ولأن الكناية ترجع إلى أقرب مذكور قبله، وأقرب مذكور قبل هذا هو النصف الذي للمرأة. ولأن الله تعالى ذكر العفو في الآية في ثلاثة مواضع، فإذا حمل هذا على الولى حصل لكل عفو فائدة، وإذا حمل على غيره جعل أحدهما مكررًا.
وقال في الجديد: الذي بيده عقدة النكاح هو الزوج؛ فيكون تقدير الآية: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٧] يعني: الزوجات، أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح، يعني: الزوج ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، يعني: أن عفو الأزواج أفضل من عفو الزوجات؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ [البقرة: ٢٣٧].
وعقدة النكاح: عبارة عن معقوده، ومعقود النكاح بيد الزوج دون الولي؛ لأن الله قال: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وهذه مفاضلة بين عفوين تقدم ذكرهما، ولا يصح ذلك إلا إذا كان المراد بالذي بيده عقدة النكاح هو الزوج.
ينظر: الأم للإمام الشافعي (٥/ ٨٠)، وأحكام القرآن له (١/ ٢٠٠)، ومختصر المزني ص (٢٦٧)، وأحكام القرآن للإمام عماد الدين الطبري المعروف بإلكيا الهراسي (١/ ٢٠٨)، وتفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير (٦/ ١٥٤)، مغني المحتاج (٣/ ٢٤٠ - ٢٤١).

(١) هو: جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف القرشي النوفلي، قدم على النبي ﷺ في فداء أسارى بدر، ثم أسلم بعد ذلك قبل عام خيبر، وقيل: يوم الفتح، روى عن النبي ﷺ، قال الزبير: كان يؤخذ عنه النسب، وكان أخذ النسب عن أبي بكر. وقال ابن البرقي، وخليفة: توفي سنة (٥٩) بالمدينة، وقال المدائني: سنة (٥٨).
ينظر: تهذيب الكمال (٤/ ٥٠٦)، تقريب التهذيب (١/ ١٢٦)، خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (١/ ١٦١).

(٢) أخرجه الطبري (٥/ ١٦٥) رقم (٥٣٦٤) من طريق سعيد بن جبير بن مطعم عن أبيه أنه دخل على سعد بن أبي وقاص... فذكره.

(٣) قرأ بها: أبو نهيك، والشعبي.
ينظر: البحر المحيط (٢/ ٢٣٨)، وتفسير القرطبي (٣/ ٢٠٨)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٤٦).

﴿حافظوا على الصلواتِ﴾ أي داوموا على أدائها لأوقاتها من غير إخلالٍ بشيء منها كما تنبئ عنه صيغةُ المفاعلة المفيدة للمبالغة، ولعل الأمرَ بها في تضاعيف بيان أحكامِ الأزواج والأولاد قبل الإتمام للإيذان بأنها حقيقةٌ بكمال الاعتناءِ بشأنها والمثابرة عليها من غير اشتغالٍ بشأنهم وبشأن أنفسهم أيضًا كما يفصح عنه الأمر بها في حالة الخوف ولذلك أمر بها في خلال بيان ما يتعلق بهم من الأحكام الشرعية المتشابكةِ الآخذِ بعضُها بحُجْزَة بعض.

﴿والصَّلَاةِ الوسْطَى﴾ أي المتوسطة بينها أو الفُضلى منها وهي صلاةُ العصر لقوله ﷺ يوم الأحزاب: «شغَلونا عن الصلاة الوسطى صلاةِ العصر ملأ الله تعالى بيوتَهم نارًا»[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٢٥) والنسائي (٢/ ١٧) كتاب الأذان: باب الأذان للفائت من الصوات، والطيالسي (١/ ٧٨- منحة) رقم (٣٢٣)، والدارمي (١/ ٣٥٨) كتاب الصلاة: باب الحبس عن الصلاة والشافعي في الأم (١/ ٨٦)، وأبو يعلى (٢/ ٤٧١) رقم (١٢٩٦)، وابن خزيمة (٢/ ٩٩) رقم (٩٩٦)، وابن حبان (٢٨٥- موارد)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ٣٢١) كتاب الصلاة، والبيهقي (١/ ٤٠٢) من حديث أبي سعيد الخدري قال: حبسنا يوم الخندق عن الصلاة حتى كان بعد المغرب بهوي من الليل كفينا، وذلك قول الله تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ قال: فدعا رسول الله ﷺ بلالا فأقام الظهر فأحسن صلاتها كما كان يصليها في وقتها ثم أمره فأقام العصر فصلاها فأحسن صلاتها كما كان يصليها في وقتها ثم أمره فأقام المغرب فصلاها كذلك قال: وذلك قبل أن ينزل الله عز وجل في صلاة الخوف ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾.

والحديث صححه ابن خزيمة وابن حبان وصححه ابن السكن كما في «نيل الأوطار» (٢/ ٣٤) وقال الشوكاني: رجال إسناده رجال الصحيح...

وفي الباب عن ابن مسعود وجابر.

- حديث ابن مسعود:

أخرجه أحمد (١/ ٣٧٥)، والترمذي (١/ ١١٥): كتاب الصلاة: باب الرجل تفوته الصلوات، الحديث (١٧٩)، (١/ ١٧): كتاب الأذان: باب الاجتزاء للفائت من الصلوات بأذان واحد، والبيهقي (١/ ٤٠٣): كتاب الصلاة : باب الأذان والإقامة للجمع بين الصلوات الفائتات، من طريق أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه أن المشركين شغلوا رسول الله ﷺ عن أربع صلوات يوم الخندق حتى ذهب من الليل ما شاء، فأمر بلالا فأذن ثم أقام فصلى الظهر، ثم أقام فصلى العصر ثم أقام فصلى المغرب ثم أقام فصلى العشاء.

وقال الترمذي: حديث عبد الله ليس بإسناده بأس إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من عبد الله. ا هـ.

وللحديث طريق آخر عن ابن مسعود أيضًا.

أخرجه أبو يعلى (٥/ ٣٩) رقم (٢٦٢٨) من طريق يحيى بن أبي أنيسة عن زبيد الأيامي عن أبي عبد الرحمن السلمي عن عبد الله بن مسعود به قال: شغل المشركون رسول الله ﷺ عن الصلوات: الظهر والعصر والمغرب والعشاء حتى ذهب ساعة من الليل ثم أمر رسول الله ﷺ بلالا فأذن وأقام =

وقال عليه السلام: «إنها الصلاةُ التي شُغل عنها سليمانُ بنُ داود عليهما الصلاة والسلام»[١] وفضلُها لكثرة اشتغال الناسِ في وقتها بتجارتهم ومكاسبهم واجتماعِ ملائكة الليل وملائكة النهار حينئذ.

وقيل: هي صلاةُ الظهر لأنها في وسط النهار وكانت أشقَّ الصلواتِ عليهم لما أن رسولَ الله ﷺ كان يصليها بالهاجرة فكانت أفضلَها لقوله عليه السلام: «أفضلُ العبادات أحمزُها»[٢].

وقيل: هي صلاة الفجر لأنها بين صلاتي الليل والواقعةُ في الحد المشترك بينهما ولأنها مشهودةٌ كصلاة العصر.

---

= ثم صلى الظهر ثم أمره فأذن وأقام فصلى العصر ثم أمره فأذن وأقام فصلى المغرب ثم أمره فأذن وأقام فصلى العشاء.

والحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٧) وقال: رواه أبو يعلى وفيه يحيى بن أبي أنيسة وهو ضعيف عند أهل الحديث إلا أن ابن عدي قال: وهو مع ضعفه يكتب حديثه. ا هـ.

ويحيى روى له الترمذي وقال الحافظ في «التقريب» (٢/ ٣٤٣): ضعيف.

- حديث جابر:

أخرجه البزار (١/ ١٨٥- كشف) رقم (٣٦٥) من طريق مؤمل بن إسماعيل ثنا حماد بن سلمة عن عبد الكريم بن أبي المخارق عن مجاهد عن جابر بنحو حديث ابن مسعود. وقال في آخره: ما على وجه الأرض قوم يذكرون الله غيركم.

وقال البزار: لا نعلم رواه بهذا الإسناد إلا مؤمل ولا نعلمه يروي عن جابر بهذا اللفظ إلا من هذا الوجه.

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٧) وقال: رواه البزار والطبراني في الأوسط وفيه عبد الكريم بن أبي المخارق وهو ضعيف . ا هـ.

وفيه أيضا مؤمل بن إسماعيل.

قال البخاري: منكر الحديث، وقال أبو زرعة: في حديثه خطأ كثير.

وقال الذهبي: صدوق مشهور وثق.

وقال الحافظ: صدوق سيئ الحفظ.

ينظر المغني (٢/ ٦٨٩)، والتقريب (٢/ ٢٩٠).

(١) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٥/ ٥٤٣) من طريق مقاتل بن سليمان عن أبي إسحاق السبيعي عن الحارث الأعور عن علي مرفوعًا.

قال الحافظ: وفي إسناده مقاتل بن سليمان وهو ساقط، وأخرجه ابن أبي شيبة (١/ ٢٤٥) رقم (٨٦١١) عن أبي الأحوص عن أبي إسحاق عن الحارث عن علي موقوفًا ورجح الحافظ صوابه عن المرفوع.

(٢) ذكره القاري في الأسرار المرفوعة، ص (١٠٠) وقال:

«قال الزركشي: لايعرف، وسكت عنه السيوطي، وقال ابن القيم في شرح المنازل: لا أصل له.

قلت: ومعناه صحيح لما في الصحيحين عن عائشة - رضي الله عنها-: «الأجر على قدر التعب». ا هـ.

وقيل: هي صلاةُ المغرب لأنها متوسطة من حيث العددُ ومنحيث الوقوعُ بين صلاتي النهار والليل ووتر النهار ولا تُنقص في السفر.

وقيل: هي صلاة العِشاء لأنها بين الجهريتين الواقعتين في طرفي الليل [والنهار][(١)] وعن عائشة وابن عباس رضي الله عنهم أنه عليه السلام كان يقرأ والصلاة الوسطى وصلاة العصر[(٢)] فتكون حينئذ إحدى الأربعِ قد خُصت بالذكر مع العصر لانفرادها بالفضل.

وقرئ[(٣)] «وعلى الصلاة الوسطى».

وقرئ[(٤)] بالنصب على المدح.

وقرئ الوسطى.

﴿وقوموا لله﴾ أي في الصلاة ﴿قانتين﴾ ذاكرين له تعالى في القيام لأن القنوتَ هو الذكر فيه.

وقيل: هو إكمالُ الطاعة وإتمامُها بغير إخلال بشيء من أركانها وقيل: خاشعين، وقال ابن المسيِّب: المراد به القنوتُ في الصبح.

﴿فإن خفتم﴾ أي من عدو أو غيرِه ﴿فرِجالًا﴾ جمع راجل كقيام وقائم أو رجل بمعنى راجل.

وقرئ[(٥)] بضم الراء مع التخفيف وبضمها[(٦)] مع التشديد أيضًا.

وقرئ[(٧)] فرَجلًا أي راجلًا.

﴿أو رُكبانًا﴾ جمع راكب أي فصلوا راجلين أو راكبين حسبما يقتضيه الحالُ ولا

---

(١) سقط في ط.

(٢) أخرجه الطبري (٥/ ٢١٣) رقم (٥٤٦٨) وابن أبي داود في «المصاحف»، ص (٨٧).

(٣) قرأ بها: عبد الله بن مسعود.
ينظر: البحر المحيط (٢/ ٢٤٢)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٤٦)، والمعاني للفراء (١/ ١٥٦).

(٤) قرأ بها: الرؤاسي، وعائشة.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٢٧٢)، والبحر المحيط (٢/ ٢٤٢)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٤٦).

(٥) قرأ بها: عكرمة.
ينظر: البحر المحيط (٢/ ٢٣٤)، وتفسير الطبري (٥/ ٢٣٨)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٤٦).

(٦) قرأ بها: ابن محيصن، وعكرمة، وأبو مجلز.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (١٥٩)، والبحر المحيط (٢/ ٢٤٣)، وتفسير الطبري (٥/ ٢٣٨)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٤٦).

(٧) ينظر: البحر المحيط (٢/ ٢٤٣)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٤٦).

تُخِلّوا بها ما أمكن الوقوفُ في الجملة وقد جوّز الشافعيُّ رحمه الله أداءها حال المسايفة أيضًا ﴿فإذا أمِنتم﴾ بزوال الخوف ﴿فاذكُروا الله﴾ أي فصلّوا صلاةَ الأمن [و][١] عبر عنها بالذكر لأنه معظمُ أركانِها ﴿كما علمكم﴾ متعلق بمحذوف وقع وصفًا لمصدر محذوف أي ذكرًا كائنًا كما علمكم أي كتعليمه إياكم.

﴿ما لم تكونوا تعلمون﴾ من كيفية الصلاة، والمرادُ بالتشبيه أن تكون الصلاةُ المؤداة موافقةً لما علّمه الله تعالى، وإيرادُها بذلك العنوانِ لتذكير النعمةِ أو اشكُروا الله تعالى شكرًا يوازي تعليمَه إياكم ما لم تكونوا تعلمونه من الشرائع والأحكامِ التي من جملتها كيفيةُ إقامةِ الصلاة حالتي الخوفِ والأمن.

هذا وفي إيراد الشرطية الأولى بكلمة إن المفيدةِ لمشكوكية وقوعِ الخوفِ ونُدرته وتصديرِ الشرطيةِ الثانية بكلمة إذا المُنبئة عن تحقق وقوعِ الأمن وكثرته مع الإيجاز في جواب الأولى والإطنابِ في جواب الثانية المبنيّين على تنزيل مقام وقوع المأمور به فيهما منزلةَ [مقام][٢] وقوعِ الأمر تنزيلًا مستدعيًا لإجراءِ مقتضىٰ المقام الأولِ في كل منهما مُجرى مقتضىٰ المقام الثاني من الجزالة ولطفِ الاعتبار ما فيه عبرةٌ لأولي الأبصار.

﴿والذين يُتَوَفَّوْن منكم ويذرون أزواجًا﴾ عَودٌ إلى بيانِ بقيةِ الأحكامِ المفصَّلة فيما سلف إثرَ بيانِ أحكام توسطتْ[٣] بينهما لما أشير إليه من الحكمة الداعيةِ إلى ذلك ﴿وصيةً لأزواجهم﴾ أي يوصون أو لِيُوصوا أو كتب الله عليهم وصيةً، ويؤيد هذا قراءةُ[٤] مَنْ قرأ «كتب عليكم الوصية لأزواجكم» وقرئ[٥] بالرفع على تقدير مضاف في المبتدأ أو الخبر أي حُكمُ الذين يُتوفون منكم ويذرون أزواجًا وصيةٌ لأزواجهم، أو والذين يُتوفون أهل وصية لأزواجهم أو كُتِب عليهم وصيةٌ أو عليهم وصيةٌ.

وقرئ[٦] متاعٌ لأزواجهم بدل وصية ﴿متاعًا إلى الحول﴾ منصوبٌ بـ (يوصون) إن

---

(١) سقط في المخطوط.

(٢) سقط في المخطوط.

(٣) في المخطوط: وسطت.

(٤) قرأ بها: عبد الله بن مسعود.
ينظر: الكشاف للزمخشري (١/ ١٤٦).

(٥) قرأ بها: نافع وابن كثير والكسائي وعاصم وأبو جعفر ويعقوب وخلف وقتادة والأعرج.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (١٥٩)، والإملاء للعكبري (١/ ٢٧٤)، والتيسير للداني (٨١).

(٦) قرأ بها: أبي.
ينظر: البحر المحيط (٢/ ٢٤٥).

أضمَرْته وإلا فباد (وصية) أو بـ (متاع) على القراءة الأخيرة.

﴿غيرَ إخراجٍ﴾ بدل منه أو مصدر مؤكد كما في قولك: هذا القولُ غيرُ ما تقول أو حال من أزواجهم أي غيرَ مُخرَجاتٍ والمعنى: يجب على الذين يُتوفَّوْن أن يوصوا قبل الاحتضار لأزواجهم بأن يُمتّعْنَ بعدهم حولًا بالنفقة والسُكنىٰ وكان ذلك أولَ الإسلام ثم نُسخت المدة بقوله تعالى: ﴿أربعةَ أشهرٍ وعشرًا﴾ [البقرة، الآية: ٢٣٤] فإنه وإن كان متقدمًا في التلاوة [فهو][1] متأخرٌ في النزول وسقطت النفقة بتوريثها الربعَ أو الثمنَ وكذلك السكنى عندنا، وعند الشافعيّ هي باقية.

﴿فإن خرجن﴾ عن منزل الأزواج باختيارهن ﴿فلا جُناحَ عليكم﴾ أيها الأئمة ﴿فيما فعلْنَ في أنفسهن من معروف﴾ لا ينكِرُه الشرْعُ كالتزيُّن والتطيُّب وتركِ الحِدادِ والتعرّضِ للخُطّاب، وفيه دلالةٌ على أن المحظورَ إخراجُها عند إرادة القرارِ وملازمةِ مسكنِ الزوجِ والحداد من غير أن يجب عليها ذلك وأنها كانت مخيّرة بين الملازمة مع أخذ النفقةِ وبين الخروج مع تركها.

﴿والله عزيز﴾ غالبٌ على أمره يعاقِبُ من خالفه ﴿حكيم﴾ يراعي في أحكامه مصالحَ عباده.

﴿وللمطلقات﴾ سواءٌ كن مدخولًا بهن أو لا ﴿متاعٌ﴾ أي مطلقُ المتعة الشاملة الواجبةِ والمستحبة وأوجبها سعيدُ بنُ جبير، وأبو العالية، والزُهري[2] للكل.

وقيل: المراد بالمتاع نفقةُ العِدة وقيل: اللام للعهد والمراد غيرُ المدخول بهن والتكريرُ للتأكيد ﴿بالمعروف﴾ شرعًا وعادة ﴿حقًا على المتقين﴾ أي مما ينبغي[3] ﴿كذلك﴾ أي مثلَ ذلك البيانِ الواضح ﴿يبين الله لكم آياتِه﴾ الدالةَ على أحكامه التي شرعها لعباده ﴿لعلكم تعقلون﴾ لكي تفهموا ما فيها وتعملوا بموجبها.

۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ

---

(١) سقط في المخطوط.

(٢) أخرجه الطبري في «التفسير» (٢/ ٥٩٩) رقم (٥٥٩٥) عن سعيد بن جبير وبرقم (٥٥٩٦) عن الزهري وبرقم (٥٥٩٧) عن عطاء وأخرجه ابن أبي حاتم (٢/ ٤٥٣-٤٥٤) عن ابن عباس.

(٣) في المخطوط: لا ينبغي.

مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

﴿ألم ترَ﴾ تقريرٌ لمن سمع بقصتهم من أهل الكتاب وأربابِ الأخبار وتعجيب من شأنهم البديع فإن سماعَهم لها بمنزلة الرؤية النظريةِ أو العلمية أو لكل أحدٍ ممن له حظٌّ من الخطاب إيذانًا بأن قصتهم من الشهرة والشيوع بحيث يحِقُّ لكل أحد أن يُحمل على الإقرار برؤيتهم وسماع قصتهم ويعجب بها وإن لم يكن ممن رآهم أو سمع بقصتهم فإن هذا الكلامَ قد جرى مجرى المَثلِ في مقام [التعجيب][1] لما أنه شُبّه حالُ غيرِ الرائي لشيءٍ عجيب بحال الرائي له بناءً على ادعاء ظهورِ أمره وجلائِه بحيث استوى في إدراكه الشاهدُ والغائبُ ثم أُجريَ الكلامُ معه كما يجري مع الرائي قصدًا إلى المبالغة في شهرته وعَراقتِه في التعجب.

وتعديةُ الرؤيةِ بـ (إلى) في قوله تعالى: ﴿إلى الذين خرَجوا من ديارهم﴾ على تقدير

---

(١) سقط في ط.

كونِها بمعنى الأنصار باعتبار معنى النظر على تقدير كونِها إدراكًا قلبيًا لتضمين معنى الوصول والانتهاء على معنى ألم ينتهِ علمُك إليهم.

﴿وهم ألوفٌ﴾ أي ألوف كثيرة قيل: عشرةُ آلاف وقيل: ثلاثون وقيل: سبعون ألفًا، والجملةُ حال من فاعل[1] خرَجوا وقوله عز وجل: ﴿حذرَ الموت﴾ مفعول له.

رُوي أن أهلَ داوردان[2] - قرية قبل واسِط - وقع فيهم الطاعونُ فخرجوا منها هاربين فأماتهم الله ثم أحياهم ليعتبروا ويعلموا ألا مفرَّ من حكم الله (عز سلطانُه وقضاؤه)[3].

وقيل: مر عليهم حِزْقيلُ بعد زمان طويل وقد عرِيَتْ عظامُهم وتفرقت أوصالُهم فلوى شدقيه وأصابعَه تعجبًا مما رأى من أمرهم فأُوحيَ إليه نادِ فيهم أن قوموا بإذن الله فنادى فإذا هم قيام يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك لا إلٰه إلا أنت[4].

وقيل: هم قومٌ من بني إسرائيلَ دعاهم ملكُهم إلى الجهاد فهربوا حذرًا من الموت فأماتهم الله تعالى ثمانية أيامٍ ثم أحياهم[5].

وقوله عز وجل: ﴿فقال لهم الله موتوا﴾ إما عبارةٌ عن تعلق إرادته تعالى بموتهم دفعةً، وإما تمثيلٌ لإماتته تعالى إياهم مِيتةَ نفسٍ واحدة في أقرب وقتٍ وأدناه وأسرعِ زمان وأوحاه بأمر آمرٍ مطاعٍ لمأمور مطيع كما في قوله تعالى: ﴿إنما أمرُه إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون﴾ [يس، الآية: ٨٢].

﴿ثم أحياهم﴾ عطفٌ **إما على** مقدَّر يستدعيه المقامُ أي فماتوا ثم أحياهم وإنما حُذف للدلالة على الاستغناء عن ذكره لاستحالة تخلُّف مرادِه تعالى عن إرادته **وإما على** قال لما أنه عبارةٌ عن الإماته، وفيه تشجيعٌ للمسلمين على الجهاد والتعرُّضِ لأسباب الشهادةِ وأن الموتَ حيث لم يكن منه بدٌّ ولم ينفعْ منه المفرُّ فأولىٰ أن يكون في سبيل الله تعالى.

﴿إن الله لذو فضلٍ﴾ عظيم ﴿على الناس﴾ قاطبةً، أما أولئك فقد أحياهم ليعتبروا بما جرى عليهم فيفوزوا بالسعادة العظمى، وأما الذين سمِعوا قِصتَهم فقد هداهم إلى

---

(١) في المخطوط: ضمير.

(٢) في ط: دراورد.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٢/ ٤٥٥) رقم (٢٤٠٩)
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٥٥١) وعزاه لعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري (٢/ ٦٠١-٦٠٢) رقم (٥٦٠٥) عن السدي وبرقم (٥٦٠٦).

(٥) أخرجه الطبري (٢/ ٦٠٢) رقم (٥٦٠٨).

مسلك الاعتبارِ والاستبصار.

﴿ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يشكرون﴾ أي لا يشكرون فضلَه كما ينبغي ويجوز أن يراد بالشكر الاعتبارُ والاستبصارُ، وإظهارُ الناس في مقام الإضمار لمزيد التشنيع.

﴿وقاتلوا في سبيل الله﴾ عطفٌ على مقدر يعيِّنه ما قبله كأنه قيل: فاشكروا فضلَه بالاعتبار بما قص عليكم وقاتلوا في سبيله لما علمتم أن الفِرارَ لا يُنْجي من الحِمام وأن المقدرَ لا مردَّ له، فإن كان قد حان الأجلُ فموتٌ في سبيل الله عز وجل وإلا فنصرٌ عزيزٌ وثواب ﴿واعلموا أن الله سميع﴾ يسمع مَقالة السابقين والمتخلّفين ﴿عليم﴾ بما يُضمِرونه في أنفسهم وهو من وراء الجزاء خيرًا أو شرًا فسارعوا إلى الامتثال واحذروا المخالفة والمساهلة.

﴿مَنْ ذا الذي يُقرِضُ الله﴾ من استفهامية مرفوعةُ المحلِّ بالابتداء وذا خبرُه، والموصولُ صفة له أو بدل منه، وإقراضُ الله تعالى مَثَلٌ لتقديم العمل العاجل طلبًا للثواب الآجل[(١)]، والمراد هاهنا **إما** الجهادُ الذي هو عبارةٌ عن بذل النفسِ والمالِ في سبيل الله عز وجل ابتغاءً لمرضاته **وإما** مطلقُ العملِ الصالحِ المنتظم له انتظامًا أوليًا.

﴿قرضًا حسنًا﴾ أي إقراضًا مقرونًا بالإخلاص وطيبِ النفسِ أو مقرضًا حلالًا طيبًا ﴿فيضاعفَه له﴾ بالنصب على جواب الاستفهام حملًا على المعنى فإنه في معنى أَيُقرِضُه وقرئ[(٢)] بالرفع أي يضاعفُ أجرَه وجزاءَه، جعل ذلك مضاعفةً له بناءً على ما

---

(١) وذلك لأن القرض هو بذل شيء ليرد مثله أو مساويه، واستعمل هنا مجازًا في البذل الذي يرجى الجزاء عليه تأكيدًا في تحقيق حصول التعويض والجزاء، وقيل: القرض هنا على حقيقته، والمجاز هنا مجاز بالاستعارة، فقد شبه -تعالى- إعطاء المؤمنين وإنفاقهم في الدنيا الذي يرجون ثوابه في الآخرة - بالقرض، كما شبه إعطاء النفوس والأموال في أخذ الجنة بالبيع والشراء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.
ينظر: الفتوحات الإلهية (١/ ١٩٨)، والتحرير والتنوير (٢/ ٤٨٢).

(٢) قرأ بها: نافع، وحمزة، والكسائي، وأبو عمرو، وابن كثير.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (١٥٩)، والإعراب للنحاس (١/ ٢٧٦)، والإملاء للعكبري (١/ ٦٠)، والبحر المحيط (٢/ ٢٥٢)، والتبيان للطوسي (٢/ ٢٨٥)، والتيسير للداني ص (٨١)، وتفسير الطبري (٥/ ٢٨٧)، والحجة لابن خالويه ص (٩٨)، والحجة لأبي زرعة ص (١٣٩)، والسبعة لابن مجاهد ص (١٨٥)، والغيث للصفاقسي ص (١٦٧)، والكشف للقيسي (١/ ٣٠٠،٣٠١)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٤٨)، والمعاني للأخفش (١/ ١٧٩)، والمعاني للفراء (١/ ١٥٧)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٢٩١)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢٢٨).

بينهما من المناسبة بالسببية والمسببية ظاهرًا، وصيغةُ المفاعلة للمبالغة.

وقرئ «فيُضعفه» بالرفع[١] وبالنصب[٢] ﴿أضعافًا﴾ جمعُ ضِعف، ونصبُه على أنه حال من الضمير المنصوب أو مفعولٌ بأن يُضمَّنَ المضاعفة معنى التصيير، أو مصدرٌ مؤكد على أن الضِعْفَ اسم للمصدر والجمع للتنوين ﴿كثيرةً﴾ لا يعلم قدرَها إلا الله تعالى.

وقيل: الواحد بسبعمائة ﴿والله يقبِضُ ويبسُطُ﴾ أي يقتّر على بعض ويوسّع على بعض أو يقتِّر تارةً ويوسّع أخرى حسبما تقتضيه مشيئتُه المبنيةُ على الحِكَم والمصالح فلا تبخلوا عليه بما وسَّع عليكم كي لا يبدِّل أحوالَكم. ولعل تأخيرَ البسط عن القبض في الذكر للإيماء إلى أنه يعقُبه في الوجود تسليةً للفقراء.

وقرئ[٣] «يبصُط» بالصاد لمجاورة الطاء ﴿وإليه تُرجَعون﴾ فيجازِيكم على ما قدّمتم من الأعمال خيرًا وشرًا.

﴿ألم ترَ﴾ تقريرٌ وتعجيب كما سبق قُطع عنه للإيذان باستقلاله في التعجب مع أن له مزيدَ ارتباطٍ بما وُسِّط بينهما من الأمر بالقتال ﴿إلى الملأ من بني إسرائيلَ﴾ الملأُ من القوم وجوهُهم وأشرافُهم وهو اسمٌ للجماعة لا واحدَ له من لفظه كالرهط والقوم، سُموا بذلك لما أنهم يملأوُن العيونَ مهابةً والمجالسَ بهاءً أو لأنهم مليئون بما يُبتغىٰ منهم، ومن تبعيضية و(من) في قوله تعالى: ﴿مِنْ بعد موسى﴾ ابتدائيةٌ وعاملُها مقدرٌ وقع حالًا من الملأ أي كائنين بعضَ بني إسرائيلَ من بعد وفاة موسى، ولا ضيرَ في

(١) قرأ بها: ابن كثير، ومجاهد، وأبو جعفر.
ينظر: البحر المحيط (٢/ ٢٥٢)، والتبيان للطوسي (٢/ ٢٨٥)، وتفسير الطبري (٥/ ٢٨٧)، وتفسير القرطبي (٣/ ٢٤٢)، والحجة لأبي زرعة ص (١٣٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (١٨٤)، والغيث للصفاقسي ص (١٦٧)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٤٨)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٢٩١).

(٢) قرأ بها: ابن عامر، ويعقوب.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ٦٠)، والبحر المحيط (٢/ ٢٥٢)، والتبيان للطوسي (٢/ ٢٨٥)، والتيسير للداني ص (٨١)، وتفسير القرطبي (٣/ ٢٤٢)، والحجة لأبي زرعة ص (١٣٩)، والسبعة لابن مجاهد ص (١٨٥)، والغيث للصفاقسي ص (١٦٧)، والكشف للقيسي (١/ ٣٠٠)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٤٨)، والمعاني للأخفش (١/ ١٧٩)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٢٩١).

(٣) قرأ بها: نافع، والكسائي، وحمزة، وعاصم، وقالون، والبزي، وشعبة.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٢٧٦)، والإملاء للعكبري (١/ ٦٠)، والبحر المحيط (٢/ ٢٥٣)، والحجة لأبي زرعة ص (١٣٩)، والسبعة لابن مجاهد ص (١٨٦)، والغيث للصفاقسي ص (١٦٨)، والكشف للقيسي (١/ ٣٠٢،٣٠٣)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٤٨).

اتحاد الحرفين لفظًا عند اختلافهما معنى ﴿إذ قالوا﴾ منصوبٌ بمُضمر يستدعيه المقامُ أي ألم ترَ إلى قصة الملأ أو حديثهم حين قالوا: ﴿لنبي لهم﴾ هو يوشَعُ بنُ نونِ بنِ أفرائيم بن يوسف عليهما السلام وقيل: شمعون بنُ صعبة بنِ علقمة من ولد لاوي بنِ يعقوبَ عليهما السلام وقيل: أشمويلُ بنُ بالِ بنِ علقمة وهو بالعبرانية إسماعيل.

قال مقاتل: هو من نسل هارونَ عليه السلام وقال مجاهد: أشمويلُ بنُ هلقايا ﴿ابعَثْ لنا ملِكًا نقاتلْ في سبيل الله﴾ أي أَنهِضْ للقتال معنا أميرًا نُصدِرُ في تدبير أمرِ الحرب عن رأيه وقرئ[١] (نقاتلُ) بالرفع على أنه حالٌ مقدرة أي ابعثه لنا مقدّرين القتالَ أو استئنافٌ مبني على السؤال وقرئ[٢] يقاتلْ بالياء مجزومًا ومرفوعًا على الجواب للأمر والوصف لـ (ملِكًا) ﴿قال﴾ استئناف وقع جوابًا عن سؤال ينساق إليه الذهنُ كأنه قيل: فماذا قال لهم النبيُّ حينئذ؟ فقيل قال: ﴿هل عسيتم إن كتب عليكم القتالُ ألا تقاتلوا﴾ فُصل بين عسى وخبرِه بالشرط للاعتناء به أي هل قاربتم ألا تقاتلوا كما أتوقعه منكم؟

والمرادُ تقريرُ أن المتوقَّعَ كائنٌ وإنما لم يُذكر في معرض الشرط ما التمسوه بأن قيل: هل عسَيتم إن بعثتُ لكم ملكًا . . . إلخ مع أنه أظهر تعلقًا بكلامهم بل ذَكر كتابةَ القتالِ عليهم للمبالغة في بيان تخلّفِهم عنه فإنهم إذا لم يقاتلوا عند فرضيةِ القتالِ عليهم بإيجاب الله تعالى فلئلا يقاتلوا عند عدم فرضيتِه أولى، ولأن إيراد ما ذكروه ربما يوهِمُ أن سبب تخلفِهم عن القتال هو المبعوث لا نفس القتال.

وقرئ[٣] «عسِيتم» بكسر السين وهي ضعيفة.

﴿قالوا﴾ استئناف كما سبق ﴿وما لنا ألا نقاتلَ﴾ أي: أيُّ سبب لنا في ألا نقاتلَ ﴿في سبيل الله وقد أُخرِجنا من ديارنا وأبنائنا﴾ أي: والحال أنه قد عَرَض لنا ما يوجب القتالَ إيجابًا قويًا من الإخراج عن الديار والأوطان والاغترابِ من الأهل

---

(١) ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٢٧٧)، والإملاء للعكبري (١/ ٦٠)، والبحر المحيط (٢/ ٢٥٥)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٢٩٢).

(٢) ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ٦٠)، والبحر المحيط (٢/ ٢٥٥)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٢٩٢).

(٣) قرأ بها: نافع، والحسن، وطلحة.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٢٧٧)، والإملاء للعكبري (١/ ٦٠)، والبحر المحيط (٢/ ٢٥٥)، والتبيان للطوسي (٢/ ٢٨٧)، وتفسير القرطبي (٣/ ٢٤٤)، والحجة لأبي زرعة ص (١٤٠)، والسبعة لابن مجاهد ص (١٨٧)، والغيث للصفاقسي ص (١٦٨)، والكشف للقيسي (١/ ٣٠٣)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٢٤٩)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٢٩٢).

والأولاد، وإفرادُ الأبناء بالذكر لمزيد تقوية أسبابِ القتال وذلك أن جالوت رأسَ العمالقةِ وملكهم وهو جبارٌ من أولاد عمليق بن عاد كان هو ومن معه من العمالقة يسكنون ساحلَ بحرِ الرومِ بين مصر وفلسطين وظهروا على بني إسرائيلَ وأخذوا[1] ديارَهم وسبَوْا أولادهم وأَسَرُوا من أبناء ملوكهم أربعَمائة وأربعين نفسًا وضربوا عليهم الجزيةَ وأخذوا توراتَهم.

﴿فلما كُتب عليهم القتالُ﴾ بعد سؤال النبيِّ عليه السلام ذلك وبعْثِ الملك ﴿تولَّوْا﴾ أي أعرضوا وتخلفوا لكنْ لا في ابتداء الأمرِ بل بعدَ مشاهدةِ كثرةِ العدوِّ وشوكتِه كما سيجيء تفصيلُه وإنما ذكر هٰهنا ما آل إليه أمرُهم إجمالًا إظهارًا لما بين قولِهم وفعلهم من التنافي والتبايُن.

﴿إلا قليلًا منهم﴾ وهم الذين اكتفَوا بالغُرفة من النهر وجاوزوه وهم ثلاثُمائةٍ وثلاثةَ عَشرَ بعدد أهل بدر.

﴿والله عليمٌ بالظالمين﴾ وعيد لهم على ظلمهم بالتولي عن القتال وتركِ الجهاد وتنافي أقوالِهم وأفعالِهم والجملة اعتراضٌ تذييليٌّ.

﴿وقال لهم نبيُّهم﴾ شروعٌ في تفصيل ما جرى بينه عليه السلام وبينهم من الأقوال والأفعال إثرَ الإشارةِ الإجمالية إلى مصير حالِهم أي قال لهم بعد ما أُوحي إليه ما أوحي: ﴿إن الله قد بعث لكم طالوتَ ملكًا﴾ طالوتُ علمٌ عِبْريٌّ كـ (داودَ)، وجعلُه فَعْلوتًا من الطول يأباه منعُ صرفِه و﴿ملكًا﴾ حال منه. رُوي أنه عليه السلام لما دعا ربه أن يجعل لهم ملِكًا أتى بعصًا يُقاس بها من يملِكُ عليهم فلم يساوِها إلا طالوتُ[2].

﴿قالوا﴾ استئناف كما مر ﴿أنىٰ يكونُ له الملكُ علينا﴾ أي من أين يكون أو كيف يكون ذلك ﴿ونحن أحقُّ بالمُلك منه ولم يُؤْتَ سعةً من المال﴾ الواو الأولى حاليةٌ والثانيةُ عاطفةٌ [جامعةٌ][3] للجملتين في الحُكم أي كيف يتملّك علينا والحالُ أنه لا يستحِقُّ التملكُ لوجود من هو أحقُّ منه ولعدم ما يتوقف عليه الملكُ من المال، وسبب هذا الاستبعادِ أن النبوةَ كانت مخصوصةً بسِبطٍ معينٍ من أسباط بني إسرائيلَ، وهو سِبطُ لاوي بنِ يعقوبَ عليه السلام والمملكةِ بسبطِ يهوذا ومنه داودُ وسليمانُ

(١) في المخطوط: فأخذوا.
(٢) أخرجه الطبري (٢/ ٦١٦-٦١٧) رقم (٥٦٤١) عن السدي.
(٣) سقط في المخطوط.

عليهما السلام ولم يكن طالوتُ من أحد هذين السِبطين بل من ولد بنيامين[١] قيل: كان راعيًا وقيل: دبّاغًا وقيل: سقّاءً[٢].

﴿قال إن الله اصطفاه عليكم﴾ لمّا استبعدوا تملُّكه بسقوط نَسَبِه وبفقره ردَّ عليهم ذلك أولًا بأن مَلاكَ الأمرِ هو اصطفاءُ الله تعالى وقد اختاره عليكم وهو أعلم بالمصالح منكم، وثانيًا بأن العُمدة فيه وُفورُ العلم ليتمكَّنَ به من معرفة أمورِ السياسةِ، وجسامةُ البدن ليعظُم خطرُه في القلوب ويقدِرَ على مقاومة الأعداءِ ومكابدةِ الحروب وقد خصه الله تعالى منهما بحظٍّ وافرٍ وذلك قولُه عز وجل: ﴿وزاده بسْطةً في العلم﴾ أي العلم المتعلِّقِ بالمُلك أو به وبالديانات أيضًا وقيل: قد أوحي إليه ونُبِّئ ﴿والجسمَ﴾ قيل: بطول القامة فإنه كان أطولَ من غيره برأسه ومنكبيه حتى إن الرجلَ القائم كانَ يمد يدَه فينال رأسه وقيل: بالجمال وقيل: بالقوة.

﴿والله يؤتي مُلكَه من يشاء﴾ لما أنه مالِكُ المُلكِ والملَكوتِ فعّالٌ لما يريد فله أن يؤتِيَه من يشاءُ من عباده ﴿والله واسعٌ﴾ يوسِّع على الفقير ويُغنيه ﴿عليمٌ﴾ بمن يليقُ بالملك ممن لا يليق به، وإظهارُ الاسم الجليلِ لتربية المهابة.

﴿وقال لهم نبيُّهم﴾ توسيطُه فيما بين قوليه المحكِيَّيْن عنه عليه السلام للإشعار بعدم اتصالِ أحدِهما بالآخر، وتخلُّلُ كلامٍ من جهة المخاطبين متفرِّعٌ على السابق مستتبعٌ للاحق كأنهم طلبوا منه عليه السلامُ آيةً تدل على أنه تعالى اصطفى طالوتَ وملّكه عليهم.

رُوي أنهم قالوا: ما آيةُ مُلكِه فقال: ﴿إن آيةَ ملكِه أن يأتيَكم التابوتُ﴾ أي الصُندوقُ وهو فَعْلوتٌ من التَّوْب الذي هو الرجوعُ لما أنه لا يزال يرجِعُ إليه ما يخرُج منه، وتاؤه مزيدةٌ لغير التأنيث كمَلَكوت ورَهَبوت والمشهورُ أن يوقف على تائه من غير أن تُقلبَ هاءً ومنهم من يقلِبُها إياها، والمراد به صُندوقُ التوراةِ، وكان قد رفعه الله عز وجل بعد وفاةِ موسى عليه السلام سُخطًا على بني إسرائيلَ لما عَصَوا واعتدَوْا فلما طلب القوم من نبيهم آيةً تدل على مُلك طالوتَ قال لهم: «إن آية ملكِه أن يأتيَكم التابوتُ من السماءِ والملائكةُ يحفَظونه» فأتاهم كما وصف والقومُ ينظرون إليه حتى نزل عند طالوتَ.

وهذا قولُ ابن عباس[٣] (رضي الله عنهما) وقال: أربابُ الأخبارِ إن الله تعالى

---

(١) أخرجه الطبري (٢/ ٦١٧) رقم (٥٦٤٣) عن قتادة، وبرقم (٥٦٤٥، ٥٦٤٦) عن الضحاك.

(٢) أخرجه الطبري (٢/ ٦١٧) رقم (٥٦٤٢) عن عكرمة.

(٣) أخرجه الطبري (٢/ ٦٢٢- ٦٢٣) رقم (٥٦٦٣) عن ابن عباس.

أنزل على آدمَ تابوتًا فيه تماثيلُ الأنبياء عليهم السلام من أولاده وكان من عُود الشمشاد نحوًا من ثلاثة أذرُع في ذراعين فكان عند آدمَ عليه السلام إلى أن توفي فتوارثه أولادُه واحدٌ بعد واحدٍ إلى أن وصلَ إلى يعقوبَ عليه السلام ثم بقي في أيدي بني إسرائيلَ إلى أن وصلَ إلى موسى عليه السلام فكان عليه الصلاة والسلام يضعُ فيه التوراةَ وكان إذا قاتل قدّمه فكانت تسكُن إليه نفوسُ بني إسرائيلَ وكان عنده إلى أن تُوفي ثم تداولتْه أيدي بني إسرائيلَ وكانوا إذا اختلفوا في شيء تحاكَموا إليه فيكلِّمهم ويحكُم بينهم وكانوا إذا حضروا القتالَ يقدِّمونه بين أيديهم ويستفتِحون به على عدوهم وكانت الملائكةُ تحمِلُه فوق العسكر ثم يقاتلون العدوَّ فإذا سمعوا من التابوت صيحةً استيقنوا النصرَ فلما عصَوا وأفسدوا سلّط الله عليهم العمالقةَ فغلبوهم على التابوت وسلبوه وجعلوه في موضع البولِ والغائطِ فلما أراد الله تعالى أن يُملِّك طالوتَ سلط عليهم البلاء حتى إن كلَّ من بال عنده ابتُلي بالبواسير[١] وهلكت من بلادهم خمسُ مدائنَ فعلم الكفارُ أن ذلك بسبب استهانتهم بالتابوت فأخرجوه وجعلوه على ثورَيْن فأقبل الثورانِ يسيران وقد وكل الله تعالى بهما أربعةً من الملائكة يسوقونهما حتى أتَوا منزلَ طالوت فلما سألوا نبيَّهم البينةَ على مُلك طالوتَ قال لهم النبيُّ: «إن آيةَ مُلكِه أنكم تجِدون التابوتَ في داره» فلما وجدوه عنده أيقنوا بمُلكه[٢].

﴿فيه سكينةٌ من ربكم﴾ أي في إتيانِه سكونٌ لكم وطُمَأْنينةٌ كائنةٌ من ربكم أو في التابوت ما تسكُنون إليه وهو التوراةُ المُودَعة فيه بناءً على ما مر من أن موسى عليه السلام إذا قاتل قدَّمه فتسكُن إليه نفوسُ بني إسرائيلَ وقيل: السكينةُ صورةٌ كانت فيه من زَبَرْجَدٍ أو ياقوتٍ «لها رأسٌ وذنبٌ كرأس الهرِّ وذنبِه وجناحانِ فتئِنُّ فيزحَفُ[٣] التابوتُ نحوَ العدوِّ وهم يمضُون معه فإذا استقر ثبتوا وسكَنوا ونزل النصرُ» وعن علي رضي الله عنه كان لها وجهٌ كوجه الإنسان وفيها ريحٌ هفّافة[٤].

﴿وبقيةٌ مما ترك آلُ موسىٰ وآلُ هرونَ﴾ هي رضاض الألواحِ وعصا موسى وثيابُه

(١) في المخطوط: البواسر.
(٢) أخرجه الطبري (٢/ ٦٢٢) رقم (٥٦٦٢) عن وهب بن منبه بنحوه.
(٣) في المخطوط: فيزف.
(٤) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» ص (١٠٠، ١٠١) والطبري في «تفسيره» (٥/ ٣٢٦) رقم (٥٦٦٦) والحاكم (٢/ ٤٦٠) من طريق سلمة بن كهيل عن أبي الأحوص عن علي به.
وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٥٦٢) وزاد نسبته إلى أبي عبيد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عساكر.

وشيءٌ من التوراة، وكان قد رفعه الله تعالى بعد وفاةِ موسى عليه السلام، وآلُهما أبناؤُهما أو أنفسُهما، والآلُ مقحَمٌ لتفخيم شأنهما، أو أنبياءُ بني إسرائيلَ.

﴿تحمِلُه الملائكةُ﴾ حال من التابوت أي إن آيةَ ملكِه إتيانُه حال كونِه محمولًا للملائكة وقد مر كيفيةُ ذلك ولعل حملَ الملائكةِ على الرواية الأخيرة عبارةٌ عن سَوْقهم للثورين الحاملين له.

﴿إن في ذلك﴾ إشارةٌ إلى ما ذكر من شأن التابوت فهو من تمام كلامِ النبي عليه السلام لقومه أو إلى نَقلِ القصة وحكايتها، فهو ابتداءُ كلام من جهة الله تعالى جيءَ به قبل تمامِ القصةِ إظهارًا لكمال العنايةِ به، وإفرادُ حرفِ الخطاب مع تعدُّد المخاطَبين على التقديرين بتأويل الفريق أو غيرِه كما سلف.

﴿لآيةً﴾ عظيمةً ﴿لكم﴾ دالةً على مُلك طالوتَ أو على نبوة محمدٍ ﷺ حيث أخبر بهذه التفاصيل على ما هي عليه من غير سماعٍ من البشر.

﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي مصدِّقين بتكليمه أو بشيءٍ من الآيات، وإن شرطيةٌ والجواب محذوفٌ ثقةً بما قبله وقيل: هي بمعنى إذ.

﴿فلما فصلَ طالوتُ بالجنود﴾ أي انفصل بهم عن بيت المقدسِ والأصلُ فصلَ نفسَه، ولما اتحد فاعلُه ومفعولُه شاع استعمالُه محذوفَ المفعول حتى نزل منزِلة القاصِرِ كـ (انفصل)، وقيل: فصَل فصُولًا وقد جُوّز كونه أصلًا برأسه ممتازًا من المتعدي بمصدره كوقف وقوفًا ووقَفه وقفًا وكصدَّ صُدودًا وصدَّه صدًا ورجَع رجوعًا ورجَعه رجعًا، والباء متعلقة بمحذوف وقع حالًا من طالوت أي ملتبسًا بهم ومصاحبًا لهم. رُوي أنه قال لقومه: «لا يخرج معي رجل بنىٰ بناءً لم يفرُغْ منه ولا تاجرٌ مشتغلٌ بالتجارة ولا متزوجٌ بامرأة لم يبْنِ عليها ولا أبتغي إلا الشابَّ النشيطَ الفارغ» فاجتمع إليه ممن اختارهم ثمانون ألفًا وكان الوقت قَيظًا وسلكوا مفازةً فسألوا أن يُجرِيَ الله تعالى لهم نهرًا فبعد ما ظهر له ما تعلقت به مشيئتُه تعالى من جهة النبي عليه السلام أو بطريق الوحي عند من يقول بنبوته ﴿قال إن الله مُبتليكم بنهَر﴾ بفتح الهاء.

وقرئ[1] بسكونها ﴿فمن شَرِب منه﴾ أي ابتدأ شُربه من النهر بأن كرَع لأنه الشرب منه حقيقة ﴿فليس مني﴾ أي من جُملتي وأشياعي المؤمنين وقيل: ليس بمتصلٍ بي

---

(١) قرأ بها: مجاهد، وحميد، والأعرج، وأبو السمال.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٢٧٨)، والإملاء للعكبري (١/ ٦١)، والبحر المحيط (٢/ ٢٦٤)، وتفسير القرطبي (٣/ ٢٥١).

ومتحدٍ معي من قولهم: فلان مني كأنه بعضُه لكمال اختلاطِهما.

﴿ومن لم يَطْعَمه﴾ أي لم يذُقه من طعِم الشيءَ إذا ذاقه مأكولًا كان أو مشروبًا أو غيرَهما قال: [الطويل]

وإن شئت حرمتُ النساءَ سواكمُ وإن شئت لم أطعَمْ نُقاخًا ولا بردا[(١)]

أي نومًا ﴿فإنه مني إلا من اغترفَ غُرفة بيده﴾ استثناء من قوله تعالى: ﴿فمن شرِب منه فليس مني﴾ وإنما أُخّر عن الجملة الثانية لإبراز كمالِ العناية بها ومعناه الرخصةُ في اغتراف الغرفةِ باليد دون الكَرْع[(٢)] والغرفة ما يُغرَف.

وقرئ[(٣)] بفتح الغين على أنها مصدرٌ والباء متعلقةٌ بـ (اغترف) أو بمحذوف وقعَ صفةً لـ (غرفة) أي غرفةً كائنةً بيده. يُروىٰ أن الغرفة كانت تكفي الرجل لشربه وإداوتِه[(٤)] ودوابِّه وأما الذين شرِبوا منه فقد اسودت شفاهُهم وغلبهم العطشُ ﴿فشرِبوا منه﴾ عطفٌ على مقدر يقتضيه المقامُ أي فابتلُوا به فشرِبوا منه ﴿إلا قليلًا منهم﴾ وهم المشارُ إليهم فيما سلف بالاستثناء من التولي وقرئ[(٥)] «إلا قليلٌ منهم» ميلًا إلى جانب المعنىٰ وضربًا عن عُدوة اللفظِ جانبًا فإن قوله تعالى: ﴿فشربوا منه﴾ في قوة أن يقال: فلم يُطيعوه فحُقَّ أن يرد المستثنى مرفوعًا كما في قول الفرزدق: [الطويل]

وعضُّ زمانٍ يا ابنَ مروانَ لم يدَعْ من المال إلا مُسحَتٌ أو مُجلَّفُ[(٦)]

فإن قوله لم يدع في حكم لم يبق.

---

(١) البيت للعرجي في ديوانه، ص (١٠٩)، ولسان العرب (نقح)، (برد)، والتنبيه والإيضاح (١/ ٢٩٢)، (٢/ ١٠)، وتاج العروس (نقح)، (برد)، ولعمر بن أبي ربيعة في ديوانه ص (٣١٥)، وبلا نسبة في مقاييس اللغة (١/ ٢٤٣)، وديوان الأدب (١/ ١٠٢)، وتهذيب اللغة (١٤/ ١٠٥)، ويروى للحارث بن خالد المخزومي وهو في ديوانه ص (١١٧).

(٢) في المخطوط: الكروع.

(٣) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، ونافع، وابن عباس، ومجاهد، والأعرج، وأبان بن عثمان. ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٢٧٩)، والإملاء للعكبري (١/ ٦١).

(٤) في المخطوط: وادواته.

(٥) قرأ بها: عبد الله بن مسعود، وأبي والأعمش. ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ٦١)، والبحر المحيط (٢/ ٢٦٦)، والمعاني للأخفش (١/ ٤٠٤)، والمعاني للفراء (١/ ١٦٦)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٢٩٨).

(٦) البيت للفرزدق في ديوانه (٢/ ٢٦)، وجمهرة أشعار العرب ص(٨٨٠)، وجمهرة اللغة ص(٣٨٦، ١٢٥٩)، وخزانة الأدب (١/ ٢٣٧، ٨/ ٥٤٣)، والخصائص ١/ ٩٩)، ولسان العرب (سحت)، (جلف)، (ودع)، وبلا نسبة في الإنصاف (١/ ١٨٨)، وجمهرة اللغة ص (٤٨٧)، وشرح شواهد الإيضاح ص (٢٧٩)، وشرح المفصل (١/ ٣١)، (١٠/ ١٠٣)، والمحتسب (١/ ١٨٠)، (٢/ ٣٦٥).

﴿فلما جاوزه﴾ أي النهرَ ﴿هو﴾ أي طالوتُ ﴿والذين آمنوا معه﴾ عطفٌ على الضمير المتصلِ المؤكدِ بالمنفصل، والظرفُ متعلقٌ بجاوزَ لا بآمنوا وقيل: الواوُ حالية والظرفُ متعلقٌ بمحذوف وقع خبرًا من الموصول كأنه قيل: فلما جاوزه والحالُ أن الذين آمنوا كائنون معه وهم أولئك القليلُ وفيه إشارةٌ إلى أن مَنْ عداهم بمعزل من الإيمان.

﴿قالوا﴾ أي بعضُ مَنْ معه من المؤمنين لبعضٍ ﴿لا طاقةَ لنا اليومَ بجالوتَ وجنودِهِ﴾ أي بمحاربتهم ومقاومتِهم فضلًا عن أن يكونَ لنا غلبةٌ عليهم لما شاهدوا من الكثرة والشدة، قيل: كانوا مائةَ ألفِ مقاتلٍ شاكي السِّلاح.

﴿قال﴾ استئناف مبني على السؤال كأنه قيل: فماذا قال مخاطبُهم؟ فقيل قال: ﴿الذين يظنُّون أنهم مُلاقوا الله﴾ قيل: أي الخُلَّصُ منهم الذين [يوقنون بلقاءِ الله][(١)] تعالى بالبعث ويتوقّعون ثوابَه، وإفرادُهم بذلك الوصف لا ينافي إيمانَ الباقين فإن درجاتِ المؤمنين في التيقن والتوقع مُتفاوتةٌ أو الذين يعلمون أنهم يُستشهدون عما قريب فيلقَوْن الله تعالى.

وقيل: الموصولُ عبارةٌ عن المؤمنين كافةً والضميرُ في قالوا للمنخذِلين عنهم كأنهم قالوه اعتذارًا عن التخلُّف والنهرُ بينهما.

﴿كم من فئةٍ﴾ أي فِرْقة وجماعة من الناس من فَأَوْتُ رأسَه إذا شققتها أو من فاء إليه إذا رجَع فوزنُها على الأول فِعةٌ وعلى الثاني فِلَةٌ ﴿قليلةٍ غلبتْ فئةً كثيرةً﴾ وكم خبرية كانت أو استفهامية مفيدةٌ للتكثير وهي في حيز الرفع بالابتداء خبرُها غلبتْ أي كثيرٌ من الفئات القليلةِ غلبت الفئاتِ الكثيرةَ ﴿بإذن الله﴾ أي بحُكمه وتيسيرِه فإن دورانَ كافةِ الأمور على مشيئته تعالى فلا يذِلُّ من نصرَه وإن قل عددُه ولا يعِزُّ مَنْ خَذله وإن كثُرت أسبابُه وعُددُه وقد روُعيَ في الجواب نُكتةٌ بديعة حيث لم يقُلْ أطاقت بفئة كثيرةٍ حسبما وقع في كلام أصحابهم مبالغةً في رد مقالتِهم وتسكينِ قلوبهم، وهذا كما ترى جواب ناشئ من كمال ثقتِهم بنصر الله تعالى وتوفيقه ولا دخل في ذلك لظن لقاءِ الله تعالى بالبعث لا سيما بالاستشهاد فإن العلمَ به ربما يورِثُ اليأسَ من الغَلَبة ولا لتوقُّع ثوابِه تعالى ولا ريب في أن ما ذُكر في حيز الصلةِ ينبغي أن يكونَ مدارًا للحكم الواردِ على الموصول فلا أقلَّ من أن يكون وصفًا ملائمًا له، فلعل المرادَ بلقائه تعالى لقاءُ نصرِه وتأييدُه عُبر عنه بذلك مبالغةً كما عُبر عن مقارَنةِ نصرِه تعالى

(١) في المخطوط: يتيقنون.

لمعيَّته[١] سبحانه حيث قيل: ﴿والله مع الصابرين﴾ فإن المرادَ به معيّةُ نصرِه وتوفيقِه حتمًا، وحملُها على المعية بالإثابة كما فعل يأباه أنهم إنما قالوه تتميمًا لجوابهم وتأييدًا له بطريق الاعتراضِ التذييليِّ تشجيعًا لأصحابهم وتثبيتًا لهم على الصبر المؤدي إلى الغَلَبة، ولا تعلّقَ له بما ذكر من المعية بالإثابة قطعًا وكذا الحالُ إذا جُعل ذلك ابتداءَ كلامٍ من جهة الله تعالى جيء به تقريرًا لكلامهم، والمعنى قال الذين يظنون أو يعلمونَ من جهة النبي أو من جهة التابوتِ والسكينة أنهم ملاقو نصرِ الله العزيزِ: كم من فئةٍ قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله تعالى فنحن أيضًا نغلِبُ جالوتَ وجنودَه، وإيرادُ خبرِ أن اسمًا مع أن اللقاءَ مستقبلٌ للدَلالة على تقرره وتحققه.

﴿ولما برَزوا﴾ أي ظهر طالوتُ ومن معه من المؤمنين وصاروا إلى براز من الأرض في موطن الحرب ﴿لجالوتَ وجنودِه﴾ وشاهدوا ما هم عليه من العَدد والعُدد وأيقنوا أنهم غيرُ مطيقين لهم عادة ﴿قالوا﴾ أي جميعًا عند تقوّي قلوب الفريق الأول منهم بقول الفريق الثاني متضرعين إلى الله تعالى مستعينين به ﴿ربنا أفرِغْ علينا صبرًا﴾ على مقاساة شدائِد الحربِ واقتحامِ موارِدِه الصعبةِ الضيقة وفي التوسل بوصف الربوبية المُنبئ[٢] عن التبليغ إلى الكَمال وإيثارِ الإفراغِ المعرب عن الكثرة وتنكيرِ الصبر المفصح عن التفخيم من الجزالة ما لا يخفى.

﴿وثبِّتْ أقدامَنا﴾ في مداحض القتالِ ومزالِّ النزال وثباتُ القدم عبارةٌ عن كمال القوةِ والرسوخِ عند المقارعة وعدمِ التزلزل وقت المقاومة لا مجرد التقرّر في حيز واحد.

﴿وانصُرنا على القوم الكافرين﴾ بقهرهم وهزمِهم، ووضعُ الكافرين في موضع الضمير العائد إلى جالوتَ وجنودِه للإشعار بعِلة النصرِ عليهم، ولقد راعَوْا في الدعاء ترتيبًا بديعًا حيث قدموا سؤالَ إفراغِ الصبر الذي هو مِلاكُ الأمر ثم سؤالَ تثبيتِ القدم المتفرع عليه ثم سؤالَ النصرِ الذي هو الغاية القصوى.

﴿فهزموهم﴾ أي كسروهم بلا مكث ﴿بإذن الله﴾ بنصره وتأييده إجابةً لدعائهم، وإيثارُ هذه الطريقة على طريقة قوله عز وجل: ﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا﴾ [آل عمران، الآية ١٤٨] . . . إلخ للمحافظة على مضمون قولِهم: غلَبتْ فئةً كثيرةً بإذن الله.

﴿وقتل داودُ جالوتَ﴾ كان إيشىٰ أبو داودَ في عسكر طالوتَ معه ستةٌ من بنيه وكان داودُ عليه السلام سابعَهم وكان صغيرًا يَرعى الغنم فأوحى الله تعالى إلى نبيهم

---

(١) في المخطوط: بمقارنته.

(٢) في المخطوط: المنبئة.

أنه الذي يقتل جالوتَ فطلبه من أبيه فجاء، وقد مر في طريقه بثلاثة أحجار قال له كل منها: احمِلنا فإنك بنا تقتُل جالوتَ فحملها في مِخْلاته وقيل: لما أبطأ على أبيه خبرُ إخوته في المصافِّ أرسل داودُ إليهم ليأتيَه بخبرهم فأتاهم وهم في القراع وقد برز جالوتُ بنفسه إلى البراز ولا يكاد يبارزه أحدٌ وكان ظلُّه ميلًا فقال داودُ لإخوته: أما[1] فيكم من يخرجُ إلى هذا الأقلفِ! فزجروه فتنحّى[2] ناحية أخرى ليس فيها أخوتُه وقد مر به طالوتُ وهو يحرِّض الناسِ على القتال فقال له داودُ: ما تصنعون بمن يقتل هذا الأقلفَ؟ قال طالوتُ: أُنكِحُه ابنتي وأعطيه شطرَ مملكتي فبرز له داودُ فرماه بما معه من الأحجار بالمِقلاع فأصابه في صدره فنفذت[3] الأحجارُ منه وقتلت بعده ناسًا كثيرين[4].

وقيل: إنما كلمته الأحجارُ عند بروزه لجالوتَ في المعركة فأنجز له طالوتُ ما وعده وقيل: إنه حسده وأخرجه من مملكته ثم ندم على ما صنعه فذهب يطلبه إلى أن قُتل، ومُلِّك داودُ عليه السلام وأعطيَ النبوةَ وذلك قوله تعالى: ﴿وآتاه الله المُلكَ﴾ أي مُلكَ بني إسرائيلَ في مشارقِ الأرض المقدسةِ ومغاربِها ﴿والحِكمةَ﴾ أي النبوةَ ولم يجتمع في بني إسرائيلَ الملكُ والنبوةُ قبله إلا له بل كان الملكُ في سِبط والنبوة في سبط آخرَ وما اجتمعوا قبله على ملك قط.

﴿وعلمه مما يشاء﴾ أي مما يشاء الله تعالى تعليمَه إياه لا مما يشاء داودُ عليه السلام كما قيل لأن معظم ما علمه تعالى إياه مما لا يكاد يخطرُ ببال أحد ولا يقع في أمنية بشرٍ ليتمكنَ من طلبه ومشيئته كالسَّرَد بإلانةِ الحديد ومنطقِ الطير والدوابِّ ونحو ذلك من الأمور الخفية.

﴿ولولا دفعُ الله الناسَ بعضَهم﴾ الذين يباشرون الشر والفساد ﴿ببعضٍ﴾ آخرَ منهم بردِّهم عما هم عليه بما قدر الله تعالى من القتل كما في القصة المحكية أو غيره، وقرئ[5] «دِفاعُ الله» على أن صيغةَ المغالبة للمبالغة ﴿لفسدت الأرضُ﴾ وبطلت

---

(١) في المخطوط: ما.
(٢) في المخطوط: فنحا.
(٣) في المخطوط: فنفد.
(٤) في المخطوط: كثيرًا.
(٥) قرأ بها: نافع، وعاصم، وأبان، ويعقوب، وسهل، وأبو جعفر.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٢٧٩)، والإملاء للعكبري (١/ ٦١)، والبحر المحيط (٢/ ٢٦٩)، والتبيان للطوسي (٢/ ٢٩٩)، والتيسير للداني ص (٨٢)، وتفسير الطبري (٥/ ٣٧٦)، وتفسير القرطبي (٣/ ٢٥٩)، والحجة لابن خالويه ص (٩٩)، والحجة لأبي زرعة ص (١٤٠)، والسبعة لابن مجاهد ص (١٨٧)، والغيث للصفاقسي ص (١٦٨)، والكشف للقيسي (١/ ٣٠٤،٣٠٥)، =

منافعُها وتعطلت مصالحُها من الحرْث والنسل وسائر ما يعمُر الأرضَ ويُصلِحها.

وقيل: لولا أن الله ينصُر المسلمين على الكافرين[1] لفسدت الأرضُ بعيثهم وقتلهم المسلمين أو لو يدفعهم بالمسلمين لعم الكفر ونزلت السخطة فاستؤصلَ أهلُ الأرض قاطبة.

﴿ولكن الله ذو فضل﴾ عظيم لا يقادَر قدرُه ﴿على العالمين﴾ كافةً وهذا إشارةٌ إلى قياس استثنائي مؤلفٍ من وضع نقيضِ المقدّم المنتج لنقيض التالي خلا أنه قد وُضع موضعَه ما يستتبعه ويستوجبه أعني كونه تعالى ذا فضلٍ على العالمين إيذانًا بأنه تعالى متفضِّلٌ في ذلك الدفع من غير أن يجبَ عليه ذلك وأن فضلَه تعالى غيرُ منحصرٍ فيه بل هو فردٌ من أفراد فضلِه العظيم، كأنه قيل: ولكنه تعالى يدفع فسادَ بعضِهم ببعض فلا تفسُدُ الأرضُ وتنتظم به مصالِحُ العالمِ وتنصَلِحُ أحوالُ الأمم.

﴿تلك﴾ إشارة إلى ما سلف من حديث الألوفِ وخبرِ طالوتَ على التفصيل المرقومِ، وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو شأنِ المشارِ إليه ﴿آياتُ الله﴾ المنزلةُ من عنده تعالى، والجملةُ مستأنفة، وقوله تعالى: ﴿نتلوها عليك﴾ أي بواسطة جبريلَ عليه السلام إما حالٌ من الآيات والعاملُ معنى الإشارة وإما جملةٌ مستقلة لا محل لها من الإعراب.

﴿بالحقِّ﴾ في حيز النصبِ على أنه حالٌ من مفعول نتلوها أي ملتبسةً باليقين الذي لا يرتاب فيه أحد من أهل الكتاب وأربابِ التواريخ لما يجدونها موافقةً لما في كتبهم، أو من فاعلِه أي نتلوها عليك ملتبسين بالحق والصواب، أو من الضمير المجرور أي: ملتبسًا بالحق والصدق.

﴿وإنك لمن المرسلين﴾ أي من جملة الذين أُرسلوا إلى الأمم لتبليغ رسالاتِنا وإجراءِ أوامرِنا وأحكامنا عليهم فإن هذه المعاملةَ لا تجري بيننا وبين غيرهم فهي شهادة منه سبحانه برسالته عليه الصلاة والسلام إثرَ بيانِ ما يستوجبها، والتأكيدُ من مقتضيات مقامِ الجاحدين بها.

۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ

---

= المجمع للطبرسي (٢/ ٣٥٦)، المعاني للأخفش (١/ ١٨٠)، تفسير الفخر الرازي (٢/ ٣٠٢)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢٣٠).

(١) في المخطوط: الكفار.

بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ وَلَـٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾

﴿تلك الرسلُ﴾ استئنافٌ فيه رمزٌ إلى أنه عليه الصلاة والسلام من أفاضلِ الرسلِ العظام عليهم الصلاة والسلام إثرَ بيانِ كونِه من جملتهم والإشارةُ إلى الجماعة الذين من جملتهم النبيُّ ﷺ، فاللام في المآل للاستغراق وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو طبقتِهم وبُعدِ منزلتهم.

وقيل: إلى الذين ذُكرت قِصصُهم في السورة.

وقيل: إلى الذين ثبت علمُه ﷺ بهم ﴿فضّلنا بعضَهم على بعض﴾ في مراتب الكمالِ بأن خصَصْناه حسبما تقتضيه مشيئتُنا بمآثِرَ جليلةٍ خلا عنها غيرُه.

﴿منهم من كلّم الله﴾ تفصيلٌ للتفضيل المذكور إجمالًا أي فضله بأن كلّمهُ تعالى بغير سفيرٍ وهو موسى عليه الصلاة والسلام حيث كلمهُ تعالى ليلةَ الحَيْرة وفي الطور وقرئ[1] ﴿كلّم اللهَ﴾ بالنصب وقرئ[2] كالَمَ الله من المكالمة فإنه كلّم الله تعالى كما أنه تعالى كلمه، ويؤيده كليمُ الله بمعنى مكالمِه، وإيرادُ الاسم الجليلِ بطريق الالتفات لتربية المهابةِ، والرمزِ إلى ما بين التكليم والرفعِ[3] وبين ما سبَقَ من مطلق التفضيل وما ألحق من إيتاء البيناتِ والتأييدِ بروحِ القدسِ من التفاوت.

﴿ورفع بعضَهم درجاتٍ﴾ أي ومنهم من رفعه على غيره من الرسل المتفاوتين في معارجِ الفضل بدرجات قاصيةٍ ومراتبَ نائيةٍ، وتغييرُ الأسلوب لتربية ما بينهم من

---

(١) ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ٦٢)، والبحر المحيط (٢/ ٢٧٣)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٣٠٨).

(٢) قرأ بها: أبو المتوكل، وأبو نهشل، وابن السميفع اليماني.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ٦٢)، والبحر المحيط (٢/ ٢٧٣)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٣٠٨).

(٣) في المخطوط: والترفع.

اختلاف الحالِ في درجات الشرفِ، والظاهرُ أنه رسولُ الله ﷺ كما ينبئ عنه الإخبارُ بكونه عليه الصلاة والسلام منهم فإن ذلك في قوة بعضهم فإنه [قد][1] خُصَّ بالدعوة العامة والحُجج الجمة والمعجزاتِ المستمرة والآياتِ المتعاقبة بتعاقُب الدهور والفضائلِ العلمية والعمليةِ الفائتة للحصر، والإبهامُ لتفخيم شأنه وللإشعار بأنه العلَمُ الفردُ الغنيُّ عن التعيين وقيل: إنه إبراهيمُ عليه الصلاة والسلام حيث خصه تعالى بكرامة الخُلّة وقيل: إدريسُ عليه السلام حيث رفعه مكانًا عليًا وقيل: أوُلو العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام.

﴿وآتينا عيسى ابنَ مريمَ البيِّنات﴾ الآياتِ الباهرةَ والمعجزاتِ الظاهرةَ من إحياء الموتى وإبراءِ الأكمة والأبرصِ والإخبارِ بالمغيّبات، أو الإنجيلَ ﴿وأيدناه﴾ أي قويناه ﴿بروح القدُسِ﴾ بضم الدال وقرئ[2] بسكونها أي بالروح المقدسة كقولك: رجلُ صِدْقٍ وهي روحُ عيسى وإنما وصفت بالقدس للكرامة أو لأنه عليه السلام لم تضمَّه الأصلابُ والأرحامُ الطوامث.

وقيل: بجبريلَ [عليه السلام][3] وقيل: بالإنجيلِ كما مر، وإفرادُه عليه السلام بما ذكر لرد ما بين أهلِ الكتابين في شأنه عليه السلام من التفريط والإفراط، والآيةُ ناطقة بأن الأنبياءَ [عليهم السلام][4] متفاوتةُ الأقدار، فيجوزُ تفضيلُ بعضِهم على بعض ولكن بقاطع.

﴿ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم﴾ أي جاءوا من بعد الرسلِ من الأمم المختلفة أي لو شاء الله عدمَ اقتتالهم ما اقتتلوا بأن جعلَهم متفقين على اتباع الرسلِ المتفقةِ على كلمة الحقِّ فمفعولُ المشيئةِ محذوفٌ لكونه مضمونَ الجزاءِ على القاعدة المعروفة وقيل: تقديرُه ولو شاء هدى الناس جميعًا ما اقتتل . . . إلخ وليس بذاك ﴿من بعد ما جاءتهم﴾ من جهة أولئك الرسلِ ﴿البيناتُ﴾ المعجزاتُ الواضحةُ والآياتُ الظاهرة الدالةُ على حقية الحقِّ الموجبةِ لاتباعهم، الزاجرةُ عن الإعراض عن سَننهم المؤدِّي إلى الاقتتال فـ (مِنْ) متعلقةٌ بـ (اقتتل).

﴿ولكن اختلفوا﴾ استدراك من الشرطية أُشير به إلى قياس استثنائي مؤلفٍ من

---

(١) سقط في المخطوط.

(٢) قرأ بها: ابن كثير.
ينظر: الغيث للصفاقسي ص (١٦٩).

(٣) سقط في ط.

(٤) سقط في المخطوط.

وضع نقيض مقدّمها المنتج لنقيض تاليها إلا أنه قد وُضع فيه الاختلافُ موضعَ نقيضِ المقدم المترتب عليه للإيذان بأن الاقتتالَ ناشئ من قِبَلهم لا من جهته تعالى ابتداءً كأنه قيل: ولكن لم يشأ عدمَ اقتتالِهم لأنهم اختلفوا اختلافًا فاحشًا ﴿فمنهم مَنْ آمنَ﴾ أي: بما جاءت به أولئك الرسلُ من البينات وعمِلوا به ﴿ومنهم مَنْ كفر﴾ بذلك كفرًا لا ارعواءَ له عنه فاقتضت الحِكمةُ عدمَ مشيئتِه تعالى لعدم اقتتالِهم فاقتتلوا بموجبِ اقتضاءِ أحوالِهم ﴿ولو شاء الله﴾ عدمَ اقتتالهم بعد هذه المرتبة أيضًا من الاختلاف والشقاق المستتبعين للاقتتال بحسب العادة.

﴿ما اقتتلوا﴾ وما نبَض منهم عِرقُ التطاول والتعادي لما أن الكل تحت ملَكوتِه تعالى، فالتكريرُ ليس للتأكيد كما ظُن بل للتنبيه على أن اختلافهم ذلك ليس موجبًا لعدم مشيئته تعالى لعدم اقتتالهم كما يفهم ذلك من وضعه في الاستدراك موضعه بل هو سبحانه مختار في ذلك حتى لو شاء بعد ذلك عدم اقتتالهم ما اقتتلوا كما يفصح عنه الاستدراك بقوله عز وجل: ﴿ولكن الله يفعل ما يريد﴾ أي من الأمور الوجودية والعدمية التي من جملتها عدم مشيئته عدم اقتتالهم فإن الترك أيضًا من جملة الأفعال أي يفعل ما يريد حسبما يريد من غير أن يوجبه عليه موجب أو يمنعه منه مانع وفيه دليل بيّن على أن الحوادث تابعة لمشيئته سبحانه خيرًا كان أو شرًا إيمانًا كان أو كفرًا.

﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا﴾ في سبيل الله ﴿مما رزقناكم﴾ أي شيئًا مما رزقناكموه على أن (ما) موصولة حُذف عائدُها، والتعرضُ لوصوله منه تعالى للحث على الإنفاق كما في قوله تعالى: ﴿وأنفِقوا مما جعلكم مُستخلفين فيه﴾ [الحديد، الآية: ٧] والمرادُ به الإنفاقُ الواجبُ بدلالة ما بعده من الوعيد ﴿من قبلِ أن يأتيَ يومٌ لا بيعٌ فيه ولا خُلةٌ ولا شفاعة﴾ كلمةُ (مِن) متعلقةٌ بما تعلقت به أختها ولا ضير فيه لاختلاف معنييهما فإن الأولىٰ تبعيضيةٌ وهذه لابتداء الغايةِ أي أنفِقوا بعضَ ما رزقناكم من قبل أنْ يأتيَ يومٌ لا تقدِرون على تلافي ما فرّطتم فيه إذ لا تبايُعَ فيه حتى تتبايعوا ما تُنفقونه أو تفتدون به من العذاب ولا خُلةٌ حتى يسامحَكم به أخلاؤكم أو يُعينوكم عليه ولا شفاعةٌ إلا لمن أذِنَ له الرحمٰنُ ورضِيَ له قولًا حتى تتوسلوا بشفعاءَ يشفعون لكم في حطّ ما في ذمتكم، وإنما رُفعت الثلاثةُ مع قصد التعميم لأنها في التقدير جوابُ هل فيه بيعٌ أو خلةٌ أو شفاعةٌ وقرئ[1] بفتح الكل.

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب، وابن محيصن، والحسن، واليزيدي.

﴿والكافرون﴾ أي والتاركون للزكاة، وإيثارُه عليه للتغليظ والتهديد كما في قوله تعالى: ﴿ومَنْ كَفَر﴾ [آل عمران: ٩٧] مكانَ ومَنْ لم يحُجّ وللإيذان بأن تركَ الزكاة من صفات الكفار قال الله تعالى: ﴿وويل للمشركين الذين لا يُؤتون الزكاةَ﴾ [فصلت، الآية: ٧].

﴿هم الظالمون﴾ أي الذين ظلموا أنفسَهم بتعريضها للعقاب ووضعوا المالَ في غير موضعِه وصرفوه إلى غير وجهه.

﴿الله لا إلٰه إلا هوَ﴾ مبتدأٌ وخبرٌ أي هو المستحِقُّ للمعبودية لا غير، وفي إضمار خبرِ لا مِثلَ في الوجود أو يصِح أن يوجد خلاف للنحاة معروفٌ ﴿الحيُّ﴾ الباقي الذي لا سبيل عليه للموت والفناء، وهو إما خبرٌ ثانٍ أو خبرُ مبتدأ محذوفٍ أو بدل من «لا إلٰه إلا هو»، أو بدلٌ من الله أو صفة له، ويعضُده القراءة[1] بالنصب على المدح لاختصاصه بالنعت ﴿القيومُ﴾ فَيْعولٌ، من قام بالأمر إذا حفِظه أي دائمُ القيام بتدبير الخلق وحفظه، وقيل: هو القائمُ بذاته المقيمُ لغيره.

﴿لا تأخُذه سِنةٌ ولا نومٌ﴾ السِنةُ ما يتقدم النومَ من الفتور قال عديُّ بنُ الرقاعِ العاملي[2]: [الكامل]

وَسْنانُ أقصده النعاسُ فرنَّقتْ ... في عينه سِنةٌ وليس بنائم[3]

والنومُ حالةٌ تعرِضُ للحيوان من استرخاء أعصابِ الدماغ من رُطوبات الأبخرة المتصاعدة بحيث تقِف المشاعرُ الظاهرةُ عن الإحساس رأسًا والمرادُ بيان انتفاءِ اعتراءِ شيءٍ منهما له سبحانه لعدم كونهما من شأنه تعالى لا لأنهما قاصران بالنسبة

---

= ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (١٣٥)، والإعراب للنحاس (١/ ٢٨٢)، والبحر المحيط (٢/ ٢٧٦)، والتبيان للطوسي (٢/ ٣٠٥)، والتيسير للداني ص (٨٢)، تفسير القرطبي (٣/ ٢٦٦)، والحجة لابن خالويه ص (٩٩)، والحجة لأبي زرعة ص (١٤١)، والسبعة لابن مجاهد ص (١٨٧)، والغيث للصفاقسي ص (١٦٩)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٥٣)، والكشف للقيسي (١/ ٣٠٥، ٣٠٦)، المجمع للطبرسي (٢/ ٣٥٩)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٣١١)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢١١).

(١) ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ٦٢)، والبحر المحيط (٢/ ٢٧٧).

(٢) هو: عدي بن زيد بن مالك بن عدي بن الرقاع، شاعر كبير، من أهل دمشق، يكنى أبا داود، كان معاصرًا لجرير، مهاجيًا له، له ديوان شعر. توفي نحو سنة خمس وتسعين هـ.
ينظر: الأغاني (٨/ ١٧٢- ١٧٧)، ورغبة الآمل (٥/ ٢١٢).

(٣) البيت في ديوانه ص(١٠٠)، ولسان العرب (نعس)، (رنق)، (وسن)، وتاج العروس (نعس)، (رنق)، (وسن)، وتهذيب اللغة (٢/ ١٠٥)، (١٣/ ٧٨)، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص(٨٦٣).

إلى القوة الإلٰهية فإنه بمعزل من مقام التنزيهِ فلا سبيلَ إلى حمل النظم الكريمِ على طريقة المبالغةِ والترقي بناءً على أن القادرَ على دفع السِنة قد لا يقدرُ على دفع النوم القويِّ كما في قولك: فلانٌ يقِظٌ لا تغلِبُه سِنةٌ ولا نوم وإنما تأخيرُ النوم للمحافظة على ترتيب الوجودِ الخارجي، وتوسيطُ كلمةِ لا للتنصيص على شمول النفي لكلٍّ منهما كما في قوله عز وجل: ﴿ولا ينفقون نفقةً صغيرةً ولا كبيرة﴾ [التوبة، الآية: ١٢١]. وأما التعبيرُ عن عدم الاعتراءِ والعُروضِ بعدم الأخذ فلمراعاة الواقع إذ عُروضُ السِنةِ والنومِ لمعروضهما إنما يكون بطريق الأخذِ والاستيلاء.

وقيل: هو من باب التكميل، والجملةُ تأكيدٌ لما قبلها من كونه تعالى حيًّا قيّومًا فإن مَنْ يعتريه أحدُهما يكونُ موقوفَ[1] الحياةِ قاصرًا في الحفظ والتدبيرِ.

وقيل: استئنافٌ مؤكدٌ لما سبق وقيل: حال مؤكدةٌ من الضمير المستكِّن في القيوم.

﴿له ما في السمٰوات وما في الأرض﴾ تقريرٌ لقيّوميّته تعالى واحتجاجٌ به على تفرّده في الألوهية، والمرادُ بما فيهما ما هو أعمُّ من أجزائهما الداخلةِ فيهما ومن الأمور الخارجةِ عنهما المتمكّنة فيهما من العقلاء وغيرهم.

﴿من ذا الذي يشفَعُ عنده إلا بإذنه﴾ بيانٌ لكبرياء شأنه وأنه لا يدانيه أحدٌ ليقدِر على تغيير ما يريده شفاعةً وضراعةً فضلًا عن[2] أن يُدافعه عِنادًا أو مُناصبةً.

﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ أي ما قبلهم وما بعدهم أو بالعكس لأنك مستقبِلُ المستقبَل ومستدبِرُ الماضي، أو أمورَ الدنيا أو أمورَ الآخرة أو بالعكس أو ما يُحسّونه، وما يعقِلونه أو ما يدركونه وما لا يدركونه، والضميرُ لما في السمٰوات والأرض بتغليب ما فيهما من العقلاء على غيرهم أو لما دل عليه من ذا الذي من الملائكة والأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

﴿ولا يُحيطون بشيء من علمه﴾ أي من معلوماته ﴿إلا بما شاء﴾ أن يعلموه، وعطفُه على ما قبله لما أنهما جميعًا دليلٌ على تفرّده تعالى بالعلم الذاتي التامِّ الدالِّ على وحدانيته [تعالى][3].

﴿وسِعَ كُرسيُّه السمٰواتِ والإرضَ﴾ الكرسي ما يُجلَس عليه ولا يفضُلُ عن مقعد القاعد، وكأنه منسوبٌ إلى الكِرْس الذي هو المُلبَّد، وليس ثمةَ كُرسيٌّ ولا قاعدٌ ولا

---

(١) في المخطوط: مؤف.
(٢) في المخطوط: من.
(٣) سقط في ط.

قُعود وإنما هو تمثيل لعظمةِ شأنه[(١)] عز وجل وسَعة سلطانه وإحاطةِ علمه بالأشياء قاطبةً على طريقة قوله عز قائلًا: ﴿وما قدَروا الله حقَّ قدرِه والأرضُ جميعًا قبضتُه يومَ القيامة والسمٰواتُ مطوياتٌ بيمينه﴾ [الزمر، الآية: ٦٧] وقيل: كرسيُّه مجازٌ عن علمِه أخذًا من كرسيِّ العالِم وقيل: عن مُلكه أخذًا من كرسيّ المُلك فإن الكرسيَّ كلما كان أعظمَ تكون عظمةُ القاعدِ أكثرَ وأوفرَ فعبر عن شمول علمه أو[(٢)] بسطةِ ملكه وسلطانِه بسَعة كرسيِّه وإحاطته بالأقطار العلوية والسفلية وقيل: هو جِسمٌ بين يدي العرشِ محيطٌ بالسمٰوات السبْع لقوله ﷺ: «ما السمٰواتُ السبعُ والأرضونَ السبعُ مع الكرسي إلا كحلقةٍ في فلاة وفضلُ العرشِ على الكرسيِّ كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة»[(٣)] ولعله الفلَكُ الثامن.

---

(١) ولذلك قال العلامة التفتازاني: إنه من باب إطلاق المركب الحسي المتوهم على المعنى العقلي المحقق، وفي القاموس ما يقتضي أن إطلاق الكرسي على العلم حقيقة فحينئذٍ لا حاجة للتجوز المذكور، وقال ابن عباس: كرسيه: علمه، ورجحه الطبري، وقيل: كرسيه قدرته التي يمسك بها السماوات والأرض، كما تقول اجعل لهذا الحائط كرسيًّا أي ما يعمده.
ينظر: الفتوحات الإلهية (١/ ٢٠٨) وهو ملخص لكثير من الآراء.

(٢) زاد في المخطوط: عن بسط.

(٣) أخرجه ابن مردويه في «تفسيره» كما في تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير (٢/ ٤٤٢- ٤٤٣) من طريق محمد بن أبي السري أخبرنا محمد بن عبد الله التميمي عن القاسم بن محمد الثقفي عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر الغفاري به. وهذا إسناد ضعيف.
ومحمد بن أبي السرى: قال أبو حاتم: لين الحديث، وقال ابن عدي: كثير الغلط وقال مسلمة بن القاسم : كثير الوهم لاب أس به.
ووثقه ابن معين وابن حبان
وينظر «تهذيب التهذيب» (٩/ ٤٢٥)
ومحمد بن عبد الله التميمي لم أجد من ترجمه.
والقاسم بن محمد الثقفي مجهول كما في «التقريب».
وللحديث طريق آخر عن أبي إدريس الخولاني:
فأخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (٢٥٩) وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٦٦) والبيهقي في «الأسماء والصفات»، ص (٥١١) من طريق إبراهيم بن هشام بن يحيى الدمشقي حدثني أبي عن جدي عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر به.
إبراهيم بن هشام:
قال أبو حاتم الرازي: كذاب
وقال علي بن الحسين بن الجنيد: لا يحدث عنه
وينظر «ميزان الاعتدال» (١/ ٧٢) ولسان الميزان (١/ ١٢٢).
وللحديث طريق آخر:

=

وعن الحسن البصريّ أنه العرش[1].

﴿ولا يؤُدُه﴾ أي لا يُثقِله ولا يشُقُّ عليه ﴿حفظُهما﴾ أي حفظُ السموٰات والأرضِ وإنما لم يتعرَّضْ لذكر ما فيهما لما أن حفظهما مستتبعٌ لحفظه ﴿وهو العليُّ﴾ المتعالي بذاته عن الأشباه والأنداد ﴿العظيم﴾ الذي يُستحْقَر بالنسبة إليه كلُّ ما سواه ولما ترى من انطواء هذه الآيةِ الكريمةِ على أمهات المسائل الإلٰهية المتعلقةِ بالذات العليةِ والصفاتِ الجلية فإنها ناطقةٌ بأنه تعالى موجودٌ متفردٌ بالإلٰهية متصفٌ بالحياة واجبُ الوجود لذاته موجدٌ لغيره لما أن القيومَ هو القائمُ بذاته المقيمُ لغيره منزَّهٌ عن التحيز والحلول مبرأٌ عن التغير والفتور، لا مناسبةَ بينه وبين الأشباح ولا يعتريه ما يعتري النفوسَ والأرواحَ مالكُ المُلك والملكوتِ ومُبدعُ الأصولِ والفروع، ذو البطش الشديد لا يشفَع عنده إلا من أذِن له فيه، العالِمُ وحده بجميع الأشياء جليِّها وخفيِّها كليِّها وجزئيِّها واسعُ الملك والقدرة لكل ما من شأنه أن يُملَكَ ويُقدَرَ عليه لا يشُقّ عليه شاقٌّ ولا يشغَلُه شأنٌ عن شأن، متعالٍ عما تناله الأوهامُ، عظيمٌ لا تُحدق به الأفهام، تفردت بفضائلَ رائقةٍ وخواصَّ فائقة خلت عنها أخواتُها.

قال ﷺ: «إن أعظمَ آيةٍ في القرآن آيةُ الكرسي. من قرأها بعث الله تعالى ملِكًا يكتُب من حسناته ويمحو من سيئاته إلى الغد من تلك الساعة»[2].

وقال عليه الصلاة والسلام: «ما قُرئت هذه الآيةُ في دار إلا هجرتْها الشياطينُ ثلاثين يومًا ولا يدخُلها ساحرٌ ولا ساحرةٌ أربعينَ ليلةً»[3].

---

= أخرجه محمد بن أبي شيبة في «كتاب العرش» (٥٨) من طريق المختار بن غسان العبدي عن إسماعيل بن مسلم عن أبي إدريس عن أبي ذر به.
وإسماعيل بن مسلم هو المكي وهو ضعيف جدا.
والمختار قال الحافظ في «التقريب» مقبول.
وللحديث طريقان آخران عن أبي ذر ذكرهما الشيخ الألباني في «الصحيحة». رقم (١٠٩) وقال: جملة القول أن الحديث بهذه الطرق صحيح. اهـ.

(١) أخرجه الطبري (٣/ ١٢) رقم (٥٧٩٦) عن الحسن.

(٢) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (١/ ٣٠٠) من طريق إسماعيل بن يحيى بن عبيد الله عن ابن جريج عن أبي الزبير عن جابر به.
وإسماعيل بن يحيى بن عبيد الله التميمي:
قال ابن عدي: يحدث عن الثقات بالبواطيل
وأخرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ٣٩٦) رقم (٤٧٧) من طريق ابن عدي، وقال السيوطي في «اللآلئ المصنوعة» (١/ ٢٣٢): باطل، آفته إسماعيل.

(٣) بيض له الزيلعي في «تخريج الكشاف» (١/ ١٦٠) وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده. انتهى.

وقال: «يا عليُّ علِّمْها ولدَك وأهلَك وجيرانَك فما نزلت آيةٌ أعظمُ منها»[١].

وقال عليه السلام: «مَنْ قرأ آيةَ الكرسيِّ في دُبُرِ كلِّ صلاة مكتوبةٍ لم يمنعْه من دخول الجنةِ إلا الموتُ ولا يواظِبُ عليها إلا صدِّيق أو عابدٌ ومن قرأها إذا أخذ مضجعَه أَمَّنَه الله تعالى على نفسه وجارِه، وجار جاره، والأبياتِ حوله»[٢].

---

(١) هو جزء من الحديث السابق.

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٤٥٨) برقم (٢٣٩٥) عن الحاكم بسنده عن نهشل بن سعيد عن أبي إسحاق الهمداني عن حبة العرني عن علي بن أبي طالب مرفوعًا.
وقال البيهقي: إسناده ضعيف.
ومن طريق البيهقي أخرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ٢٤٣) لكن وقع عنده عن عبد العزى عن علي وهو تصحيف وقع عند ابن الجوزي لذا قال عقب الحديث: هذا حديث لا يصح: عبد العزى لا يعرف، ونهشل قد كذبه أبو داود الطيالسي وابن راهويه، وقال الرازي والنسائي: هو متروك، وقال ابن حبان: لا يحل كتب حديثه إلا على سبيل التعجب. ا هـ.
قلت: وحبة العرني هو حبة بن جوين بن علي العرني.
قال ابن معين والجوزجاني: غير ثقة.
وقال النسائي: ليس بالقوي.
وقال ابن خراش: ليس بشيء.
ووثقه ابن حبان والعجلي.
وقال الحافظ في «التقريب»: صدوق.
وهذا يخالف ما كتبه في «الكشاف» حيث أعل حديث علي بن أبي طالب فقال: وفي إسناده نهشل بن سعيد وهو متروك، وكذلك حبة العرني. ا هـ.
وللحديث شاهد من حديث أنس.
أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٤٥٨- ٤٥٩) رقم (٢٣٩٦) عن الحاكم بسنده عن عبد الله بن عبد الرحمن اليمامي عن سالم الخياط عن الحسن والمختار عن أنس به.
وقال البيهقي إسناده ضعيف. ا هـ.
ولصدر الحديث شاهد قوي من حديث أبي أمامة.
أخرجه النسائي في «الكبرى» (٦/ ٣٠) كتاب عمل اليوم والليلة: باب ثواب من قرأ آية الكرسي حديث (٩٩٢٨) من طريق الحسين بن بشر عن محمد بن حمير عن محمد بن زياد الألهاني عن أبي أمامة مرفوعًا.
وقال المنذري في «الترغيب» (٢/ ٤٤٨): رواه النسائي والطبراني بأسانيد أحدها صحيح وقال شيخنا أبو الحسن: هو على شرط البخاري وأخرجه ابن حبان في كتاب الصلاة وصححه. أ.هـ. وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٠٥).
وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط بأسانيد، وأحدها جيد. ا هـ.
قلت: وقد غفل ابن الجوزي غفلة شديدة فأخرج هذا الحديث في «الموضوعات» (١/ ٢٤٤) من طريق الدارقطني بسنده حدثنا هارون بن زياد النجار وعلى بن صدقة الأنصاري، قالا: حدثنا =

وقال عليه الصلاة والسلام: «سيدُ البشر آدمُ وسيد العربِ محمدٌ ولا فخرٌ وسيدُ الفُرس سلمانُ[١] وسيدُ الرومِ صُهيبٌ وسيدُ الحبشةِ بلالٌ وسيد الجبال الطورُ وسيدُ الأيام يومُ الجمعة[٢] وسيدُ القرآنِ سورةُ البقرة وسيدُ البقرةِ آيةُ الكرسي»[٣].

---

= محمد بن حميرية.
وقال: قال الدارقطني: غريب من حديث الألهاني تفرد به محمد بن حمير عنه، قال يعقوب بن سفيان: ليس بالقوى. أ.هـ.
وقد تعقبه السيوطي في «اللآلئ المصنوعة» (١/ ٢٣٠- ٢٣١) فقال: كلا بل قوي ثقة من رجال البخاري، والحديث صحيح على شرطه وقد أخرجه النسائي وابن حبان في صحيحه وابن السني في عمل اليوم والليلة وصححه أيضًا الضياء المقدسي في المختارة وقال الحافظ ابن حجر في تخريج المشكاة: غفل ابن الجوزي فأورد هذا الحديث في الموضوعات وهو من أسمج ما وقع له، وقال الحافظ شرف الدين الدمياطي في جزء جمعه في تقوية هذا الحديث: محمد بن حمير القضاعي الحمصي كنيته أبو عبد الحميد احتج به البخاري في صحيحه وكذلك محمد بن زياد الألهاني أبو سفيان الحمصي احتج به البخاري أيضًا... ا هـ.
ولتمام كلام السيوطي يراجع اللآلئ فله كلام طيب على هذا الحديث إلا أننا لنا مؤاخذة واحدة على كلامه وهي أنه عزا حديث أبي أمامة إلى ابن حبان في صحيحه وهو وهم حيث إن ابن حبان روى هذا الحديث في كتاب الصلاة- كتاب منفصل له- نص على هذا المنذري في «الترغيب»كما تقدم.
وللحديث شاهد أيضا من حديث المغيرة. أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٢١) من طريق مكي بن إبراهيم ثنا هاشم بن هاشم عن عمر بن إبراهيم عن محمد بن كعب عن المغيرة بن شعبة مرفوعًا».
وقال أبو نعيم: حديث غريب من حديث المغيرة تفرد به هاشم بن هاشم عن عمر عن محمد ما كتبناه عاليا إلا من حديث مكي.
قال السيوطي في «اللآلئ» (١/ ٢٣١): وقال الحافظ شرف الدين الدمياطي: مكي وهاشم ومحمد بن كعب اتفقا على الاحتجاج بهم وعمر بن إبراهيم أبو حفص العبدي البصري احتج به الترمذي والنسائي وابن ماجه. وقال فيه يحيى بن معين ثقة، وقال: عبد الصمد بن عبد الوارث ثقة وفوق الثقة. أ.هـ.
وللحديث شواهد أخرى يراجع لها اللآلئ المصنوعة (١/ ٢٣٠- ٢٣٣).

(١) هو: سلمان الفارسي، أبو عبد الله، ابن الإسلام: له ستون حديثًا، أسلم مقدَم النبي ﷺ المدينةَ، وشهِد الخندق. قال الحسن: كان سلمان أميرًا على ثلاثين ألفًا، يخطب بهم في عباءة يفترش نصفها، ويلبس نصفها، وكان يأكل من سعف يده، توفي في خلافة عثمان، وقال أبو عبيدة: سنة ست وثلاثين هـ عن ثلاثمائة وخمسين سنة.
ينظر: خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (١/ ٤٠١)، تهذيب التهذيب (١/ ٣١٥)، أسد الغابة (٢/ ٤١٧).
(٢) زاد في المخطوط: وسيد الكلام القرآن.
(٣) ذكره الزيلعي في «تخريج الكشاف» (١/ ١٦١-١٦٢) وقال : ذكره أبو شجاع الديلمي في كتاب الفردوس من حديث علي مرفوعًا. =

وتخصيصُ سيادته ﷺ للعرب بالذكر في أثناء تعدادِ السيادات الخاصةِ لا يدل على نفي ما دلت عليه الأخبارُ المستفيضةُ وانعقد عليه الإجماعُ من سيادته عليه السلام لجميع أفرادِ البشر.

﴿لا إكراهَ في الدين﴾ جملةٌ مستأنفة جِيء بها إثرَ بيانِ تفرُّدِه سبحانه وتعالى بالشؤون الجليلةِ الموجبةِ للإيمان به وحده إيذانًا بأن مِنْ حق العاقلِ ألا يحتاجَ إلى التكليف والإلزام بل يختارُ الدينَ الحقَّ من غير ترددٍ وتلعثم وقيل: هو خبرٌ في معنى النهي أي لا تُكرِهوا في الدين فقيل: منسوخٌ بقوله تعالى: ﴿جاهدِ الكفارَ والمنافقين واغلُظْ عليهم﴾ [التوبة: ٧٣، التحريم: ٩].

وقيل: خاصٌّ بأهل الكتاب حيث حصَّنوا أنفسَهم بأداءِ الجزية ورُوي أنه كان لأنصاريٍّ من بني سالم بن عوفٍ ابنان قد تنصّرا قبل مبعثه عليه السلام ثم قدِما المدينة فلزمهما أبوهما وقال: والله لا أدَعُكما حتى تُسلما فأَبَيا فاختصموا إلى رسول الله ﷺ فنزلت فخلاّهما[١].

﴿قد تبيّن الرشدُ من الغيّ﴾ استئنافٌ تعليلي صُدّر بكلمة التحقيقِ لزيادة تقريرِ مضمونِه كما في قوله عز وجل: ﴿قد بلغتَ من لدنيّ عُذرًا﴾ [الكهف، الآية: ٧٦] أي إذ قد تبين بما ذُكر من نعوته تعالى التي يمتنع توهُّمُ اشتراكِ غيرِه في شيء منها الإيمانُ الذي هو الرشدُ الموصل إلى السعادة الأبدية من الكفر الذي هو الغيُّ المؤدي إلى الشقاوة السرمدية.

﴿فمن يكفُرْ بالطاغوت﴾ هو بناءُ مبالغة من الطغيان كالمَلَكوت والجَبَروت قُلب مكانُ عينه ولامِه فقيل: هو في الأصل مصدر وإليه ذهب الفارسيُّ وقيل: اسمُ جنسٍ مُفرَدٍ مذكر، وإنما الجمعُ والتأنيثُ لإرادة الآلهةِ وهو رأيُ سيبويه، وقيل: هو جمعٌ وهو مذهبُ المبرِّد وقيل: يستوي فيه المُفرَد[٢] والجمعُ والتذكيرُ والتأنيثُ أي فمن

---

= وذكره السيوطي في «الجامع الصغير» (٤٧٥٤- فيض) وعزاه للديلمي في مسند الفردوس ورمز له بالضعف وقال المناوي في «الفيض» (٤/ ١٢٣): وفيه محمد بن عبد القدوس عن مجالد بن سعيد ومحمد قال الذهبي مجهول، ومجالد قال أحمد: ليس بشيء وضعفه غيره، ورواه أيضًا ابن السني، وعنه تلقاه الديلمي مصرحًا فلو عزاه للأصل لكان أولى أ.هـ والحديث ذكره أيضا الهندي في «كنز العمال» (٣٢٢٧٠) وعزاه إلى الديلمي في «مسند الفردوس».

(١) أخرجه الطبري (٥/ ٤١٠) رقم (٥٨١٩) عن ابن عباس.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٥٨٣) عن ابن عباس وعزاه لابن إسحاق والطبري.
وينظر «معالم التنزيل» (١/ ٢٤٠).

(٢) في المخطوط: الإفراد.

يعملْ إثرَ ما تميز الحقُّ من الباطل بموجب الحُججِ الواضحةِ والآياتِ البينة ويكفرْ بالشيطان أو بالأصنام أو بكل ما عُبد من دون الله تعالى أو صَدَّ عن عبادته سبحانه تعالى لِما تبيّن له كونُه بمعزل من استحقاق العبادة.

﴿ويؤمنْ بالله﴾ وحدَه لِما شاهد من نعوتِه الجليلةِ المقتضيةِ لاختصاص الألوهيةِ به عز وجل الموجبةِ للإيمان والتوحيدِ، وتقديمُ الكفرِ بالطاغوت على الإيمان به تعالى لتوقفه عليه فإن التخليةَ متقدّمةٌ على التحلية ﴿فقد استمسك بالعُروة الوثقىٰ﴾ أي بالغَ في التمسُّك بها كأنه وهو ملتبسٌ به يطلُبُ من نفسه الزيادةَ فيه والثباتَ عليه.

﴿لا انفصامَ لها﴾ الفصْم الكسرُ بغير صوت[1] كما أن القَصْم هو الكسرُ بصوت، ونفيُ الأول يدل على انتفاءِ الثاني بالأولوية، والجملةُ إما استئنافٌ مقرِّر لما قبلها من وَثاقة العُروة وإما حالٌ من العروة والعاملُ استمسك أو من الضمير المستتر في الوثقى ولها في حيز الخبر، أي كائن لها والكلامُ تمثيلٌ[2] مبنيٌّ على تشبيه الهيئة العقليةِ المنتزَعةِ من ملازمة الاعتقادِ الحقِّ الذي لا يحتمل النقيضَ أصلًا لثبوته بالبراهين النيِّرة القطعية - بالهيئة الحِسّية المنتزَعه من التمسُّك بالحبل المُحْكَم المأمونِ انقطاعُه فلا استعارةَ في المفردات ويجوز أن تكونَ العُروةُ الوثقى مستعارةً للاعتقاد الحقِّ الذي هو الإيمانُ والتوحيدُ لا للنظر الصحيح المؤدّي إليه كما قيل فإنه غيرُ مذكورٍ في حيز الشرط، والاستمساكُ بها مستعارًا لِما ذكر من الملازمة أو ترشيحًا للاستعارة الأولى.

﴿والله سميعٌ﴾ بالأقوال ﴿عليم﴾ بالعزائم والعقائدِ، والجملةُ اعتراضٌ تذييلي حاملٌ على الإيمان رادِعٌ عن الكفر والنفاق بما فيه من الوعد والوعيد.

﴿الله وليُّ الذين آمنوا﴾ أي مُعينُهم أو متولي أمورهم، والمرادُ بهم الذين ثبتَ ففي علمه تعالى إيمانُهم في الجملة مآلًا أو حالًا ﴿يُخرجهم﴾ تفسيرٌ للولاية أو خبرٌ ثانٍ عند من يجوِّز كونَه جملةً أو حال من الضمير في وليّ ﴿منَ الظُلُمات﴾ التي هي أعمُّ من ظلمات الكفرِ والمعاصي وظلماتِ الشُبَه بل مما في بعض مراتبِ العلوم الاستدلالية من نوعِ ضعفٍ وخفاءٍ بالقياس إلى مراتبها القوية الجليةِ بل مما في جميع

---

(١) في المخطوط: إبانة.

(٢) أي استعارة تمثيلية والذي عليه البلاغيون أن الآية من باب الاستعارة التصريحية للتصريح فيها بالمستعار.
ينظر: الفتوحات الإلهية (١/ ٢٠٩)، والتحرير والتنوير (٣/ ٢٩)، وشروح التلخيص (٤/ ١٠٨) وما بعدها.

مراتبِها بالنظر إلى مرتبة العِيان كما ستعرفه ﴿إلى النور﴾ الذي يعمُّ نورَ الإيمان ونورَ الإيقان بمراتبه ونورَ العِيان، أي يُخرج بهدايته وتوفيقِه كلَّ واحد منهم من الظُلمة التي وقع فيها إلى ما يقابلها من النور، وإفرادُ النور لتوحيد الحق كما أن جمعَ الظلمات لتعدد فنون الضلال.

﴿والذين كفروا﴾ أي الذين ثبت في علمه تعالى كفرُهم ﴿أولياؤُهم الطاغوتُ﴾ أي الشياطينُ وسائرُ المضلين عن طريق الحق فالموصولُ مبتدأ وأولياؤُهم مبتدأٌ ثانٍ والطاغوتُ خبرُه والجملةُ خبرٌ للأول والجملةُ الحاصلةُ معطوفةٌ على ما قبلها، ولعل تغييرَ السبك للاحتراز عن وضع الطاغوتِ في مقابلة الاسم الجليل ولقصد المبالغة بتكرير الإسناد مع الإيماء إلى التباين بين الفريقين من كل وجهٍ حتى من جهة التعبير أيضًا ﴿يُخرجونهم﴾ بالوساوس وغيرِها من طرق الإضلال والإغواء ﴿من النور﴾ الفِطري الذي جُبل عليه الناسُ كافةً أو من نور البيناتِ التي يشاهدونها من جهة النبيِّ ﷺ بتنزيل تمكُّنِهم من الاستضاءة بها منزلةَ نفسِها ﴿إلى الظلمات﴾ ظلماتِ الكفر والانهماكِ في الغِل[١].

وقيل: نزلت في قوم ارتدّوا عن الإسلام والجملةُ تفسير لولاية الطاغوت أو خبرٌ ثانٍ كما مر وإسنادُ الإخراجِ من حيث السببيةُ إلى الطاغوت لا يقدَحُ في استناده من حيث الخلقُ إلى قدرته سبحانه.

﴿أولئك﴾ إشارةٌ إلى الموصول باعتبار اتصافِه بما في حيز الصلة وما يتبعه من القبائح ﴿أصحابُ النار﴾ أي ملابسوها وملازموها بسبب ما لهم من الجرائم ﴿هم فيها خالدون﴾ ماكثون أبدًا.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ

(١) في المخطوط: الغي.

أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًاۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾

﴿ألم ترَ إلى الذي حاجَّ إبراهيمَ في ربه﴾ استشهادٌ على ما ذكر من أن الكفرة أولياؤُهم الطاغوتُ وتقريرٌ له على طريقة قوله تعالى: ﴿ألم ترَ أنهم في كل وادٍ يهيمون﴾ [الشعراء، الآية ٢٢٥].

كما أن ما بعده استشهاد على ولايته تعالى للمؤمنين وتقريرٌ لها وإنما بُدئ بهذا لرعاية الاقترانِ بينه وبين مدلولِه ولاستقلاله بأمر عجيبٍ حقيق بأن يُصدَّر به المقالُ وهو اجتراؤه على المُحاجّة في الله عز وجل.

وما أتى بها في أثنائها من العظيمة المنادية بكمال حماقته ولأن فيما بعده تعددًا وتفصيلًا يورث تقديمُه انتشار النظم على أنه قد أشير في تضاعيفه إلى هداية الله تعالى أيضًا بواسطة إبراهيمَ عليه السلام فإن ما يحكى عنه من الدعوة إلى الحق وإدحاضِ حجةِ الكافر من آثار ولايته تعالى.

وهمزةُ الاستفهام لإنكار النفي وتقريرِ المنفي أي ألم تنظُرْ أو ألم ينتهِ علمُك إلى هذا الطاغوت الماردَ كيف تصدى لإضلال الناس وإخراجهم من النور إلى الظلمات.

أي: قد تحققت الرؤيةُ وتقرَّرت بناءً على أن أمره من الظهور بحيث لا يكاد يخفىٰ على أحد ممن له حظٌّ من الخطاب فظهر أن الكفَرةَ أولياؤُهم الطاغوتُ وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام تشريفٌ له وإيذانٌ بتأييده في المُحاجة.

﴿أن آتاه الله المُلك﴾ أي لِأَن آتاه إياه حيث أبطره ذلك وحملَه على المُحاجّة أو حاجه لأجله وضعًا للمُحاجّة التي هي أقبحُ وجوهِ الكفر موضعَ ما يجبُ عليه من الشكر كما يقال: عاديتني لِأَن أحسنتُ إليك، أو وقتَ أن آتاه الله الملكَ وهو حجةٌ على من منع إيتاءَ الله المُلك للكافر.

﴿إذ قال إبراهيمُ﴾ ظرفٌ لحاجَّ أو بدلٌ من آتاه على الوجه الأخير ﴿ربيَ الذي يُحيي ويميت﴾ بفتح ياء ربي وقرئ[1] بحذفها.

رُوي أنه عليه الصلاة والسلام لما كسر الأصنام سجنه ثم أخرجه فقال: من ربُّك الذي تدعو إليه؟ قال: «ربي الذي يُحيي ويميت» أي يخلُق الحياةَ والموتَ في الأجساد.

---

(١) قرأ بها: حمزة.
ينظر: التيسير للداني ص (٨٦)، الغيث للصفاقسي ص (١٦٩)، والكشف للقيسي (١/ ٣٣٠).

﴿قال﴾ استئنافٌ مبني على السؤال كأنه قيل: كيف حاجّه في هذه المقالة القوية الحقة؟ فقيل قال: ﴿أنا أُحيي وأميت﴾.

رُوي أنه دعا برجلين فقتل أحدَهما وأطلق الآخر فقال ذلك[1] ﴿قال إبراهيمُ﴾ استئنافٌ كما سلف كأنه قيل: فماذا قال إبراهيمُ لمن في هذه المرتبة من الحماقة وبماذا أفحمه؟ فقيل قال: ﴿فإن الله يأتي بالشمس من المشرق﴾ حسبما تقتضيه مشيئتُه ﴿فأتِ بها من المغرِب﴾ إن كنت قادرًا على مثل مقدوراته تعالى فلم[2] يلتفِتْ عليه السلام إلى إبطال مقالةِ اللعين إيذانًا بأن بطلانها من الجلاءِ والظهورِ بحيث لا يكاد يخفى على أحد وأن التصديَ لإبطالها من قبيل السعي في تحصيل الحاصل وأتى بمثال لا يجد اللعين فيه مجالًا للتمويه والتلبيس.

﴿فبُهت الذي كفر﴾ أي صار مبهوتًا.

وقرئ[3] على بناء الفاعل على أن الموصول مفعوله أي فغلب إبراهيمُ الكافر وأسكته، وإيراد الكفر في حيز الصلة للإشعار بعلة الحكم والتنصيص على كون المحاجة كفرًا.

﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ تذييلٌ مقرِّر لمضمون ما قبله أي لا يهدي الذين ظلموا أنفسَهم بتعريضها للعذاب المخلد بسبب إعراضِهم عن قبول الهداية إلى مناهج الاستدلالِ أو إلى سبيل النجاة أو إلى طريق الجنةِ يوم القيامة.

﴿أو كالذي مرَّ على قرية﴾ استشهادٌ على ما ذكر من ولايته تعالى للمؤمنين وتقريرٌ له معطوفٌ على الموصول السابق.

وإيثارُ أو الفارقةِ على الواو الجامعة للاحتراز عن توهّم اتحادِ المستشهد عليه من أول الأمر والكاف إما اسميةٌ كما اختاره قوم جيء بها للتنبيه على تعدد الشواهد وعدم انحصارِها فيما ذكر كما في قولك: الفعلُ الماضي مثلُ نصر وإما زائدة كما ارتضاه آخرون.

والمعنى أَوَ لَمْ تَرَ إلى مثل الذي أو إلى الذي مرَّ على قرية كيف هداه الله تعالى وأخرجه من ظُلمة الاشتباه إلى نور العِيان والشهود، أي قد رأيت ذلك وشاهدتَه فإذن لا ريب في أن الله وليُّ الذين آمنوا . . . إلخ.

---

(١) أخرجه الطبري (٣/ ٢٧) رقم (٥٨٧٤) عن قتادة، وبرقم (٥٨٧٥) عن مجاهد.

(٢) في المخطوط: لم.

(٣) قرأ بها: ابن السميفع، ونعيم بن ميسرة.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ٦٣)، والبحر المحيط (٢/ ٢٨٩)، وتفسير الطبري (٥/ ٤٣٢)، وتفسير القرطبي (٣/ ٢٨٨)، والمحتسب لابن جني (١/ ١٣٤).

هذا وأما جعلُ الهمزةِ لمجرد التعجيبِ على أن يكون المعنى في الأول ألم تنظر إلى الذي حاجّ . . . إلخ أي انظُر إليه وتعجبْ من أمره وفي الثاني أو أرأيتَ مثلَ الذي مرَّ . . . إلخ إيذانًا بأن حالَه وما جرىٰ عليه في الغرابة بحيث لا يُرى له مَثَلٌ كما استقر عليه رأي الجمهور فغيرُ خليقٍ بجزالة التنزيلِ وفخامة شأنه الجليل، فتدبر.

والمارُّ هو عُزيرُ بنُ شرخيا قاله: قتادةُ والربيع وعِكْرِمةُ وناجية بن كعب[١] وسليمان بن يزيدَ والضحاك والسدي رضي الله عنهم[٢] وقيل: هو أرميا بن حلقيا من سبط هارونَ عليه السلام قاله: وهب وعبيدُ اللَّه بنُ عمير وقيل: أرميا هو الخَضِرُ بعينه.

قال مجاهد كان المارُّ رجلًا كافرًا بالبعث[٣]، وهو بعيد، والقريةُ بيتُ المقدِس قاله: وهْبٌ وعكرِمة والربيع[٤].

وقيل: هي ديرُ هِرَقل على شط دِجْلةَ.

وقال الكلبي: هي ديرُ سابر آباد وقال السدي: هي دير سلما باد والأول هو الأظهر والأشهر.

رُوي أن بني إسرائيلَ لما بالغوا في تعاطي الشرِّ والفسادِ وجاوزوا في العتوِّ والطغيانِ كلَّ حدّ معتادٍ سلط الله تعالى عليهم بُختَ نَصَّر البابليَّ فسار إليهم في ستمائة ألفِ رايةٍ حتى وطِئ الشامَ وخرَّب بيتَ المقدِس وجعل بني إسرائيلَ أثلاثًا ثلثٌ منهم قتلَهم وثلثٌ منهم أسكنهم[٥] بالشام وثلثٌ منهم سباهم وكانوا مائةَ ألفِ غلام يافعٍ

---

(١) هو: ناجية بن كعب العنزي أخو سلمى بنت كعب أبو خفاف روى عن علي وعمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود روى عنه أبو إسحاق وأبو حسان الأعرج ويونس بن أبي إسحاق سمعت أبي يقول ذلك نا عبد الرحمن انا أبو بكر بن أبي خيثمة فيما كتب إلى قال سئل يحيى بن معين عن ناجية بن كعب فقال صالح سمعت أبي يقول ناجية شيخ
ينظر: الجرح والتعديل (٨/ ٤٨٦).

(٢) أخرجه الطبري (٣/ ٢٩) رقم (٥٨٨٣) عن ناجية بن كعب وبرقم (٥٨٨٤) عن سليمان بن بريدة وبرقم (٥٨٨٥) عن قتادة، وبرقم (٥٨٨٧) عن ابن أبي جعفر عن أبيه.
وبرقم (٥٨٨٨) عن عكرمة، وبرقم (٥٨٨٩) عن السدي.
وبرقم (٥٨٩٠) عن الضحاك، وبرقم (٥٨٩١) عن ابن عباس.
وينظر «تفسير ابن أبي حاتم» (٢/ ٥٠٠).

(٣) ذكره ابن أبي حاتم (٢/ ٥٠٠) دون إسناد عن مجاهد.

(٤) أخرجه الطبري (٣/ ٣١) رقم (٥٨٩٩، ٥٩٠٠، ٥٩٠١) عن وهب بن منبه وبرقم (٥٩٠٢) عن قتادة، وبرقم (٥٩٠٣) عن الضحاك، وبرقم (٥٩٠٤) عن عكرمة وبرقم (٥٩٠٥) عن الربيع.

(٥) في المخطوط: أقرهم.

وغيرِ يافع فقسمهم بين الملوك الذين كانوا معه فأصاب كل ملك منهم أربعة غِلمة وكان عُزير من جملتهم فلما نجاه الله تعالى منهم بعد حين مرّ بحماره على بيتَ المقدِس فرآه على أفظع مرأىً وأوحش منظرٍ.

وذلك قوله عز وجل: ﴿وهي خاويةٌ على عروشها﴾ أي ساقطة على سقوفها بأن سقطت العروشُ.

ثم الحيطانُ من خوَى البيتُ إذا سقط أو من خوَت الأرضُ أي تهدمت والجملة حال من ضمير ﴿مرّ﴾ أو من ﴿قرية﴾ عند من يجوِّز الحالَ من النكرة مطلقًا.

﴿قال﴾ أي تلهفًا عليها وتشوقًا إلى عِمارتها مع استشعار اليأس عنها ﴿أنىٰ يُحي هذه الله﴾ وهي على ما يُرى من الحالة العجيبةِ المباينة للحياة، وتقديمُها على الفاعل للاعتناء بها من حيث إن الاستبعاد ناشئ من جهتها لا من جهة الفاعل و«أنّى» نُصب على الظرفية إن كانت بمعنى متى.

وعلى الحالية من هذه إن كانت بمعنى كيف والعامل «يُحيي» وأيًّا ما كان، فالمرادُ استبعادُ عمارتها بالبناء والسكان من بقايا أهلها الذين تفرقوا أيديَ سَبَأ ومن غيرِهم.

وإنما عبر عنها بالإحياء الذي هو علَمٌ في البعد عن الوقوع عادةً تهويلًا للخطب وتأكيدًا للاستبعاد كما أنه لأجله عبر عن خرابها بالموت.

حيث قيل: ﴿بعد موتِها﴾ وحيث كان هذا التعبيرُ معربًا عن استبعاد الإحياء بعد الموت على أبلغ وجهٍ وآكَدِه أراه الله عز وجل آثِرَ ذي أثيرٍ أبعدَ الأمرين في نفسه ثم في غيره ثم أراه ما استبعده صريحًا مبالغةً في إزاحة ما عسى يختلِجُ في خلَده.

وأما حملُ إحيائها على إحياء أهلها فيأباه التعرُّضُ لحال القرية دون حالهم والاقتصارَ على ذكر موتهم دون كونهم ترابًا وعظامًا مع كونه أدخلَ في الاستبعاد لشدة مباينتِه للحياة وغايةِ بعدِه عن قَبولها على أنه لم تتعلقْ إرادتُه تعالى بإحيائهم كما تعلقت بعمارتها ومعاينةِ المارِّ لها كما ستحيط به خبرًا.

﴿فأماته الله﴾ وألبثه على الموت ﴿مائةَ عام﴾.

رُوي أنه لما دخل القريةَ ربطَ حمارَه فطاًف بها ولم يرَ بها أحدًا فقال ما قال وكانت أشجارُها قد أثمرت فتناول من التين والعنب وشرِب من عصيره ونام فأماته الله

تعالى في منامه وهو شابٌّ وأماتَ حماره وبقيةُ تينِه وعِنَبه وعصيرِه عنده ثم أعمىٰ الله تعالى عنه عيونَ المخلوقاتِ فلم يرَه أحد فلما مضىٰ من موته سبعون سنةً وجّه الله عز وعلا ملِكًا عظيمًا من ملوك فارسَ يقال له يوشَكُ إلى بيت المقدس ليعمُرَه ومعه ألفُ قَهْرمانٍ مع كل قهرمانٍ ثلثُمائة ألفِ عاملٍ فجعلوا يعمُرونه وأهلك الله تعالى بُخْتَ نَصّر[1] ببعوضة دخلتْ دماغَه ونجّىٰ الله تعالى من بقيَ من بني إسرائيلَ وردَّهم إلى بيت المقدِس وتراجَع إليه من تفرَّق منهم في الأكناف فعمروه ثلاثين سنةً وكثُروا وكانوا كأحسنِ ما كانوا عليه فلما تمت المائةُ من موت عُزير أحياه الله تعالى وذلك قوله تعالى: ﴿ثم بعثه﴾ وإيثارُه على أحياه للدلالة على سرعته وسهولةِ تأتِّيه على البارئ تعالى كأنه بعثه من النوم وللإيذان بأنه أعاده كهيئته يومَ موته عاقلًا فاهمًا مستعدًا للنظر والاستدلال. ﴿قال﴾ استئنافٌ مبني على السؤال كأنه قيل: فماذا قال له بعد بعثه؟ فقيل: قال: ﴿كم لبثتَ﴾ ليُظهرَ له عجزَه عن الإحاطة بشؤونه تعالى وأن إحياءَه ليس بعد مدة يسيرةٍ ربما يُتوَهم أنه هيِّنٌ في الجملة بل بعد مدةٍ طويلةٍ وينحسِم به مادةُ استبعادِه بالمرة ويطلُع في تضاعيفه على أمر آخرَ من بدائع آثارِ قُدرتِه تعالى وهو إبقاءُ الغذاء المتسارعِ إلى الفساد بالطبع على ما كان عليه دهرًا طويلًا من غير تغيّرٍ ما، و«كم» نُصبَ على الظرفية مميِّزُها محذوفٌ أي كم وقتًا لبِثَ والقائلُ هو الله تعالى أو ملَكٌ مأمورٌ بذلك من قِبَله تعالى قيل: نُوديَ من السماء يا عزيرُ كم لبثت بعد الموت؟ ﴿قال لبثتُ يومًا أو بعضَ يوم﴾ قاله بناءً على التقريب والتخمين أو استقصارًا لمدة لُبثِه، وأما ما يقال من أنه مات ضُحىً وبُعث بعد المائة قبيل الغروب فقال: قبلَ النظرِ إلى الشمس يومًا فالتفت إليها فرأى منها بقيةً فقال: أو بعضَ يوم ـ على وجه الإضراب ـ فبمعزلٍ عن التحقيق إذ لا وجهَ للجزم بتمام اليوم ولو بناءً على حُسبان الغروب لتحقق النُقصان من أوله. ﴿قال﴾ استئنافٌ كما سلف ﴿بل لبثتَ مائةَ عام﴾ عطف على مقدر أي ما لبثتَ ذلك القدرَ بل هذا المقدارَ ﴿فانظرْ﴾ لتُعاينَ أمرًا آخرَ من دلائلِ قدرتنا ﴿إلى طعامك وشرابِك لم يتسنّه﴾ أي لم يتغيرْ في هذه المدة المتطاولة مع تداعيه إلى الفساد. رُوي أنه وجد تينَه وعِنَبه كما جَنَى وعصيرَه كما عَصَر، والجملة المنفيةُ حالٌ بغير واو كقوله تعالى: ﴿لم يمسَسْهم سوءٌ﴾ [آل عمران، الآية ١٧٤] إما من

---

(١) هو: بخت نصر: قال الطبري في التاريخ: يقال له بختنصر بن سنحاريب تيرى بن روبا بن داود بن طامى بن هامل بن ودى بن صاما بن رغما بن نمروذ بن كوش بن حام بن نوح عليه السلام.
ينظر: تاريخ الطبري (١/ ٣١٨).

الطعام والشراب وإفرادُ الضمير لجَرَيانهما مَجرىٰ الواحدِ كالغذاء وإما من الأخير اكتفاءً بدلالة حالِه على حال الأول ويؤيده قراءةُ[١] من قرأ «وهذا شرابُك لم يتسنه» والهاء أصليةٌ أو هاءُ سَكْتٍ، واشتقاقُه من السنه لما أن لامها هاءٌ أو واوٌ وقيل: أصلُه لم يتسنَّنْ من الحمأ المسنون فقلبت نونُه حرفَ علة كما في تقضّىٰ البازي وقد جوز أن يكون معنى لم يتسنهْ لم يمرَّ عليه السنونَ التي مرت لا حقيقةً بل تشبيهًا أي: هو على حاله كأنه لم يلبَثْ مائةَ عامٍ وقرئ[٢] (لم يَسَّنَّهْ) بإدغام التاء في السين. ﴿وانظرْ إلى حمارك﴾ كيف نخِرَتْ عظامُه وتفرقت وتقطعت أوصالُه وتمزقتْ ليتبيَّن لك ما ذُكرَ من لُبثك المديدِ وتطمئِنَّ به نفسُك. وقولُه عز وجل: ﴿ولِنجعلَك آيةً للناس﴾ عطفٌ على مقدر متعلقٍ بفعل مقدرٍ قبله بطريق الاستئنافِ مقرِّرٌ لمضمون ما سبق، أي فعلنا ما فعلنا من إحيائك بعد ما ذكر لتُعاينَ ما استبعَدْتَه من الإحياء بعد دهرٍ طويلٍ ولنجعلَك آيةً للناس الموجودين في هذا القرنِ بأن يشاهدوك وأنت من أهل القرونِ الخاليةِ ويأخذوا منك ما طُوِي عنهم منذ أحقابٍ مِنْ علمِ التوراة كما سيأتي، أو متعلقٌ بفعل مقدرٍ بعده، أي ولنجعلك آية لهم على الوجه المذكور فعلنا ما فعلنا فهو على التقديرين دليلٌ على ما ذكر من اللُبث المديدِ ولذلك فُرِّق بينه وبين الأمرِ بالنظر إلى حماره.

وتكريرُ الأمر في قوله تعالى: ﴿وانظُرْ إلى العِظام﴾ مع أن المرادَ عظامُ الحمار أيضًا لما أن المأمور به أولًا هو النظرُ إليها من حيث دِلالتُها على ما ذكر من اللُبث المديد، وثانيًا هو النظرُ إليها من حيث تعتريها الحياةُ ومباديها، أي وانظرْ إلى عظام الحمار لتشاهِدَ كيفيةَ الإحياء في غيرك بعد ما شاهدتَ نفسَه في نفسك.

﴿كيف نُنشِزُها﴾ بالزاي المعجمة أي نرفَعُ بعضَها إلى بعض ونردُّها إلى أماكنها من الجسد فنركبُها تركيبًا لائقًا بها، وقال الكسائي[٣]: نُلِينُها ونُعْظِمُها.

ولعل من فسره بنُحييها أراد بالإحياء هذا المعنى وكذا من قرأ[٤] (نُنْشِرُها) بالراء

---

(١) قرأ بها: ابن مسعود.
ينظر: البحر المحيط (٢/ ٢٩٢)، وتفسير القرطبي (٣/ ٢٩٢).

(٢) قرأ بها: أبي.
ينظر: البحر المحيط (٢/ ٢٩٢)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٥٧).

(٣) هو: علي بن حمزة بن عبد الله الأسدي بالولاء، أبو الحسن الكوفي، المعروف بالكسائي، مقرئ مجود لغوي نحوي شاعر. لم يعرف تاريخ مولده. من تصانيفه: معاني القرآن، والمصادر، والحروف، والقراءات. توفي سنة تسع وثمانين ومائة.
ينظر: تاريخ بغداد (١١/ ٤٠٣)، معجم المؤلفين (٧/ ٨٤).

(٤) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، والحسن، وابن عباس، والنخعي.

=

من أَنْشَر الله تعالى الموتىٰ أي أحياها لا معناه الحقيقي لقوله تعالى: ﴿ثم نكسوها لحمًا﴾ أي نسترُها به كما يُستر الجسدُ باللباس، وأما من قرأ[1] (نَنشُرُها) بفتح النون وضم الشين فلعله أراد به ضِدَّ الطيِّ كما قال الفراء، فالمعنى كيف نبسُطها، والجملةُ إما حالٌ من العظام أي وانظُر إليها مركبةً مكسُوَّةً لحمًا، أو بدلُ اشتمالٍ أي وانظُرْ إلى العظام كيفيةِ إنشازِها وبسطِ اللحم عليها، ولعل عدمَ التعرض لكيفية نفخِ الروح لما أنها مما لا تقتضي الحِكمةُ بيانَه. رُوي أنه نودي: «أيتها العظامُ الباليةُ إن الله يأمرُك أن تجتمعي»[2] فاجتمعَ كلُّ جزءٍ من أجزائها التي ذهبَ بها الطيرُ والسِّباعُ وطارت بها الرياح من كل سهلٍ وجبلٍ فانضم بعضُها إلى بعض والتصق كلُّ عضوٍ بما يليق به الضِّلْعُ والذراعُ بمحلها والرأسُ بمَوْضِعها ثم الأعصابُ والعروق ثم انبسط عليه اللحمُ ثم الجلدُ ثم خرجت منه الشعورُ ثم نُفخ فيه الروحُ فإذا هو قائم ينهَقُ.

﴿فلما تبيَّن له﴾ أي ما دل عليه الأمرُ بالنظر إليه من كيفية الإحياءِ بمباديه، والفاءُ للعطف على مقدر يستدعيه الأمرُ المذكور، وإنما حذف للإيذان بظهور تحققِه واستغنائِه عن الذكر، وللإشعار بسرعة وقوعِه كما في قوله عز وجل: ﴿فلما رآه مستقِرًا عنده﴾ [النمل، الآية ٤٠] بعد قوله: ﴿أنا آتيك به قبلَ أن يرتد إليك طرفُك﴾ [النمل، الآية ٤٠] كأنه قيل: فأنشَزَها الله تعالى وكساها لحمًا فنظرَ إليها فتبيَّن له كيفيتُه فلما تبين له ذلك أي اتضح اتضاحًا تامًا.

﴿قال أعلمُ أن الله على كل شيءٍ﴾ من الأشياء التي من جملتها ما شاهده في نفسه وفي غيره من تعاجيبِ الآثارِ ﴿قدير﴾ لا يستعصي عليه أمرٌ من الأمور، وإيثارُ صيغةِ المضارعِ للدَلالة على أن علمَه بذلك مستمِرٌّ نظرًا إلى أن أصلَه لم يتغيرْ ولم يتبدل،

---

= ينظر: البحر المحيط (٢/ ٢٩٣)، وتفسير الطبري (٥/ ٤٧٦)، وتفسير القرطبي (٣/ ٢٩٥)، والحجة لأبي زرعة ص (١٤٤)، والسبعة لابن مجاهد ص (١٨٩)، والغيث للصفاقسي ص (١٦٩)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٥٨)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٦٨)، والمعاني للفراء (١/ ١٧٤)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٣٣١)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢٣١).

(١) قرأ بها: عاصم، وأبان، وابن عباس، وأبو حيوة، والحسن، والنخعي.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٢٨٥)، والإملاء للعكبري (١/ ٦٤)، والبحر المحيط (٢/ ٢٩٣)، والتبيان للطوسي (٢/ ٣٢٠)، والتيسير للداني ص (٨٢)، وتفسير الطبري (٥/ ٤٧٧)، وتفسير القرطبي (٣/ ٢٩٥)، والحجة لابن خالويه ص (١٠٠،١٠١)، السبعة لابن مجاهد ص (١٨٩)، والكشف للقيسي (١/ ٣١٠، ٣١١)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٦٨)، والمعاني للفراء (١/ ١٧٣)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٣٣١)، والبحر المحيط (٢/ ٢٩٤)، وتفسير القرطبي (٣/ ٢٩٦)، والغيث للصفاقسي ص (١٦٩).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢/ ٥٨٦) من قول وهب بن منبه رضي الله عنه.

بل إنما تبدل بالعِيان وصفُه، وفيه إشعارٌ بأنه إنما قال ما قال بناءً على الاستبعاد العادي واستعظامًا للأمر.

وقد قيل: فاعلُ تبيَّن مُضمرٌ يفسرُه مفعولُ ﴿أعلم﴾، أي فلما تبيّن له أن الله على كل شيء قدير قال أعلم أن الله على كل شيء قدير فتدبر.

وقرئ[١] (تُبُيِّن له) على صيغة المجهول وقرئ[٢]: (قالَ اعْلَمْ)[٣] على صيغة الأمر، رُوي أنه ركب حماره وأتى مَحَلّته وأنكره الناسُ وأنكر الناسَ وأنكر المنازلَ فانطلق على وهْم منه حتى أتى منزلَه فإذا هو بعجوزٍ عمياءَ مُقعَدةٍ قد أدركت زمنَ عُزيرٍ فقال لها عزيرٌ: يا هذه هذا منزلُ عزيرٍ؟ قالت: نعم وأين ذكرى عزير [وقد][٤] فقدناه منذ كذا وكذا فبكت بكاءً شديدًا قال: فإني عزيرٌ قالت: سبحان الله أنّىٰ يكونُ ذلك؟ قال: قد أماتني الله مائة عام ثم بعثني قالت: إن عزيرًا كان رجلًا مستجابَ الدعوة فادعُ الله لي يردُّ عليَّ بصري حتى أراك فدعا ربه ومسَحَ بيده عينيها فصحَّتا فأخذ بيدها فقال لها: قومي بإذن الله فقامت صحيحةً كأنها نشِطَتْ من عِقالٍ فنظرت إليه فقالت: أشهدُ أنك عزيرٌ فانطلقت إلى مَحَلّة بني إسرائيلَ وهم في أنديتهم وكان بها[٥] ابنٌ لعزير قد بلغ مائة وثمانيَ عشْرةَ سنةً وبنو بنيه شيوخ فنادت هذا عزيرٌ قد جاءكم فكذبوها فقالت: انظُروا فإني بدعائه رجعت إلى هذه الحالة فنهض الناسُ فأقبلوا إليه فقال ابنه: كان لأبي شامةٌ سوداءُ بين كتِفَيه مثل الهلالِ فكشف فإذا هو كذلك وقد كان قتل بُختُ نَصَّرُ ببيت المقدس من قرّاء التوراةِ أربعين ألفِ رجل ولم يكن يومئذ بينهم نسخةٌ من التوراة ولا أحدٌ يعرفُ التوراةَ فقرأها عليهم عن ظهر قلبه من غير أن

---

(١) قرأ بها: ابن عباس.
ينظر: البحر المحيط (٢/ ٢٩٥)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٥٨).

(٢) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وأبو رجاء، وابن عباس، وأبو عبد الرحمن.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ٦٤)، والبحر المحيط (٢/ ٢٩٦)، والتبيان للطوسي (٢/ ٣٢٠)، والتيسير للداني ص (٨٢)، وتفسير الطبري (٥/ ٤٨١)، وتفسير القرطبي (٣/ ٢٩٦)، والحجة لابن خالويه ص (١٠٠)، والحجة لأبي زرعة ص (١٤٤)، والسبعة لابن مجاهد ص (١٨٩)، والغيث للصفاقسي ص (١٦٩)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٥٨)، والكشف للقيسي (١/ ٣١٢، ٣١٣)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٦٨)، والمعاني للفراء (١/ ١٧٣)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٣٣١)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢٣١).

(٣) زاد في المخطوط: وقيل أعلم.

(٤) في المخطوط: قد.

(٥) في المخطوط: في المجلس.

يخْرِم منها حرفًا فقال رجل من أولاد المَسْبيّين ممن ورد بيتَ المقدس بعد مهلِك بُختَ نَصَّرَ: حدثني أبي عن جدي أنه دفن التوراةَ يوم سُبينا في خابيةٍ في كَرْم فإن أرَيتُموني كرمَ جدّي أخرجتُها لكم فذهبوا إلى كرم جدِّه ففتشوا فوجدوها فعارضوها[1] بما أملىٰ عليهم عُزيرٌ من ظهر القلب فما اختلفا في حرف واحد فعند ذلك قالوا: هو ابنُ الله، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

﴿وإذ قال إبراهيمُ﴾ دليلٌ آخرُ على ولايته تعالى للمؤمنين وإخراجِه لهم من الظلمات إلى النور وإنما لم يسلُك به مسلكَ الاستشهاد كما قبله بأن يقال أو كالذي قال: ربِّ . . . إلخ لجَرَيان ذكره عليه السلام في أثناء المُحاجَّة ولأنه لا دخْلَ لنفسه عليه السلام في أصل الدليل كدأب عُزيرٍ عليه السلام فإن ما جَرى عليه من إحيائه بعد مائةِ عامٍ من جملة الشواهد على قدرته تعالى وهدايته، والظرفُ منتصبٌ بمُضمرٍ صُرِّح بمثله في نحو قوله تعالى: ﴿واذكروا إذْ جعلكم خلفاءَ﴾ [الأعراف، الآية ٦٩ و٧٤] أي واذكر وقت قوله عليه السلام وما وقع حينئذ من تعاجيب صنع الله تعالى[2] لتقِفَ على ما مرَّ من ولايته تعالى وهدايته. وتوجيهُ الأمرِ بالذكر في أمثال هذه المواقعِ إلى الوقت دون ما وقع فيه من الواقعات مع أنها المقصودة بالتذكير لما ذُكر غير مرة من المبالغة في إيجاب ذكرِها لما أن إيجابَ ذكرِ الوقت إيجابٌ لذكر ما وقع فيه بالطريق البرهاني ولأن الوقتَ مشتمِلٌ عليها مفصّلةً فإذا استُحضِرَ كانت حاضرةً بتفاصيلها بحيث لا يشِذُّ عنها شيءٌ مما ذكر عند الحكاية أو لم يُذْكَرْ كأنها مشاهدةٌ عِيانًا.

﴿ربِّ﴾ كلمة استعطافٍ قُدّمت بين يدي الدعاء مبالغةً في استدعاء الإجابة﴿أرِني﴾ من الرؤية البَصَرية المتعدِّية إلى واحدٍ وبدخول همزةِ النقل طلبَتْ مفعولًا آخرَ هو الجملةُ الاستفهامية المعلِّقةُ لها فإنها تعلّق كما يُعلَّق النظرُ البصَريُّ أي اجعلني مبصرًا.

﴿كيف تحيي الموتىٰ﴾ بأن تحيِيَهَا وأنا أنظرُ إليها، وكيف في محل نصبٍ على التشبيه بالظرف عند سيبويه، وبالحال عند الأخفش، والعاملُ فيها تحيي أي في أيِّ حال أو على أيِّ حالٍ تحيي. قال القرطبيُّ: الاستفهامُ بكيف إنما هو سؤالٌ عن حال شيءٍ متقررِ الوجود عند السائلِ والمسؤولِ، فالاستفهامُ هٰهنا عن هيئة الإحياءِ المتقرّر عند السائل أي بصِّرْني كيفيةَ إحيائِك للموتى، وإنما سأله عليه السلام ليتأيّد إيقانُه بالعِيان ويزدادَ قلبُه اطمئنانًا على اطمئنان، وأما ما قيل من أن نمرودَ لما قال: أنا أحيي وأميت قال إبراهيمُ عليه السلام: «إن إحياءَ الله تعالى بردِّ الأرواح إلى

(١) في المخطوط: فتعارضوها.

(٢) في المخطوط: عز وجل.

الأجساد» فقال نمرودُ: هل عاينتَه فلم يقدِرْ على أن يقول: نعم فانتقل إلى تقريرٍ آخَرَ ثم سأل ربه أن يُرِيَه ذلك فيأباه تعليلُ السؤال بالاطمئنان.

﴿قال﴾ استئناف كما مر غيرَ مرة ﴿أولمْ تُؤمِنْ﴾ عطفٌ على مقدرٍ أي ألم تعلمْ ولم تؤمنْ بأني قادرٌ على الإحياء كيف أشاء حتى تسألَني إراءتَه قال عز وعلا وهو أعلم بأنه عليه السلام أثبتُ الناسِ إيمانًا وأقواهم يقينًا: ليجيبَ بما أجاب به فيكون ذلك لطفًا للسامعين ﴿قال بلى﴾ علِمت وآمنتُ بأنك قادر على الإحياء على أي كيفية شئت ﴿ولكن﴾ سألت ما سألت ﴿ليطمئنَّ قلبي﴾ بمُضامَّة العِيانِ إلى الإيمان والإيقان وأزدادَ بصيرةً بمشاهدته على كيفية معينة.

﴿قال فخذْ﴾ الفاءُ لجواب شرطٍ محذوف أي إن أردت ذلك فخُذ ﴿أربعةً من الطير﴾ قيل: هو اسمٌ لجمعِ طائر، كرَكْبٍ وسفْرٍ وقيل: جمعٌ له كتاجرٍ وتَجْرٍ وقيل: هو مصدرٌ سمي به الجنسُ وقيل: هو تخفيفُ طيِّرٍ بمعنى طائر كهيْنٍ في هيِّن، ومِنْ متعلقة بـ (خُذ) أو بمحذوف وقع صفةً لأربعةً أي أربعةً كائنة من الطير.

قيل: هي طاووسٌ وديكٌ وغرابٌ وحَمامةٌ وقيل: نَسْرٌ بدلَ الأخير، وتخصيصُ الطير بذلك لأنه أقربُ إلى الإنسان وأجمعُ لخواصِّ الحيوان ولسهولةِ تأتِّي ما يُفعلُ به من التجزئة[1] والتفريق وغيرِ ذلك.

﴿فصُرْهن﴾ من صارَه يصورُه أي أماله وقرئ[2] بكسر الصاد من صاره يَصيره، أي أمِلْهن واضمُمْهن وقرئ (فصُرَّهن) بضم الصاد[3] وكسرها[4] وتشديد الراء من صرَّه

---

(١) في المخطوطة: التجربة.

(٢) قرأ بها: حمزة، ويزيد، وخلف، ورويس، وابن عباس، وطلحة، وشيبة، وابن جبير، وقتادة، وعلقمة، وأبو جعفر، وابن وثاب، والأعمش.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ٦٥)، والبحر المحيط (٢/ ٣٠٠)، والتبيان للطوسي (٢/ ٣٢٦)، والتيسير للداني ص (٨٢)، وتفسير الطبري (٥/ ٤٩٧)، وتفسير القرطبي (٣/ ٣١١)، والحجة لابن خالويه ص (١٠١)، والحجة لأبي زرعة ص (١٤٥)، والسبعة لابن مجاهد ص (١٩٠)، والغيث للصفاقسي ص (١٦٩)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٥٨)، والكشف للقيسي (١/ ٣١٣)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٧١)، والمجمع للطبرسي (١/ ١٣٦)، والمعاني للفراء (١/ ١٧٤)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٣٣٣)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢٣١).

(٣) قرأ بها: ابن عباس، وعكرمة.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ٦٥)، والبحر المحيط (٢/ ٢٠٠)، وتفسير القرطبي (٣/ ٣٠١، ٣٠٢)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٥٨)، والمحتسب لابن جني (١/ ١٣٦).

(٤) قرا بها: ابن عباس.
ينظر: الكشاف للزمخشري (١/ ١٥٨)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٧١).

يصِرُّه ويصُره إذا جمعه وقرئ[1] (فصَرِّهِنّ) من التَّصْرية بمعنى الجمع أي اجمَعْهن ﴿إليك﴾ لتتأملَها وتعرِفَ شِياتِها مفصَّلةً حتى تعلم بعد الإحياءِ أن جزءًا من أجزائها لم ينتقِلْ من موضعه الأول أصلًا.

روي أنه أُمر بأن يذبَحها وينتِفَ ريشها ويقطّعها ويفرِّق أجزاءها ويخلِطَ ريشها ودماءَها ولحومَها ويمسك رؤسها ثم أمر بأن يجعل أجزاءها على الجبال وذلك قوله تعالى: ﴿ثم اجعلْ على كل جبلٍ منهن جُزءًا﴾ أي جزِّئهن وفرِّق أجزاءَهن على ما بحضرتك من الجبال قيل: كانت أربعة أجبُل وقيل: سبعة، فجعل على كل جبل رُبُعًا أو سُبعًا من كل طائر، وقرئ[2] «جُزُؤًا» بضمتين وجُزًّا[3] بالتشديد بطرح همزته تخفيفًا ثم تشديدِه عند الوقف ثم إجراءِ الوصل مُجرى الوقف.

﴿ثم ادعُهن يأتينك﴾ في حيز الجزمِ على أنه جواب الأمر ولكنه بُني لاتصاله بنون جمع المؤنث ﴿سعيًا﴾ أي ساعيات مسرعات أو ذواتِ سعيٍ طيرانًا أو مشيًا وإنما اقتصر على حكاية أوامره عز وجل من غير تعرضٍ لامتثاله عليه السلام ولا لما ترتب عليه من عجائب آثارِ قدرتِه تعالى كما روي أنه عليه السلام نادى فقال: «تعالَيْنَ بإذن الله» فجعل كلُّ جزءٍ منهن يطير إلى صاحبه حتى صارت جثثًا ثم أقبلْن إلى رؤوسهن فانضمَّتْ كلُّ جثةٍ إلى رأسها فعادت كلُّ واحدة منهن إلى ما كانت عليه من الهيئة للإيذان بأن ترتب تلك الأمورِ على الأوامر الجليلةِ واستحالةَ تخلّفها عنها من الجلاء والظهورِ بحيث لا حاجة له إلى الذكر أصلًا وناهيك بالقصة دليلًا على فضل الخليل ويُمْنِ الضراعة في الدعاء وحُسنِ الأدب في السؤال حيث أراه الله تعالى ما سأله في الحال على أيسرِ ما يكون من الوجوه وأرى عُزيرًا ما أراد

---

(١) قرأ بها: عكرمة، وابن عباس، والمهدوي.
ينظر: البحر المحيط (٢/ ٣٠٠)، وتفسير القرطبي (٣/ ٣٠٢)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٧١)، والمحتسب لابن جني (١/ ١٣٦).

(٢) قرأ بها: عاصم، وشعبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (١٤١)، والإملاء للعكبري (١/ ٦٥)، والبحر المحيط (٢/ ٣٠٠)، والتيسير للداني ص (٨٢)، والحجة لأبي زرعة ص (١٤٥)، والغيث للصفاقسي ص (١٦٩)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٥٩)، والكشف للقيسي (١/ ٢٤٧)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٧١)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٣٣٥)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢١٦).

(٣) قرأ بها: أبو جعفر.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ٦٥)، والبحر المحيط (٢/ ٣٠٠)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٥٩)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٧١)، والمحتسب لابن جني (١/ ١٣٧).

بعدما أماته مائة عام[١] ﴿واعلم أن الله عزيز﴾ غالبٌ على أمره لا يُعجزُه شيء عما يريده ﴿حكيم﴾ ذو حكمةٍ بالغة في أفاعيله فليس بناءُ أفعاله على الأسباب العادية لعجزه عن إيجادها بطريق آخرَ خارقٍ للعادات بل لكونه متضمنًا للحِكَم والمصالح.

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ

---

(١) زاد في المخطوط: عليهما السلام.

فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

﴿مثلُ الذين ينفقون أموالَهم في سبيل الله﴾ أي في وجوه الخيرِ[1] من الواجب والنفل ﴿كمثل حبةٍ﴾ لا بد من تقديرِ مضافٍ في أحد الجانبين أي مَثَلُ نفقتِهم كمثلِ حبةٍ[2] أو مَثلُهم كمَثلِ باذرِ حبة ﴿أنبتتْ سبعَ سنابلَ﴾ أي خرَّجت ساقًا تشعّب منها سبعُ شُعبٍ لكل واحدة منها سنبلة ﴿في كل سنبلةٍ مائةُ حبة﴾ كما يشاهَد ذلك في الذُرة والدخن في الأراضي المغلة بل أكثر من ذلك، وإسنادُ الإنباتِ إلى الحبة مجازيٌ كإسناده إلى الأرض والربيع، وهذا التمثيلُ تصويرٌ للأضعاف كأنها حاضرةٌ بين يدَي الناظر.

﴿والله يضاعفُ﴾ تلك المضاعفةَ أو فوقها إلى ما شاء الله تعالى ﴿لمن يشاء﴾ أن يضاعِفَ له بفضله على حسب حالِ المنفِق من إخلاصه وتعبِه ولذلك تفاوتت مراتبُ الأعمال في مقادير الثواب ﴿والله واسعٌ﴾ لا يَضيقُ عليه ما يتفضّل به من الزيادة ﴿عليم﴾ بنية المنفقِ ومقدارِ إنفاقِه وكيفيةِ تحصيلِ ما أنفقه.

﴿الذين ينفِقون أموالَهم في سبيل الله﴾ جملةٌ مبتدأةٌ جيء بها لبيان كيفيةِ الإنفاق الذي بُيِّن فضلُه بالتمثيل المذكور ﴿ثم لا يُتبِعون ما أنفقوا﴾ أي ما أنفقوه أو إنفاقَهم ﴿منّا ولا أذىً﴾ المن أن يَعتدَّ على مَنْ أحسن إليه بإحسانه ويُريَه أنه أوجب بذلك حقًا والأذى أن يتطاولَ عليه بسبب إنعامه عليه وإنما قُدم المن لكثرة وقوعِه، وتوسيطُ كلمة ﴿لا﴾ للدَلالة على شمول النفي لإتباع كل واحدٍ منهما و﴿ثم﴾ لإظهار علوِّ رتبة المعطوف.

---

(١) في المخطوط: الخيرات.

(٢) قال البقاعي كاشفًا عن أثر وقوع هذا التشبيه بعد قصة إحياء الأطيار، وساقه على وجه يتضمن إحياء الموات الذي هو أنسب الأشياء، لما قبله من نشر الأموات، وقد بني التشبيه على طريقة الاحتباك، وهو من صور الحذف البليغ والإيجاز البديع، والتقدير: مثل الذين ينفقون، ونفقتهم كمثل حبة وزارعها، فذكر المنفق أولا دليل على حذف الزارع ثانيًا، وذكر الحبة ثانيًا دليل على حذف النفقة أولاً، والغرض من هذا التمثيل بيان حال النفقة في الزيادة والنماء، وهو إبراز للمعنوي في صورة الحسي، وتستطيع أن تقول أيضًا: إنه بيان لإمكان المشبه لمن لا يعتقد في هذا القدر العظيم من المضاعفة لثواب النفقة، فأقام المثل من قدرة الله شاهدًا على قدرته على المضاعفة المذكورة، والمثال من التشبيه التمثيلي عند البلاغيين.
ينظر: الكشاف (١/ ٣٩٣)، ونظم الدرر للبقاعي (٤/ ٧٣) وما بعدها.

قيل: نزلت في عثمان[١] رضي الله عنه حين جهز جيش العُسرة بألفِ بعير بأقتابها وأحلاسها وعبدِ الرحمٰن بنِ عوف رضي الله عنه حين أتى النبيَّ ﷺ بأربعة آلاف درهم صدقةً[٢]. ولم يكَدْ يخطُر ببالهما شيءٌ من المن أو الأذى.

﴿لهم أجرُهم﴾ أي حسبما وُعدَ لهم في ضمن التمثيل، وهو جملةٌ من مبتدأ وخبر وقعت خبرًا عن[٣] الموصول، وفي تكرير الإسناد وتقييدِ الأجر بقوله: ﴿عند ربهم﴾ من التأكيد والتشريفِ ما لا يخفى، وتخليةُ الخبر عن الفاء المفيدة لسببية ما قبلها لما بعدها للإيذان بأن ترتبَ الأجر على ما ذكر من الإنفاق وتركَ إتباعِ المن والأذى أمرٌ بيِّن لا يحتاج إلى التصريح بالسببية وأما إيهامُ أنهم أهلٌ لذلك وإن لم يفعلوا فكيف بهم إذا فعلوا فيأباه مقامُ الترغيب في الفعل والحث عليه.

﴿ولا خوف عليهم﴾ في الدارين من لحوق مكروهٍ من المكاره ﴿ولا هم يحزنون﴾ لفوات مطلوبٍ من المطالب قلَّ أو جلَّ، أي لا يعتريهم ما يوجبه لا أنه يعتريهم ذلك لكنهم لا يخافون ولا يحزنون ولا أنه لا يعتريهم خوفٌ وحزن أصلًا بل يستمرون على النشاط والسرور، كيف لا واستشعارُ الخوف والخشية استعظامًا لجلال الله [تعالى][٤] وهيبته واستقصارًا للجِد والسعي في إقامة حقوقِ العبودية من خواصِّ الخاصةِ والمقرَّبين، والمرادُ بيانُ دوام انتفائِهما لا بيانُ انتفاءِ دوامِهما كما يوهمه كونُ الخبر في الجملة الثانية مضارعًا عالمًا أن النفي وإن دخل على نفس المضارع يفيدُ الدوام والاستمرار بحسب المقام.

﴿قولٌ معروفٌ﴾ أي كلام جميل تقبله القلوبُ ولا تُنكِره يُرد به السائلُ من غير إعطاء شيءٍ ﴿ومغفِرةٌ﴾ أي سَترٌ لما وقع من السائل من الإلحاف في المسألة وغيره مما يَثقُل على المسؤول وصفحٌ عنه. وإنما صح الابتداءُ بالنكرة في الأول لاختصاصها بالوصف وفي الثاني بالعطف أو بالصفة المقدرة أي ومغفرة كائنة من

(١) هو: عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي، أبو عمرو: أسلم قديمًا، وهاجر الهجرتين، وتزوج ابنتي رسول الله ﷺ واحدةً بعد أخرى، قال ابن عبد البر: ولد بعد الفيل بست سنين، وهو أول من هاجر إلى أرض الحبشة، ولم يشهد بدرًا؛ لتخلفه على تمريض زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ ورضي عنها. بويع له بالخلافة بعد دفن عمر بثلاثة أيام، وذلك غرة المحرم سنة أربع وعشرين، وقتل في وسط أيام التشريق سنة خمس وثلاثين، وقيل: يوم التروية، وقيل غير ذلك، ومناقبه وفضائله كثيرة شهيرة، رضي الله عنه.
ينظر: تهذيب التهذيب (٧/ ١٣٩)، تقريب التهذيب (٢/ ١٢).

(٢) ذكره الواحدي في «أسباب النزول»، ص (٥٥) وفيه قال الكلبي: ... فذكره هكذا دون إسناد.

(٣) في المخطوط: من. (٤) سقط في ط.

المسؤول ﴿خيرٌ﴾ أي للسائل.

﴿من صدقة يتبعُها أذىً﴾ لكونها مشوبةً بضررِ ما يتبعها وخلوصِ الأولَيْن من الضرر، والجملة مستأنفةٌ مقرِّرة لاعتبار ترك إتباعِ المن والأذى، وتفسيرُ المغفرة بنيل مغفرةٍ من الله تعالى بسبب الرد الجميل أو بعفو السائل بناءً على اعتبار الخيرية بالنسبة إلى المسؤول - يؤدّي إلى أن يكون في الصدقة الموصوفةِ بالنسبة إليه خيرٌ في الجملة مع بطلانها بالمرة.

﴿والله غني﴾ لا يُحوِجُ الفقراءَ إلى تحمل مؤنةِ المنِّ والأذى ويرزقُهم من جهةٍ أخرى ﴿حليم﴾ لا يعاجل أصحابَ المن والأذى بالعقوبة لا أنهم لا يستحقونها بسببهما، والجملةُ تذييلٌ لما قبلها مشتمِلٌ على الوعد والوعيد مقرِّرٌ لاعتبار الخيرية بالنسبة إلى السائل قطعًا.

﴿يا أيُّها الَّذين آمَنُوا﴾ أقبل عليهم بالخطاب إثرَ بيانٍ ما بطريق الغَيبة مبالغةً في إيجاب العمل بموجب النهي ﴿لا تُبطِلُوا صَدَقاتِكم بالمن والأذى﴾ أي لا تُحبِطُوا أجرَها بواحدٍ منهما ﴿كالذي﴾ في محل النصب إما على أنه نعتٌ لمصدر محذوفٍ أي لا تُبطِلوها إبطالَ الذي ﴿يُنفِقُ مالَه رئاءَ النَّاسِ﴾ وإما على أنه حالٌ من فاعل [«لا تبطلوا» أي][1] لا تُبطلوها مشابهين الذي ينفق، أي الذي يُبطل إنفاقَه بالرياء، وقيل من ضمير المصدر المقدر على ما هو رأيُ سيبويه، وانتصابُ «رئاءَ» إما على أنه عِلةٌ لـ «ينفق» أي لأجل رئائهم أو على أنه حال من فاعله أي ينفق ماله مرائيًا والمراد به المنافقُ لقوله تعالى: ﴿ولا يؤمنُ بالله واليومِ الآخر﴾ حتى يرجوَ ثوابًا أو يخشى عقابًا.

﴿فَمَثَلُه﴾ الفاء لربط ما بعدها بما قبلها أي فمثل المرائي في الإنفاق[2] وحالته

---

(١) سقط في ط.

(٢) في الآية تشبيه تمثيلي - شبه المانَّ بنفقته أولاً بالمرائي بجامع عدم الإخلاص في العمل، ثم شبه المرائي بالصفوان، ووجه الشبه عدم الانتفاع مما أعطوا بأزيد من شفاء ما في صدورهم من حب التطاول على الضعفاء، وشفاء خلق الأذى المتطبعين عليه، دون نفع في الآخرة، أو وجه الشبه الأمل في حالة تغري بالنفع، ثم لا تلبث ألا تأتي لآملها بما أمله، فخاب أمله، وقد ذكر الطبري -رحمه الله- أن هذا مثل لأعمالهم قال: فكذلك أعمالهم بمنزلة الصفوان الذي كان عليه تراب، فأصابه الوابل من المطر، فذهب بما عليه من التراب فتركه نقيًا لا تراب عليه، والآية من قبيل التمثيل عند البلاغيين، وقد مضى بيان الفرق بين التشبيه والتمثيل.

ينظر: نظم الدرر (٤/ ٧٨) وما بعدها، وجامع البيان للطبري (٣/ ٤٥) وما بعدها، والتحرير والتنوير (٣/ ٤٨، ٤٩)، وأسرار البلاغة (٨٤) وما بعدها طبعة هـ ريتر، ومفتاح العلوم للسكاكي (٣٤٦) وما بعدها.

العجيبة ﴿كمثل صَفْوانٍ﴾ أي حَجَرٍ أملسَ ﴿عليه ترابٌ﴾ أي شيء يسير منه ﴿فأصابه وابلٌ﴾ أي مطرٌ عظيمُ القطر ﴿فتركه صلْدًا﴾ أملسَ ليس عليه شيءٌ من الغبار أصلًا.

﴿لا يقدِرون على شيء مما كسبوا﴾ لا ينتفعون بما فعلوا رياءً، ولا يجدون له ثوابًا قطعًا كقوله تعالى: ﴿فجعلناه هباءً منثورًا﴾ [الفرقان، الآية ٢٣] والجملة استئنافٌ مبنيٌّ على السؤال كأنه قيل: فماذا يكونُ حالُهم حينئذٍ فقيل: لا يقدِرون ... إلخ ومن ضرورة كونِ مَثَلِهم كما ذُكر كونُ مَثَلِ من يُشبِهُهم وهم أصحابُ المن والأذى كذلك والضميران الأخيران للموصول باعتبار المعنى كما في قوله عز وجل: ﴿وخضتم كالذي خاضوا﴾ [التوبة، الآية ٦٩] لما أن المراد به الجنسُ أو الجمعُ أو الفريق كما أن الضمائرَ الأربعةَ السابقة له باعتبار اللفظ.

﴿والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ إلى الخير والرشاد، والجملةُ تذييلٌ مقرِّر لمضمون ما قبله، وفيه تعريضٌ بأن كلاًّ من الرياء والمنِّ والأذى من خصائص الكفارِ ولا بد للمؤمنين أن يجتنبوها.

﴿ومَثلُ الذين ينفقون أموالهم ابتغاءَ مرضاةِ اللَّهِ﴾ أي لطلب رضاه ﴿وتثبيتًا مِنْ أنفسهم﴾ أي ولتثبيت بعضِ أنفسِهم على الإيمان فمن تبعيضية كما في قولهم: هزّ مِنْ عِطفه وحرك مِنْ نشاطه فإن المالَ شقيقُ الروح فمن بذل مالَه لوجه الله تعالى فقد ثبّت بعضَ نفسه ومن بذل مالَه وروحَه فقد ثبتها كلها، أو تصديقًا للإسلام وتحقيقًا للجزاء من أصل أنفسِهم فمن ابتدائية كما في قوله تعالى: ﴿حسدًا من عند أنفسهم﴾ [البقرة، الآية ١٠٩] ويحتمل أن يكون المعنى وتثبيتًا من أنفسهم عند المؤمنين أنها صادقةُ الإيمان مخلصةٌ فيه، ويعضُده قراءةٌ[١] من قرأ وتبيينًا من أنفسهم وفيه تنبيهٌ على أن حكمةَ الإنفاق للمنفق تزكيةُ النفس عن البخل وحبِّ المال الذي هو رأسُ كل خطيئة.

﴿كمثل جنةٍ بربوة﴾ الرَّبوة ـ بالحركات الثلاث وقد قرئ[٢] بها ـ المكانُ المرتفع

---

(١) قرأ بها: مجاهد.
ينظر: البحر المحيط (٢/ ٣١١)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٦١).

(٢) قرأ بالضم: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وأبو جعفر، ويعقوب، وخلف.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ٦٦)، والبحر المحيط (٢/ ٣١٢)، والسبعة لابن مجاهد ص (١٩٠)، والغيث للصفاقسي ص (١٦٩)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٣٧)، والمعاني للأخفش (١/ ١٨٤).
وقرأ بالكسر: ابن عباس، وأبو إسحاق السبيعي.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٢٨٨)، والإملاء للعكبري (١/ ٦٦)، والبحر المحيط (٢/ ٣١٢)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٦٦)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٧٧).

أي مَثَلُ نفقتِهم في الزكاء[١] كمثل بُستان كائنٍ بمكان مرتفع مأمونٍ من أن يصطلِمَه البردُ لِلطافة هوائهِ بهبوب الرياح المُلطِّفة له فإن أشجارَ الرُّبا تكون أحسنَ منظرًا وأزكى ثمرًا وأما الأراضي المنخفِضَةُ فقلما تسلم ثمارُها من البرد لكثافة هوائِها بركود الرياح وقرئ[٢] (كمثل حبةٍ).

﴿أصابها وابلٌ﴾ مطر عظيمُ القطر ﴿فآتتْ أكُلَها﴾ ثمرتها وقرئ[٣] بسكون الكاف تخفيفًا ﴿ضعفين﴾ أي مِثليْ ما كانت تُثمر في سائر الأوقات بسبب ما أصابها من الوابل، والمرادُ بالضِعف المِثْلُ وقيل: أربعةُ أمثال، ونصبُه على الحال من ﴿أُكُلَها﴾ أي مضاعفًا.

﴿فإن لم يُصِبْها وابلٌ فطلٌّ﴾ أي فطلٌّ يكفيها لجودتها وكَرَمِ منبتِها ولَطافةِ هوائِها وقيل: فيصيبها طلٌّ وهو المطرُ الصغيرُ القطرِ وقيل: فالذي يصيبها طلٌّ والمعنى أن نفقاتِ هؤلاءِ زاكيةٌ عند الله تعالى لا تَضيعُ بحال وإن كانت تتفاوتُ باعتبار ما يقارنها من الأحوال، ويجوزُ أن يعتبر التمثيلُ بين حالهم باعتبار ما صدر عنهم من النفقة الكثيرةِ والقليلةِ وبين الجنةِ المعهودةِ باعتبار ما أصابها من المطر الكثير واليسير، فكما أن كلَّ واحد من المطرين يُضعِفُ أُكُلَها فكذلك نفقتُهم جلّت أو قلّت بعد أن

---

(١) الآية من قبيل التشبيه التمثيلي عند البلاغيين كسابقتها. ووجه الشبه أن المنفق ابتغاء مرضاة الله، والتثبيت من نفسه هو في إخلاصه، وسخاء نفسه، وإخلاص قلبه، كالجنة الجيدة التربة، الملتفة الشجر، العظيمة الخصب في كثرة بره وحسنه، فهو يجود بقدر سعته، فإن أصابه خير كثير أغدق ووسع في الإنفاق، وإن أصابه خير قليل أنفق منه بقدر، فخيره دائم وبره لا ينقطع، وقد وقع في الآية تشبيه هيئة بهيئة، والغرض من هذا التشبيه بيان حال صاحب النفقة الطيبة في ذهن السامع، وذلك بإبراز المعنوي في صورة الحسي مع تزيين المشبه، وترى القرآن الكريم، كما جعل حرث الدنيا حبًّا وثمرًا، جعل نفقات الأخرى حبًّا وثمرًا.
ينظر: الكشاف (١/ ٣٩٤) وما بعدها، وأنوار التنزيل للبيضاوي (١/ ١٣٨)، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٤/ ٨١) وما بعدها، وتفسير القرآن الحكيم للإمام محمد عبده (٣/ ٦٨)، والتحرير والتنوير (٣/ ٥٢).

(٢) قرأ بها: عاصم الجحدري.
ينظر: البحر المحيط (٢/ ٣١١)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٦٦).

(٣) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (١٦٣)، والبحر المحيط (٢/ ٣١٢)، والتبيان للطوسي (٢/ ٣٣٨)، والتيسير للداني ص (٨٣)، والحجة لابن خالويه ص (١٠٢)، والحجة لأبي زرعة ص (١٤٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (١٩٠)، والغيث للصفاقسي ص (١٦٩)، والكشف للقيسي (١/ ٣١٣، ٣١٤)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٧٧)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٣٤٢)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢١٦).

يُطلَبَ بها وجهُ الله تعالى زاكيةٌ زائدةٌ في زُلفاهم وحسنِ حالهم عند الله.

﴿والله بما تعملون بصير﴾ لا يخفى عليه شيء منه وهو ترغيبٌ في الإخلاص مع تحذير من الرياء ونحوه.

﴿أيوَدُّ أَحدُكم﴾ الوُدُّ حبُّ الشيء مع تمنِّيه ولذلك يُستعمل استعمالَهما والهمزةُ لإنكار الوقوع كما في قوله: أأضرب أبي؟ لا لإنكار الواقع كما في قولك: أتضرب أباك؟ على أن مناطَ الإنكارِ ليس جميعَ ما تعلّق به الوُدّ بل إنما هو إصابةُ الإعصارِ وما يتبعُها من الاحتراق.

﴿أن تكونَ له جنةٌ﴾ وقرئ[1] جناتٌ ﴿من نخيلٍ وأعنابٍ﴾ أي: كائنةٍ منهما على أن يكون الأصلُ والركنُ فيها هذين الجنسينِ الشريفينِ الجامعين لفنون المنافع والباقي من المستتبِعات لا على ألا يكونَ فيها غيرُهما كما ستعرِفه، والجنَّةُ تطلق على الأشجار الملتفة المتكاتفة قال زهير: [البسيط]

كأن عينيَّ في غربيِّ مفتلة ... من النواضِحِ تسقي جنةً سحقا[2]

وعلى الأرض المشتملةِ، عليها والأولُ هو الأنسبُ بقوله عز وجل: ﴿تجري من تحتها الأنهارُ﴾ إذ على الثاني لا بد من تقدير مضافٍ أي من تحت أشجارها وكذا لا بد من جعل إسناد الاحتراق إليها فيما سيأتي مجازيًّا، والجملةُ في محل الرفع على أنها صفةُ جنةٍ كما أن قوله تعالى: ﴿من نخيل وأعناب﴾ كذلك أوفى محل النصب على أنها حالٌ منها لأنها موصوفة.

﴿له فيها من كلِّ الثمرات﴾ الظرفُ الأولُ خبرٌ والثاني حالٌ والثالثُ مبتدأ أي صفة للمبتدأ قائمة مَقامه أي له . . . رزقٌ من كل الثمرات كما في قوله تعالى: ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾ [الصافات، الآية ١٦٤].

أي وما منا أحد إلا له إلخ وليس المرادُ بالثمرات العمومَ بل إنما هو التكثيرُ كما في قوله تعالى: ﴿وأُوتيتْ من كلِّ شيءٍ﴾ [النمل، الآية ٢٣] ﴿وأصابه الكِبَرُ﴾ أي كِبَرُ السنِّ الذي هو مَظِنَّةُ شدَّةِ الحاجة إلى منافعها ومئنة كمالِ العجز عن تدارُك أسبابِ المعاش، والواو حالية أي وقد أصابه الكبر ﴿وله ذريَّةٌ ضعفاءُ﴾ حالٌ من الضمير في

---

(١) قرأ بها: الحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (١٦٣)، والبحر المحيط (٢/ ٣١٤)، وتفسير القرطبي (٣/ ٣١٩)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٦١).

(٢) البيت لزهير بن أبي سلمى في ديوانه ص(٣٧)، ولسان العرب (سحق)، (قتل)، (جنن)، ومجمل اللغة (١/ ١٠٠)، ومقاييس اللغة (١/ ٤٢١)، وتاج العروس (سحق)، (قتل)، (جنن).

أصابه أي أصابه الكِبَرُ والحال أن له ذرية صِغارًا لا يقدرون على الكسب وترتيب مبادئ المعاش وقرئ[١] (ضعاف).

﴿فأصابها إعصارٌ﴾ أي ريحٌ عاصفةٌ تستدير في الأرض ثم تنعكس منها ساطعةً إلى السماء على هيئة العَمود ﴿فيه نارٌ﴾ شديدةٌ ﴿فاحترقتْ﴾ عطفٌ على (فأصابها) وهذا كما ترى تمثيلٌ[٢] لحال من يعمل أعمالَ البرِّ والحسناتِ ويضُمُّ إليها ما يُحبِطُها من القوادح ثم يجدُها يوم القيامة عند كمال حاجته إلى ثوابها هباءً منثورًا بها في التحسّر والتأسّف عليها.

﴿كذلك﴾ توحيدُ الكاف مع كون المخاطَب جمعًا قد مر وجهُه مرارًا أي مثلَ ذلك البيان الواضحِ الجاري في الظهور مجرىٰ الأمورِ المحسوسة.

﴿يُبيِّنُ الله لكم الآياتِ لعلَّكم تتفكرون﴾ كي تتفكروا فيها وتعتبروا بما فيها من العِبَر وتعملوا بموجبها.

﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أنْفِقُوا من طَيِّباتِ ما كَسبتُم﴾ بيانٌ لحال ما يُنفَقُ منه إثرَ بيانِ أصلِ الإنفاق وكيفيته، أي أنفقوا من حلال ما كسبتم وجيادِه لقوله تعالى: ﴿لن تنالوا البِرَّ حتَّىٰ تنفقوا ما تُحبّون﴾ [آل عمران، الآية ٩٢].

﴿وممَّا أخرجْنا لكم من الأرض﴾ أي من طيبات ما أخرجنا لكم من الحبوب

---

(١) ينظر: البحر المحيط (٢/ ٣١٤)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٦١).

(٢) الآية الكريمة من قبيل التشبيه الضمني، وقد جعل الإمام عبد القاهر التشبيه الضمني ضربًا وحده بين الاستعارة والتشبيه يقول معلقًا على قول المتنبي.

لم تحك نائلك السحاب وإنما حمت به فصبيبها الرحضاء

لأنه وإن كان أصله التشبيه من حيث تشبيه الجواد بالغيث، فإنه وضع المعنى وصفًا، وصوره في صورة خرج معها إلى ما لا أصل له في التشبيه فهو كالواقع بين الضربين، وقد علق سعد الدين التفتازاني على قول المتنبي:

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

فإن قلت: أين التشبيه في هذا البيت؟ قلت: يدل البيت عليه ضمنًا، وإن لم يدل عليه صريحًا... وليس مثل هذا تشبيهًا ضمنيًا، أو تشبيهًا مكنيًا عنه. وهذا مثل ضربه الله للمرائين بالأعمال يبطلها الله يوم القيامة، وهو أحوج إليها، كمثل رجل كانت له جنة، وله أطفال لا ينفعونه، فكبر وأصاب الجنة إعصار، ويرى كثير من المفسرين أن هذا مثل آخر ذكره الله تعالى في حق من يتبع إنفاقه بالمن والأذى.

ينظر: أسرار البلاغة (١٠٩)، ومفتاح العلوم (٣٤١)، والمطول للتفتازاني (٣٣١)، وجامع البيان للطبري (٣/ ٥٠) وما بعدها، ومفاتيح الغيب (٧/ ٦٣)، وأنوار التنزيل (١/ ١٣٩)، وتفسير المنار (٣/ ٧٠) وما بعدها، والتحرير والتنوير (٣/ ٥٣، ٥٤).

والثمار والمعادِن فحذف [المضافُ][1] لدِلالة ما قبله عليه ﴿ولا تيَمَّموا﴾ بفتح التاء أصله ولا تتيمّموا، وقرئ[2] بضمها، وقرئ[3] ولا تأمّموا[4] والكلّ بمعنى القصد أي لا تقصِدوا ﴿الخبيثَ﴾ أي الرديءَ الخسيسَ وهو كالطيب من الصفات الغالبة التي لا تُذكرُ موصوفاتها ﴿منه تنفِقون﴾ الجارُّ متعلق بـ (تنفقون) والضميرُ للخبيث والتقديمُ للتخصيص والجملةُ حال من فاعل تيمّموا أي لا تقصِدوا الخبيثَ قاصرين الإنفاقَ عليه أو من الخبيث أي مختصًّا به الإنفاقُ، وأيًّا ما كان فالتخصيصُ لتوبيخهم بما كانوا يتعاطَوْنه من إنفاق الخبيثِ خاصة لا لتسويغ إنفاقِه مع الطيب.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم كانوا يتصدقون بحشَفِ التمر وشِرارِه فنُهوا عنه[5] وقيل: متعلقٌ بمحذوف وقع حالًا من الخبيث، والضميرُ للمال المدلول عليه بحسب المقام أو للموصولَين على طريقة قوله: [الرجز]

..... ..... ..... كأنه في الجلد توليعُ البَهَقْ[6]

أو للثاني، وتخصيصُه بذلك لما أن التفاوتَ فيه أكثرُ، وتنفقون حال من الفاعل المذكور أي ولا تقصِدوا الخبيث كائنًا من المال أو مما كسبتم، ومما أخرجنا لكم منفِقين إياه.

---

(١) سقط في ط.

(٢) قرأ بها: الزهري، ومسلم بن جندب، وابن عباس.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٢٨٩)، والإملاء للعكبري (١/ ٦٧)، وتفسير القرطبي (٣/ ٣٢٦)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٦٢)، والمحتسب لابن جني (١/ ١٣٨).

(٣) قرأ بها: عبد الله بن مسعود.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٢٨٩)، والبحر المحيط (٢/ ٣١٨)، وتفسير القرطبي (٣/ ٣٢٦)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٦٢).

(٤) في المخطوط: تأتموا.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٢/ ٥٢٦) رقم (٢٧٩٠) من طريق جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.

(٦) ويروى قبله

فيها خطوطٌ من سوادٍ وَبلق

الرجز لرؤبة في ديوانه ص (١٠٤)، وأساس البلاغة ص (٥٠٩)، (ولع)، والأشباه والنظائر (٥/ ٦٣)، وتخليص الشواهد ص (٥٣)، وخزانة الأدب (١/ ٨٨)، وشرح شواهد المغني (٢/ ٧٦٤)، ولسان العرب (ولع)، (بهق)، والمحتسب (٢/ ١٥٤)، ومغني اللبيب (٢/ ٦٧٨)، وتهذيب اللغة (٥/ ٤٠٧)، وتاج العروس (ولع)، (تأق)، (بهق)، وكتاب العين (٣/ ٣٧١)، ومقاييس اللغة (١/ ٣١٠)، ومجمل اللغة (١/ ٢٩٩)، وأساس البلاغة (ولع)، وبلا نسبة في شرح شواهد المغني (٢/ ٩٥٥)، وجمهرة اللغة ص(٣٧٦)، وكتاب العين (٢/ ٢٥٠)، ومقاييس اللغة (٦/ ١٤٤)، والمخصص (٥/ ٨٩).

وقوله تعالى: ﴿ولستم بآخِذيه﴾ حال على كل حال من واو تنفقون أي[1] والحال أنكم لا تأخذونه في معاملاتكم في وقت من الأوقات أو بوجه من الوجوه ﴿إلا أن تُغْمِضوا فيه﴾ أي إلا وقتَ إغماضِكم فيه [أو إلا بإغماضكم][2] وهو عبارةٌ عن المسامحة بطريق الكِناية أو الاستعارة يقال: أغمضَ بصرَه إذا غضّه، وقرئ[3] على البناء للمفعول على معنى إلا أن تُحمَلوا على الإغماض وتدخُلوا فيه أو توجَدوا مغمِضين، وقرئ «تَغمِضوا»[4] و«تَغمُضوا»[5] بضم الميم وكسرها.

وقيل: تم الكلام عند قوله تعالى: ﴿ولا تيمموا الخبيث﴾ ثم استُؤنف فقيل: على طريقة التوبيخ والتقريع: منه تنفِقون والحالُ أنكم لا تأخُذونه إلا إذا أغمَضْتم فيه، ومآله الاستفهامُ الإنكاريُّ فكأنه قيل: أمِنْه تنفقون . . . الخ.

﴿واعلموا أن الله غنيٌّ﴾ عن إنفاقكم وإنما يأمرُكم به لمنفعتكم. وفي الأمر بأن يعلموا ذلك مع ظهور علمِهم به توبيخٌ لهم على ما يصنعون من إعطاء الخبيث وإيذانٌ بأن ذلك من آثار الجهلِ بشأنه تعالى فإن إعطاءَ مثلِه إنما يكون عادةً عند اعتقادِ المعطي أن الآخذَ محتاجٌ إلى ما يعطيه بل مضطرٌ إليه.

﴿حميد﴾ مستحِقٌّ للحمد على نعمه العِظام وقيل: حامد بقبول الجيّد والإثابة عليه.

﴿الشَّيطانُ يعدِكم الفقرَ﴾ الوعدُ هو الإخبارُ بما سيكون من جهة المخبِر مترتبًا على شيء من زمان أو غيره يُستعمل في الشر استعمالَه في الخير قال تعالى: ﴿النَّارُ وعدَها اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحج، الآية: ٧٢] أي يعدُكم في الإنفاق الفقرَ ويقول: إن عاقبة إنفاقِكم أن تفتقِروا وإنما عبر عن ذلك بالوعد مع أن الشيطان لم يُضِف

---

(١) زاد في المخطوط: تنفقون.

(٢) سقط في ط.

(٣) قرأ بها: قتادة.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٢٨٩)، والبحر المحيط (٢/ ٣١٩)، وتفسير القرطبي (٣/ ٣٢٧)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٦٢)، والمحتسب لابن جني (١/ ١٣٩).

(٤) قرأ بها: الزهري.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ٦٧)، والبحر المحيط (٢/ ٣١٨)، وتفسير القرطبي (٣/ ٣٢٧)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٦٢).

(٥) قرأ بها: اليزيدي، والزهري.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ٦٧)، والبحر المحيط (٢/ ٣١٨)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٦٢)، والمحتسب لابن جني (١/ ١٣٩).

مجيءَ الفقرِ إلى جهته للإيذان بمبالغته في الإخبار بتحقق مجيئه كأنه نزّله في تقرّر الوقوعِ منزلةَ أفعالِه الواقعةِ بحسب إرادته، أو لوقوعه في مقابلة وعدِه تعالى على طريقة المشاكلة وقرئ بضم[1] الفاء والسكون وبضمتين وبفتحتين[2].

﴿ويأمرُكم بالفحشاء﴾ أي بالخَصلة الفحشاء أي ويغريكم على البخل ومنع الصدقات، إغراءُ الآمرِ للمأمور على فعل المأمور به والعربُ تسمي البخيلَ فاحشًا قال طرفةُ بن العبد[3]: [الطويل]

أرى الموتَ يعتامُ الكرامَ ويصطفي عقيلةَ مالِ الفاحشِ المتشدِّدِ[4]

وقيل بالمعاصي والسيِّئات.

﴿والله يعدُكم﴾ أي في الإنفاق ﴿مغفرةً﴾ لذنوبكم والجارُّ في قوله تعالى: ﴿منه﴾ متعلقٌ بمحذوف هو صفةٌ لمغفرةً مؤكدةٌ لفخامتها التي أفادها تنكيرُها أي مغفرةً أيَّ مغفرةٍ كائنةً منه عز وجل ﴿وفضلًا﴾ صفتُه محذوفةٌ لدلالة المذكور عليها كما في قوله تعالى: ﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضلٍ﴾ [آل عمران، الآية ١٧٤] ونظائرِه أي وفضلًا كائنًا منه تعالى أي خلَفًا مما أنفقتم زائدًا عليه في الدنيا، وفيه تكذيبٌ للشيطان، وقيل: ثوابًا في الآخرة ﴿واللَّهُ واسعٌ﴾ قدرةً وفضلًا فيحقق[5] ما وعدكم به من المغفرة وإخلافِ ما تنفقونه ﴿عليم﴾ مبالِغٌ في العلم فيعلم إنفاقَكم فلا يكاد يُضيع أجرَكم أو يعلمُ ما سيكون من المغفرة والفضل فلا احتمال للخُلْف في الوعد، والجملةُ تذييلٌ مقررٌ لمضمون ما قبله.

﴿يؤتي الحِكْمة﴾ قال مجاهد الحِكمةُ هي القرآنُ والعلمُ والفِقهُ. روي عن ابن أبي

---

(١) قرأ بها: أبو حيوة.
ينظر: البحر المحيط (٢/ ٣١٩)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٦٢)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٣٤٦).

(٢) ينظر: البحر المحيط (٢/ ٣١٩)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٣٤٦).

(٣) هو: طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد البكري الوائلي، أبو عمرو، شاعر جاهلي، من الطبقة الأولى، نادم الملك عمرو بن هند، الذي أرسله إلى عامله على البحرين وعمان، فقتله في العشرين من عمره سنة ستين ق.هـ.
ينظر: الشعر والشعراء (١٩١)، والمؤتلف والمختلف (١٤٦)، والأعلام (٣/ ٢٢٥).

(٤) البيت في ديوانه ص (٣٤)، ولسان العرب (شدد)، (فحش)، (عيم)، والتنبيه والإيضاح (٢/ ٣٢٢)، وكتاب العين (٢/ ٢٦٩)، ومقاييس اللغة (٣/ ١٧٩)، (٤/ ٤٧٨)، وتهذيب اللغة (٤/ ١٨٨، ١١/ ٢٦٦)، وتاج العروس (شدد)، (فحش)، (عقل)، (عيم).

(٥) في المخطوط: فيتحقق.

نجيح أنها الإصابة في القول والعمل[١]، وعن إبراهيم النخعي أنها معرفة معاني الأشياء وفهمُها[٢].

وقيل: هي معرفةُ حقائِقِ الأشياءِ.

وقيل: هي الإقدامُ على الأفعال الحسنةِ الصائبة. وعن مقاتل أنها تفسر في القرآن بأربعة أوجهٍ: فتارةً بمواعظِ القرآنِ وأخرى بما فيه من عجائب الأسرار، ومرةً بالعلم والفهم وأخرى بالنبوة ولعل الأنسبَ بالمقام ما ينتظم الأحكامَ المبينة في تضاعيف الآياتِ الكريمةِ من أحد الوجهين الأولين ومعنى إيتائِها تبيينُها والتوفيقُ للعلم والعمل بها أي يبينها ويوفِّقُ للعلم والعمل بها.

﴿من يشاء﴾ من عباده أن يؤتيها إياه بموجب سعةِ فضلِه وإحاطةِ علمه كما آتاكم ما بيّنه في ضمن الآي من الحِكَم البالغة التي يدور عليها فلَكُ منافعِكم فاغتنموها وسارعوا إلى العمل بها، والموصولُ مفعول أول لـ (يؤتي) قدم عليه الثاني للعناية به والجملةُ مستأنفة مقرّرةٌ لمضمون ما قبلها.

﴿ومن يؤتَ الحِكمةَ﴾ على بناء المفعول وقرئ[٣] على البناء للفاعل أي ومن يؤتِهِ اللَّهُ الحكمةَ والإظهارُ في مقام الإضمار لإظهار الاعتناءِ بشأنها وللإشعار بعِلة الحِكم.

﴿فقد أوتيَ خيرًا كثيرًا﴾ أي أيَّ خيرٍ كثير فإنه قد خِيرَ له خيرُ الدارين ﴿وما يذّكَّر﴾ أي وما يتعظ بما أوتي من الحكمة أو وما يتفكر فيها ﴿إلا أولوا الألباب﴾ أي العقولِ الخالصةِ عن شوائب الوهم والرّكونِ إلى مشايعة الهوى وفيه من الترغيب في المحافظة على الأحكام الواردةِ في شأن الإنفاق ما لا يخفى، والجملةُ إما حالٌ أو اعتراضٌ تذييلي.

﴿وما أنفقتم من نفقةٍ﴾ بيانٌ لحكم كلي شاملٍ لجميع أفراد النفقاتِ وما في حكمها إثرَ بيانِ حكمِ ما كان منها في سبيل الله، و﴿ما﴾ إما شرطية أو موصولة حُذف

---

(١) أخرجه الطبري (٣/ ٩٠) رقم (٦١٨٢) وابن أبي حاتم (٢/ ٥٣٢) رقم (٢٨٢٥).

(٢) أخرجه الطبري (٣/ ٩٠) رقم (٦١٨٨) وابن أبي حاتم (٢/ ٥٣٢) رقم (٢٨٢٦).

(٣) قرأ بها: يعقوب، والزهري والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (١٦٤)، والبحر المحيط (٢/ ٣٢٠)، والتبيان للطوسي (٢/ ٣٤٨)، وجامع (٣/ ٣٣١)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٦٣)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٨٢)، والمحتسب لابن جني (١/ ١٤٣)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٣٤٨)، والنشر في القراءات العشر (٣/ ٢٣٥)، وإتحاف فضلاء البشر ص (١٦٤).

عائدُها من الصلة أي وما أنفقتموه من نفقة أيِّ نفقةٍ كانت في حق أو باطلٍ في سرٍّ أو علانية قليلةٍ أو كثيرة ﴿أو نذرْتم﴾ النذرُ عقدُ الضمير على شيءٍ والتزامُه، وفعلُه كـ (ضرب ونصر) ﴿مِنْ نذرٍ﴾ أيِّ نذرٍ كان في طاعةٍ أو معصية بشرطٍ أو بغير شرط متعلقٍ بالمال أو بالأفعال كالصيامِ والصلاةِ ونحوهما ﴿فإن اللَّهَ يعلمُه﴾ الفاء على الأول داخلةٌ على الجواب وعلى الثاني مزيدةٌ في الخبر وتوحيدُ الضمير مع تعدّدِ متعلَّق العلم لاتحاد المرجع بناءً على كون العطف بكلمة أو كما في قولك: زيدٌ أو عمرٌو أكرمتُه، ولا يقال: أكرمتُهما ولهذا صِرنا[1] إلى التأويل في قوله تعالى: ﴿إن يكنْ غنيًّا أو فقيرًا فاللَّهُ أولى بهما﴾ [النساء، الآية ١٣٥] بل يعادُ الضميرُ تارةً إلى المقدَّم رعايةً للأولية كما في قوله عز وعلا: ﴿وإذا رأَوْا تجارةً أو لهوًا انفضُوا إليها﴾ [الجمعة، الآية ١١] وأخرى إلى المؤخَّر رعايةً للقُرب كما في هذه الآية الكريمة وفي قوله تعالى: ﴿ومن يكسِبْ خطيئةً أو إثمًا ثم يَرْمِ به بريئًا﴾ [النساء، الآية ١١٢] وحملُ النظم على تأويلهما بالمذكور ونظائِره أو على حذف الأول ثقةً بدلالة الثاني عليه كما في قوله تعالى: ﴿والَّذين يكنِزون الذهبَ والفضةَ ولا يُنفقونها في سبيل الله﴾ [التوبة، الآية ٣٤] وقوله: [المنسرح]

نحنُ بما عندنا وأنت بما عندكَ راضٍ والرأيُ مختلفُ[2]

ونحوِهما مما عُطف فيه بالواو الجامعةِ تعسفٌ مستغنىً عنه. نعم يجوز إرجاعُ الضمير إلى ﴿ما﴾ على تقدير كونِها موصولةً، وتصديرُ الجملة بإن لتأكيدِ مضمونِها إفادةً لتحقيق الجزاء، أي فإنه تعالى يجازيكم عليه ألبتةَ إن خيرًا فخيرٌ وإن شرًّا فشرٌّ فهو ترغيبٌ وترهيب ووعدٌ ووعيد.

﴿وما للظالمين﴾ بالإنفاق والنذر في المعاصي أو بمنع الصدقاتِ وعدمِ الوفاء بالنذر[3] أو بإنفاق الخبيثِ أو بالرياء والمنِ والأذى وغيرِ ذلك مما ينتظمُه معنى

---

(١) في المخطوط: صُيِّر.

(٢) البيت لقيس بن الخطيم في ملحق ديوانه ص(٢٣٩)، وتخليص الشواهد ص (٢٠٥)، والدرر (٥/ ٣١٤)، والكتاب (١/ ٧٥)، والمقاصد النحوية (١/ ٥٥٧)، ولعمرو بن امرئ القيس الخزرجي في الدرر (١/ ١٤٧)، وشرح أبيات سيبويه (١/ ٢٧٩)، وشرح شواهد الإيضاح ص(١٢٨)، ولدرهم بن زيد الأنصاري في الإنصاف (١/ ٩٥)، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر (٣/ ١٠٠)، (٦/ ٦٥)، (٧/ ١١٦)، وأمالي ابن الحاجب (٢/ ٧٢٦)، وخزانة الأدب (١٠/ ٢٩٥، ٤٧٦)، وشرح الأشموني (١/ ٤٥٣)، وشرح ابن عقيل ص(١٢٥)، والصاحبي في فقه اللغة ص(٢١٨)، ولسان العرب (قعد)، ومغني اللبيب (٢/ ٦٢٢)، والمقتضب (٣/ ١١٢)، (٤/ ٧٣)، وهمع الهوامع (٢/ ١٠٩).

(٣) في المخطوط: بالنذور.

الظلم الذي هو عبارة عن وضع الشيءِ في غير موضعِه الذي يحِقُّ أن يوضعَ فيه ﴿مِنْ أنصارٍ﴾ أي أعوان ينصرونهم من بأس الله وعقابِه لا شفاعةً ولا مدافعةً، وإيرادُ صيغة الجمع لمقابلة الظالمين أي وما لظالم من الظالمين من نصيرٍ من الأنصار، والجملةُ استئنافٌ مقرِّرٌ لما فيما قبله من الوعيد مفيد لفظاعة حالِ مَنْ يفعل ما يفعل من الظالمين لتحصيل الأعوانِ ورعاية الخلاّن.

﴿إنْ تُبدوا الصدقاتِ فنعمَّا هي﴾ نوعُ تفصيلٍ لبعض ما أُجمل في الشرطية وبيان له ولذلك تُرِك العطف بينهما أي إن تُظهِروا الصدقاتِ فنِعمَ شيئًا إبداؤُها بعد أن لم يكن رياءٌ وسمعةٌ وقرئ[1] بفتح النون وكسر العين على الأصل وقرئ[2] بكسر النون وسكون العين وقرئ[3] بكسر النون وإخفاءِ حركة العين، وهذا في الصدقات المفروضة وأما في صدقة التطوعِ فالإخفاءُ أفضلُ وهي التي أريدت بقوله تعالى: ﴿وإن تُخفوها﴾ أي تعطوها خُفية ﴿وتؤتوها الفقراءَ﴾ ولعل التصريحَ بإيتائها الفقراءَ مع أنه واجبٌ في الإبداء أيضًا لما أن الإخفاءَ مظِنةُ الالتباسِ والاشتباه فإن الغنيَّ ربما يدّعي الفقرَ ويُقدمُ على قَبول الصدقةِ سرًّا ولا يفعل ذلك عند الناس ﴿فهو خيرٌ لكم﴾ أي فالإخفاءِ خيرٌ لكم من الإبداء وهذا في التطوع، ومن لم يعرف بالمال وأما في الواجب فالأمرُ بالعكس لدفع التهمة.

---

(١) قرأ بها: ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وخلف، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (١٦٥)، والإعراب للنحاس (١/ ٢٩٠)، والإملاء للعكبري (١/ ٦٧)، والبحر المحيط (٢/ ٣٢٤)، والتبيان للطوسي (٢/ ٣٥٠)، والتيسير للداني ص (٨٤، ٩٦)، وتفسير القرطبي (٣/ ٣٣٤)، والحجة لابن خالويه ص (١٠٢)، والحجة لأبي زرعة ص (١٤٧)، والغيث للصفاقسي ص (١٧٠)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٦٣)، والكشف للقيسي (١/ ٣١٦)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٨٣)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٣٥٠)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢٣٥).

(٢) قرأ بها: أبو عمرو، ونافع، وعاصم، وقالون، وأبو جعفر، واليزيدي، والحسن، وشعبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (١٦٥)، والإملاء للعكبري (١/ ٢٩٠)، والإملاء للعكبري (١/ ٦٧)، والبحر المحيط (٢/ ٣٢٤)، والتبيان للطوسي (٢/ ٣٥٠)، والتيسير للداني ص (٨٤، ٩٦)، تفسير القرطبي (٣/ ٣٣٤)، والحجة لابن خالويه ص (١٠٢)، والحجة لأبي زرعة ص (١٤٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (١٩٠)، والغيث للصفاقسي ص (١٧٠)، والكشف للقيسي (١/ ٣١٦)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٨٣)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٣٥٠)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢٣٥، ٢٣٦).

(٣) قرأ بها: أبو عمرو، وقالون، وأبو بكر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (١٦٥)، والإملاء للعكبري (١/ ٦٧)، والبحر المحيط (٢/ ٣٢٤)، والتيسير للداني ص (٨٤، ٩٦)، والحجة لابن خالويه ص (١٠٢)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢٣٥).

عن ابن عباس رضي الله عنهما: صدقةُ السر في التطوع تفضُل علانيتها سبعين ضعفًا وصدقةُ الفريضة علانيتُها أفضلُ من سرّها بخمسة وعشرين ضِعفًا[١].

﴿ويكفرُ عنكم من سيئاتكم﴾ أي والله يكفرُ أو الإخفاءُ و﴿من﴾ تبعيضية أي شيئًا من سيئاتكم كما سترتموها وقيل مزيدةٌ على رأي الأخفش وقرئ بالتاء مرفوعًا[٢] ومجزومًا[٣] على أن الفعل للصدقات وقرئ[٤] بالنون مرفوعًا عطفًا على محل «ما» بعد الفاء أو على أنه خبرُ مبتدإٍ محذوف أي ونحن نكفرُ أو على أنها جملةٌ مبتدأةٌ من فعل وفاعل وقرئ[٥] مجزومًا عطفًا على محل الفاء وما بعده لأنه جوابُ الشرط.

﴿والله بما تعملون﴾ من الإسرار والإعلان ﴿خبير﴾ فهو ترغيب في الإسرار.

﴿ليس عليك هداهم﴾ أي لا يجب عليك أن تجعلهم مهديين إلى فعلِ[٦] ما أُمروا به من المحاسن والانتهاءِ عما نُهوا عنه من القبائح المعدودة وإنما الواجبُ عليك الإرشادُ إلى الخير والحثُ عليه والنهيُ عن الشر والردعُ عنه بما أوحي إليك من الآياتِ والذكرِ الحكيم ﴿ولكنَّ اللَّهَ يهدي﴾ هدايةً خاصةً موصلةً إلى المطلوب حتمًا ﴿من يشاء﴾ هدايتَه إلى ذلك ممن يتذكر بما ذُكّر ويتبعُ الحق ويختار الخيرَ، والجملةُ

---

(١) أخرجه الطبري (٥/ ٥٨٣)، حديث (٦١٩٧).
وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ٦٢٥) وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) قرأ بها: ابن هرمز، وابن عباس، والمهدوي.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ٦٨)، والبحر المحيط (٢/ ٣٢٥)، وتفسير الطبري (٥/ ٥٨٤)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٦٣)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٣٥٢).

(٣) قرأ بها: ابن عباس.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٢٩١)، والبحر المحيط (٢/ ٣٢٥)، وتفسير القرطبي (٣/ ٣٣٥)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٦٣)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٣٥٢).

(٤) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، ويعقوب، وابن محيصن، واليزيدي، وقتادة، وابن أبي إسحاق، وعاصم الحجدري، وشعبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٦٥)، والإعرب للنحاس (١/ ٢٩١)، والإملاء للعكبري (١/ ٦٨).

(٥) قرأ بها: نافع، وحمزة، وعاصم، والكسائي، وأبو جعفر، وخلف، والأعمش، والشنبوذي، وأبو بكر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (١٦٥)، والإعراب للنحاس (١/ ٢٩١)، والبحر المحيط (٢/ ٣٢٥)، والتبيان للطوسي (٢/ ٣٥١)، والتيسير للداني ص (٨٤)، وتفسير الطبري (٥/ ٥٨٥)، وتفسير القرطبي (٣/ ٣٣٥)، والحجة لابن خالويه ص (١٠٢)، والحجة لأبي زرعة (١٤٧، ١٤٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (١٩١)، والغيث للصفاقسي ص (١٧٠)، والكشف للقيسي (١/ ٣١٦، ٣١٧)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٣٥٢)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢٣٦).

(٦) في المخطوط: الإتيان.

معترضة جيء بها على طريق تلوينِ الخطاب، وتوجيهه إلى رسول الله ﷺ مع الالتفات إلى الغَيبة فيما بين الخطابات المتعلقة بالمكلفين مبالغةً في حملهم على الامتثال، فإن الإخبارَ بعدم وجوب تدارُك أمرِهم على النبي ﷺ مُؤْذنٌ بوجوبه عليهم حسبما ينطِق به ما بعده من الشرطية.

وقيل: لما كثُر فقراءُ المسلمين نهىٰ رسولُ الله ﷺ المسلمين عن التصدق على المشركين كي تحمِلَهم الحاجة على الدخول في الإسلام فنزلت[١]. أي ليس عليك هُدى مَنْ خالفك حتى تمنعَهم الصدقةَ لأجل دخولهم في الإسلام فلا التفاتَ حينئذٍ في الكلام، وضميرُ الغيبة للمعهودين من فقراءِ المشركين بل فيه تلوينٌ فقط.

وقوله تعالى: ﴿وما تُنفِقوا من خير﴾ على الأول التفاتٌ من الغَيبة إلى خطاب المكلفين لزيادة هزّهم نحو الامتثال، وعلى الثاني تلوينٌ للخطاب بتوجيهه إليهم وصرفهِ عن النبي ﷺ و﴿ما﴾ شرطية جازمة و﴿تنفقوا﴾ منتصبة به على المفعولية ومن تبعيضية متعلقة بمحذوفٍ وقعَ صفةً لاسم الشرط مبيّنةٌ ومخصصةٌ له أي أيِّ شيءٍ تنفقوا كائنٌ من مال.

﴿فلأنفسكم﴾ أي فهو لأنفسكم لا ينتفع به غيرُكم فلا تمنوا على من أعطيتموه ولا تؤذوه ولا تنفقوا من الخبيث، أو فنفعُه الدينيَّ لكم لا لغيركم من الفقراء حتى تمنعوه ممن لا ينتفع به من حيث الدينُ من فقراء المشركين.

﴿وما تنفقون إلا ابتغاءَ وجهِ الله﴾ استثناءٌ من أعم العللِ أو أعم الأحوال أي ليست نفقتُكم لشيء من الأشياء إلا لابتغاء وجه الله، أو ليست في حال من الأحوال إلا حال ابتغاء وجه الله فما بالُكم تمنون بها وتنفقون الخبيثَ الذي لا يوجّه مثلُه إلى الله تعالى وقيل: هو نفيٌ في معنى النهي ﴿وما تُنفِقوا من خيرٍ يوفَّ إليكم﴾ أي أجرُه وثوابُه أضعافًا مضاعفة حسبما فُصّل فيما قبلُ فلا عذرَ لكم في أن ترغبوا عن إنفاقه على أحسن الوجوهِ وأجملها فهو تأكيد وبيانٌ للشرطية السابقة، أو يوفَّ إليكم ما يُخلِفُه وهو من نتائج دعائه عليه السلام بقوله: «اللَّهم اجعل للمنفق خلَفًا وللمُمْسِك تلفًا»[٢].

---

(١) أخرجه الطبري (٣/ ٩٥) رقم (٦١٩٩).

(٢) أخرجه البخاري (٤/ ٥٨) كتاب الزكاة، باب: قوله تعالى: ﴿فأما من أعطى واتقى...﴾ برقم (١٤٤٢)، ومسلم (٢/ ٧٠٠) كتاب الزكاة، باب: المنفق والممسك، برقم (٥٧/ ١٠١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقيل: حجت أسماءُ بنت أبي بكرٍ فأتتها أمُّها تسألها وهي مشركة فأبت أن تعطِيَها[١].

وعن سعيد بنِ جبير أنهم كانوا يتقون أن يرضخوا لقراباتهم من المشركين[٢]. وروي أن ناسًا من المسلمين كانت لهم أصهارٌ في اليهود ورَضاعٌ كانوا ينفقون عليهم قبل الإسلام فلما أسلموا كرِهوا أن ينفقوا عليهم فنزلت[٣].

وهذا في غير الواجب وأما الواجب فلا يجوز صرفُه إلى الكافر وإن كان ذميًّا.

﴿وأنتم لا تظلمون﴾ لا تنقصون شيئًا مما وُعدتم من الثواب المضاعف أو من الخلَف.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٨٥).
والواحدي في أسباب النزول ص (٤٤٤)، حديث (٨١٣).
والطبري في تفسيره (١٢/ ٦٢)، حديث (٣٣٩٥٢)، (٣٣٩٥٣) والبزار (٢/ ٣٧٢)، حديث (١٨٧٤)، وقال البزار: لا نعلم له طريقًا عن ابن الزبير إلا هذا.
وأخرجه أحمد (٤/ ٤)، وأبو داود الطيالسي في المنحة (٢/ ٢٤)، حديث (١٩٨٢).
وذكره الهيثمي في المجمع (٤/ ١٤٧) وقال: رواه أحمد بنحوه والبزار واللفظ له وفيه مصعب بن ثابت: وثقه ابن حبان، وضعفه جماعة، وبقية رجالهما ثقات. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٣٠٥) وزاد نسبته إلى أبي يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس في تاريخه والطبراني وابن مردويه عن عبد الله بن الزبير قال: قدمت قيلة بنت عبد العزى على ابنتها...
وكذلك ذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (٤٥٨، ٤٥٩)، حديث (١٣٢٨) وزاد نسبته إلى أبي يعلى في المسند، والطبراني وابن مردويه وابن أبي حاتم.
أما حديث أسماء بنت أبي بكر: أخرجه أحمد (٦/ ٣٤٤- ٣٤٧-٣٥٥) والبخاري (١٠/ ٤١٣) كتاب الأدب، باب صلة المرأة أمها ولها زوج. حديث (٥٩٧٩) ومسلم (٢/ ٦٩٦): كتاب الزكاة - باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج والأولاد والوالدين ولو كانوا مشركين. حديث (٤٩/ ١٠٠٣)، أبو داود (٢/ ٣٠٧، ٣٠٨) كتاب الزكاة: باب الصدقة على أهل الذمة حديث (١٦٦٨) من حديث أسماء بنت أبي بكر الصديق رضى الله عنهما قالت: قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا فأتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله إن أمي قدمت وهي راغبة أفأصلها؟ قال «نعم صلي أمَّك» وقد ورد أن في هذه القصة نزل قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ الآية. كما رواه أحمد (٦/ ٣٤٤)، وابن جرير (٢٨/ ٤٣)، وقال ابن أبي شيبة (٣/ ١٧٨): كتاب الزكاة: باب ما قالوا في الصدقة في غير أهل الإسلام. حدثنا شبابة ثنا شعبة عن عثمان البتي عن الحسن في قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ قال: الأسرى من أهل الشرك. وقال أبو عبيد في الأموال ص (٧٢٩: ١٩٦٦): حدثنا حجاج عن ابن جريج في الآية قال: لم يكن الأسير يومئذ إلا من المشركين: وفي الباب آثار كثيرة يراجع لها الدر المنثور (٦/ ٤٨٤).

(٢) أخرجه الطبري (٣/ ٩٥) رقم (٦٢٠١).

(٣) أخرجه الطبري (٣/ ٩٥) رقم (٦٢٠٣).

﴿للفقراء﴾ متعلق بمحذوفٍ ينساقُ إليه الكلامُ كما في قوله عز وجل: ﴿في تسع آياتٍ إلى فرعونَ﴾ [النمل، الآية: ١٢] أي اعمدوا للفقراء أو اجعلوا ما تنفقونه للفقراء أو صدقاتِكم للفقراء ﴿الذين أُحصِروا في سبيل الله﴾ بالغزو والجهاد ﴿لا يستطيعون﴾ لاشتغالهم به ﴿ضربًا في الأرض﴾ أي ذهابًا فيها للكسب والتجارة وقيل: هم أهلُ الصُّفة كانوا رضي الله عنهم نحوًا من أربعمائة من فقراء المهاجرين يسكنون صُفّة المسجدِ يستغرقون أوقاتَهم بالتعلم والجهاد وكانوا يخرجون في كل سَريةٍ بعثها رسول الله ﷺ.

﴿يحسَبُهم الجاهلُ﴾ بحالهم ﴿أغنياءَ من التعفُّف﴾ أي من أجل تعفّفهم عن المسألة ﴿تعرِفهم بسيماهم﴾ أي تعرف فقرَهم واضطرارهم بما تعايِنُ منهم من الضعف ورَثاثةِ الحال، والخطابُ للرسول عليه السلام أو لكل أحدٍ ممن له حظ من[1] الخطاب، مبالغةً في بيان وضوحِ فقرهم.

﴿لا يسألون الناسَ إلحافًا﴾ أي إلحاحًا وهو أن يلازِمَ السائلُ المسؤولَ حتى يعطيَه من قولهم لَحفني من فضل لِحافِه أي أعطاني من فضل ما عنده والمعنى لا يسألونهم شيئًا، وإن سألوا لحاجةٍ اضْطَرَّتهم إليه لم يُلِحّوا، وقيل: هو نفيٌ لكلا الأمرين جميعًا على طريقة قوله: [الطويل]

على لاحِبٍ لا يُهتدَى لمنارِهِ ..... ..... .....[2]

أي لا منارَ ولا اهتداء.

﴿وما تُنفقوا من خيرٍ فإن الله به عليمٌ﴾ فيجازيكم بذلك أحسنَ جزاء فهو ترغيبٌ في التصدق لا سيما على هؤلاء.

﴿الذين يُنفقون أموالَهم بالليل والنهار سِرًا وعلانيةً﴾ أي يعُمّون الأوقاتَ والأحوالَ بالخير والصدقة، وقيل: نزلت في شأن الصديقِ رضي الله عنه حيث تصدّق بأربعينَ ألفَ دينارٍ، عشرة آلافٍ منه بالليل وعشرة بالنهار وعشرة سرًّا وعشرة علانية[3].

---

(١) في المخطوط: في.

(٢) صدر بيت وعجزه:

..... ..... ..... إذا سافه العَوْدُ الدِّيافيُّ جرجرا

والبيت لامرئ القيس في ديوانه ص (٦٦)؛ ولسان العرب (ديف)، (سوف)، (لحف)؛ وتهذيب اللغة (٥/ ٧٠)، (١٣/ ٩٢)، (١٤/ ١٩٨)؛ وأساس البلاغة (سوف)؛ وتاج العروس (ديف)؛ (لحف)، (سوف)؛ وبلا نسبة في لسان العرب (نسا)؛ ومقاييس اللغة (٢/ ٣١٨)؛ ومجمل اللغة (٢/ ٣٠٤).

(٣) ذكره المناوي في «الفتح السماوي» (١/ ٣٢٠) وقال: لم أقف عليه.

وقيل: في علي رضي الله عنه حين لم يكن عنده إلا أربعةُ دراهمَ فتصدق بكل واحد منها على وجهٍ من الوجوه المذكورة[1]، ولعل تقديمَ الليل على النهارِ والسرّ على العلانية للإيذان بمزية الإخفاء على الإظهار، وقيل: في رباط الخيل والإنفاق عليها.

﴿فلهم أجرُهم عند ربِّهم﴾ خبرٌ للموصول، والفاءُ للدَلالة على سببية ما قبلها لما بعدَها وقيل: للعطف والخبر محذوف أي ومنهم الذين . . . إلخ ولذلك جُوِّز الوقفُ على علانية ﴿ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزَنون﴾ تقدم تفسيره.

ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

﴿الذين يأكُلون الرِّبوا﴾ أي يأخُذونه والتعبيرُ عنه بالأكل لما أنه معظمُ ما قُصد به ولشيوعه في المطعومات مع ما فيه من زيادة تشنيع لهم وهو الزيادةُ في المقدار أو في الأجل حسبما فُصّل في كتب الفقه، وإنما كتب بالواو كالصلوة على لغة من يفخّم في أمثالها وزيدت الألفُ تشبيهًا بواو الجمع.

﴿لا يقومون﴾ أي من قبورهم إذا بُعثوا ﴿إلا كما يقوم الذي يتخبّطُه الشيطانُ﴾ أي إلا قيامًا كقيام المصروع، وهو وارد على ما يزعُمون أن الشيطانَ يخبِط الإنسانَ فيُصرعُ، والخبطُ: الضربُ بغير استواءٍ كخَبْط العشواء ﴿من المسّ﴾ أي الجنون، وهذا أيضًا من زَعَماتهم أن الجِنيَّ يمَسّه فيختلِط عقلُه فلذلك يقال: جُنَّ الرجل، وهو

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١١/ ٩٧)، حديث (١١١٦٤).
وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٣٢٧): وفيه عبد الوهاب بن مجاهد وهو ضعيف.
وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ٦٤٢) وعزاه لابن جرير وعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن عساكر، من طريق عبد الوهاب عن مجاهد عن أبيه عن ابن عباس.

متعلّق بما قبله من الفعل المنفي أي لا يقومون من المس الذي بهم بسبب أكلِهم الربا، أو بـ (يقوم) أو بـ (يتخبّطه) فيكون نهوضُهم وسقوطُهم كالمصروعين لا لاختلال عقولِهم بل لأن الله تعالى أربىٰ في بطونهم ما أكلوا من الربا فأثقلهم فصاروا مُخْبَلين ينهضون ويسقطون، تلك سيماهم يُعرَفون بها عند أهل الموقف.

﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما ذكر من حالهم وما في اسم الإشارةِ من معنى البعد للإيذان بفظاعة المشارِ إليه ﴿بأنهم قالوا إنما البيعُ مثلُ الرِّبوا﴾ أي ذلك العقابُ بسبب أنهم نَظَموا الربا والبيعَ في سلك واحدٍ لإفضائهما إلى الرِّبح فاستحلّوه استحلالَه[1] وقالوا: يجوز بيعُ درهم بدرهمين كما يجوز بيعُ ما قيمتُه درهمٌ بدرهمين بل جعلوا الربا أصلًا في الحِل وقاسوا به البيعَ مع وضوح الفرق بينهما فإن أحدَ الدرهمين في الأول ضائعٌ حتمًا وفي الثاني منجبرٌ بمِساس الحاجة إلى السلعة أو بتوقّع رَواجها.

﴿وأحلَّ الله البيعَ وحرَّم الربوا﴾ إنكارٌ من جهة الله تعالى لتسويتهم وإبطالٌ للقياس لوقوعه في مقابلة النص، مع ما أشير إليه من عدم الاشتراك في المناطِ، والجملةُ ابتدائيةٌ لا محلَّ لها من الإعراب.

﴿فمن جاءه موعِظةٌ﴾ أي فمن بلغه وعظٌ وزجرٌ كالنهي عن الربا وقرئ[2] (جاءتْه) ﴿من ربه﴾ متعلق بجاءه أو بمحذوف وقعَ صفةً لموعظةٌ، والتعرضُ لعنوان الربوبية مع الإضافة للإشعار بكون مجيءِ الموعظةِ للتربية ﴿فانتهىٰ﴾ عطفٌ على (جاءه) أي فاتّعظَ بلا تراخٍ وتبعَ النهيَ ﴿فله ما سَلَف﴾ أي ما تقدم أخذُه قبل التحريم ولا يُستردّ منه و﴿ما﴾ مرتفعٌ بالظرف إنْ جُعلت (مَنْ) موصولةً وبالابتداء إن جُعلت شرطيةً على رأي سيبويهِ لعدم اعتماد الظرفِ على ما قبله.

﴿وأمرُه إلى الله﴾ يجازيه على انتهائه إن كان عن قَبول الموعظةِ وصِدْقِ النية وقيل: يَحْكُم في شأنه ولا اعتراضَ لكم عليه.

﴿ومن عاد﴾ أي إلى تحليل الربا ﴿فأولئك﴾ إشارةٌ إلى ﴿من عاد﴾ والجمعُ باعتبار المعنى كما أن الإفرادَ في عاد باعتبار اللفظ وما فيه من معنى البُعد للإشعار ببُعد منزلتِهم في الشر والفساد ﴿أصحابُ النار﴾ أي ملازموها ﴿هم فيها خالدون﴾ ماكثون فيها أبدًا والجملةُ مقررة لما قبلها.

---

(١) في المخطوط: استحالة.

(٢) قرأ بها: الحسن، وأبي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (١٦٥)، والإعراب للنحاس (١/ ٢٩٤)، والبحر المحيط (٢/ ٣٣٥).

﴿يمحَقُ الله الرِّبا﴾ أي يذهب ببركته ويُهلِكُ المالَ الذي يدخُل فيه ﴿ويُرْبي الصَّدقاتِ﴾ يُضاعفُ ثوابَها ويبارُكُ فيها ويزيدُ المالَ الذي أُخرجَتْ منه الصدقة.

روي عنه ﷺ: «أن الله يقبلُ الصدقةَ ويُربيها كما يربّي أحدُكم مُهرَه»[١] وعنه عليه الصلاة والسلام: «ما نقصَ مالٌ من صدقةٍ قطُّ»[٢].

﴿والله لا يحبُّ﴾ أي لا يرضىٰ لأن الحبَّ مختصٌّ بالتوابين ﴿كلَّ كفارٍ﴾ مُصِرٍّ على تحليل المحرَّمات ﴿أثيم﴾ مُنهمِكٍ في ارتكابه.

﴿إن الذين آمنوا﴾ بالله ورسوله وبما جاءهم به ﴿وعمِلوا الصالحاتِ وأقاموا الصَّلاَةَ وآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ تخصيصُهما بالذكر مع اندراجهما في الصالحات لإنافتهما على سائر الأعمالِ الصالحة على طريقة ذكرِ جبريلَ وميكالَ عَقيبَ الملائكةِ عليهم السلام ﴿لهم أجرُهم﴾ جملةٌ من مبتدإٍ وخبرٍ واقعةٌ خبرًا لـ (إنَّ) أي لهم أجرُهم الموعودُ لهم وقولُه تعالى: ﴿عند ربهم﴾ حال من أجرهم، وفي التعرُّض[٣] لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم مزيدُ لطفٍ وتشريفٍ لهم ﴿ولا خوفٌ عليهم﴾ من مكروه آتٍ ﴿ولا هم يحزنون﴾ من محبوبٍ فات.

---

(١) أخرجه البخاري (٣/ ٢٧٨) كتاب الزكاة: «باب الصدقة من كسب طيب» حديث (١٤١٠) ومسلم (٢/ ٧٠٢) كتاب الزكاة: باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، حديث (٦٣، ٦٤) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه مسلم (٨/ ٥٤٦- الأبي): كتاب البر والصّلة والأدب: باب استحباب العفو والتواضع حديث (٦٩/ ٢٥٨٨)، وأحمد (٢/ ٢٣٥)، وابن خزيمة (٤/ ٩٧) حديث (٢٤٣٨) والدارمي (١/ ٣٩٦): كتاب الزكاة: باب في فضل الصّدقة، ومالك (٢/ ١٠٠٠): كتاب الصدقة: باب ما جاء في التعفف، حديث (١٢) وأحمد (٢/ ٢٣٥، ٣٨٦، ٤٣٨) والبيهقي في السنن الكبرى (٤/ ١٨٧): كتاب الزكاة: باب كراهية البخل (١٠/ ٢٣٥) والترمذي (٤/ ٣٧٦): كتاب البر والصلة: باب ما جاء في التواضع، حديث (٢٠٢٩) وابن حبّان في صحيحه (٨/ ٤٠) حديث (٣٢٤٨) والبغوي في شرح السنة (٣/ ٣٩٩): كتاب الزكاة: باب فضل الصّدقة، حديث (١٦٢٧) عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة.

وأخرجه البزار (١/ ٤٤٠- كشف الأستار)، حديث (٩٣٠) من طريق عبد الله بن غالب ثنا هشام بن عبد الرحمن الكوفي ثنا علقمة بن مرثد عن أبي الربيع عن أبي هريرة به.

وقال البزار: ما حدث به هكذا إلا هشام، ولا رواه عنه إلا عبد الله بن غالب العباداني، وقد حدث بغير حديث عن الأعمش.

ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ١١٩، ١٢٠) وعزاه لأبي يعلى، وقال: فيه محمد ابن السائب الكلبي، وهو متروك.

وأخرجه الطبري (٣/ ١٠٧) رقم (٦٢٥٦) عن السدي وبرقم (٦٢٥٧) عن ابن جريج.

(٣) في المخططوط: التعريض.

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله﴾ أي قوا أنفسَكم عقابَه ﴿وذرُوا ما بقيَ من الربوا﴾ أي واترُكوا بقايا ما شرَطْتم منه على الناس تركًا كليًا ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ على الحقيقة فإن ذلك مستلزِمٌ لامتثال ما أُمِرْتم به ألبتةَ وهو شرطٌ حُذفَ جوابُه ثقةً بما قبله أي إن كنتم مؤمنين فاتقوا وذرُوه إلخ، رُوي أنه كان لثقيفٍ مالٌ على بعض قريشٍ فطالبوهم عند المَحِلّ بالمال والربا[1] فنزلت.

﴿فإن لم تفعلوا﴾ أي ما أُمرتم به من الاتقاء وتركِ البقايا إما مع إنكار حُرمتِه وإما مع الاعتراف بها ﴿فأْذنوا بحربٍ من الله ورسولِه﴾ أي فاعلَموا بها من أذِن بالشيء إذا علِمَ به، أما على الأول فكَحربِ المرتدين وأما على الثاني فكحرب البغاة، وقرئ[2] فآذِنوا أي فأَعْلموا غيرَكم قيل: هو من الأذان وهو الاستماع فإنه من طرُق العلم. وقرئ[3] «فأيقِنوا» وهو مؤيِّد لقراءة العامة، وتنكيرُ حربٍ للتفخيم، و(من) متعلقة

(١) الربا: مقصور وهو من ربا يربو؛ فيكتب بالألف، وتثنيته ربوان، وأجاز الكوفيون كتبه وتثنيته بالياء؛ بسبب الكسرة في أوله، وغلطهم البصريون، ومعنى الربا - لغة-: الزيادة.
ينظر: الصحاح (ربا) (٦/ ٢٣٥٠)، المغرب (١٨٢)، المصباح المنير (ربا) (١/ ٣٣٣)، المطلع على أبواب المقنع، ص (٢٣٩).
وأما الربا اصطلاحًا: فقد عرفه الحنفية بأنه: فضل مال خالٍ عن عوض، شرط لأحد المتعاقدين في معاوضة مالٍ بمال.
عرفه المالكيةُ بأنه: عقد معاوضة على نقد أو طعام مخصوص بجنسه، مع التفاضل، أو مع التأخير مطلقًا.
وعرفه الشَّافعيةُ بأنه: عَقْدٌ على عِوَضٍ مخصوص، غير معلوم التماثُل في معيار الشرع حالة العقد، أو: مع تأخير في البَدَلَيْن، أو أحدهما.
وعرفه الحنابلة بأنه: الزِّيَادَةُ في أشياء مَخْصُوصة.
ينظر: شرح فتح القدير (٧/ ٣)، تبيين الحقائق (٤/ ٨٥)، وتحفة الفقهاء لعلاء الدين السمرقندي (٢/ ٣١)، وشرح فتح القدير (٧/ ٣)، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق (٤/ ٨٥)، ومغني المحتاج (٢/ ٢١٠)، وفتح الوهاب شرح منهج الطلاب (١/ ١٦١)، والمغني (٤/ ١٢٢)، ومجمع الأنهر شرح ملتقى الأبحر (٢/ ٨٣)، وكشاف القناع (٣/ ٢٥١).

(٢) قرأ بها: حمزة، وعاصم، والأعمش، وشعبة، وطلحة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (١٦٥)، والإملاء للعكبري (١/ ٦٨)، والبحر المحيط (٢/ ٣٣٨)، والتبيان للطوسي (٢/ ٣٦٧)، والتيسير للداني ص (٨٤)، وتفسير الطبري (٦/ ٢٤)، وتفسير القرطبي (٣/ ٣٦٤)،وحجل ص (١٠٣)، والحجة لأبي زرعة ص (١٤٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (١٩٢)، والغيث للصفاقسي ص (١٧٠)، الكشف للقيسي (١/ ٣١٨)، والمعاني للفراء (١/ ٢٨٩)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢٣٦).

(٣) قرأ بها: الحسن.
ينظر: البحر المحيط (٢/ ٣٣٨)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٣٦٥).

بمحذوف وقع صفةً لها مؤكدةً لفخامتها أي بنوعٍ من الحرب عظيمٍ لا يقادَرُ قدرُه كائنٍ من عند الله تعالى ورسوله.

روي أنه لما نزلت قالت ثقيفٌ: لا يدَ لنا بحرب الله ورسوله ﴿وإن تُبتم﴾ من الارتباء مع الإيمان بحرمتها بعدما سمعتموه من الوعيد ﴿فلكم رءوسُ أموالِكم﴾ تأخُذونها كَمَلًا ﴿لا تظلِمون﴾ غُرماءَكم بأخذ الزيادة.

والجملةُ إما مستأنفةٌ لا محلَّ لها من الإعراب أو حالٌ من الضمير في لكم والعاملُ ما تضمّنه الجارُّ من الاستقرار ﴿ولا تظلَمون﴾ عطفٌ على ما قبله، أي لا تُظلَمون أنتم من قِبَلهم بالمَطْل والنقص، ومن ضرورة تعليقِ هذا الحكم بتوبتهم عدمُ ثبوتِه عند عدمها[1]، إن كان مع إنكار الحرمةِ فهم مرتدون، ومالُهم المكسوبُ في حال الرِّدة فيءٌ للمسلمين عند أبي حنيفةَ رضي الله عنه وكذا سائرُ أموالهم عند الشافعيِّ وعندنا هو لورثتهم، ولا شيءَ لهم على كل حال، وإن كان مع الاعتراف بها فإن كان لهم شوكةٌ فهم على شرف القتل لم تسلَم لهم رؤوسُهم فكيف برؤوس أموالهم وإلا فكذلك عند ابن عباس رضي الله عنهما فإنه يقول: «مَنْ عاملَ الربا يستتاب وإلا ضُرب عنقُه»[2] وأما عند غيرِه فهم محبوسون إلى أن تظهرَ توبتُهم لا يُمَكّنون من التصرفات أصلًا فما لم يتوبوا لم يسلَمْ لهم شيءٌ من أموالهم بل إنما يسلَم بموتهم لورثتهم.

﴿وإن كان ذو عُسرةٍ﴾ أي إن وقع غريمٌ من غرمائكم ذو عسرةٍ، على أن (كان) تامة، وقرئ[3] (ذا عسرةٍ) على أنها ناقصة ﴿فنظِرَةٌ﴾ أي فالحكمُ نظِرةٌ أو فعليكم نظرةٌ أو فلتكم نظرةٌ وهي الإنظارُ والإمهالُ وقرئ[4] «فناظِرُه» أي[5] مُنتظرُه أو فصاحبُ نَظِرَتِه على طريق النسْب، وقرئ[6] «فناظِرْه» أمرًا من المفاعلة أي فسامِحْه بالنَّظِرة

(١) في المخطوط: لأن عدمها.
(٢) أخرجه الطبري (٣/ ١٠٨) رقم (٦٢٥٩).
(٣) قرأ بها: عبد الله بن مسعود، وأبي، وابن عباس، وعثمان، والمعتمر حجاج الوراق.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٢٩٥)، والبحر المحيط (٢/ ٣٤٠)، والتبيان للطوسي (٢/ ٣٦٨)، وتفسير الطبري (٦/ ٢٩)، وتفسير القرطبي (٣/ ٣٧٣)، والمعاني للفراء (١/ ١٨٦)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٣٦٦).
(٤) قرأ بها: عطاء.
ينظر: البحر المحيط (٢/ ٣٤٠)، والمحتسب لابن جني (١/ ١٤٣).
(٥) زاد في المخطوط: فالمستحق ناظره أي.
(٦) قرأ بها: مجاهد، وعطاء.

=

﴿إلى ميسَرَة﴾ أي إلى يَسار وقرئ[1] بضم السين وهما لغتان كمشْرَقة ومشْرُقة وقرئ[2] بهما مضافين بحذف التاء عند الإضافة كما في قوله: [البسيط]

..... ..... ..... وأخلفوك عِدَ الأمرِ الذي وعدوا[3]

﴿وأن تصدَّقوا﴾ بحذف أحد التاءين وقرئ[4] بتشديد الصاد أي وأن تتصدقوا على مُعْسري غرمائِكم بالإبراء ﴿خيرٌ لكم﴾ [أي][5] أكثرُ ثوابًا من الإنظار أو خيرٌ مما تأخذونه لمضاعفة ثوابه ودوامِه، فهو ندبٌ إلى أن يتصدقوا برؤوس أموالهم كلًا أو بعضًا على غرمائهم المعسرين كقوله تعالى: ﴿وأن تعفوا أقربُ للتقوى﴾ وقيل: المرادُ بالتصدّق الإنظارُ لقوله عليه السلام: «لا يحِل دَيْنُ رجل مسلم فيؤخره إلا كان له بكل يوم صدقة»[6].

---

= ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٢٩٥)، والإملاء للعكبري ص (٦٩)، والبحر المحيط (٢/ ٣٤٠)، والمحتسب لابن جني (١/ ١٤٣)، والمعاني للأخفش (١/ ١٨٨).

(١) قرأ بها: نافع، وابن محيصن، ومجاهد، وشيبة، وعطاء، وحميد بن قيس، والحسن، وأبو رجاء.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (١٦٦)، والإعراب للنحاس (١/ ٢٩٥)، والبحر المحيط (٢/ ٣٤٠)، والتبيان للطوسي (٢/ ٣٦٨)، والتيسير للداني ص (٨٥)، وتفسير القرطبي (٣/ ٣٧٤)، والحجة لابن خالويه ص (١٠٣)، والحجة لأبي زرعة ص (١٤٩)، والسبعة لابن مجاهد ص (١٩٢)، والغيث للصفاقسي ص (١٧٠)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٦٧)، والكشف للقيسي (١/ ٣١٩)، والمحتسب لابن جني (١/ ١٤٣)، والمعاني للأخفش (١/ ١٨٨)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٣٦٦)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢٣٦).

(٢) قرأ بها: عطاء، ومجاهد، وابن يعقوب، وزيد.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٢٩٥)، والبحر المحيط (٢/ ٣٤٠)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٦٧)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٩٣)، والبحر المحيط (٢/ ٣٤٠)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٦٧).

(٣) عجز بيت وصدره:
إنَّ الخليط أجدُّوا البين فانجردوا ..... ..... .....
والبيت للفضل بن عبَّاس في شرح التصريح (٢/ ٣٩٦)، ولسان العرب (١/ ٦٥١) (غلب) (٧/ ٢٩٣) (خلط)، وشرح شواهد الشافية، ص (٦٤)، والمقاصد النحوية (٤/ ٥٧٢)، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر (٥/ ٢٤١)، والخصائص (٣/ ١٧١)، وشرح الأشموني (٢/ ٣٠٤)، وأوضح المسالك (٤/ ٤٠٧)، ولسان العرب (٣/ ٤٦٢) (وعد) (٧/ ٢٩٣) (خلط).

(٤) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي وأبو جعفر، ويعقوب، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (١٦٦)، والبحر المحيط (٢/ ٣٤١)، والسبعة لابن مجاهد ص (١٩٣)، والغيث للصفاقسي ص (١٧٠)، والكشف للقيسي (١/ ٣١٩)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢٣٦).

(٥) سقط في المخطوط.

(٦) أخرجه ابن ماجه (٢/ ٨٠٨) كتاب الأحكام، باب: إنظار المعسر حديث (٢٤١٨) من طريق الأعمش =

﴿إن كنتم تعلمون﴾ جوابُه محذوفٌ أي إن كنتم تعلمون أنه خيرٌ لكم عمِلتموه ﴿واتقوا يومًا﴾ هو يومُ القيامة وتنكيرُه للتفخيم والتهويلِ، وتعليقُ الاتقاءِ به للمبالغة في التحذير عما فيه من الشدائد والأهوال ﴿تُرْجَعون فيه﴾ على البناء للمفعول من الرَّجْع وقرئ[١] على البناء للفاعل من الرُّجوع والأولُ أدخلُ في التهويل، وقرئ[٢] بالياء على طريق الالتفاتِ وقرئ تُرُدّون[٣] وكذا تَصيرون[٤] ﴿إلى الله﴾ لمحاسبة أعمالِكم.

﴿ثم توفّى كلُّ نفسٍ﴾ من النفوس والتعميمُ للمبالغة في تهويل اليوم أي تُعطىٰ كاملًا[٥] ﴿ما كسبت﴾ أي جزاءَ ما عمِلت من خير أو شر ﴿وهم لا يُظلمون﴾ حال

---

= عن نفيع أبي داود عن بريدة عن النبي ﷺ قال: من أنظر معسرًا كان له كل يوم صدقة ما لم يحل ومن أنظره بعد حلة كان له مثله في كل يوم صدقة.

قال البوصيري في «الزوائد» (٢/ ٢٤٦): هذا إسناد ضعيف؛ نفيع بن الحارث الأعمى الكوفي متفق على ضعفه.

وللحديث طريق آخر أخرجه أحمد (٥/ ٣٥١) والحاكم (٢/ ٢٩) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧/ ٥٣٨) من طريق محمد بن جحادة عن سليمان بن بريدة عن أبيه مرفوعًا.

ومن هذا الطريق ذكره الزيلعي في «تخريج الكشاف» (١/ ١٦٦) وزاد نسبته إلى إسحاق ابن راهويه وأبي يعلى والطبراني في «جمعه أحاديث محمد بن جحادة».

وللحديث شاهد من حديث ابن عباس أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١/ ١٥١) رقم (١١٣٣٠).

وقال الهيثمي في «المجمع» (٤/ ١٣٨): رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه الحكم ابن الجارود ضعفه الأزدي وشيخ الحكم وشيخ شيخه لم أعرفهما.

(١) قرأ بها: أبو عمرو، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (١٣١)، والبحر المحيط (٢/ ٣٤١)، والتبيان للطوسي (٢/ ٣٦٩)، والتيسير للداني ص (٨٥)، والحجة لأبي زرعة ص (١٤٩)، والسبعة لابن مجاهد ص (١٩٣)، والغيث للصفاقسي ص (١٧٠)، والكشف للقيسي (١/ ٣١٩، ٣٢٠)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٩٤)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٣٦٨).

(٢) قرأ بها: الحسن.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ٦٩)، والمحتسب لابن جني (١/ ١٤٥)، والبحر المحيط (٢/ ٣٤١)، وتفسير القرطبي (٣/ ٣٧٦).

(٣) قرأ بها: أبي.
ينظر: البحر المحيط (٢/ ٣٤١).

(٤) قرأ بها: أبي.
ينظر: البحر المحيط (٢/ ٣٤١).

(٥) في المخطوط: كملاً.

من كلِّ نفسٍ تفيد أن المعاقبين وإن كانت عقوباتهم مؤبدة غير مظلومين في ذلك لما أنه من قِبَلِ أنفسِهم، وجمعُ الضميرِ لأنه أنسبُ بحال الجزاء كما أن الإفراد أوفقُ بحال الكسب. عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أنها آخِرُ آيةٍ نزل بها جبريلُ عليه السلام وقال ضَعْها في رأس المائتين والثمانين من البقرة»[١] وعاش رسولُ الله ﷺ بعدها أحدًا وعشرين يومًا. وقيل: أحدًا وثمانين وقيل: سبعةَ أيام وقيل: ثلاثَ ساعات.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾ ۞ وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞۖ فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٢٨٣﴾ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدينٍ﴾ شروعٌ في بيان حال المُداينة الواقعةِ في تضاعيف المعاوضات[٢] الجاريةِ فيما بينهم ببيع[٣] السلعِ بالنقود بعد بيانِ حال الربا،

---

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٧/ ١٣٧) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٦٥٣) وزاد نسبته إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٢) المعاوضات في اللغة:
جمع معاوضة وهي مأخوذة من العوض وهو البدل الذي يبدل في مقابله غيره.
فيقال: عاضني زيد عوضًا، وأعاضني وعوَّضني: أعطاني العوض، واستعاض سأل العوض، واعتاض أخذ العوض ومثله تعوض، وجمع العوض أعواض مثل عنب وأعناب.
المعاوضة في الاصطلاح:
أطلق الفقهاء مصطلح المعاوضة على المبادلة بين عوضين، وعقد المعاوضة هو عقد يعطي كل =

أي إذا داين بعضُكم بعضًا وعامله نسيئةً معْطِيًا أو آخذًا، وفائدةُ ذكرِ الدين دفعُ توهُّم كونِ التدايُن بمعنى المُجازاة أو التنبيهُ على تنوعه إلى الحالِّ والمؤجّل وأنه الباعثُ على الكتابة، وتعيينُ المرجع للضمير المنصوب المتصل بالأمر ﴿إلى أجل﴾ متعلقٌ بتداينتم أو بمحذوف وقع صفةً لدَيْنٍ ﴿مُسمّىً﴾ بالأيام أو الأشهرُ ونظائرِهما مما يفيد العِلمَ ويرْفَعُ الجهالة لا بالحصاد والدّياس ونحوِهما مما لا يرفعها.

﴿فاكتُبوه﴾ أي الدَّين بأجله لأنه أوثقُ وأرفعُ للنزاع، والجمهورُ على استحبابه، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن المرادَ به السَّلَم[1] وقال: «لما حرم الله الربا أباح

---

= طرف فيه نفس المقدار من المنفعة التي يعطيها الطرف الآخر.
وعقود المعاوضات ضرب من التمليكات التي تقوم على أساس إنشاء حقوق والتزامات متقابلة بين العاقدين.

(٣) البيع - لغة-: مقابلة شيء بشيء، على وجه المعاوضة فيدخل فيه ما لا يصح تملكه كاختصاص وما إذا لم تكن صيغة، وخرج بوجه المعاوضة رد السلام في مقابلة ابتدائه، فيطلق على مطلق المعاوضة.
ينظر: لسان العرب (بيع) (٨/ ٢٣).
واصطلاحًا:
عرفه الحنفية بأنه: مبادلة المال بالمال بالتراضي.
وعرفه المالكية: بأنه دفع عوض من معوض، وبتعريف آخر: هو عقد معاوضة على غير منافع، ولا متعة لذة.
وعرفه الشافعية بأنه: عقد يتضمن مقابلة مال بمال بشرطه لاستفادة ملك عين، أو منفعة مؤبدة.
وعرفه الحنابلة بأنه: مبادلة المال بالمال تمليكا وتملكا.
ينظر: فتح القدير (٦/ ٢٤٦)، ومواهب الجليل (٤/ ٢٢٢)، ونهاية المحتاج (٣/ ٣٧٢)، وكشاف القناع (٣/ ١٤٦).

(١) السلم لغة: السلف وزنًا ومعنى.
ينظر: لسان العرب (سلم) (٣/ ٢٠٨١)، تحرير ألفاظ التنبيه، للنووي، ص (٢٠٩).
واصطلاحًا:
عرفه الحنفية بأنه: عبارة عن نوع بيع مُعَجَّل فيه الثمن.
حاشية ابن عابدين (٤/ ٢٠٣).
وعرفه المالكية بأنه: بيع شيء موصوف في الذمة بغير جنسه مؤجلًا.
مواهب الجليل (٤/ ٥١٤)، أسهل المدارك شرح إرشاد السالك في فقه الإمام مالك، لعبد الرحمن بن حمد المالكي ٧٣٢هـ (٢/ ٣١١).
وعرفه الشافعية بأنه: بيع موصوف في الذمة.
مغني المحتاج (٢/ ١٠٢).
وعرفه الحنابلة بأنه: عقد على موصوف بذمة مؤجل، بثمن مقبوض، بمجلس عقد.
مطالب أولي النهى (٣/ ٢٠٧)، كشاف القناع (٣/ ٢٨٨).

في السَّلَف»[١].

﴿وليكتُبْ بينكم كاتبٌ﴾ بيان لكيفية الكتابةِ المأمورِ بها وتعيينٌ لمن يتولاها إثرَ الأمرِ بها إجمالًا، وحذفُ المفعول إما لتعيُّنه[٢] أو للقصد إلى إيقاع نفسِ الفعلِ أي ليَفعلِ الكتابةَ، وقوله تعالى: ﴿بينكم﴾ للإيذان بأن الكاتبَ ينبغي أن يتوسّط بين المتداينين ويكتُبَ كلامَهما ولا يكتفيَ بكلام أحدِهما، وقولُه تعالى: ﴿بالعدل﴾ متعلق بمحذوف هو صفةٌ لكاتب أي كاتبٌ كائنٌ بالعدل أي وليكن المتصدِّي للكتابة من شأنه أن يكتُبَ بالسوية من غير مَيل إلى أحد الجانبين لا يزيد ولا ينقُص، وهو أمرٌ للمتداينين باختيار كاتبٍ فقيهٍ ديِّن حتى يجيء كتابُه موثوقًا به معدّلًا بالشرع، ويجوز أن يكون حالًا منه أي ملتبسًا بالعدل، وقيل: متعلقٌ بالفعل أي وليكتبْ بالحق ﴿ولا يأبَ كاتبٌ﴾ أي ولا يمتنعْ أحدٌ من الكُتاب ﴿أن يكتبَ﴾ كتابَ الدين ﴿كما علمه الله﴾ على طريقة ما علّمه من كَتْبه الوثائقَ أو كما بينه بقوله تعالى: ﴿بالعدل﴾ أو لا يأب أن ينفعَ الناسَ بكتابته كما نفعه الله تعالى بتعليم الكتابة كقوله تعالى: ﴿وأحسنْ كما أحسنَ الله إليك﴾ [القصص، الآية: ٧٧] ﴿فليكتبْ﴾ تلك الكتابةَ المُعْلمة، أَمَر بها بعد النهي عن إبائها تأكيدًا لها، ويجوز أن تتعلقَ الكافُ بالأمر على أن يكون النهيُ عن الامتناع منها مطلقةً ثم الأمرُ بها مقيدة.

﴿وليُمللِ الذي عليه الحقُّ﴾ الإملال هو الإملاءُ أي وليكن المُمْلي مَنْ عليه الحقُّ لأنه المشهودُ عليه فلا بد أن يكون هو المُقِرَّ ﴿وليتق الله ربه﴾ جُمع [ما][٣] بين الاسم الجليلِ والنعتِ الجميل للمبالغة في التحذير، أي وليتقِ المُمْلي دون الكاتِب كما قيل لقوله تعالى: ﴿ولا يبخَسْ منه﴾ أي من الحق الذي يُمليه على الكاتب ﴿شيئًا﴾ فإنه الذي يُتوقع منه البخسُ خاصة، وأما الكاتبُ فيُتوقع منه الزيادةُ كما يُتوقع منه النقصُ، فلو أُريد نهيُه لنَهىٰ عن كليهما، وقد فَعل ذلك حيث أمَر بالعدل، وإنما شُدِّد في تكليف المُمْلي حيث جُمع فيه بين الأمر بالاتقاء والنهي عن البخس لما فيه من

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (٢/ ٢٨٦) والطبري (٦/ ٤٠)، حديث (٦٣٢١) وعلقه البخاري (٤/ ٥٠٦): كتاب البيوع: باب السَّلم إلى أجل معلوم.
وأخرجه الطبراني في الكبير (١٢/ ٢٠٥)، حديث (١٢٩٠٣)، والبيهقي في السنن الكبرى (٦/ ١٨، ١٩) كتاب البيوع، باب: جواز السلف المضمون بالصفة.
وذكره السيوطي في الدر (١/ ٦٥٤) وعزاه للشافعي وعبد الرزاق وعبد بن حميد والبخاري وابن أبي حاتم، والطبري وابن المنذر والحاكم والبيهقي عن عبد الله بن عباس.

(٢) في المخطوط: لعينه.

(٣) سقط في المخطوط.

الدواعي إلى المنهيِّ عنه، فإن الإنسان مجبولٌ على دفع الضرر عن نفسه وتخفيفِ ما في ذمته بما أمكن.

﴿فإنْ كان الذي عليه الحقُّ﴾ صَرَّح بذلك في موضع الإضمار لزيادة الكشفِ والبيان لا لأن الأمرَ والنهيَ لغيره ﴿سفيهًا﴾ ناقصَ العقلِ مبذِّرًا مجازفًا ﴿أو ضعيفًا﴾ صبيًا أو شيخًا مختلًا ﴿أو لا يستطيع أن يُمِلَّ هو﴾ أي غيرَ مستطيعٍ للإملاء بنفسه لخرَسٍ أو عيٍّ أو جهلٍ أو غير ذلك من العوارض ﴿فليملِلْ وليُّه﴾ أيَ الذي يلي أمرَه ويقوم مقامه من قيِّم أو وكيل أو مترجم ﴿بالعدل﴾ أي من غير نقص ولا زيادة. لم يكلَّف بعين ما كُلف به من عليه الحقُّ لأنه يُتوقع منه الزيادةُ كما يتوقع منه البخس.

﴿واستشهدوا شهيدين﴾ أي اطلُبوهما ليتحملا الشهادةَ على ما جرى بينكم من المداينة، وتسميتُهما شهيدين لتنزيل المُشارف منزلةَ الكائن ﴿من رجالكم﴾ متعلق بـ (استشهدوا)، ومن ابتدائية أو بمحذوف وقع صفةً لشهيدين، ومن تبعيضية أي شهيدين كائنين من رجال المسلمين الأحرار إذ الكلامُ في معاملاتهم، فإن خطاباتِ الشرعِ لا تنتظمُ العبيدَ بطريق العبارة كما بُيِّن في موضعه، وأما إذا كانت المداينةُ بين الكفَرَة أو كان من عليه الحقُّ كافرًا فيجوز استشهادُ الكافر عندنا[(١)].

---

(١) ذهب الشافعية ومن لف لفهم: أنه لا تقبل شهادة الكفار على المسلمين، ولا على الكفار وسواء أكانت له أم عليه، في وصية أو في غيرها، في سفر أو حضر.
واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦] فأمر بالتَّبَيُّنِ في نبأ الفاسق وهو خبره، والكافر فاسق؛ فَاقْتَضى وجوب التبين في خبره، والشهادة خبر.
وروى معاذ أن النبي ﷺ قال: «لا تُقْبَلُ شَهَادَةُ أَهْلِ دينٍ عَلَى غَيْرِ أَهْلِ دِينِهِمْ إلا الْمُسْلِمِينَ؛ فإنَّهُمْ عُدُولٌ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَعَلَى غَيْرِهِمْ».
ولأن من عرف بالكذب وأكل السحت لا تقبل شهادته، وقد أخبر الله تعالى أن الكفار يفعلون ذلك، فلم تقبل شهادتهم؛ قال تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ﴾ [المائدة: ٤٢].
مذاهب العلماء في اختلاف الدين في الشهادة
وذهب الحنفية في مشهور المذهب إلى أنها لا تقبل أيضًا كالشافعية، ونقل في الدر عن الأشباه أنه قد تقبل شهادة غير المسلم على المسلم تبعًا أو ضرورة كما لو شهد ذميان على ذمي موكله مسلم، فإن الشهادة تقبل على الوكيل قصدًا وعلى الموكل ضمنًا وتبعًا، وكشهادة ذميين على ذمي أنه أوصى إلى ذمي مثله وأحضر مسلمًا عليه حق للميت؛ فإن الشهادة تقبل على الإيصاء؛ فيلزم المدعى عليه المسلم بأداء الحق الذى عليه للميت الموصى.
وذهب المالكية إلى: أن شهادة الكافر على المسلم لا تقبل إلا شهادة الطبيب الكافر في بعض العيوب، وفي مقادير الجراح، فقد قالوا بقبولها للحاجة.
وذهب الحنابلة إلى: أنه تجوز شهادة الكافر على المسلم في الوصية في السفر إذا لم يكن غيره، ولا تجوز شهادته في غير ذلك.
=

﴿فإن لم يكونا﴾ أي الشهيدان جميعًا على طريقة نفي الشمولِ لا شُمولِ النفي

= وفي رواية عندهم تجوز عند كل ضرورة شهادة الكافر على المسلم.
وبالتأمل في الأقوال السابقة نستخلص أن في المسألة قولين:
أحدهما: عدم قبول شهادة الكافر على المسلم مطلقا.
والثاني: قبولها في بعض المواضع: كالوصية إذا كانت في السفر، ولم يجد الموصي المسلم من يشهده من المسلمين.
استدل القائلون بعدم قبول الشهادة مطلقا
أولا: بقوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢]، وقوله: ﴿وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَآءِ﴾ [البقرة: ٢٨٢].
دلت الآيتان على اشتراط عدالة الشاهد وكونه من الرجال المسلمين المرضية شهادتهم؛ لأن من هذا شأنه في الغالب يتحرى الصدق المثبت للحق، وإذا كان الكافر غير متوفرة فيه هذه الشروط؛ لم يكن أهلا للشهادة على المسلم.
ونوقش هذا الدليل:
بأن قوله: ﴿وَاسْتَشْهِدُواْ﴾ [البقرة: ٢٨٢] واردة في الإشهاد الاختياري، وهو غير أداء الشهادة؛ فإن الأمر باختيار أفضل الناس إيمانًا وعدالة للإشهاد غير مستلزم عدم الاعتداد بشهادة من هو دونه في الفضل.
وبأن قوله: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَآءِ﴾ [البقرة: ٢٨٢] قصد بها الشارع: التوسعة على عباده في الإشهاد والمسلمون أحوج ما يكونون إليها، وهي في هذا الباب تتحقق بقبول شهادة الكفار على المسلمين؛ لأن كثيرًا من العقود والجنايات والإقرارات قد تقع من بعض المسلمين على مرأى ومسمع من الكفار، فلو أهدرنا شهادتهم؛ لضاعت تلك الحقوق على أربابها.
ولعل قائلا يقول: إن المسلمين إذا فقدوا عدالتهم أوجب ذلك رد شهادتهم، حتى على المسلمين؛ فيكون فقد الإيمان وهو أشد موجبًا لرد شهادتهم على المسلمين من باب أولى؛ لعدم تحرزهم عن الكذب، وعدم تحريهم الصدق، وفقدانهم العدالة.
والجواب عنه: أن الإيمان بالله وبشريعة منزلة من عنده كفيلان بتحريم الكذب على المتصف بهما، وهذا محقق للمقصود الأصلي من الشهادة، ومما لا شك فيه أن ذلك موجود في غير الإسلام من الملل.
ودعوى أن غير المسلم لا يكون صادقًا ولا عدلا يعوزها الدليل؛ بل النقل وارد على خلافها، وكذا العقل وسير السلف؛ قال تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩] فإن حمل ذلك على ما قبل بعثة نبينا أو على من آمن به بعده؛ فلا يمكن أن يحمل قوله: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٧٥] ؛ لأن الأخيرة دالة على مبلغ أمانتهم، والشهادة عمادها الأمانة، وكذلك قبل الرسول عليه السلام شهادتهم في آية الرجم في التوراة، فلو لم يكونوا صادقين لردها.
وأما دليل العقل: فهو أن الأصل في خبر الإنسان الصدق، وإن كان كافرًا فلا يعدل عنه إلا عند وجود التهمة، وهذا مستلزم لإثبات عدالة الكفار.
واستدلوا ثانيًا: بأن الله تعالى حكم على الكفار بالفسق، وأثبت عليهم الظلم والكذب لإنكارهم =

﴿رجلين﴾ إما لإعوازهما أو لسببٍ آخرَ من الأسباب ﴿فرجلٌ وامرأتان﴾ أي فليشهد

= آياته؛ عنادًا مع علمهم بحقيقتها؛ قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ [السجدة: ١٨]، وقال: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤] وقال ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ﴾ [النمل: ١٤].

وإن كان المسلم الفاسق الظالم ترد شهادته بسبب ظلمه وفسقه؛ فأولى بالكافر أن ترد شهادته؛ لأن الكاذب على الناس أدنى حالا من الكاذب على الله ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓۚ﴾ [الزمر: ٣٢].

ونوقش هذا الدليل:

بأن إخبار الله بفسقهم وكذبهم مرجعه إلى العقيدة، وهذا غير مانع من عدالتهم وأمانتهم وتصديقهم في المعاملات؛ لأن فسق العقيدة غير مستلزم لتهمة الكذب الذي هو المانع من قبول الشهادة؛ ودليل ذلك وصف الله لهم في كتابه: بالأمانة على القنطار، والمشاهد الكثيرة المؤدية لصدقهم وأمانتهم في معاملتهم، حتى لقد يشتهر البعض منهم بذلك، ويطمئن القلب إلى صدقه، وتسكن النفس لقوله.

وإنما ردت شهادة الفاسق لأجل كذبه واتهامه بتعاطي المنكرات، أما الكافر: فليس كذلك؛ إذ إن منهم من يكون عدلا في دينه، صادق اللهجة بين قومه، فلم يكن ثَمَّ مانع من قبول شهادته على المسلم.

وإذا كان سبحانه قد أباح معاملتهم وأحل نساءهم وطعامهم؛ وكان هذا مستلزمًا الرجوع إلى أخبارهم وقبولها في ذلك، وجائز الاعتماد على تلك الأخبار فيما هو متعلق بالأعيان التي تحرم وتحل؛ فأولى أن نعتمد على خبرهم في غيرها، فإن كانت الحجة في ذلك هي الحاجة الماسة؛ فباب الشهادة أشد حاجة وأقوى كما بينا.

واستدلوا ثالثًا:

بأن نقص الكفر أغلظ من نقص الرق، ونقص الرق مانع من قبول الشهادة على المسلم؛ فيكون نقص الكفر أولى بالمنع.

أما دليل كون الكفر أغلظ فهو: أن نقص الكفر مانع من قبول الخبر عن الرسول، وصحة العبادات، ونقص الرق ليس بمانع منهما.

ونوقش هذا الدليل:

بأن العبد لما لم تكن له ولاية على أحد وكان مولى عليه كالصبي؛ منعت عنه أهلية الشهادة أصلا؛ بخلاف الكافر فإنه أهل للولاية في الجملة فهو أهل لأن يلي مثله؛ فتثبت له أهلية الشهادة؛ ولهذا كان أثر الرق في باب الشهادة أقوى من الكفر لاعتمادها على الولاية.

قلت: وهذا الجواب إذا سلمنا بأن شهادة العبد غير مقبولة، أما إن قلنا بقبول شهادة العبد كما سبق؛ فإن الدليل ينتقض من أساسه، والله أعلم.

واستدلوا رابعًا: بأنه في قبول شهادة الكفار على المسلمين تكريمًا لهم ورفعًا لقدرهم وشأنهم، ورذيلة الكفر معصية لا يناسبها ذلك.

ونوقش هذا الدليل: بأننا نسلم أن في القبول تكريمًا لهم، ولكن الكفر غير مانع من التكريم عند الضرورة والاحتيال على إيصال الحقوق لأهلها، والممنوع هو أن يكرم الكافر لكفره أي: من حيث كونه كافرًا لا من حيث كونه شاهدًا.

=

.................................................................................................

= واستدلوا خامسًا: بأن في قبول شهادتهم إلزامًا لقاضي المسلمين بالقضاء عند شهادتهم، والمسلم لا يلزم بقول كافر؛ لأنه لا ولاية لكافر على مسلم؛ فلا يكون الكافر أهلا للشهادة على المسلم.
ونوقش هذا الدليل: بأن القاضي لما كان ملزمًا باتباع الحق حيثما كان، وبالقضاء عند ظهور الحجة الصادقة له أينما وجدت لم يكن هناك مانع من قبوله شهادة الكفار على المسلم؛ احتيالا لإثبات الحقوق، ومحافظة عليها من الضياع.
واستدل المجيزون لها في وصية السفر أولا: بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [المائدة:١٠٦].
وجه الدلالة: أن الضمير في قوله: ﴿ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ [المائدة:١٠٦] راجع للمؤمنين؛ لأن الخطاب في صدر الآية لهم؛ فكان الضمير راجعًا عليهم، وتقييد الآية بالضرب في الأرض الذي هو السفر مفهم أن هذا الحكم حيث لم يكن هناك مسلم؛ لأنه لا موجب لهذا الشرط إلا الضرورة الحاصلة عند السفر؛ وحينئذ يكون معنى الآية: أنه سبحانه يخبرنا أن الشهادة على الموصي إذا حضر الموصى الموت في الحضر تكون على يد عدلين من المسلمين، وإن كان في السفر ووجد من يشهده من المسلمين فكذلك؛ فإن كانت الوصية في السفر ولم يجد من يشهده من المؤمنين جاز له أن يشهد على وصيته من حضر ولو كان من أهل الكفر، وفي ذلك دلالة ظاهرة على صحة إشهاد الكافر على المسلم، وبالتالي قبول شهادته عليه؛ لأنه لا معنى للإشهاد إلا صحة الأداء ثم لا يتم الاستدلال إلا بتفسير قوله: ﴿مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾ [المائدة: ١٠٦] في الآية بالكفار؛ والدليل على هذا التفسير:
أولا: أن قوله: ﴿أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [المائدة: ١٠٦]، دليل على أن جواز الاستشهاد بالآخرين شرطه: أن يكون المستشهد في سفر؛ فلو كان الشاهدان مسلمين، لما كان الاستشهاد بهما مشروطًا بذلك؛ لأن الاستشهاد بالمسلم جائز سفرًا وحضرًا.
ثانيًا: أن سياق الآية دال على وجوب تحليف هذين الشاهدين بعد الصلاة، وإجماع المسلمين على عدم وجوب تحليف الشاهد مضاد لذلك؛ فخروجًا من هذا يحمل الشاهدان على غير المسلمين.
ثالثًا: ما جاء في سبب نزول الآية: فقد روى عبد الملك بن سعيد بن جبير عن أبيه عن ابن عباس قال: خرج رجل من بني سهم، قيل: إنه مولى العاص بن وائل السهمي مع تميم الدارى وعدى، فمات السهمي بأرض ليس بها مسلم، فلما قدما بتركته فقدوا جامًا من فضة مخوص بذهب، فأحلفهما رسول الله ﷺ ، ثم وجدوا الجام بمكة، فقالوا: اشتريناه من تميم الدارى وعدى، فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا بالله إن هذا لجام السهمي ولشهادتنا أحق من شهادتهما، وما اعتدينا إنا إذن لمن الظالمين؛ فأخذا الجام. قال ابن عباس: وفيهم نزلت الآية.
ووجه الدلالة في سبب النزول في قوله: «فقام رجلان من أولياء السهمي» وأولياؤه كانوا كفارًا، وقبل الرسول شهادتهما على المسلم.
رابعًا: قراءة ابن عباس رضى الله عنهما: أو آخران من غيركم من أهل الكتاب، ولا يقرؤها كذلك إلا سماعًا من الرسول ﷺ.
ونوقش هذا الدليل: بأن الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، والكافر غير مرضي الشهادة على المسلم، وآية الدين التى ورد فيها الناسخ من آخر القرآن نزولا؛ كما =

.........................................................................................

=

روي ذلك عن زيد بن أسلم وغيره.
وأجيب: بأن دعوى النسخ لا تصح ولا تثبت بالاحتمال، بل لابد من ثبوت كون الناسخ متراخيًا عن المنسوخ على وجه يتعذر معه الجمع؛ فإنه أولى من إلغاء أحد الدليلين، ويؤيد عدم النسخ ما صح عن عائشة وابن عباس وجمع من السلف: أن سورة المائدة محكمة.
ونوقش بأنه على تسليم عدم النسخ نمنع أن يكون المراد من قوله: ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥] من المؤمنين، بل المراد: من عشيرتكم وقرابتكم؛ لأنهم أحفظ وأضبط وأبعد عن النسيان، كما نمنع أن يكون المراد بقوله: ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ [المائدة:١٠٦] هم: الكفار، بل المراد بهم من غير عشيرتكم وقرابتكم وقبيلتكم؛ روي هذا عن الزهري، واستدل النحاس على ذلك بأن: لفظ «آخر» لابد أن يشارك الذى قبله في الصفة حتى لا يسوغ أن يقول: مررت برجل كريم ولئيم آخر، فعلى وصف الاثنين بالعدالة يتعين أن يكون الآخران كذلك.
وأجيب:بأن دعوى أن يكون المراد بمن غيركم في الآية من غير عشيرتكم وقبيلتكم مردودة بكون الخطاب في أول الآية عام لجميع المؤمنين، فغيرهم لا يكون إلا من الكفار.
ثم إن ساغ هذا التفسير في الآية فما ورد في سبب النزول يدل على خلافه؛ لأن الصحابى إذا حكى سبب النزول كان ذلك في حكم الحديث المرفوع اتفاقًا، وليس بخاف أن لا اتفاق بين هذا التفسير وما ورد في سبب النزول.
ونوقش الدليل أيضًا:
بأن الآية لا دلالة فيها على المطلوب؛ لأن المراد بالشهادة المذكورة ليست هي الشهادة المتنازع فيها، وإنما هى أيمان الموصى بالله تعالى للورثة. وبأن الآية على مقتضى الاستدلال تخالف القياس والأصول، من جهة أنها تضمنت شهادة الكافر وهو لا شهادة له؛ لكونه غير مرضى الشهادة، وتضمنت حبس الشاهد وهو لا يحبس، وتضمنت تحليف إحدى البينتين أن شهادتها أحق من شهادة الأخرى، وتضمنت شهادة المدعيين لأنفسهم واستحقاقهم بمجرد دعواهم وأيمانهم.
وأجيب: بأنه لو كان المراد بذلك أيمان الأوصياء للورثة؛ لما قيدت بالنص، ولما طلب من الشاهد أن يتلفظ بقول: «لا نكتم شهادة الله»، ولما ذكرت الأيمان قسيمة لها في آخر الآية في قوله: ﴿أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ [المائدة: ١٠٨] فإن قسيم الشيء مغاير له.
ولو كان المراد من الشهادة اليمين لكان المعنى في قوله: ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١٠٦] في الآية بحلفان الله ما نكتم اليمين، وهذا لا معنى له ألبتة؛ فإن اليمين لا يكتم، ولا يقال للشخص: احلف: أنك لا تكتم حلفك؛ فحمل الشهادة في الآية على اليمين مخالف لما هو متعارف من لفظ الشهادة في أسلوب القرآن والسنة، وإلا لكانت الشهادة في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق:٢]، وقوله: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقوله: ﴿وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢] معناها: اليمين، ولم يقل به أحد.
وكيف يكون المراد بالشهادة اليمين مع أن الشهادة عطفت على ذوي العدل من المؤمنين، وهما شاهدان، والموصي إنما يحتاج للشهادة لا للأيمان؛ فلابد من حمل الآية عليها.
فإن قيل: لا غرابة في هذا الحمل؛ فقد سمى الله أيمان اللعان: شهادة، كما في قوله تعالى: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ﴾ [النور: ٦] وقوله: ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ﴾ [النور: ٨].

=

.........................................................................................................

= أجيب: بأنه إنما سمى أيمان الزوج: شهادة في اللعان؛ لأنها قائمة مقام البينة؛ ولذلك ترجم المرأة حين نكولها عن اليمين، وسميت أيمان اللعان: شهادة؛ لمقابلتها شهادة الزوج.
أما جواب كون الآية مخالفة للأصول ومتضمنة شهادة الكافر وهو لا شهادة له، فهو أن الخصم لا ينفي شهادة الكافر؛ فقد قال بشهادته على مثله الحنفية، وجوز المالكية شهادة الطبيب الكافر على المسلم حيث لا طبيب مسلم.
وأما حبس الشاهد وهي المخالفة الثانية، فليس المراد به وضعه في السجن كما ظن المعترض بل إمساكه لليمين بعد العصر.
وأما تحليف الشاهدين، فإنما يكون ممنوعًا في الشهادة إذا كانت أصلية؛ أما في مثل مسألتنا فالشهادة ضرورية؛ لكونها شهادة من كافر على مسلم بدلا من شهادة مسلم قبلت للضرورة، ولم يرد نص في كتاب أو سنة بمنعها؛ فلم يكن ثم مانع من تحليف الشاهد، وقد حلَّف ابن عباس امرأة شهدت برضاع عنده، وذهب إلى القول بتحليف الشاهد الإمام أحمد في أحد قوليه.
وقال بعض السلف بجواز تحليف الشاهد المسلم عندما يرتاب الحاكم في شهادته.
وأما أنها تتضمن شهادة المدعيين لأنفسهم والحكم لهم بمجرد دعواهم: فهذا ليس بصحيح؛ لأنه سبحانه جعل الأيمان لهم عند ظهور اللوث بخيانة الوصيين، ومن هنا شرع لهما الحلف، ثم الاستحقاق، وليس ذلك من باب الشهادة من المدعي لنفسه بل من باب الحكم له بيمينه القائم مقام الشهادة؛ لقوة جانبه.
واستدل المجوزون ثانيًا:
بأن الصحابة رضوان الله عليهم قبلوا شهادة الكافر على المسلم في الوصية في السفر، فقد روى أبو عبيد في كتابه: الناسخ والمنسوخ: أن ابن مسعود رضى الله عنه قضى بذلك زمن عثمان.
وروى غيلان بن جامع عن عامر قال: شهد رجلان من أهل دقوقا على وصية مسلم عندهم، وأن أهل الوصية (أتوا بها) أبا موسى الأشعري، فأحلفهما بالله بعد العصر ما اشترينا به ثمنًا قليلا، ولا كتمنا شهادة الله إنا إذن لمن الآثمين. ثم قال أبو موسى: هذه القضية ما قضى بها منذ مات رسول الله ﷺ إلى اليوم.
ورواه أبو داود والدارقطني عن الشعبي بوجه آخر وفيه قال الأشعري: هذا أمر لم يكن بعد الذي كان في عهد رسول الله.
فدل الذي تقدم من عمل الصحابة على قبول شهادة الكفار في وصية السفر على المسلمين.
ونوقش: بكون المسألة خلافية بين الصحابة لم تتفق كلمتهم فيها، ثم لا يبعد أن تكون قضية عين محتملة للتأويل، ومع الاحتمال لا حجة فيها.
وأجيب: بأن قول الأشعري وعمل الصحابة بها من غير نكير يدل على أنها ليست قضية عين، وكيف تكون كذلك مع قول ابن مسعود بها.
واستدلوا ثالثًا:
بأن في قبول شهادتهم رفقًا بهم، ورفعًا لضرورة وقعت بالمسلمين، فما مثل قبول شهادة الكفار في وصية السفر عند تعذر المسلمين إلا كالتيمم عند فقدان الماء، والإفطار في رمضان للعاجز عن الصيام. =

............................................................................................................

= وحيث كان الإنسان عند قرب أجله وهو غريب عن أهله ووطنه غير واجد لمسلم يُشْهِدُهُ على ما أراد في حاجة ملحة للإيصاء أباح الشارع له إشهاد الكافر على وصيته في مثل هذه الحالة؛ تخليصًا لذمته وإرضاء لنفسه، فقد تكون عليه زكوات لم يؤدها، أو كفارات يريد إخراجها، أو ديون وودائع يبغي وفاءها تضيع إذا لم يوص بها، ويشهد عليها من حوله ولو كانوا كفارًا. ومثل هذه شهادة النساء عند الولادة أو الاستهلال قبلت وحدهن؛ للضرورة وللخروج من الضيق والشدة، فحيث اكتفي بشهادة النساء في الضرورات؛ كذلك يكتفي بشهادة الكفار عندها، وعند فقدان المسلم الذى يشهد في السفر.

ونوقش: بأن الرفق بالعبيد المسلمين العدول أولى من الرفق بالكفار، وحيث لم يرفق الإسلام بالأولين؛ فلا نرفق بالآخرين؛ لأن شرط الله في الشهود: الإسلام والحرية، فلا وجه لتخصيص الكفار بالقبول في بعض الأحوال دون العبيد، مع صدق رد الشهادة عليهما.

وأجيب:

بالفرق بين الكفار والرقيق، فإن الكفار لهم ولاية في الجملة حتى على أنفسهم، بخلاف العبيد؛ فإن ولايتهم مسلوبة أصلا، فلا يتساويان في الشهادة.

ثم ورود سبب النزول مخصصًا للكفار ينفي أن يلحق العبيد بهم.

قلت: وأكرر هنا أيضا أن هذا الجواب على الاعتراض عند التسليم بأن شهادة العبيد غير مقبولة، أما وقد ذكرنا الخلاف في ذلك من قبل، فإن الاعتراض يكون ساقطا كلية؛ لعدم التسليم بالمدعى.

هذا وقد نقل ابن القيم عن شيخه ابن تيمية ما نصه: وقول الإمام أحمد في قبول شهادتهم في هذا الموضع هو ضرورة، فيقتضى هذا التعليل قبولها في كل ضرورة سواء كانت حضرًا أو سفرًا، ومنه يفهم أن ابن تيمية يرى أن قبول شهادتهم على المسلم عند الضرورة غير مختص بوصية أو غيرها، بحضر أو بسفر.

وفي موضع آخر قال نقلا أيضًا عن شيخه: إن كل موضع ضرورة غير المنصوص عليه في الآية، فيه روايتان عن أحمد: رواية بالجواز، وأخرى بالمنع.

إذن في مذهب أحمد في شهادة الكفار على المسلمين عند الضرورة روايتان: جرى على إحداهما ابن تيمية، وهى قبول شهادتهم في كل موضع ضرورة، والأخرى تخصص القبول بما ورد في آية الوصية.

لكنا إذا نظرنا إلى العلة التى عللوا بها قبول شهادتهم على المسلمين، في وصية السفر وهي: عدم وجود مسلم يشهد، ومعناها الضرورة وجدنا أن العلة وصف ظاهر منضبط لا مانع من تعدية الحكم فيه إلى كل ضرورة تقوى على ضرورة عدم وجود مسلم في السفر؛ وبذلك تكون شهادة الكافر مقبولة عند كل ضرورة، وقد ورد القرآن بنوع منها.

ولعل هذا ما دعا الحنفية والمالكية إلى قبولها تبعًا أو ضرورة، وقد وجهوا قبول شهادة الطبيب الكافر على المسلم في بعض العيوب بالضرورة، وكذا قال الحنفية بقبولها ضرورة؛ لأن المسلمين لا يحضرون موت اليهود والنصارى عادة، والوصية تكون عند موتهم غالبًا، فلو لم تقبل شهادتهم على المسلم في إثبات الإيصاء؛ لأدى هذا إلى ضياع الحقوق المتعلقة بالإيصاء؛ فكان القبول؛ لدفع الحرج واحتيالا لإثبات الحقوق.

=

رجلٌ وامرأتانِ[١] يكفُون، وهذا فيما عدا الحدودَ[٢] والقصاصَ[٣] عندنا، وفي الأموال خاصة عند الشافعي رحمه الله ﴿ممن ترْضَون﴾ متعلقٌ بمحذوف وقع صفةً لرجل وامرأتان أي كائنون مرضيّين عندكم، وتخصيصُهم بالوصف المذكور مع تحقق اعتباره في كل شهيد لقلة اتصافِ النساء به، وقيل: نعتٌ لشهيدين أي كائنين ممن ترضَوْن، ورُد بأنه يلزم الفصلُ بينهما بالأجنبي، وقيل: بدل من رجالكم بتكرير العامل، ورد بما ذكر من الفصل، وقيل: متعلق بقوله تعالى: ﴿واستشهدوا﴾ فيلزم الفصل بين اشتراط المرأتين وبين تعليله.

وقوله عز وجل: ﴿من الشهداء﴾ متعلق بمحذوف وقع حالًا من الضمير المحذوف الراجعِ إلى الموصول أي ممن ترضَوْنهم كائنين من بعض الشهداء لعلمكم بعد التهم وثقتِكم بهم، وإدراجُ النساء في الشهداء بطريق التغليب.

﴿أن تضِلَّ إحداهما فتذكرَ إحداهما الأخرى﴾ تعليلٌ لاعتبار العدد في النساء، والعلةُ في الحقيقة هي التذكيرُ ولكنَّ الضلالَ لما كان سببًا له نُزّل منزلتَه كما في قولك: أعددتُ السلاحَ أن يجيء عدو فأدفعَه، كأنه قيل: لأجل أن تذكّر إحداهما الأخرى إن ضلت [عن][٤] الشهادة بأن نسيتها، ولعل إيثارَ ما عليه النظم الكريم على

---

= والواقع: أن قبولها عند الضرورة، هو الذي يلائم روح الشريعة، ولا يقف حجر عثرة في قضاء المصالح المشتركة، التي كثرت في عصر كعصرنا، اشتد فيه امتزاج المسلمين بغيرهم.

هذا ومن تتبع الأحوال السياسية والاجتماعية للأمة الإسلامية، أمكنه الوقوف على ما دفع بفقهاء المسلمين إلى القول بعدم قبول شهادة الكافر على المسلم، ومن عرف القواعد التى كانت من أهم الأسباب المعنوية، في رفض المسلمين شهادة غير المسلمين عليهم حكم عليها بأنها كانت لظروف خاصة وتحت تأثير خاص.

(١) زاد في المخطوط: أو فرجل وامرأتان.

(٢) جمع حد والحد لغة: المنع، وشرعا: عقوبة مقدرة؛ وجبت حقًّا لله تعالى وزجرًا؛ وعرفه الشافعية والحنابلة بأنه: عقوبة مقدرة على ذنب؛ وجبت حقًّا لله تعالى.
ويطلق لفظ الحد على جرائم الحدود مجازًا، فيقال: ارتكب الجاني حدًّا، ويقصد أنه ارتكب جريمة ذات عقوبة مقدرة شرعًا.
ينظر: مختار الصحاح (حدد) ورد المحتار (٣/ ٤٠)، وكشاف القناع (٦/ ٧٧)، نيل المآرب (٢/ ٢٥٠)، الوجيز (٢/ ١٦٤)، سبل السلام (٤/ ٢)، فتح القدير (٤/ ١١٣).

(٣) القصاص لغةً مأخوذ من القص وهو بمعنى القطع، ويأتي بمعنى تتبع الأثر قال تعالى: ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤].
وشرعاً هو أن يفعل بالفاعل مثل ما فعل به.
ينظر: مغني المحتاج (٤/ ٣).

(٤) سقط في المخطوط.

أن يقال: أن تضل إحداهما فتذكرَها الأخرى لتأكيد الإبهام والمبالغة في الاحتراز عن توهم اختصاصِ الضلال بإحداهما بعينها، والتذكيرِ بالأخرى، وقرئ[١] (فتُذْكِرَ) من الإذكار وقرئ[٢] (فتذاكِرَ) وقرئ[٣] (إنْ تضلَّ) على الشرط فتذكرُ بالرفع كقوله تعالى: ﴿ومن عاد فينتقمُ الله منه﴾ [المائدة، الآية ٩٥].

﴿ولا يأبَ الشهداءُ إذا ما دُعوا﴾ لأداء الشهادة أو لتحمُّلها، وتسميتُهم شهداءَ قبل التحمل لما مرَّ من تنزيل المُشارف منزلةَ الواقع وما مزيدة. عن قتادة أنه كان الرجل يطوف في الحِواء العظيم فيه القوم فلا يتبعُه منهم أحد فنزلت[٤].

﴿ولا تسأموا﴾ أي لا تَملُّوا من كثرة مدايناتِكم ﴿أن تكتُبوه﴾ الدينَ أو الحقَّ أو الكتابَ وقيل: كنّىٰ به عن الكسل الذي هو صفةُ المنافق كما ورد في قوله تعالى: ﴿وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كُسالى﴾ [النساء، الآية ١٤٢] وقد قال النبي ﷺ: «لا يقولُ المؤمن كسِلْتُ»[٥].

﴿صغيرًا أو كبيرًا﴾ حال من الضمير أي حالَ كونه صغيرًا أو كبيرًا أي قليلًا أو كثيرًا أو مجملًا أو مفصّلًا ﴿إلى أجله﴾ متعلقٌ بمحذوف وقعَ حالًا من الهاء في تكتبوه أي مستقرًا في الذمة إلى وقت حلولِه [﴿ذلكم﴾][٦] الذي أقر به المديونُ[٧] إشارةً إلى

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب،وابن محيصن، واليزيدي، والحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (١٦٦)، والبحر المحيط (٢/ ٣٤٩)، وتفسير القرطبي (٣/ ٣٩٧)، والحجة لأبي زرعة ص (١٤٩)، والسبعة لابن مجاهد ص (١٩٤)، والكشف للقيسي (١/ ٣٢٠، ٣٢١)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٩٥)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢٣٦).

(٢) قرأ بها: زيد بن أسلم.
ينظر: البحر المحيط (٢/ ٣٤٩)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٦٨).

(٣) قرأ بها: حمزة، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (١٦٦)، والإعراب للنحاس (١/ ٢٩٨)، والبحر المحيط (٢/ ٣٤٨)، والتبيان للطوسي (٢/ ٣٧١)، والتيسير للداني ص (٨٥)، وتفسير الطبري (٦/ ٦٣)، وتفسير القرطبي (٣/ ٣٩٧)، والحجة لأبي زرعة ص (١٥٠)، والسبعة لابن مجاهد ص (١٩٤)، والغيث للصفاقسي ص (١٧٠)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٦٨)، والكشف للقيسي (١/ ٣٢٠)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٩٥)، والمعاني للفراء (١/ ١٨٤)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٣٧٢)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢٣٦).

(٤) أخرجه الطبري (٣/ ١٢٦) رقم (٦٣٦٤).

(٥) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (١/ ٥١٣) وبيض له الزيلعي وابن حجر، وقال المناوي في «الفتح السماوي» (١/ ٣٣١): لم أقف عليه.

(٦) سقط في المخطوط.

(٧) زاد في المخطوط: ذلكم.

ما أُمر به من الكَتْب، والخطابُ للمؤمنين ﴿أقسطُ﴾ أي أعدل ﴿عند الله﴾ أي في حكمه تعالى ﴿وأقومُ للشهادة﴾ أي أثبتُ لها وأعونُ على إقامتها وهما مبنيان من أقسطَ وأقامَ فإنه قياسيٌّ عند سيبويه أو من قاسط بمعنى ذي قِسط وقويم، وإنما صحت الواو في أقوم كما صحت في التعجب لجموده.

﴿وأدنى ألا ترتابوا﴾ وأقرب إلى انتفاء رَيبكم في جنس الدَّين وقدرِه وأجله وشهودِه ونحو ذلك.

﴿إلا أن تكونَ تجارةً حاضرةً تُديرونها بينكم﴾ استثناءٌ منقطع من الأمر بالكتابة أي لكنْ وقتَ كونِ تدايُنِكم أو تجارتكم تجارةً حاضرةً بحضور البدلين تُديرونها بينكم بتعاطيهما يدًا بيد ﴿فليس عليكم جُناحٌ ألا تكتُبوها﴾ أي فلا بأسَ بألا تكتبوها لبُعده عن التنازع والنسيان، وقرئ[1] برفع (تجارةٌ) على أنها اسم (كان) و(حاضرةٌ) صفتُها وتديرونها خبرُها أو على أنها تامة.

﴿وأشهِدوا إذا تبايعتم﴾ هذا التبايُعَ أو مطلقًا لأنه أحوطُ، والأوامرُ الواردةُ في الآية الكريمة للندب عند الجمهور وقيل: للوجوب ثم اختلف في أحكامها ونسخها ﴿ولا يُضارَّ كاتبٌ ولا شهيد﴾ نهيٌ عن المضارة محتمل للبناءين كما ينبئ عنه قراءةُ من قرأ ولا يضارِرْ بالكسر[2] والفتح[3] وهو نهيهما عن ترك الإجابة والتغييرِ والتحريفِ في الكتابة والشهادة، أو نهيُ الطالب عن الضرار بهما بأن يُعْجِلَهما عن مَهمّتهما أو يكلفَهما الخروجَ عما حُدّ لهما، أو لا يعطيَ الكاتبَ جُعلَه وقرئ[4] بالرفع على أنه نفي في معنى النهي.

﴿وإنْ تفعلوا﴾ ما نُهيتم عنه من الضرار ﴿فإنه﴾ أي فعلُكم ذلك ﴿فسوقٌ بكم﴾

---

(١) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (١٦٦)، والإعراب للنحاس (١/ ٣٠٠)، والإملاء للعكبري (١/ ٧٠)، والبحر المحيط (٢/ ٣٥٣)، والتبيان للطوسي (٢/ ٣٧١).

(٢) قرأ بها: عمر، وابن عباس، ومجاهد، وابن أبي إسحاق، وعكرمة.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٣٠١)، والبحر المحيط (٢/ ٣٥٤)، وتفسير القرطبي (٣/ ٤٠٥)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٦٩)، وتفسير الفخر الرازي (٢/ ٣٧٥).

(٣) قرأ بها: ابن كثير، ومجاهد، وعمر، والحسن، والضحاك، وابن مسعود.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (١٥٨) ص (١٢٣)، والإعراب للنحاس (١/ ٣٠١)، والبحر المحيط (٢/ ٣٥٣، ٣٥٤)، وتفسير الطبري (٦/ ٨٧، ٨٨)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٦٩).

(٤) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب، وابن محيصن، واليزيدي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (١٥٨)، والبحر المحيط (٢/ ٣٥٤).

أي خروجٌ عن الطاعة ملتبس بكم ﴿واتقوا الله﴾ في مخالفة أوامرِه ونواهيه التي من جملتها نهيُه عن المضارة ﴿ويعلمُكم الله﴾ أحكامه المتضمنة لمصالحكم ﴿والله بكل شيء عليم﴾ فلا يكاد يخفى عليه حالُكم وهو مجازيكم بذلك، كُرر لفظ الجلالة في الجمل الثلاث لإدخال الروعة وتربية المهابةِ وللتنبيه على استقلال كلٍّ منها بمعنى على حياله فإن الأولى حثٌّ على التقوى والثانية وعدٌ بالإنعام والثالثة تعظيمٌ لشأنه تعالى.

﴿وإن كنتم على سفر﴾ أي مسافرين أو متوجهين إليه ﴿ولم تجدوا كاتبًا﴾ في المداينة، وقرئ (كِتابًا)[1] و(كُتُبًا)[2] و(كُتَّابًا)[3] ﴿فرِهانٌ مقبوضة﴾ أي فالذي يُستوثق به أو فعليكم أو فليؤخَذ أو فالمشروعُ رهانٌ مقبوضة، وليس هذا التعليقُ لاشتراط السفر في شرعية الارتهان كما حسِبه مجاهدٌ والضحاكُ لأنه ﷺ «رهَن دِرْعه في المدينة من يهودي بعشرين صاعًا من شعير أخذه لأهله»[4] بل لإقامة التوثقِ بالارتهان مُقام التوثق بالكتابة[5] في السفر الذي هو مِظنةُ إعوازِها وإنما لم يتعرّض لحال الشاهد لما أنه في حكم الكاتب توثقًا وإعوازًا، والجمهورُ على وجوب القبض في تمام الرهن

---

(١) قرأ بها: ابن عباس، ومجاهد، وأبي، وأبو العالية، وعكرمة، والضحاك.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٣٠٢)، والبحر المحيط (٢/ ٣٥٥)، وتفسير الطبري (٦/ ٩٤)، وتفسير القرطبي (٣/ ٤٠٧)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٦٩).

(٢) قرأ بها: أبو العالية، والمهدوي.
ينظر: البحر المحيط (٢/ ٣٥٥)، وتفسير القرطبي (٣/ ٤٠٧)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٦٩).

(٣) قرأ بها: ابن عباس، والضحاك، وأبو العالية.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٣٠٢)، والبحر المحيط (٢/ ٣٥٥)، وتفسير الطبري (٦/ ٩٥)، وتفسير القرطبي (٣/ ٤٠٧)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٦٩).

(٤) أخرجه البخاري (٤/ ٣٠٢) كتاب البيوع: باب شراء النبي ﷺ بالنسيئة. حديث (٢٠٦٩) وأحمد (٣/ ١٣٣) والنسائي (٧/ ٢٨٨) كتاب البيوع: باب الرهن في الحضر، وابن ماجه (٢/ ٨١٥) كتاب الرهون: باب (١) حديث (٢٤٣٧)، والترمذي (٣/ ٥١٩، ٥٢٠) كتاب البيوع: باب ما جاء في الرخصة في الشراء إلى أجل حديث (١٢١٥) وأبو يعلى (٥/ ٣٩٤) رقم (٣٠٦١) وأبو الشيخ في «أخلاق النبي ﷺ» (ص ٢٦٣)، والبيهقي (٦/ ٣٦) كتاب الرهن، باب: جواز الرهن، كلهم من حديث قتادة عن أنس أنه مشى إلى النبي ﷺ بخبز شعير وإهالة سَنِخَة، ولقد رهن النبي ﷺ درعًا له بالمدينة عند يهودي وأخذ منه شعيرًا لأهله، ولقد سمعته يقول: ما أمسى عند آل محمد ﷺ صاع برّ ولا صاع حب وإن عنده لتسع نسوة ...
وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٥) في المخطوط: الكتبة.

غيرَ مالك وقرئ[(١)] فرُهُنٌ كسُقُف وكلاهما جمع رَهْن بمعنى مرهون وقرئ[(٢)] بسكون الهاء تخفيفًا.

﴿فإن أمن بعضُكم بعضًا﴾ أي بعضُ الدائنين بعضَ المديونين لحسن ظنه به واستغنى بأمانته عن الارتهان، وقرئ[(٣)] فإن أُومن بعضُكم أي آمنه الناسُ ووصفوه بالأمانة قيل: فيكون انتصابُ بعضًا حينئذ على نزع الخافض أي على متاع بعض ﴿فليؤد الذي اؤتُمن﴾ وهو المديون وإنما عبر عنه بذلك العنوان لتعينه طريقًا للإعلام ولحمله على الأداء ﴿أمانتَه﴾ أي دينه وإنما سمّي أمانة لائتمانه عليه بترك الارتهان به وقرئ[(٤)] (إيتُمِن) بقلب الهمزة ياء وقرئ[(٥)] بإدغام الياء في التاء وهو خطأ لأن المنقلبة من الهمزة لا تدغم لأنها في حكمها.

﴿وليتق الله ربه﴾ في رعاية حقوق الأمانة وفي الجمع بين عنوان الألوهية وصفة الربوبية من التأكيد والتحذير ما لا يخفى.

﴿ولا تكتموا الشَّهادة﴾ أيها الشهود أو المديونون أي شهادتكم على أنفسكم عند المعاملة ﴿ومن يكتُمْها فإنه آثمٌ قلبُه﴾ آثم خبر إن «وقلبُه» مرتفعٌ به على الفاعلية كأنه قيل: يأثم قلبه أو مرتفع بالابتداء وآثمٌ خبرٌ مقدّمٌ والجملة خبرُ إن وإسنادُ الإثم إلى القلبِ لأن الكِتمان مما اقترفه، ونظيرُه نسبةُ الزنا إلى العين والأذن، أو للمبالغة لأنه رئيسُ الأعضاء وأفعالُه أعظمُ الأفعال كأنه قيل: تمكّن الإثمُ في نفسه وملك أشرفَ مكان فيه وفاق سائر ذنوبه.

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، وابن محيصن، واليزيدي، وابن عباس.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (١٥٨)، والإعرب للنحاس (١/ ٣٠٢).

(٢) قرأ بها: عاصم، وابن كثير، وأبو عمرو.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٣٠٢)، والإملاء للعكبري (١/ ٧١)، والبحر المحيط (٢/ ٣٥٥)، وتفسير الطبري (٦/ ٩٦)، وتفسير القرطبي (٣/ ٤٠٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (١٩٤)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٧٠)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٩٩)، وتفسير الرازي (٢/ ٣٧٦).

(٣) قرأ بها: أبي.
ينظر: البحر المحيط (٢/ ٣٥٦)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٧٠).

(٤) قرأ بها: أبو عمرو، ورش، وأبو جعفر، وابن محيصن، والسوسي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (١٦٧)، والإعراب للنحاس (٢/ ٣٥٦)، والغيث للصفاقسي ص (١٧١).

(٥) قرأ بها: عاصم.
ينظر: البحر المحيط (٢/ ٣٥٦)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٧٠).

عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما إن أكبرَ الكبائر الإشراكُ بالله لقوله تعالى: ﴿فقد حرم اللَّهُ عليه الجنَّة﴾ [المائدة، الآية ٧٢] وشهادةُ الزور وكتمانُ الشهادة(١). وقرئ(٢) قلبَه بالنصب كما في سفهِ نفسَه وقرئ(٣) «أَثَّمَ قلبَه» أي جعله آثمًا ﴿والله بما تعملون عليم﴾ فيجازيكم به إن خيرًا فخيرٌ وإن شرًّا فشر.

﴿لله ما في السمٰوات وما في الأرض﴾ من الأمور الداخلة في حقيقتهما والخارجة عنهما المتمكنةِ فيهما من أُولي العلم وغيرِهم، أي كلُّها له تعالى خَلْقًا ومُلكًا وتصرُّفًا لا شِركةَ لغيره في شيء منها بوجه من الوجوه.

﴿وإن تُبدوا ما في أنفسِكم﴾ من السوء والعزمِ عليه بأن تُظهروه للناس بالقول أو بالفعل أو [بهما](٤) ﴿أو تُخفوه﴾ بأن تكتُموه منهم ولا تُظهروه بأحد الوجهين، ولا يندرج فيه ما لا يخلو عنه البشرُ من الوساوس وأحاديث النفس التي لا عقدَ ولا عزيمة فيها إذ التكليفُ بحسب الوُسع ﴿يحاسبْكم به اللَّهُ﴾ يومَ القيامة وهو حجةٌ على منكري الحساب من المعتزلة والروافض، وتقديمُ الجارِّ والمجرور على الفاعل للاعتناء به.

وأما تقديمُ الإبداء على الإخفاء على عكس ما في قوله عز وجل: ﴿قل إن تُخفوا ما في صدوركم أو تُبدوه يعلمْه الله﴾ [آل عمران، الآية ٢٩] فلِما أن المعلَّق بما في أنفسهم هٰهنا هو المحاسبة، والأصلُ فيها الأعمالُ البادية، وأما العلمُ فتعلُّقه بها كتعلقه بالأعمال الخافية، كيف لا وعلمُه سبحانه بمعلوماته متعالٍ عن أن يكون بطريق حصول الصور، بل وجودُ كل شيءٍ في نفسه في أيّ طور كان علمٌ بالنسبة إليه تعالى وفي هذا لا يختلف الحالُ بين الأشياء البارزةِ والكامنة خلا أن مرتبة الإخفاءِ متقدمةٌ على مرتبة الإبداء إذ ما من شيء يُبدىٰ إلا وهو أو مباديه قبل ذلك مضمَرٌ في النفس فتعلقُ علمِه تعالى بحالته الأولى متقدمٌ على تعلّقه بحالته الثانية وقد مر في تفسير قوله تعالى: ﴿أولا يعلمون أن الله يعلم ما يُسرّون وما يُعلنون﴾ [البقرة، الآية ٧٧].

﴿فيغفرُ﴾ بالرفع على الاستئناف أي فهو يغفرُ بفضله ﴿لمن يشاءُ﴾ أي يغفر له

---

(١) أخرجه الطبري (٣/ ١٤٢) رقم (٦٤٤٤) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس

(٢) قرأ بها: ابن أبي عبلة.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ٧١)، والبحر المحيط (٢/ ٣٥٧)، والتبيان للطوسي (٢/ ٣٨١)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٧١)، والمعاني للفراء (١/ ١٨٨)، وتفسير الرازي (٢/ ٣٧٧).

(٣) قرأ بها: ابن أبي عبلة.
ينظر: البحر المحيط (٢/ ٣٥٧)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٧١)، وتفسير الرازي (٢/ ٣٧٧).

(٤) سقط في المخطوط.

﴿ويعذِّبُ﴾ بعدله ﴿من يشاء﴾ أي يعذبه حسبما تقتضيه مشيئته المبنيةُ على الحِكَم والمصالِح، وتقديمُ المغفرةِ على التعذيب لتقدّم رحمته على غضبه، وقرئ[١] بجزم الفعلين عطفًا على جواب الشرط، وقرئ[٢] بالجزم من غير فاء على أنهما بدلٌ من الجواب بدلَ البعضِ أو الاشتمالِ، ونظيره الجزمُ على البدلية من الشرط في قوله: [الطويل]

متى تأتِنا تُلمِمْ بنا في ديارنا تجدْ حَطَبًا جَزْلًا ونارًا تأججا[٣]

وإدغام الراء في اللام لحنٌ ﴿واللَّهُ على كل شيء قدير﴾ تذييلٌ مقرِّر لمضمون ما قبله، فإن كمالَ قدرته تعالى على جميع الأشياءِ مُوجِبٌ لقدرته سبحانه على ما ذُكر من المحاسبة وما فُرِّع عليه من المغفرة والتعذيب.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾

﴿آمنَ الرَّسولُ﴾ لمّا ذُكر في فاتحة السورة الكريمة أن ما أُنزل إلى الرسول ﷺ من الكتاب العظيم الشأنِ هدىً للمتّصفين بما فُصِّل هناك من الصفات الفاضلةِ التي من جملتها الإيمانُ به وبما أنزل قبله من الكتب الإلهيةِ، وأنهم حائزون لأثَرَتي الهدى

---

(١) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وخلف، واليزيدي، الأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (١٦٧)، والإعراب للنحاس (١/ ٣٠٤)، والإملاء للعكبري (١/ ٧١)، والبحر المحيط (٢/ ٣٦٠)، والتبيان للطوسي (٢/ ٣٨١)، والتيسير للداني ص (٨٥)، وتفسير القرطبي (٣/ ٤٢٣)، والحجة لأبي زرعة ص (١٥٢)، والسبعة لابن مجاهد ص (١٩٥)، والغيث للصفاقسي ص (١٧١)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٧١)، والكشف للقيسي (١/ ٣٢٣)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٤٠١)، وتفسير الرازي (٢/ ٣٧٩)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٣٧).

(٢) قرأ بها: طلحة بن مصرف والجعفي، وخلاد، وعبد الله بن مسعود، والأعمش.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٣٠٤)، والإملاء للعكبري (١/ ٧١)، والبحر المحيط (٢/ ٣٦١)، وتفسير القرطبي (٣/ ٤٢٤)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٧١)، والمحتسب لابن جني (١/ ١٤٩).

(٣) البيت لعبد الله بن الحر في خزانة الأدب (٩/ ٩٠-٩٩)، والدرر (٦/ ٦٩)، وشرح أبيات سيبويه (٢/ ٦٦)، وسر صناعة الإعراب ص(٦٧٨)، وشرح المفصل (٧/ ٥٣)، وبلا نسبة في الإنصاف ص (٥٨٣)، ورصف المباني ص(٣٢، ٣٣٥)، وشرح الأشموني ص (٤٤٠)، وشرح قطر الندى ص (٩٠)، وشرح المفصل (١٠/ ٢٠)، والكتاب (٣/ ٨٦)، ولسان العرب (نور)، والمقتضب (٢/ ٦٣)، وهمع الهوامع (٢/ ١٢٨).

والفلاح من غير تعيينٍ لهم بخصوصهم، ولا تصريح بتحقق اتصافِهم بها إذ ليس فيما يُذكر في حيز الصلةِ حُكمٌ بالفعل وعُقّب ذلك ببيانً حال من كَفر به من المجاهرين والمنافقين ثم شَرَح في تضاعيفها من فنون الشرائع والأحكام والمواعظِ والحِكَم وأخبارِ [الأمم السالفة][(١)] وغيرِ ذلك ممَّا تقتضي الحكمةُ شرحَه عُيِّن في خاتمتها المتّصفون بها وحُكم باتصافهم بها على طريق الشهادة لهم من جهته عز وجل بكمال الإيمان وحسنِ الطاعةِ.

وذكرُه ﷺ بطريق الغيبة مع ذكره هناك بطريق الخطاب لما أن حقَّ الشهادة الباقية على مر الدهور ألا يخاطَبَ بها المشهودُ له، ولم يتعرض هٰهنا لبيان فوزهم بمطالبهم التي من جملتها ما حُكيَ عنهم من الدعوات الآتية إيذانًا بأنه أمرٌ محقق غنيٌّ عن التصريح به لا سيما بعدما نُص عليه فيما سلف، وإيرادُه عليه السلام بعنوان الرسالة المنبئة عن كونه عليه السلام صاحبَ كتابٍ مجيد وشرع جديد - تمهيدٌ لما يعقُبه من قوله تعالى:

﴿بما أُنزل إليه﴾ ومزيدُ توضيحٍ لاندراجه في الرسل المؤمَنِ بهم عليهم السلام، والمرادُ بما أنزل إليه [ما يعم كلَّه، وكلَّ جزء من أجزائه، ففيه تحقيق لكيفية إيمانه عليه السلام وتعيين لعنوانه، أي: آمن عليه السلام بكل ما أنزل إليه][(٢)] ﴿من ربّه﴾ إيمانًا تفصيليًا متعلّقًا بجميع ما فيه من الشرائع والأحكامِ والقصصِ والمواعظ وأحوالِ الرسل والكتُب، وغير ذلك من حيث إنه منزلٌ منه تعالى.

وأما الإيمانُ بحقية أحكامِه وصدقِ أخباره ونحوُ ذلك فمن فروع الإيمان به من الحيثية المذكورة، وفي هذا الإجمال إجلالٌ لمحلِّه عليه الصلاة والسلام وإشعارٌ بأن تعلّقَ إيمانِه بتفاصيلِ ما أنزل إليه وإحاطته بجميع ما انطوى عليه من الظهور بحيث لا حاجة إلى ذكره أصلًا وكذا في التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام تشريفٌ له وتنبيهٌ على أن إنزاله إليه تربية وتكميلٌ له عليه السلام.

﴿والمؤمنون﴾ أي الفريقُ المعروفون بهذا الاسم فاللاَّم عهدية لا موصولة لإفضائها إلى خلو الكلام عن الجدوى وهو مبتدأ، وقوله عز وجل: ﴿كلٌّ﴾ مبتدأ ثانٍ، وقوله تعالى: ﴿آمن﴾ خبرُه والجملةُ خبرٌ للمبتدأ الأول، والرابطُ بينهما الضمير الذي ناب منابَه التنوين، وتوحيدُ الضمير في آمن مع رجوعه إلى كل المؤمنين لما أن المرادَ بيانُ إيمانِ كل فردٍ منهم من غير اعتبار الاجتماعِ كما اعتُبر ذلك في قوله

---

(١) في المخطوط: سوالف الأمم.

(٢) سقط في ط.

تعالى: ﴿وكلٌّ أتَوْه داخِرين﴾ [النمل، الآية ٨٧] وتغييرُ سبْكِ النظم الكريمِ عما قبلَه لتأكيد الإشعارِ بما بين إيمانهِ عليه السلام المبنيِّ على المشاهدة والعِيان وبين إيمانِهم الناشئ عن الحجة والبرهانِ من التفاوت البيِّن والاختلاف الجليِّ كأنهما متخالفان من كل وجهٍ حتى في هيئة التركيب الدالِّ عليهما، وما فيه من تكرير الإسناد لما في الحُكم بإيمان كلٍّ واحدٍ منهم على الوجه الآتي من نوعِ خفاءٍ مُحوِجٍ إلى التقوية والتأكيد، أي كلٌّ واحد منهم آمن.

﴿بالله﴾ وحده من غير شريكٍ له في الألوهية والمعبودية ﴿وملائكته﴾ أي من حيث إنهم عبادٌ مُكْرمون له تعالى من شأنهم التوسطُ بينه تعالى وبين الرسل بإنزال الكتب وإلقاءِ الوحي، فإن مدارَ الإيمان بهم ليس من خصوصيات ذواتِهم في أنفسهم بل هو [من][1] إضافتهم إليه تعالى من الحيثية المذكورة كما يلُوح به الترتيبُ في النظم.

﴿وكتبِه ورسُلِه﴾ أي من حيث مجيئُهما من عنده تعالى لإرشاد الخلقِ إلى ما شرَع لهم من الدين بالأوامر والنواهي لكن لا على الإطلاق بل على أن كلَّ واحدٍ من تلك الكُتُب منْزلٌ منه تعالى إلى رسول معيّنٍ من أولئك الرسلِ عليهم الصلاة والسلام حسبما فُصل في قوله تعالى: ﴿قولوا آمنا بالله وما أُنزِل إلينا وما أنزِل إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطِ وما أوتيَ موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم﴾ [البقرة، الآية ١٣٦]، ولا على أن مناطَ الإيمان خصوصيةُ ذلك الكتاب أو ذلك الرسولِ بل على أن الإيمانَ بالكل مندرجٌ في الإيمان بالكتاب المُنْزل إلى الرسول ﷺ ومستنِدٌ إليه لِما تُليَ من الآية الكريمة ولا على أن أحكامَ الكتبِ السالفة وشرائعَها باقيةٌ بالكلية ولا على أن الباقيَ منها معتبرٌ بالإضافة إليها بل على أن أحكامَ كلِّ واحد منها كانت حقةً ثابتة إلى ورود كتابٍ آخرَ ناسخٍ له وأن ما لم يُنسَخْ منها إلى الآن من الشرائع والأحكام ثابتةٌ من حيث إنها من أحكام هذا الكتاب المَصونِ عن النسخ إلى يوم القيامة، وإنما لم يُذكر هٰهنا الإيمانُ باليوم الآخر كما ذكر في قوله تعالى:

﴿ولٰكنَّ البرَّ من آمن باللّهِ واليوم الآخِر والملائِكةِ والكتابِ والنبيين﴾ [البقرة، الآية ١٧٧] لاندراجه في الإيمان بكتُبه وقرئ[2] (وكتابِه) على أن المرادَ به القرآنُ أو

---

(١) سقط في المخطوط.

(٢) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وخلف، والأعمش، وابن عباس، وعبد الله بن مسعود.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (١٦٧)، والإملاء للعكبري (١/ ٧١)، والبحر المحيط (٢/ ٣٦٤، ٣٦٥)، والتبيان للطوسي (٢/ ٣٨٣)، والتيسير للداني ص (٨٥)، وتفسير الطبري (٦/ ١٢٥)، =

جنسُ الكتاب كما في قوله تعالى: ﴿فبعث اللَّهُ النبيين مبشِّرين ومنذرين وأنزل معهم الكتابَ﴾ [البقرة، الآية ٤].

والفرقُ بينه وبين الجمع أنه شائعٌ في أفراد الجنس والجمعِ في جموعه، ولذلك قيل: الكتابُ أكثر من الكتب، وهذا نوعُ تفصيلٍ لما أُجمل في قوله تعالى: ﴿بما أنزل إليه من ربه﴾ اقتُصر عليه إيذانًا بكفايته في الإيمان الإجمالي المتحقِّق في كل فردٍ من أفراد المؤمنين من غير نفيٍ لزيادةٍ، ضرورةَ اختلاف طبقاتهم وتفاوتِ إيمانهم بالأمور المذكورة في مراتب التفصيل تفاوتًا فاحشًا فإن الإجمالَ في الحكاية لا يوجب الإجمالَ في المحكيِّ، كيف لا وقد أُجمل في حكاية إيمانه عليه السلام بما أُنزل إليه من ربه مع بداهة كونهِ متعلِّقًا بتفاصيلِ ما فيه من الجلائل والدقائق، ثم إن الأمورَ المذكورةَ حيث كانت من الأمور الغيبية التي لا يُوقف عليها إلا من جهة العليم الخبير كان الإيمانُ بها مِصداقًا لما ذُكر في صدر السورة الكريمة من الإيمان بالغيب وأما الإيمان بكتُبه تعالى، فإشارة إلى ما في قوله تعالى: ﴿يؤمنون بما أُنزل إليك وما أنزلَ من قبلك﴾ [البقرة، الآية ٤] هذا هو اللائقُ بشأن التنزيل والحقيقُ بمقداره الجليل، وقد جُوّز أن يكون قوله تعالى: ﴿والمؤمنون﴾ معطوفًا على ﴿الرسولُ﴾ فيوقف عليه، والضميرُ الذي عُوّض عنه التنوينُ راجعٌ إلى المعطوفَيْن معًا كأنه قيل: آمن الرسولُ والمؤمنون بما أُنزل إليه من ربه[(١)]، ثم فُصِّل وقيل: كلُّ واحدٍ من الرسل والمؤمنين آمن بالله . . . إلخ، خلا أنه قُدّم المؤمَنُ به على المعطوف اعتناءً بشأنه وإيذانًا بأصالته عليه السلام في الإيمان به، ولا يخفى أنه ـ مع خلوّه عما في الوجه الأول من كمالِ [و][(٢)] إجلالِ شأنهِ عليه السلام وتفخيم إيمانه ـ مخلٌّ بجزالة النظمِ الكريم لأنه إنْ حُمل كلٌّ من الإيمانين على ما يليق بشأنه عليه الصلاة والسلام من حيث الذاتُ ومن حيث التعلقُ بالتفاصيل استحالَ إسنادُهما إلى[(٣)] غيره عليه الصلاة والسلام وضاع التكريرُ، وإن حُملا على ما يليق بشأن آحادِ الأمةِ كان ذلك حطًا لرتبته العليةِ عليه السلام، وأما حملُهما على ما يليق بكل واحدٍ ممن نُسبا

---

= وتفسير القرطبي (٣/ ٤٢٦)، والحجة لابن خالويه ص (١٠٥)، والحجة لأبي زرعة ص (١٥٢)، والسبعة لابن مجاهد ص (١٩٦)، والغيث للصفاقسي ص (١٧١)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٧١)، والكشف للقيسي (١/ ٣٢٣)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٤٠٢)، وتفسير الرازي (٢/ ٣٨٣)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٣٧).

(١) في خ: ربهم.
(٢) سقط في المخطوط.
(٣) في المخطوط: لا.

إليه من الآحاد ذاتًا وتعلقًا ـ بأن يُحمَلا بالنسبة إلى الرسول ﷺ على الإيمان العياني المتعلقِ بجميع التفصيل وبالنسبة إلى آحاد الأمةِ على الإيمان المكتسَب من جهته عليه السلام اللائقِ بحالهم في الإجمال والتفصيل ـ فاعتسافٌ بيّن ينبغي تنزيهُ ساحةِ التنزيل عن أمثاله.

وقوله تعالى: ﴿لا نفرِّقُ بين أحدٍ من رسله﴾ في حيز النصب بقولٍ مقدرٍ على صيغة الجمع رعايةً لجانب المعنى، منصوبٌ على أنه حال من ضمير آمن، أو مرفوعٌ على أنه خبرٌ آخرُ لـ (كلٌّ) أي يقولون لا نفرّق بينهم بأن نؤمنَ ببعض منهم ونكفُرَ بآخَرين بل نؤمنُ بصحة رسالةِ كلِّ واحدٍ منهم. قيّدوا به إيمانَهم تحقيقًا للحق وتخطِئةً لأهل الكتابين حيث أجمعوا على الكفر بالرسول ﷺ واستقلت اليهودُ بالكفر بعيسى عليه السلام أيضًا على أن مقصودَهم الأصليَّ إبرازُ إيمانهم بما كفروا به من رسالته عليه السلام لا إظهار موافقتهم لهم فيما آمنوا به.

وهذا كما ترى صريحٌ في أن القائلين آحادُ المؤمنين خاصة إذ لا يمكن أن يسند إليه عليه السلام أن يقول: لا أفرق بين أحدٍ من رسله وهو يريد به إظهارَ إيمانه برسالة نفسِه وتصديقَه في دعواها، وعدمُ التعرُّضِ لنفي التفريق بين الكتُب لاستلزام المذكور إياه وإنما لم يُعكَسْ مع تحقق التلازم من الطرفين لما أن الأصلَ في تفريق المفرِّقين هو الرسلُ، وكفرُهم بالكتب متفرِّع على كفرهم بهم.

وقرئ[1] بالياء على إسناد الفعل إلى كل، وقرئ[2] (لا يفرِّقون) حملًا على المعنى كما في قوله تعالى: ﴿وكلٌّ أتَوْه داخِرين﴾ [النحل، الآية ٨٧] فالجملة نفسُها حال من الضمير المذكور، وقيل: خبرٌ ثان لـ (كلٌّ) كما قيل في القول المقدر فلا بد من اعتبار الكلية بعد النفي دون العكس إذ المرادُ شمولُ النفي لا نفيُ الشمول.

والكلام في همزة (أحدٍ) وفي دخول (بين) عليه قد مر تفصيله عند قوله تعالى: ﴿لا نفرق بين أحد منهم﴾ وفيه من الدلالة صريحًا على تحقق عدم التفريقِ بين كل

---

(١) قرأ بها: أبو عمرو، وسعيد بن جبير، ويعقوب، ويحيى بن يعمر، وأبو زرعة بن عمرو بن جرير. ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (١٦٧)، والبحر المحيط (٢/ ٣٦٥)، والتبيان للطوسي (٢/ ٣٨٣)، وتفسير الطبري (٦/ ١٢٦)، وتفسير القرطبي (٣/ ٤٢٧)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٧٢)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٤٠٢)، وتفسير الرازي (٢/ ٣٨٤)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٣٧).

(٢) قرأ بها: عبد الله بن مسعود، وأبي. ينظر: البحر المحيط (٢/ ٣٦٥)، وتفسير القرطبي (٣/ ٤٢٧)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٧٢)، وتفسير الرازي (٢/ ٣٨٤).

فردٍ فرد منهم وبين مَن عداه كائنًا مَنْ كان ما ليس في أن يقال: لا نفرِّق بين رسله، وإيثارُ إظهارِ الرسلِ على الإضمار الواقعِ مثلُه في قوله تعالى: ﴿وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم﴾ [البقرة: ١٣٦] إما للاحتراز عن توهم اندراج الملائكةِ في الحُكم، أو للإشعار بعلة عدمِ التفريقِ، أو للإيماء إلى عنوانه، لأن المعتبرَ عدمُ التفريق من حيث الرسالةُ دون سائرِ الحيثيات الخاصة.

﴿وقالوا﴾ عطفٌ على آمن، وصيغةُ الجمعِ باعتبار جانب المعنى وهو حكايةٌ لامتثالهم بالأوامر إثرَ حكايةِ إيمانِهم ﴿سمعنا﴾ أي فهمنا ما جاءنا من الحق وتيقنا بصحته ﴿وأطعنا﴾ ما فيه من الأوامر والنواهي وقيل سمِعنا: أجبنا دعوتك وأطعنا أمرَك ﴿غُفرانك ربنا﴾ أي اغفِرْ لنا غفرانك أو نسألك غُفرانك ذنوبنا المتقدمة أو ما لا يخلو عنه البشرُ من التقصير في مراعاة حقوقِك، وتقديمُ ذكرِ السمعِ والطاعةِ على طلب الغفران لما أن تقديمَ الوسيلةِ على المسؤول أدعى إلى الإجابة والقبول، والتعرضُ لعنوان الربوبية مع الإضافة إليهم للمبالغة في التضرُّع والجُؤار.

﴿وإليك المصير﴾ أي الرجوعُ بالموت والبعث لا إلى غيرك، وهو تذييلٌ لما قبله مقرِّرٌ للحاجة إلى المغفرة لما أن الرجوعَ للحساب والجزاء، وقوله تعالى: ﴿لا يكلِّفُ الله نفسًا إلا وُسعَها﴾ جملةٌ مستقلة جيءَ بها إثرَ حكايةِ تلقِّيهم لتكاليفه تعالى بحسن الطاعة إظهارًا لما له تعالى عليهم في ضمن التكليف من محاسنِ آثارِ الفضل والرحمة ابتداءً لا بعد السؤال كما سيجيء.

هذا وقد رُوي أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وإنْ تُبدوا ما في أنفسِكم أو تُخفوه يحاسِبْكم به اللَّهُ﴾ [البقرة، الآية ٢٨٤] الآية، اشتد ذلك على أصحابِ رسولِ الله ﷺ فأتَوْه [عليه السلام][1] ثم برَكوا على الرُّكَب فقالوا: أيْ[2] رسولَ الله كُلِّفنا من الأعمال ما نطيق، الصلاةُ والصومُ والحج والجهاد وقد أُنزل إليك هذه الآية ولا نُطيقُها فقال رسول الله ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمِعنا وعصَينا بل قولوا سمعنا وأطعنا غُفرانَك ربنا وإليك المصير» فقرأها القومُ فأنزل الله عز وجل: ﴿آمن الرسولُ بما أنزل إليه من ربه﴾ إلى قوله تعالى: ﴿غفرانك ربنا وإليك المصير﴾[3].

---

(١) سقط في ط. (٢) في المخطوط: يا.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٤١٢) ومسلم (١/ ١١٥، ١١٦) كتاب الإيمان حديث (١٢٥) من حديث أبي هريرة.
وأخرجه أحمد (١/ ٢٣٣) ومسلم (١/ ١١٦) كتاب الإيمان: باب بيان أنه - سبحانه وتعالى - لم يكلف إلا ما يطاق، حديث (٢٠٠/ ١٢٦) من حديث ابن عباس.

فمسؤولهُم الغفرانُ المعلَّق بمشيئته عز وعلا في قوله: ﴿فيغفرُ لمن يشاء﴾ ثم أنزل الله تعالى: ﴿لا يكلف اللَّهُ نفسًا إلا وُسْعَها﴾ تهوينًا للخطب عليهم ببيانِ [أن][١] المرادَ بما في أنفسهم ما عزَموا عليه من السوء خاصة لا ما يعُمُّ الخواطرَ التي لا يُستطاع الاحتراز عنها والتكليفُ إلزامُ ما فيه كُلفةٌ ومشقة، والوُسعُ ما يسَعُ الإنسانَ ولا يَضيقُ عليه أي سُنّتُه تعالى أنه لا يكلِّف نفسًا من النفوس إلا ما يتَّسع فيه طَوقُها ويتيسّر عليها دون مدى الطاقةِ والمجهود فضلًا منه تعالى ورحمةً لهذة الأمة كقوله تعالى: ﴿يريدُ اللَّهُ بكم اليُسرَ ولا يريد بكم العُسر﴾ [البقرة، الآية ١٨٥] وقرئ[٢] وَسعها بالفتح وهذا يدل على عدم وقوعِ التكليفِ بالمحال لا على امتناعه.

وقوله تعالى: ﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾ للترغيب في المحافظة على مواجبِ التكليف والتحذيرِ عن الإخلال بها ببيان أن تكليفَ كل نفسٍ مع مقارنته لنعمة التخفيفِ والتيسير تتضمنُ مراعاتُه منفعةً زائدة، وأنها تعود إليها لا إلى غيرها ويستتبعُ الإخلالُ به مضرةً تَحيق بها لا بغيرها، فإن اختصاصَ منفعةِ الفعل بفاعله من أقوى الدواعِي إلى تحصيله، واقتصارَ مضرَّتِه عليه من أشد الزواجر عن مباشرته، أي لها ثوابُ ما كسبت من الخير الذي كُلّفت فعلَه لا لغيرها استقلالًا أو اشتراكًا ضرورةَ شمُول كلمةِ (ما) لكل جزءٍ من أجزاءِ مكسوبها، وعليها لا على غيرها بأحد الطريقين المذكورين عقابُ ما اكتسبت من الشر الذي كُلِّفت تركه.

وإيرادُ الاكتسابِ في جانب الشر لما فيه من اعتمال ناشئ من اعتناء النفسِ بتحصيل الشر وسعيها في طلبه.

﴿ربنا لا تؤاخِذْنا إن نسِينا أو أخْطَأنا﴾ شروعٌ في حكاية بقيةِ دعواتِهم إثرَ بيانِ سرِّ التكليف، أي لا تؤاخِذنا بما صدر عنا من الأمور المؤدية إلى النسيان أو الخطأ من تفريطٍ وقلةِ مبالاة ونحوِهما مما يدخُل تحت التكليف، أو بأنفسهما من حيث ترتّبُهما على ما ذكر، أو مطلقًا إذ لا امتناعَ في المؤاخذة بهما عقلًا، فإن المعاصيَ كالسُّموم فكما أن تناولها ولو سهوًا أو خطأً مؤدٍّ إلى الهلاك فتعاطي المعاصي أيضًا لا يبعُد أن يفضِيَ إلى العقاب وإن لم يكن عن عزيمة، ووعدُه تعالى بعدمه لا يوجب استحالةَ وقوعه، فإن ذلك من آثار فضلِه ورحمتِه كما ينبئ عنه الرفعُ في قوله عليه السلام:

---

(١) سقط في خ.

(٢) قرأ بها: ابن أبي عبلة.
ينظر: البحر المحيط (٢/ ٣٦٦).

«رُفِعَ عن أُمَّتي الخطأُ والنِّسيانُ»[١].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١/ ٦٥٩) كتاب: الطلاق، باب: طلاق المكره والناسي، حديث (٢٠٤٥)، والعقيلي في الضعفاء (٤/ ١٤٥)، والبيهقي (٧/ ٣٥٦ - ٣٥٧) كتاب: الطلاق، باب: ما جاء في طلاق المكره، كلهم من طريق محمد بن المصفي ثنا الوليد بن مسلم عن الأوزاعي عن عطاء عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى تجاوز لأمتي عما استكرهوا عليه وعن الخطأ والنسيان».
ومن طريق محمد بن المصفي:
أخرجه أبو القاسم الفضل بن جعفر التميمي المعروف بأخي عاصم في فوائده، والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة؛ كما في المقاصد الحسنة (ص - ٢٢٩).
قال الحافظ البوصيري في الزوائد (٢/ ١٣٠): هذا إسناد صحيح إن سلم من الانقطاع، والظاهر أنه منقطع، قال المزي في الأطراف رواه بشر بن بكر التنيسي عن الأوزاعي عن عطاء عن عبيد بن عمير عن ابن عباس. انتهى. وليس ببعيد أن يكون السقط من صنعة الوليد بن مسلم. ا هـ.
وهذا كلام جيد من الحافظ البوصيرى - رحمه الله - والطريق الذي أشار إليه الحافظ المزى.
أخرجه ابن حبان (١٤٩٨ - موارد)، والدارقطني (٤/ ١٧٠ - ١٧١) كتاب: النذور رقم (٢٣)، والطحاوي في شرح معانى الآثار (٣/ ٩٥) كتاب: الطلاق، باب: طلاق المكره، والحاكم (٢/ ١٩٨) كتاب: الطلاق والبيهقي (٧/ ٣٥٦) كتاب: الخلع والطلاق، باب: طلاق المكره، والطبراني في الأوسط؛ كما في «التلخيص» (١/ ٢٨٢) كلهم من طريق بشر بن بكر عن الأوزاعي عن عطاء بن رباح عن عبيد بن عمير عن ابن عباس.
قال البيهقي: جوده بشر بن بكر.
وقال الطبرانى: لم يروه عن الأوزاعي مجودًا إلا بشر. ا هـ.
ومن هذا الطريق صححه ابن حبان.
وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.
وللحديث طرق أخرى عن ابن عباس.
الطريق الأول:
أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ١٣٣ - ١٣٤) رقم (١١٢٧٤) من طريق مسلم بن خالد الزنجي حدثنى سعيد - هو العلاف - عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله - عز وجل - تجاوز لأمتى عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه».
قال الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص ٣٢٦): أخرجه الجوزجاني، وسعيد العلاف: هو سعيد بن أبى صالح، قال أحمد: وهو مكى، قيل له: كيف حاله؟ قال: لا أدرى وما علمت أحدًا روى عنه غير مسلم بن خالد، قال أحمد: وليس هذا مرفوعًا إنما هو عن ابن عباس قوله نقل ذلك عنه مهنا، ومسلم بن خالد ضعفوه. ا هـ.
الطريق الثاني:
أخرجه ابن عدي في الكامل (٥/ ٢٨٢) من طريق عبد الرحيم بن زيد العمى حدثنى أبي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «عفي لى عن أمتي الخطأ والنسيان والاستكراه».
وعبد الرحيم بن زيد:

=

.................................................................................................

= قال يحيى: ليس بشيء، وقال البخاري: تركوه، وقال السعدي: غير ثقة. أسند ذلك عنهم ابن عدي في الكامل.

وقال النسائي: متروك وضعفه أبو داود وأبو زرعة. التهذيب (٦/ ٢٧٣)، وزيد العمي، قال الحافظ في التقريب (١/ ٢٧٤): ضعيف.

وللحديث شواهد من حديث أبى بكرة وأبى الدرداء وأم الدرداء وثوبان وعقبة بن عامر وابن عمر وأبى ذر.

١ - حديث أبى بكرة:

أخرجه أبو نعيم في أخبار أصبهان (١/ ٩٠ - ٩١)، وابن عدي في الكامل (٢/ ١٥٠) من طريق جعفر بن جسر بن فرقد عن أبيه عن الحسن عن أبى بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رفع الله عن هذه الأمة ثلاثًا: الخطأ والنسيان والأمر يكرهون عليه».

ومن هذا الوجه أخرجه الحافظ في تخريج أحاديث المختصر (١/ ٥٠٩)، وقال: هذا حديث غريب، أخرجه ابن عدي في الكامل عن حذيفة بن الحسن عن أبى أمية محمد ابن إبراهيم عن جعفر، وعده في منكرات جعفر وقال: لم أر للمتقدمين فيه كلامًا، ولعل ذلك من قبل أبيه، فإنى لم أر له رواية عن غيره.

قلت - أي: الحافظ - أبوه ضعفه يحيى بن معين والبخاري وغيرهما. اهـ.

٢ - حديث أبى الدرداء:

أخرجه الطبراني؛ كما في نصب الراية (٢/ ٦٥) من طريق أبى بكر الهذلي عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبى الدرداء قال: قال رسول الله: «إن الله تجاوز لأمتي عن النسيان وما أكرهوا عليه».

قال الحافظ في التلخيص (١/ ٢٨٢): وفي إسناده ضعف.

٣ - حديث أم الدرداء:

أخرجه ابن أبى حاتم في تفسيره؛ كما في تخريج المختصر (١/ ٥٠٩) من طريق أبى بكر الهذلي عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن النبي ﷺ قال: «إن الله تجاوز لأمتي عن ثلاث: عن الخطأ والنسيان والاستكراه» قال أبو بكر الهذلي: فذكرت ذلك للحسن، فقال: أجل؛ أما تقرأ بذلك قرآنا ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾.

قال الحافظ: وأبو بكر الهذلي ضعيف، وفي الإسناد مع ذلك انقطاع أو إرسال بالنسبة لأم الدرداء؛ لأنها إن كانت الكبرى فمنقطع، وإن كانت الصغرى فمرسل، وفي شهر مقال أيضًا. اهـ.

والحديث ذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ٦٦٥)، وعزاه لابن أبى حاتم.

٤ - حديث ثوبان:

أخرجه الطبراني في الكبير (٢/ ٩٧) رقم (١٤٣٠) من طريق يزيد بن ربيعة الرحبى ثنا أبو الأشعث عن ثوبان عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله تجاوز عن أمتى ثلاثة: الخطأ والنسيان وما أكرهوا عليه».

قال الهيثمي في المجمع (٦/ ٢٥٣): رواه الطبراني، وفيه يزيد بن ربيعة الرحبي وهو ضعيف.

والحديث ضعف سنده الحافظ في التلخيص (١/ ٢٨٢).

٥ - حديث عقبة بن عامر:

ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٢٥٣)، وعزاه للطبراني في الأوسط وقال: وفيه ابن لهيعة =

وقد روي أن اليهود كانوا إذا نسُوا شيئًا عُجِّلت لهم العقوبة[١]، فدعاؤُهم بعد العلم بتحقق الموعود للاستدامة والاعتداد بالنعمة في ذلك كما في قوله تعالى: ﴿ربنا وآتِنا ما وعدْتنا على رسُلك﴾ [آل عمران، الآية ١٩٤].

﴿ربنا ولا تحمِلْ علينا إصرًا﴾ عطفٌ على ما قبله، وتوسيطُ النداء بينهما لإبراز مزيدِ الضراعة، والإصرُ العِبءُ الثقيلُ الذي يأصِرُ صاحبَه أي يحبِسُه مكانه والمرادُ به التكاليفُ الشاقة، وقيل الإصرُ الذنبُ الذي لا توبةَ له فالمعنى اعصِمْنا من اقترافه، وقرئ[٢] (آصارًا)، وقرئ[٣] (لا تُحَمِّلْ) بالتشديد للمبالغة.

---

= وحديثه حسن، وفيه ضعف.

٦ - حديث ابن عمر:

أخرجه العقيلي في الضعفاء (٤/ ١٤٥)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٥٢)، والطبراني في الأوسط؛ كما في مجمع الزوائد (٦/ ٢٥٣) كلهم من طريق محمد بن المصفي عن الوليد ثنا مالك عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «إن الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه».

قال أبو نعيم: غريب من حديث مالك تفرد به ابن مصفي عن الوليد وضعفه العقيلي وأعله بابن مصفي ونقل تضعيفه عن الوليد.

وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٢٥٣): رواه الطبراني في الأوسط، وفيه محمد بن مصفي، وثقه أبو حاتم، وفيه كلام لا يضر، وبقية رجاله رجال الصحيح.

٧ - حديث أبي ذر:

أخرجه ابن ماجه (١/ ٦٥٩) كتاب: الطلاق، باب: طلاق المكره والناسي، حديث (٢٠٤٣) من طريق أبي بكر الهذلي عن شهر بن حوشب عن أبي ذر مرفوعًا.

قال البوصيرى في الزوائد (٢/ ١٣٠) هذا إسناد ضعيف؛ لاتفاقهم على ضعف أبي بكر الهذلي.

قلت: وللحديث علتان أخريان، ضعف شهر بن حوشب، والانقطاع بينه وبين أبي ذر.

قال العلائي في تفسير القرطبي التحصيل (ص - ١٩٧): شهر بن حوشب عن تميم الداري وأبي ذر وسلمان رضي الله عنهم، وذلك مرسل. ا هـ.

وحديث «رفع عن أمتى الخطأ والنسيان».

صححه الحاكم وابن حبان والضياء والذهبى والنووى في الأربعين (ص - ٨٥) فقال: إنه حسن.

وحسنه الحافظ في تخريج المختصر (١/ ٥١٠)، وقال: وبمجموع هذه الطرق يظهر أن للحديث أصلاً.

وتبعه تلميذه السخاوي في المقاصد (ص - ٢٣٠). ورمز له السيوطي بالصحة في الجامع الصغير (١٧٠٥).

(١) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (١/ ٢٧٤) عن الكلبي.

(٢) قرأ بها: أبي.
ينظر: البحر المحيط (٢/ ٣٦٩)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٧٢).

(٣) قرأ بها: أبي.
ينظر: البحر المحيط (٢/ ٣٦٩)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٧٢).

﴿كما حَمَلْته على الذين من قبلنا﴾ في حيز النصب على أنه صفةٌ لمصدر محذوفٍ أي حَمْلًا مثلَ حملِك إياه على مَنْ قبلَنا، أو على أنه صفةٌ لـ (إصرًا) أي إصرًا مثلَ الإصرِ الذي حَمَلته على مَنْ قبلنا وهو ما كُلّفه بنو إسرائيل من بخْعِ النفس في التوبة، وقطع موضِعِ النجاسةِ، وخمسينَ صلاةً في يوم وليلة وصرفِ رُبُعِ المال للزكاة وغيرِ ذلك من التشديدات فإنهم كانوا إذا أتَوْا بخطيئة حَرُم عليهم من الطعام بعضُ ما كان حلالًا لهم قال الله تعالى: ﴿فبظُلم من الذين هادُوا حرَّمنا عليهم طيباتٍ أُحِلَّتْ لهم﴾ [النساء، الآية ١٦٠] وقد عصمَ اللهُ عز وجل بفضله ورحمته هذه الأمة عن أمثال ذلك وأنزل في شأنهم: ﴿ويضَعُ عنهم إصْرَهم والأغلالَ التي كانت عليهم﴾ [الأعراف، الآية ١٥٧] وقال عليه السلام: «بُعثتُ بالحنيفية السهلة السَّمْحة»(١) وعن العقوبات التي عوقب بها الأولون من المسْخِ والخسْف وغيرِ ذلك قال عليه السلام: «رُفع عن أُمَّتي الخسفُ والمسخُ والغَرَق»(٢).

﴿ربنا ولا تحمِّلْنا ما لا طاقة لنا به﴾ عطفٌ على ما قبله واستعفاءٌ عن العقوبات التي لا تُطاق بعد الاستعفاء عما يؤدي إليه التفريطُ فيه من التكاليف الشاقة التي لا يكاد مَنْ كُلِّفها يخلو عن التفريط فيها كأنه قيل: لا تكلِّفْنا تلك التكاليفَ ولا تعاقِبْنا بتفريطنا في المحافظة عليها فيكونُ التعبيرُ عن إنزال العقوباتِ بالتحميل باعتبار ما يؤدي إليها، وقيل: هو تكريرٌ للأول وتصويرٌ للإصر بصورةِ ما لا يُستطاع مبالغة، وقيل: هو استعفاءٌ عن التكليف بما لا تفي به الطاقةُ البشرية حقيقة، فيكون دليلًا على جوازه عقلًا وإلا لما سُئل التخلصُ عنه، والتشديد هٰهنا لتعدية الفعل إلى مفعول ثانٍ.

﴿واعفُ عنا﴾ أي آثارِ ذنوبنا ﴿واغفِرْ لنا﴾ واستُرْ عيوبَنا ولا تفضَحْنا على رؤوس الأشهادِ ﴿وارْحَمنا﴾ وتعطَّفْ بنا وتفضَّلْ علينا، وتقديمُ طلبِ العفوِ والمغفرةِ على طلب الرحمةِ لما أن التخلِيَةَ سابقة على التحلية.

﴿أنت مولانا﴾ سيدُنا ونحن عبيدُك أو ناصرُنا أو متولي أمورِنا.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٨/ ٢٠٠) برقم (٧٧١٥) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه قال الهيثمي في المجمع (٤/ ٣٠٢): وفيه عفير بن معدان وهو ضعيف.

(٢) لم أقف عليه هكذا، وقد ثبت عن النبي ﷺ في وقوع الخسف في هذه الأمة، كما أخرجه مسلم (٧/ ٢٢١٠) كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: الخسف بالجيش الذي يؤم البيت، برقم (٨/ ٢٨٨٤) بلفظ: أن عائشة قالت: عبث رسول الله ﷺ في منامه.
فقلنا: يا رسول الله: صنعت شيئًا في منامك لم تكن تفعله. فقال: «العجبُ إن ناسًا من أمتي يؤمُّون بالبيت برجل من قريش، قد لجأ بالبيت، حتى إذا كانوا بالبيداء خسف بهم...» الحديث.

﴿فانصُرنا على القومِ الكافرين﴾ فإن من حقّ المولىٰ أن ينصُرَ عبده ومن يتولّى أمرَه على الأعداء، والمرادُ به عامةُ الكفرة، وفيه إشارة إلى أن إعلاء كلمةِ الله والجهادَ في سبيله [تعالى][1] حسبما أُمر في تضاعيف السورة الكريمة غايةُ مطالبهم.

رُوي أنه عليه الصلاة والسلام لمّا دعا بهذه الدعواتِ قيل له عند كلِّ دعوةٍ: قد فعلتُ[2]، وعنه عليه السلام: «أنزلَ الله آيتين من كنوز الجنةِ كتبهما الرحمنُ بيده قبل أن يخلُق الخلق بألفي عامٍ من قرأهما بعد العِشاء الأخيرةِ أجزاتاه عن قيام الليل»[3].

وعنه عليه السلام: «من قرأ آيتين من سورة البقرة كفتاه»[4] وهو حُجةٌ على من

---

(١) سقط في المخطوط.

(٢) أخرجه مسلم (١/ ٤٢٢ نووي): كتاب الإيمان: باب بيان أنه «سبحانه وتعالى لم يكلف...، حديث (١٢٦/٢٠٠).
والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٨٦، ٢٨٧) عن سعيد بن جبير، والترمذي في سننه (٥/ ٢٢١): كتاب التفسير: باب ومن سورة البقرة حديث (٢٩٩٢) وأحمد (١/ ٢٣٣) والنسائي في التفسير (١/ ٢٩٣)، حديث (٧٩)، والطبري (٦/ ١٠٤، ١٠٥)، حديث (٦٤٥٧)، وصحّحه ابن حبّان في صحيحه (١١/ ٤٥٨، ٤٥٩)، حديث (٥٠٦٩).

(٣) أخرجه ابن عديّ في «الكامل» (٧/ ٢٥٤٥) والسهمي في «تاريخ جرجان» (٢٦٨)، وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (١/ ١٦٩) وعزاه لابن عدي والسهمي، وكذا فعل السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٦٦٩).

(٤) أخرجه البخاري (٨/ ٦٧٢) كتاب فضائل القرآن: باب فضل سورة البقرة حديث (٥٠٠٩) ومسلم (١/ ٥٥٥) كتاب صلاة المسافرين: باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة (٢٥٥/ ٨٠٧) وأبو داود (١/ ٤٤٤) كتاب الصّلاة: باب تحزيب القرآن حديث (١٣٩٧)، والترمذي (٥/ ١٥٩) كتاب فضائل القرآن، باب: ما جاء في آخر سورة البقرة، حديث (٢٨٨١) والنسائي في «الكبرى» (٥/ ٩) كتاب فضائل القرآن باب سورة كذا وسورة كذا حديث (٨٠٠٣)، و(٥/ ١٤) باب الآيتان من آخر سورة البقرة حديث (٨٠١٨) وأحمد (٤/ ١٢١، ١٢٢) وعبد بن حميد في «المنتخب من المسند» (ص١٠٥- ١٠٦) رقم (٢٣٣) وعبد الرزاق (٣/ ٣٧٧) رقم (٦٠٢٠) والدارمي (١/ ٢٨٨) وسعيد بن منصور (٤٧٥) وابن الضريس في «فضائل القرآن» (ص-٨٣) رقم (١٦١) والطبراني في «الكبير» (١٧/ ٢٠٤- ٢٠٥) رقم (٥٥٠، ٥٥٢) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٣/ ٢٠) كتاب الصلاة: باب كم يكفي الرجل قراءة القرآن في ليله، وفي «شعب الإيمان» (٢/ ٤٦٢) رقم (٢٤٠٥، ٢٤٠٦) كلهم من طريق منصور عن إبراهيم عن عبد الرحمن بن يزيد قال: كنت أحدّث عن أبي مسعود حديثًا فلقيته وهو يطوف بالبيت فسألته فحدث عن النبي ﷺ أنه قال: من قرأ الآيتين الأخيرتين من سورة البقرة في ليلة كفتاه. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. قلت: والذي حدث عبد الرحمن بن يزيد بهذا الحديث هو علقمة بلا شك. فأخرجه البخاري (٨/ ٧١٢) كتاب فضائل القرآن باب في كم يقرأ القرآن حديث (٥٠٥١).

استكره أن يقول سورةُ البقرة وقال: ينبغي أن يقالَ: السورة التي يذكر فيها البقرة كما قال عليه السلام: «السورةُ التي يذكرُ فيها البقرةُ فُسطاطُ القرآن فتعلَّمُها[1] بركةٌ وتركُها حسرةٌ، ولن تستطيعَها البَطَلةُ»، قيل: وما البطلةُ؟ قال عليه السلام: «السحَرَة»[2].

**تم الجزء الأول ويليه الجزء الثاني وأوله: تفسير سورة آل عمران.**

---

(١) في خ: فتعلموها فإن تعلمها.

(٢) قال الزيلعي (١/ ١٧٣)، حديث (١٨٢): غريب بهذا اللفظ.
وأخرجه مسلم (٣/ ٣٤٩ نووي): كتاب صلاة المسافرين، باب: فضل قراءة القرآن ، حديث (٨٠٤) وأحمد (٥/ ٢٤٩، ٢٥٧، ٢٥٤) وصحّحه ابن حبان (١/ ٣٢٢)، حديث (١١٦)، والحاكم في مستدركه (١/ ٥٦٤): كتاب فضائل القرآن، والدارمي (٢/ ٤٣٢): كتاب فضائل القرآن: والبيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٣٩٥، ٣٩٦): كتاب الصلاة: باب المعاهد على قراءة القرآن وعبد الرزاق (٣/ ٣٦٥، ٣٦٦)، حديث (٥٩٩١)، والطبراني في الكبير (٨/ ١٣٨)، حديث (٧٥٤٢). وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (١/ ١٧٣)، حديث (١٨٢). وعزاه للثعلبي والبغوي من حديث بريدة أيضًا.



# فهرس المحتويات

# فهرس المحتويات

# THE EXEGESIS OF THE HOLY QUR'AN

by

Al-qāḍi Abu al-Suᶜūd al-ᶜImādi

Edited by

Ḫālid Abdul-Ġani Maḥfūẓ

Volume I





أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban